الرواية

في الوطن العربي

نماذج مختاره

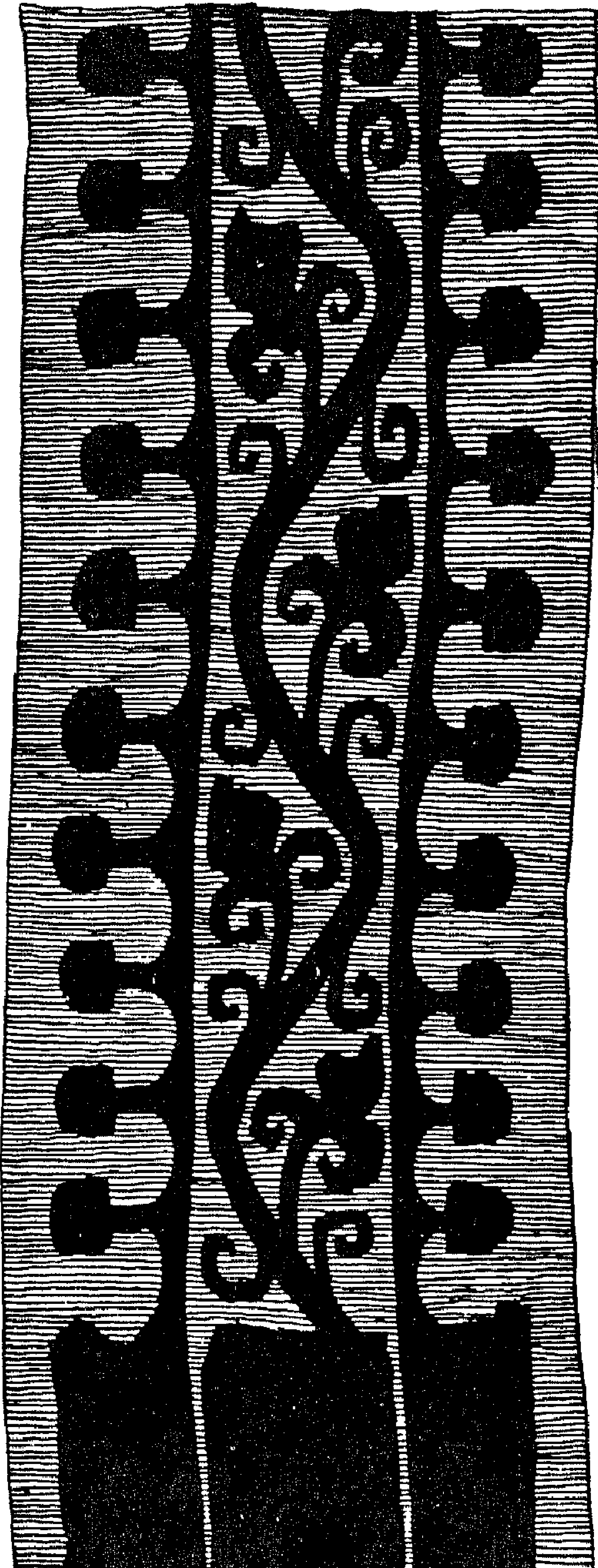




الدكتور علي الراعي

الرواية

في الوطن العربي





الرواية في الوطن العربي ، نماذج مختارة
د . علي الراعي

الطبعة الأولى ، ١٩٩١

تصميم الغلاف : بهجت عثمان
التصميم الداخلي : يوسف شاكر

الناشر :
دار المستقبل العربي
٤١ شارع بيروت / مصر الجديدة / القاهرة
ج . م . ع . / ٢٩٠٤٧٢٧

الصقر العربي للإبداع
قبرص ، ليماسول
69 Gladstono st., Akropolis Center,
Office 402, Limassol (Cyprus)
ج . م . ع . ، القاهرة
٢ شارع شريف / عمارة اللواء / ت : ٣٩٣٤٠٧٤
إنجلترا ، لندن
101 Kliburrn Square, London N.W.6

وكلاء التوزيع بالجماهيرية الليبية :
الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والاعلان
شارع سناء محيدلي / مصراته / ليبيا

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ٥٦٨٧ - ١٩٩١
الترقيم الدولي : ١ - ٢٢ - ٠٢٣٩ - ٩٧٧ ISBN

د. على الراعي

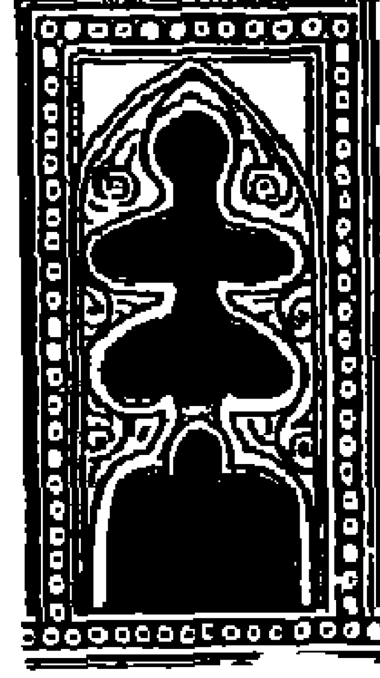
الرواية
في الوطن العربي



الصقر العربي للإبداع



دار المستقبل العربي



الإهداء إلى

نجيب محفوظ

الذي فتح الآبواب
أمام الرواية العربية ...
له الحب والتقدير
لقاء ماأمتعنا وأغنى حياتنا ...

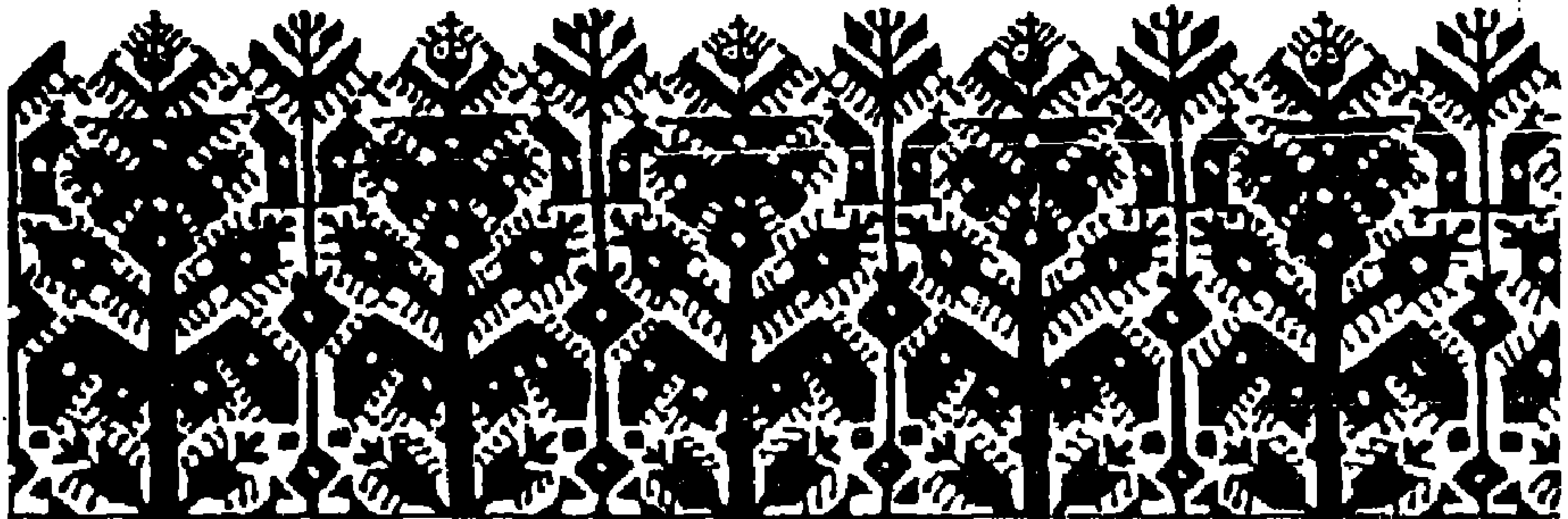


على الراعى



شكر وتقدير

أتقدم بالشكر الجزيل لكل من عاونني في المهمة
الصعبة : مهمة الحصول على النصوص ، خاصة
تلك التي يقل ورودها إلينا
في القاهرة ، وعلى رأسها أعمال الروائيين في المغرب العربي الكبير .
وأخص بالذكر الزملاء : عبده جبير ، الذي أمدني بأعمال هامة
من المغرب والجزائر ، وفاروق عبد القادر الذي فتح أمامي مكتبته
الخاصة بالمشرق العربي ، والفنان بهجت عثمان الذي قدم لي أعمالا روائية
لم تكن متاحة في القاهرة وقت الانشغال
بهذه الدراسة . وأعرب عن تقديري الكبير لكل من الروائيين :
مبارك ربيع (المغرب) وعبد الرحمن الربيعي (العراق) اللذين أرسلا
إليَّ مجموعة كاملة من رواياتهما . وأحيي
الكاتبين السوريين : خيري الذهبي ونبيل سليمان ، اللذين
أتاحا لي فرصة الاطلاع على بعض ما أخرجا في حقل الرواية .
وأزجي الشكر أيضا للصديق سعد الله ونوس ، الذي اهتم
بمشروع هذا الكتاب ، وحفز من استطاع من الكتاب
السوريين الى أمدادي بأعمالهم .
ولا أنسى مطلقا هدية الصديق
الدكتور محمد أمين العيوطي ـ أحد أبرز المهتمين
بالرواية العربية والعالمية ـ الذي وفر لي الروايتين اليمنيتين
اللتين تناولتهما في الكتاب ولولاه ما استطعت الحديث
عن الإبداع في هذا الجزء العزيز
من الوطن العربي .





المجد للرواية العربية



د . على الراعي

تتسع رقعة الهموم أمام الروائى العربى . تتكاثر هذه الهموم وتندلق على طول الساحة وعرضها ، من المحيط إلى الخليج . ويبرز بين هذه الهموم ، ويتصدرها موضوع القهر . القهر بكل أشكاله : القهر الاجتماعى والقهر الاقتصادى ، والقهر السياسى .

نغمة واحدة متنامية متصاعدة تصل الى سمع من يقوم بهذه الرحلة التى قمت بها على الورق فى نماذج دالة من الابداع الروائى العربى ، وكنت قمت بالرحلة ذاتها على أرض الواقع ، وقطعت مااستطعت قطعه من هذه الأرض الممتدة .

الانسان العربى مقهور ، مضيق عليه فى الرزق والرأى والمسكن . تقهره الأنظمة جميعا ، وتستعبده الاعراف البالية ، وتسكن روحه وتعشش فيها أشباح أناس واصداء أقوال عاشت وصدرت فى الماضى السحيق ولاتزال تجد طريقها الى عصرنا ، وكان حقها ان تبيد من زمان طويل .

ولأن الفرد العربى مقهور ، فهو يسعى إلى أن يقهر غيره ممن يستطيع غضبه أن يصل اليه . ومن ثم ، يضيِّق الرجل العربى الخناق على المرأة العربية ، ويلزمها موقفا اكثر تخلفا من موقفه هو ، بدعاوى كثيرة : الشرائع ، الاعراف ، ضرورة صون الشرف من عار يلحقه ان زلت المرأة ، ولايلحقه أبداً ان زل الرجل .. ؟

حين تريد ليلى فى رواية لطيفة الزيات : « **الباب المفتوح** » ان تشترك فى المظاهرات الوطنية ضد المحتلين الانجليز ، ينكر ابوها عليها ذلك . يخلع حذاءها ويضربها بالشبشب مرات متتالية . فتقول لأخيها من بعد : أنها تحس أنها لم تعد انسانه . اصبحت ممسحة . ممسحة جزم . العدوان البدنى نفسه تلقاه أمينة فى رواية رضوى عاشور : « **حجر دافىء** » . ما ان يسمع الأب ان ابنته اشتركت فى اعتصام الطلبة وأمضت الليل فى قاعة بالجامعة حتى يثور ، ويصم

البنت بأنها فى طريقها للفجور . ثم ينفجر الرجل ويهم بالقاء نفسه على اختها مديحة ، التى دافعت عن أمينة بوصف عملها نضالا من أجل مستقبل البلد ؛ ينقض الرجل على مديحة يريد أن يضربها .

بين الروايتين اكثر من عقدين من الزمان ، ومع ذلك لايزال الموقف كما هو : المرأة عنصر / هامشى فيما يخص الأحداث الكبرى . عليها فقط أن تتفرج ـــ ان شاءت ـــ وليس لها ان تتحدث أو تعلق والأفضل لها الا تتفرج والا تعلق والا تتحدث . وتمر سنوات أخرى ، فنجد دور الفتاة المصرية المناضلة لايزال موضع تقريع شديد . فى رواية محمود الوردانى : « **نوبة رجوع** » لبست عايدة ملابسها وقالت لأبيها انها ذاهبة للاشتراك فى اعتصام الطلبة . لم يرد عليها الأب ، ثم فوجئت عايدة به ينهال ضربا على وجهها بيديه الاثنتين . شعرت عايدة ان شيئا ما كان يربط بينها وبين ابيها قد انكسر .

على ان هذا القهر انما هو شىء هيِّن نسبيا ، اذا ما هو قيس بما يحدث لمريم فى رواية غسان كنفانى : « **ماتبقى لكم** » . خمسة وثلاثون عاما ومريم تنتظر الرجل ، حتى ضجت الأنثى داخلها . اخوها حامد لايدرك من مأساتها شيئا . لاينتبه الى هذه المأساة الا حين تحمل مريم من وغد استغل ضعفها ومن ثم أصبح من واجب حامد أن يوافق على زواج اخته من الوغد درءًا للفضيحة ، وحَمَل من بعد على مريم ، وجللها بالعار ، وود لو يستطيع ذبحها .

اما الزوج الوغد ، فقد جن جنونه حين علم ان مريم حامل . كان متزوجا من أخرى وله منها خمسة أولاد . وكان يهدف ان يجعل من مريم مجرد متاع له . ولما أصرت مريم ان تحتفظ بالجنين هتف بها صائحا : هل حسبت أنى تزوجتك لتنجبى لى ولدا ، ايتها العاهرة ؟ ان لم تستطيعى اسقاطه ، فأنت طالق . طالق . طالق .

بين فكّى الكماشة تقع مريم . اخوها يطالبها بالعفة ، ويقف حارسا على شرفها ، وزوجها يضج حين يؤدى تمتعه بها الى النتيجة المألوفة . اذ ذاك تقع مريم بين حد السكين وحد الطلاق الناجز الباتر .

المرأة هنا ضحية الأعراف الخاطئة . سجينة العفة المفروضة . أسيرة الجسد المستباح . على ان فى الرواية العربية نساء رفضن هذا الوضع الذليل رفضا باتا وحاسما . رفيف فى ثنائية الكاتبة الفلسطينية « سحر خليفة » : « **الصبار وعباد الشمس** » ترفض العرض التجريدى الانانى الذى يقدمه لها حبيبها عادل . يريد عادل ان تنكر رفيف خصوصيتها وان تنصهر فى احداث التاريخ كمجرد رقم . يقول لها انه يحتاجها هى ولكنه أيضا يحتاج غيرها . فترفض رفيف رفضا قاطعا وتهتف بالصوت العالى : « انا نصف الشعب . أنا المرأة . أنا النموذج

الذى يمارس عليه عادل تطبيق النظرية . عاجز هو عن رؤية واقع المرأة .. ماذا يقدمه للمرأة ؛ ما حل بالمرأة الجزائرية بعد الاستقلال ؟ ناضلت وحملت السلاح وتعذبت فى سجون فرنسا ثم اعادوها الى قاعدة الحريم وغطاء الرأس ، وخرجوا هم الى النور . يشتهينى عادل ويطالبنى بشيء آخر . يطالبنى بالذكاء والثقافة والعمل المستمر . ويطالبنى بأن اكون رجلا وأن أكون امرأة وأن اكون حمارة : ان أرى ماأرى وأظل حمارة تنزل علّى العصى ولا أترنح . يطالبنى بأن اكون وقودا للثورة البردانة . ووقودا لبروده هو . ترى رفيف ان تحرير الشعب لايتم الا بتحرير المرأة .

وفى رواية الكاتب الجزائرى رشيد بوجدره : « **التفكّك** » ، تثور امرأة أخرى على الوضع المتدنى . ثورة عارمة ، كاسحة ، تزيح فى طريقها الاعراف كلها ، وتحطم المواضعات وتتحدى الوضع البيولوجى للمرأة ذاته . تمثل « سالمه » المرأة العربية وقد تحررت من اغلال القرون ، فاستهوتها الحرية الجديدة وحارت ماذا تفعل بها . رفضت الزواج . رفضت الانجاب . قالت انها تكره الأمومة . لن يقطر ثدياها الحليب من أجل طفل ، اعلنت أن قدرها أن تحارب ، لا الرجال وحسب ، وانما النساء أيضا ، ضد رواسب كريهة ضربت جذورها فى الأرض ، وتوغلت فى المجتمع . قالت انها لاتكره الرجال ، وانما هى حاقدة على التاريخ وحسب .

وفى رواية الكاتب السورى حيدر حيدر : « **وليمة لأعشاب البحر** » امرأة متحدية من نوع آخر تماما اسمها : « فلة بوعناب » . كانت فلة مقاتلة أمازونية ، حملت السلاح وقاتلت الفرنسيين فى جبال الجزائر . وانتهت الثورة الوطنية ، وتحولت جبهة التحرير إلى حزب مخلوط : يمين ويسار . عسكر وتجار . اقطاع وفلاحون ومثقفون . العرب والبربر . العسكر والمدنيون . التعريب والفرنسة . الاشتراكية والبورجوازية . الإفريقية والعروبة . أصبح الثوار فى مواقع السلطة والمسئولية . أما النساء اللاتى قاتلن فى الجبال والمدن فقد تحولن إلى الخدمات المنزلية . نُسيت جميلة بوعزة . وتزوجت جميلة بوحيرد من محاميها وهاجرت معه . « فُلّة » وآلاف النساء صرن أقرب الى المومسات أو الزوجات الصامتات المطيعات للرجال . ثورة المليون شهيد اغتالها العسكر والتجار . اخذ هؤلاء من فلة الوطن واعطوها البنسيون . اخذوا يفكرون ويخططون نيابة عنها وتركوا لها مهمة التعامل مع الرجال .

والرجال مقهورون أيضا فى الرواية العربية . فى رواية الكاتب السعودى : « **شرق المتوسط** » ، يقول رجب المناضل الذى زجت به السلطات الى غياهب السجون : « فى شرق المتوسط ينتزعون من البشر كل شيء : الدموع . الرغبة . وحتى الذكريات . اما الأفكار التى تعبر رؤوسهم فى الليل فهم يحيلونها كلمات واسماء يستودعونها تقارير الملاحقة . وفى مقابل هذه « الخدمة » يمنحون الانسان الضرب والألم وحنينا موجعا للنهاية والموت » . ومن شدة

الاضطهاد والتعذيب ينكسر جسد رجب ، وتنكسر معه روحه ، فيخرج من السجن بعد توقيع وثيقة التوبة ، وهو جسد ميت على قيد الحياة . لاجرم ان دفعته كراهيته الى التنديد ، لا بالأنظمة السياسية وحدها ، ولا بالسجون والزبانية وحسب ، بل بالانسان من حيث هو انسان ، يراه حيوانا طويل القامة ، له اذرع قريبة الشبه بأذرع الشمبانزى ، ويرسم له فى خياله صورة كريهة حقا ، ويقول : ان هذا الحيوان سينقرض قريبا ، وستحتفل الحياة بانقراضه لأن فى اختفائه بداية السعادة الحقيقية على الأرض .

ويفتك القهر السياسى بالمناضلين بأكثر من طريقة . فشل الثورات الاشتراكية يدفع الأصدقاء والرفاق والمنافقين والمتعلقين بعربة الثورة ، الى القفز منها طلبا للنجاة . هكذا هرب كريم الناصرى فى رواية الكاتب العراقى عبد الرحمن الربيعى : « **الوشم** » ، من الثورة ، ومن مبادئها ، ووقع وثيقة التخلى غير آسف ، وانتهى به الأمر الى أن يتخلى عمن عرف من النساء ، التى بذلت له نفسها والتى انتظرت ان يتقدم ليترجم حبه المزعوم لها إلى واقع ثابت . وبالمثل تخلت منى المصرى عن عبد الخالق فى رواية الكاتب المصرى علاء الديب : « **زهر الليمون** » . قالت له وهى تتأمل حاله بعد الخروج من المعتقل ، وبعد ان ذابت أجنحة الحلم الملون التى ظللتهما فترة من الوقت : « لا أريد ان أراك هكذا : فأرا فى مصيدة . سأنسحب من حياتك فى هدوء » . تركته مهاجرة إلى كندا . قالت انها تريد بيتا وأولادا . ولامعنى لأن تقف على كتفه أو يقف هو على كتفها ، كلاهما يغوص . وفعلت الشىء ذاته لواحظ فى رواية الكاتب المصرى جميل عطية ابراهيم : « **النزول إلى البحر** » قالت لواحظ مخاطبة صديقها سيد ، المناضل الذى تخلت عنه بعد هزيمة ٦٧ : « ياسيد يا حبيبى : أنا لواحظ ولست كتاب تاريخ . ثم اكملت : من لحم ودم » . طلبت منه ان ينسى الماضى ويكف عن عقد محاكمات وهمية خارج اطار التاريخ . أضافت : العمر له نهاية . الشباب له نهاية . الصحة لها نهاية .

وتتعقد العلاقة بين مهدى جواد وحبيبته آسيا ، فى رواية : « **وليمة لاعشاب البحر** » فرّ مهدى من العراق الى الجزائر ، وهو يحمل فى روحه الهزيمة والضياع ، والتردد المرير بين الحياة والموت . أخذ يسأل نفسه : لماذا فشلت الثورة ؟ اين يكمن العطب ؟ ولم يجد جوابا على السؤالين . وحين تعرف الى الشابة الجزائرية آسيا ، ظن انها ستكون سنده وجداره ، ولكنه وجدها تحلم ببيت مؤثث ، بعيد عن الأعاصير . كان يتطلع الى أن تصبح امرأة العصور القادمة . وجدها امرأتين لا واحدة . احداهما حرة والأخرى عبدة . قالت له ان القوى المناهضة للمرأة عاتيه ، لاتتردد فى اطلاق النار . واضافت : انت رجل هالك ودمك مباح . ستطوينى كما يطوى الغجرى الراحل خيمته .

ويوجه الروائى العربى اهتماما خاصا لموضوع المواجهة بين الأخلاق التقليدية والأخلاق المتحدية ، ثورية كانت أم مجرد عاصية . فى رواية : « **الشمس فى يوم غائم** » للكاتب السورى : حنامينه تقوم المومس سيدة القبو بفضح الاخلاقيات الزائفة التى يختفى وراءها نفاق الطبقات المالكة والمترفة . تطرق باب القصر الكبير الذى يعيش فيه الفتى سليل المجد ، الذى تعرفت عليه ومال هو اليها . جاءت تعوده فى مرضه ، فكان لظهورها فى هذه البيئة « الشريفة » وقع انفجار قنبلة . لم تأبه سيدة القبو بشعور الاستهجان والمعرة الذى اثارته فى نفوس « الشرفاء » ، وقالت انها جاءت لترى الفتى ولترد إلى خطيب اخته شيئا نسيه عندها : سرواله ! ان الخطيب المحترم يزور المرأة فى السر ، ويخرج يتمشدق فى العلن بآرائه فى الشرف والاحترام .

غير ان السيدة ليست مجرد حاقدة على المترفين المنافقين . انها أيضا ثورية ، تنتظر اليوم الذى تقوم فيه الثورة لتضرب المترفين الذين كانوا يضربون الناس . ستضربهم هى ، فان تأخرت الثورة وماتت ، فسيضربهم مَن يأتون بعدها .

وفى رواية : « **نجمة فى التراب** » للكاتب العراقى غازى العبادى بائعة هوى أخرى ، انزلقت إلى مهنتها من فرط الفقر . امتهنت نجمة بيع جسدها ، بعد أن تخلى عنها ماهود ، أحد المتشدقين بالحرية والثورة ، وتركها تسقط فى قبضة القوادة أم سابو . فحين يعرض عليها صديقه نصار ان تترك البيت وتعود معه الى البصرة ، تنفجر فيه رافضة ، ثائرة ، وتقول : أنت أيضا تريد أن تحدثنى عن النظافة ايها الوسخ ! كان ماهود قد تقدم بالعرض ذاته وقوبل بالاحتقار التام . نجمة تعرف ان الذين يريدون انقاذها من الوساخة هم انفسهم وسخون . وهم وسخون لأن المجتمع الذى يتحركون فيه وسخ من الأساس .

وفى « **الرجع البعيد** » للكاتب العراقى : فؤاد التكرلى ، يعتدى فؤاد على ابنة عمه منيرة ويغتصبها ثم يولى هاربا ، ويتركها تواجه العار وحدها . فحين تتزوج من مدحت ، يقوم الموقف التقليدى : الزوج المسحوق تحت وطأة العار ، يسعى الى ان يسكبه كله على المرأة ، دون نظر أو اعتبار . من أجل هذا تثور منيرة ثورة عارمة ، حين يتركها مدحت ، ويمضى فيتقدم الى طلبها اخوه عبد الكريم : تهتف منيرة : « اعرف الآن حقيقتكم : جبناء . لاتعرفون من يحتاج مساعدة ومن المخلص ومن سيء الحظ . جبناء وأغبياء . لاتريدون ان تعرفوا من المجرم ومن البرىء . تقول لى انك عاجز ! تظننى لا أعرف ؟ انت لست عاجزا . انت مثلى ومثل كل الناس هنا : انسان مشوه ، مريض » من أجل هذا تتمسك منيرة بموقفها كامرأة ، وترفض دعاوى المعتدين ضدها ، ولاتظن ابدا انها قد قُطعت بها السبل ، وتقول لأمها : مازالت سبل

العيش الكريم موفورة لى ولك .

والى جوار البكاء على الثورات المهيضة ، أو المتبددة ، والذى نجده فى : « **التفكك** » وفى : « **وليمة لأعشاب البحر** » وفى « **زهر الليمون** » ، يقوم نوع من الأعمال تتحدث عن الثورات المكبوته ، المضغوطه ، التى يضطرها القهر والملاحقة إلى التخفى فى اشكال غير واقعية من الرؤيا ، والاحلام ، والرمز ، والتعبير العبثى . نجد أمثلة واضحة على هذا النوع من الروايات المكممة فى « **وردة للوقت المغربى** » للكاتب المغربى أحد المدينى ، و« **اغنية الف صاد الأولى** » للكاتب البحرينى : امين صالح « **وبرارى الحمى** » للكاتب الأردنى : ابراهيم نصر الله . الكاتب فى هذه الأعمال يسعى الى تطمين نفسه وشعبه بأن الثورات وان فشلت مرة ومرات فهى منتصرة لاريب فى يوم يقرب أو يبعد . وهو يوجه إلى قارئه هذه الرسالة عبر أشكال غير تقليدية من التعبير ، تسمح — فى وقت واحد — بالسخرية والتندر ، وتعين على النجاة بالرسالة من وطأة أحذية العسس وبنادقهم واذاعاتهم ومشايخهم الموظفين فى خدمة السادة .

ويطرق الروائى السورى : حليم بركات موضوعا هاما هو موضوع الساعة وكل الساعات : موضوع المواجهة بين الشرق والغرب . يكون الراوى وسط ثراء امريكا الفاحش ، وتمتعها بأطايب الطعام والكساء والمسكن فيذكر جوع افريقيا . يتبين زيف الحضارة الغربية فى امريكا ، اذ تصنف العالم الى برابرة ومتحضرين . ديموقراطية « الافتراس المتخفى » هذه تسمى الابطال المحررين ارهابيين . لايستطيع الراوى أبدا أن ينسى القضايا والهموم الكبرى . يسأل نفسه : ما اكثر القتل ! ما اكثر الأقنعة ! مااحوجنا للقتال . لماذا انا فى واشنطون ؟ لماذا لم اكن فيك يابيروت وقت حصارك ؟ لماذا لم أقاوم الدبابات الاسرائيلية وهى تسحق الأزهار البرية فى الجنوب ؟

ويقوم بين الراوى وزوجته نقاش بالغ الدلالة. تقول الزوجة ان الامريكيين جاءوا الى العالم الجديد وبنوا مجتمعا غير مثقل بالتراث والمؤسسات ، خاصة تراث ايام الجهل والفقر والاضطهاد . حاولوا ان يكونوا انقياء ، وان كان مافعلوه بالهنود الحمر ثم بالسود عاراً تاريخيا . يرد الزوج : وفى هذه الأيام يكملون التمدد الأوروبى لقهر العالم والسيطرة عليه . لقد قتلوا الهنود مرتين : مرة برصاص بنادقهم ومرة يرسم صورة سلبية لهم كى يسوغوا القتل . الضحية جعلوه قاتلا معتديا ، ورسموا القاتل المعتدى رياديا طموحا بريئا ، متقدماً ، متدينا . وفى هذه الأيام يقتلون العالم الثالث مرتين كل برهة . علاقتهم بأرضهم وبالهنود والسود والعالم الثالث وحتى الفضاء علاقة قهر وسيطرة ومطاردة وحصار واستغلال . نحن الآن فى أوج هذه المرحلة . مافعلوه بالهنود والسود يفعلونه بالعالم الثالث .

ويندرج تحت موضوع المواجهة مع الغرب موضوع صدام الثقافات بين الشرق والغرب . تمثل رواية « **أصوات** » للكاتب المصرى سليمان فياض هذا الصدام وقد اتخذ طريقا معاكسا للطريق الذى الفناه : فى « **قنديل أم هاشم** » ، أو « **يوميات نائب** » . الشرق هنا هو الذى يسعى الى الصدام مع الغرب ، ويحاول فرض آرائه واعرافه وعاداته ومفهوماته على امرأة فرنسية شابة جاءت تزور مع زوجها المصرى ، قرية الزوج التى غاب عنها طويلا فى فرنسا . الصدام مروع ، ومأسوى ، لاتتم فيه مصالحة أو مهادنة ، وانما ينتج عنه شعور بالأسى والمعرة .

ويعالج الروائى الليبى : أحمد ابراهيم الفقيه ، موضوع الصدام من زاوية أخرى . بطله يحمل الشرق والغرب فى جَنبِيه . أثَرُ الغرب عليه سطحى وَرَقّى ، بينما اثر الشرق دفين بعيد الغور . يقوم بين الرجلين صراع ممتد ، يختفى ويظهر ، ولكنه فى النهاية يطفو الى السطح ، فينطلق البدائى والوحشي يعصف ، ويخرب ويدمر ، ويجر الشقاء على الراوى وعلى خطيبته وينتهى الصراع بأن ينضم الراوى الى الجانب المظلم من المجتمع ، بعد أن حاول التغلب على الفساد المحيط ، وعلى خراب نفسه هو فباء بخسران كبير .

وقضية العرب الكبرى : التصدى لقوات العدوان الغربى والصهيونى المسنود من الغرب ، تشمل حيزاً كبيراً من الجهد الروائى العربى . كثيرة هى الروايات التى عالجت مأساة حرب المليشيات والطوائف فى لبنان ، ومعارك المقاومة الفلسطينية فى الأرض المحتلة وخارجها . وفى أعمال مثل : « **طواحين بيروت** » ليوسف عواد ، و« **غاندى الصغير** » للكاتب الياس خورى و « **حجرُ الضَحِك** » للكاتبة الجديدة : هدى بركات ، يصور الروائى العربى مأساة التعصب والتشرذم ، وفقدان الهدف وضياع الانسانية ، وبيع الشاب نفسه وروحه فى مقابل ليرات يتسلمها ليقضى بها حاجاته وحاجات أهله . ويوضح الكُتّاب ان القتل فى بيروت ولبنان عامة قد تحول الى مهنة وتجارة وصناعة ، وأن اختلاط الأوراق قد سهل على خصوم العرب الفوز بأراضيهم وتثبيت اقدامهم فيها ، بل دفع عديمى الضمائر من الزعامات العربية والتجار العرب إلى التعامل مع اسرائيل دون خجل أو تردد .

وتبدى ثلاث من الروايات الفلسطينية التى تتأملها هذه الدراسة وهى : « **نشيدُ الحياة** » ليحيى يخلف ، و « **العُشّاق** » لرشاد ابوشادر و« **بوصلة من أجل عباد الشمس** » للكاتبة ليانه بدر سمة واحدة بعينها وهى الموازنة العطوف بين واقع النضال من اجل فلسطين ، وواقع الأفراد ومشكلاتهم اليومية ، من اقتصادية واجتماعية وعاطفية . « **نشيد الحياة** » هى فعلا نشيد من أجل الحياة ، يبدو فيها افراد الشعب الفلسطينى المنكوب بالاستعمار الاستيطانى الصهيونى وهم متعلقون اشد التعلق بأرضهم وارزاقهم معا ، يناضلون

بالمدفع ويزرعون ويحصدون من أجل أنفسهم ومن أجل الغير . وتظهر الرواية شعب فلسطين متحابا متماسكا ، متعاونا على البأساء عابدا للحياة ، مقدرا لما فيها من متع وان كانت بسيطة .

وتنحو « **العشاق** » منحى مماثلا ، توازن بين الأحلام والآلام ، وتَوَقُّد الناس لخوض المعركة مع الغاصبين ، دون اهمال لشأن الحب بين العشاق وبين الأصدقاء وبين الابناء والأمهات . ورغم ضراوة المعركة ، تسرى روح الفكاهة بين المناضلين ممن رزقوا روح المرح ، فنستمتع معهم ببعض مشاهد الكوميديا ، كما ننعم بلحظات من الحوار الطيب الحنون بين العشاق والمحبين عامة .

وتظهر ليانه بدر لنا صورة متوازنة للشعب الفلسطينى تبدو فيها مظاهر السلب والايجاب ولاتغفل نقد المواقف الخاطئة حتى حين يمكن التعاطف معها مثل خطف الطائرات . رجال الرواية ونساؤها تهفو قلوبهم الى الحب والدفء ولكنهم ، جميعا ، يعرفون ان لا مفر من ترك هذا « الترف » إلى وقت سعيد تالٍ .

أما رائعة اميل حبيبى : « **المُتشّائل** » فهى تمزج السخر والهذر والجد ، وتقدم لنا عملا فاتناً سميته ذات يوم : « اضحوكة تقطر دمعا ودما » من خلال الشخصية المتميزة : شخصية سعيد ابو النحس المتشائل ، يعرى اميل حبيبى الأوهام والأخطاء عند بعض الفلسطينيين ، كما يمجد صلابة المناضلين ، ويكشف قسوة ووحشية الصهاينة وخيانة من يتعاملون معهم من الفلسطينيين العملاء . والرواية ــ بفضل عمق الحس والموهبة الروائية والخلفية الذاتية الكبيرة لاميل حبيبى ــ تعبر عن موضوعها تمام التعبير ، ثم لا تلبث ان تسمو عليه لتصبح رواية باقية ، لايرتهن مصيرها فى البقاء ببقاء الموضوع الذى تتعرض له .

اما رواية غسان كنفانى : « **مائبقّى لكم** » فهى ــ الى جانب كونها رواية سياسية ــ رواية اجتماعية شديدة النفاذ . الهم العام فيها لا يحجب أبداً هموم الأفراد ، وإنما يحفزهم إلى التخلص من همومهم ، ويصبها فى الهم الأكبر .

وتقدم الرواية تقنية شاعرية ، متعمقة حد التصوف فى النظر الى الأفراد والأشياء . طول الرواية تمتزج دقات الساعة بدقات خطوات حامد على لحم الصحراء ، بدقات الجنين فى بطن مريم . الساعة تمثل الزمن وتمثل حالة الموت الذى انتهت اليه الأمور . اما الصحراء فتنقلب من مفازة مرعبة لتصبح ــ على وقع خطوات حامد ــ عذراء ترتعش وتبسط جسدها أمامها فى انتظار الاخصاب .

وتحفر هزيمة يونيو مجرى عميقا مريرا فى الوجدان العربى . نجد تعبيرا بالغ الشجن عنه فى رواية : « **النزول إلى البحر** » لجميل عطية ابراهيم ، ونلقى اكمل واعمق تعامل مع هذا

المجرى فى الرواية الفذة : « **انت منذ اليوم** » للكاتب الأردنى تيسير سبول . حيث يتقطع الكاتب اربا فى روايته الدامغة هذه . ومن ثم يقول : عندما وقعت الهزيمة ، شعر « عربى » ، شخصية الرواية البارزة ، ان شيئا ما فى الليل كان يقربه من الليلة الأخيرة للبشرية . حاول ان يفهم معنى الهزيمة فلم يفهم . قال لنفسه قرب نهاية الرواية : هل نحن شعب أم حشية قش يتدرب عليها هواة الملاكمة منذ هولاكو حتى ديان ؟

غير ان الحقيقة تضىء بنورها نفس « عربى » المظلمة ، فى آخر الرواية . رأى شعبه يسقط باسطا يديه على الرمل الحار ، فأحبه حبا عذبا ، لايفوقه الا القسوة المرة التى أبداها تجاه نفسه وشعبه خلال شهور طويلة من الظلمة . تبين ان هذا الشعب المقهور هو الذى وضعت الاقدار على عاتقه ان يُبْقى نور العصور المضيئة ساطعا . أحس ان الشعب منذ اليوم ، قد أضاء امامه الطريق . رأى عربى ان القائد الأعور المنتصر ليس الا جسما أجوف . مهزوم وهو لايدرى . أما الذى هزم فعلا فقد انفتحت امامه طاقة النور .

والى جانب هذا ، تقدم الدراسة الحالية فرصة ثمينة للتعرف على قضايا التحرر العربى فى بلد ظل حتى الآن بعيدا عن دائرة الاهتمام ، وهو اليمن . والروايتان المقدمتان هنا تصوران التخلف البشع ، والفقر الأسود والقهر الوحشى الذى تعرض لها جميعا شعب مجاهد ، ذو تاريخ ضارب فى القدم ، ورغبة متأصلة فى التحرر من طاغوت حكم الامامة الجائر ، الذى رعى الفساد ونَمّاه حتى أصبح مؤسسة فى حد ذاته . من أجل هذا يقول الراوية فى : « الرهينة » للكاتب اليمنى زيد مطيع دمّاج : « فى سجل تاريخ شعبنا اليمانى انه قادر على تنفيذ كل رغبة تجتاح مشاعره ، وهو ينفذها بالفعل ولو بطريقة عشوائية . ربما يقال ان هذه ليست ميزة . ولكننى أؤكد انها ميزة ، فباستطاعته انهاء الظالم ولو بصبر الجمال » .

وقد شهدت الأحداث التى توالت ،منذ سقوط حكم الامامة ، كم ان هذه مقولة صادقة حقا !

وفى رواية « **نجمة اغسطس** » للكاتب المصرى صنع الله ابراهيم ، ورواية : « **النيلُ : الطعمُ والرائحةُ** » للكاتب الكويتى : اسماعيل فهد اسماعيل يتعرض الكاتبان الى موضوع فائق الاهمية بالنسبة لوطننا العربى . موضوع عبادة الفرد وانعكاسات هذه العبادة سلبيا على الثورات الوطنية التحريرية (نجمة اغسطس) وموضوع شكل العمل الثورى المطلوب : هل يقوم على أساس الفعل الجماعى المنظم ، أم على اساس الفعل المفرد : الاغتيال مثلا ؟ (النيل : الطعم والرائحة) . يرسم صنع الله ابراهيم صورة فنية اخاذة ومركبة تتداخل فيها اصداء الماضى ووقائع الحاضر لتشكل تعليقا فنيا نافذا على طبيعة الفرد المستبد ، حتى وان كان وطنيا وثوريا

وعادلا . يمزج صنع الله بين ضحايا استبداد ستالين ، وضحايا انفراد عبد الناصر بالرأى ، وتوضح الصورة فداحة المأساة التى تنبع من هذا الاستبداد . أخلص المناصرين للزعيمين ، واكثرهم تأييدا للثورة الاشتراكية يزج بهم فى السجون والمعتقلات ، ليموت منهم من يموت ويخرج من يخرج وقد علاه الوهن وصفرة العدم . مكاسب الثورة يسرقها اعداؤها ، ويموت دونها انصار الثورة الاشداء . والد المواطنة السوفيتية « تانيا » يموت فى السجن ، رغم انه من أشد انصار الاشتراكية تحمسا ، وشهدى عطية يخر صريعا فى سجون ثورة مصر ، وكل ذنبه أنه ظن ان تعلقه الواضح بالثورة كفيل بأن يزد عنه أذى اعدائها . واستبداد فرعون مصر القديم « رمسيس الثانى » بالرأى والحكم يجعل منه اسطورة واكذوبة ، ويسهل أمام اعدائه سبل الفتك بجيشه . كل هم رمسيس الثانى ان يَجَمِّله فنانوه ، ويبرزوا اسطورته بالنحت واللون والرسم ، حتى ولو قضوا عشرات السنين وهم يقومون بهذا العمل الخالى من المعنى ، العاطل عن خدمة الوطن .

من أجل هذا ينأى الراوى بنفسه عن العمل السياسى ، وينهج نهج النحات مايكل انجلو الذى أدرك من البداية ان العمل الفنى وحده هو قمة الحرية . هو الوحيد الذى يبقى بعد أن يذهب الطغاة والمستبدون ورجال الدين وباقى خدم النظام : أى نظام .

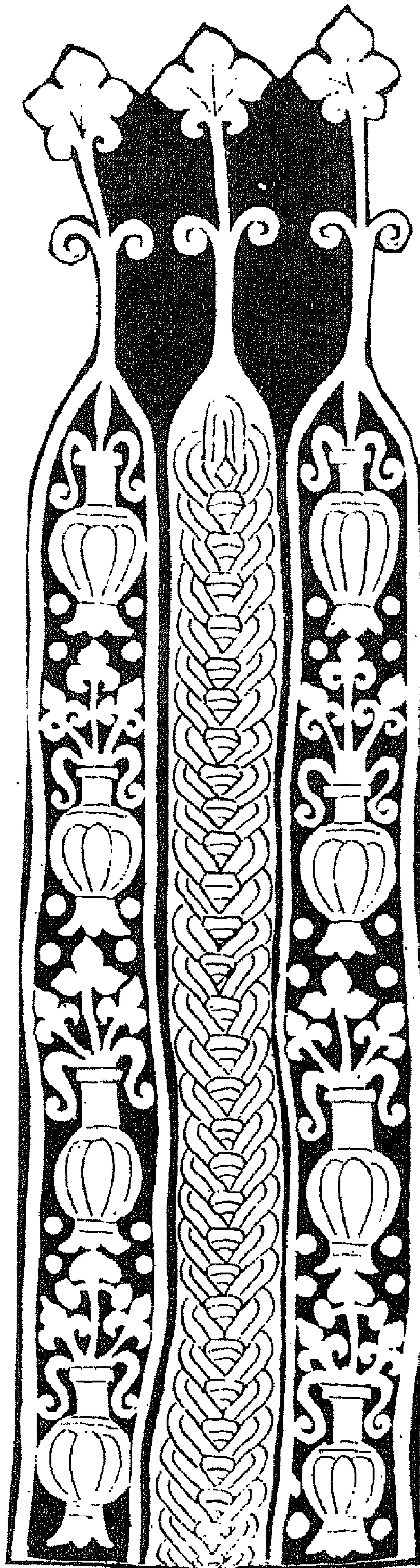
اما اسماعيل فهد اسماعيل فهو يجعل بطل روايته : « **النيل : الطعم والرائحة** » يناقش موضوع الاغتيال السياسى بوصفه اقصر الطرق للتخلص من الطغاة . عبثا تحاول صديقته « اقبال » ان ترده عن هذا الضلال ، فهو يصر على ان يغتال أحد كبار المستفيدين من ثورة عبد الناصر : رجل تقلب بين الولاء للملك فاروق وبين انتماء مزعوم للاتحاد الاشتراكى والفكر الثورى المصرى . صاحب فكرة الاغتيال فلسطينى من غزة اسمه : سليمان الحلبى ، وهو لهذا يحذو حذو سميه الوطنى العربى الكبير الذى رأى فى اغتيال كليبير إشهاراً لحرب مقدسه ضد اعداء الأمة العربية . بينما تدفع اقبال بأن فردا ما لايستطيع سحق رأس الأفعى . هذا عمل ينبغى ان تقوم به المقاومة الوطنية المنظمة . ويمضى سليمان الى خصمه فيقتله بالفعل ، فيكون من نصيبه ان يساق الى السجن . لم يحقق هدفا عاما ، وانما ضحى بنفسه سعيا وراء وهم تملكه ودفعه فى طريق خلاء .

إلى جوار التصدى للقضايا السياسية والاجتماعية لأمة العرب ، ينظر كثير من الروائيين الى بلادهم نظرة ملؤها الحب والحنو على تقاليد الماضى الجميلة ، التى كانت تربط الناس إلى أرضهم وبلدهم وتاريخهم . ومن هنا تأتى المحاولات الكثيرة التى يبذلها الروائيون العرب لتسجيل المأثورات الشعبية والأساطير والاعراف السحيقة القدم . ويتمثل هذا الاتجاه بقوة فى الرواية السودانية : « **السَيْسَبَانَةُ** » للكاتب : مكى محمد على حيث تتخذ المأثورات والأساطير وسائل لدعم

العمل الثورى وتثبيته فى قلوب الناس وأرواحهم . ويشعر روائيون آخرون بالأسى لأن الماضى الجميل موشك على الاختفاء فيسارعون الى تسجيله والعيش فيه . مثلما يحدث فى الرواية السعودية : « **الغيومُ ومَنَابت الشجر** » للكاتب السعودى عبد العزيز ثرى وفى رواية : « **الطوق والأسورة** » للكاتب المصرى يحيى الطاهر عبد الله . ورواية « **بدرية** » للكاتب الكويتى : وليد الرجيب . ويرتبط بالحنين الى الماضى الجميل رغبة عارمة عند اكثر من روائى عربى فى التنظر إلى أحوال بلادهم من خلال رقعة عريضة من الأرض تنتظم اجيالا متعددة . ومن ثم تخرج الرواية العربية من اطار الرواية المضغوطة التى تمثلها فى هذه المجموعة رواية نجيب محفوظ : « **يومَ قُتل الزعيم** » والتى كنا نظن انها ـــ حجما ـــ سوف تصبح رواية الحاضر والمستقبل . تخرج من هذا الاطار الى ميدان التعبير الفسيح الممتد عبر ثنائية أو ثلاثية أو حتى خماسية ، كما فى حالة العمل الرائع : « **مدن الملح** » للكاتب السعودى عبد الرحمن منيف . ان هذا الخروج مرده الرغبة فى الكتابة فى العمق ، والسعى الى خلق الشخصيات المؤثرة المنحوته ، والمُنَضَّجه على نار هادئة ، بحيث تستطيع هذه الشخصيات ان تعيش دوما فى وجداننا ، بعد ان ننتهى من معاينة العمل . ومن ابرز أمثلة هذه الكتابة الممتدة ، مايقدمه الكاتب السورى : خيرى الذهبى فى روايته : « **حسيبة** » ، التى هى الجزء الأول من ثنائية أو لعلها ثلاثية يعتزم ان يقدمها لنا فى وقت لاحق .

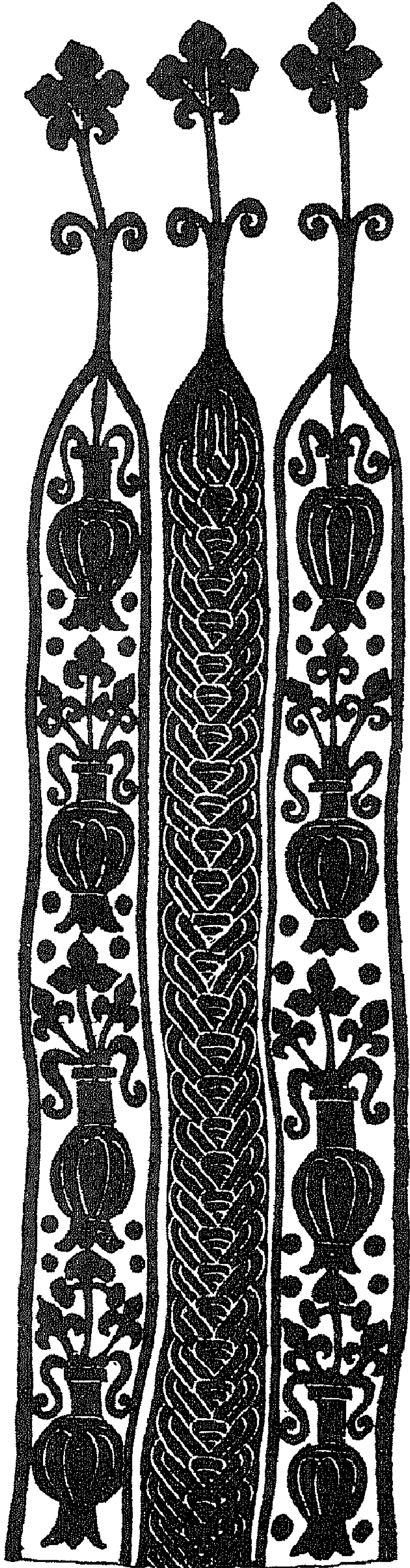
المجد للرواية العربية ! لقد جعلها أفضل المبدعين فيها لسان حال الأمة ، وديوانا جديدا للعرب، ومستودعا لآمال وآلام أمتنا العظيمة المقطعة الأوصال. لاتزال شعوب هذه الأمة ترنو إلى التوحد من جديد . لاتزال تناضل الحدود الزائفة ومؤامرات الأجنبى . وقصر نظر الحكام المحليين ، لاتزال تستهزىء بالحواجز والكوارث ، واسلحة البغى التى تحاول جاهدة الهيمنة على الشعوب ، ناشرة لواء الاستعمار الاليكترونى ، تريد ان تبسط ظله الكئيب على مشارق الأرض ومغاربها .

لاتزال امتنا العربية تنبض بالحياة رغم هجوم شرس لم يشهد التاريخ ماهو اشد منه وحشية وفظاظة ورغبة فى تدمير الانسان العربى من حيث هو انسان ذو حضارة وتاريخ ونضال ضاربة كلها فى القدم . لاتزال تحيا امتنا العربية ، ومازال فى مقدورها ان تحيا فى المستقبل الحياة الكريمة التى تاقت اليها اجيال وأجيال من المناضلين والكتاب والفنانين والروائيين والمسرحيين ومن ورائهم ومن امامهم الجماهير الغفيرة من بسطاء الناس . لم يكف هؤلاء يوما عن التعلق بأمتهم ، مهما ألجئوا إلى الصمت ، ومهما شملهم التعتيم ، ومهما قيدتهم الديون ، والأحلاف واحلام المستبدين بالرأى .



١

المشرق العربي



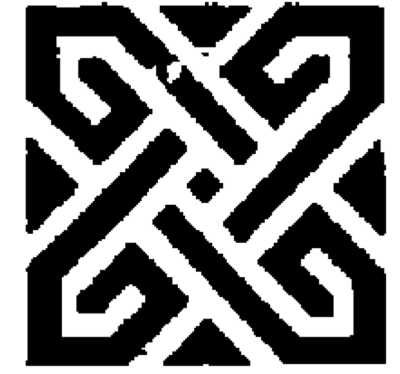




الرواية في مصر

يوم قُتل الزعيم

نجيب محفوظ



يدخل الفنان عالمه السحرى ، فيتخفف من كل شىء . من الآراء الثابتة . من المواقف المحددة . يترك كل شىء وراء الباب ، حتى الرداء الذى يرتديه كل يوم . يطلق روحه من إسار الفعل ورد الفعل ، ويمضى فى حوار خصب مع مادته الفنية ، مع شخوصه . يراها من كل الزوايا ويستمع إليها عاطفا ، مقدرا ، اختلف معها أم اتفق .

ذلك شأن الفنان العظيم دائما ، يرى ويفهم ولايتحيز . وهذا مانجده فى رواية نجيب محفوظ : « يوم قُتل الزعيم » نجيب محفوظ فى هذه الرائعة القليلة الحجم ، اشد مايكون صفاء نفس . هو شخوصه جميعا يفيها حقها من التصوير ، ويدخل خبايا نفسها ويقلب اغوارها ، فلا يمنعه هذا من التمييز بينها قربا وبعدا من نفسه . أقرب الشخصيات إلى قلبه الشيخ محتشمى زايد ، الذى يقوم فى الرواية بدور المعلق أو عضو الكورس . رجل واسع القلب خبر مراحل الحياة جميعا منذ الشباب الطائش حتى الشيخوخة المطمئنة . هو اليوم يمد يده فى رجاء ليقبض على الحلقة الثمانين فى مرقى جبل العمر ، شاعرا انه قد وفّى بالتزاماته جميعا ، حيال أسرته وإزاء وطنه وأصبح من حقه أن ينعم بشىء من راحة البال .

وأقرب شخوص الرواية إلى قلب هذا الشيخ الفذ حفيده علوان . الذى تعكس مشكلته الخاصة ـــ عجزه عن أن يتزوج رانده بعد أحد عشر عاما من الخطبة ـــ مشكلة جيل بأسره ، ومشكلة مصر كلها بعد الانفتاح ، بل يمد الشيخ خط المسئولية ليشمل هزيمة ٥ يونيو وعلاقات الاتحاد السوفييتى وأمريكا ، ومملكة المنحرفين .

وتكاد الرواية تتركز على علاقة علوان بخطيبته رانده . تهاوى مثل علوان الأعلى فى ٥ يونيو . أصبح حائرا بين الخطأ والصواب ولكنه لم يفقد احلامه ولا مثله ولاانتماءه للبطل العظيم الذى

هزم . يرى الناس حوله يسرقون ويثرون ثراء فاحشا فى زمن قياسى فيسأل : الا يمكن أن يحدث له هذا بلا انحراف ؟ ثم يعجب لنفسه : ما سر حرصه على الاستقامة ؟ هو لايطمع فى أكثر مما يؤهله للزواج من رانده . يلومه جده على التمسك ببطل مهزوم فيرد : إنه يفعل هذا كى لاتصبح الدنيا فراغا . ويحرضه الجد على الايمان بالوطن والديمقراطية : « أشياء غاية فى الجمال » ، فيقول علوان : ماأريد الآن إلا شقة ومهرا مناسباً .

والطلب المتواضع ذاته هو غاية رانده ايضاً : فتاة شريفة فى زمن يزدرى الشرف . تؤمن بأن الحب قادر على كل شيء . ولايؤرقها مرور السنين الطويلة وهى بعد مخطوبة . تطاردها احتجاجات أبويها على هذا الموقف العقيم : انتظار ما لايحدث ، فتصر على الخطبة ، وترفض ان تباع لمن يتقدم لخطبتها . ويقول لها خاطبها : ان صديقهما المحروقى تزوج بكل بساطة ويعيش فى مخيم ، فيهفو فؤادها الى المخيم : خيمة بسيطة يخفق بين جوانحها الحب . وتقول لنفسها وهى تتأمل موقفها مما يدور حولها : انضباطى خلقة مركبة فى أعماق منذ الصغر . حوارى مع رغباتى الجامحة ينتصر دائما ... حافظت على تصورى الوقور لمعنى الحرية ، لم اتزعزع للتهم الساخرة بالانغلاق والرجعية .

موقف الخطيبين شريف وشجاع ، ولكنه هش . يحوطه عواء الذئاب ، وسخط الساخطين . مثاليته الجميلة لم تخلق لزمن يقول فيه انور علام — رئيسهما فى الشركة — « إذا لم يكوّن الانسان ثروة خيالية فى هذه الظروف ، فلا بارك الله فيه » . تأخذ الضغوط تلح على الخطيبين ، أم رانده قلقة على مصير ابنتها ، ولايعزيها فى شيء أن تقول البنت فى إصرار عنيد : « لن أكون أول عانس فى التاريخ » تستعين الأم بجد علوان كى يقنع حفيده بالتخلى عن الخطبة . ويسمع علوان حديث جده إليه فيصور موقف الناس من حبه الشجاع هذا التصوير البليغ : « كأننى مجرم مطارد ياجدى » ثم يمضى فينبيء رانده انه يحلها من الارتباط . ليس لأنه انهزم — كما اتهمته — بل لأنه انتصر على انانيته .

ويكون الفراق ، ويتحرك الحبيبان كل فى اتجاه ، ولكنهما يجدان نفسيهما معاً مرة أخرى فى شرك واحد ، نصبه أنور علام . رسم أنور علام هذا خطة الثراء الخيالى على أساس زواجه من رانده الجميلة ، واستخدامها مؤنسا ورفيقا فى حفلات صاخبة يقيمها لذوى النفوذ والصلات ، كى تزدهر أعماله . ورسم كذلك أن يزوج اخته الأرملة الثرية علوان . وتتزوج رانده من أنور علام ، بعد أن داست قلبها وحبها فى سبيل « الواقعية » التى نصحها الكل باتباعها ، لتكتشف أنها باعت نفسها فى سوق للخنا ، ولم تتزوج زواج مصلحة كما حسبت .

 أما علوان فإن جسد جولستان ، أخت أنور ، يخايله ، وثراءها لاتعمى عنه عيناه ، واشتهاؤه

اياها لايجده إلا رغبة الأرملة الجميلة المتزنة فى أن تبيع نفسها بالطريقة الصحيحة : ادفع واحمل . تزوج وتمتع . لامتعة قبل دفع الثمن !

وفى مشهد درامى من اقوى مشاهد المواجهة فى الرواية . تصر رانده على الطلاق من أنور علام . تصر وهى فى قمة الانفعال ، بينما زوجها بارد الأعصاب ، لايهتز ولايندم ، وإن اعترف بأنه قدر فأساء التقدير : قدر أن تعينه زوجه على الثراء الخيالى ببيع ، لا روحها وحسب ، بل جسدها أيضا فى سوق الثراء المسعور . ومن ثم يسرحها فى هدوء . غير أن العنف يلاحقه فى مشهد مواجهة آخر . يقتحم علوان فيللا جولستان ، ويأخذ بخناق أنور علام ويضربه . انتقاما لموقفه المزرى من رانده ، فيموت الرجل من أثر الضرب .

وتنتهى أحداث هذا الخيط القصصى بعلوان الى السجن ، متهما بجريمة ضرب أفضى إلى الموت ، بعد أن أعرض عن حماية جولستان له ووعدها بأن تنقذه من السجن لو هو تزوجها . وكان علوان قد انبأ رانده بأمر هذه الحماية فطالبته بأن يقبلها ، غير أن علوان رفض أن يبيع نفسه وفضل السجن .

ويختم محتشمى زايد الرواية بتعليق لاتبدو السخرية والمرارة منه لدى النظرة الأولى . يقول : أعوام تمر على علوان فى السجن ثم يخرج منه وقد تعلم حرفة يكون أقدر بها على تحديات الحياة . اذ ذاك يجد غرفتى خالية بعد موتى فيمكنه أن يتزوج حبيبته فيها !

الخيط القصصى الذى اختاره نجيب محفوظ خيط تقليدى : الحب المثالى فى مواجهة مادية ولاشاعرية المجتمع . الشر ينتصر على الخير بعد معركة يثبت فيها الخير قدرته على التحدى . ومن عناصر الميلودراما يستعير نجيب محفوظ وقوف الخطيبة ذات الحياء والكرامة مدافعة علناً عن خاطبها السابق فى قاعة المحكمة . كما يستعير مشهد المواجهة الدامية بين علوان وأنور علام ، وماتلاه من موت الأخير ، وتقوم الأخت ، بكل برود اعصاب ، لتعرض انقاذ القاتل ، لو هو وافق على الزواج منها .

غير أن هذا الخيط هو مجرد حدود ، يرسم نجيب محفوظ داخلها فى دقة وصفاء شديدين مأساة ثلاثة أجيال حوتها دفتا هذه الرواية الفذة البالغة البراعة فى فن الايجاز ، جيل محتشمى زايد ، الذى عاصر ثورة ١٩ ، ووقف مدافعا عنها ضد كل الأكاذيب الموجهة اليها ، قبل وبعد ثورة ٥٢ . وجيل فوزان وهناء . الذى هتف لثورة يوليو ولبس الحداد فى هزيمتها ، ثم سحقه الانفتاح وجرده من آدميته . وجيل علوان ورانده الذى احترق تماما بنيران السعار الذى انطلق يأكل الأخضر واليابس منذ أوائل السبعينيات .

وقد اختار نجيب محفوظ ان يفيض فى وصف الجيلين الأول والثالث وما قدمه كل منهما لقضايا الوطن . يقول الجد مخاطبا حفيده : « فى الثلاثينيات فصلت من عملى بتهمة تحريض الطلبة على الإضراب . كنت صاحب أسرة وأبناء ومن كبار الفقراء . اشتغلت بمدرسة الاعدادية الأهلية بمرتب صغير ، وأمسكت حسابات بقال من أصدقائى . ومكثنا عاما كاملا لانطبخ إلا العدس . وعندك أبوك فأسأله .

بينما جعل هموم الجيل الثالث مركز الرواية ومحرك أحداثها . غير أنه ممَّا يشهد للكاتب بحسن الأداء والذكاء أنه لم يهمل الجيل الثانى أبداً ، الذى شاءت اقداره أن يكون ممسوخاً ، وأن يضطر الى بيع آدميته وساعات عمره بالعمل الشاق المستمر فى القطاعين العام والخاص ، تدبيرا للقمة العيش وأجر السكن من يوم الى يوم . فطوال الرواية تتوالى الاشارات الى هذا الجيل المسحوق وتضحياته وآلامه ، وماكانت عليه أيامه ، قبل الهزيمة وغول الانفتاح ، من حيوية وحماس .

منذ بداية الرواية ــ وفى الصفحة الثانية منها ــ يخبرنا فوزان أنه سيضطر إلى العمل صباحا ومساء فى الوزارة ، وسيخسر بهذا أجره من شركة القطاع الخاص ، فتعرض هناء ، زوجته ، أن تقوم عنه ببعض العمل . ويصف علوان مأساة أبويه فيقول : ما أنا إلا يتيم فقدت أبوى بعد أن فقدا نفسيهما فى عمل متواصل من الصباح الى المساء . لانلتقى إلا خطفا ويناجى علوان نفسه فيما بعد : « كان لأبى وأمى وجود فى البيت . وكان يوجد حوار وضحك وحماس للدراسة وسطوة البطولة . والحب كان باقة من الورد فى قرطاس من الأمل » ويقول فوزان ، أبو علوان لابنه : « اعفنا من الحديث عن نفسك أو عن البلد . حسبنا اننا نشقى من أجلكم ، حل مشاكلك بنفسك والبلد له رب ... تمر الأيام فلا أجد وقتاً لحلق شعرى أو تقليم أظافرى ... انحشر فى الباص ، وأخذ هناء فى حضنى لأبعد عنها احضان الجياع ... يوم الجمعة ، يوم العطلة ، تتراكم الواجبات . وقت للحمام ، وقت للعزاء ، وقت للاعتذار ، ساعة واحدة للاسترخاء وفيها تهجم علىّ همومك وهموم البلد » .

وهكذا يتواجد الجيل الثانى بقوة ، لايمنع ظهوره وبروزه أنه مسحوق ، قليل الكلام . وأن الاشارات اليه قليلة ، تبدو كما لو كانت عابرة . وهى بالطبع مقصودة . على أن الحوار الأساسى بين الأجيال انما يدور بين جيل محتشمى وجيل حفيده علوان . جرب محتشمى العمل السياسى المباشر ، واكتوى بناره ، ثم انتهى ، وقد طعن فى العمر ، الى موقف الثائر العاجز عن الفعل : يود ــ لو استطاع ــ أن يجتث الظلم من أساسه ، بكرامة من الله يهبها إياه : يشير الى الظالم فيصعقه ويريح الدنيا من شروره .

ومحتشمى شديد التقدير للثورة ، شديد النقد لها . يرى أنها نعمة كبرى عجز الانسان عن التعامل معها فدنسها بالغدر والأنانية والخيانة . يعز عليه أن ينتهى حفيده — وهو من جيل الثورة — هذه النهاية الظالمة — فيشتد فى حملته على الثورة والمارقين فى صفوفها : « ورثتم أبناءكم المال والأمان ، وأورثتمونا الضياع والفقر والديون ، وكأن الثورة ماقامت الا من أجل سعادتكم وتعاستنا » . ويمضى قدما فيجعل للبغايا فضلا على الحكام الخونة والفاشلين : هؤلاء يبذلن أنفسهن لإسعاد الناس والحكام يضحون بالناس بغية الترفيه عن ذواتهم !

رأى محتشمى التيار العام لحركة الثورة يمضى أمامه . الثورة يشتعل أوارها وتهتف : الاستقلال التام أو الموت الزؤام ، الشعب فوق الملك . القاهرة تحترق . عظمة الراحل وهزيمته . عظمة خليفته ونكسته ثم الجنون يشق طريقه فى الصخر حاملا الجوع والديون فارتج عليه وماعاد يملك الا هذا السخط المتطرف ، يرى به الناس والأشياء .

أما علوان فقد فتن بثورة يوليو ، فتلقاها مأخوذا ، مسحورا ، فلما كانت هزيمة يونيو انهار مثله الأعلى ، وإن ظل متمسكا برمز الثورة وقائدها ، الذى لاتزال القرابين تقدم اليه ، بعد أن أصبح رمزا للآمال الضائعة . آمال الفقراء والمعزولين . يراه أحد رواد المقهى أعظم فى هزيمته ، من خليفته المنتصر ، صاحب السلام والاستسلام .

على أن علوان لايحول انتماءه للثورة إلى فعل . يظل حائرا بين الفعل واللا فعل طول الوقت . يعلق جده على هذا بقوله : ما أنقذه من القضبان إلا حيرته . وهى حيرة سياسية واجتماعية أيضا : رغم مبادئه يغازل الثروة والجاه فى شخص جولستان ، ويوشك أن يقع فى شركها لولا غضبه الخاص على أنور علام ، الذى يدفعه — ربما أيضا بحفز من حادث اغتيال الزعيم — الى القضاء عليه ، لتخليص المجتمع من شروره .

وترى رانده ، الموضوعية المتزنة فى غير شئون الحب ، عيوب حبيبها ، تراعيه كأنها أمه ، وهو ابنها المدلل . تتمنى لو كان مهندسا ، ليصبح بطلا من ابطال الانفتاح لامجرد ضحية لهزيمة يونيو واختفاء البطل الراحل . حزنت رانده حزنا واضحا حين لم يستطع علوان أن يلتحق بالقسم العلمى بالمدرسة . وظلت من بعد تراه حائرا لاموقف له . يحتقر السابقين ويفضل نفسه عليهم ولاينظر إلى نفسه أبدا نظرة موضوعية . وتحار رانده فى وصفه : أهو متدين ؟ ملتزم ؟ لا ملتزم ؟ من اتباع علياء سميح ومحمود المحروقى ؟ فلما تعييها الأسئلة تقول : آه . إنه حبيبى وكفى . دائم البحث عن شىء مفقود . ينطح الصخر ويقبض على الهواء ، ولا يعرف لنفسه مرفأ يلجأ إليه .

أما رانده فهى مؤمنة حسنة الدين ، ولكنها ليست أقل ثورية من خاطبها علوان ، ولا هى أقل تمسكا بالمبادىء والمثل . لاتتخلى عن مثلها فى أن تظل امرأة إنسانة ، لاجارية تباع فى سوق

النخاسة ، الا حين يحلها علوان من وعدها ، ويتقدم إليها انور علام ، فتقبل على مضض أن تزف إليه فى إطار زواج مصلحة ، تدفعها إليه الحاجة والأرق من شبح « العنوسة » . غير أنها تثور ثورة عارمة حين تتبين أن المطلوب إليها أن تكون عاهرة محترمة ، وليس مجرد زوجة رجل لاتحبه . إذ ذاك تلقى رانده بالتحدى فى وجه الديّوث البارد الاعصاب ، وتهدم المعبد عليها وعليه . ثم تنتصر من بعد لخاطبها قبل وأثناء وبعد المحاكمة .

« يوم قتل الزعيم » — على إيجازها المعجز ، رواية أجيال تقول فى صفحات قليلة ما قالته « الثلاثية فى صفحاتها الألف ونيف . النضج الفني الكبير الذى خلص « للمعلم » نجيب محفوظ قد جعل هذا ممكنا . استخدام طريقة حديث كل عن نفسه فى الحاضر والماضى ، ودمج الأزمنة ، والصراحة المطلقة فى تصوير الشخصيات ومواقفها فى الماضى والحاضر ، والجرأة الشديدة التى يملكها نجيب محفوظ فى عرض سلوك وأفكار شخصياته ، يجعل من الرواية صرحا كبيرا كامل الأداء .

هل يستطيع غير نجيب محفوظ أن يصور شخصية محتشمى زايد الذى انتقل من إيمان موروث إلى شك وإلحاد وعقلانية ولا أدرية ثم إيمان . ومر فى طريقه الطويل هذا برفاق العربدة والشراب ومدخنى الحشيش والقابعين فى أحضان البغايا ، ثم أصبح عن حق وصدق ، عابدا لربه ، يتطلع إلى كرمه وغفرانه ويرى أنه مستحق لهما ؟

وهل يملك غير نجيب محفوظ ان يقدم لنا شخصية سليمان مبارك الملحد ، الثابت على إلحاده ، الذى يوصى زوجته الا تنشر له نعيا ولاتقيم جنازة ولامأتما ولا حداداً ؟

الحق أن « يوم قتل الزعيم » تثبت أن شجرة نجيب محفوظ الروائية شجرة دائمة الخضرة . وهى تثبت أيضا ما هو أهّم من هذا وهو أن الفن الحق اعتراف وتجل ، وكشف عن أدق ما يعتمل فى وجدان الفنان . وأن هذا الكشف قد يتناقض ويتعارك مع المواقف المعلنة للفنان خارج فنه ، وليس فى هذا أى بأس ، فإننا نصدق الفنان فى فنه ألف مرة ، ولا نصدقه كثيرا إذا ما كتب خارج إطار الفن ! ! .

نجمة أغسطس

صنع الله إبراهيم



يذهب الراوى ليشهد المرحلة الثانية من بناء السد . يذهب وفى يده كتاب عن حياة مايكل انجلو ، وفى نفسه ذكريات مختزنة من ماضيه القريب والبعيد . كان مناضلا سياسيا ، دخل المعتقل ، وعذب مع الذين عذبوا ، وشهد مقتل شهدى عطية فى احدى حفلات التعذيب .

جاء الراوى كى يشهد تجسيدا لما قاله مايكل انجلو : لا تخطر فكرة للفنان .. ليس لها وجود فى قشرة الأرض . كل ما تستطيع اليد التى تخدم العقل ان تفعله هو أن تفك سحر الرخام . يصبح بناء السد ولقاء بشر من ثقافات وجنسيات ومعتقدات متباينة محاولة كبرى لفك سحر الرخام . تتساوى الضربة الحية التى ينفذ بها ازميل النحات الى اعماق الرخام مع ما يحدث لقضيب الحقن عندما يدور فى قلب صخر السد ملتحما مع خليط الثقوب الأخرى ومكونا ستارة صلبة ، ويتساوى أيضا مع علاقة حميمة أخرى كان الراوى يديرها فى جسد الروسية تانيا ، محاولا فك سحر الرخام ، فتلين شفتا البنت ويتلوى جسدها وتستسلم للحنان .

الراوى أقرب إلى مايكل انجلو منه إلى المناضلين فى سبيل تطبيق نظرية ، يرتبطون بها ويتعفنون فى قيودها . رأى مايكل انجلو الراهب سافونارولا يزعم أنه صوت الرب على الأرض فيهرع الناس اليه افواجا، تسرى فى الجموع رعدة ويقشعر جسد النحات . يردد لنفسه قول لورنزو العظيم : ان قوى التدمير تسير فى اعقاب الابداع والخلق . غير أن لورنزو لايلبث ان يستسلم وهو على فراش الموت ويطلب غفران الراهب . ثم تطول الراهب ايدى السلطة الدينية فيعترف قبل اعدامه انه اختلق حكاية الوحى الآلهى ويهتز النحات من الأعماق ويعود الى عمله يتيقن أن الصخر هو الشيء الحقيقى فى عالم تسوده الفوضى .

سمع الراوى صوت جرجس افندى يحكى حكايات الشاطر حسن . كان مستسلما لغفوة بعد

أن حكى جرجس عن اختيار الشاطر حسن لطريق السلامة ، وانتصاره بعد ذلك على مكائد الغولة وزوجة أبيه . ثم صحا فاذا بالشاطر حسن قد أصبح السلطان ، والناس تقيم الأفراح أربعين ليلة وليلة والأنوار تضيء المآذن . ومشى السلطان الجديد بين الناس يعاهدهم على ان يحكم بالعدل ويستشير رؤساءهم فى كل أمر . ولكن الرؤساء قالوا ان ما تجلى من حكمته وأمانته وإيمانه يجعله فى غير حاجة إلى مشورتهم . ثم اغفى الراوى طويلا فاذا شيء مرعب حقا كان يحدث فى قصة الشاطر حسن . فقد نصبت المشانق وسالت الدماء ولم يعد أحد يأمن على نفسه . لم يدر الراوى كيف بدأ هذا كله ، ولم يتيقن ان كان ما يسمعه يجرى فى حلم أو فى يقظة .

غير أنه يربط بين استشهاد شهدى عطية وبين استشهاد المسيح . اخذ المعذبون يحقنون شهدى بالكورامين ، وقد عز عليهم ان يفلت منهم بهذه السهولة . ولكن الحياة كانت قد فارقت الجسد ، واغمضت عيناه فى سبات الراحة العميق ، كما رقد المسيح فى حجر أمه فى النحت الذى ابدعه مايكل انجلو وجعل فيه رأس الأم ينحنى فوق اليد المستقرة على قلبها . كانت تعرف كل شيء منذ البداية ، لكن وجهها الحزين من أجل ابنها وجميع ابناء الرجال كان يحمل سؤالا يائسا : من أجل أى شيء كل هذا ؟ فى اللوحات التى رآها مايكل انجلو من قبل كانت العذراء تبدى الدهشة التامة عندما ابلغها جبريل بنبأ الحمل . وسأل النحات نفسه : هل يعقل أنها لم تكن تعرف ؟ وأنها لم تكن تملك حرية الخيار ، تقبل أو ترفض ؟ وقرر ان ينحتها وهى ترضع طفلها مدركة المصير الذى ينتظرهما .

لذلك جاء مسيحه المصلوب ابن إله بقدر ما كان انسانا . التوى رأسه وركبتاه فى اتجاهين متعارضين . رجل لا تعذبه المسامير الحديدية بقدر ما يعذبه الشك . فماذا يكون قد دار بذهنه بين الوقت الذى دقوا فيه أول مسمار فى لحمه واللحظة التى مات فيها ، غير التفكير فى عجز الاله عن الحيلولة دون هذه الوحشية ، وجدوى رسالة تريد أن تبشر بالاخوة وتريد أن تمحو العنف ؟

سهر الفنانون على اضواء مصابيح الزيت يعملون بالمطارق والأزاميل وأدوات الصقل والنقش يحفرون بالضربة الحية من أعلى الى أسفل وعيونهم تحاول أن تتبين مسبقا الشكل الذى يحتويه الصخر . فهذا الفن لا يتيح لهم ترف الخطأ والتصحيح . وخاطبهم رمسيس قائلا ان امامهم كل ما تشتهى الأنفس من طعام وشراب ، ليقولوا ان حبهم له هو الذى يدفعهم للعمل من أجله فأضفوا على وجهه المتغضن سمات الشباب الدائم وارتعدوا من الرهبة والايمان أمام الابتسامة الخفيفة التى نحتوها بأصابعهم فوق الشفتين الحسيتين ، ثم غمسوها فى دمائهم وكتبوا اسم ستالين على الجدران وهم سائرون الى حتفهم بأمره ، وتفطرت اكبادهم عندما سمعوا بموته ،

فتجمعوا من كل حدب وصوب للوداع الأخير . ومالبث الرجال الذين أودعهم بالملايين وراء القضبان ان خرجوا للنور بوجوه شاحبة صفراء وشفاه جافة .

وقال رجل الآثار خليل للراوى وهو يحكى له عن الانتصار المزعوم لرمسيس على الحيثيين لقد هزموه شر هزيمة ، لكنه زعم عند عودته انه انتصر عليهم . كان اثنان من الحيثيين قد وقعا فى الأسر واعترفا تحت السياط بالمكان الذى عسكر فيه ملك الحيثيين وجنوده . ولكن اعترافهما كان خدعة . واندفع الجيش المصرى الى الكمين الذى نصب له .

ويربط الراوى بين مايكل انجلو وشهدى عطية . حين حلت لعنة محكمة التفتيش بالنحات بسبب قديسيه وشهدائه العراة ، لم ينفعه دفاعه بأنها الصورة التى خلق بها الرب آدم ، وحين انتصب جسد شهدى الفارع داخل القفص ، وعلا رأسه الذى لم تشوه الوجه فيه آثار الجدرى ، كان عبثا ان راح يجادل بالمنطق ويقول أنه لايمكن ان يعادى حكومة تبنى السد . ثم سقط الجسد العملاق على الأرض الحجرية ولو اتيح له لصنع مثل النحات اجساما عملاقة تتفجر قوة وصحة وجمالا ، لكنه رقد على الأرض عاريا كواحد من التماثيل الضخمة . ذلك أن الرؤساء قد قالوا ان ماتجلى من حكمة السلطان وأمانته وايمانه يجعله فى غير حاجة الى مشورتهم . اما النحات فقد انتهت رحلته قبل ان يبلغ التسعين بأسبوعين ، شهد خلالها الحروب والثورات وتعرض فيها لنزوات البابوات وأهواء الكرادلة ، لكنه كان يسير دائما فى جنازاتهم ، بعد أن ينحت لهم قبورهم . وصار الصخر هو الشىء اليقينى فى عالم تسوده الفوضى ، والفن هو أرفع تعبير عن الحرية ، وأسبل عينيه فى سبات الراحة الأخير ، مثل مسيحه الذى استقر فى حجر أمه وقد انحنى رأسها فوق يده المستقرة على قلبها ، وعلى وجهها الحزين تساؤل يائس عن جدوى هذا كله .

شهدى عطية ومايكل انجلو والمسيح يرتبطون معا معا فى رؤيا الراوى . كل منهم يغمض عينيه فى سبات الراحة ، بعد ان استشهد . المسيح عند مايكل انجلو يموت والشكوك تساوره : من اجل ماذا بذل حياته ؟ وشهدى يرسل به الزبانية الى الليمان وينحنى بين عتاة القتلة والمجرمين يكسر الصخر . كسر التدمير لا كسر الخلق ويبلغ شهدى الخمسين ويقول : مازال أمامه الكثير ، ولا يحدس أنه لم يتبق له سوى أشهر قليلة . فأى احساس ساوره وهو يريح رأسه الراحة الأخيرة ويطبق عينيه الى الأبد ؟ اشك فى جدوى هذا كله كشك المسيح ؟ لو اتيح لشهدى لكان نحاتا يصنع اجساما تتفجر قوة وحيوية . غير ان الرؤساء كانوا قد اسلموا الأمور كلها الى السلطان معتمدين على حكمته وأمانته واثقين انه فى غير حاجة إلى مشورتهم . من أجل هذا انتهت حكاية الشاطر حسن والدماء تسيل ، والمشانق تعلق ، ولا أحد يأمن على نفسه .

مايكل انجلو وحده هو الذى يفلت من إسار الموقف الواحد ، والنظرات المتجمدة . لقد

علمته التجربة ان الصخر وحده هو السيد وأن الفن هو أرفع تعبير عن الحرية . ومن هذا المنطلق يرتبط الراوى بمايكل انجلو . كلاهما تحرر من ربقة النظريات . وعبادة الفرد . من أجل هذا يطلب الراوى الى اصدقائه ان يشربوا نخب شيء اكثر أهمية من رمسيس الثانى . نخب الفنانين الذين نحتوا تماثيله . يقول الطبيب للراوى : لماذا لا يعجبك رمسيس الثانى ؟ انه أكثر شخصية تتمثل فيها عبقرية التاريخ . سبعون سنة من السلطة أى الكذب والفجور والقتل والادعاء والغرور والاستعباد ، وها هوذا مازال يعيش حتى أيامنا . ونحن نعمل ليل نهار ليخلد اسمه . تماما كما أراد . ويرد الراوى : ولماذا لا نقول أننا نخلد الفنان المجهول الذى نحت هذه التماثيل ؟ يضحك الطبيب ويقول : الفنان المجهول كالجندى المجهول . الضحية التى ينساها الانسان بسرعة البرق .

غير ان الراوى كان قد ربط فنانى مصر القديمة ، المسخرين فى خدمة فرعون ، بمسخرين آخرين كانوا فى خدمة ستالين . يحول اللاوعى فنانى مصر القديمة الى اتباع ستالين ، ويجعل فنانى مصر القديمة يكتبون اسم ستالين على الجدران ، وعلى الفور يصبح اتباع ستالين مشابهين فى المصير للمسجونين المعذبين فى نظم أخرى يساق فيها الاتباع المخلصون الى السجن فالموت ، رغم أنهم اخلص اتباع الزعيم واكثرهم ايمانا به وبمبادئه . هكذا تختلط الصور وتدخل فيها صورة أفراد الشعب المصرى تتفطر أكبادهم عندما يسمعون بموت عبد الناصر ، فيجتمعون من كل حدب وصوب للوداع الأخير ، ولا يلبث الرجال الذين أودعهم وراء القضبان ان يخرجوا الى النور بوجوه شاحبة صفراء .

الواقع انه ثمة محاولة واضحة لربط كل من رمسيس وستالين وعبد الناصر ، رمسيس يخسر معركة قادش لأنه استمع إلى اعتراف مخادع لأسيرين من الحيثيين ، فدفع بالجيش المصرى إلى كمين نصب له ، وعاد منه رمسيس وجيشه محملين بالهزيمة وأوزارها . والشيء ذاته تردد أنه حدث لعبد الناصر وجيشه عام ١٩٦٧ .

تقول الفتاة ثانيا للراوى : انها لم تر أباها مطلقا . اعتقلوه قبل مولدها بشهر ، وظل فى المعتقل حتى مات . ويسألها الراوى فى حيرة : من الذين اعتقلوه ؟ فتجيب رجال ستالين . من غيرهم ؟ فيعود يسأل : وماذا فعل ابوك ؟ تقول : لا شيء . هل تظن ان من الضرورى ان تفعل شيئا لتعتقل ؟ فيقول الراوى : ربما كان ضد الاشتراكية ؟ فترد الفتاة : لم يكن أحد أكثر منه اخلاصا وايمانا بالحزب وستالين نفسه .

من أجل هذا تستغلق الأمور أمام الراوى . أيام العدوان الثلاثى ، ظل ثلاثة أيام يطالب مع غيره من الوطنيين بأن يتسلم سلاحا ، دون جدوى . ثم انضم الى فرقة للمقاومة الشعبية فى الحى . وصدق انه سوف يقاتل ، وجلس الضابط فى ملابسه العسكرية يأكل الكباب ، وحوله

الحواريون من اعضاء الهيئة التى تضم كل الشعب . وتولى التدريب جندى قال انه من رجال الثورة ، ثم اعطى الجميع بنادق جديدة ، وطافوا بشوارع الحى يتقدمهم ضابط أصبح فيما بعد من نجوم السينما ، وتجمع السكان فى النوافذ والشركات يصفقون لهم . وزغردت النسوة ، وتحدثت الصحف بعد ذلك عن الانتصار الشعبى الرائع .

يتذكر الراوى كل هذا ، وتتردد فى نفسه كلمة شهدى : انه لا يمكن ان يعادى حكومة تبنى السد . غير ان الحكومة كانت تبنى السد والنظام يعتقل ويعذب نفرا من أخلص المؤيدين له ، المؤمنين بالثورة مبدأ وتحولا تاريخيا . كان السد يبنى وسط عوامل معادية لم تفد من الخارج وحسب ، وانما انبعثت من الداخل أيضا . عوامل كانت تتهيأ للانقضاض على الثورة فى أول مناسبة ، وتسعى الى هدم السد وما يرمز اليه معنويا ، بالتشكيك والشائعات ، والأكاذيب بل وبالمطالبة بهدمه بدعوى انه كان خطأ منذ البداية اصاب النيل والزراعة بأخطار فادحة .

من أجل هذا فقد الراوى ايمانه بالعمل السياسى ، والتحف بمبدأ مايكل انجلو : الصخر وحده هو السيد ، والعمل الفنى هو قمة الحرية . وجاء الراوى الى اسوان ليشهد معجزة اخضاع الصخر وتحويله الى عمل فنى ، يشبه اعمال مايكل انجلو وفنانى مصر القديمة . وحين يعرض عليه صديقة ذهنى ان يرحل معه الى الكنغو ، ليحاربا ، يقول فى صراحة : لا يا عم . لقد حاربت بما فيه الكفاية . ثم يستمهله الى العام القادم لعله يستطيع ان يرحل معه . اما الآن فان ثمة اشياء يريد ان يفكر فيها وأخرى يريد ان يراها . ولا ينبغى ان ينسى ذهنى ان الراوى ظل طويلا يعيش بلا نساء ، وهو لا يستطيع ان يواصل هذا العيش الأجدب !

ما الذى حدث لبناة السد العالى ؟ يوم تحويل مجرى النيل كان الكل مستعدا لأن يضحى بحياته فى بساطة ، فلم يكن هناك وقت للتفكير . كانوا شعلة من الحماس ، وشعروا بزهو لأن مصر قالت : «لا» لدول لم تتعود أن تسمعها . ثم خبا هذا الحماس . غطت عليه التحقيقات الصحفية الزائفة ، وانتهاز كبار المسئولين لبناء السد كى ينبوا مجدهم الشخصى على انقاض الحقيقة . وغطيت امجاد العاملين فى صمت بملاءة ضخمة من الكتمان . من أجل هذا قال الطبيب : انه خلق للسياسة ولكن يمنعه من الاشتغال بها أنها فى ايد أمينة . للاتحاد الاشتراكى هنا لجنة يرأسها مقاول . واذن فليشرب الجمع فى صحة المقاولين . حكام المستقبل ! ويقول الاثرى خليل : رأيى أن السياسة نصب . فيتجاهله الطبيب ويقول : عندما كنت بالجامعة كانت هموم البلد تعنينا اكثر من الآن . كنا نفكر بكل شىء ونتابع كل شىء ونحلم بيوم التخرج لنذهب الى الريف ونداوى الفلاحين الذين يعيشون كالحيوانات . أما الآن فهو فى الصعيد كى يجمع مالا يفتح به عيادة خاصة . هذه هى اللغة الوحيدة التى تتكلمها البلد كلها الآن .

يتذكر الراوى ــ لاريب ــ ما قالته تانيا عن موسكو ، وهروبها منها الى الضواحى ، تخففا من ثقل مبانيها الضخمة عديمة الجمال وكتلها البشرية المتدافقة ، والمسارح والمطاعم والمحلات اسفل الشعارات المكرورة والأفيشات الضخمة لاناس يبتسمون فى سعادة بينما يتطوح السكارى عند مفارق الطرق أو يركعون فى عرض الطريق ، وتغرق النساء تعاستهن فى الطعام . اضافت : كلنا بدأنا بأحلام عريضة وثقة لا حد لها ، وضاعت بهجة الطفولة والشباب بين قنابل الطائرات وعربات السجون .

هذا ما يقوله القسم الثانى من هذه الرواية الفذة . « نجمة أغسطس » يقوله عبر الصور المتداخلة القادمة من اللا وعى والمنعكسة على النفس من الخارج . صور يتحول فيها نحت التماثيل وثقب صخور السد والفعل الجنسى الى أشياء متماثلة : ينحت مايكل انجلو صخره فيتحدث الكاتب عن هذا النحت بالعبارات التالية : « كان العمل فى الاسكتشات ومع النماذج هو التفكير ، أما الفعل فكان النحت مباشرة بالضربة الحية التى ينفذ بها الأزميل الى اعماق الرخام ، ويصعد فى المادة الحية الدافقة ، وقد القى النحات بجسده كله خلف المطرقة والأزميل يتقدم مخترقا طيات المادة الطيعة حتى يبلغ الذروة ، ويتدفق سيل قوته ورغبته وعاطفته فى الشكل الذى يريده ، وتسجيب قطعة الصخر فتعطيه من اتونها الداخلى وسيولتها حتى يلتحم النحات بالصخر ويصبحا شيئا واحدا بعد ان تبادلا العطاء . مثلما يحدث لقضيب الحقن عندما يدور بسرعة حول نفسه ويكاد يشتعل هو والبلف من الحرارة ويندفع الخليط الى داخله الى أن تنتفخ الأغلفة المطاطية التى تغطيها ثقوبه ويتزايد ضغطه عليها حتى يخترقها وينتشر فى التربة ملتقيا بالخليط المتدفق من الثقوب الأخرى ، ملتحما به فى ستارة صلبة .

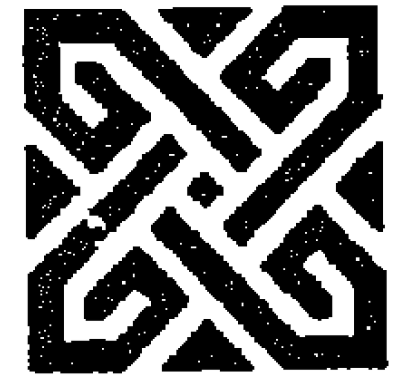
هكذا يتماثل نحت التمثال بثقب الصخور ، ويحكى الكاتب عن العمليتين بعبارات تشير بوضوح الى الفعل الجنسى . النحات « يعاشر » الرخام وقضيب النحت يقذف فى الثقوب . وفى العمليتين يتحول الجماد الى حياة ، ينحتها الراوى نفسه من رؤياه ومن حماسه للجنس . ثم لا يلبث ان يتذكر ما قالته تانيا من أنها تتألم دائما منذ كانت المرة الأولى قبل سنوات ، ولابد من الرفق فالمادة الغنية الدافقة تفقد توهجها أمام التعنيف والهرولة . وهكذا يصبح الفعل الجنسى نفسه عملا فنيا . ثم يصبح نقل الصخور الضخمة بواسطة الكباشة صراعا عنيفا بين الحديد والجرانيت ، تكون فيه الغلبة للآلة ، وتستقر قطعة الصخرة الضخمة فى قاع الكباشة . فهى رغبة الانسان فى الخلق تلك التى تدفعه الى التغلغل بوجدانه وصورته فى الرخام والحجر والجسد البشرى على حد سواء . وهى رغبة تؤتى أحسن الثمار فى جو الحرية ، بينما يحولها الخوف والارهاب الى سخرة كتلك التى دفعت رمسيس الثانى الى اكراه حوالى عشرين ألفا من البشر للعمل ثلاثين

عاما بلا انقطاع لنحت تماثيله ومعابده . اعداد غفيرة من رجال الجيش والشرطة وخدم المعابد والكهنة والأسرى والعبيد . بينهم قرابة المائة من الحجارين والنحاتين وعدد محدود من الرسامين والحفارين .

يغلف القسم الثانى من الرواية القسمان : الأول والثالث ، وفيهما يسعى صنع الله ابراهيم الى توسيع الوعاء الروائى بحيث يقبل مواد غير روائية فى المحل الأول . فقد كان الهدف الاساسى من كتابه : « نجمة اغسطس » نقل تجربة كبرى فى البناء العظيم الى قراء الرواية بأسلوب سلس يشبه اسلوب الريبورتاج الصحفى . وهو ما حاوله صنع الله بعد ذلك بدرجات متفاوتة من النجاح فى روايتيه اللاحقتين : « اللجنة » و« بيروت ، بيروت » . فى هذه الأعمال الثلاثة يقتحم صنع الله أرضا صعبة حقا ، هى أرض الوثائق والمعلومات ويصارع صراعا فنيا قويا كى يضمن هذه الوثائق والمعلومات جسم الرواية . يستعين على هذا المطلب الصعب بقدرته الفائقة على التقاط دقائق الأشياء والأحداث ، ورغبته العارمة فى التعرف بالناس جميعا من كل الطوائف والأجناس والمذاهب ، وتفتحه الكبير على الحياة والأحياء ، والطعام والشراب والجنس . لهذا تعج رواياته بشخصيات عديدة طريفة . فى « نجمة أغسطس » يرسم صورا مؤثرة لحياة البحارة على ظهر صندل ، وحياة المهندسين والفنيين والعمال من سوفييت ومصريين ، وينعطف الى تصوير السواح فى الفنادق والمعابد ، ويرسم محاولات الشباب المتعددة لاصطياد الجميلات من بينهم ، ويعطى صورا زاهية الوضوح لكبار المسئولين ، وسعيهم الدائب وراء الشهرة ، وشكواهم من خداع الصحفيين لهم . يقدم هذا كله فى القسمين الأول والثالث من الرواية ، وينجح فى ان يدمجه بصلب العمل الفنى المتمثل فى القسم الثانى حيث يطلق قوة خياله وشاعريته على الأحداث والأحياء فيندمج السد بالناس بآلات الحفر بتاريخ مصر القديم وبتاريخها الحديث ، ويتصل التعليق على ما جرى من حوادث تعذيب واستشهاد فى الماضى البعيد والحاضر القريب وما اعتور الثورة من انحرافات ، يندمج هذا فى كل واحد ، ويلتحم التحاما عضويا فريدا فى نوعه ، يساعد على تقبل جناحى العمل : القسم الأول والثالث تقبلا حسنا .

السائرون نياما

سعد مكاوي



خطف المملوك السكران عمامة الشيخ خليل وأخذ يلعب بها ضاحكا . لم يحتمل الشيخ هذه الاهانة البالغة ، فجذب المملوك من حزامه وأوقعه على الأرض ، ووقف الربع كله يتفرج . قالت المرأة المجذوبة : أنا لحظتك يا فتى لما جذبته من فوق الحصان ، ولويت ذراعه وسقته أمامك إلى زقاق الناضورى .

ساد هرج ومرج . قال الشيخ خليل انه فَعل هذا وليس ما يسنده غير غضبه . وقال ان احدا من البصاصين لم يشاهده وهو يفعل فعلته . أما الناس فانهم لن يشوا به لدى المماليك .

فى الصباح كانت الحارة قد استعادت هدوءها ، غير أنها ما لبثت ان روعت مرة أخرى حين اقتحم فتى هائج اسمه خالد مقهى زين الدين وهو يصرخ : « ياناس . اختى . اختى يا عالم . المماليك هاجموا النساء فى حمام الخيامية ، وخطفوا اختى عزة » . خطفها واحد من المماليك وهى عارية ، واختفى بها ، لا يدرى أحد أين ذهب . هاجت الحارة وماجت ، وقبض خالد على واحد من البصاصين فاعترف بأن الأعور والى القاهرة وراء عصابة تأكل ارزاق الناس وتهتك اعراضهم ، يسنادها بعض من المشايخ الذى نالهم ذهب الأعور فأقفلوا أبواب الأزهر ، ومنعوا فيه الصلاة بحجة قيامهم باضراب احتجاج على خفض الجراية فى رواق العميان . وكان أهل الحارة قد اعتزموا اللجوء الى الأزهر ، وطلب المعونة من مشايخه لانقاذ البنت المخطوفة . فلما سمعوا قول البصاص لم يبق امامهم غير الهياج والثورة . وقام الهياج بالفعل ، غير ان اعوان الوالى سرعان ما اطفأوا ناره ، وقبضوا على عمر وعبد الجليل وآخرين من متزعمى الهياج ، وسقط شاعر المقهى الأعمى تحت سنابك الخيل . فتأكد للناس ان الثورة الآن غير مجدية . وقال خالد فى يأس عميق ان عزة قد ضاعت. وأردف أنه لم يعد يهمه أن يراها بعد اليوم أو أن تعاد إليه خرقة مهلهلة. اليوم لابد له من شيء واحد هو الانتقام . قبلت الشيخة زليخة رأسه وقالت : اينا تولى وجهك فثم

وجه عزة . يداها فى البحر المالح وقدماها فى أرض الصعيد ، وملء البر أنفاسها الطاهرة . تمتم خالد قائلا : لخليل : انت يا خليل ذبحت مملوكا واحدا دفنتـه هنـا . اما أنا فسأظل أقتل واقتل وادعو الى القتل حتى القى وجه الموت . انا منذ اليوم قاتل . فقبلته الشيخة فى شفتيه وهى تمسح رأسه فى الظلام .

الشيخة زليخة واحدة من اقوى وأطرف شخصيات المقاومة الشعبية التى تملأ الرواية حركة وتحمل اليها ضجيج الشارع ونبضة ، واحداثه ، وانتصاراته القليلة ، وانكساراته العديدة فى وجه ظلم بربرى فاحش يقوم به حكم المماليك الهمجى . يصوِّر سعد مكاوى فى حيوية فائقة كلا من الطرفين المتناطحين : حياة افراد الشعب المطحون ، الذى تمضه المسغبة ، ويدفعه الفقر الى لبس الأسمال ، وتناول المخدر ، والانغماس فى حفلات الذكر والانجذاب . وحياة مماليك القلعة الذين يأكلون حد التخمة ويشربون ويحششون ، ويحيكون المؤامرات المتوالية سعيا وراء كرسى السلطنة ، ثم يلغون فى اجساد المحظيات والجوارى والغلمان ، ويتلهون بقتل الناس ذبحا ، أو شنقا ، أو هتكا للعرض أو سرقة أو نهبا .

وسعد مكاوى يصوِّر الطرفين بريشة واثقة شديدة الاتزان ، لا تعمى عن نواقص أفراد الشعب ، ولا تمجدهم ، وانما تعرضهم بكل ما فيهم من صدق وطيبة ومن خداع وتراخ وجبن فى احيان بعينها . غير ان الخط الذى لا يتزحزح عنه هذا التصوير ابدا ، هو خط الحب لهؤلاء الناس ، حب يعانقهم ، ويحمل همهم ، ويؤكد قدرتهم على انتزاع النصر من أفواه الوحوش ، بكل ما وسعتهم الحيلة .

وكثيرة هى الحيل التى يلجأ اليها الناس دفاعا عن أنفسهم . ابرز هذه الحيل ما تبرع فيه الشيخة زليخة من مزج بين دور صاحبة الكرامات ، ودور العرافة القادرة على استشراف المستقبل ، ودور المقاومة النشيطة للفساد بين أفراد عزوتها ، وفى داخل صفوف اعداء هذه العزوة .

تدخل الشيخة على بيت صانع النعوش ايوب مقتحمة ، تشارك أفراد الأسرة أكل خبزتهم المتواضعة . تعلم ان أهل البيت يحبونها مثلما تحبهم . ومثلما يحبها كل بيوت حارة الحمام . يسألها أهل البيت : هل رأيت الوالى الجديد بلباى ، فتقول مستبصرة : بل رأيت السجن والسجان وبلباى المجنون فى السلاسل . وتشبع الشيخة فجأة فتقول : الحمد لله الذى لا يحب الشيخ عباس . والشيخ عباس هذا صاحب كُتَّاب ، وهو حبيب المماليك وزليخة تتهمه بأنه ــ علاوة على نهب حمام البلد وقبض الأجرة من سكان هذا البيت ــ يراهن فى السر على نطاح الكباش ومناقرة الديوك .

اما عريف الكتاب فهو موضع ثقة الشيخ عباس . يعطيه الشيخ دينارين ويطلب اليه ان يذهب الى زريبة المعلم جرجس فى كفر الطماعين ، ويراهن على الكبش الأبيض بطل النطاح ، والديك الأحمر بطل المناقرة . وله على هذا مكافأة ، شريطة الا يخبر أحدا ان شيخه يقامر فى السر . غير ان خليل يأخذ الدينارين ويدخل ماخور المعلمة هاجر ويشرب ويتخدر ، ويأنس الى بنت فى ثياب غلام ، لم يكد صدرها ينهد ، كأنها على حدود الجنس ، لا بنت ولا ولد فتناوله وتستقبله وتذهب مع الخمر والمخدر بعقله ، فيفشى لهاجر سر شيخه ، ويطلب اليها ان تقامر كما يفعل الشيخ ، فيفتح لها باب الرزق .

هذا الشيخ ذاته ، خليل ، هو الذى يثور ثورة جنونية ـــ فيما بعد ـــ حين يهينه المملوك بخطف عمامته ، فيقبض عليه خليل ، ويقتله ثم يدفنه ويكتم هو واصدقاؤه السر . لم تحل معايب خليل الكثيرة بينه وبين ان ينتقم لنفسه وللناس من اعدائهم المماليك .

وحتى الشيخ عباس ، المنحاز تماما الى جانب المماليك تحتال الشيخة زليخة واعوانها على اختطافه . فعلاوة على مثالب الشيخ عباس التى تقدم ذكرها ، كان يقوم فى محضر الوالى الأعور بدر الهزوعة . يرقص على وقع نقر الطبلة ، ويتخلع ويلعب بطنه وردفيه ويظل يرقص حتى يقع على الأرض فاقداً الوعى . تخطف زليخة واعوانها الشيخ عباس وتبْقيه رهن الاقامة الجبرية حتى ينصلح حاله . وتتنبأ بأنه يوم يخرج من عندها فسيخرج معافى فى بدنه وفى روحه . وبالفعل ينصلح حال الشيخ ، وينأى بنفسه عن مواطن الزلل ، يقيم عند يوسف ، الذى سبق ان كسر ذراعه وهو تلميذ فى كتابه ، يقيم فى خلوة ، يصوم أحيانا ، ويعالج كسر جناح ذكر حمام أبيض ، ويعلن انه سوف ينهى صيامه لو طار ذكر الحمام صحيحا معافى . ويتبرع ببعض ماله كى يسهم فى اتمام جهاز العروس زينب . ويوم يموت الشيخ عباس يطلب له يوسف الرحمة ويذكر فضل زليخة عليه ، التى مسحت على قلبه بنورها وجعلته ينضم الى صفوف الحق .

والجانب الآخر ، جانب سلاطين المماليك وامرائهم وجنودهم ، ونسائهم وغلمانهم ، وسهراتهم الداعرة ، وميولهم الشاذة يجيد سعد مكاوى تصويره إلى حد تدلف معه إلى واقع حى ، وليس كى نعاين مجرد احياء لتاريخ قديم . فقد ينبغى ان نذكر هنا ان « السائرون نياما » ليست محاولة لاعادة بناء الماضى ، فان هذا البناء قد تم بالفعل فى واعية الفنان ولا واعيته ، ثم تخمر وتقطر ، وخرج لنا قويا كالحياة ذاتها . ومن ثم فنحن لا نشهد الماضى أمامنا ، مستعادا ، بل نعيشه بالفعل بعد أن خلقه الكاتب من جديد فى عمل فنى مرهف الحس ، شديد الاناقة ، فائض الحيوية .

لنأخذ مثلا تصوير سعد مكاوى لشخصية السلطان بلباى ، الذى تفتتح الرواية احداثها وقد

نصب هذا السلطان حديثا . انه كتلة ضخمة من اللحم العاجز ، وضعه خير بك الدويدار على الكرسى السلطانى لخدمة اغراضه . والسلطان يعلم هذا ، ويعلم انه بدون الدويدار غير قادر على أن يحير جوابا . وهو يعلم أيضا ما هو افدح — فعلاوة على عجزه عن ادارة شئون البلاد ، فهو عنين ، لا يستطيع اثبات نفسه فى الفراش .

يعود السلطان من رحلة صيد مزيفة ، قد رتبت له بحيث يبدو صائداً لا يلحقه احد فى مهارته ، فتلقاه سلطانته الشركية المتنمرة وتسأله : سبع يامولاى أم ضبع ؟ يقول بلباى : بل كان صيدى حمولة رتل من الخيول . وفوق قدرة السباع ياسلطانتى . تدرك السلطانة أنه لم يفهم عنها فتعود تردد : سبع يامولاى أم ضبع ؟ كانت قد عرضت عليه فتنة صدرها الذى انحسرت عنه غلالتها الدمشقية الباهرة . غير أن السلطان عاجز ، وهو ينفس عن عجزه بطلب احضار المساجين كى يتلهى بقتلهم أو محو انسانيتهم . من بين عشرة مساجين يصطاد بلباى رجلا ذا لحية بيضاء . يُمَثُل الرجل راكعا على ركبتيه امام السلطان وقد شمله هدوء غريب . يسأله السلطان هل تعرفنى ؟ يقول السجين : لا . يواصل السلطان : لا تعرف سلطان البلاد ؟ يرد السجين : انّى لى أن أعرفك وأنا سجين منذ سنين . يسأله السلطان : لم هو مسجون فيرد الشيخ الجليل : لأننى وأنا فى الرابعة والعشرين قلت رأيى فى السلطان جقمق فى صحن المسجد الأكبر فزج بى فى السجن . يقذف السلطان فى وجه الرجل بكلمة واحدة : اسجد . يسأل السجين : لتذبحنى ؟ يقول السلطان : بل لتسجد لى . فيثور الغضب عارما فى قلب السجين الهادىء ويقول : بئس تاجرك الذى جلبك واستاذك الذى اشتراك بماله ، ويوم النحس الذى رفعك على الرقاب .

ويثور السلطان بدوره فيذبح السجين بيده ، ويعمل سيفه فى باقى المساجين وهو يصرخ : ما أنا بضبع يا أبناء الكلاب ، بل سبع هذا البر ان كنتم لا تعلمون .

سبع البر هذا ينسخط الى قطة لا حول لها ولا طول فى محضر سلطانته جلبهار . تريد السلطانة أن تعرف ماذا يفعل بها السلطان من بعد . فتدخل عليه ساقية شابة ، فصيحة اللسان ، تسقيه حتى يسكر ، فيصرح لها أنه مسلم رقبة زوجته السلطانة إلى الجلاد ، ليتخلص من النكد الذى تشيعه فى حياته ، وانه سوف يصيبها هى سلطانه على البلاد ، وليعلم الجميع انه سبع البر ولا كلمة فوق كلمة السبع حينما يقرر انه قد فرغ اجل جلبهار .

كانت السلطانة تتسمع من وراء ستار ، فشقته وصاحت : بل انت ياعجل العجول النتن ، من فرغ أجله ! ويلك منى يا ابن مرتخية الأوصال . انا بنت افعى ياعار الرجولة ، ياسبع الاحلام ؟ يا مضحك الأمراء ، يا العوبة الدودار ؟ . بكى السلطان من خزيه وطلب العفو

فأوهمته جلبهار ان الطعام الذى أكله فى التو كان مسموما ، فلما انهار أمامها ، قالت له : عندى الترياق ، شرط أن يشهر سلطنتها وتكون لها القبة والسنجق والعصائب السلطانية. يوافق السلطان من توه فتركله الثمره فى سرته وتقول : انهض يا جبان ، فلم يدس أحد لك السم . انهض فإن الأمراء المجتمعين الآن فى قصر الدودار لعزلك لن يلبثوا ان يأتوك فى احتفال مهيب لتسليم رقبتك الى ايواظ وسيفه . أما رقبتى أنا فلن يمسها غير كرائم الجوهر وقبلات العشاق ونفح الطيب !

وقد ورد سابقا ان سعد مكاوى يعطى كل ذى حق حقه من العناية الفنية والتصوير المقنع ، رغم وضوح انحيازه الى جانب الشعب وطوائفه . ومن ثم نجد شخصيات المماليك امامنا قوية ، بارزة مقنعة . وما السلطان الأضحوكة ، والسلطانة الثمره الا مثلان فقط من أمثلة هذا التصوير الجيد . ان سعد مكاوى يستغل شخصياته القوية هذه فى خلق مواجهات درامية بالغة القوة ، تقدم على تصادم يكون له شرر حينا ، ويشبه اللعب بالسيوف فى مبارزة حينا آخر ، ويقرب كثيرا من مباريات الشطرنج حينا ثالثا .

هذه جلبهار قد تخلصت من سلطانها الخائب ، فهى ترمى الآن الى السيطرة على السلطان الجديد تمريغا . كان السلطان قد اذن لها بالمثول فتقدمت اليه تقول : بين يدى مولاى السلطان جارية ضعيفة لاتعرف مصيرها ، ترملت بعد شهرين من زواج شرابه مر ، وجناحها مكسور . يرد السلطان : ان شئت دفعنا بك الى حيث يقيم زوجك فى السجن لتزوريه فى أية ساعة تختارينها من النهار أو الليل .

ترد جلبهار : مولانا السلطان يعرف انى أرملة ليلة زفافى ، يسألها السلطان : فماذا تريدين اذن ؟ تقول جلبهار : لى مطلبان : الأول : ان اختار بنفسى المكافأة ، اذا ماظهر لمولاى ان السر الذى أحمله اليه ذو خطر ونفع . اما المكافأة فهى أن تقبل منى هذه الهدية . ثم اندفعت جلبهار تفك رباطى عباءتها ، فاذا العباءة على البساط ، واذ هى مطمئنة مبتسمة عارية ، وشعرها كموج الليل يؤخذ تمريغا على غرة امام هذا الجمال النفيس ، ولكنه لا يلبث ان يتماسك ، ويسأل جلبهار عن السر الذى تحمله ، فتصعد الدرجات السبع الذى تؤدى الى الكرسى السلطانى ، وبدفعة من ردفها تزحم الرجل على الكرسى ، وتقول : احذر « بظلم ونادر والدويدار » .

ثم تقول : عدنى انك لن تأخذ منّى سرى ثم تقتلنى به . فيمسك بخصلة من شعرها الجميل ويقبلها ويعدها بعدم الغدر . ولكنه يسألها : وانت ما ثمنك ؟ تسأله بدورها : هل بين نسائك واحدة تحبها ؟ بمعنى الحب ؟ يقول السلطان : لا . تقول جلبهار : اذن هذا هو مكانى الشاغر ! فيسأل السلطان : سلطانة ؟ فترد : عبدة ! اذ ذاك يمسك السلطان يدها بقوة

ويقول : انت اما مخدوعة مدسوسة معى ، أو جاسوسة اخرى من جراب الدودار . ولن تخرجى من هنا حتى اعرف الحقيقة ، ويطمئن اليها سيفى . ولسوف اعذبك حتى تفرزى كل ما عندك . لئن كانوا علموك المشى خطوتين على الحبل ، فأنا أمير الراقصين على الحبال ! ومن ثم يدفع بها السلطان الى السجن ، ويرسل من ورائها من يقص شعرها كله ، فلا تضيع منه شعرة واحدة ، لأنه يريد ان يصنع منه وسادة لاحدى نسائه .

غير ان تمر بغا لا يهنأ طويلا على الكرسى ، ففى ليلة واحدة عزله الدودار من العرش ودفع به الى السجن وجلس فى كرسى السلطنة بدلا منه ، ثم فوجىء الدودار بمن يقول له : ان القلعة مطوقة بعسكر قايتباى . جهز هذا انقلابا خاطفا فى عشر ساعات ، وجاء يطلب العرش . اخرج قايتباى تمر بغا من السجن ، فجاء يشهد كيف ينهار الدودار حتى يعرض على قايتباى فى ذلة خاتم السلطنة وهو يقول متملقا : خاتم السلطنة مشوق الى مولاه الحق . فيشمئز وجه قايتباى ، ويقول : انا يا خسيس اصنع أختامى بيدى ، أما انت فتأخذه معك لتلعب به فى السجن . وهكذا توالى على كرسى السلطنة فى ليلة واحدة ثلاثة سلاطين .

بمثل هذه الأحداث الدرامية المتلاحقة التى تحبس الأنفاس يضمن سعد مكاوى لروايته حركة دائبة ، وفرجة مسرحية من الطراز الأول . حتى ليقوم فى اذهاننا باستمرار امكان ان تعرض الرواية كلها ، أو بعضها على خشبة المسرح ، فى شكل درامى ، أو موسيقى غنائى ، فهى حافلة بكل مايشد العين والأذن والقلب .

غير ان الحوادث الدرامية المثيرة ليست مقصورة على القلعة وسكانها . هناك سكان ميت جهينة ، من قرى الجيزة ، التى لجأ اليها بعض من متمردى القاهرة ، على رأسهم خالد ، الذى غدروا بأخته ، وعيسى الهارب من حكم القضاء الظالم ، ويوسف وايوب الذين وجدوا العيش فى الريف اكثر موعدة وأفسح افقا ، وأوجب ان يديروا منه صراعا ضد المماليك تارة ، وضد ملتزم الناحية الشيخ ادريس ، وابنه حمزة تارة أخرى .

ولكل من هؤلاء ثأر يسعى ليأخذ به . فإلى جوار شرف خالد الملطخ ، كان شرف كل من محمد ، وحسن قد ناله عار كبير . الملتزم ادريس نال محسنة قبل ان تدخل على زوجها عيسى . دخلت على زوجها وهى حبلى فى بنت اسموها من بعد نور . اما فاطمة فقد تزوجت من غالب ثم لم تنجب ، حتى كبسها ادريس فى عز الظهر فى الطاحون القديم فحملت منه فى محمد . واليوم وقع كل من نور ومحمد فى غرام مشتعل ، واخذ محمد يطالب بأن يتزوج حبيبة قلبه ، واذا بالسر يفتضح ، فيدفع محمد الى حمل فأس يريد به ان ينتقم لشرفه .

تصب هذه الثأرات جميعا فى الثأر الأكبر الذى تنوء تحت ثقله قرية ميت جهنة : ظلم

الملتزم ، وشرهه فى الجباية ، واستباحته أعراض الفلاحات . واطلاقه ابنه يعيث فى الأرض فسادا ، ويجرى وراء البنات فى الغيطان وتجمع الاهالى فى الطاحون يتذاركون احوالهم . قال رجل منهم : الأهالى فى منفلوط وغيرها قطعوا الطريق وذبحوا الملتزمين ودحروا تجريدة الوالى . وقال كهل نحيل حاد النظرة: هل يكون مسلما من يصبر على الضنك والمظالم وصوامع الملتزم مليئة بالغلال، أعلى صوامع رأيناها من جرجا الى الجيزة ؟ وقال يوسف : نحن عصبة من رجال أشداء لكنهم لايدرون ماذا يفعلون . فماذا نفعل يا سيدنا ؟ وساد الصمت وسمع يوسف صوت زليخة ، وتمثلها كما رآها فى طفولته يوم ضربت عيسى بقرعتها على مؤخرته طالبة منه ان يكون وجع هذه الضربة معه يوم ينصب قامته فى وجه الباطل .

قال الرجل المهاب : تسألنى ماذا تفعلون ؟ رأيى ان الانسان ليس من حقه أن يخذل ارادة الله فيه . رأيى أن ترفعوا عيونكم الى السماء وأن تقولوا يا ارادة الله كونى مع شرف النساء وعزة الرجال .

وكبس حمزة ، ابن ادريس الطاحونة وأخذ يتواقح على المجتمعين . سأل محمد نفسه هل يفتك بابن الملتزم ويعيده الى أهله وهو مقلوب بالعرض فوق سرجه ، ودم رجولته نازف مثلما نزف دم بركات ؟ طقت الشرارة ، وزعقت فى الطاحون الدماء الهائجة . وصرخ حمزة صرخة واحدة ، وبعدها لا صوت .

وتجمع الناس من كل مكان . زادوا الضعف أو ضعفا ونصف . ونظر الملتزم وغيظه يغلى ورجاله رابضون بسلاحهم ومن وراء كتفيه حارسه . ورسوله الى والى الجيزة لابد ان يكون الآن فى حضرة الوالى ومد وجزر من رجال ونساء . ومقاطف مليئة بالحجارة ومناجل وفؤوس . وأربعة رجال يرفعون جذع شجرة ويدقون الباب الشرقى فى احراز وتجريدة الوالى لا تصل . وأحد حاملى الشجرة المقتحمين هو خالد الأعمى زوج فاطمة . وانخلع الباب وارتطمت مصاريعه بالجدران . وصرح خالد : خشى ياميت جهينة سلمى على الملتزم وصوامعه واصوات تعلو : فتحناها . فتحناها ! صوامعنا ..

وركع إدريس بارز البطن وهو يخطف نظره عبر الابدان الثلاثة : بائع الخروب والبنت والولد وأرهف مسامعه توصلت اليه اصوات سنابك الخيل المقبلة . وتعالت الزغاريد فى ارجاء البيت . وصرخت نور صرخة عاتيه وتقدمت بالبلطة المرفوعة وثبتت قدميها ونصبت طولها وصاحت : قبل أن يدهمونا ، تقبل يا ابتاه التحية . وأخذت نفسا كبيرا فى شهقة عالية وضربت ضربتها .

كما قلت آنفا ، لس هذا العمل محاولة لاحياء التاريخ ، بل هو عمل فنى جميل وجليل يقوم على رجليه ثابتا ، وطيدا ، لأن الخيال قد الهمه وسحره ، وسحرنا ، واحال احداث التاريخ

الميته الى عمل فنى نابض ، وحلو وأخاذ ، وكفى الفنان شرفا أن يخوض أبحر التاريخ ، ويقلب أحجار آثاره الدارسة ثم يعود إلينا بهذا الكنز النفيس .

العنقاء
أو تاريخ حسن مفتاح

لويس عوض

أحب حسن مفتاح عايدة علم ، ثم تركها تخرج من حياته . خشى على نفسه منها . هى نموذج أليم ومحبوب للمرأة المصرية . جميلة بمقدار ، سمرتها من الفلاحين وعيناها الضيقتان من الترك القدامى . وهى رخوة ، لا صلابة فيها . وحسن مفتاح مكافح لا يحب الا المكافحين . فكيف يأنس الى من قد يثبط عزمه ؟ لو تزوجها لخرج زمام امره من يده . وهو شديد الولع بعايدة لاتزانها الكامل الموجع وانسانيتها القوية الضعيفة . ولكنه لا يعرف ان كان يحبها أو لا يحبها . هو لو تزوجها ، ستقول له : كفى كفاحا. ولم يكن حسن مفتاح معاديا لفكرة ترك الكفاح. كان يشعر بالفراغ ينهشه من الداخل. وكان يخشى أن يجف عوده كأعواد البوص . وأن يتحول حبه للبشر بغضا مريرا . ماذا جنى من حياته العامة ؟ فقد نفسه . وهو يرى ان هذه جريمة كبرى فى حق ذاته . تجاوز الثلاثين ولم يكن له حياة خاصة قط . عايدة علم كانت الخيط الوحيد الذى يربطه بعالم الأحياء . وقد انقطع الخيط فهو الآن يعيش بين الظلال التى صنعها بيديه . نفسه كانت تتطلع الى المادة . الاحساس بلحم المرأة . هذا الاحساس هو طعم ام الخلول العارية اللحم. هو زجاجة من عطر الورد . هو لون الحمرة على خد تفاحة . وحسن مفتاح يتوق الى أن يرى حوله عادل حسن مفتاح وكامل حسن مفتاح وسعيد حسن مفتاح ، واذا أمكن فنادية حسن مفتاح . ان هذا حق من حقوقه الأزلية المقدسة . ان هذا حق من حقوق الانسان .

غير ان حسن مفتاح كان يعلم فى قرارة نفسه ان هذه كلها هى ترهات الوحدة . تأتيه فى الليل . وهو ضعيف امام الليل هو لم يخلق ليشترى الكرنب لبيته أو ينجب أولادا . بل هو لم يخلق ليكون له بيت أصلا . ولو انه أوتى بيتا لهجره وعاد نزيلا فى خان . ان عايدة علم رقيقة لا لون لها ولا طعم ولا رائحة . وهى لا توحى ابدا بحب همجى جبار كذلك الذى يصرع الملوك

ويهلك الأبطال ، ويتلف الشعراء ، غير انه ليس بحاجة الى حب جبار ، وكفاه من نار الغرام ما قام فى فؤاده من دفء المودة ، يشعر بها نحو عايدة . ان امامه اعمالا جساما .

كان حسن مفتاح قد عرف هذا الحب الجبار يوم التقى بمونا ربيع ، فوجدها دوامة تضطرب بالعواطف الصاخبة ، ووجدها متزوجة . وحين تحاورا نصف ساعة فى أصول المذهب التكعيبى فى الرسم ، ادرك كل منهما ان السهم قد نفذ ، فشهقت مونا ربيع واطرق حسن مفتاح ، وجاء عبد السلام بك ربيع يقتاد زوجته الى الكريزلر السوداء . علم حسن مفتاح انه كان ميسرا له ان يتواعد معها فى حضرة الزوج وفى غيبة الزوج ، ولكنه تكهن بمستقبل عاصف لهما ، فلم يشيعها حتى بنظراته . وتأمل حسن مفتاح حياته ، افتقد عايدة علم . كانت تغذى فيه براعم الحياة . كانت تُدَمِّث كيانه كما يدمث الشحم الآلة فلا تجرش تروسها ولا ينالها الصدأ والجفاف . ولكنه تركها تخرج من حياته . فأوشكت روح حسن ان تصرخ : لقد قتلنى كارل ماركس » ولكنها عدلت وقالت : « لقد قتلت نفسى » .

قتله كارل ماركس أو قتل هو نفسه سيان . ان حسن مفتاح قاتل لاشك فى ذلك . هو قاتل مغتال ، يعيش فى عالم من الأشباح صنعها بنفسه ، وهو بينها الشبح الأكبر . انه يجفف الأعواد النضرة ويجعل من الأحياء اشباحا خاوية . الم يغوِ دسوقى ابراهيم وطه الحكيم وبسطورس وأبو زيد وسنية زيتون ومحيى العبد وطلبة كمالى وغيرهم وغيرهم ، ويزين لهم سبيل الكفاح ويعلمهم كيف يقرأون الكتب والصحف ، وكيف يملأون الدنيا عجيجا بالمذهبيات ، ويتقنون الكلمة الكبيرة الجوفاء ؟ كل هذا فعله حسن مفتاح باسم الانسانية ، فماذا أصابوا وماذا أصابت الانسانية ؟ لقد جففهم حسن مفتاح كما تجفف الاسماك ، ووضع عليهم ملحه وتوابله وحبسهم فى احقاق محكمة . ما اراد بأحد منهم ضرا ، وإنما هو يصوغ الناس على شاكلته . ولقد ملأ مقاهى القاهرة ونواديها بفتيان لا حديث لهم الا اضرابات العمال ، وغلمان يتشاحنون على ماهية التكتيك وماهية الاستراتيجية ، بدلا من أن يتشاحنوا على بنات الجيران ، يتخاصمون فى الثورة العالمية والثورة الاجتماعية ، بدلا من أن يتخاصموا فى لقمة العيش .

ومع كل هذا ، فما كان باستطاعة حسن مفتاح ان يتخلى عن طبيعته تلك . ولو تركها لعانت روحه الفراغ الممض . ان ما يفعله هو قدره ومصيره . نفسه واسعة كالهاوية ، تضم الانسانية وتشمل كل ما فى الوجود حبه قوى كالمحيط ؛ جارف كالطوفان ، فاتك كالنار الحمراء . وحقده غضوب كالبحر ، مدمر كالسيول ، آكل كالشعلة الموقدة . ان حسن مفتاح ينظر الى الزهرة ويقول : يا اختاه . وينظر الى البجعة ويقول يا اختاه . وينظر الى الحمل ويقول : أى أخى الصغير ، وينظر الى الجبل ويقول أى أخى الكبير ، وينظر الى الأرض الرحيبة

ويقول يا أماه . وينظر الى البحر العظيم ويقول ياابتاه ، أنا ابن زفاف « جيا » الى « اوقيانوس » . انه يستطيع ان يمسك سنابل الحنطة ويقبلها فى حنان . انه يستطيع ان يعبد الشمس ويناجى القمر ، وأن يحتضن الرياح وان يبث نجواه لروح الانسان . انه ما خلق ليلعب الدور الصغير ، وانما خلق ليصارع العمالقة وليقتتل مع الأرواح الشريرة الا سوّدت الليالى وملأت الأرض بالغيلان .

من أجل هذا يسعى حسن مفتاح الى الحلول فى جسد ابن عم له ، قروى لايزال يسير حافى القدمين فى مسقط رأسه . لقد غرق حسن مفتاح فى مياه البحر الأبيض و انطلقت روحه من اسار جسده ، وأصبحت بين ان ترفرف على الماء وتحوِّم على اليابسة حتى ينقضى اربعينها ، وتنزح عن عالم الأحياء ، وبين ان تحل فى جسد آخر يضمن لها ان تعيش مجددا بين الأحياء . وحسن مفتاح يعلم ان روحه لو غابت عن اللجنة المركزية لاختصم اعضاؤها وذهبوا بددا . انهم بحاجة الى شخصية قوية ومتزنة ، يلتفون حولها ، وتتقدمهم الى تحمل التبعات . لهذا سوف يعود حسن مفتاح ولو مشى على أجداث الملايين . ان مصير الشعب فى خطر بدونه . وهذا امتحان لجدارته ، ولسوف يثبت جدارته بهذا الامتحان . لسوف يقتل سيد قنديل ، ولو على كره منه . هذه ارادة الشعب ، وارادة الشعب من ارادة الله . ولن يؤرقه هاجس بأن روحه ستفعل هذا بأمر من الشيطان وليس بأمر من الله . ان روحه ليست تجسه ولا هى مخربة انما تفعل ما هى موشكة ان تفعله لأن السماء قد استودعتها امانة ينبغى ان تؤدى ، فتصل بالشعب الى مصيره المحتوم .

ذهبت روح حسن مفتاح الى قرية « دماريس » حيث يقيم سيد قنديل . وفى القرية فهمت روح حسن مفتاح لماذا وقف الزمن فى الوادى . لقد اندمج الابن فى الأب وخضع القلب للعقل ، وطأطأ اوزيريس رأسه منذ ان أصبح تحتُ كبير الالهة . وقال : أنا الألف ، أنا الياء ، أنا البداية أنا النهاية ، انا الكل فى واحد » فتصحرت الحياة وسكت الهواء واصفر الزرع ، وغاصت التماسيح فى النيل ، وانتهى عصر الخيال ، وعبد الخلف السلف . وتاقت روح حسن مفتاح الى ان تتقمص روح حوريس المخلص وتهيب باوزوريس ان ينهض ، فان ولده مفتاح قد جاء ليرد اليه الحياة ، غير انها ادركت انها روح جوفاء لا تملك إلا أن تلبس ثوب المادة ، وعندئذ تجاب الصلاة ويرفع اوزوريس رأسه الكبير ، وتعود الى الوادى الحياة .

ومن ثم تقتل روح حسن مفتاح سيد قنديل وتلبس جسده . ويخرج حسن مفتاح من الماء فى جسده الجديد . ويروح يفكر . ان ما حدث هو جريمة من الطراز الأول . بل هو اعجوبة لم تحدث من قبل منذ ان دخل جبريل فى أعطاف مريم ورفرف بجناحيه تحت ضلوعها . بل هو مناسبة أخرى احترقت فيها العنقاء حتى صارت رمادا ، ثم خرجت من الرماد وقد تجددت .

حسن مفتاح هو الثائر الرومانسى ، الثائر الاشتراكى ، الزعيم المؤله ذاته ، حوريس الأساطير المصرية القديمة الذى قتل الشر ، واغتال الجمود ، وانقذ اباه اوزيريس ، الشهيد المتجدد ، من ظلام العدم . وهو أيضا السيد المسيح . وهو مهندس الثورة الاشتراكية التى سوف تجعل العبيد يخرجون من أوكارهم ، ويرفعون امام السادة هاماتهم ، ويهتفون فى المدينة بحياة التحرر ، فيتردد هتافهم من صحراء هليوبوليس الى صحراء الأهرام .

وهو كذلك فاوست الذى يبيع روحه للشيطان لقاء ان يمنحه كنوز المعرفة ويطلعه على مواطن الجمال فى الأرض والسماء . وهو أيضا الشيطان الحزين الذى عرفته الرواية الرومانسية فى اعمال شعبية مثل « أحزان الشيطان » ، أو فى السينما فى أفلام مثل : « عزرائيل يأخذ اجازة » . تدور فى نفس مونا ربيع هواجس حول حسن مفتاح فى نفسها صوت غامض يتساءل : تراه ساحر من السحرة الذين يحكمون الرياح ، أو جنّى خبيث ، أو شيطان افلت من جهنم ونزل الى الأرض بعد الطوفان ، واندس بين البشر ، أو روح ملعونه خالدة تسكن بيوت اللحم لتنتقل عبر القرون ، أو روح يائس كتب عليه الا يهدأ فى قبر أو تابوت ، أم تراه جسما مسكونا ؟ هبها تزوجته ، هل تبدو منه شيطانيته ذات يوم فيمد اليها يدا كساها الشعر الغزير فيخنقها ، بعد أن يتلو عليها سلسلة من اللعنات القديمة التى يكتبها القضاء فى سجل الآثام ؟ انها تنظر الى عينيه فتجد وراءهما عينين اخريين تفيضان بريقا غريبا وتنظران نظرات باردة قاطعة كأنها خنجر من الصلب البارد ووراء هذا كله اعماق من الحزن بلا قرار . — هل تختبىء وراء العينين الأوليين عينا الشيطان ؟ اتراها لو سألته من هو ، يجيب : « أنا حى بن يقظان ، جئت من وادى الجان ، مهمتى سحرية ، وسوف اعود من حيث اتيت على متن رخ عجوز . بل أنا العنقاء ، ومنزلى فى معبد الشمس بين احراش النخيل ، هناك تحت شروق الشمس ؟» لا تدرى مونا ربيع اين تكمن الحقيقة ولا تبالى .

غير ان حسن مفتاح يتولى بنفسه شرح ذاته فى الصفحات الأخيرة للرواية . يقول لمونا ربيع : انه جسد بلا روح . بل هو روح بلا جسد . انه لا يتكرر . هو ذرة من غَبار جاءت بها الريح وطارت بها الريح . هو شيء واحد لا يتوالد . كان من قبل وحدة لاتتجزأ ، ولكنه منذ غرق فى البحر تجزأ ، فغاص جسده فى الماء وطارت روحه فى الهواء . انه المسيح . مسيح الشيوعيين . ثالوثه المقدس هو ماركس وانجلز ولينين . وصليبه هو المشنقة . ان مفتاح الحياة القديم هو صليب رأسه حبل مشنقة . ان المشنقة لاتزال مفتاح الحياة . أما الصليب عند الشيوعيين فقد انقرض . المشنقة وحدها هى رمز الفداء . تمسح خطايا الابرار فليحمل كل مشنقته وليمضى على الطريق الكبير — طريق العذاب . المشنقة تمسح خطايا الاشرار أيضا . فليحملها المناضلون

ولينشروا الذعر فى الوادى حتى تتحطم السلاسل عن العبيد . أما هو فسيحمل مشنقته ويرحل . ويصبح للمناضلين مثلا فى الحياة وفى الممات .

تنظر اليه مونا فيخيل اليها انها ترى اكليلا خفيا من الشوك حول رأسه فتربط منديلا أحمر كبيرا حول عنقه وتهتف : لا تتركنى يا معلم » . وتريد أن تُعْوِل ولكنها تكبت المها وتروح تسقيه البراندى من كوب أحمر وتمسح جبينه بفوطة حمراء وتغسل قدميه بالبراندى ، وتلبسه جوربا أحمر وتمدد جسده على اطلس أحمر ، ثم تنام الى جواره قريرة العين .

لم ير النائمان الروح القدس يدخل من النافذة . تسبح لدخوله الأشياء فى الغرفة ، حتى السرير الثقيل رفرف الجناحان كما رفرفا عند بدء الخليقة . وحدثت المعجزة واكتملت الدائرة . وولدت الياء الألف . وافاق حسن مفتاح فى الفجر وقد تجدد ، كأنما ولد ولادة ثانية . فسعى الى فراش مونا وقبلها قبلة كأنها لم تكن . ووثق ان الياء ولدت الألف وأن الأب صار الابن . وترك حسن مفتاح مونا راقدة مشرقة كأنها الأرض قد اخصبت !

تتداخل الأساطير الغربية والشرقية والمصرية القديمة لتبنى شخصية حسن مفتاح . غرقه فى البحر وحلول روحه فى جسد سيد قنديل يستند الى فلسفة تناسخ الأرواح . وجدله الطويل وصراعه مع الشيطان واصراره ان يترك له فسحة من الوقت ليتهيأ للرحيل تشير من قريب الى اسطورة فاوست ومفستوفوليس . وتجدده بعد اخصاب مونا تستلهم اسطورة الاله الذى يموت ويبعث ، التى تعرفها الأساطير المصرية فى أسطورة ايزيس وأوزوريس وحورس ، كما تعرفها ثقافات أخرى . وواضح استناد الرواية الى المسيحية فى وصف الساعات الأخيرة من حياة حسن مفتاح . اكليل الشوك الخفى حول رأسه ، والصليب الجديد الذى يحمله ويمضى فى طريق العذاب ، والعشاء الأخير الذى يشير اليه حسن مفتاح حين يطلب الى مونا ان تأخذ رغيفا اعطاها اياه لتوزعه على الرفاق ، ثم صورة أخرى من حياة المسيح ترجمت الى شكل جديد : غسل ماريا المجدلية لقدمى المسيح يتحول الى غسل مونا لقدمى حسن مفتاح بالبراندى ومناداة مونا لحسن مفتاح بلقب « المعلم » .

ثم استعارة اسطورة العنقاء من اساطير العرب القديمة تعبيرا عن الحريق والموت والتجدد ، و حكاية الكلاب السوداء التى سجن فيها السحرة ارواح البشر من الف ليلة . وكذلك حكاية السجينات اللاتى تراهن روح حسن مفتاح تحت النخيل يتقاذفن اطفالهن بالحصرم ، وتتباهى الجنيات بشعورهن الطويلة البيضاء يمشطنها بأمشاط من عاج وابنوس ، ويغتسلن قرب الشط جماعات وقد تماسكن خشية ان يفترسهن التمساح العظيم ، أو يتحلين بين اعواد الذرة بعقود من حبها الأبيض . رأت روح حسن مفتاح الجنيات وشعورهن تنسدل غزاراً الى العقبين كأنها

أسلاك البلاتين . فلما صاح الديك كثر الهرج بين جماعة الجن ورقصن حول نخلات ثلاث متعانقات فى هيئة عقد ، رقصن سبع مرات ، ثم حملت كل صغارها وانصرفت الى كهوف الجان بين التلال وفى أثرهن الجنّ .

وينتحر فؤاد منقاريوس صديق حسن مفتاح لأنه رأى خطيبته تلبس الروب دى شامبر على اللحم فى وكر غرام زير النساء سرهنسك ـــ صديق مفتاح أيضا . ويمضى على الانتحار أربعون يوما الاّ قليلا ، فتأتى روح منقاريوس ـــ هكذا يهيء الوهم لحسن مفتاح ـــ وتطلب اليه ان يقتل رجلا اسمه على عبد الله ، حتى تستطيع روح مناقريوس ان تحل فى جسده ، ويمكنه بهذا ان يحيا من جديد فيقتل خطيبته زكية حنين . وتوضح روح منقاريوس انه ما لم يفعل حسن مفتاح ذلك فان روح مناريوس ستعود الى مكمنها فى شجرة جميز ، حيث تسجن الف عام عقابا لها لأنه محرم على الأرواح أن تزور الأحياء .

ويرفض حسن مفتاح ان يقتل انسانا بريئا ، فتقول روح منقريوس انه كان بامكانها أن تلحق الأذى بحسن مفتاح ، فتحطم تمثالا لقط اسود يحميه من الهلاك . ذلك ان من تزوره روح يموت فى شبابه . فان كانت روحه طاهرة مات غريقا . وان كانت نجسة مات مخنوقا . ويصر حسن مفتاح على الرفض ، فتزمجر الريح فى فراش حسن مفتاح الهادىء وينظر الى تمثال القط الأسود فاذا عيناه الخضراوان تتسعان وتحترقان فى الظلام الكامل كأنهما شعلتان من الفوسفور ، واذا القط الأسود يهوى ويتحطم . ويصرخ حسن مفتاح صرخة مرعبة ، ثم يفتح النور فيرى حطام القط ، ولكن المرآة تبدو صافية ناصعة ، وكانت من قبل تعكس هالة نورانية وتبين عينى فؤاد منقريوس وقد احمرتا ولاح فيهما غضب صريح .

هنا يستخدم لويس عوض عنصر الميتافيزيقا ليشوق قراءه من جهة ، وليُعّدهم لما يحدث من بعد . فان العقاب الذى لوحت به روح منقريوس حين قالت ان من زارته روح فى شبابه و كانت روحه طاهرة مات غريقا ، يحدث بالفعل لحسن مفتاح الذى يغرق فى البحر المتوسط اثناء نزهة بحرية . واضافت روح منقريوس : ومن كانت روحه نجسة مات مشنوقا . وقد مات حسن مفتاح مشنوقا فى ختام الرواية . شنق نفسه فى حجرته ، لكى يرسم فى الهواء علامة المشنقة المبشرة ، الحافزة الى الثورة .

وما كانت تريده روح منقريوس من الحلول فى جسد شبيه له هو على عبد الله ، حفز حسن مفتاح الى أن ينفذ الفكرة لصالحه ، فتلبس جسد سيد قنديل ، لكى يتسنى له ان يمضى قدما فى التحضير للثورة ، والانتقام من الأغنياء لصالح الفقراء .

غير ان رواية « العنقاء » تتحرك ـــ الى جوار هذا المحور الأسطورى ، على محور آخر

واقعى كل الواقعية . وهو المحور الذى يتم من خلاله وصف القاهرة ومثقفيها وعمالها ونسائها ومغانيها ونواديها وشوارعها فى ظروف منتصف الأربعينات ، وقبيل انتهاء الحرب العالمية الثانية . هنا نلتقى بشخصيات غنية فى تنوعها وفى افكارها ، وفى استجاباتها للأحداث . فإلى جوار عايدة علم ومونا ربيع ، المحور النسائى الذى يرفرف حوله قلب حسن مفتاح ، عاجزا عن اتخاذ قرار بالتزوج من الأولى أو من الثانية ، هناك شخصيات اللجنة المركزية الذى جعلوا مهمتهم الانقضاض على المجتمع الملكى المصرى وتغييره بالقوة ، فور أن ينظموا صفوفهم ، ويحكموا خططهم ، وفور ان تنتهى الحرب .

ولويس عوض يجيد كثيرا وصف هؤلاء الناس ، والتعمق فى خلفياتهم ، كما يجيد وصف شخصيات أخرى من غير المنتمين الى الحركة الاشتراكية من امثال الثرى المتلاف زير النساء سرهنسك ، وضابط الشرطة الصاغ الشربينى ، الذى يحمى النظام ويحقد عليه فى الوقت نفسه ويفضح مظالمه الكثيرة . وقبل ان يضفى على مونا ربيع صفتها الأسطورية : « خيمى » ، الأرض التى تنتظر الاخصاب ، يعرض الكاتب مأساتها الشخصية عرضا قويا مؤثرا . فإن ربيع بك زوجها يتخذ منها واجهة جميلة لأعماله ، يبقى عليها زوجا ، لا حباً فيها بل لترفه عن اصدقائه من الانجليز والباشوات ورجال الأعمال من الأجانب المحليين ، تخدمهم بالويسكى ، وتحدثهم عن بلزاك وتعزف لهم موسيقى شوبان ، فيقولون عقب انفضاض السهرة : يا لها من امرأة مثقفة ، يا لها من جلسات ممتعة . وفى الصباح يوقع ربيع بك العقود . لهذا تثور مونا ثورة عارمة فى وجه زوجها ، وتكرهه على تطليقها ، وتجلس تبكى السنوات السبع التى ضاعت من حياتها مع هذا الوغد الذى تعلم فى اكسفورد كيف ينافق ويرتب افكاره مع دخان الغليون الذى يضعه فى فمه كحاجز يقيه التورط فى كلام غير مطلوب .

كذلك يعرض لويس عوض الورطة التى تجد فيها عايدة علم نفسها ، اذ تتوق الى الزواج منه ، ولكنها لا تأمن له أبدا ، وتتخوف اشد التخوف من شطحاته ، وتعجب كل العجب من أن يعرض رجل عاقل مثله نفسه لخطر الملاحقة والاعتقال فى سبيل فكره ، بينما هو قادر على أن يحيا حياة سوية معها تغدق عليه عطفا وحنانا هو فى أشد الحاجة اليهما ، وتهنأ هى الى جواره ، وتنجب له البنين .

أما أعضاء اللجنة المركزية التى يقودها حسن مفتاح ، فيصورهم الكاتب فى صور الأسرى بين مطالب الكفاح وحاجات حيواتهم الشخصية . هناك سعدية الطويل المسلمة التى كتمت هواها لبطرس قلادة ، الذى لم يتحرر من قيود الدين فيشهر اسلامه كى يتزوج منها . هى تتهمه بالجمود فى اعتناق الماركسية ، وهو يرى أنها ليست جدلية وانما ميكانيكية . والحل عنده ان يلزم

كل مكانه ويتزوجا زواجا بكلمة الشرف وحدها ، الى ان يحين الوقت الذى يقوم فيه الزواج المدنى .

وهناك نعيم الذى كان فوضويا ، هائجا كالبحر الغضوب ، قبل ان يتعرف اليه حسن مفتاح ، يقود جماعة من الشعراء والرسامين المتمردين كل جمعة الى الهرم الأكبر ليبولوا عليه جماعة ، تعبيرا عن سخطهم ، فهذبه حسن مفتاح باللين وبالعنف ، حتى تحول الى كائن مفكر ، وان لم يتخل عن بعض صبيانياته ، فهو يصنع تماثيل من الصلصال للرجال ويشنق منهم واحدا كل صباح ، حتى يروض نفسه على القسوة حين يحل اليوم الخطير . وهو الى هذا قد ابتدع نظرية فى تفسير التاريخ هى نظرية التفسير الفرويدى : ان اقوى دوافع المجتمع هو الاخصاب . هو الذى ينشىء الأجيال . الآباء يخصبون الأمهات ، فتلد هؤلاء الأبناء ، وتقوم على الفور علاقة عدائية بين الأب والابن . الاب يعلم ان الابن محتل مكانه ذات يوم وانه سيضطر الى التسليم طوعا أوكرها . ان ميلاد الابن هو اعلان شهادة الوفاة للأب . ومن ثم يقوم صراع الأجيال . هذا الصراع هو الذى يصنع التاريخ ، وليس الفرد أو الطبقة .

والكاتب يورد نصا كاملا لمحاضرة القاها نعيم هذا أمام اللجنة المركزية ، وهذه المحاضرة ، إلى جانب خطبة سياسية مموسقة على طريقة الخطابة الاثارية التقليدية يلقيها حسن مفتاح فى اجتماع اللجنة المركزية ، تبين علاقة رواية « العنقاء » بأدب الدعوة الذى يحتفى بالأفكار ويوردها بنصها أو بقليل من التفنين فى جسم العمل الفنى لأنها فى رأى الكاتب واجبة الاثبات واجبة الانتشار ولو على حساب الفن .

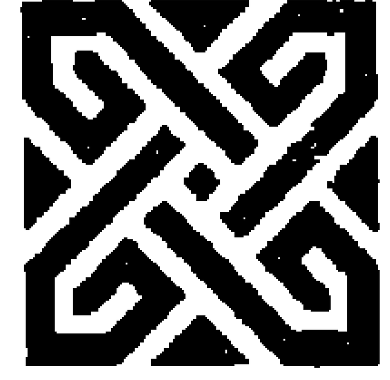
على أن بالرواية من المشاهد القوية المؤثرة ما يمنعها ان تكون ادبا دعائيا وحسب . هناك المواجهات الثلاث التى تتم فى الرواية : بين حسن وروح فؤاد منقريوس ، وبينه وبين الشيطان . وهذه المواجهة الأخيرة ترتفع الى مستوى الدراما القوية وتذكر بأعمال مثل مسرحيتى « فاوست » ، و« ماكبث » ، وكلتاهما تستخدم عنصر الميتافيزيقا للتصوير المقنع والتأثير . وهناك المواجهة الثالثة بين مونا وزوجها ربيع وهى مواجهة اجتماعية تتم فى المستوى الواقعى الصرف ، وتذكر بمشهد المواجهة بين نورا وزوجها فى مسرحية « بيت الدمية » ، وان مالت مواجهة مونا ربيع الى حدود الميلودراما حين تتهيأ مونا لقتل زوجها بالسم ، وتعترف له بهذا اعترافا يزلزله ويحمله على تسريحها .

ان « العنقاء » قراءة ممتعة ، وهى تسجل احداث فترة هامة من احداث التطور الاجتماعى والسياسى فى مصر تسجيلا يبقى على الزمن ، وهى ـــ مضافا اليها المقدمة الطويلة التى كتبها لويس عوض فى شرح خلفيتها التاريخية ، والتى دفع بها الى المطبعة عام ١٩٦٦ ، أى بعد حوالى

تسعة عشر عاما من كتابة الرواية ، تشكل عرضا للنشاط الشيوعى فى مصر من وجهة نظر الكاتب ، ونقدا لهذا النشاط من منطلق يذكر بما تتعرض له النظرية الماركسية من هجوم ومراجعة ومحاولات تطوير فى الوقت الحاضر .

فساد الأمكنة

صبري موسى



نِدَّان قويان يتصارعان . رجل وامرأة . كلاهما مسلح برغبة حارقة فى ان يحقق حلما يعصف بروحه . المرأة قوقازية مهاجرة ذات جمال حاد . تلقى رجلا انضجه التجوال فتقرر من فورها أن تقتحم حياته . تقول له : سأكررك يا نيقولا . واثبتك فى الأرض بهذا التكرار . لن تكون من بعد قادرا على التحليق الدائم من مكان الى مكان . لكن نيقولا لم يكن الرجل الذى يبقى فى مكانه . حين يستغرقه حب امرأة ما ، يقبل عليها بكل ما فى جسده من قوة وفحولة ، غير ان لهيبه ما يلبث ان يخمد ، وتصبح الحبيبة مجرد صديقه هذا ما حدث له مع نساء اخريات ، وهذا ما حدث له مع القوقازية ايليا التى حلمت بأن تستأنسه وتربطه الى مشروع انشاء كازينو فى اعالى الجبال ، واسلمته جسدها ولما تمضى على تعرفها اليه ساعات ثم تزوجا كانت تريد ولدا يربط الرجل المفتون بالتجوال فولدت بنتا وبدلا من أن تكرره هى كرر نيقولا ايليا زوجته بأن أسمى ابنتهما ايليا الصغرى ، ثم طاوع روحه الحوامة ، واستمع الى اغراء صديق له مهندس تعدين ، كان يلوح له بأرض عظيمة ، ذات تاريخ حافل ، يشقها النيل ويمتد بها الى حافة البحر قادما من صحارى هائلة ، بها جبال تحوى الوانا متنوعة من كنوز المعادن . أرض لا يملكها أحد ، ينزح اليها كل راغب ، فينقب ويعثر ، ويستخرج تصريحا بالحفر ، فيصبح مالكا لواحد من هذه الجبال العظيمة التى لا يملكها أحد . استبد الحلم بنيقولا ، واخذ يرى نفسه مالكا جبلا يؤكد تفرده فى ذلك الكون الواسع . وهكذا سافر الرجل فى صحبة صديقه ماريو ووجد نفسه يتأرجح ذات صباح مشرق فوق جمل يجاور جمل صديقه ، وكان وراءهم ثلاثة جمال أخرى تحمل العمال والأدوات والمؤونة . كان ماريو وشريكه المصرى خليل باشا يحلمان بالذهب . وكان نيقولا يبحث عن المعرفة . كان ينظر الى بحثة عن المعرفة على أنه محاولة كبرى للخلق ، وكان يفاضل بين الخلق فى رحم امرأة والتنقيب عن

المعدن فى رحم الجبل ، فيرى التنقيب عملية اخصاب كبرى تتعدى الفرد إلى أفق اوسع منه بكثير . ايليا شهوة جامحة . والجبل شهوة جامحة والصحراء بسكونها الصوفى شهوة كبرى أشد جموحا . فما الغريب فى ان تتكرر داخل جسده رجفة التواصل الجنسى ، حين يتحسس الجدران البكر مختبرا طراوتها ، محددا بالطباشير الأبيض علامات لعماله ليثقبوها بآلاتهم ويحشروا فى بكارتها أصابع متفجراتهم . هذا فعل جنسى من أفعال الاخصاب . وما انزلاق نيقولا الدءوب فى رحم الجبل الا سعى لزرعه وايلاده . لقد استولدته ايليا الكبرى ابنته ، أما هو فيولد بارادته الحرة الجبل مولودا اكبر أهمية .

كانت قد طرأت له فكرة التفجير بحثا عن طبقة ثالثة فى الجبل الذى يحمل خامة حجر « الطلق » فى جوفه ، بعد ان استنفد الأقدمون كل ما كان فى الطبقتين الأولى والثانية . ونجحت التجربة . وهذا هو الجبل العظيم يعطى ثماره بجدارة فتحت الطبقة الثالثة وتشعبت السراديب ، وتعددت الممرات وارتفعت من سقفها بئر صاعدة لتسحب الهواء النقى من السماء الى قلب الجبل وهذا نيقولا يجلس مسترخيا ، مزهوا بانتصاره ، يرقب طابور العمال المنحنى الظهر تحت ثقل خامة « الطلق » الشمعية . كم من الأطنان حملوا من داخل المغارة الى خلفية الساحة فى السنوات التى انقضت على بدء المشروع ؟ استطاع نيقولا ان يقيم على البحر ميناء ترسو به السفن قادمة الى الجبل . وهذه هى الساحة قد نسقت ورصفت ، واقيمت على جوانبها ثلاثة بيوت خشبية وعنبر للمخازن وللطعام ، ودورات خشبية للمياه ، وورشة لاصلاح الآلات والأدوات ، وأصبح لهذه المدينة الصغيرة مولد كهرباء وخزان كبير لحفظ المياه .

ثم فكر نيقولا فى تجهيز الساحل ليكون ميناء . وسرعان ما امتدت من الرمال داخل الماء سقالة عريضة وطيدة لرسو السفن ، واقيمت كبائن الراحة والاقامة على الشاطىء . وأصبح فى امكان السفن التجارية ان تحل محل سفن الشراع وتنقل المواد الخام من الميناء الى السويس ، فتختصر نصف الوقت ويتضاعف كم الخام المنقول . وهكذا تخلى الموقع عن عزلته واخذ يرتبط بالمدينة الكبرى . وهنا بدأت المأساة .

كان هذا المشروع هو الثانى الذى يرتبط به نيقولا . بعد أن صفى المشروع الأول ، وترك الموقع الصديق ماريو . فى هذا المشروع كان نيقولا يعمل لحساب الخواجة انطون والحاج بهاء . وكان انطون يريد ان يستنطق المشروع مالا وجاها ووسيلة للتقرب الى ذوى السلطان ، وعلى رأسهم الملك ، طمعا فى ان يصبح انطون باشا ، وكان يحلم أيضا بأن يحصل على ايليا الصغيرة ذات السنوات الغضة ـــ ستة عشر ربيعا قضتها كالزهرة فى البيت وفى صالون انطون ، وفى الصحراء ، حيث تحولت الى زهرة برية فاتنة الحسن ، مسكرة الشذى . وكانت الفاتنة الصغيرة

قد جاءت مع امها لتزور نيقولا ، ولتسعى الأم الى اغراء الرجل بالعودة الى الحضر ، الى مشروعها الذى مازالت تحلم به . ولكن نيقولا ردها خائبة . استجاب الى اغراء جسدها المؤقت ثم انقلب الى الاغراء الوحيد الباقى : اخصاب الصحراء . وعادت الأم دون ابنتها ، فقد أصرت هذه على البقاء فى هذه الدنيا الجديدة البريئة الفطرية ، ملكة على جمع من الرجال ليس بينهم امرأة واحدة .

وجعل انطون يدعو اصدقاءه الى زيارة مشروعه ، فسرعان ما هبط الموقع رجال ونساء من رواد كلوب محمد على ونادى السيارات ونادى الصيد . مجموعة تضم وزيرا سابقا وباشا أو اثنين وثلاثا أو أربعا من حسان الطبقة العالية المحلاة صدورهن باللؤلؤ ، المضمخات بالعطور الأجنبية ، ثم بعض البكوات . جاءوا جميعا ومعهم صناديق الويسكى تصحبهم خلاعتهم وعريهم وفجرهم المعلن . ثم ما لبث هذا الجمع الصاخب ، اللاهى ، الباحث عن صنوف اللذة ان اجتذب الى الموقع النائى ملكا شرها اكولا ، كان يبحث فى دأب عن اللذات فى طول مملكته وعرضها . جاء الى الموقع تحوطه كل مظاهر الأبهة والتمجيد ، ووجد امامه الزهرة البرية الآسرة ، ووجد من يحملها الى مخدعه . اعتدى الطاغوت السمين على الزهرة الرقيقة ففسدت ، من بعد الأمكنة جميعا ، وفسدت حياة نيقولا الى الأبد .

وكان هذا التطور الحزين للأحداث يصب فى مشروعات انطون ولا يفسدها اعتداء الملك على الزهرة الرقيقة سوف يكسر حاجز السن بينهما — هو فى الخمسين وهى فى الخامسة عشرة — والعطب الذى اصابها سوف يضمن للخواجة انطون ان ينعم عليه الملك برتبة الباشا ويؤمن حصوله على ايليا الصغيرة زوجة ، فلن يعود فى امكانها ، ولا امكان ابيها أن يقاوما عرض انطون .

ويتزوج انطون من ايليا بالفعل ولكنه لا يقدر حقيقة ما أصاب نيقولا من جراء غزوة الملك واستعداد انطون لالتقاط الفضلات . حين يكبر بطن ايليا ويحسب نيقولا الشهور يتأكد له ان المولود الموشك على المجيء ليس ابن انطون . ومن ثم يقوم فى نفسه التى اصيبت بضربة اخرجته من عداد الأصحاء فى النفس والبدن ، وهم لا يتزحزح هو ان الجنين ابنه هو ، وانه قد ضاجع ابنته ايليا يوم رآها مفروشة على السرير بعد الغزو الملكى ، لا تملك لنفسها حاميا ولا مرشدا .

كانت ايليا الصغيرة قطعة من نيقولا . وان اختلفت عنه تماما . كانت تبهره وتذهله فيتأملها الساعات الطوال كأنها واحد من ألغاز الكون . من أجلها انشأ البيوت الخشبية ، وصنع الخزان الكبير . كانت حورية نزقة ، يجيء ميعاد حمامها فتجرى الى البراميل عارية وتقفز فيها . أو تطلب ان يصب الماء على جسدها الأنثوى النامى . كانت بهجة حياة نيقولا وربة بيته وزهرة مدينته ، ومصدر إلهامة . حينما كان يستلقى على الساحل عاريا ليستمتع بحمام شمس ، كانت ايليا تشق

الماء الشاهق الزرقة ، تلهو ، تروح وتجيء كسمكة أو حورية فألهمه تجوالها فى الماء فكرة اختصار طريق النقل .

كانت ايليا سلوى نيقولا وفرحته . فالآن أضحت إثمه وعذابه . عصف به مجرد اصطحاب الملك لمعبودته ايليا فأخذ يصب الخمر حتى غاب وعيه . وفى اللا وعى أخذ يحلم بأنه ملك اشورى قديم يرفل فى ابهة الملك وعظمته ، يحتفل مع عظماء قومه بموسم الزرع والاخصاب . وفى الاحتفال تسللت اليه عجوز حدثته عن فتاة فى سن ابنته تضوع نضارة وجمالا . قالت له العجوز ان زوجته الملكة ستغيب عن فراشه ايام الاحتفال العشرة . فما ضرّ لو قادت اليه تلك الصغيرة التى شغفت به حتى أوشك الحب أن يتلفها ؟ وكان « الملك نيقولا » يتلمظ شهوة ، فما لبث أن رأى نفسه فى خيمة الديباج الأحمر الوفيرة الدفء ، وحورية مختبئة فى حريرها الدمشقى تنضو عنه ثيابه وتحمله على اجنحة عطائها ، فيستسلم لها بأكمله ، وتستسلم هى له ، حتى تتوحد نشوتهما وتتقد فتأخذهما الغيبوبة السحرية معا .

لم تكن ايليا اذن ابنة نيقولا وحسب ، بل هى فى لا وعيه معشوقته التى كان يحترق شوقا الى جسدها . فلما وقعت الواقعة انهار عالم نيقولا الداخلى . دنست قدما الملك الغليظتان حلمه بايليا حبيبة وعشيقة . احتوى الألم فى حلمه الملكى ، انتقم فيه لنفسه بأن أصبح هو الملك ، وأصبحت ايليا تلك الفتاة الغضة رائعة الحسن التى تقبل عليه بروحها وجسدها ، والفرح يشملها ، فما يلبث الاثنان ان يتوحدا . هو اذن يَفْضُل الملك لأنه لم يغْتصب وانما تَقَبَّل الحب مهدى اليه فى سعادة غامرة .

مضاجعة ابنته كانت راقدة فى اعماق اللاشعور ، فلما رأى البنت مسلوبة الارادة والشرف اختلط الواقع باللاواقع وأصبح هو مغتصب ايليا . وحينما اقدم على الانتحار بالسباحة الى مواطن سمك القرش المفترس ، ثم انقذ وجرح غائر قد هبر ظهره ، قال له الطبيب : ستنجو من الموت ، لكن عجزا سوف يسلبك رجولتك . رأى نيقولا فى هذا عقابا طبيعيا : ضاجع ابنته وخرق الناموس ، فأخذت منه رجولته . ونذكر اذ ذاك اوديب الذى تزوج أمه ، فقاده الشعور بالإثم الى أن يفقأ عينه .

وحين تلد ايليا مولودها يقع هذا الحدث الجلل على عقله وقوع اللطمة . هاهو ذا اثمه قد تجسد فى اللحم والدم ، وأصبح لعنة حية تطارده ابد الدهر . من أجل هذا يخطف نيقولا الوليد وأمه غافلة ويتسلق به الصخور حتى يضنيه التسلق ، فيضع الوليد امامه . ولا يلبث ان يروعه ان الوليد لا يبكى . اتراه شدد قبضته عليه وهو يتسلق حتى مات ؟ بعين خياله رأى نيقولا صقرا يحوم فى السماء دائراً فى دائرة متسعة مرة ومرتين وثلاثا وهو يمعن فى الانخفاض فى كل مرة ، ثم

ينقض على الوليد المطروح فيرفعه الى السماء قربانا وشفاعة من نيقولا وتوبة .

يكمل هذا الجزء الاغريقى من الرواية ، ما يحدث لايليا من بعد . أصبح همُّ نيقولا ان يتجمد ويتحول الى صخرة مقدسة ، كما حدث للجد الأكبر لقبائل البجاة ، التى يعتقد افرادها ان غابة كثيفة لا يقدر على اختراقها انسان تحوى روح هذا الجد ، وأنه ـــ الجد ـــ قد ظل يصلى ويتعبد حتى تحولّ جسمه بفعل الزمن وكثرة العبادة الى صخرة من صخور الجبل ، وانطلقت روحه تحفر القمم وتفجر منها ينابيع الماء لتنشىء لنفسها غابة فى الوادى تحتويها .

وها هو ذا نيقولا قد حفر الينابيع وحول الصخر الى غابة حية وصلى وابتهل كى يتحقق حلمه فى الاعمار والاخصاب ، وآن الآوان كى يتحجر ويصبح روح المكان . بذلك تتحقق له معجزة الأنتماء الذى ظل حياته كلها يبحث عنه . ومن ثم لجأ الى المنجم يبحث فيه عن ملاذ ، بعد ان عجز عن مواجهة البشر اثر تخلصه من الوليد . وظل اياما ثلاثة مختبئا فى كهف صغير مغلق . توقف العمل هذه الأيام الثلاثة ، وبعدها جاء العمال وعلى رأسهم ايليا يلتمسونه . وحين وجدوه ، اندفعت نحوه ايليا ، ولما دنت اصابعها المرتجفة من وجهه ، تراجع مرتعبا فضربت قدمه سناده خشبية كانت تسند صخرة كبرى فانزلقت السنادة وهوت الصخرة ، وحبست ايليا داخل الكهف . وعبثا جعلت تصرخ وتنادى اباها . ولكنه كان محموما يتفصد عرقا ثلجيا ويهذى بكلام غير مفهوم فدثروه بأغطية كثيرة تعوق حركته ومنعوه من الهبوط الى السراديب .

ولما ظلت ايليا تصرخ اياما وأسابيع فلا يجيبها صوت ابيها استبد بها الغضب ، وكان غضبا ناريا عاصفا ، فاطلقت روحها تبحث عن الأب ، وتتخبط فى سقوف الدهاليز والممرات حتى ثقبت جدران المنجم واخترقت طبقاته جميعا ، وانفلتت الى الفضاء الشاهق الارتفاع وذابت فى اللا نهائية ، ولم يعد فى إمكان أحد أن يعثر عليها . ثم بدأ غضبها يتجلى ويثمر ، واخذ السيل ينهمر مهولا من الثقوب ويكتسح السراديب والممرات ويجعل مستحيلا على الرجال أن يواصلوا التعدين .

ومن ثم رحل الكل ، وتركوا وراءهم نيقولا وحده ، لينشىء على الجبل المتفرد فى متاهة الصحراء صلبان عذابه وتكفيره .

أحد الخطوط الأساسية فى « فساد الأمكنة » هو : الجريمة والعقاب . يأثم نيقولا فيلحقه العقاب ، وتزل ايليا فتفسد حياتها وتفقد وليدها ثم تتلاشى من الحياة جملة . ويطاوع الملك شبقه فيكون جزاؤه المعروف فقدان العرش والنفى . ويضيع على انطون مشروعه وزوجته وآماله العريضة . « ويسرق » ايسا ، الفتى الغض الذى شغف به نيقولا واستعاض به عن الزوجة والصديق ، سبيكة الذهب ليعرضها على قومه ، فتتناوله الاتهامات ويضطر الى ان يمر بطقوس « الدوسة »

ــ فرشة الجمر المتقد يطأها بقدمين عاريتين ليثبت براءته . ويتفاخر عبد ربه كريشاب بأنه اصطاد عروس البحر ، انتقاما من شقيقات لها التهمن بعضا من اقاربه ــ يتفاخر ، وهو يعلم انه لم يصطدها وانما جرها ميته الى قاربه ، فيكون جزاؤه المهين ان يؤمر بأن يضاجعها علانية فى محضر الملك والفجار من صحبه . ثم يتضاعف عقابه ، فاذا بالخزى والمهانة يدفعان به الى الجنون ــ يروح يصطاد اسماكا وهمية على الرمل ويجر شباكه فوقها والناس من حوله يهزون الرؤوس اسفا .

وخط أساسى آخر هو الصراع الرهيب بين الانسان والطبيعة . أو على الأدق بين انسان غير عادى هو نيقولا والجبل الأشم الذى يسعى الى ايلاده الخير . اما سائر البشر فهم بين اناس يعيشون على الفطرة ، لا يريدون ان يتركوها الا أن يحركهم افراد متميزون من بينهم مثل « ايسا » ، الشاب الواسع الأفق ، شديد النهم الى المعرفة ، وان قضت حوادث الرواية ان يفقد حياته وهو يحاول انقاذ صحاب له سقطوا فى فوهة بئر ولم يستطيعوا الصعود الى السطح .

وتمد الرواية نفسها فى ابعاد ثلاثة : الواقع ، والأسطورة ، والتاريخ . اما الواقع فهو هذا الذى تمثله ايليا الكبرى ، زوجة نيقولا ، المرأة المستحوذة التى تريد ان تربط زوجها الى طاحون مشروعاتها الاستثمارية ، وتثبت قدميه على الأرض الصلبه . وهو أيضا الفساد العارم الذى يمثله الملك وحاشيته وطبقته ، باشواته وبكواته ونساؤه العاريات واعيانه الذين يفحون بالشهوة ويتصيدون المذات . والرواية تلهب هذا الواقع بسياط حادة الوقع ، وتدينه ادانة فنية رشيقة لا تنبو أبدا الى الخطابة أو التعليم . وهى تضاهى بين هذا الواقع البشرى الفاسد ، وبين جمال الطبيعة ونقائها : زرقة مياه بحرها ، وجلال جبالها الشماء ، وجمال احيائها البحرية والبرية ، فيخرج المفسدون من البشر وقد تعروا عريا اخلاقيا مشينا . انظر مثلا كيف يصف الكاتب موسم القران لدى الجمال ، وكيف يصور غزلها الرقيق ودعاباتها التى تفيض بالحب والرغبة فى الخلق وقارن بين هذا وبين وصفه للجنس الجماعى الفاضح ، الخالى من أى نبل ، والذى يتم تحت ستر الظلام ، وأن هتك الستر صيحات الشبق وضجيج المضاجعين والمضاجعات .

بل ان الرواية لتورد تعليقا فنيا بالغ العمق والأثر ، حين يأمر الملك وحاشيته عبد ربه كريشاب أن يضاجع عروس البحر فى الحضرة العلية وبمشهد من حاشيتها . ان هذه المضاجعة المقززة التى تتم مع جسد ميت ، هو عروس البحر ــ لتقول بلغة فنية عميقة : ان هذا هو حال اتصالاتكم الجنسية : اجسام خالية من الروح تضاجع بعضها بعضا . رجالكم فاقدو الارادة ونساؤهم عرائس بحر ميتة . وكلكم نتن ومقزز !

أما الأسطورة ، وما يلحق بها من فولكلور ، فهى موظفة توظيفا فنيا جميلا وفاعلا . زواج

المحرمات الذى يشغل باطن نيقولا يستدعى فورا اسطورة اوديب ، وهذه تثير موضوع الاثم والجزاء . وتصبح العقاب الذى تلحقه الأقدار بنيقولا وابنته . ذلك ان ايليا الصغيرة قد طمحت من صغرها الى أن تكون ملكة ، فهيأ لها ذلك الطموح ان تمشى غير متبصرة — الى مخدع الملك المفترس . ثم سهلت لها هذه الزلة ان تمضى من بعد فى الطريق الأعوج ، فتتزوج من انطون ، وتشترك فى خديعة الناس بايهامهم ان وليدها هو ابن لأنطون . ثم كان ما كان من خبال الأب وقتله للوليد ، متخذا هذا القتل شكل القربان البشرى ، يقدمه نيقولا سعيا وراء رضاء الآلهة وعفوها . وهذا المعنى الأخير تشير اليه الرواية صراحة وهى تصف مشهد خطف نيقولا للولد ، ووضع جثته الميتة على الصخرة حتى تخطفها الطيور الجارحة . تقول عبارة الرواية ان الصقر سوف يرفع جثة الوليد الى السماء قربانا من نيقولا وتوبة .

كذلك تحسن « فساد الأمكنة » استخدام اسطورة قبيلة البجاة التى تتحدث عن الجد الأعلى الذى تحول الى صخرة من كثرة العبادة ، فتدخل الأسطورة فى صميم حياة نيقولا . انه يطمح فى مصير مماثل حتى يضمن البقاء فى الأرض والانتماء اليها . هو — على كثرة ترحاله فى المكان — كان يتوق الى الاستقرار والتوحد . ليس الاستقرار السطحى الخالى من المعنى الذى كانت ايليا الكبرى تريده له ، بل توحد صوفى بالمكان ، حتى ليصبح بعضا منه، ويخلد خلود الصخر .

وأما التاريخ ، فان الرواية تصور حضوره الدائم . يدخل نيقولا المنجم فتحكى له السراديب المهجورة فيه قصص الفراعنة القدامى ، فهم كانوا أول من استخرج الذهب من الصخور ، وبعدهم جاء الرومان والعرب ثم محمد على فى العصر الحديث ، الذى كان عماله يستخرجون له ثمانية أرطال من الذهب كل شهرين . وهذه قبيلة الكريشاب، لاتزال تحمل تقاليد الفراعنة فى صيد الأسماك بالقضبان والحراب القصيرة. وهؤلاء هم البدو يعيشون كما عاشوا من مئات السنين يدربون اجسادهم — جيلا بعد جيل — على التلاؤم الضارى الذى تفرضه الصحراء على من يختارها لحياته . لا عجب ان داس «ايسا» البدوى الشاب على فرشة النار بقدميه العاريتين مرة واثنتين وثلاثا أمام العيون المحملقة، ثم خرج سالما. ان هذا هو بعض من أثر التدريب وتطويع الجسد على ملاقاة الظروف الصعبة.

هذه رواية فذة، كتبها روح شاعرى، يتمتع بحس اجتماعى وسياسى مرهف، وروح تنفذ الى ما وراء الأشياء ، وتستحضر روح الطبيعة والانسان معا ، وتكتب هذا كله بلغة مشرقة ، أنيقة ، ورصينة وجميلة . وهى بهذا علامة بارزة فى طريق الرواية العربية .

قالت ضحى

بهاء طاهر



عندما قلت من سنوات — على صفحات المصور — إن إنجازات هامة تجرى الآن فى حقل الرواية العربية ، لم أكن أعلم أننى إنما كنت أقف على حافة كنز زاخر ، كنت أرى بداياته ولا أقدر تماما مدى الثراء العريض الذى يحويه .

توالت الروايات الهامة منذ ذلك العام — عام ١٩٨٣ — روايات كتبت فى مصر وفى باقى أجزاء الوطن العربى . كلها مشوقة ، مثرية ، تفتح الآفاق أمام الابداع العربى وتضىء الأرواح والعقول العربية فى كل مكان . روايات كتبها مبدعون من كل الأجيال : بداية من نجيب محفوظ حتى إبراهيم اصلان ، إذا قصرنا الحديث على مصر .

واليوم أريد أن أسجل نصرا آخر للرواية العربية . يشكل حدثا أدبيا هاما ، ويحقق نقلة لاشك فيها فى كتابة الرواية العربية شكلا وموضوعا . حقق هذا النصر الكاتب الرقيق الحس ، الشاعرى المزاج ، الذى يتوارى من الشهرة بينما الشهرة تلاحقه : بهاء طاهر . حقق بهاء طاهر نصره هذا فى روايته الأخاذة : « قالت ضحى » .

وكثيرة هى الانجازات التى حققتها هذه الرواية الصغيرة : « قالت ضحى » ، غير أن أهمها فى نظرى هى أنها بعثت إلى الحياة أسطورة إيزيس وأوزوريس وست . بعثتها إلى الحياة ، ليس عن طريق إجراء تنفس صناعى حاوله قبل بهاء طاهر بعض الكتاب دون نجاح يذكر ، وإنما عن طريق منح الحياة منحا لهذه الأسطورة ولشخوصها ولمعناها ، والتمكين لها من أن تغور أكثر وأكثر فى الوجدان المعاصر ، بحيث تتلبس الأسطورة الأحياء الذين نعرفهم وتصبح جزءاً من واقعنا وتاريخنا المعاصر . لا تفعل الرواية هذا عن طريق عقلانى — لا تبحث عن نظائر لشخوص الأسطورة تربطهم بالواقع عن طريق التكنيك الروائى المعتاد . بل تحققه عن طريق الشعر والسحر . يترنم بهاء طاهر بالشعر ويردد اغنيات السحر المرة بعد المرة حتى تتخدر منا الأحاسيس

البليدة — أحاسيس كل يوم — وتستيقظ فينا القوى الكامنة القادرة على العيش فى أغوار الماضى ، بل القادرة على سحب هذه الأغوار إلى أيامنا المعاصرة ولحمها لحما عضويا فى واقع معيشتنا .

وبهذا تصبح الأسطورة هى حياتنا ، وتمتزج امتزاجا لا أمل فى الانفصال منه ، ولا رغبة فى هذا الانفصال . وهذه فى رأيى هى أقصى درجات « الأحياء » — إذا رحنا نصر على استخدام هذه الكلمة الباردة — لوصف هذا الشىء الجميل الذى حققه بهاء طاهر .

هل « ضحى » الارستقراطية الجميلة الواسعة الاطلاع على فنون العالم وتاريخه — التاريخ المصرى القديم خاصة — العالمة بأسماء الزهور وأسرارها ، التى ترى رؤى التاريخ وتعيش أطيافها فى الحاضر ، وتنظر الى اطلال المعابد ، فى الأقصر أو روما ، فتراها صروحا كاملة ويراها غيرها أحجارا لأبنية متداعية — هل ضحى هذه هى إيزيس ، ربة الخير ، رمز الإخلاص ، التى تتحدى شر ست ، وتدافع عن ابنها حورس وتناضل لتجمع اشلاء أوزوريس ، المقطع الأوصال ؟ نعم هى كذلك بالامكان . غير أنها الآن فى قبضة الشر ، كى تضرب الثورة بأعدائها . كى تنشر الفساد الذى تحويه صفوف الثورة . كى يعود السادة الذين فقدوا جاههم وظلهم سادة من جديد ، ويبقى الفقراء الأوغاد ، فقراء أوغادا ، أبد الدهر ، فإن هذا هو قدرهم فى العالم الجميل القاسى الفؤاد الذى عاشته ضحى منذ أن ولدتها أمها بنتا لرجل كان ينتظر الولد . ومن ثم رباها الأب على أن تكون أعجوبة بين البنات . ثقفها منذ الصغر وأنشأها على التميز ، والتعالى ، واحتقار ما لا يدخل فى عالمها ، فحوَّل إيزيس فيها جهة الشر .

غير أن هذه إن هى إلا مرحلة — مجرد مرحلة فى حياة إيزيس — ضحى . تقول ضحى فى ختام الرواية ، حين يسألها « الراوى » — البطل الذى لا يذكر بهاء طاهر له اسماً — : لماذا رحلت إيزيس » ولماذا سعت إلى الهدم ، والتعذيب ، والخيانة ، ونصرة الشر ؟ تقول إيزيس — ضحى : لاتسأل إيزيس متى ولا تسألها لماذا ؟ . لقد رحلت وسوف تعود . إن ست قد قهرها فسقطت على الأرض ، ولكنها تبحث فى التيه حين تضل الطريق . تصبح هى الأخرى اشلاء مبعثرة ، ولكنها عندما تجد أوزوريس تكتمل من جديد . ومن أحشائها يولد الصقر فتيا كاملا . يطارد الشر فى كل مكان ، وتنطلق هى وراءه فوق الصحارى الصفر ، ومن وقع خطاها ينبت الزرع من جديد . المعنى الكامن وراء هذا هو : أن الخير يتلوث ، بل ويخدم الشر ، وينهزم امامه ، غير أن الجدل الدائم بين الخير والشر يجعلنا دوما قادرين على الاستبشار . قد تلوث الخير فى ضحى ، يوم أصر أبوها على أن يخلقها خلقا جديدا يشاكل طبعه وهواه . يوم شغل عنها زوجها بالوزارة والانتخابات الجديدة واختصر شهر العسل إلى يومين فى مينا هاوس . يوم أهملها ،

وشغل نفسه بالحفلات والولائم ، مسندا لها دور الزوجة الذكية الجميلة يتباهى بها أمام الناس ، وتنجب له الأولاد ، ويعيش هو حياته ومغامراته الخاصة ، لا يعنى حتى بمحاولة اخفائها .

ومن ثم نما فى صدر ضحى كره خاص للرجال . لأبيها الذى حقد عليها حين رفضت ان تتم بقية مشروعاته لخلقها على هواه ، وفضلت ان تتزوج من رجل احبته ، رغم معارضة ابيها الشرسة . لقد انتقم منها الأب بأن تزوج . فاستبدت بها رغبة أن تتشفى فى الرجال ، فى كل مرة تجدهم يسقطون ، أمامها أو فى قبضتها ، بل طمحت إلى أن تكون فاوست إمرأة ، تجرى وراء المسرات الخارقة وتسمع الأنغام المحرمة . وتحصل على المعرفة المحظورة .

لهذا تقسو ضحى فى إهانة الراوى ، وترفض حبه فى احتقار . لقد سقط وإياها فى الخيانة . من أجله خانت الزوج الذى لم تكن تريد خيانته . لا إكراما للزوج ، بل إحتراما لنفسها ! وهى تمضى قدما فتعيره بخيانته لأصدقائه المعتقلين ، يوم خاف التعذيب عن طريق الدهس بالأحذية العسكرية الثقيلة . وهى تشك فى تعففه عن الملكية والتملك ، وتذكره بالثعلب والحصرم فى الحكاية المعروفة ، وتقول إن به رغبة دفينة فى السيطرة ، وأنه تقاعس عن تحقيق أفكاره السياسية بالمحاربة فى سبيلها .

لكل هذا تتحول ضحى إلى عامل هدم خطير ، لنفسها ولغيرها ، وللمجتمع ، وللثورة ـــ التى رأت فيها إنكارا للجمال الغابر ، والجمال السابق عليها . ولكنها تفعل هذا محتجة ، ساخطة ، فان التى حلمت ذات ليلة ، وهى بعد طفلة صغيرة ـــ ان إيزيس قد تلبستها وأنارت لها طرق الجمال الذى كان ، لا تستطيع أن تنسى الحلم بسهولة ، ومن ثم يكون وعدها ـــ فى آخر الرواية ـــ بأن ستعود إيزيس فرسة بيضاء تطارد مع الصقر حورس رمز الشر ست ، أينما وجدته ، وتزرع فى كل خطوة الزرع وتنبت الشجر .

تناقش « قالت ضحى » مفهومين واضحين للشر . الشر الذى يحارب الجمال ، ويكرس الجهل والغوغائية ، وهذا المفهوم تتبناه ضحى ، ملتحفة بأسطورة إيزيس ، وان مازج مفهومها أيضا قضية اجتماعية واضحة سلفت الاشارة إليها وهى قضية قهر المرأة . أما المفهوم الثانى فيعرضه الراوى . الشر عنده هو قهر الانسان بالفقر وقهره بالخوف . يقول لضحى أن الظلم قد حيره فى وقت من الأوقات . ويحكى لها كيف أن أباه قهر أمه قهرا مرذولا . سحقها سحقا . كانت تبذل له كل طاقاتها فيرد بالاساءة المتعمدة الدائمة . وفى يوم مرض الراوى ـــ كان صغيرا اذ ذاك ـــ ولزم البيت ، ثم خطر له أن يصعد الى السطح حيث كانت أمه تربى الدواجن والكتاكيت ، فوجدها تبث الكتاكيت همها ، وتشكو إليها زوجها ، الذى يهينها دون أن تضره فى شىء . فانسحب الولد إلى البيت قبل أن تراه أمه . وما لبثت هذه أن هدها القهر ، فماتت

صامتة دون أن تشكو . ومات من بعدها زوجها . فقد كان الفقر قد هده هو أيضا كما قهره سوء الخلق وعداؤه لأقاربه : لم يَتخذ أحدا صديقا ، ولا حتى ولده !

هذا القهر الذى يمحو انسانية الانسان محوا هو مادفع الراوى الى النكوص وإهمال العمل من أجل مبادئه . كان قد عرف النشاط السياسى الفعال . هتف بسقوط الملك ، ومن بعد بسقوط « حكومة البكباشية » ، ولكن الانسان المقهور داخله ما لبث أن فزع . خيل إليه أن البحث عن العافية الشخصية هو أسلم طريق للخروج من طريق الشر . وعبثا يذكره صديقه حاتم بمبادئه ، بضرورة المشاركة فى حياة الثورة السياسية ، فإن صاحبنا لا يرضى بأن يتلوث بالعمل فى تنظيم سياسى كان ينخره الفساد والمحسوبية والغوغائية . ويرفض منطق حاتم — زميله فى الفقر وفى العمل السياسى السابق على الثورة — فى أن من يعمل لابد أن يتلوث إلى حد ما . إنما عليه أن يحسب حساباته بدقة كى يظل التلوث فى أضيق الحدود .

ومع ذلك ، يظل الثائر كامنا فى روح الراوى ، لا يبرحها أبدا ، حتى يبدو للعيان نهاية العمل . وفى الأثناء يعبر عن نفسه بموقفه من « سيد » منادى السيارات الذى أفقدته الثورة مصدر رزقه ، فعاونه الراوى على أن يلتحق بالوزارة ساعيا . فما لبث سيد أن تعلم المعنى الحقيقى لثورة يوليو ، وأخذ ينضم إلى تنظيماتها المختلفة ، ويجد نفسه وجها لوجه أمام الفساد والرشوة وتسلط الكبار من أعداء الثورة على المناصب المرموقة فى الحكومة والحزب ، اذ ذاك يتعلم سيد الثورة بنفسه ، خطوة بخطوة ، ويفقه معنى حرب اليمن ، ويدرك المغزى الحقيقى لوجود ضحى مديرة لمكتب وكيل الوزارة ، ومصرفة لأعماله المشبوهة ومستفيدة منها . وينتهى الى أن الأمور لن تستقيم إلا إذا قطع رأس الحية — رأس سلطان بك وكيل الوزارة .

وتتعاظم ثورية سيد ، حتى يدرك أن حاتم المشارك فى أعمال الثورة السياسية مساو تماما للراوى . العازف عن هذه المشاركة ، الاثنان عاقلان ، أقوالهما كلام فى كلام ، وساعة الجد يجد سيد نفسه وحيدا ..

وفى نقاش نهائى عن معنى الشر ومظهره وامكان التخلص منه ، ينتهى حاتم إلى رأى حالك السواد : الشر باق . والأفعى يقطع رأسها فينمو لها عدة رءوس . تظل باقية . قبل الثورة — أية ثورة — وأثناءها . بل تظل باقية باسم الدفاع عن الثورة »

غير أن الراوى يرفض هذا المنطق الأسود . وحين يعود الى بيته ، ويجد أن زوج أخته قد بعثر أوراقه الشخصية بحثا عن دليل يدين سيد ، يثور ثورة عارمة ، تنتهى بطرد الزوج ثم طرد أخته ، وهو يصرخ : احتملتك أربعين عاما . عاشت الحية طويلا فى هذا البيت .

تقول رواية « قالت ضحى » فيما تقول : إن حب العدل مرض . وأن حب المرأة مرض .

ولا شفاء من الاثنين . وهذا ما خبره الراوى خاصة . أحب المرأة المدمرة ضحى ، ولم يتعز عنها بشيء . لا القراءة ولا إهمال القراءة ولا لعب الشطرنج ، ولا أحضان أجمل بغى فى القاهرة . حب عجيب هذا . رومانسى يخالطه العقل ويحلله ويفتته وينكره ويستنكره ، ولكنه ، كالحية ، يبقى وتنمو له الرءوس كلما قُطع واحد منها ، ظهر رأس جديد .

عجيب هذا ، كما قلت ، غير أن تفسيرا له قد يكمن وراء حب العدل . فقد اختلطت ضحى فى روح الراوى ، عبر الأسطورة ، بكفاح الشر ، والبحث عن العدل ، وقد بدا له واضحا أن ضحى « ضحية » بقدر ما هى مقترفة للشر ، وأن حب العدل فى روحها لم يمت ، بدليل ما تقوله فى آخر الرواية . وما تحلم به . لقد مرضت هى الأخرى بحب العدل ، منذ أن زارتها إيزيس ، ولم يعد فى طوقها أن تتخلى عن العدل النائم فى روحها مهما مارست من صنوف الشر ، ومن ثم لا يتخلى عنها الراوى أبدا . لا يتخلى عن الأمل فى أن يقوم العدل فى الأرض يوما ما .

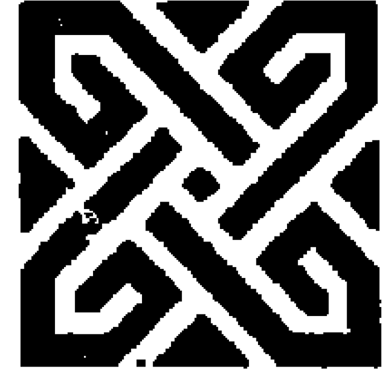
النظر السطحى لهذه الرواية يقول انها — فى بعض اجزائها — تتعامل مع « السياسية » تعاملا مباشرا ، قد يبدو متنافرا مع الأسطورة والشعر والحلم ، غير أن هذا بالضبط هو ما لم تفعله « قالت ضحى » . وإنما فعلت نقيضه . وعند البعض ، قد تبدو الرواية سيموفونية بديعة ، رائعة الأنغام ، متفاوتة الطبقات ، مختلفة الايقاع ، تعلو إلى السماء وتهبط إلى الأرض دون خلل أو اهتزاز .

غير أنى أفضل أن أشبهها بآنية اغريقة بديعة الجمال . تجمع إلى جمال الشكل دقة الحفر والتسجيل والرسم على سطحها الأملس تارة ، الجعد تارة أخرى الكامل التشكيل الذى لاتبين خطوطه لأن هذه الخطوط موظفة كلها فى خلق العمل ككل . وبهذه لا يصنف النقد البصير الرواية على أنها قصة حب أو حكاية سياسية ، أو وثيقة اجتماعية ، وإنما يقول إنها عمل فنى يضم هذا كله جهيرا، أو مهموسا، أو مومئا إليه. يقول النقد إن هذه الرواية هى ذاتها وحسب .

وكفى بهذا فخرا لأى روائى .

زهر الليمون

علاء الديب



رسم له زميل قديم صورة كاريكاتورية تمثله يمسك سيفاً خشبياً ، وكتب صديق سكر عنده فى ليلة بعيدة : « إنما الناس سطور ، كتبت لكن بماء ! » ، يشير الإثنان إلى عجز البطل عن الفعل ، وتعلقه بالجهد العقيم .

أما هو فيرى نفسه سجين شرنقة ، سلحفاة عجوزاً تعيش تحت سقف بيتها تحمل البيت دوماً وهى تسير ، يطل عبد الخالق المسيرى من مخبئه ، يلامس الناس والأشياء ثم يدخل رأسه إلى بيت السلحفاة ويروح يعيش فى الماضى .

فالماضى هو صديق عبد الخالق الدائم الحضور ، لا دفع له ، ولا فكاك منه ، فى الماضى حياته كلها ، وفى الحاضر : الحلم الجهنمى بالعمل مع الناس ومن أجلهم ، هَمٌّ يطارده فى الواقع وفى الأحلام ، غير أنه الآن إمكانية مهدرة ووقت ضائع يحلو له أن يتصور أنه منفى من حياة الناس لأن ماضيه الشيوعى يطارده . يذكر سنوات الاعتقال فيروح يرتل أغنية تخرج من نار العذاب الهادىء الذى يعيشه كل يوم : اذهبى عنى يا أشباح ، يا سنوات من هباء ، إصعدى واستقرى هناك ، وسط أدغال التين الشوكى ، إخلطى دماء الشيوعى القديم بستائر العنكبوت ، أو ادفعى فى حلقى بزهرة التين الحمراء ، أو بثمرة التين ذات الشوك نفسها ، فقط لا تتركينى أسيراً أنهش نفسى بالنكش والتقليب .

وكانت أغنية أخرى قد ترددت فى سمعه ، عقب الخروج من المعتقل . قالت له منى المصرى : أنت يا حبيبى مركز الكون والوجود ، كل شىء معك سعيد وممتع ، حتى ولو كان مراقبة عمال يرصفون الطريق ، أريد أن أعيش معك فى قارب صيد غليظ المجداف والخشب ، نركن تحت الكبارى ، وندخل ليلاً إلى القرى الصغيرة .

سمع عبد الخالق هذه الترانيم العذبة فداخلته ، ووجد نفسه فى أحضان منى حبيبة وزوجة ،

تغلبا على الأعراف وحاجز الدين وعاشا فى سعادة غامرة عرضها السماوات والأرض ، لبسته منى كما تلبس يد رقيقة قفازاً ناعماً ، وقررا أن يعيشا وحيدين للشعر والموسيقى ، حلم ملون مستحيل ، لم تلبث ألوانه أن بهتت ، وذابت نغمات موسيقاه . قالت له منى : « لا أريد أن أراك هكذا : فأراً فى مصيدة ، سأنسحب من حياتك فى هدوء » هنالك أحس أن الحياة ذاتها هى التى تنسحب منه ، وتتركه جافاً ، ملقى على الشاطىء الحجرى إلى الأبد .

اختفت منى ، فكملت صورة الجفاف الممض الذى يعيشه الفارس ذو السيف الخشبى لا أحد يحتاج إليه ، ليس له ضرورة ، تساقط وتساقطت أيامه ، لم يعد أمامه من أيام الكفاح العظيم إلا عكارة الكأس : نذالات بعض الرفاق السابقين ، اتهامات بعضهم له بالعمالة لأجهزة الأمن ، تأنيب آخرين بدعوى أنه يعبد ذاته المتضخمة ، ويخفى تعاليه وراء تواضع مفتعل ، محاولة أجهزة الأمن تجنيده بعد أن ترك النشاط وأصبح من الممكن أن يعمل مخبراً على الرفاق ! .

غير أن الصورة تتوازن شيئاً ما ، حينما يذهب عبد الخالق لزيارة أخيه الأكبر سعيد ، وابنه طارق ، سعيد كان عضواً فى الاخوان المسلمين ذات يوم . ورغم ما بينه وبين عبد الخالق من تناقض مذهبى فقد اتصل بينهما الحوار لأن كلا منهما كان مشغولاً بمصير البلد ، ثم غادر سعيد مصر معاراً لدولة الامارات قائلاً إنه يهرب برأيه ودينه من أحلام الاشتراكية البلهاء وعسف النظام والطرق المغلقة .

وعاد سعيد من الامارات وقد شاخ ، يراقب تراكم النقود وسعر التحويل والمدخرات والودائع ، لا يعرف هدوء النفس إلا بالصلاة وقراءة القرآن ، استأنف دروس الشريعة فى الكلية وصدمته الحياة الراكدة فيها : لا نقاش ولا بحث ولا اجتهاد ، الهم الأول هو الملازم والدروس والاعارات ، وصل الشقيقان إلى طريق مسدود .

ومع ذلك فقد كان أمام عبد الخالق بريق من أمل ، اسمه طارق ، حينما يبصر ابن أخيه تشرق دائماً شموس صغيرة وكثيرة ، يذكر فى طارق أيام شبابه ، الشباب يرى أن اليساريين القدامى لا يصلحون إلا للمتاحف ، يبررون كل شىء ويضعون الشعارات فيسرقها من لا يؤمن بها و يتاجر فيها ويربح المال الوفير ، وبعضهم اكتفى بالندب والاتهام ، ويحتج عمه : لم تكن أفكارى مجرد بدلة نضال ، وكذلك أغلب الرفاق ، إن كان منظرنا قد أصبح غريباً فذلك لأن ثيابنا قد تمزقت فى الطريق ، ثم يراوده الإحساس بأن الدائرة قد أغلقت ، طارق يصعد الجبل وهو يهبطه وإن كانا يحرثان أرضاً واحدة .

توفق « زهرة الليمون » توفيقاً ممتازاً بين القضية العامة ومصائر الأفراد ، وتنتقل بين الطرفين انتقالا رشيقاً ، هادئاً ومقنعاً . المحور الذى تدور حوله علاقة عبد الخالق ومنى ينسجم كل

الانسجام مع الموضوع العام له جماله الذاتى الأخاذ ولكنه يخدم ــ أيضا ــ إحدى النغمات الرئيسية فى الرواية : كل شىء يذبل ، كل لون ؛ ، كل زهور تتساقط ، كل المبادىء تذوى ونحن عاجزون عن الفعل .

والمحور الآخر : علاقة عبد الخالق بأسرته ، بالأب الذى يناضل لبناء بيت يريد أن يقيم فوق طابقه الأول طابقاً ثانياً فتقعد به قلة المال وأحكام القضاء ، بالأم التى جاء يزورها وهى طريحة الفراش ، تغيرت أشياء كثيرة فيها وبقى لها وجود طاغ يخترق كل الحجب ، بسعيد الذى خمدت جذوة النضال فيه وزاد وزنه وتزوج من قدرية : إمرأة سمينة ، فارغة القلب ، كثيرة الحركة ، تبعث الملل فى حياة زوجها بما تردد من مطالب صغيرة : ضرورة تغيير الغسالة ، ضرورة بناء الطابق الثانى ، ضرورة أن تهتم أخوات سعيد بتمريض الأم ، عوضاً عنها .

يندمج عبد الخالق فى شئون الأسرة ، ويظل مع هذا معزولاً عنها ، حين تذكر أمامه أهمية أن يتزوج ويستقر يشعر على الفور بمدى إنفصاله . لا يفهم سعيد ولا قدرية أنه غير قادر على التصرفات العملية . لا يرى لها مبرراً ، ولا يحتمل سخفها .

تؤكد أحداث محور الأسرة مدى غربة عبد الخالق عن الأهل والناس ، غربته عن أمه ، يحبها ولا يستطيع أن يفيدها بشىء ، وغربته عن سعيد وزوجته ، وعن طارق ، وتصب هذه الغربة فى التيار العام للرواية ، التى يتردد فيها مرتين وصف عبد الخالق لنفسه : « غريباً جاء ، وغريباً يعود » فتنت الزيارة كثيراً من التماسك الخارجى الذى يدعيه ، وأظهرت مدى تفتت الأسرة ذاتها : بُعد سعيد عن زوجته . نأى البنات عن أمهن ، انفصال طارق عن أبيه وعزوفه عن مجرد الكلام معه ، وسط هذا كله تبدو شجرة الليمون رمزاً لما أصاب الناس والحياة من إزدهار ثم إنزواء وذبول ، حينا كان عبد الخالق صبياً يصحب أباه فى رحلاته لبناء البيت ، كانت شجرة الليمون هى العلامة والراية ، كانت عنواناً للبيت الذى يريد أن يقوم ، تحت شجرة الليمون تعيش أم رضا وابنها الصغير والشجرة فارعة على مدار السنة ، تتداخل خضرة أوراقها اللامعة ، مع الزهر الأبيض الناصع مع صفرة الليمون المفرحة عندما ينضج على الأغصان ، لم تبق الشجرة على حالها ، رآها عبد الخالق من النافذة ذابلة محصورة بين العمارات . ساقها غليظة ، قديمة ، خشنة ، وأوراقها مصفرة ، ذكر كيف كانت الأرض أمامها مفروشة بزهر الليمون المتساقط : أبيض ، أصفر القلب مهدر . تدوسه قدما أم رضا الحافيتان ، أما على الأغصان فكانت الزهور قوية بيضاء نضرة كأنها تاج فوق الخضرة ، لا يشم اليوم أريج الزهور ــ أريجها هو عطر الماضى والوطن والأرض الخضراء ــ رائحة عشة أم رضا وابنها ، عصف الزمن بالشجرة وبأم رضا وبرضا ، عثر الولد على قطعة من الحديد أخذ يلعب بها فانفجرت وقتلته . كانت قنبلة قديمة ،

انسحبت أم رضا من الأرض ، لايرى متى ولا أين اختفت وذبلت شجرة الليمون لا يدرى فى أى زمن ، وفقدت ما كان فوقها وتحتها من بهجة وحياة .

اثمن ما تقدمه « زهرة الليمون » من كسب للرواية العربية هو ذلك التصوير الانسانى النافذ والهادىء معا ، لشخصية المناضل اليسارى ، تتتبعه منذ بدء اعتناقه للماركسية . حينما كانت كلمات الكتب الشيوعية تفتح له عالماً سحرياً رجولياً وقوياً يعيش فيه رجال قادمون من عالم جوركى ، حيث العمال أبطال يحملون أحلاماً ومآسى ، والمثقفون يتكلمون كلمات قليلة حسنة التركيب ، عميقة الدلالة تلامس واقع الحياة وتمتلكه وتقلبه ، إذ ذاك كان المناضل اليسارى يشعر برضا وتفوق من اهتدى الى دين جديد ومن ملك التفسير والاجابة .

ثم يدخل المناضل المعتقل ، فيجد الاختلاف بين الرفاق مرعباً يكاد يصيبه بالجنون يدورون فى دوامات من التفسير والتنظير ويضربون رؤوسهم فى جدران المعتقل . ويتهمون ولا ينقطع لهم كلام . فيحس بأنه قد سقط فى بئر ويروح يحصى الشهور على أصابعه ، ويصبح همه الأول ألا ينكسر ألا ينهار أمام محاولة السلطة ، تحطيم إنسانيته ، أن يخرج من المعتقل حيا على رجليه ، وليس داخل صندوق .

ويخرج من المعتقل حيا بالفعل ، غير أن الحيرة تشمله ، وتصبح هى رباطه الوحيد بالحياة أما الحياة ذاتها فقد نأت ، صارت بعيدة لا تلمس والرفاق القدامى يأكل بعضهم بعضا ، أو يتبادلون الاتهامات الجارحة ، أو يخون بعضهم وينضم إلى زمرة المنتفعين ، يظل هو وزميل واحد من زملاء المعتقل على إتصال ، موضوع نقاشهما المفضل أن الضياع أو الهروب أو حتى الهزيمة إنما هى نوع من اصرار الأحمق على معان إنسانية أصبحت قديمة ومستحيلة ، غير أنها كل ما يملكان .

ومن ثم تأتى محاولات الاتصال التى يعقبها دائما بالفشل . منى المصرى التى اعتنق فى حماس حلمها المستحيل بسعادة الفرد مع الفرد ، منعزلين عن الناس ، تركته لأنها تريد بيتا وأولادا ، ولن يكون لها هذان هنا . لا معنى لأن تقف على كتفه أو يقف هو على كتفها . كلاهما يغوص . يغرق . تسللت الى شقتهما الغربة الخبيثة . رآها وهى ترحل فى المطار كأنها كوكب خرج عن مداره وتفتت الى شظايا متناثرة .

وأمه ، التى كانت تكن له ودا خاصا . قالت له يوما : كنت عزيزا جميلا ولكنك لم تكن تكف ليلا عن البكاء . كان أبوك يطردنا من الحجرة حتى ينام فأحملك حتى الباب الكبير لتهدأ وتنام . سعيد أخوك كان دائما قويا « مستقلا » ، صامتا أما أنت ، يا قلبى ، حتى بعد أن صرت رَجلا ، أراك تائها ملهوفا تبكى فى الليل .

حينما جاء يزورها تعذر بينهما الاتصال . هى تحرك لسانها الثقيل فى فراغ ، وتهز رأسها . فيشير لها فى تأكيد . هى لم تقل ، وهو لم يفهم . وجدها بعيدة . لا يستطيع لها عونا ، ولا يقدر على الانسحاب .

ويعود المسيرى الى السويس وقد تأكدت غربته فى القاهرة ، كما تأكدت من قبل فى السويس .

يعود ليجلس الى مكتبه فى قصر الثقافة . يشرب الشاى ثلاث مرات فى اليوم ، ويقرأ الصحف الثلاث ، ويراجع الدفاتر الثلاثة . ويرتب الكتب الثلاثة فى مكتبة القصر . يجيء الناس اليه وسرعان ما ينصرفون : راغبو القراءة ورجال المباحث والباحثون عن الصداقة . كلهم لا يجد عنده شيئا ذا غناء . قد جفت روحه ، وغطاه الملل كما غطى التراب رفوف كتبه وأوراقه القديمة .

هل هذا كل شيء ؟ هل انتهى المناضل الى الضياع التام ؟ توحى شجرة الليمون أن حياته لم تكن هباء . تألق كفاحه وجهده وعذابه على رأس الشجرة تاجا أبيض ، وسقطت أيام عمره زهورا صغيرة تنتشر على الأرض وتدوسها الأقدام فتمتزج بالتربة وتصنع الخصوبة لأيام قادمة .

لم ينكسر . لم يكذب . لم يرتد . لم يتخابر مع أجهزة الأمن لم يرسم لنفسه صورة بطولية زائفة إنزوى فقط ــ ترك وراءه حياة قد كانت وانكفأ على نفسه يحمل داخله قدرته على الحلم العظيم بالتغيير ، ورغبته العارمة فى حب كبير يهدم الفواصل بين الناس .

هذا انضج تصوير للمناضل اليسارى قرأته حتى اليوم . نضج هو ثمرة نظرة انسانية مشغولة ومحايدة معا . تنساب الرقة والشاعرية فى جنباتها وتختلط فيها المرثية والفرح معا. نظرة تصور وتنقد وتبدى السلب والايجاب معا فى عذوبة آسرة. لهذا تبرز « زهرة الليمون » كأهم رواية ظهرت حتى اليوم تعالج كفاح اليسار ، وتضع كاتبها علاء الديب فى الصدارة تماما من كتاب الرواية السياسية الفنية الواعية .

الشيخوخة والباب المفتوح

لطيفة الزيات



فتاة الثامنة عشرة اعتبرت إعراض الحب عن أبواب قلبها كارثة . لم تكن تعانى من قلة النظرات المعجبة . كانت تنتظر حبا يجتاحها كأعصار . وجاء سامى فكان إعصار حياتها . قبله كانت تقرأ بودلير ورابعة العدوية . وتجمع بين الانجيل والبيان الشيوعى . وكان العالم يلتقط أنفاسه بعد حرب مدمرة ويعيش أحلام التحرر الوطنى ويرنو إلى أن يتساوى الشوق إلى المعرفة مع التوق إلى الحب .

جاء سامى فأصبح بطلها . لم يعد البطل نهرو يدافع عن استقلال بلاده ، ولا شعب مصر يكافح بالسلاح استعمار الانجليز أصبح همها الأول أن ترى سامى وحسب لا يهمها أن تنفرد برؤياه ، ولا تبالى أن تكون معها صديقاتها . كفاها أن تسمعه يتكلم وأن ترى السيجارة تهتز فى فمه وهو يضحك .

وعصفت الأحداث بهذا الحب الفطير : حب العابد للمعبود . سافر سامى فجأة فانهار كل شيء ولم يبق من الحب إلا رغبة فى الانتحار ، عبرت بها الصبية عن يأسها المطلق ، وعجزها عن فهم الأشياء ، سوف تدرك الصبية فيما بعد لماذا انهار حبها الأول . ولمَ انقطع ما كان قد اتصل .

قالت لنفسها وهى تلقى سامى من بعد ، امرأة فى الثامنة والثلاثين : ان العطب كان فيها هى . إنها مع سامى لم تفعل . اكتفت بأن تكون .. أن تحب وتعيد ، ولا تتبادل الحب مع الغير . لم تخرج قط من قوقعة ذاتها . والآن وهى تلقى سامى بعد عشرين عاما ، تجد نفسها فى وضع مقلوب . سامى يحبها ، وهى تسدل الستار على الماضى ، تنزلق كلمات سامى كقطرات ماء على معطف مطر . تنزلق ولا تخترق جسدها . وتخرج المرأة ذات السنوات الثانى والثلاثين من اللقاء كما دخلته : مغتربة عن ذاتها وعن الغير . مستغنية بلا اكتفاء .

وفى مقابل تهديد الصبية بأن تنتحر تحت عجلات الأتوبيس بعد أن رحل حبها وحبيبها ، يردد سامى طيلة اللقاء كلمات يائسة مشابهة : « يودى أن أقف فوق المائدة ، فى وسط كل الناس ، وأقول أنى أحبك . وأنى أحببتك دائماً » . غير أن كلماته لا تفعل شيئا بل تخرج المرأة من جسدها الوهج المكبوت الذى اختزنته ، وتروح تحيا « الصبية » من جديد وتنفس عن حبها الأخرس . تعيد بناءه وتمنحه الكلمات ، فيتحرر الماضى ويتواصل بالحاضر ، ويمتد إلى المستقبل ، إذ تجلس المرأة تحكى لحبيبها السابق خططها للمستقبل واهتمامات حاضرها . وتسمع منه ما ينوى هو أن يفعله بحياته . لقد تحررت من الماضى بأن اعادته إلى الحياة ، وأصبح فى وسعها أن تمضى بسنوات عمرها إلى الكهولة فالشيخوخة فى خطو واثق مرتاح ـــ أو هكذا ظنت .. !

هذا هو الجزء الأول من عمل فنى من جزءين قدمته لطيفة الزيات تحت عنوان : « الشيخوخة » ضمن مجموعة قصص بعنوان : « الشيخوخة وقصص أخرى » . وسنجد بعد أن ننظر فى الجزء الثانى من « الشيخوخة » أن الجزءين يكونان فى الواقع رواية لا قصة ، وأن لهذه الرواية امتدادا آخر بعنوان : « على ضوء الشموع » . وبطلة الأعمال الثلاثة واحدة : الصبية والمرأة والكهلة والشيخة ، تغور الكاتبة فى أعماقهن جميعا ، ساكبة فى هذه الأغوار أجزاء هامة من حياتها ، فتتحول هذه الأعمال ـــ الثالث خاصة ـــ إلى ما يشبه السيرة الذاتية تتناول فيها لطيفة الزيات بعمق وشجاعة ـــ تبلغ حد القسوة أحيانا ـــ بعضا مما مر بها من أحداث على الصعيدين الذاتى والعام .

فى « الشيخوخة ٢ » نجد الكاتبة مشغولة بفحص المرأة فى الخمسين ، تنظر إلى علاقتها ـــ وهى فى الأربعين ـــ بزوجها أحمد ، الذى مات من عام : علاقة مدمرة ، قائمة على وهم التوحد فى الآخر . ونشدان المطلق ، والجرى وراء المستحيل . قامت علاقتها مع أحمد على الابتزاز ، تريد أن تبتلعه ، تحول ذاته إلى ذاتها . رد الزوج بالانسحاب . لم يعد يراها أو يسمعها فى سنوات زيجتها التسع تبادلت وإياه المواقع . كانت المعبود وأصبحت العابد . لم تدرك أن محاولة امتلاك الآخر تنتهى إلى أن تصبح هى مملوكة للآخر .

ومات الزوج وترك لها الابنة حنان . فاقترفت معها الخطيئة ذاتها : فى أغوار نفسها سعت إلى امتلاكها ، وإن زعمت ـــ بعقلها ـــ أنها تريد للبنت أن تتحرر من التصاق جنينى بها .

والبنت حادة باترة . تحمل فوق كتفيها الشابتين هموم جيلها ، تكز بأسنانها على شفتها السفلى متحدية كل ما هو قاصر وفاسد ومزيف . تسعى إلى أن تنجز فوق طاقتها ، وسوط وهمى يلهبها ويحذرها من قصر الحياة . تقول لأمها : لى رفاق ماتوا فى حرب ٦٧ . فهل مات لك فى سن الشباب رفاق ؟ تغير الكثير فى حياة البنت بعد الهزيمة . قالت لأمها : « سرقوا الفرحة من

جيلي . ولن تكتمل لواحد منا أبدا ضحكة » وسألت البنت أمها بعد شهر من زواجها : ما السعادة ؟ ورفضت وصف الأم للسعادة « بالتكامل أو التحقق النفسي » قالت إن هذه مصطلحات الكبار . تفضل هي « التوازن النفسي والحفاظ عليه » هدفا أسمى للحب والزواج .

وكان أن قامت معركة عاتية بين الأم والبنت . تريد الأم في لا وعيها أن تحبس البنت معها في بئر . تريد أن تحرقها وتحترق هي . تعجز عن الانسلاخ عن عالم البنت وتتركها لتستكمل بناء توازنها النفسي مع زوجها ـــ ذلك الذي بدأته في الغربة ـــ وتسعى في ضراوة إلى إملاء جحيمها الداخلي عليها . وتعترف لنفسها بأن الخوف من فقدان حنان معنويا يدمرها . ثم تضيف : أنها تعتمد على حنان اعتمادا مَرَضيا . وأن حنان تضيق بهذا الاعتماد .

وتقف الأم فزعة ممزقة إزاء شبح الماضي : ما كان منها مع أحمد ـــ يوم مات عنها مرتين ـــ في حياته وفي الممات . توهمت أنه معقلها الأخير . والآن تتوهم أن حنان هي معقلها الأخير . وما من معقل أخير للانسان غير نفسه تقول لنفسها : قدرة الانسان على التجاوز هي معقله الأخير . غير أنها عاجزة عن هذا التجاوز . قالت لها حنان وزوجها : أرفعي عنا قبضتك لنتنفس . وجاء حبيبها السابق سمير يعرض عليها الزواج . وحثتها الابنة وزوجها على القبول ولكنها وجدت أن سمير عاجز عن أن يمنحها ما هي في حاجة إليه . حلمت ذات مرة بزوجها أحمد . كان يجلس على صيوان ، ثم جاءت طيور سوداء لتجلس مكانه . عبثا حاولت التخلص منها . ثم رأت في الحلم مكتبتها غاصة بحزم من أوراق الفولسكاب ، موضوعة على شكل كتب . وصحت وهي عاجزة عن تفسير الحلم . الطيور السوداء ما هي ؟ اشباح الماضي ؟ أغوار النفس ؟ الأوراق البيضاء : أهي تطلع إلى إمكان الكتابة في المستقبل ؟ أدركت أنها ما لم تتعايش مع الطيور السوداء ـــ مع أحداث الماضي ـــ ما لم تعرف المرأة فيها مفردات لغتها الخاصة ، فلن تعيش . لن تكتب ، لن تملأ الصفحات البيضاء . ما لم تع أن عليها أن تولد من جديد .. أن تبني بالمكعبات ـــ كطفل ـــ قيما انسانية .. ان تبذر بذورها في الأرض .. في أعمق أعماق الأرض حتى لا تدوسها الأقدام ، فستظل مدينتها تضيق بها ، لا مكان في المدينة لمن يظن انه واهب الحياة أو لمن يرضى بأن يكون الضحية . المدينة للانداد وللانسان .

في القصة السادسة في المجموعة : « على ضوء الشموع » نلقى المرأة مرة أخرى . في « الشيخوخة » عجزت عن أن تكتب سيرتها الذاتية ، رغم الحاح ابنتها حنان ، وايمانها بأن في هذه الكتابة حياة جديدة لأمها ، تدرأ عنها العجز ، والانتحار البطيء . وفي « على ضوء الشموع » ظلت المرأة سنتين تهدم في صفحات اليسار من دفتر ما بنته من خطوط مشروع روايتها الثانية في صفحات اليمين يصدها عن الكتابة فشل تجربتها الفردية ورفضها أن تعمم هذا

الفشل ليصبح فشلا لتجربة الانسان الكلية .

كانت الرواية الأولى قد حملتها إلى دائرة الضوء ، ومجتمع النجوم من الرجال والنساء ، ولكن وخزا خفيا كان يلح عليها دوما : لقد خدعت الناس إذ قدمت لهم روايتها هذه . المرأة التى كتبت الرواية انسانة أخرى غيرها . انسانة انتحلت هى ولهها بالحياة وزعمت أنه ولهها الخاص قد كانت المرأة هذه الانسانة فيما مضى . غير أنها لم تعد الآن . بين المرأتين زيف كبير تورطت فيه المرأة . حلمت وهى صبية أن تجرى وحبيبها حافية القدمين فى حقل فول تضمهما الخضرة ورائحة الأرض الخصبة وتأكل معه الفول والجبن القريش ، وانتهت وقد تزوجت آخر ، وجلست وزوجها تتناول العشاء على ضوء الشموع كالعاشقين . وما من عشق تبقى بينهما . ودت أن تصرخ أن الشموع كاذبة . والزيجة كاذبة غير أنها لم تفعل وانما ظلت تعيش الكذبة تفصل الشموع وأنصاف الحقائق ومرارة الحقيقة ، وقسوة الخديعة ، والرفض المتبادل لماهية الآخر ، والخوف من الصدام ، والحرص على الصورة الاجتماعية ، والتظاهر بنجاح مشروع أفلس من زمن بعيد ، تفصل كل هذه بينها وبين زوجها . جسدها نفسه كان يرفض الرباط العقيم ، مع زوج يعبد نفسه ويحتقرها . ثار الجسد على زوج يكذب عليها وعلى نفسه . تبين الزوج أعراض جسد امرأته عنه فى الفراش فثار قائلا : جسدك يرفضنى يحتقرنى . وظل مع ذلك يؤدى « واجبه الزوجى » محولا زوجته إلى أداة اشباع .

وأدركت المرأة وهى تتمدد وسط خضرة قرية فى صعيد مصر ، ذهبت تزورها مع جمع من الأصدقاء ، أن ثمة خطأ فى بنيانها . كانت قد قالت لزميل فى العمل أنها تشترى راحة البال بكثير من التنازلات الصغيرة . الآن تدرك أن التنازل الصغير لا يقف عند حد أنه يسلم إلى تنازل أكبر : ويختلط التنازل اللا مبدئى بالتنازل المبدئى ، ويفيق الانسان ذات يوم ليجد نفسه فى هوة بلا قرار . ادركت كذلك أنها لم تصرخ فى وجه زوجها ، لأنها استحالت بدورها إلى اكذوبة ، تلعب اللعبة نفسها وتلتزم بقواعد اللعبة . وأقرت أن زوجها أفضل منها لأنه لا يتظاهر بغير ما يؤمن به . ووثقت بأن الغضب لم يعد من حقها . إنما هو حق القادر على أن يقطع ويصل .

فى القرية الصعيدية تذهب مجموعة المثقفين التى صحبتها المرأة لزيارة بيت الخولى . ترى المجموعة مظاهر الفقر الوحشى الذى يعيشه أهل القرية ، فيتحاشى الواحد منهم النظر الى الآخر يتخففون جميعا من الشعور بالذنب ويلقون التبعة على قوى غير مرئية ، أو على غير الواحد منهم . ثم يحكمون الحصار على طبيبة ضمن المجموعة ، يحملونها التبعة . نشطت الطبيبة فى العمل . كشفت ، وعالجت أطفالا فى مرحلة الخطر وآخرين يحتضرون ، وأوصت بعلاج طويل الأجل وهى تعلم أنه لا مال ولا رعاية لمواصلة العلاج . وقالت المجموعة أن الطبيبة طرحت ، كالسواح

أسئلة ما كان ينبغي أن تطرح على الفلاحين .

وأوشكت المرأة أن تصاب بالإغماء . غير أنها تماسكت وأصرت على ألا تغمض الطرف .

قررت الا تفر من القرية ولا من الناس ولا من الطين . هربت من بيت الخولى عائدة الى الناس بعد طول غياب . وإذ هى تستعد للعودة الى القاهرة تساءلت : هل تملك القدرة على بتر ما هو قائم ووصل ما انقطع ؟ وأدركت وهى ترعى غضبها الجديد كما ترعى الحامل الجنين ، أنه حتم على المرأة ، وقد انتهت اللعبة ، أن تقف على قدميها ، وأن تئوب الى نفسها وأهلها وناسها وبيتها بعد غياب عشر سنين .

فى : « الشيخوخة » تقول المرأة فى صراحة معذبة : « شيء ما مرضى فى رغبتى فى تعرية الذات . فى استباحة هذه الذات وهتك عوالمها الخاصة شديدة الخصوصية ، شيء ما مرضى جديد وقديم » . وتقول أيضا : « أعرف الآن أن العطب كان فىّ أنا » وفى : « على ضوء الشموع » « تؤكد : شيء ما خطأ فى بنيانى » .

فى المرأتين عيب داخلى خطير : فى « الشيخوخة » هربت ــ صبية ــ من نداء العالم الخارجى ، ودلفت الى معبد الحب الرومانسى ، تعبد فيه حبيبها وتفنى فيه ، ثم تتحطم ــ من بعد ــ من فرط هشاشة الصرح الذى لجأت اليه . وفى « الشيخوخة ٢ » تلعب لعبة مغايرة : تسعى إلى افناء زوجها والحاقه بذاتها . وتنتهى اللعبة أيضا بالانهيار التام ، تتحول من امرأة واهبة للحياة الى مملوكة لمن سعت الى امتلاكه . ويتكرر الفشل فى علاقة الأم بابنتها . ترفض البنت التبعية وتترك الأم إزاء مصيرها ، تحاول أن تعى درسا هاما : أن الندية لا التبعية ، هى طريق الخلاص .

وفى : « على ضوء الشموع » تقع المرأة فريسة لخداع الذات . من ظنته حبيبا ورضيت بأن تتزوجه ، سرعان ما كشف النقاب عن زيفه وزيفها هى . من أجله تركت وراءها كل شيء كل الأهل وكل الناس ، فكان مبلغ ما حصلته : حياة من الأكاذيب المتصلة ألحقت الضرر الفادح بالمرأة والانسانة فيها وتركتها تتلمس الطريق الى الخلاص بالجهد الجهيد .

تشدنا المرأة فى الأعمال الثلاثة ، فى حالى غفلتها وصحوها : اذ هى تسقط واذ هى تسعى بالجهد المرير الى القيام . ولا نستغرب منها ما تلجأ اليه بين الحين والحين من تجميع حصيلة تجاربها فى شكل نتائج تضمنها جسم العمل الفنى ، فيستوعبها هذا الجسم ، لا يرفضها ابدا ولا هى تبدو ناتئة بحال .

إن الاعمال الثلاثة تقدم للرواية العربية مذاقا ونهجا مستحدثين تجمع بين أدب الاعتراف وبين الروايتين النفسية والسياسية . الصراع فيها يدور على مستوى الأفراد ، ولكن الخلفية السياسية لا

تضيع أبدا . والصدق الجارح الذى يسرى عبر الأعمال الثلاثة يدعم الصدق الفنى ويزيد من تقبلنا للعمل ، ويدفعنا الى اعتباره خطوة هامة تخطوها لطيفة الزيات منذ أن طرقت باب الأدب النسائى الحق . فخلص لها « الباب المفتوح » الرواية الفاتحة بحق فى الأدب النسائى العربى .

واليوم وبعد سنوات طويلة من المعاناة تبلغ الكاتبة مرحلة النضج وتجعل مشاكل الفرد لصيقة بالمجتمع تعبر عن الأخير تعبيرا عميقا ، لأنها تترك الصراخ جانبا وتضع فى البؤرة مشاكل الفرد فى حالى السقوط والقيام ، فتكسب أعمالها انسانية عميقة .

نقرأ : « الشيخوخة وقصص أخرى » ، أو « الشيخوخة على ضوء الشموع » كما أحب أن اسميها ، فيلفت نظرنا ان موضوعيها الرئيسيين : تحرر الفرد من الفرد ، وشعور المعرة لرؤية الجسد البشرى وهو يُدنَّس ، يجريان فى طول وعرض رواية لطيفة الزيات الأولى : « الباب المفتوح » .

تدخل ليلى سليمان معركة طويلة مع الأب والأم والأخ والصديقات والخطيب والزوج لتضمن ان يظل جسدها ملكا لها . وليس ملكا للغير . يظل جسدها وطهارته شغلها الشاغل منذ أن تبلغ مبلغ النساء فى المدرسة ، فيجعلها اهلها تحس ليس بفرحة النماء والوعد بالعطاء ، بل بالخطر الداهم والخوف من العار ، والابتهال المحموم طلبا للستر ، تصبح سجينة حراس أقاموا أنفسهم رقباء عليها ، لكى تظل داخل الحدود المرسومة .

حينما تحب عصام ويحبها تسعد وتنتشى وحين يشتهيها عصام ويقترب منها اقتراب الذكر الغازى ، من الأنثى المستكينة ، تثور ليلى ثورة عارمة ترفض أن تصدقه حينما يقول لها أنه يحبها . تقول ان ما ابداه نحوها ليس حبا وانما شهوة ، رغبة فى الامتلاك والقهر . وحينما يغار عليها لاهتمام شاب آخر بها ويصرخ كالمجنون : « انت بتاعتى . بتاعتى أنا . ملكى أنا . فاهمة ؟ تواجهه كالقطة المتنمرة وتصرخ : « أنا مش ملكك ولا ملك أى انسان . أنا حرة . فاهم ؟ وحين تعرف من جميلة أنه يصادق الخادمة سيدة ، ويضاجعها فى المطبخ ، وأن جميلة لا ترى فى هذا عيبا ، فهو حق لكل شاب لم يتزوج بعد ، تشعر ليلى بالغثيان . وحين تدعى الى أن تعلق على فستان ابنة خالتها جميلة ، الموشكة على الزواج تقول : أنه عريان . فلما تلبس جميلة البوليرو المكمل للفستان لتخفف من عريه تقول ليلى : مافيش فايدة . عريان من جوه . عريان يا جميلة . عريان . اذ ذاك ترى ليلى العرى سمة عامة فى عصام وأخته والمجتمع الذى يوحى لهما بما يفعلان . ومن ثم تندفع إلى المصعد ممسكة بحباله محاولة الانتحار .

ولما تمضى الأيام وتتزوج جميلة من غنى جاهل يعيبه كل شىء الا جيبه ، وتجد ليلى كلا من جميلة وأخيها عصام مرتاحا لسير الأمور ، تشعر ليلى أن جسمها مهزوم . كل شىء فيها مهزوم كما لو كانت قد رفعت حملا ثقيلا ، اكبر مما تتحمله طاقتها فانكسر عمودها الفقرى وتظل فترة

تشعر بأنها تافهة ، مخرورة ، حقيرة ، ممسحة كالممسحة التى يمسح فيها الناس اقدامهم .

ثم تدخل ليلى غرفة نوم جميلة ذات يوم فتجدها متمددة على الشيزلونج ، وعلى الأرض يركع صديقها صدقى ـــ زير النساء ، ظهره الى ليلى ونصفه الأعلى ممتد فوق جسد جميلة ووجهه مدفون بين نهديها . كانت الليلة ليلة زواج ليلى من استاذها فى الجامعة الدكتور رمزى . ومن الحفل تسللت جميلة وصديقها طلبا للمتعة . عوضا عن أن تشعر جميلة بالخجل أو حتى الحرج ، يمتلكها الغضب وتصرخ فى وجه ليلى : تفهمى ايه انت فى الدنيا ؟ تفهمى ايه اللى تقاسيه الست لما تعيش مع راجل بتكرهه ؟ علموك دى فى الكتب ؟ فهموك دى ؟ تعرفى ايه اللى بتحس بيه الست لما تشعر أنها بقت زى الخرقة القديمة ؟ نشفت وقلبها نشف . لأن ما حدش يبص لها وعنيه بتلمع ؟ ما حدش بيقولها : احبك ؟

كانت جميلة قد حاولت الانتحار . بلعت انبوبة اسبرين . ولكن امها تسترت عليها ، لأنها لا تريد فضائح . وعادت جميلة تسأل ليلى : وانت ياست يا محترمة يا بتاعة المبادىء ، لو كنت مطرحى تعملى ايه ، حا تعملى ايه ؟ وفجأة اختفت نبرة التحدى وكأنها أدركت أن ليلى تقف الموقف نفسه الذى تقفه جميلة ، ولابد ان تنتهى الى النهاية نفسها .

كانت ليلى قد سمحت لضغوط الدكتور رمزى عليها ان تبتلعها ، وأن تحيلها الى ظل يتبع الأستاذ . جارته . وماشته . ورضيت بالزواج منه ، وسلمت اليه امورها تسليما تاما . خانت نفسها ، ومبادئها ورضيت بأن تشرع فى تقديم جسدها للدكتور رمزى كى يدنسه بلا اخلاقياته ، وشهوته العارمة ، التى بدت حتى فى حفل زفافه الى ليلى ، حينما راحت عيناه تلتهمان صدر جميلة العارى وتركزان على مابين النهدين .

وقعت ليلى فى المحظور الذى ظلت تخوض المعارك المتصلة كى لا تقع فيه . سمحت لجسدها بأن تنتهك قدسيته ، أو كادت ان تسمح ، لولا أن انقذتها عوامل من خارج نفسها . قام العدوان الثلاثى ، فبعث فيها همة وعزيمة ، ورد اليها ارادتها المسلوبة وجعلها قادرة على ان ترد طوق العبودية الذهبى الى مستعمرها الدكتور رمزى .

غير أن هذا انما هو حل مصنوع وجدته ليلى هربا من مأزقها . حل أرضت به الكاتبة نفسها على الورق ، وقد تكون تعزت به الى حين . ولكنها لم تلبث ان ادركت انها قامت فى « الباب المفتوح » بخديعة كبرى للناس ولنفسها أساسا فى واقع الحياة لم تكن قد نجت من سحر زوجها الأسود ، وشباكه الكثيفة الملتفة وطقوسه الجهنمية التى اوقعتها فى حمأة « الرذيلة » ، وأرغمتها على أن تظلم نفسها وتلعب لعبة الكذب نفسها التى كان يلعبها معها زوجها .

من أجل هذا تعود لطيفة الزيات الى موضوع الجسد المهان فى «على ضوء الشموع» كانت

قد راهنت مع نفسها على أنها ان ملكت القدرة على استكمال الباب المفتوح ، لواتتها القدرة على التخلص من زوجها ساكن الشقة المطلة على النيل على أنها اكملت الرواية ، ثم نسيت العهد ومضت فى طريق النفاق ، وظلم النفس .

واليوم ها هى ذى تعود فى « فى ضوء الشموع » لتحاسب نفسها الحساب العسير الواجب ، ناقلة معها بعض هموم ليلى فى « الباب المفتوح » : الشعور بالمَعَرّة لدى كل محاولة لتدنيس الجسد ، سواء ظلت محاولة ، أو تقدمت فأصبحت حقيقة . محاولة عصام معها من النوع الأول ، وسقوط جميلة مع صدقى من النوع الثانى .

تَحَّت لطيفة الزيات فى نفاد صبر ينز الما أكذوبة تخلص ليلى من الدكتور رمزى ، وواجهت حقيقة أنها سلمت جسدها لزوجها طوال عشر سنين ، يمتهنه ، ويستخدمه وسيلة لاشباع شهواته ويهينه ويهينها طوال هذه السنين . عُرْى جميلة فى الملبس وفى تمددها على الشيزلونج ، يظهر فى الفَلاحة الممدة على السرير التى عرتها الطبيبة كى توقع عليها الكشف . وانقلاب السرير بمن فيه يذكر المرأة فى « على ضوء الشموع » بالسرير العارى الممتهن لجسدها الذى ظلت ترقد عليه طيلة عشرة اعوام[1] ، والذى القت عليه الستار الزائف فى « الباب المفتوح » غير أن دفاع ليلى فى « الباب المفتوح » عن جسدها لا يقتصر على سوء استخدامه الجنس ، بل يمتد الى ربط سلامته بالكرامة البشرية ، بل وبواجب الدفاع عن الوطن حين يضربها ابوها ، وهى بعد تلميذة لأنها شاركت فى مظاهرة وطنية ، يخلع حذاءها ، يضربها بالشبشب مرات متتالية ، تقول لأخيها محمود أنها تحس أنها لم تعد انسانة . أصبحت ممسحة . ممسحة جزم .

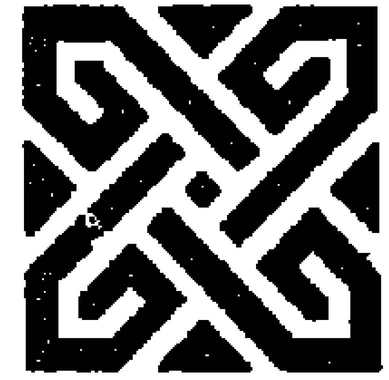
ومن « الباب المفتوح » أيضا تنقل لطيفة الزيات موضوع قهر الفرد للفرد ، والرغبة فى ابتلاعه وملاشاته . المجتمع بأكمله يحاول هذا القهر فى الرواية ، ممثلا فى أفراده : الأب والأم والأخ وابن الخالة ، وتقاليد وأعراف المجتمع ، علاوة على محاولة الدكتور رمزى ملاشاة شخصية ليلى ملاشاه تامة .

وراء هذه المحاولات شىء ما فى شخصية ليلى . فهى هشة من الداخل ، تسعى دائما الى أن تعتمد على شخص آخر خارج نفسها . أول من اعتمدت عليهم أخوها محمود ثم وضعت ثقتها فى عصام ، واستجابت لضغوط الدكتور رمزى ولم ينقذها من الشعور بأنها قد أصبحت جثة هامدة سوى تعرفها الى حسين ، الذى دفع بشىء من الثقة إلى نفسها ، ما لبثت أن أصبحت استقلالا تاما عن الغير لَمَّا حدث العدوان الثلاثى .

(١) كان الزميل الناقد فاروق عبد القادر أول من التفت الى معنى وقوع المرأة العارية من السرير وعلاقته بعرى المرأة فى شقة زوجها المطلة على النيل .

النزول إلى البحر

جميل عطية إبراهيم



يضرب الدكتور صابر المائدة ضربة قوية بيده ويقول لصديقه القديم ، ومريضه المزمن سيد : « ها نحن ننزل البحر مرتين يا سيد » . يحتار سيد فى فهم مقصد الدكتور صابر . هل يعنى العودة إلى الجذور ؟ ويعقب : لا أدرى ! لا أدرى !

ويقول الدكتور صابر لزميله الدكتور عزمى وهما يسيران فى المقابر لعيادة امرأة اشرف عزمى على توليدها : هل نزلت البحر يا دكتور عزمى ؟ يظن عزمى أنه يقصد البحر المالح فيجيب انه نزله كثيرا . هو اسكندرانى . ولكن صادق لا يعنى البحر المالح . انما يشير الى البحر الذى يراه ممتدا أمامهما . بحر القاهرة . بحر المقابر . هذا هو البحر الحقيقى . الجحيم . فقراء . جوعى . لصوص . اثرياء . تجار . عاهرات . شواذ . مخدرات . عالم غريب ومجنون وملىء بالناس الطيبين .

وفى آخر الرواية يقول سيد وقد تزوج — أخيرا — من زينب فتاة المعمل ، وأخذ يتشكى من الزواج ، يقول لصديقة صباه وزميلته فى الجامعة والعمل السياسى « لواحظ » « ها نحن ننزل البحر مرتين » فتقول لواحظ نحن لم ننزل البحر مطلقا . وتضع سماعة التليفون غاضبة .

بين هذين القوسين اللذين يضمان مساحة الرواية كلها ، تقع أحداث « النزول الى البحر » . احداث تخص سيد ، الفقير ، المعدم الذى كان فى طفولته ينبش المقابر بحثا عن شىء يكون قد سقط من سلال من يزور المقابر من الأهالى ، ثم شق طريقه فى الحياة بصعوبة ، وعمل فى احد الجراجات ومرض بالسل ، وعالجه صديقه الدكتور صابر ، ثم مضى قدما فالتحق بالجامعة . وتعرف الى زميلته « لواحظ » وأحبها .

ليس سيد العصامى العادى الذى نلقاه فى الحياة وفى الروايات الرومانسية والواقعية على السواء ، وإنما هو مثل حى من أمثلة شباب ثورة يوليو ، القى بنفسه فى بحرها الواسع واشتغل

بالعمل النقابى وسحرته الخطابة والكلمات الفخمة المضخمة . ولكنه يتبين الآن ــ بعد الهزيمة ــ بعد موت عبد الناصر ــ بعد ان دخل الصهاينة القاهرة ، انه عاش طول عمره ناقص المعرفة بالاشياء . تبين أيضا أنه أمضى حياته كلها عائشا فى الوهم . يظل طول الرواية يردد اسئلة لا يتلقى عنها جوابا . هو عازف ناى ، كان يعزف عليه فى شبابه . ترك العزف بعد أن اصيب بالسل . يسأل نفسه : هل الناى آلة حزينة أم أن عازف الناى يتعمد الشجن ؟ ويسأل ثانية ولا يتلقى ردا ، ويقول : لا أدرى ! لا أدرى !

عمل سيد فى الجراج مزاملا غبريال أفندى الباشكاتب . غبريال افندى يقرأ ولا يكتب . ناضل من أجل تكوين نقابة للعمال . دخل غبريال افندى السجن ومات وسط رفاقه معذبا بالسرطان ، رافعا رأسه ، ورفض ان يعترف أو يقدم التماسا . يسأل سيد : لماذا تحمل غبريال افندى المحنة بمفرده ؟ دخل المعتقل ولم يخرج منه حيا . لم يفرط فى شيء من مبادئه ، وتحمل التعذيب والموت ؟ لماذا ؟

لماذا تزوج والده وهو الشيخ الذى تجاوز الستين ، من سنية ، فتاة من عمر ابنته ؟ هل يستغرق الأب الحاضر بملذاته الى درجة الحيوانية ؟ لماذا ينجب مرة أخرى ؟ لماذا تقبل أمه العيش مع سنية تحت سقف واحد ؟ هل هو لغز عصىٌّ على الفهم ، وأن المصريين لا مستقبل لهم ، يعيشون فى لحظة آنية مستمرة لا تفارقهم بأتراحها وأفراحها ؟ لحظة كالملاءة الواسعة سعة الأفق ، وهم تحتها يتحدثون عن الأجداد والتراث ، ويتكاثرون ويموتون كديدان الأرض ؟ لماذا يسكن الناس المقابر بعد ثلاثين عاماً من الثورة ؟

قال له الدكتور صادق ، اصغر أخوة لواحظ ، قبل ان يتولى مسئولية احدى شركات الانفتاح : لا تعتقد يا أستاذ سيد أنك سياسى . انت تعمل فى الركاب . مثل مدراء المكاتب . ربما انت فى مركز يقل عن مدير المكتب ويزيد عن مركز المخبر . شعر سيد بالاهانة ، ورد له الاهانة بمثلها قال له : انت الذى بعت الماضى بأكمله . غبريال افندى مات فى ا لسجن من أجلك . وانت تحولت من ثورى الى عميل . خبير من أجل ماذا ؟ ما هو العائد ؟ تبيع الماضى من أجل حفنة دولارات ؟ الماضى كله فى سبيل لحظة زائلة ؟

كان ذلك ومفاوضات فك الاشتباك الثانية فى طريقها . ادرك سيد ان صفحة من تاريخ البلد تطوى على مهل ، لتفرد صفحة أخرى . قال للدكتور صادق : سيأتى اليوم الذى تصبح فيه صديقا للصهاينة ، حين تفتح لهم سفارة فى القاهرة .

واستقال سيد من كل التنظيمات والنقابات والاتحاد الاشتراكى وخرج الى التقاعد وقطع علاقته بالجميع فى محاولة للفهم .

واليوم يرقد سيد بالمستشفى وقد بترت احدى قدميه بعد أن داهمه قطار . يشرد كثيرا ويتحدث الى غبريال افندى . تقول صديقته لواحظ : الماضى يأسره وكأنه لا مستقبل امامه ، أو أنه يعيش فى فصل أخير من مسرحية لعب فيها دورا ثانويا واعتقد لحماقته ان البطولة كانت معقودة له وأنه قد خان دوره .

بالأمس قال للواحظ : أنها تذكره بأيام الثورة وعنفوانها . أيام طرد الانجليز ، ومعارك التحرير والتأميم . سمعته لواحظ وتضايقت . اعاد القول وزاد فيه فقالت غاضبة : يا سيد يا حبيبى انا لواحظ ولست كتاب تاريخ . ثم اكملت : من لحم ودم . قال سيد وقد عاوده شروده : كلنا كتب تاريخ . صفحات مطوية وأخرى مفرودة . قلت لها ذلك فلم تصدقنى . طلبت منى أن انسى ذلك الماضى البعيد الذى يبدأ بطرد الملك . ان التفت الى الحاضر . وقالت غاضبة : تسترجع كل شىء لإجراء محاكمات وهمية خارج اطار التاريخ ومعقوليته . بينما العمر له نهاية . الشباب له نهاية . الصحة لها نهاية .

ترى لواحظ أن سيد قضى حياته عبثا فى كلية التجارة . نصحته بدراسة الموسيقى لكنه انشغل بالعمل النقابى والاتحاد الاشتراكى وضل طريقه وزاد شروده وهذيانه . عيناه على الماضى والماضى جنون . هو موت المستقبل . وهجرة من الحاضر التعس . أما أخوها الدكتور صادق فيقول : عيناى على الحاضر . ورموشها ترمى على المستقبل .

يشعر سيد بفداحة الحمل الذى يثقل كاهله . تقف امه فى دكان الأمانة وتلقى عليه بمصائب الأسرة مرة واحدة : سنية غاضبة . سنية حملت . سنية وضعت ولدا . سنية اصيبت بحمى النفاس . اخوك رفض الرضاعة . اخوك عنده نزلة معوية . أبوك ضرب سنية فكسر فكها . الحقنى . ابوك رمى عليها يمين الطلاق . البنية مكسورة الجناح . شايلة البيت على رأسها . يهتف سيد فى لوعة : ماذا أفعل لكم ؟ اللعنة عليكم . انت ووالدى وسنية . ثم دهمه القطار .

أبوه يعاشر زوجته وهو مازال بصحته . ربما تنجب منه مرة أخرى ، فيضطر الى ان يحمل الرضيع على صدره وقدمه مبتورة ويدور على الأطباء ، ويقول له ابوه : « اخوك ابن ابيك من لحمك ودمك . فى رعايتك بعد مماتى . افتحى يا حكومة مدارس ، وعلق يا اتحاد اشتراكى يفطا ويا اذاعة لعلعى اغانى ويا تليفزيون صور افلاما ، ويا صحرا المهندس جاى ، وها هم المهندسون يولدون فى المقابر كدود الأرض .

ذات مرة ذهب الى صديقه الدكتور صابر وطلب اليه أن يعقم اباه بجراحة تمنعه من الخلفة : ثار الدكتور وقال : تود ان تخصيه مثل ذكر البط يا ابن الكلب ؟ دعه يتزوج وينجب أطفالا تسبح بحمد الله اذا كانت الثورة العالمية تهمك فهؤلاء هم وقود الثورة وليس شعارات الاتحاد

الاشتراكى التى ترددونها كالببغاوات .

سيد لا يعيش فى الوهم كما صور لنفسه ، ولا هو أسير الماضى كما وصفته لواحظ . سيد غير قادر على نسيان الحلم العظيم . انتهى الحلم بكارثة فادحة ، ولكنه لا يستطيع أن يبعده من فكره . ما يحس به هو الشجن . الحزن الهادىء . وهو راقد على الفراش تتكسر حبة الدواء فى فمه وتذوب فإذا بها كالحنظل ، شديدة المرارة ، ولها لسعة . لا ينفع فيها الماء ولا عصير الليمون . على الفور يتذكر ماضيه : يسأل : لست بالابن البار ؟ عملت بالجراج وذاكرت ونجحت وتعرفت على صفية ولواحظ ، وعملت بالاتحاد الاشتراكى وبان الكبر علىّ وعلى والدى ومات جمال عبد الناصر . مرارة الدواء تذكره بمرارة انكسار الثورة وموت عبد الناصر . عبثا تطلب اليه لواحظ ان ينسى الماضى . الماضى هو امجاد الثورة . انجازات الحلم العظيم . يذهب الى حديقة الحيوان ليرى اشباه الأنسان من المخلوقات التى لا مستقبل لها ، ولا تفرق بين الماضى و الحاضر . ويستحضر الموتى ليناقشهم فى تراجمهم . وتتشابك امامه السبل . ولكنه لا يحيد عن الطريق الذى بدأه بالعمل النقابى وفى الاتحاد الاشتراكى . كان فى الاتحاد الاشتراكى ينقل مشاكل الشعب وآلامه وأحلامه والقضايا الصغيرة التى تؤرقه الى القيادة السياسية ويضعها تحت تصرفها علانية . وبعد الهزيمة والانفتاح لم يتخل عن كراهية الصهاينة ، ولم يرحب ابدا بموجات الانفتاح ، ورأى فيها بيعا للثورة وخيانة للمبادىء فى مقابل حفنة من الدولارات .

لواحظ لم تكن فقط زميلة سيد فى الكلية وحبيبته ، بل كانت رفيقته فى الكفاح السياسى أيضا . لا تقول الرواية ماذا فعلت ولكنها تذكر أنها هربت بعد القبض على غبريال افندى ، ولجأت الى بيت سيد فى المقابر . جاءت متلفحة بجلابية سوداء واسعة وعلى كتفيها شال ، وتخفى شعرها بمنديل أحمر . اكلت مع سيد على الطبلية ونعست فى الصالة الصغيرة المطلة على فناء المقابر . تأملها سيد وسأل نفسه لماذا لم يتزوجها بعد الذى كان بينهما ؟ أكان ما حدث نزوة صغيرة بريئة ، أم أن الخوف والعقم هو الذى اجهض علاقتهما ؟ أم تراها احداث ما بعد تأميم قناة السويس ، شغلتهما عن نفسيهما واغرقتهما فى خضم التيار العام ، حتى القى القبض عليها عام ١٩٥٨ ؟

كانت لواحظ شغل سيد الشاغل أيام الكلية. كانت تلبس الشورت وتلعب الاسكواش، وكان سيد يقف فى الشرفة وهى تجرى شمالا ويمينا، تلاعب زميلة لها أو أحد المعيدين. يرى قمة رأسها وشعرها المتطاير ، ويغادر الشرفة قبل ان ينتهى اللعب ليجلس فى طريقها الى غرفة خلع الملابس ليتأمل فخذيها . عشرات من الرسومات رسمها لها فى كافة أوضاع الجرى واللعب والانحناء والقيام والجلوس . جمعها طوال سنوات الدراسة للواحظ الطالبة ووضعها فى شقته ، كان مفتونا

بشخصيتها المتحررة ، وجعلته الفتنة يقف محلك سر عند لواحظ الطالبة . تقول لواحظ لنفسها : « اما لواحظ التى تحدثه ويأتى اليها فى المكتب فهو لا يعرف صورتها على حقيقتها : صورة السيدة المطلقة ، ربة البيت والأنثى الوحيدة . هذه صورتها الحقيقية ولكن سيد لا يريدها ، ولا يود الاحتفاظ بذكراها ولا رغبة له فيها .

شىء حاد وجارح فَصل بين الاثنين . لم تِكن النزوة الجنسية ولا زواج لواحظ من بعد من حمزة بك وطلاقها منه ، الا اعراضا لخلاف اعمق بين الحبيبين . لم تفت لواحظ العلاقة بين الأحداث السياسية وبين تطور علاقتهما . قالت : حرب ١٩٥٦ هى ذروة انتصارات الثورة ، وذروة علاقتنا سويا ملاحقة المثقفين كانت انتكاسة مثل هزيمة ١٩٦٧ ، ماثلها زواجى من حمزة بك . طلاقى منه يماثل فى روعته حرب اكتوبر . زيارة القدس المشئومة هى الستار الذى اسدل على الثورة ، وعلى لواحظ وسيد والحاضر والمستقبل .

تقول لواحظ هذا وتمضى فى طريقها المستقل ، بعد ان عيرت سيد بأنه أسير الماضى وبعد ما ذكرته بأنها ليست صفحة من كتاب تاريخ ، وأن لها عمرا ينقضى ، وشبابا يذوى وصحة لابد ان تضعف . الثورة ومنجزاتها وانكسارها وماتلى ذلك من أحداث بالغة الأثر فى حياة الناس كانت مجرد مرحلة فى حياتها ، استطاعت ان تتجاوزها . أما سيد فان الثورة هى كل عمره وما حدث فيها ولها امر لا ينسى بهذه البساطة الفجة . من أجل هذا يرين الحزن الهادىء على حياته بعد انتكاسة الثورة .

على أن لواحظ لا تبرأ من العيش فى الماضى . كل ما هنالك أنها تعيش فى جزء من الماضى خاص بها وحدها : طبيب اسنان شاب رقيق الطبع كان يتردد عليها فى المعتقل ، وكان يعاملها معاملة خاصة . يعلم ان لثتها سليمة ومع ذلك يصف لها علاجا ويأمر بعدة تحليلات . عندما غاب عن العيادة لم تسمح لأحد غيره ان يلمس اسنانها . هل تراه ثانية مصادفة ؟ ماذا تقول له ؟ هل تسأله عن سبب تركه القسم فى تلك السنوات ؟ هل يتذكرها ؟ كانت جميلة اذ ذاك ، بل اخاذة الجمال ، ورغم ملابس سجن النساء الواسعة كان وجهها الصبوح البض ،عيناها الواسعتان يشرقان بالنور ، فهل راقته ، وانطبعت صورتها فى ذاكرته طوال عشرين عاما ؟ هل ننزل البحر مرتين كما يقول الدكتور صابر ؟ اذا صح هذا لصح زواجها من سيد ومن ذلك الطبيب المجهول ! هل تنزل البحر ؟ هل فى ساعديها قوة للسباحة ؟ وهل نزلت البحر ابدا ؟ قالت لنفسها : لا أظن .

من أجل ان لواحظ لم تعد تستند الى شىء بعد ما ادارت ظهرها للثورة وللتاريخ ولاحترام المبادىء ، تنتهى حياتها الى لا شىء . حين استقالت من عملها فى البنك ، وحين خرج سيد

من المستشفى وتزوج من فتاة المعمل « زينب » — التى رأى فيها صورة أخرى من لواحظ فى شبابها — وحين مات الدكتور صابر وانقطعت صفية عنها ادركت لواحظ أنها أصبحت امرأة أخرى وان سيد أضحى رجلا آخر ، ولم يعد صديقها القديم ، وان عثورها على الطبيب الشاب لن يفيدها بشيء . وعندما قرر الدكتور عزمى الانتقال الى الاسكندرية واضطرت صفية الى اغلاق عيادة الدكتور صابر تأكد لدى لواحظ انه لا حياة لها فى الماضى بل انه لم تكن لها حياة فيه قط . من هنا ردها الغاضب على سيد ، حين قال لها فى التليفون بعد زواجه : ها نحن ننزل البحر مرتين . قالت : « نحن لم ننزل البحر مطلقا » .

فى مواجهة هاتين الشخصيتين تضع الرواية شخصية الدكتور صابر . وهو النقيض الكامل لهما . يقبل على الحياة بصدر عريض ، ويتقبلها كما هى ، بما فيها من خير وشر . هو نفسه يقدم الخير للناس ، ويصيبهم بالشر ، دون أن يتوقف لحظة ليتبين ما يفعل . التحق بكلية الطب حينما لم يكن هناك أطباء فى المنطقة ما بين الجيزة ووسط البلد . افتتح عيادة على النيل وبرع فى عمليات الاجهاض ومداواة البنات واعادة عفتهن ، وكون ثروة هائلة ودرس وتفوق وتزوج من علوية هانم ، وأصبح استاذا . وبعد موت عبد الناصر ، هجر زوجته الدكتورة علوية ، واغلق عيادة النيل وعاد الى المدافن وافتتح عيادة شعبية هناك . ثم تزوج من صفية التى سبق ان اعتدى عليها فى عيادته الأولى ، والتى هزتها صدمة الاعتداء فتركت الأنوثة جانبا وخرجت للعمل فى المشاغل والبيوت ثم أصبحت من بعد صاحبة مشغل . تزوجها وهى ابنة المقابر ، متوجا بهذا نزوله إلى البحر ، وراجعا الى أصوله الأولى ، فهو ابن عائلة ثرية تشتغل بالفراشة وخدمات المقابر .

تطور صابر فى هذه الحقبة من حياته . هذبه العمل الطبى وتميز حديثه بلمحات ذكية و بالسخرية من نفسه ومن الأطباء ومن الجميع . ووجد سيد فى داخله انسانا اكثر رقة من الفتى الضخم الذى عرفه فى السابق . قال له سيد ذات مرة ، قبل اعلانه زواجه من صفية ، ان صفية مثل عرافات المعابد ، وقد اكتوت بالنار المقدسة فأجابه صابر ساخرا : النساء كلهن عاهرات صغيرات . وقلة منهن عرافات .

عانق الدكتور صابر حياة المدافن وحياة سكانها ، وسمى هذه الحياة البحر بما فيه من جحيم وفقر وجوع ولصوصية وثراء وتجارة وعهر وشواذ ومخدرات ووجد فيه الجنون يسير جنبا الى جنب مع طيبة الناس . ومن ثم نزل الى ذلك البحر . وتعلم منه الكثير تعلم ان الجراحة ليست العلاج الأمثل للسرطان وانما هى تعنى العجز . وان القدامى كانوا اكثر حكمة فى علاج السرطان بالأعشاب والمسكنات والوصفات البلدية . ولما سخر منه كبير الأطباء قائلا : يبدو أنك تغيرت كثيرا منذ عيادة المدافن فأجاب وهو مهموم بآلام المرضى : نعم يا دكتور تعلمت اشياء كثيرة

منهم . من أهلى . تعلمت ان لبن الماعز يشفى وان الجراحة هى قلة الحيلة .

تزوجت صفية الدكتور صابر وهو « ابن موت » كانت تعلم انه سوف يموت مبكرا مثل اخوته وابناء عمومته . وبالفعل يموت صابر فى الخامسة والخمسين من عمره . مات فى عيادته وبين مرضاه . كان واثقا من انه سيموت قبل هذه السن . مات اخوته الذكور فى مثل عمره . ماتوا فى فراشهم . ينامون على أمل الاستيقاظ صباحا ، فلا يصحون . يذهبون إلى عالم آخر دون حشرجة ، وترتسم على وجوههم علامات الطمأنينة .

حينما يبلغ صفية نبأ موتة تستعرض حياتها معه . مضت كحلم . زينة الشباب كان ، ورجلا ولا كل الرجال . لن تستقبل المقابر اشرف أو اطهر منه جسدا وروحا فى الصباح يوارى جسده فى التراب . عرفته صفية صبية وشابة وتزوجت منه امرأة ناضجة ، وقد هام بها عشقا كما هام بهؤلاء البسطاء الذين يلتفون الآن حوله . فى الجنازة تختفى أرض الميدان والمدافن تحت اقدام السائرين . النعش على الأكتاف فى المقدمة وخلفه العائلة وطوابير الممرضات والأطباء بملابسهم ورجال المعامل والمرضى . وحول النعش وفى المقدمة باقات الورد الأبيض . النعش ثقيل على الأكتاف . يتبادل المشيعون حمله يخف النعش ويميل بهم . يتسمر حاملوه فى أماكنهم . ويسرى الهمس : النعش يرفض « الخرجه » . يضع الحاج مصباح يده على النعش ليتحدث الى آخر الأحباب : « لاراد لقضاء الله . طلباتك يا غالى فى عينى » يميل النعش بهم ويقودهم الى داخل المقابر ويتوقف امام زاوية صغيرة لإمام اعمى . بعد الصلاة يقودهم النعش الى حيث كانت تقطن صفية فى طفولتها وصباها فى عشة ، وتتوقف الجنازة أمام العيادة . يلقى ا لميت آخر نظرة على عيادته ومرضاه ، ثم يطير النعش فرحا ليدخل صاحبه فى حسبان الموتى .

بعد موت صابر يأخذ سيد يقارن بين فلسفته فى الحياة وفلسفته هو . اعتبر سيد زواج ابيه الشيخ من سنية نهاية الكون ، فوبخه صابر ، وادعى ان الأجهزة المرعبة التى عمل بها قد بخربت عقله . لم تنهد الدنيا لهذا الزواج ولم يخرب الكون . وها هو ذا الأب يسير كالوتد فى الجنازة ، عصاه فى يده ورأسه مرفوع . زوجته شابة ومليحة قوية البنية كالفرس ، وابنه الرضيع يملأ البيت حياة بدلا من صمت المقابر الكئيب . خجل سيد من زواج ابيه وانجابه وخاف الأعباء المالية ، وغلف جبنه بالكذب ، وسعى ليخصى الوالد . قال لنفسه : يعيش الفقراء فى العشش ، ونلقى عليهم بأوزار الزحام فى المدينة . الدكتور صابر اكتشف قواعد اللعبة ، واعلن انحيازه لأبيه ضده .

وفى عناقه للفقراء ، كان صابر يفرح بهم ولهم . حينما تلد احدى ساكنات المقابر ، ويشرف الدكتور عزمى ــ صديق صابر ــ على الولادة اشرافاً يجهده يرجوه صابر ان يذهب مرة أخرى

لزيارة المرأة الوالدة للاطمئنان على صحتها وعلى صحة المولود . يقول له : هذا ولد يا دكتور عزمى . ولد . رحلة فى الفجر تنعش الروح . من أجل هذا الانعطاف الانسانى احب الفقراء الدكتور صابر ولما يأبهوا لمعاملته الخشنة ولا لالفاظه الفاحشة أحيانا . علمتهم التجارب ان وراء هذا كله قلباً من ذهب . من أجل هذا يقول سيد لنفسه : ترك ملذات الدنيا من أجلهم . عمل ومات . ثم يعقب : « باطل الأباطيل وقبض الريح » . هل هذا تعليق على ما فعله هو ؟

تتيح حياة الدكتور صابر فى عيادة المقابر الفرصة للرواية كى تدلف الى البحر الزاخر الذى نزله صابر مرتين . هناك زهية وام اسماعيل الندابتان المحترفتان . زهية تخجل من مهنتها لكنها لا تقوى على المقاومة ، اذا رأت جنازة تقدمتها بكلمات تحفظها من سنوات مولدها فى بطن الجبل بالصعيد ، وتنطلقها منغمة مرخمة . من صغرها وهى ندابة . اهلكت والدها وزوجها وثلاثة أبناء وهرب منها الرابع ، خوفا على حياته من شر الندب . وهى طفلة اخذتها النداهة الى بطن الجبل لتنبش القبور وتلعب مع الموتى وتخرج عظامهم تضرب بها الكلاب الضالة . وذاع صيتها فاحترفت . كان أملها ان تغنى فى الأفراح لكن النداهة ذهبت بها الى المقابر .

ام اسماعيل اكثر شجاعة . تعلن للجميع أنها احترفت الندب لأنها حرمت من الرقص مع الغوازى . تزوجت من عليوه ورحلت معه من كفر الى كفر حتى وصلت إلى القاهرة فعملت فى المقابر . غرق ابنها اسماعيل فى النيل فمات أبوه مقهورا ، فأخذت تبكى على الوالد والولد وأصبحت أم اسماعيل الندابة .

وهناك « شكارة » الذى يعمل باشغال متعددة . تجارة الموتى والحشيش يأتى الى المستشفى ليتعرف الى الأحوال ويخبر بها المعلم صباح ورجاله المرابطين بالمستشفى والذين يعملون فى تجارة تجهيز ونقل الموتى ، نظير عمولة وما تيسر من قطع الحشيش . حصيلة اليوم : ثلاث وفيات . ولادة متعسرة . حادثة ترام . سكتة قلبية . هذا ما يخبره به جرجس افندى موظف المستشفى . تدور مفاوضات بين جرجس افندى وشكارة وأهل الموتى ، ويتسلم شكارة شهادات الوفاة و يتناول العرابين . جرجس افندى يتاجر فى الحشيش ، وفى بيع وثائق المستشفى التاريخية ، ويحلم بالسيدة العذراء ، ويراها فى فتاة المعمل زينب ، التى يدعى أنها تجسيد للعذراء ، بدليل أن كل من اشتهاها قد هلك وبقيت هى سالمة . يتطلع شكارة أيضا إلى زينب ، وان قعد به جهله وقلة موارده . من أجلها يقرر ان يترك الحشيش ، ويعترف لجرجس افندى انه يحب زينب . يضطرب جرجس افندى ويلح على شكارة ان يترك البنت وشأنها . وفى داخل نفسه يرتعد من احتمال ان يتزوج احد من زينب . هو نفسه يحبها من خلال الأسطورة التى خلقها بنفسه : انها تجسيد للسيدة العذراء .

تقيم « النزول الى البحر » مواجهة بين الذين يحلمون ، والذين يعملون . سيد ولواحظ من صف الحالمين . وصابر فى صف العاملين . تفضل الرواية العاملين على الحالمين ، ولكنها لا تفقد عطفها ابدا على الحالمين ، خاصة على سيد . الذى تشبث بحلمه الجميل حتى بعد أن احترق الحلم . غير ان الرواية لا تطلق موافقتها على العاملين من كل صنف . الدكتور صادق الذى يهجر المبادىء وينتقل من الولاء للشعب الى الولاء الى الدولار تبدى له الرواية احتقارا ظاهرا . بينما الدكتور صابر يتمتع بحب الجميع ، رغم ما ارتكب من اعمال هى فى عرف الأخلاق التقليدية : آثام . الاعتداء على صفية . اجهاض الحاملات سفاحا . اعادة العفة الظاهرة لمن زلت بهن الأقدام . زعمه البارد القلب ان النساء كلهن عاهرات صغيرات .

غير انه فى هذا كله كان يطاوع نزعات هى فى جوهرها تعبير عن شهوته الشديدة للحياة . من أجل هذه الشهوة طلق زوجته استاذة الفلسفة علوية ، التى لم تؤمن بمقولة نزول البحر مرتين . هو على حد وصف سيد له : يرى الأشياء فى صورتها الحقيقية : مرضى . اصحاء . ادوية . عمليات جراحية . حالات لا أمل فيها ، أما هو — سيد — فيعيش الأوهام . فلا ابناء الشعب المطحون ثوريون ولا العمال حريصون على مصالحهم . لهذا يقول صابر لسيد : انا اعرف اين تبدأ الجنان الحقيقية وليس الجنان المزيفة . فلا يملك سيد ردا .

بهذا المعنى يكون ما تقوله لواحظ فى آخر الرواية نقدا للحالمين ، وتأييدا للعاملين من طراز صابر : « نحن لم ننزل البحر مطلقا » : أى : لم نقترب أبدا من الشعب ، حقيقة ووجدانا ومعاشا .

هذه رواية ثرية وأمينة معا . وكاتبها جميل عطية ابراهيم يملك قلما قادرا ، وضميرا حيا ورغبة لاتتردد فى مراجعة النفس ولا تطرف فى مواجهة الحقيقة . وبهذا تنضم روايته الى مجموعة من الأعمال الأدبية يقف فيها الثائر عند انقاض ثورته ، يقلب احجارها حجرا حجرا بحثا عن الخطأ ، بينما الشجن يملؤه ، والايمان الذى تدفقه الدموع يثبتان رأيه بأن الثورة كانت حقا ،انتصرت أم انكسرت . اعمال مثل : « التفكك » للكاتب الجزائرى رشيد بوجدرة ، و « زهر الليمون » للكاتب المصرى علاء الديب و « نجمة أغسطس » لصنع الله إبراهيم .

الأخت لأب
و سطور من دفتر الأحوال

عبد الحكيم قاسم



فى رواية : « الأخت لأب » وقصة « سطور من دفتر الأحوال » . للكاتب : عبد الحكيم قاسم ظاهرة مشتركة توقفت بعضا من الوقت أتأملها . الموضوع فى العملين هو الريف المصرى وما يدور فيه من أحداث .

فى العمل الأول : يصف المؤلف الناس والأشياء بعين طفل مندهش ، يسعى وراء الفهم ، وينشد الاعتراف ، ويود لو حصل على حب أخت له من أبيه ، فيجرى وراءها ، ويتبعها و يتودد اليها ، محاولا التغلب على ماخسبه كرهاً له عندها ، الى ان يتبين فى نهاية العمل ان ما ظنه كرها إنما هو انكسار لم يفطن إليه . وكان عليه أن يتبينه منذ البداية . اذ ذاك يجسر الولد على النظر فى عينى اخته لأبيه ــ يتطلع دون خوف فى هاتين العينين البنيتين . ذواتى الأهداب السود ، فينكسر حاجز قام بين قلبين صغيرين فرقتهما الأوضاع .

هذا ، على بساطته ، هو الخيط الرئيسى فى هذا العمل الأخاذ . وحول هذا الصراع الصامت فى معظم الأحيان ، الناطق مرة أو مرتين ، إذ تقول الأخت لأخيها : « اتباهينى بأنك أبيض وأنا سمراء ..؟! .. الجير بالأكوام والفلفل بالميزان ! » ، حول هذا الخط الرئيسى تدور مشكلة الولد الصغير . هو أبيض فى بيئة سمراء . هو منعم فى وسط خشن . هو ذو اسم تركى مستفز ــ شوكت ــ واسماء رفاقه مصرية عادية . لهذا يكرهه العم ويتحداه ، ويتعمد اذلاله بالزج به فى معارك غير متكافئة مع أولاد اقوى منه فينهزم الولد ويعيره العم : « انت أبيض وهش كالبنت قعيدة الدار . أنت يلوط بك العيال ! » .

هو اذن ولد غير مندمج فى البيئة ، ليس لأنه يريد ذلك ، بل لأن وراءه أما ترى أنها وأولادها أفضل ممن يحيطون بها من ناس . تصر على هذا فى هدوء ، وفى دأب تخيط الأم لأبنها جلبابا من قماش أهدته إياه خالته ، فيقول الولد أمي : كنت أريد جلبابا فلاحيا بأكمام واسعة . فترد الأم : أنت لست فلاحا . ولن تكون . ستكون أفنديا عظيما ، فيصمت الولد ، ويرمق مبروكة ــ اخته لأبيه ــ متوجسا .

ووراء نظرة الأم المتعالية هذه ، نظرة أكثر تعاليا لأبيها ــ اسمه شوكت أيضا . خاصم هذا الأب ابنة له ، اسمها امتثال ، لأنها تزوجت على سنة الله ورسوله من رجل ، لم يرض عنه الأب . قال : لن تدخل بيتى أبداً . لقد مرغت شرفى فى الوحل ! وخرجت البنت خالية الوفاض . لم تأخذ معها حتى صرة هدومها .

وقبل هذا ، خطب ابن شقيقة شوكت الكبير ابنة أخرى للوالد المتعنت ، وكادت مراسم الزواج تتم : قرئت الفاتحة وجهز الجهاز لولا أن جاء من وراء البحر رجل يركب حصانا مهرولا ، ويسوق أمامه سحبا من الأغنام يبحث لها عن مرعى . فطرد الأب ابن شقيقته العريس ، وزوج الإبنة من الثرى الوافد فأصبح زوجا للأم المتطلعة ووالداً لشوكت .

وتلد الأم مولودا جديداً تسميه : جودت . تقول الحاضرات من النساء ، يوم السبوع ، نريد على رأسه عمامة ، ليكون عالما فى قلبه نور ! فترد الأم : أريد على رأسه طربوشا ، أريده أفنديا ..!

ويرفد هذا التطلع ، ويدعم استبداد الأب شوكت الكبير ، تعنت الخال فى أسرة أم شوكت . يرى الخال اخته شهرت وهى تبادل ابن مصطفى صاحب البيت كلمات قليلة ، فتنزل على جسم البنت عصا أخيها وهى تصفر . وتنقل شهرت الى فراشها ، أقرب ما تكون الى الموت . والأخ واقف يشير الى الشراعة بخيزرانته ويقول : كانت تكلم هذا الولد ! يحس شوكت الصغير انه يعيش عالما من الألغاز . فهمه القاصر يجعله يظن المجاز واقعا يقول الجد : « لقد مرغت شرفى فى الوحل » ، فلا يفهم شوكت لماذا تفعل خالته هذا ، يتصورها تجرى ببطن مثقلة . وعيناها مليئتان بالرعب والذل ، لكى تكبش وحلاً من الأرض تلقيه على جده ، فيرفع هذا يديه ليحمى عينيه ويهتف : مرغت شرفى فى الوحل !

ويعيش شوكت عالما من الوحدة ، يدفعه اليه عداء أسرة أبيه له . وإهمال الكبار لشأنه واشتغال الأم بأسرتها وهموم اسرتها ، وإعراض مبروكة شقيقته لأبيه عنه . لا يقطع هذه الوحدة الا زيارته لبيت جده . هناك يعرف مباهج اللعب مع صغار مثله . ويجد من يرد على بعض أسئلته : جدته ، وخالته شهرت ، التى تدعوه ليصحبها لشراء شيء من الدكان وتجعل منه مبروكة عريسا فى

لعبة العروس والعريس . وتجعله يعيش مع الأطفال فى عالم الخيال الزاخر : يسافرون الى المدينة ويشترون الأشياء من الدكاكين ، ويخيطون ثيابا ويطبخون ولائم ، ويرددون الأغانى وراء مبروكة . وتزيد مبروكة على هذا كله فتجعله يتمتع بحق العريس على عروسه ، اذ يدخل ، فى الوهم ، بعروسه عفت ، الصغيرة ذات الشعر الذهبى والشرائط الزرقاء والخدود الوردية والجورب الأبيض ، التى أحبها من كل قلبه فور أن رآها . تدانيه فى البراءة ولا تدرى الفرق بين ان يملك الانسان بيتا وأن يستأجره .

وعرف شوكت عم عمران ، الحمال ذا القدمين الحافيتين المفرطحتين ، الذى يحمل دائما احمالا فوق طاقته . وتفتح قلبه الصغير لهموم خالته شهرت ، وتواطأ معها ليخفى سر تحدثها مع الشاب ، وانفطر هذا القلب لما رقدت شهرت فى الفراش كالميتة ، ثم لما تحلق العيال حولها ينظرون اليها فانتقت شوكت من بينهم جميعا ، وسألته : هل أنا عملت شيئا يا شوكت ؟ وانفجرت فى البكاء فقفز قلب شوكت الى حلقه وكاد يختنق ، ثم انفجر مولولا فى بكاء حارق .

أخذت أضواء الفهم تلوح فى عالم شوكت الصغير . لما « دخل » بعروسه عفت ، لم ينظر الى أحد من العيال ، تصور نفسه أعلى قامة منهم جميعا . اعترفت به مبروكة للمرة الأولى وأظهرت له الود . حزن هو ، وصمت تماماً فى داخله . فقدت الأشياء سحرها فى ناظريه . فى موكب العودة الى بيته ، لفت نظره بؤس الفلاحين الكادحين . شعر بود كبير نحوهم . القى اليهم السلام فى وقار وحزن . تعجب الفلاحون من طفل صغير يلقى السلام كالكبار ، رغم خوفه مما فعل ظل متأملا ، حزينا ، دعا له الفلاحون ، وقالوا : انه ولد مبروك . وتمنى عم عمران ان يفتح الله له ويصبح مبروكاً بالفعل ، يغشى المسجد ويقيم الصلاة فى المواعيد . أما هو فقد كتم خوفه فى نفسه وقال : لا ينبغى للمرء أن يكلم الناس عن الخوف الذى يعتمل داخله .

وأخذت قرية الجد تتراجع وتغيم فى دموع تحدرت من عينيه . كان يبكى بكاء من نوع لم يجربه من قبل . وتداخلت الحكايات والوجوه ، ولم يعد يدرى من يحب منهم ومن يكره . وقال لنفسه « أحبهم جميعاً . ناس طيبون كلهم » . ولكنه لم يحس رغبة فى العودة اليهم . أحس أنه يريد أن يبقى وحيدا . قرر أن يعيش وحيدا فى القرية . فاذا نصب العم والأخ الأكبر آلة العذاب تحت النخلات فسوف يذهب . سينازل العيال ويجهد الا يقع . وحلم بأن هذا سوف يصيب العم والأخ الأكبر بالذهول .

وإذ أصبحت قرية الجد نقطة صغيرة موجعة وسط زحام من أشياء أخرى ، لم يعد هناك الا عينا مبروكة البنيتان ، يميزهما الجمال ويخالطهما الانكسار . فقد شوكت براءته وكسب لقاءها نضجا وودا واعترافا بمكان ما بين الناس .

يحكى عبد الحكيم قاسم أحداث روايته هذه من خلال لغة متأنقة ، تبدو فى البداية متنافرة مع الموضوع الريفى ، والعواطف الساذجة ، والمواقف التى تضج بصخب الواقع وحرقة الأفعال ، وقسوة ردود الأفعال . ويسجل القارىء هذا التنافر ولكنه يمضى مع أحداث الرواية فإذا اللغة المتأنقة تصنع من نفسها وعاء من زجاج شديد الألق ، يقيم حاجزا بين القارىء والأحداث — هذا حق . ولكنه لايؤثر على مصداقية ما يرى خلف هذا الزجاج ولا يزيفه . كل ما هنالك أنه يجعلنا نعاين الأحداث على بعد مسافتين — كما يقول الانجليز فى نقدهم الأدبى — وليس على مسافة واحدة . غير أن هذين البعدين انما يضفيان على الرواية رفعة عن تراب الواقعية ويجعلانها تحلق فوق الأرض على ارتفاع لا يذهب بحلاوة مشاهد شعبية خالصة مثل احتفال السبوع ، ولعبة العروس والعريس وبراءة أحاديث الأطفال ، وسذاجة ردود افعالهم — وحلاوة الحنان الذى ينبثق من بعض الشخصيات : شهرت مثلا ، والجدة النائحة دائما على إبنتها الغائبة ، والحب الذى تكتمه أم شوكت وراء قناع من الجهامة لا يمثل حقيقة مايدور فى القلب . الواقعية فى « الأخت لأب » موضوعة داخل هذا الصندوق الزجاجى الشديد الألق .

غير أن الزجاج ما يلبث أن يتحول الى بللور شديد الصفاء أيضا فى القصة الفاتنة التى تلى الرواية — قصة : « سطور من دفتر الأحوال » .

تزداد اللغة هنا رصانة ، وأناقة ، وتمعن فى البعد عن لغة التخاطب والوصف المألوفة ، لتصبح فى مواضع كثيرة أشبه الأشياء بالشعر تحول الزجاج الى بللور لأن تحولا مماثلا قد طرأ على مادة العمل وعلى طريقة روايته . ما يحدث فى « سطور من دفتر الأحوال » هو تقطير الماضى والحاضر معاً وتركيب الصورة على الصورة وادماجهما بحيث يصبح الحدثان أو مجموعة الأحداث حدثا واحدا . هذا هو الفن المركب الذى يسعى اليه النضج الفنى بكل قواه .

الأحداث فى « سطور من دفتر الأحوال » لاتزال واقعية ، ولكن مسافة النأى عن الواقع ، أو — اذا شئنا — مدى التحليق فوقه أو الارتداد عنه الى الوراء تكبر ، سراى الباشا ، الاقطاعى المخوف ، تتحول مع الزمن الى مقر لنقطة البوليس . ارهاب حل مكانه ارهاب اقوى ، واعتى ، لا يعتمد العبيد وسيلة تخويف ، بل يستخدم لوحة الكلبشات واسلاك التليفون التى ترتحل الى كل مكان ، وجهاز التليفون الرابض فى دار كل عمدة وسيلة ناجعة لحفظ الأمن الاستعمارى الاستبدادى .

تروى الأحداث ، ولكن فى غمار تيار متصل من التأمل العميق ، يصبح فى حالة « الخنجر العثمانى » شعرا لاشك فيه : « على مكتب الضابط بجوار دفتر احوال النقطة .. خنجر عثمانى . المقبض من القرن المزين بالفضة ، والقراب من الفضة المشغولة ... زخارف المعدن النفيس ..

تلاوات قدسية ، بل إن فى هذه النقوش انوثة مترفة .. رقيقة كالشعر ونتوءات حالمة تثير الشوق لتحسس هذه القطعة النادرة ، واحتضانها فى الأكف ... يكون العجب من قدرة المعلم المصرى القديم ان يستنطق المعدن كل هذا الحسن ... أيكون الجنين فى رحم الفن هو الرغبة فى القتل ؟ أم انه احساس المعلم بالذل ، وهو قابع فى قصر دكانه وسنابك خيول المماليك تزلزل سكك الجمالية ؟ رغبة فى القتل يحملها نصل مسموم مجلبب بنفيس الفضة ؟ » .

يمنح هذا التأمل العميق الأحداث ولغة السرد كثافة وشفافية إلى أن يصبح الضابط الجالس الى مكتبه فى خدمة الاستعمار والاقطاع هو المعلم المصرى ، الشاعر بالذل ازاء عربدة خيول المماليك ، اتقان الصانع المصرى لعمله هو تعبير عن ذاته ، ورغبة فى القتل غير مفرج عنها ، واذا يقع خنجر المعلم فى يد معاصرة ، يشعر بالذل ذاته ، لعربدة خيول مماليك جدد ، جاءوا من وراء البحار ليفرغوا حمولة مراكب من أسلحة القمع ، يقوى الشعور بالمعرة ، يردفه شعور آخر بمذلة شخصية . الضابط الشاب عاجز ، وزوجته ، التحفة الناعمة المترفة ، التى تتمرغ فى حرير الدعة ، تبحث عن الارضاء وعن الولد عن طريق السحر والساحرات ، ناشرة فى الأرجاء انباء عجزه . يوم ان اعطاه أبوه الخنجر وقرأ من وثيقة متهرئة سطورا لم يفهمها الشاب ، أحس أن الخنجر قد أصبح قدره . وشعر بكبرياء من يسمع الحكم باعدامه امام محكمة عليا .

تتراكم الصور أمام الضابط ، اذ جاءه فلاح يشكو أن جاره قد قطع رأس جحشه الصغير . جاء الفلاح بالرأس وألقاه امام الضابط . ترك الرأس بقعة دم على البساط . صباح ذلك اليوم وهو يرتدى ثيابه ، وجد الضابط على سرواله بقعة مجمدة من الدم . امرأته كانت تطيع ارشادات الساحرة وتقطر دم الأرانب على سروالها وسروال زوجها . طقس دموى غريب تعانق فيه الزوجة فراء الأرنب الناعم وتغمض عينيها ، والأرنب يصيت ، اذ تأخذه السكين . تشعر كأنه طفلها الذى ولدته لتوها . تحس كأنها تنعم بارهاق ما بعد الولادة . يخمد صوت الأرنب ، فتشمل الزوجة راحة أم اخلد وليدها للنوم .

نظر الضابط الى عينى الجحش فوجد فيهما وسامة عينى الخادمة الصغيرة التى تسعى بين زوجته وبين أهل السحر . فى عينى الخادمة خيانة وغدر وهزء تطل جميعاً على الضابط . رأى أيضا فى عينى الجحش وسامة عينى أمه ، ووسامة عينى زوجته . فى طفولته كانت أمه تطارده بحنانها وكلماتها الذليلة . تطارده بعاطفة مبلولة ساخنة تكاد تقلب أبعاده . عينا زوجته أيضا تطلان عليه من وسادة السرير الحريرية ، وهو محصور يريد أن يفر من إلحاح شبقها الساخن المبلول . يكاد يقىء . يكاد يصرخ ! احتجاجا على ظلال الهزء المتكومة على الطرفين الناعسين .

انتصب الضابط واقفا . إلتقط الخنجر ، أحكم قبضته عليه . استل السلاح . أصبح هذا رمز ارادته ودليل تحرره من الذل ومن العجز .. لم يكن يرى أحدا من الحضور . كان يجرى لحظة التحرر من كيانه ولذة التحول الى صورة عبقرية على جدار قصر قديم : « امراء مماليك ، الجسم وهم والشفاه قرمز، والعيون صبح، والعمامة سحابة يوم يتاه بشمس مشرقة. امراء يتوثبون اقتدارا ورشاقة . تضج صورهم على الحيطان مُرُوّة ومخولة . « يهجم الضابط على الفلاح الذى قطع رأس الجحش هجمة لاترد ، ويغمد فيه خنجره .

اللغة المكثفة ، والتأمل الشعرى المتعدد الأبعاد يمنحان الشخصيات أبعادا ثلاثة ، تصوير الشخصيات يتجاوز التصوير ليصبح نحتا : سلّاخ جلود البهائم الميتة واحد من الشخصيات المنحوتة . التاريخ يتكثف ويحيا ويلبس جسد واحد من الأحياء . الشعر والرمز والصور المستحضرة ، وتلك التى تتصاعد تلقائيا من أغوار النفس تجعل هذا العمل الفنى علامة واضحة على تطور مثير للفن الروائى الواقعى . لا تزال الواقعية واقعية هنا ، وإن بدا لها أكثر من دثار . نراها جميعا فى صورة وراء صورة داخل إناء من البللور الفاخر ! .

الطوق والأسورة

يحيى الطاهر عبد الله



قلب فهيمة العذراء عامر بالأشواق تحاور قلبها وتقول له : عريسى قادم على حصانه ... عريسى يطرق بابنا وأنا التى ستفتح الباب « وتخاطب عريسها المقبل ، وتزوق نفسها له : أنا مليحه ، فهل تراني عيونك .. ؟ كل ما يروق لك عندى يا رجلى : هذه هى أشيائى الجميلة فى صندوق الخشبى المحلى بصورة الزناتى خليفة ، والهلالى سلامه ، وكليب وجساس ، والبسوس المولوله : مكحله .. ومناديل ملونه ذات شراريب وزجاجة عطر وثوب منقوش وصابونه معطره » .

تتشوق فهيمة الى العريس الفتى ولكنها فى السر تعشق أخاهامصطفى . يضربها وتحبه ، وهو باليقين يبادلها الحب .. كانت تتعمد الفعل المعوج ليضربها ، فتتصنع البكاء وتشتمه ، هكذا تشعل ناره وتحمى فيضرب بعنف .

وذات مرة خرج للخلاء وقضى حاجته وعاد للدار . وتسللت فهيمة وراءه متستره بالليل . وكان للبول المختلط بالتراب الجاف رائحة ثمرة جميز خضراء عطنه . فظلت هذه الرائحة تنتشر كلما ذكرت مصطفى من بعد . وفى السر كانت فهيمة تشم رائحة عرق مصطفى ورائحة وسخه بملابسه ، قبل أن تغسل الملابس .

وحين كانت فهيمة متجهة الى المعبد القديم سعيا الى الاخصاب سألت نفسها وهى تنظر الى الكباش التى كانت بشرا فى القديم فسخطها الله . كيف يتزوج الأخ من أخته ؟

ولما عادت من المعبد ، بعد أن جرى لها ما جرى ، رقدت على سرير أبيها الميت ، مريضة بالحمى ، وأخذت تشتهى الأشياء الحلوة : النوم الطويل المقبل ، والبلح الرطب ، وجعلت تشم رائحة عرق مصطفى ، والبول على التراب الجاف ورائحة الجميز الأخضر العطن وتقول : اشتهيه : أنت أخى وأنا بنت الأم والأب . هاك حضنى ...... خذنى .. تعال .

فهيمة عذراء مسلمة فى رواية فرعونية القرار ، تمتزج فيها أحداث الماضى وشخصياته وعاداته واعرافه الوثنية ، بدين الحاضر ، وقرآنه ، وكرامات أوليائه . والمزاج عضوى يذوب فيه كل شيء فى كل شيء . الماضى السحيق تعلوه طبقات التاريخ المختلفة وتكون وحدة عضوية متماسكة تماسك صخور الجيولوجيا .

فهيمة بطلة فرعونية حين تروح تزور المعبد طلبا للانجاب وهى عربية حين تخرج رسالة أخيها من الصندوق الخشبى وتشمها وتقبلها ، ثم تروح تنقل نظرها من الصورة المرسومة على الطابع والصورة المرسومة على الصندوق وتقول : « هذا هو ملك مصر والسودان بطربوش أحمر ونياشين من ذهب على الكتف والصدر ، وشارب مفتول وهذا هو الزناتى خليفة المصروع بيد الهلالى سلامه ، يحمل تحت أنفه شاربا مفتولا أكبر من شارب الملك وهذا هو الهلالى ، قاتل الزناتى بغير نياشين على الصدر والكتف ومصطفى يوم سافر كان بغير شارب .

مصطفى هو الآخر .. فى رؤيا فهيمة ـــ شاب فرعونى يمكن للأخت أن تشتهيه وتتزوجه ، وهو أيضا بطل عربى يقتل الزناتى ذا الشارب والنياشين ، الزناتى الجديد الذى رأت صورته على طابع البريد .

وفهيمة كذلك بطلة فى مأساة إغريقية ، من النوع الذى هاجر من مصر الفرعونية الى اليونان ، فتحرر من آثار المعبد ليقدم فى الساحات والمسارح . وبعض موضوع مأساتها هو : اللعنة تصيب من يتزوج من المحارم . وباقى الموضوع هو العقاب يحق بالزانى والزانية . وقد ارتكبت فهيمة المعصيتين معا . اجترحت الأولى بالامكان وبالاشتهاء ، حين ودت لو عانقها أخوها وتعامل مع جسدها ، واقترفت الثانية يوم دخلت المعبد وخرجت منه وهى حامل .. حامل من رب الإخصاب ، الذى اسلمت له ظهرها وغابت عن الدنيا !

وكان هذا بتدبير من الأم العجوز « حزينة » ، التى سعت الى تجنب طلاق فهيمة من زوجها الحداد ، فألقت فى بطن فهيمة نطفة من غير صلب الزوج .. فالزوج عنين فاقد القدرة .

وجاء عقاب فهيمة وأمها سريعا حقا . طلقها الحداد ، رغم البنت التى انجبت ثم ما لبثت فهيمة أن ماتت بالحمى . ومضت اللعنة تسرى فى دم الأسرة من بعد ، فكبرت نبوية ، ابنة فهيمة ، وأحبت رفيق صباها ، ابن الشيخ الفاضل الذى يفوقها مكانة ، واشتهته وحملت منه ؛ فأوسعها خالها مصطفى ضربا وركلا وألقى بها فى حفرة طمر فيها نصف جسدها ، وتركها بلا طعام وشراب حتى تعترف باسم من عاشرها . ثم جاء السعدى ابن عمتها الذى طمع فى الزواج منها فما قدر .. جاء فأطاح برأسها بمنجله وحمل الرأس فألقاه فى وجه خالها مصطفى ، تعبيرا له وشماتة .

رواية « الطوق والأسورة » هذه حافلة بالعواطف النارية التى تكون مادة الحياة الأولى : الحب . الغيرة . الانجاب . العقم ..

ومن موضوع العقم يصور الطاهر عبد الله مأساة أخرى تدخل فى المأساة الكبرى التى عرضت لبعضها . زوج فهيمة الحداد كان عاجزا . دخل بفهيمة ولم يستطع أن يغتصبها . ومرت الأيام طويلة حزينة والوضع على حاله . الزوجة عذراء والزوج عاجز ، ولكنه جبان يأبى أن يعترف .

ومن ثم تُزَوّج أخته لفكرة أن فهيمة هى العقيم وليس الزوج ، تفعل هذا لأنها تكره أن يكون لأخيها ولد يرث عنه ما تطمع هى فى أن يكون لأبنائها وحدهم .

وتسلم الشائعة الخبيثة فهيمة الى حضن إله الاخصاب ، وتدفع أمها الى التخطيط للمعصية . أما الزوج فتأخذه العزه بالاثم فيقرر أن يتزوج من أخرى : بنت الصياد الجميلة ، ذات اللحم الأبيض والشعر الأسود الطويل ، والرموش اللامعة ، وحين يدخل بها يكشر له العجز عن أنيابه ، فيقاوم ويفشل ومن ثم يمزق اللحم ويسكت الصرخة برش « الجاز » وحرق الجسد الجميل الذى أهانه ويرش « الجاز » على نفسه تخلصا من العار .

ومصطفى ، أخو فهيمة الابن البار لأسرة بخيت البشارى ــ أبيه وحزينة أمه ــ والنجم المتلالىء الذى تهفو اليه اخته فهيمة ويتعشقه قلبها .

تبدأ الرواية وهو فى السودان ، يعمل مع الانجليز ، طلبا للرزق ، كيما يقوم بأوده ، وينفق على أبيه المقعد ، وأمه العليلة النظر واخته الشابه التى آن آوان زواجها .

ويشجر خلاف بين مصطفى وبين الريس عبد الظاهر ، رئيسه فى العمل ، فيقرر أن يتوجه من السودان الى فلسطين رأسا ، ليعمل هناك . ويرسل يقول : « سلامى الى أمى الغالية حزينة وأختى الغالية فهيمة : التى أتمنى لها حياة مستورة ، تحت سقف بيت ابن الحلال ، يأتى و يدق الباب ويقام العرس فى حياتك يا أبى أطال الله عمرك » .

ولا واحدة من هذه الأمنيات تتحقق يموت الأب المقعد ، وتتزوج فهيمة ، ولكن حياتها لا تكون مستورة ، فقد شملتها الفضيحة والخطيئة منذ البداية ، وامتد العار من بعد مماتها ليشمل ابنتها نبويه ، ثمرة خطيئة تورطت فيها البنت وكتمتها فى نفسها حتى أودت بحياتها .

أما مصطفى فما أعجب ما يحدث له ، يتزوج فى الشام من بنت هى عين العقل ووجه القمر . ثم نعلم من بعد أنه طلقها لأنها عاقر . ولكن الحقيقة الرهيبة تتكشف لنا فى مشهد العار الكبير الذى يختم هذه المأساة الفرعونية الاغريقية . يظهر الشيطان السعدى فجأة ، بلحيته القذرة المهوشة ، وشعر رأسه المنفوش ويبصق على وجه مصطفى ، ويرمى فى السطل المملوء

بالأكواب والفناجين والماء القذر برأس نبوية ، ابنة اخت مصطفى ، فيسقط مصطفى فورا الى قاع الاحتقار العام .

لقد تثلم شرفه ، ونالته فضيحة عامة — وعبثا يجهد فى أن يرد عن نفسه العار . يقول مدافعا عن نفسه : عملت فى السودان صبيا ورفعت اليد فى وجه الريس عبد الظاهر .. عرفت من النساء عدد شعر الرأس وأنا صغير ونمت فى فراش شيخ العشيرة وهو الذى امتد سلطانه حتى كان يقتل الناس أو يمنحهم الحياة ، لكنه عجز عن الحفاظ على فرج زوجته ، وتزوجت فى الشام ولكننى أنا أيضا عجزت عن حماية فرج زوجتى ، فطلقتها .

واذن فقد نالت مصطفى اللعنة ذاتها التى نالت الأخت ، تورط فى الخطيئة ، فكال له الزمن بالمكيال الذى كال به الغير ، وحين يعجز عن أن يسترد اعتباره فى نظر الناس يتمنى أن يناله شلل كامل فى الكلام والحركة والنظر والسمع ، فيكون له ما أراد .

ويرقده الرجال فوق عربة ، يجرى بها حمار ، ولايبقى أمام المؤلف الا أن يسدل الستار على هذه المأساة المروعة ، على وقع الكلمات الجنائزية التالية :

الدمع جف فى المحجرين ، والضوء انطفأ فى العينين .. وها أنت يا حزينة بعد مرور الزمان مع الابن المقعد داخل المكان . رحل الزوج ورحلت البنت وهلكت بنت البنت ، وحولك المشفقون والحداده الشامتة . ولا ضوء ولا نار بموقد . وما الحاجة للنار والموقد ؟

كلمات تصلح تماما لانشاد الكورس فى مسرحية اغريقية ، لقد دار الزمن دورة كاملة وعادت حزينة تعيش مع رجل آخر مقعد .

تدور هذه الأحداث الفرعونية الأغريقية فى اطار من العادات والتقاليد تتوزعها مصر القديمة الوثنية ومصر المعاصرة المسلمة .

فى البلدة شيخ من أولياء الله له كرامات كثيرة . يغلق باب حجرته عليه بالنهار ويظن الجاهل انه بداخلها بينما الرجل الصالح يجوس هناك بمكة المكرمة أو فى المدينة المنورة حيث قبر الرسول الطاهر .

والشيخ لا يحب العلانية فى العبادة . لم يره أحد يدخل المسجد ويصلى . لكنه يصلى بالفعل ويصلى الجمعة بالذات فى المسجد النبوى .

وحين يوافيه الأجل ، لا يحمل خشبته احد بل هى التى تحمل نفسها ، تسبح فى الجو كغمامه مسرعة . ومن ثم تصبح ليلة مماته من كل عام عيدا يحييه الناس بالدق والطبل المزمار ، وبالخيل تتسابق ، وبالعصى تتلاعب وبالأذكار ، وبالطعام يقدم للمسكين واليتيم .

ومن واقع الحب لأهله وناسه ، يسجل الطاهر عبد الله مأثورات الناس تسجيلا دقيقا من

أجود أمثلته الوصفة التى تقدم بها الشيخ العليمى ، الساكن بنجع الجبل الغربى ، كى يضفى على فهيمة خصوبة تجعلها تنجب : قلب هدهد أبيض يشوى ، ويصحن لدقيق ناعم وينثر الدقيق ، خلف كل زائر يدوس بقدميه عتبة الحداد ... الخ

ويسجل أيضا خيالهم الأسطورى فى الحكاية التى تحكيها فهيمة لنفسها .. ثلاث أرامل شقيقات ، يلبسن الأردية السوداء الطويلة التى تغطى الرأس والقدم . يظهرن فى الظهيرة : عيون حمراء متوهجة كجهنم . وتلال القبور تفتح أفواهها فتطلع منها ألسنة النار ..... ثلاث جنيات يطحن بالرحى الكلاب والقطط الضالة . فتتكسر العظام ويختلط الدم باللحم ويضرب الدم وجوه الجنيات التى تطفح بالشهوة وماكينة طحين تدق بانتظام ولا تتوقف ، وعلى الدق المنتظم يتقدم الرجل الأسود المكشوف العوره ، فيجرى لفهيمة ما جرى .

ومن فرط حبه لبلده الكبير مصر ، ولأمته العربية الكبرى يقدم يحيى الطاهر لمحات خاطفة من التاريخ المعاصر : الحرب العالمية الثانية ، ومأساة اغتصاب فلسطين ، وكفاح المناضلين المصريين ضد المستعمرين الانجليز فى القناه ، واحداث الغاء المعاهدة .

غير أن هذه اللمحات ـــ من أسف ـــ انما يلقيها الكاتب القاء فى جسم روايته دون أن يمزجها مزجا عضويا بالأحداث والأشخاص فتصبح على نبل القصد منها نتوءا مضرا ، منفصلا عن باقى العمل ولعل الرابطة الوحيدة بين أحداث القتال وبين جسم الرواية أن مصطفى يحول الكفاح الوطنى لفائدته الشخصية ، فيسرق مخازن المستعمرين الانجليز ويقتل ضباطهم ، ثم يخفى المسروقات فى مخازن تعجز الجن عن الوصول اليها . ولكنها تظل دائما مخازن مصطفى .

هذا الربط بين رواية « أزلية » مثل « الطوق والأسورة » وأحداث حاضرة غير متمثلة ، يسلبها بعض قوتها ذلك أن هذه القوة تكمن فى تسجيل ذلك الذى حدث ذات مرة ومازال يحدث حتى الآن وهو خليق بأن يظل يحدث لوقت طويل قادم : عواطف البشر العريانه التى سوف تبقى معهم قرونا طويلة : الحب ، الغيرة ، الندم ، الاشتهاء ، الثأر ، القتل .. من أجل هذا سميت الرواية « أزلية » .

ولأن الرواية أزلية ، فهى تحقق كسبا هاما وثمينا ، حين تحكم ربط مصر الاسلامية بمصر الفرعونية ، فتردم الفجوة الهائلة التى تفصل بين المصريين . ينظر الكاتب الى المعبد القديم نظرة تعيده الى الحياة : هناك بالداخل بهو الأعمدة ، حيث كانت تقام صلوات أهل الزمن القديم . لقد أحرقوا هنا أكوام البخور الذى جلبوه من أقصى المعمورة وبالداخل رب النسل المكشوف العورة .... والمسلة الضيقة . والبحيرة المقدسة : ماؤها لا يرتفع ولا يهبط كنوز الأرض ترقد هنا تحت الماء من قلائد وأساور طوقت رقاب آلاف الملوك والملكات .

ومن هذه القلائد والأساور ، ينتقى يحيى الطاهر طوقا وأسورة لعل الأول يمثل القدر الذى لافكاك منه ، بينما يرمز الثانى الى الاشتهاء المدمر . ثم يجعل من رب النسل شخصية حية فى روايته تتفاعل مع أحداثها ، وتمثل الارادة التى يتوسل بها القدر كى يدفع بأبطال الرواية الى مصائرهم المحتومة ..

هذا عمل كبير . استطاع الفنان أن يحمله الكثير داخل الحجم الصغير الذى اختاره له . فعل هذا عن طريق الشفافية والبساطة والعذوبة الشعرية ، والحب الشديد للبسطاء الكثيرين الذين يخلد حيواتهم القصيرة فى جسم عمله الفاتن الباقى ..

مالك الحزين

إبراهيم أصلان



حزين « مالك الحزين » ليس لأنه يقعد بالقرب من مياه الجداول والغدران ، فاذا جفت أو غاضت استولى عليه الأسى وأطبق عليه الصمت . انما حزنه الدفين عائد الى أنه يقعد يتفرج على الماء وهو يغيض ، ولا يفعل شيئا .

كم مرة واتته الفرصة كى يمنع الماء أن يغيض . كى يزيد منه ويجعله يفيض ويكتسح فأعرض عنها . واكتفى بالخمر يعبه فى حان ، أو الى جوار النهر .

كان مالك الحزين على موعد مع فاطمة الفتاة الشعبية الشهية ، فحالت بين لقائهما مظاهرة الطلبة . فشل مالك الحزين ـــ اسمه فى الرواية يوسف النجار ـــ فى علاقة فراش مع فاطمة ، فأقسم أن يعاود الكرة من بعد ولو مرة واحدة ، انقاذا « لشرفه » ثم يتركها وشأنها . ثم رأى مظاهرة الطلبة . كان على رأسها فتاة صغيرة سمراء محمولة على الأعناق تعصب رأسها بايشارب وتهتف ضد الحكومة وميمى شكيب وارتفاع الأسعار. وعندما تبين وجهها راح يلوح لها، ورأى الآلاف الهادرة من الناس . قفز الى الأرض وراح يتبعهم .. ظل يسمع الهتافات وهى تتباعد ، ثم استدار عائدا . دفع باب الحان وطلب زجاجة وراح يشرب ويدخن .

تذكر مظاهرة أخرى قبل خمس سنوات ، وحلقات الناس فى الميدان حول الطلبة ، والرجل الأبيض بشعره البنى القصير وهو يجادل الطالب حول ظروف البلد وأهمية أن ينصرف كل الى عمله . كان فى نظرة الرجل كل ألوان التحذير والوعيد . وأخبره صديقه أن النقاش مفتعل . وأن الرجل من المباحث ، يريد أن يوهم الناس أنه مواطن عاقل ، وأن الطلبة مخطئون ، لا يقدرون المسئولية .

صدق يوسف النجار صديقه على الفور ولكنه لم يذكر الرجل ولا النقاش فى رواية يكتبها . وانما كتب عن الطلاء الذى خطت به الشعارات على الجدران وقال أنه كان طريا لايزال ، لم

يكتب عن الصفوف الأولى من الناس الذين تزاحموا على الأرصفة ، وكتب عن الذين كانوا وراءهم يتطاولون كي يشهدوا المظاهرة الكبيرة وجنود الأمن المركزى . لم يورد صفة الانسان الذى حرره الطلبة ، وإنما يصف فى روايته مناضد مقهى ريش وأغطيتها ، وأحذية الناس فى الميدان وثيابهم وعيونهم وشعورهم . لم يصف حيرته وارتباكه وهو يشارك فى توزيع نسخ البيان ، ولم يذكر أنه حاول أن يشارك المتظاهرين فى مقاطع من نشيد : « بلادى بلادى » ، فلم يرتفع صوته بالإنشاد .

وحينما قال له صديقه أن حركات الطلاب لا تسقط الأنظمة ، وإنما تحملها على تبديل ثيابها. وأن لدى هذه الأنظمة مجموعة لا تنتهى من الثياب المتباينة الألوان ، وأن العسكر سوف يهاجمون الميدان عند الفجر ويضربون الطلبة ويقبضون عليهم وأن من الأجدى أن يعود الى بيته لأنه هو أيضا سوف يعود ، انسحب يوسف الى شرفة بشقة واحد من اصدقائه وشاهد العسكر يهاجمون الطلبة عند الفجر ويضربونهم بالعصى الغليظة ، ويجرونهم على الأرض ويلقون بهم ، بنين و بنات ، فى السيارات . وحين نزل الى الشارع شهد الرجال يغسلون جدران النصب ويمسحون الكتابات ويزيلون الأحجار والكتابات المتعرجة على أسفلت الشارع . ورأى الناس يمشون وآثار النوم لاتزال فى عيونهم فلعن الناس وآثار النوم والمسرح والممثلين والممثلات الذين وقعوا بيان الاحتجاج ثم أرسلوا برقية تأييد للحكومة حين شعروا بخطورة الموقف . ولعن كذلك أصدقاءه واحدا واحدا ولعن البلد . وحين ارتد الى الحاضر من ذكريات خمس سنوات مضت . قال لنفسه لا تكتب عن هؤلاء واكتب عن الأشياء التى تعرفها ، أو اكتب عن شخصيات المقهى ، أو عن أبيك الذى مات ، واذكر أن موت الفقراء ليس موتا بل اغتيال . أو اكتب عن النهر ومنازل الشاطىء الحجرية وقل أن لكل منزل ابناءه الذين ينزلون فيه . الأولاد يصطادون ويسبحون و البنات تغسل الحصر وأوانى البيوت وأنت تخرج من حارة الأفندى وتذهب الى منزل حارة حواء .

على مستويين اثنين يعيش يوسف النجار . المستوى الأدنى ، حيث مجتمع مقهى المعلم عطية الذى يؤمه حشد كبير ، متنوع وفاتن ، من ابناء هذا الشعب ، ممن يسكنون القاع وما يعلوه قليلا أو كثيرا . والمستوى الثانى ، الأعلى ، حيث مظاهرات الطلبة ، والبنت ذات الايشارب التى غير الغضب معالم وجهها ، وهى تهتف ضد الحكومة وميمى شكيب وغلاء الأسعار .

ويوسف النجار مشدود الى المستويين معا ، لا يستطيع أن يفارق أحدهما الى الآخر ، فى مكتبه ، الى جوار صفوف الكتب المتراصة لوحتان : الموناليزا من جانب ودون كيخوتة وتابعه كما صورهما بيكاسو من جانب آخر . هذا مجتمع التأنق الثقافى ، والتلهى بصور الكفاح ، والتلذذ بذلك الحزن الحلو المر الذى يلوكه المثقفون حين يطمحون أو يحاولون فيفشلون ، فيرتدون الى

صورة دافنشى ذات الجمال الغلاب ، أو الى فتنة الفارس الجندل الحزين الذى خرج يبحث عن الحق والعدل والجمال بأسلحة مفلولة فآب بهزء الناس وعقل مهيض .

لا يستطيع يوسف النجار أن يرتمى فى أحضان الموناليزا ، فان أحضان فاطمة الشعبية أقرب اليه وأكثر موعدة . تنأى عنه الموناليزا نأى تلك الفتاة ذات الايشارب ، التى اعتلت أكتاف الشباب ، تهتف ، وقد استبد بها الغضب ، ضد الحكومة ، وميمى شكيب وغلاء الأسعار . فى الاستناد الى الموناليزا وهم الأمان والاتصال الحضارى والدعة الثقافية فى مجتمع يغلى . لو انصف يوسف النجار لرفع صورة الموناليزا ، ووضع مكانها صورة الفتاة ذات الايشارب ، ليس العصر عصر الجمال الخالد والبسمة الغامضة . انه عصر الهتاف ، والفعل .

أما دون كيخوتة ، فأين منه يوسف النجار ؟ الفارس الحزين المجنون — على الأقل — قد حاول . ضرب وجرح وأهين وعاد يجرر أذيال الفشل . ولكنه فعل . فماذا « فعل » يوسف النجار ؟ فعل ما فعله هامليت من قبل . تذبذب طويلا بين الفعل واللا فعل ، حتى جرفه التيار الى لون من الحركة . جمع أغلفة قنابل الدخان الفارغة التى قذفها جنود الأمن المركزى على الطلبة فردها هؤلاء الى الجند قبل أن يكمل انفجارها .. جمع يوسف النجار ستا أو سبعا من هذه القنابل وهو يزمع أن يضعها فى حجرته ليفاجىء بها أصدقاءه مزهوا . كانت كلها من صنع الولايات المتحدة الأمريكية ويبدو أن يوسف قد جرح فى المحاولة ولكنه لم يحاول أن يفحص جرحه . انسحب كعادته الى النهر ونظر الى الشاطىء الآخر والى أوناش الحديد العملاقة التى تطل من سقف الدنيا وتحاصره أيديها الطويلة الممدودة فى قلب الليل ، وعيونها الحمراء ، وتمنى أن يكتب كل شىء : يكتب عن النهر والأولاد والغاضبين وهم يثأرون من واجهات العرض وأشجار الطريق واعلانات البضائع والأفلام . يقول فى كتابه أنه مشى على كسور الزجاج التى غطت شوارع المدينة وأرصفتها . يقول : تحطم زجاج النظارات على عيون الرجال والمرايا الصغيرة فى حقائب البنات . يكتب عن المقهى وعمران وكل الناس . عن دنيا السهر والدخان وأشجار الليل .

وأراد يوسف أن يغسل جرحه . انحبر بجسده على قاذورات الشاطىء الطرية . وجعل يشم رائحتها العطنة الممتزجة برائحة الأمطار النقيه . واقترب من الماء وهو يقول : « اغسل . لكم عببت من مياهه الفوارة وطميه الثقيل . اغسل . لكن غرقت فيه عاريا ، ولكم أخذك التيار » .

تتحول الصورة الواقعية فى رواية « مالك الحزين » الى صورة تعبيرية فور التحام الطلاب والصبية بجنود الأمن المركزى . الأسطى قدرى ، الذى عمل طويلا فى شركة ماركونى ، وتطبع بطباع الانجليز حتى سماه الناس الأسطى قدرى الانجليزى . هذا الأسطى الذى يحفظ مسرحيات

شكسبير عن ظهر قلب ويعيش فى « عطيل » بصفة خاصة ويعانى من شرف يراه قد ثلم ــ وهما أو حقيقة ــ عن طريق خداع زوجته له مع واحد من العشاق ، هو المعلم زغلول . هذا الأسطى المثقف تستبد به الظنون حتى تصيبه بالخبل ، فيندفع الى الشارع على صوت بنادق جنود الأمن، فرارا من وجه المرأة التى أصبح يكرهها، فيرى عساكر الحكومة وهى تطلق النار وتجرى هربا من الأحجار التى تلاحقها من كل مكان . ويرى قدرى مجموعة هائلة من الأولاد تلتقط القنابل وتردها ناحية المعسكر فيجن جنونه ويروح يردد كلمات ماكبث وقد أطبقت عليه قوات التجرير : « علقوا الرايات على أسوارنا الخارجية مازالت الصيحة هى أنهم قادمون . وقوة قلعتنا ستضحك هزءاً من الحصار » . ثم يتحول الأسطى قدرى فى التو الى طائرة مقاتلة سريعة الطلقات ويتزود بالذخيرة من كومة الطوب ، ويفتك سريعا بقوات الحكومة ، ويحلق عاليا ويدور حول مئذنة الجامع حتى لا يصطدم بها ، ويمزق جموع الجند ويهبط سالما على كتفى أحد العساكر ، ويخطف عصاته وينطلق كالاعصار يطهر خلاله الميدان فى التحام دموى مباشر ، يزيل خلاله عربة زغلول ــ غريمة فى حب زوجته ــ ويعتلى حطامها ، ثم يطير صوابه لما يجد المقهى وقد صار خاليا من الناس وامتلأ بأقفاص الدجاج .

وهكذا يتحول عطيل المجنون الى دون كيخوته المخبول مرورا بماكبث المحاصر البائس ، أما يوسف النجار فقد قرر أن يضمن كتابه حديثا عن العفاريت الصغيرة : شيوخ إمبابه : الشيخ منهم طوله شبران ولحيته طولها شبر مصنوعة من القش الذهبى الناعم الأحمر والأخضر والأصفر يعششون بين أشجار الكافور العالية ويزقزقون كالعصافير الهرمة ويقفزون من غصن الى غصن ، يقرضون الأوراق ويتهامسون بأسرارهم الصغيرة الخشنة . يضحكون ويبولون على الأحفاد وأبناء الطريق .

كذلك سوف يكتب يوسف النجار عن دنيا الزقاق والملاءات السود ، والحاجب المقدس والعين الضاحكة والفخذ الذهبى الناعم والحجرة الأرضية المغلقة . سيقول إن فاطمة هى الحلق العطشان لا ترويه جرعاته الليلية انما يروى فاطمة النهر ، لا أقل .

وحين تهدأ الانفجارات وتنجاب سحب دخان البارود الكثيفة ، يرى يوسف النجار فيما يرى الجالس كأن القيامة قد قامت وكأن المنادى يدعو الناس الى العرض على الله تعالى . اذ ذاك يتجه صوب المحشر ويرى الناس تهبط من السماء أفراداً وجماعات ويرى المعلم صبحى وهو يخرج من النار والعم مجاهد فى كفة الميزان بينما أعماله فى الكفة الأخرى . وسار يوسف النجار حتى وجد نفسه فى مقهى الحاج عوض الله وتحدث قليلا مع الحاج وشرب معه كوبا من الحلبة وشرب كأسا من الكونياك مع بيا عز الدين ، ولما رأى النهر أغمض عينيه وراح يبحر فى الليل ويختفى

بين نجوم الشتاء القليلة الغائرة .

وبهذه الصور والأخيلة التعبيرية تصبح رواية « مالك الحزين » رواية واقعية متعددة الطبقات ، تبدأ : من الواقع الأرضى المقذع فى أرضيته : يتكرر ذكر البول والتبول مرات خلال الرواية ويصل حد وصف فاطمة وهى تتبول فى مرحاض مفتوح أمام أمها وجارة لها وهى تضحك ، وتضحك معها المرأتان دون حرج . ثم يتكرر ذكر المرحاض فى حالة الجاويش عبد الله الذى تزوج كريمة فجعل يغيظه منها أنه تسبقه الى المرحاض كل صباح وتظل به ساعة أو أكثر وتتركه هو يتلوى من الألم حتى انتهى به الأمر الى استعمال المرحاض الأميرى فى قسم الشرطة ، والى كراهية زوجته ، وتحويل عمله من الصباح الى المساء .

أن ايراد هذه الصور الواقعية المحرجة مقصود تماما ، وهو يهدف الى ربط الرواية وشخوصها بأرض الواقع فى الوقت الذى يسعى فيه أيضا الى تخليصنا من الحرج الذى نشعر به لدى ذكر العمليات البيولوجية التى تتعاقب على جسم الانسان . وهو بعد هذا عود الى واحد من تقاليد الحكايات الشعبية التى تذكر فيها وظائف الأعضاء وأسماؤها دون حرج ، كما يحدث فى حكايات ألف ليلة وليلة ، التى تتأثر بها الرواية تأثرا واضحا من ناحيتى موضوع الحكاية وطريقة الصياغة اللغوية لها . وأفضل مثل على هذا التأثر بألف ليلة موضوعا وصياغة ما يحدث بين تاجر الحشيش المسمى « الهرم الكبير » وصديقه الأسطى عبده السائق بالسفارة ، وزوجة الأسطى : فتحية . أن الجميع يشتركون فى جلسات الحشيش التى تعقد فى بيت الأسطى ، برعاية من زوجته اللعوب ، التى تشاغب طوب الأرض وتتاجر فى أى شىء ، وتشارك الرجلين شرب البيرة والحشيش وتتآمر مع « الهرم الكبير » ، الذى يفاجئه الزوج مختبئا فى المرحاض ، منتظرا أن يغيب الأسطى عن الوعى كى يخلو له وجه الزوجة . اذ ذاك اغلظ الأسطى القول للهرم الكبير . ووصفت الرواية ما جرى بينهما بأسلوب ألف ليلة الواضح : « وخرج الاثنان ونزلا السلم وكل منهما يمسك بخناق زميله وخرجا الى حارة توكل ورقدا على بعضهما وكل واحد حاول أن يخرم عين الثانى . وفى اليوم التالى فتحية أفاقت وهاجت وضربت الأسطى بخشبة الغلية حتى جرى منها الى الحارة وألقت وراءه بثيابه وهى تصوت : « يا دهوتى » وتقول انه يأتى بالناس لكى يحششوا فى البيت . والأسطى لم هدومه على صدره ورفع رأسه ونظر اليها وهى تتدلى من النافذة ورمى عليها يمين الطلاق . والهرم الكبير تفاوض معها من بعيد وأصبح يذهب اليها فى السر بعد أن تنام الحارة كلها ويترك عندها الكيس والميزان ويدفع نظير ذلك ثلاثة جنيهات كل يوم » . كأن هذه حكاية منتزعة من ألف ليلة ، من بين الحكايات التى تحمل عنوانا : « كيد النساء » .

وما بين الواقع الأرضى المقذع والواقع المفنن الذى تحلق اليه الرواية نجد المستوى الواقعى المألوف

وفيه يرسم ابراهيم اصلان ببراعة حشدا كبيرا من الشخصيات تبرز كلها ويصل بعضها الحد الذى يقبع فى ذاكرتنا فى اطمئنان فلا نستطيع أبدا أن ننساه ، ولا أن نكف عن الاعجاب به : الشيخ حسنى ، الأعمى المتحدى ، الذى يدلس بنجاح على عدد كبير من العميان ويقنعهم جميعا بأنه مبصر ، ويصل به الوثوق بالنفس حد ركوب دراجة بخارية تارة ، وقاربا فى النهر تارة أخرى ، والذى يعلم زوجته المبصرة كيف تقرأ الساعة وتحدد الوقت ، والذى تقع المرأة نور فى غرامه وترقص على غنائه وتطل عليه من النافذة وهو يغادر البيت لترجوه أن يعود اليها مبكرا بالبدلة الزرقاء والقميص المكوى وذقنه المحلوقة الناعمة .

والأسطى قدرى الانجليزى عاشق شكسبير ومتقمص شخصية عطيل . والمعلم صبحى الذى بدأ حياته العملية يحمل قفصا به ثلاث دجاجات ورجا المعلم عبد الله ، صاحب المقهى أن يسمح له بالجلوس فى الخرابة بالكيت كات ، ثم كسب ورقة يانصيب وتدرج حتى أصبح صاحب محل للدجاج واشترى البيت الذى به المقهى ، وها هو ذا يهدد باغلاق المقهى ذاته . وقاسم افندى النظاراتى الذى طلق أبوه أمه لأن قاسم لم يفلح فى المدارس ، ثم اعادها الى عصمته لما علم أن ابنه يجيد قراءة الأهرام . مع أنه وابناءه لا يقرأون الأهرام ، والأهرام فى نظره موضع نقد ، لأنه يلح على الحوادث الحاحا : الرئيس السادات والحرب ، والسلام والحرب والسلام والرئيس والحرب والسلام والرئيس وأيضا السلام . كل هذا فى عدد واحد ! .

يرسم ابراهيم أصلان شخصياته بنفاذ وتعاطف ويجعل بطله منقسما على نفسه بازاء باقى الشخصيات . أقلها تمثل الناس الذين عاش بينهم وأحبهم ، وأوصى نفسه أن يكتب عنهم . ولكنه لا يستطيع أن يعيش معهم على المستوى ذاته . ذلك أن المستوى الآخر ، الذى تجرى فيه مظاهرات الطلبة وتتفجر فيه القنابل ويدوى الرصاص يلقى غلاله كثيفة على هذه الشخصيات ويمنع التمتع بها ذلك التمتع « السياحى » الذى يتأتى فى غير هذه من روايات تتعرض لشخصيات الشعب .

وحين يخاطب يوسف النجار الحى الذى عاشره وأحبه واحتج عليه ، نفهم لماذا يكون خطابه للحى بهذه الكلمات : امبابة ، ايتها السيدة الحزينة الفاجرة ! .

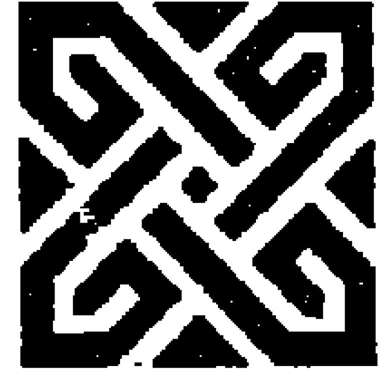
فبعد مظاهرات الطلبة ، لم يعد يوسف النجار هو يوسف النجار . أصبح النهر أمامه مثل ماء الغسيل ، يأنف أن يروى منه القلب أو يبل الريق . ويرضيه ما فى فمه من ملح الدموع وطعم الخبر والعطش . وحين ينام يوسف فى آخر الرواية يمد أصبعه كى يلمس جرحه الجديد .

هذه ــ بكل المقاييس ــ رواية هامة تدفع بالواقعية الجديدة خطوات إلى الأمام ..

رباعية

الوتد

خيري شلبي



في لوحة : « العُتَقى » ، يحب الولد رؤية أمه وهى تلبس شبشبها الأسود ذا الكعب ، تخطر به فى الدار ، غادية رائحة ، يستقر فوقه كعباها المستديران كتفاحة ، ويُسمع لطرقعاته صوت كصوت القبلة النشوانة ، فرحة تكرر نفسها .

يحب الولد أمه ، ويود لو تمنحه الحنان ولكن الأم عاجزة عن أن تهب ابنها دفئا وراحة . هى نفسها لا تجد من يعطيها الحب صافيا رقراقا . بداخلها قهر دفين قهر العوز الدائم ، وتسلط الرجل ، واعباء الأسرة الثقيلة .

ما أن تأتى أمها لزيارة ابنتها ، حتى يلقى الولد بنفسه فى حضن الجدة ، يستطيب رأسه ملامسة جسدها البض الصبى فتسرى فى عروقه مشاعر غزيرة لم يعهدها فى حضن أمه . ينجذب الولد نحو جدته ، ويكاد يغيب داخلها ويكتشف لأول مرة معنى الأم ، أما الأم فتسند رأسها فوق كتف أمها تطلب ــ هى الأخرى ــ ما لايجده الولد فى حضنها .

وفى لوحة : « الوتد » نلقى الأم القائدة ، المسيطرة ، تسوس فى حزم ومحبة كامنة قبيلة بأكملها من الأسرات ، أولادا وبنات وأزواجا وأحفادا . تسوسهم جميعا كما يسوس منشىء الدولة دولته الفتية . الكل يخضع لها ، ويعرف أنه لولا حكمتها وبراعتها ما أمكن لأسرة « العكايشة » أن تمتلك ــ آخر المطاف ــ عشرين فدانا يعيش أفرادها من غلتها .

يرسم خيرى شلبى صورة واضحة المعالم لهذه الأم المديرة ، تتوسط لوحة جدارية كبيرة ، صورت فيها ريشة الكاتب ببراعة ملحوظة شخصيات افراد القبيلة واحدا واحدا ، وحددت ــ لا ملامحهم وخبايا نفوسهم وحسب ــ ولكن ــ أيضا ــ المهام المختلفة ، التى أوكلت الأم الكبرى ــ الحاجة تعلبه ــ اليهم القيام بها . اذ ذاك تتخلص الينا صورة فاتنة للحياة فى ريف يعرفه

الكاتب حق المعرفة ، ويعشقه ويغوص فيه الى الأعماق . وبفضل هذه المعرفة الحميمة تبرز الشخصيات ، فتصبح اللوحة حفرا بارزا حينا ، وحينا آخر يقفز بعضها من اللوحة لتصبح تماثيل ذات أبعاد ثلاثة : على رأسها الحاجة تعلبه ، وابنها درويش الذى تجد فيه القرية كبيرا تفوق مهابته مهابة العمدة ذاته ، والذى يقصده الكل لتدبير زيجاتهم وحل مشاكلهم ، ويكبر كل من اتصل به ولو كان صغيرا .

انظر كيف يتحول قلم خيرى شلبى اذ هو يقدم درويش الى ازميل ينحت به الشخصية فتتخلق أمامنا شيئا فشيئا ، وتستدير لتصبح من بعد تمثالا بارزا ما يلبث أن يتحرك : « سحب عمي درويش جلبابه الكشمير الكحلى الغامق ذا الخطوط الرفيعة المبيضة قليلا ، فلبسه فوق الصديرى الشاهى ، ثم لبس المركوب البنى بدون جورب ، وسحب العباءة الجوخ المغسولة بماء زمزم ، طرحها على كتفيه ، ووضع طاقيته الصوف المستطيلة فوق رأسه ، ثم تعمم فوقها بشال سمنى اللون ، شديد النظافة قادم من الحجاز ، وشبك كتينة الساعة فى عروة الصديرى ، ووضع الساعة فى جيبها الصغير تحت الإبط ، وسحب عصاه الشهيرة التى لا تفارقه ، وتقدم خارجا من قاعته ، فكأن موكب الدنيا قد أذن بالتحرك . وما أن يقبل طيفه أو خياله نحو مصطبة الدار ، حتى ينهض الجالسون واقفين ، فيشير اليهم فيتفضلون بالسير خلفه الى الخلاء حيث ينتظم خطواتهم ايقاع من المهابة ، وهو موكب تعود اهل البلدة إن رآه أحدهم فى أى شارع استعد لرد التحية ودعا لهم بأن يوفقهم الله فى مشوارهم حتى ولو لم يكن يعرف ما طبيعة المشوار » .

يقدر درويش لأمه الحاجة تعلبه ، ما قاست من عناء فى رعاية أسرتها بعد وفاة الوالد فى سن باكرة ، ويقوم بين الاثنين ود خاص ينحى جانبا الجهامة والصرامة الباديتين فى وجه الحاجة وفى قولها وفعلها ، ليصل مباشرة الى قلب تعلبه : قلب ينبض بالحب والوفاء وراء قناع الصرامة والقسوة . ويعبر خيرى شلبى تعبيرا فنيا آسرا عن هذا الحب ، حين تشرف تعلبه على الموت فى آخر اللوحة ، فيتهيأ الكل للقيام بطقوس التجهيز للدفن تحت ادارة درويش . وتنتهى الطقوس ويجلس درويش ليأخذ نصيبا من الراحة قبل مشقة المساء القادم . غير أن جلسته تطول . يدخل عليه أخوه عبد العزيز لايقاظه ويهزه برفق ، فيسقط رأس درويش على صدره ، ويتبين عبد العزيز أن أخاه قد مات . لم يحتمل درويش البقاء فى الدنيا بعد رحيل أمه : واهبته الحياة ، وضامنتها ، ومصدر الخير لأفراد أسرتها واحدا واحدا .

وفى لوحة : « أيام الخزنة » نجد أمًّا من نوع آخر . الفقر هنا طاحن طاحن . والآدميون يعيشون تحت أدنى مستويات الفقر . الأم تكافح الفقر والقمل والبراغيث التى تمتص الدم القليل

الذى يسرى فى عروق ابنائها وبناتها . وتكافح ـــ كالعادة ـــ عنت الزوج قليل الايراد ، وتغطرسه وقلة حيلته . عليها وحدها أن تدبر معاش الأسرة ، وأن تقف قاضيا صارم التدبير يحول بين أن يغتصب الزوج وبعض الأولاد أنصبة باقى الأسرة من الطعام الشحيح الذى تفلح الزوجة فى تدبيره لهم وعليها أن تواجه – وحدها – عبء إبلاغ الزوج بأن الطعام فى البيت قد بلغ مرحلة الصفر: « أتأمل أمى وهى تتنهد .. كاتمة فى صدرها شيئا تود لو تجيء الفرصة المناسبة لتبوح به ... تتحين انفراجة الأسارير على وجهه لكى تبلغه أن موعد الطحين قد حان ، وأن الرغيف الذى أكله فى فطوره انتزع من كومة من لقيمات جافة فى قلب « السحارة » هى كل ما تبقى من الطحين السابق . أبى هو الآخر يعرف أنها تريد أن تبلغه هذا ، لكنه يتجاهل ، وكلما خيل اليه أن أساريره انفرجت قليلا ، عاد فكشرها وعقد على صفحة وجهه عشرات العقد والكلاكيع كأنه يقيم سدودا يمنعها بها من فتح هذا الموضوع » .

وسط هذا الشقاء الكبير ، تعرف الأم والزوجة كيف تقيم الأفراح المتواضعة .

تنتهز فرصة عودة الزوج سالما بعد مطر شديد هدده بالسقوط فى الوحل ، فتشعل الكانون تحت الحلة الكبيرة ، وتدع أطفالها برهة حائرين بين الأمل فى أن يكون هذا مقدمة لعشاء أو مجرد تسخين للماء كى يغتسل الزوج العائد . فلما تنصب الطبلية ويعبق الجو برائحة العدس العظيم تتوالى الأطباق وتفرغ وتحتج البطون لأنها لم تمتلىء ، ويدور العراك حول مابقى من عدس ، فتحسم الأم الأمر بالضرب والزغد ، وتنقذ ما بقى من عدس ليكون طعاما للأولاد والبنات الذين يعملون فى « الدودة » ، ولم يصلوا بعد للمشاركة فى الوليمة . وما أن ينتهى العشاء حتى يأخذ الأولاد فى التساؤل . هل أكلوا فعلا أم أن الأمر كله وهم فى وهم . أما الأم فتنخرط فى بكاء يتحول الى أنات متقطعة حادة نائحة ، تحمل كل مرارة القهر والعجز والخوف المقيم من قابل الأيام .

وفى لوحة : « المنخل الحرير » يصل فن القص عند خيرى شلبى الى انضج وأرفع مراحله . هذه قصة ولوحة وقصيدة شعر . هذه ترنيمة حب للأم الريفية الصابرة ، المجاهدة ، تصور طقسا هاما من طقوس الحياة فى الريف : شراء القمح وتنقيته ، وغسله فى الترعة ثم تجفيفه على سطح الدار ، والتقدم بعد هذا الى طحنه ثم نخله بالمنخلين السلك والحرير .

أية عذوبة يصور بها خيرى شلبى الأم هنا ! امرأة قادرة الجسد ، فائضة الحيوية ، تحمل قفة القمح وتعود الى الدار « وقد تحولت الى جسد يتلعبط تحت القفة الثقيلة فى عياقة لا مثيل لها » . فيدهش ابنها الصبى كيف ينفض جسدها عن نفسه كل هذه البهجة ، وهى لا تشرب الا المر ليل نهار . تجادل بائع القمح المهذار فى سعر الكيلة ، وتصبر فى إباء على غزله

المكشوف ، وتنتزع منه حق « الهز والدك » للقمح فى الكيلة ، وترد على لعبة بلعب آخر فى مصلحتها ، فتكبش حفنتين من القمح علاوة على حقها ، وتتبعهما بحفنتين اخريين ، حين يحتج البائع بأنه رأى الكبشة الأولى وهو موليها ظهره !

ولما تجلس الأم كى تنخل الدقيق ، ينظر الولد إلى عينيها فيجد فيهما بحورا من الحزن الغامض العميق ، فينقبض قلبه ، يركبه الغم ويضع رأسه على فخذ أمه محاولا النوم ، لا تدفعه الأم المتعبة عنها كما توقع ، بل تمرر يدها على ظهره فيستنيم فى لذة فائقة .

الولد — كمعظم الأولاد فى سنة — تربطه علاقة جسدية واضحة بأمه ، يحس بجسمها احساسا جنسيا ظاهرا ينظر اليها وهى تغسل القمح فيلحظ فخذيها المطويتين وعجيزتها البارزة ، ويفتح عينيه فى شغف ، وأمه تنخل الدقيق ، فيرى خيالها مجسدا على الحائط بجلستها ، بالفصل الحاسم بين اليتيها كأنها عارية من الثياب ، وينام الولد على فخذها وقد تسربت الى أنفه وخياشيمه رائحة لذيذة نفاذة ، لا يدرى أهى رائحة الدقيق الساخن ، أم رائحة جسد الأم المشبع بالدفء والحرارة ، أم الرائحتان معا ؟ ويشغله التمييز بين الرائحتين ، فيذوب فى نوم عميق ، ويصبح جزءا من موسيقى المنخل الحرير تلمسه الأم كلما ارتد اليها ، مجرد لمس ، كأنها تعزف قطعة موسيقى على ايقاع جميل من يديها وجسدها ، وجسم الولد وهو يتحرك لحركتها .

تتفاوت اللوحات الأربع فى الطول والمحتوى ، « الوتد » رواية كاملة بما تحوى من عشرات الشخصيات المتمايزة ، وبما تمتد اليه فى الماضى ، وبالنهاية الواضحة المؤثرة لكل من الحاجة تعليه وابنها درويش ، ويلى « الوتد » فى الحجم ، والقيمة أيضا — لوحة « العُتْقى » . وبها الحشد الكبير المتنوع من الشخصيات الذى لقينا شبيها له فى « الوتد » غير أن غياب شخصية طاغية متحكمة عن « العتقى » — مثل الأم فى « الوتد » — يفسح الطريق أمام الكاتب للاستطراد — وهو سمة واضحة من سمات القص عند خيرى شلبى ، ويؤدى هذا الى تخلخل العمل شيئا ما ، وإن لم يضر بقيمته النهائية ، فهو تسجيل فنى عطوف لريف مصر قبل خمسينات القرن ، يخلد نمطا من الحياة وشخصيات تسرع جميعا الى زوال .

وتحمى الأم فى لوحة : « الخزنة » هذا العمل اللافت للنظر من التخلخل الذى سبقت الاشارة اليه ، فالأم هنا هى محور الأحداث ، تتحكم فيها بمزاج من الصبر والحكمة والحب الذى لا يفتر للأولاد ، من حضر منهم ومن رحل ، ومن مات ، وللزوج الذى تدلله فى هواه رغم عيوبه الكبيرة . الأم هنا هى واهبة الحياة ، القيمة عليها الصابرة على الشقاء اليومى الذى تجلبه . تكسب دورها القائد بفضل قدرتها على التحمل ، وليس بفضل قبضة حديدية خبرناها فى الحاجة تعليه فى لوحة « الوتد » — وهناك — بعد هذا — الأم فى « العتقى » ، التى لا تفيض

حنانا لأنها محتاجة الى الحنان . والأم فى « المنخل الحرير » ، التى تبلغ هى والعمل الذى تظهر فيه درجة عالية من النضج يتيح للقصة مركز الصدارة فى الرباعية وليس صدفة أن هذا العمل يخلو تماما من الاستطراد ، وفيه يركز خيرى شلبى كل قدراته على الابداع ، والملاحظة الذكية والمفارقة الضاحكة والحب العميق الغامر لموضوعه وانشغاله الدائم به ، فيخلص الينا عمل متميز حقا .

إن رباعية « الوتد » هى نحت كبير لتمثال الأم الريفية فى مواقف متباينة ، يقدمه خيرى شلبى عرفانا ، ووفاء لهذه المجاهدة الدائمة ، ويهدى به أدب الكتاب عن الريف هدية متميزة ، تضم العمق إلى أصالة النظرة وتجعل من صدق التصوير نوعا من المكاشفة والبوح والاعتراف .

حكاية تو

فتحي غانم



يواجه الكاتب مشكلة كبرى . يعترف له اللواء زهدى مدير السجن بأنه قتل والد الشاب « تو » اثناء عملية تعذيب ، فيشعر الكاتب على الفور بالدونية ، لأن القتيل صاحب مبدأ ، ولأنه قتل فى بساطة مهينة ، ولأن الكاتب سمع تفاصيل القتل ، فخاف ولم يجرؤ على أن يزعق بأعلى صوته ويعمل بكل قواه على مطاردة المجرمين .

أى صنف فى الناس هو ؟ يسأل الكاتب نفسه : ما جدواه كإنسان اذا غابت عنه الأفكار والعزيمة والفهم ؟ هل ينسى الموضوع برمته ويغيب همومه فى البار ، ويتمتع بحياة خالية من الكدر ، حتى لو كانت نهايتها تليف الكبد وانهيار الجهاز العصبى ؟ هل يقول : مات الرجل ، فما شأنه هو ؟ مات فى ستين داهية . هو أراد الموت باختياره الحر ، فماذا يستطيع الكاتب ان يفعل بإزاء وضع قاطع كهذا ؟

غير أن الأسئلة لا تجيب عن نفسها ، والهرب لا يتحقق ، فقد تبين الكاتب حقيقة مدمرة فى مقتل الرجل . تبين أن القتيل قد فقد حياته لأنه فهم معنى الحياة الكاملة . الحياة الكاملة لا تتاح لمن يسعى الى الأمان . تلك نصف أو حتى ربع حياة ، انما تتأتى الحياة الكاملة فى لحظة يكون على المرء فيها ان يختار هذه الحياة ، حتى لو كان الاختيار معناه الموت .

هكذا مات والد « تو » فكأنه وهو يموت — وهو يسقط جاثيا على ركبتيه بعد مهرجان من التعذيب صمد له الرجل صمودا أزرى بزبانية التعذيب ، وكشف جبنهم وخسة طبعهم — كأن الرجل الذى قتل قد جذب معه الكاتب الى حافة هاوية : إما أن يقاوم الشر ويسعى الى القصاص من المعتدين وإما فقد صلابته وعقله ورجولته وأصبح يصلح فقط لأن يكون من رواد الحانات .

منذ البداية وهذا الخيار الصعب يومض فى عينى الكاتب الروائى وفى روحه .. ما أن يرى الشاب « تو » حتى ينجذب اليه من فوره ويشغله مصيره ، يندفع نحوه بقوى مجهولة أكبر وأقوى من أية مقاومة يجندها العقل وعندما يلاعبه الشطرنج ، ويفشل الشاب فى هزيمة خصمه المتمرس ، يعترف « تو » بأن كل ما يعنيه من الشطرنج هو القدرة على أن يقول فى نهاية اللعبة : كش الملك ، أو الشاه مات . هنالك يقول له الكاتب : لست محتاجا إلى رقعة شطرنج كى تقول لخصمك : كش الملك . اذ ذاك يتغير وجه الشاب وتختفى ابتسامته ويرمق الكاتب بنظرة طويلة قبل أن يغادره .

ما هذا الذى يحدث بين الكاتب الروائى وتو ؟ أهى تلك القوى المجهولة العاتية التى دفعت بأحدهما نحو الآخر تريد الآن ان تتوثق الصلة ، وأن يلعب الكاتب فى حياة « تو » دورا أهم من دور العارف العاجز ، الذى عير به نفسه فيما بعد ، حين اعترف له اللواء زهدى بأنه شارك فى مقتل والد تو فى السجن ؟ أيكون هذا التحريض المغلف من جانب الكاتب للشاب « تو » لكى ينتقم من خصمه خارج لعبة الشطرنج كشفا مبكراً عما سوف يقع فعلا ، حين يرقد اللواء زهدى صريع ذبحة صدرية ، فلا يكون معه فى ساعاته الأخيرة سوى « تو » والكاتب الروائى ؟ إن « تو » يصر على أن يبقى الى جوار المريض وأن يذهب الكاتب الروائى لاستدعاء الطبيب .. فهل كان اصراره تنفيذا لخطة قتل مدبر ، بدأ التفكير فيه ببداية الرواية ، وزاد من قوته ايحاء الكاتب لتو بأن يخرج خارج رقعة الشطرنج كى يتخلص من خصومه ؟

هل الذى عجل بموت اللواء زهدى محاولة من « تو » أم ايحاء آخر قاتل ، من ايحاءات الكاتب ، حينما صمم — أول الأمر — على أن يبقى هو الى جوار المريض ، ويذهب تو فى طلب الطبيب ؟ تصميم فسره زهدى على أنه تحذير له من أن « تو » قد يقتله لو هو انفرد به ؟ إن تو يصر على أن الكاتب قد قتل زهدى بكلمتين — يقصد بالايحاء له بأن تو يريد به شرا ثم تركه بمفرده مع الشاب ، نهبا للمخاوف . ويضيف : أن المريض قاوم وجود تو ، وخاطر بحياته من أجل أن يهرب منه ويلحق بالكاتب وكأن فى هذا الارهاق الكبير ما عجل بالنهاية .

أما الكاتب فهو نهب للحيرة . هو ليس واثقا أبدا من أنه لم يقتل زهدى — بكلمتين . وعبثا يتنصل من تبعة الايحاء لتو . بل هو يعترف بأن قوى اكبر منه هى التى دفعته الى أن يعرض على زهدى البقاء الى جانبه ، ملقيا فى روع المريض أن ثمة شرا يهدده من بقاء تو الى جواره وغيابه هو . ولعل الايحاء قد تم أيضا بالنظرات المعبرة . وعلى كل حال ، فقد سبق هذا كله أن عيّر الكاتب نفسه بعجزه عن الانتقام ممن قتلوا صاحب مبدأ . فالاحتمال قائم بأنه كان يتمنى لو أن تو قتل قاتل أبيه .

لا تحسم هذه النقطة أبدا . يتركها فتحى غانم مفتوحة — عامدا — لكى يقوى من أثر القوى الغيبية التى يلح اكثر من مرة على أنها دفعت بالكاتب نحو تو ، ودفعت بتو الى زهدى ، وشاركت فى جدل الخيط الرئيسى الذى دارت حوله الأحداث . والنتيجة الفنية لهذا أن تستوى أمامنا شخصية تو ، بارزة محددة المعالم ، وإن غلف نواياها وخبيئها أكثر من قناع ، فنحن لا نعلم بأى قدر من اليقين إن كان تو عرف منذ البداية أن زهدى هو قاتل والده ، ولا نقبل على علاته قوله فى آخر الرواية إن زهدى اعترف له بأنه قتل أباه ، وأنه سمع الاعتراف فبكى ... وحسب !

الى جوار « تو » تبرز شخصيتا زهدى ، وشوكت .

الأول مدير السجن التقليدى ، الذى ينظر الى عمله — بما فيه من قهر روتينى وحفلات تعذيب — على أنه وظيفة يقوم بها ، ولا يؤدى ما يرتكب خلالها من جرائم الى أن يفقد الأمل فى مغفرة من الله وشفاعة من رسله .

والثانى — شوكت — دراسة فاتنة فى شخصية المعذب الذى ينذر نفسه لعمل هو فى رأيه عظيم وجليل وباعث على البهجة فى حياة من يقوم به : ألا وهو أن يسلب الذين يقعون تحت طائلته كل احساس بالكرامة ، وكل زهو بالآدمية ويدفعهم الى أن يفقدوا — أيضا — رجولتهم ويصبحوا مشوهين مثله — فهو مخنث يجد فى الشذوذ أسلوب حياة ، ونظرة شاملة للناس ، ودعوة واجبة الانتشار . والواقع أن الفصلين الرابع والخامس من الرواية — حيث تجرى فظائع التعذيب ويتألق فن شوكت فى محاولة تخنيث الناس — يبلغان بالرواية مستوى عاليا من الأداء الفنى . هذا الصدام المروع بين مخنث لم يتعود أن يصمد أحد امام سفالاته ، ووالد « تو » . وهو انسان قُدَّ من الحديد الصلب ، ليس فى نيته قط أن يلين أو يستسلم أو حتى يقع الى الأرض تحت وطأة الضربات ، هذا الصدام تندلع منه نار محرقة تدمر مبدأ التعذيب من الأساس وتطيح بزهدى وشوكت معا ، لا يدرى الأول لماذا يفقد وظيفته وهو كان يؤدى واجبه على أكمل ما هو مطلوب ، ويفصل شوكت بعد محاكمة تأديبية ، فيقع عليه قرار الفصل كالصاعقة ، وتفقد السجون كفاءته النادرة فى التنظيم والتدريب ، ولا يعوضه عن خسارة المنصب وممارسة الرسالة ما عمل فيه من بعد من استيراد وتصدير لحساب أحد شيوخ النفط .

الشخصيتان دراستان عميقتان لرجال التعذيب وفضح لانتماءاتهم الفكرية والسياسية ، ينطبق هذا — بصفة خاصة — على اللواء زهدى الذى يظل يحلم طوال الوقت بأفران الحريق التى استخدمها هتلر للتخلص من خصومه ويتحسر لأنها لم تعد قائمة فهى أفضل وسيلة للانضباط وفى الوقت ذاته لا يجد تعارضا بين ابادة الناس وحرصه الشديد على ان يبقى ابنه حسن قويا

سعيدا وارثا لأرض أبيه ، ويأسى الأسى كله حين يكفر الولد بأبيه ويتركه كليةً ، مهاجرا إلى كندا .

الفكرة المحورية فى الرواية هى مسئولية الكاتب الذى عرف ووعى — اين تبدأ ، وأين تنتهى ؟ الكاتب يخاف السجن والتعذيب ويدفعه خوفه الى أحضان الشلل . بل يدفعه الى الخلط الفكرى فيتوهم ان زهدى هو الرجل الحقيقى ببذاءته وفجوره وقدرته على الاعتراف بالقتل ، أما هو فإنسان وهمى لم تنقذه ثقافته ومعرفته من الضياع . من أجل أن يتبين لنفسه طريقا يستمع الكاتب الى آراء عديد من الناس فى الاشتراكية والتأميم والفلسفة الجدلية ، والعنف المصاحب للثورات ، ينقل هذه الآراء من أناس فى فرنسا وروسيا وآسيا ومصر — آراء تزيد من غنى المحتوى الفكرى للرواية ، ومن طزاجة وانسانية هذه النظرة ، وإن كانت لا تنقذ الكاتب الروائى من حيرته ، ولا تفتح أمامه الطريق المسدود ، يبقى الطريق الوحيد المفتوح أمامه هو ما يزعمه لنفسه من أن ثمة قوى ميتافيزيقية تدفعه دفعا الى اغتيال اللواء زهدى بالوساطة — باستخدام الشاب « تو » .

ولأن هذه الحوارات لا تقدم حلا لمشكلة الكاتب فهى تظل منفصلة عن جسم الرواية — اشبه ما تكون بالحوارات التى كان برنارد شو يضعها فى بعض مسرحياته ، (الانسان السوبرمان هى أفضل مثل) ليزجى بها أفكارا لا تجد لنفسها مكانا مشروعا داخل العمل الفنى ، وإن كان الكاتب يرى أهمية قصوى فى أن يحتويها العمل مؤملا أن تجد لنفسها طريقا على نحو من الانحاء .

هذا هو شأن الحوارات فى رواية فتحى غانم . نسجل خروجها على السياق الروائى ، ونسعد — مع ذلك — لأنها موجودة ، ونستمتع بها رغم أنف الفن ! .

حجر دافئ

رضوى عاشور



وضعت بشرى يدها على قاعدة تمثال نهضة مصر ، فأدهشها دفء الحجارة . تمنت لو مرت بيدها على جسد المرأة الفلاحة ذات الرأس العالى ، بغطائه القديم . تاقت أن تلمس الرقبة والثدى والبطن وثنيات الثوب والذراع المرفوعة إلى الهامة ، والأخرى التى تسكن إلى رأس أبى الهول ، تملكتها تلك الرغبة كأنها حاجة تلح ، غير أن قامتها لم تصل !

كانت بشرى مرهقة بعد رحلة إلى الصعيد زارت فيها أم زوجها طه ، الشاب المناضل الذى أبتلعته أبواب المعتقل ، وانقطعت اخباره . أغفت أمام التمثال وأفاقت على صوت الجندى الأجش يتهمها بأنها مومس . ويقتادها الى القسم ، حيث كسروا كل رغيف من الخبز الشمسى كانت تحمله من رحلة الصعيد ، بحثا عن متفجرات محتملة ، حدث هذا فى نهاية رواية « حجر دافىء » .

أحداث الرواية تدور على مستويين أو لو شئنا فى عالمين : العالم الصغير والعالم الكبير . وبشرى تتحرك فى سهولة من أحد العالمين إلى الآخر ، فاهمة ، عارفة ، هى الوحيدة التى تعيش فى العالم الصغير دون افتعال أو تنازل . تتعامل مع أهل زوجها البسطاء تعامل الند الحقيقى ، وتقعد معهم على الأرض كما يقعدون . إن كانت هى تملك العلم والوعى والنظرية ، فهؤلاء البسطاء يملكون ما هو أعمق : يملكون حيواتهم يقدمونها فى المناسبات الكبرى . مات خالد ، صديق طه فى حرب اكتوبر . ودخل طه المعتقل ، ولم يعد .. بعد !

وفى القاهرة، تفهم بشرى تماماً الهموم الكبيرة والصغيرة التى تؤرق أمها: شمس. مات زوج شمس ، أبو بشرى . وهى فى الثالثة والعشرين فلم تفكر الأم فى زوج آخر . قامت بالعمل البطولى الذى تتقبله نساء كثيرات من أمثالها : نذرت حياتها لتربية أولادها . تقبل شمس هذه

التضحية وتقدم عليها دون تفكير ، ولكنها ــ فى الوقت ذاته ــ لا تفهم لماذا يشتغل طه إلى جوار عمله ، بالسياسة ، يدخل من جرائها السجون والمعتقلات ؟

يقول طه وهو يحاورها : ألم تقعد هى بالأولاد وتلغى حياتها الخاصة من أجلهم ؟ هذا الخلاص وراءه مبدأ ، وتسأله حماته وحين تدخل السجن تكون مخلصا لمن ؟ يرد : ليس السجن هو المسألة إنما الايمان والتمسك به ، سجناً كانت النتيجة أو ما هو أصعب من السجن .

لا تفهم شمس من هذا الكلام إلا بعضه ولكنها تتبين أن زوج ابنتها على حق . ويزيد وعيها بالحقائق حين تنفجر المظاهرات ضد الغلاء ، وتنتظم البلاد كلها ، وتخرج فيها بشرى ــ الحامل ــ مخاطرة بجنينها ، ويضيع فيها طه ، لا يعود ، إذ ذاك تقول شمس : إن المتظاهرين على حق . هل يأكلون الزلط ؟ وتخرج للبحث عن طه فتسمع طلقات الرصاص وترى القنابل المسيلة للدموع ، ويلفت نظرها ما تقوله امرأة لجارتها : « الحكومة قالت اختاروا الموت أو الموت : تموتون من الجوع وتتكتموا أو تعملوا مظاهرة وتنقتلوا » أما شىء وسخ صحيح ! وكان رجل غاضب يخلع حجارة الطريق بمساعدة بعض الأطفال فانحنت شمس والتقطت كل ما وجدته من أحجار وملأت به سلتها ومضت باتجاه الناس .

ومع ذلك فهى شمس ذاتها ، التى لا تفتأ تحمد الله على أن على ــ إبنها ــ قد سافر إلى الخليج سعياً وراء الرزق ، فأصبح آمنا من المعتقل والسجن والتعذيب .

هذه النظرة الواقعية ، المتزنة ــ غير الجامدة مع ذلك ــ هى التى تضفى على الرواية كثيرا من المصداقية ، وتجنبها مواطن الزلل المعتادة فى الرواية السياسية المباشرة . قد كان من الممكن ــ مثلا ــ أن تفعل رضوى عاشور بشمس ما فعله مكسيم جوركى بالأم فى روايته المشهورة : لوى عنقها فى اتجاه الأحداث الزاعقة ، ووضعها على رأس مظاهرة تندد بالظلم ، أما رضوى فتقف عند حد الإيحاء لا تتعداه . هل تلقى شمس الطوب على قوات الشرطة ، أم تعطيه للمتظاهرين ؟ لنا أن نخمن وإن كانت الاجابة غير عسيرة فأغلب الظن أن الأم ستختار الطريق الثانى ذلك أكثر اتساقا مع وعى سياسى غير متكامل يعطف على العمل السياسى من جهة ويحمد الله لأن الهرب من العمل السياسى يجنب الهارب المخاطر !

والواقع أن النظر الهادىء الساعى إلى عرض الناس كما هم بالفعل ، دون تزويق أو تمجيد أو تحقير ، يسمح للشخصيات بأن تبدى ما لديها بالفعل ، فتظهر أمامنا حية وليست متخيلة أو مصنوعة . وعلى امتداد الرواية تبدو معظم النساء فى حالة جيشان . سلمى التى تستجيب لوعد الرخاء والدعة فى كنف سعيد ، الزوج الغنى ، مستمعة إلى اغراء نفسها وأصوات الكبار ، لا تلبث صفعة على خدها من زوج ثائر لأنها لا تسير على الخط الذى حدده لها ، أن تجعلها تفيق

إلى الحقيقة : لم تتزوج وإنما باعت نفسها لرجل غنى ، هنا تترك له البيت ولا تفلح تهديدات أحد فى حملها على التنازل عن طلب الطلاق .

وفى الصعيد تسخط نواره ـــ أخت طه ـــ على المصير الذى ينتظر ابنتها سعدية . حصلت البنت على شهادة القبول للاعدادية ، غير أن أباها مصر على أن تقعد فى البيت ، والبنت تبكى ليل نهار ، قالت نوارة لزوجها : لو منعت البنت عن المدرسة ، أترك لك البيت ، فضربها وشتمها وقال إنها « شرموطة » وتريد لابنتها أن تصبح مثلها . ونوارة تريد أن تتعلم ابنتها ، لأنه تكفى خيبتها هى : لا شهادة ميلاد ولا تعليم ولا حتى ـــ فيما تخشى ـــ شهادة وفاة !

وتوافق بشرى على أن تحدث أم طه فى الموضوع وترجوها أن تطلب الى الزوج أن يغير رأيه ، ولكن الأم تنحاز إلى الزوج ضد ابنتها ، من رأيها أن تقبع المرأة فى بيت زوجها مهما كان الظلم الواقع عليها . لو ثارت النساء على ظلم الرجال ، لما بقى بيت واحد عامراً !

ومع هذا تحتج الأم على اعتقال ابنها . لا تفهم لماذا تعتقل الحكومة شابا رضى الخلق ، عفيف اللسان ، هو أطهر أخواته ، فلما تسألها بشرى إن كان أحد فى القرية لم يؤذ ، ترد بأن كثيرين نالهم الأذى ، ولكنها كانت تظن أن القاهرة أفضل بما فيها من عدل وميزان وقضاة ، القضية فى نظرها قضية اخلاق ، وليس قضية كفاح سياسى .

وتتسق تصرفات الشخصيات اتساقا تاما مع ما يبدونه من وعى بالأوضاع « على » يحتج على زواجى سلمى من سعيد ، لأنه يرى ماوراءه من ظلم يلحق بالمرأة ممن يسعون بالاغراء والارهاب إلى إملاء إرادتهم ، ثم يمد احتجاجه هذا الى مناهضة الحكومة والاشتراك فى اعتصام الطلبة اشتراكا نشيطا غير أنه حين تتفاقم مشاكله المادية بعد الزواج ، يلجأ إلى الحل الفردى ـــ يسافر إلى الخليج لحل مشاكله .

وسلمى التى تثور على استبداد الزوج ، تقصر ثورتها على حالتها هى . التحرر فى نظرها مشكلة فردية ، لهذا تسافر إلى النمسا وتتحرر ، من ربقة النظام الاجتماعى الخانق فى مصر ، تحررا سطحياً : تصادق شاباً نمسوياً وتشرب الخمر وتزهو بهذه الحرية غير المؤدية .

وحتى بشرى ، التى تمثل وعيا متكاملا ، تعجب من قوة وصمود طه فى المعتقل . راحت تزوره فوجدته نشيطا ، يقرأ ويكتب ويتأمل ويناقش . قال لها : لأن الأمور على ما هى عليه ، فلن تبقى على حالها طويلا ، وعجبت بشرى : من أين يأتى بهذه القوة ؟ هل هى ثقة عمياء أم أنه يرى ما لاترى ؟

على أن بالرواية رجالا فاقدى الوعى بشكل محزن . وضار . سعيد زوج سلمى يعلق على حماس مديحة ـــ أخت سلمى ـــ لمطالب الديمقراطية والاصلاح الاقتصادى ومواجهة اسرائيل

جديا فى سيناء بقوله : كلام فارغ ! ويؤكد لحماته شمس أن الحكومة لن تؤذى الأولاد لأنها تعلم تماما أنهم طائشون ، ويوصى بأن توبخ الأسرة هؤلاء الطائشين حتى لايعودوا لطيشهم ، وكان سعيد لم يلتفت إلى حركة الطلبة المعتصمين بالجامعة ولا لاخراجهم بالعصى والقنابل المسيلة للدموع ، ولا لاتهام وزير الداخلية لهم بأنهم قوى مندسة وعميلة . لم يلتفت سعيد لكل هذا بحجة أنه عريس فى شهر العسل ... !

وهناك عبد التواب والد أمينة وسيد . ما ان يسمع ان ابنته اشتركت فى الاعتصام وأمضت الليل فى قاعة بالجامعة حتى يثور ، ويصمها بأنها فى طريقها للفجور . ويتهم زوجته بأنها فشلت فى تربية بناتها ، ثم يلتفت الى سيد فيزعم أنه هو السبب : ترك أخته تنام فى الجامعة بين الشباب ولم يحرك ساكنا . وحين تفاجىء مديحة — صغرى البنتين — أباها بالدفاع عن أختها والدفع بأنها كانت فى الجامعة تناضل من أجل مستقبل البلد يتفجر الرجل ويلقى بنفسه عليها يريد ضربها ، ومن ثم يعلو الصراخ والبكاء وتضيع الكلمات فى خضم هذه الثورة الجامحة .

وهناك سيد ، الشاب الذى تخرج فى الجامعة مع على وفى السنة نفسها ، إنه ما لبث أن اشترى سيارة جديدة فاخرة ، وأصبح يسافر كثيرا لا أحد يعرف إلى أين . قال طه إنه « وسخ » ويقوم بأعمال مشبوهة ، يتزوج سيد هذا من أجنبية شقراء فارعة الطول ، تسوم أمه سوء العذاب ، وتسبها بابذأ السباب ، ولا يعلم أحد من أين أتى بها سيد ، ولكنه ضعيف إزاءها ضعفا مشينا .

الرواية اذن نظرة صادقة متزنة للعالمين الصغير والكبير فى حيوات شخصياتها . وهى الى اتزانها — تمتاز بقدر ملحوظ من ضبط النفس ، لا تستطرد رضوى عاشور — مثلا — فى وصف مظاهرات ١٨ ، ١٩ يناير ، ولا تمتد بوقائع روايتها إلى حادث المنصة ، وباستثناء طه ، لا تجعل من المناضلين تماثيل من الصلب لا يعتريها الوهن من أى مكان .

ثم تضيف الكاتبة الى هذا كله شيئا تمتاز به الرواية .فهى محكية من وجهة نظر النساء دائما بشرى تحكى عن طه وسلمى . وشمس تحكى عن الجميع . وسلمى تحكى عن نفسها وعن صديقتيها : بشرى ومديحة ، وأم طه تحكى عن ابنها وأقاربها وأهل البلد وتقدم النساء لزوجة ابنها ، وتتبنى وجهة نظر زوج ابنتها فى غيابه . وهكذا الأمر فى باق النساء .

العالم الصغير والعالم الكبير هنا كلاهما ملك المرأة . والكاتبة تفيد من هذه النظرة النسائية للعالمين لتسجيل كثير من مظاهر الحياة الاجتماعية فى المدينة والقرية : الزواج ، الضيافة ، طهو الطعام ، طقوس إكرام الضيف ، تصرفات الناظرات والمدرسات فى مدارس الأقاليم ، وهكذا .

غير أن العالم الصغير فى رواية رضوى عاشور يترك أثراً شبه سلبى على لغة السرد والحوار معا .

قليلة هى لحظات التوهج واللغة الشعرية المكثفة التى خبرناها فى « رحلة » ــ سيرة رضوى عاشور الذاتية . لاتزال الكاتبة قادرة على وصف الجموع الحاشدة وتحركاتها وصفا مقنعا ، مؤثراً ، ولكن لغة الرواية تعتريها نثرية ملحوظة فى غير مكان وأحيانا تصبح هذه النثرية عبارات شبه مترجمة عن الانجليزية : كما فى العبارة التالية : « وعندما ركبن السيارة للعودة كان بإمكانهن رؤية الفلاحين » .. بدلا من : كن يرين الفلاحين .. الأكثر قربا لروح العربية ومثل : فماذا الذى بيد الولد كى يفعله ؟ بدلا من : فماذا كان بيد الولد أن يفعل ؟ ومثل : قالت أنها كانت سوف تصاب بالسكتة القلبية حين رأت المبلغ الذى دفعته أختها . بدلا من : أنها أوشكت أن تصاب بالسكتة القلبية .. إلخ .

غير أن « حجر دافىء » ــ مع هذا ــ اضافة لاشك فيها إلى الرواية السياسية ذات الموضوع المباشر ، وترشيد واضح لهذا اللون من الرواية ، استطاعت الكاتبة بنجاح أن تحتوى مخاطره وتتجنب مزالقه : الهتاف أو الصراخ ، أو المباشرة الضارة .

وراحة واضحة خبرتها أنا شخصيا حين وجدتنى اقرأ رواية معاصرة لا تختلط فيها الأزمنة والأمكنة والأصوات والأفكار بداع حينا ، ومن غير داع فى كثير من الأحيان وليس هذا بالفضل القليل !

ترابها زعفران

إدوار الخراط



يقول لنفسه : ما معنى هذا التوجع الصعب ، وضعف النفس ، ولذع الحنين القديم ؟ وما قيمته ؟ أليس هذا كله معروفاً ومأثوراً ، قرب نهاية الأمر ؟ فما عكوفك ــ المثير للسخرية قليلا ــ على ماباد واندثر ؟ حذار . خل بالك .

ولكنه لا يأبه لتحذير النفس ، أى جلوى من عدم الجرى الى الماضى ؟ أى شىء أبقى من الماضى ؟ إن يكن إمرؤ القيس قد تفجع على ما باد من طلل واندثر ، فان الكاتب لايرى من مُعَوَّل إلا على الرسوم الدوارس .

وهى رسوم لم تدرس على كل حال ، باقية هى فى وجدان الكاتب حتى أدق التفاصيل . وهذا بعض من فضل فن إدوار الخراط حين يتصدى لاصطياد الماضى ، سواء فى قصصه القصار ، أو فى هذه « النصوص الاسكندرانية » التى سماها : « ترابها زعفران » ، والتى تحمل سيرة ذاتية رفعها الكاتب الى مقام الفن العذب ، وراح يعذب نفسه خلالها بالصلاة فى معبد الجسد ، والتفجع على الماضى الحى ، يصوره بدقة خارقة حتى ليقوم أمامنا زاهيا ، مزهواً ، فاذا ظننا اننا قد امتلكناه ، لا يلبث أن يطير عنا ، يختفى فى ظلمات الكوابيس التى تعترى النصوص فى غير مكان ، أو يتلفع بالترانيم ، أو بذكرى غراميات عليها سُتُر شفافة لاتنم .

يصف ادوار الخراط نصوصه الاسكندرانية بأنها : « وَجْدٌ وفقدان بالمدينة الرخامية ، البيضاء ــ الزرقاء ، التى ينسجها القلب باستمرار ، ويطفو دائما على وجهها المُزْبد المضىء » .

واسكندرية الكاتب عالم رحب كبير القلب ، رحمته وسعت كل شىء ، فيه تتحد الأشياء والأشخاص ، تتواجد الأديان والأجناس ، يقف الخطاة الى جوار الصالحين ، لا يجد الخراط إثما ولا حتى حرجا فى أن يفعل هذا . إنْ لجأت حسنية التى تبيع جسدها ، الى شقة الكاتب هربا

من مطاردة الشرطة ، وجدت الفهم والرحمة ليس فقط عند الولد الصغير ادوار ، بل عند أبيه أيضا ، الذى يخفى الخاطئة ، ويرد عنها بطش المطاردين ، ثم يشيعها بالدعاء : « ربنا يهديك وينور لك سكتك . انزلى ، ربنا معاك » .

وكان الولد « يحب » حسنية . قالت له ذات مرة ، وهى لا تنظر إليه : أنها تسافر فى الليل ، وتروح بعيدا جدا ، وأن سفر الليل متعب . ولا تطلع له شمس ، وأضافت : « ربنا يتوب علينا من سفر الليالى » .

كان الولد يفهم ولا يفهم ، يصدق أنها تسافر وهو يعلم أنها لاتترك البيت . ولكنه كان منذ طفولته الباكرة قد قرأ الكتاب المقدس وبكى كثيراً لصلب المسيح وحَمَل من بُعد سر المسيح فى قلبه ، وحمل معه عذابات المسيح ، وفى آخر العمر حوى قلبه جسد جارته وهيبة — التى كان مفتونا فى السر بجسدها ، والتى كانت تسخط على حسنية ومهنتها — حوى قلبه للونة جسد وهيبة وقد داخلته أيضا حسنية المقهورة الحنون ، وأحس الرجل ادوار فى تور الحب الزاخر حين تقدم العمر، بشعر حسينة القصير الخشن حياً تحت أصابعه ، وحوطها بذراعين دقت فيهما المسامير . قد صار الولد — الرجل ادوار هو المسيح !

تحوى النصوص الاسكندرانية كثيرا من مظاهر الحياة فى عشرينات وثلاثينات وأربعينات هذا القرن فى مصر ، وفى الاسكندرية خاصة ، وكلمة « نصوص » هنا موفقة ودالة . أنها تاريخ محفور على ما هو أبقى وأكبر صلادة من الحجر : القلب الانسانى . ونحن نقرأ هذه النصوص لنستكنه الماضى ، ونستحضره ، ونلوكه ، ونستعذبه ، ثم يُمِضنا أنه دائم الحضور ، دائم الهرب ، وأن علينا أن ننسج خيوطه من جديد ، فى كل مرة تتهرأ الخيوط ، أو يصيبها الوهن ، أو يطلع عليها ضوء النهار القاسى . ورغم العذاب الذى يخلفه الحضور والاختفاء فاننا لان نملك إلا أن نجرى وراء الأحداث والرؤى والشخوص . فإن الجزاء الذى يتلخص إلينا فى كل مرة باعث على السعادة الحقة .

الأولاد والبنات من مسلمين وأقباط يطوفون بالبيوت فى شهر رمضان بالفوانيس ونشيد « حاللو يا حاللو » الولد ادورا يُسمّع فى فصل المحفوظات سورتى « الليل » و« الضحى » فيحل على الفصل سحر الايقاع والمعانى . ويقول « خليفة افندى » : الله هذا إلقاء مثل سلاسل الذهب .

الناس من كل جنس يعيشون فى الاسكندرية . التركى بائع الفول ، والكونستابل المالطى الذى يعرف الشتائم العربية البذيئة ، « ويشخر » لأصحاب الدواب الجريحة بالاسكندرانية الفصحى ! المغربى بائع اللبن الذى يسكن حارة وراء بيت الولد . زوج أخت الولد عم مقار

اللامع السواد الصعايدة والفلاحون والصيادون بلباسهم التقليدى . بياعو السمك فى مقاطف الخوص ، الأفندية بالسترات الطويلة والبنطلونات الضيقة .. كل هؤلاء كانوا يجعلون العالم مكانا غنيا ، متقلب الألوان ، مخيفا إلى حد ما ، وجذابا أيضا .

وأم توتو ، « الجريجية » التى تحب خال الولد ، يونان ، والتى تزوجت الجزار الذى يملك محلا أمام بيتها وانجبت منه كاترينا ، أو توتو ثم طلقها الجزار من بعد ، كل هؤلاء كانوا يصنعون السحر الخاص الذى كانت الاسكندرية تملكه فى ثلاثينات وأربعينات القرن . وهو سحر يختلط فى ذاكرة الولد بأحداث غريبة متفرقة ، تحدث على غير انتظار فتدفعه إلى التأمل المدهوش ، الحزين ، بنت صغيرة يدهسها أتوبيس . تلميذة فى مدرسة تلقى بنفسها من الدور الثانى الى الشارع ، « رانه » صاحبة اللوكاندة ــ التى كانت تعطف عليه وتمنحه الحنان ــ تموت فى جريمة غامضة . صديقه وابن خالته وطواط ، وشريكه فى ألعاب الطفولة وشيطنتها ، يموت تحت عجلات الترام ، ولا يعرف الولد أن القتيل هو صديقه الحميم إلا آخر الليل .

تدفع هذه الحوادث كلها الولد الى الاحساس بالفقد . ليس فقد الناس فقط ، بل فقد الأشياء أيضا : نصف الفرنك الذى التقطه من بين أرجل الناس الذين ازدحموا امام البيت البطريركى ليلتقطوا بركات « سيدنا » واحتفظ به ــ بركة ــ سنوات طوالا ، ثم لم يعد يجده ، الجمل الخشبى الصغير الذى أهداه اياه ابن عمته بقطر ، جاء به من القدس ، واحتفظ به الولد معتزاً ورأى فيه شموخ الملك ، ثم فقده ، ولم يُجْدِ البحث الدائب فى العثور عليه ، فأحس لفقده جرحا غائراً لا يندمل .

غير أن هذا الفقد يسير جنبا الى جنب مع « العثور » فى حركة جدلية لا تهدأ . يراها الولد فى الموج ، يندفع الى الشاطىء مستنفدا ، بعد رحلة طويلة ، ثم ينكص محسوراً أبدا ، ليعاود الكرة من جديد ، ويجدها كذلك فى الحب ، يرى فى الماء امرأة تشبه رانة ، القتيلة فيوقن أنها رانة بالفعل . رانة اخرى سوف يعشقها ويفقدها . وسوف يظل يحب كل رانة يراها حباً كأنه الموت ، فقلبه بحر لُجى ، جياش أبدا بأمواج لا تهدأ . وبكاؤه على الاطلال موجع ، وفادح ، وأفدح منه سؤال يعترضه دائما : لماذا البكاء وما جدواه ؟ لماذا ينثر حبات قلبه على الرمال تحت اقدام العابرين ؟ من سَوْف يلتقطها ؟ وماذا يفعل بها ؟

فى « النصوص الاسكندرانية » اشارات سياسية تحدد زمن السرد ، وتوضح تماسك الأمة المصرية فى نضالها ضد المستعمر والمستغل . سينوت بك حنا يتلقى طعنة سونكى من أحد جنود صدقى باشا ، لينقذ النحاس باشا من جرح أليم . فارس أفندى غاضب يتهم النحاس بأنه زعيم الرعاع ، فيرد أبو الولد بحمية : انه خليفة سعد وزعيم الأمة وعدو الاحتلال الانجليزى ، وأنه يحمى

البلد من جشع الملك الذى ينبح بصوت كلب عندما يتكلم . لم يرَ الولد أباه يتكلم أبدا من قبل بهذا العنف والحدة . وزيزى ، بائعة الهوى التى تنقذ الشاب من كمين كان ينصبه له صديقه « اليسارى » اسكندر عوض ، تنقذه بأن تتظاهر أنها « ذاهبة » وإياه ثم تمنحه قبله ، وتفتح بابا ، وتسلمه إلى الشارع داعية إياه إلى الهرب بجلده !

وفى « ترابها زعفران » وصف حى ، ودقيق لشق الأمة الآخر ، أقباط مصر الوادعين الدمثين ، تبين منه نقاط الاتفاق والالتقاء مع المسلمين ، وتظهر أيضا نقاط التمايز ، ويطلعنا العمل على تفاصيل الحياة اليومية والعاطفية للأقباط فى أدنى درجات السلم الاجتماعى وما يعلو هذه الدرجات قليلا ، وهو وصف يتراوح بين تسجيل المأثورات الشعبية القبطية مثل صنع فطير الملاك ، والاحتفال « بسبوع المولود » وبين وصف الحياة اليومية العادية للأقباط الفقراء الذين يشاركون المسلمين الفقراء الهموم ذاتها ، ويعانون مثلهم من استبداد الطغاة ، وصلف المستعمرين ، ووطأة الفقر الخانق الذى يدفع بأم الولد الى رهن فستانها كى تدفع له مصروفه اليومى .

والى جوار الترانيم الشعرية الكثيرة ، ووصف حبيبات الشاب واحدة وراء اخرى فى صور شعرية حسية تذكر بنشيد الانشاد ، الذى فتن به الولد فى باكورة حياته ، يقف شامخا وجميلا ورقيقا ، أعذب ماقرأت على سبيل استقطار كتاب ما ، واستخراج ما فيه من رحيق .

أما الكتاب فهو ألف ليلة ، الذى يركز ادوار الخراط سحره وينشر عطره على مساحة ثلاث صفحات وبعض الصفحة ، يفعل هذا بيد قادرة ، وحس مرهف . تقرأ هذا الاستقطار فكأنك قد شربت رحيق المجلدات الأربعة فى كأس صغيرة من البللور .

وبعد : فاذا كانت نغمة التساؤل لاتنفك تتردد فى جنبات « النصوص الاسكندرانية » تريد أن تعرف ما جدوى البكاء على الاطلال ، فان الجواب الواضح أن هذا البكاء قد استحضر الماضى ، وآثار الحاضر ، وانتج هذا العمل الجميل الجياش بالعاطفة الحانية ، والحب الواسع . العمل الذى وفق ادوار الخراط فى وصفه حين قال : لعله أن يكون صيرورة ، لا سيق . ولعله أن يكون عاما أيضا إلى جوار أنه ذاتى .

والواقع أن فكرة الصيرورة تتخلل تضاعيف العمل.. يثيرها الفقد أو الاختفاء . يختفى الصبى جابر ، صديق طفولته من حياته كلية ـــ لا يدرى أين ذهب ، فيسأل : أين أنت الآن يا جابر ؟ هل تعيش فى الاسكندرية ، ولك أولاد كبار وأحفاد ؟ هل مت ؟ وكيف لم يرد الصبى بعد ، طوال خمسين عاما ؟ وأين ذهب كل هؤلاء الصغار والكبار ؟

 ويتداخل الأشخاص فى العمل ، راتة تصبح كل الحبيبات ، الفلاح القصير الذى يحش

الخضار ، يجد فيه الولد جده ساويرس وأباه وأولاد عمته بقطر ورفلة ، وأخواله الثلاثة يونان وناثان رسوريال ، ويجد نفسه غير منفصل عن الفلاح ، ويجد أن بستانه هذا هو بستان ألف ليلة المسحور الذى طالما التقى فيه المحبون .

لغة ادوار الخراط فى العمل قوية جذلة ، شاعرية ، فحلة . غير أنها فى موضع واحد على الأقل تنتقل من هذا كله الى شبه الاستغلاق . الى هذا الحد يلوك الخراط كلماته مستعذبا مستلذاً . يقول فى هذا الموضع : « ملائكة الجحيم تحوم بى وهزيم الملأ الأسمى فى سماء طامية يزمزم بحَدَمة الغُلْمة وجَمْجَمة الرمضاء ، أوام حَومَانى له طعم الرغام فى فمى . اليم الخضم يموج بدوامات من عُرَام حُمَيَّاى الى حرمك . ميمى ممدودة إليك بجسم منهمر ، ونعمتى فيك موصولة بالميمَيْن . ومال مَهَامِه المضفى ترمّض جمراً وحمما ، وبى لم من غمرات التيمْ التى تتمعج فى مكامنى .

هذه كلمات وجمل قاموسية ، الرغبة فى ترددها لما فيها من غرابة وفحولة اقوى من الحرص على استخدامها للإفصاح والتعبير .

وتبقى النصوص الاسكندرانية بعد هذا زعفرانية ، غنية التعبير ، زاخرة بالمعانى — وواحدة من أمتع ما قرأت على سبيل السيرة الذاتية المُفَنَّنة ! .

عذراء الغروب و دوائر عدم الإمكان

مجيد طوبيا



صويت العجوز بندقيتها نحو الخطر الداهم الذى يوشك أن يحل بها . صوبتها ورفضت أن ترفعها حتى يخرج من حياتها أولئك الأغراب المتطفلون الذين جاءوا يوصلون الماء الى أراضى القرية الصحراوية بدعوى زيادة الرقعة الزراعية ومد حق ملكية الأرض للمعدمين من الفلاحين .

لا تفرق العجوز بين علو وصديق وقريب ، ماداموا فى رأيها يحولون بينها وبين الحفاظ على وديعة تراها جد ثمينة هى : قبر زوجها . القبر يعترض الترعة التى شقها المهندسون كى تمتلىء بمياه بحر يوسف ، وهى تصر على أن يبقى القبر حيث هو ، حتى ولو فشل المشروع . مقاومة عنيدة غير مجدية ، فى وجه حفار عات ورئيس للمشروع مصمم على تنفيذ الخطة الموضوعة . وبين هذه المقاومة العقيم والهزيمة المحتومة التى تلقاها العجوز آخر الرواية يمتد حبل قصصى جيد الفتل رشيق التقسيم ينتظم ثمانى قصص لشخصيات الرواية : العاشق المهجور : المهندس سامى ، وسائق الجرار المخدوع : حسن ، وغرباوى ، العمدة الذى يهوى فض بكارة العذارى ، وشيخ البدو الشابورى ، الذى تتوسل به العجوز كى يردم الترعة التى شقها الحفار فيردمها بليل ، وان كان يعلم أن عمله غير مجد أمام سطوة الحكومة ، وعتو الحفار وتصميم رئيس المشروع وتغير الزمن ، والعجوز الضرير « على » الذى لازم السيد زوج الهانم طيلة حياته خادما وصديقا ، ولازم امرأته بعد وفاته وها هو ذا يجلس تحت قدميها كالكلب العجوز يؤيدها فى موقفها المستحيل ويطوى صدره على سر خطير . والصبية المليحة خمرية ، التى تمضها عواطف القلق ، وتستبد بها الحيرة ازاء موقف أمها ، تراها مخطئة ولا تقوى على رفضها ويحز فى نفسها تضارب مشاعر أمها نحوها بين الحب والكراهية فقد مات السيد بعد أن ولدت خمرية بقليل فظلت الأم تعير ابنتها طيلة تسع عشرة سنة هى عمر خمرية بأنها كانت مصدر شؤم وإن ظلت الأم فى السر تحبها .

وسوسن طبيبة المشروع التى أشرفت على الثلاثين واضحة الفكر قوية كرجل قوى ، تطوعت للعمل فى هذا النجع النائى ، ولم تأبه بتقولات أهل النجع ودهشتهم لأن تكون المرأة الوحيدة بين جمع من الرجال. ترى عينها الفاحصة أن سامى يأنس إلى الخمرية التى تميل إليه، هو الرجل الوحيد الذى تعرفت اليه خمرية فى سنوات عمرها العجاف كلها .. تتبين سوسن أن سامى لن يتزوج الفتاة : عمره ضعف عمرها ، وترى أن سامى لن يتزوج قط بعد أن غدرت به زوجته ـــ تركته قبل أن يدخل بها وكان قد ذهب الى بلاد النفط ليجمع مالا يؤسس به عشه المأمول . تقول فى نفسها لو عرفته قبل الزوجة الخائنة لوقعت فى غرامه وما تخليت عنه قط . ودت لو يتقدم لها الآن ولكنه لايفعل !

تبرز العجوز كأقوى شخصيات الرواية ، حديدية التصميم لا تحيد عن الطريق الذى ترسمه لبلوغ الهدف ، استقدمها زوجها من البندر وزفت اليه زفافا ملكيا وظلت معه خمس سنوات لا تنجب والعيب ليس عيبها ، تململ السيد وأوشك أن يتزوج من أخرى . قال هذا لخديمه على . وكان « على » قد ضعف بصره حتى ضاع تماما ، ففوجىء ذات ليلة بامرأة ناعمة تقتحم عليه غرفة نومه وتزعم أنها احدى البدويات ثم تحرضه على أن يواقعها فلما تبلغ وطرها يسألها الرجل : هل تأتين غداً ؟ فتزجر : أسكت يا أعمى ! ولا تجىء من بعد . ثم تلد الهانم ابنتها خمرية ويقر فى وعى الجميع أنها ابنة السيد ، ولا يمهل العمر السيد حتى يتبين حقيقة ما حدث يموت بعد عام !

بهذا المضاء العنيد الذى لا يقف عند حد ، ولا تعنيه الوسيلة قدر ما يهمه الهدف ، تنضم العجوز فى رواية : مجيد طوبيا الى نظيرات لها فى الأدب العربى الحديث .. ثمة أواصر قوية تربطها بامرأة اخرى حديدية الارادة لا تعترف بالتغيير وانما ترى الزمن قد وقف عندها فلم يتحول ، هى عجوز فى الستين مالكة سابقة للأرض يعدو على ملكها قانون الاصلاح الزراعى فتتقلص رقعتها ويقل نفوذها ، وهى مع ذلك غير قادرة على تبين ما حدث ، نجد هذه العجوز فى مسرحية الكاتب السورى وليد اخلاصى، «هذا النهر المجنون» حيث العجوز تقبض بيد من حديد على بئر حفرتها بمجهودها ، وجعلت تسقى منها زرعها ، غير معتمدة على النهر فاض أم انحسر ، كما تقبض باليد الحديدية ذاتها على مقدرات اسرتها وتحرم اعضاءها حرية التصرف فى شئونهم الخاصة ، تفعل عجوز مجيد طوبيا الشىء ذاته فى حالة ابنتها خمرية فحين تنهزم تطلب الى خمرية أن تغلق نافذة الغرفة بالشيش والزجاج حتى لا تصل اليها أصوات الواقع البغيض كما تنضم العجوز المصرية الى عجوز اسبانية تقرب منها فى الارادة الصلدة والرغبة فى اغلاق الأبواب هى : برناردا البا فى مسرحية لوركا المعروفة .

الى جانب العجوز تستوقفنا بصفة خاصة شخصية سامى ، مهندس متقدم الفكر ، قوال لا

فعال ، يحب الفلاحين من خلال الشعارات ويكثر كلامه عن الخير الاجتماعى ، فيجعله هذا مثارا لتندر رئيسه ، مأساته الخاصة تقربه كثيرا الى قلوبنا ، حبه الرومانسى لزوجة نكثت بعهده ، تحويله الهزيمة الى رغبة عارمة فى فعل الخير الاجتماعى ، كان وهو فى بلاد النفط لا يبصر حواليه الا الرمال الصفراء ، ولا يجد وجه امرأة واحدة يؤنسه مرآها ــ مجرد النظر وحسب . ثم تخلت عنه زوجته ــ تزوجت من ثرى بنى حياته بالفعل ولم يعد محتاجا الى أن يضرب فى بلاد الغربة بحثا عن المال . حول سامى هذه الفجيعة الى كراهية للرمال الصفراء وعزوف شديد عن النساء . من أجل هذا قبل العمل فى المشروع كى ينتقم من الرمال الصفراء يحولها بقدرة العلم الحديث الى أرض خضراء منجبة ومنعة تقززه من النساء أن يأخذ بيد الصبية المسكينة حمرية ويضمها الى قلبه الموجوع . وقربت صدمته فى النساء بينه وبين حسن سائق الجرار ، الذى ظل سنوات وهو أضحوكة النجع حتى علمه المهندسون كيف يقود جراراً فارتفع مقامه ، ولبس الملابس العصرية التى تلائم الجرار ، وتشجع فخطب محبوبة فؤاده : زكية ، فلما دخل بها وجد أن العمد قد سبقه اليها ؟

ترسم الرواية القرية المصرية فى حالة تحول بطىء . الفلاحون لايزالون عاجزين عن اتخاذ المواقف يفضلون أن يراقبوا المعركة التى تدور بين العجوز ورئيس المشروع . لينضموا الى الفائز من الطرفين .. يخافون البدو من جهة والحكومة من جهة ثانية . ويخضعون لابتزاز العمدة لعافيتهم وشرفهم ، فحين تحسم المعركة لصالح الترعة الواعدة بالخير ، يودعون رجال المشروع بالأغانى والزغاريد شاعرين بالمنة الكبرى التى تخلصت اليهم عبر الآلات الحديثة والمشروعات البصيرة والقرية مع ذلك تتغير . هو هو ذا العمدة الشره مصاص الدماء ومغتصب العذارى يُقال ويحل محله ضابط شرطة شاب ، صحيح أن الضابط لا يسهر الا فى دار العمدة السابق ، كما قدر العمدة بالضبط معتمدا على مسالك ثلاثة لتصرفات الضابط الوافد ، إما التقاط العذارى أو الحشيش أو قبول الهدايا من سمن وطيور وبيض يدفعه الى قبولها راتبه الضئيل ولهيب الأسعار . غير أن هذا انما هو استمرار للشر بحكم القصور الذاتى ، أما حركة المجتمع الرئيسية فى الريف فيمثلها انجاز المشروع بنجاح ، وموكب البدو بخيولهم وجمالهم يتسابقون من حول ركب المهندسين مطلقين الرصاص ابتهاجا ، وود الفلاحين الظاهر يبذلونه للمهندسين وكبيرهم وقول هذا الأخير « قد اخضرت الأرض ، وسلمناها للادارة لترعاها ، أما نحن فالى صحراء جديدة . اننا مهندسو تراحيل . وبينى وبين نفسى أحب هذا العمل رغم كل شىء » .

وتنتهى الرواية وسامى يعلن رضاه عما تم : « لم تكن عاقرا ابدا هذه الأرض . ها هى ذى حبلى بالزرع ونحن رجال مخصبون » يقول هذا وسوسن تبتسم له دامعة العينين وتضحك ثم

تضع كفها فى كفه . لعلها متجهة الى جذبه الى الزواج منها ، فينتهى بهذا احساسه الممض بأنه قد اهين . اما حسن السبع فيكاد يبصق فى وجه العمدة حين اراد هذا تقبيله . طلق حسن زوجته بعد أن عجز عن أن يغفر لها ، ورأى الألفى كبير المشروع انه ربما نسى همومه اذا رحل عن القرية الى مكان جديد وعمل جديد ، وهواء جديد .

رواية أخاذة . تلك الذى كتبها مجيد طوبيا تستخدم طريقة الأصوات المختلفة ، يروى كل صوت منها الأحداث من وجهة نظره رواية رشيقة ، لا افتعال فيها ولا مجال لأن يقطع تغير الصوت حبل الرواية الممتد . لا يلح علينا مجيد طوبيا بتفاصيل لا داعى لها ، فيكتفى — على سبيل المثال — باشارات عابرة ليصور ماضى سامى الذى كان له نشاط سياسى فيما يبدو يلمح اليه الألفى كبير المشروع ويرسم فى لمسات قليلة شخصية المهندس توفيق . الذى لا يظهر أبدا على مسرح الرواية . ومع ذلك فوصف سلوكه يقيمه لنا مثالا على المهندس الشاب فاقد المثل الأعلى . المفضل لمصلحته الشخصية على حساب الصالح العام . ويدخلنا مجيد طوبيا الى العالم الخاص لكبير المشروع الألفى ، الذى يبدو معظم الرواية وكأنه الة منفذة حاسبة ، حتى اذا ما انتهى مشروع الى النجاح التفت الى حياته خاصة وقص علينا كيف يركبه ابنه ويقول شى حا ، وهو الرجل البارز الذى يسيطر على مقدرات العشرات !

والنهم الشديد للحياة والاحياء ، والتوق اللاهب الى الجمال والحب والسعادة البريئة فى حضن الزوج أو الزوجة يجرى سيالا قويا فى رواية أخرى لمجيد طوبيا : « دوائر عدم الامكان » هذه رواية وقصيدة معا أو هى « نشيد الانشاد » مضبوب فى قالب روائى يحمل قصة بسيطة غاية البساطة : عواد الفلاح متدله فى حب زوجته الفائقة الجمال هنومة هى عنده أحلى نساء البرية ينطق السلم حين تصعد درجاته هاتفا : « لو بيدى لتزينت لك بورود النرجس وفرشت الياسمين تحت بطن القدمين ، لو بيدى لجعلت من نفسى سجادة سحرية أحملك عن الأرض الى السطح حتى أحظى بقعادك فوق ورقادك .

والأحياء جميعا واقعة هى الأخرى فى غرامها . صعدت هنومة الى السطح ، ونضت عن جسدها القميص فأخذ القميص يرتفع رويدا رويدا ويُقَبِّل الفخذين والبطن المرمرية وفحلى الرمان والكتفين فالعنق فضفيرة الشعر الحرير ، ثم هفهف فى الهواء فهلل السطح وانشد « يا مطرزة الثوب لاخر الذيل ، حرمت العشاق من نوم الليل » وقال الزرع « رمان رمان » فشدت السماء : « يا نهودها فحول رمان » وهتف النخيل : « ريان ريان » فغنت النجوم « ياعودها قلب الخس ريان » ثم استيقظت العصافير فى الأعشاش وجاءت وغردت : « مرجان مرجان » يا اسنانها لولى ومرجان فهمس عواد « غزلان . غزلان يا عيونها عيون غزلان » .

أما القمر فقرر أن يضم هنومة اليه ، أن يمتع نفسه بوليمة جسدها يحرك وجهها جهة اليمين فيقبل القمر خدها الأيسر ثم يتحرك الوجه جهة اليسار فيقبل القمر خدها الأيمن والمحبوبة تعدل رأسها محمرة الوجنتين مرعوشة الشفتين تضغط بيدها على ظهره تشده اليها فى لهفة وحرص ثم يتقلب الاثنان على الجانبين ويفك القمر ضفيرتها وتأخذ أصابعه تتخلل الجدائل . وعواد جامد فى مكانه لا يعتمد على شيء !

قد جن عواد بهنومة . جن جنونا حقيقيا جعله يوقن بأن القمر يبغى انتزاع حبيبته منه ! وكان لجنونه أصل وسبب .. هنومة الفاتنة عاقر مضت سنوات خمس ولم تنجب . فى كل سنة تتوق .. تتوفز . تتقطع حسرات .. غير أن الوليد لايجيء . تقول هنومة : بطون كل الصبايا حملت .. ارحام كل النساء امتلأت الا بطنى الا رحمى ، مرامى فى وليد جنين يتحرك فى بطنى أحس برفسة قدميه هنا .. لا .. هنا .. أى ! على مهلك يا ضنايا يا روحى ياسمسم . وتذهب انت تستدعى الداية فى عز الليل أو فى وش الفجر . وتدخل الداية لتولدنى حاسبى يا أم السعد . بالراحة على الغالى يا أم السعد تعال ياحبيبى تعال . الله على جمالك . هشك هشك هشك .

ولما يطول الوقت على هنومة ، تقنعها الداية بألا سبيل الى الانجاب الا بحلب النجوم ، على هنومة ان تملأ زلعة بلبن حمارة قد ولدت حديثا ، ثم تصعد الى السطح وتبحث عن نجمها وتحلبه . قالت هنومة بل سأحلب البدر نفسه ، وصعدت الى السطح وتجردت للقمر وأخذت تدهن بالحليب رموز الانجاب وأدواته وتضرع الى البدر أن يهبها القدرة على الانجاب .

هنومة وعواد فى وضع مستحيل لا هنومة تنجب ولا هى ترضى بحياة لا تزينها ضحكات الأطفال . وعواد لا يتحول عن هواه الشبق بهنومة ولا يقدر على أن يجعلها تطمئن الى حياة هانئة وادعة معه يقول لها : أحببتك هكذا . وعشقت وصالك لأجل خاطر وصالك فتقول له : كيف الوصال ورحمى عاص ، قفل بابه وقال يا انجاب بينى ، وبينك حاجز منصوب ؟ . فيرد العاشق .. وصالك عندى كل الحياة ، فتقول المرأة الملتاعة : جف اللبن فصار الشوك فى النهدين انشرخت الحلمتان من قلة شفايف وليد تمص . رى البستان يطرح الورد والقمح والريحان .. لكن الرحم صخر وقفر لا ماء ، ولا ظل .

ومن ثم تلقى هنومة بنفسها فى الساقية ويروح عواد يبحث عنها فى كل مكان لا يصدق أبدا انها ماتت حين تعرض عليه جثتها فيما بعد ، يجزم بأنها ليست جثة زوجته ويروح يصب غضبه النارى على قرص القمر الذى سلبه حبيبته وتتداخل صورة القرص مع وجه موظف الجمعية الزراعية ذى الوجه المستدير ، الذى باعه سمادا مغشوشا فعجزت ارضه عن الانبات ، ويرتبط

هذا العجز بالفساد المستشرى فى القرية وشهوانية الضابط الصغير ذى النجمتين ، وزبيبة الحاج حسين ، الذى يدافع عن تدليس موظف الجمعية لأنه يحصل على أكثر من نصيبه من السماد وقبل كل الناس ، فيكون هذا الربط بين هؤلاء الأشخاص وبين تهويمات عواد وشطحاته وجنونه ، واحدة من الكوات التى تنفذ منها الرواية الى أرض الواقع . الى عالم أم السعد الداية وسائق الجرار وزوجته التى هى بسبيل الوضع .

أما ما بقى من الرواية فيوظف فى براعة ملحوظة مأثورات الشعب فى خدمة الأحداث . حين يحدث للقمر خسوف يطوف الولدان يقرعون الصفائح ويطلبون الى بنات الحور أن يكففن عن خنق القمر .. ويبصر عواد القمر مختنقا فيشتعل خياله ويرى الحوريات فعلا ، ويحادث إحداهن ويشمت بغريمه الذى تبددت فضة نوره وتآكلت هالته ، وفى الوقت ذاته يتحول الأولاد الى بعض من قوى الملاحقة التى تطارد كل من خرج عن طبيعة الحياة فى القرية بالفعل العاقل أو المجنون كذلك يصف مجيد طوبيا الولادة ، وطقس تخزيق الورق والاستعانة بالبخور للتخلص من الأعداء ، كما يعمق مأساة هنومة وعواد حين يصور الأشياء والأحياء كلها فى حالة انجاب وامتداد . زوجة سائق الجرار تلد ، الخيار فى الغيط يكبر ويتمدد ، القطة تسمع مواء القط فتسرع اليه ، الدجاجة « تكاكى » لما يحين أوان البيض . والى هذا كله يضم مجيد طوبيا تراث الأغنية الشعبية وتراث ألف ليلة فى وصف مفاتن أجساد النساء والاحتفاء بما تعد به هذه المفاتن من حياة وجمال وانجاب .

الرواية كلها نشيد طويل جميل يمجد الحياة ويظهر اللوعة لأنها لا تسير دائما فى طريق تفرشه شمس النماء ! .

نوبة رجوع

محمود الورداني



فى الأيام الأولى للحرب ، أصاب مصطفى ذهول حقيقى . كان واثقا من أنهم لن يحاربوا . وسيعقدون سلاما بأى شكل . لكن العبور تم بالفعل . وتقدمت قوات الجيش الثالث تجاه ممرات سيناء . كان العدو الصهيونى قد تكبد خسائر فادحة : فقد تسعمائة دبابة . وأصيب طيرانه فى مقتل . احدى الطائرات التى تم اسقاطها وصلت من مخازن الجيش الأمريكى فى امريكا الى العريش رأسا .

ومع ذلك فقد استمرت الحرب ستة عشر يوما فقط . حدثت الثغرة بتواطؤ امريكا مع اسرائيل ، نفذت عملية الغزالة ، وصوَّر تليفزيون العدو جولدا مائير فى الأدبية بالسويس . وتم وقف النار ، وجاء كيسنجر ليضمن ان تبقى الأمور على ما هى عليه : قوات العدو ، تتمركز غرب القناة ، وقوات الجيش الثالث فى شرق القناة . وقررت القاهرة وواشنجتون رفع درجة التمثيل الدبلوماسى بينهما .

اذ ذاك شعر مصطفى ان دوره الفاعل قد انتهى . كان قد اشترك فى الحرب ثم آلت الأمور الى هدنة ، فأحس بالاحباط . بالخجل . لم يستطع حتى ان يتحدث عن الحرب مع اصدقائه . شعر أنه لو فعل ذلك ، لكان فى عمله اهانة للجنود الذين ماتوا . ومن ثم ، اغرق نفسه فى الركض بين المستشفيات ومقابر الشهداء . نشأ بينه وبين الشهداء شعور بالألفة ، اذ يراهم فى كل يوم يهبطون امامه ، ويغيبون داخل حفرة القبر .

فى المشرحة الخشبية شاهد جثة الشهيد . كان صغيرا وجسمه النحيل نظيفا تماما . كفنه عم محمود والسيدة العجوز التى تلازمه ، ولفوه بالعلم . قال العقيد : اربطه يا محمود حتى لا ينزلق الكفن . سيأخذونه بدون صندوق ! كان هذا شهيدا مسلما . ولكن مصطفى شاهد أيضا شهيدا مسيحيا يهيئونه للدفن . فى اللحظة الأخيرة سأل فارس : هل الشهيد مسلم أم مسيحى ؟ ولما تبين أنه مسيحى قامت مشكلة روتينية : لابد من صندوق . الصندوق عهدة وما

لم يوقع الضابط باستلامه ، اضطر الجميع الى العودة بالجثة والذهاب الى المستودع فى الصباح للحصول على صندوق . تقدم أحدهم بالحل السعيد : يوقع الضابط بأن الصندوق الحالى استهلك وتنتهى المشكلة !

تطير افكار مصطفى عن مشاهد الموت . فى الليلة الماضية شاهدهم فى التليفزيون وهم يعبرون ، والسد الترابى لخط بارليف ينهار ، والجنود يتدافعون ساحبين المدافع ، وحاملين على اكتافهم الـ آر .بى .جى . ولما اقتربت منهم الكاميرا ، رفعوا ايديهم بالبنادق وهم يلوحون ضاحكين . والعلم يرتفع ممتلئا بالريح على قمة الساتر الترابى .

واليوم ها هو يقف فى البهو ، والشهيد يرقد على النقالة ، فى كفنه الأبيض . يعلوه العلم . هرب مصطفى بأفكاره مستعيدا رقبة عايدة الطويلة الرائقة . رأى نفسه يرفع الشعر البنى القوى ، ويرى منابت الشعر الفاتح ، والزغب الأصفر ، الخفيف يهبط ناحية الظهر والكتفين المرتعشتين ، ثم يقبل الأذن والرقبة الخمرية ، غائصا بأصابعه فى لمة شعرها المجعد الكثيف . فى المقبرة رأى مصطفى السيارة اللورى العسكرية . كانت بدون سقف ، غاصة بجثث مكفنة بالأوفراولات . يرقدون بعضهم فوق بعض وقد تدلت الأذرع على سور العربة الخارجى . وحين انتهى الدفن طلبوا الى مصطفى ان يتسلم متروكات الشهيد عهدة ، ليوقع على الاستلام فيما بعد . كانت المتروكات : حافظة جلدية بها مائة وأربعة وتسعون قرشا ، وبطاقة شخصية ، وبعض الأوراق والصور ، وعلبة سجائر كليوباترا صغيرة مفتوحة وكيس نايلون به بقايا تعيين ميدان ، وساعة .

لدى العودة رأى مصطفى لوحة من الرخام الأبيض مكتوب عليها بخط اسود قديم : « بسم الله الرحمن الرحيم : تمَّ نقل رفات شهداء حرب فلسطين الى هذه البقعة الطاهرة من أرض الوطن باحتفال قومى مهيب ، اشتركت فيه جميع طوائف الأمة ، وممثلو دول الجامعة العربية ، وفى مقدمتهم اللواء اركان حرب محمد نجيب رئيس مجلس الوزراء وقائد ثورة الجيش المباركة ، وذلك يوم ٢٦ شعبان ١٣٧٢ الموافق ١٠ مايو ١٩٥٣ » .

فى المقبرة شاهد مصطفى أيضا عملية استخراج جثث سبعة قتلى من جنود العدو ، دفنت فى مقابر الشهداء . لم يدر أحد كيف دفن قتلى العدو فى مقابر الشهداء . لم يتسلم القسم المختص جثثهم ولم يسلموها لمقابر الشهداء . دهش الصول يونس حين علم أن قتلى العدو يدفنون فى مقابر الشهداء . جاءت اشارة من جهة ما تطلب العمل على تجهيز الجثث السبع ، ليتم تسليمها للمخابرات . كانت مفاوضات الكيلو ١٠١ على وشك البدء ، واشترط الصهاينة ان يتسلموا اسراهم وقتلاهم قبل بدء المفاوضات ، حضر الى المقبرة كثير من الضباط بين عمداء

وعقداء ومقدمين . وجاءت فصيلة من الشرطة العسكرية ترتدى الملابس المكوية الأنيقة ، وكأنهم من تشريفة الرئاسة . حملوا الصناديق ، بينما رفع الحرس بنادقهم سلام سلاح ، وقد انتصبوا صفين ، سار وسطهم عساكر الفصيلة الذين يحملون الصناديق ، حتى حطوها أمام الصهاينة .

تقدم الرواية هذه الواقعة الدالة فنتذكر كيف ووري جنود مصر الشجعان فى التراب ، دون احتفال ، ودون صناديق . وكيف ووري احدهم بصندوق احتالوا على الروتين كي يمنحوه اياه . وتذكر أيضا المتاع القليل الذى كان فى حوزة جندى يذل روحه فداءً للوطن : بضع صور وبضعة قروش وعلبة سجائر صغيرة وبقايا وجبة ميدان ، وساعة ، ونقول لأنفسنا : قد يكون هذا الشهيد واحدا من الذين عبروا القناة ورفعوا علم البلاد على التبة العالية ، ساحبين معهم المدافع ، وحاملين الرشاشات . فما أقل حظه من التكريم حيا وميتا . بعد مماته ، جعل المرافقون يحاولون التخلص من حضور مراسم دفن الشهيد ، يلقى الواحد منهم — وجميعهم من صغار الرتب — المهمة على غيره . بينما احتشد كبار الضباط المصريين ليودعوا جثث اعدائهم بكل مظاهر التكريم المعهودة فى حفلات التشريفات .

نذكر كذلك اللوحة الرخامية التى سجلت نقل رفات شهداء حرب فلسطين ، فتبرز امامنا الحقيقة الواقعة ، منذ عام ١٩٤٨ وشهداء مصر والعرب يبذلون دماءهم وأرواحهم فى سبيل تحرير الأرض التى يدوسها اليوم اعداؤهم الدائمون ، ويتلقون فى مقابل علوانهم كل مظاهر الحفاوة والتكريم .

والواقع ان واحدة من أبرز صفات : « نوبة رجوع » هى الاستخدام الفنى الذكى للصور الدالة . يدخل مصطفى مكتب الضابط فيسمع الأغانى الوطنية من اذاعة القاهرة ، وتحين منه التفاتة الى الصورتين المعلقتين ، على المكتب : الأولى صورة عبد الناصر بفوديه الأشيبين والثانية للسادات بملابسه العسكرية ، ضاحكا . وبينهما نتيجة كبيرة تشير الى تاريخ قديم . على الفور تقوم فى أذهاننا مقارنة بين الرجلين . عبد الناصر دافع حتى النفس الأخير عن تراب بلاده . والسادات ، تبرع — فى عرض مسرحى — لجولدا مائير — بعشرة كيلومترات من « عنده » فى محاولة لتخفيف وقع الثغرة على الشعب والجيش . ثم تبرع — من بعد — فى عرض جدى بجزء من ماء النيل عربونا للصداقة والسلام الدائم بين الصهاينة ومصر .

وتبرز صور أخرى . الشهداء يوارون التراب من غير كفن لائق . يكدسون كذبائح الجزارين فى اللورى العسكرى ، وكل ما يستر الواحد منهم : « الأوفراول » الخاص به ، بينما يظل عبد العظيم طوال صفحات بأكملها يلح على فارس أن يعطيه قطعة من الرخام الأبيض الذى يوضع

على مقابر الشهداء ، ليكتب عليها اسمه ويعلقها على باب بيته فى البلد .

ويجيء كيسنجر ، فتصوره الصحف امام حضارة عمرها خمسة آلاف عام ومن خلفه حائط الهرم الأكبر ، بعد ان انتهى لتوه من مشاهدة رقص الخيل بالمزمار البلدى . كان طه حسين قد مات قبل مجيئه بقليل ، وتأكدت انباء الثغرة التى فتحها الصهاينة بارشاد الأمريكيين : قيم خالدة تهان ويسخر مجدها الخالد فى خدمة الغزاة الجدد ، وتذوى قيم اخرى وتزول . ويبقى الرقص الشرقى على مائدة كسينجر فى حفلات الليل والرقص الشعبى امام أمجاد الماضى المهان .

فى محضر الموت تذكر مصطفى صديقته عايدة . كان ما بينهما حب عجيب . تحبه حبا حقيقيا ولكنها دائما تمسك بخناقه وتعنفه . فى أول الحرب قالت له أنها لا تصدق أن السادات يحارب . قال لها أن السادات لا يحارب ، انما الذى يحارب ويموت هم الجنود . قالت له متهكمة : هذا كلام انشاء . نحن فى الجامعة لا نعرف كيف نوصل ما حدث للطلبة . كنا نقول لهم ان السادات لن يحارب ، ونطالب بحرب شعبية لتصفية الاحتلال . فما رأيك انت وامثالك من الفنانين والشعراء الأساتذة الذين يسمونهم « نبض الوطن » ؟ السادات اعلن انه مستعد لأن يفتح القناة ويعترف بالحدود . والمفاوضات حدثت بالفعل بين مصر والاسرائيليين . فماذا نفعل الآن ؟ يقول لها مصطفى المرة بعد المرة أنه لايختلف معها فى شيء ، ولكن سرعان ما يرتفع صوتاهما ويترك كل منهما الآخر . . .

عايدة تحب مصطفى حبا حقيقيا ، ولكنها تتهمه بالسلبية والاستعلاء . قال لها مرة أنه اكبر منها سنا ويعرف أكثر مما تعرف . ففوجيء بها تصيح : كن اكثر صراحة وقل انك تقصد أنك رجل وانتى بنت . كنت أعرف أنك لاتختلف عن محمد الشربينى ، أبى . ويرتفع صوتاهما من جديد . ولكن مصطفى يقول لنفسه : انني أحبك ياعايدة . ليتك امتنعت عن الجدال احيانا ، وامتنعت أنا كذلك .

فى الأوتوبيس كانا محشورين بين الناس ، وكان هو واقفا خلفها . همس فى اذنها : انت متنكرة فى زى بنت ؟ كان لاحظ — للمرة الأولى — آثارا خفيفة للأحمر على شفتيها وخديها ، وعلا جفنيها الثقيلين كحل اسود يحبه . قالت له : أهو غزل يا مصطفى فى الأتوبيس ؟ ود لو يحتضنها اذ ذاك وفى التو . ولما أصابتها دوخة نزل الاثنان من السيارة ، وهى مستندة بكامل جسمها الضامر عليه . قالت له : بعد قليل أفيق . أنا احبك يا مصطفى .

وغابت عايدة عنه اسبوعا ثم عادت وهى تسب اباها محمد الشربينى . قالت : تصور : الرجل يحبسنى . اهرب من الحكومة ليحبسنى هو . أمى ظلت طول الأسبوع تبكى ، لكن أنا رفضت مجرد النظر اليه . اذ ذاك قبلها مصطفى وأحس كل منهما انه تحرر . أصبحت اعضاؤها

الخمرية الفارهة الطيعة ، ونهداها الصغيران ، وساقاها القويتان مبذولة كلها امامه وأمامها . وراح مصطفى يجوس للمرة الأولى فى حدائق جسدها ، يشم البرتقال والتمر حنة والقرنفل ، قابضاً بيديه على أبراج الجمر المتألقة . كل هذه الجنات والثمرات والقطوف أصبحت لهما وبلا حدود .

غير أن صفاء العلاقة بينهما لا يدوم ، سرعان ما أصبح كل منهما يخالف الآخر حتى فى المسائل الصغيرة . وراء هذا الخلاف الظاهرى كان ثمة ما هو أعمق منه . بعد توقيع اتفاقية فض الاشتباك ، جاءت ومعها أوراق عدة وبيانات . كان مصطفى قد اطلّع عليها قبل مجيئها فقال معلقا : ان هذه البيانات الممتلئة بالكلام الطيب والسليم لا يمكن أن تغير الواقع : السادات وقع الاتفاقية مع كيسنجر واسرائيل وانتهى الأمر . واضاف : لقد شاركت فى الحرب بشكل يجعلنى أخجل من مناقشة الأمر برمته ، الاتفاقية تعنى اننى بعد ان واريت الناس التراب ، أستدير الآن واستعد للتسريح من الخدمة . وكأن كل ما جرى لم يجر أصلا .

قالت عايدة : المهم الآن نتائج الاتفاقية وملاحقها السرية ، وما يجرى فى المنطقة بأسرها . مشاعرك لن تغير من الواقع شيئا . تغيير الواقع يكون فقط بمقاومته . وما لبثا أن انفجرا من جديد . مصطفى يرى أن كلامها فظ وغريب ، وهى تصيح ان المثقفين والكتاب كلهم اناس دون موقف أصلا . ثم اختطفت حقيبتها وركضت الى الخارج . من بعد ظلت تلمح دوما الى ضرورة ان يندفع الى موقف أوسع واكبر ، مع اناس حقيقيين يعملون ويقاومون . كتم مصطفى عنها انه لا يحب هذه الطريقة فى الكلام ، وان موقفه امر شخصى يهمه هو وحده .

وصف مصطفى هذا الموقف وهو يناجى نفسه . قال : لم يعد ثمة ما يقال . لم يعد هناك سوى ضجر يقبض الروح . قال ان امتناعه عن الكتابة حتى ذلك الوقت لم يكن له ما يبرره . شاهد المظاهرات التى اندلعت عام ٧٢ واشترك فى الاعتصام . وكان نصيبه فى الجهد الحربى ان يحمل من ماتوا فى الحرب الى قبورهم . فهل يستطيع ان يكتب بعد هذا ؟ كان ثمة يقين لديه ، أخذ يتأكد ، بأنه بعد المحاولة والاخفاق ، لن يكون فى امكانه غير محاولة استعادة ظلال ما جرى . ظلال لا تكف عن الهرب . هل يعود اذن الى مجرد الحديث عن موتاه الذين نقلهم الى مقابر الشهداء ؟ هل يظل يتحدث عن عايدة ، دون أن يقدر على استعادتها تماما ؟ الذين عبروا بالفعل ورفعوا العلم فوق الحصون على الجانب الآخر ، لم يكن هو بينهم . رآهم فقط فى التليفزيون . ونقلهم الى مقابرهم ، قبل ان يحكوا له عما قاموا به من انجاز . خمس فرق كاملة عبرت بالفعل ، واستقرت ستة عشر يوما بعد أن عزف البروجى نوبة علم . وها هوذا البروجى يعزف نوبتى صحيان ورجوع تحية للشهيد . ويجرى توقيع الاتفاقية الأولى للفصل بين القوات وينتهى الأمر .

لم يعد امامه الا ان يسلم مهماته العسكرية ويرتدى الملابس المدنية ثم يسافر الى بنى سويف ليعمل مدرسا بمدرسة « اهوة » الاعدادية للبنين . لقد انتهى كل شيء .

أما عايدة فهى على النقيض ، لا ترى داعيا للاستسلام . عايدة اكثر نضالية من مصطفى وأوضح تفكيرا . عرفت وهى بعد تلميذة فى التعليم الثانوى ، أن هناك اعتصاما فى ميدان التحرير بالليل . وكانت تسقطت اخبار اعتصام طلبة الجامعة ، والقبض على بعضهم . ارتدت ملابسها وقالت لأبيها أنها ذاهبة للاشتراك فى الاعتصام ، لم يرد عليها ، وفوجئت به ينهال ضربا على وجهها بيديه الاثنتين . كان ابوها نقابيا قديما ، دخل التنظيمات قبل سجنه بقليل فقط . وخرج من السجن مع المعتقلين عام ١٩٦٤ . وقرر ان يكتفى بأن يكون وطنيا فقط ، دون أن تكون له علاقة بالسياسة .

شعرت عايدة أن شيئا ما كان يربط بينها وبين أبيها قد انكسر بعد أن ضربها . اشتركت عايدة من بعد فى الحركات الطلابية عام ١٩٧٤ . وواجهت الغارة الوحشية التى قامت بها قوات الأمن القومى والمخابرات والمباحث ، بأجسادهم الضخمة والكرابيج والمطاوى والعصى الغليظة . كانت عايدة تتحدث عن مغزى الاتفاقية وأهدافها و الظروف التى أحاطت بها . بغتة تلقت ضربة كرباج على جانبى رأسها . احد الزبانية جذبها من شعرها وأوقعها أرضا وأخذ يسحلها . وتوالت الضربات على الطلبة . سقط رأفت ، ولم يبق الا خالد وأحمد . وقع احد الزبانية على الأرض ، فتقدم احدهما وأصاب ضابطا فى عينيه . أحست عايدة بالفرح. قدرت انها تستطيع الآن ان تتعرف على ذلك الذى سحلها كى تدق عظامه دقا ، وتمزق وجهه القذر ذا الشارب . غادر الزبانية المكان ، وامكن عايدة ان تهرب .

بإزاء هذا الوعى الواضح والقدرة العملية على النضال و التصدى ، كان ما يبديه مصطفى من آراء يبعث على الضيق . جلس ذات مرة مع اصدقائه فى شقة أحدهم . كان الأصدقاء يتابعون ما جاء فى احد الكتب عن الثغرة ودور الطيران الأمريكى فيها . فجأة أحس مصطفى بالضيق . شعر أن الصديقين اللذين يتحدثان انما كانا يبديان نوعا من التواطؤ بينهما يبدى احدهما رأيا ويرد الثانى بما يعزز رأى زميله . هتف قائلا : كلنا نعرف هذه المسائل . دور الامبريالية ، والطائرات وعشرات الشواهد الأخرى ، ولكن المسألة فى رأيه : هل كان ممكنا ان تتخذ الحرب مسارا آخر ، بينما ان هدف السادات كان واضحا من البداية . قصد بها مجرد الخروج من الأزمة بعد ان فشل فى اقناع اسرائيل وأمريكا بالحل السلمى ؟

ولما لاحظ مصطفى أن زميليه ينتظران منه مزيدا من الشرح ، شعر بالقلق والخجل ثم اردف ان المسألة طبعا ليست بكل هذه البساطة ولابد ان لها خفايا أخرى . ثم أخذ يذكر ـــ فجأة ـــ

مقاومة شعب السويس الباسلة لقوات الغزو الصهيونى ، التى كانت تهدف الى احتلال المدينة . فأوقفها افراد المقاومة الشعبية خارج حدود البلد . وكان بين المقاتلين أطفال فى سن الثانية عشرة اعتلوا الدبابات والقوا داخلها بخرق مغموسه فى الجاز المشتعل . وعاد يذكر ان اسرائيل فقدت بعد ١٤ اكتوبر تسعمائة دبابة ، أى نصف قواتها المدرعة ، ومائة وستين طائرة ، أى ثلث سلاح الطيران الصهيونى .

نلاحظ على الفور ان هذا الموقف المتأرجح بين الاعتراف بالانجاز والركون الى الاستسلام قد ابداه مصطفى فى حديثه سالف الذكر مع عايدة . هل كان داخل مصطفى رغبة دفينة فى الهرب من واقع يخشاه ولا يقدر على التصدى له ومحاولة تغييره ؟ هل أصابه ما أصاب والد عايدة ، حين خرج من السجن ، فقرر أن يلزم حدود الوطنية ، وأن يبتعد عن السياسة وأن يقاوم كل من يتصدون للكفاح العملى ؟ ايكون هذا هو موقف مصطفى . ان يظل فى اعماقه كارها للاستعمار وعملائه ، عاجزا عن الاعتراف بعجزه ، ضيق الصدر بمن هم اكثر ايجابية منه ، راغبا فى الهرب من العجز الى الكتابة عن الحرب ، رغم يقينه بأن ما سوف يكتبه ما هو الا بحث عن ظلال لأحداث لا تفتأ تهرب منه ؟

مهما فعل مصطفى فلن يقدر ابدا أن يمحو من ذاكرته صورة العلم ذى السيف والعصاتين الصغيرتين فى اقصى الطرف الأيمن ، ولا منظر نصب الشهيد الذى ينتصب بين الأشجار وعقود الزهور العطنة الضخمة . ولا هو يستطيع ان يسد أذنيه عن نوبة العلم للشهيد ونوبتى صحيان ورجوع للشهيد ، ولا أن ينسى أن زوج الهام صديقته قد فارقها عقب اسبوعين من زواجهما وركب احدى الدبابات ومات فى الدفرسوار بين حدائق البرتقال المحترقة . ورغم قول مصطفى فى آخر الرواية : لم يعد ثمة ما يقال ، فانه فى قرارة نفسه يشعر ان كثيرا جدا يمكن ان يقال ، لو هو شاء أن يقوله . غير أنه يكتم القول فى نفسه ، ويروح يرى عايدة فى وهمه ، ويردد : هل انتهى الأمر حقا ؟ ويعجب بشجاعة عايدة و« شجاعته » اذا استطاعا ان يمنعا نفسيهما من اللقاء . غير أن هذا لا يخلصه من طيف عايدة ، ولا من المعنى الذى تمثله ، ولا من الموقف الذى اتخذته وعجز هو عن مجاراتها فيه . يركب الأوتوبيس فيسمع صوت عايدة ، يصدر عن فتاة صغيرة السن ، ترتدى سروالا ضيقا فوق جاكت من الجلد الأسود محبوك على جسمها الملفوف . كان شعرها على هيئة ذيل حصان . وكانت بيضاء ، تتكلم بصوت عايدة ، مع سيدة تشبهها. كانت الفتاة تتحدث عن المظاهرات ، فلما رفعت اليه وجهها ، نظرت اليه نظرة خيل اليه انها طويلة ، ثم انحنت على السيدة وخفضت صوتها .

ساءل مصطفى عايدة فى الخيال : كيف يكون صوتك يا عايدة هو نفس صوت البنت

الصغيرة ؟ وماذا لو كانت البنت هى عايدة بالفعل ؟ ماذا كان يمكن ان يحدث بينه وبين عايدة اذ ذاك ؟ ويرد على سؤاله قائلا : كان كل منهما سوف يرى الآخر ويستديران ممعنين فى النأى . اما عايدة الجديدة فانه لم يستطع حتى مجرد القاء نظرة أخرى عليها ، لأن ازدحام الأوتوبيس حال دون ذلك .

يلفت النظر ان عايدة الجديدة تماثل عايدة القديمة فى الهيئة ، وفى اهتمامها بأمر المظاهرات . نقول لأنفسنا : الأجيال تتواصل ، ومن يقعد عن الكفاح لا يمنع الركب من مواصلة المسير .

لا تقتصر « نوبة رجوع » على عرض موضوعها الرئيسى : النضال ضد القمع الداخلى ، والحرب ضد العدوان الصهيونى ، بل تمد اهتمامها الى جوانب أخرى من الحياة ، تضىء الصورة تارة ، وتكملها تارة ثانية ، وتعلق عليها تارة ثالثة .

فى اشارة مقتضبة ، وعابرة ، تذكر عايدة ان عمها قد اغتصبها وهى بعد فى الثانية عشرة . كانت وحدها ودخلت تنام فاستيقظت على الطعنة الغائرة والدم . لا تذكر هذه الحادثة الا مرتين خلال الرواية ، رغم اثرها المدمر على الفتاة وعلينا بالتالى . كذلك تذكر عايدة فى سطور قليلة كيف ان اسرتها كانت مفككة . فى الصباح يخرج ابوها ولا يعود الا أول الليل ، وأخوها خالد يذهب الى الجامع قبل الصلاة بساعتين ، ويمكث به حتى قبيل الغداء . منذ بدأ دراسته الثانوية ، وهو يعتصم فى حجرته طول اليوم ، بعد العودة من المدرسة ، ولا يخرج الا للطعام . وقد حرص على ان يتجنب عايدة على وجه الخصوص ، فتجنبته هى أيضا ، ولعنت أباه .

اختها سحر ، التى تصغرها بعامين ، تعرفت فى كلية التجارة الى شاب اسمه هشام ، وأصبحت مجنونة به . ما ان يخرج خالد ، وتغيب الأم والأخت الصغرى فى المطبخ ، حتى تتسلل سحر الى الحمام بقطعة الحلاوة ، وتقضى ثلاث ساعات تتزين وتغنى بصوت عال ، وتتجاهل نداءات أمها المتكررة ، ثم تخرج من الحمام محمرة الوجه تغنى : « ياامه القمر ع الباب » خططت سحر لأن تتزوج من هشام ثم يرحلان الى السعودية للعمل ، حيث أبو هشام موجود ومستعد لأن يجد عملا لكليهما . شاهدت عايدة هشام هذا ، فوجدته شديد البلاهة ، وجهه أبيض وأسنانه بيضاء ، يسير مع سحر كالنائم وشعره الطويل يغطى جبهته . لا وجود للتواصل بين افراد البيت فيما عدا الأم واختها الصغرى رجاء .

من بين مشاغل الأم الكثيرة ، البحث عن قبر زوجها . تفشل فى العثور على المقبرة ، رغم البحث الواسع ، وتوكل المهمة الى مصطفى . الذى يطمئنها ، ويعدها بأن يطلب اجازة خاصة ويبحث عن القبر . حين يذهب يبحث عنه بالفعل تتشابه عليه المسالك والأشياء فيفشل فى البحث ولا يستطيع ان يقطع برأى فيما اذا كانت شواهد مقابر الأسرة مكتوبة أم ملساء .

وتذكر الرواية مأساة سليمان صديق مصطفى . زوجته تركته ومضت . كان احدهما يحب الآخر ، ولما أنجبا ابنتهما سحر ، تغيرت نادية ولم يستطع سليمان ان يقنعها بترك العمل والتفرغ للصغيرة . بعد عيد ميلاد سحر الأول ، وجد سليمان زوجته غير مقبلة عليه فى الفراش . ثم عاد ذات يوم من العمل فلم يجدها . لم يعرف من بعد أين ذهبت . الغريب أنها قبل زواجهما رفضت التعامل معه أولا ، ثم فوجىء بها تنقض عليه ذات مرة وتتحول الى فرس هائجة ، وتملى عليه ما ينبغى عليه أن يفعل ودأبت على هذا التسلط ، حتى امحت شخصيته تماما وفقد قدرته على المشاركة الايجابية . ثم انتقلت نادية من هذا التسلط الى التجاهل الفظيع . واخذت تنظر لزوجها كأنها لم تره من بعد . وقبل ان يمر شهر تزوجت من صاحب محل للملابس النسائية ، وفقد اثرها .

وتورد الرواية جوانب من الأحداث الخاصة بالعسكر . شكوى عم عبده الدائمة من تخطيه فى الترقية الى رتبة « مساعد أول » رغم ان زملاءه فى الدفعة أصبحوا الآن ضباط شرف . ان عم عبده لا يكف عن كتابة الشكاوى ، ولا عن تعقيد الأمور فى وجه كل من يلجأ اليه لاتمام معاملاته من صولات وضباط . وهو بمناسبة نصر أكتوبر ، سيكتب شكوى اخرى الى رئيس الأركان رأسا ، وهو يرجو لها ان تجاب ، فما كل يوم ينتصر الجيش فى المعارك ، وليس هو دون الرائد شعراوى الذى ينال ترقية استثنائية فى كل حرب منذ ١٩٤٨ دون أن يخدم شهرا واحدا فى أية جبهة ، الا يحق لعم عبده ان يقابل خطيب ابنته وهو فى بدلة « البوشرت » ذات رتب الملازم ؟ اليس مسموحا لأولاده فى المدارس ان يقولوا عند السؤال عن مهنة ابيهم : « ضابط فى الجيش » »

والصول على ، المتزوج من ثلاث نساء : واحدة فى شارع الترعة البولاية والثانية فى الرويعى والثالثة ، حبيبة قلبه ، فى المطرية . اسمها مريم . رآها الصول الجوهرى . شكلها مثل الخواجات . أجر لها شقة فى المطرية بجوار شقيقها الذى يتاجر فى المخدرات . يقول الصول الجوهرى ، ان على ينام مع ثلاث نسوان فى اليوم الواحد . كان اومباشيا فى حرب اليمن سنتين ونصفاً ، وفى حرب ٦٧ كان مريضا بالسل ، ومقيما بالمستشفى ، وليس على ذمته سوى امرأتين وثمانية أولاد . قبل حرب أكتوبر كان يتاجر فى أجهزة التسجيل والراديو ، أو يحمل حقيبة بها اقمشة وقمصان وملابس داخلية نسائية ، أو خلاط أو زجاجة ويسكى ملفوفة . كان يبيع هذه الأشياء فى الفرع أو الادارة . ولكنه حين يجد الجد كان يسهر فى النوبتجية ولو الى الثالثة صباحا ثم يطير عائدا إلى نسائه !

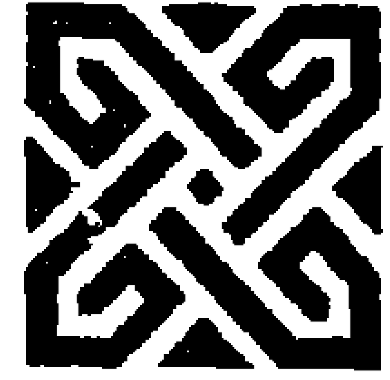
بمثل هذه الاشارات والحكايات الجانبية يتعمق مضمون « نوبة رجوع » وتبرز رسالتها

الانسانية المتمثلة فى مراقبة البشر وتصويرهم فى حالى صعودهم وهبوطهم ، تصويرا موضوعيا لايمجد ولا يستهين، وإنما تبطنه روح من التعاطف تدفعنا الى الفهم والتقدير، وتبرز من خلاله صورة الوطن وآلامه الكثيرة ، وآماله المخيبة ، وصمود بعض من المناضلين فى سبيله .

لعل هذه الرواية أن تكون واحدة من أخلص الروايات وأكثرها وفاء بحق الوطن والأفراد ، دون زعيق ، أو قرع طبول ، أو صوت نفير . إنها فقط تصور ما بين نوبات الصحيان والرجوع ، وما بين النضال والقعود ، فتبلغنا رسالتها من أقرب سبيل .

الصياد واليمام

إبراهيم عبد المجيد



لو يعود اليمام للظهور لانفك الطلسم الذى يبسط شعاعه الأسود على حياة الصياد . ولكنه لا يعود ، أبدا لا يعود ، خمس سنوات كاملة ظل مختفيا ، يحمل الصياد مخلاته وبندقيته ويذهب يبحث عنه ، لايتركه الأمل أبدا فى أن يلقاه . ولا يتحقق هذا الأمل ولو مرة واحدة .

ومن ثم تتصل رحلة البحث . وتتوالى مظاهر الاختفاء فى حياة الصياد ، قبل اليمام أمه « الجنية الحسناء » التى رآها أبوه أول مرة جالسة على حافة ترعة فى منتصف الليل ، عارية ورجلاها فى الماء تختفيان . فيخرج الصياد يبحث عنها ، وكله رجاء فى أن يدله سكان تحت الماء عنها — إن كانت عادت الى مسكنها تحت البحر — أو يعيدوه للشاطيء ويقولوا له كيف يجدها بسلام . وبعد الأم يختفى اليمام . ويختفى كشك قمر ، وقمر نفسها ، والشرطى الذى ظل خمس عشرة سنة قابعا فى كشكه ، وتختفى كذلك هند ، جامعة حبوب القمح من أرصفة السكة الحديد ، ويختفى العجوز الذى وجده الصياد تحت الشجرة العتيقة ، ويختفى كذلك صديقه الذى علمه صيد اليمام ، ثم تركه ، لا يعلم الصياد أين ذهب .

هذه أرض مسحورة . يسكنها ناس موجودون وغير موجودين . لهم مظهر الواقع ، ومخبر الحلم . الرواية ذاتها ، تقبع فى مكان مابين الواقع والحلم . ثلاثة أرباعها ، أو يزيد ، يدور فى أرض الحلم ، والباقى ينظر للواقع من مسافة ، متأملا متفكرا ، ينظر إليه عرضا . مثلما يحدث حين يرى الصياد أربعة شبان يحيطون بامرأة مقعية بين أرجلهم ، عارية تضم ساقيها الى صدرها وتلف ذراعيها حولهما وترتجف . أراد ان يقول شيئا ففاجأته المرأة بسباب بذىء من قلب مجروح وآدمية مهدرة . أو حين يلقى الصياد نظرة عابرة فيجد الصعايدة حمالين دائما حمالون رغم مايلقون من عنت وفقر وسوء مصير ، أو يستفزه حظ عمال البناء أو تذكر أمامه — عرضا —

حرب اليمن .

مشغول الصياد دائما بما وراء الواقع ، حتى أنه لايسأل المقربين إليه عن اسمائهم . لا يعرف حتى اسم زوجته ، لا يعرف من الاسكندرية الا الأرصفة التى يجيئها كل يوم سعيا وراء اليمام . لم ينزل بحرها أبدا . هبط المدينة بحثا عن الجنية الجميلة الوديعة : أمه . فلم يجدها . أحب الاسكندرية ، ولم يدر أنه وصلها فى زمن للحزن فيه بساط طائر وبساط مفروش .

وتعرف الى الشرطى القابع فى كشكه خمس عشرة سنة . أهو حقيقة هذا الشرطى أم وهم ؟ هل لاقاه الصياد فعلا أم حلم أنه موجود ؟ ينسب الشرطى للصياد اشياء ينكرها هذا الأخير . قال إنه رأى معه ذات مرة طفلا . ذهب الطفل يأتى بيمامة سقطت بين القضبان فدهمه قطار سريع . تركه الصياد ميتا ومشى يصطاد اليمام ، سمع الصياد حكاية الشرطى فأحس أنه يسقط فى بئر سحيقة . كأنما موت الطفل ذنب علقه الشرطى فى رقبته .

يتكرر فقد الطفل بسبب اليمام فى حكاية العجوز للصياد . كان للعجوز ولد يصطاد اليمام هو الآخر . اصاب يمامة أسفل سقف الرصيف فطارت ووقفت فوق عارضة ولم تسقط . صعد الولد ليأتى بها فسقط ومات !

وبسبب اليمام أيضا يموت ابن الصياد . ذلك الذى يظل يرجو أباه أن يأخذه معه للصيد : يصطاد الأب اليمام ، ويصطاد الولد العصافير . تحتج الزوجة فى كل مرة وتستبقى الولد . تقول إن الولد صار يكره المدرسة . وان صحته لا تتحمل البرد أو الحر . ولكن الصياد يأخذ ولده عنوة ثم تفاجأ بالزوجة تبكى ، إذ يخرج زوجها للصيد . تسأله : من يدفن الولد ؟ ولكن الصياد يخرج ويتركها تصك صدرها وتلطم خديها .

هل كان الشرطى على حق فيما قال من رؤياه لطفل مع الصياد . طفل دهمه قطار فتركه الصياد ميتا ومضى يصطاد ؟ هل موت الطفل ذنب اقترفه الأب ففسدت من بعده الحياة ؟

حلت عليه اللعنة ، فاختفى اليمام خمس سنوات متصلة ، وأصاب الصياد عجز . فما عاد قادرا على الصيد ، حتى بعد ان تظهر آخر الأمر يمامة تخايله وتناوشه فلا يستطيع أن يصيبها ؟

عجز الصياد هذا نابع من عجز آخر أكبر . فشل فى أن يحب أحدا على الاطلاق ، زوجته مثلا ، زوجته تقدم بلسما لجراحه . ولكنه يعرض عن الشفاء ويفضل الانفجار ، سمع صوتها مرة فى الحمام قال لنفسه : أحبها لكن لا أعرف ماذا يباعد بيننا ، يحس أن بوسعه أن يقترب منها ، وتعود الأيام الأولى وبهجتها . ولكنه عاجز عن الاقتراب . يُمِضُّهُ بازائها حب وكره مجتمعان .

هو كذلك لا يحب قمر . ظل خمس عشرة سنة ينظر إليها . وبعد هذه السنين الطويلة أدرك أنه ينظر اليها ولا يراها ، لا يرى الا اليمام . لا يحس نحوها برغبة ودٌّ فقط لو نام فوق صدرها المرتفع

ليرتاح . ولكن الراحة تستعصى على صدرها . امرأة بلا أصول أو فروع . وهو يبكى الحنان الذى ضاع ، حنان أمه التى اختفت فأحس أن أمامه رحلة طويلة من الضنى والشوق .

يظل الصياد طول الرواية يشكو جرح الاختفاء . اختفاء أمه . فى المحل الأول . وصديقه من بعد . يبحث عن الأم فى كل شىء . ويجلس تحت شجرة توت لها جاذبية سرية : تتحدث اليه بحنين دافق . يحس تحتها ان الدنيا أم عطوف . شجرة عجيبة داخلها بالشتاء شمس ، وبالصيف قمر .

هذا مكان مسحور قاده إليه صديقه الذى اختفى . حتى بعد اختفاء اليمام ، لم يعد الصياد قادرا على ترك المكان . ما الذى يشده اليه ؟ قمر ؟ الشرطى ؟ هند جامعة الحبوب ؟ العجوز ؟ شجرة التوت والأكشاك الثلاثة ؟ كل هذا مجتمعا ؟

غير أن هذا كله اختفى مرة واحدة ، اختفى ذات ليلة . ولم يبق الا الصياد وعجزه . هل نربط بين اختفاء الأم وشعور الصياد بأنه قد اضاع العلم والعائلة والوطن ؟

أدرك ذات مرة انه كان يمكن أن يكون له تاريخ . ولكنه وقد اضاع كل هذا يتساءل : أى ظلام وأى نور ممكن ؟ هو مع ذلك يريد أن يسحق الماضى ، يمسك السماء بقبضته ويسحقها فى الأرض ، كان يهتف : « لن أموت أبدا . لن يقتلنى شىء » وكان يقول : « صياد اليمام لا يهرم . هو طيف ليل فى نهار مشتعل . غبى من يظن ان سنوات الخواء الخمس هم ثقيل . وغبى أيضا من يسأله كم يمامه اصطاد . قد أضاعت قمر وهند والشرطى أيامهم فى إحصاء ما جمعوا .

حين تظهر اليمامة ويصوب الصياد بندقيته فى الفضاء وراء صوت جناحيها ثم يطلق حبة الرش ، تأخذ الغيوم تنجاب أمام عينيه . يدرك أن زوجته جرح شقه هو ، وحاولت هى علاجه بقوة لا تملكها الملائكة ، يقرر أن يعود من أقرب باب الى زوجته ليسكب على صدرها بحار حنان سحرية . يجلس معها فى سطح البيت يغازلان النجوم ، واصلا ايامه بأيام كان يحلم بأن يراها . يقرر أن يسألها عن اسمها بشجاعة وان يصحبها الى شاطىء المكس القريب ، يتفرجان على الرجال والنساء والأطفال يسبحون ، ويعودان للجيران ليحكيا حكاية سمك الليل الذى هاجه ضوء الساحل ، ويمضيان فى الحديث ، حتى ولو لم يصدقهما أحد ، يتمنى الصياد لو فعل ذلك .

وبهذا تنتهى رحلة بحث الصياد عن حنان الأم . يجد هذه الأم وحنانها فى الزوجة الوادعة التى أحبته وصبرت على نزواته ، وانتظرته حتى عاد إليها نادما ، مدركا قيمة ما أوشك أن يضيع منه .

كما قلت آنفا ، هذه رواية تمد أكثر جسدها فى أرض الأحلام . والرؤى . والخوارق . وتشتغل أيضا بالرمز . الرمز الرئيسى فيها هو مايعنيه موت الأب ، واختفاء الأم ، بعد أن يحاول العم

اغتصابها لنفسه ، والزواج منها قهرا ، فيقتله الولد ، ثم يمضي هائما على وجهه بحثا عن المستحيل : المرأة التي اختفت ، وكانت دنياه كلها .

هذا رمز يحمل خبيئا سياسيا واضحا ، أو هو كذلك فى نظرى . من جديد يقتل كلوديوس أخاه ويتزوج زوجته ، ويقف بينهما ابن حائر . مع فروق بالطبع . كلوديوس المصرى يريد الزواج من أرملة أخيه فلا يفلح . ثم يلتقى كلوديوس الدينمركى مع زميله المصرى فى قتل الابن لكل منهما . كلوديوس المصرى يشرد فى الأرض بحثا عن الذى ضاع . والذى ضاع منه هو علم وعائلة ووطن . ضاعت منه أيضا قدرته على الفعل ودخل عالما غريبا مسحورا ، خايلته فيه الأطياف تنسب إليه قدرات مستحيلة : جر يوما عربة سكة حديد بمفرده ، وتشبهه بجبار مستحيل جر هو الآخر عربة سكة حديد بجزء صغير من جسده ! وروت له تلك الأطياف قصة مستحيلة عن سائق قطار هندى قاد قطارا من الاسكندرية حتى كفر الزيات ونار القنابل المتواصلة تأكل عربات القطار أكلا .

وعيرته الأشباح بعجزه : عجزه عن الصيد وعن إحصاء ما اصطاد قبل العجز . وجعلت فى مواجهة عجزه قدرتها الخارقة فى الاحصاء . هند جامعة الحبوب تزعم أنها تحصى كل حبة جمعتها على مدى السنين ، وقمر تعرف تماما عدد أكواب الشاى التى صنعتها على مدى خمس عشرة سنة . والشرط أحصى الطلقات التى صرفت له طوال المدة نفسها .

الصياد وحده لايحصى شيئا ، لا يشغله إلا الهدف ، فيجرى وراءه غير مبال بشىء آخر : ان يصطاد ولو عصفورة حتى ينفك الطلسم . فحين « تتقطر » له يمامة فى زمن الجفاف المريع ذى الأعوام الخمسة ، يدرك انه — وحده — كان على حق ، وأن الأطياف مخادعة ومضللة . ويدرك كذلك أن الوصول الى الهدف الأصلى — أمه الضائعة — أمر مستحيل ، فيلتفت الى الحل البديل — الزوجة — الأم التى أساء اليها وأحبته وعصف بقلبها فلم تتخل عنه ، وظلت صابرة تنتظر .

« الصياد واليمام » قراءة ممتعة ، ودفع بالرواية العربية الى طريق جديد يقلص حجم الواقع فى سبيل ارتياد مناطق من النفس كانت فى غير متناول سهل للرواية التقليدية . ولولا ان ابراهيم عبد المجيد يبالغ شيئا ما فى اختزان المعانى ، وخلط الأزمنة ، لصارت « الصياد واليمام » اكثر إمتاعا ، دون أن تفقد خاصية الغموض المحبب الذى نجده فى لوحات المدرسة الانطباعية فى حقل الفن التشكيلى . غموض يغيظ ، يسلب المتفرج راحته ويعيره بعجزه عن الالتقاط ، ولكنه غموض لذيذ وغنى وحافز للتفكير ومن ثم للتأثر والانطباع .

أصوات

سليمان فياض



مأمور ناحية : « الدراويش » يبدو أنه مثقف . ما ان يبلغه نبأ وفاة الشابة الفرنسية الرقيقة سيمون بسبب تدخل جاهل وحاقد من بضع من نسوة الناحية ، حتى يشعر لتوه بالعار . بالفقد الأليم بالدونية . بالانتماء الى مجتمع بربرى ، يحقد على كل ما هو جميل ، ويسعى الى تدميره . يحضره على الفور ما وقع لمحسن فى : « عصفور من الشرق » واسماعيل فى : « قنديل أم هاشم » : صدام مروع بين ثقافتين ، وعقليتين ، وسلمين من سلام القيم متباينين أشد التباين .

فى حالة اسماعيل كانت الحضارة الغربية تمسك بشدة بخناقه ، وتثير فى نفسه دوامة هائلة من الأحاسيس والانفعالات ، تعلو حتى تصبح تقريعا مريرا لشعب مصر ، الذى ارتضى ان يعيش كل هذا الكم من الفقر والقذارة والسلبية والتواصل والتعلق الغبى بقيم الماضى دون تفحص أو مقاومة ، أو حتى رغبة فى التغيير .

فى قمة هذا الانفعال الغاضب يصف اسماعيل فى « قنديل أم هاشم » شعبه المصرى بأنه شعب اقرع ، جاهل ، قذر ، متعلق بالخرافات . ويقوم بينه وبين هذا الشعب صراع طويل ومرير ، انتهى ، لحسن حظ اسماعيل ، بأن وجد طريقا للعيش فى بلده ومع ناسه ، بعد أن قيضت له بصيرته ان وراء القذارة والفقر والتواكل انسانية عميقة دافئة . ومن ثم اقام اسماعيل صرح حياته على التوفيق الخلاق بين حضارة الغرب المادية وقيمها الروحية وحضارة الشرق بتاريخها الضارب فى القدم ، الحاضر دائما فى نفوس أهلها . ومن ثم سكن الصراع .

اما ، توفيق الحكيم ، الذى كتب لصديقه الفرنسى اندريه يقول : ان الباخرة التى حملته الى مصر انما حملت جثة هامدة ، فقد اخذ بعد عام من عودته يتنازل عن اغلب افكاره وآماله ، وتعلم أن يصانع فى امور كثيرة ، ويختلط بطوائف من الناس ما كان يحسب انه يستطيع الحياة

بينهم ، ثم يلجأ آخر النهار الى منطقة رفيعة فى نفسه لا يصل اليها أحد يسمع فيها « عصفور النار » لسترافينسكى .

انكسر المثقف المتوجه الى حضارة الغرب وحاصره الواقع المحيط وجعله يعيش لاجئا فى داخل نفسه ، هرب اليها بدينه الفنى الرفيع . أو هذا ما ظنه توفيق الحكيم متجاهلا ان بينه وبين الوطن الذى عاد اليه كثيراً جدا من الوشائج ، هى أقوى بكثير من « بوز » المثقف الذى تغرب فى البلاد المتقدمة ، ثم عاد ليكتوى بنيران التخلف ويشقى بتحيزاته .

فى : « اصوات » سليمان فياض يقع الصدام المروع ذاته ، وانما بطريقة عكسية . الغرب هو الذى يفد الى الشرق ويحتك به ، ويقاسى من ويلات هذا الاحتكاك . ذلك ان الوافد الغربى ، الزوجة الشابة سيمون ، تتعامل مع البيئة الجديدة التى انتقلت اليها مؤقتا تعاملا سطحيا غير ذى فطنة ، فهى تنظر الى أهل « الدراويش » نظرة السائح الذى يلقى نظرة عجلى على واقعه الجديد ، ويلتقط صورا ، ويؤدى خدمات ويؤذى ضميره ما يجده حوله من فقر مريع وتخلف يسعى قدر استطاعته للتخفيف منهما ، ولكنه لا يحاول ابدا الدخول فى علاقة جدلية مع هذا الواقع .

تتجاهل سيمون الوضع الجديد ، وتتصرف تماما كما كانت تتصرف فى باريس مع زوجها حامد البحيرى . الملابس القصيرة التى تكشف عن أجزاء من جسدها يجد القرويون عيبا كبيرا فى أن تظهر . الجلوس فى المقاهى وشرب الخمر على قارعة الطريق ، الرقص مع زوجها ، حتى ولو تم داخل البيت . ثم : عدم التخلص من الشعر الزائد فى ابطيها ، الذى يظهر فى كل مرة ترفع فيها ذراعيها .

غير أن اكثر ما يحمل اهل « الدراويش » على الاحتجاج الممزوج بكثير من الاعجاب المكبوت ، هو ان سيمون ، التى لا جمال ظاهر لها ، تتمتع بشخصية كثيرة الحيوية متكبرة ومترفعة على ما يبدو فيها من خفة ومرح وبساطة .

يشعر الجميع انها تنتمى الى مجتمع ارقى ، الى جنس أرقى ، فتحقد عليها النساء ويشتهيها الرجال فى السر والعلن ، وان كانوا يعلمون علما أكيدا أنها أبعد من أن ينالها أحد . يشعر أحمد ، شقيق حامد البحيرى ، العائد الى قريته بعد غياب طويل فى باريس ، مصطحبا زوجته سيمون ، يشعر أحمد انه قد احب سيمون من كل قلبه ، وأنه لم يحب أحدا من قبلها ، وأن زوجته زينب تزوجته ، لكنها لم تحبه أبدا .

ويرى العمدة سيمون لأول مرة ، لدى وصولها مع زوجها فى سيارته . جاءت الفرنسية الشابة الى الدوار بمظهر ابهج العمدة كذكر واغضبه كرجل . ظهرها عار حتى المنتصف ، وشعرها

مرفوع عن عنقها الطويل الذى يشبه عنق الغزال ، وثدياها بارزان ، ناهدان ، والنقرة بينهما مفتوحة وفاضحة ، وذيل فستانها الأحمر قصير . رآها شباب الدراويش والبلاد المجاورة ، فأخذوا يتصايحون خارج الدوار كالمجانين . خشي العمدة ان تفسد سيمون على الرجال نساءهم المحجبات ، وبناتهم العفيفات . ولكنه عجز عن أن يفعل شيئا . فهذه تقاليد بلادها ، وهي بعدُ ضيفة وزوجة واحد من الدراويش . غير أنه — فى نفسه — احتقر زوجها حامد واسماه : « النطع » . وفى الليل حين جاءته زوجته متزينة على غير العادة ومتعطرة اكثر من ليلة الزفاف ، وبعد خمس وعشرين سنة من الزواج ، صاح بها العمدة ، وادار لها ظهره . أحس — فى تلك اللحظة — انها بقرة . مجرد بقرة . وراح يعالج النوم وطيفا حامد وسيمون يحومان حوله راح يستعيذ بالله من الفتنة بسيمون وبلاد الفرنسيس التى تخايل عينه كجنة عدن .

وأحدث مجيء حامد وسيمون فتنة فى بيت أخيه أحمد . تبين لأحمد أن زوجته مفتونة بحامد ، وأنها تنافس سيمون عليه . واعرضت زينب عن زوجها فى الفراش ، وحين افلح ذات مرة فى أن يروضها شعر أنها باردة كالبلاط . أما أم حامد فقد أصابها خبل فوق خبلها المعتاد . كانت تنبطح على بطنها فوق سطح الدار ، وتدلى رأسها من حافة السقف ، وتروح تنادى كل من يسير فى الطريق ، تدعوه الى ان يدخل ليأكل ، فعندها اكل كثير حتى انها ترميه للدجاج الذى تعود اللحم فاصيب بالسعار ، وسوف يأكل بعضه البعض ذات يوم عندما تعود حليمة لعادتها القديمة : الفقر وقصر ذات اليد .

كانت الأم تصيح بهذا فى صوت مرتفع ، ونبهها أحمد الى ضرورة ان تكف عن الصياح ، وإلا اعتبرتها سيمون مجنونة ، فصاحت الأم : انا مجنونة يا سيمون طيب . والله لأفرجها . ان تركتها تقعد فى بيتى . ان تركته يبقى معها دقيقة واحدة .

أما حامد فقد اربك أخاه أحمد وأطار صوابه . ورغم ان قدره ارتفع فى الدراويش وفى البندر ، وراجت دكانته ، فقد ظل يشعر بأن حامد ليس أخاه حقا . شعر بالغيرة من حامد وماله ، وقارن بين حالة حامد وحاله هو ، وبين سيمون وزوجته ، فدفعته الغيرة الى أن يحلم بأنه يقتل حامد ، شاعرا بالسعادة .

و اختير محمود بن المتسى ، المرشح لدخول كلية الطب ، رفيقا لسيمون يصاحبها فى تنقلاتها وسياحتها فى الناحية ، لأنه الوحيد الذى يتحدث الفرنسية والانجليزية ، فدخل وإياها فى تعارف وثيق . طلبت ذات مرة ان تزور السجن الذى سجن فيه الأسير الفرنسى لويس التاسع . وفى طريق العودة مالت سيمون على محمود وسألته : هل حقا ان السجان صبيح قد خصى الملك ؟ . فقال محرجا : انه لا يعرف . واراد ان يحدثها عن الآلاف السبعة عشر الذين قتلوا بأيدى قومها

فى المعركة ، وفى الدراويش وحدها ، وعن النساء اللاتى قدت بطونهن لمعرفة ما يحملن من ذكور أو إناث ، وعن القرى التى أبيدت بأسرها على يد جيش نابليون ، ولكنه لم يفعل .

لم يلحظ فى وجهها أو صوتها ما يدل على حقد أو سخرية . غير أن ذكرى الاحتلال الفرنسى مريرة ، وحاضرة فى اذهان الكثيرين من أهل الدراويش من المتعلمين ، الذين ذكروا أمام العمدة الحروب القديمة بين الدراويش والفرنسيين وقال العمدة اذ ذاك نقلا عن جده وجدته ان الفرنسيين اقاموا فى الدراويش سنين وعاشروا نساءها فى الحرام ، وبعضهم اسلم وتزوج من مسلمات . وهذا هو السر فى البياض الشاهق فى وجوه بنات ونساء القرية ، وفى العيون الملونة بين أولاد الدراويش والنواحى المحيطة بها ، من فارسكور حتى عزبة البرج ، ومن بورسعيد حتى الاسكندرية .

وقع محمود هو الآخر فى هوى سيمون . واذ جعل يراقبها وهى تسبح فى النهر ، استيقظت كل خلايا جسده ، ولعب الهواء برأسه ، لكنه لم يتجاوز حد التخيل . استسلم لأحلامه بها ومعها فى صمت رهيب .

جعلت الغيوم السوداء تتجمع فى ناحية الدراويش ، منذرة بالمأساة الوشيكة الوقوع . عاد حامد البحيرى من فرنسا وهو أوروبى العقلية . ظن أن أهل الدراويش سوف يعاملون سيمون كما يعاملها أهل فرنسا . لا هو فطن ، ولا هى الى الفروق العميقة التى تفصل بين الزوجين من ناحية ، وأقاربه وأهل قريته من ناحية أخرى .

حين رأى حامد قريته لأول مرة بعد غياب السنين ، شعر — إلى جوار الغيظ والقرف بالحب و الراحة حلم العودة هو الذى شده الى القرية الفقيرة التى خرج منها قبل سنوات يبحث عن الرزق ، ويشتغل بكل ما تأتى له من أعمال صغيرة ، وحقيرة ، حتى انتهى به المطاف الى باريس ، فسرعان ما انتقل من عمل الأجير الى مركز المالك الذى يمتلك فندقا ومطاعم . وأراد ان يعود الى بلده ، ربما ليرى أهلها كم هو ناجح ، وسعيد ، وليشعر بشعور الغازى المنتصر ، هو الذى خرج منها متهما بسرقة خمسة قروش ، فصمم ان يتركها ويستقبل العالم الواسع . واذ احاط الناس به وبسيارته الفارهة ، وبزوجته سليلة الخواجات كابرا عن كابرا ، ودَّ لو قدم أحد من أهل البلد لزوجته باقة من الورد أو حتى عوداً أخضر من أرضنا الطيبة .

أما سيمون فما شعرت قط بأن ايا من اعمالها وتصرفاتها قد تثير حفيظة أهل القرية وأهل زوجها . فمضت ترقص ، وتلبس السراويل القصيرة ، وتتحدث الى كل الناس فى بساطة ، وتشرب الخمر فى المقاهى ، وتكلم الفلاحين فى غيطانهم ، شاعرة أن هذا كله أمر طبيعى .

لاحظت بالطبع طمع أحمد فيها ، وردته على اعقابه قائلة : « عيب » . وتبينت ان زوجته زينب تطارد زوجها حامد ، ولكنها لم تفطن الى أن جمعا من النساء فى مقدمتهن زينب وأم حامد

قد ساءتهن اعمال الخواجاية ، وحفزتهن الى تصحيح الوضع الشاذ ، الشائن ــ الذى تمثله . وكانت زينب على رأس الثائرات ، لأسباب أخرى شخصية . قالت زينب وهى تقارن حالها بحال سيمون : عينى علينا . لم نذهب الى مدرسة ولم نحقق رغباتنا ولو مرة واحدة وها هى الواحدة منا تعيش مثل الميتة ، ميسورة كانت أو محرومة .

واحتج غيرها من النساء على عمل سيمون : صحفية ، وزعموا انها ستكتب الى صحف فرنسا وتفضح البلد . وقالت ام خليل : هل هى مسيحية مثل الخواجات ، أم انها اسلمت ؟ والولد و البنت اللذان انجبتهما ، هل هما مسلمان مثل الأب ، أم مسيحيان مثل الأم ؟

وفى العصر جاءت نفيسه ، قابلة البلدة وأثارت مسألة شائكة : سيمون لا تتخلص من شعرها الزائد فى الابطين وبين الفخذين . وهى الى هذا لم تختتن ، وفى هذا بلاء كبير ، يجعلها عارمة الشهوة دائما ، حتى لتستسلم الى رجال أُخر غير زوجها . وقررت النسوة فى اجتماع ضمهن ، ان يقمن بازالة الشعر و الختان معا ، ليصلحن من شأن الزوجة الخارجة عن الاعراف .

انقلب الوضع الذى خبرناه فى « قنديل أم هاشم » و « عصفور من الشرق » . بدلا من أن يعربد الوافد من بلاد الحضارة ، ويستبد بأرواح الناس وعقولهم ، ويحملهم على ان يغيروا من عاداتهم وتقاليدهم ، يتقدم أهل العرف والتقاليد ليفرضوا مقتضيات الأعراف والمواضعات فرضا ، وبحد الموسى . ومن ثم تكون المأساة المضحكة المبكية التى تودى بحياة سيمون ، بعد ان نزفت الدم حتى ماتت ، حين اقدمت القابلة نفيسة بتشجيع من ام حامد وزينب وبقية المجتمعات على إجراء الختان لسيمون المخدرة ، الفاقدة الوعى .

فى هذا المشهد النهائى تتفجر عواطف البشر المتناقضة وتسيل كالدم الأحمر الذى فاض من جسد سيمون . تأخذ ام حامد سيمون فى حضنها ، وتقول : ياحبيبتى يا بنتى .. جئت من بلادك ، بقدميك ، لعذابك . كانت الأم قد أحبت زوجة ابنها رغم اعتراضها الظاهرى على تصرفاتها . احبتها واحبت ابنها وبنتها ، وطلبت ان توضع صورتهما فى اطار. ولدى وقوع الجريمة تنفجر العجوز متهمة زينب بأنها كانت تغار من سيمون ، هى ونفيسه وأم خليل . وتتمنى ان ينزل بها داء النقطة حتى تتخلص من الفضيحة . وتروح تردد : يا فضيحتك يا ستيته . يافضيحتك يا حامد .

ثمة شعور يتخلص الينا بأن جريمة بشعة قد تمت دون داع . جريمة راح ضحيتها البراءة والغفلة عن قوى الشر ، مثلما راحت ديدمونة فى « عطيل » . جريمة بلا حافز قوى ، ارتكبت دون قصد مسبق . وهذا هو الموت المجانى الذى يكون وقعه فى النفس اشد ايلاما وتعذيبا من الموت

المخطط .

يزيد من وقع الجريمة علينا ان « أصوات » رواية بدت على شكل طُرْفه ، وكان من الممكن ان تتحول الى كوميديا لذيذة . ولكن القدر لا يأبه بالمقدمات ، ولا يهمه ان يسرنا فى المحل الأول ، اذا ما قرر أن يسدد ضربته .

وتترك الفاجعة وراءها حرجا شديدا ، واسئلة واتهامات ، وفضيحة تهدد بالانتشار . ماذا يقول المأمور للناس ؟ ماذا يقول الطبيب فى وصف ما حدث ؟ على شدة الألم الذى يحسه المأمور ، وقد كان واحداً من المعجبين بسيمون ، فان عليه ان يكفى على الخبر ماجورا . عليه ان يمنع وصول الخبر الى المسئولين . سيتكفل بوسائل القمع التى تحت تصرفه بأن يعتم على النبأ المؤلم تعتيما تاما . على الطبيب ان يحرر اذن الدفن وان يكتشف للموت سببا آخر غير السبب الحقيقى . يقول الطبيب : ماتت اثر نوبة قلبية حادة ومفاجئة ، فيعلن المأمور رأى الطبيب على الملأ . ويأمر بدفن الفقيدة فى مدافن الأسرة ، بعد وضعها فى صندوق . وهنا يرفع العرف صوته من جديد ، اذ يقول أحمد : صندوق ؟ ودون تغسيل ؟ حتى فى الموت يطالب العرف بأن يلتزمه الناس ، حتى ولو كان الميت على غير دين الاسلام .

ويأخذ المأمور يفكر فيما ينبغى أن يفعله بنفيسه . مهما كان السبب المعلن للموت فلن تفلت القابلة من العقاب . ويسأل : ماذا يفعل حامد فى غده ؟ أيبقى فى الدراويش أم يهرب الى باريس ؟ وسأل الطبيب من جديد : ما سبب الموت الحقيقى ؟ قال الطبيب وهو شارد : موتنا ، أم موتها ؟!

هذه جوهرة صغيرة شديدة الألق ، فصيحة العرض ، نافذة الرؤية . تصف الواقع وصفا دقيقا ، تصفه وهو فى حالة جيشان وتحول . لا تظن أبدا أن قرية الدراويش سوف تعود سيرتها الأولى قبل الفاجعة . لقد نزل بها اعصار زلزل كثيرا من أهلها ودفعهم الى الحساب واعادة الحساب . والحل التقليدى الذى يلجأ اليه المأمور لاخفاء الجريمة هو فى قلة جدواه مثل محاولة زينب وقف نزيف الدم من جرح سيمون ، مستخدمة وسائل تقليدية موروثة . عقاب القابلة والاسراع بدفن الميتة لن يمنع أبدا الخبر الصحيح من أن ينتشر . وتواطؤ المأمور والطبيب على التعتيم ان يبدو قادما رأسا من اجواء « يوميات نائب فى الأرياف » حيث جريمة القتل تنسب الى مجهول ، فانه فى « أصوات » ، ليس فاقدا للضمير ولا محتقرا للبشر ، وانما يشوب عمل المأمور وتصرفاته شجن واضح وأسى ، بينا يظهر الطبيب ان موافقته على التعتيم تحمل كثيرا من الحرج ، وتبدى ادانة واضحة لمجتمع القرية بأُكمله : يقول ردا على سؤال المأمور عن السبب الحقيقى لموت سيمون قائلا : موتها أم موتنا ؟!

وتتسم « أصوات » بطابع درامى واضح . المأساة تبدأ من مقدمات لاهية تحمل كثيرا من عناصر الفكاهة والأوبريت ثم ينسج القدر خيوطه الخفية ليقع الجميع فى الشرك الذى نصبه : حامد ، فى غفلته ، يترك زوجة طارئة وغريبة كل الغربة عن البيئة ، ويمضى لينجز اعمالا له فى القاهرة ، مخلفاً الزوجة الغافلة لعداوة شرسة لم يرها هو وان أحست هى بها .

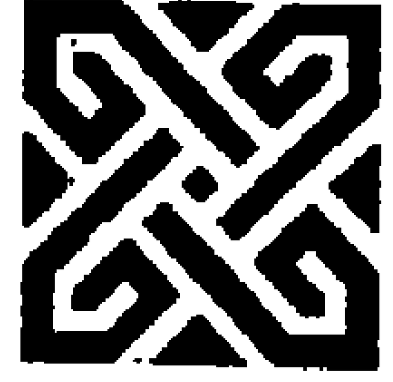
سيمون تقول لمحمود أنها تود أن تنتهز فرصة غياب زوجها لتتعرف عن كثب الى حماتها وسلفتها . ومادرت انها تتقدم بقدميها الى حتفها . النسوة ينفسن عن غيرتهن واحتجاجهن بعمل قمعى وحشى ، لم يحسبن عواقبه ، فلما تقع الواقعة تسارع كل منهن الى التنصل من التبعة . تبكى الأم بكاء مريرا لأن جريمة بشعة قد تمت وما كان لها ان تتم وتروح تندب زوجة ابنها التى احبتها فى السر واحتجت عليها فى المظهر . فى غفلتها انساقت الى الجريمة واعتبرت ان الفضيحة قد لحقتها هى الى جوار ابنها .

ويقف سليمان فياض — حكيماً — بأحداث روايته والزوج لايعلم بعد ما حدث لزوجته ، فيترك لخيال القارىء فرصة التعامل مع أحداث قادمة تعاملا فاعلا . هذه نهاية مفتوحة . ولكنها مفتوحة على زيجة تحطمت ، وقلب قد انكسر وزوجة جميلة ارسلت الى قبرها دون داع وقبل الآوان . ونسأل مع المأمور : ترى ماذا يكون من أمر حامد ؟ أيكفر ببلده ويعود من حيث أتى . أم يبقى فى القرية التى جذبته بندائها مثلما تجذب النداهة ضحاياها ؟

هذه رواية خفيفة الوقع ثقيلته فى آن. تجذبنا إليها جذب حلوا فنمضى نتابع أحداثها، فإذا نحن امام الخاتمة البشعة المليئة بالمفارقات . وفى غمرة ألمنا نود لو كانت النهاية أقل قسوة وايلاما ، ولكننا نعلم تمام العلم ان القدر لا يستأذن عواطفنا ولا يلاطف اعصابنا الواهنه اذ يحرك الناس ذات اليمين وذات اليسار . ان النهاية الفاجعة التى تنتهى بها « أصوات » تحوى المعنى الأعمق والأكثر احتجاجا على واقع محزن ينبغى أن ينتهى .

ليلى والمجهول

إقبال بركة



عبد الستار الساعى وبناته السبع . كل منهن حائرة ، ضائعة ، مركب بلا شراع فى بحر مضطرب . يعشن جميعا فى البيت الفقير . على الكنبة البلدية يجلس عبد الستار وزوجته . ويستقبلان عليها الضيوف . باقى الموجودين يجلسون على كراسى الخيزران ، فان زاد العدد فعلى الزائد ان يظل واقفا طول الوقت .

يزعم عبد الستار ان المنضدة العتيقة التى يحويها بيته قد كانت لوالده ، الذى ورثها بدوره عن جده : قديمة متهالكة ولكنها رمز عهد العز والرفاه الذى كان للأسرة حين كان جد عبد الستار عمدة البلد . على الجدار صورة ذلك الجد فى ملابسه الأزهرية . يقسم الأب ان جده كان من علماء الدين المتفقهين . وان البلدة اختارته عمدة لها لرجاحة عقله ووفرة علمه ، رغم أنه لم يكن اغنى الأهالى . ويضيف الأب ان ذلك الجد قد استشهد اثناء ثورة ١٩١٩ فى عراك مع الانجليز . ولهذا سمو البلد على اسمه : « كفر عامر » .

سوى ليلى ، البنت الكبرى ، لا تجد البنات فى هذا التاريخ مدعاة للفخر . هو لن يحل مشكلة فضيلة التى كلت عيناها من السهر والبكاء . تسهر الليل بطوله فى القراءة لتحصل على دبلوم التجارة ، واثقة انها — حتى بعد حصولها على الشهادة المتوسطة — لن تتزوج من سمير حبيبها ، ابن الجيران ، الذى يبادلها الحب . مرتبه لا يكاد يفى بنفقات أمه وأخوته . الشجار لا ينقطع بين الشقيقات بعد أن نقل الأب ، مريضا الى المستشفى : الصراع وشد الشعر والتماسك بالأيدى بين اختين يحفز اختا ثالثة ورابعة على الاسهام فى المعركة . هنالك تصرخ سميحة بأعلى صوتها طالبة النجدة . لاعنة الجميع ، نادبة حظها التعس الذى يأبى عليها أن يهبها ابن الحلال ليخلصها من العذاب ، ويأخذها بعيدا الى آخر بلاد المسلمين بلا رجعة .

يسرية تنظر الى الجميع باحتقار شديد . تشعر انها ولدت خطأ فى هذا البيت ، ولا بد أن

يصحح الخطأ يوما ما . كان يجب ان تكون نجمة سينما أو تليفزيون ، يسعى بين يديها حشد من المصورين والممثلين والصحفيين يسبح بفنها العظيم . تعيش يسرية هذا الوهم وتحوله داخل نفسها الى حقيقة : صديقها الوحيدة مرآة قديمة فى حجرة والديها تقف أمامها بالساعات ، باكية ، أو ضاحكة ، أو مستعطفة ، أو شاكية حظها الأغبر .

هناء لا تريد ان تساعد فى شغل البيت . تقضى اليوم كله فى فراشها . مخفية رأسها بالوسادة حتى لا تتسرب الأصوات المفزعة اليها ، ويصلها الحاح سميحة المستمر فى طلب المساعدة . التوأم فاتن وشادية أصغر من أن تنالهما هموم الأخريات . النهار بطوله تقضيانه فى اللعب بالحارة ، حتى اذا حل المساء عادتا الى البيت مرهقتين سعيدتين ، فتتناولان العشاء وتستسلمان لأحلام سعيدة .

تنظر ليلى حولها وتتساءل : ما مصير البنات ؟ هل توفق سميحة لابن الحلال الذى ينقذها من هذا الهم المقيم ؟ يختطفها على ظهر حصان أبيض ويمضى بها الى الأبد ؟ هل تصبح يسرية نجمة مشهورة ؟ هل تعين هناء فى شركة أجنبية بمرتب يصل للمئات ؟ ما هى المعجزة التى تجعل سمير وفضيلة يتزوجان ، ويعيشان عيشة هنية ؟

لا تنسى ليلى نفسها ، وهى تتأمل أخواتها ومصائرهن . كل من فى البيت ينشد صيدا ، وينشر شباكه كى يقتنص الصيد . هى نفسها فعلت الشىء ذاته . حينما خايل عينيها الشاب الخليجى الغنى قيس : زميلها فى الكلية ، وظل ينصب شباكه حولها حتى لان له قلبها ، زعمت ليلى لنفسها انها تحب قيس حبا حقيقيا لا دخل للمادة فيه . ومضت تتأمل : هل تحبه لذاته أم تحب العالم السحرى الذى قادها اليه : سيارة فارهة ، ونزهات كثيرة فى العاصمة ، وشقة مفروشة غالية الرياش ؟ طالما حدثها قيس عن رحلاته فى أوروبا . كان تتبع أحاديثه لاهثة مبهورة ، كأنما تدور معه فى شوارعها وتتسلق جبالها ، وتتجول فى غاباتها ، وتركب سياراتها الفارهة وتقود اليخوت فى بحيراتها ، وتحملق فى شقراواتها الجميلات فى نواديها الليلية .

كانت ليلى تجرى وراء حلم الثراء السهل ، والحياة الناعمة . نسيت فى غمار عاطفتها الحياة من حولها . تصورت انها وقيس يعيشان فى جزيرة نائية ، لا يراهما فيها أحد ولا يشعر بوجودهما . وظلت تعيش هذا الحلم الوردى المذهب حتى ايقظتها طرقات الواقع الفظ . ذهبت الى شقة قيس مبكرة كى تبدأ معه الاستعدادات للاحتفال بعيد رأس السنة ، فقالت لها المشرفة على الشقة ان الأستاذ نائم واغلظت لها فى القول ، واشارت اليها صراحة على أنها احدى بنات الهوى ، فلم تجد ليلى بدأ من ترك الشقة ، مضعضعة النفس ، كسيرة الفؤاد بعد ان تحول الحلم الجميل الى كابوس .

اعتذر قيس وأعلن انه آسف مليون مرة لما حدث ، ولكنه فى الواقع كان ينظر اليها فى أعماق نفسه على أنها عشيقه ـــ يسميها ـــ نفاقا ـــ حبيبة . كان قد اخذها بين ذراعيه ذات مرة ، وقبلها بعنف حتى أدمى شفتيها ، اعتصر جسدها بين ذراعيه ، لكنه كبح شهواته ولم يعاملها مثل الأخريات . وكان هذا اختبارا صعبا ، اجتازه بعناء ، وهنأ نفسه على أنه مازال انسانا تنبض فى قلبه العواطف الراقية .

غير أنه كان نصرا هشا ، بل زائفا . جاءها قيس ذات مرة وقد افرط فى الشراب ، يريد أن ينالها . كانت قد استقرت فى الشقة وأصبحت السيدة الحقيقية لها . قال لها قيس : أنا أحبك . أعبدك . لا تتركينى . ثم انقض عليها فقاومته بضراوة . اذ ذاك انحسر القناع عن وجه الفتى المتاجر بأمواله ، الذى يظن انه يستطيع ان يشترى الناس وأرواح الناس بما يقدم من مادة . هاج قيس وصاح : انت انسانة جامدة . اعطيتك كل شيء . كل شيء . انظرى الى نفسك فى المرآة . الى ملابسك قطعة قطعة . الى حقيبتك . الى معطفك . لم ابخل بشيء .

ردت ليلى ، بخفوت وكأن امرأة أخرى غيرها تتكلم : تزوجنى يا قيس . فثار قيس الهمام وقال : كلكن متشابهات . حتى انت لا تفكرين الاّ فى مصلحتك . تريدين أن تقيدينى بسلاســل الزواج . إنها المضغة التى تلوكها كل من تدعى الشرف . قالت ليلى : « أنا شريفة . وأنت أول من يعرف هذا » . لم تدر ليلى أنها قد اعطته السلاح الماضى كى يهزمها فى النقاش . اذا كانت تعتبر نفسها شريفة ، هى التى تعيش فى شقة اعزب دون ارتباط ، وتسلم شفتيها وبدنها له ، وتقبل هداياه ونزهاته ، فهو أيضا « شريف » مثلها . انه لم يمس امرأة منذ أحبها . وما يظهر من اسراف فى التعبير عن عواطفه ، ومحاولاته المتكررة لنيل ليلى مرده انه رجل مكتمل الرجولة ، وانه يتعذب طالما انه لم يحظ بجسدها .

فى واعيته ولا واعيته انه قد استحق ليلى بما قدم من هدايا ثمينة اغرقها بها . ففيم الحديث عن الزواج ؟ لو كانت تحبه لأدارت ظهرها لكل شيء ، ونسيت الدنيا جميعا وعاشت فقط من أجل الحب .

حديث النفاق هذا ، الذى يردده طلاب اللذة يخفونها وراء قناع شفيف من الحب الرومانسى المتقد الذى هو فى زعمهم هدف فى حد ذاته ، واجب التقديس ، قادر على الاشباع ، لا ينطلى على ليلى . تسأل نفسها : أهذا هو الحب الحقيقى ؟ هل يحبها قيس أم يحب حالة الحب معها ؟ هل هذا هو الرجل الذى تود أن تقضى حياتها كلها معه ؟ سؤال خطر ومع ذلك فقد عصبت عينيها حتى لا تعرف الاجابة الواضحة عليه .

زعمت لنفسها أنها ما صاحبت قيس الا لتثبت له انها طراز آخر من النساء غير صديقتها

سامية التى احبت زياد فلما رفض ان يتزوجها تحولت الى صديقة صقر ، فلما ملها وأعلن صراحة رفضه الارتباط بها ، قنعت ان تكون صديقة لهما ولكل اصدقائهما شرط ان يسخوا فى العطاء . ارادت ليلى ان تثبت أنها ليست غانية سهلة المنال ، فوقعت فى المحظور ، وفقدت سيطرتها على نفسها ووجدت قدمها تنزلق فتصبح قيد خطوات من الاغتصاب .

بنفسها نسجت ليلى خيوط العنكبوت . قالت ان قيس هو أول رجل تمتزج عواطفها بعواطفه ، فتذوب الفوارق ويشعر كل منهما انه عرف صاحبه من أول الزمان . أحبت أخطاءه وتغاضت عن هفواته ، وادمنت الانصهار فى كتلة وجوده . حتى ايقظتها اصوات حادة مزعجة . قال لها زياد صديق قيس : كنت تلازمين قيس فى شقته . أما توقعت لشىء كهذا ان يحدث ؟ الحق اننا فوجئنا بأنه لم يحدث من زمن طويل .

ثم جاءت صفعات قيس المتتالية : الحاحه ان تزوره فى شقته . لم تكن غبية ولا جاهلة حين لبت طلبه . انها تعلم ما يحدث بين المحبين عندما تنعدم الرقابة . ومع ذلك فقد ضعفت . كان شىء بداخلها يلح عليها كصدى لالحاح قيس . إنها تحبه ، وهى ليست أقل منه رغبة فى الانطلاق فى بستان الحب بلا رقيب . هى أيضا تشتهى ان تقطف ثمار الحب وتملأ بها جعبتها .

ثم اعلن قيس امر علاقته بها لأصدقائه ـــ شعرت بصفعة أخرى ، ولكنها سرعان ما اسدلت ستار خداع النفس على شكوكها . قالت لنفسها : أليست إمرة حرة ؟ أليست مؤمنة باخلاصه وصدق عواطفه ؟ ما الذى يهمها من الآخرين ؟

وكانت محاولة قيس اغتصابها هى الصفعة التى جعلتها تفيق الى نفسها . أدركت لأول مرة أنها لم تكن تخدع الآخرين بقدر ما كانت تخدع نفسها . كانت فى مقاومتها العنيفة لقيس تحاول ان تدفع عنها شيطانها وتخدش غرورها ، وتكيل الضربات لضعفها . اذ ذاك قررت ان تنفض عن نفسها اردية الخداع ، واعلنت ان لا أحد قادر على ان ينتشلها من الضياع والعجز الا هى نفسها .

فى آخر الرواية تنظر ليلى الى شقيقتيها شادية وفاتن وهما لم تتعديا بعد زمن اللعب اللاهى الذى لا يعرف المسئولية ولا يحس بها أصلا ثم تقول : بعد أن تنتهى من امتحانات الجامعة ستجعل من شقيقتيها شغلها الشاغل . ويجعلها هذا القرار تحس أنها مخلوقة جديدة ، ولدت منذ لحظات .

لون آخر من خداع النفس ، فليس بامكان ليلى ان تنقذ أحدا ، وهى التى فشلت فى انقاذ نفسها من مغامرة انتهازية طائشة حاولت أن تلبسها رداء الحب المزوق ، تخفى به سعيها الى الحل السهل . مغامرة خرجت منها مجروحة فى اكثر من موضع ، ممزقة القلب ، منبوذة الروح .

ان البيت الذى تدور فيه أحداث الرواية مهتز القواعد ، فاقد للقيم ، مندفع فيما يشبه الحمى الى الهاوية المفزعة التى حفرها للناس عهد الانفتاح . اختها الطموحة المتحدية يسرية لا تكف عن تحريض اخواتها على الثورة على واقعهن ، ومعايرة اختها فضيلة على تمسكها بحب سمير ، ابن الجيران الفقير . تقول لفضيلة : يا خيبتك الثقيلة ! اتقعين فى هوى من هو صورة طبق الأصل من أبيك فى الخيبة ؟ أبشرى اذن بمستقبل تحيين فيه حياة أمك . الفقر والعيال وخيبة الأمل !

ثم تمضى يسرية من بعد تتسلل من البيت ليلا ، ذاهبة الى حيث لا يدرى أحد من الأسرة . جاءت مرة فى الحادية عشرة ليلا . وتشجعت مرة فلبست معطفا ثمينا كان قيس قد أهداه إلى ليلى . تشعر ليلى بالقلق على اخواتها سميحة ويسرية وهناء . تخاف ان يكون مصيرهن جميعا مثل مصير سامية . هى نفسها قد افلتت من ذلك المصير بشعرة . هل يستطعن هن ان يصمدن ؟ جاءت سميحة الى ليلى تلفت نظرها الى سلوك يسرية المشبوه ، فاكتفت ليلى بالقول انها ستحل المشكلة ، تسألها سميحة : كيف ؟ اريد ان اعرف كيف ؟ فلا تجد للسؤال جوابا . تجد تماثلا بينها وبين يسرية . كل منهما تحمل اثقالها وتمضى . لم يعد أحد يقبل ان يحمل آخر عنه حمله .

وتيأس سميحة من ليلى فيما يخص يسرية ، فتسألها المشورة فى مشكلة خاصة بها . لقد قدمت لها صاحبة البيت الحاجة سنية عريسا من كهول الخليج فمالت البنت الى قبوله . أيام طويلة مرت على سميحة ، آمنت خلالها انها لم تعد تساوى شيئا . كل بنات الحارة يذهبن للمدارس والجامعات ، وتبقى هى فى البيت الضيق وجدرانه الخانقة . قالت أنها لا تستحق أفضل من هذا المصير . لا تملك المال ولا الشهادة ولا الوظيفة . فأى شاب يجرؤ على الزواج منها لو بقيت فى البيت لأصبحت خادمة للكل ، لا أكثر . جارية فى بيت أبيها . الزواج من الكهل هو البديل الوحيد .

علت نغمة الانتهاز لدى البنات عند سماع النبأ . أخذت الواحدة بعد الأخرى تحتج على رفض ليلى ان تتزوج اختها من الكهل . سألت هناء : لماذا تحرمينها من فرصة العمر ؟ صفقت يسرية بمرح وقالت : اختنا ستصبح مليونيرة . ومن يدرى فقد يفتح الله علينا مثلها . بعد أقل من عام ستعود لنا محملة بالهدايا الغالية .

اذ ترفض ليلى العرض رفضا حاسما تروح تقارن بين موقف اخواتها وموقفها هى . ألم تفعل هى شيئا مشابها ؟ ألم تمنح الحب بسخاء رجلا بخل عليها بعقد الزواج ؟ ألم تستعرض هدايا قيس الغالية أمام اخواتها فخايلت بها أعينهن ؟ لقد اعتادت الأخوات هذه الهدايا فلم يعدن يسألنها تفسيرا . أبوها سارع بالتخفف من اعطائها مصروفا ليدها أو لكتبها . امها دأبت على أن تتلقى منها بعض المال ، بعد أن زعمت لها أنها نجحت بتفوق فى احد الاختبارات بالكلية وأنها تتلقى

من ادارة الكلية مكافأة شهرية على هذا التفوق .

وحتى بعد القطيعة مع قيس ، تظل أحلام الثراء والرفاه تخايل عينى ليلى . كم ضاقت بواقعها الجديد بعد القطيعة . كم تسرب الندم الى نفسها لهجرها قيس . ما اكثر ما سمعت من أصوات تنفث فى اذنها ان تذهب يوما الى الكلية ، وتواظب على المحاضرات وتتحدث مع صقر وتقبل دعوة زياد للشاى ، وتبتسم لسامية . اذ ذاك يعلم قيس انها قد عادت ، فيعود هو لمطاردتها من جديد .

الحق ان ليلى هى اكثر اخواتها انبهارا بالثراء السريع ، وأشدهن تعرضا للدمار النفسى والخلق الفظيع الذى احدثه النفط فى نفوس أصحابه والمتعاملين معهم . فى الرواية تاجرتان من تجار الأجساد : انسية ، الطباخة فى شقة قيس ، التى تستقبل المتعاملات مع شباب الخليج وتسهل لهن الأمور ، والتى زحف الذهب زحفا على ذراعيها وصدرها ، فأصبحت من الأثرياء . والحاجة سنية صاحبة البيت الذى تسكنه الأسرة ، التى بنت البيت من بيع الشابات لكهول الخليج ، واضافت اليه بيتا جديدا اشترته من عام . وهناك أيضا سامية ، الطالبة الجامعية التى عرضت نفسها على أكثر من شاب خليجى راغبة فى الزواج ثم قنعت ببيع نفسها لهؤلاء الشباب لقاء المكافأة السخية .

ان « ليلى والمجهول » وثيقة ادانة فنية شديدة الوضوح كبيرة الاقناع للمجتمع الاستهلاكى الجديد ، الذى تخلى عن القيم ، وعبد المال وداس كل اصول الشرف . واقبال بركة توسع مدى هذه الادانة ، فتجعلها تشمل اناسا لم يتعاملوا مباشرة مع اصحاب النفط ، مثل الدكتور عاطف ، الذى وصل بذكائه الى أن يصبح طبيبا ، رغم أصله المتواضع ، فأبوه هو طباخ رئيس مجلس الادارة فى الشركة التى يعمل بها . وهو يشعر بالخجل من هذا الأصل المتواضع فيعامل صغار الموظفين بالشركة بازدراء وترفع ، ويسعى الى الانتساب الى أسرة مديرة العلاقات العامة : نهال ، الارستقراطية المتعجرفة ، ويسألها ان كان لها أخت أصغر منها ليتقدم للزواج منها . فلما تعتذر له نهال ، يوصيها ان تبحث له عن عروس من العائلة . وتعلق نهال قائلة لواحدة من صديقاتها : تصورى ان تقبل عائلتنا التى لا تناسب الا الكبراء ، ابن الطباخ عريسا لواحدة من بناتها ؟

ان « ليلى والمجهول » هى تصوير للصراع بين الفقر والنفط . وهو صراع مدمر للفقراء جميعا كما رأينا . وعبثا تحاول اقبال بركة ان تجعل واحدة على الأقل من شخصيات الرواية تصمد لاغراء النفط . كلما اقامت ليلى ، التى جعلت منها اقبال بركة ممثلة للصمود أو ارادة المقاومة ، على قدميها ، سرعان ما تعود البنت الى الانهيار . انها واحدة من مجموعة من الغرقى فى بركة من الماء

الآسن . كلما نجحت فى رفع رأسها من الماء ، تخاذلت ذراعاها وعادت إلى الغطس من جديد .

لهذا كان عنوان الرواية أصدق دلالة على طبيعة ليلى ، من كل كلامها عن البنات ، والتفاؤل ، والرغبة فى معونة الناس على تجاوز المحن . كلام تحسنه ليلى ، ولا تقدم رصيدا ما لتأييده . ومن ثم جعلت اقبال بركة عنوان روايتها : « ليلى والمجهول » ، ذلك ان عزمها الذى تعتزمه ليلى فى آخر على الأخذ بيدى اختيها هو إحالة ليس الى احتمال يمكن تحقيقه ، بل الى مجهول يلفه الظلام .

من التاريخ السري لنعمان عبد الحافظ

محمد مستجاب



ابتكر كل من سيرفانتيس الأسبانى، وفيلدنج وديكنز الانجليزيين أسلوبا خاصا فى النظر فى أحوال أدنى الناس فى سلم المجتمع . اسلوبا يجمع بين النقد اللاذع والسخرية العطوف ، والحب المبطن لمن شاءت اقدارهم أن يتمددوا على أدنى درجات هذا السلم .

سيرفانتيس نحا الى خلق شخصية المحتال المتطاول ، فارغ الجيب ، فارغ البطن ، كثير الحيلة ، الذى يتحدى القانون والاعراف ويلتقط رزقه من بين افواه الخطر ، ويمضى فى السرقة والنهب من جهة ، ويؤدى ما عليه للكنيسة من ضرائب ومكوس ، تزلفا الى الله وقربى من جهة أخرى ، لا يجد فى هذا تناقضا ما . فالجريمة عنده مهنة أخرى من المهن التى تقوم فى المجتمع . وهى مهنة لها اعرافها وتقاليدها ، ولها أيضا تنظيماتها ونقاباتها وقواعد سلوكها ، وكوادرها القيادية واتباعها الذين يسيرون على النهج ، ويتبعون ارشادات المعلم الأكبر الذى يقف عند رأس الهرم التنظيمى .

حدّث سيرفانتيس عن هذا كله فى احدى حكاياته المعروفة : « بالحكايات التعليمية » والتى تحمل اسم : « رينكونيت وكورتاديللو » . السخرية والتندر فى هذه الحكاية يتناولان المشتغلين بالجريمة ، ومن خلال هذه السخرية والتندر يسخر سيرفانتيس أيضا من المجتمع الذى انجب الجريمة والمجرمين . السخرية والضحك على السطح ، وما وراء السطح نقد جاد وجرىء لأحوال المجتمع ، يتناول الكنيسة ، والشرطة ، ورجال الحكم بل وحتى شخص الملك .

وفيلدنج أخذ أيضا بأسلوب المحتال المتطاول فى روايته الطريفة المسماة : « سيرة حياة الفقيد جوناثان وايلد العظيم » وفيها ساوى فيلدنج بين اللص من جهة ، والسياسى والقائد العسكرى والغنى الواسع الثراء من جهة أخرى . وقال وهو لا يخفى ضحكه : ان اللص قائد وسياسى

وعسكرى عظيم ، تماما مثل نظرائه من اتباع الشرف والمناصب . هؤلاء مثل اللص تماما ، يلجأون الى الخديعة ، والسرقة ونهب ارزاق الناس . واستباحة دمائهم واعراضهم وممتلكاتهم . كل ما هنالك من فرق ان القانون يؤيدهم ، بينما هو يطارد زملاءهم اللصوص مطاردة لا هوادة فيها .

أما ديكنز فقد لجأ الى السخرية من الكبار وتندر باخطائهم وجرائمهم ، وندد بما يرتكبون من مظالم فى حق الفقراء ، الذين نظر اليهم الكاتب الكبير نظرة كلها تعاطف ورحمة ، منحازا الى صفوفهم ، معريا المجتمع البريطانى الغنى المتغطرس الذى كان يتمسك من الشرف باسمه علانية ويفتك به اشد الفتك فى السر .

استخدم محمد مستجاب شيئا من هذا الأسلوب فى روايته الطريفة : « التاريخ السرى لـ نعمان عبد الحافظ » . سار على نفس الدرب فى خلط السخرية بالجد ، وتناول بالنقد المبطن الخطأة وأصحاب الجهل من كل لون — فقراء كانوا أم أغنياء ، وان كان قد خص الفقراء بالنظر العطوف مثلما فعل الكتاب الذين سلفت الاشارة اليهم . غير أن مستجاب قد زاد على أسلافه شيئا هاما : وهو ذكر كثير من تفاصيل الحياة اليومية لفقراء الفلاحين والمعوزين ومن يعيشون على كدهم ويتحايلون على الرزق بشتى السبل، وأوردا فى هذا السبيل كثيرا من المأثورات الشعبية ، وددت هذه تلقائيا ودون افتعال، ودون ظهور ارادة واضحة للكاتب فى أن يضمنها عمله الفنى . فهذه المأثورات تنمو نموا عضويا فى جسم العمل ، لا يفرضها الكاتب فرضا من خارج هذا العمل .

كذلك ابتكر محمد مستجاب شيئا طريفا حقا ، هو ربط أحداث القرية بأحداث الأقاليم والعاصمة ربطا فيه مفارقات لذيذة ، تمكنه من التعليق الذكى على أحوال القرية والاقليم والعاصمة فى وقت واحد ، وتجعل من سيرة نعمان عبد الحافظ ، ليس مجرد سيرة فرد ، بل تحولها الى تسجيل حى لأحوال مصر فى الفترة الزمنية التى تجرى فيها أحداث السيرة . وهو تسجيل يلجأ فيه الكاتب الى التوثيق الجاد حينا والهازل حينا آخر ، ولكنه بجده وهزله يكون وثيقة فنية واجتماعية ذات فائدة .

ومحمد مستجاب لا ينقطع أبدا عن الضحك والتندر ، ويخلق اذ هو يفعل هذا مواقف تبدو جادة تبعث على الأسى حينا ، وتصبح مبعثا لكوميديا المواقف تارة أخرى .

خذ مثلا واقعة ختان نعمان عبد الحافظ ، يبدأ باللحظة التى تكتشف فيها المرأة الممسوسة ان نعمان — رغم أنه قد أصبح فتى بالغ سن الرشد — لم تتناول موسى حلاق القرية عضوه بالطهارة . تبدأ الواقعة حينما يكتشف المؤلف ، الذى يلبس زى المؤرخ ويتخذ سمته طوال الرواية ، انه قد كان ضحية خداع كبير لجأ اليه بطله ، الذى اخفى عنه حقيقة عدم ختانه حتى

تلك اللحظة فعرض بهذا سير التاريخ الى الخطر ، وهدد نظرية المؤلف كلها بالدمار . يقول « المؤرخ » محمد مستجاب : « ظللنا طيلة الفصول الماضية . نعتقد ان قرن الشعر المتوج لقراعة نعمان مجرد نذر مطلق للشيخ فرغل ، لن يحلق الا مقابل ذبح على عتبةالمقام . واستمرت الأمور كلها تساعد فى تغذية هذا الادراك المحدود : ام نعمان فى عشتها تدفن ألمها فى ثنايا كفاحها الدائب حول شواطىء بحر يوسف ، محاولة أن تضيف الى تجارة الملوحة والبلح الصائف وحلوى العسل نوعا من الأدوية كالهندية والششم . والسيدة الجليلة — والجميلة أيضا — لم تبح لأحد بما قد يكون استرعى انتباها فى ليلتها العابثة مع نعمان ، والحلاقون كلهم لم ينبهوا أحدا الى العلاقة بين نذر الشعر وأى اجراء آخر ، ونعمان يتحول من فصل الى فصل ويلج الحقول والتجارب والقنوات والبيوت ويقفز فى الترع ويصطاد السمك ويتسلق الأشجار دون أن ينبهنا — هذا الوغد الى مايعنيه قص الشعر ، حتى كبر واخشوشنت عضلاته ونبت شعر شاربه ... وانتهى الى صحبة احد حفارى القبور فى قبر مجهول له مقام بالغ الأناقة ، موسومة جدرانة بمراكب وخيول وطائرات وبواخر وجمل : جمل يمكن لك ان تسمع هديره على مسافة سبعة مدافن .

ولما جاءت المرأة الممسوسة تبحث عن العلاج فى مدافن القرية ، ودفنت نفسها فى الرمال تبينت — فجأة — الى ما يعنيه قرن الشعر : ان نعمان لم يختن بعد . ومن ثم فقد وجب ان تفر من المكان لأنه غير طاهر . اذ ذاك خلعت المرأة جسدها من الرمل ، ومضت قوية ، صلبة ، دامية المؤخرة ، صارخة ، ولم تلبث ان شقت الطريق ، قفزت من الباب الى الدرب الى شواهد القبور ، تتخطى الحواجز والأحجار وجذوع النخيل ، وصوتها الممسوس يلف الكون ، ويهدم أعالى الشجر ، ويقلق الموتى ويعذب الملائكة ، والخطيئة تلف حول نعمان الفاغر فمه ، يحاول ان يستر جسده بيديه ، والحفار يجرى وراء الجسد الهائج مرة ، ويعود مرة الى نعمان ليسبه ويركله ويضربه فى بطنه .

يصبح من الواجب ان يجرى ختان نعمان ، خاصة وان أجد أقرباء امه رغب أن يزوجه من بنته . فكيف يحدث الزواج ودونه عقبات : ذبح جدى ، وتجهيز جلباب أبيض وطاقية مقصبة ، واجراء الختان على عتبة مقام الشيخ فرغل الذى يبعد عن القرية مسافة تزيد على الثلاثين قرشا . غير ان قريب الأم ، ذلل العقبات جميعا ، ذلك ان الأعمال بالنيات . والشيخ فرغل علمه واسع برغبات محبيه ، وعجول النذور والجمال تنازل عنها الشيخ مراراً وقبل بدلاً منها دجاجا وأرانب . ومقام الشيخ ابى هارون القريب يمكن ان يحل محل مقام الشيخ فرغل . ولا يبقى الا الجلباب الأبيض والطاقية فعلى الأم ان تدبر أمرهما .

وتمضى الكوميديا المؤسية: فيذهب « عيد » المزين واسماعيل الحفار ومعهما أرنب كبير ، ويذهب معهما نعمان ممتطيا حمارة « جلجلة » زوجة تادرس . ويصل الموكب الى مولد الشيخ إبى هارون والمولد فى قمة الاحتفال . وتتم مراسم التحضير للختان من قص قرن الشعر ، وتكتيف نعمان وقطع الحلاق الفلقة اللحمية المرنة ، ثم يريد الحلاق ان يواصل عمله ، فإذا بصوت آخر يعترضه : الأسطى من أين ؟

اذ ذاك يتبين ان خطأ فاحشا قد وقع ، فليس من المأذون لغير حلاق الناحية القيام بعمليات الختان . عبثا يحاول الموجودون اقناع الرجل المتسائل بأن يتساهل ولو هذه المرة فقط ، ولكنه لا يلين ولا يتزحزح . ويكون على الجمع ان يعودوا ادراجهم الى قريتهم ، والعملية نصف مؤداة ، والدم ينزف من بين فخذى نعمان ، وهو ما بين الحياة والموت . فهل تحسب ان الكوميديا المؤسية قد تمت فصولا ؟ بالقطع لا . فما ان عاد الركب الى القرية ، حتى هال الأمر احد سكانها ، احمد عبد العزيز ، فسار على رأس الناس واصطحب الفئوس والبنادق والسكاكين والبلط ، وذهبوا لغزو قرية أمشول الظالمة ، واتمام الختان بقوة السلاح .

ومن امشول جاء وجوه الناس وبأيديهم سلاحهم ، ووراءهم طابور طويل من شعب امشول ، يستطلعون ويحاولون ان يفهموا . حيا زعيم ديروط الشريف ، رأس قرية أمشول وشرح له ما جاءت قريته من أجله . ضحك رئيس أمشول وقال : الشيخ أبو هارون وحلاقه ابى هارون تحت امر ابنكم . حينئذ تراجع رئيس ديروط الشريف من فوره ، واقسم بالطلاق أن لا ختان لنعمان الا فى ديروط الشريف ، قريتهم العظيمة . وكان اقسم بالطلاق سابقا ان لا ختان لنعمان الا فى أمشول . وطأطأت حمارتا الحلاق ونعمان رأسيهما ، وسار خلفهما الجيش ، ونعمان مغمى عليه ، و« عيد » المزين يهرع بين مرحلة وأخرى كى يكشف عن الجرح ويهيل على الدم التراب ، وعبد الحميد زعيم ديروط الشريف يسير أمام القوم مرفوع الرأس .

وتمضى الرواية من بعد فتسجل بالأسلوب المتندر العطوف ذاته ، وقائع زواج نعمان عبد الحافظ . تربط الرواية الزواج وما سبقه وما صحبه وما تلاه بأحداث الزرع والضرع وأحوال الناس فى القرية والاقليم والعاصمة تقول أن امه اقسمت — اذا ما كتبت له السلامة — ان تزوجه من أجمل الجميلات . وكان أنداد نعمان قد ولجوا أبواب الرزق . منهم من يسرح بالبهائم ، ويتاجر فى الردة والنخالة ، أو يعمل فى مواسم تنقية القطن ، أو يقشر كيزان الذرة ، أو يجرى وراء حمير السباخ . ووراء حوائط البيوت تكمن الاناث ذوات الآذان البالغة الانتباه لكل همسة تتولد من حفيف نضوج سنابل القمح وتفتح لوزة القطن ، أو ثغاء حملان الضأن ، أو خواء عجول البقر ، والتى تترجم فورا الى الرغبة العظيمة فى ان يتقدم أولاد الحلال ، تمهيدا لاضافة رواق

جديد يكون مقرا لبيت العدل .

ورشحت بنات كثيرات للزواج من نعمان : بنت ابن ابى عبد المولى ، ولكنها استبعدت لخنفة فى انفها . وبنت ابن بيومى البناء ، واستبعدت لورودها من اصلاب ناس تقل فيهم خلفة الصبيان ، ثم بنت اخت ابى العيون ، لكن المعلومات قالت أنها خائبة امام الفرن فلا تحقق اتساعا فى الخبز ، ثم احدى حفيدات « كاملة » بائعة الدواجن ، وكادت ام نعمان توافق عليها ، لولا اشاعة عن رائحة فمها .

ومع انغلاق كيزان النخيل وانتشار رائحة الطلع ، بدأت بنت أخت ابى العيون تعود الى رأس قائمة الترشيحات . اولا لأنها تقتنى نعجة خالصة لنفسها ، وتشارك احدى العوانس غرب البلد فى نعجة أخرى . كما ان انها مدربة فى أجوال الفرن ، ولها اخوة ذكور وأعمام ذكور ، مما يطمئن من ناحية الانجاب . فضلا عن ادبها ، وتجنبها مشاركة زميلاتها فى العبث السرى على شواطىء ابى نوى بعد الغروب ، أو فى تعاملهن مع عامل الصنبور العمومى .

وكانت الرواية قد سجلت وقائع ما حدث قبل الخطبة . اذ هوجمت دجاجات ام نعمان مرتين ، ومات الشيخ بكر اثر اقترانه بالزوجة الخامسة ، وبعد أن باع الأملاك والسيارة الجيب وافترش الأرض بجوار شهاوى بائعة الطماطم ، وفتكت الدودة بزمام البلد من القطن ، وقاد عدلى طلبة عليمى مظاهرات طلبة مدارس البندر ، مطالبا بعودة محمد نجيب ، ونجح المستشار أحمد عبد الجواد فى انتداب احمد عبد المجيد الناظر للتدريس فى السعودية ، واشتراك محمود عبد اللطيف مع آخرين فى تنفيذ اتفاق جنائى لقلب نظام الحكم وقتل قائد الثورة فى ميدان المنشية ، وزارت الحاجة فجرة قبر النبى عليه الصلاة والسلام للمرة الرابعة ، واستمرت جريدة الأخبار فى نشر مغامرات وحيد رأفت ضد الملك فاروق . ونجح عبد القادر مرسى فى انكار علاقته بالاخوان المسلمين ، واعلن عتاة البلد تخليهم عن الوفد والأحرار الدستوريين واخذوا يرفعون رايات هيئة التحرير ، وأخرجت مدرسة المعلمين الجديدة أول فوج من المدرسين ذوى الملابس النظيفة . وأثار بيت معوض بغض العامة ضد بيت القمص فكادت تحدث كارثة ، وارتفعت اسعار الحشيش والأفيون وبذور البرسيم ، وأغلق أنور موسى الشناوى عيادته البدائية ليلتحق بفريق صلاح أبو سيف القادم للبلدة لتصوير فيلم الوحش حيث ظهرت صور أنور وجدى وسامية جمال على خلفية من بيوت ونخيل ورجال القرية فى الصحف السيارة .

عن طريق هذه اللقطات السريعة التى تبدو كومضة العدسة أمام فلاش التصوير تمد الرواية لنفسها ابعادا كثيرة تزيد من قيمتها وحجمها الفعلى . ان هذه اللقطات تبدو وكأنها اختيرت حيثما اتفق ، ولكنها فى الواقع مترابطة ، منسجمة ، وتشكل فى مجموعها مفارقات ومقارنات وتتيح

فرصا للتصوير السريع لشخصيات تعبر امام الكاميرا لثوان ، ولكنها تترك لنفسها أثرا فى الرواية . مثل ذلك وفاة الشيخ بكر اثر اقترانه بالزوجة الخامسة وما صحب هذا من أحداث . ان هذه اللقطة تروى جزءا هاما فى حياة الشيخ وتكشف عن شخصيته وحياته ومعيشته ومسلكه بازاء النساء وحمقه فى التصرف فى ممتلكاته .

ولا تتناول الرواية حياة فقراء الفلاحين وحدهم ، بل تمد اهتمامها الى المترفين من أمثال السيدة الجليلة والجميلة ، التى أصرت على اقتناء نعمان فى بيتها ، لتكرمه وتتيح له حياة النعيم . ان محمد مستجاب يمد لسانه طويلا ليتناول السيدة الجليلة والجميلة بالتندر والكشف والتقريع تقول الرواية : « تتكون السيدة الجليلة والجميلة أيضا من أنف وشفتين وعينين وحاجبين ورقبة ، ثم صدر وثديين وسرة وفخذين وهى تكوينات نادرا ما تتوافر مجتمعة فى نساء قريتنا ، اللاتى تتهدل تفاصيلهن بسبب تقلبات الجو وعوامل التعرية والحرارة والطين والروث والبرد والرجال .

ومن المعتقد ان ثمة أفراداً قليلين ، حاقت بهم بعض النهايات المتعسفة ، عقب اكتشافهم للفروق بين تكوينات السيدة الجليلة وتكوينات اجساد الاخريات . بالطبع لا أقصد ما اثاره جيد عبد النور ، أثناء اختفائه لدى السيدة عن عيون الانجليز فى العشرينات ، أو مارواه سعيد الأسود صاحب الأب عبد القدوس ، راهب الدير المحرق الشهير ، أو ما نقل تاجر عسل أسود وجد مقتولا فى اعقاب هلاك الزوج الثانى للسيدة الجليلة . اذ ان ما ردده قد يكون مبالغا فيه ، حتى لو كانوا قد اتفقوا جميعا على أن السيدة الجليلة كانت تسترخى داخل حمام لبن ، أو تنام على بطنها عارية فى شمس بشنس أو تجازف بزيارة المقابر فى الظلام ، أو تستغرق فى الرقص على انغام عازف ربابة غجرى .

وقد يعوزنا الكثير من التدقيق للالمام المحايد بما حدث بين سيدتنا الجليلة ــ والجميلة أيضا ــ ونعمان عبد الحافظ خميس تلك الليلة التى بدأت بالحديث عن خروج العقاد على الوفد وانتهت بتقاذف النجباء المتسامرين فى بيت السيدة الجليلة جسد نعمان ظرفا وسمرا وانتشاء .

اخذت السيدة الجليلة نعمان الى الحمام وخرج منه وهو يلمع ، ثم ادارت السيدة جهازا قيل انه ماكينة غناء ، وقيل انه مذياع ، وقيل انه تركيب سحرى من تلك التركيبات التى تركها ابونا عبد القدوس فى المنزيل اثناء محاولاته المتكررة لاتاحة فرصة الانجاب للسيدة الجليلة . تركت السيدة الموسيقى تدغدغ جسدها وعواطفها وتثير نشوة فى الجناح كله ، حتى اذا بلغت الاثارة الذروة خلعت السيدة الجليلة رداءها الشفاف واحتضنت نعمان ممتزجة بجسده . وترددت أقوال عن بكاء السيدة الجليلة وتشنجها وركوعها اسفل قدمى نعمان ، وتقبيل متوحش شبق لكل قيراط فى جسد الصبى ، واقوال عن جموح هائج قاتل ، وأقوال عن لحظات هادئة ، ضمت فيها

السيدة الجليلة جسد نعمان واراحته فوق فخذيها طالبة منه النعاس .

فى سطور قليلة يرسم محمد مستجاب شخصية السيدة الجليلة ــ الجميلة أيضا ــ ويحكى عن مغامراتها بطريقة تبدو عارضة ولكنها مقصودة ، فنعرف ان قد كان لها بدل الزوج ثلاثة كانت حياتها معهم صاخبة ، عنيفة ، اكتنفها الدم ، وطعنها الزوج الثالث بحربة ذات ليلة خرج فيها الضيوف عن الوقار وتضاربوا بالمقاعد وأكواب الزجاج . وفى اشارة عابرة أخرى لماضى السيدة يذكر محمد مستجاب انها كانت عقيما ، تسعى جاهدة الى الانجاب . وبهذا نفهم السر الأعمق فى احتضانها نعمان ، فهو ليس احتضانا جنسيا فقط ، وانما هو سعى الى التبنى والتنفيس عن امومة مكبوتة . يؤيد هذا ، اتصال اهتمام السيدة بنعمان ، بعد الليلة العابثة ، وانقاذه من موت محقق بتوفير العناية الطبية له .

ان ابرز ما تحققه « التاريخ السرى لـ : نعمان عبد الحافظ » ــ على المستوى التقنى ــ هو تحويل الراوى الى مؤرخ مزيف يلعب لعبة التأريخ . وهذا التحويل يحقق ــ وحده ــ قدرا كبيرا من الفكاهة التى تحفل بها الرواية . كما أنه يدفع بتقنية الرواية الى الشكل التفخيمى للأفراد العاديين بغية الضحك من ساداتهم ومنهم أيضا ، على نحو ما فعل الكتاب العالميون الذين سلفت الاشارة اليهم .

اما التندر الساخر فانه يربط هذه الرواية البالغة الطرافة ، برواية اخرى تتخذ الأسلوب نفسه ، واعنى بها : « المتشائل » للكاتب الفلسطينى اميل حبيبى .

كذلك تحقق الرواية كسبا جديدا فى اساليب النظر الى الريف . انها لا تمجده تمجيدا رومانسيا ، ولا هى تعرضه عرضا سياحيا يتناوله من الخارج ، ويسعى الى اتحاف سكان المدن بذكر ما يجرى فى الريف من اشياء تدعو الى السخرية حينا ، والرثاء حينا آخر ، والضحك الصافى حينا ثالثا . ان « التاريخ السرى » تدخل الى قلب الريف ، وتدخل معه فى معركة هدفها عرض احواله ودعوة ضمنية لتغيير هذه الأحوال . كما أنها لا تصوره بمعزل عن المدينة قط ، بل تجرى مقارنة متصلة بين الريف والحضر .

وبعد ، فان « التاريخ السرى لـ : نعمان عبد الحافظ » ، هى رواية ذات مذاق خاص غير مسبوق عندنا ، وهى تحقق مكسبا لا شك فيه للرواية العربية . وليس من أقل ميزاتها الأخرى تلك اللغة الرصينة ــ دون تقعر ــ التى يتم من خلالها السرد ، والوصف ، وربط مظاهر الحياة جميعا بعضها ببعض ربطا عميقا يشير بقوة وعذوبة الى وحدة الوجود . ومرة ثانية تحقق الرواية هذا المكسب الأخير دون طبول ولا أبواق ، ولا ادعاء ، ولا افتعال . وانما هو كسب طبيعى مثل جريان الماء فى الغدير ، وغناء العصفور على الفنن ، وانغلاق البرعم عن الزهرة ، وتحول الزهرة الى

ثمرة ، وانبثاق الحُب فى قلب عذراء توشش لها الطبيعة المحيطة فى اذنها أن قد آن أوان الخصب والاخصاب .

بلد المحبوب

يوسف القعيد



فى نهاية « بلد المحبوب » . يقول العائد الى وطنه بعد غياب طويل : لابد من لقاء محبوبتى ، ولا مفر من فيضان النيل .. لابد .. لابد » .

غير أن هذا المطلب يتعذر على التحقيق . لا العائد يحصل على حبيبته ، ولا النيل يفيض . والاخفاق المزدوج وراءه سر . العائد ترك حبيبته وغاب عشر سنين . تركها دون وعد ، ولا أرض ولا أمل تستند اليه . وظن أنها ستقيم منتظرة أن يعود . ولكنها لا تنتظر . يقال لنا أنها تزوجت ولم تنجب . ويقال أنها غرقت فى ماء النيل . ويقال ان زوجها مهندس رى ، ذهبت تعيش معه بعد الزواج فى بقعة نائية تقع فى حضن ثلاثة انهار ، كلها نيل : جزيرة تحوطها أمواه فرعي رشيد ودمياط وتتم الحصار المائى حولها قناة توصل بين الفرعين .

أما النيل فكان قد وعد العائد — وهو فى ديار الغربة — أن يفيض على البلاد . يفيض لأول مرة من سنين ، يفعل النيل هذا لو أن الغائب عاد الى أرضه ووطنه . غير أن الغائب يعود فلا يفيض النيل . يريد العائد أن يغمس يده فى مياهه . فيجد الماء قد اصابه جزر مخيف . يسأل العائد نفسه : من خنق النيل ؟ فلا يحظى بجواب . وكان النهر العظيم قد زار العائد فى المنام وسأله : هل ألقى بفضلات جسده فى مائه ؟ هل بصق على هذا الماء يوما ما ؟ وكانت الاجابة بالنفى . فالعائد يقدس النيل وماءه كما كان أجداده الأولون يفعلون . انما الذى يدنس ماء النيل أن المصريين المحدثين سمحوا لأنفسهم بأن يشربوا ماءه ويلوثوا هذا الماء فى وقت واحد . من أجل هذا أصبح النيل سجينا ، عاجزا عن أن يغسل نفسه . لم يعد الشعراء يكتبون فيه الشعر ، لا ، ولا يغنى له المغنون . القت عليه قوى الشر غلالة داكنة انتظمت الهواء فلوثته ، وامتدت إلى النيل فأصابته بالعقم ، ثم شملت البلاد كلها ، فجف الزرع والضرع ، وأصبحنا نأكل ما يزرعه غيرنا ، ونسعى الى الرزق فى بلاد غير بلادنا .

لا غرو أن أصبح الرمز البارز فى رواية يوسف القعيد « بلد المحبوب » : هو العقم . حين يصل العائد الى بيت الحبيبة بعد سفر شاق ، يتبين له أنها تزوجت من مهندس رى . ويقال له أنها عاشت معه عقيما ، لم تنجب . رووا له فى قسم الشرطة أنها خرجت فى نزهة نيلية مع زوجها ، فاختل توازنها ، وسقطت فى اليم . لم ينقذها زوجها ، لأنه لا يعرف السباحة . اكتفى بانتظار ان تنقذ هى نفسها وتخرج من الماء قال ضابط الشرطة والدموع فى عينيه : كانت أرق وأعذب الجميلات ، اختارها النيل عروسا له ، بعد أن ضنت عليه البلاد بعروس ، هنا تغادر « بلد المحبوب » أرض الواقع المقنن وتدخل دائرة الرؤى والأوهام والتهاويل . ذلك أن العائد كان قد زار محبوبته فى بيتها ، فقالت له انها انجبت ولدا وبنتا ، وانها اعطت الولد اسم العائد ، واطلقت على البنت اسمها هى . ثم خرجت معه فى نزهة نيلية ، حدث لها فيها بالضبط ما قال ضابط الشرطة أنه حدث للمهندس ، اختل توازنها ، وسقطت فى الماء ولم يستطع العائد أن ينقذها لأنه لا يعرف السباحة ، واكتفى بالانتظار حتى تنقذ الزوجة نفسها وتخرج حية من الماء .

هل تسكن فيللا مهندس الرى اشباح الماضى ؟ هل كان مارآه العائد شبح محبوبته وليس شخصها الحقيقى ؟ وهل مثلت معه قصة غرقها كما وقعت مع المهندس ؟ مثلتها وهى شبح ؟ أم أن العائد قد جن اثناء الزيارة ؟ أم انه كان مجنونا بعد العودة من السفر ؟ أم تراه جن فى منفاه الاختيارى فى أرض الغير ؟ لا نعرف على وجه التحديد . ولا نبالى . انما الغموض هنا مصدر ثراء للعمل ، والافصاح ضار وغير مطلوب . بدون دخول الأحداث أرض الخيالات والتهاويل كانت « بلد المحبوب » جديرة بأن تقف عند ما أسميته الواقع المقنن ، واقع يجيد فيه يوسف القعيد ملاحظة الأشياء ، وتصويرها ، واحتلاب معناها ، ويشفع هذا كله بالتعليق اللاذع حينا ، المتفجع احيانا ، يقول العائد فى وصف ظاهرة المال السهل الذى يحصل عليه البعض دون تعب : « جاء القرش فجأة ، قرش لا يعرف صاحبه من أين جاء ، ولا كيف جاء ، ولذلك يريد أين يتخلص منه بسرعة لأن القروش التى لا تشم رائحة عرق الناس ... تصبح بعد أن توضع فى الجيوب مثل البراغيث ، تقرص من يضعها فى جيبه » .

غير أن الواقع المقنن ليس هدف يوسف القعيد فى هذه الرواية . انما يريد أن يطلق صيحة تفجع لأن الماضى الذى كان جميلا قد ذهب ولم يعد ، والحاضر الذى جاء بعده اتى بشرور كثيرة ، تحولت معها مداخل العمارات الى بوتيكات ، وأصبحت شرفاتها مكاتب يختفى فيها ذئاب وراء زجاج مدخّن ، واضحى الناس صفقات تسعى الى الربح ولا تبحث عن الحب . غاضت انسانية الناس كما غاض ماء النيل ، وأصيب الحب بالعقم كما أصيبت زوجة المهندس ،

وفر البعض من الواقع المستحيل الى راحة الجنون . كما حدث للغائب العائد .

صديق واحد فقط من أصدقاء العائد ظل على حاله ، بقى فى أرضه ، ورفض اغراء السفر واعراض عن العمل الاضافى وقرر ان يعيش فى حدود ما يكسبه من عمل واحد . قال ان هذا هو حال كل من يعملون حتى يسيل منهم العرق غزيرا . يأكلون فلا يشبعون ، ويتجنبون الجوع الذى يدفع الى الثورة . هذه هى « الحياة على الحافة » ، كما اسماها الصديق . حياة احتجاج على ما آل اليه حال الكل .

يقوم هذا الصديق بما يشبه دور العراف ، يريد أن يوضح لصديقه السبيل كى يصل الى محبوبته . يعطيه عنوانا أقرب الى عناوين الحواديت : تعيش حبيبتك مع زوجها وأولادها فى مدينة تنام فى حضن ثلاثة أنهار « يقول له هذا بعد أن يقرر أن واحدا من الاثنين قد خان الآخر : هو خان وسافر ، أو هى خانت ولم تنتظر ، ويسمع العائد هذا الكلام فيضع تبعة ما حدث على عاتقه هو ، ويقرر أن يخرج فى رحلة بحث عن المحبوبة ، التى أصبحت تعيش مع رجل آخر .

من هى هذه المحبوبة ؟ يوحى يوسف القعيد ــ بما حدث لها من بعد ــ بأنها ليست امرأة ككل النساء ، وانما هى رمز من نوع أو آخر . ربما ترمز لمصر التى هجرها العائد ، مع من هجروا ، فعقمت ، وبان عقمها حين تزوجت من « آخر » ، فلم يعط بطنها أى ثمر كانت كالنخلة العاقر أو الأرض البور ، مع أن ماء الخصب يحوطها من كل مكان . وبهذا المعنى تصبح « بلد المحبوب » حكاية سياسية تقول أن مصر قد عقمت حين تركت نهجها الذى سارت عليه فى سنوات الخصب ، وألقت بنفسها فى طريق حافل بالمخاطر والشرور . إن تبعة هذا التحول يتقاسمها النظام والناس معا . النظام يشكل قوة طاردة ، دفعت ابناء مصر الى الاغتراب فى الخارج وفى الداخل ، وافقد مصر الهوية والاتجاه فسقطت فى أحضان « الآخر » . أما الناس فلم يفعلوا شيئا ذا بال لمقاومة الشر . اكتفوا بأن تنقذ مصر نفسها من الغرق ، ودفعوا بأنهم لايحسنون السباحة !

فى « بلد المحبوب » يحقق يوسف القعيد توازنا محمودا بين رغبته فى كشف الحجاب عن الناس والأشياء ، مستخدما طرقا فى السرد تقرب ــ فى بعض أعماله ــ من المادة الصحفية ، وبين كتابة أدب يجتاز الواقع ويسمو عليه ، وكان الميزان قد مال ميلا شديدا نحو المادة الصحفية فى ثلاثية القعيد : « نوم الأغنياء » و « المزاد » و « أرق الفقراء » وفيها بعض من ألمع التحقيقات وأكثرها تأثيرا فى النفس عن الأحياء سكان القبور ، ومشكلة النشر وكسل النقاد وغير ذلك ، غير أن هذه المادة الكبيرة ، الوافرة المعلومات ، تستند الى قصة فانتازية صغيرة الحجم ، صور فيها القعيد رب أسرة من سكان المقابر يقرر أن يبيع أفراد أسرته فى المزاد كى

يحصل على الرزق . والفكرة طريفه لاذعة السخرية ، غير أن القعيد يبنى فوقها بناء ضخما ينتظم ثلاثة أجزاء ، يهدف من ورائه الى هجاء المجتمع الفاسد الذى يحوطه ، ويطمع فى أن يكسر الايهام بين الكاتب والقارىء ، لتنشأ بهذا رواية داخل الرواية ، أو إطار روائى يحوط أحداث الرواية الأصلية . أما الاطار فهو يحكي عن متاعب كاتب يريد أن يكتب رواية ويسعى الى نشرها ، ويوضح ما يصادف فى طريقة الى الهدف من عقبات . وأما الرواية الأصلية فهى تصور ما يجرى لرب الأسرة وأفرادها من أحداث .

وكل هذا شيء مشروع ولا غبار عليه ، لولا أن قصة الأب وأسرته لا تحتمل ما يحمله الكاتب فوقها من آراء وأحداث وتعليقات ومعلومات ، فيصاب البناء كله — من رواية ورواية داخل الرواية — بخلل شديد .

أما فى « بلد المحبوب » ، فقد عاد يوسف القعيد من جديد الى « القصد الفنى » والأثر المكثف ، وتبنى — ثانية — الحجم الذى ألفناه منه فى روايات : « أخبار عزبة المنيسى » و« يحدث فى مصر الآن » و « الحرب فى بر مصر » ، وأضاف الى ما حققه من مكاسب فى هذه الروايات الثلاث هذا الدخول الى عالم الخيالات والأحلام ، وعرف كيف يوظف تراث عروس النيل ، ويربط بين إرث مصر الفرعونية ومصائب مصر الحديثة ، ليعمق من مفهوم العقم فى روايته :

مصر الفرعونية تقدم العروس للنيل فيفيض ويجلب الخير للبلاد . ومصر الحديثة تغرق منها عروس النيل ، فلا تستطيع ان تنقذها ، فضلا عن أنها لا تريد ان تقدم للنيل عروساً أصلا !

اذا كان ما قدمت من تفسير سياسى « لحدوتة » الرواية صحيحا ، فان نقطة واحدة على الأقل تبقى موضع تساؤل : هذا الصديق الذى لم يغادر أرض الوطن أبدا ، ولم يشتغل بالعمل الاضافى ، والذى يقرر أن يعيش على الحافة ، لا يجوع ولا يشبع ولا يثور ، ما موقعه فى الهجائية السياسية للرواية ؟ ان القعيد يوجه عواطفنا اليه ، ويكاد يوحى بأنه نقطة لامعة فى محيط مظلم يحوى المهاجرين الباحثين عن مال الغير والباقين الذين يهبشون مال البلد . فهل هو كذلك ؟ وما نفع البلد بمن يتقشف ويؤثر العافية ولا يدعو للتغيير ؟ وكيف يستقيم أن يقال انه يفعل هذا احتجاجا على ما آل اليه حال الكل ؟ أليس هذا الاحتجاج السلبى — بدوره — واحداً من مظاهر العقم التى تعالجها الرواية ؟ احتجاجا بلا معنى ولا جدوى ؟

وفى التفسير الذى قدمته — أيضا أن مصر لم تجد من ينقذها من الغرق : أن أهلها اكتفوا بالفرجة وانتظروا المعجزة . فهل هذا التعميم يطابق ما وقع بالفعل ؟ وكيف يطابقه وسجون « الآخر » ومعتقلاته كانت حافلة بالشباب المناضل والشيوخ الذين طعنوا فى السن ، ومن بين

هذين الطرفين من أطراف العمر من كل صاحب رأى وفكر وموقف ؟

أعلم تماما ان العمل الفنى ليس تقريرا دقيقا عن الواقع وأن شيئا من التبسيط قد يكون مشروعا لكى يوصل الكاتب فكرته الرئيسية الى الناس . غير أن هذا التبسيط يصبح موضع تساؤل حين يكون الحديث عن كاتب فى مثل وعى يوسف القعيد السياسى ، ووضوح رؤيته ، وحين يكون العمل تفجعا لوطن جريح وصرخة احتجاج ملتاعة على ما أصابه . هنالك يكون من حق كل من صرخ ، كل من احتج بالقول والفعل ، كل من زج به « الآخر » فى غيابات السجون — ان يقال انه لم يسكت ، لم يخن ، لم يبع ، وانه حاول ان ينقذ مصر من الغرق ، فجرت الأحداث ، بغير ما كان يصبو اليه .

غير أن هاتين الملاحظتين لا تسلب « بلد المحبوب » شيئا ذا بال ، ويبقى العمل ممتعا ومفيدا معا . وينضم — بهذا — إلى خير ما أنتج يوسف القعيد فى فن القص .

الناب الأزرق

فؤاد قنديل



ما أن تبدأ أحداث رواية : « الناب الأزرق » حتى تدرك على الفور أن شيئا غير عادى يكتنف الرواية ، ويعارض الواقع الذى ترتكز عليه فى البداية .

أم ذات جسد طويل وعريض ترضع ولديها اللذين تجاوزا سن الرضاعة بسنوات ، وتترك لهما الجسد والثديين واديا يرعيان فيه . ايماءة أولى هذه بأن « الأم » تعنى شيئا آخر الى جوار المعنى الواقعى ، ايماءة يدعمها الكاتب بالاشارة الى الجسد ـــ الوادى الذى تتركه الأم لولديها كى يرعيا فيه .

ويطرق الباب طارق تحفل الأم لطرقاته ، لأنها تعرفه ، ولأنها يضايقها بالحاحه ، ولأنها لا تريده زوجا لها كما يهوى و يختار . ولكن الطارق لا يترك الطرق حتى يفتح له الباب ، يدخل عثمان : رقيق . لزج . ثعلبى المكر ، ثعبانى الفحيح ، فلا يزال بالأم يجادلها ، ويحاورها ، يعرف متى يجذب الخيط ، ومتى يرخيه ، حتى تخضع له المرأة وتوافق فى غير حماس على أن تفكر فى أمر الزواج منه . كانت أقوى حججه أنها الآن أرملة ذات ولدين ، وأن المرحوم لم يترك لها غير الهم . ثم إنها ـــ وحيدة ـــ لن تسلم من القيل والقال .

يخرج عثمان فرحا بالوعد ، فتأخذ المرأة تفكر فيه ، ويروعها أنه يتراءى لها فى صور متعددة فمرة هو أبيض اللون ، ومرة ثانية هو أحمر أزرق العينين ، وثالثة رفيع ناحل العود ، ورابعة هو قصير مستدير الوجه جاحظ العينين . أما اليوم فهو قمحى البشرة ، بلا جروح أو ندوب ، كما بدا لها ذات مرة . ولا تدرى المرأة أهو خيالها الذى يصور لها كل هذا التحول فى ملامح عثمان أم أن للرجل قدرة خرافية على اعادة تشكيل قسمات وجهه وصفات جسده . غير أن الصفات التى يخلعها الكاتب على عثمان ، توحى الينا بأنه اشبه ما يكون بشخوص القصص الخرافية .. هو ثعلب ، وثعبان ، وهو يقعى أمام المرأة كما يقعى الكلب .

فاذا مضينا فى قراءة الرواية تكشف لنا ان لعثمان — بالفعل — قدرة على تغيير مظهره وبعض ملامحه . أول ما ظهر فى الحى كان هيكلا عظميا ، أسود الوجه ، مدبب الأنف ، غائر العينين . ومن ثم قرر أن يستغل مظهره هذا فى التسول .

ومن بعد أصبح عثمان لصا ، وتاجر حشيش . ثم دخل السجن . وفى كل مرة كان يتغير فى المظهر والملامح . بعد واقعة السرقة ، اختبأ فى مسكن عشيقته نعيمة ، صاحبة خمارة البوظة . اختبأ شهورا حتى أمن المطاردة ، ثم خرج فاذا هو أصلع ، كبير الأنف ، مستدير القامة ، جاحظ العينين ، كث الحاجبين ، كان خلقا آخر ، وسلوكا آخر .

ولما خرج عثمان من السجن بدا فى صورة جديدة أخرى : كرش منتفخ ، وبشرة سمراء ، وشعر كشعر الزنوج ، ومسبحة فى اليد ، وخاتم ذهبى كبير فى خنصره الأيسر .

ثم يخلع الكاتب على شخصيته صفة أخرى ، فيجعل له نابين متدليين الى ذقنة ويوحى لنا ايحاء شديدا بأن عثمان قد تحول الى ذئب . وبالفعل تتسم صفاته شيئا فشيئا بصفات الوحش المفترس .

مازال عثمان يسعى حتى سكن حجرة بواب العمارة التى تقيم بها الأم ، ولم يضيع كبير وقت فى التخلص من صديقته وولية نعمته السابقة نعيمة — قتلها ولم يترك وراءه أثرا . ثم خدمته الظروف فاذا بالأم يموت عنها زوجها ، فيشعر عثمان أن الزمن يتحول لصالحه ، ويعقد العزم على أن يغير من هيئته تماما ، ويتبدى للناس فى صورة أخرى وهو أمر فى مقدوره دائما .

وما أن يفعل ، حتى يدمن قرع باب الأم ، فتسمح له هذه بالدخول ، ثم ترضى من بعد بالزواج منه . فلما يتفرد الرجل بالمرأة ينكفىء على صدرها ، ويأخذ يعب وحده من خير الثديين الكبيرين . ومن تلك اللحظة يتراجع المستوى الواقعى الذى كان يغلب على أحداث الرواية الى الآن ، لتأخذ تتزايد فيها سمات اسلوب اللا معقول .

هنالك نفهم أن وراء الواقع كناية . ان الأم هى مصر ، وأن ولديها من زوجها الأول والأولاد الذين تلدهم من بعد لعثمان هم أبناء مصر . وأن الثديين وما يدران هما خير مصر ونتاجها ، وأن عثمان هذا هو المستغل الداخلى ، وانه يمثل فئة بعينها من المستغلين تعيش على خير مصر ، ولا تفعل شيئا لرد بعض ما أصابها من هذا الخير الى ابناء الشعب وبناته .

ثم يمضى عثمان قدما فى استغلال الأم — مصر — فيقرر أن يقيم بالاشتراك مع ممول أجنبى اسمه هنتر مصنعا لمنتجات الألبان ، يكون ثديا الأم هما المصدر الوحيد للبن فيه . وبالفعل ، تؤمر الأم أن تلزم فراشها ويركب على ثدييها شفاطتان من المطاط متصلتان بخراطيم تخترق أرض الغرفة لتصب اللبن فى أوعية المصنع بالدور الأسفل من العمارة ، الذى ملأه عثمان وشريكاه هنتر

الأجنبى والدريدى المصرى ، صاحب العمارة ، بالآلات ، بعد أن طردوا أصحاب المحال الصغيرة التى كانت تشغل المساحة .

وتأخذ منتجات الألبان تشق طريقها فى السوق : زبادى ولبن مبستر وقشدة ، وأرز باللبن وجيلاتى .. الخ . وتروج هذه المنتجات ، رغم ارتفاع اسعارها ، تروج لأنها من نوع رفيع القدر من اللبن . وهى الى هذا أنيقة ونظيفة وجيدة التعليب .

وشيئا فشيئا تتحول الأم الى جسد بلا حراك .. فاقدة الارادة ، غير قادرة على الاحتجاج . الى أن يحدث شىء ما ينهى هذا الوضع الكابوسى اللا معقول . يتجمع أبناء الأم من زوجها السابق ومن عثمان ويتداولون الأمر بينهم ، فقد طردهم عثمان من بيتهم وحرم عليهم لبن أمهم الا اذا اشتروه مصنعا ، ودفعوا فيه فلوسا . ويقرر الابناء انهاء استغلال عثمان لأمهم بالقوة ، فيبذلون المحاولة وراء المحاولة ، حتى ينجحوا أخيرا فى اقتحام الشقة ، وخلع بابها ، وقطع الخراطيم ، ويتحدون عثمان تحديا واضحا صريحا ، فيترك هذه الشقة وهو يهدد بتحطيم الرءوس وقطع الرقاب . وبالطرد ، والتشريد ، والسجن ، والنفى .

غير أن الأبناء لايبالون ، وانما يسدون فتحات الخراطيم ، ويصلحون باب الشقة ، فلما تصبح لهم بيتا من جديد ، يتمدد كل منهم فى ركن ، وأمهم ترنو اليهم فى حنان .

قالت الأم : أنا يا ابنائى اليوم مبتهجة .

فقالوا بلسان واحد : وغدا يا أم ، إن شاء الله .

هذه هى الأحداث التى سعى فؤاد قنديل الى ايصالها الى قرائه ، مستخدما اسلوبين متمايزين يحملان معهما خطر التناقض ، هما الأسلوب الواقعى ، واسلوب اللا معقول .

غير أن فؤاد يقبض بيد قادرة على الخيطين المتنافرين فيجدلهما بلا نفور أو نتوء فى نسيج روايته ، مقررا — فى حكمة — أن يترك المستوى الواقعى للشخوص التى لا تعنيه كثيرا ، مثل نعيمة ، المرأة السمينة صاحبة حمارة البوظة ، التى تسعى — دون أن توفق — الى امتلاك عثمان .

وحين يدير فؤاد قنديل احداثه على المستوى الواقعى هذا يظهر كفاءة واضحة ، مما يدعم اقتناعنا بأنه ما لجأ الى اسلوب اللا معقول لأنه لا يحسن الكتابة على مستوى الواقع ، وانما لأنه قدر — مصيبا — ان اللا معقول يمنحه فرصة ثمينة تشجب الاستغلال وفضحه بطريقة تجمع بين الوضوح الكاريكاتيرى والتسخيف الهجائى اللاذع .

لقد استطاع عن طريق المشروع البالغ الشذوذ — مشروع استغلال اللبن الآدمى وسيلة للكسب غير المشروع — أن يقول ببساطة أن كل شىء يدر المال هو فى أعين المستغلين مصدر مقبول للعمل والربح . وأن الانسان فى نظر المستغلين لا يعدو أن يكون بقرة أو جاموسة يجب

استغلالها الى آخر نقطة .

ولقد مهد فؤاد قنديل لتداخل الواقع فى اللا معقول منذ البداية . عن طريق شرب الأولاد الكبار للبن الأم ، ثم عن طريق شرب الزوج عثمان ، ومن بعد شرب أصدقائه وحوارييه لهذا اللبن ذاته ، وأوحى منذ البداية ان عثمان ليس مجرد آدمى عادى ، بل هو مثال الشر الخالص ، القادر على التشكل والتحول ، المصمم على أن يعيش على حساب الغير ، وعلى حساب البلد الذى أنجبه دون أن يطرف له جفن . فهو — كما يقول فؤاد قنديل — لا يعرف الا نفسه ، ولا يبحث الا عن ذاته ليعشقها ويحرق البخور حولها ، تعبدا .

واستخدام الكاتب اسلوب اللا معقول لخدمة هدف ايجابى مثل فضح الاستغلال الداخلى والخارجى ، والأخذ بأيدى ضحايا الاستغلال ودفعهم الى العمل من أجل التخلص من شقائهم ، يمثل اتجاها ذكيا لدى كتابنا فى مصر ، منذ أن عرفنا مسرح اللا معقول فى أوائل الستينات ، وقام بيننا جدل كبير حول جدوى تقديم أعمال بيكت واينسكو على المسرح . فقد رأى البعض منا آنذاك أن فى عرض هذه الأعمال تبديدا للطاقات الفنية ، وتحريضا للفنانين والناس على المضى فى طريق التشاؤم المسدود الذى كان فن اللا معقول يشير اليه بوصفه مصير الانسان فى العصر الحديث .

على أن الذى حدث ان كتابنا فى مصر استغلوا مجرد الأسلوب الفنى لمذهب اللا معقول ، واتخذوه قالبا لأعمالهم ، وشحنوه بطاقة ايجابية ، مثلما فعل سعد وهبة فى مسرحية : كوبرى الناموس .

وها هوذا فؤاد قنديل يخطو فى هذا السبيل خطوة أوضح وأجدى من خطوة سعد وهبة ، فيستخدم عنصرى السخرية والتبسيط الكاريكاتيرى وسيلة فاعلة لخدمة الهدف النبيل الذى ترمى اليه روايته .

وهنا ينبغى أن أوضح الطبيعة المزدوجة لفن اللا معقول . فهو على السطح متشائم ، صلد الفؤاد ، يهمس فى برود أعصاب مستفز . هذه هى نهاية الانسان : أن يتحول الى خرتيت ، أن تزحم عليه الكراسى والموائد وقطع الأثاث الأخرى حياته . أن يوضع فى صناديق القمامة .

غير أن وراء هذا البرود المظهرى تفجعا واحتجاجا دفينا على أن يكون هذا هو مصير الانسان بالفعل . ومن ثم تهولنا الصورة التى يرسمها لنا اللا معقول مستقبلا ومصيرا ، فيأخذ شىء ما داخلنا يدفعنا إلى أن نصرخ : لا ، لن يكون هذا مصيرنا أبدا .

ومن ثم يتيح فن اللا معقول ، لكل من يريد ، أن يستخدم هذا الجانب الايجابى فيه وسيلة لمحاولة انقاذ الانسان من المصير المؤلم الذى يصوره لنا هذا الفن وهو ما أدركه — ربما دون

تفحص ــ كتاب الستينات. ثم جاء استخدام فؤاد قنديل لهذا الجانب الايجابي شيئا مخططا ومدروسا . يشهد بهذا : التحول الليّن الذى تتحوله منذ البداية أحداث روايته الصغيرة هذه من الواقع الى اللامعقول .

وقائع حارة الزعفراني

جمال الغيطاني

تنشغل حارة الزعفرانى ايما انشغال بالشيخ عطية . ولى من أولياء الله يسكن حجرة ضيقة تحت سلم المنزل رقم ٧ من بيوت الحارة . حار أهل الزعفرانى فى أمر الشيخ . المعلومات المعروفة عنه غير مؤكدة . منقوله عن الآخرين . الصول سلام يذكر أنه زاره ومعه أمه وأخته كى يعمل عملا يخلص الأخت من عقمها . كان الصول فى الثامنة ، وكان الشيخ رجلا مسنا اذ ذاك ، فلابد أنه الآن قد تجاوز المائة وخمسين عاما . قال البنان انه لم ير الشيخ عطية يخرج من بيته ، لكنه عندما لجأ اليه منذ سبعة أعوام ليعد له عملا يلين به قلب ابنه الوحيد الذى رحل الى أوروبا ونسى والديه تماما ، كان الشيخ عجوزاً مسناً ، يتخلل لحيته البياض .

الشيخ يحتجب فى مولد الحسين . ركاب الدرجة الثالثة فى قطارات الصعيد يرون عجوزا يمر بين المقاعد ، يتلو شعرا يتضمن اسماء أصحاب المقامات والمشايخ وأولياء الله الصالحين . ويذكر بينهم الشيخ عطية ساكن الزعفرانى . المظاهر الأسطورية تحيط بالشيخ : سيرى القيامه بعينيه . ولد من بطن امه نابت اللحية . رتل القرآن قبل خروجه من الرحم . ماتت امه فور ولادته . لم ير الأهالى طعاما يجيء اليه أو بقايا تخرج من عنده . الجن يخدمونه ، يطيرون الى السماء ، يتسمعون ما تتهامس به الملائكة بخصوص مصائر الناس . نساء الزعفرانى يقلن أنه متزوج من جنية رائعة الحسن . يرحل الى أماكن مختلفة من العالم ممتطيا ظهر أحد المردة . قادر على اتخاذ هيئات مختلفة . ربما يتخفى فى القطة السوداء التى تمر الآن امام الناس .

احيانا يصمت أهل الزعفرانى عن ذكر الشيخ شهورا حتى يقع أمر غير ذى بال فيعود الحديث عنه . غير أنه موجود دائما ، لا يفارق الأهالى شعور بأنه على مقربة منهم . يعرف مايدور بينهم . هل هو وهم أم حقيقة ؟ حمدى الصحفى ، الذى جاء حارة الزعفرانى ليقوم

بتحقيق صحفى عن الشيخ ، فجذبته الحارة اليها ، يقول أنه يود لو قابل الشيخ ، وأصغى اليه . يخيل اليه ، أحيانا ، أن هذا الشيخ لا وجود له . حسان ، الشاب الذى تتلمذ فى الاشتراكية على يدى « الأسطى » رمانه ، المناضل اليسارى الذى خرج مؤخرا من السجن ، يلاحظ ان همسات كثيرة توحى بعدم وجوده فى الحجرة ، وأن الصوت الذى سمعه الأهالى فى بداية اعلان الشيخ عن طلسم العجز الجنسى الذى أطلقه على رجال الحارة ، هو صوت بلا مصدر . وقال آخرون انها مؤامرة من عويس ، المتحدث باسم الشيخ ، والصول سلام للتحكم فى الزعفرانى . بل ان ام صبرى تعلن خلو حارة الزعفرانى من الرجال ، قبل الطلسم وبعده . يصغى اليها الجميع ويدركون على مهل أنها تقدم بالهجوم على الشيخ نفسه . تقول انه لا يوجد رجل فى الزعفرانى يملأ عينيها ، والا ، فلماذا يسكتون ؟ هل سيجرى لهم أكثر مما جرى ؟ تجاوبها ام يوسف مؤمنة على كلامها . تقول ان بيوت الزعفرانى ستخرب بيتا بيتا ، والكل يتفرجون ، ولا أحد يتكلم ، لا أحد يحتج . وتصرخ : لماذا لا يتكلمون ؟ لماذا ؟

التكرلى أيضا يعلن أنه سيقاوم الشيخ . سيبلغ بأمره السلطات . علا صوته واصفا الأهالى كلهم بالجبن . سوف يحل بهم ما هو أفظع نتيجة تقاعسهم . اما هو فَسيترك الحى . تأخر حتى الآن على أمل اشتراك بعض الرجال معه فى مقاومة فساد الشيخ . لكنه لم يجد رجلا واحدا . لماذا ؟ لخلوا الزعفرانى من الذكور حتى قبل الطلسمة . توقع الأهالى أن يرد الشيخ على هذا التحدى السافر . ولكنه لم يفعل . بصق التكرلى على الحارة كلها ، ومضى يجمع حاجاته .

ما الذى حدث لسكان حارة الزعفرانى ؟ أخذ الرجال من سكانها يعانون من العجز الجنسى المهين . فذهبوا يستعينون بالشيخ . قال الشيخ انه قد نشر على الحارة طلسما هو سبب العجز . وأن هذا الطلسم هو من القوة بحيث لا يستطيع أحد أن ينجو منه . ان الشيخ يرى أن من الضرورى ان يكف أهل الزعفرانى عن المنازعات و الشجار ، و الاتصال الجنسى . من أجل هذا قام بطلسمة الرجال جميعا ، لأن الناس لا يتعلمون مما يمر بهم ولابد من تغيير عاداتهم بالقوة القاهرة ، حتى يمكن تغيير العالم ، واعادة الانسانية الى عناصرها الأولية . ان الشيخ لا يعد الزعفرانيين بتحقيق مؤجل لآمالهم ، بل انهم جميعا سيرون تحقيق ما وعدهم به فى حياتهم . وهذه الوعود تتخلص فيما يلى :

١ ـــ المساواة الحقيقية بين البشر . فمن الشائع ان هناك جنسا بشريا واحدا . لكن كيف يمكن وضع الفقراء والمرضى من ذوى العاهات وأصحاب الآمال فى كفة واحدة مع أغنياء متخمين ؟ هذا وضع يتطلب الاصلاح

٢ ـــ إنهاء كافة الخلافات والمنازعات بين البشر . فهناك اقتتال بين أصحاب المذهب الواحد

والفكر الواحد .

٣ ــ استئصال الأحقاد ، والأوجاع .

٤ ــ اجتثاث اسباب الآلام .

داخل هذا الاطار الذى يشكله الشيخ عطية وطلسمه وكراماته المعلنة والمجهولة وتهديداته ، وانذاراته ، ومنشوراته وتعليماته ، تتحرك طائفة من اكثر الشخصيات تنوعاً وغنى ، كل له حكايته الخاصة ، كل له مأساته الصغيرة ، وكل محبط ، محطم القلب ، راغب فى الفرار من قدره ومن عجزه . ذلك أن العجز الذى يتردد ذكره كثيرا فى الرواية . ليس عجزا جنسيا فى المحل الأول . انه عجز عن مواجهة الحياة ، والتغلب على مصاعبها الصغيرة والكبيرة . إنه فشل فى أن يتحرك الأفراد والجماعة لمحاولة اصلاح الأوضاع الخاطئة التى تسود حارة الزعفرانى . لذلك تقول أم صبرى أن العجز كان موجوداً بالحارة قبل الطلسم وبعده . فى هذا الضوء يصبح الشيخ وطلسمه اسقاطا من أهل الحارة على واعيتهم ولا واعيتهم معا . هم عاجزون عن الحركة ، ومن ثم فلابد من خلق مبرر يفسر هذا العجز ويكفيهم ذل الشعور بأنهم عاجزون لأنهم فاشلون . انهم عاجزون لأن قوة خارج ارادتهم ونفوسهم قد اصابتهم بهذا العجز .

ان الشيخ عطية هو التجسيد الواضح لهذه الرغبة فى الهرب من الذات . ولعل فى هذا تفسيرا للشعار الذى قيل أن الشيخ قد اطلقه فى الحارة : « هذا زمن الفرار » . ان أحدا لم ير الشيخ بوضوح . عندما زاره بعض سكان الزعفرانى كان بالغرفة ضوء غير معروف المصدر ، لا يسمح لأحد بأن يطيل النظر اليه . لا تستقر العين على هيئته اكثر من لحظة . والشكل الذى رآه السكان يرشحه لأن يكون دمية تظهر للعيان ، ويجىء من ورائها صوته ويسمع كأنه قادم من كل مكان بالغرفة فيما عدا هذا ، فكل ما يصدر عن الشيخ من تعليمات وارشادات ، يأتى بالوكالة ، على لسان عويس ، أو المنذر الأول الصول سلام .

غير أن الشيخ ، وهو رغم كونه وهما اختلقه أهالى الزعفرانى ، يقوم بدور هام فى حياة الحارة . خوفا من تهديداته يعرى بعض السكان بعضهم البعض دفعا للتهم عن كل واحد منهم . ايمانا بقدرته على التغيير ينفسون عن احلامهم وآمالهم فى التغيير ويسندونها الى أقوال مفروض ان الشيخ قالها . وجوده الطاغى ، يدفع بعض سكان الزعفرانى الى التمرد عليه ، والشك فى وجوده ، ثم الانتقال من الحارة احتجاجا على سوء حالها وجبن ساكنيها .

وكما قلت آنفا ، لكل من سكان الحارة حكايته ومأساته . هناك حكاية عاطف وحبيبته « رحمة » قدمها عاطف لتوأمه الروحى : « نبيل » . طالما حدثها عنه حتى عرفت عنه كل شىء . ادق تفاصيل حياته وعاداته . حدث نبيل أيضا عن فرحة اللقاء الأول . حدثه عن اليوم

الذى قالت له فيك : « احبك » . وعرف انه اتصل بها تليفونيا او اتصلت هى به . فسعد أشد السعادة . أبهجه ان تتعرف حبيبته الى توأم روحه . كأن حياته قد امتدت امتدادا جديدا بتعرف الواحد منهما الى الآخر ثم حدثت جفوه ، وانتقلت رحمه منه الى صديقه نبيل . لم تغادر صورتها ذهنه قط . ماذا لو التقى بها فى مستقبل قريب ، تدفع امامها عربة صغيرة ، يرقد فيها طفل مليح ؟ تذكر صورة لرحمة كتبت عليها : « الى حبيبى الوحيد فى العالم . والى الأبد : عاطف » . يوشك الآن على الابتسام . لم يدم هذا الابد الاّ شهورا . منذ تلك الليلة الربيعية لم يرها . استمر فترة مقتنعا أنهما لو التقيا صدفة فسيزول الحلم البغيض : تبتسم . تنتفض لحظاتها الحلوة . يدب النماء . لم يدر الا فيما بعد أن ضوء حجرتها الذى رآه من الشارع اضاء لها حقائبها . ساعدها على ترتيب ملابسها التى لمسها وشم رائحتها مرارا : الفستان الأصفر المنقوش بورود حمراء . الأخضر الذى تتناثر فوقه أوراق نبات صفراء . طاقم السهرة الأسود . القميص الداخلى المائل الى الاخضرار المحفوف بالدانتيل . كل هذا اعد لرجل آخر وجه الطوبة فأصابت مقتلا .

تتوثق علاقة عاطف بحمدى الصحفى . حمدى هو الآخر له حكاية مشابهة . أحب زميلة له فى الجامعة . قال زملاؤه ان حبهما ظل سنوات الدراسة نارا لا تنطفىء . يذكر هو حياة بأكملها ولدت لحظة لقائهما فى الجامعة : البدايات المترددة . التصاعد السريع المشبوب الأوار . جرفا امامهما كل العقبات : تهديدات أبيها بقطع مصاريف اقامتها مشيهما المسافات الطويلة . تدبيرهما القروش القليلة ثمنا لكوبين من عصير الليمون . بحثهما عن مسكن صغير . بهجة عينها عند عودتها من السوق بعد شراء شىء للبيت الجديد . مشيهما فى طريق جانبى على النيل ، حين تطاولت على اصابع قدميها وقبلته . قالت انها تتحدى المدينة التى تراقبهما باستمرار . سلام ما بعد الارتواء فى ضوء الغرفة الناعس . تسرب جسدها الى جسده . كيف يستمر الحب سبع سنوات كاملة حتى ينتهى بالزواج ، ثم ينتهى الزواج بعد أربعة أشهر .

سأل نفسه ما السبب . لم يستطع الاجابة . قالت هى ان حياتهما لن تستمر لأنها تريد أن ترى الدنيا . ان تنطلق لتسهم فى تغيير العالم . لا تريد أن تتحول الى مُعِدَّة طعام ومربية أطفال ومنتظرة لعودته الليلية . حاورها . أبدت اصرارا مخيفا . قالت انها تعزه جدا وتحترمه ، وأنه سيجد الكثيرات غيرها . العالم واسع ومزدحم ، وكما التقيا سيلتقى بغيرها . ظن ان هذه احدى نزواتها الكثيرة التى تكتشف فيما بعد خطأها . غير أنه اكتشف ان شهرت لم تعد تخصه . انفصلت عن دنياه . طرق باب غرفتها فقالت : نعم ؟ خرجت اليه فأوشك على الانهيار عندما رأى حضورها الذى أحبه . قال انه سينفذ رغبتها . قالت : شكراً . عاد الى غرفته مهجورا . خربا .

وهناك حكاية التكرلى ونادية . حكاية تبعث على الأسى وتدعو الى الخزى ، تزوج التكرلى من نادية . هو الآن فى التاسعة والعشرين . يتيم الأب منذ الرابعة . رفضت امه الزواج من أجله . ألبسته ملابس الفتيات وسمته « سميرة » دفعا للحسد . نشأ ملتصقا بها . يوقظها ليلا حين يدخل الحمام لتقف تؤنس وحدته . يخجل اذا تحدث الى انثى امامها . لا يجرؤ على النظر فى الطريق . هو مع ذلك قاس . زمن خطوبته الى نادية كان ينتزع الحشائش بعنف ، ويدهس الزهور . ويكسر الأقلام ، لا يبقى القلم معه ثلاثة أو أربعة أيام ، ثم يأخذ بعضه ، يلويه ، ويستريح حين يكسره . يتمدد فوق السجادة . يعض طرفها . يتخيل نفسه ممسكا بسيخ حديدى يخترق به النساء المارات فى الشوارع . لم يضاجع امرأته مرة واحدة . يقدمها الى رجال من كل نوع . يريد ان يجمع عن طريقها ثروة قدرها بعشرة آلاف جنيه ، جمع منها حتى الآن ثلاثة آلاف وأربعمائة .

نادية زوجته عاشت وحيدة فى اسرتها . احبطها عدم حصولها على الاعدادية رغم ثلاث سنوات من الرسوب . تأكل مولية وجهها بعيدا . لا تشعر بفرق بين طعام وطعام . تلبس ما يُشترى لها من فساتين. لاتدخل نقاشاً. قالت والدة التكرلى محبذة خطبتها: أنها لا يسمع لها صوت. بقيت عذراء حتى فضها التكرلى بأصبعه. حين عرض عليها الانفصال التصقت به وبكت ، وقال انها لا تطلب منه شيئا . يكفيها رؤيته وشم أنفاسه وهو نائم . لو عادت الى اسرتها ستصبح خادمة لهم . معه هى فى بيتها . بعد قليل بدأ التكرلى يصحب اليها الرجال . هو مع كل هذا يغار على زوجته . أبسط كلمة غزل تقال لها فى الطريق ، أقل احتكاك متعمد بجسدها يجعله يخوض أعنف المعارك . وهى — من جهتها — تكتشف رغبة دفينة فى أن تَحب وتُحَب . خاطرت بنفسها وذهبت تلقى صديقها عادل فى أطراف المدينة . وهى مفتونة برقة نبيل ، الذى اوضح ان آخر ما يرغب فيه هو جسدها . قبل يدها ومضى .

علاقة التكرلى ونادية أساسها الاحباط . يثور التكرلى احتجاجا على قلة قدرته الجنسية أو انعدامها — فى الواقع — فيسعى الى الانتقام من نفسه ومن نادية ومن كل النساء . نشأته المتهافتة جعلت منه انسانا هشا يسعى الى تغطية ضعفه وهوانه بموجات من الغضب . افتقاده لذة الجسد حملته على أن يطلب رؤية امرأته بين أحضان الرجال اثناء المضاجعة . افتضاح أمره لدى « الشيخ » ، حفزه الى أن يكون من أوائل المتمردين عليه . شعوره بالانكسار وقلة الاستقرار الجأه الى تكوين ثروة من « كد » امرأته .

حياة نادية واضحة الاحباط . فشل متكرر فى الدراسة . حياة هامشية مع اسرتها ، عزوف عن معرفة الرجال ، وربما بسبب اهمال ابيها لها . جرأة شقيقاتها فى احوالهن المعيشية — احداهن

تقيم علاقات جنسية كاملة مع شباب العرب خاصة ، ثم تضن على خطيبها بأن يمس جسدها – كل هذا دفع بالقهر الى حياة نادية فقبلت المعيشة الشائهه مع زوجها العنين ، ووافقت بغير مقاومة على بيع جسدها لحسابه .

وبالرواية شخصيات أخرى محطمة القلب . نبيلة خريجة الجامعة ، التى لم يتقدم أحد لخطبتها ، رغم جمالها ، ووظيفة المدرسة التى تزهو بها على سكان الحارة . أبوها سكير مدمن ، ولا أحد يرضى بأن يصاهره . تحتار نادية ماذا تفعل بجسدها الظامىء الى الحب . يمضها ان يصادق عاطف الشابة الشعبية الجميلة رضوى ، ويعرض عنها هى .

والموسيقى قرقر ، الذى يمضى طول الرواية يشكو من عدم تقدير مواهبه ، ولا يفارقه الأمل فى أن يستمع اليه واحد من ذوى النفوذ الفنى فيقدمه الى المستمعين ويضفى عليه الصيت الذى يستحقه .

وحسن افندى انور ، الموظف حامل الشهادة المتوسطة ، الذى يتركز أمله فى آن يصغى إليه مديره سيد بك ، ويتكرم باحترامه ، وربما يمنحه الحق فى تليفون بقرص على مكتبه . والذى يربى ولديه ليصبح أحدهما طبيبا والآخر مهندسا ، فيهرب واحد ، وتتدهور احوال الثانى ولا يتحقق فيه أمل ابيه ، حتى ليأخذ الجنون بتلابيب الأب ، فيخيل اليه انه قائد عسكرى وزعيم سياسى خطير ، وأنه يقود قوات ضخمة تجمع كل القادة العسكريين على مدار التاريخ من هانيبال إلى هتلر . ثم يزداد جنونه ، فيقرر انه قد دخل معركة حربية كبرى ، فقدها بشرف ، ولم يبق امامه الا أن يسلم نفسه بكرامة الى الأعداء .

وطاحون افندى غريب ، الذى يتبنى مشروعا لنشر الاشتراكية عن طريق حفر انفاق تحت الأرض يحتشد فيها الفقراء ، ويقطعونها وصولا الى الأجزاء المترفة من المدينة . حيث يفرضون وجودهم وحقوقهم على الأغنياء .

والمعلم الداطورى الذى يحلم باقامة عمارة كبيرة يؤجر شققها لنخبة من السكان يختارهم هو بنفسه . ويظل يحلم ويحلم حتى يبهت الحلم ويتلاشى ولا يبقى منه شيئا .

كل هؤلاء الفاشلين ينشرون على الحارة حالة من الضياع ، وفقدان الهدف ، تروج معها اسطورة الشيخ عطية ، التى يظن بعض السكان انها مؤامرة من عويس والصول سلام للتحكم فى الحارة ، وفرض الاتاوات على السكان ، ومحاولة الحصول على ثروة « رأس الفجلة » تاجر التحف والانتيكات ، الشائه الوجه . الذى تزوج من فريدة فائقة الجمال ، واغرقها بالهدايا وبالحب ، ومع ذلك فقد تركته وحيدا ، وجذبت معها ابنتها .

بالرواية مواضع يرقى فيها القص والمحتوى الى مستوى الأدب الجيد المؤثر . ومن امثلته وصف

احوال « روضة » التى طلقت بعد أن قاست الفقر طويلا مع زوجها وبعد أن تحرك فى احشائها الجنين . ظلت تقول لنفسها ان الأمور ستتحسن عندما تبلغ الخامسة والعشرين . كانت فى الثامنة عشرة حين طلقت فى سنوات زواجها الأولى بدت الأحلام سهلة التحقيق ، ثم عدا عليها الزمن وفترات بطالة زوجها، فقال الزوج أنه لايستطيع اطعامها فجعلت تذهب إلى أمها مع الوليد، تنتظر ميعاد الغداء حتى تشبع من جوع استمر يومين . ثم اخذت الأيام السوداء تهل . عرفت الفاكهى ، وطالب الأزهر . وها هى ذى تسعى الى الاقتراب من عاطف الجامعى . لعلها تجد فى احضانه عزاء عما قاست .

ومن أمثلته أيضا قصتا الغرام الفاشل اللتان مر ذكرهما ، فان الغيطانى يقصهما بكثير من العذوبة ورقة الشعور ، ومحاولة النفاذ الى ما وراء اسرار النفس البشرية ، من تناقضات وغرائب .

والرواية غنية بالمحتوى ـــ ربما الى درجة الاتخام فى بعض الأحيان ، وهى أيضا تتعدى حدودا كثيرة فى وصف الجنس ، ما بين سوى وشاذ ، ولا تتحرج من ذكر أحوال البدن وتكشف عن عوراته ، وخطايا من يتوسلون به للوصول الى اهدافهم : مثل عويس الذى يضاجع الرجال فى الحمام كى يحصل على غرفة ويحقق حلمه فى امتلاك عربة يد يتاجر عن طريقها ويكسب عيشه . ومثل التكرلى بالطبع .

وأهم من هذا ان الرواية تبالغ الى حد ضار فى الاحتفاء بأسطورة الشيخ ، ونفوذه الطلسمى ، وتجعل من هذا النفوذ قضية عالمية ، ينجذب الكثيرون الى تأييدها أو الاعتراض عليها . وقد كان من الواجب ان تستغنى الرواية عن هذا الامتداد العالمى ، لأنه غير مقنع أولا ، وهو ضار بالرواية ثانيا . وفى تقديرى انه لو حذف هذا الجزء بما فيه من بلاغات بوليسية وادارية ، وتم التركيز على مايجرى فى الحارة أو خارجها على الصعيد المحلى ، لأصبحت الرواية أوفر حظا من النضوج ، وأجمل شكلا .

يوم تستشرى الأساطير

محمود حنفي



يبدو أن كتاب الرواية الجدد فى مصر قد حققوا كسبا هاما لهذا الفن الجميل . اكثر من واحد منهم فجر حدود الواقعية الصارمة ، وانطلق محلقا فى أجواء فسيحة . بعضهم مثل : فؤاد قنديل ، استند الى الواقع ثم تسرب منه إلى أرض اللامعقول ، فى روايته : « الناب الأزرق » .

والبعض الآخر انطلق من الواقع الى الوهم ، واجرى بين القطبين حركة دائبة دخولا وخروجا ، على نحو يشبه ما فعله بيرانديللو فى مسرحياته . فعل هذا محمود حنفى فى روايته ، الاخاذة ، الكبيرة النضج : « يوم تستشرى الأساطير » .

غير أن محمود حنفى لم يفعل هذا وحسب . ولم يفجر إطار الواقعية الصارمة فقط ، وانما كتب رواية هامة حقا ، من وجهة نظر المضمون . والصنعة الروائية معا . فهو من ناحية الصنعة ، قد عاد مباشرة الى أسلوب الحكاية البسيط ، الخالى من تعقيدات لا مبرر لها ، وأفاد من طريقة السرد ونغامته وخيالاته النشطة السريعة الانبثاق ، تلك التى نجدها فى حكايات ألف ليلة مثلا ، كما انطبع انطباعا خلافا بالكتب المقدسة ، وصب روايته فى قالب الأمثولة التى عرفتها آداب القرون الوسطى — وجعل لها نبرة التحذير والزجر الشديد التى يستخدمها ذوو الرؤى حين يشعرون حتما عليهم أن يوجهوا رسالة تحذيرية الى بنى الانسان من خطر كبير يوشك أن يحل بهم .

لا جرم أن أحس القارىء أنه فى رواية : « يوم تستشرى الأساطير » أمام سفر رؤية جديدة ، يسميه الكاتب فى العنوان الفرعى للرواية : « سفر اخفاق العهد الحالى » . وسنرى بعد تحليل الرواية ان كان لهذا الوصف الجهم ما يبرره .

ثم استكملت الرواية شكل الحكايات المخطوطة ، باللمسات التى أضفاها الفنان عصمت داوستاشى على الصفحة الاستهلالية ، والتى كتبها بخط يحاكى سطور المخطوطات ثم قسم الصفحات الى أنهر ، نهران لكل ، واختزل الكتابة أحيانا فى شكل فقرة واحدة تحوطها الرسوم ، وغير ذلك من فنون الاخراج ، مما يجعل القارىء يلتفت إلى انه أمام عمل يستوحى التراث استيحاء مقصودا ، يهدف الى تحميل شكل الحكايات القديمة بمضمون معاصر .

أما موضوع الرواية فهو ليس أقل من : الانسان ومصير الانسان . ينتقل محمود حنفى الى هذا الموضوع العام عن طريق فردين صديقين يلتقيان بعد طول غياب ، ويروح كل منهما يقص على صاحبه ما جرى له فى السنوات التى فرقت بينهما .

سالم فى أول الرواية يركب سيارته وهو يقول لنفسه : « الآن تخلصت من كل شيء ، بلا عودة على الاطلاق » . غير أنه ما يلبث أن يصدم بسيارته رجلا يراه من بعد يتمايل ثم يتكوم على الأرض . ثم يتبين سالم أن الرجل لم يصبه سوء ، وأنه هو الشيخ أمين ، صديق الدراسة الحميم ، الذى غيبته عنه الأيام .

وسالم يحمل بين جوانبه مأساة . مأساة خاصة وعامة معا . هو من جيل الهزيمة ، الذى تجرع مرارتها صافية . هو وصديقه أمين درسا معا حتى المرحلة الثانوية ، وعندها توقف أمين ورفض مواصلة الدرس ، فقد كان الرسم قد ملك عليه شغاف قلبه ، فلم يستطع عنه تحولا . ثم تزوج من فتاة فقيرة ، بعد أن عثر على وظيفة متواضعة بالحكومة ، غير أن أسرة الفتاة عرضته لمواقف عصيبة من الاهانات المتلاحقة ، فطلق أمين زوجته ، وقيل أنها أصيبت بالخبل أو بالجنون .

أما سالم ، فقد واصل الدرس فى كلية الهندسة وأصبح مهندسا ، ثم التقطته ابنة رجل كبير فى الدولة وتزوجته ، عامدة متعمدة ! كان قد تعرف عليها اثناء الدراسة ، وفشل فى الزواج منها بسبب فقره ، ثم فوجىء من سنوات بالفتاة ذاتها تتودد اليه ، وتزين له الزواج بشقة جاهزة وأثاث فاخر ، وعمل لائق يعرضه ابوها . وتزوج سالم الفتاة ، وحصل له حموه على عقد بالسعودية وعاد الرجل بعد أربع سنوات ومعه المال الوفير وأصبح ثريا .

غير أن سالم لم يكن — فى واقع الأمر ... قد تزوج ، وانما سقط سقوطا مدويا . زوجته كانت قد تورطت — قبل الزواج — فى علاقة مع رجل آخر ، وعرف سالم بهذا فقال لنفسه : اننى رجل مستنير ، فان فقدت فتاة عذريتها دون زواج فى مجتمع يتفشى فيه القمع والجهل والحرمان فان هذا أمر متوقع لا يستحق التضخيم . ومن ثم عمل سالم فى مكتب حماه ، مشاركا ، وأصبح الثور ذا الكفاءة العالية ، الذى يدور مغمض العينين فى ساقية المكتب التى لا تهدأ . وشارك —

بالصمت — فى جرائم كثيرة كان يرتكبها حموه ضد المتعاملين معه ، وتلوثت يداه بدماء العمال الذين ذبحوا أمامه ، وثلم شرفه بالاشتراك فى سرقات المكتب ، بينما ضرب على بعد متر واحد منه موظف ، وفصل من عمله بلا تعويض ، ولم يسمع أحد احتجاجه وأحكمت الزوجة قبضتها على زوجها ، وكرهها هو كرها شديدا فأصبحت فى نظره حية رقطاء ، ثم تجسدت فى وهمه حية سامة مدمرة ، وأصبح الوهم « حقيقة » ، وأضحى كل من تتعامل معهم الزوجة من أصدقاء وصديقات : ضفادع وسحالى وفئران . نظر سالم الى مدعويها الى حفلة عيد ميلاده الأربعين فوجدهم جميعا كذلك .

ويحكى أمين قصته لسالم بالتفصيل : فقد أيقن بعد أن ترك الدراسة ، ان الرسم والفن عامة هو قضية حياته. ودفعه هذا اليقين الى غشيان مجتمع الفنانين : فقراء كانوا كلهم ، تسحقهم الهزيمة ، ويمنعهم الحرمان من التعبير عن الذات . وكان بين هؤلاء قلة من الماركسيين ، فحسبتهم السلطات كلهم على بند الشيوعيين ، ثم قبض عليهم جميعا وأفرج عنهم بعد أيام وطلب اليهم ، وأمين بينهم أن يعملوا جواسيس لسلطات الأمن فى التجمعات السياسية . فضعف من ضعف واستسلم من استسلم ، إلا أمين أبى ، ليس لأنه مناصر للماركسية ، وانما لأنه يكره السياسة أولا ، ولأنه لا يحمل مؤهلات الجاسوس ثانيا : وقد حسبت السلطات هذا الموقف عليه ، وسيق الى السجن بعد أن تصادف وجوده مع صديق له مطلوب فى قضية سياسية ، وخرج من السجن بعد شهرين حين لقيه سالم . بكل مقياس أصبح أمين فاشلا ، وارتد شريدا ، جائعا ، جواب آفاق ، ونزيل ارصفة . ولكنه آثر الجوع ، بل والمسغبة على أن يستسلم . ليس لرجال الأمن ، فقد كان هؤلاء — فيما يبدو — قد نفضوا ايديهم منه على اعتبار انه انتهى ، وانما لمن هم أخطر من رجال الأمن : صوت كان يسمعه يتردد فى سمعه يقول له : قد قضيت على نفسك . انت فاشل ، والنجاح هو القيمة الوحيدة الباقية . انت فنان موهوب . بع فنك . اتجه الى الزخرفة والديكور فى الشقق والدكاكين . قدم المألوف . لا تبتكر . ولا تتعال على الذوق العام .

ولكن أمين كان يثور على الصوت المدمر مؤكدا أن الأصل عنده هو التعبير . وأن الفن ينبغى أن يغير الأشياء لا أن يعتمد على ما هو قائم .

وهذا الصوت الذى يتردد فى سمع أمين ، مضافا اليه ظاهرة أحلام اليقظة التى تتراءى لكل من أمين وسالم ، هما وسيلتان فنيتان يلجأ اليهما محمود حنفى ليمد فى أبعاد روايته بادخال عنصر الوهم على الحقيقة . يسود صمت بين الصديقين ، بعد أن أتم أمين سرده لقصة دخوله السجن ، « فيرى » فى خياله ضابط المباحث يدخل عليه . ولكن الضابط يجد أمين مدججا

بالسلاح ، فيمطر الفنان الضابط برصاص مدفعه الرشاش ، وفى المحكمة يضعونه فى القفص ، وينظر الى المدعى العام وهو يزأر ويهدد ، والى القاضى ذى الملامح الملساء المرتخية ، فيحس بالقرف ويبصق على كل الوجوه .

ويدخل سالم الحمام ، فيرى والد زوجته ، ويأخذ الرجل يغرى زوج ابنته بمزيد من السقوط : « هذا عالم المرء فيه إما قاتل أو مقتول . ولا أريد أن تقتل ، ولا أن تخسر النجاح الذى حققت » . ويرفض سالم صارخا : هذا هو الشيطان . وينظر الى الماء الذى اغتسل به فاذا هو يسقط من على جسده عطنا محملا بالقاذورات .

وفى الخيال يهدم أمين البيت الذى أخذه اليه سالم فى مكان ناء من الصحراء الغربية يشرف على البحر ، ويعيد بناءه من جديد ، فلما يعود سالم من الخارج ــ كان قد ذهب يشترى طعاما ــ يدخل البيت ويدخل الوهم معا ، ويروح يظهر دهشته لما جرى ويبدى الاعجاب بالبناء الجديد .

وحين تبلغ الرواية هذا الحد من امتزاج الوهم بالواقع نكون قد وصلنا الى نهاية العالم . الأرض مسطحة لا كروية ، وهذا هو آخر حدودها . وعند الحد يقف الصديقان . هنالك يصبحان مهرجين قريبى الشبه بمهرجى صمويل بيكت فى مسرحية : « فى انتظار جودو » ، اللذين يقطعان وقت الانتظار بألعاب سحرة السيرك والملاهى الليلية . « لعبة القبعة » أمين وسالم يتصارعان ، ثم يلعبان لعبة الأسئلة والردود العفوية ، ويستعرضان فى حوار يذكر بوضوح بمسرحية بيكيت ، ما يمكن ان يفعلا لقطع الوقت : موسيقى ؟ لا . نقرأ ؟ لا جدوى . نأكل ؟ فقدت شهيتى . التلفزيون ؟ يشاهدانه لحظات ثم يقوم سالم بهدوء ويمسكه ويحطمه .

لم يبق أمام الاثنين الا أن يموتا . فى مجتمع كمجتمعنا ، النجاح يساوى الفشل . لذلك يحرق سالم البيت الذى اقاما فيه ، ويقود سيارته بأقصى سرعتها ومعه أمين ، الى حافة الماء ، فتقع فيه ، وتغوص الى الأعماق فى ثوان .

خلال الضباب الذى خلقه تكاثف الوهم فى الجزء الأخير من الرواية ، يعترف سالم اعترافا اخفى بعناية كى يفاجئنا ، أنه قتل زوجته ، غير أننا بعد انقضاء المفاجأة نعود لنسأل أنفسنا : هل قتلها حقا ؟ أم توهم أنها أصبحت حية ، وأن قوات الملاحقة ، والمدعوين لحفلة عيد الميلاد ، قد أصبحوا جرذانا وضفادع وحشرات ؟ غير أن هذا لا يهم .

كما تعبر عن الكره الشديد أيضا رؤى أمين ، ورحلته الوهمية الى أرجاء الدنيا ، يتبعه الجائعون والمنبوذون والحالمون ، وما تنتهى به الرحلة من بصق فى وجوه زعماء العالم جميعا ، واتهام لرجال الاعلام والصحافة بأنهم أدوات الشياطين وللمثقفين بأنهم خونة انسان هذا العصر .

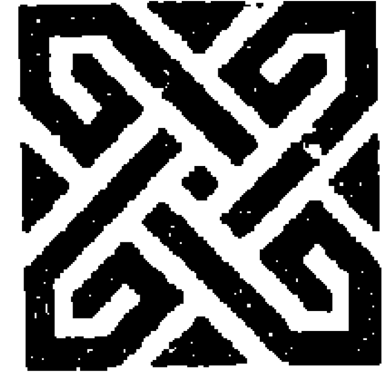
كل هذا يوضع فى حساب حالة الفجيعة الشديدة التى تنضح بها الرواية . وهى فجيعة ان بدت صادرة عن كره ، فواقع الأمر أنها تنبع من حب شديد مدفون ، وبكاء ورثاء للانسانية .

وفى هذا الضوء ينبغى النظر الى انتحار الصديقين : ان هذا الانتحار تحذير وفداء : عمل من اعمال البطولة التى يقدم عليها الراهب البوذى حين يحرق نفسه ، احتجاجا عنيفا على شر يراه ، ولا يستطيع أن يقاومه بغير هذا الطريق .

وهنا يصبح وصف المؤلف لروايته بأنها : « سفر اخفاق للعهد الحالى » غير وارد أو غير منطبق . ان الرواية ، رغم سوداويتها الظاهرة ، تخفق بروح الحب للانسان ، وتعلى قدرة الفرد على السمو على ذاته وتعكس اهتمامه « الوحشى » بكل ما هو خير و شر فى الدنيا . وهذا انجاز لا إخفاق .

بوابة مورو

سعيد سالم



البطل فى رواية الكاتب سعيد سالم : « بوابة مورو » ثائر فرد ، رغم ما يتحدث عنه من خلايا سرية ، وتفجير أول وضربة ثانية . ومعنى هذا بلغة التاريخ أنه يمشى فى طريق مسدود ، نهايته : اما الرصاص الذى انهال بوفرة على زميله فى الثورة الفردية : سعيد مهران فى « اللص والكلاب » أو على شاهين فى رواية الكاتب السورى حيدر حيدر : « الفهد » ، واما الاستسلام للضياع وانفاس المخدرات ، كما يحدث فى حالة أحمد السيد طلبه فى « بوابة مورو » .

وبين بداية الرواية ونهايتها ، يجرب المثقف المتواضع الأصل أحمد انماطا عدة من السلوك يتردد بين بوابة مورو ـــ الحارة الشعبية العريقة الجذور ، التى تحوى كل ما هو حقيقى ، ومتأصل وثابت فى حياته ، وبين قصر حسين فتحى ، رجل الأعمال الناجح ، الذى يخطف بصره بثرائه ونجاحه ، ودلال ابنته ، والذى تمثل حياته ما يتطلع اليه أحمد السيد طلبة فى السر : المال الوفير وما يجلبه من جاه ، وقوه ، واستمتاع .

ذلك أن أحمد السيد طلبة ثائر زائغ العقيدة . يرمى فى أعمق أعماقه الى أن يركب طبقة بأكملها عن طريق فتاة ـــ كما ود حسين يوما أن يفعل فى « بداية ونهاية » ـــ وإن كان ثمة فارق واضح بين الرجلين ، فان احمد السيد طلبة ـــ على عكس حسين ـــ يتحدث عن الثورة . ويستخدم مصطلحاتها ، ويقوم ببعض الجهد فى سبيل فضح اعدائها ولكن تطلعه الطبقى يظل دائما اقوى بكثير من كل ما يتشدق به من أقوال ، وكل ما يقوم به من أفعال .

وماذا يفعل أحمد السيد طلبة على سبيل مكافحة النهب المنظم الذى يقوم به « رجل الأعمال » حسين فتحى ؟ . يسمح لابنته سلوى أن تستولى على عواطفه ، وتبعده عن الفتاه الشعبية التى نشأ وهو يعتبرها خطيبته وزوجته المقبلة ـــ ماجدة ، الأنثى الشهية التى يتحلب لها

ريقه ، ويود أن يتزوجها بالفعل ، لولا ان تطلعه الطبقى أقوى من عاطفته . فسلوى ، ابنة الرأسمالى حسين فتحى تخايل بصره دائما ، ولا تزال به حتى تقنعه بترك وظيفته القليلة العائد فى القطاع العام ، كى يصبح احد العاملين فى شركة — أو شركات أبيها — وذلك رغم الخطب الحماسية الكثيرة التى دبجها لنفسه أحمد السيد طلبه فى فضائل العمل فى القطاع العام ، وضرورة مساندته ضد أصحاب المصالح الخاصة ، الذين ينهبون ثروة البلاد .

ومن ثم يصبح أحمد السيد طلبة واحدا من انشط العاملين لدى حسين فتحى ويتدرج راتبه فى الصعود ، ويعهد اليه صاحب العمل بمهمات جليلة فى خدمة الشركة . يسافر فى احدى هذه المهمات الى بون ، بعد أن اعطاه حسين فتحى رقم حسابه السرى ، وهناك يقدم على عمل خطير — يسحب كل أموال مخدومه ويصبح فجأة « رجلا ذا حيثية بين رجال العصابات الذين يسمونهم رجال الأعمال » ، كما يقول أحمد نفسه ، وتتراءى أمامه المواقف المختلفة التى يتيحها له المال المسروق . يقول لنفسه :

« المال مالى .. حصلت عليه بفكرى وجهدى .. سرقته من لص عالمى » .

ومن ثم يقرر أن يكون روبن هود اخر : يسرق الأغنياء ليعطى الفقراء . ينعم بالمال على نفسه وعلى طوفان التائهين فى أزقة حيه بحثا عن الرغيف وعن ضرورة أخرى يسمونها : العدالة .

غير أن أحمد السيد طلبه سرعان ما يتبين أنه ما خلق ليملك شيئا يستأجر له بضعة آدميين ليحافظوا له على ملكيته . فماذا يفعل اذن « هل يسلم المال للدولة ؟ ستعيده هذه لصاحبه ، رغم أن صاحبه هذا امتلكه عن طريق السرقة . هل يحرق مصنع حسين فتحى ليقيم مكانه مصنعا تعاقد عليه أحمد واشتراه وهو فى بون ؟ أم يبقى على المصنع القديم ويبقى فيه — أم يدرب نفسه على قبول فكرة الملكية ؟ وممارستها ؟

فى لحظة « صدق » ومواجهة مع نفسه المكدودة يقرر أحمد أن دوافعه حتى الآن كان مردها الحقد .. ! حقد ليس من أجل العدالة ، وانما من أجل نزعة فردية . ويزمع — بعد صراع لا يطول — أن يعود الى روحه ، رغم أن طريق العودة صعب ملىء بذكريات الفقر المرة . ويعجب لنفسه مع ذلك ، كيف تخلى عن اقتناعه بهذه السرعة — بهذه الطريقة . ولا يجد تفسيرا الا انه ابن ابيه ، الذى نصحه ذات يوم قائلا : يجب أن تتعلم كيف تحمد الله .

ويصاب حسين فتحى بصدمة عصبية تجلب عليه الشلل — لا يقول الكاتب لم ، ولكننا نستنتج ان هذا يحدث نتيجة علمه بسرقة أحمد لأمواله ، فيكون فراق بين سلوى وبين أحمد يتبين خلاله أحمد أن سلوى تقف بأفكارها ومصالحها موقفا مضادا تماما لموقفه ، ومع ذلك فهو مازال يحبها !

ثم يفقد أحمد أباه ويرد هذا الفقد النوم عن عينيه ، ويجعله يهيم على وجهه على شاطىء البحر لتلفت نظره حركة السباق الأزلى بين الأمواج . تشرق الشمس ثم تغرب ، وأبدا لا يتوقف السباق . لعبة لا جدوى منها . ما الفائدة اذن ؟ وفيم القلق والحيرة ، والخوف من المستقبل ؟ ألم يكن الوالد حكيما حين مارس عذاب الكدح وأدرك مع ذلك عدم جدواه ؟ لقد عاش الأب سعيدا لأن الشروق تساوى عنده مع الغروب ، والفقر عادل الغنى .

اذ ذاك يحس احمد السيد طلبه أن أباه قد حال بينه وبين السقوط من قمة الجبل الى السفح . فيقرر أن يبحث فى بطن الجبل عن الطمأنينة والحب والسلام . ويودع جمهوره الذى حلم يوما بأن يقود ثورته قائلا أحبائى .. أنا لست هاربا .. ؟ ثم يمضى من فوره الى غرزة أم شحات .. !

لم يحدث أن اضطرب بطل ثورى كل هذا الاضطراب بين مواقف عديدة متناقضة . لم يتأت لشاب يملك الوعى الكبير الذى ملكه أحمد السيد طلبه ، أن يتنازل عنه بهذه السهولة التى تستعصى على التصديق ولا تبعث أبدا على الاقتناع .

أهو جذب الوراثة عن أبيه ؟ يصف أحمد أباه بأنه وفىّ وغبى فى آن . أهو ثبات البيئة الشعبية التى ينتمى اليها أحمد ؟ لا أحد يثور فى هذه البيئة . كلهم يرضى . وحين يعدل أحمد عن حرق المصنع ، يقول أحد الذين وكلوا بهذه المهمة : « الطيب أحسن » .. ! ويعترض آخر على النكوص لمجرد أنه خروج على اتفاق جنائى وليس لأنه ارتداد عن مشروع ثورى كان المفروض فيه أن يحقق الصالح العام .

بل إن احمد ليتخيل ردود أفعال أفراد « شعبه » لقرار العدول عن العنف فى مواجهة حسين فتحى ، والعزم على اعادة أمواله الى الحكومة . يتخيل أحد الناس يقول : « رجل حمار . من يترك هذا النعيم ويرمى بنفسه الى الفقر ؟ » ــ بينما يقول آخر : « نصف مليون جنيه يسلمه للحكومة ؟ »

ثم لا يلبث أحمد أن يقول لنفسه : أيكون مصيره أن يفكر للناس نيابة عنهم ــ يفكر بمفرده فى التخطيط لمستقبل أفضل ؟ عاجزون هم عن ممارسة الفكر المنظم والعمل الدءوب ويبدو أنه صار أو سيصير مثلهم هو الآخر ــ غارقا فى غرزهم وحظائرهم ومفاهيمهم .

الواقع أن أحمد ولد ومعه عوامل انكساره . لم يخلص قط لثوريته . منذ البداية وضع سلوى المترفة فى مواجهة ماجدة الشعبية ثم اختار سلوى لأنها امتع بشمولها ــ جسد ووجدان وترف ــ وان ظل يشتهى ماجدة ويدعوها للحب بلا زواج ، لأنها جسد فقط .

وفى مقابل نفسه « الثائرة » وضع صديقه خالد ، غير الثائر . يسمع خالد بمشروع العنف فيقول لصديقه : « عبثا » . ويقرر أن أفكاره هو لا تعرف الحرق و العنف . وان الناس سعداء

كما هم وانهم جهلة لا يميزون بين يمين ويسار . وان براكين الحقد حين تنفجر تدمر الجميع .

ويسخط أحمد على هذه الرؤية للثورة والناس ، ولكنه سخط على السطح فقط . فان خالد هو بعض من نفسه . هو الجزء الذى ينتصر فى النهاية . هو القبول بما هو كائن . وهذا مايتبينه أحمد بنفسه ، وما ينتهى اليه .

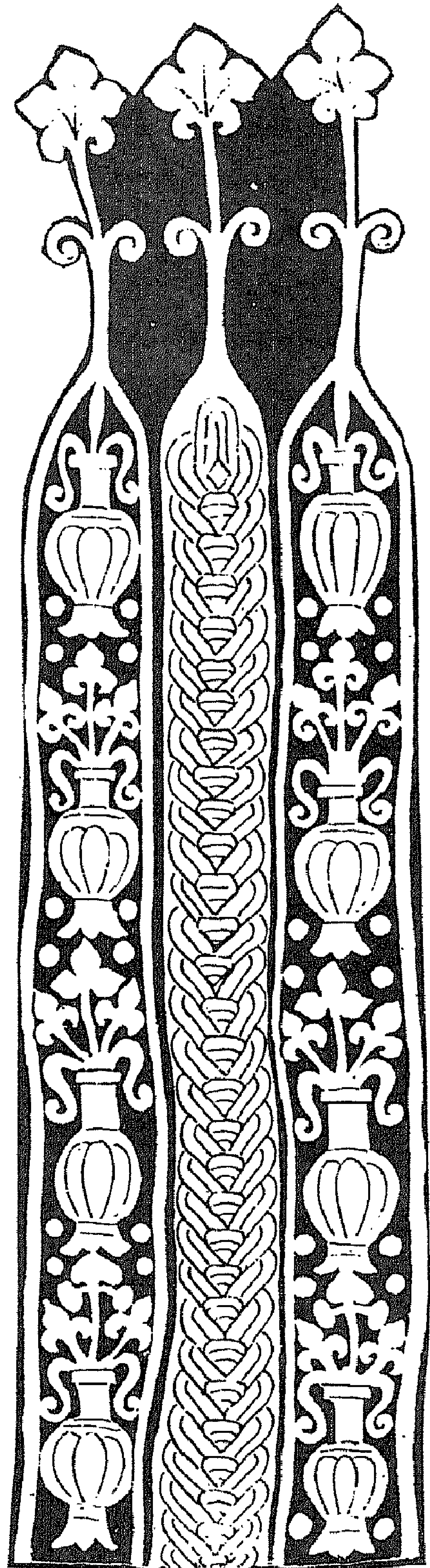
ليس يطعن فى رواية : « بوابة مورو » انها تقدم « ثائرا » متهالكا ، منقسما على نفسه . فان مثل هذا « الثائر » هو موضوع مشروع لأى عمل فنى . وليس من حق النقد أن يطلب الى الكتاب ان يكون أبطالهم الثوار مخلوقين من حديد ، لا ينالهم الضعف ولا يسد عليهم التردد والانكسار سبل العمل السوى .

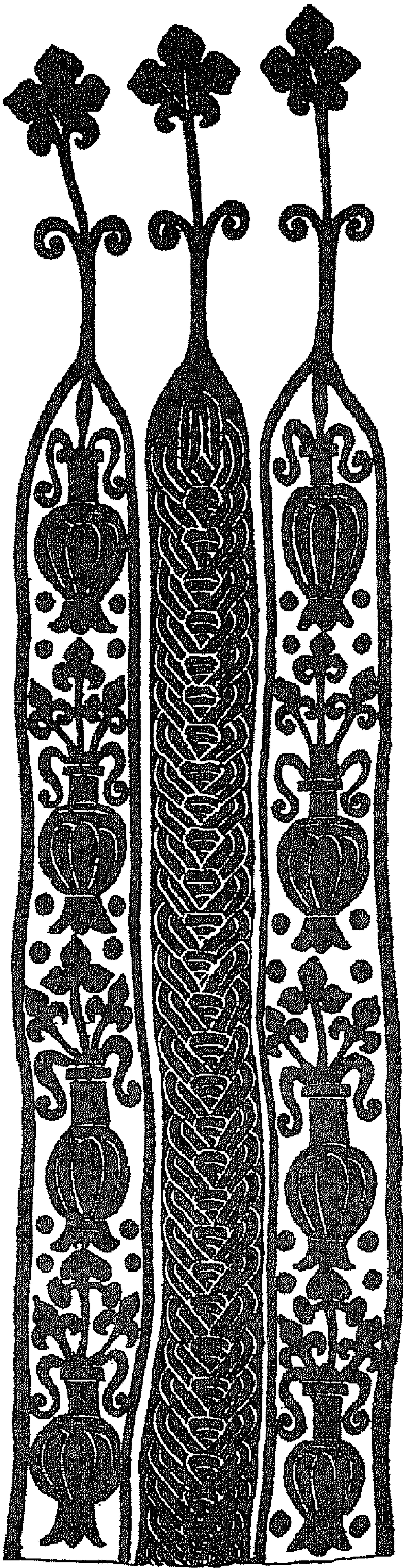
ان ما يستطيع النقد أن يطلبه ــ محقا ــ هو أن تكون رؤية الكاتب لبطله واضحة المعالم . الا يضطرب هو نفسه مع بطله المضطرب ، وانما يمسك بناصية موضوعه بيد من حديد ويحتفظ لنفسه بميزة الاتزان ، ويوضح لنا ــ فنيا ــ كيف تأتى لهذا البطل كل هذا الاضطراب ــ كيف دفع نفسه بنفسه الى حمأة الهزيمة . وكيف وقع البطل على الأرض ، رغم كل فضائله ونواياه الحسنة ؟ . وهذا ، ما لم يفعله ــ للأسف ــ سعيد سالم فى روايته . فان بطله يتحرك حركة زجزاجية بين الوعى وخمود الوعى . بين تبين الحقيقة ثم نسيانها ، ليكتشف اخر الأمر أن سلوى من طينة غير طينته ، ومن فكر مضاد لفكره . وهو أمر بديهى ، كان واضحا له تماما منذ البداية .

ومع هذا ، فمما لاشك فيه أن سعيد سالم قد قدم فى « بوابة مورو » عملا جادا ، يستأهل النقد الجاد . ومن ثم احتفيت به بالطريقة الوحيدة التى يستأهلها العمل الجاد ، وهى حملة على محمل الجد فعلا ، ومعاملته معاملة الفن القادر على أن يثبت للتحليل ، بما يعنيه هذا من استخدام لأسلحة النقد الثقيلة فى عرضه وتفسيره وتبيان نواحى ضعفه ومواطن قوته .

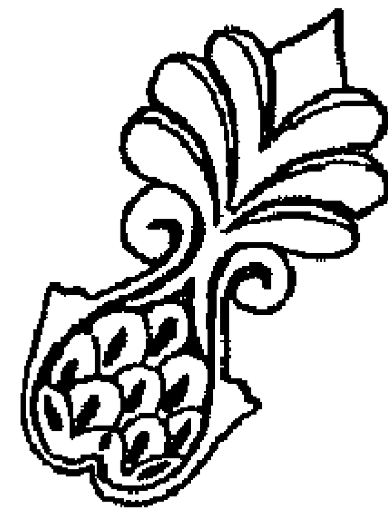
وعلى سبيل المثال تعداد بعض مواطن القوة فى « بوابة مورو » أذكر التصوير القوى لبعض الشخصيات وعلى رأسها الوالد : السيد طلبه فهو كبير كالحياة ، كما يقول الانجليز . ثائر فرد هو الآخر ــ متمرد يعانق الحياة بكلتا ذراعيه ، ويضطرب فيها اضطراب المستمتع المستنكف ، المستغنى ، يحبها ، ويجوس خلال طرقاتها المتعددة ، متعاطيا الحرف كلها ، مصرا مع هذا على أن تكون له الكلمة العليا فى قبول عمل أو رفضه . غير متردد فى أن يقبل على اللذات ليعود فيرفضها . يجمع بين حبه المشبوب لزوجته واقباله على عشق غيرها من النساء ، لا يجد فى هذا غضاضة حقيقية ولا تناقضا ، وإن أحس بالخزى لدى انكشاف أمره لدى ابنه . ذلك أن له مفهومه الخاص للأخلاق يبعد عن دائرة المعروف والمسلم به .

ثم تصور الرواية حياة شعبية كاملة ، عامرة بشخصيات كثيرة طريفة ومقنعة . « غواصة » ــ مثلا ــ الذى يعمل سائسا بحظيرة فى رأس التين ويجرى بساق ونصف ساق ويبيت آخر الليل مع الخيول كواحد منها . يسمع بالغزو الثلاثى والمعركة البحرية فيقول ــ هو صاحب الساق والنصف ــ دون أن يتبين المفارقة : والله لسوف أقطع رجل أول انجليزى . أمسكها وأدفنها عندى فى الاسطبل . وحشد من المطربين والحشاشين والبلطجية والقتلة المأجورين وباعة البخور والسبح والطواق والمغنين فى الأسواق الشعبية ولصوص معدات الجيش البريطانى والمتاجرين بالنساء والقاعدين كسالى فى الشمس غير عابئين بالزمن أو حتى واعين به وكل من أحبهم أحمد وشتمهم ، وغاظته بلادتهم ، ثم لم يستطع آخر الأمر إلا أن يلجأ إليهم عساه يجد الطمأنينة والراحة بينهم .





المشرق العربي

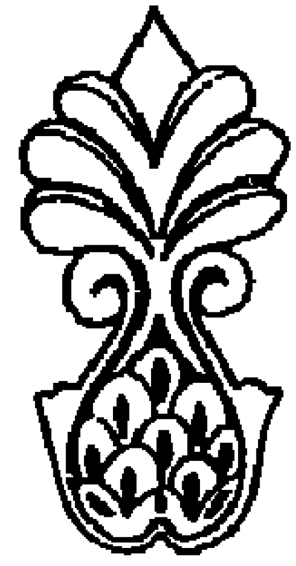


الرواية في فلسطين والأردن



المتشائل

إميل حبيبى



كان والد سعيد ابى النحس المتشائل قد علمه أن الناس يأكلون الناس وحذره أن يثق بمن حوله . وأوصاه أن يسىء الظن بكل الناس ، حتى ولو كانوا اخوته من بطن أمه ومن ظهر أبيه . فإن الناس اذا لم يأكلوا المرء فقد كانوا يستطيعون أن يأكلوه . لهذا — يقول سعيد ظل والدى — رحمه الله — يأكل الناس حتى أكلوه .

وظل هذا التوجس من الناس يملأ حياة سعيد ، حتى اغتصبت فلسطين ، وقامت الدولة العبرية ، فذهب يخدم الدولة الوليدة ، عملا بنصيحة أبيه ، الذى كانت له اياد على الدولة قبل قيامها .

ويقدم سعيد لنا نفسه : فهو الندل ، ندل السفرة ، وهو الإنسان الفذ ، مات الناس فى الحوادث ، أما هو فقد أنقذ حياته حماره ، وقع بينه وبين رصاص المعتدين ، فقتل الحمار ولم يمت هو . أليس هذا دليلا واضحا على أنه فذ ؟

أيضير سعيد أن احدا لم يحس به ؟ ابدا . إن من لا يحس به هو إنسان بليد . لقد ظهر اسمه مرارا في الصحف . مرة يوم انفجار البطيخة فى ساحة الحناطير . لقد ألقت شرطة حيفا يومها القبض على كل عربى ، من راجل وراكب . وذكرت الصحف اسماء الوجهاء الذين حبسوا سهوا . وأتبعت الأسماء بكلمة : « وآخرين » . وكان سعيد بين هؤلاء الآخرين . ودوما تذكر الصحف هؤلاء الآخرين . فكيف يصح القول بأن سعيدا لا نباهة له ؟

دخل سعيد الدولة الجديدة فى سيارة طبيب كان يغازل أخته . وقدم نفسه للسلطات فرحبت به ، عرفانا بما قدم أبوه من خدمات سابقة ، وجعلوه زعيم عمال فى اتحاد عمال فلسطين .

ونظر سعيد حواليه فوجد أمور الدولة الجديدة لا تمضى على ما يرام . لقد التقى بعامل يهودى لا يعرف العبرية ، فقرر أن الدولة الوليدة ليست بنت معيشة ، ووجد من الأسلم أن يحفظ

لنفسه خط الرجعة ، فذهب يزور المحامى عصام الباذنجانى ، وكان هذا لا يعترف بالدولة العبرية ولا بصحفها ، فحول بيته الكبير فى شارع عباس الى صومعة ينفث منها اللهب على دولة اسرائيل ، فتظهر تصريحاته فى التايمز ، والنيويورك تايمز وأمهات الصحف العربية .

تحسر المحامى على مصير سعيد الأسود ، ووعد بالعفو عنه عند المقدرة ثم سرد سعيد على مسامع الباذنجانى ما جرى له وما تورط فيه ، وما انتهى اليه من شك فى ديمومة الدولة اليهودية ، فباركه الباذنجانى وقال : يفرجها ..

ولكن الله لم يفرجها ..

ففى اليوم التالى ، استدعى سعيد ليمثل أمام رجل ربعه . فوق عينيه نظارة سوداء . فقال سعيد : هذا ضرير . وأقبل عليه مسلما قبل أن يمد الرجل يده ، حتى لا يحرجه فى عماه فزجره يعقوب ، رئيس سعيد ، وقال : تأدب فأنت فى حضرة رجل عظيم ، فوقف سعيد متأدبا . وانتفض الرجل العظيم واقفا فلم يزد طوله لدى الوقوف سوى شبر ، وصاح : إننا نعرف أين كنت أول أمس . « فقال سعيد فى نفسه : « اذا لم يكن ضريرا فانه اطرش » ، واقترب من أذنه وصاح أردت ان استنشق هواء البحر ، ممنوع ؟ فلطمه الرجل ، فلم يخطىء الهدف . فقال سعيد فى نفسه : لا أطرش ولا ضريرا بل هو رجل كبير حقا . وقرر أن يتصاغر له ، وقال : اسأل عنى الأدون سفسارشك (صديق والده) فقال الرجل : أم اسعد . وصاح أيضا : اخت . وصاح كذلك النرد . فعرف سعيد أن تحركاته كلها موجودة لدى الرجل الكبير . أم أسعد التى زارها من قبل والعامل اليهودى الذى سأله عن الساعة فقال بالألمانية اخت : أى ثمانية . والمحامى الباذنجانى الذى ألم به فوجده يلعب النرد مع عضو فى اتحاد عمال فلسطين .

فقرر سعيد انه كان تيسا حين زار الباذنجانى الذى يطلق فى العلن شواظ النار على الدولة العبرية ، وفى السر يعمل لحسابها .

وتباهى الرجل الكبير بقوة جهازه ودقته ، فما من حركة أو همسة الا وهو قادر على تسجيلها ، ثم ربت على كتف سعيد فى عطف أبوى وطلب إليه ألاّ يعود إلى المروق .

ولكن سعيد لم يشارك الكبير اعجابه بجهازه ، فان هذا الجهاز قد عجز عن أن يسجل شيئا خارقا حقا حدث لسعيد ، وهو التقاؤه برجل غريب جاء من الفضاء . سلم عليه الرجل وقال : الم تكن تبحث عنى ؟ فقال سعيد : طول العمر ياذا المهابة . فقال الرجل فماذا تريد يا سعيد ؟ فهتف سعيد : ان تخلصنى . قال ممن ؟ فلم يرد سعيد ، حذرا أن يكون الرجل من أعوان الحاكم العسكرى . ولكنه سأله من بعد : ما اسمك ؟ قال الرجل : سمنى بأى من الأسماء التى استراح اجدادك عليها : المهدى ، الامام ، المنقذ . فقال سعيد فانقذنا يا ذا المهابة فغضب الرجل

وقال : هذا شأنكم .. حين لا تطيقون احتمال واقعكم التعس ولا تطيقون دفع الثمن الباهظ ، تلتجئون الى ، انني انظر الى ما يفعله الآخرون وما يبذلونه فاغضب عليكم ، ما ينقصكم ؟ هل بينكم من تنقصه حياة حتى لا يقدمها ، أو ينقصه موت حتى يخاف على حياته ؟

المرج الساخر ، والفانتازيا يملآن على سعيد أبي النحس المتشائل حياته ، ويجعلان منه خلقا فنيا يتحرك فى أرجاء هذه الرواية الساخرة بالطول والعرض .

مهرج عظيم هو ، تطول قامته حتى قامة المهرج فى مسرحية شكسبير : « الملك لير » ويتردد مثل كل مهرج عظيم بين الانكسار والرغبة فى البكاء والضحك المغتصب يريد ان يدفع به الدموع لتعود الى مآقيه .

وفى خلقه انفاس قوية من فارس سيرفانتيس المجنون : « دون كيخوته » . كلاهما يتذرع بالوهم والخيال لمجالدة واقع مر كئيب ، وكلاهما ينتهى أمره الى الجنون بعد ان ادمى رأسه وروحه فى نطاح حائط الظلم الكئيب وكلاهما يترك وراءه أملا مضيئا ، واستبشارا هو فى حالة المتشائل اوضح واقوى اثرا ، لأن الطريق فى حياة سعيد ومن بعد مماته لم يزل يضيء وتستبين معالمه بفضل موجات متتابعة من المناضلين .

وفى حياة سعيد أبى النحس أيضا رمز بارز يتتابع استخدامه فى تنويعات مختلفة ، كى يومىء الينا بمعان متباينة ، ذلك هو : رمز الكنز ، والكنز قد كان دوما طلب عائلة المتشائل فمن شيمة عائلته النجيبة ان تظل تبحث تحت اقدامها عن مال سقط سهوا من صرة عابر لعلها تهتدى الى كنز يبدل حالتها الرتيبة تبديلا .

وأبو سعيد لدى استشهاده برصاص الصهاينة الذين خدم دولتهم ، كان يستشف الأرض بحثا عن الكنز ، فلم ينتبه الى الموت الكامن له ، وجَدُّ سعيد شج رأسه بحجر الطاحون لأنه كان ينظر فى الأرض بين قدميه ، فلم يقم من بعدها .

ووجد عم سعيد لجدِّه الكنز الذى ظلت العائلة تسعى وراءه ، وجده فى مقبرة مطمورة تحت الأرض فدخل اليها ثم عجز عن الخروج ، بعد أن اضاع قنديله . واستنجد بزوجه فلم تستطع انجاده ، وخشيت افراد العائلة معها إبلاغ السلطات ، حتى لا تضع هذه يديها على الكنز ، فمات الرجل وضاع الكنز ...

لهذا قرر سعيد ان لا ينظر الى الأرض قط ، بل يرفع ناظريه الى السماء فلابد ان تكون فيها عوالم مثل عالمنا ، وأرقى منا ولابد أن يأتى أهل الفضاء الينا قبل أن نأتى اليهم . ومن ثم أقام سعيد ينتظر مقدم رجالُ الفضاء فاما بدلوا حاله أو اخذوه معهم .

وها هو ذا يلتقى بواحد منهم ، فيجد سعيد كنزه الذى ظل يتطلع اليه .

ويلتقى سعيد بفتاة أحلامه « يعاد » ، التى أحبها طالبا فى الثانوية ، ثم فصلوها عنه . ومرت السنون فاذا بها تزوره مع اختها وتتهمه بأنه وشى بأبيها وبالآخرين . ويقنعها بالجهد الجهيد أنه لم يشِ ببيت أحد ، دع عنك بيتها هى ، ويبيتان معا فى بيت واحد ، كل فى غرفة ، هى تبكى بصوت مسموع وهو مستلق على فراشه لا ينام ولا يقوم ، وتناديه فيتظاهر بالنوم . كان يفكر فى عرض أخته الضائع ، وفى معاشرته للأرمنية العانس ، التى كان يسكر حتى يظنها صغيرته يعاد . فيجبن عن تلبية ندائها . كانت حبه الأول ، والليلة أصبحت حبه الأبدى . ومع هذا فهو عاجز أمامها عن الحب .

سرعان ما داهم البيت عسكر الاحتلال . وجرجروا يعاد الى الخارج ، بعد معركة حامية ظلوا يدفعونها فيها على الدرج وهى تعضهم وتركلهم ، حتى انتهت الى الفناء ، فهبطت على قدميها منتصبة القامة ورأسها فى السماء وهى تهتف : هذه بلدى ، دارى ، وهذا زوجى » .

وسمعها سعيد والسيارة تتحرك تنادى بأعلى صوتها : سعيد .. لا يهمك ، فإننى عائدة ! ولكن يعاد لم تعد ، بعد عشرين عاما ارسلت لسعيد تقول : إننى أنتظر الموت عبر الحدود ولكنى اموت وأنا مطمئنة على أنك ستنقذ والدى من السجن ، الوداع يا حبيبى ، غير أن يعاد لم تمت واتخذ الصهاينة واعوانهم منها جزرة ربطوها على عود طويل وثبتوها على عاتق الحمار سعيد وقالوا له : أن تسرع ، تأكل الجزرة . أن تخدم الدولة — أن تسهم فى تزوير الانتخابات أن تشى بالوطنيين — أن تلاحق الشيوعيين ، تعد اليك يعاد . ولكن انتظارك لها سيطول بعض الوقت .

الا أن الانتظار طال طول الوقت وما عادت يعاد ، وخلال عشرين عاما ظل سعيد يريد التنفس فيعجز ، ولكنه لا يموت . ويريد الانطلاق فيعجز ، ولكنه يبقى حرا حتى أصبح فى نظر نفسه هرة تموء . واستنجد برجل الفضاء .

قال له ذو المهابة : لما رأى الوليد بن هشام بن المغيرة الناس يؤمنون بأن الحاكم بأمر الله يحكم بأمر الله ، لم يسقط فى يده ، ولم ينتظر ان يصبح الشعب مؤهلا ، بل ثار عليه — هو أيضا — بأمر الله ، فحيد العزة بالعزة ، فتبعه خلق كثيرة ، هناك علم سعيد أن حلم العودة بلا عمل — أضغاث أحلام .

تتتابع إيماءات الكنز من بعد فى حياة سعيد يتزوج من فتاة غضة الاهاب اسمها « باقية » . امرها عجيب ، فهى إما تبتسم وإما تبكى ، يخافها الناس ويتحاشونها ، تقرأ كتبا وتبتسم لوحدها وتبكى لوحدها .

وتزف « باقية » الى سعيد فيقول لها : يا شريكة حياتى ، فتقول : أشركك أولا بسرى الدفين ففى كهف فى صخرة تحت سطح البحر فى قريتها « طنطورة » صندوق حديدى مليء بذهب

الأسرة جميعا . وضعه الوالد وأخفاه وأعلم أهله به حتى يلتجيء اليه كل محتاج منهم وباقية تريد من زوجها ان يستخرج هذا الكنز ، فيستغنى بما فيه عما هو فيه ، ويشب أولادها مستقيمى الظهور لا مُحْدَوْدَبينَ شأنَ أهل سعيد .

هنالك يدرك سعيد سرا ، استغلق عليه حتى الآن ، فكيف يجد الناس القدرة على مناطحة العدو مع أنهم فقراء ، لا يملكون أقل القليل ، لابد أن لكل واحد منهم كنزا ذهبيا اخفاه والده فى صندوق ذهبى . وأعجب من العجب قدرة الناس على اخفاء امر هذا الكنز ، مع أنه شائع بين عشرات الألوف منهم . وإذن ، فأولى بسعيد ان يحفظ سر باقية الذى لم يجاوز شخصين .

ويحفظ الزوجان السر بالفعل ، ويحجبانه حتى عن ابن ولد لهما . غير أن الولد يفاجىء والديه ، وقد كبر ونما وعيه ، بتفجير معنى الكنز ومضمونه . كنز باقية معناه ضرورة العمل . فان كان الأب قد أفلح فى تخدير باقية حتى استنامت عن ضرورة العمل ، فهذا هو الولد ينضم الى جانب العمل الفاعل ، ويبغت الوالدان اذ يجدانه مطلوبا من سلطات العدو . لقد انشأ خلية كفاح سرية وانتشل صندوقا به ذهب وسلاح واتخذهما عدة له وعتادا .

وفى مشهد من أقوى مشاهد الرواية ، يفيض بالشعر ، والعذوبة والحكمة والفداء ، يقول الولد لأمه انه قرر ان يفتدى أهله بنفسه ، وأن هذا هو قدره وقدر جيله . ان الصمت الذى ضربه حوله أبواه ، ومدرسته وأصحابه ، قد تفجر من رشاش قديم إتخذه الولد سلاحا يناجز به العدو . اذ ذاك تصحو باقية من الخدر الذى صبه عليها سعيد ، وتنضم الى ابنها ، وهى تقول : إن بالصندوق رشاشا آخر وبه سأحميك من العدو .

وعبثا حاول العدو القبض على الاثنين ، لقد اختفيا فلم يعثر لهما على أثر ولما سمع سعيد أن من كتائب الفدائيين كتيبة باسم الطنطورة ـــ قرية زوجه باقية ـــ أخذ يقفل النوافذ ليسمع أنباء الاذاعة من راديو ترانزيستور .

حتى جاء الخامس من حزيران ، وسمع صوتا جهوريا يصرخ : اطفىء النور . اطفىء النور . هذا اذن هو المعنى الأعمق لرمز الكنز فى « المتشائل » . انه النضال المسلح ضد العدو . كنز آل سعيد أوهام . والكنز المتمثل فى حلم العودة بلا نضال أوهام أخرى . وكنز العجوز ثريا عبد القادر مقبول ذات السنوات الخمس والسبعين التى عادت من الأردن إلى اللد كى تسعيده كنز لا تطوله ايدى المغلوبين ، لأن الدولة العبرية تصادره فيمَا تصادر من املاك المهزومين ، كنز المقاومة هو وحده الباقى ، هو وحده غير القابل للمصادرة .

وتنتقل فلسطين وقضيتها الى مرحلة أخرى اكثر ايجابية . هذه « يعاد » تعود ، تعود ؟ نعم ولكنها ابنة يعاد الأولى ، وهى تعود ، لتقول لعمها ، حبيب أمها الذى لم تتزوجه أن الأمر تغير

هذه المرة تغيرا جوهريا ــ انها قد تسللت الى الأرض المحتلة فان يأتى الصهاينة ليقضوا عليها ، فسيجد سعيد ان الأمر قد تغير بالفعل . لم يتغير الغزاة وانما تغير اصحاب الأرض السليبة ستترك يعاد الأرض المحتلة ولكنها ستعود فان الماء لا يترك البحر . يتبخر ثم يعود فى الشتاء ويعود انهارا وجداول ولكنه يعود .

ويأتى الغزاة ليطردوا يعاد من بيت سعيد . وتقول لهم كما قالت امها من قبل : هذا بلدى ، دارى ، وهذا عمى . ويعاملها العسكر باحترام ويقول أحدهم : يا صغيرتى الحسناء ، لقد انتظرنا منكم اكثر مما تفعلون ، ثم تمضى يعاد معهم .

وكانت يعاد قد حذرت عمها وهى موشكة ان تتركه بضرورة ترك الموقف السالب : اذا عشت يا عمى سعيد فستكون ابن سبعين حين تلقى يعاد الثالثة ولن تعرفها ولن تعرفك . اذهب الى قرية السلكة وأصنع الحصر (كما فعل متسلل ضرير ظل اعواما متسترا فى القرية يحفظ الجميع سره جيلا بعد ، ولا تصل اليه يد العدو ، رغم عشرات من حركات التطويق) .

ولكن سعيد لا يفعل . فلا يبقى أمامه الا الجنون ، منصرفا وخلاصا . واذن فيعاد هى تجسيد فلسطين ، يجبن سعيد عن أن يتزوج يعاد الأولى ، أى يعانق القضية عناقا ايجابيا فيكون عليه أن ينتظر عشرين عاما حتى تأتى يعاد الثانية . ولكنه يظنها يعاد الأولى ، ويعيش فى وهم العودة الخاوى ، حتى توقظه على الحقيقة . إنها يعاد مختلفة ، إنها تقاتل ، واخوها سعيد يقاتل . والعدو إن كان قد جمد على موقف فهذه مأساته فان الناس قد تغيروا .

ولما يرفض سعيد أن يأخذ بمبدأ العمل الايجابى ــ أى عمل ــ لا يبقى امامه الا أن يتلاشى فى الفضاء يحمله ذو المهابة بعد أن يزجره كما زجره قائلا : لا تطيقون احتمال واقعكم التعس ولا تطيقون دفع ثمن تغييره فالتجئوا إلىَّ .

لماذا اختار اميل حبيبى سعيدا ابا النحس بطلا لروايته ؟ انه بطل غير ايجابى ، كما تعودنا ان نقول . أبوه متعاون مع الدولة قبل قيامها ، وهو متعاون بعد قيامها . فكيف يكون هذا بطلا لرواية تذرف الدمع وتسفح الدم عطفا على القضية وعرضا لها ، ودعوة الى النضال الدائم من أجلها ؟

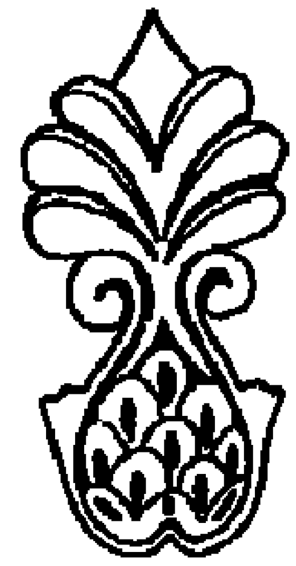
اختيار اميل حبيبى لبطله فى محله تماما . سعيد يخدم الدولة فى عدم اخلاص لا يحسن اخفاءه . وخدمته لها تبرز لنا حقيقة بعينها وهى : ان خدمة الأعداء لا تجلب المغانم التى يعد هؤلاء بها ، سعيد لا ينجو من الملاحقة ، ولا من السجن ولا من الاقامة الجبرية ، ومسلكه المتهادن يلقى نورا ساطعا على المناضلين الايجابيين من امثال سعيد ويعاد وولاء ــ ابن سعيد ــ وباقية زوجه ، والمناضلين الايجابيين الصامتين فى قرية السلكة .

ثم ان خدمة سعيد للدولة يتخللها سخرية واضحة متصلة ، وفى مشاهد مثل : رفع العلم الأبيض على عصا مكنسة امعانا فى اظهار الولاء للدولة بعد نكبة حزيران . مع أن سعيد هو مواطن عربى فى الدولة المنتصرة ، وليس محاربا مهزوما خارجها .

والواقع ان شخصية سعيد أبى النحس المتشائل بكل نواحى ضعفها ، بكل ما فيها من هرج واستخذاء ، بكل ما تقع فيه من ورطات مضحكة تؤمن لهذه الرواية الأخاذة شيئا ثمينا لكل عمل فنى سياسى : تضمن له أن لا يسقط بين شقى الرحى المألوفة : الخطابة الرنانة من جهة وتزييف الواقع وتمجيده من جهة أخرى . إن « المتشائل » عمل انسانى دافىء ونقد كبير القلب . وهى لهذا فن عظيم .

السَّفِينَة

جبرا إبراهيم جبرا



عصام السلمان العراقى الهارب من الأرض ، المتوزع ما بين بيروت وبغداد واكسفورد ولندن ، يركب السفينة اليونانية : هركيوليز كى يهرب من « لمى » . لم يستطع ان يجعل من لمى بحره وزورقه . لمى لم تكن له ، الا ساعات قلائل . كان الذى بينه وبينها حبا لا تعنيه الألفاظ ولا اللمسات ولا العقل . ضربا من الكينونة واللا كينونة . اشبه بأن يقول المرء : لى عينان فى رأس ، ولى أنف ولى فم ، ولكننى لا أرى ، ولا اشم ولا أتكلم . ها هى ذى لمى ، مع البحر ، مع بيروت ، مع حزيران ، مع ركاب الدرجة الثانية . مع زوجها . واذا كانت مع زوجها ، فما نفع البحر وبيروت وحزيران وكل هؤلاء الركاب المرحين الصاخبين ؟

وقعت عينا عصام السلمان على لمى بصحبة زوجها ، الدكتور فالح عبد الواحد حسيب والسفينة بعد راسية فى مرفأ بيروت . شعر عصام ان حجرا ضخما قد هوى عليه من أحد السطوح ، أحس ان لمى قد غدرت به . لحقت به الى المكان الوحيد الذى ظنه فى مأمن منها . أصدفة ؟ أتصميم ؟ أملاحقة ؟ أ إغاظة ؟ اما كفى ما فعلاه وقالاه قبل أن تتزوج ؟

أطل عليه من جديد وجه لمى الصريح . المباشر . الناطق بكل ما لديه فى نظرة واحدة . فهو وجه المأساة . الوجه الذى يلاحقك إلى الأبد ملاحقة الشهوة والحزن .

قال عصام السلمان لنفسه : فى الحياة غصات كثيرة . فيها الموت وفيها المرض وفيها الخيبة بالأبناء والخيبة بالآباء . ولكن الغصة الكبرى ان تقع فى هوى صاحبة بين يديك ولا تنالها . تبقى الغصة فى حلقك ، وتلاحقك الحسرة . تباغتك مع الوجه الشهى المقتحم عليك الحذر وتفاهة العيش ، وترى الرؤيا من جديد وتستجد الحسرة الأليمة .

بصدفة لئيمة لن يكون بينه وبين لمى الا جدار ! ولكنه جدار من حديد . ويدعم الحديد

زوج . ويدعم الزوج كل شيء . ولا يدعم عصام الا نظرة أخرى دفقت من عينى لمى بالتوق والحزن والخيبة .

مأساة عصام ولمى وزوجها فالح ان الجدار الذى كان يفصل بين قمرة العاشق وقمرة الزوجين لم يكن جدارا من حديد كما توهم عصام . فى أول الرواية يسمع العاشق حركة وراء الجدار تبدر من لمى وزوجها ، فيقول : ما أوهى هذا الجدار وكنت حسبته من حديد ! ويمضه تخيل ان لمى تهدر جمالها وتسفح انوثتها فى الطرف الآخر من الجدار . تعترف له لمى من بعد ان فالح يخشى الخلوة معها . ولا يختلى بها الا عندما يكون قارب الاغماء من السكر . كان فالح يبحث عند حب وما وجد حبا . سأل فالح لمى فى أوراقه الأخيرة التى اعقبها الانتحار : لمى : لماذا تزوجتنى ، فاقتربت منى اكثر مما ينبغى ، حتى عدت لا أكاد أراك ؟ يرى نفسه مزدوج الشخصية مشطورها ، يبحث عن لمى عن ملجأ لتوزعه وانشطاره ـــ عبثا . لقد ظلت لمى وحدة تامة ، جمال وجهها وجسمها منسجم مع جمال فكرها . توزع هو وانخذل ، وظلت هى جداراً عجز عن اختراقه .

كان ما بين عصام ولمى اكبر وأشد عمقا من ان تنال منه علاقة زواج ظلت دائما عابرة . قبل ربع قرن من زمان لئيم قتل رجل اسمه سعدى السلمان رجلا اسمه جواد الحمادى . وكان جواد الحمادى عم لمى وكان سعدى السلمى أبا عصام ، فقام بين اسرتى عصام ولمى ثأر لا ينقضى . كانت الأرض سبب القتل وما تلاه من عداء وطلب للثأر . وعندما أحب عصام لمى وقفت الأرض بينهما ، تطالب بالدم ، والعذاب ، لا من فرد واحد بل من أسرة بكاملها . طالب عصام بالتنصل من خطيئة لم يرتكبها هو ، ولا اقترفتها لمى ، فدفعت لمى بأن هذا لم يكن سهلا . فالجرم الذى ارتكب كان جرما اشترك فيه الجميع . قالت : كلنا جزء من ذلك الخطأ ، ذلك الاثم . تلك اللعنة . لعنة الأرض . من يدرى كيف حصل عليها جدنا الأول قبل مائة وخمسين عاما أو أكثر ؟ كم نفسا أزهق ، كم امرأة وطفلا قتل جوعا وتشريدا ؟

وقامت الثورة ، فارتفع معها حاجز صلد آخر فرق بين الحبيبين . الثورة قامت لانصاف الفقراء من الأغنياء . وكانت لمى فى صف الأغنياء ، فأصبحت ـــ لا مفر ـــ « عدوا » لعصام . ولكنه ظل يحبها بلا عقل ولا منطق ولا ضرورة . رغم علمه بأن كبرياءها سيحول بينهما وبين اللقيا .

وتزوجت لمى من الطبيب ، الجراح المشهور فالح . قالت لعصام وهى تبكته : تركتنى لأكون الضحية ، وانطلقت انت حرا . افسدتك حريتك . اما أنا فقد انتهيت ، قضى على بزواجى . سألها عصام : الا تحبين زوجك ؟ فتساءلت مستنكرة : احب زوجى ؟ طبعا أحبه . لكن له

مشكلاته هو أيضا .

وكانت هى واحدة من اكبر مشكلاته . لم تكن له قط . لم يستطع ان يخترق الحاجز الصلد الذى تمثله . يصف وديع عساف موقف لمى من فالح قائلا : كانت كقصر من رخام ابوابه ونوافذه مشرعة ، لا ترى من خلالها الا خواء يرصعه صقيع شتاء مثلج طويل . هل هذا ما اكتشفه فالح فيها ، فلم يجد الدفء الذى كان يهفو اليه كلما وجد نفسه عاريا وسط زمهرير عاصف ، يملؤه عواء الذئاب والكلاب ؟

كانت لمى قد اندفعت ترقص رقصة شرقية على غرار المحترفات . رقصت امام ركاب السفينة ، ضاحكة ، ضاحكة باستمرار . والجميع يحدقون فى هذا الجسد البديع المتفجر من الفستان الضيق وهو يتلوى ويتماوج . كانت شيئا مستحيلا . إنها تترنح بين الحلم والحقيقة الغانية الذكية فريسة الهوى التى تفترس محبيها . ولكنها كانت فى رقة ضوء القمر ، وحتى جسدها يذوب فى النسيم ويشف ويتلاشى . تجمد نفسها من الخصر فأسفل ، لكى تنفض بالكتفين فتركز الهم فى الثديين الرجراجين ، ثم تجمد الصدر وترهز بالردفين تململ الطبيب وقال كفى . لم تسمعه لمى أو تجاهلته فنهض فجأة ، ورفس الترانزيستور كالمعتوه ، وامسك بمعصم لمى وجرها بعنف من بين المصفقين والمعجبين ، مبتعدا بها .

قبل الرقصة كانت السفينة قد ضجت بلمى . كانت ذات كبرياء سرعان ما تذوب فى الخجل وتتلاشى عندما يستثار همها . كانت كمن يجتذب عابرى السبيل ثم يوقفهم عطشى على بابه . فلا يتذمرون . ضجت السفينة بلمى لأنها اثارت الاهتمام بجمالها ثم لم تقترب من احد . دارت حولها الأسئلة : أمن العراق هى ؟ من بغداد ؟ وديع عساف راح فى الحال يتغنى بعيون المها ، وجاكلين سألت : اتحب زوجها ؟ الجميلة لا تحب ، زوجها أو غير زوجها . الجميلة هى النرجس . هى التى ستموت عطشا لأنها لا تستطيع النهل من جمالها . فرناندو ، الأسبانى قال : العرب والأسبان وحدهم يقتلون من أجل المرأة ، ويقتلون المرأة عشقا وغيرة وشرفا . السنيورة لمى لن يكون لجمالها من نهاية الا المأساة .

قال احد ركاب السفينة معلقا على الرقصة : « لقد رقصت لمى كعاهرة » . يقصد عاهرات المعبد المقدسات ، اللاتى كن يرقصن كجزء من طقوس العبادة . أما فالح فقد كتب فى أوراقه الأخيرة : « رقصتك الليلة الماضية كانت الحكم على بالموت . ساعدتنى على الوصول الى قرارى النهائى. كان بإمكانى أن أقتلك البارحة. كيف تحملت واحجمت، لست أدرى . ربما لأنى وجهت كل شيء بعيدا عنك وركزته فى نفسى . انت يجب ان تعيشى . اما أنا فقد فرغت من أمرى » .

كان فالح يؤمن بأننا نعيش فى عصر الدودة . الدودة فى كل شيء . الناس يتهالكون ويتكالبون ويتهافتون ، بعضا على بعض كالدود . يتآكلون كالدود . يعيشون ويموتون كالدود . ليس للجمال معنى . والحديث عن الحب لا يقنعها . ولم يقنعه فيما مضى . افرازات كيماوية ، وتلولب حول الذات . وسأل زوجه وأوراقه : ما الذى ستقولينه عنى بعد رحيلى ؟ : « لم يحب شيئا قط ، حتى ولا نفسه » . ولكنى احببت عملى احيانا . احببتك أحيانا . احببت هذه الفتاة الأخرى ، احيانا . ولكن الدودة تغلبت على .

كان وديع عساف قد حدث فالح عن ازمة التاريخ وضرورة العودة الى الأرض . وكان محمود قد حدثه عن ثورات قيد الدرس والتخطيط . قضى الطبيب عمره باحثا عن هذه الأزمة وهذه الثورات ، ولكن انسانيته كانت دائما رافضة . لأنها مبتورة . مشوهة . مطحونة . من الداخل والخارج . كان يرفض زمن القتل . زمن الخيبة . يرفض اليأس وها هوذا أخيرا يرفض الأمل . تمنى لو استعلى على البشر . على همومهم ، حقارتهم قساوتهم غير أن اخفق شيء ما كان يراوغه ويحوطه ويلازمه ويداعبه ويقهره الى أن يبلغ آخر المدى : التراب . ليست مأساته مجرد خيبة . اذن لتغلب عليها . فى الدم ما هو اعمق وأشد جورا ودفعا . القبول بالعيش صامتا فى عصر الظلم هو ممارسة للظلم . واذا كانت الطرق كلها تؤدى الى طاحونة الظلم ، فأين تولى وجهك ؟

هاملت آخر ، استبد به اليأس وحقارة البشر ، ولم يتح له ان ينجو من انشطار الشخصية فيندفع الى الهجوم على طاحونة الظلم ، مثلما حدث لهاملت عقب رحلته البحرية الى انجلترا ، التى ردت اليه تماسكه وجبرت الصدع الخطير فى روحه . له من هاملت احتقار الحب والجسد ، والشعور بأن الشر أصيل فى الكون ، راسخ فيه ، وأن المأساة ليست مأساة فرد بل مأساة البشر أجمعين .

لذلك يفر فالح من المأساة الى احضان العدم . غيره من شخصيات الرواية يسعون الى الهرب دائبين . عصام يجهد نفسه فى الهرب من الأرض وما تمثله من لغة . باع معظم أرضه محاولا أن يقطع جذوره . باعه فرحا ، طربا ، غير نادم . سأله وديع عساف : ما الذى انت هارب منه بالضبط ؟ قال عصام : من لمى . قال وديع انتهى امرك . الأرض هى السر فى حياتك مع لمى أو بغير لمى . لمى هى التراب ، الزرع ، الماء . انها الأرض مهما تصورت ، مهما فشلت فى الامساك بها . رغم كل فلسفاتها .

رد عصام : الأرض تهمك لأنك نزحت عنها مكرها . ان حرمانك ليس جنسيا بل أرضيا . المحرومون من المرأة لا يكفون عن الحديث عنها . وانت محروم من الأرض . ضحك وديع وقال : ولكننى قضيت هذه السنين كلها مصرا على الزواج منها . اعنى الأرض . اجمع الفلس الى الفلس

من أجلها . أنا انتهت غربتى أو كادت . لقد نقلت اموالى الى القدس . واشتريت أرضا واسعة فى قرية قرب الخليل . سأهشم الصخر . وافرش عليه ترابا من تربتنا الحمراء الخصبة . سأستنبت الحجر . سأحفر بئرا ارتوازية . سأجمع قطرات المطر . وسأتزوج حالما أرجع . لكى أجمع بين المرأة والأرض . اريد أن انجب عشرة أولاد قبل ان ابلغ الستين . سأقف على رابية وأنادى الله : سبحانك اللهم سبحانك على هذا العطاء . هذا الاندلاق العجيب لكأس نعمائك على أرض البشر . اعلم ان هناك من حولى صراخا من الدمار والويل والجوع والظلم . سأرفع من صوتى . سأشق حنجرتى بالصياح لكى يسمعنى ربى . يسمع كلمات الشكر وكلمات الاحتجاج .

كان وديع عساف نفسه مهاجرا فى المكان . حين التهم الوحش الصهيونى نصف القدس ، لم يقبل اخراجه من القدس بالرصاص والديناميت . لم يقبل رؤية صديقه وزميل نضاله المسلح مضرجا بالدماء بين يديه . لم يقبل رؤية الخيام تتشبث بجوانب التلال فوق رؤوس أهله . لم يقبل التنقل من بلد الى بلد بحثا عن لقمة عيش مزرية . لم يقبل ان ينظر اليه احد نظرة الشفقة والتأفف . اصر على ان يعيش فى القدس ليكون على مقربة من ارض جديدة اشتراها ، عارضته خطيبته مها واصرت على أنها لا تقبل بسكنى بيروت بديلا . فلم يدر وديع كيف يقنع امرأة يحبها بأن فى قلبه حبا آخر لا يناقض حبها ، خاصة اذا كان هذا الحب الآخر فى مواجهة محتومة مع العدو ـــ مع القتل ؟ . افترق الخطيبان بعد أن تعذر الاتفاق .

ووديع عساف مفتون بالقدس . يراها أجمل مدن الدنيا . قيل انها بنيت على سبعة تلال . ارتقى وديع كل ما فيها من تلال وهبط كل ما فيها من منحدرات ، بين بيوت من حجر أبيض وورد وأحمر ، بيوت كالقلاع ، تعلو وتنخفض مع الطرق الصاعدة كأنها جواهر منثورة على ثوب الله . والجواهر تذكره بزهور وديانها فيذكر الربيع . الجبل البلقع يخضوضر فجأة فى الربيع . والبيت الصغير المتهدم ، حيث الحجارة المهملة من أيام آل عثمان ، وحيث الشجرة اليابسة يحس الربيع . زهور كعيون الأطفال تنبت بين الحجارة نفسها ، حول الجزع العاقر المسن ، ولذا تأتى الليالى وديع بذكريات من القدس ، فيحزن ويغضب ويبكى . رآه رجل فى الشام يبكى فسأله ما الخبر ؟ قال وديع : ابكى على أبى ، وأمى ، وأخوتى ، وما عدت اعرف الخجل .

قبل ان يترك وديع القدس ، اشتبك هو وصديق عمره فايز فى معركة ضارية ، اوقعا فيها الخسائر بالعدو فى العتاد والأرواح ، واستشهد فيها فايز . كان فايز فنانا مرهف الحس ، شديد الارتباط بأرض الوطن . سبح هو وصديقه وديع فى ماء احدى العيون ، وتوغل فايز حول منعطف جعل يضيق ويظلم فهتف منتشيا : « هنا العرق ! هنا الجذر ! هنا الرحم ! » وانحنى قدر طاقته ليلمس بيديه سر ميلاد مدينة تنبت الفاكهة والفجل والطماطم من بين صخورها . رأيا فى

الصخور امرأة رائعة ، هائلة ، خصبة الجسد . واشترى ابو وديع قطعتى ارض ، وبنى بيتا على جزء منها . وظل وديع يغازل الصخر ويغازل الجميلات لأنهن كن كالصخر ، كالأرض التى تخرج من بين طراوتها الخضرة ونكهة الفاكهة .

أصبحت القدس فى رؤيا وديع الصخرة التى تمثل الصمود . الموعد الذى تتم عنده العودة الى الأرض . الاستقرار الذى افتقده هو وشعبه المشتت الضائع . قال هو وتلاميذ المدارس : ان الصخر يرمز للقدس . شكلها وتضاريسها كالصخر . والصخر على حافة كل طريق فيها . فلسطين نفسها صخرة تبنى عليها الحضارات ، لأنها صلدة، عميقة الجذور، تتصل بمركز الأرض والذين يصمدون كالصخر يبنون القدس . يبنون فلسطين كلها .

غير ان الوحش الصهيونى التهم نصف القدس . فخرج وديع الى الكويت يعمل ويجمع مالا ، ليعود ويشترى به أرضا فى النصف الذى بقى من القدس . يقول لعصام الذى باع أرضه فى العراق وهو فرح : عجيب يا عصام . أنا ، حيثما ذهبت ، ومهما توهمت ، اركض باستمرار فى اتجاه أرضى التى احاطوها دونى بألف كيلومتر من الأسلاك الشائكة . اركض نحوها وفى يدى قنبلة . وانت ترفض ارضك ؟

حدس عصام ان وديع ، رغم تكتمه ، يسهم فى حشد فدائيين منتخبين وتدريبهم على التوغل وراء حدود الصهاينة وضربهم فى الأرض المحتلة ذاتها . يريد للعرب عودة الى الأرض . من السهل على من قضى صباه وشبابه فى القدس ان يوحد بين الله وبين الأرض . أو بين المسيح والصخر ، ولكنه يوحد أيضا بين نفسه والمسيح والصخر معا . اذا اضطرب هذا التمازج الثلاثى كان لابد من استعادته . يقول وديع عساف انه لن يكون نفسه الا اذا عاد الى الله والأرض معا . فاذا احتل اليهود الأرض فقد احتلوا الهه ، واحتلوا نفسه . هو الآن مشطور كمدينته . وعليه ان يعيد الى النفس وحدتها : الثالوث بأكمله ، بالدم . من هنا ضرورة الحشد والفداء .

قال وديع اننا نرفض الحضارة اذا كانت حضارة وهم . غير أننا — راغمين — ننتمى الى حضارة الفانتازيا . نظل ننتمى اليها الى أن يفاجئنا الكابوس الذى نريد — بالوهم — ان ننساه أو ينسانا ، فنركض مسرعين فى حلقتنا المفرغة الى بعض من وهم . عَقّب عصام : ربما الى بعض من حقيقة ؟ اننى أرفض ، فأهرب ، لأبحث عن واقع أتكافأ معه . سأله وديع : هل انت مستعد لأن تقتل ؟ قال عصام: لاأرى للسؤال علاقة بالموضوع . وردّ وديع: إذن. فأنت تؤثر الهرب من أجل الهرب . اذ ذاك تذكر عصام ما فعله ابوه وهو طفل صغير . ما جره على حياته من لعنة بقتل جواد الحمادى . ما أقامه القتل من حاجز بينه وبين المرأة الوحيدة التى احبها . قال : أوثر الهربَ بمعنى ايجابى . اتراجع كى الم اشتاتى تهيؤًا لهجوم جديد . لست ادرى . ا نت تخلط علىّ

الأمور . قال وديع : اتفقنا اذن . الأمور مخلوطة عليك ، وعليَّ وعلى كل من فى هذه السفينة .

سفينة الوهم هذه واختلاط الأمور . كل من ركبها كان يهرب من شيء ما ينغص عليه حياته : عصام من لمى . لمى من زوجها . الزوج من لمى ومن الحياة الكئيبة التى تقطرت له عبر رؤياه المشحونة بالسوداوية وفقدان الايمان . وديع من مها ، التى رفضت حلمه بالاستقرار فى القدس ، واطلقته يمخر بحار الدنيا ويطير فى اجوائها ، هربا منها ومن شبح الشتات . محمود ، الذى هرب من ماضيه السياسى وما وجد فى السجون من عذاب ، وما تورط فيه من جبن حينا تنطع فجعل تلميذا زميلا له يتلقى عنه عقابا كان هو احق به . حتى الراكب الهولندى ، الذى القى بنفسه الى البحر محاولا الانتحار ، كان هو الآخر يهرب من شيء ما فى حياته .

قال وديع للفاتنة لمى : كلنا هاربون .

هاربون كلهم ، تختلط عليهم كلهم الأمور . هذه سفينة من نوع غريب . الوهم فيها يصارع الواقع ، والكل يشتركون فى الصراع فى محاولة للتعرف على الحقيقة . تبدأ الرحلة والكل متعلق بأوهامه ، وتنتهى وقد سقطت الأوهام . تعود لمى الى عصام عبر جثة زوجها ، وتقبل مها بالاستقرار مع وديع فى القدس . ويعرف فالح حقيقة نفسه ولا يجد لنفسه مخرجا سوى أن يغادر الدنيا الخاطئة الظالمة .

ركاب السفينة يمخرون الماء بحثا عن الأرض . الأرض الصلدة يقيمون عليها حياتهم القابلة . رحلة السفينة تعبر عن قلقهم ولهفتهم ، وتساعدهم على ان يصلوا الى حقيقة انفسهم . من بعيد تشبه السفينة نظيرتها فى مسرحية شكسبير : « العاصفة » . ثارت العاصفة عند شكسبير وتحطمت واندلق ركابها الى جزيرة تولت الأحداث فيها تعليمهم وتدريبهم واطلعتهم على حقائق أنفسهم . اما سفينة جبرا ابراهيم جبرا ، فلم تتحطم ، رغم العاصفة الهوجاء التى هبت عليها ، ولم ينزل ركابها الى جزيرة ما . ومع ذلك فقد تم فيها ما تم لركاب سفينة شكسبير : التخلص من الوهم والتعرف على الحقيقة تم على ظهر السفينة ، ونزل الركاب الى البحر وقد عرف كل دوره وموضعه وحقيقته .

وتشير سفينة جبرا من بعيد الى موضوع الوهم والحقيقة حين تجعل فالح يقرر ان اميليا مسحورة به ، لأن احدهم قد قطر فى عينيها وهى نائمة السائل السحرى الذى تتحدث عنه « حلم ليلة منتصف الصيف » . فيتدعم بهذا ما نلمسه فى « السفينة » من بحث فنى وفلسفى عن الوهم والحقيقة والسحر والخيال والفن .

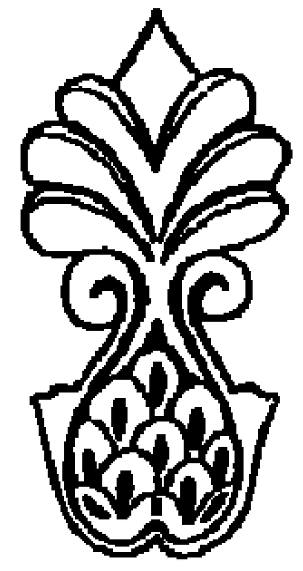
بالرواية مشاهد تبلغ حد الروعة ابرزها النضال الرهيب الذى خاضه وديع وصديقه فايز فى حربهم مع الصهاينة . وبها مشاهد حميمة نجدها أيضا فى الصداقة التلقائية العذبة التى تقوم بين

فايز ووديع ، لايمنع من قيامها فقر الأول ولا اكتفاء الثانى النسبى .

وفيها أيضا مفارقة ساخرة شديدة القسوة تتركز فى الحاجز الذى يفصل بين قمرة لمى وزوجها وقمرة عصام . فى البداية يظن عصام ان الحائط الفاصل قد صنع من حديد ، ثم يتبين له أنه حائط هش ، أوهنه ضعف الصلة بين الزوج والزوجة وانتفاء اى تقارب جسدى أو فكرى بينهما . ثم تبلغ المفارقة أقصى درجات القسوة حين تتسلل لمى الى قمرة عصام فى الساعات الأولى من الصباح ، فيتواصلان ، وبينهما حاجز لم يعد له وجود . تعاطيا الغرام وفى ظنهما انهما يسرقانه ممن يملكه هو وحده : الزوج . وحين تذهب لمى الى قمرتها تكتشف ان الرجل الذى تسللت من مخدعه الى مخدع الحبيب لم يكن نائما كما ظنت ، بل كان ميتا ! مفارقة قاسية يختلط فيها الحب المسروق بالخيانة ، بالسخرية المرة التى تمثلها واقعة انتحار الزوج . لقد خانت لمى زوجا ميتا .. ! .

ما تبقى لكم

غسان كنفاني



ظل حامد ستة عشر عاما وهو يلقى احماله على وهم مستقر فى داخل نفسه : أمه ليست معه . لو كانت معه ما جرى له ما جرى . ما تشاجر مع اخته مريم . ما طردوه من عمله . ما عجزت اخته عن الطبخ . كانت الأم على بعد ساعات من المشى ، تسكن الأردن . ولكنه لم يستطع أبدا طوال الأعوام الستة عشر أن يمشى اليها .

عقد العزم على ان يرحل اليهاحين حملت مريم من زكريا ، وأصبح لا مفر لها وله من أن تتزوج ذلك الرجل البغيض — كان حامد يسميه دوما : « النتن » . وحين جلس حامد أمام المأذون يردد وراءه : « زوجتك اختى مريم » كانت المرارة تحفر فى نفسه شقوقا يجرى فيها ماء النار . شهود الحفل كانوا يعرفون الحقيقة : ان مريم حامل ، وأن أخاها لم يزوجها زكريا عن رضا وانما على اضطرار . وكان العريس النذل يضحك فى أعماقه .

قال الشيخ : ... على صداق قدره عشرة جنيهات — كله مؤجل . كله مؤجل . كل شىء فى حياة حامد مؤجل . الشىء الوحيد المعجل كان الجنين الذى تحمله مريم فى احشائها . طوال شهرين ظل يمضغ وهما آخر يلجأ اليه كلما استولت عليه حمى الغضب : ان يستل سكينا ويندفع الى سريرها ، يجذبها من شعرها ويقول لها شيئا قاطعا ، أو يقوله عبر النظرات فقط ، ثم يطعنها طعنة واحدة فى القلب تماما ، ويندفع خارج الدار يبحث عن صهره . اخته تركت الرجل يلوثها . اعطته نفسها فى ربع ساعة مسروقة منه ، وحين زرع الطفل فى رحمها ، أصبح حامد فى قبضة الرجل « النتن » .

لم يعد أمام حامد الا أن يقطع الصحراء التى تفصله من أمه ، والتى عجز طوال ستة عشر عاما أن يجّمع عزمه على قطعها . حينئا استدار واتجه الى الباب قائلا : « سأغادر غدا مساء »

لم يستوقفه أحد . لم يصدر صوت من مريم قائلا : عد ، يا حامد ! لم يسمع الا صوت خطواته على السلم . صفق الباب وراءه دون أية كلمة ، وساد الصمت .

حين استقبل الصحراء ، أحس بها كائناً حيا ، يتنفس بصفير مسموع ، ويسبح بجلال فى بحر من العتمة المرصعة . استلقى على أرضها ، فوجدها ترتعش تحته كعذراء . أراح وجنته فوق صدرها الدافىء ، بينما أخذت نسمات باردة تغسله . تذكر أمه . ردد قولته الدائمة : « لو كانت أمى هنا .. » ومرر شفتيه فوق الرمل الدافىء . قال يخاطب الصحراء : « ليس بمقدورى ان اكرهك . ولكن هل سأحبك ؟ انت تبتلعين عشرة رجال من أمثالى فى ليلة واحدة . اننى اختار حبك . اننى مجبر على اختيار حبك . ليس ثمة من تبقى لى غيرك » . منذ تلك اللحظة ، تصبح الصحراء احدى شخصيات الرواية ، الى جوار حامد وزكريا ، ومريم ، وساعة الحائط التى اشتراها حامد ذات يوم ، فأخذت دقاتها تشق طريقا عميقا فى وجدان مريم ، تقيس بها الزمن الذى قدرت أن حامد سوف يقطعه حتى يجتاز الصحراء الى الجانب الآخر ، وتسمع فيها خطوات حامد وهو يضرب فى الصحراء ، وترى فى صندوقها مارآه حامد وهو يعلقها على الجدار : نعشا صغيرا أدخله حامد الى البيت .

حين قال حامد للصحراء : « ليس ثمة من تبقى لى غيرك » ، قالت مريم لزكريا القول ذاته : ليس ثمة من تبقى لى غيرك . وانت تبدو بعيدا رغم انك فى فراشى . تتركنى وحدى احصى تلك الخطوات المعدنية الباردة تدق فى الجدار . تدق . تدق . داخل النعش الخشبى المعلق أمام السرير . تدق : تدق يا زكريا . والآن ليس لى غيرك ، وغيرها ، وقد تركناه يغادرنا كلنا دون كلمة واحدة . وحين كنت اسمع وقع خطواته تخفق مترددة فوق السلم ، حسبت انه سيعود ، وكنت ممزقة بينه ، هو الماضى كله ، وبينك ، انت ما تبقى لى من المستقبل . لو كانت أمى هنا ، لكان لجأ اليها ، للجأت اليها أنا ، لقلنا كلمة واحدة عنه لما تركنا لدفتى الباب الخشبيتين ان تمحواه محوا من هذا البيت ، بمجرد انغلاقهما .

وقالت الصحراء : دقات خطواته محشودة بالحياة ، وهو يقرعها بلا تردد فوق صدرى ، حيث لا صدى ، الا الرعب . وهو يخطو فيبدو حيوانا ضئيلا يعقد العزم على رحلة دفء لا نهاية لها ، مشحونة بالغيظ والأسى والاختناق ، وربما الموت . اغنية الليل الوحيدة فى جسدى . منذ خطوته الأولى عرفت أنه رجل غريب . وحين رأيته تأكدت من ذلك . كان وحيدا تماما . بلا سلاح ، وربما بلا أمل أيضا . كنت مبسوطة أمامه مستسلمة لشبابه بلا تردد ولخطواته وهى تدق فى لحمى . ولكنه مثلهم كلهم ، خاف من الانبساط الذى لا نهاية له . وظل واقفا ينظر الى سواد الأرض المتصل بسواد السماء ، ثم سار فجأة ، شابا كما كان دائما ، مملوءا بالغيظ والاختناق

والحزن .

لم يكن الغيظ والاختناق والحزن بسبب سقوط مريم فى حد ذاته . كان السقوط شديد الدوى . فان زكريا الذى فتحت له مريم فخذيها ، لم يكن انسانا سويا . كان خائنا ، ومبلغا ، أراد أن يرشد زبانية الصهاينة الى شخص سالم ، المناضل ، لولا أن تقدم سالم نفسه فعرف الجلادين بنفسه وحرم الخائن زكريا من ثمار خيانته . سالم هذا هو بعض من اسباب غيظ حامد واختناقه وحزنه . استوقفه ذات يوم بعد اسبوع واحد فقط من دخول الصهاينة غزة وقال له : « ألم تشته يوما أن تطلق رصاصة فى معركة فاتتك دون أن تطلق فيها أية رصاصة ؟ .. لقد قتلوا اباك ، كما أعلم ، واغلب الظن انك عشت تصك أسنانك وتتوعد وتقول لو .. ! ثم دعاه سالم الى المشاركة فى النضال غير ان الصهاينة ساقوا المناضلين جميعا فى اليوم التالى الى ماوراء معسكر ، حيث جزت خيانة زكريا ، وتبدت شجاعة سالم ، فلوى الرصاص منهيا حياته .

ودون أن تدرى وقع ما تقول ، قالت مريم لحامد وقد لاحظت اصفرار وجهه ، وسمعته يقول : « قد يكون دورى أنا غدا » — قالت دورك انت ؟ لماذا ؟ انت لم تفعل شيئا . لقد قتلوا سالم لأنه — انت تعرف سالم على أى حال » . اذ ذاك حملته مريم حملا جديدا من الذل . لماذا يقتلونه وهو تافه آخر لا بأس من أن يتم حياته تافها ، ويموت تافهاً ؟

بالقياس الى أبيه ، يبدو حامدا عاجزا وتافها فعلا . لقد رفض الأب ان يتركه بلده وصاح بصوت مبحوح يعترض على زواج تحدثت عنه زوجته وابنة صديقه فتحية . عرضت فتحية ان تزوج اخاها فتحى من مريم ، فصاح الأب : « لا تتحدثوا عن الزواج قبل انتهاء القضية . قتل الصهاينة الأب ، ورأى الابن جثة ابيه يحملها الرجال ويصعدون بها سلم الدار . انزلقت يد الوالد العارية تحت المعطفين المضرجين ، ومضت تهتز جيئة وذهابا كأنها دعوة له للحاق به . كان كل ما تبقى فى ذاكرة حامد عن أبيه هذه الذراع المتأرجحة ، وهم يحملونه قتيلا ، وصورة أخرى لهذه الذراع ، حين فتح حامد الباب فجأة فرأى اباه يضاجع أمه ، تحيط ذراعه القوية السمراء بخاصرتها البيضاء . هذا كل ما بقى له من أبيه .

بين حامد ومريم قضية معلقة . قال حامد مخاطبا اخته ، وهو فى جوف الصحراء : « لقد حرصت عليك حرصى على حياتى ذاتها ، ايتها البقرة ، امضيت كل ايامى وانا غارق فى خدمتك الصغيرة ، ليل نهار بلا كلل . وكنت أريدك امرأة شريفة تتزوج ذات يوم رجلا شريفا . ولكنك فتحت فخذيك لأول رجل . لأول نتن . وجئت تحملين الجنين فى احشائك ، دون ان تكترثى لحظة بى . دون أن تكترثى حتى به، ولكنك ستسقطين فى سرواه «معها» سأقول لأمك أنك مت ، واننى دفنتك فى سروال رجل نتن ، مع امرأة أخرى لديها منه خمسة أطفال ، وقد تلد

طفلا سادسا فى المساء » .

وقالت مريم : « من أين يستطيع حامد أن يفهم ؟ لقد كان دائما رجلا رائعا ، ولكنه لم يكن أبدا الا أخى . ومرور الزمن لم يعن لديه شيئا بينما هو بالنسبة لى موت يعلن عن نفسه كل يوم مرتين على الأقل . بالنسبة له كنت اتحول كل يوم الى مجرد أم . وكان هو يتحول بالنسبة الىّ الى رجل محرم . لم يدرك قط طوال عمره أن لحظة ارتطام واحدة مع رجل حقيقى ستودى بنا جميعا ، وأيضا بعالمنا الجميل الصغير التافه ، الذى أجبرنا أنفسنا على اختياره . عالم تافه غير مستعد لقبول عانس أخرى .

ما الذى يريد ان يفعله فى الأردن ؟ هل يريد أن يقطع الصحراء كلها ليلقى بنفسه فى حضن أمه ويبكى ؟ .. لقد عاش كل عمره امام ظل فَرشَه لنفسه طوال خمسة عشر عاما واكثر . ولكنه لم يلجأ اليه ، بانتظار ان يصادف كارثة ما . لقد جعل من أمه البعيدة ملجأ يؤمه ذات يوم صعب ، وانصرف الى تكبيره واعداده الى درجة نسى فيها ان يبنى فى نفسه رجلا لا يحتاج فى اليوم الصعب الى ملجأ . هل كان يتوقع ان يظل المحراث محرما على هذه الأرض الخصبة ؟ ان اصرف حياتى امام سرواله المعلق ، استوحى فيه رجلا من يافا اسمه فتحى كان يحضر بصمت وكبرياء مهراً يليق بابنه ابى حامد ؟ لقد ضاعت يافا ، ضاعت . وضاع فتحى ، وضاع كل شىء . وهو نفسه قد علق هذا النعش امامى ليدق هذه الحقيقة الفاجعة على سمعى ليل نهار . وهو الذى عرفنى بزكريا . وهو الذى جعل امى تنقلب الى وهم . ماذا كان يتصور حين قرر فى لحظة محروقة ان يترك كل شىء ويمضى الى أمه ؟ هل تصور انها ستقوم معه ، تقطع الصحراء عائدة الى غزة ، تقتحم البيت ، فتلقى زكريا فى الطريق ، وتعيد الى مريم عفافها وطموحها وشبابها ؟

لم يدرك حامد الوضع الصعب الذى تعيشه اخته . خمسة وثلاثون عاما وهى تنتظر الرجل . الأنثى داخلها ضجت ، وعلا احتجاج الأم فى بطنها . لم تذكر الحقيقة كاملة حين قالت ان حامد هو الذى عرفها بزكريا . قال لها دائما انه نتن ، ومع ذلك فقد ذهبت وتحرشت به ، وادخلته الباب فى غيبة أخيها ، وقالت : هيت لك.. استجاب الجسد لنداء الطبيعة ، وادخلت مريم نفسها فى مأزق أصعب من الذى سعت الى الخروج منه .

جزء من اللوم — مع ذلك — يقع على حامد . لم يعرف فى واقع النساء شيئا . سألته اخته ذات يوم : هل عرف المرأة ، فراغ من الاجابة . لم يعرف امرأة سوى امه . كانت الأم بالنسبة له دائما فارسا غائبا على استعداد لأن يشرع سيفه فى وجه أى عقبة تواجهه ، عاش عمره كله متكئا عليها . اسبغ عليها فشله وعجزه واعطاها حصانه الخشبى التافه . والآن ضاعت غزة ، ولم

يعد حامد مجرد كرة لفوا عليها خيوط الصوف ستة عشر عاما ، خيوط مربوط أولها الى بيته فى غزة .

لم يعرف حامد حرقة التوق الى الجسد . لم يحس كما أحست اخته بالوهج الذى يصدر عن الجسد وهو داخل الثياب . حين كانت مريم تخلع ثيابها ، كان الوهج يبقى فيها حتى حين تعلقها على الجدار . وكانت الساعة تشيع نفسها كل صباح فى نعشها الصغير امام عينيها ، وهى تبدل ثيابها ، فينبثق فجأة ثدياها الأهوجان كأنهما كانا مطويين فى حقيبة حامد ، وتنزلق كفاها دون أن تسعى ، فوق فخذيها .

لم يكن فى البيت كله مرآة كبيرة ترى جسدها فيها كاملا . كانت ترى وجهها فقط ، وحين تحرك المرآة تمر صورة صدرها وبطنها ، وفخذيها ، فتبدو لها قطعا غير موصولة . وحين اتصل جسدها بجسد زكريا أحست أنها خلعت خمسا وثلاثين سنة من حياتها سنة سنة وقطعة قطعة . اذ ذاك قالت لزكريا : انه عارى الوحيد فى خمس وثلاثين سنة طاهرة ومخزونة .

ماذا فعل حامد بإزاء هذا كله ؟ عجز عن قتل مريم . جبن عن أن يذبحها فوق ركبتيه . انتقل من جحيم الى جحيم آخر . سعى الى أمه كى يجعلها جدارا من النسيان يحجب عنه الكارثة . ومن قبل ، حاول ان يقنع مريم بأن تجهض نفسها وتتخلص من ثمرة « الخطيئة » . موقفه هذا ليس أفضل كثيرا من موقف غريمه الذى حاول هو الآخر أن يحمل مريم على التخلص من الجنين . قال لها : طوال عام كامل لن تكونى امرأة ، مجرد زجاجة حليب . ومضى يقول : لك جسد لا تدركين جماله . وغدا حين تبيضين بيضتك ستنقلبين الى جبل صغير من اللحم ، وتفقدين كل شيء عدا قطعة الصراخ التى ستقلب حياتك الى جحيم . ولما اصرت مريم على احتواء الجنين صرخ فى وجهها : هل حسبت اننى تزوجتك لتنجبى لى ولداً ايتها العاهرة ؟ ان لم تستطيعى اسقاطه فأنت طالق ، طالق ، طالق .

كانت مريم قد تبينت عمق المأساة التى احاطت بها . تزوجت رجلا متزوجاً من اخرى وله منها خمسة أولاد ، والسادس على الطريق . تبينت انه من العبث الجلوس والانتظار ، فسوف تحكم على نفسها بالموت ، لو سمحت له ان يعتبرها مجرد ممر فى حياته بين مدرسته وبيتها ، يبصق فيها منيه ويمضى . قالت لنفسها : أى انتظار طويل ينتهى بك الى مجرد ممر ! اى انتظار . وتنتهى بك الرحلة الطويلة الى مجرد هذه التفاهة . ممر ، فوقك تعبر كل الأشياء التى أردتها لنفسك ، ولكنها لن تكون لك أبدا .

آخر الأمر تدرك مريم الأبعاد الكاملة للمأساة : لاتستطيع التخلص من الجنين . ولاتملك التخلص من زكريا ، ولا هو قادر على التخلص منها . وكلاهما لا يملكان التخلص من حامد

الذى يدق فوق جبهتيهما بخطواته العنيدة بلا رحمة ، فيبدو وقد ذوبه المدى ولم يتبق منه الا اصداء خطواته العنيدة التى لا تنتهى . أصبح آخر قطار غادر المحطة المهجورة وتركهما على رصيفها المحطم ، يستمعان الى صوت الصمت المفعم بالغربة والوحشة ، والمجهول يدق . يدق . يدق .

اذ ذاك تصل مريم الى نهاية الممر — نهاية النفق المظلم الذى يتعين عليها ان تجد لنفسها منفذا منه . تجد هذا المنفذ حين تقع يدها على سكين مرهفة الحد تغيب حدها فى جسد زكريا وتظل تدفعه نحو الحائط ، فيزداد الفصل إيغالا فى جسده ، ويسقط كومة من الموت بينما تظل الساعة النعش تدق فى جبينها اصرارها القاسى الذى لا يرحم .

طول الرواية تمتزج دقات الساعة ، بدقات خطوات حامد على لحم الصحراء ، بدقات الجنين فى بطن مريم . الساعة تمثل الزمن ، وتمثل حالة الموت الذى انتهت اليه الأمور ويمثل عقرباها دقات عكاز عاجز ، كما تجد مريم فى حركاتها تصويرا واضحا لا ينقطع للفعل الجنسى : العقرب الكبير يطارد العقرب الصغير ، حتى يستوى فوقه لدى الساعة الثانية عشرة ، ويغيب الاثنان معا فى قرع معدنى صاخب لاثنتى عشرة دقة ، تكون آخرها انتفاضة متعبة لدفقة المنى الأخيرة .

فى خط متواز تتوالى ضربات قدمى حامد فى قلب الصحراء . تنتفض الصحراء بالحياة امامه وتصبح عذراء ترتعش لوقع هذه الخطوات ، وتبسط جسدها أمامه فى انتظار الاخصاب . تتحول الصحراء من مفازة مرعبة الى أرض معركة حين يلقى حامد واحدا من جنود الصهاينة ويقرر بعد طول جدال مع نفسه ، ومع احداث الماضى ، ان يقطع حيرته ويتخلص من هوان شأنه بقطع رقبة الصهيونى . هكذا يترك التردد والجبن وانعدام الفعل وراءه ، ويصبح جديرا بالأب الذى رآه يحمل من أرض المعركة مضرجا بالدماء . هكذا يصل الى نهاية الممر ، ويثقب النهاية المسدودة ، ويمتد الى البراح الذى يقوم وراءها .

تقول ام المناضل سالم وهى تندب ابنها : « ذهبت فى الليل الى هناك ، ولكننى لم أجده . لقد دفنوه خلسة . الا تعرف أين دفنوه ؟ تسأل حامد . ثم تمضى نائحة : ولدى ، كبدى ، حشاشتى ، ما تبقى لى . ويقول حامد لنفسه أمى تعرف السر ولكنها حملته معها وتركتنا . السر هو ماتبقى لها . ماتبقى لكم . ما تبقى لى . حساب البغايا . حساب الخسارة . حساب الموت . ما تبقى لى فى العالم كله : ممر من الرمال السوداء ، عَبَّارة بين خسارتين ، نفق مسدود من طرفيه .

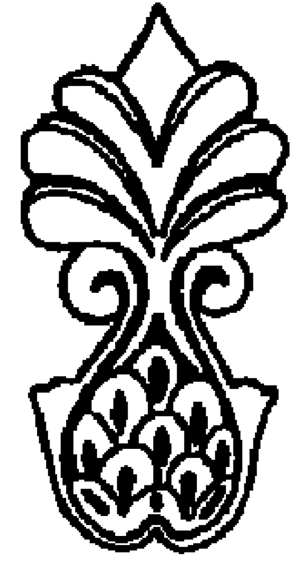
غير أنه فى نهاية الأمر يقطع النفق وينفذ من نهايته الى العالم الوسيع .

« ما تبقى لكم » رواية اجتماعية شديدة النفاذ الى جانب أنها رواية سياسية . الهم العام فيها لا يحجب أبدا هم الأفراد . ولكنه يحفزهم الى التخلص من همومهم ، ويصبها فى الهم الأكبر ، وهى

تعتمد طريق الانسياب الرشيق من صوت الى صوت ، مستخدمة النهايات المتماثلة كى تنقل الخطاب من شخص الى آخر . والأصوات كلها شفافة وشاعرية ، لا نجد معها غرابة فى ان تتنفس الصحراء وأن تحيا وأن تتحدث ، ولا أن تصبح ساعة الحائط شخصية بارزة فى الرواية . لا تعلن الزمن فقط ، ولكنها تدمج الزمن والمكان معا . دقاتها تشير الى مكان مريم فى البيت ، ومكان حامد فى الصحراء . وهى — بعد هذا — بصورة النعش الصغير الذى رآه فيها حامد منذ ان اشتراها — تمثل الحصار والانحباس فى وضع بعنيه وزمن بذاته كما تصور سيطرة الزمن ، وعسفه بالأفراد . ولعل هذا ما جعل حامد يطوح بساعة يده فى الصحراء ، ويشعر براحة كبرى وهو ينفرد بالليل دون وسيط . فتنبسط امامه المسافة الصحراوية السوداء عالما من الخطوات غير مربوطة بعقربين صغيرين . ينطوى زمنها الصغير المتوتر الأحمق ، وتصبح فوق الحصى البارد الشيء الوحيد الخارج عن الزمن الحقيقى .

نشيد الحياة

يحيى يخلف



هربت الدجاجة البيضاء . غافلت زليخة وخرجت من القن . اعتلت السور الواطىء ثم رفرفت بجناحيها ابتهاجا بتحررها ، وقفزت الى الشارع . رقبتها طويلة نوعا ما ، وريشها الأبيض نظيف . تمشي الهوينى . تلتفت ذات اليمين وذات اليسار . تبتعد فى الدروب الموحلة ، وتتبختر كأنها بطة . يعترضها كلب شرس له ملامح الذئب ، فتنفش ريشها وتنشب اظافرها ، وتصبح مهيأة للدفاع أو الهرب . يتجاوزها الكلب دون أن ينظر اليها ، فيعود اليها الهدوء .

تتوقف دجاجة زليخة عند الطريق العام . تتوقف وكأنها تتنفس . كأنها مهمومة وحزينة وقلقة . كأنها واحدة من بنات المدارس ، يؤرقها واحد من اسرارها الصغيرة . وفجأة داهمتها كارثة . جرت احدى عجلات عربة الحوذى أبو العسل الدجاجة ، فارتمت على الأرض مضرجة بالدماء . ارتبج على ابو العسل ولم يدر ماذا يفعل . كان ضميره يؤرقه . ذهب يقابل « حمزة شط البحر » ، ليقص عليه ماكان . أدرك حمزة ان ابو العسل يفكر فى تعويض زليخة عن دجاجتها ولكن الحاجة تقعد به عن التنفيذ . عرض عليه حمزة ان يقرضه وزاد بأن وافق على اصطحابه الى زليخة، صاحبة الدجاجة. وجداها حزينة وغامضة. كانت تدهن حوائطها باللون الأبيض ، فلما عرضا عليها التعويض قالت : « أنا لا آخذ تعويضا . الله يسامح فى الدنيا وفى الآخرة » .

فى بساطة آسرة تحكى رواية : « نشيد الحياة » عن الناس الطيبين الودودين ، الذين يحبون الحياة حتى الوله ، ويستمتعون بالقليل الذى تقدمه لهم ارزاقهم وأوضاعهم الاجتماعية . وتنسج امامنا النسيج القوى المتين الذى يربط هؤلاء البسطاء بعضهم ببعض . الحياة عندهم غالية ومقدسة الحياة بكل أشكالها ومظاهرها من انسان وحيوان ونبات ، وما يحوط هؤلاء من مظاهر

الطبيعة . بحر زاخر متقلب مجنون حينا ، وساج هادىء حينا آخر كأنه مرآة تعكس زرقة السماء فتصبح مياهه مضاعفة الزرقة .

تتحدث الرواية بحب حقيقي واعجاب عن دجاجة زليخة البيضاء ، فتتحول الدجاجة على الفور الى كائن بشري : فتاة صغيرة معجبة بنفسها ، مراهقة نزقة تضيق بحياة الأسر فتهرب من الحبس وتقفز السور الواطىء وتنبسط أمامها الطرقات فتروح تتبختر فيها ـــ كائن نزق ، ولكنه بريء لا يدرى ان الحياة تحوى فى طياتها ما يهدد البقاء ..

واذ تحكى الرواية عن هذه الدجاجة تقدم لنا ثلاثا من شخصيات الرواية ، كل منهم له دور هام . أول هؤلاء « حمزة شط البحر » ، ابن البلد الطيب ، الذى اكتسب لقبه من بقائه الدائم فى كمين المراقبة على الشاطىء من سنوات ظل خلالها يحدق بالمدى الأزرق ويرفع رأسه بين الحين والحين ، حتى أصبح بفضل مراقبته الدائمة لأحوال الطبيعة خبيرا فى الأرصاد الجوية . والحوذى أبو عسل ، الذى دهست عربته الدجاجة غير عامد . لقد سرح حصانه بالحقول ولم يعد . كانت زوجته وأولاده بالمخبأ فلم يتمكنوا من البحث عنه واطعامه . وسأله صديقه زهيرى : هل تهتم بحصانك الى هذا الحد ؟ فأجاب ابو العسل : « انه حصانى الوفى يا زهيرى يتحمل من أجل رزق أطفالى . يجر العربة من سنوات طويلة . قد شاخ ا لسنة الأخيرة فلم يعد قادرا على جر العربة وهى محملة بالأحمال الثقيلة . الآن لا أحمل فى العربة الا ما خف من حمل . احيانا انزل وادفع العربة حين يكون عليها ان تجتاز طريقا عالية أو وعرة .

ذهب أبو العسل يبحث عن حصانه فى وسط عاصفة هوجاء شديدة الوطأة ، اضلته الطريق ، ووضعته ـــ دون أن يقصد أمام بيت كبير فى الضواحى . وبعيدا بين الأشجار رأى سيارة صفراء من طراز « القاروميو » ، والى جوارها سيارة عسكرية . يعرف ان السيارة يملكها سعيد راجى ، عضو الأمن العسكرى . اختبأ ابو العسل بين الأشجار مراقبا ، وبعد قليل خرج عدد من الرجال يحملون حقائب سوداء صغيرة . هرعوا الى السيارتين ، ولحق بهم شاب كان يحرس المكان .

اخذ الخوف ابو العسل كل مأخذ ، ودفع فيه قوة قادته غريزياً عائدا الى البيت . وهناك وجد الحصان قد عاد غريزيا هو الآخر ، الى بيته .

تبين فيما بعد ان سرقة قد حدثت فى بيت الثرى اللبنانى الخواجا البير ، وان المسروقات تقدر بنصف مليون ليرة . واشارت الدلائل الى أن السارق هو سعيد راجى . كان ابو العسل قد رأى وشاهد سعيد راجى يلبس بنطلونا ضيقا وتتدلى من رقبته سلسلة تنتهى بأوقية ذهب . كان شعره مرجلا ولامعا ، وتحت اذنيه بقايا الصابون ، مما يوحى انه جاء لتوه من صالون حلاقة . وقف

ينظر حواليه ، يعبث بحمالة مفاتيح انيقة ، ثم دخل مطعم شواء ، ومعه المرافقون . قال أبو العسل : سيارة وملابس انيقة واوقية ذهب ؟ من أن يأتى سعيد راجى بالمال ؟

بعد الذى رآه أبو العسل صمم أن يرفع الأمر الى اللجنة الأمنية . حكى للرائد سهيل القصة كاملة . قال انى اتهم جميع من رأيت بالسرقة . واتهم مسانديهم . اتهم صاحب السيارة الصفراء سعيد راجى . حققوا معه . شد الرائد على يد ابو العسل وهو يودعه عند الباب قائلا : سوف احتاج اليك مرة أخرى أيها الرجل الطيب .

غير أن سعيد راجى يفلت من المساءلة . الغى امر اعتقاله ، وقيل ان شهودا اثبتوا انه كان موجودا لديهم وقت ارتكاب السرقة ، وافاد صاحب جراج للتصليح ان السيارة الصفراء كانت متوقفة بالجراج يوم الحادث . لذا لم يستغرق لقاء سعيد راجى لأعضاء اللجنة الأمنية سوى بضع دقائق . خرج بعدها والرائد سهيل يوصله حتى الباب .

تبين فيما بعد ، لدى التحقيق مع الفران زهيرى ، الذى كان فى طريقه الى بيروت ليحمل دقيقا للمقاتلين فوقع فى كمين صهيونى ، واخذ للتحقيق والتعذيب ، تبين ان رجلا مقنعا قد احضر ليشهد جزءا من التحقيق . نظر اليه الزهيرى فلم يستطع ان يمنع نفسه من ان يرى وجه سعيد راجى خلف القناع .

هذا اذن هو سر ثراء ونفوذ سعد راجى . هو العدو الداخلى للثورة ، يتعاون مع عدوها الخارجى لالحاق الهزيمة بها . هكذا تنساب حوادث الرواية بسلاسة ورقة وحزم ووضوح لتكشف ما يحيط الثورة من اعداء ، ومن ممارسات خاطئة ، ومن محاولات لتسوييء سمعة الثورة فى علاقتها مع أهل لبنان . لاخطابة هنا ، لا الحاح ، لا افتعال للحوادث ، وانما قص رشيق انيق ، دافىء الوقع والايقاع يجعل من الرواية شاهدا فعالا فى النفس .

اما الشخصية الثالثة التى قدمتها حكاية الدجاجة فهى زليخة . تظهر زليخة قبل مصرع دجاجتها حينما تأتى لتشارك فى مراسم تغسيل رجل مجهول الهوية قتل اثناء عملية قنص ، فتولى الشايب (يأتى ذكره من بعد) تجهيز الميت . ونظر الشايب فاذا زليخة قد اتت عبر الأزقة دون ان يلحظها احد . جاءت بثوبها الأسود الذى لاتنزعه عند النوم ولا تنزعه صيفا ولا شتاء . سألها الشايب : ما الذى جاء بها . لم ينتظر منها جوابا . مدت يدها الى صدرها وأخرجت زجاجة عطر . دمعت عينا الشاب ، واقترب فقبل رأسها وقال : يا زليخة يا مباركة : ليرحم الله هذا الرجل الغريب ببركتك . وتناول زجاجة العطر وفتحها ، وادارها على الجسد الملفوف بالأبيض .

قامت عاصفة هوجاء تناولت كل شىء . وبعد العاصفة أخذت زليخة ترم البيت وتكنسه وتشطف الحوش ، وتعيد بناء قن الدجاج. خبأت دجاجتها الوحيدة تحت السرير ، واحاطتها

بالدفء والرعاية . كانت قد فقدت ثاني دجاجة لها في العاصفة . وحين سكن الهواء سكن خوفها ثم هدها التعب والنعاس فنامت . رأت في المنام زوجها ابو كامل . جاء بعد غياب طويل ، يسبقه صوت عكازه . دق الباب ففتحت له . دخل مهيبا رزينا واسع الصدر . تناولت يده لتقبلها . سحب يده ومسح بيده الأخرى على رأسها فبكت أمامه . قال لها : سئمت الغربة والتجوال . تعبت من الرحيل المتواصل وقررت العودة اليك يا زليخة . قررت ان اعود وأقبل شعرك الأشيب وأقضي بقية عمري رهن إشارتك . ثم استيقظت زليخة من حلمها قبل أن تقول لزوجها انها بكت حتى لم يبق في عينيها دموع .

كانت زليخة صبية عندما تزوجها ابو كامل ثم هجرها سنوات طويلة ، لا تعرف عددها . وها هو شعرها قد ابيض تماما . ولا تدري أين ذهب ولماذا وكيف ؟ في البداية حقدت عليه وتمنت له الموت البشع ، لكن مرور الأيام جعلها تشفق عليه . بدأت تحزن وتنتظر عودته سالما . قرَّ في وعيها أنه سيأتي ذات يوم يسبقه عكازه . وعدت أولاد الحارة بالحلاوة لو هم بشروها بعودته . كبر الأولاد وأصبحوا شبانا ولم يعد أبو كامل غاب مع من غاب من الأحباب . لماذا يعود الى احلامها بعد كل هذه الاعوام الطويلة ؟

ذكرته مرة أخرى حين أغار الصهاينة على القرية . تجمدت الحياة في الشوارع ، وخرجت زليخة تمشي في صحراء الليل والبيوت الفارغة والأشياء المهجورة . قال لها شاب يافع يحمل بارودة : الوضع خطير . عودي الى منزلك يازليخة وكوني حذره . جرَّت اعوامها الخمسين وفتحت باب البيت . اضاءت المصباح . تململت الدجاجة ثم وقفت ورفرفت بجناحيها كأنها طفل صغير . خفق قلب زليخة . هجم الحنو والبكاء ورغرغت زليخة بالدموع . اذ ذاك ذكرت زوجها . سمعت دقات قدميه ونقرات عصاه على الباب . ارهفت السمع . حبست أنفاسها . لا أحد . لعلها روحه ترفرف حولها في الليل القاسي ، لعلها روحه تقترب لأنها سئمت الوحدة فجاءت تبحث عن انيس .

الانتظار ، والأمل في أن تحدث معجزة ، ويأتي مع الأيام الشيء العزيز الذي طال انتظاره يشكِّل نغمة رئيسية في « نشيد الحياة » . « سنيورة » المرأة سيئة السمعة ، التي تملك قلباً من ذهب تنتظر كل يوم سائق سيارة احبته حين كانت في الخامسة عشرة . دعاها الى العشاء والى سهرة واعادها عند بزوغ الفجر . وعدها ان يلقاها كل مساء فيذهبا الى بيروت ويسهرا حتى الفجر . ولكنه لم يعد . اختلقت له الأعذار . لعل سيارته تعطلت . لعله مرض فجأة . غير أنه لم يعد أبدا . ولكن سنيورة لم تكف عن انتظاره . مساء كل أحد ، تقف على الشارع العام . تنتظر — عبثا — الرجل الذي وعدها ولم يف بوعده . تنتظر دون كلل . تعرف انه لن يأتي

ولكنها تنتظر . لم تعد تفتح بابها لكل طارق . تغلق على نفسها بعد الثامنة . تكون قد حصلت على تموينها من السجائر والخبز والبسطرما . تقرأ مجلة الشبكة ، تقرأ أخبار النجوم وابراج الحظ ، ومشاكل القراء ، وفى وقت مبكر تطفىء النور وتنام .

غير أن اناسا آخرين يظلون ساهرين . وقبل منتصف الليل ، ينام سكان المخيم ، وتغلق الأبواب والنوافذ على الآلام الصغيرة او احتمال الفرح أو الخوف من المجهول ولكنهم ينتظرون . ينتظرون المعجزة التى ستأتى بها الثورة .

لا يأتى صديق سنيورة ، ولكنها — هى نفسها — تتحول مع حياة الجماعة شخصا آخر . كانت قبل التحول تمثل التحدى الصارخ الذى لايبالى بالعادات والأعراف . تمرق من أمام الفرن بسطلها الفارغ ، وهى تلبس قميصا رجاليا ، وتشد وسطها بحزام عريض ، فيندفع صدرها ، على عينيها آثار الكحل وعلى وجهها مساحيق ليلة مضت .

كانت تقف عند مجمع الحنفية تنتظر دورها . تقلب السطل وتجلس عليه ، وتضع رجلا فوق أخرى . تحدق النسوة بها بحسد وغيظ . تحاول امرأة ان تتأكد اذا كان احمرار خديها من الصحة أم من المساحيق . تظل السنيورة تمضغ اللبان ، ويظل بائع الترمس ينظر اليها بغل . هكذا كانت السنيورة فى البداية . الأحداث تطورها تطورا ملحوظا فى أيام العاصفة والبرد اللافح ، دخلت فرن الزهيرى ، شاحبة الوجه زرقاء الشفتين ، ترتجف بشكل ظاهر . همهمت بالتحية . لم يرد أحد أن يحدث امرأة سيئة السمعة مثلها . طلبت كيلو خبز ، فقالوا لها : عودى بعد ساعة . بيت النار لم يسخن بعد ، تجاهلت الكلام وظلت واقفة . لم تأبه بالانتهار الثانى . كان وجهها حزينا وعيناها كسيرتين ، وأسنانها تصطك وصفحة وجهها ترتجف . فى الماضى كانت تدخل وتثير الضجيج ، وتقفز الى الدكة الخشبية وتضع رجلا فوق أخرى وتشعل سيجارة ، وتتحدث بالكلام الموحى المزدوج المعنى فيزداد وجه الزهيرى احمراراً ، وتنسحب بعض النساء ، ولكن السنيورة تبقى ولا تنصرف الا بعد أن تأخذ الخبز قبل أن يأتى دورها .

اليوم وقفت بانكسار . ثم تجرأت فجلست على حجر فى ركن الفرن . خبز لها الزهيرى رغيفا والقاه فى حجرها . قالت السنيورة : لا تؤاخذونى يا جماعة . البرد كان يجرح عظامى . سرى الدفء فى الجميع . القت السنيورة كسرة خبز الى كلب مقرود كان قد دخل الفرن ورفض أن يغادره . داعبت السنيورة الكلب ، فبسط ذراعيه وتمدد على الأرض الدافئة . تساءل ابو العسل فى نفسه : لماذا تبدو هذه المرأة الكريهة الآن امرأة عادية ، لها شحوب نساء المخيم اللاتى يشتغلن فى قطف الخضار فى الحقول ؟ لماذا تبدو عادية ، يشعر المرء برغبة فى ان يجاذبها اطراف الحديث ؟ اكلت السنيورة لقمة من الرغيف الساخن ، وعندما كانت تلوكها كان ابو العسل

يشعر بالشبع .

ثم تعرف احمد الشرقاوى ، الفدائى الشاب الى سنيورة . كان ذلك يوم أحد . وجد نفسه وحيدا أمام البحر الغامض ، الذى يوجه نداء الحب أو نداء الانتحار . اقبلت سنيورة من بعيد فى بلوزة بيضاء وتنوره حمراء ، تربط شعرها بشريط أبيض مثلما تفعل بنات المدارس ، أقبلت بوجه متورد وشفتين بلون الكرز . استوقفها وقال انه يريد ان يكلمها قليلا . صدته سنيورة وواصلت السير . لاحقها وقال : عندى اجازة وأشعر بالضياع ولا أجد أحداً ابثه شكواى . قالت : لدى ميعاد هام ، وواصلت سيرها . ظلت سنيورة تنتظر على الطريق العام ، وطال انتظارها فقفلت راجعة تجرجر قدميها من فرط خيبة الأمل . وقامت بينهما صداقة فورية . طوقته بذراعيها ، وحاول ، فقالت : أرجوك لنبق هكذا . وعجب أحمد الشرقاوى وقال فى نفسه : ما الذى تريده هذه المرأة ؟ كم من الجراح تثخن اعماقها ! وحكى لها عن صديقته فى بيروت التى يعجز عن الزواج بها ، لأنه لا مال له . وحدثته عن السائق الذى سهر معها مرة واختفى . ثم تندمج السنيورة من بعد فى حياة الجماعة . تنقل الشايب الذى سقط منهكاً حتى اشرف على الموت الى مكان يمكن اللجوء اليه فى قرية على كتف الوادى . وكان أحمد الشرقاوى قد غاب عنها بعض الوقت ، فلما عاد ، غمرته بقبلاتها واحتوته بين ذراعيها . كان الحرب الشاملة قد اشتعلت فسألها أحمد ، ألا تشعرين بالخوف ؟ فردت : ولماذا أخاف ؟ وأردفت ان الصهاينة يهاجموننا فلماذا لانواجههم بكل أشكال الصمود ؟ سألها : وماذا تفعلين ؟ قالت : سأتطوع فى مركز الهلال الأحمر . فإن رفضوا قبولى فسأذهب الى فرن الزهيرى واساعده فى عجن الطحين . قال لها أحمد : أريد منك زجاجة عطر صغيرة . وحكى لها قصة المقاتل الذى استشهد ، فحضر الملائكة لنقله الى الجنة . سأله الملائكة : من ربك ؟ أجاب الله ربى . ومن نبيك ؟ محمد نبيى . وأين عطرك ؟ اجاب : لم احضره معى . فقالت الملائكة : الجنة طيبة ، ولا يدخلها الا من كان يحمل عطرا ذا رائحة طيبة ، ونقلوه الى منطقة بين الجنة والنار . واعطته السنيورة الزجاجة قائلة : الآن ضمنت ان يدخلك الملائكة الجنة .

تحتدم المعركة وتندفع دبابة يواجهها أحمد بمدفعه . وفى وقت واحد تنطلق قذيفة المدفع ورشاش الدبابة . تنفجر الدبابة ويسقط احمد شرقاوى شهيدا . ويجد الملائكة معه زجاجة العطر فيدخلونه الجنة . ترى السنيورة فى نومها ان احمد قد استشهد فتصرخ من اعماقها وتنتفض مستيقظة وقد ازرق وجهها واشبهت عيناها الخرز : قالت : رأيت أحمد شرقاوى يموت .

ويموت من التعذيب الزهيرى ، صاحب الفرن الطيب القلب ، الذى لم تلسعه النار أبدا ، ولسعه البرد الذى القى به فيه زبانية الصهاينة فتجمد فى الصقيع حتى صعدت روحه . ويصاب

ابو العسل فى حادث عدوان غادر سلطه عليه انصار سعيد راجى الجاسوس ، عميل اسرائيل .

ويبقى من الشخصيات البارزة شخصية الشايب ، الرجل الذى لاينام كما لقبه محبوه .

الشايب يمثل ذاكرة الثورة . يعيش احداثها الآنية بكل جوارحه ، ويحمل السلاح للدفاع عنها ضد العدوان الصهيونى ، ولايفتأ يعود بذاكرته الى أيام النكبة الأولى عام ٤٨ . منذ ان حدثت مذبحة تل الزعتر ، أصبحت الثورة اسرته ، الى جوار كونها عقيدته وقضيته . كان يعيش اطيب العيش مع زوجته فاطمة . تأتى متسللة على رؤوس اصابعها كل صباح ، خشية ان توقظه ، تجهز له ابريق الوضوء وقهوة الصباح وطعام الافطار من العسل ، الشهد الصافى . امرأة فلاحة وفية تستيقظ قبل صياح الديك وتعمل بالحقل ، وتربى الدجاج فى البيت ، وتطبخ وتعجن وتخبز ، وفى آخر الليل تنضو ثوبها الأسود ، وتندس الى جانب زوجها بجسدها الأبيض الطرى ، تنام بجانبه فى العتمة وتلتصق به ، فيضيء الكون وتتورد الأشياء ويصبح للمساء طعم التفاح . وفى الصباح الباكر تسخن له الماء ليستحم ويذهب الى المسجد طاهرا . كانت امرأة طاهرة ، نظيفة القلب والروح ، تفيض بالبركة ولا تكف عن حمد الله حتى فى أيام الشدة . تحب الناس ولا يخلو بيتها أبدا من الضيوف . كانت سيدة البيت وأحيانا هى رجل البيت . شيء واحد فقط كان ينغص عليها حياتها . كانت عقيما . وعندما كان الحزن يعصف بها ، كان الشايب يخفف عنها قائلا : ان الخصب ليس بالحمل والولادة . الخصب فى شخصها الكريم واخلاقها النبيلة ، وكرمها وعنفوان شبابها وجمال جسدها .

ولكن الموت يعاجلها . استحمت ذات ليلة ومشطت شعرها ، وأصبح الصباح فاذا قلبها قد توقف ! لم يبق للشايب بعدها سوى الثورة ، ومقاتليها ، وكلب عجوز ، كان الشايب يتمثل فيه وحدته وضعفه ، فيأخذه الى قلبه ويرأف به فى شيخوخته .

يسرق سعيد راجى اموال الثورة فيعلق الشايب : انه من البعوض الذى يقف على جلد الثورة . ويذكر بالمناسبة ايام ثورة ٣٦ حين كلفت الثورة رجلا اسمه ماهر الهر بجباية المال . فكان أهالى قريته والقرى المجاورة يتبرعون بالمال والحلى . فتجمع له قدر كبير من المال ، استولى عليه وهرب الى الخارج . ولما انتهت الثورة عاد « ماهر الهر » الى القرية وجيها ثريا ، فبنى بيتا واشترى سيارة . لكن الناس جعلوا يشيرون اليه ويقولون : هذا هو الهر الذى سرق اموال الثورة .

وبعد النكبة أصبح الهر لاجئا معدما فى المخيم ومات تاركا وراءه ابنه الشاب . وتزوج الشاب وانجب طفلا وكبر الطفل وأصبح يافعا فصار الأهالى يشيرون اليه ويقولون هذا هو حفيد الهر الذى سرق اموال الثورة . وتنهد الشايب وقال : للناس ذاكرة حادة .

وبتذكر الشايب مرة أخرى ليلة الهجوم الصهيونى على قريته عام ٤٨ . كان فى الخندق يمد

ماسورة البندقية وينظر من المنظار الى الجهة التى ينتظر ان يأتى من اسوارها اليهود . كان يكمن وحيدا ينتظر الأمر باطلاق النار . وكان الضابط العراقى يمر مرور الكرام فيسألونه عن الأوامر فيرد بإقتضاب : ماكد اوامر سأل زميل الشايب ، شاب شركسى فى عنفوان شبابه : متى تأتى الأوامر ؟ ولما لا يحصل على جواب يقول : ولماذا ننتظر الأوامر ؟ لا ننتظر ان يصلنا اليهود لكى ندافع . فلنبادر — نحن ونهجم عليهم . وتسلل الى حقل البطيخ ومعه قنبلة كبيرة . وبعد نصف ساعة حدث انفجار رهيب أشعل الليل كله . وعندما عاد الشركسى والدم يسيل من مرفقيه وركبتيه بسبب الزحف فوق التراب والحصى والأشواك ، أرسل ضابط جيش الانقاذ من يعتقله ويكبل يديه لأنه هاجم العدو دون اوامر ! تذكر الشايب هذا وعقب : كأن الأيام تتشابه . كأن التاريخ يعيد نفسه .

يحرص يحيى يخلف على انقاذ الشايب من الموت ، بعد أن فاجأه الردى وأصبح شديد القرب من القبر . غسلته زليخة وهى تعده للحياة الآخرة ، فدلكت — وهى لا تدرى قلبه — واعادت اليه النبض وكان ان افاق الشايب ونقل الى مكان أمين ليقضى فترة نقاهة . وتنتهى الرواية وهو يمسك بأغصان الشجر كيلا يقع ، ويغمض عينيه ويطلب من الرب أن يهبه القوة .

ان الشايب هو رمز استمرار الثورة جيلا بعد جيل . ويحيى يخلف يكرر فى أكثر من مكان من الرواية تمسك الناس العاديين بالثورة وحلم انتصارها ، والشايب هو التجسيد الواضح لاستمرار الثورة . اما الأمل فى أن تقدم اجيال جديدة تواصل المسيرة فيعبر عنه يحيى يخلف بالولد الذى يبدل اسنانه ، تسقط احداها من فمه فتوصيه امه ان ينتظر حتى تبزغ الشمس ثم يرفع يده ويلقى بالسن عاليا فى وجه الشمس وهو يهمس : ياشمس ياشموسه ، خذى سن الأطفال واعطينى سن الرجال .

اطفال اليوم يصبحون رجال الغد ، والثورة مازالت مستمرة . يعمق هذا المعنى ان الطفل هو ابن الرجل الذى قتل فى أحد معارك القنص . فلئن مات ابوه فها هو ذا يتهيأ للنضوج لكى يلقى بنفسه فى خضم الثورة .

عذبة ورقيقة وحانية هذه الرواية : « نشيد الحياة » . عنوانها يحمل التفاؤل ، فهى ليست مرثية لمن ماتوا ، وانما هى نشيد الحياة لمن بقى ويبقى من رجال الثورة . يضىء جنبات الرواية الحب والاخلاص التى يتمثل فى علاقات الأزواج والزوجات ، سواء منهم من مات ومن بقى على قيد الحياة . يأتى الزهيرى الفران الى بيته بعد يوم حافل بالأحداث فيغتسل ، ويلبس الملابس النظيفة وبيجامته الزرقاء ، يجد صينية الافطار جاهزة . يتربع على الأرض : لبنة . زعتر وزيت . بيض مقلى . جبنة حلوم . وخير الله كثير . اكل وشرب الشاى ، ثم قدمت له زوجته سيجارة

واشعلتها ، واشعلت لنفسها أخرى . لم تكن تدخن . ولكنها فى ساعات الصفو تدخن على سبل الدلع . قبلته فى خده . كانت قطة ، وكان كبيرا ضخما ، تكاد تضيع فى صدره .

قال لها : « الآن . أريد أن أنام » السرير نظيف ومرتب . الوسائد المطرزة نظيفة طيبة الرائحة . الأغطية مغسولة شديدة البياض . قال لها : رائحة غسيلك الطيبة تفوح كالعطر . فأجابت وفى البيت رائحة حنوك !

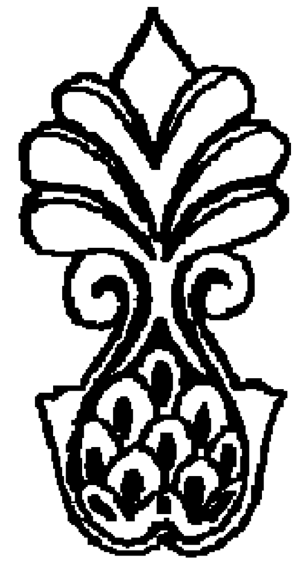
هذا الود الرقيق يبذله خيار الناس بعضهم لبعض ، بل يبذلونه للعجماوات أيضا . زليخة ودجاجاتها . ابو العسل وحصانه . الشايب وكلبه . مجتمع متحاب مترابط ، يريد ان يعيش فى سلام فتأبى قوات الظلام الشرسة الا أن تسفك فى جنباته الدماء الزكية .

صورة مؤثرة وباقية للثورة الفلسطينية ولرجالها ولأنصارها ولخائنيها ولأعدائها ، لا تبالغ ، ولا تمجد وإنما تقرب الأشياء الى قلوبنا وعقولنا برشاقة وسهولة بالغتين .

ثنائية

الصبار عباد الشمس

سحر خليفة



يعود اسامة من اغتراب خمس سنوات عن الضفة المحتلة . سنوات قضى بعضها فى دول البترول حتى طرد مع مائة وستين فلسطينيا . سفروهم فى ليلة واحدة . سحبوا اسامة من فراشة . لبس الجاكيت فوق البيجامة ، والقوا به فى أول طائرة مغادرة الى لشبونة . طردوه لأنه فلسطينى . فتشرد ما بين الجزائر وسوريا . وبيروت . وها هو اليوم يعود الى الضفة . وجد فيها ما لا يسر . الناس يأكلون ارزا اسرائيليا ودقيقا اسرائيليا وسكرا اسرائيلياً . يأكلون هذا بلا تردد . بلا وخز ضمير . أخذ أسامة يتملى عينى الرجل الذى كان يحدثه . عينان بليدتان راضيتان . قال لنفسه : ماذا حدث لهؤلاء الناس ؟ أهذا ما فعله بهم الاحتلال ؟ اين روح المقاومة ؟ اين الصمود ؟ وصاح فجأة كمن يتقيأ : وأين الصمود ؟ قهقه سائق السيارة التى ركبها اسامة وقال بسخرية : للذين قبضوا ثمنه . ثم اردف : سمعت ولدا يردد وهو يقف على صندوق خشبى ويدخن سيجارة : انا صامد ، صامد ، على بوكس حامض .

انفجر أحد الركاب غاضبا وأخذ يردد كليشهات محفوظة : عن الوحدة والعالم العربى من الخليج الى المحيط . عن المد الثورى والشعوب النامية . عن فيتنام . وحرب المليون شهيد . والصين الشعبية وحرب الذباب ثم اردف لاهثا : وانتم هنا تجلسون كتنابلة السلطان ، تدخنون « العال » وتخترعون كل المبررات . لم يجبه أحد . فعاد يقول : لا تجيبون ! لا تحركون ساكنا . لا تفعلون شيئا سوى المحافظة على بقاء النوع . وهو نوع لا يستحق كل هذا العناء . انتم لا ترون المستقبل . انتم مصابون بعدم وضوح الرؤية .

اذ ذاك تذكر اسامة تعليقا له عن احد اقوال الزعيم : « المنظمات الفلسطينية مصابة بعدم وضوح الرؤية » قال اسامة معلقا : « المنظمات الفلسطينية ليست ملومة . الشعب فى الداخل هو الملوم . ودمدم فى اصرار : الشعب فى الداخل هو الملوم » .

من هذا الموقف يجادل اسامة ابن خاله عادل . يرتمى على كتفه ويبكى فى صمت ثم يقول ماذا حدث للبلد ؟ للناس ؟ قد تغيرتم . حتى الصبية يدخنون فى الشوارع . دعايات الأفلام القاضحة تلطخ الشوارع . الناس يلتهمون الكنافة ويبتسمون . انت أيضا تبتسم . ماذا حدث لكم ؟ ابطروكم . استوعبوكم . ولا أرى فى عيونكم ومضة خجل .

لم يرد عادل وابتسم بصبر ، وأخذ يزدرد كآبته بصمت . واسامة يلح بتساؤلاته . وانت ماذا تفعل يا عادل ؟ يجيب عادل : أطأطىء للحياة . واسمع الراديو وأقرأ الجرائد واطعم تسعة أفواه آدمية والآلة ــ الكلية الصناعية التى بفضلها وحدها يعيش أبوه .

يعود اسامة للتحدى : ماذا فعلتم تجاه ما انتم فيه ؟ ماذا فعل عادل فى الداخل هناك (اسرائيل) ؟ ماذا يفعل الشباب امثالك لمواجهة ما فى الداخل ؟ يرد عادل . ما فعلتموه انتم لمواجهة الخارج . يقول اسامة : انتم الملومون . انتم أصحاب القضية . يقول عادل كلنا أصحاب القضية . يعود اسامة الى الالحاح : الصورة واضحة ، ألا ترى ؟ يرد عادل : للصورة أكثر من بعد واحد . وواصلا السير وكل يجتر احزانه .

وراء حزن عادل يكمن لب القضية التى اثارها اسامة . ماذا يفعل الناس أمام واقع الاحتلال البغيض ؟ قد غير الاحتلال التركيبة الاجتماعية للبلد . لم يعد هناك خدم أو حشم . العمال العرب يملأون مصانع اسرائيل . وأجر العامل أصبح يضاهى أجر السيد . يقول خال اسامة وهو يتصدر مجموعة من الأصدقاء والصحفيين الأجانب ومصورى التليفزيون الفرنسى : « العمل فى اسرائيل فرض على عمالنا فرضا . نحن لسنا ملومين . ولا التركيب الاجتماعى ملوم . الاحتلال هو الملوم » .

ترك عادل مزرعة الآباء والأجداد ، وذهب يعمل فى اسرائيل : تركها دون أن يخبر أحدا من أهله . حين ذهب اسامة ليتعرف على أحوال المزرعة لم يجد بها الا أبو شحادة الحارس الذى طعن فى السن فلم يعد يدرى من أمر نفسه شيئا . لم يعرف أسامة . ولم يعرف أين ذهب عادل ، ردد باستمرار : لا أدرى . قال ان العمال ذهبوا للعمل فى اسرائيل . وشحاده ابنه أيضا . والسبب ؟ هناك أحسن ، قال الشيخ . « مصارى كثير ونسمة هوا وشمة هوا ومفيش تعال يا ابن الكلب ولا روح يا ابن القواد . هناك أحسن . مصارى كتير وشغل بالراحة . لا حدا فوق رأسه ولا حدا يكسر رقبته ويخليه يشتغل من الصبح حتى الليل مثل الحمار » .

وسأله اسامة : وهذه الأرض ، لمن تتركها ؟ جاءه الجواب الصاعق : وهى الأرض أرضنا ؟ الأرض ارض صاحبها ياأفندى. وانت زعلان ليش وأنا ياسيدى أجير . طول عمرى كنت أجير ، لا أرض ولا يحزون . وابنى كان أجير ومازال . ومادامت الأرض مش أرضى ولا أرض شحادة نموت

فيها ليش ؟ لما متنا من الجوع ماحدش سأل عنا ، والساعة بقيتوا تسألوا عنا ليش ؟

بمنطق مماثل يرد عادل على هجمات اسامة . يقول له بين نوبات القيء اثر سكر بيِّن : اقنعنى بأن ما أقوم به ليس جهادا ، وبأن المعركة محددة المعالم . يقصد العمل فى اسرائيل لإعالة اسرته ، وعدم وضوح الأمر بشأن العمل فى اسرائيل . اهو خيانة أم ضرورة يقول اسامة : هناك اوامر بنسف اوتوبيسات العمال . خذ حذرك نبهتك وأرحت ضميرى . يرد عادل : ضميرك ! ومن يطعم الأطفال ويستر عورات النساء ؟ واذا ترملت النساء فمن يتزوجهن ؟ واذا تزوجن سيرمى الأزواج أولادهن فى الشوارع وسيتسكع الصبيان فى الأزقة يدخنون . يرد اسامة : هم يدخنون رغم وجود الآباء . فما نفع الآباء اذن ؟ يسيئون تربية الجيل الجديد ويشوهون امجاد الصمود . ينفجر عادل قائلا : أمجاد ؟ الا تقيسون الانسان الا بأمجاده . وضعفه ؟ وقسوة الحياة والمجتمع ، والتركيب المهترىء ، والأحقاد المتبادلة ؟ نحن ننمغص ، وأنت تعيروننا بعدم الولادة ! ماذا نلد ؟ هل لقحنا النهر المقدس ولم نلد ؟

الجدل الذى يثور بين اسامة وعادل من جهة ، وبينه وبين الشيخ ابو شحادة من جهة ثانية ، يثور فى نفوس شخصيات أخرى من الرواية . نوار ، اخت عادل ، تحب صالح ، المناضل الصامد الذى دخل المعتقل جزاء نضاله . تحبه نوار ، وتقطع على نفسها عهدا الا تتزوج غيره . من أجله تغضب اباها غضبا شديدا . حين تصرح بأنها لن تتزوج الرجل الذى يقدمه لها الأب كعريس : الدكتور عزت . نوار تزور صالح الصفدى فى السجن وتدعى للسلطات انها خطيبته . وتكتب له الرسائل . وتصرح انها لن تتزوج غيره ولو انتظرت مائة عام .

غير أنها تغير رأيها قبل المائة عام بكثير . كثير جدا ؟ تقول لها سعدية : كيف حالك مع صالح ؟ معلقة بحباله ؟ اقول لك يانوار وماتزعلى منى . انت اليوم عمرك ٢٥ وفى عز شبابك . لكن بالنسبة لنا نحن النساء ، السنة القادمة غير السنة الرايحة . نظرت نوار إلى وجه محدثتها وقالت بخوف : بعد عشرة أعوام يصبح وجهى كهذا . وسأنتظر بدل العشرة عشرات يا إلهى ..

وعادت سعدية تقول : قسمتهم . يعنى اللى يموت نموت معه ؟ واللى ينحبس ننحبس معه ؟ وتستنى يانوار حتى يضيع شبابك ؟ ونظر إليها أخوها عادل فوجدها لا تزال تحتفظ بجمالها الهادىء الشفاف . لكن مسحات الحزن المتراكمة بدأت تذكره بان البنت تكبر . هى فى منتصف العشرينات الآن وغدا تصبح فى الثلاثينات ومازالت تنتظر وماذا تنتظر ؟ تحقيق الحلم ؟ وما الأحلام قيد خطوة أو خطوات . سنوات قد تعقبها اجيال . رآها عادل تمسح دمعة . فأجلسها الى جواره . قالت : ماعدت احتمل هذا الجو . أريد الهرب وعد قطعته على نفسى أن انتظر . كان للانتظار معنى . وكان صالح امنية . أصبح الانتظار قيدا وبت أحلم بالهرب ؟

يسألها : الى أين ؟ تقول : لا ادرى . ولكنى فقدت القدرة على المكابرة . سألها : هل اخبرته ؟ قالت : وماذا أقول ؟ مللت الانتظار . رسائله لاتكف عن بذر الأمل . ولكنى ماعدت فتاة حالمة كالسابق . انا بحاجة اليه هنا . أراه امامى . المسه بيدى . احس بدفئه يملأ الشوارع بعد أن كلح البريق . سبعة أعوام سبقتها اخرى وتتبعها أُخَر . وما جدوى الانتظار ؟

أحس الأخ بشيء من النقمة . مر أمام سجون كثيرة فى نابلس ، فى القدس ، فى رام الله رأى الأهل بانتظار الزيارة فلاحات بأثواب ريفية . رجال بحطات وقنابيز . اطفال بشعور مشعثة بالعشرات ونسوة لفظتهن قيعان المدن . فقر وشظف ووجوه صفراء لكزه أحد الزملاء يوما وعلّق : اترى ما أرى ؟ لاتسل : من يدافع عن البلد ؟

غير ان عادل ليس مستريحا للموقف الذى يقفه من قضية بلاده . حين تسأله اخته نوار : ما أخبار الدنيا ؟ يرد : أية أخبار ؟ أية دنيا ؟ لاشيء جديد . بل كل شيء جديد . الجرح هو الجرح ، لكنه يتسع كل يوم . وأنا لا أعرف من أنا . لا أنا وردة ولا أنا شوكة . محاولات يائسة لاصلاح ما أفسده الدهر . الوضع أعوص من أن يجدى فيه أى إصلاح . تغيير . تغيير شامل وربما تغييرى أنا .

كانت الأنباء قد سبقت بالهجوم الذى أنذره به اسامة على اتوبيسات العمال . قتل اسامة فى الهجوم . وقتل زهدى وهو يقذف قنبلة على جنود العدو . وجاءت نوار لتقول : لينا اعتقلت . فذهل عادل وفكر : لم يبق الا هذا ، الفتيات يعتقلن وأنا جالس فى هذا المقعد . وبعد لحظات سأجلس الى الطاولة وآكل كما يأكل الآخرون ، واشرب الشاى وابتسم ، ثم أنام .

يتبين عادل عقم الموقف الذى يقفه من اسرائيل ودولتها وجنودها وهيلمانها . كان يؤمن بالتفاهم ، بالحل المرحلى . بالالتجاء الى القانون للحصول على تعويض على بتر اصابع ابو صابر فى اصابة عمل . والآن هاهى ذى الأحداث تثبت كم هو واهم . نسف الصهاينة بيته ، وقتلوا صديقه وقريبة اسامة ، الذى آمن دائما بضرورة النضال المسلح . وهذا هو زهدى ، الذى اثرى بالعمل فى مصانع الأعداء ينضم ، ساعة الجد ، الى المقاومة المسلحة وهو يرى اسامة يخر قتيلا . وبعد اعتقال لينا ، وهرب باسل ، شقيقه الأصغر وانضمامه الى فريق المقاتلين ، يقف عادل وحيدا أمام زيف موقفه . كان هذا وضعه عند ختام « الصبار » ـــ الجزء الأول من ثنائية سحر خليفة .

غير اننا نلقاه فى الجزء الثانى من الثنائية : « عباد الشمس » فلا نلحظ أى تغير جوهرى عليه . ما زال يؤمن بالحل المرحلى . ويسعى الى انشاء علاقات مع اليسار الاسرائيلى وأنصار حركة السلام الآن . ويجهد فى أن يحتوى « رفيف » ويقنن حركاتها .

رفيف هى صديقة حميمة له . تحبه حتى الوله ، ولا يحبها هو . يقبلها ويرفضها فى آن واحد . يتهمها بأنها تريد رجلا يرضى حاجات الأنثى المتعطشة للامتلاك . يقول لنفسه : « ترفض الحصول على جزء منى ، تريدنى كلا لاجزءا . وهذا محال وأخذ يشرح لها مضار العواطف وعدم ثباتها . اخته نوار خرجت على الميثاق ، وتركت صالح بحثا عن الاستقرار والأمان ، وبيت تقليدى تختنق فيه أكثر مما تتنفس .

سمعته رفيف وقالت لنفسها : « وأنا أيضا اطلب الاستقرار . سئمت . تعبت من كل هذا الركض واللهاث . واخذ يشرح لها الأزمة . النضال . اوهام العواطف . حتمية التاريخ وصراع البقاء . الأهم فالمهم . الفرد والمرحلة والتاريخ . التاريخ حوت ضخم يبتلع الأسماك ، ويبقى جبارا يقطع المسافات فى سنوات ضوئية . الالتزام يعنى ان يستوعب الانسان مسئوليته تجاه كل هذا العبء ولاتهن قواه .

تقول له رفيف : لست بحاجة الىّ . قل هذا وأرحنى . يرد : بحاجة اليك والى غيرك . تقول : مجرد واحدة تعبر . يرد : كما أعبر أنا . تثور رفيف : وتظل ارقاما بغير عدد ، التاريخ يصهر الأرقام فى واحد ؟ لا . أرفض . لا تتعب نفسك . لن أفهم . انا انسانة لى خصوصيتى ومايميزنى . أرفض أن أصهر فى بطن الحوت . لن أجعل منه إلّها . قد كفرت بالآلهة من سنين . وعاد عادل يردد ما كان يقول ، فصرخت فيه بجنون : لست بحاجة الىّ . قلها وأرحنى . أرفض . أرفض . أرفض . ان أوأد فى معبد أو بطن الحوت .

ولرفيف شكوى جهيرة الصوت من الرجال ومجتمع الرجال . تقول لنفسها : لن تحل مأساة الشعب وهؤلاء هم القادة : عادل وأمثاله . أنا نصف الشعب . أنا المرأة . أنا النموذج الذى يمارس عليه عادل تطبيق النظرية . عاجز هو عن رؤية واقع المرأة ومتطلباته . ماذا يقدمه للمرأة ؟ ما حل بالمرأة الجزائرية بعد الاستقلال . ناضلت وحملت السلاح وتعذبت فى سجون فرنسا ثم اعادوها الى قاعدة الحريم وغطاء الرأس ، وخرجوا هم الى النور . ماذا اعجب عادل فىَّ ؟ يشتهينى ويطالبنى بشىء آخر . يحمل عبء حركة التاريخ وحمل عبثه هو . ويطالبنى بالذكاء والثقافة والعمل المستمر . ويطالبنى بأن لا تهن قواى وألا اتعثر . يطالبنى ان اكون رجلا وأن اكون امرأة وأن اكون حمارة . أن أرى مآرى وأظل حمارة . أعد العصى ولا اترنح . ويطالبنى بأن أكون وقودا للثورة البردانة . ووقودا لبروده هو .

رفيف ترى ان تحرير الشعب لايتم الا من خلال تحرير المرأة . والمساحة التى تفردها سحر خليفة لهذه القضية تشى بأنها قضيتها هى فى المحل الأول . ومن ثم الاسهاب الذى تناقش به قضية المجلة التى تصدرها جماعة عادل وسالم وعطا الله ، مدير التحرير وسكرتيره ، والأستاذ بدر

ممثل الأصالة والتراث . ففي غضون مناقشة شئون المجلة تتقدم رفيف بطلب ان يخصص نصف المجلة لموضوعات المرأة واهتماماتها العامة السياسية والاقتصادية ، بدلا من الاقتصار على ركن المرأة الحالى ، الذى يوجه المرأة الى شئون التدبير المنزلى والطهى والعناية بجمال المرأة دون عقلها .

فى غضون خمسة فصول طويلة تتصارع الأفكار حول الحلول المختلفة للخروج من أزمة المجلة ، وتطرح اراء متباينة . عادل وتوجهاته المحسوبة المقننة ، سالم وانفجاراته القوية ومطالبته بتحرير الشعب العربى من الخليج الى المحيط ، وعطا الله وآراؤه الليبيرالية التى تتمسك بديموقراطية شكلية ، ولكنها لا ترقى ابدا الى مستوى الكفاح المسلح ، ورفيف ومطالبتها بتحرير الأرض عن طريق تحرير المرأة أولا .

وتنتهى الاجتماعات الطويلة الى غير اتفاق ، غير أنها تمنح رفيف فرصة ثمينة لعرض قضية المرأة عرضا قويا مؤثرا .

غير ان هذا العرض لقضية المرأة يهتز كثيرا حتى ليتحطم حينما تلقى رفيف المرأة الشعبية المجربة ، سعدية ، زوجة الشهيد زهدى ، والأم العائلة لأولاده الكثيرين الذين تركهم وراءه . تلقى رفيف سعدية كصحفية تريد تغطية ما حدث لسعدية . فقد استولى الصهاينة على قطعة أرض اشترتها بدمها وسهر الليالى ووخز الابر ، وتحملت فى سبيلها لوم الجيران ، وتعريضهم بها وبشرفها ، لأنها كانت تحيك القمصان وتذهب الى تل ابيب لتبيعها . وها هى الأرض قد طارت من يديها . بعد ان كادت تبلغ أملها فى ان تهجر الحارة وتذهب لتعيش فى بيت تبنيه لنفسها بعيدا عن الأحداث . عن لوم الجيران وفقرهم وقذارتهم . عن دوريات الصهاينة واوامر حظر التجول .

قالت سعدية لرفيف شاكية : ارجع للحارة ايد من ورا وايد من قدام ؟ فضحونى وهتكوا عرضى وهدوا حيلى واطلع من المولد بلا دين ولا دنيا ؟ ويكون ما نالنى غير الترمل وسهر الليالى وشماتة الناس ؟ واستنكرت رفيف هذا القول الأخير وسألت : ومن يشمت فيك يا سعدية ؟ فنظرت اليها سعدية وابتسمت ابتسامة صفراء وقالت : « انت يا بنت ايش عرفك بالدنيا ؟ انت ما شاء الله عليك شباب وجمال ومال وعلم ووجاهة . بتفكرى كل الناس مثلك ؟ لابسة بنطلون وقاعدة بين الرجال ، القلم بايد والسيجارة بايد . لا وراك فاطمة ولا محمد . وانا اللى ان غبت عن بيتى ساعة تنهد الدار وتنهد الحارة . وجاية تقولى لى عيب يا سعدية ، شماتة مين يا سعدية ؟ يا شيخة حلى عن دينى . والله ما أنا طايقة اشوفك ولا اشوف حتى أولادى » .

وتقول لها رفيف أنها أيضا جربت . فتسأل سعدية فى تهكم : وايش جربت ياحسرة ؟ جربت الفضيحة ؟ جربت هم الأولاد الملزقين بالرقبة مثل العلقة ؟ جربت الماكينة ودوشة الخياطة ومشاوير

الشركة وعجرفة الرجال ؟ وبكت رفيف امامها وقالت :. يا سعدية همك همى ، صدقينى . قالت سعدية : طيب . تشرفنا . وبعدين ؟

السؤال اللاذع نفسه الذى وجهته رفيف لجماعة المجلة حين عبروا عن رغبتهم فى التعاطف معها . ماذا تفعل سعدية بتعاطفها هى ؟ احست بالعجز التام فخارت عزيمتها . فماذا باستطاعتها ان تفعل ازاء كل هذا ؟ وما قيمة ما تفعله ؟ وما الذى تفعله سوى خوض صراعات جانبية مع عادل وسالم والأستاذ عطا الله والأستاذ بديع ؟ وماذا حققت حتى الآن ؟ لا شيء سوى اطلاق صرخات التداهة فى واد مفغور الفم . وما نفع هذا ؟ نصف المجلة ؟ اية نكتة . وماذا تفعل بنصف المجلة ؟ تكتب فيها عن تجارب لم تخضها ؟

تنهار أيضا خطط باسل للتنسيق مع اليهودى خضرون ، من انصار السلام الآن . يتبين هو الآخر عقم المحاولة . يودع خضرون وهو يقول : لن أحلم اكثر . سأعود الى القرية والناس . ويسأله خضرون : وصالح ومشروع الغد ؟ فيقول باسل : اليوم اعود الى القرية وغدا نعود الى صالح . لن احلم اكثر ولن اسبق الزمن بوعود الغد . انا الآن مشغول بعذاب اليوم . ويذكره خضرون : الناس الآن فى الطريق الى القرية ؟ فيسأل باسل : من هم ؟ جماعات انصاف الحلول واللافتات ؟ انا لا أريد السلام الآن . أريد السلام الآن — غدا !

ينهار كذلك فى خضم الأحداث حلم سعدية فى ان يكون لها أرض وبيت تهرب فيهما من الناس ومتاعب الناس . وحين يستولى الصهاينة على أرضها تعود الى نفسها الأصيلة ، الى جوار الناس وأهل الحارة . كان الصهاينة قد اوقفوا كل الذكور من سن الثالثة عشرة فما فوق واعملوا فيهم الضرب . وصرخ احدهم مستعطفا : « منشان الله » فهتفت سعدية وقد وقف شعرها وصاحت من وراء القضبان : لاء .لاء .لاء .لاء . تذكرت مغامرتها مع خضرة فى شوارع تل ابيب ، اذ اغرت خضرة صديقها سائق الأوتوبيس الذى اقلهما الى تل ابيب بالقيام بنزهة خارج حدود الخط المرسوم للسيارة . اذ ذاك قبض على المرأتين وأودعتا المعتقل رهن التحقيق ، وتناولتها الأيدى بالضرب ، فصرخت سعدية مستعطفة : « من شان الله » ! سخرت خضره من سذاجة: زميلتها التى ظنت ان للصهاينة رحمة فى قلوبهم وحاولت ان تحملها على الهرب بعد أن ضربت الجندى الصهيونى ضربا موجعا ، فما استجابت سعدية . كانت غرة قليلة التجارب لاتزال . تظن أنها لو عاشت فى حدود الشرف فستنجو من الواقع الرهيب المحيط . الاستعمار الاستيطانى السرطانى الذى غزا بلادها وأخذ يلتهمها قطعة قطعة . وتنتهى رواية : « عباد الشمس » وقد انضمت سعدية الى جموع المقاومين . كان الرجال قد اعلنوا العصيان فى وجه الصهاينة فاطلق الزبانية النار . وتقدمت سعدية تبحث عن ابنها فتوالت على وجهها الصفعات ..

توحشت المرأة الطيبة ورفست جنديا مابين الرجلين وهى تصيح : ياعرصات ابنى ! وهتف صوت من وراء السور : بالحجارة اضربوا . واخذت سعدية تفرّ والنسوة تضرب . واجتاح النسوة حماس عتيد . ولمحت سعدية ابنها رشاد يضرب الحجارة من مقليعه ، فصاحت : عليهم يارشاد ، عليهم يا ولدى . عليهم يا حبيبى يا زهرى ؟ وهكذا تحررت المرأة تحررا فعليا ، املاه الواقع ولم تحدد مساره النظريات .

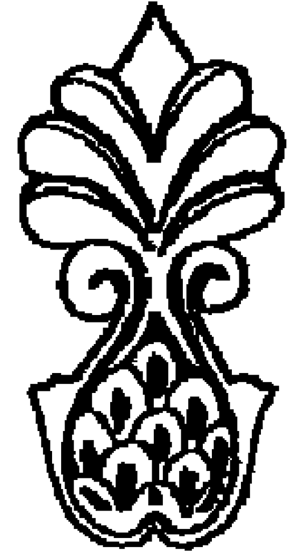
تبرع سحر خليفة براعة ملحوظة فى تصوير الناس العاديين من كل المعتقدات والمناصب . وتظهر براعتها بصفة خاصة فى تصوير النساء العاملات وغير العاملات ، وتقدم لنا مواجهة لاتنسى بين سعدية الساذجة ، الذى تعيش فى كنف الشرف لا تعرف له بديلا وبين خضرة التى الجأتها الأيام الى السلوك المعيب وغير المعيب ، وجعلت من حياتها سلسلة متصلة من الفقر والحرمان ، فظلت طول حياتها تهفو الى من يعطف عليها ويسقيها الحنان . فى سبيل العطف تزوجت من كهل قريب من القبر يثقل عليه المرض فتضطر الى الانفاق عليه وشراء الدواء له ، سعيدة بأنه يناديها بكلمات التدليل والاعزاز ، ورغم توحش خضرة الظاهر ، وخروجها عن الأعراف السائدة ، يتبقى قلبها يحب الناس والعطف عليهم . انعطفت بشدة الى جانب سعدية ، لما حيرته من سذاجتها وقلة حيلتها ، وابى لها شرفها ان تحكى للنسوة اللاتى اجتمعن فى الحمام العام ما كان من أمر مغامرتها مع سعدية فى معتقل الصهاينة بتل أبيب ، رغم ان سعدية تجاهلتها وحاولت أن تهرب من لقياها خوفا من الفضيحة . لا غرو ان ذكرت سعدية خضرة فى قمة انفعالها عقب استيلاء الصهاينة على الأرض فقالت وهى تعير رفيف : « جربت الحال المايل اللى يصعب على عزرايين ؟ جربت حال خضرة اللى تبيع حالها وحيلتها عشان لقمة ونقطة دوا ؟

وفوق هذا كله تبرع سحر خليفة اشد البراعة فى تصوير حال العرب تحت الاحتلال الاسرائيلى . طغيان همجى للصهاينة — قتل واحد منهم طفلا عربيا ثم اخذ يصلى للرب لأنه اعاد للاسرائيليين مجدهم ! — وتفسخ وانحلال عند بعض الطوائف العربية ، وظلم لأصحاب الأموال العرب للأجراء العرب الذين يقعون تحت طائلتهم — وضعف وقلة حيلة لايتهيهما الا نضال الفدائيين الذين تصدوا للاحتلال بالرصاص والقنابل والرشاشات والحجارة .

ولو ان اجتماعات المجلة الخمسة كانت اقل عددا واكثر تركيزا ؛ ولو ان العلاقة بين رفيف وعادل ما استطالت الى الحد الذى بلغته فى الرواية دون ان يبلغ أى من الاجتماعات والعلاقة نقطة حاسمة ، لما وجد النقد شيئا يقوله فى ثنائية سحر خليفة سوى المدح الخالص ! .

العشاق

رشاد أبو شاور



يحز فى نفس ام محمود ، ان ابنها الثانى ، محمد ، لم يتم دراسته ، وأنه يصرف وقته فى الغناء ضاربا على عوده الأثير . تصفه الأم بأنه مغنواتى ، وتخشى الا تتيسر له حياة لائقة مثل قرنائه . اقترب منها محمد ، ومسح على رأسها ، وقبل شيبتها وقال : تُحْزِنِينى عندما تفكرين بى كطفل صغير . لقد اخترت مستقبلى . هذا العود يا امى هو الطريق الذى سأسير عليه الى الوطن . لن اكون عالة على أحد . سأذهب الى الحياة ومعى عودى .

ينسحب محمد لشراء ما أمرته امه ان يشتريه استعدادا لوليمة تقيمها على شرف ابنها محمود الخارج حديثاً من السجن . يقول لها محمود : لا تجرحيه . انه فنان . قلبه يتسع لكل الناس . ترد الأم : انه يضيع مستقبله من أجل ما لاينفع . يقول محمود : يا والدتى : كلنا بلا مستقبل . نحن بلا وطن . فأين هو الأمان وأين هى الراحة ؟ لقد استشهد والدى ، وتركنا صغارا ، بلا مال ، ولا بيت ولا أمان . وها نحن نحيا مثل غيرنا . الا تؤمنين ان موت أبى أشرف بكثير من حياة البؤس التى عاشها الوف الرجال فى المنفى ؟ عبروا الحدود العربية هرباً من الشرطة ورجال الأمن قاصدين بلادا تعطيهم العمل والأمن . فسقطوا فى المنفى وأكلتهم وحوش البرارى .

تسأله الأم : من أين لك بهذا الكلام الجميل ؟ يرد : تعلمته من رجال وعوا الدرس من استشهاد ابى وغيره من الرجال . رجال يوقنون ان لا مستقبل لهم الا على أرضهم .

محمود كان مدرسا ، دخل السجن لأنه « واحد من الذين يريدون تحرير فلسطين » كما وصفه ضابط الفرسان . قال له ابو حسين ، الشاويش العاطف على المناضلين وان اضطر الى خدمة السلطة قال وهو يسير به الى الحبس : فى الغرفة ١٦ شلة من الزعران والجواسيس والقتلة . سيلبدون لك وراء الباب . وفور دخولك سيعمدون الى اذلالك . انتبه . واعتمد على نفسك .

سأحاول مساعدتك . ولكن ليس فى البداية . ودخل محمود الغرفة ١٦ فبوغت بلكمة ثقيلة ترج رأسه ، وتطير الشرر من عينيه سدد الضربات لمن هاجمه فهوى هذا كالكيس وقد نفر الدم من رأسه .

قال له متجد العبسي جاره الذى ذبح شقيقته غسلا للعار ، ومن ثم دخل السجن : حظك طيب . كانوا يريدون ايقاعك فى كمين . انهم يعطونهم السجائر والشاى وورق اللعب ، ويضاعفون لهم الطعام ، وأحيانا يسهلون تهريب الحشيش لهم . كل هذا مقابل الاعتداء على السياسيين .

وخرج محمود من السجن وهو يقول لنفسه : الحبس ردىء . ردىء وسىء جدا ولكن التخاذل اكثر رداءة وهوانا وعارا . ومن ثم مضى فى طريقه للنضال مواصلا العمل من أجل تحرير فلسطين . معه فى النضال اخوه محمد ، وصديقه حسن . يجمع محمد فى نضاله بين الجد والسخرية العفريتية من اعداء فلسطين ، وروح واضحة من الفكاهة وخفة الظل . حينما كان يغنى فى حفل الابتهاج بخروج محمود :

لابد لليل من آخر مهما يطول الليل
و يلك أيا ظالم من حقدنا يا ويل
مشوارنا مشوار عارفينه انه طويل
وآه يا عشاق بكرة نقول مواويل

سأله الشاويش باستعلاء ، قاصدا اهانته : هل تغنى فى الأعراس يا ولد ؟ فداعب محمد اوتار عوده وهز رأسه وقال : ولدت على هذه الأرض . واغنى فى اعراس اهلها وذات يوم سأغنى فى عرسها الكبير ، يوم تعود واحدة . تجهم وجه المختار وسأل : وما هو عرسها يا ولد ؟ اجاب محمد : عرسها يا مختار مات والدى من أجله . عرسها يوم لا يدوس احد فراشنا بحذائه . انسحب المختار غاضبا ، وربت محمود على كتفى اخيه وقال : اتعرف يا محمد لماذا احبك ؟ لأنك فنان ، عاشق كبير للحياة والفرح . وبكت الأم فسألها محمود فيم بكاؤها ؟ اجابت وهى تكفكف دموعها : لم افرح من زمن طويل يا ولدى .

المناضلون فى هذه الرواية كلهم عشاق . يعشقون الحياة ، والحب ، والبنات والزهور والأرض والجبل والزرع والزيتون وتراب الوطن .

محمود يحب ندى ابنة ابو خليل . يلقاها بعد السجن فتقبل عليه ملهوفة . تقول له بصوت راعش ، ملىء بالفرح والدهشة والحب : انتظر . وتمشى اليه حتى توشك ان تبلغه . يسألها : هل جننت ؟ تقول نعم جننت . يسألها ثانية : الا تخافين ان يرانا الناس معا ؟ وترد : فليرنا

الناس معا . تسأله : متى خرجت ؟ يقول امس . تقول : ومع ذلك لم تبحث عنى . انا التى اصلى ليل نهار من أجلك . يقول : تلميذاتك يراقبننا . تقول : أود أن اقبلك ، هنا فى الشارع ، وأمام الناس . يقول : كنت تصلين من أجلى ، أما أنا فكنت أحصى القبل التى اضاعها السجن .

ويسيران صامتين . تقول له : حزنت لوفاة امي بما يكفى . منذ شهرين وانا فى الحزن . يكفى . لكل شيء أوان . يقول : للحزن وقت فتقول : وللفرح وقت . يتساءل : والآن ؟ ترد : سنحاول ان نفرح . رأتهما أم حسن وكانت تعمل فى صنع قوالب الطوب الطينى قالت : الحق عليك . هى بنت . يعنى بنصف عقل . ومادامت تحب ، فان النصف الآخر ضاع . فهى بلا عقل . ماذا لو رآها أحد أقاربها ؟ سيقتلونها . وبهذا تترمل قبل ان تتزوج . وضحكت ام حسن ثم قالت : ماذا فى الحياة غير الحب يا فتى ؟ افرح انت وهى . غدا تموتان وتصبحان ترابا ، فتأتى ام حسن أخرى وتمزجكما بالماء والتبن وتصنع منكما طوباً . آه لو اننى فى عمرك يا ندى !

مع محمود فى النضال حسن . يؤمن حسن باستخدام الرصاص والنار لتطهير الجو من حول الكفاح ، مع تسليمه بأن التأنى والسير البطيء فى طريق النضال أمر مطلوب دائما . انما التفجير الوقتى وعقاب الظالمين فى عمليات مختارة بعناية أمر واجب كذلك . لذلك يمضى حسن ليشعل حريقا كبيرا فى مزرعة كبيرة للدواجن والماشية يسهم فيها خال محمود . يسكب حسن البنزين على اعواد البوص ويشعلها ، فترتفع ألسنة اللهب ، وتضطرم النار وتتلألأ ، مضيئة مسافات شاسعة . يقول حسن وهو يرقب الحريق : من اين لكم الوف الدنانير ، تبنون بها هذه المزرعة الهائلة وتشترون آلاف الكتاكيت وتربون الأبقار الهولندية ، وتمتلكون المحلات التجارية ؟ تسرقون كسرة الخبز من ايدى الأطفال ، تَلِصُّون البطانيات الرديئة التى يرسلها العالم لتدرأ البرد عن اجساد انهكها الجوع ، وهدتها الأمراض .

كان ابو نعمان ، خال حسن ، قد شُجَّ رأسه فى عدوان غادر . ذنب ابو نعمان الوحيد أنه يحرس مخازن توزيع مؤن وكالة الغوث . رفض اكثر من مرة أن يسمح لمدير المخيم ومساعده بنقل المسروقات . كانوا يعطونه اجازه ليتخلصوا منه فيعود فى الليل ويظل يدور حول المسروقات . كان يقول دائما : انا حارس ، آكل خبزى من حراسة حقوق الناس . ولن اسمح بالسرقة ولو طُرِدْت . ألا يشبعون ؟ رواتبهم عالية ، ومع ذلك يلاحقون اللاجئين على حفنة طحين ، وقطعة صابون ولحسه سكر . وسأل محمود ام حسن : لماذا لم يخبر ابو نعمان الشرطة ؟ فقالت : رئيس المخفر ومدير المخيم ومساعده يشكلون عصابة . أما المخاتير فواحد منهم شريك فى العصابة وله علاقة بذوى النفوذ . أترى هذه المرزعة الضخمة ؟ انها لخالك ولكبير مخاتير مخيمنا . ماذا يهمهم ؟

غيرهم يفكر بفلسطين وهم يفكرون بمصالحهم . من هنا كان قرار حسن أن يتولى عقاب المجرمين بنفسه .

يقول محمود لحسن وهو يحاوره : بصراحة ، هذا العمل لن يعيد فلسطين . فيرد حسن : صحيح . ولكن ربما يعيد العقل للذين فقدوا عقولهم وضمائرهم . قال محمود . لا أظن . الخيانة الوطنية ليست وجهة نظر ، والخائن لا يعود عن خيانته بقرار . الخيانة مصلحة وامتيازات وسلوك . ثم نبه محمود صديقه الى أن هذا عمل فردى اذا استشرى فلن نكون تنظيما ، وانما جماعة من الارهابيين ووافق حسن فى الحال على العمل من خلال مسؤول التنظيم .

كان حسن فى السابق يرى وحشا اسود رهيبا يخيم على الأرض والناس . وبعد الحريق احس ان الوحش يتراجع والنار تأكل سواد الليل . قال محمود : الوحش لايمكن ان يقتل باحراق مزرعة . يجب ان تشعل الليل كله حتى يأتى وطننا نظيفا ، طاهرا ، موحدا .

وتزخر الرواية بأعداد متباينة من المناضلين ضد الرجعية والاحتلال الصهيونى . لعل ابرز هؤلاء ، عطوة : اسمر ، طويل ، عريض المنكبين ، اسود الشعر غزيره ، مفتول الساعدين كأنما هو مصارع من العصور القديمة . ضاحك الثغر دائما ، تفوح فى فمه رائحة الخمر دائما . ولكنه لايترنح . واطرف ما فيه انه يخدم فى جهاز الشرطة الأردنية ، ولكنه يستغل رداءه الرسمى ووظيفته فى خدمة المناضلين . تغير كثير من رجال المخابرات وحراس السجون باستثناء اثنين : عطوة لمحبة الناس له ، وفارس مطيع لسفالته ، ومعرفته بأمور المدينة والمخيمات ، وقدرته على ملاحقة الحزبيين .

يتعرض فايز ، ابن أحد مشايخ اغوار شرقى الأردن لبنات اريحا ، ماخراً شوارعها بسيارته الأسبور الحمراء ، ملاحقا بنات المدارس . لا يجرؤ احد على التعرض له يشكوه الاباء لقائد المقاطعة فيقول : الأولى بكم ان تلموا بناتكم من الشوارع . وهنا يقرر عطوه ان يتدخل . يسكر ويدخل فى عراك دموى مع فايز ويتركه مهزوما مدحوراً ثم يعلق : لقد تركت لسانك فى فمك ، كى ينوب عن أهالى اريحا فى رواية ما جرى لك .

يقول حسن لمحمود فيما بعد : لقد نظمت عطوة معنا . نعم عطوة شرطى ، ولكنه رجل شجاع ، وطنى ، يعرف كثيرا مما يجرى فى السجن والمخابرات ، ويعرف كل الماسونيين ، وله فوائد أخرى ، تبدت بوضوح حين انفجرت حرب حزيران ، فوضع سيارته الحكومية وسترته ومهارته البدنية فى خدمة خطط المقاومة . شارك فى نقل السلاح وتخزينه ، وفضح عملاء السلطة ممثلين فى فارس ابو مطيع ، الذى يكتب التقارير ضد المناضلين ولم يكتف بهذا فأخذ يلاحق الشرطة ويكتب التقارير فى حق عطوه نفسه ، زميله فى الحكومة .

أفرجت السلطات الأردنية عن المعتقلين الفلسطينيين قبل ثلاثة ايام من بدء الحرب . ثم شحنتهم فى سيارات وطلبت اليهم ان يستعدوا للقتال . كان بين المفرج عنهم زياد ، الزميل الرابع فى جماعة محمود . تفكر زياد قليلا ثم قفز من السيارة التى كانت تقله وتوارى بين الأشجار وسار حتى وصل الى مخيم النويعمة . قدر زياد ان الحرب الموشكة على الاندلاع لن تكون حربا جادة ، فآثر ان يعمل فى المقاومة ، بعيدا عن الجيوش النظامية . واثبت الواقع صواب رأيه عندما شب أوار الحرب ، فلم يجد الجنود المؤن ، ولم يكن للمواطنين سلاح كاف ، وكان اشتراك الشعب فى الحرب مقننا ، ومحصورا فى اسماء بعينها اختارتها الحكومة ، اذ ذاك يقرر كل من محمود وحسن ومحمد وزياد ان ينشئوا تنظيما لمقاومة الصهاينة ويقوم ببعض العمليات اسفرت عن مقتل بعض جنود الاحتلال ، بينا قرروا ارسال زياد الى دمشق ، مندوبا عنهم ، للاتصال بالقيادة المركزية للمقاومة . وتنتهى الرواية والرفاق يستعدون لحرب طويلة ، لن تنتهى فى أيام كحرب الأيام الستة ، بل ستمتد عبر الشهور والسنوات .

ليس كل من فى الرواية من الفلسطينيين وطنيا ، مناضلا ، صلبا . فيهم امثال باسم الذى انضم الى جماعة محمود ، فلما سجن محمود اخذ يتنصل من واجباته النضالية . والده رباه وعلمه ووجهه ، والده الماسونى ، الوصولى ، موظف الوكالة ، المتسلق الأستاذ بهاء الدين العارف . المولود فى حيفا . والذى ذاق مرارة الغربة ، ثم نسى كل شيء وانغمس فى السرقة والارتشاء . يتساءل حسن : ما الذى يجمعنا ، نحن ابناء المخيم ، ابناء الطين والتراب وسوء التغذية ، بباسم العارف ، الذى يعيش فى قصر محاط ببيارة فسيحة ؟ خسر والده بيارة صغيرة فى فلسطين وبيتا متواضعا . وها هو ذا يمتلك بيارة كبيرة ، وبيتا انيقا ، اشبه بالقصر . ومن اين ؟ من الرشوة والسرقة والتدليس على فقراء اريحا . حين تنتهى حرب حزيران مطّ باسم عنقه فى الاجتماع التنظيمى وقال : لقد انتهى كل شيء ايها الاخوة . سأله حسن : ماذا تقصد بـ انتهى كل شيء ؟ قال باسم : اقصد الجيوش فشلت ، واليهود دخلوا القدس ، والليلة أو غداً يدخلون اريحا . احلامنا انتهت : قاله زياد : نحن لم نكن نحلم . باختصار : وطننا مغتصب ، وشعبنا شتت فى الدنيا كلها . ومن كل الجهات جلب أناسا لاتجمعهم لغة أو تاريخ أو ماض واغتصبوا كل شيء . ببساطة نحن نكافح لكى لانندثر . ونحن أيضا نؤدى دورنا الانسانى والحضارى فى مجابهة الظلم . الاحلام تفسيرها عند فرويد . اما الثورات فنتعلمها من تاريخنا ومن الانسانية المحيطة بنا . قال باسم : انما أردت ان أقول ان الجيوش هزمت . فما بالكم بنا نحن ؟ ثم طلب تجميد نشاطه لفترة !

تلتفت الرواية — الى جوار هذا — التفاتا انسانيا وعطوفا لجهود كل من الأب حنا والأب

الياس . كما تنظر بكثير من الحب والتعاطف للمرأة الفلسطينية المجاهدة فى البيت والحقل وعلى الطرقات . وتعلى الرواية شأن الحب ، وتبرز صورة المجتمع الفلسطينى محبا للسلام ، مقدسا للأرض ، مغرما بالتاريخ الطويل لبلده ، مقدرا للمجاهدين الذين سقطوا فى حروب سابقة فى صدام مع الرجعية العربية ، وقوات الاحتلال الانجليزى والصهيونى . وتتأثر كل التأثر بهزيمة حزيران ، ولكنها لا تشغل نفسها كثيرا فى سب من تسببوا فيها ، وانما سرعان ما تتجاوزها ، مبرزة الواجب الأهم والأثقل ، وهو ضرورة مواصلة النضال ، لأن حزيران كان حربا واحدة على طريق طويل لابد فيه من مواجهات وصدامات .

ولنأخذ هذه المفردات جميعا بالتفصيل ، واحدة فواحدة .

من اكثر الأشياء تأثيرا فى النفس هذا الحب الذى تتحدث به الرواية عن الأب حنا والأب الياس . كان عام ١٩٤٨ عاما صعبا نكب فيه الفلسطينيون بالخروج من الوطن ، ثم هاجمهم ثلج الشتاء فى مخيم الدهيشة ، قرب بيت لحم . غمرت الثلوج السيارات والخيام ، وكاد الناس يهلكون ، لولا أن جاءت السيارات ، وشحنت مئات الأسر الى الكنائس والمساجد . ظل الأب حنا يعمل ليل نهار ، يدلك أقدام الأطفال بالماء الساخن ، يحضر الطعام ، يتفقد الأسر المكدسة لصق بعضها . يخرج فى الليل باحثا عن الحطب فى بيوت اهالى بيت لحم . قالت ام محمود : والله لقد مات شهيدا . فعلق الأب الياس : لم يفعل غير واجبه . لقد أحب المسيح فيكم واحبكم فى المسيح .

اما الأب الياس فانه يصادق المناضلين . يقول لمحمود : فى منطقة اريحا ، لى صديقان : أبو موسى الشيوعى ، وأنت . قال محمود : محمد قال قبل حضورك انك لاتؤمن سوى بالانسان . اجاب الأب الياس : أنا أعمل من أجل الانسان . هذا طريق اخترته وسأسير عليه حاملا صليبى كما فعل المعلم . وقبيل اندلاع الحرب يقول الأب الياس لمحمود : اصارحك ، أنا خائف على بقية الوطن أن تضيع . قال محمود : يا ابونا ، اذا اشتعلت الحرب فلن ننتصر على العدو . يعنى لن يستطيع هؤلاء الحكام وهذه الجيوش ان تحرر ما ضاع من فلسطين . عاد الأب الياس يقول : انا خائف على بقية الوطن . وحين جعل محمود يردد على مسمعيه ذكرياته عن حرب ١٩٤٨ ، استزاده الأب وقال : ذكريات سوداء ثقيلة ، لكنها عظيمة . لقد كلل المسيح بالشوك من أجل الانسان فى كل مكان دقت المسامير فى كفيه ، فتحمل من أجل الانسان ، وهذا ما يفعله شعب فلسطين . قال محمود : نحن يا أبت لن نغفر سندق المسامير فى نعوشهم . وسننظف وطننا من القتلة . مهما حدث فى الحرب ، فلابد أن نعود .

يزيد الأب على موقف العطف تردده على بيت محمود الذى اخلاه سكانه تنفيذا لتعليمات

جنود الاحتلال الصهيونى ، توقعا لمجيء زياد من دمشق حاملا السلاح والتعليمات . يقول الأب الياس لمحمود . انا حزين جدا ، ولكن المسيح تحمل الشوك والصلب . واضاف وهو يضغط على يد محمود : اعرف انكم تعملون من زمن . لا تظن انى لاأومن بالعنف . أنا مع حمل السلاح لتحرير الوطن . تذكر هذا .

ثم يأتى الأب الياس الى المخيم فى ملابس مدنية ليبشر الجماعة بوصول زياد . يقول له حسن : يا ابت انت خلقت للعمل الوطنى . بشرفك ، ألم تنخرط فى حزب ما ؟ قال الأب الياس : بلى . حزب المسيح . انا مع حزبه ، والفقراء والمضطهدون هم حزبه ، لذا انا معكم ، ومع اى مظلومين فى كل مكان .

وتلقى الرواية نظرة على أحوال النساء . أم حسن تحكى كيف ان زوجها السابق كان يعرى نساءه الأربع — وهى بينهن — وينهال عليهن ضربا لأتفه الأسباب . كن يخفنه كثيرا . وكانت هى الأخرى تخشاه . وحين عَرَّاهن كعادته وارتفع صراخهن امسكت ام حسن به من بين فخذيه ، فارتفع صراخه واخذ يتلوى ، وضحكت نساؤه بعد بكاء وكسرت هيبته ، وزرعت المرأة بذور الثورة ضده . فطلقها بعد ان ارغمته وهو يتلوى بين يديها على ان يقسم يمين الطلاق . ولم يرعو الرجل المزواج . فقد تزوج من جديد فتاة تكرهه ، ارغمها اهلها على قبوله . غير ان الرجل كان قد ضعف . ففضحته زوجته امام اهلها ، عندئذ حلف عليها بالطلاق فمضت مغضبة الى بيت اهلها .

أم حسن هذه قوية صلبة كرجل تعمل فى صنع قوالب الطوب من الطين الممزوج بالتبن ، كى تقوم البيوت ويعمرها الناس . تعلم ان ابنها حسن هو الذى أحرق المزرعة ، ولاتنطلى عليها حججه ، فتتركه وشأنه ، وهى فى قرارة نفسها راضية عن عمله . مليئة بالحياة هى ، تنصح محمود وندى ان يتزوجا من فورهما ، وتتأوه : آه لو كنت فى عمرك يا ندى . وقد تقدم رأيها فى العصابة التى تسرق مؤن الفقراء وتحولها الى ذهب يدخل مصارفهم . وحين تتبين ان جماعة محمود تنتوى ان تسير فى طريق النضال المسلح ، تقول : لو فعلتم هذا ، فسأخلع ملابس الحداد .

على العكس من أم حسن نجد ام محمود . امرأة تقليدية ، تؤمن بالزواج المرتب ولا تجد مانعا فى أن يتزوج ابنها محمود من سعدية ابنة شقيق زوجها المتوفى . حياتها كلها وقف على ولديها محمود ومحمد . تحترم محمود لأنه حصل على شهادة وتقلق على محمد لأنه يشتغل بالفن ولن يحصل على وظيفة محترمة . تحل ذكرى زوجها سلمان عباس الذى ادمن قتال الأعداء حتى قتله الجنود العرب على الحدود ما بين الأردن واسرائيل . استشهد الرجل وعاشت اسرته على التمر والخبز الأسود . خبز الشعير وخبز الذرة ، ونادرا خبز القمح ارهقتهم الأيام بعد استشهاد الأب ، لكن

الأم ظللت على ولديها وصمدت فى وجه الأيام بشجاعة نادرة .

والنساء الشابات يبرزن فى الرواية بروزا واضحا . ندى ، خطيبة محمود ، الجريئة التى تحب محمود ولا تبالى ان تكسر الأعراف فى سبيل التعبير عن حبها . وزينب حبيبة حسن ، الممشوقة القوام ، التى جاءت تراه متمحكة فى زيارة مُدَّعاة لأمه . زينب لم تتم تعليمها وهى أطول من حسن . يقول محمود ضاحكا : سيضطر حسن للوقوف على اطراف اصابعه حين يقبلها . الفتاة ترى ان حسن هو أجمل الشباب واشجعهم . يسألها محمود : هل يعرف والدك رأيك بحسن ؟ اجابت بشيء من الخوف : لو عرف ، لما عرف أحد أين جثتى . كانت أم حسن تصغى للحوار فقالت لمحمود : ياليتك تقنع والدها . أنا مستعدة ان ادفع المهر لوالد زينب غدا ، وأزوجه خلال اسبوع .

وزياد له حبيبة هو الآخر . اسمها سهام وهى أخت بسام الذى تملص من النضال . يسأل محمود حسن : ما الذى يجمع سهام بشاعرنا المناضل زياد ؟ ابتسم حسن ابتسامة خفيفة وقال : الحب . ثم اردف : اتظن ان سهام ستنتظر خروج زياد من السجن ؟ اترى انها ستتزوجه ، وتحيا معه ؟ قال محمود بثقة : اظنها تفعل ان كانت تحبه . الحب امتحان صعب ولكنه رائع . انه نار تكشف المعدن الزائف من الثمين .

الرواية فى طولها وعرضها تعلى من شأن الحب وتدعو اليه . لا جرم ان سماها ابو شاور : « العشاق » وكان يقصد عشق الأفراد وعشق الوطن ، والنوعان من العشق لاينفصلان . فى آخر الرواية يسمل ابو خليل ، والد ندى ، عينى الجاسوس الصهيونى الخواجه داود ، ثم يسير فى طريقه متمهلا . قطوف البلح تتدلى من قمم اشجار النخيل . القطوف خضراء محمرة ، لم تنضج بعد ، ولكنها فى وقت غير بعيد ستنضج وتمتلىء بالحلاوة ، وتساقط رطبا جنيا .

سار ابو خليل بحذاء الجدول ، مصغيا الى الخرير . قال فى نفسه : تزوجا يامحمود . انت وندى . وانجبا كثيرا من الأطفال . أنا اعرف انها موافقة . سمع اذ ذاك ضحكة طفل . ضحكة جذلى ، مرحة . فرحة . وكان الرصاص يقطعها ثم تعود تنطلق من جديد ، حلوة ، مرحة .

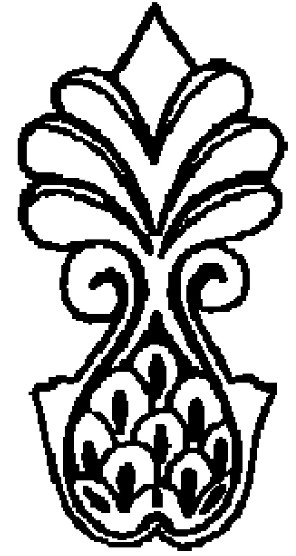
تحقق « العشاق » اتزانا واضحا بين انباء الحياة اليومية العادية ، بما فيها من آمال وآلام واحلام ، ومآسى القتال المفروض على الفلسطينيين من قبل عدو يعادى الحياة . وبفضل هذا الاتزان نستمتع بلحظات كثيرة من الحوار الطيب الحنون بين العشاق وبين الأصدقاء وبين الأبناء والأمهات . وتسرى روح الفكاهة بين المناضلين ممن رزقوا روح المرح مثل محمد ، وعطوة ، ومحمود احيانا ــ ونطرب للمأزق الذى وجد فيه ابو صالح نفسه ، اذ غرر به بعض الخبثاء وحملوه على ان يرشح نفسه للانتخاب ، فلم يحصل على الأصوات اللازمة ، رغم ما بذل من

جهد ومال . فجعل يصرخ فى وجه الوجهاء : أكلتم خيرى وأنتخبتم غيرى . ياىجم . يالصوص ! .

هذه رواية جامعة ! .

بوصلة من أجل عباد الشمس

ليانة بدر



تقول جنان وهى تتأمل امرها مع حبيبها شاهر : « منذ أيام ، منذ أشهر ، منذ اعوام ، لم نشاهد سماء واحدة سوياً . نغلق دائرة الزمن ثم نجلس فوقها دون راحة ، ونختلس النظر فى الأبيض والأزرق والرمادى بشوق قديم مختزن يذهله حفظى الدقيق للتواريخ الصغيرة والمهملة، يسألنى: هل أنت زهرة عباد الشمس ؟ فأعابثه بصخب وتأفف : « وهل تنتظر ان اكون ساعة اوتوماتيكية عاطلة عن العمل ؟ يقول : رأيت على الطريق عنوانا لفيلم عربى سخيف ينطبق علينا : « لا وقت للحب » . وكنت بدورى أقع فى الذهول والدهشة وأسأل : ولماذا تأكل جنازير الدبابات أوقات عمرنا دائما ؟ ولا نؤرخ ايامنا الا بيوم بلفور وزيارة روجرز ومجازر ايلول ؟ ويمد يده الى طرف عود الثقاب ، يحك البثرة الحمراء فى نهايته بالعلبة الكرتونية ويهمس قبل ان يشعل سيجارته : « لأن بصمات أقدام المنفى قوية واضحة ، لا يجوز ان نهملها والا أصبحنا غجرا يتجولون فى المنافى » .

لا مفر من العمل . لا وقت للحب . لا حق للفلسطينى فى الحب الا من خلال العمل . هكذا تتعلم حنان ، وشهد ، وثريا . وحنان فتاة تبدو نزقة ومشاغبة . حذرها مدير المعهد الذى تتعلم فيه من مغبة الاندفاع فى التحرر . كانت قبل ان تمثل فى حضرته قد وضعت مزيدا من حمرة الشفاة التى يرونها رمزا للفجور والاغراء ، ثم قبض عليها المدير فى المساء وهى تحمل سائل النشاء المغلى وتلصق — هى وصديقتها شهد — ملصقات ثورية على الحيطان الأنيقة . قال لها المدير : ثوبك اقصر مما ينبغى . لاتهتمين بدروسك الاهتمام الواجب . تنسين ان والدك العامل يصرف عليك من عرق جبينه كى تصنعى لنفسك مستقبلا مشرقا . قالت حنان لنفسها : أتعامل مع مستقبلى بالطريقة التى ترضينى والتى تراها مستحقة للوم من خلال عيونك المثقلة بالهم والحزن .

وكانت حنان قد احدثت ضجة عاصفة حين سألتها صحفية أجنبية : هل تهتمين بالعذرية ؟ اجابت البنت المشاكسة : لا ، انها لاتهمني . وسألتها الصحفية : وماذا تفعلين من أجل مستقبلك ؟ اجابت : أنها لن تحافظ على موقعها حينما يكون المصير جماعيا . فما قيمة ما اكسبه ان خسر شعبي كل شيء ؟ وكان ان حقدت جنان على جسدها الأنثوى . رفضته ولم تعد تلبس الا البنطلون الكاكى . وعرفت موقعها من خلال المهام المتابعة . معسكرات طلابية . جمع تبرعات . شرح المواد التمريضية . توزيع المنشورات السياسية . الالتقاء بالفدائيين الحقيقيين الذى لايتذمرون من رداءة الطعام والسلطة . فى المخيم الصحراوى تعلمت ان التقدمية هى ان نخلع ما علينا من عفن منذ الولادة وننصهر فى مجتمع جديد . كان الجميع يتحدثون عن الثورة وتحرر المرأة وانقلاب الموازين الطبقية فى المجتمع الجديد . ثم بدأت النظرات تستهجن تصرفات جنان . قال لها الرفاق : التحرر ان زاد عن حده ، لم يعد مقنعا انت تصادقين علنا ولا تخافين ولا تستحين .

لم تتراجع جنان عن تذوق الحب مع صديق لها كان يتعامل بالجمل الثورية والغيرة الحارقة . حطم الشمعة التى اهدتها له وقال انها انسانة معذبة لا يؤمن جانبها . لماذا ؟ لأنها تتخذ قراراتها الخاصة دون مشاركته . تتعامل مع الجميع بطلاقة دون حرص أو حذر . تضحك مع الشباب دون التفات مسبق الى رأيهم فيها . عبر لها صديقها عن رأيه فى صداقاتها العديدة ، وقال انها فتاة منفلتة . لا تناقش الأمور قبل الشروع فيها . كان يريد ان يملكها . قال انها مزدوجة الشخصية لا تعرف ماذا تريد اجابته انها تهتم بصداقته فقط ولا تفكر فى مشاريع الخطبة والزواج .

كان هذا واحدا من اصدقائها الكثيرين . وكان عادل صديقا آخر . ابن عائلة عريقة . موهوب فى الرياضيات والحساب يحب « عبد الناصر » ويعلق صورته داخل خزانة لا يراها الواشون . يسمع الاذاعات الممنوعة ، التى تسوق من يسمعها من أهل أريحا الى السجن الذى لا ينتهى والمطاردة الدائمة من قوات الملاحقة . احبته جنان ، ومن أجله لبست الكعب العالى وامتنعت عن قضم اظافرها وطلتها بلون جذاب . القت بكتب سارتر واشعار جميل بثنيه وفلسفة هيراقليطس . بحثت عن تقاليع الموضة فى مجلات الأزياء . فقد كان عادل يريدها طازجة وبراقة مثل سلة الفريز الناضج الذى لا يفسد قط . وكانت جنان تحبه اكثر من كتبها وصديقاتها وثرثرات معلماتها . غير أنه كان دائم التذكير لها بأنه الأهم ، الأعلى ، الأكثر سطوة . وهى بعد بلهاء ولم تتقن الدخول الفورى فى لعبة القط والفأرة .

فجأة أتته فى عز الظهيرة وقالت له انها تحرره من هذه العاشقة الساذجة التى تحبه دون دراية . وانها هى قد تحررت من دور بللورة السكر الفضية التى كان يريد ان تذوب على يديه فى طبق العائلة الفاخر .

وعرفت جنان شابا من طراز آخر مختلف. جلست واياه فى قهوتها الريفية ، وسألته بنزق مفاجيء : لماذا تحبني يا شاهر ؟ سؤال غريب ، اليس كذلك ؟ فى نفسها كان يدور حوار طويل ، كأنما كانت فتاة اخرى تحادثها فى صحوها ومنامها . سألت نفسها : هل هى قصة حب جديدة تستعيرها كى تهرب بها من مواجهة الواقع وهذا العالم الذى يرعبها بشرورة الأسطورية ؟ هل هى انفتاحة وعى مباغتة تدفعها الى الايمان بصداقتها وعلاقتها بشاهر ؟ وكيف تتيقن ان كان يختلف حقا عمن عرفتهم قبله ؟

قطب شاهر جبينه وقال : قد اكون مثلهم فى اشياء كثيرة . ولكنْ عليك انت ان تكتشفى . ثم تابع كلامه فى بطء : احبك ، غير انى قد لا أصلح لك . انا لست لك . لن تجدينى كل الوقت معك ستبحثين عنى فى الطرق والدروب الموحشة . سيقولون لك : كان هنا من خمس دقائق وذهب . ويتكرر هذا فى كل مكان . واعود أنا للأوراق الجافة ولرائحة الحديد والبنادق . وربما يتصل حنينى الى ان التحق بدفئك . ولكن لن أفعل . هل هى انانية ان اكشف حقيقة وضعى امامك ثم اطالبك بحبى ؟ اعماقك اغرتنى بالمجازفة . عناقيد الأضواء على وجهك العابق بالفرح . ضحكتك الرنانة التى تشبه البكاء . حماسك وصدقك بعد ان امتهننى بعضهن بحرفة الرياء والكذب والمجاملة تغرزين اظافرك فى الوحول ولكنها لا تجرفك مهما تلوثت بالأقذار . لست كجوارى السلاطين اللاتى يدعين الطهر والنقاء .

تسألينني لماذا التقى بك ؟ لماذا أنا معك وانت ممزقة هكذا ؟ انا لست المسيح ، ولا أنا مصلح اجتماعى. ولكن فى العالم اناسا يرتاحون حين يعودون الى بدائيتهم الأولى. معك أفقد شعورى بالزيف الذى يصاحب وجوه الناس واجسادهم . أراك كما انت : تجمعين حنانى الضائع خلف أبواب الليل . سنبقى معا يا جنان . ويسألها : كيف يرى أهلها الوضع ؟ تقول : لم احدثهم بعد . يقول : قولى لهم انك صادفت انسانا يناسبك وانك تتجاوبين معه وتتفاهمين عاطفيا وفكريا . ترد جنان : سيقولون انهم لا يحبون الفقراء رغم انهم هم انفسهم فقراء . سوف تتصاعد شكاوى العمات والخالات من غبائى . فتاة متعلمة تبحث عن رجل فقير يكرس حياة الفقر التى نريد ان نخلص ابناءنا منها ؟ تبحثين عن التشرد وحياة التهديد الدائم واللا استقرار ؟ وانتهى الكلام بأن غلبت الضحكات بقية كلام الحبيبين ولم يهتما بمزيد من بحث الموضوع . كان واقع جديد قد نشأ وصحب معه معادلة جديدة لا تحل الا بالعمل المتفانى والانهماك فى التجربة وكان واقعا مثيرا فرض نفسه على دربهما فأصبحا يحتكمان اليه ويأخذان الأجوبة من فمه .

هكذا جمعتهما الأسئلة فى البداية ، ولكنها ما لبثت ان فرقتهما . أخذت جنان تشعر بأنها تعيش على هامش الثورة ، وتسأل : متى يمكن ان نعيش الثورة ذاتها ؟ كان المقاتلون فى وضع

حرج ، محاصرين ، وامكان اختراق الحصار ضئيل للغاية . طلبت جنان ان تشارك فى العبور ، فرفض شاهر ان ترحل معه دون ان يكون لها مهمة . سألته : واذا أصابك شىء ؟ اجاب : تعيدين ترتيب الأمور على نحو جديد . وتنظمين حياتك بما يكفل لك الاستمرار والتطور . قالت البنت : سأقتل نفسى اذا اصابك شىء . لن اعيش ثانية واحدة بعدك . اجابها بصوت مجهد ومفعم ، بالحنان : بل تحافظين على نفسك ، فان العالم لا ينتهى عند انسان واحد . هو واسع فسيح يسمح باحتضان الأمنيات والعمل من أجل تحقيقها .

وكتب شاهر من موقعه يقول : هل حطمت قيدك يا شهر زاد وانطلقت تتقبلين العالم الذى تخافينه بذروة الألم والامتلاء والحنان ؟ انى ممتلىء بك وبالرغبات الوثنية الجميلة ، خائفة انت من الأرض الهلامية الرجراجة . اقفزى عليها ، وانسى كل ما يذكرك بالحقد على الأوثان القديمة . انا نحن الذين يحطمونها . غير ان جنان تشعر انها مازالت أسيرة . أسيرة رغما عنها للتفاصيل الصغيرة ، للآلام المتفجرة الحارقة . أصبحت لا تكف عن التساؤل : أين نحن ومتى نصل ؟ ويرد عليها شاهر : مازالت بعض الفوضوية راسبة فى اعماقك . هل تنتظرين ان تتحقق الرغبات جميعا دفعة واحدة ؟ الا يكفينا اننا لا نتجمد فى مكان واحد ، واننا نخطو الى جميع الأمكنة ؟ ثم يهزها بعنف مذكرا : هذا عالم شائك ، عليك ان تعتادى تحمله . أمانيك الرومانسية ستقف عقبة أمام واقع نحياه . ان أردت ثورة تخسف الجبال وتهد البنايات فى لحظة واحدة . لماذا تتبادلين لعبة شد الحبل مع نفسك ؟ أى ثمن باهظ سوف تدفعينه من وضوح رؤياك اذا واصلت هذه الطريقة العصبية فى النظر الى الأمور ! قالت جنان وهى ممتلئة بضحكته الخضراء الممتدة الى وجهها واناملها : الوقت . الوقت لماذا لاتنتظر زهرة عباد الشمس وقتا أطول ، مادامت على هذه الحالة الهائلة من نفاد الصبر والتوتر ؟

ويصاب شاهر فى مواجهة مع العدو ، ويرقد فى المستشفى بين الحياة والموت . وحينما يزول عنه الخطر بعد ساعات طويلة من الانتظار الحافل بالقلق والتوتر تحس جنان شيئا أشد وأقوى واعنف من جميع مباهج الحياة ومتع الانتصارات التى حلمت بالوصول اليها . هذه هى اللحظة . وهذا هو وقت الحياة رغم الخديعة والخراب والطعنات . كل ما تريده جنان الآن أن يعيش شاهر ويشفى لا تريد شيئا سواه . حتى لو تعرض للموت مرة أخرى ؟ لا يهم . حتى لو تعرضت هى أيضا ؟ ليس مهما على الاطلاق . تريد التوحد باللحظة الحاضرة . واللحظة الحاضرة تشبه كل شىء تملكه رغم انها لاتراه . النخيل . وسقف جبل قرنطل يظلل سماء اريحا . الغيوم الزرقاء الرمادية ، وحصى المياه المالحة سوداء وبيضاء على شاطىء البحر الميت . وهذا الوقت الذى يتوهج بين اصابعها انتظارا مستمرا لطلقة واحدة تذهب الى العدو فى الأمام دون أن ترتد

الى الخلف .

أخيرا تلقى جنان بنفسها الى أرض الواقع وتتعلم ان تعيش الواقع كما هو الآن ، منتظرة ان يتغير بالعمل الصبور كما كان يقول لها شاهر .

على الطرف الآخر من شاهر يقف عامر . لا يؤمن عامر بالكفاح المتدرج المتأنى . بل يدعو الى العمل الخاطف الباطش . يرى فى اسلوب خطف الطائرات واحتجاز الرهائن وسيلة فعالةللفت انظار العالم الى قضية فلسطين . يقول ان الحضارة عاهرة بين فخذى التاريخ . تركتنا وذهبت الى الأعداء ، ويجدر بنا أن تقلم اظافرها قبل ان تودى بنا . تقديس الحضارة ونفيها : هذا لديه هو لب المسألة . خطف عامر طائرة واندفع بها الى مطارات الدنيا . لم يقبل بلد افريقى واحد ان يمد الطائرة بالبنزين . وعند مطار آخر كاد البنزين ينفد . بدا عامر كأنه تانتالوس الاغريقى يقف فى اسطورته القديمة وسط بركة ماء زلال . اغصان التفاح تميل قرب رأسه فيمد يده يريد قطف ثمارها فتبتعد عنه . بركة الماء تغيض وتتحول الى جفاف وغبار . ويبقى عامر أسير عطشه وجوعه الأبديين .

تناجيه جنان عن بعد . تود لو عاد وقاتل فى وطنه ومات . تعرف تماما ان معركته خاسرة . السكين التى شرعها فى وجه الأعداء سوف تغتاله هو . اضواء السيارات الحمراء سوف تهجم عليه وتطلق وتطلق حتى يلغى الزمن . سمعته يوما يقول : العمليات الخارجية بحاجة الى مزيد من الضبط وهدوء الأعصاب . فعرفت ما يرمى اليه .

عامر فى الطائرة يجلس هادئا . وقد اطمأن الى وضع رفيقيه . بعد قليل ستتحول الطائرة الى كرةتجرى بين اليابسة والماء . لا مجال للمساومة أو التراجع . ها هوذا يحقق الهجرة . الحلم . ولأول مرة يصبح لهجرته مبرر واضح . منذ صغرهم وهم يقولون : هاجروا . فيهاجروا ما بين الليل والنهار . ما بين بير السبع والخليل ، ما بين الخليل ومخيم بلاطة ، ما بين مخيم بلاطة والجسر . وعمان . باريس . القاهرة . بغداد . دمشق . الكويت . وحتى يكفوا عن طرح الأسئلة يجب البدء باعطاء الأجوبة . مشوا على الغيوم طويلا ، وها هم اولاء يستردون اليقين الذى ضاع منا فى حروب الغير ليبدأوا حربهم الخاصة . وليست الطائرة الا محطة أولى يفرجون بها عن رفاقهم من السجون . انطلقت الطائرة واستوت على الهواء . اعلن عامر سيطرته على الطائرة مطالبا الركاب بالهدوء . قال : لن اوذيكم . ولكن أعمل مع رفاق من أجل قضية بلادنا . ثم استدار بثبات طالبا من الطيارين تغيير الاتجاه . انتهت عملية التسكع بين المطارات نهاية مألوفة : طائرة محترقة وجثثا كثيرة هامدة . بين زمامير سيارات الاسعاف القوية . مع الجثث كانت جثة عامر .

حمل عامر بوصلته وخرائطه وأرض الأحلام الذاهبة مرتحلا على طائرة . قالت جنان للحاجة

سليمة ، ام عامر : لكل طريقته الخاصة به . ألم يقل لك هذا مرارا ؟ اختصر عامر المناقشات الطويلة وقرر ان يكملها مع التاريخ على طريقته الخاصة .

تتعامل : « بوصلة من أجل عباد الشمس.» مع قضية فلسطين . ولكنها تفعل هذا من خلال الرجال والنساء . تولى النساء اهتماما خاصا . تروى حكاية شهد . والدها مات شهيدا . قضت سنوات طويلة فى مدرسة اليتامى الداخلية . ارتدت فستانا واحدا طوال العام . وقفت تنتظر فى صف طويل كأسا واحدة من الحليب فى اليوم . والكيس البنى الذى تحمله امها نهاية كل شهر تضع فيه حبات من البرتقال وحفنة من الزعتر الناشف وقطعة واحدة من الصابون النابلسى .

كبرت شهد الصمدى وأصبحت معلمة اللغة الانجليزية . وسكرتيرة فى شركة تجارية بعد ان منعت من العمل فى المدارس والأجهزة الرسمية . عملت مدرسة فى مخيم الوحدات . علمت البنات معنى كلمة جيش . قالت البنات : الجيش هو النار والبارود والمنازل المهدمة . قالت الناظرة لها : هذه الورقة لك . وكانت ورقة الفصل موقعة من احد المخبرين الذين يتعقبونها اينما ذهبت بعد انتهاء أيلول .

تعرفت شهد الى الأستاذ ماجد ، المتخرج حديثا فى جامعة اكسفورد . قالت : شخصيته سحرتنى . لبت دعوة منه لزيارته فى بيته . اشتركا فى اعداد الطعام . مدت يديها الى كتبه واخذت تحدثه بطلاقة عن محتوياتها . ماجد يحب المتحررات المجربات . لم يستطع ان يفهم هذه الفتاة التى تعرف الكثيرين . كانت تتحدث بطلاقة . اشتكى من الحر الخانق وفك ازرار قميصه الأولى . سألته بوداعة : هل افتح لك الشباك . قال لا داعى . ثم قام وشدها الى صدره فى عناق عنيف . صرخت مذهولة عقب فكاكها من يديه وجرت الى الباب وهى تتقلص متحولة الى صرخات متتابعة مختنقة .

لم يحادث ماجد شهد مرة ثانية ولوى وجهه كلما شاهدها آتية . لم تدر كيف تفسر تغافله عنها ولماذا حدثها عن طيبة الأصدقاء .

شهد فتاة رومانسية ، لا تلبث ان تتآكل رومانسيتها مع ايقاع الأحداث . الفصل المستمر من الأعمال . يحفزها الى مزيد من العمل . لو فتتوا العالم فسوف تعيد تجميعه ولربما خلقته من جديد . ترفض خطيبا غنيا ، اكرش ، عرض عليها سياراته العديدة وبيته الفخم المترف . اصمت اذنيها عن استعطاف امها . لم تستجب لدعوة خالها لها بأن تتخلى عن العمل السياسى وتدلى بمعلوماتها الى الأجهزة مقابل شهادة حسن سلوك ، تذهب بها الى أفخم مدرسة وتصبح أحسن معلمة . تغمرها الأم بحنانها اليائس المتعاطف ولكنها ترميها بحكمتها الأزلية : تعليم البنت خسارة

وعزارة » . لولا دراسة شهد فى المعهد لما أصبحت برأس يفلق الصخر .

تجد شهد نفسها وخلاصها فى العمل الفدائى . تجد ان الدمار المحيط يعيد خلقها وصياغتها . غير انها تدرك — فى مرارة — ان رجال المخابرات يسرقون منها بهجة العمر وبهجة كل يوم بأغلالهم الحديدية . وتتساءل فى آخر الرواية : الى متى ؟ متى تأتينا المسرات الماضية والمتع المجهولة التى بحثنا عنها بين قطرات عرقنا وتجاعيد وجوهنا المبكرة ؟

وثريا التى تدفن نفسها بين قطع الفخار الاثرية القديمة . وتكتب على كل قطعة رقما معينا يحدد مكانها من الجسم الفخارى . عملها بسيط ولكنه مرهق . ترى البنات من حولها كل فى حال . سلوى تفرح كل يوم بخطيب جديد . وعايدة ضائعة ومتقوقعة وسمر تختال فى ساحة البلد كل يوم بفساتين كاردان وأحذية جوردان . العمر يتقدم بها ، وهى تحاول عبثا ان تبدو صغيرة كتلميذات المدارس .

تتعرف الى جعفر فى الكافيتيريا . تحبه ولكنها تخاف الرجال . تحسب حساب ابيها بائع الحلوى الذى استحال سمسارا يقود بناته الى زيجات لايدرين عنها شيئا . سألتها جنان : لماذا تستكثرين على نفسك بعض السعادة والفرح ؟ تقول ثريا انها تحس عشقا فوق المستطاع تجاه جعفر وهذا ما لا تستطيع تحمله . تعودت مشاكل ابيها وزوجاته . ولكنها لم تتعود تقبل ذات أخرى بحنان يذيب رواسب الخوف والعداء التى تدافع بها المرأة العربية عن نفسها أمام الغير . ماذا تفعل ان لم يكن يحبها ؟ او تظاهر امامها بالحب ثم راح يعرض بها زاعما انها تلاحقه . لو درى أهلها أنها احبت شابا دون شهادة أو وظيفة محترمة فستهزأ بها زوجة ابيها الحمقاء السمينة وتصاب أمها بالجنون لأنها لم تصادف زوجا غنيا ولائقا كالذى تزوجته ابنة غريمتها .

غير ان الأحداث تستكثر على ثريا السعادة التى وطنت نفسها أخيرا عليها . يتبين ان جعفر مقاتل فدائى ذو مقام رفيع ، على مدفع بـ سفن ويجتاز النهر فى العمليات الانتحارية ضد العدو . تصيبه رصاصة كبيرة تخترق جمجمته . تمزق ثريا الكتب والأوراق وتعلن فيما بعد : أكره البارود والرصاص وقطع المعدن التى تقتل البشر . ولن اشترك يوما بأى نضال يكون العنف واسطة اليه . وتسألها البنات : حتى عنفنا الثورى يا ثريا ؟ فترد : نعم حتى عنفنا الثورى يا بنات .

غير ان ثريا تغير رأيها فور ان يحتل الصهاينة نابلس وتقوم فيها مظاهرة احتجاج شعبية يشترك فيها الأولاد الصغار حاملين اكواما من الصفائح والحجارة . توزع ثريا اعلاما فلسطينية صنعتها امها من الأقمشة الحمراء والخضراء والسوداء والبيضاء . تندفع ثريا خلف عشرات الأجساد البشرية ، يصعقها الغضب والاحتجاج . من الظلمة الخانقة والفقد الموحش استطاعت ان تبدأ . استيقظ الزمن فيها ، وعرفت ان موت الشهيد لم يلغ وجودها . وبدأت مع الزمن علاقة

خافتة بشاب من جامعة بيروت يعود فى الصيف الى الضفة . لايتعدى الأمر حدود الصداقة العادية . ولكن ثريا مصممة ان ذاتها وذات صديقها لن تكونا رهينتين لشيء لم يأت أوانه بعد .

ليس كل الرجال ولا كل النساء وطنيين اسوياء مشغولين بالقضية الكبرى عن ذواتهم . هناك سمر ، التى أفرغت ذات يوم على شعرها زجاجة عطر فرنسى شهير . لقد غادرت البلاد وأصبحت زوجة مهندس معروف يعيش فى ديترويت باميركا . كان يوم عيد ميلادها مشهودا . دعت فيه اصدقاءها الى مطعم انيق مكسوة جدرانه بالخشب الأصفر اللامع ومضاء بالشموع الحمراء . وكان بين المدعوين صديقها سليم شاكر ، بيذلته الغالية الموشاة بمربعات صغيرة داكنة . جعل سليم شاكر يدلى بملاحظات ساخرة على صديقات سمر . ثريا لا تهتم بمظهرها ولا تغير الجينز الذى أصبح علامة ثابتة عليها . وجنان بلهاء لاتتخلى عن طيشها ونظرتها الى العالم كأنه دمية تصهرها باصابعها بلا مبالاة . وهى الى هذا فشلت فى علاقتها مع عادل وتركته يسافر . تجاوزت الصديقات عن ملاحظات سليم شاكر الجارحة وقدمن هدايا متواضعة ، فزايد عليهن الرجل بتقديم مرآة ذات اطار مطعم بالعاج والأبنوس .

وهناك جاسم خطيب سناء ، الذى حملها على ترك التدريب على السلاح وهددها بالطلاق اذا هى واصلت التدريب . قالت له : عندما خسرنا فلسطين فى البداية لم يكن عندنا سلاح أو سياسة يسير على هديها الشعب . أما الآن فقد اختلف الوضع . قال : السلاح للرجال فقط . اما النساء فلا شأن لهن بالسلاح الا اذا أردن أن يشهرنه فى وجه بعضهن البعض !

وهناك ابن ام خالد الكبير الذى تعارك معها لأنه شاهدها تذهب الى مركز تعليم الأميات كبيرات السن وهى تحمل ورقة وقلما . وهناك خال شهد الذى دعاها الى ترك النضال والتصالح مع السلطات والعمل كمخبر لها ، فى سبيل شهادة حسن سير وسلوك .

وهناك الحاجة سليمة ، التى تستعين بالسحر والمعجزات والمشعوذين فى محاولة لاعادة ابنها سالما اليها . لقد عاشت مع زوجها وضرتها عيشة الذل والاستكانة ، وصبرت على ملاحقاته لنساء القرية الفقيرات ، فلما كشفت هى وضرتها امره ، طاردهما بالبندقية فى الحقل ، وابقاهما خارجا تعانيان من البرد تحت اشجار الجوز . وعندما سألتها البنات : هل تشتاق اليه بعد موته ؟ قالت الا تفهمن ان ظل الرجل أفضل من ظل الحائط ؟ لقد عاشت مع ذلك تحت ظل العصا التى كان يضربها بها ، مرددا ان العصا احد فروع شجرة الجنة !

والبنات اللاتى يتدربن على العمل فى الكوادر ، ما يلبث اهلوهن ان يسحبوهن خوفا من القيل والقال . صبحية التى التزمت بالعمل فى حى قرحات وهو حى كبير ستتزوج تجارا سوف يسافر الى السعودية . ومنى التى عادت من دورة تمريض فى الاتحاد السوفيتى رفضت أن تعمل فى

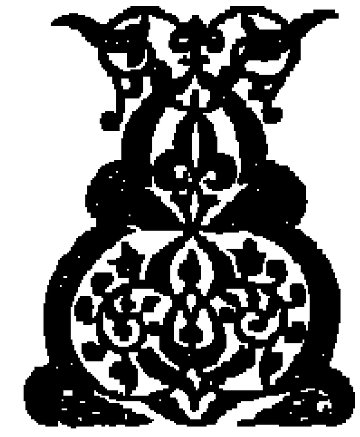
المستوصف والتحقت باحدى المستشفيات الكبيرة موظفة استعلامات تلبس اسورة ذهبية بمربعات متشابكة وتحمل على صدرها سلسلة ذهبية عليها قرط عاجي صغير ملبس بالذهاب مع مفتاح صغير وقلب ماسي اصغر حجما . وام داوود ما ان ترى جنان حتى تأخذ فى التلويح والصراخ لأن ابنها فقد ذراعه اثناء التدريب على المتفجرات . وبين باعة البطيخ وأكوام البطاطس يندمج الناس أحيانا فى مراسم الأفراح أو الجنازات ، حتى لينسوا ندوة سياسية عقدت عليها الآمال فلا يأتى اليها فى النهاية الا نفر قليل .

هكذا ترسم ليانة بدر صورة متوازنة لشعب فلسطين المجاهد فى سبيل التحرير ، صورة تظهر السلب والايجاب ، ولا تمتنع عن نقد المواقف الخاطئة حتى حين يمكن التعاطف معها وفهم مصدرها ، مثل خطف الطائرات . وأبدا لا تهمل الناحية العاطفية للمناضلين بالسلاح . تهفو قلوبهم الى الحب والدفء ولكنهم يعرفون ان لا مفر من ترك هذا الى وقت سعيد تال . لا وقت للحب مثلما يقول شاهر ، ولا داعى للقفز على الأشياء ولا مجال لاستخدام عنف لايؤدى الى نتائج مضمونة .

هذه رواية تحترم الانسان الفلسطينى ، وتهفو الى نجاح قضيته ، وتصور نضاله تصويرا فنيا يخلو تماما من الخطابة ورفع الشعارات . انها قصيدة حب للنضال والمناضلين فى كل مكان . من فلسطين الى فيتنام . وهى اعلاء لشأن السيف والقلم معا . شعر بابلو نيرودا يقدم هدية عيد ميلاد لسمر المتفاخرة بجمالها وثرائها ، والموسيقى تهدى اليها أيضا . واهازيج الشعب وفنونه تشير اليها ام محمود بكل اعتزاز ، معلية شأن زمان مضى . زمان اكتشف فيه الآباء الثورة على المغتصبين ، موضحة أن الثورة ليست أبداً اكتشاف الجيل الحالى . كانت ثورة عارمة لاهبة دامت سنوات طويلة ولولا قلة السلاح ما هزم الصهاينة المناضلين الفلسطينيين .

أنت منذ اليوم

تيسير سبول



يتربص الأب بالقطة فيكيل لها ضربات ثلاث . سمع الولد عربي صوت تنفسها المختلط بسائل الدم وقد انتفضت انتفاضات سريعة واستلقت وجنتها على الأرض . نفض أنفها مزيدا من الدم ثم سكنت . عيناها ظلتا مفتوحتين .

تحدث عربي عن مصرع القطة لصديقه صابر . كان قد شاهد صباح اليوم التالى رأس القطة مفصولا عن جسدها ومسلوخا . سرد لصديقه قصة الخناجر الستة ، والحزام الجلدى العريض الذى يثنيه ابوه عندما يضرب زوجاته به ليكون أشد وقعا . تساءل عربي : من الذى سلخ جلد القطة عن رأسها ؟

كان ذنب القطة أنها التهمت قطعة من اللحم كانت الأسرة تتهيأ لتناوله . قال عربي : من يدرينا ، لعلها اطعمت اخواتها أو ربما اطفالها . وعجب : لماذا عادت القطة بعد ذلك .

عندما وقعت الهزيمة شعر عربي ، وهو سائر فى الليل مع صديقه ان شيئا ما فى الليل كان يقربه من الليلة الأخيرة للبشرية . حاول ان يتفهم معنى الهزيمة . لم يفهم . قال : هذه ليست هزيمة بل شيء آخر . اذ ذاك تذكر قطة رآها مدهوسة فى عرض الطريق . الدم على اذنها وجانب من وجهها ، وهي تتحرك فى دائرة لايزيد قطرها عن متر ، وعيناها فى الوضع نفسه . وتظل تدور . لم يدر ماذا كانت ترى وماذا كانت تريد .

ترتبط صورة القطة المقتولة والقطة المدهوسة فى ذهن عربي ارتباطا وثيقا . القطة الأولى تمثل قساوة الفرد نحو الأحياء . وتقفز لا واعية عربي من مصرع القطة الى خناجر الأب والحزام الجلدى العريض الذى يضرب به الأب زوجاته . القطة والزوجات فى نفس الموضع الذليل . يسأل عربي اباه : لماذا يا أبي بهذا الحزام العريض تضربها ؟ تضاحك الأب وقال ممازحا : الله يلعنك ويلعن امك . لم يكن يريد لعنة الاثنين . كان يقرر ، مواربا ان هذه هى طبيعة الأشياء ، وحق الرجل

وامتيازه على المرأة .

القطة المدهوسة تمثل الأمة العربية بعد الهزيمة . لم تمت القطة وانما ظلت تدور وتدور فى دائرة صغيرة ، ثابتة العينين ، لا يُعْرف ماذا كانت ترى وماذا كانت تريد .

القطة المقتولة قطع رأسها وسلخ جلدها . سمع عربى المذيعين يندون بصانعى المؤامرات . ذكروا اسماء كثيرة . قال عربى : طبعا ، كلهم فاسدون . وسُرّ اذ وجد المذيع يقول انه فى مكان ما من العالم قام اناس بذبح حكامهم . وان بعض الجلود سلخت . سر عربى بذلك . عاد المذيعون يقولون بعد مدة : ان الذين ذَبَحوا أعداء الشعب سابقا هم انفسهم اعداء الشعب . وأن جلود رؤوسهم جديرة بالسلخ . اعتقد عربى أن هذا أمر سخيف .

وقرأ عربى بيتا لشاعر مشهور من شعراء الحزب يقول : « سنصنع من جماجمهم / منافض للسجاير » . قال عربى ان التفكير بمنافض من هذا القبيل اسوأ كثيرا من سلخ رأس قطة . وأكد لنفسه انه لايريد لنفسه منفضة مصنوعة من جمجمة ، سواء كانت جمجمة شعوبى أو سواه . فهو لا يحب الجماجم عموما .

فى آخر الرواية تربع الجنرال داخل جمجمة . كان بوسعه ان يحل عقدة عينه ، ويمد رجليه ويستريح . يستريح ليس فى بيته ولا فى مكتبه العسكرى ، المتحف المرصع برسوم النصر ، بل داخل جمجمة . وكان بوسع الجنرال ان يعرض على الملأ رباط عينه الأسود ، وأن يسخر من العيون السليمة . ويقرر بأن الأصل فى العيون أن تكون عوراء . ولم يكن هناك صوت يناقشه — فى تلك الجمجمة .

تتجمع صور القطة المقتولة والقطة المدهوسة والجلود المسلوخة والمنافض المصنوعة من الجماجم لتقول شيئا واحدا واضحا : اضطهاد الأحياء ، اذلال الزوجات . امتهان اجساد الخصوم تؤدى كلها الى نهاية واحدة : الهزيمة . وعندما أراد الجنرال المنتصر أن يحتفل بانتصاره ، ترك بيته ومكتبه العسكرى وقبع داخل جمجمة . جمجمة الشعب العربى . لم تكن الجمجمة من صنعه ، بل وجدها . قدمتها له هدية أنظمة تؤمن بالقتل وفصل الرؤوس ، والسحل والسلخ ، وتفريغ الدماغ واحالته الى مجرد جمجمة .

ويصف تيسير سبول حال المرأة فى سلسلة من الصور تبدو متباينة ، ولكنها شديدة الارتباط . ام عربى تُضْرب بالحزام العريض . صابر — صديق عربى — له اخت متزوجة من عسكرى كالبغل . يضربها ولا تريد الطلاق بسبب الأطفال . ام عربى تقول ، واصفة حالها : نحن نرش السكر على الموت . وتردد دائما : لابد للحزينة من يوم تفرح فيه » . ولم يرها عربى تفرح فى يوم من الأيام . وتقفز فى ذهنه على الفور صورة شعبه فيقول : « طاف رجل معظم بلاد العالم

ورأى كثيرا من الكوارث الا أنه لم ير شعبا بأكمله يغرق فى الحزن مثل شعبى » .

وبعد رحيل الزعيم ، كف خطيب مسجد الجامعة عن مهاجمة الاشتراكيين والملحدين وكرس خطبه لمهاجمة ملابس النساء القصيرة ومسائل أخرى تخصصية . وضع عربى — فى خياله — الإمام على كرسى رئاسة الجمهورية فتقلقلت الصورة وتشوشت .

الرفيق الكبير فى الجامعة يحب النساء اكثر من الأمة . وعندما كان عربى يسير مع طالبة سمراء عرفها من زمن ، لقيه الرفيق الكبير وكشف اسنانه ثم قال : عرفنى عليها . سأله عربى : لماذا يا رفيق ؟ أجاب الرفيق : بلا رفيق بلا بطيخ . عرفنى عليها . قال له عربى : انها شعوبية . أجاب الرفيق : لا يهم ، عينى ، لايهم .

ولاحظ عربى ان الخادمة التى يحشرونها تنام معه فى الغرفة . وهى بيضاء الجسم حين ينحسر عنها الغطاء . كانت غائبة عن حسه فترة . ثم عراها ورأى أن جسدها الداخلى نظيف جدا فجاس خلاله بلذة . وكان ييئس حين يرى أن وجهها — بعد أن تلبس — وسخ جدا . سئم الخادمة ، ولكنه استمر يجوس فى جسدها الأبيض وحين يكتشف وساخة وجهها يتقزز . ثم عرف من بعد فتاة نظيفة الوجه ، قالت له أنها لا تمانع فى ان يعريها ، ففعل وكف عن الخادمة . وأيضا ضجر من الأخيرة .

صعدت عائشة الى الغرفة العلوية حيث يسكن عربى . كان ابوها قد أخذ يضرب أخاها على ويصيح : خلينى اذبحه . خلينى اذبحه ! قال عربى لعائشة ادخلى يا حلوه . احضرت لك بقرة شيكولاته . سألها لماذا ضرب ابوها على ؟ اتهمته بالتخابث . عاد يسألها : هل كان الأب يضربه قبل أن يسكن هو عندهم ؟ قالت كثيرا . استمر يسأل : هل كنت تصعدين لهذه الغرفة ؟ زمّت شفتيها بغضب فنسى عربى اخاها على وزوبعت رائحتها فى جمجمته .

كان على يصرخ احتجاجا على ضياع شرف اخته . قال عربى وهو يناجيه : لماذا تكرهنى أنا ؟ اكره الغرفة فى الأعلى . دفعت أجرة اضافية لها . ولماذا يزعجك شرفها الى هذا الحد ؟ ألم تفقد انت نفسك ما هو اكثر ؟ عليهم يا صديقى أن يؤجروا الغرفة . والا فكيف ستذهب الى المدرسة يا على ؟ تصادف ان لأسرتك عائشة وكان لابد أن تصعد للغرفة العليا . وهم لم يفعلوا اكثر من كسب بعض الليرات الاضافية . اما هى فصاعدة للغرفة فى كل الظروف . أليس من حقك الا تشقى لمثل هذه الأمور ؟

فيما بعد يسكن غرفة اخرى من البيت واحد من اللاجئين السياسيين . تغير عائشة موقفها من عربى ، وتتجه الى الساكن الجديد .

تبدى الصور المتعاقبة حال المرأة بوضوح وقصد فني جميل . هى مضروبة ، مباعة ،

مستباحة ، معروضة كسلعة ، مصدر ايراد ، موضع مزايدة . هذا الوضع المتدنى سببه الفقر فى المحل الأول ، ولكنَّ سبباً رئيسيا فيه هو ان الشرف العام قد استلب . ومن ثم لم يعد للشرف الخاص معنى . حالة من التحلل الخلقى تشمل الجميع . الخادمة الفقيرة ، والبنت النظيفة ، والرفيق الأكبر فى الحزب . وصابر صديق عربى . يعلق صابر على ماذكر ، من أن اخته يضربها زوجها وهى لا تستطيع الطلاق بسبب الأولاد ، فيقول : لقد نصحتها بأن تتخذ لنفسها عشيقا ! ويضيف : انه يؤمن بأخلاقية جديدة . وقال أيضا ان الحرية الحقيقية هى ان تكون خارج الخوف ، وأن الحرام هو الخوف وان احلامه تدور كثيرا حول الزنا بالمحارم .

موقف تيسير سبول مما تقوله الصور مغلف بالسخرية والاستهبال . حينما يقول لا معنى للشرف الخاص و الشرف العام مستلب ، فهو يدعو الى مقاومة هذا الوضع الذليل . وما يقترحه صابر على اخته لا يقصد الا كتعليق ساخر على فساد مؤسسة الزواج القائم على استكانة المرأة وتسيد الرجل . وموقف الرفيق الأكبر من البنت الشعوبية يرمى الى اظهار نفاق الزعماء الأيديولوجيين . وتردد عربى بين الخادمة الوسخة الوجه والفتاة النظيفة والضجر اللاحق منهما يعكس انعدام حماسه للجنس ، وغياب فحولته . ولقاؤه فيما بعد بالمومس التى رفضت التعرى التام يظهر نفاق الاثنين . المومس تريد الاحتفاظ ببعض الكرامة فى موقف لا كرامة فيه . وعربى يريد ان ينفى عن نفسه جريمة المشاركة فى عملية استئجار الاجساد بأن يرجو المرأة أن تقبل النقود كهبة وليس كمقابل إمتاع .

شريط ثالث من الصور ترويه : « انت منذ اليوم » ، وهو خاص بمواقف الناس من الايديولوجية والكفاح . يُدْعى عربى الى أن يحضر حفلا للحزب فيقول أنه يكره جدا ان يذهب ليرى الشعراء الذين يضربون الأرض بأرجلهم . فالاستعمار فى الحقيقة ليس تحت أرجلهم .

ومع ذلك يتقدم عربى للانتساب الى الحزب . يذهب وهو فى بنطال صغير لا يتناسب مع جلال الموقف . سمع كلمات الاطراء لشخصه ، وكلمات كبيرة تصل بينه ، ببنطاله القصير ، وبين الأمة بأكملها . كان مستعدا ان يضيف الى كلمات القسم على الوفاء للحزب تأكيدا اكثر لكن الوقار المفاجىء منعه من المزايدة ، فالقسم فى ذاته ليس لعبة ، تقبل تهنئة الأستاذ وتهنئة طالب الصفوف العليا الذى اقتاده الى الحفل ، وامتلأ بشعور واضح ، لكنه رائع . ثم دخن السجائر من بعد فى الاجتماعات السرية وقرأ الكراسات الصغيرة .

كتعليق غير مباشر على حفل الترسيم هذا تأتى فورا صورة الأب ممسكا برقبة ابنه وهو يسبه ويسأله : لمن اعطيت النقود ؟ يقول الولد : يا أبى ، والله لم أخذها ، وتصيبه ضربة كف هائلة ، ويترك الأب جسم ابنه الذى جثم فوقه ويروح يضرب امه . يتبين فى المساء ان الأمر لايعدو غلطا

فى الحساب .

وقال عربى لنفسه : أحب أن أحمل وشم دولة عظيمة . ولكن الكراسات الحزبية تضجره . متشابهة ، ولا معنى لتوزيعها كل أسبوع . يسقط الاستعمار . نعم . ولكن كيف ؟ لا تذكر الكراسات . لم يقل لرفاقه ذلك . لم يقل لهم انه يتعامل مع شخصيات قديمة ميتة . عرف ان هذا سوف يضحكهم . واقر بأن احب الأصدقاء الى نفسه هم من خارج الحزب . يضجر عربى من الحزب ، كما ضجر من جسد البنت العارى . كلاهما زائف . حين تعلق الاجتماعات الأسبوعية ، وحين لايجتمعون حتى مرة فى الشهر يقول عربى لنفسه : الأمر هكذا أفضل ويقول اديب : اخى : الأزمة ازمة ديموقراطية . اسرائيل والاستعمار قضية ثانوية . الأزمة هنا . فى الداخل : الديمقراطية . ويسأل اديب عربى ما رأيك ؟ كان عربى مشغولا بالبحث عن حبه فستق جيدة . فلم يجد . قال : رأيى بماذا ؟ قال الأديب بحقيقة الأزمة ؟ كان عربى مشغولا بفكرة ان الفستق المخزون طويلا يعفن . بحث فى رأسه عن جواب فما وجد . قرر ان كل الفستق كان معفنا .

ويحدث انقلاب فيعلق عربى : من ذبح من ؟ من يريد ان يحكم مكان من ؟ قال الانقلابيون انهم ليسوا ضد الزعيم بل ضد الحاشية المستغلة . هلل بعض الطلاب وذمّ بعضهم وجهه واخذوا يهمسون : مسخرة . خدعهم . وفى الشوارع حمل البعض صورة الزعيم وساروا يهتفون : هكذا علمنا الزعيم .

وغيّر الانقلابيون رأيهم وقالوا ان الزعيم ديكتاتور لا يرجى صلاحه . ففرح بعض الشعب وابتأس بعض الشعب . وصمت كثيرون . قال المذيع للناس : لا تحزنوا . ووعدهم بوحدة صحيحة تقوم بين كل العرب . لم يصدق البعض فبكى ما استطاع ، ومرض البعض ولازموا الفراش ثم مالبثوا ان شفوا بعد يوم أو اثنين !

ومثل عربى أمام مسئولى الحزب : سألوه : هل تنكر ما لقى حزبنا من اضطهاد وما بذل من تضحيات فى سبيل الهدف الكبير ؟ قال عربى انه لاينسى . سألوه : هل تنكر اخطاء الديكتاتور ؟ لم ينكرها . فطالبوه بأن يؤيد موقف الحزب . قال : لا أدرى . لا أظن . سألوه : الا تثق بأهداف الحزب ؟ قال : لا أدرى . قال لهم انه لم يعد قادرا على خدمة الحزب . ولو بقى معهم لكان يخدعهم . قالوا : انت شريف ولم تخدع طوال تاريخك الحزبى . تأمل عربى نفسه . اين هو تاريخه الحزبى ؟ لم يشارك فى ضرب الشعوبيين حتى حين كان ضربهم نوعا من التسلية . لم يقل لهم هذا وانما تمنى لهم التوفيق وقال انه لا يملك الا أن يتركهم .

شريط الصور يبين موقف عربى من الحزب وموقف الناس من الأحداث السياسية ونفاق

وانتهازية الحزب فى تعامله مع الأحداث والناس . يقبل عربى فى الحزب رغم حداثة سنه الظاهرة ، وتضخم اهميته عمدا ، ويتجاهل رجال الحزب انعدام ما قدم للحزب من خدمات ويتحدثون عن تاريخه الحزبى الطويل . ويغضون الطرف عن انعدام حماس عربى للحزب . يقول للشاب الأصلع المتهوس الذى سكن معه احد فنادق الدرجة الثالثة : انه قليل الاهتمام بالسياسة وبالزعماء جميعا . لم يقل له انه حينما ينزل العسكر بخوذاتهم الفولاذية ووجوههم المطلية بالأسود فيرشقهم الناس بالحجارة ، ويرشقون هم الناس بالطلقات ، وتسقط اللافتات ، ويهرب الناس متفرقين ويتمدد منهم من سقط فى المعركة ، لم يقل له انه لم يعرف قط ما يحدث للممددين على الأرض لأنه يهرب !

والناس ـــ كما يظهرهم شريط الصور ـــ يفرحون ويحزنون ، ويختلفون ، ويمرضون حزنا على ما يجرى من أحداث . ولكنهم لايلبثون ان ينسوا هذا كله . ويشفى المرضى من امراضهم فى زمن قياسى : يوم أو يومين ! ويحاول عربى ان ينتحر ويضع الحبوب فى الكأس ويهم بأن يشرب ، فيشعر ان معدته تتكوم متحجرة فى رأس صدره . وتتصلب يده تماما .

يشعر عربى ان وجوده ذاته لم يكن مرغوبا فيه منذ البداية . تكرر أمه على مسمعه قصة مولده . قالت انها تركته اسبوعا كاملا يبكى دون ان تعنى به . جارتها العجوز انقذت حياته باعطائه شراب اليانسون . كان الأب قد تأخر فى العودة من الحج ، وقيل انه ضل الطريق وقتل فظلت امه تندبه ، ولم تعد لها رغبة فى الطفل . كان شعور عربى دائما بأن هذا عمل يخلو من اللطف ، تماما كسلخ الجماجم .

بعد الهزيمة يعود عربى الى صورة الرجل الذى طاف بلاد العالم جميعا فلم ير شعبا بأكمله يغرق فى الحزن مثل شعبه . قال انه بدا واضحا ان هذا الشعب استحال كائنا واحدا ضخما ومجروحا . يترنح ببطء . ولم يكن قط ذهول ابعد من هذا ـــ تذكر على الفور صورة القطة المدهوسة .

ترك الفلاحون قراهم . ربات البيوت خرجن بملابس النوم . الرجال والأطفال بعضهم دون احذية . الأنوار مطفأة وجعلوا يتكاثرون . يصيحون بكلام غير مفهوم . لم يعرفوا ماذا يصيحون به أكثر ، فانخرطوا يبكون .

كانت مذلات التاريخ والأحداث قد مرت بعربى الواحدة تلو الأخرى ، مرت معزولة تافهة فلم يبك عربى . اليوم ـــ فى لحظة واحدة نفضت خياله ـــ دون صور ، كل مذلات تاريخه . دون صور . لكنها هناك . الف الف مرة دُهم هذا الجسد ومرت فوقه الأقوام وركلته . اليوم يبكى عربى . لا يبكى زعيما . ولا يدرى ما الذى يبكيه . انتحب وسمع صوته المتقطع الأكثر جراحا من أية قطة فَهَالَهُ الأمر . ولم يعد صوته متقطعا فعلا نحيبه . وكان قد جمع فى جسده كل مذلات

تاريخه فانتحب اكثر وسمع نفسه فازداد انتحابا .

وكان قبل هذا قد سأل نفسه : شعب نحن أم حشية قش يتدرب عليها هواة الملاكمة منذ هولاكو حتى هذا الجنرال الأخير ؟ هذه شهور جديرة بأن تسمى : عصور الظلمة . ما اسدل فى جمجمة واحدة هى جمجمته فى هذه الشهور شىء هائل . هذا مواطن واحد اراد على الدوام ان تحمل روحه وشم الدولة القوية ، فلم يعد امامه أى سلوان .

ثم أفاق عربى لنفسه . قال : آن لكل هذا ان ينتهى . قد يكون شعبى احمق ، تماما كما يعرض المغرضون . قد يكون ذهل الى هذا الحد ، وهم يضربونه ، وظن ان الأمر كله لا يصدق . وقد تكون المسألة مسألة شخصية بحث لمواطن واحد عكف على نفسه محاولا أن يفهم موضعه من التاريخ .

قال معلم التاريخ لعربى والتلاميذ : ان الفترة ما بين القرنين الخامس والعاشر الميلاديين تسمى عصور الظلمة ومعنى هذا ان هناك عصوراً مضيئة هى مصدر الفخر للانسان . « عصور الظلمة » : أى أنه كان هناك نور وانطفأ خمسة قرون ثم عاد واشتعل . وهذا مصدر فخر لعربى . ليس لعربى وحده . ولكن لشعب بأسره انتدب ليحارب من أجل أن يظل باقياً ذلك الرنين الغريب الذى تصوره عبارة : الفترة الممتدة ما بين القرنين الخامس والعاشر الميلاديين هى المعروفة باسم « عصور الظلمة » .

لينفخ الجنرال صدره . رأى عربى عينه فاحتقره . رأى شعبه فى الصحراء ، جنودا هائمين ، عطاشى ، ورأى جنود الجنرال يلوحون بالماء ثم يخفونه ويضحكون . رأى شعبه يسقط باسطا يديه على الرمل الحار ، فأحبه حبا عذبا ، لا يفوقه الا القسوة المرة التى ابداها لنفسه وشعبه خلال شهور الظلمة الطويلة إنه الشعب الذى وضعت الأقدار على عاتقه ان يبقى نور العصور المضيئة ساطعا .

الشعب منذ اليوم قد اضاء امامه الطريق .

بالصورة ، وبالسخرية المبطنة ، من الذات ومن الغير ، تحكى رواية : « أنت منذ اليوم » حكاية شعب تحالف عليه الوضع المتدنى ، والفقر ، وديماجوجية الأحزاب والزعماء ومؤامرات الداخل والخارج ، والعدو الشرس الذى يتربص به فى كل الأحوال . تحكيها ببساطة وقصد فنى جميل ، وتنحو الى استخدام المفارقات بين الواقع والأمل المنشود ، وتبين ان الأفراد يرتفعون الى المكان السامى اذا ما هم ارتبطوا بقضية عامة ، ويهبطون الى درك الخسة اذا مافقدوا هذا الارتباط .

والد عربى ، المستبد ، الشرس الخسيس ، كان يوما مقاتلا ممتازا ـــ وابنه تحدى أوامر :

« أوقفوا الضرب » واراد أن يواصل القتال فعجز لأن الذخيرة فقدت . أى لأن غيره تراخى ولم يؤد الواجب . هذا المقاتل المتحمس ما أن يفقد قضيته حتى يروح يحاول ، بالخسة والطمع ، ان يسلب امه حقها فى ميراث عن زوجها الراحل .

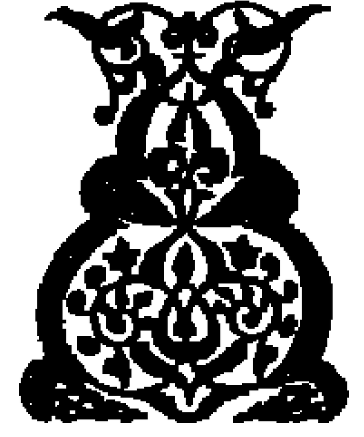
الانسان مزاج من الخسة والبطولة . ولكنه لدى المهم من الأمور يستحيل كائنا آخر . عربى اللا مبالى ــ ظاهرا ــ الذى لا يؤمن بشىء ، ولا يتحمس لشىء ، الذى يسب شعبه فى المراحل الأولى من الهزيمة ، ينفض عن نفسه كل مظاهر السلب والتخاذل ، ويدفعه الحماس الى الالقاء بنفسه فى احضان شعبه المكسور المضيع معليا صورة النور الذى يراه أضاء طريقه وطريق الناس . اذ ذاك لا يعود يرى فى القائد الأعور المنتصر الا جسما اجوف . صغير الشأن كذبابة . بل قذر أيضا كذبابة . المنتصر مهزوم وهو لايدرى ، والمهزوم تنفتح امامه طاقة النور .

بهذا يتحول عربى تحولا كاملا نحو تقبل المسئولية ، ويبشر ، وسط الظلام ، بقرب قدوم طلائع النور .

هذا عمل فنى جميل ، زاخر ، وواعد ، شديد الصديق ، شديد الثورة على الأوضاع المتردية ، شديد الحب للناس . شديد الرغبة فى التحول ، شديد الايمان بإمكان التحول . وهذا دائما هو نهج الفن الانسانى العظيم ! .

سُلطانة

غالب هلسا



قال جريس وهو يخاطب سلطانة فيما يشبه حلم اليقظة : « اصبتنى فى العمق . بحثت فى كل النساء عنك . النساء وهماً كنَّ . وانتِ ، انت الحقيقة التى لا تتكرر . الباقية . اقتربت منه سلطانة فى حلم اليقظة حتى كادت تلمسه . ظل يخاطبها : « خذينى اليك . عبرت عشرات النساء اليك . كل امرأة كانت منفية ، ملغاة بك . احببت ، وتعذبت ، وعشت خيبة الأمل عشرات المرات . أما آن لى أن أصل ؟ أما حان الوقت لكى تمدى يدك الىَّ ؟

كان هذا قرب نهاية الرواية . قبلُ ، حين كان جريس يتجه الى الحافلة التى ستقله الى عمان فوجىء بسلطانة ، قادمة من اتجاه الحافلة . ارتبك : هل تسلم عليه أم تتجاهله ؟ فوجئت هى أيضا . واضاء وجهها . ظلت هذه اللحظة محفورة فى ذاكرته حتى آخر العمر . عرف كثيرات من قبل ، فى بيروت ، دمشق ، بغداد ، القاهرة ، اثينا ، الاسكندرية ، الدار البيضاء ، وأحب النساء فيها وفى مدن أخرى كثيرة ، ولكنه لم يعرف قط وجها اثاره وظل يلاحقه كوجه سلطانة فى تلك اللحظة .

كان للوجه فتنة لا توصف بتفاصيلها ، بل بالأثر القاتل الذى تخلفه . فتنة يعلم المرء انها ممتنعة ، لأنها ، حين تمنح نفسها ، يحس من يتلقى المنحة انه لم يمسها بل تجول بشفتيه على وجه امرأة . فى وجه تلك المرأة حرية لا يستطيع أحد السيطرة عليها أو امتلاكها .

سقطت الحقيبة التى كان يحملها جريس من يده ، وهو واقف بانتظار أن تقترب منه سلطانة . أخذ يشاهد صدرها الناضج ، الانحناءة القوية التى تشكل الخصر ، العنق الشامخ . والنحر الصقيل . وقف بانتظار ان تفيض عليه وتغمره . مالت وقبلت خده كأنما هو طفل صغير . ضمها وقبل شفتيها . ابتسمت وقالت : اما تخشى ان يراك أحدٌ وانت تقبلنى ؟ ثم

حملت عنه حقيبته ، واصرت على حملها . قال لها : انت احلى من كل بنات الدنيا . وكانت هى تشع مرحا بجواره .

كان جريس ـــ اذن ـــ قد خاض تجارب مع نساء كثيرات ، قبل ان يقعد به افتنانة عند عتبة سلطانة . كان قد ولد وله أمَّان لا واحدة . امه نجمة ، المرأة المنكسرة ، الذليلة ، التى تحدب عليه وترعاه وتضعه فى مقلة العين ، وتخشى عليه من النساء كأنما هو بنت بكر . وكانت امه الثانية آمنة ، ام صديقته المشاكسة سمحة . امرأة ذات جلال وسماحة نفس ، تنظر اليه والى ابنتها على أنهما شقيق وشقيقه . وهى المسلمة وهو المسيحى . كانت تتمنى لو خلق الناس موحدين لا شىء يفرق بينهم . كان جريس ينظر اليها على أنها أمه فعلا ، ويقول انها متحيزة له ، تقف دائما الى جواره كلما تشاجر مع ابنتها سمحة . وشيئا فشيئا اخذت صورة آمنة الأم تتراجع ، وتحل بمحلها آمنة المرأة . جعل جريس ، المراهق ، يراها فى صورة المرأة المعشوقة . عشقه لها كان نوعا من التعبد الذى يرتفع بالمرأة إلى مرتبة التقديس ويرى فى النظر اليها بعين الجنس تجديفا واهانة . الى أن نظرت اليه ذات مرة ، وهى فى قمة الانشغال ، فنادته ليجلس بجوارها ، وداعبت شعره وأمعنت النظر فى وجهه متفحصة ، ثم قبلته . اذ ذاك اخذ حبها يدلف الى قلبه ، وحين واصلت اغداق الحنان عليه تحول الحب عشقا .

كانت امرأة طاغية الأنوثة ، توشك انوثتها ان تصبح عدوانا ، وتتناقض مع سماحتها ولطفها مع الناس : تحدث الجميع بتبسط ، يرغب فيها الكل ، ولا ينالها أحد . وحين كانت ترقص فى التجمعات الشعبية ، كانت تقترب حتى يظن قائد الجوقة أنها ممنوحة له ، ولكنه لا يلبث ان يكتشف انها ممتنعة الى درجة الاستحالة ، وأن نجوم السماء اقرب اليه منها .

كانت آمنة فَرَحا خالصاً فى القرية . رآها جريس عقب واحدة من المرات التي رقصت فيها ، فوجدها تشع . احس ان شيئا ما انفلت من سيطرتها المحكمة ، وانها تود ان تعابثه . مد اليها يده بقطعة من الحلوى عارضا ان تأكلها ، فانفجرت ضاحكة وضمته اليها ، وقالت : خلها لك ياحبيبى وعرضت عليه ان يخرج ليتفرج على رقصة الدبكة ، فخرج متثاقلا . لم يكن يريد ان يغادر الذراعين والعطر ، والضحكة الطلقة . لم تكن آمنة تخاف من الفرح مثل أهل القرية . لم تكن تخجل من جسدها ، ولذا أصبحت راقصة رائعة ، واخذت النظرة الأسطورية تلتف حولها وترفعها الى مقام لا تشغله امرأة أخرى .

تُسلّم هذه الصورة الباهرة للمرأة الطلقة جريس إلى ذراعى امرأة طلقة أخرى هى سلطانة فى المرأتين نقاط التقاء . الجلال ، والجمال وشموخ الجسد وانطلاق الروح . ولكن آمنة تقف بجمالها وشموخها وانطلاقها عند حد . حينما يتقدم للزواج منها هزيم ، ذو الأصل المتدنى ، فيدور

حديث حول قبول اسرتها له ، رغم التفاوت فى المركز الاجتماعى ، تسأل نجمة ، ام جريس صديقتها آمنة : لو خيرت بين هزيم ، وابن عمها ، الذى كان مقررا لها أن تتزوجه ، فأى الرجل تختار ؟ تبتسم آمنة ابتسامتها التى تدخل القلب بلا استئذان وتتنهد قائلة : انها لو خيرت لبقيت دون زواج .

ليس هذا شأن سلطانة . صبية وامرأة ناضجة كانت دائما مقتحمة ، لا تقف عند حد . تبذل جسدها لمن تنجذب اليهم وحدهم . وتعامل بالقسوة والازدراء من يقترب منها ، حتى ولو برضاها . حينما هاجمها الأولاد فى « الهريح » وهى بعد طفلة ، وحاول واحد منهم ان ينالها ، الحقت المهانة به ، وعاملته ببذاءة كاملة ، ثم رأت الخورى صليبا قادما ، يريد ان ينقذها من شر مستطير . تحكى له ما جرى ، ثم لا تلبث ان تقول : هؤلاء كانوا أولاداً صغارا . اما أنا فأريد رجلا مثلك . ومن ثم تقوم بين الاثنين علاقة جنسية فاقعة ومتصلة .

ادركت سلطانة ان لها قدرة فائقة على اخضاع الناس لارادتها . صليبا ، ورجل اسمه مسعد ، وبشارة الذى تزوجته ، وحكمت الذى انشأت معه علاقة . لم تدرك ، وان ادركت لم تكترث ان للمجتمع قوانين . ولهذا كانت اكثر حرية وجرأة من باقى النساء . كانت تطيع حريتها الداخلية . لاتخاف أحدا . حاول مسعد ان يكون رجلها المخيف ، وسرعان ما ادرك استحالة ذلك . نجا بشارة من الاستعباد لأنه قنع بأن يكون زوجا فى الشكل فقط . لم يعرف جسد إمرأته الا مرات معدودة . لم تسمح له أن يكون أبا لأبنائها . جعلت صليبا أبا لإبنتها أميرة وأبا لطفلها الثالث . أما الرابع فقد كان ابناً لصديقها حكمت . الابن الثانى جاء نتيجة غلطة . تنبهت سلطانة الى وسامة هزيم ، فأحبته أباً . غلّقت عليه الأبواب وقالت : هيت لك ! عجز حتى عن خلع ملابسه ، فخلعتها له . ولما انتهت منه ، رفست عجيزته وقالت : إلبس هدومك ، ولا تجعلنى أرى وجهك مرة ثانية !

وحين ازمعت أن تتزوج بشارة ، قال لها صليبا : اهو فراق اذن ؟ دهشت سلطانة . قالت انها بعد الزواج ستوف توالى زيارته . سألها : لم ؟ قالت : تسأل لم ازورك ؟ لأتمتع معك !

هذه هى المرأة ذات الجمال ، والشموخ والبذل التى أحس نجريس أنها قد اختزلت النساء جميعا فى واحدة ، وأصبحت تحول بينه وبين الاقتراب من غيرها . لا وجه للمقارنة بينها وبين آمنة . ومع ذلك فجريس امام فتنتها وحضورها الطاغى ، مغمى العينين . تريه صديقة صباه سمحه صورا لسلطانة تبدو فيها امرأة عادية ، ليس فيها ما يثير ، فلا يجعله هذا يتوقف ، وانما يقول ببساطة : سلطانة حضور ، اذا غاب غابت . لا يمكن وصفها سواء بالكلام أو بالصور ، أو حتى بالسينما . وحينما تغضب سمحة وتسأله : انت تحبها ؟ لا يرد . فتقول : سكوتك يدل

على أنه كان هناك شيء . شيء بينك وبين شرموطة !

لايراها جريس قط فى هذا الضوء . عندما أصبحت سلطانة فى الخمسين ، واشتغلت بتهريب الحشيش من العقبة الى اسرائيل ومن ثم الى مصر ، وتهريب الماس الى اسرائيل وضلعت فى التآمر على احمد المساعد النائب ، واخرجته من البرلمان ، وأخذت تدلى بأحاديث الى الصحف والمجلات ، وأصبح لها اسطول سيارات ، واعلنت عن أنها عازمة على أن تبعث الجوهر الثورى للماركسية ، لم يجد جريس فى هذا كله ما يسيء أو حتى يدفعه الى التفكر . كل ما أهمه ان يتفحص الصور التى نشرتها احدى المجلات ، مشفقا ان تكون لاتزال جميلة . لو ظل لها جمالها ، ما استطاع قط أن يتخلص من الندم على فقدانها . سوف يخالط الندم حياته مثلما يخالطها الخوف من الموت .

كان جريس قد عرض عليها ان يتزوجها فنصحته بأن يتم تعليمه . لم يشعر قط انه استطاع أن « يصل » اليها . ظلت علاقته بها وقائع مبتورة . لحظات فقيرة دراميا . لم يرها حقيقة لم يتمثل ما حولها بدقة . ومع ذلك فقد ظلت حتى نهاية الرواية تسكن روحه وقلبه وحياته لا تريد أن تغادرها ، حينما تعرف فى القاهرة الى عزة ، الفتاة المصرية ، رأى فيها على الفور ، سلطانة . كان هذا بعد سبع عشرة سنة من آخر لقاء مع سلطانة . رأى عزة وهى تشترك فى مظاهرة الطلبة فى ميدان التحرير ، فخفق قلبه بشدة . كان لها طلعة : العنق الشامخ ، الصدر البارز ، القامة الطويلة الممشوقة والوجه . استحالت على الفور الى سلطانة . وكان جريس يكتب رواية جعل عنوانها : « الخادمة » اسند بطولتها الى اميرة ! بنت سلطانة . قرأتها عزة ، فشاقتها من بين شخصياتها شخصية سلطانة . اعاد افتتان عزة سلطانة اليه وقرر ان يعيد كتابة الرواية وقالت عزة : سيكون عنوانها « سلطانة » . وقد كان . وحين رأت عزة صورة سلطانة فى المجلات وجدتها جميلة بالفعل . فأخذت تنكمش فجأة . الرقبة قصرت ونحلت ، وتحطم انسجام جسدها . كبر الثديان فجذباها الى تحت ، وأصبحت انثى مطواعة ، يجذبها الردفان الثقيلان والثديان . اما العنق فقد بدا يائسا فى محاولته الارتفاع ، نحيلا ، هشا . لقد فتكت صورة سلطانة بعزة فتكا شديدا ، مثلما فتكت بصديقها جريس .

تقول سمحه لصديقها جريس : « لما تتذكر الماضى ، ما تتذكر غير النسوان » . لا ينكر جريس انشغاله الدائم بالنساء . يذكر سمحه بأنه منذ حداثته كان يحب اللعب مع الفتيات فقط ، حتى سماه رفاقه فى اللعب : « ابو البنيات » . النساء يشكلن المحور الرئيسى لهذا العمل بجزئيه . هن اللاتى يربطن القرية بالمدينة .اليهن وحدهن ينصرف اعمق تفكير جريس . فى عمان يحمل ذكرياته مع نساء القرية اللاتى عرفهن : خضرا التى عجز عن التواصل معها . وآمنة

بالطبع ، وسلطانة وابنتها أميرة . ونجمة امه ، التى يراها فى واحد من أحلام يقظته ، فيحولها الى ارستوقراطية جميلة ، تركت اباه التى أصبح فقيرا ، وحزينا جدا لفقدان زوجته . امه الارستوقراطية تزوجت رجلا آخر ، وأصبحت تتعذب بسبب ابنها ، لأن والده منعها من رؤية ابنها . ترى الأم الارستوقراطية ان كل متع الحياة : الثروة والمركز الاجتماعى ، والأولاد والبنات ، لا تساوى شيئا مقابل أن تراه . ويمضى جريس فى حلمه فإذا امه تتحول الى امرأة أخرى . تصبح انسانة رقيقة تضحى بكل شيء من أجل أن تتزوجه . زوجها القاسى وأهلها يمنعونها من رؤيته . تهرب مع جريس من باريس — ويعيشان فى قرية أوروبية صغيرة .

وتتحول آمنة هى الأخرى . تقول له سمحة ان آمنة امها كانت مليئة بالحب . ولم تحب فى حياتها قط غير جريس وسمحة . لم تحب اباها ولا هزيم الذى تقدم لخطبتها وفشلت خطبته . الأسطورة التى تخلقت حولها حجبت عنها الحياة والناس . كانت بحاجة الى حب حقيقى ولكن الأب وهزيم احبا اسطورتها ولم يحباها هى . أصبحت آمنة وحيدة . يقول جريس : أنا أحببتها قبل الأسطورة . فتقول له : انت تعانى من عقدة أوديب . يدفع جريس بأنه احبها ، ليس لكونها أمه ، بل لأنها أجمل امرأة فى الكون . ترد سمحة : اجمل امرأة فى الكون لأنها أمك .

وتقوم المرأة فى الرواية بدور رئيسى هو سياسى فى أساسه . حينما ينتقل جريس من قريته الى عمان ، ويتعرف الى الفكر الماركسى والحزب الشيوعى ، ينفتح امامه عالم سحرى اخاذ ، يدلف اليه ، ولكن سرعان ما يخيب أمله فيه . اذ ذاك يلجأ الى عالم المرأة — عالم سلطانة . فاذا ما خذلته سلطانة : تركته فى عمان وسافرت الى العقبة لتقوم بنشاطها المشبوه ، استعاد عالم الشيوعيين السرى اغراءه ، فعاد اليه جريس وهو سعيد . يظل جريس يتردد بين عالم الشيوعيين وعالم سلطانة ، حتى توحد سلطانة نفسها بين العالمين بزعمها انها مفكرة ماركسية ، سوف تستخدم مالها المشبوه فى بعث الجوهر الثورى للماركسية ، تصنف نفسها على أنها بورجوازية وطنية وتطلب الى محدثتها سمحة ان ترجع الى كتاب لينين : الدولة والثورة اذ ذاك يصيب الماركسية قدر غير قليل من سوء السمعة والفساد اللذين يلطخان سلطانة فى نهاية الرواية . فهل قصد غالب هلسا الى هذا ؟ هل هدف الى هجاء الماركسية والحزب الشيوعى ، وهو يدفع بسلطانة الى المصير القاتم والمأسوى الذى تنتهى اليه ؟ يبدو انه قد اراد هذا فعلا ، فان عرضه لبعض الشخصيات الماركسية فى الرواية ، لا يدفع الى احترام الفكر الماركسى والمعتنقين له . الرفيق نضال ، المتعالى ، المستبد برأيه ، الذى ينكمش بازائه باقى الرفاق يكشف عن ببغائية ورغبة فى التسلط ، وشره فى الأكل واستغلال للرفاق واستخفاف بنشاطهم السياسى والأدبى ، لاتدعو جميعا الى احترامه ولا احترام الفكر الذى يزعم انه يمثله .

وطعمة ، الرفيق الذى وصموه بالمروق ، والاتصال بالأجهزة ، يظهر فى الرواية مراهقا يطارد أميرة — التى كانت تعمل خادمة — ويسلمها الى أحضان النائب أحمد ، الذى يهتك عرضها ، بينما طعمة يتلمظ شهوة اليها . ثم تستغل واقعة هتك العرض هذه استغلالا سياسيا لطرد النائب ، بمؤامرة تشترك فيها سلطانة .

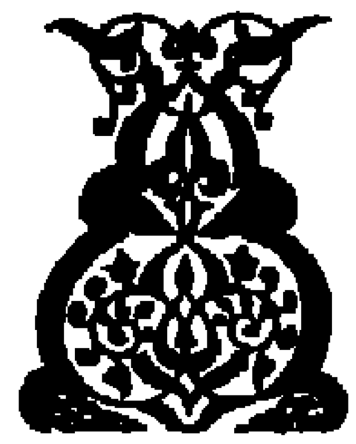
وتتعقد امور أميرة من بعد . تفتح شقتها للبغاء ، تبيع فيها نفسها لكل من يدفع . فيأتى طعمة ، الرفيق المارق ! ، ويذكرها بأنه صاحب الفضل فيما تتمرغ فيه الآن من نعيم . ثم يقوم بينها وبين امها صراع على العشاق ، تريد أميرة ان تخطف لنفسها واحدا من اصدقاء امها . اصبحت البنت عقابا حقيقيا من الرب ينتقم لضحايا سلطانة الكثيرين .

الغريب بعد هذا ان يظل جريس واقعا فى اسار سلطانة ، حتى بعد ان ينفجر فى داخله صوت يهتف به : « عالم الطفولة . الأردن التى تحلم بها لم تعد موجودة حتى حين كنت فيها . سلطانة ليست آمنة ، ولكنها متعاملة مع اسرائيل ، ومهربة حشيش . حتى جسدها الحر ، امتهنه الشيخ الذى تزوجته والذى قتل حكمت صديقها واستباحها هى . وحتى الاعتداد والثقة التى تكلمت بهما سلطانة ذات يوم حين قالت ان صديقها مسعد هو تحت قدميها ، يبدو أنهما كانا وهما لا أساس له .

ان كان غالب هلسا قد هدف الى هجاء الماركسية ، فهو قد اتجه فى الوقت ذاته الى تحطيم الصنم الذى عبده — سلطانة — والى تحطيم نفسه حين ظل يربطها بامرأة تحمل بين طيات جسدها العامر كل هذا القدر من الفساد . وهو أيضا قد اساء الى آمنة . الصنم الجميل الذى لم يمسسه السوء أبدا ، بربطها فى خياله بسلطانة ، وانتقاله من حبها إلى حب سلطانة الداعرة الفاجرة . شيء انتحارى ، يدعو غالب هلسا الى تلويث العالم الجميل الذى جهد فى تخيله فى وعيه وفى أحلام يقظته . وكأنما هو يقول : عبث من العبث أن تظل الأحلام بريئة ، والجمال طاهرا ، والتطلع حراً من غباء البشر وضيق الفكر الانسانى .

براري الحمّى

إبراهيم نصر الله



قال الأستاذ محمد حماد لصديقه محمد حماد : يلزمنا روح طليقة . يلزمنا ان نكون موجودين فعلا فى الأماكن التى نسكنها . ونحن هنا غير موجودين ، فى أماكن ليست موجودة على الاطلاق . قال محمد حماد لصديقه الأستاذ محمد حماد : انني بدأت التعود — انني فى طريقي لأن آلف الأشياء التي تحيط بي هنا . اذ ذاك بدأت المسافة التي تفصل بينهما تكبر . الأستاذ محمد طيب مثل محمد ، ولكنّ : ثمة طائر كان يحلق فى داخله استعصى على الترويض . كان جسد محمد يأنس الوحشة ، وكانت روح الأستاذ محمد تأنس طائرها اكثر واكثر .

ذات ليلة اختفى الأستاذ محمد . استيقظ محمد ذات صباح فلم يجده فى الغرفة التى ينامان فيها . حقيبته استقرت فى منتصف سريره ، أما السرير فكان خاليا . فى الحقيبة كانت ملابسه موجودة لاتزال . وأوراقه المالية : بلغت ألف ريال . قال محمد : لعلهم اختطفوه . أو لعله قتل . كان اناس لم يعرفهم . خمسة كانوا ، بلا ملامح ، قد احاطوا بمحمد وقالوا له انه قد مات ، وأن عليه أن يدفع مائة ريال مساهمة منه فى نفقات دفنة ، انكر محمد انه قد مات . قال لهم ان قلبه مازال ينبض فردوا بأن هذا لا يعنى انه حي . واقسموا يمينا غليظة انه مات بعد الغروب تماما . انصرفوا ولم يحصلوا على المائة ريال ، وهددوا بأنهم سيواصلون جمع التبرعات لدفنه . ايكون هؤلاء الرجال قد اختطفوا الأستاذ محمد ، أو قتلوه ؟ سرّه وهو يفتش الحقيبة ان الألف ريال لاتزال موجودة . لم تنطل الحيلة عليهم اذن . لم يدفع الأستاذ محمد المائة ريال . أين ذهب اذن ؟ فى محضر الشرطة سألوه : ما اسم المختفي ؟ قال : محمد حماد . سألوا : وما اسمك انت ؟ قال محمد حماد . سألوه كيف تحملان الاسم نفسه ؟ قال : مجرد مصادفة يا سيدى . قال الضابط : عد الى البيت . فلربما تجد رفيقك بانتظارك .

كان محمد يعترف انه يشبه الأستاذ محمد . كان يثير دهشته ان كثيرا من الحوادث التى مرت به ومر الأستاذ محمد بها كانت قريبة منه . حتى ليكاد يقول ، انه قد عاش فعلا هذه الحوادث . ذات مرة قال للأستاذ محمد : قد افرطت يا استاذ محمد . ألم أقص عليك الحكاية التى تقصها علىَّ الآن ، يومها أقسم الأستاذ محمد انه لم يسمعها من محمد . غير ان محمد كان واثقا ان الحكاية حدثت له وليس لصديقه .

اخذت الشرطة تطارد محمد ، متهمة اياه بأنه قتل صديقه . ثم كفت الشرطة عن الاهتمام . لعلهم لا يتذكرون الآن أية حادثة اختفاء . لعلهم نسوا أنهم أمروا بمطاردته حتى باب غرفته . أو لعلهم وجدوا الأستاذ محمد . وهذا أسوأ ما يمكن ان يحدث . ان محمد لا يحب الجنود ولا الشرطة .

نظر محمد فى المرآة وسأل وجهه المنعكس فيها : هل رأيت الأستاذ محمد ؟ ورد الوجه : الأستاذ محمد من ؟ قال محمد : الأستاذ محمد هو الأستاذ محمد . الذى اختفى . قال الوجه : لم اسمع بذلك .

محمد والأستاذ محمد هما وجهان لرجل واحد . فى اللقاء الأول للوجهين على بساط الصحراء اللاهب ، لم يستطيعا التوحد . عبثا حاولا ان يطيرا معا على البساط . طار أحدهما فقط . قال محمد انه يسعده كثيرا أن يستطيع الأستاذ محمد الإفلات من هذه الدوامة . يسعده اكثر ان يعود . يحزنه اكثر ان يعود . هل يستطيع اليوم ان يعيش دون روحه المحلقه ؟

أكتشف محمد ان هناك من يشبه الأستاذ محمد اكثر منه . تلك كانت فاطمة ، عرفها على انها ابنة ابو محمد . اما فاطمة التى اخترقت الظهيرة كسهم نافذ فكانت المرأة أخرى . امرأة بعباءة سوداء ، انطلقت وسط الصحراء ، يطوقها الرمل والوحشة . كانت بينه وبين فاطمة ابنة ابو محمد علاقة هلامية نبتت فى حلم . اخذ يصرخ وهو يتابعها : يا فاطمة . ولكنها لم تلتفت . هزها من كتفها حتى سقطت عنها العباءة . حدقت فى وجهه . غالبت ملايين الدموع فى عينيها ، ولكن دمعة واحدة سقطت ، فهوت الكرة الأرضية بمن عليها . نشأت لحظة واحدة خَلقت بينهما عمرا طويلا ، دخلت غيابا لا يملك الحضور .

جاءه الأستاذ محمد مرة وكان فرحا . قال : انه لم يحدث فاطمة بشيء ، ولكنه أحس انها توافقه ، وهو أيضا يوافقها . وهذا ما يحدث له لأول مرة . قال ان أبا محمد ادخله ـــ وهو العازب ـــ الى بيته ، ولم يجرؤ احد على أن يفعل هذا من قبل . كان فى حاجة الى غصن يسنده ، أو اطار يضمه ويحميه من التبعثر . وكان يمكن ان يكون محمد هو هذا الغصن ، او ان يكونه ابو محمد . جاءت فاطمة ، بالشاى وفى لحظات قليلة تكسرت الوحشة ، ونمت زهور الألفة . نظر

الأستاذ محمد الى وجهها وصرخ : هذه انا ! تساءل الأستاذ محمد : هل تستطيع فاطمة ان تخرجنى من هذه البئر المظلمة ــ هذا القفص ؟ وتساءلت هى : هل يستطيع هذا الغريب انه يخرجنى من هنا ؟ كانا طائرين فى قفص يبحثان عن الحرية . كل فى الآخر .

قال محمد لفاطمة . تعبت يا فاطمة . ولم اكن ذلك الطائر الذى يغنى اغنية حين يختار الموت . كنت انشدها دائما للحياة . قالت فاطمة : كأنك الحلم . لا . لا . كأنك الواقع . كأنك مثلهم . قال محمد كيف ؟ قالت : لم أعد احتمل خشونة الأيدى ولا نعومتها . بين القنفذ والأفعى يُعتصر جسدى . كل ما فى يدى من مال يستعبدنى . وقد قرأت ذات يوم أن المال يحررنى يا محمد .

اشرعت فاطمة باب غرفتها الخشبى وحجارة العتبة وانتظرت . تلك التى لم تعتد الصبر انتظرت . ثم ما لبثت ان كسرت الحذر وسألت : يا أبى . لم يعد الأستاذ محمد يزورنا . تجمعت فاطمة فى ركن الغرفة المظلم ، بعيدا عن رعشة الضوء الشاحب . ادارت عينيها . فجأة انتصبت واقفة . حاولت ان تصل الى النافذة . النوافذ عالية هنا دائما . كنوافذ السجون . مدت عنقها ، أوشك رأسها ان يغادر كتفيها .

قال الأستاذ محمد : منذ ان خطوت فوق أرض جده ، ادركت كل شيء . لا مكان هنا للحلم . لا مكان هنا للواقع . لا مكان لغير الحمى . والحمى تحصد الروح . تسكن الشجرة المتيبسة . وحقول الذرة . تسكن الماء والهواء . والحمى هنا هى الغياب . فى الليلة التالية ، حين امتد غيابه ليلتقى بغيابها ، تسللت بشعرها الأسود الذى لا يطلق خيوله الا فى الليل ، تسللت بقسماتها الواهنة ، وبشفتها الراجفة ، وبثوب نومها الأبيض ، حتى وصلت الى الباب . لم تعد تحتمل اكثر من هذا .

ووراءها انطلقت الصرخات : أركضى يا فاطمة . توقفى يا فاطمة . وبين السوق وبيت الأمير عبرت . سألت : اين ثريبان ؟ قالوا فى الجنوب . قالت ولكنه أتى من هنا . قالوا : فى الشرق . فى الغرب . فى الشمال . اوشكت ان تركض فى الاتجاه المعاكس عائدة . مئات من الكشافات اختلطت بأعين الذئاب والثعالب . مئات الذئاب . مئات البشر . ادركتها العيون الضوئية وكانت تجلس وبيديها تحفر جدار العتمة الذى يسد طريقها . وحولها كانت الوجوه تظهر وتختفى كالدوامات : وجه ابيها . وجه جابر رئيس الشرطة . وجه ابى عبد الرحمن ، ووجوه فراشى مدرسة الأولاد ، ووجه فراشة مدرسة البنات وكلهم يحدقون بصمت . اعادوها امام بوابة الفجر ، بثوب أبيض ، لم يكن رايتها ولم يكن روحها .

فى اليوم التالى لم يفتح الباب طوال النهار . فاطمة زحفت بعيدا عن الحائط . فجأة اصطدمت بجسد . صرخت . كما لو كانت فوجئت بأن احد الأحياء يشاركها هذه الغرفة ـــ هذا القبر من زمن بعيد دون علمها . فى الطرف الآخر من الليل كان الجسد يبتعد ، عائدا الى ركنه . لا لم يكن هو . بل انه هو . منذ ان هز كتفيها فانزلقت العباءة والدمعة لعل الحمى اكلته فلم يعد هو . لعلهم اعادوه بأيديهم القاسية ، بعد ان استعانوا بالذئاب فى ملاحقته .

سألت فاطمة أباها : حتى متى ، ياأبى ؟ حتى متى ترحل ؟ حتى متى تتكسر ؟ حتى متى تفر من خطواتك المدن ؟ حتى متى تعيش موتك حيا ؟ حتى متى ؟

كان قد اعترف لها : عبثا حاولت أن أجعل من هذا الرمل أرضا . هبت الرياح الساخنة فأحرقت الخضرة ، وتبعثر النوار . هى غارة الريح الأزلية يا فاطمة . التى لا تمكن هذا البر من أن يجمع زهرة واحدة طوال مئات السنين . هى غارة الريح . لم تقهرنى الريح . لم يقهرنى الظمأ فى أى يوم مضى . سأعود وأبدا من جديد .

كانت ظهيرة اليوم التالى اكثر التصاقا بالاختناق . كان ابو محمد يقطع الطريق الى دار الامارة . هنا ينتهى العالم . هنا يبدأ . لن يواصل هذا الركض . كل شىء سينتهى اليوم يا فاطمة ونعود . كل شىء سينتهى اليوم . اندفعت اسئلة فاطمة اكثر حدة : حتى متى يا أبى ؟ ثم تراجعت الأسئلة وازدحمت فى جمجمة فاطمة . لم تعد الجمجمة تتسع . انفجرت فاطمة انفجارها الكبير ، فليسمعوه . تناثر البيت . الجدران . السقف . يداها . اصابعها جمجمتها الكستنائية . سنواتها الاثنتان والعشرون . كل شىء ارتفع فى الهواء . ثم هبط ببطء فى اتجاه الأرض . كان الناس يسيرون كأن شيئا لم يحدث ، واجزاء فاطمة كل منها يأخذ مكانه فوق الحجارة والرمال الملتهبة . انفجرت فاطمة وكأنها كانت محشوة بالديناميت . اما ابو محمد ، فقد كان يغادر دار الامارة صارخا : ما ان يصبح جواز السفر فى يدى حتى أغادر هذا الرمل . ولكنه كان قد تأخر .

كان محمد يبحث عن واقع يوصل الأرض بقدميه ، أو يوصل الكابوس بشىء يشبه الحلم . حين اختفى الأستاذ محمد وبعثر محمد ثيابه باحثا عن الألف ريال ، اكتشف ان الثياب تلائمه . ارتداها . قال : كان يمكن أن نكون شخصا واحدا مادامت كل هذه الأشياء تجمعنا . دائما يرتعد حين يسأل : ماذا لو أنه كان الأستاذ محمد فعلا ؟ نادى : يا فاطمة . وكم كان يود أن تجيب . وحدها تعرف الاجابة . وحدها تعرف مأزق الأسئلة .

ذات صباح أو لعله كان الظهيرة ، أو ربما فى المساء ، توقف على بابها ، وبيد مرتعشة ، ضغط على اصابعها ، فانفتحت نافذة للنور فى قلبه . لم يكن بحاجة الى اكثر من هذا . الى

جناح يطير به . وفجأة تفجر كل شيء . الأصابع . ينابيع الجسد المالحة ، وسيول الجمر . هل كان الأستاذ محمد هنا فعلا فى هذه الغرفة بين الرمل والسقف الترابى ؟ لقد قاسمه كل ما فى يده ، وقاسمه روحه . اتراه ابتعد اكثر مما يرى ، أم انه يصرخ الآن بصوت اضاع حنجرته ؟

هل كان مجنونا الى هذا الحد ، فلم يعد جابر رئيس الشرطة يوليه اهتماما ؟ تشبث بالغطاء واخذ الصوت المألوف يقترب . هل مازال يتجرع كأس الحمى ؟ الصوت يعلو ، والأرض لا تنشق ، ولا السقف أيضا يتراجع صدى الصوت ويصحو على انفجارات اكثر حدة ، تزلزل الباب وجدران الليل وهدأة الخفافيش . لا منفذ . الخمسة يقرعون الباب . ما ان اضاء الكشاف وجه احدهم حتى اندفع اليه يعانقه قائلا : عدت أخيرا . كنت اعرف انك ستعود . خلص الرجل جسده من ذراعيه وقال : من الذى سيعود ايها المجنون ؟ قال : انت . انت الأستاذ محمد . قال : الأستاذ محمد لا وجود له ، لايوجد غيرك هنا . اندفع الى رجل آخر : هذا انت . انت الأستاذ محمد . قال : لا . انت فقط الأستاذ محمد . نظر اليهم وظن انهم مرايا لا رجال . اكتشف انهم هو . الشعر . لون العينين ، الطول ، النظرات المتعبة .

قالوا بصوت واحد : اعددنا كل شيء . النقود . التابوت ولم يبق الا جثتك . عبثا قال لهم : ولكننى لم أمت . ركضوا خلفه : خمسة ظلال سوداء لجسده المشتعل بطعنات الحمى . ثم تعثر بشيء ما يشبهه : خصلة من الشعر . جديلة كاملة . يد . رأى ابومحمد هزه وقال : أين فاطمة ؟ اشار الرجل الى الأرض . اتضح الموت فجأة امامه . كان الخمسة لايزالون يركضون . قال هذه ليست « سبت شمران » . هذه غابة المرايا . هل المدرسون يخترقون الطرقات ، ام هو وحده يخترقها فى هذه الساعة الميتة ؟ أمسك بأحدهم وقال : ها انت أخيرا . ها انت تعود . ابعد المدرس يده عن كتفه ومضى . وقال آخر : هل جننت يا أستاذ محمد ؟ من الذى عاد وقال محمد : من الذى عاد ؟ انت . أنا . ومضى الرجل فصرخ محمد : كلكم غائبون ، كلكم غائبون . امسك بيد ابو محمد وصرخ ، امضى الى القنفذة ، انتزع جوازك وارحل . قال ابومحمد : نذهب معا . رد محمد : سيقولون : قبل ان ينتهى العام لن تستطيع . اخذ يركض هو وأبومحمد . للحظة ، التفت خلفه . كان الخمسة يعودون باتجاه ثريبان ، يحملون بين ايديهم أحد المدرسين . كان يشبهه تماما ، حتى انه لم يتبين ان كان هو فعلا ، أم واحدا آخر ، أم واحدا منهم .

برغم الغموض المتفاوت الكثافة الذى يلف الرواية من البداية حتى نهايتها ، فان رسالتها تصل الينا واضحة . فى أرض كهذه الأرض لا مكان للحلم . لا مكان للواقع . لا مكان لغير الحمى . الحمى تحصد الشجرة اليابسة وحقول الذرة ، وتسكن الهواء والماء ، وهى تعنى الغياب ، لا مكان

هنا لأن يستمع محمد ـــ الأستاذ محمد لنداء روحه التى ترفرف طالبة الحرية ، دون ان يدفع ثمن هذه الاستجابة غيابا متصلا ، يوشك ان يكون الموت . لا منفذ هنا من العقم . فليحرث ابو محمد الرمل وليحاول زرعه ، فسوف تهب الريح الساخنة ، فتحرق الخضرة ويتعثر النوار . طوال مئات السنين لم تنبت الأرض زهرة واحدة .

تتساءل فاطمة وتلح فى السؤال : الى متى يا أبى ؟ فلن يدركها الأب الا جثة ممزقة الى أشلاء . فلتَرنُ فاطمة الى التحرر من سطوة المال ، ولتتق الى الحب المحرر للروح ، فان الانفجار يلازمها منذ ان قدمت الشاى للأستاذ محمد . طرقت صينية الشاى ، فتناثر الزجاج حادا لامعا . من الصعب ان تجمعه من بين الرمال . جثت على الأرض وبأصابعها الرقيقة التى غرقت فى الدماء بدأت تلملم حطامها . لم تكن تستطيع ان تجمع اشلاءها هى ، هى انفجر الديناميت الذى ملأ جمجمتها فطوح بجسمها اجزاء صغيرة فى كل مكان . لقد جرأت على ان تحب ، ومالت الى أن يخرجها من تحب من القفص الذى تضطرب فيه روحها المتوثبة .

ليحاول محمد ان يهفو الى الحرية ، ان يقطع الخيوط التى ربطته فى الأرض ، بعد أن أَلِفَ الأشياء والمكان ، فليس فى مقدوره أن يوقف الطائر الذى يسكن روحه عن أن يخفق بجناحيه على أسلاك القفص التى تحبسه بعيدا عن الحرية . ليسع الى شطر روحه شطرين ، ليجهد فى أن يرى نفسه فى واحد تلو الآخر من الرجال ، فلن يبصر آخر الأمر الا نفسه ، فى المرايا أو فى عيون الناس . ولن يكون من نصيبه آخر الأمر الا أن تضيع هويته هو .

من بين فروج فى الغلالة الشعرية معظم الوقت ، والرمزية فى مواضع ، يطل عالم الواقع القبيح على جماعة الحالمين والتواقين الى الحرية . يطل المدرس احمد لطفى ، الذى يستغل المحتاجين للسكنى اقبح استغلال ، والذى يحاول أن يسطو على عرض « علية » ، فيقتحم عليها العشة ويرقد فى فراشها ، وهو العِنين الذى لا يملك شيئا والذى ترك عروسه عذراء وأصبح هزأة بين الناس . فلما يفتضح امره ، تُتّهم علية ، وتوشك القرية ان تقيم عليها الحد . اما احمد لطفى فيحميه جابر رئيس الشرطة . كما يحمى سوء استغلاله لساكنيه .

ويطل وجه الشيخ « حجر » الذى نجح فى أن يؤجر غرفة من القش لمديرية التعليم لاستخدامها مدرسة ، رغم وجود مبان اكثر ملاءمة للغرض ، وذلك بأن ذبح خروفين لمدير التعليم ، ودعا العمة صالحة وابنتها سالمة الى بيته للسهر فى بيته حتى أواخر الليل . وحرص على ان تكون معها ابنتها الجميلة سالمة .

وتطل ابنة سعد ، تمارس غوايتها على الحجر والبشر فى البقالة الحجرية التى يملكها ابوها ، والتى تقع خلف باب ضيق معتم دائما . كانت فاكهتها عالية دائما ، لها خصر مشتعل

بالشهوة ، قريبة وبعيدة ، لا تستطيع يد لمسها كأنها الحلم وكأنها الكابوس . الأستاذ وليد وحده ذاق ثمرتها ، ولكنه مل ، فمن يستطيع ان يبقى فى هذا المكان القفر اكثر من سبع سنوات من أجل ابنه سعد ؟ غادر الأستاذ وليد ، فركضت ابنة سعد وراءه ، ولكنه اختفى الى الأبد . غادر جسده وانطلق فى البر ولم يعثر عليه أحد .

قالت اسطورة ان ابنة سعد شاخت ذلك العام . وأصبحت عجوزا متصلبة ولكن صوتها لم يشخ . كانت تنادى دائما على حبيبها وليد . غير ان الايطاليين الذين كانوا يعملون فى شق طريق فى مكان مجاور يكذبون الأسطورة ، على باب البقالة جاء صوتها ناعما ، عاريا حد الفضيحة . قال بلوتو ـــ أحد الايطاليين ـــ هذا الصوت لا يكون الا لامرأة حقيقية . كاملة . ممتلئة بالأنوثة . ورحيق العناق .

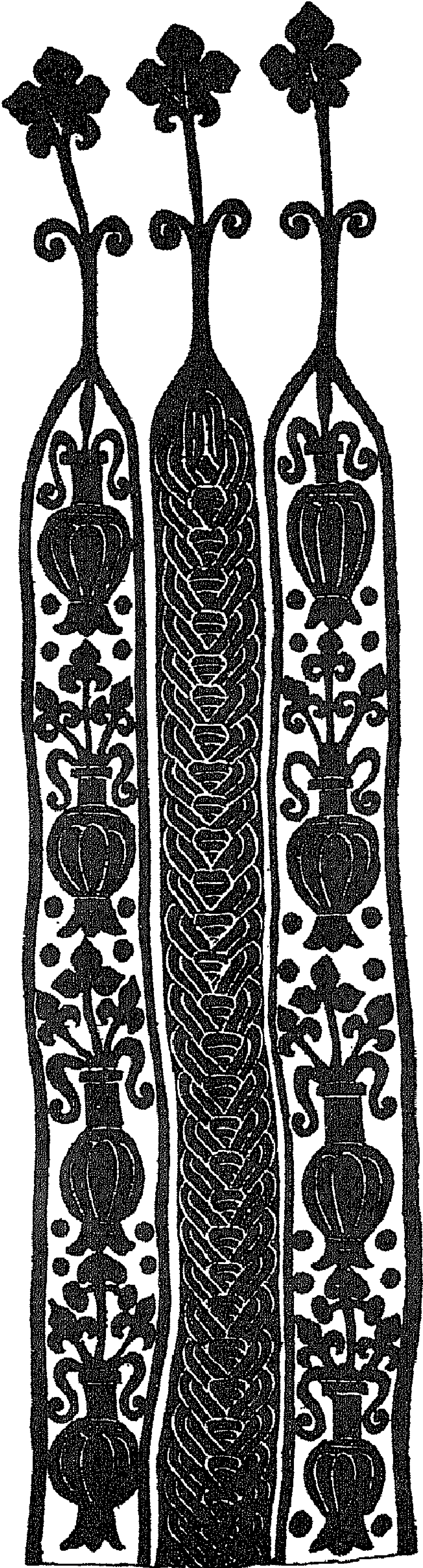
الى جانب الغلالة الشعرية ذات الفروج ، يستخدم ابراهيم نصر الله لونا من ألوان الرمزية ليؤكد جو العقم الذى يلف المكان . دجاجتا محمد والأستاذ محمد لا تبيضان لديهما بديك أو من غير ديك ، فلما تنتقلان الى بيت العمة جوادة تأخذان فى وضع البيض . اشارة على السطح الى عقم العلاقة التى تربط محمد الى الأستاذ محمد .

وحين ينفتح للنور نافذة فى قلب محمد ، وينبت له جناح يستطيع به ان يطير ، ينفجر جسد فاطمة ويترامى شظايا . فى الوقت ذاته ، يصوب سالم الشمرانى بندقيته الى طائرين بأعلى شجرة حيث بلبل وانثاه يتناجيان . تنفجر رصاصة فتسقط انثى البلبل من أعلى الشجرة . تحولت مناجاة البلبلين الى اجنحة تلطم الفضاء بقوة . واليف مفجوع يرتفع ويهبط دون توقف . يهتف محمد بالشمرانى : صوب يا سالم ، وأياك أن تخطىء ، لأن هذا البلبل سيطاردك طول العمر رصاصة أخرى ويسقط البلبل داميا . ولكن الشمرانى لا يجرؤ على التقاط الجثتين .

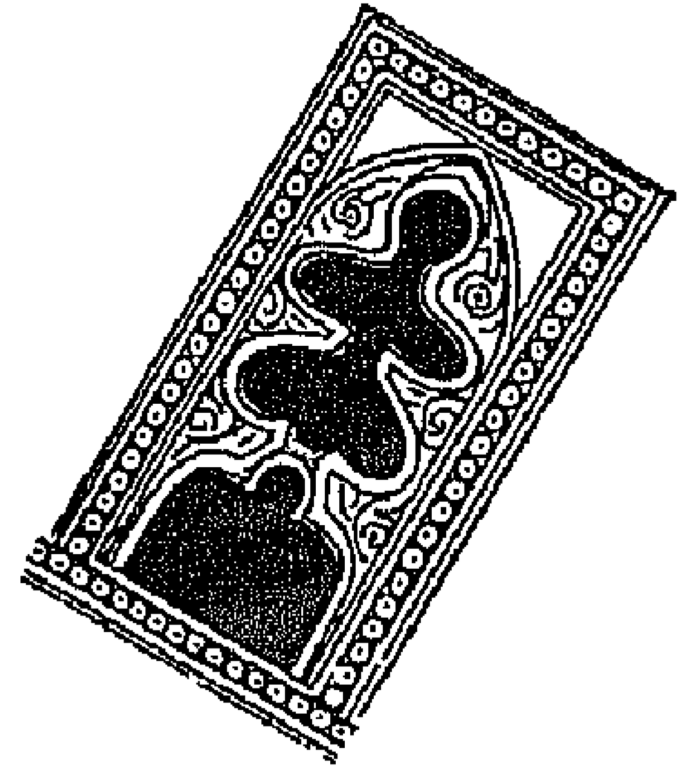
اما محمد الذى أصابته « رصاصة » حولت فاطمة الى شظايا ، فلم يكن يملك اجنحة تصفع الفضاء ، ولا انشودة فيها من الحياة اكثر مما فيها من موت « اليفه » فى طريق آخر ، ليس له آخر ، يمضى غامضا حين يمسك به ، واضحا حينما يبتعد عنه خطوة أو خطوتين . وتنتهى حكاية محمد وليفه حين يصفه الواقع وكلام الناس قائلين انت محمد وانت الأستاذ محمد . وحين يمضى الخمسة بأحد المدرسين يكاد يوقن بأنهم يمضون به . انه مدرس بعينه ، وهو كل المدرسين ، وهو أيضا واحد من اولئك الذين يطوقون الحلم وينشبون اظافر الواقع المفترسة فى الأرواح .

ينساب الشعر فى الرواية كالجدول الرقراق ، ويلتحم بلغة الحكى والحوار التحاما لينا ، ورشيقا ، محدثا اندماجا عضويا بين فن الرواية وفن الشعر . ودائما كنت أقول انه فى زماننا

القاسى هذا ، لا يجد الشعر ملاذا له من بين الفنون الأكثر صخبا والأخرى الأطول باعا . وكنت اقول ان على الشعر ان يتحسس طريقه الى الرواية ، ويقيم هنا ، مندمجا ومنفصلا فى آن . وهاهو ذا ابراهيم نصر الله يحقق هذا المطلب تحقيقا جميلا وممتعا ، فيضفى على روايته افاقا آخاذة تأخذ من الشعر سحره وعذوبته وتسمح للواقع بأن يطل بين الحين والحين ليذكرنا أن هذا الجمال الأخاذ ــ الشعر والسحر والحلم ــ مهدد دائما بواقع قبيح .



المشرق العربي

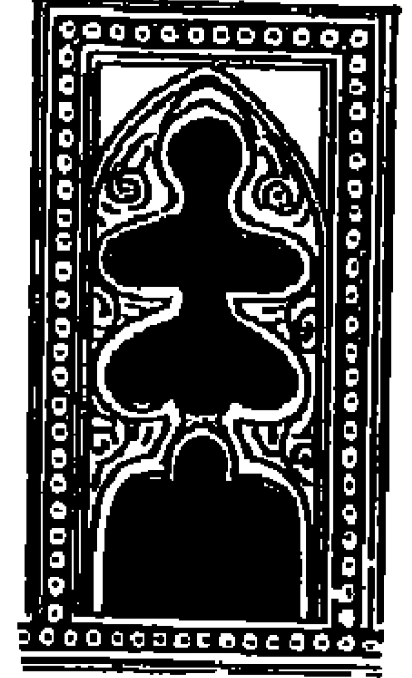




الرواية في سوريا ولبنان

الشمس في يوم غائم

حنا مينه



قال الخياط للفتى : « افهمك . انت زهرة فى حقل من الشوك » . وردد العبارة ثلاث مرات . ادرك الفتى من تقطيبة وجه الخياط المفاجئة ، انه يحمل حقدا مريرا على هذا الشوك .

الفتى يكـره رتابة الحياة فى بيته المترف . يكره صورة جده المعلقة فوق الجدار ، ويكره حديث خطيب اخته ، ورقصة التانجو الحالمة التى يرقصها رواد الكازينو من الأغنياء ، عُمُد الاستعمار واسناده ، وتلامذته ونتاجه . يشعر انه غيمة تبحث عن ريح تحملها بعيدا . يناجى الشمس الغائبة وراء الغيوم : « يا شمسنا الموعودة ، متى تشرقين ؟ وهذا الغيم ، وهذا الضباب ، رمل الصحراء الذى ارتفع مع اعصار الزمن ، متى يغسله المطر ؟ متى تحدث العاصفة ويغسلنا المطر ؟ » .

علمه الخياط رقصة الخنجر . ووجد الفتى فيها حرارة الحياة ولهبها . فتحت أمامه بابا يخرج منه من حيرته . قال له الخياط : « رقصة الخنجر لا نوته لها ، مثل ريح العاصفة . وأنا أحب الريح ، وأكره الهواء المكيف . هواء المراوح » . غير أنه نصحه بأن يستوثق اولا من انه قادر على مواجهة العاصفة . الاقتناع والرغبة وحدهما لايكفيان ، الرغبة اذ تتحول الى عمل تلقى مقاومة . وليس كل الناس يقوى على مواجهة الصعاب : « اذا كنت واحدا من الضعفاء ، فارجع الى أهلك وتعلم الموسيقى على النوتة » . غير أن الفتى لا يعود الى أهله أبدا . بينه وبينهم قلعة الظلم التى يسمونها قصرا . كم تمنى الفتى ان تهدم هذه القلعة وتبنى مكانها دار جديدة . ولكن السؤال كان يبادره فورا : من يستطيع هدمها ؟ فى الأرياف والأفلام والأحلام كانت الأكواخ الريفية تلهب خياله ـ أما فى الواقع فقد اقتنع الفتى منذ حداثته ان بيتهم لا يهدم . لا يقوى أحد على هدمه .

يقول والد الفتى متفاخراً : ان بيته قلعة . قلعة بكل معنى الكلمة . هى قنصلية . فى مجدها الغابر ، أيام أبيه كان الباب العالى يحسب حسابها ، والسفن الحربية تقترب وتبتعد من الميناء باشارة منها . وكان الوالى يهتز لغضبها . والمتصرف يقبض راتبا منها . ومَنْ دخلها أمن شر مطاردة العسكر . كان المتصرف قرقوزا خيطه فى يد جد الفتى ، همه أن يجمع المال للوالى وكان هم الوالى ان يجمع المال للسلطان . وكان الجد يأمر وينهى وهو جالس فى هذا البيت .. آلا رحم الله ذلك الزمان !

كره الفتى حديث والده . وكره فرنسا على وجه الخصوص ، واحس بالمقت لكل القلاع التى تشبه بيته ، يخرج منها أربابها ليلعبوا البريدج ويرقصوا التانجو فى الكازينو ، لا يلتفتون الى الهياج الذى يسود المدينة ، ويظنون ان الوضع باق على حاله الى الأبد : ابوه سكرتير المستشار ، وصهره رئيس قلم ، والفلاحون من الصباح على الباب ، والفقراء بأسمائهم ، واحيائهم ، يثيرون القرف ، وحفيظة الأب ، وكره الصهر . والعائلة تنظر اليهم باحتقار ، وتعتبرهم نوعا من الحشرات ، يكفى ان ترتفع قدم لتسحق عشرات منها .

على هذا الوضع الجامد تهب عاصفة شديدة . كان الفتى قد سعى ، هربا من التحجر والظلم والاختناق ، الى رحاب الموسيقى ، لعله يجد فيها عالما جديدا . جزيرة نائية عن الجميع . ووجد طلبته فى الخياط وضابط الايقاع والمرأة ذات العينين السوداوين . علمه الخياط ان رقصة الخنجر ، هى فعل فوق كونها رقصة . قال وهو يعلمه : اعزف بقدمك . دق الأرض . اثقبها ! دعها تنتبه . ارقص اعنف واعنف . هذا لا يكفى . الكلبة نائمة وعلينا ان نوقظها .

استقر فى وعى الفتى ان الخياط ليس ساحرا سحره عن نفسه ، بل هو محرض . قال له : كن قائدا فى الرقص والعزف والقتال . ولكن كن مستعدا لدفع ثمن القيادة . أفْنَ فيها . فليتكلم قوسك ان كنت عازفا وقدماك ان كنت راقصا ، وزندك ان كنت مقاتلا . يرقص الفتى رقصة الخنجر « الغجرية » ، تحديا لتانجو المترفين ، وكل ما تمثله ويمثلونه من استعلاء على الناس ، واعتداد بما يملكون . استغرق الرقص الفتى وأذهله عن نفسه ، وجعله يتواجد بين الحضور والغياب . واذ هو يتهيأ ليشحذ الخنجر على الركبة ليسدده الى صدر العدو ، تبدت له العينان السوداوان والابتسامة الآسرة . كانت « المرأة » بين شهود الرقصة ، جاءت كطيف ، ووقفت كاللبوّة ، تتحداه وتغريه . قبل التحدى ، ولم ينتبه لحركاته فمزق الخنجر لحم ركبته ، تحت وطأة نظرتها الرهيبة المتوحشة ، والآسرة . انتزعت المرأة الخنجر من يده ونظرت اليه بلا خوف وقالت : « ماذا فَعلت ؟ » ثم تراجعت واختفت .

كانت المرأة فى وقت سابق قد اندست بين شهود الحفل الذى اقامه الخياط لتدريب الفتى

على الرقصة . اخذ الفتى يدق الأرض بقدمه ، وحين بدأ العزف ودوّى التصفيق رأى عينين فاتنتين امامه ، وثغر امرأة مبتسمة ابتسامة صافية كالشمس فى سماء زرقاء ، فاندفع الى الحلبة . رفع رأسه وواجه الابتسامة عن قرب وسمع بين التصفيق ، تصفيقة متميزة مموسقة ، تعزف لحنها الخاص ، ويقول لحنها : انى لك . لك . لك . حينذاك سقطت الجمرة المقدسة فى الأحشاء وغمره السرور لأن رسالته للمرأة قد وصلتها .

وكان الخياط قد روى له أنه قبل آلاف الأعوام وقع فتى فى غرام صورة فى معبد . كان يقدم نذرا ، ويحرق بخورا . تأمل الصورة وكأنه يعرفها . بدت له غير غريبة عنه . ولما عاد الى بيته حاول ان ينساها فلم يفلح فعاد الى المعبد وركع امام الصورة ، فما لبث ان سمع نغما خيل اليه انه يعرفه أيضا . وانه عاشه ورقص له . وكانت صاحبة الصورة فى الحشد المتعبد ، ترى رقصته وتبتسم له . فقام ورقص ، ثم رفع رأسه فرأى الصورة تتشكل وتتجسد امرأة لا حد لفتنتها ، فلما القى بنفسه عليها محاولا لمسها وتقبيلها لم يقع الا على حجر مرسوم عليه الصورة . لم يستطع الفتى من بعد ان يغادر المعبد ولا الصورة ، واصم اذنيه عن توسلات الناس ، فاتهموه بالجنون وقيدوه بالسلاسل ، ولم يلبث ان مات وحلت روحه فى ابدان الراقصين جيلا وراء جيل .

ها هو ذا الشيء ذاته يقع لفتانا . رأت امرأة رقصه ، وابتسمت له ، وخرجت له صورتها من الجدار ، فوقع فى هواها بلا رجعة . وقع الفتى أيضا فى أسر الثوار والرافضين . والذين يتحدون . الخياط الذى تعلم رقصة الخنجر فى بلاد بعيدة عاد يعلمها للشباب ، يوصيهم بأن يدقوا بأقدامهم ليوقظوا الأرض النائمة ، ابنة الكلبة . هذه الأرض ستستيقظ ، ويفتح الباب الذى يقرع ، وينهار الرصد الذى يغلق الباب اذا ما عولج بالحركة المناسبة . سمع الفتى هاتفا يقول : « يا جميع الأمم صفقوا بالأيادى . اهتفوا بصوت الابتهاج » .

يرى الفتى المرأة الساحرة فتنقشع من حياته الغيوم . لا تعود الشمس تختبىء فى اليوم الغائم . ابتسامة المرأة صافية كالشمس فى سماء زرقاء . عرف الفتى طريقه . أدرك انه مع الأكواخ ضد القصور . مع المرأة الخارجة ، التى يراها مجتمع الفضلاء مومسا ، وليس مع ابنة عمه الطيبة ، العاجزة ، التى تودّ لو تثور ولكنها لا تستطيع . كل الحب والشهوة يحمله الفتى للمرأة ، ولا يحمل الا الاشفاق لابنة عمه ، التى تدلهت فى غرامه . وبين النقيضين بدا الفتى ضعيفا ، فاقد الركيزة والانتماء .

إلَم كانت المرأة تدعوه ؟ اين كانت تريد ان تذهب بالفتى ؟ قالت له : لقد اعتدتم ضرب الناس . انتم : جدك ووالدك وأمك . جميعكم تضربون الناس . انتظروا . ولما يسألها اتضرب يوم تقوم القائمة ؟ تقول : سأفعل . لا تعرف ما اذا كانت ستضربه هو أيضا . بل ربما تموت قبل ان

تضرب ولكنْ ، هناك غيرها . الخياط وغيره . اما هى فان فى صدرها حقدا نهاشا يأكل معها فى الصحن . كانت تتعمد اذلال الرجال الذين يأتون اليها من افراد الطبقة المحظوظة ، طالبين المتعة ، تجعلهم يحصلون على لذتهم وهم فوق حصير وليس فراش . خطيب الأخت ، رئيس القلم نام هو الآخر على الحصير ، فى غرفة شبه مظلمة . كان هذا انتقامها من السادة الظالمين . انتقاما بائسا لامرأة أشد بؤسا ، يعطيها التعويض عما لحقها من ذل . من المؤكد انها سمعت دقات الأرجل وشاركت فيها . وان الخياط لا يعلم الموسيقى والرقص فحسب وانما يقوم بعمل آخر . شىء ما يغلى فى قدر على نار ووالد الفتى وأمثاله من أصحاب القرى يضعون الحطب فى الانفجار والانفجار أت لابد . وسيكون مدويا . وسيطلق مَنْ هنا النار على مَنْ هناك ، ويطلق هؤلاء عليهم النار بالمقابل .

فى البداية اندفع الفتى برومانسية الشباب يقف فى صف الخياط والمرأة وضابط الايقاع وزملائه الذين يتظاهرون ضد الانتداب ويطالبون بالحكم الوطنى . ادرك أن طريق والده ليس طريقه ، لأنه سلفى ، ولأنه مسدود ، وأن أباه لن يستطيع هو نفسه أن يمضى فيه . فماذا يفعل الفتى ؟ يرضى بسلطة الوالد ويعيش من ماله على حساب الفلاحين ، ويعتنق القيم الفاسدة كلها التى يعتنقها الوالد ، بدءا من نهب الفلاحين وانتهاء بقبول الحماية الفرنسية والايمان بالجد ومجده التليد ؟ ثم ما يؤدى اليه هذا التسليم من مقاطعة الخياط والمرأة ونسيان الصورة ؟

هل يعمل ؟ وأى عمل له فى مدينة كمدينته ؟ هل يسافر هربا بنفسه من وضع خطر متدنٍ ، كى يحافظ على الزهرة التى لفتت انتباه الخياط وسط الشوك ـــ اى يحافظ على براءته ثم يعود من بعد حين تتقدم المرأة ومعها زجاجة البترول لتشعل النار فى القلعة ، وتقوم الثورة ويرحل الاستعمار واسناده ، وترحل اسرته حاملة كنوزها على متن سفن الحماية ، واذ ذاك يكون الفتى جديرا بالمرأة . يرقص لها ويغزل بالخنجر دوائر نور ؟

وجد الفتى فى هذا خيانة للخياط الذى علمه رقصة الفرسان ، فتردد فى اللحظة الحاسمة ولم يتبعه على الطريق . رأى نفسه بهلوانا يسير على حبل مشدود يجهد فى الحفاظ على توازن لا يمكن الحفاظ عليه . حتم عليه ان يختار : اما اسرته أو الخياط ومعشوقته التى يجرى عشقها فى جسده من الرأس حتى القدم . سوف تبقى المرأة معه ، سافر أم بقى . لا مفر منها الا اليها .

قال له الخياط : ان تلعن الشر ، فهذه فضيلة عاجزة . المطلوب هو الفعل . ضرب الأرض بالقدم حتى تستيقظ . تأمل الفتى حاله وقرر العودة الى الخياط . عند الخياط يتبدد الغيم . سماء الخياط لا تغيم . أو تغيم وتظل الشمس فيها . وراء الغيم شمس ، وابداً يبحث الخياط عن هذه

الشمس . ليس وحده من يبحث بل ضابط الايقاع أيضا ، والمرأة والفتى ، كل يسعى الى الشمس بطريقته .

كان ضابط الايقاع قد رأى هو الآخر وجها ساحرا لفتاة كانت ترقص فى حفل نسائى . اشعل الوجه النار فى قلب ضابط الايقاع فقدم افضل ايقاعاته . وفى اليوم التالى راح يسأل عن صاحبة الوجه بين التلميذات فما وجد الفتاة . طار صوابه وصار متشردا فى الشوارع وسقط مريضا . وأخذوه الى المصح . فى المصح رأى وجه التى سحرته . كان تمثالا لامرأة راكعة مر به ضابط الايقاع كثيرا فلم يأبه له . ثم واجهه يوما ، والتقت العيون فاستيقظ جسمه وعقله وتذكر صاحبة الوجه . كانت هى بعينها ، منحوته فى الصخر ، متجمدة فى الرمز . وصار ضابط الايقاع يزورها ويقبل التمثال ويشعر بالراحة إلى جواره . ثم بدا له أن يوقع لها على دفُّ ففعل . وهنا بعثت وقائع حفلة الجمعية من جديد ورأى وجه فاتنته ، فاندفع اليها ولكنه لم يجد الا التمثال . وزاره طيفها من بعد فى غرفة نومه ، فلما مد يده ليمسك به وجده كالحمامة تتهادى ، وتحوم ، ثم تحط على قاعدة التمثال .

قال الخياط لضابط الايقاع وقد استمع الى قصته ، ان هذا لم يكن وهما ، وان فتاة التمثال خرجت من الرخام ، وانه لو تابع العزف لها لبعثت فيها الحياة .

تأخذ تتضح معانى الأسطورة المتكررة فى حياتى : الفتى وضابط الايقاع . الصورة التى خرجت من رخام التمثال ، ثم فرت ، والتى لم يستطع ضابط الايقاع ان يمسك بها ، تصور حاله مع الأيام . كانت أصابعه تتكلم على الدف وتبعث الحركة فى الجماد . ترك العزف . مللا ، أو تعبا ، فانطفأت الجذوة فى قلبه . أصبح هذا القلب خشبة يابسة . ولو كان واصل العزف لظل الجماد يتحرك لايقاعه ، لتحرك الصخر وبعثت فيه الحياة .

والفتى أيضا اشتعلت الجذوة فى قلبه ورقص حتى تحركت صورة المرأة البعيدة منه وأصبحت كائنا حيا قريبا منه . تدعوه الى العمل من أجل أن يتحرك الجماد . تلقى له بالخنجر الذى رقص به امامها وجرح نفسه ثم تركه . تلقى به فى بيته وأمام أسرته متحدية كل ما تمثله القلعة من قيم بالية . كان الخياط قد قال لها : لدى فتى ! وأضاف : فتاى سيرقص الخنجر . فذهبت تراه بدافع الفضول . كان فتى فعلا ولكنها كانت تريد علامة . وقد اعطاها الفتى العلامة حين ثبتت فيه عينيها ، فضاع منه توازنه ، وطارت روحه شعاعا وغرز الخنجر فى ركبته . كانت هذه هى العلامة . الفتى فتى حقا ، وهو فارس ، وهو جدير بها . من أجل هذا تقبله ، وتعطيه سريرها ، وهى التى ضنت به على زوارها جميعا . وحين تثور العاصفة الماطرة ، يسمع الفتى صوتا يهتف به : « تعال . اسرع » فيحس ان تلبية النداء هى وحدها القادرة على ادخال الراحة على

نفسه . وحيث يلتمع البرق تنتظره يدان ، ستمتدان بين الغيوم وترفعانه . ومن ثم يخوض الفتى الظلمة والريح والمطر ، ويندفع الى احضان المرأة ، ملتحقا بها وبقضيتها ، معطيا ظهره للقلعة ، ولأبيه وجده وابنة عمه الوالهة التى كانت تتوق الى ان ترتمى بين احضانه وتسمع وجيب قلبه .

تقدم : « الشمس فى يوم غائم » الواقعية والأسطورة والرومانسية والشعر فى كل فنى متسق . تسود الواقعية فى المشاهد التى تصور علاقة افراد الأسرة بعضهم ببعض ، وعلاقتهم بصهرهم رئيس القلم ، وعلاقة كل هؤلاء بالواقع خارج القلعة . الأسرة تعيش على كد وشقاء الفلاحين ، وتنتمى الى طبقة تستند الى الحماية الفرنسية ، والى « المجد » الغابر أيام الحكم التركى للبلاد . وهى تزعم أنها سيدة البلاد ، فان ناقش أحد من الفلاحين حقه فى أرض أو محصول تولى زبانية الاقطاعيين تأديبه بالسوط أو اطلقوا عليه النار . لا أوهام ولا هموم تؤرق هذه الطبقة بإزاء علاقتها بالفلاحين . هى علاقة صريحة فى اعلانها انها تستند الى حد السيف . يقول الوالد : سأرى قائد الدرك اليوم . فى الكازينو ، وأقول له ان رجاله ينامون ، بينما كرومنا تنهب ، وان وكيلنا ضبط فلاحة تمرش الزيتون فى طرف الكرم ، فضربها ، وحبسها ، ثم سلمها الى الدرك ، وبعد أيام اطلقوا سراحها . هذا تهاون ! ويعقب الصهر : الضرب لم يعد يكفى . فيقول الاقطاعى الكبير : اقطع يد الفلاح تُفَزِّع غدا . ولا يكتفى الوالد بهذا بل هو ذهب ذات مرة « ليؤدب » فلاحا شابا جريئا ، رفض تسليم الحبوب مقابل الديون . اخرجه من داره ، وانهال عليه بالعصا ، فلما نفد صبر الفلاح وضرب الوالد بقضيب تناوله من الموقد اطلق عليه الوالد الرصاص فأرداه ، وانسحب وهو يهدد بقية الفلاحين ، وركب عربته ودخل القلعة فصار آمنا . وصُوِّر مقتل الفلاح على أنه دفاع عن النفس فَبُرىء القاتل ، واعطيت زوجة الفلاح بعض المال ، وكانت جميلة فكثرت زيارة الوالد لها ، وعيَّن ابنتها الكبرى خادمة فى قصره .

كل هذا يتذكره الفتى وهو راقد فى سريره يتألم لثلاث صفعات قوية تلقاها من ابيه ، لجرأته فى التهكم من الخطيب . ادرك ـــ فى تأمله ـــ انه أصبح الرومانسى الوحيد فى اسرة كلها واقعيون . كلهم محارب . الوالد محارب والوكيل محارب والملاك محاربون يرفعون شعار : اذا لم نضرب الفلاحين ضربونا .

غير ان هذه الواقعية الصارمة الواثقة بنفسها كانت قد انهارت انهياراً كاملا حينما جاءت المرأة ذات العينين السوداوين لتعود الفتى الجريح . اقتحمت القلعة ، وفرضت حضورها على الجميع . وبينما عاملها الأب والخطيب على أنها من طبقة الرعاع ، بلا قوة ولا هيبة ـــ واحدة من الحشرات يمكن ان تداس بالأقدام ، أشهرت هى اسلحتها جميعا . قالت انها جاءت تطلب الأبن واضافت انها اتت أيضا لتعيد الى الخطيب شيئا نسيه عندها : سرواله ! انهارت واجهة الاحترام الزائف

الذى تخفى وراءه الأسرة وضاعة الرجال فيها . يحتقرون اناس الحضيض ، ويتعاملون معهم ــ مع ذلك ــ بوصفهم موردين للذة . الخطيب المحترم زار المرأة ونام على الحصير فى قبو مظلم ، والوالد ، الذى اضطربت أحواله بشكل ظاهر لدى هذه الزيارة المفاجئة بدا واضحا انه هو الآخر له مغامراته الحسية فى عالم الفقراء . سقط القصر الى حضيض الواقع الاجتماعى ، وتمرغ فى وحل الحى الذى جاءت منه المرأة .

هذا الصدام المدوى بين رجال الواقع وامرأة الأسطورة تصوره الرواية تمثيلا دراميا أخاذا ، اذ تصفع الأم المرأة انتقاما لشرفها المنهار ، وتوشك المرأة ان ترد ولكنها تحبس ثورتها بالجهد الجهيد ثم ضحكت بلا سبب ، وعاودتها ثورتها فأخرجت من ثيابها خنجرا بدا انها سوف ترشقه فى جسد الأم . واندفعت الأخت والقت بنفسها على المرأة فداء لأمها . ووقف الزمن حائرا بين نقيضين : الموت أو الحياة . غير ان التوتر ينجاب فجأة ، وتتراخى المرأة وتنحنى على الأخت تقبلها وتبكى . وبكراهية عنيفة نظرت المرأة الى الفتى وقالت وهى تلقى اليه بالخنجر : خذ . هذا لك .

أما التصوير الشاعرى والأسطورى فتبقيه الرواية لمن ترضى عنهم من الشخصيات . هكذا يصور الخياط علاقته بالفتى . قال له : « دخل القائد الفارس مجلسه فغض الحاضرون أبصارهم . كان فارسا شجاعا قاد رجاله عبر السهوب والجبل ، وتحمل معهم ، ولأجلهم ، أقسى العذابات خلاصا من ذل السلطان . وكانت له عينان لا يقوى الناظر اليهما على الثبات . وفى المجلس ، عند دخول الفارس ، كان رجل يحدق فيه . ظل يحدق . لم ينهزم ولم يغض طرفه . وخيم على الصيوان جو من الصمت المكهرب . ووسط الدهشة والذهول ، تقدم الفارس من الرجل وصاح به : هيا لنتبارز . لينهزم أحدنا أو يموت . فأجابه الآخر : لا . لاداعى لهذا . نحن من قبيلة الذكور . وفى قبيلتنا شىء اسمه صداقة الرجال . امنحنى صداقة رجل لرجل . وهذا يكفى . وعندئذ لا يغض اى منا الطرف للآخر . منحه ما أراد . صداقة رجل لرجل . صار احدهما ظهراً للآخر فى الملمات .

وقال الخياط للفتى أيضا : « امرأة أحبت رجلا . كانت ذات عنفوان وكان ذا عنفوان رازته ورازها . بدأ الصراع . صارت هدنة . تجدد الصراع . تبادلا الحب والصراع . تمانحا الصداقة ومعها الصراع . كانا من قبيلتين مختلفتين . أنثى وذكر . وقد تعبا ولم يخضع احدهما للآخر . فاستحال الحب بينهما الى بغضاء . كان لابد لأحدهما ان يموت . وقد مات الرجل . قتلته المرأة . حسمت الموقف ، ولكن على حسابها . فقد عنفوانها قوته بفقدان المجابهة . ذهبت الى قبر الرجل وقتلت نفسها اسفا عليه . الآن احبت حقا » .

وقالت المرأة للفتى ، وقد جاء يزورها فى القبو : « لا تنظر فى عينى عذراء . أجاب : لن انظر فى عينيك أيضا . قالت : بلى ستفعل . قال : أنا اخافك . قالت : وانت تخيفنى . سقط الكفّان . الوجه مقابل الوجه . احترق الدم . وخفض كل ناظريه . احس الفتى بتعب شديد ، كخارج من حفلة تعذيب . نهضت المرأة واتجهت الى الباب . لم تقل شيئا . خطا الفتى خطوات . لم تقل شيئا . صار فى منتصف الباحة . لم تقل شيئا . جاءه صوتها وهو على المخرج : اغلق وراءك الباب . لم يغلقه . رفض أن يغلقه .

علم الخياط الفتى رقصة الفرسان ومنحه صداقة رجل لرجل . الفتى هو الفارس فى الحكاية والخياط هو الرجل الذى يحدق . ومنح الفتى المرأة حبا لا يموت ومنحته هى الأخرى حبا لا يموت . قام بينهما الصراع بين الحب وتأكيد الذات ، غير أنهما — على عكس المرأة والرجل فى الحكاية — لم يفترقا ، وانما ارتميا كل فى احضان الآخر حينما قطع الفتى كل خيوطه مع اسرته وافرادها .

يسأل الفتى الخياط : هل الأسطورة حقيقية ؟ فيرد هذا : هى حقيقية وغير حقيقية . هى عند الخياط حقيقة اذا عمل الناس كى يجعلوا من الخيال حقيقة . هى حافز لكى يثور الناس على الأوضاع الظالمة . الأسطورة تحكى عن المناضلين فى اطار من التصوير الشعرى يتناول الظاهر فقط . أما فى الأعماق فإن ضابط الايقاع لم يتوقف عن النقر على الدف مللاً ، أو لأن السن قد تقدمت به . لقد اعتقل فى الماضى ، وعذبوه ، وهددوا بقطع اصابعه . جاءوا بساطور جزار وبخشبة كالتى يفرم عليها اللحم ، وأرغموه على مد كفيه فوقها ، ورفعوا الساطور وقالوا انهم سوف يعدون حتى العشرة . فى السابعة اغمى عليه . اصيب برجة ، وتكونت له عقدة الخوف على اصابعه .

والخياط ، خالق الأسطورة والملتحف بها كى يُعَمِّى على حقيقة عمله النضالى : يجتذب بالأسطورة الفتى ، وضابط الايقاع ، والمرأة التى علمها ان تثور على وضعها المهين . صادقها ، ورأى فيها امرأة اشرف من مدعيات الشرف ، ولقنها تعاليم دق الأرض بالأرجل لايقاظ النيام .

غير ان رجال الواقع لاتجتذبهم الأسطورة قط ، ولا تعميهم أبدا عن مصالحهم . من أجل هذا يبلغ والد الفتى السلطات عن نشاط الخياط النضالى ، فيقتله الزبانية . يسمع الفتى النبأ الفاجع فيترك احضان المرأة الحبيبة الثائرة ، ويذهب مسرعا الى أبيه ويحدجه بنظرة قاسية لا تعرف الرحمة ويصيح فى وجهه بحقد وجنون : قاتل ! فيرد الوالد ، « اخرس » ، ثم ينطفىء النور ، وتسود الظلمة بين الوالد وابنه .

 تنظر : « الشمس فى يوم غائم » الى النساء نظرة ملؤها العطف . ذات العينين اللهبيتين ما

امتهنت البغاء بمحض ارادتها . ربما كان لها زوج ، أو والد ، قتله ابو الفتى أو آخرون من طبقته . ربما يفسر هذا حقدها الهائل على السادة . والبغى الشابة ، ابوها كان فلاحا وقتل . ولم تجد ما تأكل به غير بيع جسدها . وهى دائمة التطلع الى ترك القبو ، والبحث عن مكان آخر ، فى مدينة أخرى ، لعلها تجد فيها من يتزوجها . يعرض عليها الفتى — اشفاقا عليها — ان يمنحها سريرا مجهزا وثيابا وحذاء وطعاما ، ويعطيها سلسلة ذهبية تتحلى بها . تقبل البنت هذه الوعود والأحلام وتقبل قطعة الذهب ، ولكنها تختفى من بعد ، وتعيد السلسلة لسيدة القبو ، رافضة شفقة رجل ينتمى الى طبقة قتلت أباها ذات يوم .

واخت الفتى ، تصورها الرواية تصويرا عطوفا أيضا . قرأت تاريخ الثورة الفرنسية واعجبت باليعاقبة ، متطرفى اليسار فى الثورة ، واحتجت ذات يوم على وكيل اعمال ابيها ، لأنه ضرب فلاحا واوثقه بالحبال . فطلبت اليه ان يطلق سراحه . فعل الوكيل محتجا ، ولكنه شرح للفتاة ان القسوة وحدها هى التى تبقى لأسرتها املاكها . واقتنعت الفتاة دون جهد ، فان هذه هى الحقيقة . وهى ليست ثائرة ، ولا راغبة فى الثورة . غير ان عطفها غير المجدى على الفلاحين يشى بجانب انسانى فيها يبرأ منه ابوها وخطيبها معا . وهى تجادل أباها فى أمر القلعة التى يعيشون فيها ، وتود لو تركوها الى بيت أقل جهامة وغطرسة ، وأوفر حظاً من البهجة . ثم هى تهدى المرأة التى اهانت زوجها وأباها واستولت على اخيها ، تهديها سلسلة ذهبية تكفيرا عما لحق المرأة من اهانة فى القلعة . وابنة العم ، التى تدفن نفسها وحبها فى اعماق الموسيقى العالمية ، ينتابها شوق واضح كى تذهب الى الخياط الساحر ، وتتوسل الى ابن عمها أن يصطحبها اليه كى ترى الفتى يرقص ، وترقص هى أيضا . حتى الأم ، تميل بجانبها الى ابنها ، وتعلن انها لاتمانع فى الاعتذار الى المرأة ، ان كان هذا يرضى الفتى . الأم نفسها ضحية مجتمع الرجال ، الذى دجنها منذ البداية . حولها الى دجاجة تأكل وتبيض ، وجعل زوجها ديكا من حقه ان يعتلى كل دجاجة داخل عشته أو خارجها — وهى تشعر بهذا الظلم وان احتوته فى داخلها ، واعتادته ، كما اعتادت ابنتها اراء خطيبها الظالمة فى الناس ، واخلاقياته المزدوجة الذى دفعت به الى سيدة القبو .

لا تستثنى الرواية الا امرأة واحدة ، تخصها بالكراهية ، هى زوجة الخياط . إنها النقيض التام لزوجها . بينها وبينه انفصال كامل . قال الخياط انه ينام مع جسمه وهما على فراش واحد ، ولا ينام معها ، امرأة تقليدية الأخلاق ، فقيرة ، خانعة ، تخشى الكبار وتنحنى امام سلطانهم ، وتتناول الصغار بأقسى النعوت . تقول عن المرأة انها ساقطة . فيرد الخياط : كلنا ساقطون .. فى قاع البئر . وتقول الزوجة : انها عاهرة ، فيعقب الخياط : وانت ؟ ربة الفضيلة وحارستها ؟

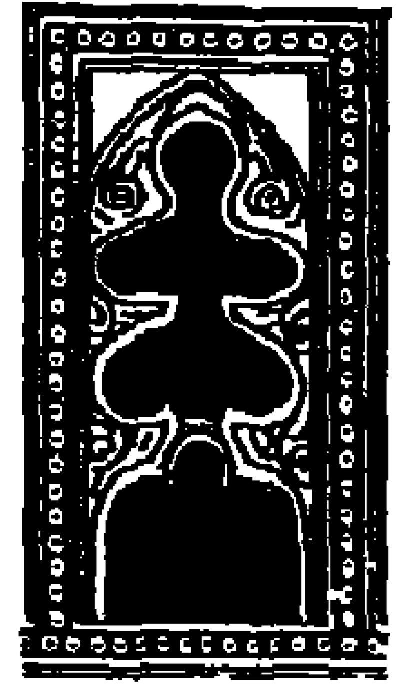
وبالرواية تصوير ممتاز لحال المرأة الشابة التى تحب ولا تجد حبيبها يبادلها العاطفة . الفتى يود

لو كان بامكانه ان يستجيب لدعوة قلب ابنة عمه ، ويصارع نفسه طويلا من أجل ان يقترب منها . ولكنه مسحور بالمرأة ، مفتون بالثورة ، مسلوب الارادة بإزاء مجتمع القاع الذى يفيض حيوية وكرما ، وعواطف متناقضة ، ويقوم بينه وبين مجتمع القصر صراع محتدم ، هو الآن مكتوم ، ولكنه بسبيله الى الانفجار .

ومن أجل هذه الثورة ، يلقى الفتى بنفسه فى جموع الثوار . ثائر رومانسى هو ، لا ندرى ماذا يكون مصيره بعد مقتل الخياط . ثار من غير خطة أو تنظيم . والتحق بذراعى المرأة التى أحبته وأحبها . أتراها تكون ثورة مجدية أم تصطدم الثورة بصخور البحر ، فيتعالى موجها وتتبدد قوتها رذاذا وطشا ، ورشا ، ثم تعود الموجة من حيث أتت ؟ النهاية مفتوحة .

وليمة لأعشاب البحر

حيدر حيدر



كانت مدينة جميلة ، مطوقة بالبحر والغابات . لكنها كأى مدينة عربية ، كانت متوحشة ، محكومة بالارهاب والجوع والسمسرة والحقد والجهل والقسوة والقتل . مدينة تكره الغرباء . ورغم جوارها للبحر والغابات فهى تبدو حزينة . ان الحب ينمو داخلها نمو النباتات بين شقوق الصخرة ، مهددا بالموت متى حاول الوقوف تحت الشمس . تلك هى بونة المضيئة : مدينة الحزن والبحر والخوف والحب والذاكرة .

قالت له الجزائرية الشابة آسيا : فيما مضى تجرعنا آلاما حادة . أنتم لم تذوقوا مرارتها . من أقصى الجزائر الى اقصاها لا يوجد بيت بلا جرح . الجراح لم تندمل بعد . ولابد أن تفهم ذلك . كانت توجه كلامها الى مهدى جواد ، المناضل الذى نجا من المذبحة الكبرى التى اعملت اسلحتها فى حزبه ورفاقه ، فر من العراق بجواز سفر مزور ، وها هو ذا يجد نفسه فى بونة بعد رحلة طويلة من البصرة ، طار فيها فوق خريطة بلون الدم والهزيمة .

كان قد التقى بالفتاة فى الغروب ، امام بوابة ثانوية القديس اغسطين . حيته وطلبت ان يعلمها اللغة العربية ، فهى — مثل كثيرين من ضحايا المستعمرين الفرنسيين — منفية من لغتها الى لغة غريبة هى الفرنسية . عندما افترقا قال لنفسه : اتكون هى التى هجس بها وهَمّاً قبل ان يترك الوطن : امرأة الحلم والصدمة ، التى تباغتك كسجينة بحر ذات غسق ، تأخذك فتبحران فى لجة الليل والقمر والعواصف والموت ؟ بلى كانت آسيا ، الجميلة الفارعة ، ذات الجسد الأسطورى هى تلك التى صور لنفسه أنه قد يلقاها .

لقى أيضا — على غير انتظار — رفيق نضاله مهيار الباهلى . بدا مهيار سعيدا ، بل مسحورا . هذه هى الأرض المقدسة . الأرض التى فاجأ العرب فيها أنفسهم بالثورة . ثورة المليون شهيد قال لصديقه مهدى : عندما هبطت من الطائرة ركعت فوق أرض المطار ولثمت التراب .

جزائر الثورة منارة مشعة فى ليل هذا الذل العربى . يريد الباهلى أن يتصل بالثوريين ، وحزب الطليعة الممنوع ، الذى يعمل سرا . يريد ان يواصل ما انقطع بعد ان فشلت جهوده وجهود غيره من الرفاق فى اقامة الاشتراكية فى وطنه . يحذره صديقه مهدى جواد من عبث المحاولة . قبله حاول هو ، فاصطدم بشعب حوَّله الارهاب الى جبل من الجرانيت . لم يعد الناس يثقون بأحد . رءوس الثورة نقلوا نشاطهم الى باريس . يعجب الباهلى أشد العجب ويقول وهو يشعل سيجارة من أخرى : غريب ! ولكن المعركة هنا ! وبدا معتكرا كسماء غائمة .

قالت فلة بو عناب لنفسها : ايتها البقة الصغيرة ، ماذا تستطعين فى هرجة هذا الكرنفال ؟ الثورة الوطنية انتهت . جبهة التحرير تحولت الى حزب مخلوط : يمين ويسار ، عسكر وتجار اقطاع وفلاحون ومثقفون . حكايات غريبة : العرب والبربر ، العسكر والمدنيون ، التعريب والفرنسة ، الاشتراكية والبورجوازية ، الأفريقية والعروبة . الثوار صاروا فى مواقع السلطة والمسئولية . نحن النساء اللاتى قاتلنا فى الجبال والمدن تحولنا الى الخدمات المنزلية . جميلة بوحيرد تزوجت من محاميها وهاجرت معه . جميلة بو عزة دخلت فى النسيان . انا وآلاف النساء صرنا اقرب الى المومسات أو الزوجات الصامتات المطيعات للرجال ثورة المليون شهيد اغتالها العسكر والتجار فى النهاية .

كانت فلة تحادث مهدى جواد . قالت له : من خلال مراقبتى لك وحديث مهيار الباهلى ، لاحظت اننا من طبيعة متماثلة . كلانا شجرة عارية . مجتثة من جذورها ومرمية على الأرض . نحن مهزومان فى موقع واحد جغرافيته متباعدة . اعرف ما يدور فى رأسك من جلبة وضوضاء . مثلى انت تهرب وتراوغ وتنقسم على نفسك لأن الهزيمة كانت مريرة ولأنك وحدك لا تستطيع ان تفعل شيئا . لا تستطيع ان توقف الدمار والخراب . الخراب اقوى منا ولا أحد فى الساحة . لقد انسحبوا الى الملاجىء الآمنة والهدوء . يريدون ان يعيشوا ويأكلوا ويتزوجوا ويجمعوا المال .

فلة مقاتلة امازونية . تقول لمهيار الباهلى وهى تتوشح بالفضيحة : « من بين فخذىَّ مر كل الغزاة : الأغراب والأشقاء وأبناء الدم . جسدى كالصحراء التى اتيت منها » . اخذوا منها الوطن واعطوها البانسيون . بو خروبة والوزراء ومسئولو الحزب والضباط والمؤتمرات وقيادة النقابات والمنظمات . كلهم يفكرون نيابة عنها . يرسمون الخطة الرباعية والخماسية والسداسية للتعريب والثورة الزراعية والصناعية والرعوية وتعمير الصحارى والاستصلاح الزراعى . اما هى فقد تركوا لها مهمة التعامل مع الرجال !

مهدى جواد فر من العراق الى الجزائر ، وهو يحمل الهزيمة فى روحه والضياع ، والتردد المرير بين مواصلة الحياة أو معانقة الموت . كان يسأل نفسه : لماذا حدث ما حدث ؟ اين يكمن

العطب ؟ لا جواب على السؤالين . كان مهدى ساقطا بين ارخبيل الماضى والزمن الراهن . الرجل الذى توهم انه ناضل وخسر ، كان يسأل نفسه : هل ينتحر او يحيا ؟ هل خلاياه لاتزال تصلح للحياة ام انها انعطبت للأبد ؟ وذراعا آسيا تطوقانه قال لها ذات مرة : أنا لا أصلح ابحثى عن رجل آخر لا يسكنه الجحيم . على الفور نتذكر هامليت واوفيليا . صديقه مهيار أيضا يراه هامليت آخر . لا فائدة ترجى من علاقته بآسيا . هى تحلم ببيت مؤثث ، بعيد عن الأعاصير ، تزينه الديكورات واللوحات والرقص والموسيقى والأطفال . هى ترى فيه عوضا عن الأب الذى فقدته : سى العربى الأخضر . يقول لها : اسمعى انا لا أصلح لتأثيث منازل مريحة . فى داخلى غابة من القبور . تضحك آسيا وتقول وهى تمسح بحنان على شعره : انما انت طفل بلا حنان ، وتحتاج اما . حياتك يا حبيبى أمضيتها فى مناطق الجليد . بونة استوائية وساخنة . انت كنزى وأنا كنزك ، غير ان مهدى يظل مكروبا . وهما فى قمة التمتع بغرامهما ، اذ هما يتوهمان انهما توحدا فى شخص واحد يقول لها : انت غير حقيقية . لست صلبة هنا — مشيرا الى صدره . فى اعماق فراغات تملؤها اشواق غامضة . احبك ولكنك مسروقة منى وهاربة .. انا رجل وحيد ومعزول وابحث عن جدار . لا أحد فى هذه الصحراء الملعونة والقاسية . تبكى آسيا وتغمره وتردد : معا. معا. حتى الموت . ثم تقع تحت سطوة هذيانه فريسة حالات رجل أخرق ينحدر من قمم افراحه الجميلة بغتة الى الوديان المظلمة — هامليت آخر — هامليت الذى يرى شبح ابيه ، سعدون جواد . وهو صغير قال له ابوه : عندما تكبر تذكر انهم اهانونى وساطونى وعليك ان تثأر منهم — اذا لم تثأر ، ستأتى روحى وتحوم حولك وتخنقك .

آسيا أيضا هى هامليت انثوى مع دوى أصوات زوج امها : يزيد فى أرجاء البيت ، كان الألم يتصاعد فى أعصاب آسيا واعماقها . ترى فى يزيد الرجل الذى اغتصب الأم والبيت وأصبح سيدا . بسطوته وماله ، مكتسحا ميراث سى العربى ودمه الذى راح هدرا . كان سى العربى لخضر يقود شاحنة محملة بالبطيخ على طريق بونه — سوق اهراس ، فى طريقه الى الجبل . اوقفت دورية فرنسية الشاحنة فبدا له شبح الخيانة . فتش الفرنسيون السيارة فوجدوا مسدسات وقنابل يدوية مرسلة للثوار . عذبوه . لم يعترف . عاودوا التعذيب جلسات متوالية . تحت الآلام صاح سى العربى : اقتلونى واريحونى من التعذيب .. رفض الوحوش قتله وواصلوا التعذيب الهمجى ظل سى العربى صامداً اسبوعا حتى تخطى عذابه الجسدى وانتصر عليه . وحين هتف : تحيا الجزائر والموت للمستعمر والخونه ، اطلق احد الجلادين النار عليه من مسافة متر واحد . رصاص رشاش كامل افرغ دفعة واحدة فى جسدة ، فهوى كشجرة صنوبر مهشمة داخل حفرة بين الغابات .

قالت آسيا لمهدى ذات أصيل : كتموا عنا موته . قالوا انه سيعود يوما لأنه ما زال حيا . مُذ غاب وأنا انتظر عودته . لابد ان يرجع كعادته ومعه الزهور والخبز والشوكولاته وأخبار الحرب . ولكن سى العربى لا يعود وتضطر الأم ــ لالا فضيلة الى أن تتزوج من يزيد : بعد ان الح عليها آهلها قائلين ان الزواج سترة ، وحماية من ألسنة الناس . ظلت آسيا تنتظر أوبة ابيها ، وتتطلع فى حنايا روحها الى رجل يحل محله فى قلبها . ومن ثم اتخذت من مهدى حبيبا وأبا . غير ان الأم عقدت حياة ابنتها ، بأن اتخذتها بديلا من الزوج والابن البكر معا . كانت آسيا قريبة الشبه من سى العربى ، بقامتها الطويلة ، وانفها المفلطح الرجولى ، وجبهتها العريضة . فدخلت الأم معها فى حالة عشق سرية ، عشق كذلك الذى تكنه الأم للولد البكر والوريث الأول . وسعت الأم الى امتلاك آسيا ومصادرة أحلامها فى السفر خارج بونة الضيقة ، هكذا أصبحت آسيا اوفيليا لمهدى ، وهاملت لأمها لالا فضيلة . قالت آسيا لمهدى وهو يحاول ان يخفف عنها وجيعة فقدان سى العربى ، قائلا انه مادام دم الأخضر يجرى فى عروق بنيته فهو لم يمت. ردت البنت بأسى: بل الأخضر مات مرتين . مرة فى الغابات بيد المستعمر ، ومرة لأن يزيد ولد الحاج يسكن بيته ويطأ فراشه وامرأته ، ويدوس آثاره وذريته .

لكل هذا تتعقد العلاقة بين مهدى وآسيا . الى جوار الشعور المرير بالهزيمة السياسية فى نفس مهدى ، كان يواجه هزيمة أخرى مع آسيا . كان يريد ان تكون حرة فى القول والفعل معا . الا تنقسم مثل باقى النساء الى امرأتين . واحدة حرة وواحدة عبدة . كان يتطلع الى أن تصبح آسيا امرأة العصور القادمة . ينزع بشوق عارم ليبنى مع هذه المرأة الجديدة بيتا على مداخل البحر . وكانت آسيا خائفة ، مترددة . تدفع بأن القوة المناهضة للمرأة عاتية ، باغية لا تتردد فى اطلاق النار . لم يقتنع مهدى ، وانكسر شىء فيه وبدا انه رجل يهذى . وانه كمن يقاتل ضد الفقدان ويأسه . ضد بؤسه الخاص .

كان هذا فى أوائل العلاقة بينهما . وقرب نهاية هذه العلاقة ، تسأل آسيا سؤالا مفاجئا عن مستقبل الحبيبين . كانت خائفة ومرتبكه وقابلة للانكسار . واجهها مهدى بدوره بسؤال هادر : اسمعى . انت معى أم معهم ؟ وسألته من يكون « هم » فأجاب : جميع الآخرين . هذه المدينة اللعينة وبشرها ، واسرتك ويزيد ولد الحاج والأوطان والسلالات والأزمنة المتعفنة . ردت آسيا مازال هناك وقت . نبحث كل شىء بهدوء بعد نجاحى فى الامتحان . سأل مهدى : فلم السؤال الآن اذن ؟ قالت الفتاة : ليطمئن قلبى . قال مهدى : بل قلبى أنا هو الذى يفتقد الطمأنينة . علقت آسيا : كم انت مزعزع ياعزيزى . رد مهدى : أعمق مما تتصورين .

واذ الرواية تقترب من نهايتها يقول لها مهدى : هل تقبليننى زوجا لك ؟ اذا رضيت لن

تندمى . من :سماء والتشرد وحبى المجنون سأبنى لك أيكة من التصوف والعبادة . ردت آسيا مغتاظة : انما انت رجل هالك ودمك مباح . ستطوينى كما يطوى الغجرى الراحل خيمته . فلا يكون لى قرار ولا بيت . هذا أنت ، وواصلت مع ذلك حبه !

يحيط بمهدى نبوءة شكسبيرية تطلقها الأم أمام ابنها وهو صغير : « ستموت وحيدا ، ولن تجد من يكفنك ويمشى فى جنازتك » . ويرد الولد بنزق : لا أريد كفنا ولا مشيعين . أريد أن اموت عاريا تحت الشمس فى غابة أو صحراء ، تأكل جثتى الصقور ووحوش البر . يتذكر مهدى الآن كلمة امه هذه وقولها « ستتوه فى البلاد البعيدة فتجرفك السيول والريح الصرصر » .

الفشل المثلث : فى الثورة ، فى الاستقرار ، بناء امرأة جديدة يواجه بها زمانه الاغبر المتقلب يدفع بجسد مهدى الى البحر . ودع المدينة المتلاشية . اضحت فى نظره سفينة تغرق فى اعماق محيط ، لا يظهر منها فوق الماء الا القليل . ودع آسيا . قطف وردة حمراء وضعها على نصب تذكارى للشهداء المنسيين ، ثم صعد صخرة ، وتنفس بعمق ، وقذف بجسده الى البحر . وهْمٌ ، وهْمُ حكاية يرويها ابله بعد ضربة كابوس ، كان يردد قبل ان يهب جسده لأعشاب البحر . متذكرا ما وجده ماكبث قرب النهاية من عبثية الحياة .

الضلع الرابع ، مهيار الباهلى ، الرجل المصنوع من اسمنت المنطق ، متعهد الثورات ، يعيش فى حلم كبير يرفض ان يتخلى عنه رغم مرارة الهزيمة ووطأتها التى تخرق العيون . يفصح مهيار عن اسرار حلمه القديم . ويصور الحنين الى عالم جديد ، ارتسم فى رأسه ، ربما قبل أن يقرأ أى كتاب ثورى عن حرب العصابات . كان يستعيد الشوق الأول للمغامرة الطفولية : ان تبدأ الأشياء دائما كالخلق الأول ، نظيفة وعادلة ، وان نرسم رسومنا على بياض بلا رقابة أو توجيه . فى رأيه ان فى كل مغامرة ثورية استرجاعا طفوليا للنقاء الأول . وأن الكبار دائما يلوثون العالم ، لهذا ينبغى الخروج عليهم بين فترة وأخرى لتجديد الحياة . والكبار هم : الآباء والحاكمون وقادة الحزب .

خرج الباهلى من مغامراته الثورية فى الأهوار معطوبا ، مصابا برصاصتين ، احداهما دخلت من الإلية . ومع ذلك فلم يتخل عن حلمه . وهو فى الجزائر تخلى عن النساء فى سبيل الوفاء العائلى ، ونقاء المدرس الغريب الذى تدب نفسه لمهمة مقدسة تنزع نحو وهم تغيير التاريخ وتربية الأجيال الصاعدة .

غير ان تجربة الأهوار كانت تدوِّم فى اعماقه كدوامات الأنهار . اذ ذاك كانت الكآبة تطل من وجه مهيار ، فيسأل : متى تنتهى هذه الغربة اللعينة ؟ ويردد : يبدو أننا ننحت جبلا من الجرانيت بابرة . واذ يذكر صديقه مهدى شيئا عن موت الزمن القديم ، والأحلام القديمة ، والمرأة

الملاذ ينفجر مهيار على نحو مباغت . يكبو بوجهه على جذع شجرة دردار ويندفع شهيقه . يضرب الجذع الصلب بقبضتيه وهو يهذى عن الدمار والغربة والتوحد والأطفال والثورات المغدورة ويردد : لا أمل . لا أمل . الوحل والموت . الوحل والموت الحروب الأهلية . الحروب الأهلية .

لأمر ما خرج التاريخ عن طواعية مهيار ورغبته واندفاعه وبراءته وصدقه اللا محدود ونبله . كان التاريخ ينأى عن متناول يديه ويتشكل كالاباريق على ايدى خزافين آخرين يصنعون التاريخ بشكل مغلوط ومشوه ويدعو للرثاء ، وما نفعه ان يكابر ويعاند ليرفع صخرة سيزيف التى هوت ، فاذا ما رفعها هوت اليه من جديد .

انكسر الباهلى آخر الأمر . اقبل على جسد فلة . حصان المسافات الطويلة الذى ناله الانهاك قبل نهاية الرهان ، وجد عند المرأة التى غدرها الزمان الأسود وموت الحلم والعصور الخنزيرية عذوبة ودفئا . كان قد وقع فريسة للحمى فشفته فلة بحنوها الدافق وامومتها المكبوتة القادرة على الانبثاق كلما رأت رجلا ــ طفلا يشتاق الى دفقات حبها .

تبرع « وليمة لأعشاب البحر » براعة فائقة فى تصوير الأفراد اذ يقعون فى شباك الأحداث وتطورات التاريخ . تقدم حياتهم بحميمية وصدق وتجعلهم ينتصبون امامنا نابضين بالحياة والدم الحار . تصورهم فى سعادتهم وشقائهم فننجذب اليهم ايما انجذاب ونحيا معهم حياتهم . لا يحدث هذا فى حالة الشخصيات الرئيسية وحسب : مهدى وآسيا وفلة ومهيار ، بل يمتد هذا التصوير الحيوى ليشمل لالا فضيلة وابنتها منار ، وزوج الأم يزيد ولد الحاج . وحتى الشخصيات التى تمر بها الرواية مرورا عابرا ، مثل جماعة المدرسين العراقيين الذين ذهبوا يسمرون ويشربون ويجادلون على شاطىء البحر . انهم بدورهم يبرزون لنا بروزا حيا ، وهم متقلبون بين المرح المصطنع والأسى العميق .

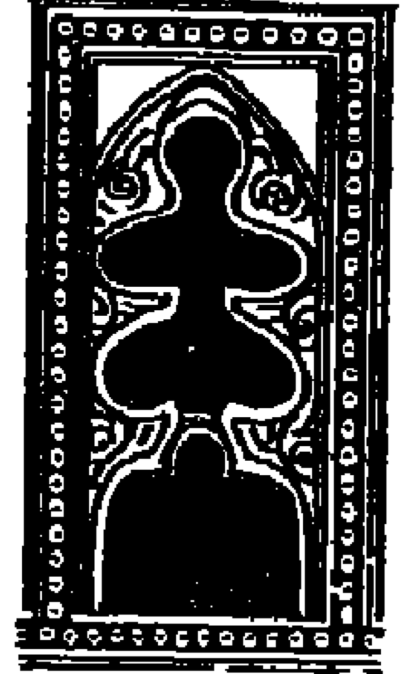
فاذا ما انتقلت الرواية الى الأحداث الثورية فى العراق ، وجدنا الحيوية تنقص نقصا ملحوظا ازاء اصرار حيدر حيدر على ان يورد ثبتا تاريخيا بحقيقة ما حدث ، يكتبه فاذا به اشبه ما يكون بالتقارير السياسية التى يدبجها أمناء الأحزاب أو قادة اللجان الرئيسية . ان هذا الجزء من الرواية يستفيض ويعترض السياق الروائى ، ورغم جهود الكاتب لتخليصه من ربقة التقريرية ، فانه يبقى قريبا منها الى حد واضح .

كذلك يطنب الكاتب فى وصف الطبيعة واحيائها وبحرها وسمائها ، ويستخدم كثيرا من الرؤى وتهاويل الخيال ، حتى حين لا تمس الحاجة الى ذلك . من أجل هذا تطول الرواية ، وكان بالامكان ان تكون اقصر وأفعل لو اختزل الكاتب ما سبقت الاشارة اليه من عقبات تعترض مجرى السرد .

عير ان هذه كلها نقاط غير ذات بال . وهى لاتمنع بحال ان تكون هذه الرواية واحدة من أكثر الأعمال السياسية تأثيراً فى النفس ، بفضل احساس الكاتب العميق ، واللاهب بفداحة ما يجرى على الساحة العربية من مآس ، وشدة شوقه لأن ينهض العرب من الكبوة التى تدفع مهدى فى لحظة سأم إلى أن يهتف : « إلى الجحيم ، عرب هذا الزمان ! » .

طائر الحوم

حليم بركات



من شعر بابلو نيرودا يردد حليم بركات : « هذه هي الأرض التي اغْرَقَتْ جذورها في شِعْري . عميقا في داخلي ، كما في تلك البحيرة المفقوده ، تسكن رؤيا طائر » . أما الأرض التي مدت جذورها في كل ما كتب حليم بركات في روايته فهي أرض العرب . وأما الطائر الذي يسكن عميقا في داخله فهو طائر الحوم .

يستهل حليم بركات روايته مناديا قارئه : « تفرج يا حبيبي وشوف / حليم بركات ع المكشوف » . من هتاف فنان « صندوق الدنيا » — يأتي هذا النداء . يتوحد حليم بركات على الفور مع الراوي في « طائر الحوم » وتصبح الرواية مشاهد متعددة تقدم صورا من حياة البطل والبطلة في سوريا ولبنان والولايات المتحدة . صورا متباينة متباعدة في الزمان والمكان ولكن يربطها جميعا رباط واحد : الغضب . الغضب على الظلم اينما كان . الاحتجاج على الوحشية وسوء الخلق ، واضطهاد القوي للضعيف . الضيق بكل ما ينشر القبح بين الناس وبين اشكال الحياة المتعددة من حيوان ونبات .

يقول الراوي : مليء بالغضب المكبوت أنا . وأكثر ما يغضبني هذا الافتراس وهذا القهر . عندما افكر ان تاريخ الانسان هو سجل هائل للافتراس ، أشعر بالذنب لأنني لم انذر نفسي للقتال . ما اكثر القتل ! ما اكثر الأقنعة ! ما أحوجنا للقتال . لماذا أنا في واشنطون ؟ لماذا لم اكن فيك يا بيروت وقت حصارك ؟ لماذا لم أقاوم الدبابات الاسرائيلية وهي تسحق الازهار البرية في الجنوب ؟ المقاومة ملح الأرض .

وسط ثراء امريكا الفاحش وتمتعها المتخم بأطايب الطعام والكساء والمسكن ، يذكر الراوي جوع افريقيا . يتبين زيف الحضارة الغربية في امريكا ، اذ تصنف العالم الى برابرة ومتحضرين . ديموقراطية الافتراس المتخفي هذه ، تسمي الأبطال المحررين ارهابيين . لا يستطيع الراوي أبدا أن

ينسى القضايا والهموم الكبرى ، فهو مسكون بها ، منذور لها . لا يجد فى الحياة فرحا ولا جمالا ولا طمأنينة مادام لا يشاركه فيها الآخرون . وعبثا يحاول التحرر من هذه الهموم فلا يكون أمامه الا أن يهتف ، راضيا ، امتلىء يا نفسى بالقضايا . مثلك يا طائر الحوم رحيلى الدائم وولادتى بعد كل موت .

الثورة على الظلم والاحتجاج على القتل زُرعا زرعا فى نفس الراوى اذ كان طفلا . شاهد اسراب طيور الحوم الجميلة ، الجليلة ، تغتالها بنادق صدئة لصيادين لا يعرفون قدسية الحياة لأنهم هم أنفسهم اموات . أماتهم الفقر والقهر والجرى المحموم وراء لقمة العيش . كانت الأسراب قد ظهرت فجأة فى سماء الكفرون ، فتراكض الأولاد حفاة يراقبونها بشغف ، مأخوذين بأشكال طيرانها ، واجنحتها الضخمة ، واعناقها الطويلة . كانت تسرح فى الفضاء مسحورة بشفافيته وعريه مثل فتاة تتأمل صدرها فى مرآة الماء . بل كانت تلعب ، كأنما نسيت جوعها وعطشها بعد سفرها الطويل ، وغفلت عن الصيادين الذين خرجوا من منازلهم الى السطوح والتلال . وفجأة فرقعت النار دفعة واحدة ، ثم دفعات متتابعة . لايزال الراوى يذكر حتى الآن ، وسيذكر حتى النهاية ، صراخ الطيور الملهوف ، مقترنا بصورة ريشها الأسود والأبيض يترنح فى الهواء . هوى احد طيور أمام الولد . وهو يتخبط ويزعق زعيقا حادا مضطربا يختلط فيه الألم والغضب والاحتجاج والرعب . لم يدر الولد كيف يعين الطائر على بلواه ، ويقنعه بأنه ليس من نسل الصيادين . واذ هو حائر ماذا يفعل تسلل صديقه رئيف كالنمر الجائع وانتشل الطائر الجريح . اعترف فيما بعد أنه ذبحه وشواه وأكله ، وأن لحمه قاس ومر . ولكنه لم يأسف فقد باع ساقيه الطويلتين لرجل يصنع من سيقان طيور الحوم مشارب سيجارات يبيعها للمدخنين الأغنياء .

يفرش طائر الحوم — من ثم — جناحه الضخم على الرواية واحداثها ، ويصبح رمزا للجمال المغتال ، ولتحدى الموت ، والاصرار على العودة الى الحياة . فرغم المذابح السنوية تعود أسراب طيور الحوم الى الظهور كل عام . يجد فيها الراوى قرينا لرحيله الدائم وولادته بعد كل موت .

تتداعى هذه الذكريات فى اعماق الراوى بعد ما يزيد عن أربعين سنة . كان هو وحبيبته يراقبان عصفورا أزرق يستحم فى بركة صغيرة للطيور فى حديقة بيتهما . وما أن طار العصفور الى شجرة الجيران ، حتى هبط هو الى اعماقه يلاحق تداعيات غريبة تجتاحه كموج المحيط على شاطىء الجسر الرملى . يذكر ان امه داعبت ذات يوم بنتا صغيرة اسمها منى ، ولدت فى امريكا ، لا تعرف العربية ، جاءت تزورها . لعبت الأم مع البنت لعبة العصفور الذى جاء يشرب من بركة ماء . لقطه واحد من اصابع اليد ، وذبحه أصبع آخر ، ونتفه ثالث ، ورابع شواه واكله الأصبع الكبير . ودغدغت الأم ابط البنت فضحكت وطلبت تفسيرا لما قالته الأم ، فامتنع

الراوى عن الترجمة ، خوفا من أن يصدمها بشراسة التعامل مع عصفور يشرب من بركة اليد .

وشاهد الراوى فيلما وثائقيا يصور قطعانا من الثيران والأبقار الوحشية ، تسرح فى برار واسعة ، تأكل غصون الأشجار والأعشاب دون عناء ، وتتناكح دون خجل ، وتتمدد فى الظل بكسل . وفجأة تهاجم الذئاب واحدا من القطعان . تطارد عجلا صغيرا فتندفع امه للدفاع عنه . ولكن هجوم الذئاب يتواصل ، فتنسحب الثيران والأبقار الى مكان أمين تراقب المطاردة رافعة اذيلها فى الهواء الطلق . يقع العجل الصغير فريسة رغم دفاع الأم المستبسل ، فتعلن هذه يأسها وتلتحق بباقى القطيع دون ان تلتفت الى الوراء . يواجه الراوى بفكره أمة العرب . فلسطين تسقط فريسة . بيروت تتساقط . البصرة مهددة بالسقوط . الجنوب اللبنانى محتل . لماذا تترك الأم وحدها لتقاوم ؟ يناجى الراوى العواصم العربية الثيران : تشمخين بقرونك مذهولة ، تراقبين وجلة . تتناطحين . تتناكحين سرا فى الدهاليز ، تأكلين الأخضر واليابس . تتمددين خارج التاريخ بكسل بليد . ما نفع المواجهة . آه من المأساة المهزلة !

يركب الراوى الطائرة الى امريكا مهاجرا . معه كانت عروسه . كانا لايزالان فى شهر العسل . لم يشعر الراوى انه مهاجر حقا ، فانتماءاته عميقة عميقة ، ولا مجال للاقتلاع . اما عروسه فكانت تعود الى أهلها الذين هاجروا من زمن واتخذوا امريكا بلدا جديدا . وفيما تخترق الطائرة كثافات الغيوم البيضاء فوق امريكا ، يتذكر انه فى طفولته دخل فجأة كثافات غيوم سوداء ذات بروق وصواعق متكررة . توفى والده فجأة وهو فى الثلاثينات من العمر ، ولم يخلف وراءه مالا ، فحملت أمه اسرتها المفجوعة ـــ الراوى واخته وأخاه ـــ ونزحت الى بيروت بعد أن جاهدت عبثا فى القرية ما ينوف عن العام . عملت خبازة تتلقى أجرها ارغفة ساخنة ، وحصاده موسمية فى مناطق نائية . مات الزوج وزوجته تستعيد قواها من مرض عانت منه كثيرا حتى لقد وقع فى ظنها انها ستموت قبل الزوج . فلما مات بعد أيام قليلة من عودتها الى البيت ، اخذت تردد ان الأب افتداها بنفسه ، حتى يدرأ عن أولاده شر اليتم . فليس اليتيم من مات أبوه بل من رحلت امه . ذلك هو اليتم الحقيقى ، ثم راحت الأم فى اخريات عمرها تعتبر انها قد عاشت ما كان للأب من عمر ، اضيفت الى عمرها هى ، ومن ثم ستعيش هى طويلا فى العذاب ، تسعى للموت وتراه يسعى بعيدا عنها .

كطائر الحوم ، تفرش الأم جناحيها الكبيرين على أولادها وعلى احداث الرواية . وكما سقط طائر الحوم صريعا برصاص صيادين فقراء لا يدركون ما هم فاعلون ، سقطت الأم عدة درجات ، فاصطدم رأسها بالحائط والحاجز الحديدى وهمدت فى أسفل السلم . لم يدر أحد مادفعها الى النهوض من فراشها والتجول فى البيت على غير هدى . كانت قد بلغت الخامسة والثمانين ،

وأصبح دعاؤها الدائم : يارب ، من وقعتي لحفرتي . يارب استر شيبتي . غير ان الموت ظل منها بعيدا . يعجز الطب عن ان يشفيها ولا يقدر الا على التخمين . قد تموت قريبا ، وقد يمتد عمرها سنوات . ويقف الابن بإزائها محيرا كما وقف أمام طائر الحوم الصريع . طالما اعتبر الابن أباه طائر الحوم . فهل أمه ايضا طائر حوم ؟ وكيف يرى طائر الحوم نفسه ؟ ما اللغة التى يتكلمها مع نفسه ومع الشجر والغيوم والمطر والماء ؟ هل يعتبر السماء خيمته ؟ هل يقبل اباه وأمه بين اسرابه ؟ هل يقبله هو فى المستقبل ؟ ماذا يفعل حين يعجز عن الطيران ؟ هل يختبر الموت البطىء ؟ امه تناديه من اعماق يأسها : من فضلك خلصنى من التعب . كيف يستطيع ؟ هل ما يشغله حقا هو أن يتخلص من تعبه بها ؟ لا يظن .

الأم شاعرة الى جوار انها مناضلة . تغنى ابياتا من العتابا مليئة بالتفجع ، والحسرة والعذوبة ؛

وين أهل المروءة اليوم تسعى / يفكوا الحديد من الرقاب .

وتغنى أيضا :

حباب الدار وين راحوا / شبيه الطير لو قصوا جناحو

وتردد وهى فى عالمها السديمى المضطرب : « ما فى عين تشبع شوف من عين » وترجو الله أن يخلصها من العناء فلا يستجاب لرجائها . فتغنى :

جرى دمعى على خدى من الهم / ولا صايغ جلى قلبى من الهم

حمنت الصفا غالب على الهم / تارى الهم غلّاب الصفا

ياطائر الحوم . يبدو انك غير قادر على الضحك ! لماذا ؟ هل خلت حياتك من الطمأنينة ؟ نحتاجها بين وقت وآخر . منذ فترة عبرت الى شاطئها لسبب ماقلت لأمى : عفاك يا أم حليم يا ياشاطرة فأجابت : « تقبر هكذا شطارة » .

لدى اقل بادرة يعود الطير المهاجر حليم بذاكرته الى وطنه . يترك أمريكا ويتعلق بذكريات الطفولة . يريد دائما ان « يمارس الوطن » وهو فى المهجر . يتسلق هو وزوجته مرتفعا شاهقا ليطل على النهر ، فيجد شيئا ما فى صدره ينخطف . ينطلق مثل طائر الحوم . ها هو ذا يرتفع ، يضرب جناحيه فى وجه السماء الواسعة . يخترق كثافات الغيوم البيضاء فوق الأطلسى . يغط على قمم جبال الألب متتبعا خطوات هانيبال ، ينتقل مع السندباد الى جزيرة ، يبحث عن يوليسيس الضائع ، يستعيد موت سقراط ، يقترب من شواطىء سوريا خاشعا وجلا . يتعمق ، يتأمل وادى جهنم ، ويؤخذ بجماله ، يطل من « باب النقب » على وادى الكفرون فيغط مطمئنا مبهورا .

ذلك كان حليم ممتطيا متن طائر الحوم ـــ رخ آخر يظهر فى سماء ادبنا الحديث ، يجد مكانا

ملائما تماما فى هذه الرواية الشعبية الضاربة فى جذور الأرض ، تتحدى بالتاريخ والعناد والكبرياء زيف حضارة الغرب . تقول له زوجته : إنسَ الكفرون . إنها المرجع لكل شىء فى مخيلتك . تأمل هذا المنظر . ليس فى الكفرون مثل هذا الجمال . ويرد عليها : لكل جماله الخاص . وتدعوه الى أن يتحرر من الذاتية ومن الرواسب . فيرد : الذاتية لا يمكن . وما تسمينه رواسب اسميه جذورا . لذلك أحببت شجرة الصفصاف . ليس لأنها تبكى وتهبطِ دموعها الى النهر . وليس لأن رؤوس أغصانها المتدلية ترسم اعينا متتابعة على سطح الماء كلما حركها الهواء . أحب شجرة الصفصاف لأنها تنكفىء على ذاتها وجذورها . كلما كبرتُ فى العمر ، انحنت اغصانى نحو جذورى . وتحذره زوجته من أنه سينتهى سلفيا فيرد : هناك انتماء جامد وانتماء متحرك . لا استطيع التحرر من الصفصاف الذى شرش فى نفسى .

مقابل صورة طائر الحوم الجليل الجميل الذى يفترش السماء ، ويرحل الى كل الوديان ويندفع طلقا ، مهيبا واثقا يضع حليم بركات صورة حوت يونس يرمز بها الى حياة أمريكا واساليب العيش فيها . يقول الراوى لزوجته : اعتقدت ان دخول يونس بطن الحوت وخروجه منه مجرد خرافة حتى دخلت بطن وحش أرهب من الحوت هو مدينة نيويورك . كان حليم وزوجته قد استقلا الطائرة الى نيويورك . قامت عاصفة فلم تستطع الطائرة ان تترك المطار . دخل حليم بطن الحوت فعلا ، ولما حاول الغاء سفره قالت المضيفة ان النزول مستحيل . وقضى حليم ساعة ونصف ساعة فى بطن الحوت ، يحادث الموسيقار فاجنر فى الخيال ، يشرح له جمال طائر الحوم ، جناحاه الكبيران اشرعه تمخر به بحر السماء وعنقه جسر بين جزيرتين ، كبير ، متكبر ، هادىء داخل العواصف . مهاجر دوما بين الجنوب والشمال ، مدفوعا بالعطش والجوع والشبق والدفء كلما عبر عالما تكشف له عالم آخر .

اين هذا من الطائرة المعدنية الذليلة ـــ حوت يونس المعاصر ، التى تقف مكسورة كسيحة لمجرد ان عاصفة قد هبت فأقعدتها حيث هى ؟ تقول له زوجته مواصلة نقاشا بينها وبينه لا ينقطع ابدا . هى فى جانب الحداثة ، وترك الجذور والعيش فى الحاضر ، وهو يرى فى حداثة الغرب هزالا ، وكذبا ، وظلما ، وعدوانا على الغير . تقول الزوجة ان الامريكيين جاءوا الى العالم الجديد وبدأوا حياة وبنوا مجتمعا غير مثقلين بالتراث والمؤسسات ، خاصة ذلك الذى ترسخ ايام الجهل والفقر والاضطهاد . حاولوا ان يكونوا انقياء وان كان ما فعلوه بالهنود الحمر ثم بالسود عاراً تاريخياً . يرد الزوج : وفى هذه الأيام يكملون التمدد الأوروبى لقهر العالم والسيطرة عليه . قتلوا الهنود مرتين . مرة برصاص بنادقهم ، ومرة برسم صورة سلبية لهم كى يسوغوا القتل . الضحية جعلوه قاتلا معتديا . ورسموا القاتل المعتدى رياديا طموحا بريئا متقدما متدينا . فى هذه الأيام

يقتلون العالم الثالث مرتين كل برهة . علاقتهم بأرضهم وبالهنود والسود والعالم الثالث وحتى الفضاء هي علاقة قهر وسيطرة ومطاردة وحصار واستغلال . نحن الآن فى أوج هذه المرحلة مافعلوه بالهنود والسود يفعلونه بالعالم الثالث .

قدمت له حبيبته ورقة هبطت من شجرة باسقة . تأمل ألوانها المتوهجة وعروقها الشفافة ممتدة فى مختلف مساحاتها . اعاد الورقة الى حبيبته وسأل : تذكرين قصة ذلك الولد المشوه الذى أصيب بمرض الفيل فتكونت له ذراع طويلة قوية ضخمة ؟ تسأل الحبيبة : ذلك الذى كان يضرب بقية الأولاد بما فيهم اخوته وأخواته وكان له بينهم ضحايا ؟ يقول الزوج : تماما . والذى كان أهله مضطرين دائما أن يدافعوا عنه ويطالبوا بقية الأولاد أن يتجنبوه ويتفهموه بحجة أنه مريض ، وحساس ، ومعقد ؟ تقول الزوجة : اعرف انك ترى ان اسرائيل هى هذا الولد . وامريكا الأهل المضطرون ان يدافعوا عنه باستمرار .

نقرأ هذا الكلام ونتذكر « مخول » ، الفقير ، الوحيد ، المنبوذ ، الذى تضخم رأسه بشكل فاق الحدود . لم يكن أحد يعرف من أين جاء ولا من عائلته . كان بلا أهل ، مقطوعا من شجرة ، هدفا للسخرية والمطاردة ، يجرى وراءه الأولاد ويعيرونه بكبر رأسه ، ويهربون حينما يلقاهم بالحجارة . دعاه والد حليم ذات ليلة ممطرة باردة ، وغنى الأب العتابا بصوته الجميل فاذا مخول يسترسل فى البكاء وتتحدر دموعه متصلة وتجرى على شاربيه ولحيته القصيرة . شعر الولد بالذنب اذ تكشفت له نفس مخول الرقيقة الحساسة ، المطمورة تحت ركام العذاب والاهانات اليومية الموجهة اليه . اقسم ان لا يطارد مخول من بعد واعطاه سلاحه ليدافع به عن نفسه . تتشابك هذه الصورة مع أخرى : فظاعة الاضطهاد وملاحقة القوى للضعيف . صورة امرأة عمياء صادفها الراوى فى سوق الحميدية بدمشق ، وشاهد الأطفال يطاردون العمياء وينادونها بسخرية : « حليمة ، يا حليمة » فسأل احد الباعة ، لماذا يعذبون هذه المرأة المسكينة ! قال البائع : « نحن مجتمع بلا تهذيب » .

تشتبك أيضا مع صورة الزنجى اسكس ، الذى لاحقته قوات الظلم فى امريكا ، ساعية الى اهدار آدميته ، فقتل من المطاردين ستة قبل ان ترديه رصاصاتهم . تشتبك كذلك مع صورة الطفل المدلل ، ذى الحجم الفيلى الذى ترعاه امريكا ، وتحميه وتحذر جيرانه من التعرض له . لقد أصبح للطفل جيش يسمى جيش « الدفاع » يغزو به الجيران ويستولى على الأرض . ويجتاح البشر ويقتل وينهب ويعذب وهو دائما فى حالة « دفاع » !

ومن هذه الصور المتشابكة تخلص لنا صورة أخيرة ، هى اننا ، وان كنا نَفْضُل اعداءنا ، ونسمو على اخلاقياتهم التى تعتمد التقدم بلا متعة حقيقية ، فإننا كذلك مازلنا نعانى من آثار

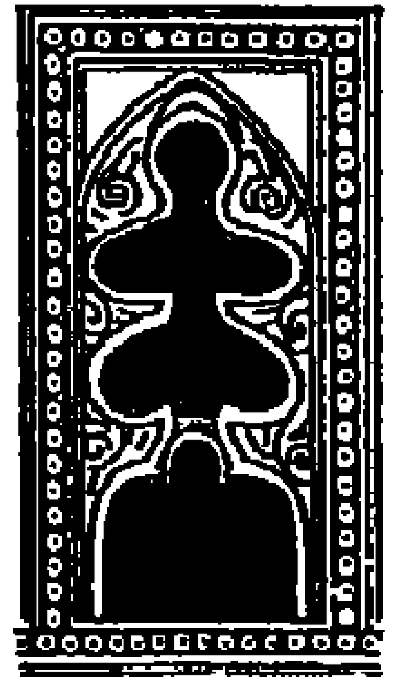
الماضى القائم على الوهم والتسلط ، وحب القمع . ومازلنا راكدين فى بركة من ماء آسن ، لا يريد حكامنا ان يخرجونا منها ، ولا أن يخرجوا هم انفسهم .

فى مكان ما من هذه الرواية الزاخرة يقول احدهم لحليم : انت تكتب كما كان يكتب جبران خليل جبران . فيقر حليم بشىء من الانتساب ثم يسارع الى القول بأنه مع ذلك يختلف اختلافا بينا عن جبران . يلتقى الاثنان فى حب الخليقة بكافة صورها ، وتقديس الحب ، واعتماده وسيلة للقربى الوثيقة بين الناس على تباين الوانهم وعقائدهم وثقافاتهم . ولكن حليم بركات لا يكتفى بهذه البداية ولا يجعلها نهاية أبدا . لا يمنعه الحب من الكره . يرى الكره وسيلة مجدية للدفاع عن الحب . ومن ثم هجومه الكاسح على كل مظاهر الزيف والظلم التى يزخر بها المجتمع الأمريكى ، على الصعيد السياسى خاصة . غير انه لاينسى أبدا مظاهر الايجاب فى هذا المجتمع . الزنجى الذى بادره بتحية عربية حينما عرف انه عربى . قصيدة الطالبة الجامعية التى تتحدث عن استضافة اسرة سودانية لها ، أكلت معها الجبن والطعمية والسلطة والتمور وشربت الشاى وتمتعت بالشمس واعلنت انها لم تجد فرقا بين النيل الأزرق والنيل الأبيض . الأمريكية الشابة التى قتل زوجها فى حرب فيتنام وسألها مراسل التلفزيون بماذا تشعر ؟ فأجابت : لا استطيع ان أغفر لهذا البلد (امريكا) أنه أرسل افضل شبابنا للموت فى بلاد نائية .. كتب لى زوجى قبل ان يموت انه لايحترم حكام فيتنام الجنوبية . شعر انه يدافع عن اللصوص ويحارب المحاربين المثاليين . قالت الزوجة : لقد درست التاريخ الأمريكى منذ الطفولة ، وكونت فكرة ناصعة عن نظامنا . لقد تحطمت الصورة ولا يهمنى بتاتا ان اجمع اجزاءها .

تنساب الهموم السياسية فى الشرق والغرب معا انسيابا طبيعيا ، كجدول رقراق لا نعترض عليه أبدا بل نستعذب خريره ولا نجد انه غريب على جسم الرواية . « طائر الحوم » عمل فنى متكامل . هو قصيدة طويلة فى تمجيد الحياة ، وهو تمثال باق للناس والأحياء فى بلاد المشرق — سوريا ولبنان خاصة — حرص حليم بركات وهو يقيمه على ان يجمع له زهورا عبقه اخاذة من عادات الشعب واعرافه وادبه ، وغنائه العفوى الجميل . وهو أيضا نقاش طويل متصل يتحاور فيه ليس الزوج والزوجة فقط ، بل الأفكار عامة ، والأنظمة والحضارات كذلك . وهو قبل هذا كله تمجيد دافىء وحنون للأم والأب — الأم خاصة ، تلك التى تقف كالصخرة الصلدة تدافع عن أولادها بعد ان اختطف منها العقاب — طائر الموت — رفيق حياتها وعائلها . أليست أم حليم هى التى تقول هذا القول الضارب فى أعماق الحقيقة : من مات أبوه ليس يتيما . إنما اليتم الحق فى وفاة الأم ؟ .

الوباء

هاني الراهب



يوم لطم الشيخ عبد الجواد الخياط خد ابنته خولة لأنها لم تمتثل له ، لم تعترف بسطوته عليها ، وبواجبها ان ترضخ له لأنه المرجع والسلطة ، والرجل ، وهى التابع والابنة والأنثى — يوم فعل هذا استرد الشيخ عالما مستقرا كان يملكه يوماً ما ، ثم أحس به يفلت من بين يديه . أو هكذا ظن الشيخ ! بلطمة واحدة استرد ذلك العالم . وأيقن أن الأحياء لن يضلوا السبيل . وأن خولة ستظل امرأة طاهرة حتى الموت . لن تلطخ شرفا . لن تذل اسما . وأن ابنيه : عيسى وشداد سيتابعان سيرة آبائهما الأولين . وأن العالم الثابت منذ الأزل سيظل ثابتا الى الأبد . وَرغم الموت والخطأ والتأرجح سيعود الشيخ الى الله بنفس راضية مرضية .

غير أن ما تم كان عكس هذا تماما . وحينما مات الشيخ عام ١٩٥٠ ، كان أربعة من أولاده قد نبذوا طاعته . ابنه الكبير أحمد أصر على أن يتخلى عن العيش بين الفلاحين . رفض ان يتزوج واحدة من بنات عمه . وأبى ان يعمل مرابعا عند عمه الشيخ ابراهيم . تزوج من فتاة غريبة وسافر الى المدينة يعمل خياطا . عيسى رفض ان يترك الدراسة واعلن انه يريد أن يصبح مدرسا . كذلك فعل الابن الثالث شداد . وابن رابع — كنعان — انتحل شخصية اخ له مات طفلا ، هو داوود ، وترك القرية ومضى . ومات أحمد من بعد ، ومات أيضا أيوب ، كل منهما مات لسبب غامض تعذر على الشيخ أن يفهمه . هنالك نظر عبد الجواد فى حياته فوجدها سلسلة من الأخطاء والفشل . امضى عمره وهو يقسر حياته وحياة الناس حوله على التطابق مع مثل أعلى ، رآه الآن مفتقرا الى العدل والحرية . ابنه أحمد كان شجاعا ، فنظر فى عقله ، أحب وأخلص الحب . فكر وأخلص التفكير . عمل فى الخياطة وأخلص العمل . أما هو فلم يفعل شيئا من هذا . لم يصارح نفسه يوما بحقيقة مشاعره . لم يعترف بهذه المشاعر . لم تكن له أيام

حلوة وأخرى مرة . ولا أيام عظيمة . لم يستطع ان يتذكر انه أراد شيئا طيلة حياته . وجد أن الكون نبذه ، وربما باحتقار . وانه عندما حاول أن يصبح حجرا راسخا فى جدران العالم كان مغرورا ومضللاً . وانه اذا كانت هناك حكمة فى موت ابنائه الواحد بعد الآخر ، فهو لا يعرفها وهو غير قادر على الرضا بها . من أجل هذا كان عبثا ان يقف ضد مظاهر التغيير التى اخذت تتتابع على عالمة : نقاشا عن كروية الأرض . اعجاب بالخوارج ، كلاما بالانجليزية . ذكراً لأيوب وأيامه المجيدة . امتداحا لكنعان لأنه ترك القرية ومضى . غضبه العارم على هذا كله لم يستطع ان يحميه . تكفهر وجوه أولاده ساعة يحضر . خولة لا تنطق بحرف ولو ظل ساعة يكلمها . يتغامزون وراء ظهره . حتى السورة من الكتاب لا يجد من يقرأها له .

الى جوار هذا الشيخ الذى حاول أن يجد الامان فى انكار التغيير ، تضع رواية « الوباء » نموذجا آخر من نماذج الخروج على الواقع والناموس . تمثل هذا النموذج فى مريم خضير ، الشابة الفاتنة ذات الجمال الخرافى . قيل انها ، لنقاوة بشرتها ، كان الماء الذى تشربه يبين من حلقها . خافها الخطاب وصار جمالها عقبة فى وجه زواجها . بلغت السابعة عشرة ولم يجرؤ احد على طلب يدها فتلفت اهلها حولهم مذعورين . غدا تبور البنت وتعنس . وفجأة تقدم اليها حسن الغفرى : سنجابٌ مذعور خائف من محبيه ومن ثروته ، تقدم بخطى واثقة وطربوش جديد ، واخترق الحاجز العصى . ولكنه ما لبث أن تبين ان جمال مريم قوى ومعجز كالحياة نفسها . لم يستطع أبدا أن يكون كفوًا له . ورغم التسابيح والصلوات التى كانت تنعقد فى نفسه اعجابا بها وتمجيدا ، ظل هذا كله حبيس صدره ، واخذ هو يتضاءل أمام زوجته شيئا فشيئا ، فتمتصه نفسها شبيهة الصحراء . وسرعان ــ ما أصبح حبيسا فى سعة أرضه وجمال زوجته . واخذ العشاق يتوالون على مريم . وأخذت الأقوال والأحاديث تتناولها فأصبحت مضغة الأفواه . كل العشاق جاءوها كما يأتى اللئيم مأدبة اليتيم ، كلهم كان اعمق بهجتهم انهم يظفرون بزوجة الأغا . يختلسونها منه كما اعتادوا ان يختلسوا شوال حنطة أو كيس تبن . اذ ذاك كانت مريم تطردهم كالكلاب ، لأنهم جاءوها كالكلاب . لم تسمح لأحد منهم ان يحتقر زوجها أو يسخر منه ، هو الانسان فوق الناس ، الرائع النبيل .

وتحركت القرية ضد مريم وزوجها . أنفذوا إلى حسن الوفود ، تطالب بأن يطلقها فطردهم . طلبوا ان يمنعها من الحديث مع أحد ، فقال انها امرأة تحب الحرية ، وليس هو من يحجر حريتها . عرضوا أن يراقبوا حركاتها فانفجر غضبا وشتائم، أرادوا قتله أو قتلها ثم خافوا الدرك. احكموا الرقابة على الدار وجعلوها ثلاث حلقات بدلا من واحدة . واخيرا تكلم حسن . قال لزوجته : يا مريم وضعت رأسى فى الوحل . فردت : حاشا ، يا حسن سأكفيك شر الناس

جميعا . واغلقت النافذة واطفأت السراج ونامت وزوجها متعانقين عناقا طويلا باكيا .

غير ان بدر جندار مالبث أن ظهر فى حياتها . لم يظهر فجأة وانما كان دائما حاضرا . وحينما احبته واحبها تغلغلت فيه مريم كجذور الجوز وتغلغل فيها . صارت امرأة أخرى . تجوهرت بالحب . تفتحت بالحرية . تخمرت بالفرح . اعطت عطاء أرض عرفت غرزة المحراث ، فتفتحت فى طريقه ، وتمرست بتفتيت حبة القمح وبعثها . وقد احبها بدر لأنها كذلك ، ولأنه هو فلاح . ومع حب كهذا كان لابد ان يموت حسن . وضعت له السم فى صحن الأكل وأرسلته إليه ليأكله . اخطأت الخادمة وأعطت الصحن لبدر . أكل هذا الطعام ومات .

فى المحكمة اعترفت مريم اعترافا كاملا . قالت انها وضعت السم فى صحن حسن ليموت . قالت انها تحبه ، مازالت تحبه ، وأنه أفضل انسان فى العالم . ولكنه كان يجب ان يموت . لم تعد تطيق ظل شجرة يفصلها عن بدر . دافع عنها حسن وقال انها بريئة . ربما كان بدر قد طعم اكلا مسموما قبل ان يجيىء الى بيته . مريم الآن صارت تهذى ولو أنها اعترفت لكان هذا دليلا على هذيانها . مريم تخجل منه . ما كان ضروريا أن تقتله . لم يمنع عنها شيئا ، وكان يحميها . اضطر القاضى فى الجلسة الأخيرة ان يصدر حكما بالبراءة !

شكلت مريم بهذا موقفا آخر مغايرا لموقف الشيخ عبد الجواد . هو عاد من رحلة المطلق متعبا واستقر فى ارجوحة التوازن وتدبير الحال ، وهى قفزت من الأرجوحة ومضت نحو الأفق . وحين جاء بديع يزورها سألته : بديع ، انت لا تقرف منى ؟ اجاب : لو كنت اقرف منك ما كنت أزورك كل يوم . اتضايق من الكلام عنك . وسألته : ورفاقك ، الا يقولون عنى شيئا ؟ عبسى الخياط مثلا ؟ أجاب : ابدا . نحن لا نتدخل فى شئون الناس الخاصة . وعبسى دائما يذكرك باحترام . لأنك تتحدين . وسألته : وأنت ؟ قال : اى شيء يهز الأموات فى قبورهم أحبه . لو كان حسن حراً ، لما صرت أنت زانية ؟ قالت : أنا زانية ؟ يعنى انت تقرف منى . اجاب : بلهاء . الزانية مقدسة . انت تهدمين المزارات النتنة من عقولهم .

ولما ذهبت خولة تزور مريم ، والأخيرة على بعد خطوات من الموت ، قالت لنفسها : ها هى ذى مريم خضير : الأسطورة . الشيطان . الرائعة . العاشقة . القاتلة . الزانية . المسلولة . المسكونة . نسمة الأصيل . حديث الليالى . بئر الذنوب . مشجب الآثمين . ابنة الفقر . سيدة العلية . الصفراء كالشمع . جاءت خوله تزورها لتسألها : ما الذى جعلها تمشى على هذا الطريق أرادت أيضا ان تطمئن الى انه لن يصيبها ما أصاب مريم . قالت لها مريم : لن يصير لك مثلما ثار لى . انت بنت مفتحة العينين ، مغمضة القلب . شبابك ضائع . أنا لم يصر لى شيء . انا وصلت لشيء ما وصل اليه أحد فى القرية . غير ابيك . أبوك فقط وصل لهذا

الرضا . كنت كلما رأيته وجدته الشخص الوحيد الذى جعلنى افكر فى حالى وحال الدنيا . كنت أقول بينى وبين نفسى ، وأنا افكر فى عينيه الهادئتين ، المليئتين بالأسرار : ياترى يا شيخ عبد الجواد ، لو كنت مشيت على طريقك كنت وصلت للذى وصلت اليه ؟ أبوك وحده كان يجعلنى أشك فى أمرى .

قالت مريم ان حقيقة مأساتها ان حسن كان قد مل الحياة حتى قبل ان يتزوجها . كان يبحث عن شىء لا يتهرأ . ولكنه اخطأ السبيل . ظن أن مريم امرأة بهيمة ، يمكن ارضاؤها بفستان أو بدلة من بيروت . خمن أنها امرأة لاتهترىء . احبها ليس لساقيها أو صدرها أو عينيها ، وانما لأنها جميلة . احبها كما يحب المنظر الجميل . حبسها فى القرية ومضى يشعرها ان وراء القرية عالماً واسعاً كبيراً . خافت أن يضيع عمرها فى هذا الحبس . ملت وصار مللها جنونا . تنظر الى نفسها فى المرآة فترى نفسها جميلة . ولكن الجمال خلق للحب . الجمال يريد الحب . طبعا ليس هذا رأى أصحاب الشرف من أمثال خولة . هم يخرجون من « قبور » أمهاتهم ويركضون فى الحياة على دروب تصل الى القبور المحفورة فى التراب ، حاملين نعوشهم من الرؤوس الى السيقان . وهى أرادت أن تعيش للحب . فهذا هو الجمال .

وبدر ؟ احبته حبا عميقا غامرا وودت ، من شدة خوفها عليه أن يموت . احتارت ماذا تفعل بكل هذا الحب . كان الحب ثقيل الوطأة عليها بما اتاحه من سعادة . فى البداية ينتشى الانسان بهذا الحب ويحلق معه طائرا ، ثم لا يلبث ان ينزل الى الأرض حتى يخنق الحب التراب . مائة مرة تخيلت مريم بدر ميتا . كانت تتخيله ميتا وتموت من الرعب ثم تعود فتراه ميتا . كأنما كانت تتمنى موته . وحينما اعطت الصحن المسموم للخادمة كانت متيقنة انها ستمشى به الى بدر وليس الى حسن . لهذا قالت فى المحكمة انها قتلت بدر فلم يصدقها أحد .

وسألتها خولة : ألا تندمين على شىء ؟ فأجابت : على أى شىء اندم ؟ ماذا يريد ابن آدم من حياته ؟ كنت دافئة فى عز الشتاء . قد اكون خالفت وجدان الناس . غير انى عشت . ومن لم يعش مثلما عشت لا يكون عاش . شبعت حبا ، وحرية وخبزا ، والناس كلها جائعة ، مذلولة ... علاقة قربى خفية قامت بين الشيخ عبد الجواد ومريم . حين بدأت قصص غرامها تشيع قال متسخطا : الله يلعنها . وعندما ماتت تنهد وقال : رحمها الله . ثم مات الشيخ فى الأسبوع ذاته لموت مريم . فربط أهل القرية بين الموتين . أحسوا ، على نحو ما ، ان مريم لن تبارح ذاكرتهم . ادركوا انها كانت اسعدهم ذات يوم وأشقاهم . ربطوا بين الموتين وتطيروا . وكان اسماعيل السندياني اكثرهم حزنا وأقلهم تطيرا . ادرك صلة ما بين الموتين فصفا ذهنه وغيمت على عينيه الدموع .

كان اسماعيل السنديان قد عرف مريم . لم يكن لقاؤهما فرحا كالذى تنبثق عنه الأشياء العظيمة . حيرته مريم وأربكته . فاجأت قُدرتُها الكبيرة على الجنس بقدرتها الأكبر على الحب . طلب جسدها إليه أن يحمله ويجتاز به العتبة الى البستان . وظل هو فى موقعه كالجمل الحروب . لم يستطع ان يكون معها فارسا مخلوقا للأشياء العظيمة . فشل ، فأوصدت فى وجهه الشباك . وصفته مريم لخولة من بعد بأنه قلق لا يعرف ماذا يريد . قلبه حجر صوان . يظن انه لو فتح قلبه فسينقص منه شيء . قالت انه همجى . متوحش . لأنه ضعيف . فضحت مريم عجزه عن الحب . قالت انه اصابها فى مقتل لأنه كرهها وهو لايدرى . رجل يعيش صبح مساء بين الأرض والبساتين والنهر والجبل ، ولا يقدر ان يحب ! أمضت معه سنتين من الجفاف . ضربها بالكرباج لأنه انكشف .

ولكن اسماعيل وجد من بعد امرأة تحبه وتشيع فى حياته الفرح ، وتثبت له انه بدوره قادر على الحب الذى زعمت مريم انه عاجز عنه . تلك كانت خضرة ، فتاة ذات شعر قرميدى وعينين حشيتين وفم رقيق . قطعة من أوروبا . كانت خضراء حقا ، شابة بهية القامة هشة المحيا ، بنت رويش العون ، المرابع عند أبيه منذ ولادته . قدمت له القهوة وهى مطأطئة قليلا ، مطرقة تماما . فستانها الرث بالكاد ينم عن تكوينها المعافى . لم ينم الليل . تساءل : اهكذا يكتشف الانسان عناصر الحياة الجميلة ؟ فجأة وبلا مقدمات ؟ ويكتشف انها امام سمعه وبصره منذ زمان قديم ؟ اهكذا يأتى الفرح ، ودائما مصحوبا برعدة الحيرة والاضطراب ؟

عشرات المرات استعاد مشهد تقديم القهوة ، واسئلة لاتنتهى تناوشه . كل مرة ينتهى من حيث بدأ . يجد نفسه مشدودا بين قطبين متناقضين : الجمال ــ الفرح ــ الحب . الحب ؟ مع خضراء الدمن هذه ؟ مع فتاة لا تحسن الا الحلاب والصر ، لاتعرف شيئا خارج البيت والحقل ؟ ولكنها كانت المرأة التى انبتت فى نفسه شيئا عظيما . زوجته ــ بعد مريم ــ كانت متلفعة برداء آل السنديان الطويل السميك . حتى عندما تكون عارية . كانت ممارسة الحب لديها فريضة تؤديها ثم تخلد الى النوم . لا قلق ينتابها . لا ضجر . لا تسخط . ومن ثم وجدت نفسها ذات صباح تحزم امتعتها وتغادر البيت . اما خضرة فقد بقيت بعيدة ، غائبة . منتظرة ، تأبت عليه اذ حاول ان يلعب بها . وسرعان ما وجد نفسه يعيش قصة حب . اقتحم صمود خضرة وكبرها فاكتشف انه لولا شجاعتها هى لما كان لإقدامه أن يثمر . من بعد تزوجها اسماعيل متحديا اسرته كلها ، ومضحيا فى سبيلها بنصيبه فى الميراث . الى ان يتخلى عن البنت التى حملت منه ، وتجاهل اغراءات الأسرة وتهديداتها . ثم حمل خضرة وابنتها تغريد وسافر الى المدينة . قال الناس ان آل السنديان قد انتهوا . تلاشت الهاله ، ومعها اسماعيل الفارس : الحلم

والحقيقة الكبيران . سجلوا أيضا انه لو كان عند الناس وعى بالاشتراكية ، حس بها على الأقل ، لما رأوا فى زواج اسماعيل من خضرة تلك الفظاعة التى دفعت اخواته الى تقديمه على مذبح المصلحة الطبقية .

ومع ذلك فقد كان اسماعيل ممتلئا بمجد اسرته وعراقتها . رأى فى المنام جده يهتف به : انت يا اسماعيل قاعد هنا ، واهلك مقيمون فى بيروت فلا تذهب لتراهم ؟ تعجب اسماعيل من أن يكون بيت السنديان فى بيروت . قال الجد : الا تعرف ان روح بنى هلال حلت فيك ، وانك عكرمة مفتاح حرب بنى هلال ؟ اذهب لرؤية اهلك فى بيروت . سترى مضارب لبدو رحل . هؤلاء هم بقايا بنى هلال .

ظل هذا الامتلاء بأسرة السنديان ملازما اسماعيل حتى بعد أن تدنت أحواله ولفه الفقر هو وأسرته . فحين انفجرت قضية الميراث وجدته لايزال سنديانا ، رغم انه قد مر به من شظف العيش ما لم يكن أبدا من نصيب خولة أو شداد أو غيرهما . جاءته خبرية تقول انه فى أيام جد الأسرة شيخ السنديان الخامس جرى تخطيط مساحة للأراضى . ولحكمه ربانيه — بلا شك — حدث خطأ فى التخطيط ، وبقيت قطعتا أرض لم تسجل باسم شيخ العنز ، منافس الأسرة على الأرض . الآن اكتشفت الحكومة هاتين القطعتين ، وهما مليئتان بالألومنيوم بكميات كبيرة وسألت الحكومة : لمن الأرض ؟ بحثوا فى الدفاتر القديمة ، فاذا بالأرض ملك لأسرة السنديان .

وجد اسماعيل فى الأرض المكتشفة اكثر بكثير من ارث يستعاد . وجد وراءها سراً عميقا ، أراد الله به ان يبين للأسرة ان الأجداد تركوا لها ما هو اكبر من الأرض . تركوا طريقة للعيش ، اسلوباً للعلاقة بين أفراد الأسرة ، ولعل هذا هو الميراث الأكبر .

تشكك شداد ، ابن عمه ، حين راح يزف اليه النبأ . لم يقتنع قط بما وراء الميراث من رسالة آذنت بأن بالامكان أن تعود أسرة السنديان من جديد . رأى فى الميراث مالاً يجيىء ثم لا يلبث ان يذهب ، ونبهته زوجته ، زهرة ، ابنة مريم الخاطئة ، الى ان النبأ قد هزه وأوشك ان يجعله يخون مبادئه : أليس هو ضد الملكية والتوريث ؟ ان قبل الميراث ، ستحكى زهرة عن خيانته لرفاقه .

فرحت خوله لنبأ الميراث فرحا غامرا . كان اقصى أمانيها ان تمتلك شاليها على البحر ، والآن ها هوذا مال الميراث يضمن لها هذا ويوصلها الى بر الأمان . وهى لا تطلب اكثر من هذا . كانت الحياة قد جرفتها حتى نسيت ان لها أصلاً ، ولم يعد ابوها نفسه يخطر لها على بال . وفجأة يبعث لها الأجداد هدية من تحت القبور !

اما عيسى فقد شمله الفرح ولفته الدهشة . حين تزوج كان بالكاد يقف على قدميه . وكان

مصمما على أن يقطع كل رابطة له بالأسرة المتخلفة ويخلق نفسه من جديد . كان هو وجيله يريدون ان يخترقوا عصور التخلف والعبودية ، ليصلوا الى الحضارة والحرية . وبعد أن وصلوا ، ومدت الثورة لهم جذورا جديدة فى التاريخ يطلع هذا الارث من غياهب الماضى . يتبين ان جذور الماضى مازالت قائمة وان الميراث يثبت انه وجيله ليسوا بلا هوية وليسوا بلا رؤية . بل هم حقيقيون بما انجزوا فى الحاضر ، وما كان لهم من امتداد فى الماضى .

أصبح الميراث اختبارا حقيقيا لكل من عناهم امره . قامت من أجله النزاعات وتوهجت المشروعات . أصبح هم عيسى ومحمد على ان يشتريا انصبة الورثة ، ويقيما مشروعا للتعدين تديره شركة اجنبية ، فرنسية أو المانية ، وذهب الجميع يطرقون ابواب الحكومة وقاعات المحاكم ، ويحلمون بالمجد القادم ، كل على طريقته . وبعد الكثير من الاتفاقات والمؤامرات ، جاء السقوط المدوى للجميع . ذهبوا يتسلمون مستندات التمليك . كانوا واجدا وعشرين وريثا . حتى اسماعيل الذى كان يسلم على القادمين بحرارة وألفة ، تجمدت سعادة ثم تقلصت . واخذ يتساءل : هل كل هؤلاء يستحقون اسم السنديان ؟ كم منهم سيعتبر الارث مناسبة ميلاد جديد ؟ كم سيمضون لبناء مجد السنديان القديم ؟ لم يطل بهم الوقت حتى تبينوا ان عليهم ان يتنازلوا عن سنداتهم فى دمشق مقابل شيكات . ومتى يذهبون الى العاصمة ؟ فى أى وقت ، على راحتهم . حاليا لا توجد اعتمادات فى الوزارة . ومع ذلك فالتنازل واجب والا صودرت الأرض خلال ثلاثة أشهر . ومتى تتوفر الاعتمادات ؟ الله اعلم . ليس فى ميزانية هذا العام على كل حال . هل تقرر ثمن الأرض ؟ ليس نهائيا . كم يحصل الوارث ؟ مبلغ لا بأس به حوالى ألف وخمسمائة ليرو لكل وريث !

انهارت أحلام الجميع : الباحثين عن الجذور ومجد الأجداد والباحثين عن المال لسد حاجاتهم ، والطامعين فى مال يستثمر فى مشروعات . كلهم سقط ، وكلهم اخطأ . محمد على الذى ناضل كى يستغل أهله ، ورجب العز الذى حاول التشبث بالميراث فاكتشف كم هو غريب عنه . واسماعيل السنديان الذى هوى من علياء العظمة الفارغة . وشداد الذى افاق بعد الأوان على حجمه الضئيل فى الحياة فاندفع الى العنف المسعور . وكنعان الذى باع ظلال السنديان برتبة فى الجيش البريطانى الذى كان يحتل فلسطين . وخولة التى باتت لا تعرف الوهم من الواقع ، وأصبحت سجينة آلة الخياطة التى حررتها من سطوة زوجها ، واسرتها فى الوقت ذاته فى احلام الثراء والتملك .

لم يستطع هذا الجيل ان يحقق توازنا زعم انه قام بين قطبى الحياة الرئيسيين فى القرية : مريم

خضير ، ذروة الغريزة ، رمز الاقبال على الحياة ولكن بلا وعى . والشيخ عبد الجواد ، رمز الخلق الرفيع والمثل العليا . مريم كانت الانسان بلا أبدية ، بلا ايمان . بلا مطلق ، تجترح مبادئها من يوم الى يوم — من عشيق الى عشيق . وكان الشيخ عبد الجواد يمثل الابدية المطلقة . كلاهما انهار ، لأن صيغة جديدة للحياة قد نشأت . اذ من يستطيع فى نمط المجتمع الأسبوعى المتخلف ، أن يستسلم لشهوة الغريزة القاتلة ؟ لا يستطيع هذا الا أناس من نوع اسماعيل السنديان أو حسن المقفرى .

اثبت الميراث ان المجتمع الجديد بنى على أساس هش ، واقوال ضخمة خالية من المعنى . لا مريم ، ولا الشيخ عبد الجواد ، ولا جماعة الميراث من ابناء الشيخ اقاربه استطاعوا أن يقيموا بديلا من المجتمع المنهار . ومن ثم ، كان سقوطهم مدويا .

حسن الغفرى وأولاده ، هم وحدهم الذين ينجون من السقوط . بديع ورمضان يعيشان مع الأب ، وزهره تزوجت من شداد . يزورهم شداد ويشرب معهم الشاى ، ويقول لخوله التى تصدمها زيارات أخيها لمن تعتبرهم خطأه وأولاد زنا : هم جماعة سعداء طبيعيون متحابون . لو تريتهم كيف يعامل احدهم الآخر . الانسان يتعلم منهم الحب . حسن الغمرى عرف كيف يصلح حاله ويعيش مع أولاده عيشة راضية . وابنته زهرة ، مؤمنة شديدة الايمان بضرورة النقاء المادى والمعنوى للفرد . تعير زوجها شداد بأنه يجعل نفسه عرضة للهدايا الصغيرة وتسمى هذه الهدايا رشاوى ، يقدمها له ذوو المصالح الذين يتعاملون مع الميناء الذى يعمل فيه . وحين تعرض للجميع محنة الميراث ، تعترض أشد الاعتراض على قبول الميراث لأنها ضد مبدأ الميراث والتوريث ، الذى تراه آفة من آفات النظام الرأسمالى ، تكرس الفرقة بين الناس وتعمل على تسويد من يملك على من لا يملك .

لا يسعى الى مجتمع جديد الا أبناء الجيل الفاشل . زهرة واخواها ، وحيان ابن خولة الذى يندفع الى العمل الثورى بغية تغيير المجتمع تغييرا حقيقا .

الخط الرئيسى فى رواية « الوباء » يندد بالشرف الشكلى ، واليقين الشكلى وعبادة الاسلاف . ويفضح من ركبوا قطار الثورة واحتلوا مقاعد مريحة فيه ، واخذوا ينظرون الى الناس من عل ، ويدافعون عن المكاسب والأوضاع التى حققوها لأنفسهم من خلال الثورة . وما هو دفاع عن الثورة ، وانما هو دفاع عن مصالحهم أو هو دفاع عن ثورتهم هم فى سبيل الحصول على المكاسب والتمسك بها . عيسى واحد من ابرز هؤلاء المستفدين من الثورة الناقصة .

الى جوار هذا تزخر الرواية بمظاهر من حياة القرية ، وما تحويه من شخصيات متباينة ، وما

يمشى فى ارجائها من رموز للسلطة مثل الوقاف ، والدركى ، وعراف. القرية ، وما يحدث فى أيامها من سطو واغتصاب وانتحار ، وانتصار وفشل . تتراوح هذه الأحداث بين بشاعة ذبح أولاد شيخ السندبان الأول على ركبته ، ثم طرده من أرضه واغتصاب بيت العنز لهذه الأرض ، وبين مسابقات شباب القرية وتباريهم فى اظهار القوى ، مثلما يكون بينهم بدر وايوب . ثم حوادث الابتزاز التى يرتكبها الدرك وسرقتهم لدواجن الفلاحين وابتزازهم للهدايا ، حتى يتصدى لدركى منهم الشاب المتوثب بديع ، وينزل بالكرباج عليه ويطرحه أرضا ويسويه تسوية ، فيكون فى هذا حدث فذ لم تر القرية شبيها له من قبل ، ولا يغفل عن دلالته أحد .

داخل اطار تاريخى خفيف ، غير مُلح فى الظهور تتسلسل حوادث الرواية تسلسلا رشيقا يجعل الانسان والفكرة يتعاملان معا فى غير إملال . كثيرة هى المناقشات التى تدور حول احداث التاريخ ، ونماذج المجتمعات ، والأيديولوجيات المتباينة ، ولكن هذه لاتطمس ابدا الجانب الانسانى فى الرواية . لا يمنع هذا النقاش من بروز الأحداث والمآسى الشخصية لبعض الشخصيات . خولة مثلا ، وحبها لشكيب وفجيعتها فيه ، واستبداده بها ، وتحررها منه بعد ان قررت امتهان الخياطة وأصبحت ذات ايراد ، لم يملأ جيبها فقط بالمال بل ملأ أيضا بطنها بأول وليد لها ، بعد ان ظلت اعواما وهى لا تنجب . ومثل الثورة الصامتة التى تدور فى بيت العميد عبسى ، الرجل الذى وصل الى قمة من الثراء وتسنم اعلى المناصب ، ثم لم يستطع ان يحتفظ بحب زوجته ، ولا بفهم وامتنان احدى بنتيه ، التى تجرب المرة بعد المرأة أن تتحرر من سطوته الخانقة ، وحبه الشكلى القائم على افتراض انه فقط بالمسكن الثرى ، والطعام الغنى والملبس الفاخر يمكن أن يحيا الانسان متنازلا عن حريته .

وربما تكون الرواية قد افرطت شيئا ما فى تحرى الاثارة حين صورت النهاية الميلودرامية التى انتهى اليها شداد خلال هروبه من الملاحقة فجعلته يأكل من صحيفة النفايات المرة بعد المرة ، وأدخلت رجال الملاحقة الى بيته ، يطلبونه فلا يجدونه ، فيقرر واحد منهم ان « يلاحق » زوجته زهرة بالاعتداء عليها ، وليقتل ابنا لها هب لنجدة امه .

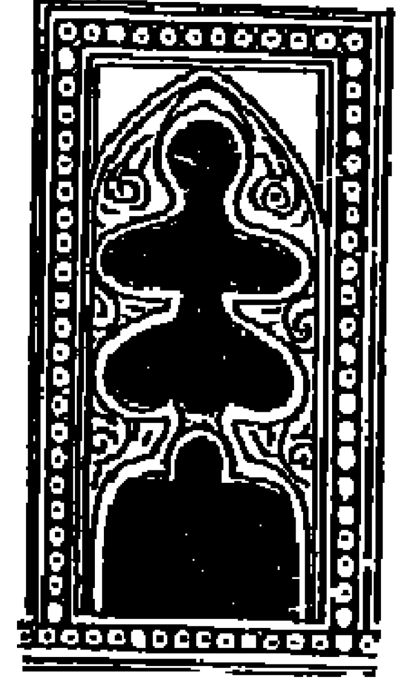
وو ربما تكون الرواية ـــ قد بالغت ـــ أيضا فى اضفاء صفة الثائرة المتمردة على مريم ، وجعلت من تقلبها بين العشاق نوعا من الصدام بين المألوف الخانق ، وبحثا عن الجديد ، والتماسا لجوهر الحب الذى ظلت مريم تبحث عنه حتى وجدته عند بدر . ربما تكون هذه الثائرة على الفضيلة الزائفة قد بالغت فى ثورتها فأصبحت خاطئة بالفعل ، لا يشفع لها انها كانت تجارب خطأة اكثر منها تورطا . ان الرواية تعطى مريم مساحة كبيرة كى تدافع عن قضيتها ، وتبين براءتها ، غير ان هذا يجعلها شخصية ميلودرامية لا تنسى الرواية ان تزودها ببعض مكونات الميلودراما الهامة :

المسكن النتن الحقير الذى تموت فيه ، بعد ان كانت تتقلب فى الحرير ، والسل الذى يمزق رئتيها ويسلمها الى الموت فيما بعد ، ثم الاصرار على أنها كانت على حق فيما فعلت وانها سوف تحظى بالمغفرة من لدن عليم خبير .!

والاشارة واجبة الى اللغة المشرقة الجميلة التى يستخدمها هانى الراهب فى السرد والتصوير معا ، وفى شرح النظريات والمعتقدات ، نقرأها ونحبها ، ونستمتع بها عبر رواية طويلة بالفعل ، امتدت فى الزمان والمكان ، واتسعت ارجاؤها لتبلغ حجم ثلاثية ضمت فى مجلد واحد .

حسيبة

خيري الذهبي



ترى حسيبة أباها يمضى الى فلسطين ، وتسمع زوجها حمدان قبل أن يموت يوم واحد ـــ يسألها : « حين مضى صيَّاح المسدى وتركنا ، ترك الدكان ، وتركك ، وترك راحة البيت ليمضى الى فلسطين ـــ اتساءل : الم تكونى تعرفين فعلا انه سيفعلها ؟ » . تغض حسيبة الطرف فى حزن مرير ، وترى فى خروج أبيها هزيمتها الأولى ـــ خيانة الذكر الأولى لها .

أما حمدان زوجها فقد كان يعرف فى عمق مكبوت فى قلبه منذ زمن طويل ، أن صياح رفض الانتظار . كسر قيد الدكنجى وحسابات الفرنك فوق الفرنك ، وقرر المضى بنفسه الى القافلة ليصنع المهدى بنفسه ، يصافحه ويبنيه . كان حمدان يعرف أن صيَّاح قد ذاق لذة الصنع ، فلم يعد يحتمل انتظار المهدى الجاهز .

تسأل حسيبة نفسها وهى تبتعد عن المرآة التى عكست جبينها العالى قليلا ، وحاجبيها العريضين الأسودين ، حاجبى رجل ـــ لا امرأة ـــ وتتنهد ثم تسأل نفسها : « حسيبة » ، لو لم تتزوجى وتنجبى وترتبطى بهذا البيت ، وجاءت النداء بأن قافلة المغامرة قد تحركت ، أفما كنت تمضين ؟ واحست شيئا صغيرا ، حنيناً خفيا فى اعماق القلب يقول : ربما فعلتها .

اما أبوها فيحدق فى العينين البنيتين المظللتين بالغرابين الأسودين ، ويتساءل : اى تصميم وأية قوة لدى هذه المرأة ! لو كانت رجلا لما جاءَتْ الى المدينة أبدا . لو كانت رجلا لأشعلت معها عشرين ثورة ، وقضيت العمر فى الجبل . آه .. ولكنها امرأة وامرأة صارت دكنجية .

فى نظر الأب ، خانت حسيبة القضية . خانتها لأنها امرأة . وهى امرأة ليست ككل النساء . فى داخلها « ذكر » يصارع الذكور كى يبسط عليهم سلطانه . تشعر حسيبة بالظلم الفادح الواقع على المرأة . تشعر أنها أقوى من كثير من الرجال . تحس ان هؤلاء فاقدو الهمة ،

عاجزون عن الانجاز كسالى ، يختارون الأيسر والأسلم . أما هى فتسعى لأن تبنى لنفسها مملكة تكون فيها السيدة الأولى والرجل الأول . هكذا أرادت ان تربط اباها الى مشروعها الذى يقضى بتدجين الرجال . رسمت الخطط كي يبقى أبوها الى جوارها يعمل صانعا فى دكان زوجها . جادلته اعنف الجدل ، وسعت الى ان تبتزه بالقول انها — من بعد رحيله — ستعيش مفرغة القلب ، ناقصة ، مجوفة . خططت كى يصبح شريكا لزوجها فى الدكان وزوجا للعجوز خالدية ، الفنانة عاشقة الرجال ، الذين انفض عنها الأزواج لأسباب ، ولكن الأب رفض هذا كله فى ازدراء وقال : هذه خططك . نفذيها كما تريدين . نفذيها مع حسان ، مع خالدية ، مع مريم ، مع من تعايشينهم ولكن : ليس مع صياح المسدى .

عبثا اخفت حسيبة السلاح عن ابيها . فقد نظر الى وجهها القاسى فصدمه ، والى جبينها العريض ، وحاجبيها الأسودين الذكريين وعينيها البنيتين القويتين ، وهتف لنفسه : عليك اللعنة ، ما كان ينبغى ان تخلقى امرأة . ولما ادرك ان النقاش معها لا يفيد قال : سأمضى . اعزل . سأشحذ بندقيتى . سأتسول رصاصتى . سأبكى من أجل خنجر . أيرضيك هذا يا حسيبة الدكنجية ؟ ثم اردف : طيب يا حسيبة ، طيب ايتها البنت التى وهبتها العمر ، ووهبتها الجبل فتحولت الى دكنجية . سأمضى ، وستبكين . سأمضى وستعضين أصبعك . سأمضى وستأرقين الليالى . سأمضى ، ولكنك لن تقولى ابدا ان انساناً استطاع ان يمنع صياح المسدى من الانضمام الى رفاقه حين آن الأوان .

ومضى صياح من فوره الى أرض فلسطين وهو اعزل . فعرفت حسيبة مرارة الهزيمة وعرف التجار من امثال ابو منير وابو سعيد والشيخ يوسف ان صيَّاح كان ثائرا أصيلا . وانه حين صمت عن ذكر معاركه مع العدو فى الجبل لم يكن صمته لذنب كبير بل لجرح فى عمق القلب كبير .

مضى صياح وترك لحسيبة لعنة اخرى غير اللعنة التى كانت تعيش فى ظلها بعد ان تزوجت حمدان . كانت تنجب البنين فيموتون واحدا وراء الآخر ، ولا يبقى لها الا زينب الشقراء الهيفاء . يقول لها الشيخ عبد الحميد وهو يفتح لها المندل ان الأسياد حاقدون عليها لذكورة كامنة فيها . وأكمل الصبى وسيط الشيخ : خرقت النواميس ، وتحديت الشرائع ، وخرجت إلى الجبل ، خالطت الذكور ولبست ثيابهم ، وحملت سلاحهم ، وشاركتهم طعامهم ، لذا فالذكور تُحْرمين . امرأة تلد امرأة ، وانثى تنجب انثى » .

وكان هذا حظرا موجعا لامرأة جعلت همها الأول ان تحافظ على راية بيت الجوقدار مرفوعة بيد صبى يحمل اسم الجوقدار . من أجل هذه الرسالة تخلت عن صياح والجبل والبارودة والأجناد ، والتحقت بخالدية وحمدان ، وأصبحت الحاملة السرية لرسالة الشيخ عبد العزيز . ودخلت فى

حرب مع قوى الجن غير المنظورة فباءت بالخسران المبين : فقدت عمر وياسين وأحمد ومحمودومحمد على . ثم فقدت من بعد زوجها حمدان . عندئذ قالت لها خالدية : اتعرفين يا حسيبة ، احيانا اعتقد ان هؤلاء « البسم الله الرحمن الرحيم غير موجدوين » فكرت حسيبة مليا فى قول صديقتها التى ماتت بعد أيام فوجدت فيه بعضا من منطق . ربما ان هؤلاء الجن غير موجودين فعلا . لعل مصائبها كلها ما هى الا غيرة الأجداد منها . حسدهم لسعادتها وفرحها .

غير ان اللعنة الحقيقية التى انصبت على رأس حسيبة لم يكن مصدرها الجان ، ولا غيرة الأجداد . لم تكن بسبب انها قاتلت كالذكور مع الرجال . بل انقضت عليها اللعنة لأنها خانت نفسها . اغتالت المقاتل فيها . لم تواصل القتال مع الذكور حتى النهاية . من أجل هذا ، خانها الذكور واحدا وراء الآخر . اعرض عنها ابوها فى ازدراء ، وتنبأ لها بالمصير الذى انتهت اليه . قال لها : سأمضى وستبكين . ستعضين اصبعك . ستأرقين الليالى . ولن تستطيعى منعى من الخروج .

وحين بدا لها ان تحول زوجها من صاحب دكان الى تاجر مغامر ، يضارب بالأموال ويحقق الأرباح ، وقفت قلة همته وقناعته بالقليل حائلا دون تنفيذ مشروعها هذا . اذ ذاك نظرت حسيبة الى جسده السمين الضخم الكهل وتبينت انه لا يصلح لعمل كهذا . تمنت لحظات لو كانت رجلا ، اذن لقامت هى بالعمل . غير ان قصارى ما حققته بعد الحاح شديد على الزوج انه تركها وشأنها تفعل ماتريد . تختزن مواد التموين من كل صنف انتظارا لحرب قادمة لاشك فيها . اذ ذاك تبيع كل شىء بأفدح الأثمان .

وجاءها من الذكور أيضا فياض ، المناضل السياسى ، الذى تلاحقه تهمة سياسية بقتل احد الزعماء . وقعت حسيبة فى غرامه فى الوقت الذى احبته فيه ابنتها زينب . وجالدت حسيبة نفسها اشد الجلاد كى لا تتورط معه ، فلما جاءها يخطب زينب قالت لطيف صاحبتها الراحلة خالدية : انه الموت يا خالديه هانم . انه الموت . كانت تطمع فى ان تمسك فياض من ذراعه وتصرخ فى وجهه : افتح عينيك ياحمار . وانظر الى هذه المرأة التى عشقتك بعد سنوات من جفاف وانتظار . ولكن « الذكر » خانها مرة ثالثة ، وانتقى امرأة أخرى ، ليس فيها تلك الذكورة التى جعلت حسيبة ترقص رقصة الموت بين عالمى المرأة والرجل .

بعد هذه الهزيمة على الصعيد الخاص ، تلجأ حسيبة مجددا الى حلم الراية ، ترفعها يد ذكر تمجيدا لبيت الجوقدار . تعرض الراية على فياض ، الذى يقبلها فى غير اقتناع . خسرته حبيبا والآن تريد ان تكسبه عاملا فى مملكتها . ويفشل مشروعها فشلا ذريعا وتخسر تجارتها خسارة متواصلة ــــ بينما فياض يقرأ التاريخ ويصنف الهوامش وذات يوم يخرج فياض فى الفجر ملتحقا

برفاقه من جديد . ولا يعود أمام حسيبة الا أن ننتظر حتى يكبر هشام ، ابن فياض وزينب ويقوى على حمل الراية .

غير ان الولد يكبر بالفعل فلا يحمل الراية وانما يحمل السلاح . وحينا يُحمل اليها نبأ أنه فر من المدرسة التى اعتقلته فيها بعد تبينها انه يخفى فى بيتها السلاح ، لا تطلب مزيدا من الانباء . كانت فى قرارة نفسها تعرف انه سيفعلها . سيتسلل من البيت مع الفجر كما تسلل صياح وفياض من قبل . كانت تعلم ان قَدَرها ان تكون الذكر والقائد لبيت من نساء . من قبل كانت قد اعلنت انها هى عائلة الجوقدار . هى التى سوف ترفع الراية . خطأ ما فعلته من توسم الخير فى الذكور . صياح خرج ولم يبال ، وفياض خرج ثم عاد لا يريد ان يرى أحدا ، وها هوذا هشام يخرج ولا يعود . هزيمة تامة تمنى بها حسيبة . تامة لأنها لا تفقد الرجال وحسب ، بل تفقد أيضا ابنتها زينب ، التى تصرخ فى وجهها : « انت من جعل فياض يهرب كما هرب صياح . ولكنك لن تهربى هشام . هشام سيظل الى جوارى » . وحين تعرض حسيبة على زينب ان تطلق فياض الغائب وتتزوج من ابو سعيد القصبجى ، لأن البيت فى حاجة الى رجل ، تنفجر زينب فى امها انفجارا مروعا : تنتف شعرها ، وتضرب رأسها بالجدار وتهجم على امها فتلقيها أرضا محاولة خنقها وهى تولول : أتريدين موته ؟ كنت أعرف انك تغارين منى ، تحسدينني على شبابه وجماله وعالمه الواسع فسعيت حتى حولته الى دكنجى ، ايتها المرأة المتخلفة الحاسدة الغيورة الـ.... الدكنجية .

وكانت زينب قد انفجرت من قبل فى النساء من اصدقاء امها وعيرتهن جميعا بأنهن نساء بلا رجال — ارامل قتلن ازواجهن — حريم هربّن رجالهن .. متآمرات عليها يردن ان لا تسمع صوت فياض وهو يعدها بالعودة ، فيقمن من حولها ضوضاء تصم الآذان .

كذلك فقدت حسيبة ايمانها بالنور يأتى من الخلوة . بعد أيام ثلاثة قضتها فى التضرع الى الله ، محاولة الهرب من الأشباح التى سكنت حياتها : صيَّاح ولعنته وحمدان وقناعته بالقليل وفياض وصيحته : سأمضى الى فلسطين ، نظرت حسيبة فى قلبها فلم تر نورا . رأت النور اخريات زاملنها فى الطلب ، وكانت هى الوحيدة المطرودة من جنة الطريقة فلملمت ملاءتها وجمعت منديلها وخرجت . خرجت لتواجه فشلا آخر فى قيادة سفينة الأسرة الى بر الأمان : لقد انتكس مشروعها الكبير ، الذى كان يقضى باقامة مشغل للجوارب بعد ان نجح فترة ما ، فقد قضت عليه تحولات لم تقررها حسيبة ولم تتبين أهميتها فى البداية . أصبحت آلات صنع الجوارب تدار بالكهرباء ، وأضحت آلاتها هى خردة من مخلفات الزمن .

مع حسيبة تجرى حياة أخرى موازية لحياتها ، ومشابهة لها فى سلسلة الهزائم التى تحيق

بصاحبتها : حياة المرأة الفنانة العاشقة خالدية . وهى فى السادسة عشرة تزوج عليها زوجها بعد عام واحد . تجمع الناس كلهم ضدها وقالوا : وماذا فى هذا ؟ حقه الشرعى وناله . ولكن العروس الشابة أصرت على الطلاق . قالت : إمَّا أنا وإمَّا الجديدة . وعادت الى بيت أمها . عبثا ضغطوا عليها المحوا الى سوء سمعة المرأة المطلقة . قالوا انها خربت بيتها بيدها — ولكن دون جدوى . وضعت خالدية حقها هى الى جوار حق زوجها . لماذا يحق لرجل فى الأربعين ان يتزوج على زوجته ذات الستة عشر عاما ؟ لم لم يعاتبه أحد ؟ وأصرت على عدم العودة له . كان العمر كله مازال امامها ، حياة ورقصا وغناء وتوقا الى الرجال . وهى — بعد — أشد الناس شوقا الى الرجال . « الرجال ، الله لا يخلى بيتا منهم . الله يلعنهم ، حلوين ، مرين ، رائحة عرقهم المسكرة ، ويدهم الباطشة ، انانيتهم القاسية ، ومداعباتهم المذيبة .. » .

من بعد حسنى بك ، الزوج الأول تزوجت شكرى بك . كان يريد الأولاد ، ولم تنجب خالدية . لم تدر تماما ما السبب . تزوجت ثلاثة رجال لم تنجب منهم قط فقدرت انها هى السبب . فما اعظم قسوة حظ خالدية مع الرجال . بل ما اسوأ حظ النساء جميعا مع الرجال . تأكل الحروب والطواعين الرجال فتمتلىء المدن بالنساء . النساء فى ملاءات سوداء . اشباحاً ضائعة ، مكبوته ممنوعة من الرجل . تمتلىء اغانيهن ومناديهن واحاديثهن بالبكاء على الرجل . الرجل المتسرب . الرجل الضائع . المفقود . علاقتهن بالرجل خليط من حلم وحزن . يضربهن الرجل فلا يتألمن . فهذا حقه . يهينهن فلا يجرحن . فهذا خير من فقده . يطلقهن ، فيسعين لاسترجاعه ، بالأطفال الباكين ، بالانتظار ، بالسحر والمشايخ . وحين تحاول الواحدة منهن استرجاع قدرها ، وتحاول القبض عليه ، يقف المجتمع كله ضدها . عيب . على المرأة ان تنتظر ، لا أن تلاحق .

خرجت خالدية على هذه المواضعة ، فلاحقت الرسام الشاب المتواضع الأصل عبده ، الذى وقعت فى غرامه وعرضت عليه نفسها زوجة ، وتحدت كل الأعراف فى سبيله وذهبت لتعيش معه فى غرفتين حقيرتين ، فما لبث ان نهبها وبدد مصاغها واجبرها على ان تبيع حصتها فى بستان وتشترى له دكانا فى حمام القيشانى ، ثم هجرها من بعد ، واقتنع بما قيل له من انه دخل بزواجه منها فى صفقة خاسرة : عجوز لا تصلح لسريره . ثم طلقها وتزوج شابة صغيرة هى ابنة معلمه .

وكانت خالدية تظن انها بزواجها من عبده ستنتقم من كل الرجال الذين ظلموها : حسنى بك ، وشكرى بك والشيخ حمدان الجوقدار ، أخيها ، وكل الرجال الذين كانوا يشرعون لها ولهم ، فيختارون لأنفسهم ما يناسبهم ويختارون لها ما .. يناسبهم أيضا . ولكن خالدية لم تنتقم من

الرجال ، بل انتقمت من نفسها . اصطدمت بالجدار الصلد الذى اقامه الرجال ليحمى ممتلكاتهم وثرواتهم واشياءهم ونساءهم أيضا ، بوصف انهن جزء من ممتلكاتهم .

قاسية حقا اقدار النساء — تهتف الرواية فى صفحات كثيرة هتافا مؤثرا . هذه « مريم » اليتيمة الضائعة يتزوجها عبد الله ، فلا يدفع فيها مهرا كبيرا ، ويحملها من بيت الترمل واليتم الى بيت صغير له رمَّمه ووضع فيه هذه الجائعة الضائعة ، فجعلت تأكل وتأكل حتى أصبحت مستديرة كالكرة . وفى كل ليلة يسألها عبد الله ، متى تنجبين الولد ؟ متى تنجبين محمد سعيد ؟ ولكن الولد لا يجىء . بل تجىء وداد . فيختنقها عبد الله ، لأنه لا يريد فى اسرته بنتا تتحول الى بائعة هوى . ويخنق من بعدها بنتين اخريين تحمل كل منهما اسم وداد . فلما تجىء وداد الرابعة تودعها امها لدى الجيران تارة . أو تخفيها فى السقيفة .

توسلت الأم لدى الأب أن يبقى على بنتها فهى جميلة ، جميلة جدا . ولكنه أصر : هذا يؤكد انها ستصير بائعة هوى . ولا ينقذ وداد ، وقد بلغت الثالثة الا أن اباها يقتل فى حارته بعد ان كسر — عن غير قصد — امراً بحظر التجول .

وراء هذا التوجس المحموم من ان تصبح بناته مومسات تكمن حكاية عبد الله مع الصبية « منور » . كانت عشيقة لأحد اصدقائه . جاءت الى دكانه تبحث عن العشيق الذى يؤويها وينفق عليها . ينظر اليها عبد الله ملياً فيتبين فيها الطفلة منور التى كانت تشترى منه الحمص والفول من سنوات . مات ابوها فجاعت امها وجاعت البنت ومن ثم أصبحت البنت تصادق الرجال لقاء لقمة العيش . ورغم انعطافه اليها وتأثره لما اصابها ، يشتهى ان ينالها ، غير مبال بأنها عشيقة صديق له .

تقدم الرواية خمسة اجيال من النساء تتشابه حظوظهن وتتمايز . ام خالدية التى أبلت ستة رجال قبل ان تتقاعد عن الزواج ، فقبعت فى بيتها تطرز الأكفان بكل الرسوم التى احبتها فى حياتها ، بالزهور ، بالطيور ، بالحدائق التى تمنت العيش فيها ، بالأنهار التى اشتهت السباحة فيها ولم يسمح لها . اكتنزت على بطنها خمسين ليرة ذهبية لا تسمح لها بالنقصان ولو جاعت وجاعت خالدية . نفقات خرجتها من الدنيا . خرجة مهيبة يذكرها الناس لوقت طويل . قبعت فى البيت تطرز اكواما من الأكفان هى اشبهُ بأثواب عرس . لا تفكر فى شىء . لا تشغل نفسها بشىء . لا تناقش . لا تعارض لا تشاكس بل تنتظر فقط . وكان من سخرية القدر ان تركتها خالدية تموت وحيدة دون ان تلف بالأكفان المطرزة وجرت وراء عبده محطم قلبها .

وجيل خالدية التى نطحت الصخر ، وتحدت الأعراف وسعت الى الانتقام من الرجال ، وانتهت الى بيت صغير ساقها اليه اخوها حمدان ، مرغما ، فقد كره ان يقول الناس عنه أنه تخلى

عن اخته .

ثم جيل حسيبة التى ناطحت الرجال وسعت الى اقامة بديل من الثورة التى تخلت عنها ، فانقض الصرح الذى شيدته على رأسها ، وخسرت كل شيء وانتهت الى موت هو أشبه بالانتحار .

وجيل زينب التى تاقت الى حياة راقية تسمو على وضاعات حياة الدكاكين ووجدت الوعد بهذه الحياة فى فياض الثائر الذى عرف الحياة المتحضرة فى باريس ، قبل ان تدعوه الأحداث الى الكفاح الوطنى ضد الوجود الفرنسى فى سوريا . تشابكت حياة زينب مع حياة امها ، والقت هذه عليها بثقل احباطاتها الكثيرة ، خاصة الاحباط القاسى الذى خلقه لها أنها تزوجت رجلا كهلا بدينا لم تعرف معه لذة الجسد المرتوى . وتصارعت المرأتان حول فياض ، فلم تظفر ايهما به ، وانتهت زينب الى شيء اشبه بالجنون .

ومن الجيل نفسه مريم ، زوجة عبد الله ، التى حطمت حياتها شهوة رجل لأنثى اخرى خايلته ، وجعلته يخاف ان تصبح بناته من بائعات الجسد .

وجيل الصبية « منور » التى جاعت فباعت جسدها . نساء كلهن مطحونات تحت عجلة القهر السياسى والاجتماعى والاقتصادى . يسعين الى الخلاص فتلتف الشباك عليهن بمزيد من الإحكام .

يقف التاريخ شامخاً وراء ابناء العصر وبناته من الأحياء الكثيرين الذين تموج بهم هذه الرواية الطموح . يستقطر خيرى الذهبى ، احلام الغزاة الكبار والمغامرين الكبار ، والعاشقين الكبار ، والمتاجرين الكبار ، الذين قذفت بهم يوما فيافى الصحراء العربية ، وغابات أوروبا الاغريقية وصحارى آسيا التترية . اولئك الذى حلموا يوما بامتلاك العالم وتغيير رائحته وطعومه ، ولكنهم كسلوا على الطريق فارتاحوا فى واحات صغيرة محاطة بسور أخضر . خافوا ان يبحثوا عن المحطة القادمة فلا يجدونها فقبعوا ينتظرون . ينتظرون ان تتغير طرق التجارة الكبرى مابين أوروبا وفارس والهند والصين وسلافيا ـــ تتغير لصالحهم ونبتت بينهم فكرة المخلص ، اخترعوها لتطمئن قلوبهم على أن زمنا قادما سوف يشهد ظهور المخلص على الأرض ، يعود اليها لينشر فيها العدالة من جديد ، ويمنحها الفرح والبهجة .

غير ان انتظار المخلص يطول . فيخرج صياح ليصنعه بيديه بدلا من أن يجيئه جاهزا . وتتخلى حسيبه عن المخلص ، وتقرر ان تصنع له بديلا أرضيا ، داجناً مقصوص الجناح . وتتأمل خالدية ، وقد تقدم بها العمر حال الناس من أيام آدم فتتذكر المدن العتيقة المسكونة بآلاف الناس ، ملايين الناس ، الذين ماتوا بالحرق ، بالطاعون ، بالحمى الصفراء ، بالصلب والقتل

والخازوق ، ثم جاء من بعدهم غيرهم ، سكنوا مدنهم ، وبنوا بيوتهم فوق قبور الذين ماتوا . بيوت فوق قبور تتحول الى قبور فوق بيوت . قبور وقبور وقبور . مدن عتيقة ومدن سرية يستيقظ اهلها فى الليل فيغضبون ويهتفون : حتى فى الموت تلاحقوننا . ولا نسمع نحن اصواتهم فيقررون الانتقام من صمتنا . ينتقمون بأكثر الضربات ايجاعا . بأطفالنا . فهم يعرفون ان الآلام جميعا يمكن تجاوزها الا وجع فقد الطفل . ثم تنتهى خالدية من تأملها لهذا التاريخ المكثف بأن تشكك كثيرا فى وجود القوى غير المنظورة التى تحاربها هى وحسيبة وغيرهن من نساء تطحنهن عجلة المجتمع وتحول التاريخ .

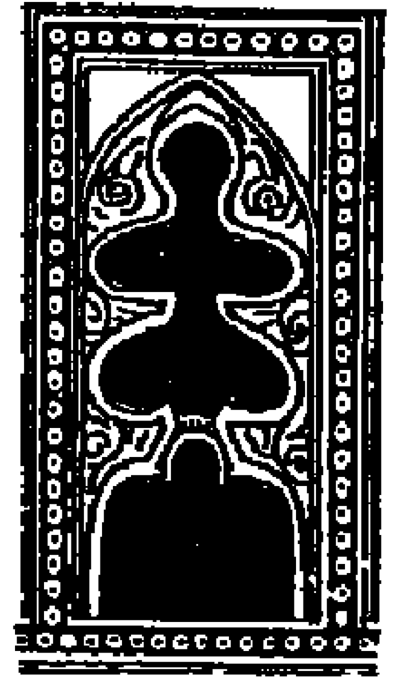
تستعرض « حسيبة » تحولات التاريخ القديم والمعاصر ، وتذكر احداثه وابطاله ولكنها لا تقصد قط الى التأريخ ، بل هى تبرز انعكاس هذه الأحداث على شخوص الرواية ، فتبقى عواطفنا مع افراد من لحم ودم ، تعتز بهم الرواية ، وتعنى بتبيان مصائرهم ، وتشجب عمدا ، وان عارضا — انانية الزعماء السياسيين واحلامهم الحمقاء ، واكاذيبهم وتضحيتهم بكل شيء فيما عدا اشخاصهم . يذكر القادة والزعماء والساسة والخطباء انفسهم بعد كل معركة ثم يضيفون ، « وقد قتل فى تلك المعركة مئتان وستة وثلاثون شهيدا رحمهم الله » . ويتلفت صياح المسدى حوله مندهشا ويقول : يا الهى ، اين اولئك الذين قضيت معهم كل هذه السنوات الأخيرة ، حتى اعتقدت ان مهنة الانسان الوحيدة هى الحرب ؟ لا جرم ان يهتف صياح فى الصفحات الأولى من الرواية . « الثورة انتهت . والسامر انفض يا حسيبة .. العالم كله صار ضدى يا حسيبة . الانجليز فى العراق والأردن لا يريدون لنا الاستقلال . وفى فلسطين طبخة وسخة يستطيع المزكوم ان يشم ريحها من أميال . وها هنا ، ها هنا الأمير ميشيل لطف الله ضد الأمير عادل أرسلان ، والأمير ارسلان ضد الشهبندر والشهبندر ضد الاستقلاليين ، والاستقلاليون ضد الشعبيين . يا الهى ! ماكثر ما ضيعت من عمرى ! »

غير ان الرواية لا تنتهى بهزائم تامة للثوار والمتمردين . ان يكن صياح قد مات فى فلسطين ، فإن حفيده هشام يتسلل الى أرض المعركة رافعا السلاح . وان انتهت حياة المتمردتين : خالدية وحسيبة بالفشل ، فقد توج هذا الفشل انتصار على قوى الظلام التى تسعى الى ابقاء النساء والرجال — النساء خاصة فى وضع الذليل المستسلم . خالدية تنكر على قوى الظلام مجرد الوجود وحسيبة تغرق فى « الهجرة » وهى تهتف : عليك اللعنة يا شيخ الهجرة . تظن انك انتصرت ، عليك اللعنة . ثم تمضى فتلعن الأجداد المحبطين ، الغيورين وتؤكد انهم لن يهزموها أبدا . فهشام باق ، باق وسيرفع الراية . كون ان هذه الراية هى راية النضال فى فلسطين وليست راية بيت الجوقدار ، لا يغير فى الأمر شيئا كثيرا . فقد ينبغى الا ننسى ان الأصل فى تكوين حسيبة ، هو

المرأة الثائرة التى خرجت تحارب مع الذكور ، وليس المرأة التى خنقت المقاتل فى روحها ، أو حاولت ــ عبثا ــ أن تصبح صاحبة دكان !

كوابيس بيروت

غادة السمان



تشعر الراوية انها تعيش فى بيت من الشّعْر . وسادتها محشوة بالأساطير وغطاؤها مجلدات فلسفية ، وكل ثوراتها وقتلاها تحدث فى حقول الأبجدية وقذائف اللغة . فى مدينة تحولت الى ساحة حرب تجد قلبها ــ بتعبير المتنبى ــ يحوطه غشاء من نبال . ولا تجد ما تدافع به عن نفسها سوى تلاوة أشعار المتنبى ، كأنما هى تعويذة يرجى عندها النجاة .

يدوى انفجار فتشعر بوخزه . وتسأل نفسها : لماذا لم تتعلم القتال بالسلاح ؟ يجيء الخريف فتحس انها سجينة بيتها . حينما اغلقت الباب على نفسها صارت سجينة كابوس سيطول ويطول . من يدرى ؟ ربما كانت دوما سجينة دون أن تلحظ . ربما كان شوقها الدائم الى الأفق والسماء هو بعض من شوقها الى الحرية . الحرية الداخلية ، وليس حركة التنقل فى سجن كبير جدرانه هى حدوده ، واسمه الوطن .

لقد كانت دوما وحيدة . مشردة بين القارات والمدن والشوارع والرفاق . كانت دائما غجرية المدن ، ما ان تستقر فى مدينة أوروبية حتى ترحل ألى أخرى ، مخلفة وراءها بيتا ومهنة ومكتبة ، وحلقة صغيرة من الأحباب والأعداء . وحين التقت بيوسف وأصبحا حبيبين ، توأمين ، جعلت تحس بالحاجة الى الاستقرار : كهف تضع فيه طفلها منه بعد الحمل . غير انها لم تحمل ولم تضع . ومضى يوسف . قتله المتصارعون فى حرب غبية همجية . فضاع منها الاستقرار . وكان هذا واحدا من سخريات القدر القاسية . كانت الراوية قد التزمت بأرضها أخيرا ، ورفضت ــ واعيةً ــ الارتباط المزيف بأوروبا ، وانتقلت لتعيش بين اهلها وناسها ، فاكتشفت انها انما بنت بيتها فى مركز الزلزال .

وحين تحتمى من الانفجارات المتوالية بدهليز فى بيتها تعلو جدرانه الكتب من الأرض الى

السقف ، ولا تترك الا جزءا من جدار يغطيه ملصق كبير فيه صورة خضراء كثيفة الشجر ، تحس ان بوسعها ان تخطو الى داخل اللوحة . هاربة الى الغابة الأوروبية من جحيم بيروت . غير أنها لا تفعل . قد تعلمت ان الهرب من الانتماء الحقيقى لا يجدى . انها ابنة هذه المنطقة العربية التى تغلى . بل انها ابنة هذه الحرب . لم تحمل السلاح قط ، ولكن كتبها وكلماتها خرجت الى الشوارع وأصبحت بشرا يحملون السلاح . وهى لا تحمل السلاح لأنها لا تطيق ان تقتل انسانا أو تعذبه . سترى فيه الطفل ، وابن الأم ، والحبيب لحبيبته . ستذكره وهو يضحك ، وهو يصلى وهو يمارس الحب . ان قتل انسان هو مجزرة كونية .

ماذا تفعل الراوية اذن ؟ الخطأ خطؤها منذ البداية . كان عليها الا تكتفى بالحياد . المسالمة جريمة . لهذا ، حين بدأ حوار الرصاص ، وجدت نفسها خارج اللعبة وضحية لها فى آن . انها وغيرها من المحايدين هم المجرم الأول المسئول عما يحدث . عشر سنوات وهى تكتب وتنادى الثورة ، وخمس أخرى وهى تسهم فى اعداد الكتب الثورية فى احدى دور النشر . أكان هذا خطأ ، ام ان الخطأ هو أنها تسكن حيا لا تنتمى اليه ؟ تقيم فى بيت لا فى معسكر ؟ الكُتّاب مثلها الذين يحرضون البركان على الانفجار عليهم الا يبنوا بيوتهم على سفحه . القلم المقاتل يجب ان يكون معسكرا .

غير انها كانت تحب يوسف . كتبت له على جبينه كلمة : « احبك » كى يراها دوما كلما نظرا فى المرآة . ابداً لم تكن معه وحيدة . كان لقاؤهما يمنحهما الحس المذهل بالسلام ، وبأن الكون متناغم مع دوران الدم فى عروقهما . وانه لا خلل هنالك بين الصوت الداخلى لكل منهما وصوت الكون الكلى البهاء المحيط بهما . وبأنهما بطريقة ما امتداد للرب الكونى العظيم . كانا يتحاوران هكذا :

هو : احبك .. لو اتى مسلح وبلغنى انه يريد ان يقتل واحداً منا لقدمت له نفسى فداء لك .

هى : احبك . لو رمى احدهم الآن اصبع ديناميت لابتلعته فورا لأحميك بجسدى .

هو : لو مرروا فوقى مصفحة جيئة وذهوبا كى اهجرك ما فعلت .

هى : لو انتزعوا لسانى من فمى بكماشه وقطعوه لظللت اردد اسمك .

هو : لو خيرونى بين فراقك اسبوعا واحدا أواقطع اذنى لتركتهم يقطعون اذنى دونما تردد .

ولكن هذا الحب الرومانسى ، الصوفى لا يصمد طبعا امام مجتمع شرب اهلوه جميعا من نبع الجنون . تتبين الراوية فيما بعد انه قد كان عليهما ان يلتفتا الى الوراء ليريا بيروت تتربص بهما كالوحش . بيروت كل ما فيها يعادى العدل والحق والرب والحب . كان عليهما أن يقدرا ان العمل لانقاذ حبهما يحتم عليهما العمل لانقاذ بيروت . فانت لا تزرع غابة على سفح بركان يثور

ولا تبنى بيتا داخل قنبلة موقوته .

لهذا يموت يوسف ، ويتأكد لها صدق ما كان يقول : « آه ، كم انت وحيدة » . لا تتحرر الراوية من هذا الشعور الممض بالوحدة الا حينما تقرر قرب نهاية الرواية ان الفعل لا الهرب والانتظار هو طوق النجاة . لهذا تنبذ فرصة الرحيل التى تتاح لها وتمضى قدما الى البحر . وتجلس على الصخرة نفسها التى كانت تجلس عليها هى ويوسف . تتذكر كل ما احترق ، كل ذلك العمر الذى خلفته وراءها . كل الأصوات والصور والأوراق والكتب والرسائل . كل هذا هضمته وتمثلته ، وأصبح خارج نفسها ، وكان عليها ان تلفظه منذ زمن بعيد . اذ ذاك تفتح الحقيبة البرتقالية وتسكب محتوياتها على الصخرة . ترمى الى جانبها « جثة » يوسف الممزقة والمسدس . تلقى « بجثة » يوسف الى البحر ، وتتأمل كيف يطبق ماؤه على أوراقهما وصورهما وموسيقاهما . ثم تضع المسدس وأوراقها جنبا الى جنب . الأوراق تحوى « مخطوطة كوابيس بيروت » . تحدق قليلا وترى على الطرف الآخر من الصخرة يوسف جالسا ، يحرك شفتيه كأنه يناديها . ودونما تردد تمسك بالمسدس وتطلق النار عليه . يتحول يوسف الى تل هزيل من الرماد ، تذروه الريح ، وتنتهى مهزلة السقوط فى غرام جثة ، والتلهى بها عن آلاف من جثث الأبرياء يزرعون تربة هذا الوطن بها . لا ترمى بالمسدس الى البحر . لا مفر من الرصاصة حين لا يتركون امام المرء حلا آخر . توسد المسدس صدر اوراقها ، وتتركها تحيط به كما يحيط الرحم بالطفل . تحكم اغلاق مظروف « مشروع رواية كوابيس بيروت » وتعيدها الى الحقيبة والمسدس يتوسطها . وتشعر انها تضع قدمها على أول درب جديد . الشمس تشرق قليلا ، وغيمة واحدة تمطر والشمس مشرقة . يزداد الضوء كثافة ووضوحا . تغمض عينيها فترداه بمزيد من الوضوح .

هل هذا الخلاص من الذات ومن الحب ، ومن الهروب الفردى بهذه الطريقة المفتوحة خال من الرومانسية التى وسمت اعمال الراوية وتصرفاتها حتى الآن ؟ أليست هذه الطريقة — بدورها — وهما آخر من اوهام امرأة ظلت حتى الآن مقاتلة على الورق ؟ قالت الراوية : انها تريد أن تشرق الشمس دون أن تضطر الى ذبح حنجرة الديك لتثبت له ان الشمس ستشرق على أية حال حتى ولو لم يصح . وقالت أيضا : الكاتب جمهورية مستقلة . وعليه ان يختار بين الانتماء لفنه أو لحزبه . وقالت ثالثا : ألا يمكن لمخاض الفرح ان يكون عملا واعيا انسانيا ؟ وهل دوامة العنف وحدها هى مخاض الفرح الآتى ؟ قالت هذا كله قبل ان تتخذ قرارها النهائى بنبذ الماضى ، وطرح الذات ، وقتل الحب ، وتنكب الهرب . فهل هى مستطيعة ان تمضى قدما فى هذا الطريق — طريق العنف الذى لا يميز بين حقل القمح وحقل القطن حين يهطل المطر ، فلا يفرق بين حاجة القمح الى المطر وتضرر القطن من هطوله ؟

تقف الراوية عند نقطة الصفر وتقول : ان الصفر اكبر رقم فى حياتها . انه دوما بداية لقفزة أبعد مدى وسقوط اكثر ايلاما . غير أنها دائما تنهض من رمادها وها هو ذا الفرح يردد ترانيم سحرية لها كى تقيها الانهيار والسقوط والاستسلام والسلبية . يقرع الفرح طبلته حولها طول الليل . وحين يطلع الفجر ، تشرق الشمس داخل صدرها . وتنهض من تابوتها لتنشر شَعْرها فى الريح كشراع خرافى لقارب مسحور . وهى بعد لا تزال وحيدة .

لا توحى هذه الصورة البالغة الرومانسية لنجاة الكاتبة بالاطمئنان الى انها قد نجت حقيقة . قبل النجاة قد كانت وحيدة ، تسكن خيمة من الشِّعر ، وتتحصن بكراهية العنف ، وتستند الى وضع مميز للكاتب يفرق بينه وبين سائر البشر . وبعد النجاه ها هى ذى تتوكأ على ترانيم سحرية ، وأخرى شعرية لتثبت انها قد افلتت من كل الشرور . ولكنها مازالت وحيدة ، وحدة الفرد الذى يشعر بالتميز ، والذى يمركز الكون كله فى ذاته . وحيدة كانت ووحيدة لاتزال .

بالطبع هناك حكاية لولو التى تختم الرواية . تزوجت لولو من شاب غريب أهملته اسرته منذ الطفولة فنما فى الغابات وتعلم كيف يدافع عن نفسه . كان فقيرا مثلها ومشرداً مثلها ، لكنه لم يكن حائرا مثلها . اكد لها انها من قبيلته الكبيرة المتفرقة فى الأرض . وحملت منه لولو وقرر الملك سليمان اجهاضها وقتل زوجها ، غير ان لولو اعلنت العصيان فى ابريل ١٩٧٥ وقاتلت هى وزوجها رجال الملك واصيبت اكثر من مرة ، لكن الطفل كان يكبر فى احشائها . وفى الشهر التاسع لم تضع لولو حملها . غير ان زوجها طمأنها : ليس طفلك عاديا وحملك قد يستمر تسعة أشهر أو تسعة اعوام . المهم ان لايجهض . وهو لن يولد مرة بل مرات وفى اكثر من مكان . وسيولد حين لا يتوقعه أحد .

الطفل هو ثورة لبنان ، والولد الذى كان يحكى حكاية لولو لجدته يتركها نائمة وقد ارتفع شخيرها ويخرج حاملا رشاشه وجيتاره ، وينطلق فى الليل كى يساهم فى شروق الشمس . هذى الحكاية الجميلة توحى بأن الكاتبة ربما تنتهى بالاشتراك النشيط فى الثورة .

الخيط الروائى الذى يربط بين الراوية وحبيبها يوسف خيط ظاهر الوهن ، لأن حب الراوية لنفسها اكبر من حبها ليوسف ، ولأنها تتركه يخرج وحده للقتال ويعود اليها مرة ومرة وصدره مثخن بالجراح ، بينا تقبع هى فى البيت تفلسف الثورة والعنف ، حتى يموت ويتركها شديدة الوحدة فيما تزعم . ولأنها فكرت — فى الخيال — أن تطلق عليه الرصاص ، اذ كانت تصوره فاستحالت الكاميرا فى وهمها الى بندقية ذات تيلسكوب ، فاكتفت بأن « ضربته » فى ساقيه . ولأنها فى النهاية تطلق الرصاص بالفعل على أشيائها وأشيائه وصورهما معا ، فتختفى من حياتها « جثة » يوسف .

ليس حبها ليوسف الا اسقاطا لحبها لذاتها على الفتى . والا فما ضرها لو كانت شاركته نضاله حتى دون اقتناع كامل ؟

الكاتبة — طول الرواية — مشغولة بعالمها الخاص . وبأفكارها وصورها التى تصورها لما يحيط بها من خراب . وافكارها وصورها تقدم فيما بينها هجائية كبرى لبعض أهل بيروت ، متعددة الأشكال ، خصبة الخيال والجمال فى بعضها ، وواضحة الافتعال فى بعضها الآخر . وهى صور تتخذ شكل حكايات احيانا ، واحيانا اخرى تنصب فى قالب الكابوس . ووجودها فى العمل الفنى يعطيه طبيعة دفتر الأحوال حينا ، وصفة حكايات الأقدمين الحاملة للحكمة والوعظ حينا آخر ، ويطبعه بطابع الخيال المجنح الموجود فى الف ليلة . وان اتسم الأثر الوارد من الف ليلة بسمة كوابيس الكتابات العبثية . هنا نجد أدب العبث وحكمة كليلة ودمنة ، وخيال الف ليلة وقد احترقت اجنحته وجثم عليه الكابوس .

يموت العم فؤاد ، الرجل الذى اعتصم ببيته ليحميه من الطوفان واستند على امجاد اسرته الغابرة ونياشينه وتحفه كتعويذة ضد الفناء ، فانتهى به الأمر الى الموت . وظل أهل البيت ينقلون جثته من مكان غير آمن الى مكان آخر سرعان ما يتبين انه بدوره عار عن الأمان ، الى ان ينتهى الجثمان فى برميل يذكر بوضوح بصفيحتى الزبالة فى مسرحية بيكيت : « لعبة النهاية » . والمغزى ان لاشىء يحمى القديم البالى من الفناء ، ومصير من يتمسك بالماضى فى تحجر ان ينتهى الى هذا الوضع المزرى .

فى احدى الحكايات ذات المغزى ، يأتى المسيح كى يزور اناسا سمع انهم يحتفلون بمولده . كان الحفل صاخبا ، ساخنا فاجرا . صاحبة الحفل عرت صدرها احتفالا بمولد المسيح وزوجها تحمم بكولونيا « بروت » وجاء يسكر ويغازل زوجة جاره ويلتصق بجسدها الطرى ، احتفالا بمولد المسيح . فى الصباح اشترى الزوج صفقة سلاح ووزعها على المقاتلين السذج ، وحثهم على القتل باسم المسيح .

جاء المسيح الى المحتفلين فأنكرو وجهاؤهم . قال ابن الثرى صاحب الفندق للرجل صاحب الثياب الممزقة والجسد الذى اضنته المسامير ، هل انت مسلح ؟ اجاب المسيح لم أحمل السلاح فى حياتى . قال المراهق الثرى : ما هو دينك ؟ أجاب المسيح : دينى المحبة . لم يكن المراهق سمع بدين كهذا فعاد يسأل : مسلم أم مسيحى ؟ قال المسيح : انه لا يعرف معنى هذه الألفاظ . سأله المراهق : هل انت ابن المنطقة ؟ أجاب المسيح نعم ولا . ثم اردف : انا فلسطينى . فصرخ المراهق بقرف : فلسطينى ؟ انت متسلل . مخرب . عميل . متواطىء . فقال المسيح بهدوء : ولكننى المسيح ايها الحمقى . قالوا : المسيح . لايهم . المهم انك فلسطينى .

واحاطوا به وصلبوه على باب الفندق الفخم ودقوا فى جسده المسامير فى مواضع المسامير التى دقت فيها مسامير أخرى منذ ألفى عام . والمغزى ان بعض المسيحيين ـــ المترفين خاصة ـــ لايهمهم من المسيحية سوى الاسم والشعار يتخذونه لحرب اعداء مصالحهم الاقتصادية .

وفى حكاية أخرى يأتى « العيد » ليزور السيدة بيروت . سألها : ماذا فعلت بجدائلك ؟ اجابت : قصصتها وخنقت بها أولادى ؟ سأل ثانية : ماذا فعلت بحبيبك ؟ قالت : غدر بى فشنقته على اسوار قلبى . وأسوار قلبك ؟ قالت : علقت عليها جثث ايامى لتأكل نسور الصحو عيونها واكبادها . وجلدك الأملس الشفاف ؟ قالت : زوجته للتراب . طهرته بالأشواك وعطرته برائحة البارود . ثم جرت السيدة « العيد » من يده وأرته تلا من سبع طبقات : طبقة من الملح ، ثم الجثث ، ثم الدم ، ثم الخطيئة ، ثم الندم ، ثم التوبة ، ثم الوعى . وفى التراب الغامض لهذا المزيج ، ثمة نبتة خضراء تشق دربها فى العتمة وشهقات الاحتضار والولادة . سألها العيد : أين فندقك الوثير الأرائك لأنام ؟ قالت الوطن ليس فندقا . فى زيارتك القادمة آمل ان تقيم بيننا دائما . تركها العيد حائرا يتساءل : ترى السيدة بيروت تنتحر أم تخلع اقنعتها ، وتخرج من رمادها كطائر الفينيق ؟ لم يكن قط واثقا ما اذا كان ، فى زيارة قادمة سيقيم مواطنا دائما فى جمهوريتها ، أو ينتحر على رصيف محطتها الغامضة .

وتصور حكاية ثالثة مصيراً محتملا للبنان . يأتى البيك ليعرف طالعه من « ساحره » تحكى عن المستقبل ، ناظرة فى كرتها البللورية . يسألها البيك : ماذا ترى ؟ تقول الساحرة دماً ، ومزيدا من الدم . ثمة حقل شاسع من الرماد والجثث وبرعم صغير أخضر يشق طريقه وسط زلزال جبار وهناك أيضا رجل له رأسان : كل رأس يشتم الآخر . ثم تتوهج كرتها البللورية فترى جبالا مغطاة بالثلج والسنديان والجثث والشواطىء الرملية وانهارا من الدم تصب فى البحر . ثم يأتى زلزال فيفكك الأرض الى قطعتين كبيرتين . وزلزال آخر يفكك الأرض عشرات من القطع ، والأرض تبتلع الناس والأغنام والمزامير والبيوت والأشجار . وتهب عاصفة من نار وصراخ وتصير عيون النساء ثقوبا مليئة بالدم الأحمر .

مصيران محتملان امام لبنان : عاصفة دموية مطهرة تحرق الفاسد ليخرج من رماده المستقبل الزاهر ، او زلزال مدمر يشطر البلد شطرين ، ثم لا تلبث زلازل متوالية ان تحيل الشطرين فتاتا يهلك فيه الحرث والنسل وتحترق معالم الحياة جميعا .

الحكايات الثلاث سياسية فى المحل الأول . وهناك حكايات أخرى اجتماعية فى الأساس تفضح الفساد الخلقى والمالى الذى يعيشه بعض أهل بيروت . مثل حكاية المانيكان الدمية وزميلها المانيكان الشاب ، والحوار الذى يدور بينهما هجاءً لصاحب المتجر الذى يعملان فيه ،

ثم تسلل المرأة الدمية الى المقهى حيث يظنها الرواد عاهرة تبحث عن عميل . والهدف من الحكاية مضاهاة المرأة المانيكان بالمرأة البيروتية من لحم ودم وايضاح انها هى الأخرى دمية . ومثل حكاية مارى انطوانيت ، هى الغانية الأوروبية التى يهجرها عشيقها البيك اللبنانى دون سابق انذار ، فتجد نفسها فى مأزق تتبين خلاله ان لبنان ليس فقط جنة العاهرات الأوروبيات ، كما أفهمها صديقها ، بل ان هناك اناساً شرفاء ومقاتلين يألمون — فوق ألمهم — لمصائب الغير . سيدة من بين هؤلاء تحنو على مارى أنطوانيت إذ تظنها صديقة لأحد المقاتلين المقتولين فتمد لها يدا حانية معزية . وفى الحال تنسى انطوانيت متاعبها وكلبها الأثير وعشيقها المفقود وتنحاز — عاطفيا — الى سكان بيوت الصفيح الذين كان عشيقها يتشدق برغبته فى طردهم واقتلاع بيوتهم بالجرافة .

والحكايتان — على ما فيهما من رغبة نبيلة فى الكشف عن وجه الظلم ووجه الحق اين يقعان ، يشوبهما افتعال ظاهر .

والى جوار الحكايات ، المتخيلة والكابوسية والأخرى التى تدخل فى باب الكناية والأمثولة ، هناك مادة لايمكن ادراجها فى باب القصص أصلا ، لأنها — بوضوح — مقالات مثل تلك التى يتضمنها كابوس ١٧٠ ، حيث مادته هى اقرب الى الريبورتاج الصحفى منها الى فن الرواية . فبعد مقدمة شعرية قصيرة تصف حال بيروت وقد زارها الخريف فوجدها مدينة دامية ، الكل فيها ينزف ، فهطلت دموع الخريف مدراراً وظن الناس ان الدموع مطر ، تنتقل المادة الى ذكر محاولة السلطات اعادة الطابع السياحى لشارع الحمراء بطرد الباعة الشعبيين منه ، وتقرر ان المرء لا يستطيع مداواة الجرح بستره عن الأنظار ، وانه لا أحد ضد اعادة شارع الحمراء شارعا نظيفا حضاريا ، لكن اعتبار هذه الخطوة كل شيء ، يدل على جهل المسئولين بكنه ما يدور ومدلوله . ولغة صحافة الريبورتاج فى هذا الكلام أوضح من أن تحتاج الى مزيد من لفت النظر .

رغم الطول غير المبرر الذى تبديه الرواية ، وما فيها من مادة شعرية بعضها فقط جيد والآخر لا يحسب فى عداد الشعر ، (مثل النداء الموجه الى الحب فى كابوس ١٠٧) فان « كوابيس بيروت » تشدنا اليها معظم الوقت ، خاصة فى المواقف المتتالية المأسوية شبه الكوميدية التى تحاول بها الراوية وامين وخادم البيت نقل جثة العم فؤاد من مكان الى آخر حتى ينتهى الى صفيحة القمامة . ومثل الساعات الكثيرة التى تقضيها الراوية فى انتظار عربة مصفحة تخرجها من الجحيم الذى تعيش فيه ، هذه الساعات الحافلة بالتوتر والاثارة والتى تربطنا بالرواية وبطلتها ربطا واضحا . ومثل صفحات من السخرية المريرة والذكية معا من احوال بعض سكان بيروت ، الذين لا يجدون فى السوبر ماركت ما تعودوه من لذيذ الطعام فيضطرون الى أكل معلبات القطط

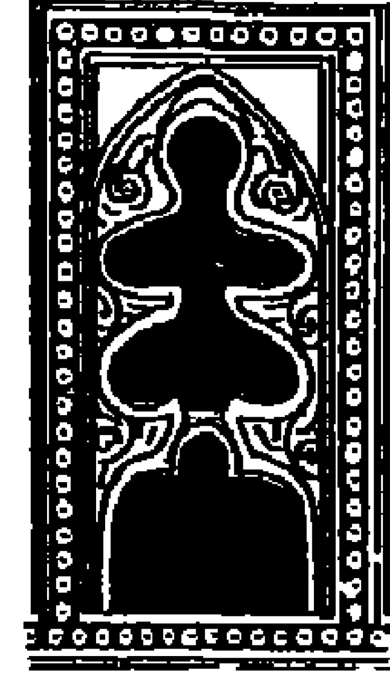
والكلاب والعصافير ، ثم يغادرون السوق وهم يموءون ويعوون ويزقزقون .

المشكلة الرئيسية فى هذا العمل انه مزدحم لدرجة التخمة بالأفكار والآراء والتعليقات والحواريات ، وبقصص الخيال المسرف فى الجنوح . ولو أن الكاتبة كانت قد مارست عملية اختيار حازمة بين ما يفيد عملها الفنى وما هو مجرد رغبة فى التنفيس عن آرائها ومعتقداتها ، لأصبحت الرواية أجمل وأوقع مما هى الآن .

على أنها ـــ دون شك ـــ عمل هام ، لافت للنظر ، تصدى لمشكلة ثقيلة ، هى مهمة التعبير عن أهل مدينة شرب أهلها جميعا من نبع الجنون .

قلوب على الأسلاك

عبد السلام العجيلي



يأتى الفتى الريفى ـــ طارق عمران ـــ الى دمشق ، وكل عدته طلعة بهية تتفجر بالشباب وحس مرهف صب الشعر فى قلبه ، وحفزه الى كتابة قصيدة عنوانها : « حريق فى ليل الريف » . نُشرت القصيدة فى احدى المجلات اللبنانية قبل وصول طارق الى دمشق ، فلما جاء تلك المدينة اصبحت القصيدة بطاقة تعريف جميلة ، دلف بها الشاعر الشاب ـــ بحفز وتأييد من عمه ، عبد المجيد بك عمران ـــ الى واحد من أرقى مجتمعات المدينة : بيت رجل الأعمال المترف : حليم رمزى ، الذى ترأسه وتسوسه امرأة فاتنة الجمال اسمها نهاد ، زوجة حليم بك .

السيدة نهاد تعمل لحساب زوجها : طُعْما جميلا لادافع لفتنته ، يجذب اليه ذوى النفوذ وأصحاب الأموال ممن يرجو الزوج أن يجد عندهم نفعا . فهو وسيط أعمال تهمه العمولات التى يبنى ثراءه عليها . غير ان هذا وجه واحد فقط من وجوه الفاتنة الجميلة نهاد . انها ـــ الى ذلك ـــ اشبه بسيدات القصور فى العصور الوسطى ، تلك التى كان يتحلق حولها شباب الفرسان ورجالهم ، يتغزلون فى جمالها ، ويدبجون فيها قصائد المديح ، و« تحبهم » هى جميعا وتبذل لهم من الود ما يجعل حلقتهم حولها لا تنقطع .

الى هذه الحلقة من المعجبين ينضم الفتى الريفى طارق ، ويصبح لأول وهلة شخصا مرموقا ترعاه نهاد ، وتوليه الاهتمام كله ، وتقول ان اهتمامها هذا مبعثه ان طارق شاعر ، وهى تحب الشعر ، وقد قرأت : « حريق فى الليل » فكان اعجابها بها كبيرا .

فى دمشق انست الأحداث والرجال والأعمال والحسان طارق كتابة الشعر . وجد أمامه ناهد رمزى فكتب فى حسنها بعضا من قصيدة لم يستطع ان يتمها . كان امامه جبل قاسيون ، راح يتطلع اليه فى غبشة المساء وقد اخذت تومض عليه انوار أول الليل الباهته ، فى نوافذ المنازل التى

تتسلق سطحه أحس أن الجبل جدير ان ينظم فيه شعرا . قالت له هدى — سكرتيرة عمه ، الانيقة الجميلة التى تدير الأعمال فى هدوء واقتدار ثم لا ينقصها الذكاء — قالت له وهى تدفع اليه بملف : ها هنا تقبع قصيدة فى جبل قاسيون كالتى تريد أن تنظمها . ولكنها قصيدة هندسية . ان عملك شاعر مبدع ، واسع الخيال . غير انه لا يصوغ خياله فى الكلمات ، بل فى الأعمال — اعمال مثل مشروع التيليفريك الذى يحوى الملف رسومه التوضيحية .

كان العم قد قال وهو يزيح ستارة ليظهر لابن اخيه جبل قاسيون : انظر الى حقل العتمة الممتد من آخر انوار المنازل فى أعلى المهاجرين الى نور صارى التلفزيون على قمة الجبل . انى اتخيل حقل العتمة هذا ممزقا بسبحة من الأضواء تمتد فى خط مستقيم من ذروة قاسيون الى ساحة الأيوبيين على طول خط التيليفريك الذى سيربط القمة بقلب المدينة .

يصبح مشروع التيليفريك شغل طارق الشاغل ، ويتصدر الاهتمام به احداث الرواية . القوى التى تتحمس له والأخرى التى تتألب عليه تكوّن فى مجموعها القوى التى ساندت وعارضت قيام الجمهورية العربية المتحدة . يصبح رمزا للتحدى الذى واجهته الجمهورية الفتية منذ أيام قيامها الأولى . تتعلق قلوب كثيرة على اسلاك التيليفريك ، بعضها يرجو لو يتم والآخر يجرى وراء نفع له لو تم ، وفريق ثالث يرى فى المشروع هدما لزمان ومكان واسلوب حياة ، وزرعاً للقبح مكان الجمال الذى خلقه الله واهداه الى دمشق الفيحاء .

صفية الجميلة واحدة من هؤلاء الأخر : أرملة اسماعيل ، صديق عبد المجيد عمران ، عم طارق ، ومساعده فى اعمال الشركة حتى وفاته المفاجئة . يرى العم أن صفية ذكية وتستحق الاحترام ، وجميلة ، غير انها مهووسة .. مهووسة ببعض الآراء . ربما اثرت صدمة وفاة زوجها عليها فدفعتها الى الآراء الجانحة وسوء الظن بالناس .

اما صفية فهى تعادى مشروع التيليفريك هذا ، لا تبالى ان أخاها هو مستشار عبد المجيد غير الرسمى ، ومعاونه فى تنفيذ المشروع . كلاهما يجرم فى حق الناس اذ يزمع بناء صرح على انقاض بيوت الغافلين .. بيوت الناس الذين سيمر التيليفريك فوق رؤوسهم . سيمر فوق بيوت الفقراء ويعفى بيوت الأغنياء من الهدم .

يقول لها طارق وهو يجادلها : بل سيجعل المشروع لدمشق وجها جديدا . سيحيل سفح قاسيون الى غابات كثيفة وحدائق منسقة . ترد صفية : لو جئت قبل عشر سنين ورأيت دمشق ! كانت جنة الدنيا . جنة بغوطتها . ماذا أصبحت الآن بفضل تقدمكم ؟ تحولت رياضها كتلا من حديد واسمنت . وأنتم تتلفون الجنات وتحلمون بأن تنبتوا صخور قاسيون خضرة وبساتين مثمرة .

وتقف نهاد من التيليفريك موقفا متميزا . كانت الى جوار جمالها وثراء زوجها ، ومكانتها المعتمدة على هذين ، تود لو أن لها قوتها الخاصة ، غير المعتمدة على زوجها . خدعت فى زواجها من حليم بك ، ووجدته غير ما كانت تأمل فيه . فسعت الى ان تلتحق بالتنظيمات السياسية الجديدة التى ترتبت على الوحدة . وثقت علاقتها بالأشخاص المعتمدين من القاهرة ، وعلى رأسهم « زكى بيه » مبعوث القاهرة الى دمشق وعينها الساهرة فيها — ووجد زكى بيه ان زوجة حليم بك مهتمة بالمشروع فاهتم به هو الآخر . وخيل اليه أنه يخدم حليم بك وزوجته نهاد بالسعى الى الغاء المشروع جملة وتفصيلا ، فسعى الى هذا فى القاهرة . وقال انه نجح . هنالك أحست نهاد أن طعنة كبرى قد وجهت اليها فهى — كامرأة دمشقية — كانت تحلم بالجنائن الخضراء تكسو سفوح قيسون ، وبالقصور والمقاصف تحيل حدائقها قمته الجرداء الى روضة مزهرة . فتنها تخيل العربات الطائرة تحمل الناس من القمم الى المروج وعاشت ترجو ان يتحول الحلم الى حقيقة . فلما انبأها زكى بيه بأنه نجح فى الغاء المشروع احست كأن انسانا غليظ الحس قد عمد الى أجمل زهرية فى بيتها فتعمد القاءها على الأرض ليبرهن على انه قادر على تحطيمها . كفنانة ، ومحبة للشعر ، وقعت نهاد فى غرام قصيدة الأسلاك والصلب التى كان عبد المجيد عمران يسعى الى أن يصوغها ، ليجمل بها دمشق الفيحاء . من أجل هذا تفرح نهاد — ولا تحزن — لأن عبد المجيد بك عمران قد نجح اثناء زيارة أخيرة للقاهرة فى انتزاع الموافقة على اقامة المشروع رغم كل المؤامرات .

غير ان عبد المجيد بك يعود من القاهرة وقد فتر حماسه للتيليفريك فتورا ظاهرا . قاده نجاحه فى انتزاع الموافقة الى التعرف على مفاتيح الموقف السياسى الذى تجد فيه الجمهورية العربية المتحدة نفسها . كان موقفا مهتزا الى حد كبير ، أحس معه عبد المجيد ان نجاحه هذا هش ، وانه يهدد بكارثة كبرى اذا ما تصدع اساس الوحدة . وقر فى قلبه ان الوحدة موشكة على الانهيار خلال بضعة اشهر . هنالك ادرك ان فوزه بالمشروع كان فوزا على الورق . وان عليه ان يجمع أوراقه وينجو بنفسه وماله قبل ان تغرق السفينة . لا فائدة من الحديث عن المؤامرات ، ولا جدوى من تنبيه المسئولين ، فهم اما عُمْى أو مغرورون أو ضالعون . وليس من المجدى ان يقف انسان ما فى وجه تيارات تنحدر بالوضع كله الى الخطر .

حين لا يقتنع طارق بهذا المنطق ، ويروح يؤكد لنفسه ولهدى سكرتيرة عبد المجيد بك ان تنصل هذا الأخير من المشروع هو هروب لا مبرر له ، تقول له هدى : عبد المجيد بك يظل رجل أعمال يؤمن بالنفعية فى أعماله حتى تمس هذه النفعية قيما سياسية يعتنقها ولا يرضى عنها حِوَلا . اذ ذاك يترك كل أعماله وراءه ويروح يفكر فى النجاة بمعتقداته . انه واحد من اولئك

الرأسماليين الوطنيين ، الذين يؤمنون بمصلحتهم الخاصة ، ويعملون بحيث لا تتعارض هذه مع الصالح العام . لهذا يترك عبد المجيد دمشق ، ويروح يحول اعماله الى مراكز عالمية فى جنيف التى اتخذها مركزاً لمؤسسته الجديدة .

يظل طارق عمران يركب السور الفاصل بين الفعل واللا فعل ، يؤرجح رجليه ، ولا يفعل شيئا . لا يقفز الى الفعل ، ولا يقنع باللا فعل . يظل هكذا حتى يبدو واضحا ان عاصفة عاتية موشكة على الهبوب ، اذ ذاك يتوجه بأول سؤال سياسى مباشر يبدو منه — يقول لصديقه ممدوح : ما رأيك بمستقبل بلدنا ، مستقبله السياسى ؟ فيزفر ممدوح قائلا : الحمد لله . هذه أول مرة أراك فيها تسأل عن السياسة ... فى كل مكان كنت تضحك معنا من السياسة وعلى الساسة . اما الآن فانى أراك تسأل جادا .

يسأل طارق أول سؤال جاد له فى السياسة . ومع ذلك فانه يبدى سذاجة كبرى . فهو لا يصدق بوجود رجال الملاحقة والتعذيب فى البلاد . وحين يستمع الى الدكتور زهير وهو يروى الأحاديث عن ناس سجنوا او اختطفوا أو عذبوا ، يضحك مع غيره لطرافة الطريقة التى يروى بها الدكتور حكاياته ولكن طعم المرارة يأخذ يشوب ضحكه . لقد جعل يتبين انه انسان قصير النظر ، لا مبال ، يعيش فى قدر فائر ، دون أن يفطن الى ان اللهيب الذى يتصاعد حوله قد اوشك ان يلتهمه هو ضمن من يلتهم . غير انه لا حول له ولا طول . وشروح ممدوح له لا تأتى بثمرة . يوضح ممدوح له ان سبب البلاء هو انعدام الحرية ، وان الجهاد ينبغى ان ينصرف الى توفير حرية الفرد تليها حرية الشعب ، فان هذا مفض الى الاهتداء الى الطريق الأفضل فى السياسة . ان الأزمة مرجعها تعثر الاقتصاد وامية الأمة وتدخل الأجنبى . وعلى المناضلين ان يبحثوا فى هذه التعقيدات من بداية الخيط المؤدى الى الانفراج .

يسمع طارق هذا الكلام ، ثم يرضى بعد تجوال عقيم فى شوارع دمشق مع صديقه ممدوح ، يرضى بأن يغشى الملهى الليلى الذى تعمل فيه الراقصة الفاتنة زوزو . ثم يدلف الى شقتها آخر الليل ، ويستمتع معها بكل اللذائذ الذى تجعله مستحقا ان يهبط الى الجحيم .

غريب امر طارق هذا ! . فانه يحل المشاكل السياسية والاجتماعية بالانغماس فى الحب الجسدى . يوسطه اصدقاؤه كى يعمل على اطلاق سراح الدكتور زهير ، الذى اطبقت عليه قوات الملاحقة ويوضحون له ان ناهد قادرة على تحرير الدكتور بما لها من نفوذ لدى الأجهزة ولدى زكى بيه . وأنها لن ترفض طلبه لأن دمشق كلها تعلم كم هى مفتونة به ، فلا يصدق أنها مفتونة ، وان وافق على أن يوسطها لدى الأجهزة . وحين يطلب لقاءها على وجه السرعة ، وتستجيب لطلبه مهملة اصدقاء لها دعتهم الى بيتها ، يقنع طارق من الوساطة بليلة غرام يستمتع

فيها بجسد ناهد النارى الفائر ، وينسى ـــ فيما يبدو ـــ ألمه الصادق الشديد ، حين علم باعتقال زهير ، فتأكد له اذ ذاك كذب ما كان يتلمسه من أسباب لإراحة نفسه من عناء التصديق بوجود قوات العسف والملاحقة .

وتشكو اليه صفية الجميلة ظلم عمه ، والأضرار الفادحة التى سوف يلحقها بالناس تنفيذ مشروع التيليفريك ، فتستحيل القضية بين يديه الى غرام لأرملة شابة جميلة تقدم له شفتيها وتدعوه الى أن يستمتع بغرامه بها .

وتقتحم عليه مسكنه المراهقة الفائرة ، الثائرة ماجدة ، شقيقة هدى ، وتلقى فى وجهه بآراء كثيرة الشذوذ ، باعثة على القلق ، ثم تنهال على شفتيه تقبيلا . فيتراوح أمره بين الاستهجان وبين الانجذاب الى هذا الجسد الفتى الفائر ، وبدلا من أن يجعلها تؤمن بأن ما فعلته خطأ لا يليق به أو بها يمد شفتيه اليها ويقبلها بدل المرة مرتين .

وهو فى هذا كله لا يستقر على حال . يكون بين ذراعى ناهد فيذكر صفية ويزعم لنفسه انه ما أحب سواها . ثم ينساها حين تتقدم اليه ناهد عارضة نزهة بالسيارة خارج المدينة تفتح له فيها قلبها ، وتسلمه شفتيها . ثم ينسى ناهد من بعد فى خضم الحوادث فلا يذكرها الا يوم تقدم اليها بطلب الوساطة .

لا جرم ان العاصفة حين تهب فعلا يجد طارق نفسه وحيدا ، قد تخلى عنه الكل . ناهد سارعت بالانفصال عن زوجها وتزوجت من زكى بيه . وصفية نفضت عن نفسها أثواب الحداد وتزوجت من جديد ، وماجده ، الثائرة ، الفائرة ، انتظمت فى عمل روتينى بالغ التنظيم ، وأصبح يرى صورها فى الصحف . تغطى عينيها نظارة طبية سميكة . اما هدى ، التى كان تداعب خياله الرغبة فى التغزل بها ، فانها كانت مخطوبة ـــ طيلة الوقت ـــ لعمه ، وهى لهذا تسافر معه الى بيروت فور تخلى العم عن المؤسسة .

هل كانت ثورة ماجدة خداعا ؟ هل خدعته نهاد أيضا ؟ لم تخدعه صفية وانما هو الذى بها خدع . ونهاد احبته بالطريقة الوحيدة التى تفهمها . وعمه ؟ الم يخدعه هو الآخر ؟ زين له مشروع التيلفريك ، ثم هجره ، وهجر بلده ووطنه ، ونعم بثروته الجديدة وبهدى ، التى تركت هى الأخرى طارق ، رغم صداقة حميمة وود أوشك ان يكون غزلا .

لم يبق صامدا الا ممدوح . الذى كتب لصديقه يقول انه يعيش على طريقة : « محلك سر » . فهو صامد رغم انفه . ليس عن شجاعة وانما عن قلة حيلة . ويقرأ طارق رسائل ممدوح ويفتح عينيه ويحصى الهاربين فى هذه الحياة ، فلا يجد اكثر منهم .

تزخر رواية : « قلوب على الأسلاك » بالسياسة واحاديث السياسة . وترسم صوراً حميمة

فاتنة لنقاش المثقفين فى مقاهى وحانات دمشق ، وتعرض مجموعة متباينة شديدة الطرافة للمتعاملين مع السياسة ، كلاما ، وكتابة ، وتجسسا ولكنها تظل — فى التحليل النهائى — رواية عن غرام النساء والرجال .

لا ينسى القارىء أبدا مشهد اقتحام المراهقة ماجدة لمسكن طارق ، وهى تحمل له زهورا تحية له فى مرضه ، ثم لا تلبث ان تدخل معه فى نقاش عارم حول مفهوم الحب والجنس ، وعن حرية الفتيات الصغيرات فى غشيان مساكن احبائهن ، وتتهمه وتتهم الأجيال السابقة عليه من الرجال بأنهم يتعمدون اخفاء الحقائق عن الشباب ، ثم تلقى فى وجهه بقنبلة مدوية . بعد ان وصفها بأنها مازالت طفلة : « طفلة . طفلة ! أنا لست طفلة . وانما انت صبى . صبى متعجرف . أو انك غبى أعمى . الا ترى أنى أحبك »؟!

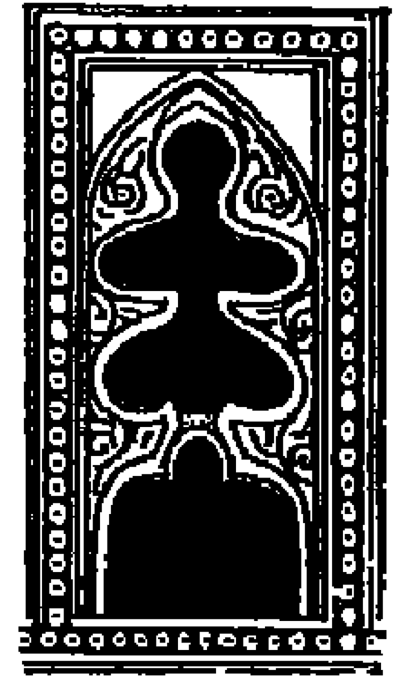
يشعر طارق بأنها وقحة ، جريئة فى وقاحتها ، ولكنه لا يستطيع ان يكرهها ، او يستصغرها أو يحتقرها . بل يعانقها ويقبلها ثم يقول : انت لم تعودى طفلة . بل أمسيت صبية جميلة مثيرة . وانا بشر . الى أين تريننا ننتهى اذا تعرضنا لاغراء جديد ؟ تجيب البنت فى عجلة : ننتهى الى الحب . الحب الكامل . ومن ثم يخرج طارق من هذه المواجهة مهزوما أشد الهزيمة . اخلاقه الريفية لم تصمد طويلا أمام هذا الهجوم الكاسح الذى اجتاح كثيرا من المواضعات والمعتقدات . تتمسك البنت بحريتها ، وتعد بأن تمضى فيها الى نهايتها ، مثلما فعلت صديقتان لها آمنتا بأن الحب والجنس شىء واحد ، فاحترمتهما ماجدة ، ولم تحترم نفسها لأنها لم تقطع الطريق كله . ولكنها فاعلة لابد ، حتى تحظى باحترام نفسها لنفسها !

يصدم هذا كله طارق ، ولكنه لا يجعله يغير النهج الذى سار عليه حتى ذلك اللقاء : التوق ألى الحب والانغماس فيه ثم إنكاره بطريقة أو أخرى . الحب عنده مقترن بالذنب . حبه لصفية لا يفارقه احساسه بأنها كانت زوجة لرجل انجبت منه طفلا وأصبحت أما . وان لم يمنعه هذا من التمتع بجسدها . حبه لناهد يقتصر على عشق الجسد ولكن تغشاه دائما صورة الزوج والأصدقاء الذين يحومون حول الفاتنة الجميلة . انغماسه فى الملذات مع الراقصة سوزى يواكبه — فورا — تبكيت النفس والاحساس بالتردى الى الجحيم . لا يحل طارق — ابدا — العقدة التى تجعله يحتوى الشىء ونقيضه . من أجل هذا أحبته النساء جميعا وتهربن منه جميعا .

ومع أن بعض القلوب المعلقة على الأسلاك كانت قلوب رجال ، فانها فى الأساس نياط قلوب نساء يبحثن عن الحب درءا لوحدة قاتلة ، أو تلمسا لبديل من ارتباط خائب ، أو سعيا وراء زوج ثرى يوفر العيش الهنى . وحين تتهرأ الاسلاك وتقع ، تقع معها القلوب وتتفرق فى غير اتجاها . أما قلوب الرجال فإنها تضيع أو تهرب أو تعرف السجون والمعتقلات أو تردمها أنقاض بناء الوحدة الجميل الذى أقيم على عجل وسقط على عجل .

الوطن في العينين

حميدة نعنع



عرضوا على نادية أن تتزوج من ثرى غريب فأبت . بكت أمها ، وصاح الأب : « ستضعين رأسنا فى التراب . البنت خلقت للزواج » . هتف اخوتها : « هذه المجنونة ! ستكون فضيحة لنا » . ضرب أحدهم رأسها فى الحائط ، فسال منه الدم . غير أن نادية لم تبال ، وجدت دمها أحمر وليس أزرق ، كما كان يزعم أبوها .

تمر العاصفة ، وترحل نادية الى مدينة ارم لتتزود بالدراسة الجامعية . ترحل وهى تهنىء نفسها : « فشلوا أخيرا فى أن يجعلوا منى آلة تفريخ » . لم تكن نادية ترى نفسها زوجة ولا أما . قالت للغريب الذى وعدها بالمال والسعادة : « المال لا يغرينى ولن أعدك بطفل » . وحين تمضى أحداث الرواية من بعد ، لتتزوج من طبيب يعيش خارج عواصف الثورة الفلسطينية — التى القت نادية بنفسها فى خضمها — لا تحس انها حملت الا بعد أن يموت الجنين فى بطنها قالت معلقة : كيف أحبل بالعار !

حلمت زمنا بطفل عيناه سوداوان . كانت تريده ذكرا لأن الرجال قليلون فى هذا العصر . وعند كل وجه كانت تقف آملة أو متأملة . لكنها كانت تنتهى فى كل مرة الى ان الرجال بعد الخامس من حزيران سقطوا جميعا فى قاع وادى النار . اصبحوا صخورا سوداء عاجزة عن الحركة أو الحب . لهذا اختار طفلها أن يموت ، خوفا من العار .

أما هى فقد عانقت الثورة عناق المدله الذى شفه الوجد . من أجلها تركت الشعر والجامعة ، ومقاهى المثقفين ، والأم والأب . فى سبيل النضال المسلح تركت حتى الحزب الذى رباها واثقل رأسها بالحكايات العقيمة : الطبقة العاملة — النضال النظرى — العدالة . قالت لمسئول الحزب : المعركة الآن قومية . ومع عدو يجهد للقضاء علينا . لنلجأ للسلاح .

والتحقت نادية بمعسكر للتدريب وسط دهشة رفاقها من الرجال . لم يفهموا لماذا تختار امرأة شابة وجميلة أن تواجه الموت . كانوا يظنونها قبيحة ومعقدة . وجدت عنتا فى اقناع الجميع بجدية رغبتها فى القتال . كانت تتوفز وتتحرق شوقا للمعركة . قال لها أبو مشهور ، المناضل ، الناضج الذى ملكته الثورة تماما فتوحد معها : يبدو أنك تضيقين بجلدك يا نادية . الأيام آتية والمعركة طويلة .

أربعة أشهر تقضيها فى ساحة التدريب تفتقد الصبر والجلد وثقة رفاقها بها ــ امرأة تتكلم لغة غير لغتهم . تنقصهم الثقافة النظرية ، ومهمتها أن توصلها اليهم . لم يكن بينهم من تتواصل معه الا أبو مشهور . تحب أحاديثه . تحس فيها رنة غامضة كالنحيب المكتوم . كسر خفى تكاد الحروف تتمزق فيه . وتمر الأيام . الموت يحدق بهم فى المعسكر . أسلحتهم فى أيديهم ينتظرون .

على غير توقع . تقرر القيادة تغيير خطة النضال وعليهم الآن أن يلجأوا الى اسلوب خطف الطائرات وتفجير المنشآت فى سبيل لفت النظر العالمى الى قضية شعب مظلوم مهدد فى مجرد البقاء . لا أبو مشهور ولا نادية وافقا على هذه الخطة ، غير أن الانصياع لأوامر القيادة كان فرضا محتوما . والتف ليل جنيف بنادية واطبق عليها بثلوجه وشموع البحيرات والنساء الجميلات فى كل مكان . قالت لنفسها : لم لا ؟ لماذا لانقلق راحة هؤلاء المستسلمين لترفهم ؟ لماذا لا نهزمهم ، يمطر الليل دما على أسفلت شوارعهم النظيفة ؟ ليسمعوا أن هناك من يجوع ويتشرد ؟

وبدأ مسلسل تحويل الطائرات ، وتفجير بعضها على أرض المطارات . فى احدى حلقات المسلسل سألت واحدة من ركاب الطائرات المخطوفة ، نادية . أليس لك اطفال تخشين أن يصيبهم مكروه ؟ فأجابت المناضلة : لم يسمحوا لنا بانجاب الأطفال ! غير أن المسلسل سرعان ما ينتهى ، ونادية فى أقبية سجون المانيا ، ورصاصة تسكن احدى كتفيها . وحين تخرجها حملة اعلامية مكثفة من السجون ، تصبح بطلة ونجمة ، ورمزا للمقاومة . ولكنها أيضا تقتنع اقتناعا نهائيا بأن خطف الطائرات أسلوب مقاومة فاشل وان المعركة مع العدو الاسرائيلى يجب أن تجرى على الأرض المغتصبة .

وتتوالى من بعد خلافات نادية مع منظمتها . يتهمونها بأنها تعبت ، ويقررون إبعادها عن المعسكرات ، لتصبح مسئولة اعلامية ، غير أنها لا تلبث أن تخرج عن هذا الوضع المميت ، وتسهم فى معركة مع العدو على غير تخطيط وموافقة من القيادة . ومرة أخرى تسأل ، وتؤمر بالالتزام بوظيفة مسئول الاعلام ، ثم تكون القطيعة النهائية يوم تقرر المنظمة العودة الى خطف الطائرات فتعترض نادية اعتراضا قاطعا يؤدى بها الى الفصل .

من بعد تجد نادية نفسها صعلوكة على أرصفة باريس ، تعايش المثقفين العرب ، ممن ضاقت

بهم أوطانهم ، وضاقوا بها ، فوجدوا الخلاص المخدر فى الشراب والنساء والخطب الثورية الجوفاء .

كانت المناضلة « المرتدة » قد تعرفت الى زوجها خالد ، فى واحدة من فترات هدوئها الثورى ، وتزوجته ، ووافقت ، بعد القطيعة مع المنظمة ، أن تتزوجه وترحل معه الى باريس . غير أنها لم تكن قد تزوجت رجلا عاديا ، بل اقترنت بنقيض الثورة : رجل بنى حول نفسه أسوارا لا يخترقها الرصاص ، ولا يصل اليها صوت المغدورين ولا يحمله أى حدث مهما عظم على أن يغير من عاداته فى الطعام والشراب ، كان مناضلا سابقا ، ولكن ما لبث أن تصالح مع نفسه ، ووجد أن وطنه الحقيقى ليس فلسطين ، بل حدود جسمه وعيادته وبيته .

لماذا تزوجته ؟ يسألها صديقها الفرنسى فرانك — ثائر متقاعد هو الآخر ، جاء من افريقيا السوداء بعد محاولات فاشلة لزرع الثورة هناك ، انتهت به الى السجن . يسألها فرانك : أكنت من الحريم ؟ هل أجبرت على الزواج به ؟ فتقول : أبدا . كنت الزوجة الأولى والوحيدة . لم يجبرنى أحد . اخترته ملجأ .. جلادا . سجنا كما تشاء .

قبل ان تقول نادية لنفسها : « ما انبل أن يعيش الانسان من أجل قضيته » ، كانت قد أنفقت أيامها خلف الكتب والنظريات والصداقات والاتصالات والعادات . احتمت كثيرا ودللتها الثقافة كثيرا . وكان الوهم الذى أطلقه أبوها أمام عينيها : « أنت كردية ، وما يجرى فى دمك هو دم أزرق لأميرة » يدغدغ أعصابها ، ويلذ لها ، وإن رفضته . كذلك كانت تخايل بصرها صورة الزوج الثرى الأكرش الذى أعرضت عنه وتقول : لو كنت تزوجته لكنت الآن اطوف أوروبا اشترى الثياب والجواهر وأصبح مفرخاً للأولاد .

فى داخل الثائرة امرأة تصر على أن يكون لها كل صفات المرأة . تحبل وتلد وترعى الزوج والولد والبيت . غير أن هذا الحلم البيتى — هذا الوطن الصغير ، شىء مستحيل ، لأن الوطن الأكبر هو الشغل الشاغل . لأن الوطن فى العينين . لهذا يكون اقتراب نادية من الثورة هو اقتراب الثائرة المرأة ، وليس الثائرة وحسب . ليست جان دارك هى — تلبس ملابس الرجال ، وتغدو وتروح بين المقاتلين فلا يطمع فيها أحد ، فضلا عن أن تنظر هى الى المقاتلين . لا ، ليست قديسة هى ، ولا هى راغبة فى أن تكون . انما هى امرأة تزوجت الثورة ، حقيقة ومجازا . أحب رفاقها اليها أبو مشهور ، ذلك الذى اتخذته حبيبا وزوجا ، فلما قتل فى معركة مع العدو الصهيونى ، ظلت ، وهى فى كنف خالد ، زوجها « الرسمى » كما تسميه ، تنتظر المقاتل الحبيب والزوج — الذى لن يعود .

وتتعرف الى فرانك أيضا تعرف الثائرة المرأة . تتخلله بذكائها الحاد وتعرف مواطن الضعف فيه ، وتقبله كما هو ، وتتخذه رجلا — وطنا ، فى انتظار العودة الى الوطن — كما اتخذت أبو

مشهور من قبل ، وفى علاقتها بهذا الثائر المتقاعد تجد صورة لنفسها . هو أيضا يحتمى من الثورة بشقشقة لسان . قالت له : انت ولد مدلل لم يستطع أن يستمر فى النضال فعاد الى أحضان برجوازيته . سيعينونك من بعد وزيرا للثقافة . وقال لها : بعد تجربتى فى الكنجو ، لا يجوز أن ترسل البشر الى الموت . التاريخ لا يصنع فى فرن . وترد هى : هذا تاريخكم انتم . فى العالم الثالث علينا أن نلوى عنق التاريخ . غير أن فرانك يرفض هذا كله ويقول : أنا فرنسى وسأعيش فى فرنسا وأناضل لتغيير واقعى الفرنسى .

ولا يقر لنادية قرار فى فرنسا بعد هذا يأتيها صوت أبو مشهور فى جوف الليل : أين خلاصك يا نادية ؟ أنت هنا بقايا وطن وامرأة ومقاتلة . وتحاول ان تعتذر فيواصل الصوت : الى أين تهربين من أرض إلى أخرى ، ، من ميناء الى ميناء باحثة عن الثورة فى جلود الآخرين ؟ إن الثورة فى داخلك وعليك اكتشافها ! .

وتقرر المناضلة العودة الى رفاقها . ستبدأ معهم من جديد . لم يمنحها البعد عنهم راحة ، وهى لا تزال تقاتل كى تعيش .

وعندما يعود فرانك من زيارة له لأرض معركته القديمة فى أفريقيا لا يجد صاحبته الثائرة ، فتتفجر فى وجهه الأكذوبة التى عاش عليها بعد أن هجر الثورة . وقال لنفسه : « جاءتك مثل الغيمة ، مثل العاصفة . مزقت صمتك وتخاذلك ونسيانك وذكرتك ببقع تحترق فى هذا العالم . وأنت تنعم بسلام أوروبا . أحببتها امرأة فرفضتك امرأة ورفضتك رجلا ، ومضت كنمرة تبحث عن بقع الدم على جبين بلادها . لكنها ردتك الى ماضيك . قالت لك : كل ثائر فى هذا العالم مسئول عن حياة رفاق له فى البقاع المتفرقة من الدنيا .

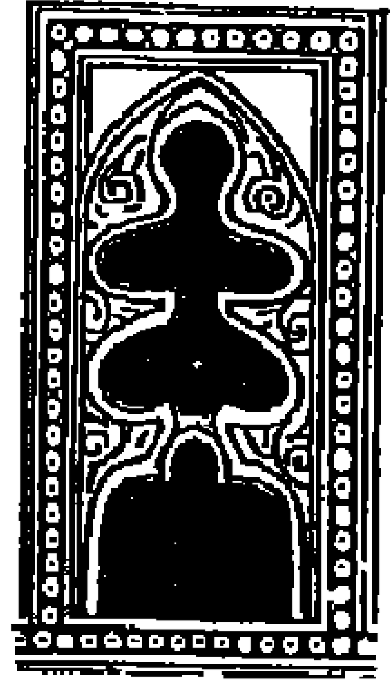
وللفور يحزم فرانك أمره ومتاعه ويطير الى أرض معركة جديدة ووطن جديد . يترك أوروبا العجوز لعجزها وترفها الكسول ، ويتحداها قائلا : انتصرى ان قدرت !

فيما عدا النهاية الرومانسية التى تخطط — بوضوح ضار — كى يجتمع شمل الثائر والثائرة ، وتنتصر فكرة أن الثورة لا أرض لها ، تقبض رواية « الوطن فى العينين » على موضوعها قبضا قادرا ، وتعرض علينا الواقع منغماً ، مفننا ، مرفوعا معظم الوقت الى مستوى الشعر العذب الذى ينز ألما ويقطر دما . ووسط خضم الأحداث تولد للمرة الأولى — ربما — شخصية المرأة العربية المقاتلة ، بكل ما فى المناضلة فيها من قوة وما فى المرأة من ضعف . تثور نادية فى الرواية ثورة مزدوجة ثورة اجتماعية ضد تقاليد أرضها البالية — الزواج المرتب — الزوج الواعد بالدعة والنعيم القاتل ، وضد الاستخفاف بقدرة المرأة العربية على حمل السلاح والقتال الى جانب الرجل فى أعنف المعارك . وتثور نادية أيضا على الاستعمار العالمى والاستعمار الاستيطانى الصهيونى ،

وتناصر ثورة المقهورين والمغلوبين فى كل مكان . فى شخصية نادية تكسب المرأة العربية قامة ومركزا ، وتظهر إلى أى مدى تستطيع أن تحطم أغلالها – أغلال المجتمع، وأغلال الجهل والجهالة . فان واحدة من أبرز صفات هذه الثائرة ثقافتها العالمية الواسعة التى تجمع بين الشرق والغرب معا ، تعبر عنها فى أحاديها وأحلامها ، ومواقفها من الرفاق أينما وجدوا : فى فلسطين والقاهرة وباريس ."

ثلج الصيف

نبيل سليمان



فى المستشفى الوطنى طردوا الطفلة « صديقة » ، حاكمين عليها بالموت . وقرر ابوها عيسى العبود أن يصطحبها الى بلدتها لتودعها أمها . فى الوقت ذاته كانت الأمريكية فيرا كوهين ، بائعة الجسد قد وصلت الى دمشق قادمة من تركيا وبصحبتها القوادة اللبنانية « أم المنى » أشهر قوادات لبنان. وكان فى مخطط فيرا أن تواصل سياحة جسدية بدأتها فى اليونان ، وانتوت الا تنهيها قبل ان ترتوى من الشرق ، جسدا ومالا .

وكان ابو على قد رحل الى دمشق من طرطوس ، فى مهمة نقابية انهاها قبل موعدها بيومين كاملين ، واخذ يمنى النفس بان يعود سريعا الى اسرته ، ليحتضن طفله الوحيد ، وتشد زوجته يديها حول خاصرته وتلتحم بظهره .

وكانت الصديقتان سكينة وايناس تستعدان أيضا للسفر . سكينة امضت خمس سنين فى دمشق بلا عمل أو دراسة تذكر ، بينما قطعت ايناس السنوات الخمس بين الشغل والجامعة ، لا تنبض روحها بالحب ، ولا يتحرك منها فؤاد هو أشبه بالحجر .

وكان بين منتظرى السفر أيضا فى جراج : « حمص ــ حماه ــ حلب » ، الشاب العراقى غيث الزالى والأستاذ يونس محمدية والأستاذ منير السعدى . كلهم كانوا ينتظرون ان تتحرك بهم السيارات . ولكن الثلج وقف فى طريقهم عقبة كأداء . من ثلاثة أيام وهو يهمى . فرفضت السيارات السفر، إلا بالأجر الحراق، وامتد الطريق أمام المسافرين حافلا بألوان من المصاعب والمخاطر ، ونشأ الموقف الرئيسى الذى تصوره الرواية تصويرا اخاذا : مجموعة من البشر تواجههم شراسة الطبيعة متمثلة فى ثلج لا ينقطع الا ليبدأ من جديد ، وترتفع قامته يوما بعد يوم ، فيتخذون منه مواقف متباينة ، تكشف عن طبائع لهم تتفاوت بين نبيل وخسيس . البشر

فى صراع مع الثلج ، وهم أيضا فى صراع مع دواخل نفوسهم ، وصراع آخر مع بعضهم البعض .

وليس هذا الشكل الذى تتخذه الرواية جديدا عل فنون القصة جميعا ، ما بين رواية ومسرحية ، لنذكر فى هذا الصدد مسرحية : « العاصفة » لشكسبير ومسرحية : « سكة السلامة » لسعد وهبة ، والأخيرة أقرب الى شكل ومحتوى « ثلج الصيف » . ولنذكر كذلك فيلم « بين السماء والأرض » المأخوذ عن احدى قصص نجيب محفوظ . فى هذه الأعمال جميعا تقع جماعة من الناس تحت وطأة حصار من نوع أو آخر . الجزيرة المعزولة فى مسرحية لشكسبير ، والحافلة التى ضلت الطريق فى مسرحة سعد الدين وهبة ، والمصعد المتوقف ، معلقا بين السماء والأرض وبداخله مجموعة من البشر مختلفو المشارب والأغراض ، فى قصة نجيب محفوظ التى تحولت الى فيلم .

الى هذا الشكل المشروع والمألوف ، والذى أصبح من الوسائل الفنية المعتمدة حين يريد كاتب ما ان يبرز عيوب مجتمع بعينه ويكشف ما يكمن وراء هذا المجتمع من نواحى الخير ، يلجأ نبيل سليمان فى « ثلج الصيف » . ما ان يرى الشاب الرقيق الشاعرى المزاج غيث الزابى الشابة ايناس حتى يعتريه انجذاب اليها لا يقوى على صده . لا . ليس هذا اشتهاء عابرا عرفه فى الليالى الخوالى ، ولكنه انعطاف كامل الى الفتاة الحسناء ، يشوقه منها امتلاء ردفيها وساقيها وتورد خدودها ، كما تجذبه اليها روحها الرقراقة التى تجعل منها فى نظره قصيدة رائعة ، فينطلق يريد ان ينشد قصيدة « ايناس » غير مبال ان اضحك الثلج الناس أم افزعهم ، فهو يريد ان يتغنى بايناس والثلج ، والحياة اجمعين .

اما ايناس فقد تفتحت زهرة فى فؤادها الحجرى . تفتحت بغتة ، وهى تسترق النظر الى غيث . هى العاقلة العلمانية التى لم تغمز قط بيد ولم تسقط اسيرة لكلمة مزوقة . هى التى جعلت همها الأول فى الشغل والجامعة ، تجد نفسها الآن تحب هذا الشاب ، وتضرب صفحا عن مناورات ومداورات الأستاذ يونس الذى يكاد يلتهمها بنظراته الشبقة وشفتيه المرتعشتين .

فى اليوم الأول لهطول الثلج فرح الناس فرحة غامرة وكسا البياض كل ما تقع عليه العين . وفى اليوم الثانى اخذ القلق يتسرب الى النفوس ، وارتفعت الدعوات الى الله بان يكشف الغمة . وفى اليوم الثالث بدا واضحا ان الثلج لن ينصرف قبل طويل وقت ، فصدرت التعليمات الى دوائر الأرصاد والمواصلات والبلدية وعناصر الأمن والشرطة ان يعلنوا حالة التأهب . فقد سدت المجارى ، وتكوم الثلج على نحو هائل ، وشحت مواد التموين ، وارتسم الرعب فى وجوه المواطنين ، وصدرت أوامر متأخرة باستنفار الجيش وأهابت النداءات بكل قادر على العمل أن يصنع شيئا .

وصدرت الأوامر كذلك الى الرقيب الأول حمدان يوسف حمدان بقيادة بعض الجنود فى جرافة عسكرية الى طريق دمشق ـــ حمص ، وشقة امام المسافرين . كانت الجرافة هرمة ، وجنودها قلة ، والاحتياطات معدومة . ولما باح الرقيب حمدان الى العسكرى نصر آمنة بشكوكه فى جدوى العملية ، وجد عند نصر رجعا لشكوكه ، وتبين أنه هو الآخر يرى ان من فى دمشق ارادوا ان يسخروا منه ومن البلد ، وهم يديرون الدفة من الغرف المكيفة ، يكنس لهم الثلج بين حين وآخر عن الأسطح والممرات جنود مخصصون لذلك .

هنا يكف الراوى عن الحديث ، وهو الذى افتتح الرواية وقدم لها بما جرى ذكره فى وصف الناس والمكان والموقف ، ويترك كل واحدة من الشخصيات تتحدث عن نفسها . يفعل هذا وهو لا يدرى أيتاح له العودة الى الكلام أم تضيع منه الفرصة .

فى اليوم الأول تتحدث ايناس ، وغيث وسكينة وابو على والعسكرى نصر والقوادة ام المنى وعبد الهادى . ايناس ترى فى المسألة كلها مغامرة ذات روعة ، اذ تسافر طريقا طويلا عبر مروج الثلج . لا يهمها ندرة السيارات وحشد المسافرين الهائل . حياتها الخالية من الأحداث ، وانجذابها الى غيث ، حركا الجامد فى روحه وقلبها ، فأقبلت على الدنيا بشغف كبير . يراها غيث فيجد وجهها يفيض برضا غامر يجعل لها لون السحر . لا تبالى بحماقات السائق وتهمس لسكينة بصوت مبحوح خفيض : ليجن على هواه . وتملى عليها روحها المغامرة ان تضيف : نحن اشبه بتائه فى صحراء . أما سكينة فانها هادئة ، لا يكربها شيء . تعود السيارة التى اقلتها وايناس والأستاذ يونس وابو على وغيث الى دمشق ، وتتركهم فى حماية الجرافة الهرمة التى عجزت عن مواصلة السير فقطعت الطريق على المسافرين بدلا من أن تشقه ـــ تتبين سكينة هذا فتطلق مع ايناس وغيث ضحكة عالية . كل ما يهم سكينة اذ يكون غيث من نصيبها جواراً ان تتساءل : هل سيظل لطيفا وباردا ام انه سيهفو الى ايناس التى جاء جوارها من نصيب الكهل يونس ؟

ابو على هو اكثر المسافرين جدية واهتماما بالصالح العام . يسأل وهو مهموم ان استمر الثلج ثلاثة أيام أخرى فماذا يحل بالبلاد ؟ هل تتحمل ستة أيام من هذا البلاء ؟ ان احدا لم يتهيأ لمجابهة هذه الأحوال من قبل . ولو تكرر الثلج فى صيف أو شتاء آخر ، فستتشقق اسطح المنازل جميعا . ويروح يتأمل دعوة يتقدم بها الى المسافرين جميعا كى يتعاونوا فيما بينهم لاستغلال ساعات النهار فى محاولة لشق الطريق .

العسكرى نصر يتبين من البداية ان لا أمل فى ان تتابع القافلة سيرها فى ذلك اليوم . لقد أرسلوه إلى دمشق كى يطلب النجدة فأنفق ثلاث ساعات فى حمل المسئولين على الاستماع اليه . وكان من حظ المسافرين ان التقى بالملازم الشاب رشيد ، الذى يسر تدبير طائرة هيليكوبتر

وميكانيكى وما أمكن من مواد ضرورية ، وكأنه كان يتنبأ بأن الجرافة لن تنفع ثم ركب الطائرة الى موقع القافلة . ان الملازم رشيد يعرف حقيقة الأوضاع فى البلد فلا كاسحات الثلج الجديدة متوفرة ، ولا العاملون عليها — ان وجدت — مدربون . ثم من يغامر بأن يترك بيته فى مثل هذا اليوم ؟ السائق الذى أوصل العسكرى نصر الى دمشق قال : خذوا السيارة وارموها فى جهنم . فأنا لن أعود .

ويستقل العسكرى نصر الطائرة الى دمشق وهو يقول لنفسه : ان المفتاح ليس فى السماء . ليس فى انقطاع الثلج . بل ليس فى الطائرة التى حرص طيارها على الزعم بأن الثلج سينقطع فى الليل — قال هذا وفى نفسه أمل بأن يعود الى أحضان زوجته ويبقى معها . وقال العسكرى نصر لنفسه : ها انذا اعود الى دمشق مرة أخرى . وسأقلق الكبير والصغير . ولكن بم ترانى أعود ؟ أ بأمر بوقف الثلج، أم بطريق لا ينالها أذى ؟ أم أعود بطائرات تقل المسافرين المقطوعين الى اهليهم ؟

المسئولون لا يتحركون . والناس أيضا لا يتحركون . طاف العامل ابو على على السيارات واحدة واحدة يدعو المسافرين الى شق الطريق بأنفسهم فما برح أحد سيارته . حتى الذين أيدوا دعوته فضلوا أن ينتظروا ربما يعود العسكرى نصر . وتعجب نصر من أن يكون أبو على وحيدا فى دعوته الى هذا الحد. الناس تنتظر ان يشق لهم الجنود الطريق ويغسلوها بالماء الساخن . وابو على يعرف ان الجنود غير قادرين وحدهم على هذا . ومن ثم رفض ان ينتظر حتى تأتى النجدة .

فى هذا الضوء يصبح لهطول الثلج ، وتوقف الكاسحة العتيقة العقيمة ، ورفض الناس للتعاون على شق الطريق ، والقاء التبعة كلها على جنود غير مؤهلين معنى اعمق مما يبدو على السطح . يؤيد هذا الرأى ان نبيل سليمان يهدى الرواية « الى الخامس من حزيران ١٩٦٧ » — عام الهزيمة . ويؤيده أيضا ان الثلج لم يقتصر على طريق حمص — دمشق وحده بل امتد هطوله وقطع مسالك البلد جميعا . بل لقد اتصل المسئولون ببلاد العالم جميعا طالبين النجدة . وتردد ان نجدات ضخمة من كل بلاد العالم سوف تصل . وعلى أية حال فقد حدث تمرد بين الصفوف وصمم الجنود على الخروج لنجدة اخوانهم ، فرضخ المسئولون ، وأرسلت طائرة تحمل كميات ضخمة . من الأطعمة . وقال الضابط الذى جاء مع الطائرة ان نجدات هائلة وصلت اللاذقية : اغطية وملابس واطعمة . وجرافات حديثة وضخمة لكسح الثلج ستصل قريبا .

فسقوط الثلج اذن كان كارثة قومية . وما دعا اليه أبو على وايده العسكرى نصر من ضرورة ان يقوم المسافرون بأنفسهم بتطهير الطريق ، وماتلا ذلك من قيام افضل العناصر بين المسافرين

باعمال بطولية فى هذا الصدد ، على رأسهم غيث وابو على طبعا ، وعبد الهادى قد اضفى على عملهم طابع الصمود والتحدى ورفعهم الى مصاف الأبطال .

وقال القادمون الجدد ان عشرات من المنازل تهدمت ، وتمت عمليات انقاذ كبيرة . ولما سمع البعض ان جرافة جديدة ستلقى المسافرين قرب حمص ، انطلق صوت يقول : لم نجهد أنفسنا بعد ذلك ؟ لننتظر هنا . فقال عبد الهادى ساخرا ومؤنبا : نحن دائما نؤثر ان ننتظر ، واتجه ببصره وذراعيه الى السماء قائلا : صبى ايتها السماء صبى . صبى ثلجا او جرافات .

لقد تحقق نصر كبير ، ولكن عناصر السلب مازالت موجودة . واذ تتحرك جموع المنتصرين صوب مشارف حمص يقول الراوى : ايتها الحياة .. ايها النصر المتجدد ، انك القدر الوحيد الذى آمنت به . لقد تحرك الناس فى كل مكان . ولم يكن المنتصرون وحدهم . واذ يتحرك موكب عبد الهادى وايناس ونصر وعيسى العبود وغيث وأخرون كثيرون وتنطلق حناجرهم وتلتهب اكفهم ، يهتف ابو صديقة وقد نسى حزنه على ابنته الصغيرة ، يهتف : كأنى أولد من جديد . ويقود أبو على القافلة قيادة حقيقية ويتجمع العساكر فى الزاوية الملاصقة لقيادة الموقع . ويصبح مرجحا ان يبدأوا رحلة العودة الى دمشق . فهل يعودون الى ما كانوا فيه قبل النصر ، ام يستبدلون بجلودهم القديمة جلودا جديدة من طراز جلد الملازم رشيد ، الذى قاد العملية المنتصرة ؟

يفتقد الراوى وجوه فيرا ويونس والخصمين جلال ومنير . ويلحظ انه لم يرهم من يومين . ويتساءل : هل صلبوا فى الثلج ؟ هل هانوا حتى اصبح موتهم أو بقاؤهم سيان ؟ هل رضخوا لقرار الجماعة بتشغيلهم شرطا لاصطحابهم ؟ هل يرافقون من يواصلون السفر بعد حمص ؟ وهل يعودهم اذاهم من جديد ؟

بهذه الأسئلة يلتحم المستويان السياسى والأخلاقى فى الرواية . لقد سعى نبيل سليمان الى كتابة رواية سياسية يختبىء معناها وراء قناع شفيف من حوادث الغرام والسرقة ، والعدوان ، والاغتصاب ، والتناحر ، محورها جميعا المرأة . شريفة وذكية وواعدة فى شخص ايناس ، وضائعة تائهة حتى ليسهل افتراسها فى شخص سكينة وفاجرة وقحة فى شخص الأمريكية فيرا بائعة الهوى ، وداعرة مع الاصرار المزمن فى شخص القوادة ام المنى . كما سعى الى خلق مقابل من الرجال لأولئك النسوة : غيث الطيب ينحاز الى ايناس الطيبة ، وفيرا الداعرة تجد كفؤها فى شخصية جلال ، المتخم بالمال ، الساعى وراء كل امرأة تبيع فخذيها أو تمكنه منهما ، والكهل المتصابى يونس الذى يحاول اغتصاب الشريفة ايناس ، وزميله منير الذى يرتكب جريمة عدوان دموى كى يظفر بفخذى سكينة ، ولا يبالى ان يلصق التهمة بالعامل ابو على .

هؤلاء الأشرار ما بين نساء ورجال يستبعدهم الكاتب من زمرة المنتصرين الذين يعول عليهم

فى بناء مجتمع جديد ، يستبعدهم ولا يعمى عن حقيقة واضحة ، وهى ان النصر الذى تحقق لم يهزم الشر هزيمة نهائية ، فلايزال خطرهم باقيا .

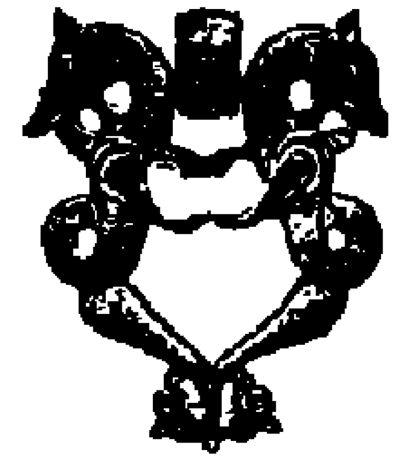
ثم يؤكد الكاتب انحيازه الواضح لجانب المستضعفين فى الأرض ، اذا يعقد مقارنة بين جنازة الصبية الفقيرة صديقة ، التى دفنوها فى الثلج ، وأمَّ جنازتها الكثيرون من المسافرين ، وجنازة القوادة ام المنى ، التى ماتت فلم يأبه لموتها أحد ، ولم يشيع جنازتها الا أفراد .

غير أن نبيل سليمان لايكتفى بأن يجعل القناع الاجتماعى والأخلاقى يغطى المعنى السياسى للرواية ، بل هو يستخدمه ببراعة ظاهرة لبث التشويق فى الرواية . تشويق يستخدم الفكاهة — احيانا — متمثلة فى المحاولات الصبيانية لكل من منير ويونس للظفر بجوار النساء . ويستخدم الاثارة الدموية المركبة فى مشهد اعتداء منير على جلال ، الذى كان يضاجع سكينة ، ثم تخليص سكينة منه وارتماؤه هو فوق الفتاة التى غاب عنها التركيز فما درت ما يحدث . كذلك يستخدم سلاح المؤمرات ، بأن يجعل يونس يسرق محتويات جيوب جلال بك المكتظة ، ويزمع ان يدسها فى ممتلكات غيث ، تخلصا منه ، كى يخلو له وجه ايناس .

والنتيجة انه تخلص الينا رواية مشوقة على المستوى الاجتماعى والأخلاقى ، تحوى امثولة سياسية لا تعترض حوادث الرواية بما يسوء ، ولا تنتأ عنها نتوءا معيبا . وتصبح الرواية بهذا قراءة سهلة لمن يكتفى بالسطح ، ولا تمنع من يريد التعمق أن يقرأ وراء السهولة الظاهرة معنى أكثر شمولا من مغامرات غرام وحكايات تكاسل ، ونزاعات حول أجساد النساء .

طواحين بيروت

توفيق يوسف عواد



قرب نهاية : « طواحين بيروت » تكتب تميمه نَصُّور رسالة أخيرة الى صديقها وحبيبها هانى . تقول له وهى تودعه : « سأحارب تحت كل سماء . ضد كل الشرائع والتقاليد التى ارتضاها المجتمع ، وأطعنها بيدى . لأنه — باسمها — تحت سماء بلادى — أنْكر علىَّ حقَ الحياة . ولما أراد أن يسلبنى باسمها الحياة نفسها اقترف بدل الجريمة اثنتين . قتل أعز الصديقات وأنبلهن واطهرهن ، ونحر حبى » .

كانت تميمة قد أوقعت نفسها فى شباك الشاعر والصحفى والفوضوى : رمزى رعد . اغتصبها الفوضوى على غير مقاومة كبيرة منها ، ثم أصبح لها عادة لا تتحول عنها . تسلمه جسدها وهى لا تدرى لماذا تفعل . وهى طفلة ابنة عشر سنين ، تسلقت شجرة تين لتقطف بواكيرها ، تقطفها خطفا وتلتهمها بلعاً . وكانت امها قد حذرتها : اياك ان تطلعى الى التينة ! فمضت البنت تصعد الشجرة حافية ، مسرعة ، قبل ان تدركها امها . زلقت منها قدم وهى تهم بغصن بعيد ، وتبعتها الأخرى ، فاذا هى مدلاة فى الهواء ، تحتها الوادى تتأرجح فوقه وتحاول ان تضع أيا من قدميها على غصن فلا تستطيع . اخذت الهاوية تناديها . ولم تعد تسمع الا دقات قلبها وصوت لهاثها . وصرخت : « امى ! » فأدركتها الأم على آخر جهد ، وادركها ما تيسر من ضرب ونصح .

تذكرت تميمة كل هذا ، وهى تدفع — أمام رمزى — عن نفسها تهمة انها انشأت علاقة باكرم الجردى المحامى ، خارج نطاق الوظيفة التى اوجدها لها المحامى وواجب الشكر الذى تقدمت به لقاء هذه الوظيفة . واخذت تعد لرمزى رعد ما خطر لها وهى تعلم انها تتشاغل بالحديث عن الحدث الذى ينتظرها ، هناك ، خلف المقهى ، على بضع خطوات ، فى تلك الغرفة . فى ذلك السرير وأصغى رمزى اليها وكأنه فى عالم بعيد . سكت وسكتت ، ثم قامت

تميمة وراءه الى حيث يريد .

من بعد كتبت تميمة فى دفترها : احسست اليوم للمرة الأولى بصقيع الموت . رأيت الحب ممددا على السرير بلا روح . بشعٌ الحب بعد موته . ككل الجثث ، وله رائحتها .

ثمة علاقة تقوم بين حادثة التينة ووقوع تميمة فى شباك رمزى رعد . فى حادثة التينة رفضت البنت تحذير امها وأشرفت على الهلاك . وفى موقفها من رمزى تتكرر الحادثة ، تتسلق تميمة شجرة الحب مسرعة تريد أن تنال ثمارها قبل ان يعاجلها أحد . غير أنها تسقط فى الهوة ، لأن أحدا لم يتقدم لانقاذها . تسقط وهى تعلم أنها سقطت وتمارس حبا بلا روح ، يتمدد كالميت على السرير .

ما الذى يدفع تميمة الى هذا الموقف ؟ ما الذى يجعلها تسلم جسدها للشاعر الفوضوى ـــ رمزى رعد ، وتتقدم ـــ فى الوقت نفسه ـــ بقلبها الى المناضل السياسى المتعقل هانى الراعى ؟ شاب كله أمل وطموح ، يريد أن يخدم بلده ، ويسعى الى ان يتخرج مهندسا بعد وقت غير طويل . الرجلان يتناقضان تماما . يدعو رمزى الى الفوضوية ، الى حرية بلا حدود ، الى آراء تشذ عن المواضعات ، ويريد هانى ان يتم فى بلاده تحول عقلانى بعيد عن العنف . رمزى رعد يحب جسد تميمة حبا مفترسا ، مليئا بالعنف ، وهانى لا يبدى عاطفة حب فائرة نحو تميمة . وانما يحبها فى صمت . هى التى تقبله وتلقى بنفسها فى احضانه ، وهو متماسك ، مالك لعواطفه وعقله . لايثور الا مرة واحدة ، حين تشتد وطأة المتناقضات على تميمة فتقرر ان تعترف لهانى بعلاقتها برعد . اذ ذاك ترتفع يده بصفعة على خدها .

لا تجدى الأحكام الأخلاقية فى تفسير سلوك تميمة طوال الرواية . انها تبدأ بالسخط على موقفها هى وموقف المجتمع منها ومن النساء عامة . كتبت فى دفتر مذكراتها : أريد مكانى فى الحياة قبل مكانى فى المجتمع » . اختلف معها هانى وقال : « لا حياة خارج المجتمع » وقال لها نزار قبانى :

ثورى ، احبك ان تثورى .
ثورى على شرق السبايا والتكايا والبخور
ثورى على التاريخ وانتصرى على الوهم الكبير ـــ لا ترهبى أحداً
ثورى على شرق يراك وليمة فوق السرير .

واستمعت تميمة الى نداء الشاعر فقد كان يمس وترا حساسا فى نفسها ، وكان يحكى عن تجارب فعلية مرت بها . حسين القموعى ، قريبها ، رفع ثوبها وهى طفلة ابنة ست أو سبع واحتك بها محاولا طرحها على الصخرة لولا أن اطل الحارس بعصاه . رمزى رعد فاجأها فى لحظة ضعف ،

وقد خلت يد امها ويدها من المال وامتنع العون الذى كان يرسله الوالد المهاجر الى افريقيا ، وتعرض الوالد للسجن بتهمة التهريب ، وطرد اخوها من الجامعة بتهمة تزوير شهادة دراسية . فاجأها رمزى رعد يناديها من خلفها ويقول : امشي خلفي . ومشت خلفه ووجدت نفسها فى غرفة ما . فى حى ما . فى لحظة ما . ورمزى يطوّف باعضائها من اخمص القدم الى الرأس فتغمض اجفانها وترتمى .

عبثا حاولت تميمة ان تجعل من لقائها برمزى رعد لقاء بين أم وطفلها . قالت : لو يكون الحب شعرا ! لماذا لا يكون الحب شعرا فقط ؟ ودت أن يظل رمزى يداعبها فتحس لمداعبته بغبطة الأم يعابثها طفلها . أنصتت اليه يتلو عليها شعره وسمرت عينيها بشفتيه . بعينيه . بذقنه . بجبينه . كانت الكلمات تضفى عليه هالة من عبقر . كان يعيش كلماته . يعيش منها وبها ولها . هى لحمه ودمه ، وفيها دنياه ، وهو فى الدنيا غريب .

والى هذا ، انتاب تميمة شعور اقرب ما يكون الى الكبرياء اذ تجد اذنى الكاتب الكبير الأستاذ رمزى بين قدمى تميمة نصور ! كانت تحب الشعر والحرية ، ولكنها تتوق أيضا الى السلطان . حينما قالت انها تريد مكانها فى الحياة قبل مكانها فى المجتمع ، كانت تعبر عن رغبتها فى أن يحصل الفرد فيها على كل حقوقه ـــ مشروعة أو مُدَّعاة . وكان ضمن هذه الحقوق ـــ فيما يبدو ـــ ان يتعدد عشاقها . ان تهدف الى الزواج من مسيحى وهى مسلمة . قالت لها صديقتها مارى ـــ الممرضة الخفيفة الظل التى آوتها الى شقتها ووقفت الى جوارها فى كل نائبة ثم تلقت عنها رصاصة كانت مصوبة الى تميمة ، فماتت مارى فداء لها ـــ قالت لها مارى : الغرام حلو يا تميمة مع صاحبك ، لو لم يكن لك أخ كجابر ووكيل له فى غيابه . حسين القموعى . انزعى هانى من فكرك ، ومعه الآخر طبعا . لا هذا ولا ذاك أريده لك .

ثم عادت مارى تحذر تميمة بلهجة اشد واكثر حزما : كل الناس بمشكل وانت بمشكلتين . الواحدة أفظع من الأخرى . العلاقة التى كانت مع رمزى رعد ، ومشروع زواجك من هانى الراعى ... المجانين وحدهم هما الذين يخاطرون بحياتهم أو القادرون على الدفاع . وانت غير قادرة . يذبحك اخوك . وحجته بدل الواحدة اثنتان : الشذوذ فى سلوكك والخروج على دينك .

غير ان تميمة لا تمتثل للنصح ، وتمضى تصاحب هانى وتريده لها زوجا . لا تتعظ بالسكين الذى شرط به قريبها حسين القموعى خدها وهو يهتف : المرة الثانية ذبحك يا قحبة !

قالت لها أمها : الله اعطاك كل شيء يا ابنتى . قولى لى مابك . تريدين ان تتزوجى ؟ أنا أمك .. ارشدك الى الزوج الذى يليق . انفجرت تميمة فى وجه أمها ، ودلقت امامها وقائع الفضيحة كاملة . كما هى . عارية . رهيبة . ذكرت سكين حسين القموعى وذكرت رمزى رعد ،

واندفعت فذكرت هانى الراعى أيضا . ونظرت اليها متحدية : هاتى لى زوجا لأضع وجهى بوجهه . اقول له بوجهى أحمل علامتى لتبقى بوجهك . قولى له يخطبنى من جهنم . اذرفى الدمع على زوجك العزيز ونامى، على فراش العفة والفضيلة. ادفنى شبابك فى المهدية. احذرى ان تخرجى من قن الدجاج لئلا يأتى زوجك ويجدك خارج السياج وينبحك . قولى لى كيف اشكر الأخ الشفيق جابر ، الذى ينتف شعر أخته لأنها فضلت الجامعة على القن ويهددها بالذبح اذا تطلعت من مهديتك صوب بيروت .

ولكن ، من قال ان هانى الراعى يريد تميمة نصور زوجة له . يحبها ؟ يحب كل الحلوات . الزواج ؟ قال : يفكر فيه بعد الدكتوراه من هارفرد بعد تأسيس مكتب الهندسة . بعد الثلاثين من العمر . يحب دروسه . يعشق طموحه . يخرج معها بسيارته الفيات ؟ كذلك يفعل مع جانيت ومنى وايفيت . ولميا شارون الفاتنة الشقراء : أروع ما فيها حريتها . سيدة نفسها . قال هانى انها « تحب الحياة » .

كتبت تميمة فى دفترها : « الكذب ، الكذب ، الكذب ، ثلاث مرات اعدتها ياهانى . قلت : « الكذب آفتنا » . وأنا مكتوب علىّ أن اعيش فى الكذب عمرى . اقول الصدق ؟ اذن كنت رجمتنى . والا فكان على ان اعيش فى قفص العفة . اقفل على نفسى فى صندوق الشوق والحرمان بانتظار اليوم العظيم ، لأحمله اليك وأقول : تفضل افتحه بعلمك وتجاربك مع العشرات من لندا الى لميا شارون ! »

تثور تميمة على الظلم الواقع على النساء فى مجتمع يقيس السلوك بمقياسين مختلفين . الحرية الجنسية للذكور ، والقهر واللعن والسكين للاناث . مشت بنت فى شوارع بيروت وهى مرتدية المينى جوب ، فهاجمها ثلاثة من الشباب ومزقوا ثيابها وتركوها شبه عارية ولم يحتج احد على سلوك الشباب بل قال سائق التاكسى الذى اندفعت اليه ، لولا أن خلصها البوليس منه لكان هرس عظامها تحت عجلات سيارته . واغتصب جابر زنوب ، الخادمة الفقيرة ، فلم ينله أى عقاب واكتفت سيدتها روز وصديقتها الكرشى وجابر بالاتفاق على اجهاض زنوب مقابل الف ليرة لوالدها ثمن السكوت . هربت البنت من العملية والفضيحة ، وهامت على وجهها فى الطرقات والبلاد فوقعت فريسة لمزيد من الاغتصاب على ايدى ثلاثة من الرجال الاشداء . ولم تجد المسكينة بدا من أن تلقى بنفسها فى البحر منتحرة ، لتتخلص من عارها .

قالت تميمة وهى تتأمل ما حدث لزنوب : الرجال الأشداء هم اخوة جابر . شركاؤه فى جريمة واحدة وهى — تميمة — ذاتها جبانة وحقيرة وشريكة فى الجريمة . لجأت اليها البنت فنفضتها عن نفسها . وهى تريد ان تذهب الى المشرحة لترى زنوب والى ساحة العدل لتصرخ بقاضى القضاه.

الى المواخير حيث جابر . تذبحه أو يذبحها !

وحين يعلم جابر بعلاقات اخته يقرر ذبحها . يقول متصورا انه يخاطب المحققين : « لا تفتشوا عن أحد . هذا هو السكين الذى ذبحتها به » . الحبس . مرحبا به . سيذهب اليه لا بالتهمة الحقيرة : اغتصاب زنوب ابنه راعى العنز ، بل يمضى شامخ الرأس وفى يمينه راية الشرف الرفيع . كان قد سبق لجابر ان اغتصب اختا له من ابيه انجبها الوالد فى البلد الأفريقى الذى هاجر اليه من سنوات من زوجة افريقية .

تحتج تميمة على هذا الظلم الواضح ، وتثور . ولكن ثورتها عاجزة ومدمرة ، تسلك بها طريقا محفوفا بكل الخطر . الأمل الذى وضعته فى هانى الراعى لا يقوم على أساس من الفهم المشترك . جلست الى جانبه بجوار البحر ، والشارع خلفها ، والسيارات ، والناس ، والعالم ، فأحست انها تعيش حلما فى جزيرة المستحيل . سكتت وتكلم هو . قال ان ثمة رأيا يذهب الى أن ازمة لبنان فى ظاهرها سياسية واجتماعية وطائفية .. الخ . غير ان هذا كله مغروز فى الغيب . فى الهجرة من السماء الى الأرض . واضاف هانى : مغروز فى الشك بالله يا تميمة . هل الله فى النتيجة الا رمز القيم ، بل مجموعة القيم التى تجعل من الانسان مخلوقا يستحق هذا الاسم ؟ اتكلم عن الله الحقيقى ، وليس عن إلّه الطوائف والملل .

وذكر لها رمزى رعد ، قال انه من السابقين فى الهجرة من السماء الى الأرض . لم يتدل بحبل . لم يهبط بمظلة . سقط فى الهواء على الأرض . سقط على يا فوخه . رمزى رعد وقع فى فخ العقل ، ونحن أيضا فيه وقعنا . الطلاب والصحف تكتب عن الثورة وضرورتها ، وهو لا يؤمن الا بثورة واحدة . الثورة على النفس .

هانى اصلاحى ، وليس ثائرا . يؤمن بالخدمة الاجتماعية للفقراء . ينشىء مدرسة فى ناحيته . ويرعى المسنين . ويرى عمله هذا سياسيا فى المحل الأول . يرى ان على لبنان ان يتجنب استخدام العنف . حكى ان جده كان يملك محجرا ، يمنع فيه استخدام البارود لأن بتراب الأرض مادة كبريتية . وكان العمال يلتزمون الحذر فيستخدمون ويقطعون الصخور بالأدوات التقليدية . وجاء يوم مرض فيه الجد فانتهز عامل الفرصة ولغَّم صخرا فى المحجر على غفلة من رفاقه ، فانفجر المحجر كالبركان ، فتل من قتل وشوه من شوه . اضاف هانى ان لبنان هو هذا المحجر ، فحذار من استخدام البارود .

غير أنه يؤيد ثورة الطلاب العالمية . طبعا هى جنون . ولكن وراء الجنون انقلابا عظيما ، كفراً بالقيم التى آمن بها الناس حتى اليوم وقدسوها . تمرد على كل سلطة . رفض لكل مبدأ . تحطيم لكل شيء . فى سبيل أى شيء ؟ لا أحد يعلم . غير ان اسرائيل تبقى الكابوس الأول للعرب .

التحدى الأكبر . السؤال عربى ام فينيقى ؟ عفى عليه الزمن . السؤال الوحيد المطروح — تطرحه اسرائيل — نكون أو لا نكون ؟

ويذكر هانى الثورة التى يدعو اليها البعض طلاب لبنان . يذكر رمزى رعد ، ويقول انه يزرع الشكوك . يضرم النيران . يركب الحرية الى الاباحية . على العكس من الشاعر الفوضوى يلتزم هانى مبادىء قوية واضحة . تقول له تميمة : صحيح انك مهندس وستبنى لك بيتا فى بيروت بانتظار ذلك ، أحب أن أزورك فى غرفتك .. تقبلنى ؟ لا يجيب هانى ويمضى قائلا : احلم باليوم الذى يصير فيه كل الناس مهندسين فى لبنان وفى العالم . ليس من الضرورى ان يهندسوا البيوت والعمارات . الهندسة معاونة للخالق .. هندسة النفس أولا . ألا تعتقدين ان الانسان مهندس نفسه وبانى حياته ؟ ثم يجيب اخيرا على عرضها ان تزوره فى غرفته : تريدين ان تزورينى فى غرفتى ؟ سنؤسس اتحادا لرابطات الطلاب فى جامعات بيروت الأربع ومعاهدها العليا . تدخلين رابطة دار المعلمين والمعلمات ، وتأتين لزيارتى بعد انتخابك عضوا فيها !

صادق هو حتى النهاية لشعاره الذى يرفعه : « لا حياة خارج المجتمع » . من هنا جاء احتقاره لرمزى رعد ، واعتراضه على رغبة تميمة فى أن تحصل على مكان فى الحياة قبل مكانها فى المجتمع . ورفضه ان تزوره تميمة فى غرفته زيارة بلا هدف اجتماعى ثم تلك الصفعة التى وجهها الى خد تميمة قرب نهاية الرواية حين علم بما كان بينها وبين رمزى رعد .

احتارت تميمة كيف تفسر الصفعة ؟ أهى موجهة عبرها الى الرجل الذى تورطت معه ؟ ام هى ادانة لها هى ؟ لو أنها كانت صفعة لها ، فهى ترجو ان تقبل اليد التى صفعتها . كان بامكان هانى ان يسبها . يرجمها . يذبحها . يطلق عليها الرصاص كما حاول جابر أن يفعل فأخطأها . ولكنه بقى ساكتا ، منتصبا يواجه النجوم . أما هى فقد قررت أن تمضى فى طريقها . طريقها هو مصيرها . ومصيرها ان تنخرط فى اعمال العنف ضد العدو ، فهى تنتظر الآن ان يحدد لها المشرفون على العمليات وجهتها ومهمتها . وهى تعلم انها بهذا تختلف مع هانى . ولكنه يعلم — وتعلم هى — انهما اختلفا منذ البداية على أمور كثيرة . والآن هذا هو طريقها يختلف عن طريقه فى نهاية الأمر ومنذ اللحظة التى تمشى فيها الى العمل ، لن تتكلم . سيخرس تماما اسم تميمة نصور .

يستخدم توفيق يوسف عواد شخصية رمزى رعد ليكشف عن المعايب والفضائح التى تكتنف العادات والأعراف والممارسات التى تعرفها بيروت . تطلب اليه روز ، صاحبة بيت الاسكان والدعارة ان يعاونها فى كتابة وصيتها ، فينتهز الفرصة ليرسم صورة عامة لبيروت من خلال تعليقات متصلة على أشخاص الرواية وأفعالهم . يقول رمزى : انت اجرت روحك

للشيطان ، ولما لم يعد له نفع لديك اخذت تنادين الله آناء الليل واطراف النهار ان يطرده ويخزيه . « زنوب » ، حبيبة قلبك ، أجرت روحها الطرية الناعمة لإسورة من الصفيح . تميمة أجرت روحها للمثل العليا . جابر ، اذكى من اخته . أجر روحه للشرف والطرق معا ، ويقبض من الاثنين . اوديت ، عشيقة المحامى اكرم الجردى ، اجرت روحها للمحامى وقبضت منه كل أنواع العملة . الأستاذ الكبير نفسه ، المحامى اللامع والنائب العتيد يؤجر روحه للوطن . ويناضل خصومه فى سبيل عمارة جديدة يرفعها كالمنارة . قال فى التليفزيون تحت شعار : « فى سبيل مستقبل أفضل » رأيه فى مشكلة الايجار . رفع ذراعيه وهتف : « الحمد لله . ولدت مستأجرا وأعيش مستأجرا ، وأموت مستأجرا » . يريد الأستاذ ان يبنى دنيا عصرية ، فليطو خرائطه . المهندسون كذابون ، واحجار بيوتنا كلها ، وعماراتنا من محجر وسخ موحل ، ومنها كلها تفوح رائحة الدعارة . هذه اللافتة المعلقة على شرفتك : « غرف للايجار » نحن كلنا نرفع اكبر منها . ونمشى فى الأسواق حامليها فوق رؤوسنا أو معلقيها برقابنا . احيانا من أمام واحيانا من خلف . وعجيب ان لايراها الناس مع أنها بالخط الثلث العريض .

أنا أيضا أؤجر روحى . اؤجرها للكلمات . بينى وبين الكلمات عقود مسجلة ، ولكن اكثرها تروح وتجىء دون سابق اتفاق بيننا . تحبين كلماتى ياست روز ؟ تميمة أيضا أحبت كلماتى . احبتنى أنا بالغلط . خلطت بينى وبين كلماتى . وحين اتضحت لها الحقيقة تركتنى . القصائد التى كتبتها لتميمة كتبتها لعشرات قبلها وبعدها . اكذب ؟ المسألة ليست مسألة كذب أو صدق . اننا كلنا نؤجر أرواحنا نؤجرها لأى شىء . لكل ما هب ودب . احيانا ، ياست روز ، تفرغ ارواحنا . نعرضها على الانس والجن فلا يستأجرها أحد . ننظفها ونرتبها فيغطيها الغبار ويعشش فيها العنكبوت . وقد نترك ابوابها مشرعة لعابرى السبيل والمتطفلين وشبابيكها مفتوحة للصوص فلا يتقدم اليها أحد . ولا يجدى شيئا ان نحتج على هذا الوضع فى ذلة ومسكنة . علينا ان نكون شجعانا فى رفض حياة الذل .. وبدلا من ان نعرض ارواحنا للايجار ، علينا ان ننتحر المنتحرون وحدهم هم الشجعان الذين يموتون بوقار. أليس هذا خيرا من الموت جوعا على الطرقات أو قتلا فى ساحة الحروب ، أو تحت عجلات تاكسى ، أو بالتيفوس ، أو على فراش النقرس والذبحة الصدرية مع شيخوخة تلعن نور الصباح ؟

معظم هذه الآراء يصدرها رمزى رعد عن ألم عظيم ، ورغبة فى تغيير الواقع المشين الذى تشير اليه . هو ليس ساخطا سلبيا ، فاقد الايمان ، بل انه منذ البداية يدعو ويعمل للثورة . يرى انه لابد منها . يريد ان يرى الثورة لا فى الجامعات فقط ، بل فى البلاد كلها كذلك . واذا كان طلاب العالم قد ثاروا ضد عالم لايفهمهم ، فالثورة فى لبنان أهول من ذلك وأدهى ، إنها ثورة ضد

الظلم والقهر والجهل والفقر . ثورة العبيد على الأرباب . من ثم يكتب رمزى رعد مقالا ملتهباً بعنوان « لا » يقول فيه : ايها الطالب الذى تظاهرت ، لقد رآك الحكام تملأ الشوارع والساحات وسمعوا صوتك يصرخ بوجوههم : لا ! لا أصدقكم . لا أومن بكم . لا أريدكم . من الجامعات سترتفع الهتافات لعنات ، والأيدى بوجه السماء حرابا !

يستدعى رمزى للتحقيق من أجل مقاله هذا . فيقول : السجن اشتريه بكل ما املك ، لو كنت املك غير هذا القلم . ينجو رمزى رعد من السجن مرة ، ثم يزج به فيه فى المرة التالية . يرفض ان يدافع عنه اكرم الجردى ويقول انه يريد ان يدافع عن نفسه بنفسه .

ليس رمزى رعد ، اذن . مجرد شاعر وصحفى فوضوى يركب الحرية الى الاباحية . كما وصفه هانى الراعى . انه يردد بالفعل اقوالا كثيرة تضعه فى صف الاباحيين . يقول : ليس فى الكون حلال وحرام . ليس فى ناموس الطبيعة ، سمائها وأرضها ، كواكبها وحشراتها ، ازهارها واشواكها ، عواطفها وانسامها تحليل ولا تحريم . الحب الخالص من بشاعات الشرائع والتقاليد هو وحده المقدس . وقدسيته الوحيدة : الحرية .

غير ان هذه الآراء لا تعدو ان تكون تطرفا رومانسيا ، واحيانا طفوليا ، فى الدفاع عن الحرية . والثورة التى يدعو اليها رمزى رعد موجهة فى الأساس الى الأكاذيب والأوهام والطلاسم التى جعلت من الانسان مسخا . وهو يدعو الانسان الى أن يمزق هذا كله ـــ ليستوى عاريا فى الكون العارى ، وحرا فى الكون الحر . وقد رأينا ان لثورته هذه جانبها الاجتماعى الواضح ، المتمثل فى تأييد ثورة الطلاب بوصفها انتفاضة عبيد ضد الأسياد ، ودخوله السجن من أجل آرائه الثورية ، وقبوله هذا السجن راضيا ، ثم تعرضه من بعد لمحاولة اغتيال بعد سلسلة من التحقيقات فضح فيها تجارة الحشيش .

ترتكز الرواية على شخصيات هانى الراعى وتميمة نصور ورمزى رعد . كل منهم له موقف من احداث لبنان ومن الثورة . هانى يحرص على ان تتسم الثورة بالتعقل ، ويعمل على ان يجنبها العنف . يعمل كذلك على التقريب بين ثوار لبنان والفدائيين ، ومنع الصدام الذى يراه موشكا على الحدوث بسبب ممارسات متطرفة وقعت فيها فصائل المقاومة . هو كذلك يشجع التقارب بين الأديان ، ويشجع على أن يقوم مدرس مسلم بتدريس المسيحيين فى مدرسة دير المكلس .

أما تميمة نصور فهى الثائرة الرومانسية المندفعة . التى تقع فى غرام شعر الشاعر رمزى ، وفى مواقفه البطولية ، فلا تنتبه الى أن هذا لايقتضى منها ان تسلمه جسدها أيضا . مع أنها لا تحبه جسديا . وهى تختلف عن هانى الراعى فى الموقف من العنف . وحين تقع الغارة الصهيونية على بيروت ، ومن قبل على المهدية ـــ قريتها ـــ يشتد ايمانها بضرورة النضال المسلح بما يعنيه من

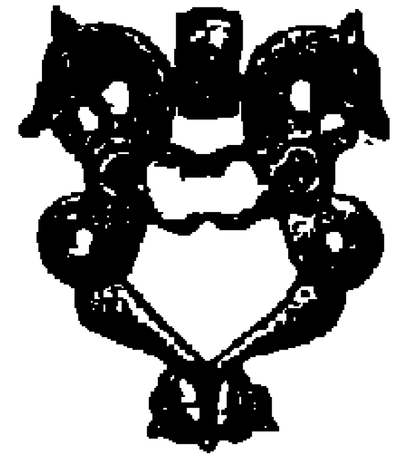
عنف وسفك للدماء ، فيكون فى هذا الايمان حافز على قطع علاقتها مع هانى الراعى ، الذى تحبه بالفعل وتتمناه زوجا .

اما رمزى رعد ، فقد تقدم وصف ما فى ممارساته الجنسية وآرائه الاباحية المعلنة من تناقض مع مواقفه الحقيقية وافعاله . وهو مع علاقاته الغرامية المتعددة ، يبقى اوضح واكثر استقامة من جابر ، اخى تميمة الذى يمارس الجنس اينما يجده ، وحيثما يجده ، ومع أية من النساء ترضى بأن تكون رفيقا جنسيا له .

« طواحين بيروت » محاولة مستبسلة للوصول الى مصالحات مستحيلة بين الأديان والمواقف السياسية والحرية الفردية والحرية الاجتماعية ، وبين الفقراء والأغنياء . غير انها تسبح ضد تيار عارم من كل ما يناقض هذا . فالواقع الذى تجابهه اقوى بكثير من الرسالة التى تدعو اليها الرواية . لا جرم ان يقتل مؤلفها نفسه فى خضم العنف الدموى الشرير الذى كانت روايته تنبه اليه ، وأن يكون استشهاده هذا أبلغ تعليق على مدى سوء الأحوال فى لبنان وفى أماكن كثيرة من أرض العرب .

رحلة غاندي الصغير

إلياس خوري



كل شيء يدور فى هذه الرواية . يظهر ويختفى ثم يعاود الظهور . كل شيء يطفو فوق سطح ماء يفور داخل صهريج . يطفو ويتحرك ويصطدم بغيره من الأشياء ثم يعود الى نقطة البدء وقد لحقته زيادة ما . كأنما الرواية سطح من الزجاج نصف الشفاف ، كتبت عليه اسماء لا تظهر الا اذا اضيء النور من خلفها . والرواية مجرد اسماء . عندما عرف الراوى اسماء شخصياته اضاءت الشخصيات واحدا وراء الآخر . ثم رأى صورهم تتلاشى خلف عيونهم . وعيونهم تتلاشى وراء الماء . ماء كثير يغطى كل شيء .

لايدرى الكاتب ان كان هو الذى يحكى أم المومس أليس وباقى الشخصيات . كل الشخصيات تتلاشى كالماء . كلهم يشبهون الماء . يتلاشون ولا يتلاشى الماء . يروى الكاتب الحكاية والحكاية لم تنته بعد . هى حكاية اسماء ، فلما عرف الكاتب الأسماء بدأت الحكاية ، وعندما انطفأت الأسماء بدأت الحكاية : حكاية دوارة . « أليس » عرَّفت الكاتب بعبد الكريم الملقب : « غاندى الصغير » . وحينما ضاعت منه أليس اخذت الشخصيات تبهت وينحسر عنها النور وتموت . كانت أليس تعمل خادما فى فندق سالونيكا ، فلم انتهى الفندق ١٩٨٤ ضاعت أليس ، وقرر الكاتب ان يكتب حكايات روايته . وتساءل : هل هو الذى يقتل شخصياته ، أم أنه مجرد راوٍ يخبر عن حكاياتهم ؟ اخذته أليس الى رحلة حياة عبد الكريم ورحلة الأسماء والوجوه التى تزخر بها الرواية . سافرت أليس كثيرا قبل ان تستقر فى بيروت . اما عبد الكريم الملقب غاندى الصغير فلم يسافر . بقى ملتصقاً بصندوق ماسح الأحذية امام بوابة الجامعة الأمريكية واشتغل بكل المهن قبل ان يموت فوق صندوقه . ومع ذلك فهو اكثر ماسحى الأحذية سفرا فى العالم . لا لأنه سافر فعلا ، بل لأن بيروت نفسها هى التى تسافر . سافرت من سويسرا الشرق الى هونج كونج الى سايجون الى كلكتا الى سيريلنكا . بقى أهلها فى امكنتهم

عشر سنوات أو عشرين ، ودار حولهم العالم . تغير كل شيء من حول أهل بيروت وهم أيضا تغيروا .

« وأنا الذى يحكى ويكتب » — يقول الراوى — « أريد أن اسافر مع هؤلاء ، فأكتشف نفسى وحيداً فى زاوية معتمة . ابحث عن ايقاع رحلة تمت منذ اعوام قليلة ، فأشعر أننى احفر فى غير بئر عميقة . انا لا أحفر . البئر تفتح فمها وتأخذنى اليها . وكما سافر عبد الكريم فى رحلته ، كما سافرت أليس وأمين وملكو ونهى وليليان وأبو سعيد وريما وحصن و ... أريد أن اسافر . فأكتشفت اننى احفر فى بئر تبتلعنى » .

تصلنا حياة غاندى الصغير على دفعات . تبدأ وتدور ، وتغيب ثم تعود بشيء اضيق . نلقاه وطائرات اسرائيل تحلق فوق بيروت حتى تكاد تلامس رؤوس البنايات . ثم يحدث انفجار الأشرفية ويموت بشير الجميل . فكّر غاندى الصغير فى مصيره . سمع اخبار دخول جنود اسرائيل الى بيروت فلم يفكر الا فى صندوق البويا . نهض مستعجلا وبدأ ينظفه . سار فى الشوارع . سمع ان الاسرائيليين يعتقلون الجميع . خاف من الحبس . خاف من المغارة التى حبسه فيها أبوه زمان . خاف ان يتهم بالتعاون مع الفدائيين حمل صندوق البويا ووضعه فى عنقه وتركه يتأرجح من خلال الحزام الجلدى العتيق . ومشى . وكان الصهاينة فى كل مكان . صرخوا به أن يقف أو لعلهم لم يصرخوا ، لا أحد يعلم . لكنه اطلقوا النار . تركوه يسقط فوق الصندوق ، الرقبة معلقة على حافة الصندوق والجسد ينحنى . جاءت أليس وغطته بالجرائد . لم يكن معه أحد ، زوجته اختفت ، كلهم اختفوا . وبقيت أليس وحدها . اخذته الى المقبرة . ورأت الناس بلا وجوه . تكلمت معهم ولم تسمع أجوبتهم . تركتهم وراحت .

كان غاندى يفكر فى أليس دائما . عاونها على العمل فى بار المونتانا ، بعد تسكع دام سنتين . قالت انها لا تستطيع ان تنسى غاندى . حتى أبوها نسيته ولكنها لم تنس غاندى . كان رجلا مختلفاً تماما . تقف امامه فكأنك تقف امام مرآة . كان اكثر من رجل . لما مات شعرت أليس ان المرآة وقعت . وقعت فعلا . وتكسرت ، وانكسرت هى .

لا يذكر غاندى شيئا كثيرا عن طفولته . عندما حاول ان يتذكر وهو فى مأتم والده اكتشف أنه لا يذكر الكثير . حين انخرط فى البكاء على والده ، تفرج الناس عليه . كأنما بكاء الابن على أبيه صار أمرا مستغربا . كلمه ابن عمه عن ضرورة الزواج فوافق ، وقرر ان يتزوج ابنة عمه فوزية . عاد غاندى من بيروت الى القرية ، ورجع ومعه فوزية . فور وصوله اشترى صندوقا وجلس قرب مطعم « جرجورة » أمام الجامعة الأمريكية ، وفتح الله عليه .

بعد انفجار الاشرفية ، تدور دائرة الذكريات فى رأس غاندى فيذكر كيف جاءه الأمريكانى

ديفيز الأستاذ بالجامعة الأمريكية وطلب اليه أن يساعده فى اطعام كلبه . اقترح عليه ان يجلب معه كيسا ويتبعه الى مطعم الجامعة . هناك اتفق له الأستاذ مع المدير على أن يجمع بقايا الطعام ويضعها فى الكيس ويذهب بها الى بيت ديفيز . تطور الأمر بعد هذا ، فجعل غاندى يأخذ معه عدة أكياس ، يعطى الكلب كيسا ويذهب بالأكياس الأخرى الى بيته فى النبعة وهناك فتح مطعما : لبنة . لحم . كفتة . حمص . خضار . صحن اللبنة بعشرة قروش . اللحم بنصف ليرة ، وعاش غاندى على حساب الكلب . وحين مات الكلب اقترح غاندى على ديفيز ان يشترى له كلبا ثانيا . رفض ديفيز لشدة حزنه . اشترى غاندى مع ذلك كلباً « شيان لو » صغيراً ورباه . غير ان ديفيز رفض الكلب . وسافر . والقسيس رفض الكلب . والكلب صار يحب غاندى . وغاندي اضطر الى قتل الكلب والعودة الى صندوق الأحذية .

تدور حكاية الكلب مرة أخرى قرب نهاية الرواية . جالبة معها تفاصيل أخرى . ديفيز سيدفع لغاندى ليرة كل يوم مقابل الكيس — أجرة أربعة أزواج أحذية . دخل غاندى المطبخ وفوجىء بكمية الطعام . الطباخ يدله على الصحون ويفرغ كل شىء فى كيسه . يمتلىء الكيس ولاتزال بقية الطعام كبيرة .. فى اليوم التالى اخذ غاندى يصنف الطعام ويضعه فى العلب الصغيرة من الصفيح . فى اليوم الثالث جلب قنينة فارغة حاول ان يملأها زيتا من بقايا صحون اللبنة . فى اليوم الرابع جاءت معه فوزية ورتبت بقايا الطعام . فى اليوم الخامس انتظم العمل ، واتفق مع مدير المطبخ على أن يدفع له يوميا ست ليرات ، بعد أن رفض المدير اقتسام الطعام معه . فى اليوم السادس افتتح غاندى مطعما : كراسٍ صغيرة وصينيات قش امام منزله ، وحوَّل غاندى المصطبة الى مطعم . وصار الخير كثيرا . هو يأكل والكلب يأكل والزبائن من حوارنة واكرادٍ يأكلون وعمال البواخر وشغيلة الموانىء يأكلون وجاء محمد الحريرى ومعه قنينة عرق ، يصب منها لنفسه وللزبائن . رفض غاندى الحرام فى بادىء الأمر ، ثم رضخ ، لأن من الصعب مقاومة الحرام ، والحرام فى كل مكان . وأخذ يشرب هو الآخر . الى أن حدثت الكارثة ومات الكلب .

لم يمت الكلب ميتة طبيعية ، وانما دهسه صاحب سيارة ، نزل منها بعد الحادث وبصق . كانت هذه كارثة بالنسبة لديفيز . ان يموت كلبه ثم يُحَقَّر فى موته ويشيع بالبصقات . قال الرجل : « كلب يا خواجة بسيطة » وبصق . لم يكتف بقتل الكلب بل احتقره واعتبره نجسا . ارتج ديفيز بشدة . وقال لصديقه القس أمين انه يشعر بوحدة قاتلة . وأن كل عمله فى لبنان كان فشلاً فى فشل . قال : فجأة اشعر اننى غريب . أشعر ان لا أحد ، لا أحد فى العالم يهتم بى . وزوجتى المريضة دائما تريد أن تعود الى أمريكا . هنا بلادى . لكن سأسافر . أنا لست

حزينا على الكلب . لكن كيف بصق عليه ، كيف ؟

لم يدر ديفيز كيف استقبل غاندى وأسرته الكلب البديل . لمجرد الفكرة فى شراء كلب شعر غاندى الصغير ان نباتا يعربش على قدميه وان جسمه يحكه . سعاد ابنته كادت تموت من الرعب عندما وجدت الكلب فى الفراش . فوزية الزوجة ، كانت تشطف البيت عشر مرات خوفا من النجاسة . عندما لم يعد للكلب فائدة أعطى القس لغاندى كمية من الديمول وقال له اخلطها بالحليب واعطها الكلب . ترنح الكلب وصار يتلاشى كأنه يريد ان ينام . نام الكلب فحمله غاندى ، لفه بالجريدة ورماه أمام المزبلة .

كما سلف القول ، تأتينا هذه الحكاية فى حركة دائرية تبدأ ، ثم تتلاشى ثم تعود ومعها المزيد من التفاصيل . تظهر الحكاية عقليتين فى حالة صدام . عقلية الغرب التى تعلق بحب الحيوان ورعايته . وعقلية الشرق التى ترى فى هذا تزايدا وسنتنتالية ، وتجاهلا تاما لواقع الانسان المطحون . جزء من الأكل المتروك أقام مطعما واطعم طوائف من الناس . غير أن هذا الطعام مبذول شرط أن يبقى الكلب على قيد الحياة . مات الكلب فطرد غاندى طردا من مطعم الجامعة . ولم يأبه أحد فى المطعم بقى غاندى على قيد الحياة أم مات . كل هذا الاهتمام بحياة وموت الكلب يتم فى مدينة يحوطها الموت والخراب والدمار من كل مكان . غير ان هذا لا يؤرق ديفيز ولا الغرب كثيرا . كأنما كانت مهمة ديفيز ان يزرع فى قلوب العرب الحضارة التى تمجد الكلاب . فلما فشل ترك البلد لمصيره التعس !

قالت أليس انها ابنة وحيدة لأبيها . أمها ماتت ووالدها لم يتزوج . كان صياد سمك وسكيراً لا يفيق . قالت أليس انها عاشت طفولة بائسة . ابوها اغتصبها ، واخذت تعمل من الثالثة من عمرها . لاتذكر من أبيها الا رائحة السمك التى تلفه ، وضربه لها ، واحساسها بالوحدة . اعتدى عليها رجل آخر اسمه عبود مراد ، كان يقضى وقته بين البحر والقمار . والتقطها ثالث بعد سنة ، كان صديقا لوالدها ، دعاها الى السفر لبيروت ، حيث وعده قريب له بأن يدبر له عملا فى الميناء . زعم لها الرجل أنه سيتزوجها ، ولكنها امضت معه ثلاث سنوات ، فلا هو تزوجها ولا هى اهتمت . ثم تعرفت الى « ابو جميل » ، الذى تسميه الامبريزاريو — ربما تأدبا — فضمها الى الفتيات اللاتى يتاجر بأجسادهن .

قالت أليس فى مهنتها عكس ما تقوله زميلاتها فى امثال هذا الموقف . قالت انها تمتعت كثيرا فى مهنتها . تعرفت الى مباهج الحياة : ان تشرب وترقص وتعيش . تعلمت الحب فى ظل رعاية ابو جميل لها . لولاه لظلت مع ابيها العجوز فى غرفة مظلمة ، تعمل خادمة ببلاش . ابو جميل كان يعامل فتياته كأنهن بناته . كان يعيش بشكل محافظ ، وكانت زوجته محجبة . وهو لا

يشرب الا قليلا . غير ان أليس انما عرفت الحب الحقيقي مع الملازم طنوس . كان متزوجا وله أولاد غير انه كان يعشق أليس . استأجر لها بيتا وفرشه . رفضت هي ان تترك العمل لأنه لا أحد يضمن الرجال . أحبته أليس هو وزوجته وأولاده . قال لها ذات مرة انه سيأخذ اسرته الى الملاهي . فلبست ملابس بسيطة ولم تتزوق وذهبت تشاهد اسرة حبيبها . تجرأت أليس واقتربت منهم . فرأت الذعر في عين طنوس . اشترت زجاجة بيبسي كولا ومضت ، حينما جاءها طنوس في اليوم التالي كان لايزال مذعورا . قالت له إنها احبت الولدين وان الزوجة جميلة ، وانها تحب كل شيء يحبه هو .

مومس « رحلة غاندى الصغير » تنأى بنفسها عن المومس التقليدية التي يلفها الندم والاستخذاء ، والتي يصورها الكتاب تصويرا سنتنتالياً ويميلون عليها عطفا كبيرا بوصفها امرأة خاطئة ينبغي ان تغفر لها خطاياها . لا عطف مسيحي هنا على أليس ، وانما هناك تصوير واقعي لامرأة قادتها ظروف حياتها من مرحلة الى مرحلة الى ان تحترف بيع الهوى ، وتجد فيه عملا ان لم يكن مشروعا فهو مطلوب . وهو الى هذا لا يعني الانكسار ولا يجلب معه الحقد على الناس وعلى المجتمع . في داخل أليس امرأة كانت ترجو لو ان حياتها كانت سوية . من هنا حبها لأسرة طنوس بما فيها الزوجة التي هي الغريمة في الأدب التقليدي . غريمة ينبغي ان يكون الكره من نصيبها . غير ان أليس لا تكره غريمتها . حينما تأتي هذه الغريمة لتواجه زوجها الخائن في بيت أليس ، تعاملها أليس معاملة فيها الكثير من الود والتقدير ، ولا تأبه للاهانات التي توجهها الزوجة المفجوعة . وحينما جاءها طنوس بعد اسبوع يقول لها انه يحبها ، وان لم يستطع العيش معها في بيتها ، قالت له : ان المسألة انتهت ، وانها قد لمت حاجاته واعدتها له في حقيبته ، وأنها ستترك البيت في آخر الشهر . يومها لم تحس أليس بفقد طنوس ، غير ان الكآبة مالبثت ان لفتها حتى شرعت في الانتحار . ربطت حزاما في السقف وغرقت في البكاء ، ثم صعدت الى الكرسي لتلقي بنفسها منه، غير انها بدلا من ان تشنق نفسها فكت الحزام وركضت الى الشرفة ورمته ، وغرقت في الضحك والبكاء .

و.. وفي مواضع كثيرة من الرواية تنادي أليس رفاقها : « ياأولادي » وتضحك مع الذين يعترضون على التسمية لأنهم ليسوا « أولاد شرموطة » ! وتقول في احد المواضع انها تحس باللبن يكاد ينبجس من ثديها .

مليئة بالانسانية والعطف الدافيء الدائم على الناس أليس حينما تدهورت صحة القس أمين بعد وفاة زوجته خاصة ـــ ولم يعد قادرا على التحكم في إفرازاته ، ذهبت به الى المأوى الكنّسي طالبة ايواءه . فلما اعترضت الراهبة جادلتها ، ولما لم تنفع المجادلة ، قررت ان تستجيب لطلب الراهبة

ان تدفع الف ليرة شهريا مقابل ايواء القس المسكين . ورجعت أليس من المأوى بوجه أصفر وعينين متورمتين من البكاء . حينما وصلت الى فندق سالونيك حيث تعمل انفجرت بالضحك حتى اعتقد صاحب الفندق انها جُنَّت . سألها لماذا تضحك ؟ قالت اضحك على حالى وعلى هذه الدنيا بكره انا من يلمنى ، كما لمت القس أمين ؟

حينما ذهب الراوى ليلقى أليس ويسألها ان تحكى له قصة حياتها كى يكتب عنها ، سألته ولماذا تكتب ؟ قال : كى نؤلف كتبا ونخترع أبطالا ويتسلى الناس . قالت : يتسلون بالتليفزيون ، أليس هذا أفضل ؟ قال ربما . من ادرانى ؟ قالت : طيب بدلا من الحكى لك ، لم لا اكتب أنا ؟ وضحكت بصوت عال . ثم نصحته ان يتركها وشأنها ، وقالت ربما يكون الزيلع هو الذى أرسله اليها . وكان هذا الزيلع مجرما . قتل شقيقته خنقا بيديه ، وقتل قبلها الكثيرين . كان جنديا فى الجيش اللبنانى . وقال الملازم احمد الحسن : ياسيدنا نريد أن نحارب : نريد تليفزيونات ، ونحصل على فلوس . نريد الحرب . وذهب الزيلع الى الحرب ولما تبين انها ستستمر دون الفلاسفة الذين يتحدثون عن حرب الشعب والجماهير ، ترك التنظيمات ، ولم يترك تنظيما أو عصابة الا واشتغل معها.. هرَّب الحشيش وتاجر بالسلاح وصار مسئولا عن بار المونتانا . والزيلع يريد ان يتخلص من أليس . قالت أليس : ان الذى يحيرها ان الزيلع لايزال حيا . كلهم ماتوا أو راحوا وهو باق . مات غاندى وبقى هو . قتل اخته ويمكن قتل امه واصبح زعيما ورئيسا مثل الرؤساء . جاء اليهود وهو قائم . هل تستطيع أن تفسر لى هذا ؟ سأموت وسوف يبقى هو .

كان اللقاء بين الكاتب وأليس آخر عهده بها . بعد أربعة أيام انفجرت بيروت، وحدثت انتفاضة ٦ فبراير وهرب المارينز الأمريكان وثارت الحرب من جديد . وعندما هدأ القصف فى مارس ١٩٨٤ ذهب الراوى الى الفندق فوجد متراسا عاليا امامه ومجموعة كبيرة من المسلحين . لم يجرؤ على السؤال عن صاحب الفندق أو عن أليس .

ذهب يسأل عن أليس فى مقر الايواء الكنسى . لم تستطع الراهبة ان تدله . ذهب الى مقبرة مارمتر . قرأ كل الأسماء . على قبر شبه متهدم رأى صورة أليس . اقترب فرأى على القبر اسما آخر . لكن الصورة المحفورة على الرخام تشبه صورة أليس . اقترب من « أليس » فقرأ اسمه واسم امه واسم جده . كلهم كانوا هنا . لم ير وجهاً الا وسبق ان رآه كأنه كان فى منام طويل لا يقدر ان يفيق منه .

وقف طويلا ثم عاد . اغمض عينه فرأى غاندى يمشى وعلبة البويا معلقة فى رقبته يمد يديه كأنه يسبح فى ماء يدور به ويبتلعه الى الأسفل . وكان الماء يجرف الراوى هو الآخر الى القاع

ويبتلع شخصيات الرواية جميعا . ورأى وجوه الجنود . والأشجار تحترق والجنود يشعلون فيها النار . وكان يتحدث الى أليس لكنها لم تكن معه . وعدته أنه تأتى وتأخذه كى يزور الجميع لكنها لم تأت . اختفت ، وذهب يبحث عنها فلم يجد القبر . اخذت كل المعرفة وراحت .

قال الراوى : « كيف أروى حياة لم يعشها ابطالها ، بل هى التى مرت بهم كأنها فعل اخترقهم ؟ هكذا عاشت أليس وعاش غاندى . حتى الزيلع لم يكن اكثر من ممر لهذا الفعل الذى يخترق الجسد ويحيله كتلا من الخلايا المتناثرة » .

نقرأ هذا ونتذكر كيف وجد الراوى صورة أليس على قبر ليس قبرها ، وكيف قرأ اسمه واسم امه واسم جده . كل من عرفهم كانوا هنا . ونتذكر أيضا ان الياس خورى يصدر روايته بيت لابن عربى :

وما الوجه الا واحد غير أنّه / اذا انت عددت المرايا تعددا

يحيط كل من غاندى وأليس الرواية بذراعيه ويتعلق بالأذرع الكثير من الشخصيات والأحداث . حول غاندى تتحلق اسرته ، فوزية قليلة الكلام ، الساخطة فى صمت ، الموافقة رغبة فى « تمشية الحال » . وابنته سعاد ، المصابة بمرض الفصام الذى أعيا غاندى علاجه ، وابنه حصن ، الذى كان غاندى يرجو لو صار طبيبا فخاب الأمل فيه ، وأصبح الولد حلاقاً فى صالون للسيدات ، وسمى نفسه « رالف » ، وانشأ علاقة مع الست نهى ، التى تكبره بأعوام كثيرة ، وانتهت علاقته بها بأن قتلها لأنه لم يحتمل ان تتركه وتتزوج ضمانا لمستقبلها .

فوزية لم تكن تأبه كثيرا بابنتها سعاد . منذ تزوجها غاندى وهى لا تتكلم . يدخل غاندى البيت ، فتدخل المرأة فى الصمت وتتثاءب طول الوقت . يناقش معها حال البنت ، فلا ترد ولا تهتم . لا تكلم بنتها ولا تطعمها ، كأنها تريد قتلها ، ولولا أن غاندى كان يحشو فم ابنته كل مساء ، كما تُحشى الدجاجة ، لماتت البنت من الجوع .

عرضها على المشايخ فخابت وصفاتهم . قال آخرهم : تحتاج البنت الى أن يسيل دمها ويمتزج بدم رجل . خذها وزوجها . اقترحت فوزية ان يعرضها على ابن عمها فى طرابلس فهو مثل اخيها وسوف يقبل . رفض ابن العم وصرخ : انا اتزوج واحدة مجنونة ؟ عرضها على الأطباء فقالوا انها مصابة بمرض الفصام : انقسام الشخصية . خاف غاندى من انفصال الشخصية ، وخاف من سعاد ورآها منفصلة . ورأى كل شيء منفصلا . ورأى بيروت مدينة منفصلة .

ويتعلق بغاندى ابوه غريب الأطوار . ألحقه بالكتّاب وختم القرآن وهو فى السابعة . بعدها وضعه فى مدرسة الراهبات . رأى غاندى الراهبة تنحنى لتلتقط الطباشيرة ، فغابت يده تحت ثوبها ، لا تريد ان تعود . ضربته زوجة ابيه الغجرية ـــ الزوجة الخامسة للأب ـــ وعرف ابوه بالذى

حدث ، فأمسك بابنه ودفعه الى مغارة مشهورة فى تاريخ العائلة . دفعه هناك ليموت . لكنه لم يمت وهرب الى طرابلس وبيروت .

حينما مات الوالد ودخل غاندى الى غرفة الميت المسجى بكى . لم يعرف من أين جاء هذا الحب للرجل الذى أراد قتله فى المغارة . فجأة شعر ان هذا الرجل هو والده . أليس أيضا مرت بموقف مشابه . عندما اشتد القصف واخذ الجميع يفكرون بالهجرة ، قررت أليس ان ترحل . الى بلدتها شكا . ولكنها عدلت . رحلت بعد هذا لترى أباها لكنها لم تره . كان قد مات . حتى وجهه لم تره . قالت أليس : « أنا سامحته الله يسامحنى لأنى سامحته مات وماشفته . وعاش وما شافنى الواحد لا يعرف الوقت الذى ينبغى فيه ان يعرف . عندما كنت ارغب فى العودة اليه كان قد انتهى . الأشياء تنتهى فى الوقت الذى ينبغى فيه ان تبدأ . مثل الكذب ، هذه الحياة مثل الكذب » .

ومثل غاندى أيضا ، يتعلق بأليس جمع من الشخصيات . من أطرفهم ابو العباس اليتيم . كان حبها الثانى . وكان يتاجر بأسطورة الراهبة الايطالية التى غرقت بها السفينة فنجت وحدها . ورآها الناس تمشى فوق الماء وقبعة مثمنة فوق رأسها . وحين وصلت الى البر ركض الناس ومدوها بالكساء . اقامت الراهبة ولم تطلب شيئا . ركعت وبدأت تصلى ، ثم بنت لنفسها كوخا وصارت تعيش بين الناس . قيل إنها بنت مدرسة تعلم فيها الأولاد وتحفّظ القرآن فصار اسمها « الريسة » .

كان ابو العباس يزعم أن أباه رأى هذا كله وان ما يقوله مسطور فى كتاب ورثه عن الوالد . ثم يشير ابو العباس الى الشموع ويقول هذه شموع النذور . حتى الآن يأتى الناس ويضيئون الشموع للريسة التى ماتت هنا وهنا دفنت تأتى الناس ، وأغلبهم من النساء فيوقدن الشموع ويطلبن من الريسة وهى تستجيب .

قالت له أليس انت نصاب عالمى . فقال نعم . ولكن الناس تريد الأخبار . كلهم يريدون ان يعرفوا التاريخ . وما هو التاريخ ؟ هو العجائب من أيام سيدنا آدم . قالت له : انت تكذب فأجاب اذا كذبت صدقوا واذا لم اكذب صدقوا . انا احكى ما سمعته وما سمعته حقيقى . كان ابو عباس يعيش من حكاية الريسة ، وقيل انه كان يتاجر فى الحشيش . لم تصدق أليس حكاية الريسة ، غير انها سارعت الى اضاءة الشموع لها حينما قتل العسكرى صديقها . رأته امامها ميتا . اضاءت ثلاث شمعات وبكت . وحين خرجت من وراء السور رأت ابو عباس . اشار لها كأنه لا يعرفها . احنت رأسها ، وتلبستها صورة الراهبة ذات القبعة المثمنة ، فخافت على القبعة

من السقوط ومشت ببطء كأن الكساء الذى منحه الناس للراهبة يلتصق بجسدها ويمنعها من الحركة !

وبالرواية بعض العجائب . يروى ابو سعيد ان بيروت جزيرة نائمة فى البحر . نائمة فوق حيوان مخيف . كل سبعين سنة يتحرك الحيوان وتنقلب المدينة . وكلما انقلبت اقترب يوم النهاية . سبع مرات انقلب الحيوان فانقلبت المدينة . وهذا هو انقلابها الثامن . انقلبت يوم قتل اليهود احمد الشبلك بخمس رصاصات . روت أليس ، التى كانت بجوار جثة غاندى ان الدم تدفق من ظهره . ولكنه تابع المشى حتى سقط . هنالك ارتفع صراخ الله أكبر . كانت صرخة أبو سعيد المنلا ، خرج الى الشرفة وصرخ : الله أكبر . فارتفعت — لا أحد يدرى كيف — صرخات : الله أكبر من جميع المآذن . رغم ان الوقت لم يكن وقت صلاة . ورغم ان المؤذنين لم يعودوا يصعدون المآذن واكتفوا بالآذان المسجل .

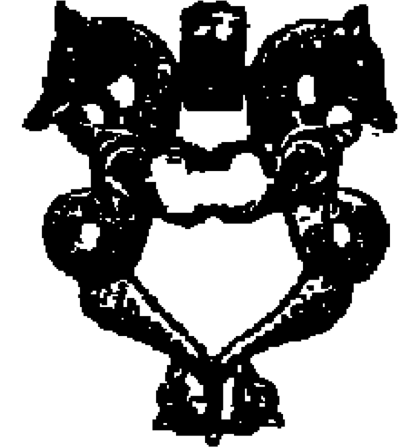
وهناك حكاية الجدة ام طانيوس قعيدة الفراش والشلل . فى العاشرة من صباح أحد الأيام اخذت العجوز تصرخ : « يا حبيبى يا محمد » قالت ان شاباً اسمر طويل شواربه لفوق ، حامل عصا بيده وقف الى جوارها ولكزها وقال لها يا أم طنيوس قومى امشى ، جاء الفرج يا حبيبتى . الآن تقومين » لم يستطع أحد ان يسكت العجوز وسرعان ما انتشرت حكايتها . قال الشيخ العيوطى انها صارت ولية . انها من أولياء الله الصالحين وأصبح البيت مباركا وأصبح مزارا وقال الشيخ لأبو أمين : « يا ابنى هذا نور الاسلام . نور الحبيب » لم تنته الاثارة والحرج الا لمامات العجوز ، فاتفق المسلمون على ان يغسلوها ويكفنوها ويقوم المسيحيون بدفنها .

يصطرع الوهم والحقيقة فى « رحلة غاندى الصغير » الناس موجودون وغير موجودين . الأحداث تحدث ولم تحدث . لكل شيء خمار زوال . أليس تردد مرات انها كائنة وغير كائنة . ان الحياة كذب . انها هى نفسها كلها كذب . الراوى لا يدرى هل هو يقتل شخصياته أم انه يخبرنا عن حكاياتهم ، هل الوجوه كلها وجه واحد ، لا تتعدد الا اذا عددنا أمامها المرايا ؟

وليس يتضح تماما ما وجه الضرورة الفنية لنشر هذه الغلالة الضبابية على الرواية واحداثها . ان هذه الغلالة تعوق استقبالنا للرواية واحداثها ، ولا يجنى منها العمل شيئا كبيرا . فالحقيقة واضحة فى « رحلة غاندى الصغير » ان الواقع حى وقوى ومثبت لوجوده . والصورة التى ترسمها لبيروت ولبنان كله انسانية ومؤثرة وفنية أيضا ، وهى ليست فى حاجة الى غلالة الفلسفة كى تجملها أو تجعلها اكثر أثرا . وليس صحيحا ان الوجوه فى الرواية واحدة ، وان المرايا هى التى تعددها . انها واحدة بمعنى محدد فقط ، هو أنها تظهر وتفعل ثم تتلاشى . هل يسعى الياس خورى الى أن يقول — مع شكسبير فى مسرحية « العاصفة » : نحن من مادة الأحلام صنعنا ، وحياتنا القصيرة هذه يحوطها النوم من كل مكان » ؟ ربما ! .

حجر الضحك

هدى بركات



شعر خليل انه وحيد فى معبر ضيق تتجاذبه الأضداد . أحس أنه قابع فيما يشبه الأنوثة الراكدة المحيرة بين الفعل واللا فعل . كل ما كان يستجيب به لما يدور حوله لا يعدو شدة الميل الى السلم والسلام ، وعدم الرغبة فى الخروج ، والنفور من رؤية الدم والاحساس بوحدة لا تطمئن ابدا الى راحة وهدوء فى روحه المشوشة القلقة .

كان فى أعماقه يهفو الى الفعل والفاعلين . ومن ثم اجتذبه صديقه ناجى الذى كان يسكن فى شقة تعلو شقته . تعلق به حد العشق . حينما غادر ناجى البيت هو وأمه ، لدى اشتداد القصف ، افتقده خليل كثيرا . ظل ناجى يزور خليل باستمرار وبما يشبه الانتظام . يتهيأ خليل لزيارة ناجى بفرح مصطنع . يرتب غرفته ، مع علمه بأن ناجى لا يلقى بالا الى ترتيبه . يشترى بُنًا طازجا ، ثم يقعد متعطلا منتظراً . وحين يتأخر ناجى تبدأ شعلة انتظار خليل تذوى حتى ليتمنى من كل قلبه الا يأتى . الأ يعود مطلقا . أن ينقطع عن الحى وتحولاته . الزيارة كانت لا تضيف الى قلب خليل ، بل تقتطع منه . أصبح خليل يقرف من وضعه المنتظر هذا ، ويقرف من اشفاقه على نفسه ، ويقرف من الاحساس بأنه « زوجة » ناجى المُطَلَّقة التى لاتزال تخفى عشقها . وحين يتأخر ناجى ، ينقسم جسم خليل قسمين : واحد يقول : « يأتى » وواحد : « لا يأتى » . وعقله فى النصف ، فارغ ومتكوم كإبن المرأتين اللتين كانتا تتنازعان أمومة الطفل فى حكاية الملك سليمان .

سمع خليل صوت اخت ناجى الصغيرة تقول له فى التليفون : اجمع الأشياء من شقتنا . لفها . وضبها ، ضعها فى الصناديق . قالت انها وأمها تعزانه ، وتعرفان معزتهما عنده . اضافت : ان ماما تسلم عليك طبعا . حين سألها عن صحتها ، صمتت طويلا وقالت : يا

خليل : ناجى مات .

من بعد جاءه صديقه نايف يزوره . قال له : انت صديق ناجى وتعرفه حق المعرفة ، وواثق انت من انه ضحية . ألم تسأل نفسك لماذا قتلوه ؟ لماذا كانت مشاويره كثيرة بين قسمى بيروت ؟ كثيرون يروحون ويجيئون مثله . فلماذا قتل ناجى بالذات ؟ اضاف : ناجى كان عميلا . ينقل معلومات هامة اضرت بالجماعة هنا . لم يكن يقف عند حد . يهددهم بمخطوفيهم . يقول : هناك عشرون سيقطعون اربا ان مسستم شعرة من رأسى . كانوا يتركونه يذهب على ألا يعود . فى الفترة الأخيرة شك الجماعة فى أنه هو الذى لغّم السيارة فى انفجار « الطريق الجديدة » . كان لابد من ازاحته .

فكر خليل : هل كان يجهل ناجى الى هذا الحد ؟ هل كان ناجى هو الرجل الآخر الذى تصحو فى الليل شهواته فيخرج الى القتل البارد ويعود فى اليوم التالى مبتسما وجميلا واكثر وداعة من حَمَل ؟ هل كان ذئبا جائعا يعوى فى الليل ؟ أو قاتلا محترفا على طريقة الأفلام الأمريكية ؟

تنازعته الحيرة فى أمر ناجى . اخذ الحنق يرتفع فى نفسه ، وتساءل ماذا يكون موقفه من صديقه الراحل . هل يؤجل شعوره بأنه مات أم يؤجل حقيقته التى انتهت اليه أخيرا . خسارته فى الحالين كبيرة . ولكنه يميل الى تصديق نايف .

رغم مقتل ناجى ، ظلت الأحلام الجنسية تدور فى نفس خليل وتتركز حول ناجى . رآه فى أحد أحلامه ينظر اليه بغضب فظيع ويستخلصه من صديق كان خليل قد تعرف به . مد ناجى يده الى حزام خليل الجلدى وجذبه جذبة قوية ففك الحزام !

من بعد ناجى ، مضى خليل يعشق الرجال . جاء ابن عمه يوسف مع أسرته ليعيش مع خليل . مالبث خليل ان وقع فى غرامه كان يرقب حركاته باهتمام كبير ، يرعى بقلق تحوله من مشاعر الصبى الى نضوج الشاب الفتى . لم يرتح خليل حين انضم يوسف الى صفوف المقاتلين . قال يوسف انه يفعل ذلك ليؤمن احتياجات البيت ويقبض راتبا آخر الشهر . اضاف انه لا عار فى الانضمام الى المقاتلين . انهم شبان مثلى ومثلك يا خليل . فقراء ومتعصبون لطوائفهم وأفكارهم . ومن ثم اندفع يوسف الى خضم العمل فى صفوف المسلحين . زعم خليل أنه ترك له حرية اختيار مايشاء من أفعال ، وحرية أن يندم ويعود . الحقيقة — قال خليل لنفسه — انا اتخذه مادة للتجربة . أجرب فيه ما اقصر عن اختباره بنفسى لأننى جبان . ادفعه لأرى النتيجة وانا كامن كلص خلف جدار . اجرب فيه لأنسحب واقرف ولا اضطر للخروج والعمل الدنىء من أجل المال .

أصبح يوسف « رجل » خليل يؤمن له حاجاته مما يفيض عن حاجة اسرته . وواجه خليل

موقفه من يوسف بسؤال صريح : ماذا تريد يا خليل من يوسف ؟ لم تكن اجابات السؤال واضحة ، ولا مقنعة ولا مريحة . قال خليل : « اننى اطوّق يوسف كما طوقته زليخة . وعلى الفور تتحول علاقة خليل بيوسف الى علاقة انثوية . يصبح خليل زليخة ، تجمع نساءها وتلطم مشيرة اليه ، وهن لا يرينه ، ولا تتقطع ايديهن بل يدا زليخة ، تبقى برتقالات شهوتها كاملة ومستديرة وحمراء . شقت زليخة ثوبها وصرخت : أنظروا الى الفاسق . شقت جسدها وصرخت : أنظروا . شقت قلبها وصرخت : انظروا فما نظر أحد ولا سمع . حتى يوسف ما نظر ولا سمع .

من بعد يُقْتل يوسف ، لأنه قام بعمل « فاعل » مثير . قتل اخوين من صفوف المقاتلين كانا اشد اثنين بأسا فى صفوف « الأستاذ » . كان قتاله شرسا ، حتى لقد دفع رفاق القتيلين الى اللحاق بيوسف وهو جريح فى عربة اسعاف ، مصاب فى كتفه ورجله لشدة بأسه على اعداء حزبه . اعداء عقيدته . قال خليل لنفسه : قد سبقنى يوسف الى أبعد ما نصبت له من فخاخ . اندمج يوسف تماما . وسأل خليل : من الذى قتل يوسف ؟ الجثة فى البطانية الرمادية التى كان خليل يصحبها فى عربة الأسعاف ، كانت جثة يوسف فى البئر ، لم يقتل اخوة يوسف اخاهم ويلقوه فى البئر ، وانما خليل هو الذى القاه . هو أيضا من فتح باب سيارة الاسعاف الخلفى ، وأمطر جسده رصاصا كثيرا . انه هو الذى قتل يوسف وتحرر من مغنطة جسده السام . الآن هو حر ، يستطيع ان يعترف انه قاتله . سيأكل موته لقمة لقمة . حبة . حبة حتى ينتهى جسده . ويروح هو يبكى ندمه وخطيئته العظيمة وعشقه المقصوف .

عبثا يحاول خليل ان يعثر على الذكورة فى نفسه . يظل دائما فى نظر النساء فتى جميلا جديرا بالاغواء . يعرضن عليه اجسادهن ولكنه لايتحرك . قالت له سمية المرأة المتفجرة : اعتقد ان بك شيئا غير طبيعى . ربما سمعت كثيرا انك جميل ومغرٍ فركبت رأسك . لايهم . انت بالفعل جميل وشديد الجاذبية . ولكن أنا امرأة واقعية . دعنا نراك من وقت لآخر . واطمئن . انا لا أريد أن أتزوج ثانية .

دار هذا الكلام فى بيت الأخ ، خلال سهرة اقامها . منذ مدة وعين الأخ على خليل . قال له انك تشلنى عن الحركة . مازلت أؤجل سفرى لأعمال من أجل ان أراك . هل أنت غبى الى هذا الحد ؟ هل تحب النساء ؟ قال خليل : لا أدرى . قال الأخ . لا . انت لا تحب النساء ، انا ادرى . فيما مضى كنت انام مع النساء . اما الآن فقد انتهى الأمر . انا بالطبع لن ألمسك الا اذا كنت راغباً .

فيما بعد أخذ الأخ خليل الى وكره السرى . كان وكر تهريب سلاح ومخدرات واتجار مع اسرائيل . قال الأخ : خذ هذه البطاقة . أنا مسافر . سأغيب ثلاثة أو أربعة أيام . انت تعرف

اين تجدنى ان خطر لك أن تأتى لرؤيتى . خذ البطاقة ولا تتغابى ولا تمزقها .

ليس يبين من الرواية ما يحدث بينهما فيما بعد ، ان كان ثمة شيء قد حدث فعلا . كان الأخ قد قال له : كنت اشبهك كثيرا يا خليل . عز عليَّ ان تعتقد أنك ترى الأشياء على حقيقتها . اردت ان اساعدك على الرؤية من مكان مرتفع ، وبعدها افعل ماتريد .

وكان خليل قد سمع من جهاز الصوت فى يخت كان يستقله مع الأخ من يقول : « كل شيء تمام . انتهى الأمر . انهم يبدأون فى التحميل » . قال الأخ : لقد انتهت الرحلة . قال خليل : عظيم . وفقكم الله . ومن تلك اللحظة وقع خليل فى دوامة كبيرة . قرر ان يحب نفسه . ان يمجد الحياة ويحب نفسه . وطالبته نفسه ان يكبر ويكبر ليستأهلها . قال له الأخ : رتب أفكارك يا خليل . كل شيء مرتب ، سلفا ، أو لاحقا . انت فقط من يتخبط فى الفوضى . وقال خليل لنفسه : زمنك مدور ومسدود من كل جهاته كبيضة فاسدة . بيضة فاسدة قعدت عليها طويلا وها هى قد فقست . عملت وأخذك الأخ فى مشوار . الأخ منحط ؟ أكان ينبغى ان يشنق فى محاكمة سريعة ؟ اكان ينبغى يا خليل ان تبقى فى ريفك البعيد تدارى سوء التغذية ؟ من هنا تبدأ يا خليل . من سوء التغذية . لنضع جملتنا على الطاولة : اننا نعرف الآن ان ما من خيار : ان تحب نفسك يعنى ان تكره الآخرين .

يمشى خليل فى المدينة يسمع وقع خطاه المنتظم على الأسفلت المبلول . يمشى فيها كأنه يمشى فوقها . اعلى منها . هذه المدينة البشعة ، الفريدة البشاعة . خليل برىء منها تماما . لم ينشد مع المنشدين الذين تسببوا فى بشاعتها . هو برىء تماما وحر تماما ولذا فهو يعرف كيف يكرهها . لن تطاله المدينة من بعد . لأنه سيعلو . سيكون ذكرها العالى ، هَلَعُه الحقيقى ان يتشابه مع قطعان الناس .

هكذا يحصل خليل على « ذكورته » . يتخلص من احد شقى نفسه ـــ شق الحَملَ ، ويحتفظ بشق الذئب . قد وعى درس « الأخ » وأصبح ذكرا ، وَغْدا ، كارها لمدينته وللناس . هذا الرجل الأنثى الذى كان يتقزز من النساء واجساد النساء يمضى من فوره فيغتصب ساكنة . كانت تقيم فى الشقة العلوية . ضربها . صفعها حتى خرت على الأرض . مزق قميصها وأمرها أن تقبله فى رقبته ، وأن ترفع رأسها وتخلع روبها السميك . وبعد ان فتك بها راح ينظر فى أرجاء البيت . رأى أزرق وأخضر ريان ، ورسومات على الجدران واضواء فى الزاوية . قال لنفسه : كانت تلعب بيت بيوت . كانت تلعب أنها اسرة امان . كانت تلعب انه بيت . ومن بعد أمرمساعده ان يقول للمرأة تدفع اجر تصليح شقتها ، أو يلقى بمنقولاتها فى الشارع .

 ليس ما هو أبشع من سيرة خليل وما ترويه من انجذاب نحو الأضداد ، وما تنتهى اليه من

تسليم مهين ، ليس ابشع من هذا هجاء لمدينة شوهاء وسكانها المجانين ، اللاهين ، العابثين بكل مقومات الحياة . تقول هذه السيرة : ان المرء لا يحصل على ذكورته الا اذا فقدها . لا يحقق لنفسه نجاحا الا اذا داس جميع المواضعات . لا يتهيأ له مكان الا اذا اغتُصب واغتصب ، وظلم ، وهرّب ، وتاجر مع الأعداء ، وتنكر لانسانيته وأصبح له منكبان عريضان بدل منكبيه الضيقين ، ونظارتان شمسيتان لا واحدة ، وشاربان لا شاربا وحسب . اذ ذاك يستطيع أن يؤجر شقة المرأة لقاء ثلاثين الف دولار ، ليخبيء فيها المقاتلون ذخيرتهم وسلاحهم . اذ ذاك يسعه ان يركل الأحياء جميعا : المرأة وقط الحاجة ، ويصم اذنيه عن كل من يريد ان يحوله عن الطريق . اذ ذاك يصبح فى امكانه أن يضحك ، أن يكون ذكرا يضحك ، وأن تناديه الكاتبة فى آخر الرواية : خليل : بطلى الحبيب . بطلى الحبيب .

كانت المرأة قد نادته قائلة : ها انا ذا . فلم يستدر . ابتعدت به السيارة ، وبدا للمرأة ان خليل يغادر الشارع كأنما يصعد الى فوق . قالت : كم تغيرتَ منذ وصفتك فى الصفحات الأولى . صرت تعرف اكثر منى علم الكيمياء وسر حجر الضحك . صرت ذكرا يضحك وبقيت أنا امرأة تكتب .

عرف خليل سر حجر الضحك : أن تعطى ظهرك للأشخاص والمبادىء والقيم الانسانية كلها . أن تعلو فوق الناس جميعا وترفض ان تكون واحدا منهم . أن تعشق الرجال وتترك النساء . ان تنظر فى ازدراء الى كل حلم بالعيش السوى . أن تسخر من المرأة التى اغتصبتها ، لأنها — تلك الحمقاء — كانت تحلم بأن يكون لها أسرة ، وبيت آمن تزين جدرانه بالأزرق والأخضر وتضع فيه رسوما على الجدران وأضواء فى الأركان .

ماذا يجدى العيش السوى ، بل كيف يتحقق أصلا فى مدينة كاذبة خائنة لاهية ؟ مدينة تضحك كلها ، على نفسها وعلى الغير . مدينة أصبحت اكثر مكان يضحك فيه الناس فى العالم . فى عز القصف العشوائى يضحك الأولاد والموظفون ، والجارات وأصحاب الدكاكين والمخابز والمطاعم . يضحك أصحاب المصارف والبيوت وعمال البناء وأصحاب دكاكين الأثاث والأطباء ، لأن لكل منهم مصلحة فيما يدور حوله من فواجع حتى امهات الموتى يضحكن لأن وفودا جديدة من الموتى سوف تلتحق بأبنائهم فتؤنسهم . والسلطات أيضا تضحك على الشعب ، والشعب يضحك على السلطات ، لأنه يريد لها مزيداً من التورط فى الحرب ، فيسكت عما يجرى ليكون له الحق فى مزيد من الضحك .

رغم الستار الهادىء الذى تدير الرواية وراءه الأحداث ، والذى تتعمد فيه ان تبقى فواجع الحرب الطائفية فى خلفية الصورة ، يتفجر الحنين واضحا ومؤلما ، لماضٍ قريب لم تكن فيه الأمور

قد انحدرت الى هذا الدرك العبثى الوحشى قال خليل : « حين كانت امرأة عمى صبية » تتعلم من امها الطبيخ وتغسل وجوه اخوتها الصغار وتحلم بعبد الوهاب ، كان عمى المتشبث بدكة بنطلونه القصير ، يسبق المظاهرة الصغيرة بعدة امتار ، قافزا فى الهواء ، محوريا حتى يبح صوته :

اخوى فى بغدادِ
خلى الرصاص ينادى
اخوى فى الأردنِ
خلى الرصاص يغنى
اخوى فى الحجاز
ام انبوب الكاز

ثم يقول العم : أيام ! ويتنهد حنينا قبل ان يتابع : عبد الناصر يا جمال ، وتحيا الأمة العربية ، ونحن أممنا القتال ، وموتوا بغيظكم يا اقطاعية . كانت السياسة لذة ..

ويعود خليل الى طفولته . يذكر كيف كانت أمه تضع جسمه الصغير فى طشت نحاسى به مياه دافئة وتروح تغسل جسمه وهى تغنى وتضحك عاليا . كانت عيون اخواته مثبتة اليه ، ضاحكة ومشدودة الى عضوه الصغير ذى الشكل الجديد على العائلة . مسَّت الأم رأسه بزيت له رائحة البخور ، ثم نقطت من ثديها الكبير حليبا أبيض فى عينيه . احدى اخواته كانت تصفق كلما لمست جلده الدافىء ، بينما الأخريات يدفئن رجليه الكرويتين بأيد تروح وتجىء الى المدفأة ، ويتضاحكن .. ثيابه البيضاء كانت تنتقل من حضن أمه المقعر الدافىء ، الى أيدى الفتيات ، وعلى غناء الأم المتقطع كن يلملمن ماء جسده وخيطان اقمشته وأربطته وشعر رأسه ليدفنها فى عناية بعيداً عن حسد الغرباء .

هذا هو حب الحياة والاحتفاء الأصيل بها . ذلك الحب الذى داسته احذية المقاتلين وصواريخهم وبنادقهم وحواجز طرقاتهم . واتجار قادة الميلشيات بالموت ، ومصائر الشباب ، وصور « الشهداء » . ذلك الحب الذى انكره الفسقه من الرجال والنساء وأحالوه إلى سهرات ليلية يقيمها التليفزيون لرفع معنويات الشعب ، وأخرى يقيمها المترفون ليشربوا ويعربدوا ويقنصوا الذكور والاناث ، ويحولوا الحب الى عشق الجسد ، ويقطعوا الوقت فى الحديث عن الذكورة والفحولة ، والنكات الجنسية .

لا جرم ان يتبين خليل ان جنة المدينة الحقيقية هى فى مستشفياتها . دخل المستشفى ليعالج ، فقامت على الفور صداقة بينه وبين الطبيب الشاب وضاح . يرفع الطبيب يدى خليل ذات الشرايين النابضة فيبكى خليل ، ويشم رائحة أمه ، وينَقِّط وجه وضاح حليبا دافئا فى

عينيه . وراء كل انحرافاته كان خليل يبحث عن الحب الحقيقى .

بالرواية تأملات كثيرة نافذة ، طازجة النظرة . يقول خليل لنفسه وهو يتأمل موقف النساء من الموت : « كل الحكمة معطاة لهن . حكمة الحياة وموتها وما هو أبعد منها . انهن يدجّن الموت بالسليقة . ينزلنه عن مطيته قربهن باستحياء ، لكن بثقة القادر . يطعمنه . يُشْربنه القهوة ويتسايرن معه حتى يصبح كأنه من أهل البيت ، ولا يتوانين ان يحكين له مشاكلهن الصغيرة ، كما لو كان جارة اليفة تنقى العدس مع جارتها » .

وتتأمل الرواية الوقت فى مدينة مشتعلة بالقصف : « ليس الوقت مطية تأكل وتمشى . الوقت زلابية . قطع صغيرة مبعثرة وخاوية حتى من هشاشتها . فى مدينة كهذه المدينة تكون حياتك كخشبة اللحم . ووقتك : انت تقف وتشمر عن ساعديك وتروح تفرمه قطعا صغيرة وتأكل قطعا صغيرة جدا تتضاءل كلما تجمعت . كلما تقدمت فى الفرم تقدمت القطع الصغيرة فى الانقضاء . لا يشد وقتك ويعطيه جوهره أو محتواه سوى القصف . القصف يعيد توزيع التواقيت على المدينة كامساكيات شهر رمضان . قبل القصف . خلال القصف . خلال القصف الطويل . بعد القصف . قبل القصف . كل أنواع القصف .

كل هذا التندر ، والمرارة ، وهذه الصورة الهجائية الجارحة التى تصورها الرواية لخليل، كل هذا إنما هو تعبير عن حب دفين لبيروت ولبنان ولبسطاء الناس الذين استدرجوا إلى معركة عبثية لا إنسانية لا مصلحة لهم فيها ولا رغبة فى خوضها ولا مجد لها ولا مبرر .

مِسْكُ الغزال

حنان الشيخ



عندما تسقط سهى فى شباك الخطأ تنظر الى فخذيها وهى متمددة ، وتدرك بوضوح انها لن تستطيع من بعد ان تحب ساقيها كما احبتهما من قبل . لن تغسلهما وتدهنهما بالكريمات ، وتختار لهما الجوارب الجميلة . كانت سهى قد تورطت فى علاقة سرية خاطئة ، مع نور ، سيدة متزوجة ، مترفة ، مدللة ، تبحث عن الحب الذى كف زوجها ، صالح عن منحها اياه ، فجعلت نور تعرض جسمها على الرجال والنساء معا .

لم يكن الخطأ كله خطأ نور اذ استدرجت سهى الى هذه العلاقة الشاذة تفتش سهى فى ذاكرتها فتنبئها تلك الذاكرة انها فى بيروت قد كانت تعيش حياة متحررة . عرفت سهيل وموريس وعادل . وعرفت ان الزمن يمسك بممحاة عملاقة يمحو بها اسماء ويكتب اسماء أخرى ويعيد العواطف . تذكرت انها سكرت هى وصديقتها عايدة وصديقها سهيل وتمدد ثلاثتهم فوق سرير سهى ، وتركت سهى ادريس يتعامل مع جسدها . تريد ان تبقى فى وضعها هذا ، وتريد أن تنهض ولا تملك لهذه المسألة حسما .

كذلك كان الأمر مع نور . استدرجتها المرأة المجربة ، فلا هى إنكرت ولا هى قَبِلت . دهشت وحسب . ومن بعد انتقلت من الحيرة والدهشة الى الرضا ثم الى الاستعذاب وانتهت وقد شملها التقزز ودفع بها الى اتخاذ قرار حاسم . لم تكن سهى راضية بحياتها فى البلد الصحراوى . طالما اشتكتَ الى زوجها باسم من الضجر والخلاء المعذب الذى يسود الحياة فى تلك البلد . طالما قالت له انه جاء يبحث عن المال وحسب ، لا يهمه بعد المال ما اذا كانت الحياة تملأ القلب والروح . قالت سهى لزوجها وهو فى جمع من اصدقائه : « قام الأطباء هنا بعمل رسم قلب للرجال هنا . فجاءت الصفحة بيضاء ، خالية من أى رسم . ظن الأطباء أن

بالأجهزة عطلا . ارادت أن تقول ان الرجال هنا لا قلوب لهم ، لهم فقط جيوب !

جربت سهى ان تعمل . فى سوبر ماركت . مدرسة فى الجمعية . جربت ان تتسوق ، فمنعوها لأنها غير مستورة — لا تغطى رأسها . سد الرجل طريقها بعصاه وقال : ما فى تسوق وانتم سفور . شعرت سهى انها تغلى . احست بالعجز والقهر . وضح لها انها لا تملك نفسها . سترت رأسها وخرجت . ادركت تماما مغزى ما حدث : شل حرية تنقل النساء ، ووضع العقبات فى سبيل حرية تجوالهن .

تركت سهى الجمعية وقعدت فى البيت . اخذ الضجر فى نفسها يتفاقم . ألحت على زوجها ان يحدد موعدا لمغادرة البلاد . قال لن يحدث هذا قبل سنتين ، نصحها ان تشغل وقتها حتى تتفادى الضجر ، اجابت ابداً لم انشغل بشيء هنا . كنت فقط املأ الفراغ .

وحين استدرجتها نور الى صداقتها ، واندفعت فى هذه الصداقة الى الحد الذى قززها من نفسها شعرت بقوة أنها تسقط بسرعة نحو هاوية لا قرار لها . جعلت نور تستقدم الرجال الى بيت سهى . بل جاء رجل مرة وسأل سهى وهو يضع زجاجة ويسكى وقطعة من لحم الخنزير على الطاولة : هل يستطيع ان يأتى بصديقته الأجنبية هنا ؟ ساقت نور أمها لتلح على سهى فى ان تستأنف علاقتها مع ابنتها . فذلك افضل من الزنا ! لم يعد امام سهى سوى ان تتخذ القرار الحاسم . انبأت زوجها انها ستتركه فى البلد الصحراوى ، يجمع المال كيف شاء ، وستعود الى لبنان مع ابنها عمر . قالت لزوجها : تعرف ما هو اكثر ما ضايقنى هنا ؟ انه السور . يضايق الخلق . وحين ركبت الطائرة واقلعت هذه ، نظرت سهى الى أسفل ، فرأت سورا شاهقاً يحيط بالبلد ليحفظها من الرمال المخيفة ، بدت لها الصحراء رمالا ونخيلا ، حياة محورها انسان بلا أشياء ولا جوانب . مهمته الأولى أن يخترع ما يجعل دقات قلبه تسرع أو تظل تدق بانتظام . ان يبحث بنفسه عن البريق المدفون ، ويعرف كيف يتعامل مع فصلين بدلا من الفصول الأربعة .

احدى اللاتى سعين الى ابتكار ما يجعل دقات القلب تسرع هى نور — علاقتها الشاذة مع سهى واحد من هذه المبتكرات . كان يجذبها الى سهى أنها متكبرة ، لا تأبه بمظاهر النعيم الذى تعيش فيه نور . وانها كثيرا ما كانت ترفضها ، ولا تبالى بأن تستمر علاقتهما . كان هذا الرفض يؤجج رغبة نور فى الامتلاك . كان يجعلها تلهث سعيا الى الوصول اليها ، هذه القطة الهاربة من قبضتها وحبها .

وكان لنور أيضا تليفون أبيض يعمل على خط سرى دفعت فيه مبلغا كبيرا لموظف التليفونات الذى جاء به ، وجعلت تحادث فيه رجلا لم تره أبدا ، ولم تعرفه الا عبر الأسلاك . كانت تتعمد ان تطلبه وتظهر له كل مظاهر الغنج ، والدلال والشوق ، ثم تتركه وقد تهدج وكأنه يعصر صوته ،

سعيدة بأن لها هذا التأثير عليه . لا تطلب بعد هذا شيئا .

كانت نور مدللة دائما ، من ابيها وأمها . بنى لها الوالد بيتا خاصا وهى فى الثالثة عشرة . واخذت تماشي الحياة العصرية من خلال سفرها مع الأسرة الى القاهرة وباريس . ولما تعثرت فى الدراسة جاءوا لها بمعلمة فى البيت ، ولم تفلح معها المعلمة . وبناء على طلبها ارسلها ابوها الى القاهرة لتدرس فى كلية خاصة للبنات . هناك عرفت ان حريتها الكبيرة فى الصحراء لا تقارن بحرية الحياة فى القاهرة . مجرد سيرها فى الشارع على الأقدام كان حرية ، فكيف اذا كانت تسير بلا عباءة . لم تعد الحرية مجرد ادارة قرص التليفون وبث كلمات الحب والتحرش بالبائعين العرب . حتى القبلات والأشياء الأخرى فى السيارات ليست هى الحرية . الحرية هى القاهرة التى كان لها ذراعان مفتوحتان حتى بعد الأفق .

تزوجت نور بعد عودتها من القاهرة . تزوجت من شاب يماثلها فى الاهتمام بقشور الحرية من اللبس الفاخر ، والسيارات الفارهة من آخر طراز ، والحفلات التى تبدأ قبيل منتصف الليل وتشغل وقت المسافرين فى الرقص والغناء والأكل ومشاهدة الأفلام حتى الفجر . وفى احدى السفرات خارج البلاد اكتشفت نور ان زوجها يحب جنس الرجال أيضا الى جوار جنس النساء . فضحكت اذ هى تفكر فى الكثيرات اللاتى كن يغازلنه ويتصلن به مباشرة أو عن طريقها . ولم تفكر نور فى طلب الطلاق ، بل جاءها قرار الانفصال من سامر زوجها ، إذ التحق بدورة تدريبية فى السلاح البحرى ببلجيكا واخذ معه صديقه وليد .

ثم تزوجت نور من شاب آخر هو صالح ، الذى يأخذ الحياة مأخذ الجد ، ويود أن يحترم بلاده مع اقراره بكثير من النقص فى حياة البلاد . قال لها انه وغيره من الرجال والنساء يعانى من وطأة الكبت وان ضغط التقاليد والمجتمع فادح ، غير ان هذه هى بلده وبلدها ، وعليهما ان يتحملاها ، لا أن يجمعا الثروة منها ثم يفكران فى بلاد تضم الأشجار والبحيرات .

لم يلق هذا المنطق ترحيبا من نور ، وهى التى كانت ترى فى الزواج رخصة بالحرية وسبيلا الى الوصول الى العشاق . وشاء سوء حظها ان تفقد جواز سفرها ، فأصبحت قعيدة البلاد ، لا تستطيع السفر ، ثم عرفت من بعد أن زوجها حبس عنها جواز السفر . ثم تأكد هذا لما رفض أن يطلقها ، وامتنع عن ان يسلمها الجواز لأنها لاتزال زوجته . قال ان عليها هى ان تطلب الطلاق ، حرصاً على موقفه من اسرته واسرتها . وكان وافق قبل الزواج على التنازل عن حقه فى التطليق ، وجعل هذا الحق من اختصاص نور .

تتميع حياة نور من بعد ، وتأخذ تستعرض من يمكن ان يتقدم لها من العرسان . هناك صيرفى عجوز له سنتان اماميتان من الماس . اقسم ان رضيت به ان يكون مهرها سبائك من

الذهب فى مثل وزنها . ولكنه يغار حتى من النسيم . وهناك آخر يريد زوجة ثانية لأن الأولى كبرت ، ولديه المال ، وهو يريد ان يتمتع بمن هى أصغر سنا وجمالا . لكنه يعيش ومن حوله كل عائلته التى تفرقت فى بيوت .

تختم الرواية حكاية نور وهى تنظر الى وجهها فى المرآة . لاتجد نقطة واحدة أو خطاً واحدا فى صفاء وجهها ، حتى وهى تصل ليلها بنهارها ويداهمها الأرق والبرد والحر وتتضارب فى حلقها الحبوب المنومة وحبوب اليقظة . واذ هى تقيس الملابس التى ملأت شنطة كبيرة ، جاءتها هدية من أمها ووجدتها نور على آخر طراز ، طاف فى ذهنها انها قد تركت جسمها معروضا على الجنسين كمقيص على حبل غسيل ، يثور ويهدأ كيفما هب الهواء .

المرأة الثالثة فى رواية حنان الشيخ امريكية جاءت بلاد الصحراء سعيا وراء المال وجريا وراء احتفاء الناس بلحمها الأبيض وسلوكها المنفتح السوق . تذكر بصراحة انها جاءت من امريكا حيث لم تكن شيئا ـــ مجرد نملة فى حديقة كأية نملة أخرى فى أية حديقة . جاءت سوزان مع زوجها ، الذى كف عن الالتفات اليها من زمن : فى البيت وفى الفراش معا . ووجدت سوزان نفسها مطلوبة من كل طامع فى اللحم الأبيض ، فبذلت نفسها لكل من طلبها . علقت أملها على أن تتزوج من معاذ ، الذى عرف جسدها بعض الوقت ثم انفض عنها . سعت إليه بالسحر والالحاح فى المطاردة حتى أعادته إليها بعض الوقت. لم تأبه كثيرا بأن تتزوجه على ضرة. زوجته الطيبة فاطمة استقبلتها فى بيتها مرحبة وهى لا تدرى ماذا يراد بها . غير ان معاذ لا يفى بوعده ويهجرها فى أول فرصة يتعرف فيها الى نساء الانجليز فى لندن . ويواصل هجرها بعد العودة الى الصحراء ، وتضيع فرصتها معه نهائيا حين يعود من رحلة الى الشرق الأقصى وقد اصيب بالزهرى .

لا يعود أمام سوزان وسيلة سوى ان تحاول الزواج من خادمها الأسيوى رينجو . ستشهر اسلامها وتطلب البقاء لتعمل مربية أطفال . مازال فى اذن اقامة رينجو شهرا تستطيع فيه ان تنهى اجراءات الطلاق من زوجها ديفيد وتقبل على الزواج الشكلى من الأسيوى .

وقاتلت تمر قتالا مريرا من أجل حريتها . تمر هى المرأة الرابعة فى « مسك الغزال » . لا تتعلق بها شائبة واحدة من الشوائب التى التصقت بالنساء الثلاث . كافحت تمر من أجل ان تدخل «الجمعية» لتتلقى دروسا غير التى كانت تلقنها إياها معلمة القرآن . صرخ فيها أخوها رشيد : من الأول ما حبيت تسافرى لندن . انا عارفك . متمردة . كل عمرك تلعبين مع الأولاد . هَرَبت تمر من ابراهيم زوجها الأول ، وشكت ان زوجها الثانى يسكر ، فطلقها . وعلقت هى على هذا الطلاق : والله أنا مبسوطة . لو ما طلقنى الشيخ كنت طلقته . والآن هى تطلب استئجار

سائق لها ، ولزوجة آخيها بتول . وهى أيضا تذهب الى الأعراس مع أى سائق . دون محرم .

يرفض رشيد ان يجيب طلبها ، وتصر هى على ان تتعلم وتقرر الاضراب عن الطعام الى ان يجاب طلبها . وعبثا يحاولون اثناءها عن عزمها . تزم شفتيها وترفض ادخال الطعام الى فمها قسرا . تصرخ زوجة اخيها متعاطفة معها : « اسمعونى ، والله العظيم ، انت يارشيد . ما انت داخل علىّ فى السرير ولا انت حلالى ، الا لما توصل تمر بنفسك الى الجمعية » .

تتأزم الأمور وتسوء حال تمر ، وفجأة تدخل عليها بتول وهى تقول : « يا تمر ويا تمر ، تروحى الجمعية وانت راكبة ، وتجى قارية . كاتبة » . كان رشيد قد بدأ يهجر زوجته ، غير مبال باعراضها وما عاد يكلمها ، فاشتد بها الضيق ، حتى حملها على ركوب المركب الصعب : دخلت الى مجلس العصر الغاص بالرجال وركعت على قدمى زوجها تقبلهما وهى تبكى وتقول : « سامح اختك يا رشيد . الله مسامح . العلم نور وفاطمة بنت الرسول كانت بليغة ، تقرأ وتكتب » . شعر رشيد بالحرج الشديد امام ضيوفه وقد ذاع السر وتضرج وجهه بالدم ، ومع ذلك واتته الجرأة وقال : « ابشرى يا أم اشرف . قولى لأختى تفك صيامها » .

تعرفت تمر فى الجمعية الى سهى ، التى شجعتها ، وصادقتها ، وايدت اتجاهاتها التحررية . طمحت تمر الى أن تنشىء مشغلا ، و« صالون تجميل » للسيدات . وكافحت حتى حصلت على ورقة الطلاق من زوجها الأخير ، فبدون الورقة لايعطونها رخصة الانشاء . وزاد نجاحها فاقتنع اخوها رشيد بفكرة المشغل واشترط ان يستجلب الخائطات الفليبينيات شرط ان تدخل زوجته بتول شريكة . ونجح المشغل وصالون التجمل واخذت النساء تؤمه بعد الظهر وعند المغرب ، مستصحبات أولادهن وأقاربهن .

رغم نزوعها للتحرر ، لا تبهر تمر بحضارة الغرب حتى لتود أن تهجر بلدها وتعيش فى لندن . عندما كانت الأمور متأزمة بينها وبين أخيها ، وبينها وبين زوجها السابق ابراهيم الذى وجد العار كله فى ان تصبح أم ابنه محمد مثل أهل جاوى ، تخيط للناس وتسلك الشعر وتتعرض لأن يغلق محلها بالشمع الأحمر — لما تحرجت الأمور على هذا النحو ، نصحت سهى صديقتها تمر ان تسافر وتقيم بالخارج وتتخلص من مشاكلها جميعا . اذ ذاك ردت تمر : بم تفكرين يا سهى ؟ تريدين ان اسافر من غير رجعة ، اترك بلدى وأعيش فى لندن ؟ وماذا افعل فى لندن ؟ الواحد من غير بلده وحبايبه ما يسوى عود بخور . حقيقة انبسطت لما سافرت ، لكن اشتقت ، صدقينى اشتقت للرطوبة وللغبرة وللحر . وماذا يقول الناس عنى ؟ هربت ؟ وما السبب ؟

تعالج « مسك الغزال » مشكلة الصدمة الحضارية التى تحدث لمن يفد الى البلاد ولأهلها الذين يقيمون فيها . سهى اكثر الشخصيات احساسا بهذه الصدمة . حينما يقول زوجها انه قد

يبقى من سنة الى ثلاث سنوات تصرخ وتردد كلمات احدى صديقاتها اللبنانيات : « سأجن . تحت الرصاص أنا قابلة اعيش » يمضها تفاقم احساسها بالحياة ، وبانعدام وجود المرأة ولو على السطح . سنوات قضتها فى البلد الصحراوى . لا موسيقى . تسمع نشرات الأخبار عن العالم الخارجى فتجد واقعها بعيدا عن هذا كله . لم تستطع سهى البقاء فتركت زوجها وعادت الى بيروت الملتهبة .

موقف نور من الصدمة الحضارية . مختلف . تسعى الى استخدام المال فى تحقيق الملذات . لا تنتمى الى البلد انتماء حقيقيا . العالم كله يتركز عندها فى جواز السفر هو الشىء الوحيد الذى تحافظ عليه . تمسك به كأنه أوكسجين الحياة . حفظت شكله ولونه ورقمه . هو الشىء الوحيد الذى تضعه فى كيس نايلون وتخفيه فى الخزنة الحديدية بينما تترك مجوهراتها وأدوات المكياج دون حفظ . لندن عندها هى قمة الحركة المتحررة ، وفى سبيل حريتها الزائفة هذه تنكر الزوج وتهمل الابنة غادة . مدللة ، مترفة ، لا شىء يقنعها ابدا ، ولا شىء يرضيها . قالت عنها سهى انها غندورة ومدللة .

معاذ ، زوج فاطمة الطيبة تخرجه الحضارة الوافدة عن صوابه . يتعبد فى جسد سوزان . يقف مسحورا امام غسالة الأطباق ، كيف تجلى الصحون وتفركها ، ثم تجففها . وكيف يطبخ الفرن الدجاجة فى اثناء غياب ربة البيت ، ويتوقف من تلقاء نفسه . حينما ركب الطائرة المتجهة الى لندن ، انضم الى الركاب الذين اندفعوا يصفقون فور اقلاع الطائرة ، فرحا بالحرية والمشروب . اخذ معاذ يطلب الكأس تلو الكأس ويمازح المضيفة ، ووقف يوزع الدولارات ويصر على قبول الركاب لها . ولم تكن تصرفاته فى لندن اقل انفلاتا . وقف يتأمل المانيكانات فى المحلات ويتمتم لدى النظر الى اجزائهن العليا والسفلى : « تمام » !

وحدها تقف « تمر » الموقف الثابت المتعقل الذى تقدمت الأشارة اليه . ويقف موقفا مشابها له صالح ، زوج نور الذى دعا الى التمسك بالبلد الذى يمنحه الثروة وشجب محاولات نور العيش على حساب بلدها فى بلد أجنبية .

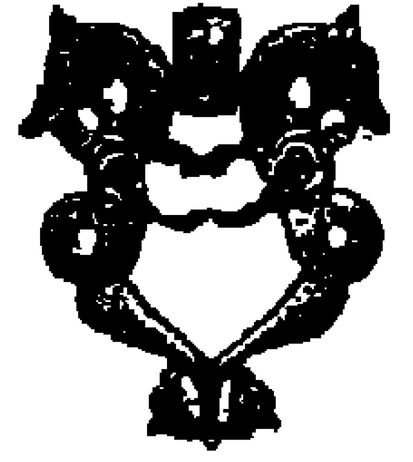
اما الأمريكية سوزان ، فقد مر بنا كيف باعت الزوج والأولاد والجسد والدين وحضارتها الغربية لقاء المال الوفير الذى يمنحها الراحة المادية ويجعل الكل يتوق اليها .

تسعى « مسك الغزال » الى استكشاف حياة الصحراء ، وتنجح فى هذا الى حد بعيد . وتجهد كذلك فى تسجيل العادات والمأثورات الشعبية ، مستعينة بوصف حفلات العرس والحفلات الخاصة ، كما تسجل الحكايات الفولكلورية الشائقة مثل حكاية السميسكة ، التى يبدو واضحا انها صورة صحراوية من حكاية سندريللا .

غير ان حنان الشيخ تخطو خطوة فى الفراغ ـــ خطوة لا داعى لها على الاطلاق ، حينما تصر على ايراد حكاية تاج العروس ، ام تمر ـــ وما جرى لها مع السلطان ونسائه ورجاله . وهى حكاية تطول ، وتتململ لها تمر ، ونتململ معها نحن أيضا . فانها لا تخدم الرواية بحال ، وانما تميعها ، ويصيب قدر من هذا التميع شخصية تمر المرسومة بقوة واقتدار ، والتى تضفى عليها الكاتبة امتيازا خاصا ، بأن تجعلها الشخصية الوحيدة المقاتلة فى مجتمع الصحراء .

طيور أيلول

إملي نصر الله



طعم الهجر يبقى على ألسنة سكان القرية . فى كل سنة ، فى الشهر التاسع منها . تمر فوق القرية اسراب كثيرة من طيور كبيرة الحجم ، قوية الجناحين ، يعرفها السكان باسم « طيول ايلول ». يتلفت اليها الناس وفى صدورهم غصة انفعال . يعلمون ان فصل البرد أصبح على الأبواب . الشباب يحملون بنادق الصيد ، والأطفال يرشقون الطيور بالحصى ، والصبايا يرفعن اليها نظرات الابتهال ، بالصلاة الحارة . كل نظرة تحمل ألف دعاء وألف سؤال .

تأتى الطيور وتروح ، ويبقى طعم الهجر يتململ فى اجواء القرية أياما . ويتلفت الناس وقد اعياهم العجز ، ويصبون النقمة على القرية الصغيرة الوادعة انها تحضهم ولا تدرى . تتحكم بمصائرهم ، وتذروا ارواحهم كما يذرى الفلاحون القمح على البيادر ، وتدمغ وجوههم بقبلة عميقة تصبح بصمات للقدر على جباههم . واينما يسيرون فى الأرض ، فى كل بقاع الأرض فهم غرباء ، يبحثون عن الكنز الضائع ، المدفون فى ركن عميق من صدورهم .

الهجرة وترك المكان كان مصير بعض من أهل القرية . كان راجى يحب مرسال ، ومرسال كانت تعبده . ولكن طائر الهجرة كان يرفرف بقوة فى روح الشاب الطموح . فجأة قال لها راجى وصوته يتلكأ : « مرسال ، ان حدود القرية تضغط اعصابى . تكاد تقتلنى . انا مسافر يامرسال . هجرى سيحطم قلب أبى . ولكن الواجب ينسينا العاطفة » . وظل يهدر من أماكن بعيدة : « أوصيك بالشجاعة يامرسال . الحياة تدعوك لتتقدمى ، وتغرفى من كنزوها . حديث المنافق الخائن هذا ، حافل بكل امارات الغدر : « ستلقين رجالا كثيرين » قال لها ، وهو يعلم ان لا رجال كثيرين أو قليلين فى القرية . وأنه على كل حال كان رجلها الأوحد » . قد يحبك احدهم اكثر مما احببتك . قال لها : وهو يعلم انه لم يحب الا نفسه وحسب . حتى ابوه لم يعنه

كثيرا ان يحطم بالهجرة قلبه . تذرع « بالواجب » الذى يمسح الخطايا عن الغادرين .

سافر راجى وترك لها العزاء الهزيل الذى يتركه امثاله : « مهما حدث فستبقين فى ذاكرتى . أحلى ما فى ذاكرتى . وتذكرى يا مرسال ، دائما ، اننا التقينا هنا يوما » . عزاء هزيل هذا ، لم تلبث ان انهارت . بعده قصورة الأحلام الخضراء التى بنتها مرسال لتعيش فيها مع الرجل الذى أحبت .

خرج من القرية مهاجر ، وعاد اليها مهاجر آخر . كان قبل ان يغادر القرية يسمى سمعان . عرفته الحقول والكروم واعالى التلال . كان بهى الطلعة فى السابعة عشرة يجيد غناء الميجانا ويخدم القداس أيام الآحاد ، ويحيا بساطة العيش ولا يحلم بأنه قد يسافر ويصبح من أثرياء المهجر .

وعاد سمعان من المهجر وقد تحول تحولا كاملا . اصبح اسمه سيمون . أضحى فى العقد الخامس . تهدلت عضلات وجهه ، وعشش فى عينيه الهم والعناء . بعد الجسد الممشوق والعضلات المفتولة اصبح سمينا اكرش بطىء الحركة ، باهت الشعر ممسوح المعالم .

جاء سيمون ليتزوج بعد الحاح متصل من امه . قالت له فى رسائلها : « يا حبيبى فتيات القرية بانتظارك . اختر لك عروسا تعجبك » . خرجت القرية بعجائزها وشبابها وأطفالها لتستقبل العائد بعد طول غياب . الفرحة ردت الى أمه رونق شبابها ، وحين أطلت السيارة الفخمة ، فقدت المرأة اتزانها . راحت ترقص وتزغرد وتبكى وتضحك ونسيت العكاز ، ولما احتواها الابن العائد ، مات النور فى عينيها ، وعلت وجهها الخيبة والذل . لم تجد فى سيمون ابنها « سمعان » الذى جعلت من قلبها مسكنا له ومقرا .

وبحثوا للكهل عن زوجة ، وسرعان ما استقر الرأى على ليلى بنت ابو فرهود . قالت سعدى ، ذات البنتين القبيحتين : « ليلى محظوظة . جاءها السعد على طبق من ذهب » واحتجت الشابة نجلا : « ما فائدة المال فى هذا الظرف ؟ قالت انجلينا : يا بنتى عجوز يدلل ولا شاب يهين » . وقال شباب القرية « الدولارات يا اخوان . وحدها تحلو بها الأيام . اصحابها يتزوجون احلى بنات الضيعة » واضاف واحد : « والله الحق مع راجى ما فى غير الهجرة » .

اما ليلى ، فما سألها أحد عن رأيها . اعتبر الجميع ان الصفقة واضحة المزايا ولا يمكن ان ترد . سألت ليلى صديقتها منى ، التى تروى لنا الأحداث : « ما رأيك يامنى فى العريس ؟ تظنين أنى اكون سعيدة معه ؟ انغرزت كلمات ليلى فى قلب منى . كانت تعرف ان البنت اقبلت على تضحية كبرى لتنقذ عائلتها من الفقر . ردت على السؤال : « اذا شئت ذلك » . هربت ليلى ، وهى دامعة العين ، وسألت منى فى غيابها : لماذا فعلت ذلك يا ليلى ؟ ولمن ؟ وتذكرت حكاية التنين الجائع وابنة الملك ، الصبية الحلوة ، وقعت عليها القرعة لتنتظر مرور التنين

الذى يلتهم أجمل فتيات المدينة كل سنة .

وظلت الصبية تنتظر فى استسلام هادىء منكسر . والتنين يزحف حولها . انتظرت منى ان يظهر الفارس الذى تعلق صورته فى صدر الكنيسة فيغرس حربته الحادة فى حلق التنين وينقذ ليلى منه ، ولكنه لم يظهر وترك ليلى لمصيرها المؤلم . كل ما عنى الأهل والأقارب بعد انقضاء الليلة الأولى ان يعلنوا بالقميص الملوث بالدم ان ابنتهم كانت عذراء .

كأنما لا يكفى القرية ما هى فيه من فقر يقيم الحواجز بينها وبين العيش الهنى ، فتروح تقيم حواجز اخرى اشد قساوة وافتك أثرا . تفرق بين الناس على أساس مركزهم ومالهم وانتمائهم الأسرى واصولهم . أحب فواز الشابة الجميلة مريم . وتناقلت الألسنة فى القرية هتافا واحداً : فواز ومريم . مريم وفواز . ربطوا الاسمين واندلعت النيران . قالت « حنه » ان مريم ليست أحسن من فواز . وقال شيخ الحى الياس : الحق على ابو مريم . لو كنت مكانه لزوجتها واسترحت » . وذهب الشيخ الياس يتوسط لدى ابى مريم كى يقبل بزواجها من فواز . ثار الأب ثورة عارمة وقال : من يكون هذا الكلب حتى اعطيه ابنتى ؟ قال ابو الياس : ولكنه يحبها . فاستنكر الأب : « حب » ؟ كلب مثل هذا يعرف الحب ؟ طول عمره عايش بالأزقة . اولى به ان يبحث عن عمل ويترك بنات الناس .

عاش فواز مشردا ، محروما من عطف المرأة . ماتت امه بعد وضعه بساعات . وكان ابوه يعمل حارسا للكروم فى القرية . كان يحس بالوحدة المريرة القاسية . وفى يوم التقى بمريم وجلس يروى لها حكايات أحلامه ، ويفصح عن الانسان الكامن فى صدره . واحبت البنت الفتى . وفى عرس سعد ، ابن عم منى جاء فواز وجلس فى حلقة الشباب شريدا طريدا . كان يريد ان يفرض نفسه والجماعة ترفضه . وعيون الصبايا تتغامز عليه . ويسألنه : اين مريم ؟ عقبال فرحك يا فواز » . « شد الهمة يافواز » . وانتهى الفرح وآوى الناس الى بيوتهم وفجأة دوت فى الجو طلقات الرصاص . وسمع صراخ امرأة ثم همد كل شيء . مريم ماتت . قتلها فواز . ظل يدور حول بيتها وهو ينادى يائسا : مريم ، فلما اطلت انقض عليها « بقبلة » نارية من مسدسه .

وأحب كمال نجلا ، وأحبته هى الأخرى . على الفور قالت « حنه » : قال نجلا تحب كمال . ياعيب الشوم . كان كمال يزحف زحفا صوب بيت نجلا . وكان يتمنى لو يزحف على ركبتيه امام والدها ، ليفوز بها . ولكن حاجزا صلدا كان يقف بينهما بلا رحمة . نجلا وكمال من مذهبين مختلفين . ولو تقدم اليها كمال فان القتل المؤكد ينتظره على ايدى الأشقاء وابناء العم .

كان الحاجز بين الحبيبين غبيا ، مجانبا للمنطق . كان افكارا متحجرة ، بقايا اجيال ماضية ، آثار حوافى خيول غريبة داست أرض القرية ، سموم رياح هبت عبر السنين وعششت فى رئات

السكان . وكان حب نجلا لكمال حملا ثقيلا على صدرها هى التى لا تقوى على تحطيم حصاة . فكرت فى أن تتحدث الى أخيها هانى . ثم عدلت . تذكرت انها روت له قصة حب قرأتها فى كتاب . اذ ذاك تحول اخوها الحانى ، المحب الى انسان آخر ، فى نظراته قسوة أجيال بعيدة ، وعلى شفتيه رعشات الرجولة المهانة .

لم تكن نجلا ، الفتاة المترفة ، أول فتاة تضفر شعرها بالشريط الأحمر العريض ، وأول من استدعت الماشطة الى القرية ، وأول بنت تتكوم فوق طاولتها قوارير التجميل لم تكن تستطيع الصمود أمام التقاليد المتحجرة . ما قدرت الا على الاحتجاج الخافت لأن القدر قد رتب لها هذا الحب العسير المنال ليوقعها فى واحدة من شباكه الغثة .

كان بالقرية شاب اسمه سليم نما فى حضن امه طفلا ، وشب فأراد الاستقلال عنها فما قدر . فظل يتفيأ ظلها راضيا ، وينظر إلى الكون بمناظرها . هذا الشاب الفاقد الهمة أوحت إليه أمه المتحكمة أن يتقدم لخطبة نجلا . ثارت نجلا ثورة لم تستطع ان تكتمها وقالت لأمها : « ولكنى أنا لا أحبه ياأمى » . فثار البركان الخامد ، وتحركت رواسب الأجيال ، وادركت الأم التى تحولت لبؤة ثائرة صدق ماكانت تسمعى من سعدى : « نجلا تحب كمال » . مزقت الأم ثوبها ونبشت شعرها ، وتملك نجلا رعب قاتل ، لم يكن مفر من الاستسلام . وسمعت نجلا شفتيها ترددان : « كما تشاءون يا امى . ماتعودت ان اخرج عن ارادتكم » .

لا يبقى من فتيات القرية الا منى ، التى تروى الأحداث . نظرت منى الى آلام مرسال واحزانها ، وحبها المضيع فقالت لنفسها : « كنت اخاف من تجسيد الحب فى انسان . وهكذا بقى الحب فارسا ملثما يطرق عالمى فى اللحظات المقفرة . فى ساعات الوحدة والفراغ ، يتمشى فى الدروب الضيقة ، يتلوى مع الحروف السود فى كتبى ، ويملأ صدرى نشوة لا توصف ، فتنتعش خطواتى ، وتسير لتحقق رحلتها فى سبيل الحياة الوعرة » .

حين جاءها العريس ــ جلبته حنه وارسلته مع ابو الياس ــ قال هذا الأخير : « امريكانى . وغنى . ماذا تريدين اكثر من هذا ؟ » كان العريس كهلا ، متأمركا ، يمضغ كلامه التافة ويرطن ويتخبط بين عربية مهشمة وامريكية ممسوخة ، فاستطاعت منى بكل الجهد أن تبتلع غيظها وتسكن غثيان نفسها ، فلما غادر العريس البيت غابت فى اغماءة . وحين افاقت وجدت امها تتلمس جبينها وفمها ، ولمحت اباها يروح ويجيء فى الغرفة ويضرب كفا بكف . قال الأب وقد جثا على الأرض : « انتهى كل شيء يا حبيبتى . لن يفاتحك احد بهذا الموضوع بعد الآن » .

كيف كان يتسنى ان تفهم حنة حقيقة ما يدور فى قلب منى وروحها ؟ كيف كان بمقدورها ان تحلق الى اجوائها العليا ، الى عالم خلقته بيديها وشيدت جدرانه ، واقامت منه جنة

سعادتها ؟ كيف كانت مستطيعة أن اتفهم ان عينيّ منى شاردتان الى آفاق بعيدة عن حدود القرية ؟ وأن قدميها تتحفزان الى الهرب ، الى حيث لا أحد يخطط لها المصير ؟

ذلك ان منى هى الأخرى لم تفلت من اغراء الهجرة وترك القرية . كل ما بينها وما بين المهاجرين الأخر من فرق ، ان هؤلاء تلمسوا رغد العيش من وراء البحار ، وهى قررت ان تهرب حتى تقرر بنفسها رغدها ، تبنى بأناملها النحيلة حياتها المقبلة . تقتلع الشوك ، وتتعثر بين اكوام الحجارة ، فى الدروب الموحشة ، ثم تنهض .

غير انها كفيت هذا العناء عندما زار القرية احد المصطافين الغرباء واقترح على أبيها ان يسمح لها بأن ترافق اخاها سمير الى المدرسة . قال له : بنتك خلقت لتسكن المدينة تقتل مستقبلها ان حرمتها العلم .

ورحلت منى الى المدينة . قالت لنفسها : هنا ادفن قلقى وحيرتى واودع وحدتى القاسية . هنا اتعلم معنى الحياة وأتسلق سلالم تصل الى الشمس . نجحت منى فى الدراسة ، وتدفقت عليها جوائز التقدير . غير أنه لا الجائزة ولا الكتاب ولا النجاح افلحت فى ان تجعلها تنسى شوقها الى الوجه المجهول الذى خلقته فى خيالها لتقتل برفقته وحدتها . طرحت جائزة التفوق على الأرض وراحت تدوسها بقدمها . ودت لو تنام بين ذراعين تحنوان عليها . تمنت لو ينفتح الباب ويدخل منه فارس احلامها فترتمى بين ذراعيه ، تبدد قلقها ومخاوفها . وواجهها السؤال : ماذا بعد ؟ قررت ان تعمل ، وظلت سنوات عديدة تكتب على الآلة وقد تقلص تفكيرها وانصب كله فى اناملها . وفجأة قررت ان تعود الى القرية ، وتضع حدا لهذه الغربة الدائمة التى تأكل احشاءها . وتعود منى بالفعل ، فتنكرها القرية ، ناسها ومبانيها وطرقاتها ، وتنكر هى ما رأته فى القرية ووجدته يتنافر اشد التنافر مع ما كان صوره لها الخيال فى سنوات الغربة .

اذ ذاك يصبح لا مفر لها من العودة الى المدينة ، حائرة دائما ، قلقة دائما . لا المدينة قبلتها ، ولا القرية رحبت بها .

قالت لها صديقتها المفجوعة فى الحب ، مرسال : انت مثالية يامنى . انت تعيشين فى الخيال . كانت مرسال تتهيأ للسفر الى امريكا كى تلتحق برجل طلب ان يتزوجها . قالت لمنى : اما أنا فسوف اتمرغ فى تراب الواقع . لم يكن هذا الحل ليرضى منى أبدا ، فهى فى قرارة نفسها كانت تتطلع الى الحب الذى خافت دائما ان تجسده فى انسان . لهذا لم تجد ، فى نهاية المطاف ، ذلك الفارس الذى طمحت فى ان يدفع بابها ويتقدم اليها فتلقى بنفسها فى أحضانه .

كانت تهرب من كل شيء . من الحب ومن فقدان الحب . هى التى قالت : كلنا نعيش فى هرب دائم . واذا حاول الانسان ان يعد سبل هربه وقف مشلول الحركة حائر التفكير . الانسان

خلق كل شيء استجابة لدافع الهرب . الهرب من الفكرة التى تطارده عبر العصور . تطالعه فى التراب . فى نعيق البوم . فى أنفاس المقابر . الحياة كلها بأفراحها واحزانها وبنيها وبناتها محاولة للهرب من ذلك الذى لا مهرب منه : الموت .

فى الرواية تمد الهجرة ظلها الداكن وتتساوى الهجرة مع الموت . كل من هاجر من القرية ارتد شخصا آخر حكم حاضره على ماضيه بالاعدام . راجى . سمعان . العريس المتهالك الذى تقدم لمنى . بعض من بقى فى القرية عانى أشد العناء من الهجرة . أبو راجى الذى أخذت الحياة تتسرب من بدنه بعد ان تركه ابنه الوحيد . وبعض آخر عضته القرية بنابها : مريم وفواز ، وكمال ونجلا . وأخيرا منى التى لا طالت قرية ولا مدينة .

لا عجب ان تكون اشهر المواقع فى القرية « ساحة الهجرة » ، وان تحتضن القرية احياءها فى قبضة خانقة ، وتجعل قبورهم قريبة من ساحات الحياة . الكل مهاجر بالفعل والامكان . هاجر راجى لأن القرية ارض منسية فى دنيا الوجود . هاجر لأنه لا يقوى على ان يكون مثل ابيه ، يسير على دربه . قال مدافعا عن نفسه : بالأمس مات ابو منصور . فى الثمانين من عمره . كان يحمل معوله كل يوم ويغدو الى الحقل . وبينما كان يرفع المعول ليرفع بعض الصخور ، وقع المعول من يده وانهار جسده ومات . كان ابو منصور وحده ، فلم يعرف احد بوفاته حتى صباح اليوم التالى . اكتشفه رجل كان يمر مصادفة . لهذا قرر راجى ان لا يعيش كما عاش ابوه . وأن لا يموت كما مات ابو منصور . هاجر الى امريكا فاحتضنته شقراء وهب لها كل نفسه . طوقته بعطفها ، وغذت طموحه وفتحت له متجرا كبيرا ، ودخل راجى ضمن الاطار المرسوم وذاق طعم النجاح ، وظل يسير الى الأمام جزعا ، خائفا ان تعيده الأيام الى القرية . كان راجى — هو الآخر — يهرب وكان قد أصبح شكلا آخر . استدار بطنه وتقلص شعره ، وتهدل خداه وبهتت نظرته . حتى صوته تغير هو الآخر .

كذلك تغيرت مرسال . كتبت لصديقتها منى تقول : « أنا الآن ناضجة . أنا واقعية . واذا ما عدت فى الغد الى أحضان قريتنا ، الى حضن أمى ، فسأكون كالسياح الذين يشوقهم ان يروا الشرق ويتعرفوا الى سحره وغموضه » .

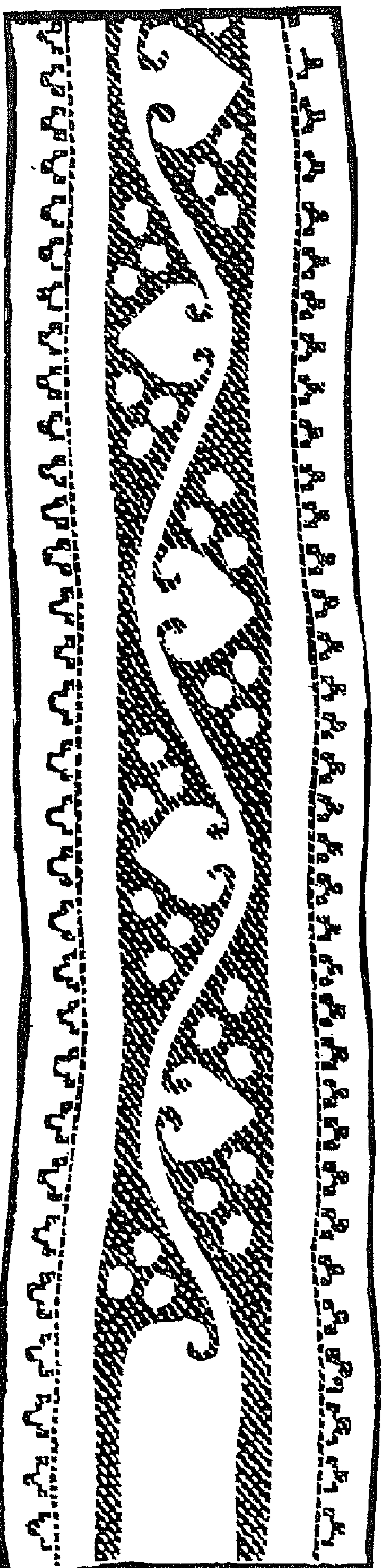
هكذا تفعل الهجرة بالناس . الهجرة الى الخارج والهجرة الى الداخل . رحلة هرب طويلة لا تنقطع ولا تؤدى الى السعادة المنشودة . وتبقى الحيرة ، وعدم الرضا الى أن يأتى الموت .

تقدم الرواية صورة انسانية حميمة لحياة القرية الضيقة ، وقصور شخصياتها التى تقبع ، قانعة ، أو خانعة ، أو ضجرة ، أو متململة فى شبكة حياة محدودة منسوجة فى احكام وهشاشة بيت العنكبوت . لا ينجو من العنكبوت أحد . حتى الذين يخرجون من خيوطه الواهنة بالجهد

الجهيد ، تلحقهم غبرة ، وتلفهم الحيرة ، ويعلو عليهم الزمان ، فاذا الشباب يضيع ، والوسامة تحول ، والمال الذى يتخلص الى المهاجر يسرق منه روحه ، ويلقى به فى القالب الجاهز الذى يضغط الناس الى اشباه باردة ، فاقدة الحس ، غافضة الحياة .

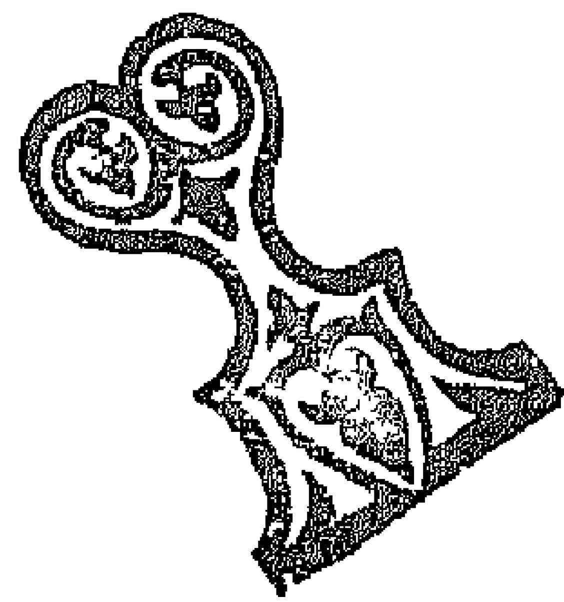
فى هذه القرية لا مفر من اشياء بعينها : اما ان تماشى ، أو تهرب ، أو تقتل ، أو تنتحر ، أو تضيع . والصورة الحميمة الدافئة التى تقدمها املى نصر الله للقرية ، تحمل فى ثناياها احتجاجاً قويا على ضيق الأفق ، وقهر الانسان للانسان ، واستبداد الأعراف بأرواح الناس ، وذل الفقر ، وصلافة الحواجز المصطنعة بين البشر .

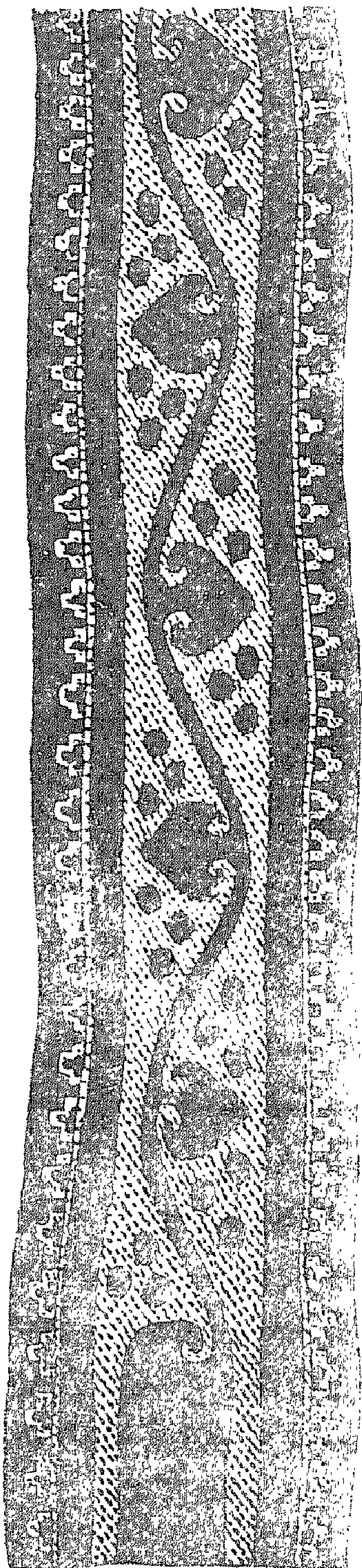
ان « طيور أيلول » صرخة قوية ضد العنت .. قوية ليس لأنها عالية ، أو صاخبة ، بل لأنها مقنعة ، ومخدومة خدمة فنية طيبة .



٢

العراق ودول الخليج

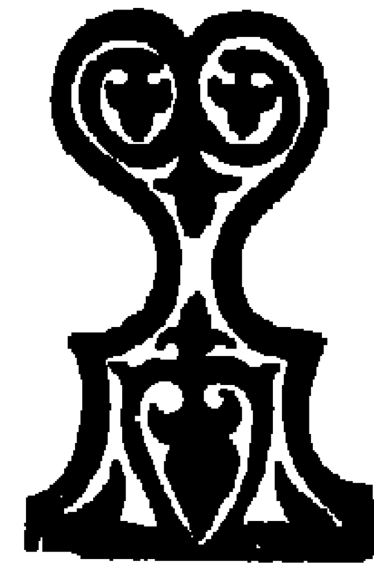




الرواية في العراق

الرجع البعيد

فؤاد التكرلي



قالت منيرة وهى تصرخ فى حقد فى وجه عبد الكريم : « اعرف الآن حقيقتكم : جبناء . لا تعرفون من يحتاج مساعدة ومن المُخْلص ، ومن السيء الحظ الذى وقعت به الدنيا . جبناء واغبياء . لا تريدون ان تفهموا ولا تريدون ان تعرفوا من المجرم ومن البرىء . انت ، الآن ، تأتى لتقول لى انك عاجز ! لماذا ؟ اتظن اننى لا أعرف ، لا أعرف أنا ؟ . انت لست عاجزا . انت مثلى ومثل كل الناس هنا : انسان مشوه ، مريض » .

كان الحقد يفور من وجهها ، من فوهتى عينيها ، وهى تطلق كلماتها كالمجنون الهادىء الأعصاب . عادت تشرح حالها : « كنت اعرف هذا . اعرفه جيدا . وأردت أن اعيش منعزلة ، على الهامش . لم تتركونى أفعل . ما خلاّنى هو . هو كان مريضاً اكثر منى . كان عاجزاً ومشوها ، اكثر منى ومنك ، وجبان »

كانت منيرة تشير الى مدحت ، اخى عبد الكريم . الاثنان وقعا فى غرامها ، وسعيا للفوز بها . مدحت باصراره ونقاشه وجدله معها ، وعبد الكريم باظهار عجزه وتردده ، واعتماده الكلى عليها ، وتأكيده انها كل شيء فى حياته .

غير ان الذى فاز بها كان مدحت . فاز بها وتزوجها ، ثم لما دخل بها وجدها غير عذراء . ارتج عليه ، واضطرب ايما اضطراب ، وبدلا من أن يواجه الموقف ويتعرف الى الظروف والأسباب ، هرب من الوضع المؤلم ، وهام على وجهه ، وترك لمنيرة ان تواجه الموقف الشاذ وحدها . من أجل هذا سمته منيرة جبانا ، وألحقته بأخيه ، وبباقى الأسرة ، الذين ورثوا اعرافا وتقاليد منذ العصور السحيقة ، لا يفحصونها أبدا ، دائما يعملون بها ويطبقونها تطبيقا آليا : اخطأت فتاة عذراء ، وفقدت عذريتها ، فحلت عليها اللعنة . ووجب منها الانتقام .

لم تخطىء منيرة أبدا بمحض ارادتها ــ لم تَزِل ، وانما اعتدى عليها ابن خالتها اعتداء فظا ، اغتصبها اغتصابا وحشيا ، وقضى منها وطره ثم تركها هو الآخر تواجه مصيرها . كان من حظ الفتاة المنكوبة ان الاغتصاب لم يؤد الى حمل ، فأصبح فى وسعها ان تلعق جراحها ، وتحيط نفسها بالعزلة والكتمان ، وتلغى السعادة من حياتها ، فانها فى الوسط الذى هى فيه ، وفى البلد الذى انبتها مدموغة بالخطيئة . مهما كانت براءتها . الذكر ينهب ويسلب والأنثى تدفع الثمن الفادح . لا أحد يسائل الذكر مساءلة جدية ، وانما الويل كله للأنثى ، التى لم تحفظ للمجتمع شارة العفاف التى تُؤَمِّنُ مصالح الأسرة الاجتماعية والمالية والتجارية !

حين كان مدحت يتواصل معها ليلة قبل الزواج ، أرادت أن تقول له شيئا ، فلم يسعها الكلام . كانت النشوة تستبد به وتخرجه خارج حدود العالم والزمان . كان يشدها بذراعيه ، يطوقها ويضمها اليه ، وهو خائف متردد ، حذر من سعادته الفائضة . حينما حاول أن يتمادى سحبت نفسها وجلست على طرف السرير خلفها وصاحت : لا . لا . لا . وحين تزوجا ، بدا ان لها سرا لا تريد أن تبوح به . كانت تقول له بجسمها ذى السمرة الخمرية شيئا لم يكن يفهمه . وحين دخل بها وتفتحت له ، أحس كمن يسقط فى هاوية لا قرار لها . بعثت فيه رائحة جسدها وعرقها وعطرها ولمساتها الناعمة وشفتاها نشوة كبرى وافصحت عن حب للقياه . أحسن ان به جنونا واضطرابا لم يعهده من قبل . كان ينبوع حرارة مستديمة يمسك بخناقه ، فسكبت عليه « الحقيقة » ماء مثلجاً . وفى ثوان انقلبت حياته . احس أن أنثاه الحبيبة تتحول الى سراب . ومضى يواصلها مرة ثانية وثالثة ، ثم فقد توازنه و « وفاضت » روحه مع ماء الحياة الذى كان ينبثق منه .

وحين انتهى كل شىء ، خرج من الغرفة يتمشى فى ناحية من الدار دامسة الظلام . كان يرتجف واحشاؤه وصدره يفوران . لم يرد ان يرى بشرا . كان مشمئزا . مهانا ، يريد أن يخلد الى صمت أبدى . عاد بهدوء الى الغرفة يرتدى ملابسه فى حذر كاللصوص . كانت غافية ، لكنها استيقظت وهو يهم بالخروج . جلست متكئة على السرير ، منورة الوجه رغم الارهاق ، وفى عينيها تساؤل مؤلم .

ترك مدحت منيرة ، متخليا عنها ، ولكنه لم يكن يترك الا مظهرها فقط ، الا شكلها الخارجى . لقد سكنت روحه واقامت هناك لا تبارح . فى احلامه كان يراها . رآها مرة تقف قرب جدار من طين . اخذت انفاسه تتسارع . جَرّها . أمسك بها وهو ينظر فى وجهها . ولم يظهر عليه ما كان ينوى ان يقوم به . وطافا زمنا . لا يعلم أين ولا كيف حتى وصلا إلى جدار الطين فشهر عليها عند ذاك خنجره . لم يعد يرى وجهها بعد ذلك ، حتى الحاجبين الدقيقين

اللذين مزقهما ، لم يرهما فوق عينيها . كانت عيناها أحب اليه من كل شيء في الدنيا ، حتى في ثنايا عقله اللا واعي المختل . وكم ابتسمت حين كان يقبلها في عينها — في طرف عينها اليسرى الكحيلة . وراح بعدئذ يمزق الصدر والبطن ، تحت جدار الطين القذر ذاك . ولم يصفق له أحد . ولو لم تلمس هي ذراعه بكل ذاك الحنان لمضى كل شيء بسلام . لما كان صرخ ولا كان بكى .

كانت شكواه منها انه حين احتواها بين ذراعيه قبل الزواج لم تقل له . لم تقل له ! كأنما كانت تسخر منه . كأنما لم ترد أن توقظه من حلمه الزاهي تركته ينهار ، مع المرارة والروع والانخذال . أرادته ان يمرغ نفسه بالتراب . لم تشفع له الذكريات ولا الشوق الطويل . تركته أمام الموقف المزرى : عذراء فقدت الشرف ويجب ان تعاقب . ومع ذلك فما اشد ما كانت منيرة شمافة ناعمة وبهيجة . كانت أبعد المخلوقات طرا عن القبح والقذارة . غير أنها افتضت ودنست وكانت تعلم ذلك . ولكن : هبها قالت له ، أكان يتبدل من الأمر شيء ؟ التقاليد والأعراف تدينها غير أنه هو يحبها . حين منحته نفسها سلمته أيضا عارها . خلطت عيبها وحبه ، ونامت في أحضانه مستسلمة الى حكمه . اى حكم . كانت تعطيه نفسها برضا ، بحب الأنثى . لم تكن متزلفة ولا مخادعة . وعادت اليه لحظة رأى بطنها الخمرى تحته تتردد فيه انفاسها السريعة ويتصاعد اللحم اللين ، كأنه كان يسعى اليه ثم ينخفض . خطر له آنذاك انها بكل كيانها كانت تريد منه أن يمتلكها .

وهو طريد أوهامه وأفكاره وعذابه ، بدا المعنى العميق لاستسلام منيرة له يتكشف : انها تحبه . واذا كانت منحته عيبها ومأساتها فهى لم تختر هي بالذات أن تكون معيبة . هى ، منيرة ، الرائقة كالسماء لم تُرد عيبها . لقد حدث لها . وهى ، تلك الصافية كنجمة الصباح ، اختارته هو نفسه ، هو بالذات من أجل أن تكون له . وهذا وحده هو جوهر المسألة وكل ما عداه اقنعة زائفة لا علاقة لها بروحها . اقنعة أمكنه الآن ان يمزقها . ان منيرة هي البقاء ، هي الحبيبة . هي جوهر الحياة .

حينما خلص الى هذا الرأى صرخ بفرخ طاغ ، هاتفا بما لايدرى . باسمها ربما . يناديها ، يحبه لها . ربما . وتفجرت دموعه وهو يلقى بجسده المتعب على الفراش . سيعود الى أهله . سيعود اليها . ماذا تقول حين تراه ؟ هل يستطيعان الكلام ؟ يلمسها ويتحسس نعومتها من جديد ؟ يلمس امرأته فيها ويتملى من رؤيتها ، ويعتذر لها ؟ يهمس لها باعتذاراته كلها ، ويصف لها كيف أنها اعطت حياته شكلا جديدا ووجهة أخرى ؟ لا لن يعتذر . سيقول لها فقط انه عاد اليها ، من أجلها ، هي زوجته لأنه انتصر على كل أفكار الفناء فيه . لأنه أدرك أنه لا هي ولا هو قد

ارتكبا جرما . وانما استسلما للأحداث التى لفتهما بمنطقها المعوج . صارا ضحيتين للآخرين . هؤلاء الآخرون هم الخونة ، وهم المجرمون .

غير ان مدحت يموت برصاصة طائشة فى خضم الثورة المسلحة التى اطاحت بعبد الكريم قاسم . يموت قبل ان يظهر حبيبته على مكنون صدره . وتجلس منيرة تندب حظها وتحمل على حبيبها الذى مات قبل ان يتفاهم . « يموت وما يتفاهم ؟ ما يتنازل يسمع كلمة ، كلمة واحدة ؟ وانا كنت اظن ... قلت يمكن يختلف عن الآخرين . يمكن يعرف حالى . يحن على . ربما يجعله الله يعرف ويشفق . أكاد اجن . يقول لى انى حبيبته ويموت بلا كلمة ؟ بلا اشارة ؟ لم هذه القسوة ياربى ؟ لم ؟

يلحق بمنيرة أيضا عبد الكريم ، اخو زوجها مدحت . يحبها حبا طاغيا ، من جانب واحد . يرى فيها ــ لسبب غير مبرر ــ شبها بصديقه الاثير فؤاد . يحيط الغموض حياة عبد الكريم . نعلم انه يخرج من بيته كل ليلة الى جهات غير معلومة . ويعود متأخرا . لا أحد يجرؤ على ان يسأله أين يذهب وماذا يفعل ، لأنه عليل ، لا يليق به الا العطف . تشير الرواية الى موقف له مع ضابط شرطة يقف كالطاووس أمامه وعيناه ملتهبتان ويتخذ شكل أحد ضباط الجستابو تارة ، وهيئة عضو فى محاكم التفتيش تارة أخرى . يوجه اليه تهم القتل والاهمال والخيانة . ويذكره بأن واجبه كمواطن شريف يقضى بأن يقبض عليه بسبب هذه التهم جميعا . كان الضابط يعلق صورة مدوره صغيرة على صدره ، الح فى الاشارة اليها . كانت الصورة تقترب من عينيه فى لقطة سينمائية مكبرة ، فأخذ عبد الكريم يصرخ . كانت الصورة تخطيطا مشوشا مثل آثار النمل على التراب ولكنها تبرز بشكل عميق واضح وجه فؤاد فى لحظاته الأخيرة .

كان فؤاد على علاقة بابنة الجيران . كان فى السابعة عشرة وهى لم تجاوز الخامسة عشرة . حب أطفال . لم يكلمها مرة وبقى سنوات أربعا يتعقب آثار اسرتها . كانت كل شيء بالنسبة له . رمز العالم والحياة التى يحلم بها . ولم تكن هى تدرى بوجوده . أراد أن يكتب لها وأراد أن يتزوجها . ثم أراد أن ينساها . قال لعبد الكريم ذات مرة انه أضاع أثرها اكثر من سنة . وقال فجأة انه رآها صدفة فى أحد البيوت المشبوهة . ثم واصلها من بعد فى احد هذه البيوت .

وهما يسيران وحيدين تلك الليلة ، بعد خروجهما من البيت ، سقط فؤاد تحت عجلات سيارة مسرعة . كانت آلامه شديدة وآلام عبد الكريم اشد . سحبوا منه صديقه الأثير وهو فى وسط أزمته الخاصة . انبأ عبد الكريم الأسرة بالنبأ فى نبرات متقطعة . خيل الى أخيه مدحت ان ما جرى لم يكن حادثا عارضا . وأن علاقة أخيه بالعالم قد ارتطمت بصخرة صلدة . قال عبد الكريم لأخيه : يمكن اكون مبالغا بعض الشيء . لكن لا اعتقد اننى اقدر على تحمل موت

شخص مثل فؤاد مرة أخرى . لا . لا . مااقدر . احس طول الوقت ان بداخلى شيئا يسحبنى . يجرنى حتى أرجع الى فؤاد ولو لخمس دقائق ، ولو لأكلمه كلمة واحدة فقط . لا اقدر ان اتغلب على هذه الرغبة بنفسى . لابد اننى قد ارتكبت خطيئة بحقه جريمة لابد .

لم يكن يتساءل ، بل يقرر . وبدا لمدحت أن اخاه ينطوى فى اعماقه على سر ما يريد ان يستره عن نفسه . لم يجد مدحت ما يقوله ، وأزعجه إحساس مبهم بأن هناك تزييفا فى ناحية مهمة فى الموضوع كله . اما عبد الكريم فقد ظل قلبه دائما يموج بعواطف غريبة . ظل يعاود عيش تجربة مؤلمة سابقة . حياة فاجعة مضت . لم يفقد فؤاد ولم يغب عن عالمه . كذلك لم يخنه . لم يخنه لحظة . مطلقا . انه يحيا ، بشكل ما ، فى هذه المخلوقة ذات الأبعاد المبهمة التى ألفها : منيرة . فؤاد يجذبه دائما من ليله . يحس به يجذبه . يجذبه .

وسط هذا الغموض كله تبرز عدة تبريرات . أيكون فؤاد راح ضحية تصفية جسدية ؟ ايكون عبد الكريم قد تورط بالابلاغ عنه أو خضع للتهديد حتى فعل ؟ اتكون ثمة غيرة وراء هذه الصداقة الحميمة كان لها نصيب فى تحديد مصير فؤاد ؟ يقول عبد الكريم : تلك الليلة ، حين كنا سويا ، انا وفؤاد ، كنت فى أوج غرورى . واثقا ، ليس من قوتى بل من ضعفه ، سعيد بهذه الثقة . لم يكن يستطيع الاقتراب منها [فتاته] او امتلاكها . وكان ذلك بسبب علمه ان هذا العمل سيودى به أخيرا ... وكنت اراقبه باصرار وأحصى علامات ضعفه وتردده ، ذلك العزيز ! وكنت شبه سعيد لأنى كنت أظن أن بمقدورى أن افعل ما يخشاه هو . كان يعلم ان حياته لن تبقى كما هى بعد أن يمتلكها عن هذا الطريق . وكنت منتشيا لأن رفيق روحى يتعذب . يااللانسان ! يااللانسان ! » .

ثم ما معنى تهديد الضابط لعبد الكريم بالقبض عليه بتهم القتل والاهمال والخيانة ؟ ولماذا يعلق الضابط على صدره تلك الصورة المهوشه التى توحى — بعمق — بوجه فؤاد حين داسته السيارة ؟ اى التهم ينطبق على عبد الكريم : القتل ؟ الخيانة ؟ الاهمال ؟ لا نعلم شيئا على وجه اليقين وانما تشاء الرواية ان تلقى هذه الاشارات ولا تتعقبها بالتوضيح أو التطوير أو أى لون من ألوان التفسير .

يرى عبد الكريم منيرة ، ابنة خاله التى يعرفها . دفقة النور فى حياته الضائعة . حزنه وماضيه المفجع ، وحبه ولهفته وتعاسته ومرضه . تمر ، ثم تخرج فيشعر بتعب لاختفائها . وتعاوده ذكرى فؤاد . اى علاقة بين منيرة وبين فؤاد يجدها عبد الكريم حتى يرتبطا فى ذهنه الواحد بالآخر ؟ لا ندرى .

حين يموت مدحت يظن عبد الكريم ان فرصته قد لاحت . يتوسل اليها أن تقبل حبه . يقول

لها انها اعز شخص فى حياته . يرجوها الا تدعه يفقد الأمل . ترد عليه منيرة بصرامة : « لابد ان تعرف ان لا علاقة لك بى . لا الآن ولا فى المستقبل . لم يعد عندى بعد طاقة للحياة على هذا النحو . خل عواطفك لنفسك . لا علاقة لك بى . اتفهم ؟ يلح عبد الكريم فى السؤال : « لا تتركينى وحدى . لا تتركينى يا منيرة » . ترد وهى فى ذروة السخرية والغضب : « اين اذهب اذن من فضلك ، اذا أردت الذهاب ؟ اغادر البيت ؟ الا تدرى انى صرت مملوكة للعائلة ، مسجلة باسمكم ؟

اذا كان الغموض وفقدان الهدف ، والزعم بأن الحياة لم يعد فيها مايعاش من أجله ، خاصة بعد رحيل فؤاد ، ثم الانتقال من هذا الى التمسك الشديد بالحياة والالحاح على منيرة على أن تقبل به صاحبا وزوجا ، اذا كان هذا التناقض هو ما يميز عبد الكريم ، فان تناقضا أكبر وفوضى عارمة تميز فكر وسلوك مدحت . يقول مدحت لنفسه : « ما أهمية الأقوال ؟ العمل . العمل . ننهب ونسرق عن اعتقاد . هذا زمن اللصوص الشرفاء . وينظر الى ابيه وأمه فيقول : هذان هما من يجب أن يقطع كل وشيجة عاطفية معهما . التفرد . الانفراد . ذلك هو أغلب الحقيقة . انه ليس الغربة ولا الانفصام . انه أن تكون مركز الدنيا . قبل الجميع وبعدهم . ليس هذا مرضا ، انها الأنانية الصحية . العالم لى بكل ثمن ، والانفراد يعنى دخوله بحذر ، وامتصاصه . استهلاك دون توقف . هكذا هم الناس الأقوياء بالمعنى الجديد . ليسوا حمقى ولا خبثاء ولا يتملكهم الفضول الزائد أو يخجلون . هم يكذبون بصراحة ولا تقيدهم الأخلاق أو يرتبطون بأواصر عائلية أو عاطفية عميقة . كل شىء لى بغير حياء .

ويسمع زوج اخته حسين هذا الكلام فيعجب . يرد حسين : افكارك هذه فردية كثيرا . يعنى بها تمرد وثورة ولكنها كلها فردية ولا مكان لها بالمستقبل . ليس لها مستقبل . هذا التخطيط الذى تتقدم به لا يدعو الى التغيير للأحسن .

يقول مدحت : « شف يا حسين . أنا لا أريد هذا المجتمع الوسخ . لا أريد أن انتمى له . أنا ملتصق به بالصدفة . ولست أول ولا آخر واحد » . ثم نظر الى زوج اخته وخطر له أنه قد يكون انتهى الى نتائجه نفسها حين ترك البيت والوظيفة . واتجه نحو هاويته . لعل فى اعماق ذهنه فكرة غائمة مثل هذه تدفعه نحو ما يشبه الانتحار . لعله حكم على العالم قبله وادانه ، وهو يسعى الى أن يجعل من حياته نغمة مؤسية تنعى الانسان . أليس هو ، اذن ، توأمه المجنون الذى انحدر من هذه الأفكار ذاتها ، ثم اعوزته الارادة والتصميم والنظر الثاقب فتخلى عن كل شىء وترك نفسه تُحْمل مع التيار ، جثة منتفخة طافية على سطح الماء ؟

 من عجب أن حسين الذى ترك البيت والوظيفة ، واتجه الى حياة التشرد والصعلكة كان يعرف

طريقه بأوضح وأحسن مما كان يفعل مدحت . تزوج حسين من مديحة أخت مدحت ، وبقى معها بعض الوقت ثم ثقلت عليه حياة الزواج والوظيفة فهجر الاثنين لأنه أدرك انه لا يصح لأيهما . انانية صحية على نحو ما يقول مدحت . ولكنه طريق اقتنع به حسين وظل يسير فيه حتى النهاية ، ولم يمنعه هذا ان يظل يذكر الزوجة والبنتين ويشعر بالأسى لأنه لم يكن أفضل مما كان . غير أنه مع هذا لايندم ندما أحمق كان قمينا ان يجر عليه وعلى أهله مأساة أكبر . ان حسين الصعلوك . السكير ، المتشرد ، الذى لا يملك قوت يومه ولا يقدر على أن يعيش فى المسكن اللائق هو اكثر اخلاصا لنفسه ولرأيه من مدحت . تشدق مدحت بالكلام الرنان ، وتحدث عن الانسلاخ من العواطف ، والانفراد والتفرد ، ثم نسى هذا كله فجأة حين رأى منيرة ، وأصبح كل مناه أن يضمها الى صدره وقلبه . ان يتملكها وتتملكه . أن يقيم معها العلاقة الاجتماعية السوية التى كان يندد بها من قبل . وحين اكتشف ماكتشف تحول الى متشرد وصعلوك ، وترك كل شيء وراءه ، وسمح لنفسه ان تحمل مع التيار ، جنة منتفخة على سطح الماء .

هؤلاء هم رجال الرواية ، لاينقصهم سوى أن نضم اليهم عدنان ، الثور الأحمق ، الذى يعبد ذاته ويهرع وراء لذته ، والذى اغتصب ابنة خالته اغتصابا وحشيا ، ولم يخطر له ان يكفر عن سيئته . وهم فى مجموعهم عصبة من الحمقى ، والادعياء والمتخبلين ، أحسنت منيرة وصفهم حين قالت أنهم مشوهون .

أما النساء فعلى العكس من هذا كله . منيرة التى حلت بها النكبة تماسكت ، وقررت ان تتكيف مع الوضع الجديد ، ولم تتنازل عن الحياة مطلقا ، لا قولا ، ولا عملا . تقول لها امها : « اننا مقطوعتان يابنتى » فترد منيرة بحسم : لماذا مقطوعتان يا أمى ؟ لماذا ؟ ماذا جرى بالدنيا ؟ راتب عندى وعندك معاش التقاعد . لماذا اذن تقولين اننا مقطوعتان ؟ ألا نستطيع ان نعيش سويا ، انا وانت على نحو مانحن فاعلتان ؟ يعنى لازم الزواج أو الموت ؟

وقد مرت بنا ثورتها العارمة على الرجال جميعا ، وعلى مدحت بوجه خاص . كانت تظن ان الحب جدير بأن يجعله يعفو ويرحم ، ولم تقدر ان وراء كلماته الطنانة كانت تكمن انانيته ، وتخلفه الفكرى ، وانشداده الوثيق الى الماضى وأعرافه ، لم يستطع ان يتحرر منها جميعا الا بالجهد الجهيد.

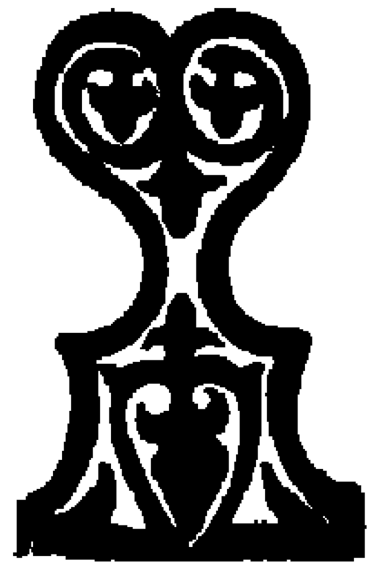
اما مديحة فانها تطوى قلبها الكبير على المأساة التى خلفها لها حسين حين هجر البيت والزوجة والبنين . وحين يمرض حسين وتذهب لتزوره مع بعض افراد الأسرة ، تتأثر كثير لمرآه . تسمعه يتحدث فى السياسة فتقاطعه : اسمع حسين. انت احسن ما تتحدث بالسياسة، قل لى

ماذا تنوى ان تفعل بنفسك ؟ لا نريد منك شيئا . مانريد منك أى قرش . لانحتاج «فلوسك» همت ان تقول القدرة ، تمَسّ قلبها شعور بالأسى والأسف فأكملت : «الله لايترك عبده . الله يخلى ابى واخوتى يعمر بيتهم . بابهم كان مفتوحا لى والبناتى . واحنا ما محتاجون الى أحد».

هذه رواية زاخرة ، تعلى شأن النساء وتعرض قضاياهن عرضا مؤثرا ، وتكشف إدعاء الرجال وضعفهم الكامن وتهربهم من مسئوليات العمل الاجتماعى والسياسى معا .

المركب

غائب طعمة فرمان



مات الشيخ عبد المنعم قبل ان يكتب مذكراته . ذات مرة قال لصديقه الرسام : « انا فى سن كتابة المذكرات . والسؤال المطروح : هل حياتى تستحق الكتابة ؟ انا انسان فاشل وصل الى سن المتناقضات . ألا تعرفها ؟ الشيخوخة . بعد الخمسين تبدأ فيك هذه المرحلة . يتخاصم فيك الشباب والكهولة . العطش والارتواء . الكسل والالتهام . أريد أن التهم كل شيء . ألتهم الدنيا كلها . ولكنْ لا استطيع . العين بصيرة واليد قصيرة . معقول ان أصير عاجزا عن مضاجعة النساء ؟

اخذ الرسام يسخر منه وهو يروى له مظاهر عجزه المادى . قال له : هذه مادة غنية للمذكرات . مغامرات سريرية . استنكر الشيخ عبد المنعم وعاد يقول : هل تظن حياتى خالية مما هو اكثر أهمية ؟ ولدتنى امى فى سنة نحس ، يسمونها سنة الجراد . حين غزانا الجراد كالطاعون الأصفر وأكل الأخضر واليابس . وكأنه كان يشير الى ما سوف يلى من عمرى . وكادت أمى تموت عند الوضع لأن رأسى كان أكبر من المألوف .

لم يكن أبى صاحب شركة جرارات ولا سيارات ، بل كان مصلح خطوط تلفونات . كان اذا انقطع الخط بين الكوت والحى ، ركب فرسه الأسود ، وأعد كيسه ، وسار على طول الخط حتى يعثر على السلك المقطوع فيلحم طرفيه . كنت فى السابعة ، وكانت أمى والأولاد وأنا ننتظر مجيئه فى الليل أو فى اليوم التالى ، ونحن نرتجف خوفا على حياته . كان اللصوص كثيرا مايعترضون حياته ، ويأخذون الفرس التى يركبها وكل ما يملك ، ويتركونه فى العراء حتى يأتى من ينقذه . ومرة قضى الليل كله ملطخا بدمه ، حتى جاءوا به الينا بين الموت والحياة . كل ذلك من أجل رقى العراق . كان ابى فقيرا ، موظفا صغيرا ، ولكن كانت له مكانة فى السراى ، يدخلها متى يشاء . وكان يأخذنى الى السراى احيانا فأرى البنادق والرشاشات والخيول وكل

وسائل الدفاع الحكومية . ومرة شربت الشاى عند القائم مقام . الى هذا الحد ! هل لك مثل هذه الحياة يا ابن المدينة ؟

وعاد الشيخ عبد المنعم يقول : كنت أرى الفلاحين يأتون بموتاهم لا بتوابيت ، بل بحصُر ملفوفة عليهم . وكانوا يحملونها على رؤوسهم ، أو على اكتافهم مثل حزمة الحطب . هز الرسام خليل رأسه وقال : اكتب . اكتب مذكراتك . ليت لى مثل حياتك . قال الشيخ : هذه فقط لقطة أو لقطتان منها .

وتورد الرواية لقطات أخرى هامة من حياة الشيخ عبد المنعم . يقول لصديقه خليل : قضيت أكثر من ثلاثين عاما أخدم الحكومات العراقية المتعاقبة . وطوال هذه السنين اشعر بأنى مغتصب . يصحح له خليل : مستلب ، ياشيخ نعمة . فيقول الشيخ : ما الفرق بين الاغتصاب والاستلاب ؟ يرد خليل : الاستلاب اكثر علمانية . بكارتك لاتزال معك . يرد الشيخ : وهل توجد بكارة فى هذا الزمن المثقوب ؟ الاغتصاب هو عنوان حياتنا المفضوضة البكارة .

ثم يمضى الشيخ فيعدد مظاهر الاغتصاب فى حياته . اغتصبه أبوه من المدرسة حين ترك خدمة الحكومة ، وجعله يعمل عند بائع شاى ، يوزع اكواب الشاى فى سوق الخياطين . كان يحمل اربعة اكواب فى يد واحدة ، ويصعد بها الى الطابق الثانى فى مبنى من الشارع كانت مخازن الأقمشة والخياطين فيه ملكا صرفا لليهود . وبعدها اشتغل عامل بناء ، ينقل قفف الطين أو الجص على رأسه ويصعد بها خشبة بعرض شبر ، ويوازن نفسه بصعوبة حتى لا يقع وقعته الأخيرة . وحين تأسست مصلحة نقل الركاب عمل جابى تذاكر بسبعة دنانير شهريا ، ولكنه كان يجد نقصا دائما فى ايراده وتصبح الدنانير السبعة خمسة أو أربعة . أليس هذا اغتصابا ؟ منذ ذلك اليوم وهو يشعر انه مغتصب وتطارده وقائع الاغتصاب طول يفاعته . وقع فى غرام تلميذة فى الصف الخامس أو السادس ، وكان هو لايزال فى الصف الثانى ؟ الثالث . كانت فتاة ناضجة تسلم عليه هو بالذات من دون خلق الله . وفى البيت تخلع عباءتها وتمشى امامه سافرة تستعرض مفاتن جسدها . نادته ذات مرة فالتفت اليها وإذا هى تستحم فى طشت . ومنذ ذلك الحين ملأت عاطفة عنيفة قلبه . ظل يراها دائما عارية ويعشقها عشقاً صامتا . وبعد عام أو عامين زوجها اهلها برجل لم تره من قبل . رفضته وتمنعت عليه فصاح أبوها بالعريس : اسحب الخنجر عليها . وسمع الصبى عبد المنعم بكاءها وصراخها ثم تلا ذلك صمت تام . اغتصبها الرجل !

صدق الشيخ عبد المنعم حينما قال : « الاغتصاب هو عنوان حياتنا المفضوضة البكارة»

 ولعل غائب طعمة فرمان كان يرمى الى أن يعمم هذه المقولة على شخصيات روايته جميعا ، وعلى

رأسهم : سهام . تخرج سهام فى رحلة مع موظفى الشركة التى تعمل بها . ويقضى الجميع وقتا طيبا بما فيهم سهام ، وتعود الفتاة وهى لاتدرى أن غمامة سوداء قد اطلقت عليها ، ولفت حياتها : خبر تناقله افراد من المشتركين بالرحلة ، وراحوا يذيعونه ، ويتندرون به ، ويقطعون وقتهم الخاوى : سهام قد اغتصبت فى أحد ادغال جزيرة الخنازير ، التى قصدتها مركب الرحلة . جاء شهاب ، الذى شارك بالرحلة يزور صديقه عصام ، وهو يتوفر رغبة فى افشاء السر الخطير . قال سهام اغتصبت . لم يصدق عصام . قال : تلك القلعة الشامخة ؟ رد شهاب لا شوامخ اليوم . كل شيء قابل للتذليل . قال عصام : بل انت تخفى عنى شيئا . انكر شهاب وأقسم بمقدساته . قال : كل ما اعرفه ان عشرات العيون كانت تراقبها اينما خطرت بقامتها الطويلة الصلبة العود . ثم اختفت فجأة بعد الغداء . وبعد ساعة أو أكثر رأوها خارجة من وراء شجيرات كثيفة ، وجهها مُحَمَّرٌ وملابسها مدعوكة ورأسها منكس . وكل ما يشير الى كسر الأنف . بل زعم بعضهم انه رأى شقا داميا فى ساعدها الأيمن . يعنى كانت هناك مقاومة .

لأن سهام قلعة شامخة صلدة يروح بعض المغتصبين يحوم حولها يريد أن يجد لنفسه منفذا فى جدار قلعتها . مثل هؤلاء « رائد » الذى يعشق سماع اخبار السقوط ويبنى عليها نظريات وقناعات مهدئة لنفسه . كان يسمى نفسه ارشيفا حيا متنقلا ، يختزن فى ذاكرته فضائح تزكم الأنوف ، حتى تلك المحصنة من الزكام . وقد وجد فى اخبار الفضيحة المزعومة مناسبة لإمداد خزان ارشيفه العامر بأشياء تنفعه يوما ما .

ورائد يحقد على سهام لأكثر من سبب . سهام من عائلة غنية ، منذ أن وعت نفسها كرهت وسطها العائلى الراكد ونذرت نفسها لكل مايستنكف افراد عائلتها الاهتمام به . اخذت اهتماماتها تأخذ مظهر الاحتجاج على البلادة والعقم الاجتماعيين . كانت لها مواقف شجاعة فى الجامعة وفى عملها كباحثة اجتماعية وفى وظيفتها فى قسم العلاقات بالمؤسسة . لا تسكت على كلمة تشعر بأنها تمسها أو تخدش كرامتها . من أجل هذا كرهها رائد . زعم انها برجوازية تتسلى بالاشفاق على آلام الفقراء . تريد أن تجمع بين سؤدد البرجوازية ودين الطبقة العاملة . تريد أن تبيع التقدمية وتتحدث عن الذين يقاسون الجوع وهى لم تُعَانِ قط من المجاعة . تريد أن تبيع كل هذا لرائد ، الذى عانى وشقى وتسمم بالأغذية الفاسدة . من أجل هذا سعى رائد بكل الوسائل المتدنية الى هدم قلعة سهام الحصينة .

حضرت سهام حفل زفاف صديقتها العزيزة شروق الى زميلها فى المؤسسة عطاء الرجل الصموت الشريف ، الذى حاول رائد ابتزازه كى يكذب ويدعم نبأ الاغتصاب المزعوم . حضرت سهام وكان الظن انها لن تجرؤ على الحضور ، وكيف تجرؤ وهى المغتصبة ، المعيبة ، المتدنية فى

سلم الشرف ؟ غير ان سهام تحضر الفرح وسرعان ما تشتبك مع رائد فى مساجلة مع رائد وعصام . حاول الأول ان ينال منها فذكر الأشجار والأدغال التى تكتنف جزيرة ام الخنازير ، التى قصدتها مركب الرحلة . قال : فى تلك الأشجار والأدغال يباح كل شيء . حدجته سهام بنظرة حادة وسألت عن مقصده : قال اعنى السكر والعربدة . فقالت ولم توجه الملاحظة الىّ ؟ وجهها الى صديقك شهاب . ثم يدور حديث عن هموم الناس اليومية — تراها تزيد أم تقل . قالت سهام الهموم تكبر مع الزمن ، سواء لدى الفرد أو لدى شعب كامل ، اذا كان أى منهما يجاهد ليملك مصيره . يرد رائد : المصير ، ياسيدتى صار كالبعبع ، تخوفنا به كل الجهات . تنكر سهام أنها سيدة أحد وتقول : المصير موجود اردت أم لم ترد . والتخويف به لا يتم الا لدى من يملكون عواطف انسانية مثل الخوف والشجاعة والخسة والضمير . يسأل رائد : وأنا لست من هؤلاء ؟ ترد الفتاة : الأمر راجع لك .

غير ان صمود سهام لايلبث ان يتزعزع حين تكتشف ان جهة ما قد رصدت عليها جاسوساً مخبراً ، اسمه جابر ، يعامل فى المؤسسة معاملة خاصة . كان جابر يرقبها طول الرحلة ، عندما كانت تتحدث ، أو تلعب الكرة الطائرة أو تتغدى على الأرض . هربت من عينيه الدمويتين وتسللت الى ركن منعزل فى بقعة اعشاب طويلة ، واحتمت هناك تستريح وأطبق عليها النعاس واستدارت على جنبها فرأت عينى جابر المرعبتين كعينى جنى مسعور تنظران اليها من بين سيقان العشب . نهضت كالمجنونة وصاحت : خنزير ، وأرادت فضحه ولكنه فر .

واليوم تصدى لها جابر هذا وجعل يبتسم لها ابتسامته القبيحة ، ويحاول ان يمس يدها بابتذال وقح ، وانفاسه تمتلىء برائحة العرق الكريهة . هذا هو الرجل الذى زعم رائد انه اغتصب سهام . سأل الموظفون فى الدائرة جابر فقال انه كُلِّف بالعمل ، فراقبها من بعيد وسار وراءها كظلها ، وحين افلتت منها الكرة ودخلت الزرع لتلحق بها ، دخل جابر وراءها وكان ما كان .

كانت سهام تشكو لصديقتها شروق من تصدى جابر المقزز لها ، وختمت حديثها قائلة : على كل حال . لا أظن ان بقاءنا فى المؤسسة سيطول بعد تعيين المدير الجديد . الفضيحة المزعومة مقصودة اذن ، الهدف منها الاغتيال الخلقى للشخصيات التى لا ترضى عنها السلطة . وبالفعل تنقل كل من سهام وشروق الى المخازن فى وزارة النقل ، وقال المدير مبررا النقل ان قسم العلاقات أخطر من أن يشتغل فيه مشبوهون !

كل هذا وسهام لم تبلغ سمعها اكذوبة الاغتصاب المزعوم . فحين يبلغها النبأ ، تقوم مواجهة حادة بينها وبين امها وأخويها وعمها . يقول لها اخوها سامر : بصراحة ، يقولون وقع عليك اغتصاب ! تثور البنت ثورة عارمة : اغتصاب ؟ ما هذا الكلام السافل المنحط ؟ اغتصاب فى

بلد متحضر كالعراق ولا يعاقب عليه القانون ؟ وعلى فتاة متهمة بالتحرر ، ولا تستطيع ان تدافع عن نفسها ؟ انا الطويلة اللسان كما يقولون عنى ، لا أستطيع ان اصرخ ، أن احتج ؟

تقول لها امها : تزوجى ، يا بنيتى ، وصونى شرفك . تقول البنت : وتتصورين الزواج يداوى جرحا يمس الشرف ؟ يقول اخوها المحامى : نحن سنزوجك . تعلق سهام : رجعت الى لعبتك ؟ ان تهبنى الى رجل صالح بمقاييسك ؟ وفى هذا الزمن أيضا ! يعرض عليها الأخ ان تثبت براءتها بمواجهة المغتصب جابر . تقول البنت اذا كان هذا يرضى غرورك أو شرفك العائلى . ولكن : اترضى لأختك ان تقابل مغتصبها المزعوم ، السكير ، الحثالة ، الجاسوس ، العميل لمن يستأجره ؟ تفضل ، اذا كنت تريد ذلك . على الأقل لأريح أمى وضميرى .

ويتفاقم النزاع بين سهام وأخيها ، وتلتهب ناره ، فتتهمه بأنه هو الذى عين جابر رصدا عليها ، وكانت تظن ان من سَلّطَهُ عليها هى الجهات التقليدية المعروفة . ويبلغ النزاع حده الأقصى والأخ يصرخ : كل شىء الا هذا . هذا تدنيس . مكايدة .

تثبت المواجهة الحادة بين سهام واسرتها انهم هم المغتصبون ، وليس هى . هى تحتفظ بشرفها لم يمس ، تعرض الأم فكرة الزواج لتغطية الثلم المزعوم ، ويعرض الأخ زواجا مرتبا ، لا عاطفة فيه . صفقة تجارية من النوع الذى يألفه المحامى واخوه المهندس .. هم الذين اغتصبهم المجتمع ، وغيب أفكارهم وقيد حريتهم ، وربطهم الى الأعراف والتقاليد البالية .

خليل الرسام انسان آخر اغتصبه المجتمع وافقده بكارتة الفنية . ظل سنوات طويلة يؤجر أصابعه ويمتهن فنه فى رسوم تجارية خالية من القيمة هدفها الوحيد ان تدر عليه ايرادا . التفت الى نفسه ذات يوم فاذا هو يكتشف انه قد تبرأ من ماضيه كرسام . بصق عليه فراح الفن ينتقم منه بطريقة تبعث على الجنون . تبين انه لم يعد يعرف كيف يرسم بعد أن ترك الرسم زمنا ، وأخذ يهرج بالألوان .

تتبدى له هذه الحقيقة بكل أبعادها وآلامها حين تعرض له فرصة ان يرسم الشابة الجميلة شذر . جاءه ابوها وقال له انه يود ان يرسم له ابنته تكريما للبنت واعزازا لذكرى والدتها التى ماتت بعد أن شاركته حياة الضنك والإملاق الشديد . ثم تغيرت ظروفه بعد وفاتها وأصبح من الأثرياء ، بطرق مختلفة ليست كلها سوية .

زار خليل بيت الثرى المحدث النعمة مرة ومرتين وثلاث مرات وفى كل مرة كان يعجز عن ان يصور الفتاة . يبهت ويعجز . كان يرى أمامه فتاة نضرة كوردة ، سمراء سمرة عميقة وصافية كالزلال قرب نافذة مترعة بالضوء ، منذ التخطيطات الأولى شعر خليل انه مكلف بمهمة صعبة تعجز طاقاته المتبلدة عن النهوض بها . كل هذه النشقة الصاعقة من الجمال ، هذا الوجه الفاجع

برصانته الطفولية ، المشع بوهج الشباب كانت تشكل عبئا فادحا عليه . طوال ممارساته السابقة فى نقل الوجوه بالألوان ، أو حتى بالقلم الأسود أو الفحم ، كان يشعر انه يقوم بعملية تشويه متعمدة ، بعيدة عن المقاييس الانسانية . كان يزيف عن وعى وارادة . وبقدر ما كانت هذه العملية ترضى أصحاب الطلبات كانت تشبع فيه رغبة نفسية خفية فى العبث والاستهتار وتدمير الذات . كنوع من الاحتجاج الأبله على امتهانه للفن وابتذاله . غير انه الآن ، وفى محضر شذر لا يحس انه فى حاجة الى تزوير او امتهان . على العكس ، كان يحتاج الى أن يشد شتات نفسه لينقل الواقع الى رقعة الرسم .

ولكن الظروف المحيطة بالواقع كانت تدعو الى الاحباط الشديد . كان ابوها ، عباس ونداس يهشه بعصاه الغليظة ، ويحصره فى زاوية ذوقه الفاسد ولا يدعه لحظة واحدة يغادر ذلك العالم الذى بناه الآخرون على انقاض عالمه القديم ، بنزواتهم المبتذلة ، وقبروا موهبته فى قبرها العفن ، احيانا كان يرتد الى عالمه القديم ، أيام الصبا حين كانت براعم العادات تطلع ، ايام كان يخرج مع فنانين مخاييل الى أنبار الضوء وبساتين الظلال الساخنة . والآن يخيل اليه انه يوشك ان يعثر على كوة تطل على ذلك الماضى .

ولكن . عبثا . كان خليل يجرى وراء سراب ، فهو قد اغْتُصب ، ولن ترتد اليه بكارته الفنية مهما فَعل . والاغتصاب قديم . كان ابوه يضربه حين يراه ملطخا بالصمغ ، حين كان يقص الأوراق الملونة ويصنع منها اشجارا وبيوتا وحيوانات ويلصقها على ورقة بيضاء كبيرة لتصير صورة . كان ابوه يشتمه شتما قبيحا وبعد ان كبر وصار يرسم كان يقول له : ما الفرق بينك وبين صباغ الأحذية ؟

وها هو ذا عباس ويتداس يحاول مرة أخرى أن يغتصب فنه . كان بوده أن يصرخ فى وجهه منذ اليوم الأول : اذهب الى جهنم ، أيها الجلف الذى يخفى جلافته برباط مستورد من باريس . ولكنه تحمل حتى انفجرت مهجته . قال لصديقه رائد : كلما دخلت بيت عباس ونداس ، رأيت ديكورا أعده بنفسه ليكون خلفية للصورة . رأيت التحف الميتة تخنق الجمال الحى . انه يصمم لى كل شىء بذوقه الفاسد . ولم يبق الا أن يمسك بالفرشاة ويرسم .

وكان لعباس زوجة ثانية معادية للفن بضراوة وسوقية شديدة . دخلت على الرسام فرأته وابنة زوجها متقابلين مبهورين ، كأنما ضبطا اثناء الشروع بتبادل القبل . وكان خليل قد عرض على الفتاة قبل قليل ان يصورها فى الخلاء ، على الطبيعة بعيدا عن جو البيت المخنوق . صاحت الزوجة : ما هذا العذاب ، أنت ترسم أو تخرب بيوتا ؟ اصفر وجه خليل وقال : انا لا أرسم .. أنا اخلق ! فسخرت المرأة صائحة : تخلق ؟ صرت ربنا لتخلق ؟ انظر الى شكلك .

وانتهى مشروع الصورة بمأساة دامية . حزم خليل امره واختار من بين اسكتشاته أقربها الى نفسه وقصد بيت شذر ليتم الرسم . قابلته زوجة الأب مقابلة مهينة . قالت له : لم نعد نحتاج خدماتك . عباس غير رأيه ولم يعد يريد الصورة . سافر الى لبنان . تريد أن تسأل البنت ؟ أى حق لك فى استجواب بنت قاصر ؟ أربعة أشهر وانت قاعد قبالتها . ماذا عندك مع البنت ؟ عذبتها . مرمرتها . هل عشقتها ؟ انظر الى شكلك بالمرآة : عجوز يمكن اكبر من عباس . ماذا تريد ؟ تذهب أو استدعى شرطة النجدة ؟ وكانت سحبته قبلُ من ذراعه بقوتها العارمة ، حتى ارتطمت شفته بالباب فانفجرت دما . وودعته المرأة الشرسة بسيل من السباب : سافل . حقير . تكسر رقاب المستورات . تلعب بعقول القاصرات . امش ، ياكافر ، يازنديق ، يا سافل يا حقير .

الاغتصاب بعيد الغور ، يزيد من فداحته ان خليل نفسه كان يمارس عملية امتهان شائنة لحسنة ، المرأة التى تعيش معه وتخدمه ، وتقدم له جسدها بلا مقابل أو ارتباط . كان قد عرفها أيام الشباب حين كان مشتركا فى جولة جماعية فى احدى قرى جنوب بغداد مع جمع من الرسامين . وسرعان ما ارتفعت الكلفة بين الرسام وأهل القرية فعرض خليل على أحد الفلاحين ان تأتى ابنته الوسطى ، حسنة ، لتخدم أباه العليل . خدمت البنت ثلاثة أعوام ثم استردها ابوها خوفا من ألسنة الناس . ثم عادت اليه هربا من ألسنة أهل القرية ، الذين تناولوها بأبشع التهم . وبعد ثلاث سنوات أخرى هجرته الفتاة ، فجن جنونه وازمع ان يبحث عنها فى كل قرية ، فلما هدأ فوجىء بالفتاة تقرع عليه الباب بجسارة وتقول : ها قد عدت . كانت قد تزوجت من رجل مزواج مطلاق ، رماها بعد أول وليد ، فدفع بها ابوها الى الرسام قائلا : ليفعل بك ما يشاء . وحقا كان خليل يفعل بها ما يشاء يسىء معاملتها ، ولا يرفعها قط عن مستوى العجماوات . زاول معها حياة جنسية سخية ، مستخدماً وسائل منع الحمل . حتى التفت ذات يوم فلم يجدها . حق عليه القول : ان تُغْتَصب ، تَغْتصب . وفى الحالين انت فاقد شرفك وفنك وانسانيتك ، رضيت أم أبيت .

قال رائد وهو يعلق على تخلى شهاب صديقه وصديق خليل وعصام عنهم ، وانفراده بالاشتراك فى رحلة المركب ، حتى يخلو له وجه من كان يرنو اليها ويتشوف : « التخلى سمة من سمات العصر » .

فى حديث لرائد مع صديق قديم له ، وزميل سابق فى النضال السياسى ، نعرف لماذا يرفع رائد شعار التخلى . كان هو نفسه قد تخلى عن الحزب . واخذت الشائعات تناوشه بأنه صار عميلا ، ومندمجا فى مصالح البورجوازية الصغيرة . قال رائد : انا تركت الحزب وهو فى انتعاش .

يعنى لا يمكن ان اتهم بالتخاذل ، أو الانتهازية .

وترك رائد صديقه وانفرد بنفسه يفتش فيها . صديقه هاشم كسب زوجته بتول ، دون صراع طبقى ، بينما خسرها رائد ــ وكان متيما بها ــ بسبب التفاوت الطبقى : هو أفقر منها . الصراع يا رفيق هاشم ــ قال رائد فى نفسه موجها الخطاب لصديقه القديم ــ فى داخل القفص الصدرى . وتريدنى ان اتجاهله ؟ أكافح طبقيا ؟ والى متى اكافح ، والزمن يكافحنى ، ويشن علىَّ حربا شعواء ؟ يقرضنى كما يقرضك ، ويقرض السيدة بتول ، زوجتك ــ كأقبح فأر . أنا أيضا أريد أن اعيش . أليس من حقى أن اعيش كالآخرين ؟ اتمتع بالنعم المبذولة حتى لأتفه الناس ؟ قد اوصى الكتاب الشريف بأن لاينسى الانسان نصيبه من الدنيا . وتريدنى انا الفانى الحقير أن اتخلى عن جهاديتى وألحق سراب اهدافكم الطويلة الأمد ؟ علمتمونا على الزهد والتقشف ، بينما الآخرون ينهبون ويعبون من خيرات هذا العالم . يا تجار الحد الاقصى : سيفوتكم القطار ولن تلحقوا . الأخطاء التى ارتكبتموها والفرص التى ضيعتموها . لماذا هذا الاصرار على رأى خاطىء ؟

هل اغتصب الحزب رائد ، أم هو الذى اغتصب نفسه ؟ فى الحالين هو مغتصب آخر من شخصيات الرواية . وفيها غيره ممن تعرضوا لضغوط شوهتهم . شهاب مدلل أبيه ، الحلو ، الضعيف جنسيا ، يأخذ أبوه بخناقه ويرغمه ارغاما على ان يتقدم للزواج من فتاة ذات حسب ونسب ، ووالد كثير النفوذ ، فلا تتحرك فيه القدرة الجنسية الا حين يتذكر مشهدا من طفولته البعيدة ، حين ذهب الى الطاحون فوجد حمارا عنيدا يغتصب حمارة ذليلة واهنة من المرض ولا ينزل عنها الا بعد أن يقضى وطره . ذهب شهاب الى صديقته ماريا ، فوجدها مريضة ذليلة . قاومته كما حاولت الحمارة ان تقاوم الذكر العنيد فلم تفلح . وحفز الاغتصاب الحيوانى شهاب الى اغتصاب آدمى ، وشعر بقوته تعود اليه منذ شهور ، فهتف فرحا : انا قادر .. وسأقبل باقتراح أبى .

وهذا عصام الذى اصطفاه مدير المؤسسة الى نفسه ودفع به الى مدارج الرقى وهيأ له ان يتعرف على ممرضة جميلة هى وصال . كان عصام قد تخلى عن زوجته وابنه ، وأصبح ابوه يعيره بهذا التخلى الفادح خاصة عن ابنه من لحمه ودمه . وكان اخوه يتاوئه . وكان قد اخذ يردد شعار : « التخلى صفة من صفات زماننا » ويعذب ذاكرته كى يعرف من الذى قال هذا . وضاقت الدائرة من حوله ، فلا ابوه واخوه وابنه معه ولا حتى وصال . سأل نفسه فجأة : من وصال هذه ؟ لا يكاد يعرف عنها شيئا غير ما قالته هى عن نفسها . تزوجت من رجل اكتشفت انه مجرم ، ارتكب جريمة دخل بها السجن . اهذا معقول ؟ أليس هذا موضوعا لفيلم

مصرى مبتذل ؟ وان كان صحيحا ، ألا يمكن ان يخرج الزوج فى فترة من فترات العفو ويصفى حسابه معه ؟ قد تكون وصال امرأة مبتذلة جدا ، ذات ماضٍ ملوث . من اين لها الفساتين والعطور الباريسية ؟ ومن هى صديقتها المريبة هذه ، ساجدة ؟ ممرضة مثلها ؟ ام طير مثلها وقع على شاكلته .

يقطع على عصام تأملاته الحزينة هذه دخول شخص اسمه عاطف يعمل محاميا . يدور بينهما حديث حول عجز الانسان عن حل مشاكله ، اذا انفرد بنفسه لابد من العيش مع الناس . لابد من التجربة . العيش مع الناس يمكن من حل المشاكل . حتى الشخصية منها . يقول المحامى هذا القول فيرد عصام : العمل الصالح أيضا يمر بتجارب مريرة . فيرد المحامى : ان شاء الله ، لا نمر بهذه التجارب . يعدل عصام كلامه : اقصد ان الانسان يتوقع كل شيء ، حتى الأخطاء ، ويحسب حساب المفاجآت . فيحدثه المحامى عن الدنيا الحافلة بالمفاجآت ، ولكنها مفاجآت مشروطة . ويردف : بهذه المناسبة ، هل سمعت بالمفاجأة التى وقعت فى مؤسستكم ؟ هل تعرف جابر الفراش ؟ لقد وجدوه قتيلا . أليست هذه مفاجأة ؟ ومع ذلك فهى مفاجأة مشروطة . يقال ان عائلة موظفة سابقة فى مؤسستكم هى التى قتلته غسلا للعار ، لأنه متهم بعرض ابنتها . وهذا شرط المفاجأة ، اذا عرف بطلت المفاجأة .

لم يدر المحامى ان الذين قتلوا جابر واجهوه بالتهمة . قالوا له انت متهم بعرض سهام . صاح جابر : كيف بعرضها ؟ ماذا فعلت ؟ قال القتله : قد اغتصبتها . صاح جابر : اغتصبتها ؟ كيف اغتصبتها ؟ قال واحد من الحضور : أو حاولت اغتصابها . جن جنون جابر وأتى حركة يائسة وكأنما يريد أن يغادر المكان . وصاح : معقول ؟ مستعد أن أروح .. وصمت بعد أن عاجلته رفسة .

لم يكن هناك اغتصاب اذن ، وانما ثرثرة ، وتشف ، وحقد ، ورغبة فى تصفية حسابات ، ومحاولات دائبة لتلطيخ سمعة الأبرياء ، ونزوع محموم لملء خواء الرءوس والقلوب . ومع ذلك فما اكثر ما حظى الاغتصاب المزعوم من انتباه ، وما أقل ما تحدث الناس عن الاغتصاب الفعلى الواقع على الناس من كل الاتجاهات .

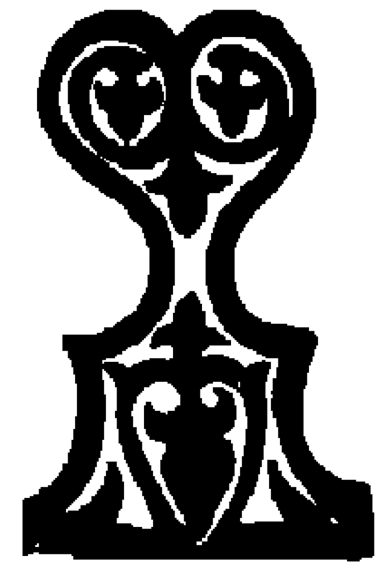
تنتهى الرواية والمحامى يعرض على عصام ان يذهب معه الى جزيرة ام الخنازير يوم الجمعة التالى . لقد عاد المحامى لتوه من الجزيرة بعد وقت ممتع . عنده مركب خاص ، صغير ولكنه مريح ، فياحبذا لو شاركنا عصام سرورنا الجمعة القادمة . قال عصام : الأيام بيننا !

كان اجدر بهذه الرواية أن تسمى « الاغتصاب » ذلك أدل على موضوعها وهدفها . إنها رواية حزينة ، ترثى شيئا قد ضاع ويبدو أنه لن يعود فى القريب . انها سجل لهذا الزمان

المغتصب . هذا الزمن المثقوب . حسب تعبير الشيخ عبد المنعم ، أول من أعلن فى الرواية أنه مغتصب .

مكابدات عبد الله العاشق

عبد الخالق الركابي



فى القرية اسموه البطل . واسموه أيضا عبد الله العاشق . وللتسميتين ابعاد غائرة فى هذه الرواية التامة الحسن ، التى تجمع بين الرواية الريفية والرواية الرعوية والرواية التى تستند الى مأثورات الشعب وحكاياته .

أهَلّ على القرية شاويش انجليزى متعجرف طلب ان يصطف امامه شباب القرية كى يختار بعضهم ليكونوا شرطة محلية من ابناء البلد . تجمع امامه شباب كثيرون ، كلهم راغب فى الوظيفة المطروحة ، ممنيا نفسه بالراتب الثابت والاحترام الراسخ بدلا من العمل فى أرض شيخ الناحية التى لم تمنحهم أبدا شيئا غير المهانة ولقمة الخبز المغموسة فى التراب .

اصطف الشباب أمام الشاويش ، فأخذ يتفحصهم ظهورا ، وصدورا وزنودا ، واستبعد من لم يكن يصلح للخدمة فى نظره وطلب الى الباقين ان يعودوا اليه فى غد ومعهم آباؤهم . عاد الشباب فى اليوم التالى وصفهم رجال الدرك أمام الشاويش المتعجرف صفين ، فشرع هذا يذرع الأرض بين الصفين ويثرثر شارحا أفضال دولته العظمى على أهل البلد مؤكدا انه لن يوافق على تعيين أى من الشباب الا بعد أن يبرهن على اخلاصه لشرف عمله ، حتى ولو أدى بهذا للتنكر لأهله وكاثبات عملى على ذلك طلب الشاويش ان يبصق كل واحد منهم فى وجه أبيه

بهت الشباب تماما ، وتلفت الآباء العجائز حولهم بحيرة . وتبودلت نظرات استنكار انسحب الجميع على اثرها مشيعين بزعيق الشاويش وركلات حذائه الغليظ . اما عبد الله ، فقد كان الوحيد الذى بقى فى ساحة السراى . انقلب الشاويش عائدا الى الداخل يمسح عرقه المتفصد ، يسبقه لهاثه الصاخب . وبصعوبة بالغة اكره شفتيه على أن ترسما ابتسامة باهتة . ثم توجه الى عبد الله وهنأه بعربيته المضحكة لكونه الوحيد الذى لم ينسحب ، مطالبا اياه بالبرهنة لهؤلاء الشباب المتوحشين كيف أن اخلاصه لخدمة الدولة العظمى يحتم عليه البصق فى وجه ابيه .

ظل عبد الله ينظر اليه وهو يتحدث متنحنحا بهدوء سالكا حلقه . وبعد أن تجمعت له بصقة هائلة اطلقها كالرصاصة فغسلت وجه الشاويش المتورد ، وانصبت بين عينيه بالضبط ! ومرت لحظة حرجة صعق خلالها رجال الدرك ، فانتهز عبد الله الفرصة وركض الى جواده ، فاندفع هذا به الى القرية . وبعد أن ودع أمه ، اتخذ طريقه نحو البساتين ليتحصن بدخل الخندق لأول مرة فى عمره .

جابه عبد الله الظلم ــ الداخلى هذه المرة ، حين تحدى بشار ، أحد اعوان الشيخ نصيف ، شيخ القرية ، ذى الصلات القوية بالمستعمر الانجليزى والذى ورث عمالة الاستعمار عن ابيه « ابو الليل » ، الذى كان عميلا للاستعمار التركى . جاء للشيخ نصيف شخص يدعى السيد صيهود ، وهو ذو صلات مشبوهة بذوى السلطان ، وممثلى الاستعمار البريطانى خاصة ، الذين كانوا يستخدمونه فى السعى ما بين العشائر بما يخدم مصالح الانجليز . قال السيد للشيخ نصيف ان فى امكان الشيخ ان يكسب مئات الدنانير لو هو جرب زراعةِ الأرز . وأخذ الشيخ بنصحيته ، ثم تبين له ان الأرز يحتاج الى ماء وفير ، لم يكن قد حسب له حسابا . تقدم بشار بالحل الموفق . قطع الماء عن أرض الفلاحين ووفرها لأرز الشيخ منصف ، فأخذت اشجار الفاكهة تذبل ، وخيمت على القرية الكآبة السوداء .

ألح خلف ، والد عبد الله على بشار فى أن يسمح له برى الأرض ، فصمت عنه صمتامشوبا بالاحتقار وهز السوط أمام وجهه . هنالك تقدم عبد الله متحديا بشار وقال له : سأسقى بستان أبى . صمت بشار مرة أخرى واكتفى بنظرة طويلة متفحصة ، وكبت حقده الدفين على ذلك الديك الزاهى الذى استقطب حوله بعض شباب القرية عقب حادثة الشاويش المشهورة . ثم قال : بشار : « لن تسقى » . واهتز السوط فى طرف يده . قال عبد الله : سأسقى . جرب أن تمنعنى ! قال هذا بصوت مرتفع سمعه الشيخ نصيف فى الداخل فنادى على مساعده . انتهز عبد الله الفرصة فانطلق من فوره نحو الجدول المتفرع من النهر وازاح السد الطينى ، فاندفع الماء مدوما خلال المجرى الذى اضناه الجفاف .

عاد بشار وانتصب امام عبد الله متغطرسا ، متحديا وطرف السوط يبرز من بين ذراعيه . وقدر ان هذا كفيل بأى يولى عبد الله الأدبار ! غير ان عبد الله التقط عصا قريبة ، وبلا مبالاة قاتلة وسع الثغره المفتوحة على النهر فهدر الماء منطلقا فى سمع بشار كأنه الرصاص . وقف بشار أمام عبد الله غامرا أباه بظله ، ثم تردد لحظة قبل ان ينشر سوطه . وقبل ان يئز الهواء على لسع الصوت ، قفز عبد الله الى الأعلى ، وسدد ضربة مريعة من رأسه العنيد الى فك غريمه وسقط بشار فلم يمهله عبد الله ، بل تناوله من حزامه ، وبقوة خارقة زرعه فى وسط النهر . ولما جهد

بشار حتى خرج من الماء مبلول الملابس هتف فى حقد مريع : سنرى . فاكتفى عبد الله بأن ناوله سوطه فى هدوء .

عوضا عن أن ينال عبد الله أذى من الشيخ نصيف ، قربه هذا اليه ، مقدرا أنه سيكون عونا طيبا له ، ومن ثم عرض عليه ان يصبح كبير سواس خيوله .

يقبل عبد الله هذا العمل على مضض ، ولكنه لا يلبث ان يجد فيه متعة حقيقية . وهنا تدخل الرواية القسم الرعوى منها ، وتحكى فى لغة جميلة قادرة ، بارعة التصوير كيف كان عبد الله يسوس خيوله : « صباح كل يوم يشرع عبد الله بوابة القلعة الجانبية ، فتتزاحم الخيول هابطة عبر سفح الربوة لترمح على امتداد السهب ، فترتفع سحابة غبار تظلل السماء لفترة طويلة ، بينما يمرق هو من بين الأجساد المضطربة لينخطف على صهوة كُمَيْتْ بلون العسل ، لو سكبت الماء بين اذنيه المنتصبتين لسال عبر تقوس رقبته وظهره ليقطر من طرف ذيله البنى الكث . كان جوادا لا نظير له اعتاد ان يركبه دون سرج أو لجام ، فقد كان اطوع له من ظله : يكفى ان يشد بساقيه على جنبيه لينطلق من فوره ، ويكفى ان يرخيهما ليعود ويسير بخبب هادىء منغما نقر حوافره بايقاع جميل ... كان يخترق به خضم بحر الخيول المتلاطم من حوله ، حيث الظهور والأعراف والنواصى الشهباء والدهماء والبيضاء والحمراء والشقراء تتماوج بشكل مدوخ ، وعبد الله يطبق ساقيه على جنبى الحصان الخافقَيْن ، دافعاً به الى الأمام ، والخيول من حوله تخب وترمح وتهذب ، حادجه اياه بنظرات جانبية ساطعة بشموخ ، لكنها ، فى الوقت نفسه مفعمة بالحب . ومن وسط ذلك التيار المتدفق ، يشب أحد الخيول بغتة على عقبيه ، تاركا عفرته مسترسلة تتماوج فى الريح ، مطلقا صهيلا منتشيا قبل ان يعود لمواصلة خببه النشط . وكان نقر الحوافر يتتابع فى سمعه بشكل مهيب ، بقى يتعقبه فيما بعد فى أحلامه . والحدوات الحديدية تقدح بكثافة . وعلى امتداد السهب ، حيث القرى والأكواخ المتناثرة هنا وهناك ، كانت الصبايا يقفن مشدوهات ازاء ذلك المنظر المهيب ، وقد جمدت ايديهن على الغسيل الذى كن ينشرنه على الحبال الممتدة بين اشجار التوت والعناب . وكانت اكف اخريات تلتصق بأقراص عجين فى طريقها نحو أفواه تنانير ملتهبة تجعل خدودهن تتورد ، بينما اصابع غيرهن تقبض على الهواء بدل القبض على ضروع الأبقار الطافحة باللبن ، وعبد الله مصبوب على الصهوة المكينة ، متوحدا بها مثلما يتوحد الوتد بالأرض ، لا يأبه لما يجرى من حوله ، كأنه يسير فى فلك والدنيا بأجمعها فى فلك آخر » .

صورة بانورامية دقيقة تصلح للعرض على شاشات السينما العريضة . صورة تنبض بحب الحياة والأحياء ، وتصور العلاقة الحميمة التى تقوم بين راكب الحصاب والحصان وبينه وبين باق الجياد

التى تصفها هذه الفقرة وصفا مفعما بالحب تجذبنا الى الخيل ، وتحببنا فيها ، وتقدمها لنا كما لو كانت هذه الخيول جميلات يسرن فى موكب الغيد ، تكتنفها الفرحة بالحياة ، والسعادة بالانطلاق فى الفضاء اللا محدود .

غير ان الرواية لا تقدم لنا هذا المنظر الفذ لمجرد جماله وحيويته النابضة والجذل الكبير الذى يصوره لنا . بل انها تسعى كى تلقى بعبد الله الى خضم الأحداث التى سرعان ما تتوالى حين يعرج ذات أصيل نحو الوادى ليقذف بنفسه الى الماء ساعيا الى أن يبترد . لكن الحصان تقدم به قليلا ، وأزاح غصنا كان يعترض سبيله ، فانكشف امام عينيه المنظر بأكمله . هناك وسط المياه الرجراجة ، رآها ! كانت تقف فى وسط الماء مشمرة أذيال الثوب الأزرق عن فخذين مكتنزين كانا يسطعان تحت الوهج الذهبى . وعلى المياه المتلامعة كانت صورتها تتماوج بانسياب . كانت الصبية منشغلة عنه ، فلم تتبين وجوده حتى حمحم الحصان على غير انتظار ، فانتبهت . لم ترتبك ، وانما مضت بحركة حازمة ، لاهى سريعة مضطربة ولا بطيئة متثاقلة ، ترخى اذيال ثوبها وتعدل الشال حول رأسها . لحظتها بدت اشبه بحورية انبثقت من قلب الماء .

ازدرد عبد الله لعابه بصوت مسموع وسألها : ما اسمك يامليحة ؟ لم تجبه فورا وانما اغترفت الماء ملء راحتيها لتغسل وجهها ، ثم اجابته ووجهها الساحر يتلألأ : نرجس . وابوك ؟ ناظم . الأسود ؟ . لم تجبه وانما أولته ظهرها ومضت فى طريقها ومالبثت ان اختفت .

من تلك اللحظة ، أصبح عبد الله البطل « عبد الله العاشق » وقع فى غرامها وأصبح شغله الشاغل ان يمتلكها . زعق فيها فى اليوم التالى : يازنجية . فأجابته بنظرة خاطفة وسألته : مالك تزعق . قال : انت لى . استنكرت الصبية وقالت : لك انت ؟ وكيف ذلك ؟ قال عبد الله العاشق وهو يقبض على زنديها بعنف : هكذا . لم تسحب يديها ، وانما حدقت فيه بضراوة فتراخت قبضته . لمح شبح ابتسامة ساخرة تمط شفتيها ، فاندلعت فيه النار . قال لها وهو يبرك فوقها ستكونين لى . فقالت : ابدا . قال : سأقتلك ، فارتسمت على شفتيها ابتسامة متحدية . استل خنجره ووضع نصله المرهف بين عينيها وكرر : سأقتلك . شمرت بيدها الطليقة الشال عن صدرها وقالت هيا ، اقتل .

رمى عبد الله الخنجر بعيدا . ومساء اليوم نفسه وفى مجلس الشيخ نصيف وبطانته وقف عبد الله . يقول بصوت ثابت لأبى الصبية ، ناظم الأسود : انا عبد الله خلف . والكل يعرفنى . يشرفنى انه اتقدم اليك طالبا يد ابنتك نرجس !

كان هذا العرض بالزواج فضيحة كبرى للوالد . ان ناظم الأسود وامرأته وردة كانا غجريين احبا بعضهما ، وعندما طلبها ناظم من أهلها رفضوه لسواد لونه . غير ان بطن ورده كان قد

امتلأ ، وعندما فاحت رائحة الفضيحة وشحذت السكاكين هرب العاشقان فتلقاهما الشيخ نصيف وحصل لهما على الأمان من الأهل ، ولكنه استبعدهما . فوردة اصبحت مسئولة عن التجميل والتزيين والكيف والطرب فى حريم الشيخ ، وناظم لازم المضيفة وأصبحت قهوته مضرب الأمثال بجودتها عبر القرى المجاورة .

على أن فضيحة اكبر واعتى كانت فى انتظار عبد الله وصهره . لقد اغتصب البشير ـــ عدو عبد الله اللدود ، نرجس وتركها مكممة مربوطة الذراعين والساقين بينما تمزق ثوبها المطلخ بالدم وانحسر عاليا كاشفا عن فخذين تعلوهما الكدمات .

لم يكن امام عبد الله ورفاقه الذين تقدموا لعونه سوى سبيل واحد : ان يقطعوا العضو الذى تسبب فى هتك عرض الصبية الجميلة . وتم هذا الانتقام ، ولم يستطع البشير الا أن يكتم ألمه الفظيع ويختبىء بالصمت من الفضيحة وسخرية الناس .

وهكذا يتحول الجزء الرعوى فى الرواية الى فاجعة من الطراز الأول ، تصول فيها العواطف البدائية وتجول . فالعشق يحدوه العنف والنبل يحول بين عبد الله العاشق وبين ان يغتصب نرجس ، ويلزمه ان يسعى الى امتلاكها عن الطريق المشروع ، والخسة تثب وهى تقطر حقدا وشهوة ، فتسلب صبية بريئة شرفها وحياة مشرقة تبدت لها ، ثم سرعان ما انطفأ نورها . لقد سألت نرجس امها فى أسى : هل سيحزنك موتى يا اماه ؟ فلم تملك الأم ازاء السؤال سوى الاجهاش بالبكاء ، دون ان تدرى ان ابنتها عولت على أن تحرق نفسها .

وصباح يوم تال تردد همس الفلاحين وهم يعملون فى الحقول والبساتين ان عبد الله شوهد فجرا وهو يتسلل من القرية ممتشقا بندقيته ، حيث اختفى وكأن الأرض انشقت وابتلعته .

تبدأ الرواية وقد قُتل عبد الله العاشق . قتلته قذيفة انطلقت من الجانب الآخر المعادى للقرية . قُتل عبد الله وهو يقوم بالبذار فى حقله ، يساعده ابنه « صمد » . كان قد تحدى المرض والشيخوخة التى طعن فيها ، وقام يعمل كفلاح نشيط كأن السنين لم تثقل كاهله . وكأنه مازال الشاب الأسطورى الذى بصق على الشاويش الانجليزى ، وأخصى بشار اللعين . مزقت القذيفة جسده ، فسكن جسمه فى قاع حفرة مليئة بالوحل والدم والدخان خلفتها القذيفة وراءها .

كان عبد الله العاشق قد غادر القرية عقب حادثة بشار ، وعاش غربة مريرة امتدت سنوات ، كان فيها يتنقل عبر القرى . لم يعد الى القرية الا بعد موت ابيه « حلف » واعتكاف بشار فى بيته وقد اوشكت عيناه على الانطفاء ، وخفت سطوة المشيخة بعد موت الشيخ نصيف وانتقال ابنائه للسكنى فى البلدة .

عاد الى القرية يحمل البندقية ذاتها التى إمتشقها يوم هرب من القرية . كان رجال الشرطة يكبسون بيته بين الحين والحين بحثا عن البندقية ، ولكنه اخفاها فى مكان لا تطاله يد واعلن ان الشرطة لن تنالها إلاّ على جثته . كان عبد الله العاشق يرى فى البندقية رمزا لمقاومة الظلم ، وكان يعد ابنه كى يحملها من بعده .

اخرج عبد الله البندقية من مخبئها ، وتوجه الى ابنه صمد ، وفوجىء الولد بأبيه يسحبه بغلظة ليشبك حزام البندقية عبر صدره الهزيل ، معلقا اياها على كتفه ، حيث ارتطم اخمصها بالأرض انفرجت اسارير الصبى وامتلأ كبرياء ، وحاول السير بالبندقية فتعثر وسقط على الأرض . لم يعفه هذا من ضحكة ساخرة ، فتخلص الولد من حزام البندقية ودفعها بعيدا عنه ، وكوّر جسده الضئيل ، مخفيا رأسه بين ركبتيه وقد ابتلت عيناه بدموع القهر والغضب . قال له عبد الله مطمئنا : ستطول قامتك يابنى ، فيصبح فى امكانك امتشاق البندقية بيسر !

وعندما تصخب الحركة حول القرية ، وتنتشر فيها مدافع هائلة بفوهات جبارة ، وتختلط خوذات المقاتلين الفولاذية المغطاة بشبكات التمويه بكوفيات الفلاحين المرقطة ، وتتناقل الأيدى البنادق والمعاول والرشاشات والمساحى ، ويستعد المقاتلون أمام منصات الاطلاق ، ثم تدوى القذائف لأول مرة فى الاتجاه المعاكس تنهار القلعة التى اسهم فى انشائها وحمايتها الترك والانجليز ، ويعلم صمد ان الوقت قد حان ليوجه بندقيته الى الأعداء على الطرف الآخر . قد غدا الثأر الفردى ثأرا عاما من العدو فى الخارج والداخل معا .

يورد عبد الخالق الركابى قصة من التراث يدعم بها الخط الذى التزمه عبد الله العاشق فى ضرورة الانتقام من الأعداء مهما طال الزمن . قصة طريفة تزيد كم الامتاع الذى تقدمه هذه الرواية البليغة فى بساطتها ، المؤثرة فى وضوحها ، التى تستند الى عواطف الناس البسطاء وتصور رغباتهم وتطلعاتهم الى العيش الكريم ، وتعبر عن آلامهم وما يكتنف حيواتهم من مظالم فادحة . والخط العريض لهذه القصة هو أن عرافا كان يخدم ابن شيخ عشيرة بالحق والصدق . فحنق عليه الابن الذى تولى المشيخة بعد وفاة ابيه ، وابعده عن مجلسه ، وغاظه منه انه لم يتحمس لمدح حصان قُدِّم له وسط حماس فى مدحه من جانب منافقى البطانة . قال العراف ان الحصان ملىء بالعيوب وان بامكان احدى نعجاته ان تسبقه . فزاد غضب الشيخ من هذا التحدى ، وقرر ان يقبله . وحين اجرى السباق بين الحصان والنعجة ، فازت النعجة ، نتيجة ترتيب خاص ومكر بارع مكره العراف كى يحصل على هذه النتيجة . اذ ذاك لم يتمالك الشيخ نفسه فتقدم وسمل عينى العراف ، الذى ادرك اذ ذاك ان لا مقام له فى البلد بعد هذا فقرر الهجرة ، مصمما على الانتقام لنفسه يوما ما .

وتمضى حوادث القصة من بعد فينتقم العراف لنفسه عبر ابن له ، ولد فى الغربة فدربه على حمل السلاح والقتال . ينطلق الابن نحو الشيخ منتهزا انشغال الناس بسباق اقيم فى البلده ، وتفوق هو فيه فكان الأول ، ينطلق نحو الشيخ وهو يصيح بأعلى صوته : انا ابن العراف . جئتك لآخذ بثأره . ثم يفقأ عينى الشيخ ويفر على جواده الأصيل مردفا اباه خلفه ، حتى يصلا الى بر السلامة .

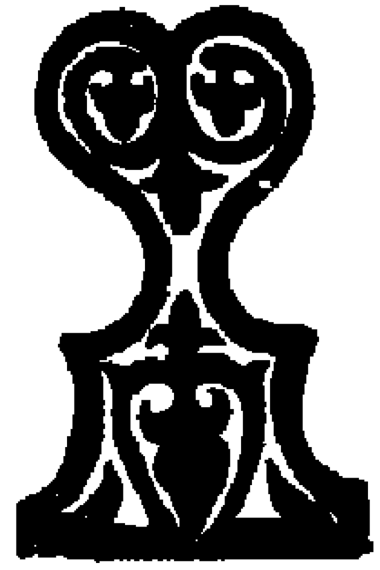
تنجدل طرافة الحدوتة الشعبية هنا بحوادث الرواية الأصلية عن طريق التصميم على بلوغ الهدف والانتصاف من الظالمين مهما طال الزمن . وقد رأينا كيف طور الركابى فكرة الثأر فجعله ثأراً اجتماعيا وسياسيا عاما . فعل هذا ببساطة ودون أى افتعال .

والواقع ان ما ينبغى ان يحسب لهذه الرواية هو : السلاسة الفائقة التى تتحدث بها عن هموم المواطن وهموم الوطن ، دون مبالغة ، أو خطابة ، أو فرض الأحداث فرضا على الرواية ، ومن ثم على القارىء .

من أجل هذا اسميت : « مكابدات عبد الله العاشق » رواية تامة الحُسن ! .

الوشم

عبد الرحمن مجيد الربيعي



خرج كريم الناصرى من المعتقل وهو يقول لنفسه : « انتهت المسألة بطريقة باردة ورديئة » . كان قد أمضى سبعة أشهر وراء السدود ، متهما فى قضية من قضايا الرأى ، انتزع من أجلها من مدينته « الناصرية » وأودع المعتقل مع زملاء كثيرين من ذوى العقائد المتباينة .

وفى المعتقل اكتشف كريم حقيقة نفسه : انه ما أقبل على النضال السياسى بوازع من عقيدة ملتهبة ، أخذت بخناقه ولم تدع له مجالا آخر غير أن يوظف كل طاقاته فى خدمتها لقد وجد الشباب من الصحاب يخوضون غمار تيار التغيير الذى أخذ يصطخب فى العراق ، فقرر أن يركب الموجة ، لعله يخرج منها بشىء . وها هوذا يخرج من الموجة وقد انكسر شىء ما ـ شىء ثمين فى داخله : احترامه لنفسه ، وحسن ظنه بقدرته على النضال ، وحبه للحياة ، وقدرته على حب الغير . قدم القليل فى خدمة المبادىء ، وكان عقابه على ذلك القليل الذى قدم قاسيا حقا : انكسر بلا مجد . أستسلم بلا تردد . سقط فى برود قلب ، وقلة احتفال . فماتت ـــ على الفور ـــ فى قلبه كل رغبات الحياة . .

وعبثا يحاول كريم الناصرى أن يعيش من بعد سقطته هذه . كان قبل المعتقل قد جرب الحب . شغل بفتاة وضاءة اسمها « أسيل عمران » . تعمل مدرسة فى مدرسة الناصرية وتهوى الرسم . ولكن علاقتها بها ما لبثت أن بهتت ثم انطفأت . كانت البنت معجبة به . يوم لقيته أول مرة لم تخف اعجابها . قالت إنها رأت اسمه الكبير فى الصحف والمجلات عشرات المرات . فانتفخ الناصرى زهوا ، ولما قالت له أسيل أن لقاءها به سيكون جزءا حلوا من ذكرياتها ، لم ترض ذاته المتورمة بهذا الاعزاز « الجزئى » . رده اليها وهو يقول : أريد أن أكون كل شىء .

ولقيها من بعد مرات كثيرة . وشعر بأنهما توحدا فى علاقة واحدة وتطلع واحد . وكانا يسرقان

الزمن سرقة من عملها فى الحزب ليتساقيا عذب الهوى . وشعر كريم أن أسيل هى الجزء المتمم لذاته . ثم جاء المعتقل فضاع كل شيء .

زعم كريم لنفسه أن المعتقل هو الذى اغتال « حبه » لأسيل . غير أن هذا الفرد المتنفخ الذات هو الذى اغتال حبه للفتاة . مافى مقدوره أن يحب أحدا غير نفسه . قال يوما لصديقه حسون : لن أتزوج امرأة امتلكها رجل اخر قبلى . فأوضحت صلته بأسيل قبل المعتقل ، وبالفتاة الغضبة البريئة « يسرى » — بعد المعتقل — انه كاذب . وان ماعناه اذ ذاك هو : لن أحب أحدا قط غير نفسى . ومن أجل حبى لنفسى أفعل كل شيء ، والتمس كل الأعذار .

بعد المعتقل عرف كريم « مريم » — كاتبة على الآلة باحدى الشركات ، وانغمس واياها فى غرام حسى فاقع . كانت امرأة مضيعة . أكرهوها على الزواج من رجل فى سن أبيها ، فولدت له طفلين ، ومن ثم سارت فى الطريق المألوف لبعض من أمثالها — عشقت الرجال تعويضا وانتقاما . وقالت لعشيق لها : لقد أوقعت كريم فى شباكى . أجد لذة فى اذلال الرجال انتقاما من مأساتى !

غير أنها لم توقع فى الشباك الا نفسها . فحين يتركها كريم فى آخر الرواية ، ويعلن أنه مغادر العراق الى الكويت تاركا وراءه كل شيء تقول فى دهشة : أهكذا بسهولة تشطب على الأشياء ؟ ثم تطرق منتحبة ، وتتساءل من بين دموعها : « أتتزوجنى ؟ » فيبتسم كريم ويهز يده فى هزء ويقول :

— هذه نكتة قديمة يا مريم ، يجب ألا تضحكنا بعد .

والموقف الغادر ذاته يقفه كريم من يسرى . تبعها فى الطرقات وأدمن المتابعة ، حتى لان له قلب العذراء الفاتنة . حين رآها أول مرة قال لنفسه : هل أستطيع بها أن اغتسل من السقوط ، ومن المبادىء ، من أسيل عمران ومن مريم عبد الله ، من العالم ، من سخفى اليومى المتهرىء ؟

شعر مع يسرى وهى بعد لم تقترب منه ان أسيل عمران ماتت ، أنها جزء من ماضيه الذى واراه التراب مع باقى الرفاق وما يمثلون من مبادىء . فلما اقتربت منه يسرى ، واوضحت له ان طراده لها قد طال ، وانهما ليسا مراهقين وان فى امكانه ان يتقدم لخطبتها ، زعم انه لا يصلح لها ، وانه بقدر ما يحبها يخاف عليها من هذا الحب ، ولا يريد أن ترتبط حياتها بحياة شريد مثله . وتسأله البنت هذا السؤال المفحم : لماذا جعلتنى احبك اذن ، فيرد ردا جبانا : لست ادرى يا يسرى ! لست ادرى ! ان المسألة أكبر من تصورى .

ثم يترك لها من بعد رسالة محشوة بكلام رومانسى فارغ ، يطالبها فيه الا تحقد عليه ، ويشير الى ان المستقبل امامها متسع ، فستتخرج ، وتعمل وتتزوج وتنجب أطفالا ، ثم لا يعود كريم

يمثل لها الا شخصا مجنونا احبته ذات يوم .

وهكذا يفر كريم من يسرى بعد أن شعر بالخطر . يفر جبانا ، مذعورا كما هو دأبه دائما .

قال لنفسه وقد انطرح على ظهره فى احدى الحدائق العامة ، يرى مظاهر الحياة تروح من حوله وتجيء :

ـــ لتمت مريم عبد الله أو فلتذهب الى المبغى العام . ولتندثر أسيل عمران ، ولتذهب يسرى الى الجحيم . ليكن كل شيء على عكس ما هو عليه فلن أعض يدى ندما » .

هذا الموقف العدمى الانانى كان يتخلق داخل كريم وهو بعد فى المعتقل . قال لنفسه مرة : لن أغير العالم ، ولن أجعل الشمس تطلع من الغرب .. ماذا لو اطلقوا سراحى الآن ؟ . هل سأحمل السلاح ضدهم ؟ . إن أول عمل أقوم به هو الذهاب الى أقرب حانة لأسكر حتى الموت .

وكريم يعرف نفسه حق المعرفة . ليس مناضلا هو ، ولا هو قادر على مجرد الوقوف على قدميه . والجبن والتردد كانا معه منذ البداية ـــ قبل المعتقل . « يوم اعطيت رأسى للكتب شربت الجبن والتخاذل . ويوم أعطيته للانتماء عرفت الخيانة والهزيمة » . يقول هذا وهو يضاهى بين انغلاقه وجبنه ـــ بسبب الكتب والمبادىء ! ـــ ودافق حيويته يوم كان طليقا من هذا كله . كان يفرض نفسه على الصبية من الأصدقاء ولم تكن له لغة غير الكلمات . وكان صبيا بارقا حافى القدمين ، ينفق نهارات الصيف فى السباحة وصيد السمك ، ونهارات الشتاء فى اصطياد الطيور فى المزارع .

واليوم وهو فى المعتقل ، يتبين فى حسرة أن أحلام العظمة قد بهتت ثم أدبرت . « الجموع لن تلتف حولى حاملة صورة وجهى المغبر ، ولن تكون هناك مفرقعات تنسف جمجمتى وتحيلنى الى انقاض وحرائق .. أى طموح سياسى ؟ وأية قذارة هذه ؟ » .

لهذا يجيء سقوط كريم الرسمى باردا ، رديئا كما تبين هو نفسه . لا يقوم فى نفسه نضال ولو قصير حين يطلبون منه الردة والتبرؤ من الماضى . لم يكن خائفا بقدر ما كان ضجرا ـــ يقول هو نفسه . وحين يعيره المحقق قائلا : انتهت المسألة ولم يعد مجال لبطولة ـــ ينفى كريم انه كان ينشد البطولة . وبعد اعتراف وشى خلاله برفاق كثيرين يقولون له : انشر تبرؤك فى الصحف فيقول : حاضر ! .

ثم يخرج من المعتقل ليواجه حياة الذلة والخطيئة وليتبين انه لم يعد شيئا يذكر . ويطلق ، اذ هو يتهيأ للهرب من واقع مزر ومستحيل آخر اكاذيبه . يقول لصديقه جابر :

ـــ كل الذى اتمناه يا جابر آن تعودوا ثانية . وربما أعود بعودتكم .

ثم يضيف :

ـــ اننى أحس بانطلاق غريب كلما تحسست جواز السفر فى جيبى . وكأننى قد نبت لى جناحان لأحلق بهما فى هذا الفضاء الواسع . وعندما أشفى سأعود .

عبثا يحاول كريم الناصرى أن يبرر سقوطه وفراره المذعور من كل ما هو نير وجميل وخصيب . لا الفقر الذى عاناه فى طفولته ، ولا الخوف الذى زرعته فيه أمه منذ الطفولة ينهضان عذرا مقنعا له فى السقوط . انما السقوط كان فى داخله منذ البداية . والواقع أن مايميز رواية « الوشم » ويجعلها علامة هامة على طريق تطور الرواية العربية ، هو ذلك الصدق الشجاع الذى تقدم به ـــ ربما للمرة الأولى فى الرواية العربية ـــ شخصية الثائر المرتد . تتعمق اغواره ، وتعطى له كامل الفرصة ليعرض علينا جراحاته وعذابه ، ثم يقف أمامنا ليسمع الرأى فيه . أما دفاعاته فهى غير مقنعة على الاطلاق ، وأما عذاباته فهى مواقف يتخذها من أجل مزيد من تملق الذات والنفخ فيها . وأما وجوده هو كشخصية يبدع الربيعى فى تصويرها ، فهو الشىء الوحيد المقنع .

لقد خطا الربيعى بشخصية « الثائر » خطوة هامة الى الأمام ، حين خرج بها عن طريقين فى تصويرها كلاهما مسدود : الثائر الذى قد من صخر ، لا يأتيه الباطل من ورائه ولا من قدامه ، والثائر « الورقى » ، المتهافت الذى يلغو بكلمات وشعارات ، ثم يسحب وجوده الهزيل خارج الرواية . عوضا عن هذا أفلح الربيعى ، عن طريق الصدق الفنى والجسارة الفكرية معا ، فى آن يخلق شخصيةعربية تمثل المرتد ، تقف دون استحياء بجانب زميلاتها فى الآداب العالمية . ميجورا باربارا ـــ مثلا ـــ فى مسرحية برناردشو .

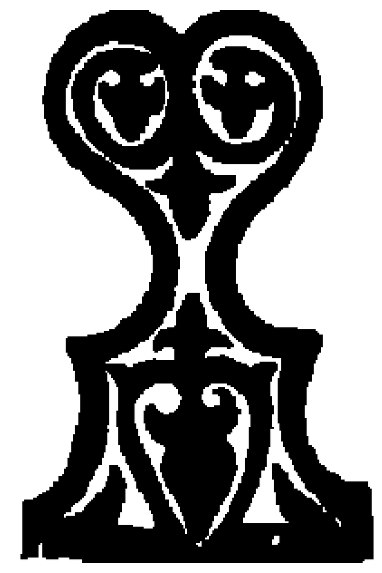
والى جوار بطله ، نجح الربيعى فيى خلق شخصيات أخرى كثيرة تموج بحياة زاخرة ، أهمها تلك الشخصيات التى تحيا حياة الذل والقهر فى المعتقل : حامد الشعلان ، الشيخ التقى الذى قذفوا به الى المعتقل ، لماضيه السياسى الباكر فى السياسة والحزب رغم أنه كان قد ترك هذا كله وعاد الى حضن الاسلام مؤمنا به أشد الايمان ، داعيا اليه ، مجاهدا بالقول فى سبيله . وعلوان الحلاق ، الذى يضيق ذرعا بالنظريات الجوفاء ويصرخ فى وجه مجيد عمران وكريم الناصرى : انتم ايها المثقفون سبب بلائنا . لماذا لا تتركوننا وشأننا وترفعوا عنا وصايتكم التى لا نريدها ؟ ومجيد عمران ، أخو أسيل عمران ، الذى يعترف بأن المثقفين هم فى المقدمة أيام النصر ، وأيام الانكسار هم أول الفارين . وحسون ، الذى ترك العمل الحزبى من زمن ولكن كل نظام جديد يعتقله لماضيه الذى تاب عنه . ومحسن ، الشاب ذو الصوت الجميل الذى يغنى لنفسه وللمعتقل فيهدم ـــ للحظات ـــ كل السدود . كل أولئك يقدمهم لنا الربيعى فى تصوير غائر ، ويجعلهم يحيون أمامنا حياة قوية .

وحتى الشخصيات التى ينقطع ظهورها بعد صفحات ، مثل أسيل عمران . تبقى فى الوجدان . لا ينسى المرء أبدا صورتها وهى تنظر من خلال القضبان ، وقد جاءت تزور أخاها مجيد وحبيبها كريم . لقد قرأ كريم فى عينيها المقتولتين سطور الانحدار والهزيمة . وحين نعلم من بعد أنها تزوجت تكمل قصتها فى أذهاننا رغم غيابها المتصل ، وتظل هى الأخرى تعيش معنا حتى النهاية .

وليس هذا حال أهل المعتقل وحدهم ، بل إن باقى الشخصيات ، حتى العارضة منها ، تظل ماثلة أمامنا بعد أن نفرغ من الرواية : رفاق اللهو من أمثال جابر الموصلى . الراقصة الفاتكة شهر زاد . وحتى البغى البذيئة التى غطت جسدها بالوشم ، فأثارت قرف كريم ، العم الذى قاد الصبى كريم عبر مخاوف الليل والأحراش ، فثبت الصبى للمخاوف ، حتى أعلن عمه أنه سيكبر ليكون رجلا شجاعا ! .

نجمة في التراب

غازي العبادي



يود « ماهودعاصى » ان يصبح مناضلا وطنيا . يود دون حماس كبير ، أو صغير . تقعد به اثقال كثيرة عن النهوض بهذا العبء . أولها تنصله من واجب الكفاح أصلا . يقول لنفسه ان مهمته المقدسة هى اطعام الجياع من اسرته وحسب . ليس من شأنه أن يقول للمستعبد أنت خانع ، ولليأس : ان الحرية هى الحياة ذاتها ، مادام هو شخصيا لم يعرف لها طعما من قبل . ان هذا تدخل لا مبرر له فى قضية لا تخصه .

عبثا يعيو صديقه المكافح محسن نصار بتفاهة شأنه وضعة تفكيره . عندما يتشكك ماهود عاصى فى جدوى اساليب النضال المتبعة حاليا ويقرر أن زمرة الوطنيين الذين يرتبط بهم صديقه محسن لن تستطيع تغيير شيء ما بهذه الأساليب يرد عليه محسن فى ازدراء : وما شأنك انت ؟ انت لم تبدأ بعد . ومازلت على الهامش . ليس من الضرورى ان نغير امرا ، ولكن المهم ان نغير النفوس . نعود الناس ان لا يهابوا الموت حتى توهب لهم الحياة .

ولكن ماهود يرفض هذا المنطق . بالكاد كان قد أمسك وظيفة مؤخرا ، فكيف يفرط بها ؟ ولماذا ؟ المرتب الذى امكنه من اطعام دستة افواه ليل نهار ، والسكن ببيت نظيف واعطاه حق الجلوس مع زمرة مقهى الزهرات القرمزية كل مساء — هذا المرتب لماذا يركله بقدمه ارضاء لنزوة حمقاء لا مبرر لها ، مادامت لا تنطلق من موقف معين ؟ .

ثم ان البلد قد حصل على الاستقلال فى ثورة العشرين . واقام الفلاحون الفقراء دولة لها كيانها ودستورها وبرلمانها وعملتها وجيشها وعلمها . ألم يجمع العلم للبلاد المجد الخالد ، ويرسم الطريق للأمة ؟ وماذا يراد من البرلمان ان يفعل اكثر مما فَعل ؟ ألم يقدم بعض اعضائه استقالة جماعية احتجاجا على فرض المعاهدة التى ادى توقيعها الى كل هذه الفوضى القائمة الآن ؟ أليس

للبلاد مقاعد فى الأمم المتحدة وغيرها من الهيئات الدولية ؟ أليس لها سفارات فى الخارج ؟ كيف اذن يكون الاستقلال ، ان لم يكن هذا كله ؟ ولكن محسن نصار وزمرته لا يريدون ان يرتاحوا قبل ان يغرقوا البلد كله بالدماء . وها هو ذا قد جر معه ماهود الى النهر المتلاطم المياه ، وهو مجرد قشة مستلبة ، مستسلمة لغضب البحر العاصف بانتظار مصيرها .

يجد ماهود نفسه بين زحمة أجساد المتظاهرين . سيول أنهر البشر المنصبة من كل اطراف المدينة تصطخب وتفور وتكتسح كل ماهو قائم فى الساحة . ثم يهدأ كل شيء ، ويظل ماهود وحده ، يدور عاريا يملأ فمه احساس بالخسارة . يمزق التعب قدميه ويفجر رأسه الصداع بعد أن تكون ألف عين قد رأته ، ثم لا يمر وقت يطول أو يقصر حتى يطرق بابه شخص ربما لم يره من قبل ، يطلب اليه فى أدب أو وقاحة ان يرافقه الى مكان قريب ، ثم يختفى ماهود كدخان سيجارة فى عاصفة . من المؤكد ان هذا قد يحدث له ، وبهذا يكون قد غنى اغنيته الأخيرة ، وضاعت منه الدجاجة التى تبيض ذهبا والتى هبطت من السماء ذات يوم .

كذلك يقعد بماهود جوع شديد الى جسد المرأة . فى المظاهرة يصطدم بجدار من الأجساد المتراصة . ووراء السد القوى المكون من الأذرع المتشابكة ، كانت هناك مجموعة من النساء فى عباءات وسافرات . ركّز ماهود نظره على اردافهن . بعضها مكتنز ، تتحرك هابطة صاعدة . شعر بجفاف حلقه يختفى ، يمتلىء فمه بمادة مستحلبه . هتف : كلاب !! اين هى المساواة اذن ؟ أى تخلف ! حتى فى هذا الموقف تلقون بهن وراء الأسوار . اقترب بصعوبة من الدائرة السحرية التى كان يرغب فى السقوط داخلها . ها هو ذا يلامس السور الذى يطوق النساء . كانت عيناه تسقطان على الأرداف . يتخيلها ناتئة من تحت العباءات ، والمعاطف والتنورات الطويلة . قال لنفسه : « لو واحدة يتوسدها المرء وينام ، هكذا حتى نهاية الدنيا !

هذا الجوع الى المرأة هو الذى يسلمه فى النهاية الى أحضان نجمة . فتاة مليحة عذراء ، التقاها فى محطة سكة حديد بغداد . وجدها وحيدة ، حائرة ، فقيرة ، لا تدرى لمن تذهب . قالت له انها جاءت من البصرة بحثا عن امها . ولما تبين انها لا تعرف أين تسكن الأم وانها لا أقارب لها تعرفهم وتستطيع أن تركن اليهم ، ادرك أنها تكذب عليه . ثم فاجأته الفتاة بأنها تريد ان تلتحق بأحد بيوت البغاء ، هربا من زوجة ابيها ومن عجز هذا الأخير عن حمايتها . اذ ذاك أحس ماهود بضرورة انقاذ الفتاة من هذا المصير الفظيع ، فصحبها الى أحد الفنادق على أنها عروسه ، وتمتع بها ما شاء من متعة ، ووعدها انه سوف يتزوجها فور ان يعودا الى البصرة .

 لم تكن نجمة مجرد انثى فى متناول يده ، يستطيع ان يمتلكها كلما ووقتما يشاء . بل كانت

الحل الذى وجده متاحا لطموح غير مشروع وغير مبرر — كما وصفه هو نفسه — ادخل فى روعه انه يستطيع ان يوثق علاقته بفتاة اخرى اسمها سالمة ، طالبة فى كلية الصيدلة ، متحررة ، ووطنية . ومن اسرة مرتاحة ، التقاها مع أخيها سالم اثناء المظاهرة ، فدعواه الى بيتهما بحثا عن الأمان من شر المطاردين .

تعلق ماهود بسالمة . وظل الأمل يراوده فى الحصول عليها ، حتى بعد أن عرف أنها مخطوبة لمهندس ميسور الحال يعمل فى شركة النفط . قال لنفسه ، وماذا اذا كانت مخطوبة ؟ الا يمكن ان تكون غير راضية عن خطيبها ؟ والا فما سر المعاملة الخاصة التى يلقاها منها ؟ وهل من عجب ان تكون وقعت فى غرامه ؟ أليس الحب اعمى ؟ لماذا لا ينتهز الفرصة الذهبية المتاحة ليتخلص من فقره ؟ لماذا لايصطاد الدجاجة اللطيفة التى تبيض ذهبا أو فضة ؟ لماذا لا يستكمل تعليمه ليكون جديرا بها ؟ هراء ما يقال من ان العين لا تعلو على الحاجب . أولى ان نقول : الناس سواسية . .

غير ان ماهود كان يعلم فى قرارة نفسه أنه مهزوم امام الفتاة وأسرتها وخطيبها خاصة . كان قد دعا سالم ، الى بيته لتناول العشاء . فلما يلبثا طويلا حتى داهمت الشرطة البيت واقتادت ماهود وضيفه الى مركز الشرطة ، حيث انقذهما عبد العزيز — خطيب سالمه — بواسع صلاته من قضاء الليل فى سجن الشرطة . خرجا بعد ان كتبا التعهد المألوف بالبعد عن الشغب السياسى . زاره عبد العزيز فى اليوم التالى . ووصف ماهود الزيارة واثرها قائلا : استطاع خلال برهة لا تتجاوز تدخين سيجارة بأنفاس متلاحقة ، أو شرب قدح شاى بارد برشفة واحدة ، وبجملتين منطقيتين ان يحبط كل مشاريع عمره ، ويقتل تطلعاته وطموحاته ، وأفهمه ان من ولد فى الطين لابد أن يبقى بقية عمره فى الطين . وحذره بشكل مؤدب ورقيق للغاية من التطلع الى أعلى ، وان لا ينسى موقع قدميه ولا موقعه فى الحياة ، ولا يفقد توازنة .

لعله من أجل هذا الانكسار الداخلى — الانسحاق امام من هم أعلى منه طبقة ، يعتذر ماهود من عدم قبول دعوة سالمة له لتناول الغداء ، فى اليوم الذى زار فيه عبد العزيز ماهود فى مقر عمله — ويصر على الاعتذار ، لا يتيح لنا المؤلف أن نعرف على وجه اليقين ماذا دار فى نفس سالمه وأخيها سالم من بعد ، فقد انتقلا لبغداد لمواصلة الدراسة فى كليتيهما ، وفقدنا نحن اثرهما لأن الكاتب ينقلنا مباشرة ودون تمهيد الى الحوادث التى تلت التقاء ماهود بنجمة ، ولا يظهر احد من الأسرة المترفة مرة أخرى : لا سالمة ولا سالم ولا عبد العزيز . وان كان ماهود يقرر قرب نهاية الرواية انه قد مضت ثلاثة أشهر لم يسمع فيهما خبرا عن سالمه وسالم . وانهما لم يتصلا به طوال هذه الفترة ، مع انهما يعرفان أين يلقيانه .

قال ماهود لنفسه فى ختام الرواية : ماذا كنت فاعلا لو توثقت العلاقة بسالمة وتطورت الامور الى حد الزواج ؟ هل كانت ترضى بالسكن فى واحد من هذه الجحور التى تسمى تجاوزا بالبيوت ؟ ثم اردف : لكن نجمة مسألة معقولة ، انها مثلى . انا وهى متشابهان . شبه النعل بالنعل ، ولا بأس بانتقالها من الطين الى التراب ، كما وقع لها بالفعل فضاعت فى القذارة .

ان بدا ان ماهود لم يدرك فى البداية الطابع الانتهازى للعلاقة التى حاول ان يقيمها مع أسرة سالمة ، فالذنب فى هذا ذنبه . انه اصم اذنيه عن الاتهامات المتلاحقة التى وجهها اليه صديقه اللدود نصار محسن . قال له محسن وهو يتهيأ لغشيان نادى النفط مع سالم : تريث قبل ان تزج بنفسك فى هذا الوسط الغريب عليك . انا اعرف مقياس هذا الحذاء . لن يصلح لأقدامنا . لرؤوسنا ربما . ولما تجاهل ماهود الانذار توالت عليه الشتائم : انتهازى . متسلق . متلصص . متسلل . تافه . خائن . حقير . رد ماهود قائلا : شكرا . وفى قرارة نفسه كان معجبا بفراسة صديقه وقدرته الفائقة على تحليل شخصيته .

انحاز كل الى طبقته اذن . سالمه وسالم للطبقة الوسطى المترفة ، وماهود اقنع نفسه بعد عناء بأن يرضى بالانتماء الى طبقته . انه برجوازى صغير ، به كل عيوب البورجوازية الصغيرة وكراهة الشعب واحتقاره . التطلع الى أعلى . الخوف حتى الموت من ضياع القليل الذى يملكه . مغازلة الحركات الوطنية أيام صعودها ، والتنصل منها عند الهزيمة .

وفى المقابل نجد كلا من سالم وسالمة يمارسان — من وضعهما المريح — ترف الانغماس فى الحركة الوطنية والتقرب من البروليتاريا . سالم يطلب من ماهود أن يأخذه الى مقهى الزهرات القرمزية الثلاث ، حيث يجلس المثقفون من زمرة نصار محسن يتداولون فى امر التغيرات الثورية القادمة ، واخته سالمه تظهر الاعجاب بأبطال الحركة الوطنية ، ومنهم الصغير باسم ، الذى رفعوه على الرءوس وجعلوه يهتف بالشعارات الوطنية المعادية للحكومة ، حتى خاف عليه ماهود أن يقع فى قبضة الزبانية ، فانتزعه بالقوة وركض به فى الشوارع . فالتقطتهما يد سالم ، ودعتهما الى الراحة قليلا فى البيت . هنالك ظهرت سالمة واخذت تداعب رأس باسم وهى تقول : بطل ! بطل حقيقى ! ومن ثم نما شىء من الود بينها وبين ماهود . ولكنه ود كان محتما ان ينتهى الى لا شىء . فالطبقة اقوى من كل ود .

ينتهى الأمر بماهود الى التخلص من انتهازية ، ورغبته الملحة فى أن « يسقط الى اعلا » ، ذلك بالالتحام بطبقته هو كما تقدم . ولكن هذا الالتحام يتم بطريقة تبعث على الاستغراب . فان ماهود يعرف من صديقه نصار محسن ان نجمة تعمل فى بيت القواده « ام سابو » ، وأنها تلقى رواجا كبيرا فى هذه الأيام حيث يقف امام البيت طابور طويل من الرجال من كل فئة ، كل

ينتظر دوره للانفراد بمومس حديثة العهد بالمهنة اسمها نجمة .

يضيف نصار انه قد « عاين » المومس الحديثة العهد بالمهنة ، وانه طلب اليها أن تعود معه الى البصرة ، وعرض عليها صادقا ان ينقذها . لكنها رفضت وبدأت تصرخ كمجنونة : انت الآخر تريد أن تحدثني عن النظافة ايها الوسخ ! اذ ذاك يعلن ماهود انه يزمع انقاذ الفتاة بأن يتزوجها ويعيش كل منهما في مدينة لا يعرفهما فيها أحد . ومن ثم ينطلق الى بيت أبي نجمة، ويخبره خبرها ويضيف أنه سوف يطلب منه يدها ، بعد أن يعود بها من المبغى ، ولتقم بعد ذلك القيامة .

حل رومانسي لمشكلة الانتماء الطبقي ومشكلة نجمة وماهود معا . ما ان يعرضه ماهود امام نصار حتى يقول هذا : أرأيت كيف ؟ لست جادا بكلامك . ونصار يعرف صديقه جيدا ، وكذلك تعرفه نجمة ، التي تخلى عنها وتركها تسقط في بؤرة الشر . كذلك تعرف نجمة ان عرض انقاذها من القذارة يتقدم به اناس هم انفسهم قذرون . والا فما الذى يدعو مناضلا مثل نصار الى المشاركة في اذلال المرأة ، وتشجيع من يتاجرون بجسدها من أمثال القوادة « ام سابو » . ذلك ماعناه رفاق نصار حين احتجوا عليه لغشيانه دور الخنا . قال واحد : مناضل وتذهب الى هناك ؟ وقال آخر . انت المناضل وتذهب ؟ وقال ثالث : مثلك يذهب الى ا لأماكن الفاسدة الهواء ؟ وقال رابع : وتدعي النضال

اما نصار فيقول ببساطة : اجل . وماذا في هذا ؟ ثم يزايد على صديقه اللدود ماهود بقوله : انه يعتزم ان يتزوج نجمة ويجابه بها كل الناس . فيتهمه ماهود على الفور : حتى في هذا تزايد ؟

الواقع أن الحل الذى يتقدم به الصديقان لانقاذ نجمة ، معيب ، وغير عملي ، ومناف لكل مبادىء التحرر الحقيقية . انه حل رومانسي بورجوازي ، نجد دائما في الأعمال الفنية التي ينتجها كتاب الطبقة الوسطى من امثال الكسندر ديما في : « غادة الكاميليا » وهي دائما تنتهي بأن تُرفض المومس ، بعد ان يقال لها ان لا مكان لها بين الشريفات . من أجل هذا تصرخ نجمة : انت الآخر تريد ان تحدثني عن النظافة ، ايها الوسخ ! . ان المومس اشد ثورية من نصار وماهود . هي تعلم ان الحل الفردى لايجدى . واذا اريد انقاذ المومسات من حياة العهر ، فعلى المجتمع ان يتخلى عن الفساد ، وينتزع جذوره العميقة ، لا أن يجمله بمواقف « بطولية » فردية تحمل طابع « التفضل » ، وليس طابع التغيير الثورى !

لعل غازى العبادى كان جديرا بأن يكون أكثر توفيقا في علاج شخصية ماهود لو كان التفت الى الجوانب الكوميدية في هذه الشخصية . ماهود هو المناضل رغم انفه ، عن غير رغبة حقيقية فيه . يريد ان يناضل شرط الا يدفع الثمن . وهو في أساسه اخوف من فأر في جحر . ما ان

يأتى عملا يعده غير عادى حتى يروح يحسب حساب ما قد ينجم من نتائج .

يريد أن يشترك فى المظاهرة الوطنية ، فيصطحب ابن أخيه الصغير « باسم » ، حتى اذا مارآه أحد لم يخطر بذهنه ان ماهود قد قدم للاشتراك فى المظاهرة . فأى مجنون يصطحب طفلا لمثل هذه المخاطر ؟ لهذا يقرر أن يصطحب الطفل بعد أن يَعِدهُ بأنه سيشترى له حذاء الرياضة الأبيض الذى كان يتمناه . وكان فى مخططه ان يصرف الطفل الى البيت حالما تبدو بوادر الخطر . غير ان شبح صديقه نصار يقفز الى مخيلته فورا . لو رآه ومعه الطفل فسيعرف على الفور الهدف من وجوده . « لا أظن ان المشاعر الوطنية هى التى دفعت الولد للخروج » ــ هذا ماسوف يقوله نصار ، فهو قادر دائما على ان ينفذ الى نفس ماهود ويرى بدقة مايجرى فيها . لهذا يصرف ماهود الولد متعللا بأن المخازن مغلقة وأن المدينة سوف تضرب اليوم ، فلا امكانية لشراء الحذاء .

ويجد ماهود فيما بعد نفسه فى خضم المظاهرة ، فلا يلفت نظره فيها سوى ارداف النساء التى يتخيلها ناتئة تحت العباءات والمعاطف والفساتين ويسوؤه ان النساء قد ضرب حولهن سور متين من الأذرع فيهتف محسورا : أين المساواة اذن ؟ ولما يعود الى البيت يأخذ يرتعد من الخوف . ترى هل رآه أحد فى المظاهرة ؟ هل يطرقون بابه الليلة ؟ مَنْ من العيون تعرف عليه ؟ ثم يأخذ يعد دفاعه : « أنا لم اشارك ولو بهتاف . كنت مجرد متفرج . هبطت من التل ووقفت اتطلع من بعيد للأرداف المكتنزة . ولا أدرى ما اذا كانت هناك مادة قانونية تعاقب على هذا العمل أم لا . ولا أدرى أين يتعدى . جنحة ؟ جناية ؟ أم جريمة ؟

ويأخذه صديقه سالم الى نادى موظفى شركة النفط ، فلا يكاد يغطس فى المقعد الجلدى الوثير حتى تروح عيناه تجوبان فوق الظهور والأكتاف العارية ، ويصرخ وهو يطحن اسنانه : « ايها اللحم الطرى ! نحن على موعد » . ثم لا يهنأ طويلا بهذا الخاطر الشهى ، فان صوتا فى داخله يصرخ فيه : اخرس !

هذا هو المهرج الشعبى الذى تعرفه الأعمال الفنية المختلفة : الجبان ، الرعديد ، الفائض الحيوية ، الراغب فى ملذات الحياة ، وعلى رأسها النساء ، الذى يتمنى ولا يحصل ، والذى يشعر دائما بأنه اكثر ضعة وفقرا من أن يصل الى مايريد . ولكنه مع هذا لا يستطيع ان يمنع نفسه من التوق والتشهى .

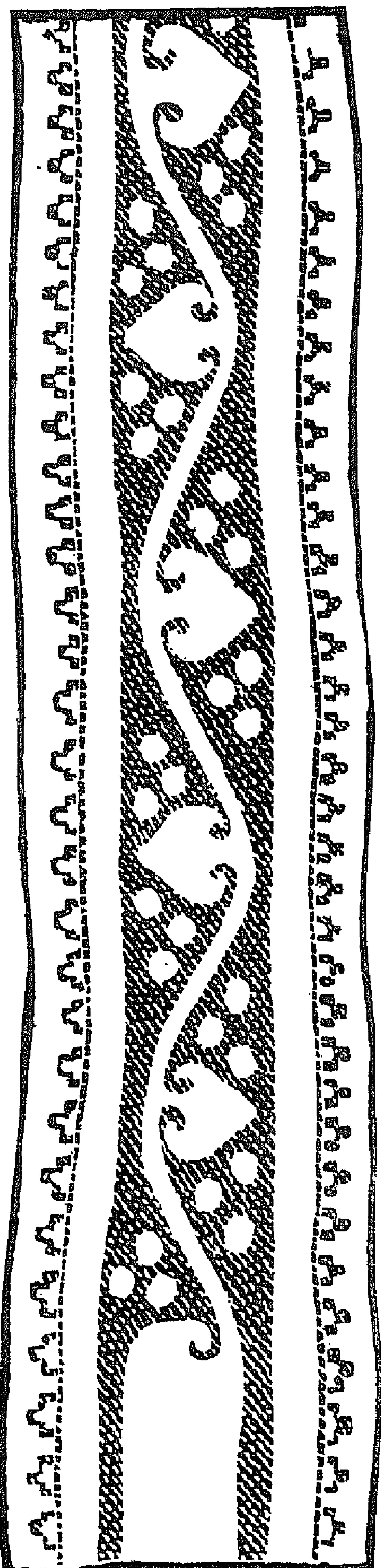
لو أن غازى العبادى طور هذه الناحية فى ماهود ، فلربما كنا قد حصلنا على شخصية كوميدية تجمع بين السذاجة ، والبساطة والمكر ، والسخرية من النفس والناس . ترفد ما نجده فيه من اتجاه الى تلبس الشخصيات . مثلما يحدث حين يذهب مع أخيه ، رئيس العرفاء نعيم ،

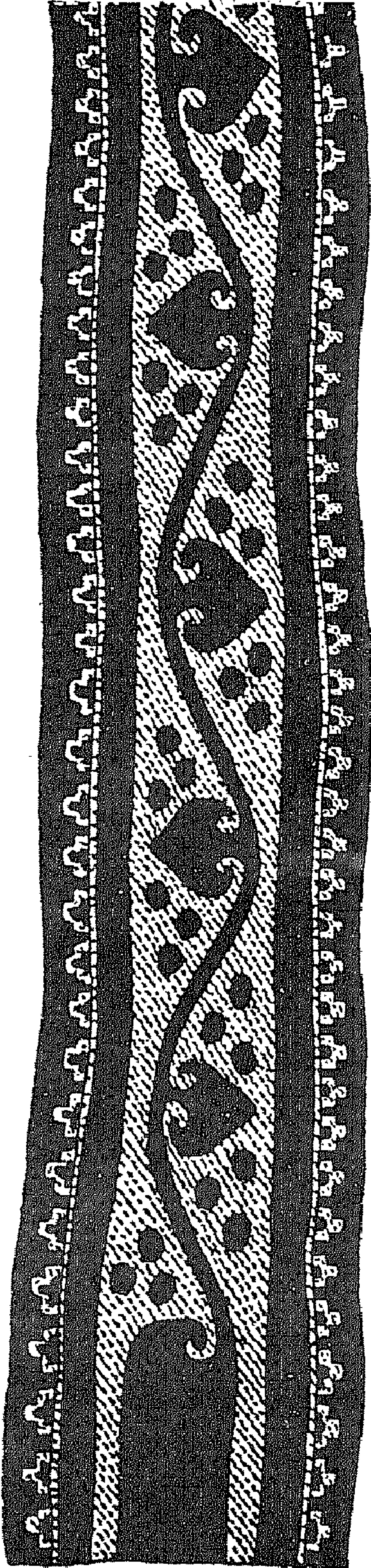
لمقابلة ضابط كبير خدم معه نعيم ذات مرة ، وقامت بينهما علاقة مودة . ذهب الاثنان يرجوان وساطة الضابط فى تعيين ماهود باحدى الوظائف . ينظر ماهود الى الضابط فيقول فى نفسه : لابد وأن لهذا الضابط الطيب نزعه وطنية . ولكن هل تدور بذهنه فكرة القيام بانقلاب عسكرى يعيد الأمور فى البلاد الى وضعها الطبيعى ؟ وعلى الفور يتمنى ماهود ان يتبادل مع الضابط المواقع .

ومثلما يحدث حين يتقمص ماهود شخصية صديقه اللدود نصار فى الحديث المحتدم الذى دار بينه وبين عبد العزيز ، خطيب سالمه ، فى نادى موظفى شركة النفط . كان ماهود قد تقمص قبل دقائق شخصية شمشون الجبار وأمسك بيدية الركيزتين المنتصبتين بمدخل الباب وهتف فى نفسه بصوت عال : علىَّ وعلى اصدقائى يارب ! ثم رأى اللحم الطرى فخسأ من فوره ، وعاوده الشعور بالتدنى . ثم عاد يلتهب من جديد فى حديثه مع عبد العزيز داخلا فى اهاب صديقه نصار .

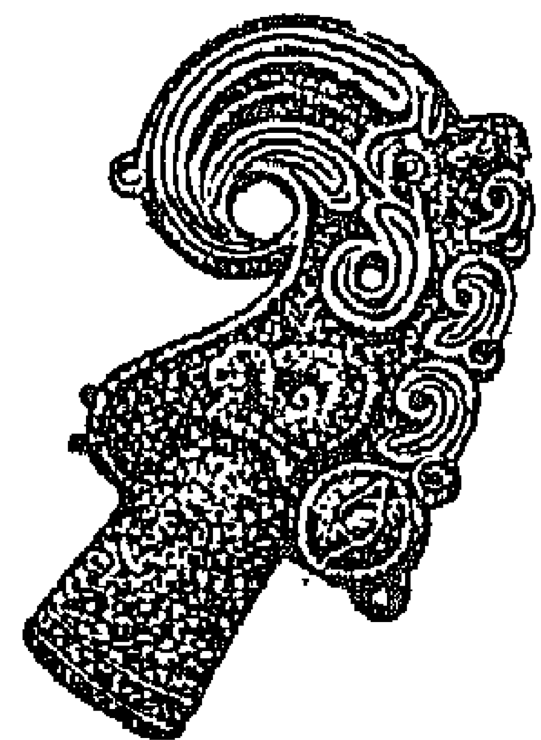
يضاف الى هذا الدور الكوميدى الواضح الذى يلعبه نصار فى حياة ماهود . كلما خدع نفسه ، أو نطق بكذبة ، أو اتخذ موقفا لا يقدر على متابعته انتفض نصار فجأة كما ينتفض « عفريت العلبة » ونطق بالحكم او الرأى الذى يشك بالونة ماهود ، ويعيده فجأة الى الأرض .

كل هذه السمات والملابسات التى تحيط بماهود كان يمكن استخدامها بشكل فعال على نحو مافعل اميل حبيبى فى « المتشائل » حيث سعيد يغطى جبنه وتوقه الى الخدمة فى مزاج من السذاجة والمكر إذن لكانت النهاية التى انتهى إليها ماهود ، والتى أبديت استغرابى من عدم منطقيتها ، جديرة بأن تصبح مقعنعة ومقبولة .





العراق ودول الخليج



الرواية في السعودية

شرق المتوسط

عبد الرحمن منيف



قال حامد يخاطب نفسه ، لا يهمه أن سمعته زوجته أو لم تسمعه :

« هل يمكن للانسان أن يعيش بهدوء فى هذا البلد اللعين ؟ لا أحد ينجو . الذى يعمل فى السياسة والذى لا يعمل ، الذى يحب هذا النظام والذى لا يحبه .. بلد مجنون ... » .

أى بلد هذا ؟ لا يذكر عبد الرحمن منيف اسما له . ولكنه يوحى لنا ايحاء شديدا ـــ بعنوان روايته ، وبأفكار بطله رجب ـــ أن البلد الذى يقصده يقع شرق المتوسط ـــ ومن ثم : عنوان الرواية .

فى شرق المتوسط ينتزعون من البشر كل شىء : الدموع . الرغبة . وحتى الذكريات اما الأفكار التى تعبر رءوسهم فى الليل فهم يحيلونها كلمات وأسماء يستودعونها تقارير الملاحقة . وفى مقابل هذه « الخدمة » يمنحون الانسان الضرب والألم وحنينا موجعا للنهاية والموت !

تقول أخت البطل أنيسة : « أتمنى لو نستطيع أن نهرب من هذا البلد ، ولكن الى أين ؟ وهل الأماكن الأخرى تستقبل لاجئين يبحثون عن الحرية ولقمة الخبز .. لقد ولدنا فى لحظة شقية » . وتقول أمها : « يأخذون الرجال ولا أحد يعرف الى أين أو الى متى . الدنيا فى نهايتها ، ولا يمكن ان تبقى هكذا » .

هذه أسرة منكودة ، شاء سوء طالعها أن تعيش شرق المتوسط ، حيث الجلادون يمارسون مع سجنائهم أبشع ألوان التعذيب وفى الوقت ذاته يحبون طيور الزينة ، يطعمها نورى ـــ أحد هؤلاء الزبانية ـــ بيديه ويقف طويلا يتأمل ريشها الأصفر ، ومناقيرها التى تنغمس فى فنجان الماء الأبيض بينما ابتسامة شديدة الفرح تطفو على وجهه .

والأصل فى هذا البلد هو المنع . التحريم التجريم : الفكر ممنوع . الرأى مصادر . الحرية

مشبوهة . الفرح يولد ميتا . الناس يولدون ويلقى بهم فى الحفر ويموتون حتى قبل أن تستوى لديهم الأحلام .

والحياة مسحوقة . ومدفوع بها الى مسارب سرية . يوضع رجب فى السجن المنفرد فترة ، ثم يلقى به مع سجناء آخرين ، فكأنما منح الحياة من جديد . فى القبو الذى ألقى فيه أول ما جاء يحارب الجنون . أمسك مرة نملة سوداء كبيرة ، قدم لها رغيفه كله ، ووضع أمامها قدح ماء وقال : تبقين هنا ثلاثة أيام . أنت ضيفى . ولكن النملة تركته وانزلقت عبر أحد الشقوق ، فلم يطاوعه قلبه على احتجازها .

واذ هو مجندل على الأرض ويداه معصوبتان تحت ظهره ، يتمزق من الألم ، بعد أن تناوله الجلادون بما قدروا عليه من صنوف التعذيب ، التفت الى قفص طيور الزينة فوجدها تتقافز وتغرد غير مبالية . فقر فى نفسه أن الانسان وحيد ، وحيد فى هذا البلد ! .

وما تصوره رواية : « شرق المتوسط » يتلخص فى عبارة قصيرة : صاحب الرأى بازاء أدوات التعذيب . الى متى يستطيع صاحب الرأى أن يصمد فى وجه اناس أصبحوا من فرط ممارسة القسوة والعنف أدوات ولا بشرا . ازدوجت شخصياتهم ، فهم ينامون ملء الجفون بينما القطط المحبوسة فى غرار تنشب مخالبها فى أجساد سجناء وضعوا معها فى الغرار ذاتها ، ليكونوا فريسة سهلة لحيوانات يجرى ضربها لتثور فيها غرائز النهش .

لا يضعف رأى صاحب الرأى هنا ، وانما ينهار . شىء خارج عن ارادته يقرر له : هو بدنه ! وهكذا يجد رجب نفسه يوقع — كالمنوم — وثيقة يتعهد فيها الا يعود للاشتغال بالسياسة .

يوقع رجب الوثيقة فيوقع معها شهادة بوفاته . يشعر بالسقوط . وتبدأ الرواية وهو يجتر مرارة هذا السقوط .

كانت خطيبته هدى قد تركته . بدا لها أن انتظار أحد عشر عاما حتى يخرج من السجن أمر فى غير طاقتها ، فطاوعت الرغبة الأقوى ، وتزوجت .

وكانت أمه قد ماتت ، بعد أن أقامت الأرض وأقعدتها دفاعا عن ابنها ، وتعرضت لصنوف من المهانة كادت تمس شرفها .

وكانت أخته — من فرط حبها له — قد أخذت تزين له الحياة خارج السجن . الشوارع المضاءة فى الليل . الرجال والنساء كل شىء يسير دون خوف . المطاعم مفتوحة والطعام شهى . والأطباق متنوعة . و ..

الى متى يا رجب تظل وراء القضبان ؟ والى متى تظل وحدك ؟

وحده ؟ لم يكن رجب وحده . كان معه باقى رفاق السجن . ولكنهم كانوا يتساقطون واحدا وراء الآخر . الا هادى الذى صمد حتى قتلوه .

ولكن الصمود ليس ارادة فردية . وانما ينبغى أن يتغذى صمود الفرد بتماسك الجماعة . والجماعة المحيطة برجب ــ الجماعة خارج السجن ــ المجتمع كله لم يكن متماسكا . بل كان شرا من ذلك . كان غير مبال .

وحتى الأخيار من أفراد ذلك المجتمع ، مثل عبد الغفور الذى يدرس الفنون الجميلة من سنوات فى مرسيليا ، قال لرجب أنه يكره السياسة وليس له صلة بالطلبة وانما يقضى وقته كله فى المعهد ، وما تبقى له من وقت يقضيه مع النساء .

وحينما يذكره رجب بأن بيكاسو قد رسم لوحة « الجيرنيكا » استلهاما من قضايا شعبه يرد عبد الغفور :

ــ كان بيكاسو يقود شعبا استوعب حضارة أما هناك فإنهم لم يستوعبوا شيئا .

ويعود رجب ليقترح عليه أن يساهم فى توعية شعبه فيرفض عبد الغفور ويقول : أن عليه فقط أن يلعن القدر الذى جعله يولد على ذلك الشاطىء . ان كان هذا خطأ فهو يرتكبه لكيلا يدفع الثمن غاليا : السجن .

وحدها ، تظل أسرة رجب متماسكة فى الاحساس المرهف بالظلم وفى محاولة دفعه عن أفرادها وعن باقى الناس . علمتها الأحداث اللاحقة للافراج عن رجب أن الحرية كل لا يتجزأ . فها هو ذا رجب طليق ولكنه سجين . وها هو ذا الزوج حامد يتعرض للمساءلة يوما بعد يوم ، ويبقى الساعات الطويلة والأيام كاملة محتجزا لأنه كفل رجب وأصبح مسئولا عنه ، بعد أن سمحت السلطات للأخير بالسفر الى الخارج للعلاج ، شريطة أن يصبح عينا للسلطات على الطلاب فى الخارج . فحين تمر الأسابيع ورجب لا يقوم بهذه المهمة الشائنة تفتح سلطات الملاحقة لزوج أخته حامد حسابا جاريا لديها . هنالك يردد حامد ، وقد وعى الدرس تماما ، العبارة التى تصدرت هذا المقال : « لا أحد ينجو . الذى يعمل فى السياسة والذى لا يعمل » .

يتململ رجب ويتوجع اشد التوجع لسقوطه فى هوة « التعهد » ، فيروح يفتش عن وسيلة تعوضه عن التردى المهين .

يتأمل رواية تكتبها أسرته كتابة جماعية تصور فيها حال البلد ، ثم لا يلبث أن يتبين أن قدرته على الكتابة قد سقطت مع سقوطه هو . ويستعرض مشروعا يقدمه للأمم المتحدة ومكاتبها المتخصصة يعرض فيه للتعذيب كظاهرة ويفضح فيها الأساليب التى يتوسل بها الزبانية لكسر روح الانسان . ولكن هذا كله غير مجد .

هنالك يقدم الطبيب الفرنسى المعالج نصيحة هامة : « اذا استسلمت للحزن فسوف تهزم وتنتهى ، سوف تهزم كانسان وسوف تنتهى كقضية .. كل ما أرجوه منك الآن المحافظة على صحتك » . وبسبيل الحفاظ على صحته ، نصحه الطبيب أيضا ألا يغضب . ألا يتوتر . ألا يبالغ فى الفرح .

وسخر رجب من نفسه وظن الطبيب يسخر منه . فهل يتصور الطبيب أن على الشاطىء الشرقى للمتوسط انسانا واحدا يمكن أن يموت من الفرح ؟ الفرح بالنسبة للشعب طائر مهاجر . حتى الجلادون لا يظن رجب إنهم قادرون على الفرح . أنهم ينامون تحت أقواس من السياط ، تحت اشباح الصرخات يأكلهم الخوف من أن تدق أبواب بيوتهم أواخر الليل وينتزعون من فراشهم لكى يؤدوا الدين .

وبعد سفر رجب ، تشتد على حامد وطأة الملاحقة ، وتسوء حاله ، وإن ظل على عناده وعلى تصميمه فى مناطحة السلطة . فتوحى زوجته ، انيسة ، اخت رجب ، لأخيها بأن يعود ، لأن بقاءه بالخارج سيكلف الأسرة غاليا .

ويعود رجب بالفعل ، فتتلقفه أيدى السلطة من جديد . ومن جديد تدور آلة التعذيب ثم تلفظه بعد ثلاثة أسابيع فاقد البصر ، محطم الجسد ، ميتا ولا ميت ــ الى أن يموت بالفعل بعد وقت لا يطول .

تبرز فى الرواية ــ بصفة خاصة ــ مشاهد التعذيب والملاحقة ، كما يبرز دور الأم البطولى التى مات زوجها ، وهجرها ابنها البكر بعد ان تخلى ــ بخسة كبيرة ــ عن واجبه فى اعالة الأسرة . فاضطرت الأم الى أن تعمل ليل نهار كى توفر لابنتها انيسة ، وابنها رجب ضرورات العيش ، واجهدت نفسها فى هذا السبيل حتى كاد نور عينيها أن ينطفىء . ومع ذلك فقد وقفت بشجاعة نادرة تحرض الابن ، وهو فى السجن ، على الا يتخاذل أو تهن قواه فيبلغ عن زملائه . قالت له ذات مرة : اسمع يارجب ، انا أمك وانت قطعة من لحمى ، وليس فى هذه الدنيا احد يعزك مثلى . لكن لا تسمع كلام عمتك . ماذا تقول للناس ، لأصدقائك غدا ، اذا اعترفت وخرجت ؟ الحبس ياولدى ينقضى . افتح عينا واغمض عينا تمر الأيام ، وتبقى رافعا رأسك . اذا اعترفت فكلهم سيقولون : خائن . ولا تستطيع أن تنظر فى وجه أحد . خذ بالك ياولدى .

قالت الأم هذه الكلمات الشجاعة وهى تشد وجهها لكى تخنق فى نفسها الخوف والحنان ! واسترجع رجب هذه الكلمات بعد خروجه من السجن فقال : لماذا مت ياأمى ؟ لماذا ؟ لماذا تركت أنيسة الضعيفة لتكون نافذتى على هذا العالم ؟ آه لو أن لى اختا غيرها ؟ كانت امه

صخرة ، أصلب من كل الصخور . لم يرث رجب ولا أنيسه شجاعتها الفائقة . كانا ضعيفين فى وجه الأحداث واضافت انيسة الى ضعفها مجهودات دائبة للتأثير على رجب فى سجنه . فقال رجب وهو يتأمل موقفه وموقفها : انيسة دمرت حياتى . جعلت أيامى الأخيرة فى السجن جحيما . كانت تنقل الىَّ حقارات العالم الخارجى وأنباءه كان قويا فى سنواته الأولى بالسجن اذ استند الى حب امه ورعايتها فتحمل من الضرب والاهانة ما لا يحتمله بشر وصمد . فلما رحلت الأم ، تغير كل شىء فيه . تحالفت عليه الآلام ، والخوف من الموت ومن عالم الحرية . وملأته الكراهية . أصبح انسأنا مختلفا . وخانت خطيبته هدى عهده فزاد ضعفا على ضعف ، وتخلى عنه جسده الذى جعل يضعف وتنتابه الأمراض بصورة متزايدة ، حتى انتهى رجب الى التراجع المهين .

ينتقل رجب من كراهية زبانية التعذيب والمجتمع الفاسد الذى يدافعون عنه الى كراهية أوسع واشد تدميرا . كراهية الانسان نفسه . وهو على ظهر السفينة « اشيلوس » المتجهة به الى أوروبا للعلاج ينفجر فى نفسه صراخ حاد كريه يسميه هو : « العواء الأجرب » . يقول : على الأرض حيوان له قامة طويلة ، واذرع قريبة الشبه بأذرع الشيمبانزى . اما الساقان فضامرتان ، وفى نهايتهما اقدام عريضة . فى القمة كتلة صلبة مغطاة بالشعر ، وفيها ثقوب عديدة ، فى المقدمة وعلى الجانبين . وهذا الحيوان يستخدم الثقب الأمامى ، خاصة العريض فى اسفل الكتلة الصلبة ، فى القرض والفناء والصفير . وأيام الشتاء يستخدمه للتنفس . أما ايام الرعب فانه يستعمله لغرض واحد فقط ، لم يعرف له بعد اسم معين . قال بعضهم للدفاع عن النفس . وقال آخرون : للقتل . اما الكثرة الغالبة ، فتؤكد ان الاستعمال الوحيد لهذ الثقب فى زمن الرعب ، يكون للقتل أو للانتحار . ويمضى رجب مع افكاره السوداء هذه فيقول : وهناك اعتقاد واسع ان هذا الحيوان سينقرض خلال فترة قصيرة ، وفى حال انقراضه ستحتفل الحياة ، لأن اختفاء هذا الحيوان هو بداية السعادة الحقيقية على الأرض . لقد حاولت حيوانات الأرض الأخرى ان تتعايش معه فوافق فى البداية ، ثم انقلب عليها واخذ يقتلها ، حتى انقرض منها عدد كبير . هنالك ذهبت الحيوانات بعيدا عنه . ولكنه ظل يحاصرها ويقتلها فى كل مكان . ولما لم يجد من يقتله بعد هذا اخذ يقتل نفسه . وهكذا بدأت المجازر منذ آلاف السنين ولم تتوقف . من هنا ساد الاعتقاد بقرب انقراض هذا الحيوان ، خاصة وأن طرق القتل وادواته تطورت كثيرا وأصبحت لاتخطىء أبدا .

ثم يوجه رجب الخطاب الى الباخرة اشيلوس : يطلب اليها ان تكثر من الاهتزاز ، وان تتحول الى حوت ، فاذا ما أصبحت حوتا ، فعليها أن تنتفض فجأة ، وتقلب البشر فى البحر . وعندما

يطفون حواليها موتى ممسوخي الوجوه ، فتلتقطهم واحدا بعد آخر . لتزدرد هذه المخلوقات التائهة الشائهة بذكرياتها ولحظات سقوطها .

ويحذر رجب الباخرة من ان تعود يوما للشاطىء الشرقي . سيجدون لها سردابا اصغر من القبر ، وعليها اذ ذاك ان تقاوم الجنون والوحدة . فسوف يضعونها فى كيس مع القطط . والقطط مجنونة ، تفزع من البشر ، وتجفل من الخطوة ، وتعاف قطعة الخبز ، ونداء الحرية عندها اقوى من نداء الجوع .

هكذا فعلت الملاحقة والتعذيب بنفس رجب . أصبح يمقت لا الانسان وحسب ، بل والعصافير التى حملتها احدى راكبات السفينة ، واشترتها من شرق المتوسط ، واخذتها معها الى وطنها فى السويد . ابتسمت الراكبة لرجب لما رأته ينظر الى طيورها فى دهشة . راقبته من بعيد ولم تقل شيئا . اما هو فيطلب الى الباخرة ان تقول لهذه السويدية التى تنام الآن فى فراش دافىء ، تحلم بطيورها انه يكره كل الطيور وان نظراته بالأمس الى العصافير كانت تشفيا ملعونا .

نبع هذا الكره كله للانسان حين قر فى نفس رجب ان القهر ، والتعذيب والحياة المحاصرة هى نمط الحياة للانسان فى كل مكان . فلما وصل الى باريس رأى أمورا عجيبة . الأحزاب لها مراكز مكتوب عليها الأسماء بوضوح . يدخلها الناس دون خوف . يدخلون دون أن ينظروا وراءهم . ويتكلمون فى الشارع . وبصوت عال . اما الجرائد فانها تنشر كل شيء . الأفكار وحوادث القتل ، والطرق الحديثة فى العلاقات الجنسية ، اما الكتب فان الانسان يعجز عن معرفة ما يصدر منها لكثرتها . على ضفاف السين آلاف الكتب . ملايين الكتب . كانت عيناه تمران على العناوين ، وما تكاد تستقر حتى يرتجف ، يتلفت ، لا يريد ان يراه احد .

ويمر بخاطره ما يحدث فى بلده بشأن الكتب . يذكر تقارير التفتيش فى بيته : « وجدنا لدى تفتيش بيت الموقوف الادوات الاجرامية — المرفقة » . يلى ذلك اسماء الكتب . اذ ذاك يخاطب رجب اهل باريس . يحذرهم من ان يأتوا بكتبهم الى شرق المتوسط . لو فعلوا لقضوا حياتهم كلها فى السجون . سيأكلهم الندم . وسوف يكفرون بكل شيء . سيدفعون حياتهم كلها لقاء المعرفة . سيزج بهم فى السجون ويصابون بالسل والتيفوس ويموتون .

غير انه لا يلبث ان يتذكر ان باريس لم تحصل على حريتها مجانا . كانت هناك المشانق والمقصلة والحصار . باريس قاومت وقدمت الشهداء . اما هو فليس له ان يتحدث عن الحرية بعد ان سقط . لقد فقدت الكلمات عنفوانها فى فمه . اصبحت مهترئة ، ومع سقوطه فقد أيضا قدرة الرجل فيه .

لما حكى للطبيب الفرنسى الذى يعالجه قصة حياته فى السجون ، قال له الطبيب العجوز :

« اقدر الصعوبات التى واجهتها ، لكنى اعتبرك رجلا والرجال لا يسقطون . اننى الوحيد الذى بقى من عائلتى . قتلوا اثنين من اخوتى .. قتلوا أمى . ثم قتلوا زوجتى . كنت أسيراً وفررت. منذ اللحظة التى وصلت فيها البندقية ليدى وحتى نهاية الحرب ، لم أتركها .. اريدك ان تكون حاقدا وانت تحارب . حوّل احزانك الى احقاد ، وبهذه الطريقة وحدها يمكن ان تنتصر . الحزن وحده طريق الهزيمة » .

هذه رواية شجاعة ، مرهفة الحس ، تحب الانسان حتى الجنون ، وتتفجع لمصيره حين تصادر حريته وسعادته ، وفرحه ، وجسمه وشرفه . تمجد الانسان حين يصمد ، وتحدب عليه حين يسقط ، وتوضح شقاءه مظلوما أو ظالما . ليس السجين وحده هو الذى يتعذب وتهدر آدميته ، وانما يتعذب معه أيضا السجان الذى تستأصل فيه الرحمة والفكر وتختنق منه الروح حتى يصبح آلة فارغة العقل والقلب ، تنوشه المخاوف من مصير أسود ينتظره لو تغير اتجاه الأحداث .

من أجل هذا يقول رجب وهو يتأمل كلام الطبيب الفرنسى ، الذى يحذره من شدة الفرح : حتى الجلادون ليسوا قادرين على الفرح ! .

الغيوم ومنابت الشجر

عبد العزيز مشري



يفرح الأطفال حينما يكون الصباح ماطراً يجدون فى هذا عذرا كافيا كي ينقطعوا عن المدرسة . يفضلون ان يجلسوا مع باقى الأسرة كى يسمعوا حكايات الجدة ، تحكى لهم كيف ان القرود كانوا بشرا يوما ما ، ثم سرقوا غطاء رأس النبى وجبته وعصاه ، فدعا عليهم النبى وقال : رب اجعل غطاء رأسى قفا لهم ، واجعل عصاى اذنابا ، واجعل جبتى شعرا على جلودهم . فاستجاب الله ومسخهم قرودا الى يوم القيامة . يدهش الأولاد للحكاية يسألون مدرسهم فيقول : كلام عجائز .

فى المدرسة يحصل الأولاد على تعليم شكلى . يحفظ الواحد منهم سورة كاملة دون أن يستطيع شرح معنى بسم الله الرحمن الرحيم . مدرس الحصة الفنية يحرمهم مرارا من متعة الاستجمام فيها من عناء الدروس الجادة ، ويتنازل عنها لمدرس القرآن أو مدرس الحساب . ويسأل الأطفال : لماذا لا يتبرع مدرس الألعاب الرياضية بحصته ؟ الطفل الراوى يقول أنه فى حصة الألعاب الرياضية يكون غبيا كسولا ، ولا ينجح فى لعبة كرة القدم الاّ كمتفرج . وكم ذاق من الويلات والشتائم عندما كانوا يجعلونه حارس مرمى . يقول الولد انه معروف بالتفوق فى الرسم . ولكنهم كانوا يوبخونه بدعوى أن الرسم مهزلة وتضييع للوقت ويتعجب : لماذا لا يقولون هذا عن حصة الألعاب الرياضية .

فراش المدرسة كان مخوفا مثلما كان مدرس الحساب تماما . يحمل فى يده دائما عصا . لا يقرأ ولا يكتب ولا يحفظ قرآنا . لكنه كان يتولى تأديب التلاميذ بالضرب المبرح بالعصا على الوجوه والمؤخرات والأيدى ، لأى سبب يعيرهم بأنهم جيل الفاشلين الوسخين .

مدرس الحساب يخافونه اكثر مما يخافون آباءهم . كان يعذبهم بصنوف الضرب . يضرب الواحد منهم فى يديه بالعصا ، ويدق مؤخرة رأسه فى السبورة ويركله بقدمه ويخرجه من الحجرة ، ويجرى وراءه يرميه بحجارة الساحة امام الغادى والرائح . يراه المارة فيقولون : ياسلام . هذه هى

التربية . هذا هو التعليم . أبو احد الأولاد قال لمدرس الحساب ذات مرة : هذا ولدى . من يدى الى يدك . خذه لحما ورده لى عظما بلا لحم .

مدرس التاريخ كان لونا مختلفا من الناس . يلبس البنطلون والقميص والحذاء . اردنى ، طيب ومتفاهم . كان الأولاد يجمعون له البيض من عجائز القرية يعطيهم الثمن مرة ، ويستدين الأولاد البيض من العجائز، ولا يدفعون الثمن. علمهم المدرس كثيرا من القصص السهلة، وعلمهم الخط الجميل وحب المساعدة .

ذات مرة هجم الجراد . امتلأت السماء بغيمة كبيرة حمراء . قال الأولاد هذه هى القيامة ، أو احدى علاماتها . سألوا الجد عن تفسير فقال : هذا خير يرسله الله لعباده . يأكل من خبزنا ، ويعطينا كل خيره . الناس يجمعون الجراد فى اكياس كبيرة ويحمصونه ويأكلونه ، ويدخرونه لأيام الشتاء اذا ما شح الغذاء .

فى الأيام الحاضرة اختفى الجراد . قال الناس ان النصارى جاءوا بدواء للجراد يبيده فى الأرض والجو ، ويحرمهم من نعمة الله . أراد الولد ان يعرف من أين يأتى الجراد فرسم المدرس الأردنى دائرة كبيرة بالطباشير ، وأخذ يشرح مراحل تطور الجراد من البيضة الى اليرقة الى الحورية . سأله الولد عن معنى يرقه فقال المدرس انها تشبه الشرنقة . قال الولد لأمه : الجراد يجىء من البيض ، فضحكت منه وقالت : ياولدى ، ما يعطى العقول الا الله . سأل مدرس التوحيد ، فقال له : يا فيلسوف ، احفظ ما عليك وبلاش فلسفة .

الأم هى الوحيدة المسئولة عن حاجة البيت من الماء تحمله على ظهرها من البئر . من غير بكرة تسحب الدلو الثقيل وتملأ القربة . تفرغ القربة فى داخل بطن الحنفية الزنك . تمتلىء الحنفية ، وتعود الأم لتملأ القربة . تنهى الأولاد عن التبذير فى الماء ، وتقول ان هذا التبذير يعنى حرمان الله لنا منه . وموتنا من العطش . وكان الأولاد يخافون ويمتنعون .

بالبيت صورة فاقدة الألوان تمثل الإمام على بن ابى طالب على فرسه الفارع وقد ضرب بسيفه ذى الرأسين فخذ مبارزه عمرو بن ود العامرى . هذه هى الصورة الوحيدة فى البيت . أما صور الاب والجد فلا توجد . يقول الجد أنه سمع حديثا عن الرسول معناه : لا تدخل الملائكة بيتا فيه صورة . منع حفيده مرارا من تعليق أية صورة من كتاب أو مجلة . سمح ، مع ذلك بتعليق صورة واضحة للملك سعود أو الملك فيصل أو ابيهما الملك عبد العزيز . لم يجد الولد صورة واضحة لهم تجمع بين الملوك الثلاثة .

الراديو القديم ذو البطارية الكبيرة يلتقط اذاعة لندن . صوت العرب . صوت نداء الاسلام من مكة المكرمة . ما يطلبه المستمعون من اذاعة بغداد . برنامج ابو محمد من اذاعة عمان .

كلما تذكر الأولاد المدرسة والمدرسين يصيحون : يلعن ابوكم . سمع رجل هذه اللعنة فقال : هكذا علمتكم المدرسة ؟ اللعن حرام . من تلعنون ؟ لا يعلم الرجل أنهم يلعنون المدرسة وكل من يعمل فيها .

القرية تتغير . وردت اليها السيارات ، ومعها الحبوب والفواكه النادرة ، والملابس الجاهزة . النفس تشتهى الجديد ، والجديد يحتاج الى الريالات ، والريالات لا تأتى الا ببيع الثور والبقرة والغنم . ترك الشباب ذوو الزنود القوية الأرض وسعوا الى السفر . لم يستطع الشيوخ أن يتركوا الأرض . من مات منهم كان يموت بحسرات كبيرة .

ومع ذلك فثمة قلة من الرجال لاتزال قوية وصلبة ملتحمة فى علاقة بالفلاحة . هؤلاء يعرضون عن القمح الأمريكى ، ويشاكس الواحد منهم أهل بيته فيطلب منهم خلط القمح المحلى بالشعير وصنع الخبز الأسمر . فطعمه لا يوجد فى قمح النصارى . والنصارى هم اعداء العرب والمسلمين ، لا يصدر عنهم الا كل ماهو ضار . وهؤلاء النصارى هم الأمريكان وحدهم ، اما باقى الأجانب فيسمون بأسماء بلادهم : انجلترا . طليان . ألمان . وألمانيا هى أم الصناعات . أما اليابان فصناعتها تقليد سريع العطب . والمسلمون لهم الآخرة والثواب دائما ، لأنهم يعرضون عن ملذات الدنيا . ولا ينالون فى الدنيا الا على قدر ما يتعبون ويزرعون .

يحتفى عبد العزيز مشرى احتفاء واضحا وعطوفا بهذا الماضى الذى يسرع الى اختفاء . يصف « عمارة » البيوت القديمة ، ويفيض فى وصف المعتقدات والممارسات الشعبية والدينية : صلاة الاستسقاء . علاقة الزروع بالبدو ، الذين يتسلمون قطعان الزراع فى موسم الحصاد ، لمنعها من التهام المحصول يتسلمها البدو ويتعهدون برعايتها وتسليمها فى الوقت المحدد بزيادة عدد من الحملان الصغيرة تكون قد انجبتها النعاج .

ويصور الكاتب العلاقات الانسانية الدافئة التى تربط اسرة الراوى . يعود الأب بعد سفر طويل ، فيوزع القبلات والابتسامات على الأولاد ، ويخص الولد الكبير بالسؤال الدقيق عن الدراسة والأحوال . يعقد الأب آمالا كبارا على الولد . سيتخرج بعد عامين . ويسافر . ويلتحق بوظيفة ، ويزور الأسرة فتفرح بمجيئه بعد الغياب .

ويعلم الأب أن الأم مريضة ، راقدة فى فراشها منذ سافر . يغمرها الأب بحنانه ، وتنظر اليه وموجة من الامتنان والدفء وفرحة اللقاء تتراقص على جبينها الرابض تحت كفيه . يقول الأب أنه سيأخذها إلى طبيب . فتقول أنها ستشفى قريبا ولا داعى للأطباء . ولكن الرجل يصر ، ويأخذها على حمارته ويسندها بكتفه وذراعه حتى يصلا الى العيادة . يقول الطبيب ان المرض قد تمكن وان الشفاء بيد الله . ويكتب الدواء . تعود الزوجة الى بيتها وقد قر فى نفسها انها متجهة

الى الموت . تقول : انها فرحة ، لأنها اصبحت تستطيع الاعتماد على بنتها ولا تخشى ان يُهْمَل البيت وقت غيابها . وكانت تعنى الغياب الأبدى .

مشهد بالغ الرقة والحنان ، يصوره عبد العزيز المشرى فى رشاقة واقتدار بلمسات خفيفة ، غير جهيرة التعبير ، فتستقبله واعية القارىء ولا واعيته على السواء ، بكل ما فيه من اشادة بعطف الانسان العظيم حين يكون الحب رائده وملهم حركاته .

يمضى المشرى فى تسجيل عادات قومه ، فيحكى كيف يعرض الزوج على زوجته ان يمضى الى السوق ويشترى لها كبدة غنم جديدة ، تشوى على الحطب ، وهى غاية مايشتهيه المريض فى القرى اذا صدت نفسه عن الطعام . قال الزوج ــ اسمه مطر ــ ياحليمه ، انت مريضة والشر سيغدو بك والأكل هو الذى سيرد فيك الروح . مارأيك ؟ ولكن المريضة تقول : انها ماتشتهى ولا الأكل .

ويذهب الزوج الى الفقيه ، الذى يقرأ ويتمتم ويبصق على شياطين المرض ويركب السعوط والمعوط واللطوخ ، ويضرب دهن البقر بحناء المساحيق فإذا حرّك بأصبعه الجاف المسحوق بالندى الطرى ، أصبح المرض خاضعا لأمره . يقصده مطر بعد أن وضع الريالات الى جانبه وقال : لكل سبب مسبب ولا أحد يعرف مكان الشفاء الا الله . ثم جهز حمارة المشاوير ، وقرب الماء وكل ثقيل ، وركب تاركا قدميه الطويلتين تقتربان من الأرض .

غير أن الأيام طوت فى ملاءاتها البيضاء سواد الليالى ، وكان المرض يتفسح بشراسة داخل المريضة فقضت نَحْبَهُا . ولو كان الميت رجلا ، لأقيمت مراسم العزاء ثلاثة أيام ، وقرىء القرآن ، وجاء أهل القرى المجاورة ، ولتجمع الأهالى من كل أطراف القرية ، وحضر كثير من الأولاد للصلاة على الجنازة وللحصول على نصيب من الثمرات وفناجين الشاى فى مجلس الميت . لكن الميت كان حليمة ، امرأة « ناقصة عقل ودين » ، ماتت وأطفالها فى شدة الحاجة اليها . بعضهم كان يبكى والبعض الآخر كان يلعب مع الأولاد دون أن يدرى أن أمه ماتت بمرض البلهارسيا الذى لا يعرف الكثيرون كيف ينطقون اسمه ، ولا يدركون مدى فتكه بالناس . الكل يؤكد ان حليمة عمرها انتهى ، وان القضاء اذا جاء لا يؤخر ساعة ولا يتقدم .

جلس مطر فى الخفاء يمسح الدمع الصامت ويشد من عزم الابن الأكبر ، والبنت ذات السنوات التسع . اما الطفل سالم واخته التى تخطت الرضاعة ، فان الله سيشملهما برعاية من عنده ، ومن أوكل امره اليه فلن يخيب .

غير بعيد من بيت مطر ، يقع بيت ظافر . كان ابوه جمّالا . ولكن الجمال لم تعد اليوم سوقا رابحة ، والحمير تكاد تلحق بها ، وان كانت لاتزال الحل الوحيد لحمل الأثقال على الجبال والطرق

الوعرة . كان له من زوجته عفراء ولدان وبنت واحدة تقترب من سن الزواج . واحد من الولدين ملتحق بمدرسة القرية الابتدائية ، والولد الأكبر مسافر . احب حياة المدينة ، ويأتى وقت عطلة السنة وفى الأعياد . لكنه يجلب لأهله الريالات والكسوة وحاجة البيت من مؤنة .

ليس لظافر طموح ما ، بعد الستر والعافية . ولكنه كان مستاء من ابنه المسافر المخالف لعادات ابيه ، لا يحب الزراعة ولا الزواج فى أول الشباب ، ولا يؤدى الفروض . ويرى ظافر ان المدينة علمت الولد التمرد والغواية . ولولا احساسه بواجب الأب تجاه ابنه لمنعه من السفر . ولكن الابن كان يرى طريقه واضحا . كان يريد ان يصبح مدرس علوم .

اما صديقه البدوى فقد دافع عن حمدان بن ظافر ، وقال انه رجل متعلم والمتعلم لا يُخاف عليه . ثم انه ادرى بأمور حياته . ويضيف البدوى : انه ينتظر اليوم الذى يدخل فيه أولاده المدرسة . وكان لشدة تعلقه بالعلم ، يضع عليه آمالا كبارا ويؤكد ان العلم أساس كل شيء ، وأن مخاطره ليست مخاطر على الاطلاق .

ينجح ولد آخر من أولاد المدرسة ، ويأتى أهله فرحا لأن شهادته جاءت خالية من الدوائر الحمراء . وكان الولد فرحا أيضا بالعطلة الصيفية ، وبنجاته من عصى المدرسين ومن استبداد فراش المدرسة ، الذى لو رآه الآن هو وزملاؤه فسوف يلعنونه ويختفون أو يلعنونه وهو يسمع ، ولو توعدهم فليرهم شطارته ويلحق بأقدامهم التى يعطونها للريح .

الأكلة التقليدية تقدم احتفاء بالولد الناجح . طبق من التين الشوكى المقشر ، تحيط به خبزة مقسمة على هيئة مثلثات دائرية . وتقدم الأم القهوة من الدلة قهوة منداة بالجنزبيل . الولد يهتف : نجحت . نجحت ، ويُقبِّل الجد ويدعو الله أن يفتح عليه ، والأم تقول : انك ابن طيب وقد فتح الله عليك . وتقول الجدة : الله يسعدك ، الله يثمر فيك . ودعا له اخوه . ثم عرضوا عليه الأكلة التقليدية فتقبلها على مضض !

قال الولد للجد ان ابن ظافر وابن مطر ينجحان كل عام بشطارة . وطلب الجد الى الولد ان يكتب رسالة لأبيه فى المدينة فكتبها وهو واثق ان من يقرأها للوالد من بعد ، لن يتعب فى تلمس بعض الأخطاء ..

تهب رياح التغيير حادة وحاسمة على أهل القرية . مطر كان قد تزوج فضة ، لترعى أولاده ، ففعلت المرأة بكل عناية ، ولكنها كانت شديدة المراس . قال الناس عنها قبل ان يتزوجها مطر انها رجل فى صورة حرمة ! واستبدت فضة بأمور البيت وادارته بكفاءة فأصبح يشار اليه ببيت فضة وليس ببيت مطر . وعز هذا الوضع المقلوب على مطر فطلقها ، ثم ندم من بعد . واصابه المرض قطعوا بعده ساقه ، فقعد فى بيته يجتر الماضى الجميل . ابنه ذهب مذهب معاصريه فى

التطاول والتنافس على المقتنيات الكبيرة . الحياة الجديدة طحنت معالم الناس . القى مطر كتبه فى خزانة من الخشب المستورد البراق . اذا سألته عن شيء استأذنك فى الرجوع الى الكتب ليجيبك .

حل الجرس الكهربائى محل الصوت البشرى فى التنبيه الى قدوم الضيوف . لم يعد للراديو القديم مكان فى الجلسة العائلية . حل محله البيك — أب ، جاء به ابنه الصغير سالم من رحلته الى أمريكا . ووفد على البيئة وافد جديد وطاغ هو التليفزيون يبث صور بهلوانات ، لأشياء بعضها لها وجوه ولا أرجل ، وبعضها له أيدٍ كأيدى الضفادع . يخرج من الصندوق البلاستيكى موسيقى يراها مطر مزعجة ، ويؤكد الأولاد أنها موسيقى . وحين يبث القمر الصناعى مباريات الكرة ، يرى مطر فيها ضربا من العيب لا يليق بالشباب ، ان كان معناه اهمال الزراعة ومضيعة للوقت الذى كان ينبغى ان يكون اكثر امتدادا . هنا يدعو مطر دعاء حارا على من كان السبب فى تدمير الناس وخراب قلوبهم ، وزيادة لهوهم ، واستهانتهم بجواهر الأمور ، التى قضت عليها وفرة الأموال وبيع الضمائر .

فى مجالس الشباب كان يدور حديث آخر . جلس اثنان من الشباب فى مقهى يتبادلان الحديث . ناقشا مسألة ما . فعلق الشاب الآخر : ياصديقى . هذه مثل سياسة الجزرة . اذا تمرد الحصان جاء صاحبه بجزرة فى يد وبعصا فى اليد اليمنى . فان أطاعه كان بها والا ..

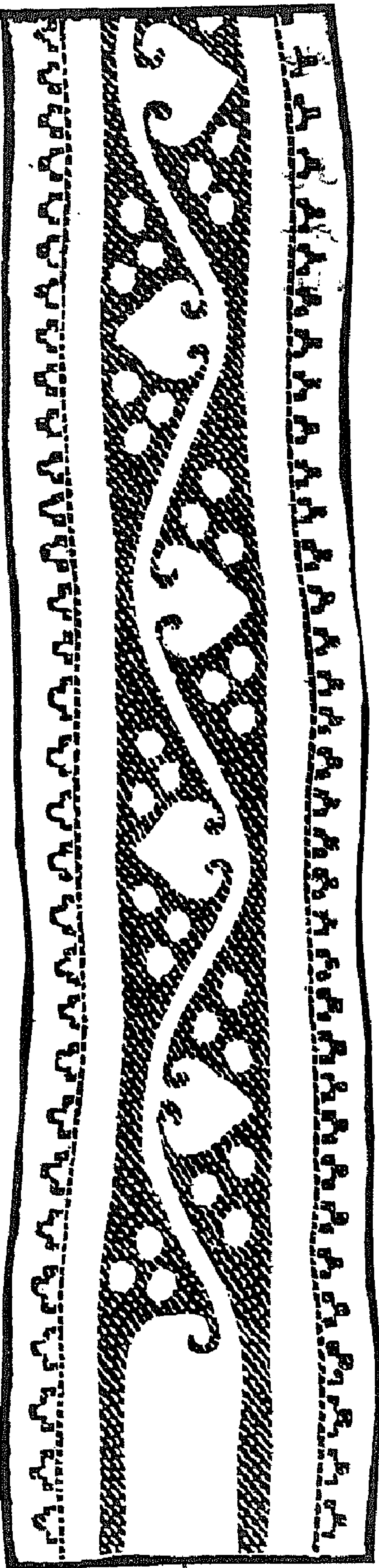
قال الثانى فهمت عنك . فهل سمعت حديث بول القاضى ؟ قال الأول : لا . قال الثانى : امرأة جميلة كانت تعيش مع زوج تحبه . فأرادها القاضى لنفسه . جاء بشهود اكدوا أنهم شهدوا الزوج يبول وهو يستقبل القبلة . قال القاضى ان الزوج اتى شيئا مخالفا للشريعة وعليه ان يطلق زوجته . استعطف الزوج القاضى ودفع بأن الناس يبولون ولا يدرون الى أى جهة هم يوجهون بولهم . ولكن القاضى رفض الدفع ، وامهل الزوج أياما ثلاثة كى ينهى علاقته مع زوجته .

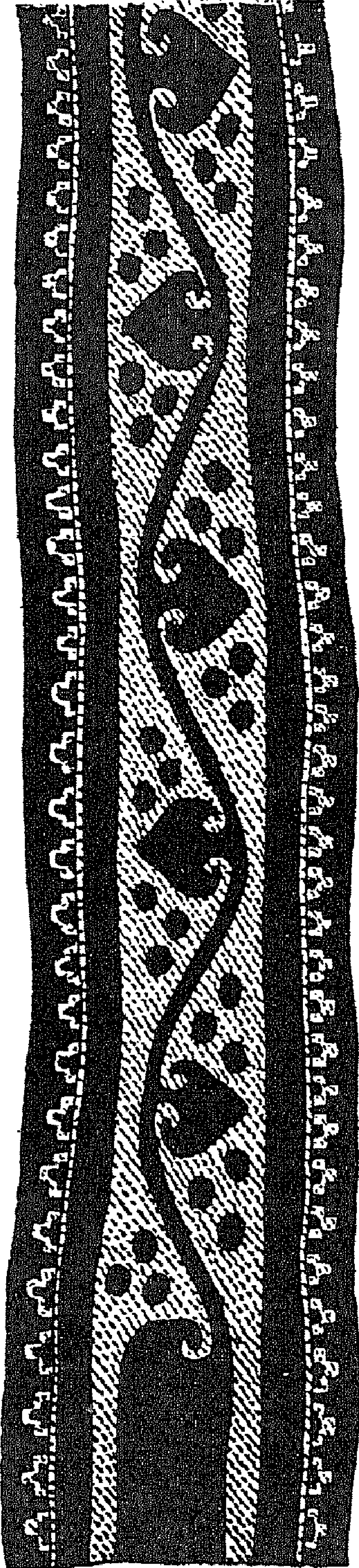
فى اليوم التالى ، والزوج عائد من الطريق ذاتها التى حدثت فيها الواقعة ، وبصحبته صديق له رأيا القاضى يبول متوجها الى القبلة . فقصد مجلس القاضى فى غده ، وروى له مارأى . ضحك القاضى وقال : انا كنت أوزع البول فى كل مكان ولم اوجهه الى القبلة قط . أما انت فقد تعمدت استقبال القبلة ، ولا كفارة لك الا بتطليق الزوجة !

تختم الرواية نشيدها المتنوع النغم ، المفعم بالحنين الى خير الماضى ، المحتج على ما جلب الحاضر من مخاطر قائلة : « كانت القرية القديمة على سفح الجبل . تتكىء شبه خالية من الساكنين . بينما تناثرت بيوت حديثه من الأسمنت ، ووقفت الى جوارها سيارات ملونة . وبداخل هذه البيوت اناس أحبوا أنفسهم كثيرا . وتركوا البقية . تركوا اراضيهم خاوية ، وقد تهدمت

جوانبها وغزتها النباتات الغربية ، فأصبحت إلى جانب الأرض الأخرى النضرة ، يابسة كجواعد الخراف البيضاء .

باسلوب الحكاية الشعبية ، بما تحوى من شعر وغناء وانشاد ووصف دقيق لأحوال الناس فى موتهم وحياتهم وحكايات متداخلة ذات مغزى تصبح رواية : الغيوم ومنابت الشجر واحدة من أحلى الروايات التى تمتار من التراث وتهضمه وتسيغه وتقدم لنا جوهره عذبا صافيا ، رقراقاً .





العراق ودول الخليج



الرواية في الكويت

النيل: الطعم والرائحة

إسماعيل فهد إسماعيل



قال له أبوه وهو يراه منهمكا فى قراءة نسخة نادرة من كتاب الجبرتى ورثها عن جده لأمه : « نسخة نادرة قد لا تجد مثيلا على مستوى الوطن العربى » . واضاف باعتزاز : « طبعة بولاق الأصلية » . استوقفه ان الجبرتى قد كتب باسهاب عن سليمان الحلبى ومشروعه الاغتيالى . استوقفه أيضا ان سليمان قبل تنفيذ مشروعه كان فى مدينة غزة . ومن سوق غزة اشترى الخنجر الذى نفذ به الاغتيال . استرعى انتباهه كذلك ان رفاق الحلبى الذين اعدموا معه ، كان جميعا من غزة . ابوه قال له يوما ان فى غزة عائلتين تحمل كل منهما لقب الحلبى . احداهما غزاوية أباً عن جد . اذ ذاك سأل الولد أباه عن أسرته فقال الأب : انها من مجدل . قال الولد : لماذا لا نكون من حلب أصلا ؟ . قال الأب ربما نعم ، وربما لا . ليس من الضرورى ان يتطابق لقب عائلة مع اسم المدينة التى يشير اليها الاسم . قال الولد : اذن يحتمل ان نكون بلا أصل ؟ غضب الوالد ، ولكن الولد مضى يقول : او اننا ننحدر أصلا عن سليمان الحلبى قاتل كليبر .

الولد اسمه : سليمان الحلبى ، وسعيه الدائب لايجاد صلة بينه وبين سليمان الحلبى يعود الى شيء اكبر بكثير من التطابق فى الاسم . قالت له اقبال ، حبيبته الأولى : هناك شيء غير طبيعى فى شخصيتك . كانا أيامها فى بيروت . وقف سليمان قبالة البحر ورأى الشمس تتوارى وراء الأفق ساعة الغروب . وفجأة قال لها : بودى ان اقفز . انظرى الى الماء . اسمعه يدعونى : تعال . سألته : تقفز من هذا العلو الشاهق ؟ قال : لا فرق . قالت : شيء اسمه هاجس الانتحار يسكن لا وعيك . قال : بل هاجس الاتحاد بالطبيعة . قالت : من خلال الموت ؟ قال : هو تجلٍ . حالة وجدانية ، شبه صوفية . قالت : ينبغى الا تترك وحدك . شيء غير طبيعى فى شخصيتك : ردود أفعالك . موقفك من الحياة . اسلوبك فى التفكير . طريقتك فى الاستنتاج .

نهجك المتردد باتخاذ قراراتك . مزاجيتك المتحكمة فى سلوكك .

قبل هذا قالت له : انت غير مستقر . لا تعرف ما تريد . قال : اعرف أنى اريدك . قالت : وماذا أيضا ؟ كان قد ترك لها حرية ان تتصرف بحياته . وهى صارمة ، قاسية ، عليه وعلى نفسها أيضا . قالت : ان كان على الحب بمعنى الاحتياج فأنا أحبك . ولكنى — وأرجو أن تفهمنى — مضطرة ان أحاربك . سألها : ما الذى يضطرك ؟ قالت : قناعاتى . قال انا متغير . مستعد أن اتغير . قالت انت لا تفهم ! لا تريد أن تفهم . حتى وهى بين احضانه لا يسلس ابدا سلوكها معه . تقول له وهى رهينة اللحظة النورانية بعد الانتشار الجسدى : « انت تعرف كيف ترضى المرأة حتى التخمة » . جفناها نصف مطبقين . اصابعها تجوس شعر صدره . تستطرد : لكنى أشك فى أنى سأتزوجك . لماذا ؟ يسألها . ترد : لأننا مختلفان . فى التكوين الفكرى والسلوكى . أنت لم تتحرر بعد من اسار القيم التى نشأت عليها أيام غزة . ومقهى شباب غزة .

كان الفرق ما بينهما كبيرا بالفعل . هو يؤمن بالضربة الواحدة المفاجئة ، وهى تؤمن بالسلوك الهادىء المتزن الذى يوائم بين الفكر والعاطفة . ترى أن السلوك الانسانى كُلّ متكامل . والتطرف فى الانفعالات جزء من تطرف سلوكى عام . الحب فى مرحلة متطرفة منه يتحول الى حقد وكراهية مدمرة . سألها سليمان : حتى ولو كان حبا للوطن ؟ قالت : حتى ولو ... قال : والذين يرق حبهم لوطنهم حد ان يلغموا اجسادهم ليفجروا انفسهم وسط جنود العدو ؟ اجابت فى ثبات : الانتحاريون لا ينتصرون .

وذكر لها سليمان الحلبى . قال : كل الذى قاله سليمان منطقى . قالت : بالنسبة لك قال : نتائج عمله كانت واقعية ومشروعة . قالت عندك . سأل : لماذا ؟ اجابت : لأنكما متشابهان ، انت وسميك التاريخى . سليمان يتكلم بلسان المتياسرين من ابناء برجوازيتك الصغيرة . أنّ أحبك لا يعنى ان اوافقك على رأيك الغلط .

غير ان سليمان كان مأخوذا بفعل سليمان الحلبى . سأل نفسه فيما بعد : لو انك لم ترث كتاب الجبرتى طبعة بولاق ! لو أنك لم تعرف سليمان الحلبى منذ صباك ! لو أنك باسم آخر غير اسم سليمان الحلبى . لو .. ثم وجد ان هذه الأسئلة كلها تجد الاجابة فيما فعله : اشترى مسدسا من الألومنيوم بحجم الكف ، وادخره فى احدى حقائبه بالفندق ، وجعله اداة لما يزمع ان يفعله . سيختزل سنوات عمره النضالى فى فعل واحد ، سيصفى كل الحسابات الواضحة والخفية فى ضربة واحدة يحقق بها عدالة الاعدام لرموز الهزيمة .

جاء سليمان الحلبى الى القاهرة . وسكن فندق شبرد ، وخطط لأن يغتال صاحب الفخامة . انتهازى واع ، خطط حياته بحيث تتوافق مع كل العصور . فى مقاهى الشباب يشيع

عن نفسه انه من أشد مناهضى الملك فاروق . وحين ينتهى من دراسته الجامعية تظهر صورته فى احدى حفلات البلاط وهو يلقى قصيدة فى مدح الذات الملكية ، وصورة أخرى وهو ينحنى على اليد الكريمة مقبلا فى عرفان .

ويتلقاه النظام الملكى فى حماس ويوسع له فى الرزق ، فيجعله محاميا شهيرا ويكوّن ثروة طائلة منع من مضاعفتها قيام ثورة ١٩٥٢ .

فى عهد الثورة يلمع اسمه أيضا . يوفد الى أمريكا لاستكمال دراسته . ويعود ليتبوأ المركز الحساس تلو المنصب . ومن يومها اشتهر فخامته بحزمه الشديد فى تطبيق الاشتراكية ، والحفاظ على منجزاتها ، الى جانب غيرته المتناهية على رمز الاشتراكية : جمال عبد الناصر . فلما تحدث الهزيمة ، ويموت قائد الثورة يصدر كتابا بعنوان « يقظة الضمير » يهاجم فيه فكرة تأليه الفرد ، ويعدد اخطاء عبد الناصر ، ويرى انه مجرم شاء أم أبى . ويقيم تجربة الناصرية ويتساءل : ايهما اهم : تحرير اليمن أم تحرير الانسان المصرى من براثن الجوع ؟ ومن ثم يدعو فخامته الى الانفتاح والرخاء والافادة غير المحدودة من رؤوس الأموال الأمريكية والغربية والخليجية .

ذلكم هو الرجل الذى قرر سليمان الحلبى الجديد ان يغتاله ، انتقاما من رموز الاستعمار الجديد والقديم معا . كان قد ناقش فكرة الاغتيال وجدواه مع اقبال فأوردت له الحجة تلو الحجة على عقم محاولات التصفية الجسدية ، موضحة له أنها تساعد الثورات المضاده ، وتؤيد اليمين وتثبت سلطته . ولكن سليمان بقى على افتتانه بالضربة الواحدة المفاجئة . وراء هذا الحماس الشديد للاغتيال كان احساسه المر بوحدته ، والوخز المستمر لسلسلة من الاحباطات كانت من نصيبه . اقبال تركته دون ان تتكلف عناء الشرح . سلوى التى عرفها بعد اقبال وتزوجها عن حب جارف ، قالت له ذات يوم : نتطلق ، ثم جمعت اشياءها وتركته ولم تعد . فرع المنظمة الذى كان ينتسب اليه ، طرده لتسيبه وعدم انصياعه للأوامر . صديقه الصعيدى من أيام الدراسة فى القاهرة : أحمد سماعين ، اطول طلاب الجامعة بلا منازع ، وأكثرهم هزالاً كان يقول له : اجزم انك لست فلسطينيا . يسأله سليمان : لماذا ؟ يقول أحمد : لأنك لست خطيرا ، لو كنت خطيرا فعلا لاغتالوك . سمع سليمان من بعد ، وهو فى بيروت ان احمد سماعين قبض عليه وهو يقود مظاهرة احتجاج على زيارة القدس . غادر أحمد السجن بعد ستة أشهر بساق واحدة . لم يدل بأية معلومة عن الرفاق . كان صعيديا ناشف الرأس . ترك القاهرة وعاد الى قريته ابنود . طالما كان سليمان يتندر على طوله الفارع وهشاشة جسده فيرد أحمد سماعين : الخيزران لا ينكسر يا سليمان يا حلبى .

اما هو ، فانه هش بالفعل . ضعيف أشد الضعف امام اقبال ، شديد التراخى فى علاقته

التالية مع سلوى . يأبى ان تشاركه عمله النضالى فتهجره من فرط الضجر . وتناكده اقبال معلقة : انت لا تعرف كيف تحتفظ بالنساء . وهو وحيد وحيد . يقول لنفسه : ليس من حى باقٍ . مكتوب أن تموت اليوم ، أو بعد نصف قرن . المهم أنك فى كل الحالات ميت . ان تعيش لنصف قرن قادم غير مواطن لأى وطن مطرودا فى كل عواصمك العربية . مشبوها فى كل الأنظمة ثقيلا على ضمير هذه الأمة . متطفلا على ضمير العالم . فقد منحك القائمون على أمور هذه الأمة هويتك : فلسطينى . اطرقْ كل الأبواب والشبابيك ان شئت ، واطلب بصيغة الرجاء أو الاستخذاء ان شئت : هوية لله ! ــ هوية يامحسنين ! تصريح مرور ينوبكم ثواب ! . فلسطينى . الوطن يلبس الهوية ، الهوية يلبس الوطن . الاثنان يتحولان الى مسدس الومنيوم يثقل على الضمير .

حين زار القاهرة ليخطط لاغتيال صاحب الفخامه . كان تردده يثقل عليه : الغى الفكرة ؟ أؤجل التنفيذ ؟ فَيحس نفسه مدفوعا باتجاه التنفيذ ، ولا فكاك . فات أوان التراجع . ولكن ، هذه الفتاة الحلوة ، التى تخدمه فى الكافتيريا وتظهر عطفا خاصا عليه . ما امرها ؟ منذ ان انبثق له حامل اسمه : سليمان الحلبى من باطن التاريخ ليجسد له فعله العبقرى وهو موزع ــ كالفعل المعطل ــ على هامش تاريخه ، القريب منه والبعيد . ولكن ها هوذا عامل جديد يطرأ على الموقف : شيرين ، المرأة الانثى ، ذات القدرة الرائعة على احتواء هموم الرجل .

تحتويه شرين . تدخله فورا وببراعة ساحرة الى صميم حياتها . تدعوه الى بيتها . تحكى له قصة حياتها الدامية . تزوجت من شاب خليجى فائق الوسامة كان زميلا لها فى الجامعة تزوجها رغم أهله . جاء أهله وحملوه معهم حملا ، هو وابنه خالد ، الذى انجبته منه شيرين . دخلت مستشفى الأمراض العصبية عاما كاملا . والآن هى فى دور النقاهة .

يندفع اليها سليمان الحلبى . يجد فيها ما لم يجده فى اقبال الصارمة ، ولا فى سلوى التابعة المتعلقة باذياله . مع « اقبال » ، الحب كان غيره . الشوق غيره ، اللهفة كيِّسة . السرير ليس فى أى وقت . الأولوية للمسئوليات النضالية . ما هو شخصى بحت يجب أن يحجم . مع سلوى كان الحب عذابا وانتظاراً . البعد فيه مرض والقرب شفاء ، موج بالثقة فى النفس . اما شيرين فانها توصله بحياة واعدة ، مغايرة لكل الذى مر به . لا عذاب فى الحب أو وطأة بانتظاره . ولا نكران ذات يؤدى الى إنكار ما هو شخصى . مع شيرين تبدأ الأمور بعفوية : تقول ببساطة : تعال افطر معى . أمى فى طنطا . ترددت على عيادة الأمراض العصبية .

وحين يسألها : تحبين النيل ؟ ترد : لا أدرى . لم أسأل نفسى هذا السؤال من قبل . دَعَه . استجابة . اهتمام وعطاء لا يسألان الرد . عنفوان جسد مذهل .

شيرين هى وحدها التى تجذبه الى الحياة . من أسف أن الوقت قد فات . أصبح سليمان سجين قراره بالاغتيال . عاش خبرة الفعل كاملة . وجد فى تنفيذ القرار ردا مباشرا على ما كانت تعبره به اقبال من تردد وفقدان الهمة . الفعل الآن جاهز للتنفيذ ، لا مفر منه الا اذا حدثت معجزة . وتحدث المعجزة بالفعل . يتأخر صاحب الفخامة عن حضور الاحتفال بأسبوع الفيلم الأمريكى . تمر الدقائق مسرعة ، مشحونة بالتوتر . يحس سليمان ببشائر فرح وميلاد جديد تزحف اليه . سيترك الفندق . سيذهب الى النيل وبامتداد ذراعه سوف يطوح المسدس الى الماء . لن يقدر على مقاومة الرغبة فى الركض الى بيت شيرين . يصل لاهثا أو غير لاهث لا يهم . المهم انه سيجدها فى قميصها البيتى المعتاد هو منذ الآن يملك جماع الزمن القادم .

غير أن صاحب الفخامة يصل وان متأخرا . ويحدث لقاء لا مفر منه . ينطلق المسدس الصغير ويسقط صاحب الفخامة وهو ينظر الى سليمان كمن يقول له : من أنت ؟

ليست « النيل ، الطعم والرائحة » وحسب ، رواية فلسطينى وحيد محبط ، يخطط للانتقام وينفذه . هى اكثر من هذا بكثير . هى رواية كل العرب . رواية فلسطين ومصر ولبنان . وسوريا وكل بلاد العرب التى تواجه الغزو الاستعمارى الغربى ، والغزو الاستعمارى الاستيطانى ، الاقتلاعى . تاريخ العرب القديم والحديث حاضر كل الحضور فى الرواية . والنيل يجرى بجلال واقتدار فى صفحاتها . سليمان الحلبى عاش فى مصر أيام دراسته الجامعية . دخلت مصر فى أنسجته وفى قلبه وفى روحه . النيل أصبح دمه ، يجرى فيه . وأصبح له طعم فى فمه ورائحة فى انفه . أقصى ما يمكن لسليمان الحلبى أن يمدح به انسانا أن يصفه بأنه النيل والطعم والرائحة ، ومن ثم العنوان . حين يحب شيرين ، ويجد فيها وعدا بالخلاص من التشرد والهزيمة ، والاقتلاع والاحباط والانكار يقول انها النيل ، طعما ورائحة .

وفى ثنايا جسده ، وتحت جلده ، وفى الصميم من لحمه ودمه أيضا ، تقع غزة التى قضى بها فترة شبابه الباكر . ذهب يزورها بعد الاحتلال الصهيونى . لم يجد فيها بحرا بل لم يجد غزة نفسها . لا بحر فى دير البلح ، لا الدير ولا البلح . ولا حتى أكواخ الصيادين . وجد شاليهات عصرية فاخرة للسواح من اغنياء اسرائيل أو أمريكا أو ما عداهما . ثكنات حديثة لجنود جيش الدفاع . وغزة المدينة أو دير البلح معسكر اعتقال .

ويلقى عبد الناصر بقامته الشامخة ظلا ظليلا على الرواية . فى بيت شيرين صورة كبيرة له فى قاعة الاستقبال . وفى غرفة نوم شيرين صورة صغيرة فى اطار مذهب والحديث عنه قائم . يرى سليمان الحلبى لافتة مضيئة بالنيون تحمل اسم : « بنك امريكى بمشاركة عربية » ، وأخرى : « بنك عربى بمشاركة امريكية » فيقول : أيام عبد الناصر ، قبل الانفتاح ، ما كنت تصادف

مثل هذه اللاقتات .

من أيام دراسته الجامعية والطلاب ـــ المصريون خاصة ـــ يذهلون ازاء تفاعله مع احداث مصر . قال بعضهم : لأنه غزاوى ، وغزة ما قبل ٦٧ كانت محمية مصرية . وقال آخرون : تأثره بالفكر القومى الناصرى لعب دوره . وهو يقول . غزة فى القلب ، وهو لم يكن يوما ما ناصرى النزعة بالشكل الذى يحددون . انه يرى ان مصر ليست حكرا على المصريين ويوقن ان الوطن المعين يقاد من عاصمته الحضارية المعينة . وعاصمة الوطن العربى ـــ كما يرى ـــ هى مصر . البعث يبدأ من هنا . الهزيمة تكرس هنا . الاغتيال . الفكر . الفن . المسرح . يمر على كوبرى عباس ، تعود الى ذاكرته انتفاضة الطلبة : « تحيا مصر ! » العسكر . الانجليز . البنادق . المذبحة . هنا النيل . الطعم والرائحة .

وتقول شيرين لسليمان وهما يرقيان سلم بيتها . احذر . بعض الدرجات متآكلة . سكان البناية يتكالبون ينتظرون من يبادر عنهم . يسألها لماذا ؟ تقول : لست ادرى . لعلها طبيعتهم المتأصلة فيهم . يقول : هذه الطبيعة المتأصلة هى التى دعت سليمان ، وهو حلبى من سوريا ، لأن يبادر فيجىء الى مصر ، يخطط لاغتيال سارى عسكر الجيوش الفرنساوية كليبر .

وتدور الرواية أساسا حول فكرة الاغتيال . ماهيته . مبرراته . عقمه . نتائجه الضارة . الافتتان به . يجادل سليمان اقبال طويلا فى أمر الحلبى . هو يراه رجلا وطنيا دفع حياته ثمنا لسحق رأس الأفعى . وهى تدفع بأن فردا ما لايستطيع سحق رأس الأفعى . سحق الأفعى يعنى الاحتلال . واغتيال كليبر لم ينه الاحتلال . انما المقاومة الوطنية المصرية هى التى كانت مؤهلة لانهائه . وقد فعلت . يقول سليمان : الا نستطيع ان نعتبره جزءا من الطليعة المتقدمة للمقاومة ؟ تقول : هو كذلك فى حقيقته . يعود يسأل : اليس هو بطل قومى فذ ؟ تقول : ضمن ظرفه التاريخى ، بلى .

على أن هذا المنطق المتماسك لا يفيد كثيرا فى زحزحة سليمان عن مشروعه الاغتيالى . قد كوّن تطابق اسمه مع اسم الحلبى منذ البداية حالة تقمص مع الفدائى السورى . يقنع نفسه بأن كلا منهما من غزة . ومن غزة اشترى كل منهما أداة الاغتيال . وكل منهما رصد رمزا من رموز الاستعمار ليغتاله فى عمل احتجاجى يكون له وقع الانفجار . الفارق الوحيد بينهما ان الحلبى يتقدم الى هدفه هادئا ، واثقا ، عارفا ـــ مقدما ـــ بالنتائج . بينما سليمان يناوشه الهدف ، وتتخطفه رغبة ملحة فى أن يحيا حياته التى ضاعت هدرا ، ويود لو خلصته المعجزة من هدف الاغتيال .

يحفزه نحو الهدف ، تنديد اقبال المستمر بتردده وعجزه عن اتخاذ قرار ، ويحز فى نفسه قول

أحمد سماعين له بأنه ليس خطرا على الأمن ، والا لاغتالوه من زمن ، ثم يزيد من ألمه ان احمد سماعين كان صادقا مع نفسه ، فدافع عن مبادئه حتى السجن ، وكسر الساق ، ومع ذلك فلم تلن له قناة . ويسمع سليمان دائما اتهام التسيب موجها اليه ، وتعود اليه ذكرى طرده من التنظيم ، وتخلى اقبال عنه — كفاحيا — قبل التخلى الشخصى . ومع كل هذا لا يتخلص سليمان من عقدة التردد . بل يمعن فيها بعد تعرفه الحميم الى شيرين ، وتوقه الى الحياة السوية . فلما يقدم سليمان على الاغتيال بالفعل ، يكون هذا الفعل محصلة دفع آلى من الظروف المحيطة ، اكثر منه عزما مؤكدا من داخل نفسه .

تمتاز رواية : « النيل ، الطعم والرائحة » بهذا الحب الدافق الذى يترقرق فى ارجائها لمصر خاصة : نيلها العظيم ، وشعبها ، وكفاح طلابها وعمالها ومثقفيها . وذلك الحزن الباقى لهزيمة ٦٧ والتفجع الذى ينبجس هنا وهناك لهزيمة البطل وموته ، وانكسار الثورة .

وتمتاز كذلك برشاقة الأسلوب الذى يتم به جريان الماضى الى الحاضر ، والتعايش الدائم بينهما ، ويتمثل هذا فى جمل مختارة فى حياة سليمان قيلت له من قبل النساء اللاتى عرفهن ، والرفاق الذين زاملهم ، وهى جمل تظل تدوى فى رأسه لدى كل موقف يريد ان يقفه .

وتحمل الرواية حملا رشيقا النقاش المتصل الذى يدور حول سليمان الحلبى ، فلا يؤثر هذا كثيرا على النقاش فى مجرى القص ، ولا يشكل عبئا ثقيلا على احداث الرواية . وقد لجأ اسماعيل فهد اسماعيل فى هذا السبيل الى حيلة فنية طريفة لمناقشة شخصية سليمان الحلبى بطريقة درامية ، حين صحب شيرين وذهب يشاهد التجارب المسرحية التى كان يجربها نفر من الشباب المتطلع على مسرحية الفريد فرج : « سليمان الحلبى » . ويستخدم الكاتب هذه التجارب وسيلة لشرح رؤياه لحقيقة سليمان الحلبى ومدى تطابقها واختلافها مع رؤية الفريد فرج .

وفى جانب الامتياز فى الصنعة الروائية ، نذكر قدرة الكاتب الملحوظة على شد انتباهنا الى احداث روايته ، عن طريق التشويق الشديد الذى ثار لدى تأخر صاحب الفخامة عن حضور الاحتفال بمهرجان الفيلم الأمريكى فى الموعد المحدد ، وما اثاره هذا التأخر فى نفس سليمان من توتر ورغبات متضاربة ، وأمل مؤلم فى ان يكون صاحب الفخامة قد افلت من الفخ الذى نصبه له ، فانقذه بهذا من ثأر فرضه على نفسه فى غير حماس .

ان « النيل والطعم والرائحة » مثل بارز من أمثلة الكتابة السياسية الواعدة والمؤثرة ، التى تحمل موضوعها فى مهارة ، وتتعامل معه بذكاء ولا تدعنا نفقد اهتمامنا به وقتا طويلا .

المرأة والقطة

ليلى عثمان



فى خضم التيار الغالب على الرواية العربية الآن ــ التوجه الى القضايا السياسية فى المحل الأول ــ تخرج هذه الرواية : « المرأة والقطة » للكاتبة الكويتية « ليلى العثمان » .

وليلى العثمان تكتب القصة من سنوات . لها اكثر من مجموعة : « امرأة فى آنية » و « الرحيل » . غير أنها ــ فيما أعلم ــ لم تكتب الرواية من قبل . لهذا اقبلت على قراءة « المرأة والقطة » فى ترقب وحذر معا . دائما أحس بقلق اذ اقرأ العمل الأول لأديب ما . أخشى أن يخيب ظنى ، فأضطر الى الصمت عنه . والصمت عندى يكون أحيانا ــ أشق من الكلام !

غير أننى ما لبثت أن تركت القلق والحذر جانبا ، اذ مضيت اقرأ الرواية . هذا عمل انتزعت الكاتبة موضوعه من واقع الحياة فى دول الخليج ، وعاملته فى بساطة وإخلاص وحماس ، فخرج الينا وهو ينبض بالواقع والخيال معا .

الفتى سالم تربى يتيما فى بيت أبيه ، فى بيت عمته فى الواقع . فقد كان الأب يقبع ذليلا فى بيته ، تسيطر عليه وتأمره أخته ، فلا يجد فى نفسه الشجاعة على أن يواجهها بما لا ترضى عنه ، دع عنك أن يعارضها أو يرد لها طلبا . أحالت هذه المرأة المفترسة بيت أخيها الى جحيم . جعلته يطلق زوجة وراء أخرى ، لأن واحدة منهن لم ترضها . زعمت أن الأولى قد خانته مع خادم الجيران . وجعلت أخاها يطلق الثانية لمجرد انها الحت على زوجها أن يزوج اخته من رجل اسمه سعيدان .. كانت الزوجة تريد لأخت زوجها أن تجعل حياتها مثمرة . أن تنجب وتفرح بالحياة ، بدلا من حياة العقم والكراهية التى تعيشها . غير أن المرأة المفترسة فسرت هذا بأن الزوجة تريد أن يخلو لها البيت ووجه زوجها معا فكان نصيبها الطرد المهين .

أما الزوجة الثالثة ــ أم سالم ــ فقد كان ذنبها عند هذه المرأة الشريرة أنها كانت كثيرة

اللجوء الى بيت أبيها ، هربا من عدوان أخت زوجها . ولهذا جاء القرار القاسي : أن تطلق ، وأن يكف الزوج عن المزيد من طلب الزوجات . فقد اعتزمت الأخت ان تربى سالم ، كما سبق أن ربت أباه ، وشقيت فى تربيته ، كما زعمت .

وسمع سالم — وهو إذ ذاك ولد صغير — قرار عمته ، وعاين تخاذل ابيه — رغم دموعه الكثيرة — فلم ينم تلك الليلة .

العمة الشريرة نموذج من البشر نلقاه فى الحياة والأدب . هو فى هذه الحالة نموذج امرأة تكره الحياة والأحياء ، فيدفعها كرهها الى مطاردة كل ما هو حى ، وكل من هو حى ، بهدف إتعاس وتدمير حياته ، حين أهدت أم سالم ابنها قطة لطيفة يلعب بها ، كرهت عمته القطة . كرهتها لأنها تكره الأم ، ولأنها تهدد بأن تكون وشيجة اتصال بين الابن وأمه ، وهى كانت مصممة على أن تقطع هذه الوشيجة . وقد رأت فى القطة أيضا أداة تدليل للولد ، الذى تريد أن تقسو فى معاملته كى يخضع لها الخضوع الذى تريد .

على أن ليلى العثمان لم تدخل القطة فى روايتها لمجرد أن تكون أداة ترفيه للولد ، وحافزا لمزيد من الكراهية تبديها العمة للحياة والأحياء . إن الكاتبة تدخل القطة فى صميم أحداث روايتها ، وتجعلها واحدا من شخوص هذه الرواية . يتعلق بها الولد تعلقا شديدا ، ويجد فى حبه لها وأنسها به بديلا عن العلاقة المفتقدة بينه وبين أمه ، وتذكارا لهذه العلاقة .

ثم تتخذ القطة بعد هذا بعدا آخر ، حين يلقاها الولد — وهو فى عامه العاشر — وقد اعتلاها هر أسود .. كانا فى لحظة عشق ، بعثت فى جسم الولد رعشة عجيبة ، تمنى الولد لحظتها لو كان هرا يعانق قطة مثل قطته . وساءل نفسه ، وقد وجد القطة مستمتعة باللحظة حتى لم تأبه بوجوده : « هل هذا هو العشق الذى حرمت منه عمتى لبشاعتها وشرها ؟ هل هو نفسه الذى عاشته أمى وحرمتها عمتى منه ؟ »

قتلت العمة من بعد هرة سالم ، لأنها ارتكبت « اثما » ، هو فى دنيا العمة العقيم ذنب لا يغتفر . تجرأت القطة فأحبت وامتلأ بطنها ، وهذا الأمر هو القذى فى عين العمة .. فصلت المرأة الشريرة القطة عن القط فى قسوة بالغة ، ثم قتلتها من بعد بإلقائها فى المرحاض . وترك مقتل القطة — على هذا النحو البشع — جرحا غائرا فى روح الولد . كما تركت لحظة العشق بين القطة والقط شعورا باقيا باللذة والدهشة والتساؤل . ومن ثم ربط سالم بين علاقة القطة بالقط ، وبين علاقته هو بمن قد يعرف من نساء ، وحين رتبت له عمته أن يتزوج من الفتاة « حصة » ذات الخمسة عشر ربيعا قال فى نفسه : دورى يجيء الآن . سأكون أنا الهر وحصة ستكون قطتى .

وحلم بأن يستعين بوجه حصة الجميل — كان لم يرها بعد ، ولكن عمته قالت إنها حلوة — كى

يرسم دنيا اخرى يتحدى فيها سالم الظلم والذل .

غير أن عمته كانت قد كسرت شوكته ، فشمله خوف مزدوج : خوف على نفسه وعلى عروسه المقبلة . قالت العمة وهي تخبر أخاها بأنها قررت تزويج ابنه من حصة : إنها صغيرة . أربيها على يدى وأكسر شوكتها . وأقبل سالم على هذا الزواج المرتب والوساوس تنهش قلبه ، وأحلام العشق تلطف من توجسه . وحين رفع النقاب عن وجه حصة لم يصدق ذلك الذى رآه . وجها كالقمر . عينين رائعتين . رموشا تنفرش على الخد الندى .

أقبل سالم على الجسد الجميل ، الذى كان يضوع عذوبة وينفث رقة . رأى الفتى فى عروسه حنان الأم المفتقد ، وشم رائحة القطة التى كانت له بديل الأم . تكشف كل المناطق فى الجسد الجميل المستسلم فى عذوبة . وحين هم يدخل من باب الفردوس المعروض ، انتصب أمامه — فجأة — وجه عمته الكالح ، ورأى انيابها مكشرة وأحس مخالبها تنغرس فى لحمه . لقد أصابه القهر بالعجز ، فظل على الباب يريد ولا يقدر !

وتكررت المحاولات ، وتكرر معها الفشل الذريع . فأفاضت الزوجة على زوجها حنانا متدفقا ورضيت أن تعيش مع عذراء ، تنتظر الفرج . الى أن يأتى يوم تتكور فيه بطن حصة ويقع سالم نهب الشكوك ، هو لم يمسسها . فكيف تكور البطن ؟ هل من هر آخر ؟! تستبد الظنون بالفتى فيتهم أباه ، ويذهب اليه مفاتحا ومتهما أباه .

وتنفجر « الفضيحة » فى البيت التعس . ويعلو صوت الأب الخنوع لأول مرة : اقتلها . وتصيح العمة ذات المخالب : طلق الفاجرة وردها لأهلها . غير أن سالم لا يفعل هذا ولا ذاك . يتلوى من العذاب والشكوك ولكنه يرفض فى عناد أن يطلق حصة أو يقتلها . قد أصبحت أمه وهرته وحبيبته وزوجته فى شخص واحد . قد أضحت مبرر بقائه الوحيد . حتى تحدث مفاجأة كبرى . يخلو البيت من الأب والعمة ذات مساء ، فإذا سالم يتحرر من عجزه وقهره ، ويقبل على القلعة ، فيجد بابها سليما لم يمس . تقول له أمه حين ذهب يزورها ويسألها تفسيرا لهذا الذى حدث : امرأة تحمل وهى عذراء ؟ ، فتضحك الأم من كل قلبها قائلة : يا سالم لقد كنت تحاول ، وكان لابد ....

ويتجه سالم الى بيته وقد كبر عشرات السنين . كان قد ترك حصة وحدها ، والآن أخذت المخاوف تستبد به . لماذا تركت العمة والأب البيت فجأة ؟ لابد أنهما بيتا أمرا . وحين يصل الى غرفة نومه ، يفجؤه المنظر المروع . حصة مشنوقة بحبل قاس ، لا يتعامل مع قسوته الا يد أقسى منه . وينظر الفتى فاذا عمته وأبوه بجواره . وأبوه ملتاع معفر الوجه ، وعمته تصرخ : انت الذى قتلتها يا سالم . ويتطاير الرعب من عينى سالم وهو ينفى بشدة أن يكون القاتل . ولكن يد

الشرطى تسحبه ، ويد الطبيب تغرز إبرة مخدرة فى ذراعه .

لقد انتهى الى مستشفى الطب النفسى .. !

تقبض رواية : « المرأة والقطة » قبضا حازما على الموضوع الذى تعالجه : موضوع القهر الاجتماعى الذى يمارسه كبير الأسرة على بعض من أفرادها ، أو عليهم كلهم . يتمثل القهر فى التدخل اليومى فى شئون هؤلاء الأفراد ، ويبرز بصفة خاصة حين يأتى الوقت كى يتحدد مصيرهم : التعليم أو القبوع فى البيت فى حالة البنت . التعليم أو هجرة الى تجارة أو حرفة يعمل بها الأب ، ويريد الابن تابعا له ووريثا ، الزواج المرتب من قبل الأب والأم (تابعة ذليلة للأب) أم الزواج الذى يحدده الحب ويمليه التقاء الشباب بعضهم ببعض . وهذه كلها تنويعات على ظاهرة القهر الاجتماعى داخل الأسرة ، نجدها متواترة فى أدب كتاب الخليج ، من رواية وقصة ومسرحية .

تبرز « المرأة والقطة » بجعل الفرد المستبد فى الأسرة امرأة قوية الشكيمة ، تضطهد الأب وابنه معا . وتنفذ رغباتها باصرار حديدى ، يحدوها عقم روحها ، وجفاف ينابيع الحب فى قلبها . والكاتبة تنجح نجاحا واضحا فى تصوير جو الاستبداد الذى ينشر ظله الكئيب فى البيت .. بيت يصفه أخوها الخانع قائلا : « فى بيتنا يقتل الشباب » ، يدرك الأخ أن اخته ظالمة ، وأنها ظلمته هو قبل أن تظلم زوجاته الثلاث اللاتى دفعته الى تطليقهن ولكنه ضعيف على المستوى الشخصى والمستوى الاجتماعى معا . يشجب تصرفات أخته ولا يتردد — مع ذلك — فى الانضمام اليها فى جريمة قتل حصة وفى التستر على القاتلة ويسكت عن إسناد التهمة لابنه . يسكت عن هذا الاتهام الظالم للابن ، ربما لأن الابن فجر فى وجه أبيه الغضب المكبوت الذى كان يحسه ازاء خنوعه الدائم لأخته ، ولأن سالم قد اتهمه أيضا بالاعتداء على زوجته .

أما العمة فلا تصورها الكاتبة تصويرا نمطيا ، يجعل منها قوة صلدة لا تتزعزع ولا تنكسر . بل تُسَيِّرُ حوادث روايتها فى لباقة بحيث تكسب المصداقية اللازمة حين يحين وقت ثورة الابن على العمة أيضا . إنها تربط هذه الثورة بانتقال سالم من اليفاعة الى الرجولة فتأتى هذه الثورة مستندة الى قوة متزايدة يستشعرها داخله ، ويزيد منها انه وجد الصدر الحنون من جديد فى شخص حصة .

كذلك تكسب ليلى العثمان لروايتها شيئا من التركيب حين تربط بين الابن والأم والهرة فى صورة واحدة تمثل التوق الى الحنان ، وحين تجعل من اعتلاء الهر للهرة حافزا لسالم كى يتحرر من عجزه المؤقت حين تواتيه الفرصة ، وبشىء من الفطنة الفنية ، ترهص ليلى العثمان لحادث شنق حصة بالحبل حين تصف ما يدور بين سالم وعمته فى أحد مشاهد الرواية ، يقول سالم : « ذات يوم كانت تقف — يقصد العمة — عند عمود خشبى نصبته فى أرض الحوش مقابل عمود آخر ،

ومدت بينهما حبلا متينا . اقتربتُ منها وتكرمتُ عليها بالحديث :

« كأنك مصلوبة يا عمتى » . فافتعلت العمة ابتسامة وقالت : « كلنا مصلوبون فى هذا البيت » . غرستُ نظرتى الحمراء فى وجهها وقلت : « المفروض أن تصلبى انت وأبى على هذين العمودين » .

غير أن الذى يصلب بالفعل هما حصة ــ التى تشنق ــ وسالم الذى يفقد عقله بعد أن توجه اليه تهمة القتل .

هذه رواية اجتماعية شديدة الاخلاص لواقعها ، واضحة الانحياز لضحايا الظلم الاجتماعى قادرة على أن تتخطى مرحلة التصوير والتسجيل الى مرحلة التناول الفنى ، عبر لغة قوية مشرقة ، ترتفع فى غير مكان الى مرتبة الصور الشعرية ، مثلما يحدث فى مشهد انفراد سالم بحصة لأول مرة .

والسرد فيها سلس ، والتقنية سهلة ميسرة ، دون أن تفقد الرواية أى بعد ترمى إليه الكاتبة .

بدرية

وليد الرجيب



عندما كان حسن الظن اكبر ، والمساحات بامتداد اكثر ، وغزو الآلات الصفراء التى تدك الأرض تحفر وتهدم لم يحن بعد : زمان الحب المذبوح . زمان الخرافة والرهبة ، زمان الحوارى المتعرجة والحوائط النصف نصف : طين واسمنت . فى هذا الزمان الأخاذ عاشت بدرية وعاش فهد .

بدرية كانت زهرة الكويت فى ذلك الزمن الخالى . كان الأولاد يعشقونها عشقا لا يستطيعون تفسيره . كانوا جميعا يشتركون فى حبها دون غيرة أو منافسة . وكانت هى تحبهم جميعا ، صبيانا وبناتا . بدرية ذات الشعر الفاحم ، والبشرة الحنطية الناعمة ، والثغر الأنثوى ، والغنج والدلال ، والروح المحبة للحياة والاستعداد للحب والاستعداد لقتل المحبوب حبا ، بدرية ذات النظرات الولهى ، ذات الرموش والحواجب كانت زينة المكان ، كانت تلعب الألعاب مع الأولاد . علمتهم أن يمسكوا نواة التمر ويلبسونها « القمع » فتصبح رجلا يلبس قبعة . اذ ذاك كانوا يغنون : « الانجليزى بوشيله ، عساه يموت الليله » ، وحين سألوها لماذا تتمنى ان يموت الانجليزى ، قالت : فهد شاهدهم فى المكان الذى يعمل به . يقول ان وجوههم حمراء ، وعيونهم خضراء ، وشعرهم أصفر ، ويمسكون عِصِيًّا خيزرانية بأيديهم ، وأنهم أتوا من مكان بعيد ، ومع ذلك فهم يأمرون وينهون . اضافت : فهد لا يحبهم ، وأنا لا أحبهم .

كانت هى تحب فهد . لم تبح له بحبها ولم يبح لها بحبه . لكن الحى كله كانوا يعرفون حبها له : من لهفتها عليه عندما يعود من « الأحمدى » ، حيث يعمل فى شركة النفط : من اضطرابها واحمرار وجهه عندما تلتقى عيونهما . كانوا يصيحون : بدرية ، بدرية ، رجع فهد من الأحمدى ، أو يعطونها زلابية وحلوى قائلين هذه لك ولفهد . واذا خاطت احدى النساء فستانا لها تناديها قائلة : قيسى هذا الفستان اذا كان ملائما ، البسيه عندما يرجع فهد غدا .

تعرف بدرية ان فهد هو كبير أخوته . مات ابوه فى حادث غرق للسفينة الخشبية التى كانت تقل البحارة الى موانىء عديدة . ابتلع البحر دون رحمة طاقم السفينة بأكمله وأصبح فهد وأمه وأخوته بلا عائل . توسط له صديقه فَلّاح لدى رجل الأعمال « بونشمى » ليعمل فى « شركة الجاز » التى يعمل بها موردا للأنفار . قبل بونشمى إلحاق فهد بالعمل بأجر أقل من باق العمال لأنه مازال صغيرا .

وهكذا انضم فهد وهو فى سن صغيرة الى العمال فى موقع العمل حيث كانت الرافعات تدلق اكواما من الحديد ، وطلب قرب مساحات من الأسمنت ، طلب من العمال تشييد مخازن فوقها . اشتغل العمال بكل همه ، فى عمل كان جديدا عليهم ، فهم بحارة سابقون ، وظلت همتهم متقدة حتى أصبح العمل روتينا يحطم الاعصاب ، فسقط منهم من سقط بسبب التعب أو المرض أو كبر السن ، وهؤلاء طردهم الهندى مساعد رئيس العمل الانجليزى هندرسون . وتشاجر العمال فيما بينهم وأصبح دق الحديد كأنه دق فى اعصاب العمال ، الى أن جاءهم من يقول أن هناك سينما تعرض افلاما كل ليلة ، فرغب فهد فى ان يرى العرض ، ولكن قيل له ان الحضور قاصر على الانجليز والهنود . لكل ليلة . ولما عاين فلاح انكسار فهد ، صمم على ان يدخله السينما بطريقة أو أخرى ، ولما اعترض بعض العمال على هذه المخاطرة بدعوى انها قد تفقدهم اعمالهم قال فلاح لنعمان ، رأس المعترضين : « لا تقل لى أن هناك شيئا يقام على أرضى ويمنع عنى ، بينما يتمتع به الغريب » .

وقام فلاح ومعه فهد ، قاصدين السينما ، فلم يلبث ان تبعهما الآخرون ، جلسوا على حافة سور السينما ومالبثوا ان شكلوا ازعاجا حقيقيا للانجليز . فاستثير هؤلاء وطلبوا الى العمال الابتعاد فلما رفضوا قام كبير الموظفين الانجليز الى بوصالح ، حارس الباب وصفعه على وجهه العجوز .

هنالك قامت القيامة . اقتلع فَلّاح عامودا خشبيا تعلق عليه المصابيح الكهربائية واتجه العمال الى الأعمدة الأخرى واقتلعوها وتناولوا من الأرض كل ما وقعت عليه ايديهم واتجه فَلّاح الى وسط السينما وسب الانجليز وهددهم بالقَتل فانقض عليه الانجليز ، وانهال هو ضربا على رؤوسهم ، وكسر العمال آلة العرض وهدموا السور وحدثت معركة حقيقية اطلق فيها احد الانجليز النار فى الهواء ، فجرده العمال من سلاحه وضربوه ، وطارت الكراسى فى الهواء وتحول المكان الى جحيم .

روى فهد هذا كله لحبيبته بدرية ، فسألته : ألم يعاقبوكم ؟ قال بلى . خصموا أجر عشرة أيام من اجورهم ، ولم يأت ذكر لفلاح وبومساعد وبوعلى ، فود هشام لو يذهب الى بيت فلاح للسؤال عنه . قالت بدرية وقد عم الأسى وجهها : تحب فلاح ؟ فرد بالايجاب وقالت بدرية : انا أيضا احبه . وسأذهب الى بيت بونشمى ، وسأنقل لك كل شىء .

كانت بدرية تسعى الى مصير مؤلم لها ، وهى لا تدرى . قابلها بونشمى ، فلاحظ على الفَور استدارات جسمها وقال : « ما شا الله . كبرت يابدرية » قالت له انها جاءت تتوسط من أجل فلاح ، فتجاهل الرجل الموضوع . سعل كثيرا وقال : لم تُعْط عمك بونشمى قبلة . اقتربت منه فشم رائحة الأنثى ، وادركت بدرية أنها لم تعد طفلة فابتعدت خطوة ، ثم خطوتين ثم هربت وبونشمى يناديها : تعالى .. بدرية .. بدرية .

من بعد فوجىء المصلون فى مسجد بن عويد بامام المسجد وهو يتحدث عن بدرية اللقيطة التى كبرت وتكور جسمها ، وأصبحت هدفا جديدا للشياطين ، وهى مازالت تلعب مع الصبيان وتدخل بيوت الناس وقد يترتب على هذا فساد كبير . من أجل هذا اختار بونشمى الساهر أبداً على أعراض الناس أن يجنب الحى الفساد والرذيلة بأن يتزوج بدرية ويقضى على بذرة الشيطان . وختم الامام خطبته الطويلة بدعاء الله أن يحفظ للناس أعراضهم ، وينجيهم من اغواء الشيطان ، ويحفظ لهم الرجال الصالحين ، فردد المصلون بعده : آمين . وخرج الناس من المسجد ، بعضهم قبل على مضض كلام الامام وبعضهم حبس استنكاره فى صدره .

اطلق بونشمى بائعة الهوى رومية تدخل البيوت وتنقل لأصحابها عزم الرجل على الزواج من بدرية ، بعد ان لاحظ على البنت سلوكا مريبا مع صبيان الحى . قالت انها حاولت أن تغوى بونشمى نفسه وهى الرجل الخير.. وأضافت — هى الساقطة — انها شاهدت بدرية فى حى الساقطات اكثر من مرة ونبهت بونشمى الى ضرورة الالتفات الى البنت والا انجرفت الى الرذيلة .

كان بونشمى رأسمالى الناحية . يملك معظم الدكاكين فى أسواق الخضر والسمك والعطارين واللحم والحلوى . وكان يملك بيوتا كثيرة فى انحاء الكويت يؤجرها ، كما كان يسيطر على تجارة الخشب والذهب الى جوار اراضٍ يملكها ، فاطلق عليه الناس لقب : « شيخ البر والبحر » وتناقل الناس ان له يدا فى « شركة الجاز » ، كما أنه يستورد الأسمنت والأدوات الكهربائية . وكان يعى دوره تماما . فهو حليف للانجليز اصحاب « شركة الجاز » ، يعترف بفضلهم ، ويقول انهم ضيوف الكويت جاءوا يساعدون أهل الكويت ويعلمونهم . وحين وقعت واقعة السينما ، كان بونشمى الى جوار هندرسون الانجليزى ، حين اخذ الانجليزى يشرح أهمية إحكام القبضة على العمال ، ومعاقبة المشاغبين من امثال فلاح وبومساعد وبوعلى ، حتى لا يضروا بالمصالح الاقتصادية المشتركة . وأضاف أن من الواجب — مع ذلك — تقديم تنازلات لجمهرة العمال، الى جوار معاقبة المشاغبين . وكانت النتيجة ان رُبطت أرجل « المشاغبين » الثلاثة بالفلقة ، وادميت اقدامهم من الضرب ، وتولى هندرسون بنفسه ضرب فَلَاح ، ثم فُصِل كل من بومساعد وبوعلى ، ووضع فلاح فى صندوق سيارة بونشمى وانطلقوا باتجاه المدينة ، وتعمدوا ان يمروا على

مطبات كثيرة . ثم ضرب من بعد على قدميه وظهره ، بعد ان عروه من الثياب ، وحبس فى مرحاض ضيق كريه الرائحة كثير الذباب يومين كاملين ، اخرج بعدها واعطيت له ملابسه وقادوه الى منزله بعد منتصف الليل .

كان فلاح على وعى حاد بقضية بلده . قال لفهد وهو يبصره : ان هندرسون قد جعل من بونشمى شريكا له ، فأصبح هذا مستعدا لأن يحمى نصيبه حتى ولو ادى ذلك الى موت العمال . فى رأيهم أن العمال مثل الحمير ، يتعبونها بالعمل ، فاذا انهكت تخلوا عنها . ولكن واقع الأمر ان العمال ليسوا حميرا وانما بشر . ومن واجبهم ان يتصدوا للظلم ، ليس فرادى ، وانما كجماعة منظمة .

واستمع فهد لكلام فلاح ، ودعاه ، وعمل به . نلقاه فى آخر الرواية يخطب فى عمال شحن البترول ، يحضهم على عدم تحميل الناقلات ، لأن النفط الذى يشحنونه سيستخدم فى قتل اخوانهم المصريين الذين كانوا يقاومون الغزو الثلاثى لمصر عام ١٩٥٦ ولما يسب احد الانجليز العمال واصفا اياهم بأنهم « ابناء العاهرة » ، يقف له عامل شاب ويرد السباب اليه ، ثم يتجه الى محبس الأنابيب فيغلقه ، فيتبعه العمال الواقفون امام باقى المجالس . وحين يتنادى العمال بقتل الانجليزى وحرق البترول ، يكفهم فهد ، موضحا ان البترول هو ثروتهم والآلات ليس ذنبها ان المستغلين يديرونها لصالحهم الخاص .

فى آخر الرواية تماما يقال لراوى الأحداث ان بدرية قد شوهدت فى مقدمة احدى المظاهرات ، يدها بيد فهد . كانت حبلى . وبعدها اختفت . يقول الراوى وهو يبتسم : ستعود حتما .

« بدرية » رواية كويتية خالصة الانتماء للبيئة والوطن ، شديدة الرغبة فى الحفاظ على ثروة الكويت لأبنائها من غير ذوى الارتباط بالأجنبى ، كتبها وليد الرجيب وأحد همومه الرئيسية فيها أن يسجل مناظر وعادات وطقوسا من الكويت التى مضت ، وانقضى عهدها بظهور النفط ، وما تلاه من قيام المتاجر والمعامل ، والعمائر ، والسيارات وأدوات المدنية الحديثة التى اغرقت البلاد بوصفها سوقا استهلاكية كبرى .

من هنا يحرص وليد الرجيب على تسجيل ألعاب الأطفال ، وطقوس الاحتفالات بالأعياد ، وموائد رمضان ، واحوال الناس ويصف مساكنهم الفقيرة ، واهتماماتهم الصغيرة ، ويحتفى بما يدور فى اذهانهم من احاديث الخرافة . يأتى على ذكر عبادين ، الذى ماتت امه نصف ميتة قبل ان تلده . قالت العجوز الدرداء التى قصت على الأولاد حكايته ، ان امه حملت به ، وأرادت ان تلد بالسر ، كى تدفن الوليد فى المقبرة التى لجأت اليها . قالوا انها كانت بنت اسرة معروفة ،

احبت خادم الأسرة ، وعارض الأهل زواجها ، وطردوا الخادم ، ولكن البنت كانت قد حملت منه ، فأخفت أمها السر عن الأسرة وزعمت أن ابنتها قد مرضت مرضا طال بها . ثم لجأت البنت الى المقابر ، وهناك أصيبت بشلل نصفى ، وبعزيمة حديدية أفلحت فى أن تلد ، فاستطاعت ان تغذى الطفل من نصف جسدها الذى نجا من الشلل . وظل هذا حالها حتى اكتشف أحد الرعاة أمرها ، وجاء الناس فحملوا الطفل بعيدا عن أمه ، التى قتلها أحد الرجال بضربة من فأسه هشمت الرأس فى الجسد المشوه الذى كان يكتنفه الدود .

نجا الطفل بعد مرض طويل ، فسماه الناس « ابو قبير » لأنه خرج من القبر ، ثم عادوافسموه عبد الله ، ومن بعد عبادين . وكان امام المسجد قد أفتى بأن يكوى الطفل على رأسه ، عقب اكتشافه ، فأصبح من بعد يسير ويتكلم كالأبله . لم يعرف الناس ان كان هذا بسبب الكى ، أم لأن الناس عاملته على أنه ليس بشرا . وقال البعض انه على علاقة بالجن ، واقسم غيرهم انهم رأوه طائرا مع الجنية المسماة : أم السعف والليف .

كذلك يخلق وليد الرجيب لنا شخصية أم نشمى ، الزوجة الأولى والدائمة لزوجها بونشمى ، التى تتغير زوجات بونشمى ، وتبقى هى فى مكانها راسخة كالسنديانه . امرأة ذات حضور ومهابة ونضج كبير . لا تأبه لنزوات زوجها وتدير بيتها ادارة ذكية واعية ، تربى الأبقار وترعاها ، وتتودد اليها وتكلمها ، وتحلبها ، وتصنع من لبنها زبدا تبيعه مع بيض الدجاج الذى تربيه .

حين تزوج بونشمى من بدرية رغم أنفها ، لم تعاملها أم نشمى على أنها ضرة ، بل اخذتها الى حضنها واعتبرتها ابنة لها ، ورعتها وربتها ، ووقفت الى جوارها حين كان بونشمى يسىء معاملتها . ذلك ان بونشمى قد اكتشف حين حاول الدخول بعروسه الصبية انه قد فقد قدرته ، فأصبح — فى قرارة نفسه — ذليلا مهانا ، وسعى الى التنفيس عن نفسه بضرب الزوجة وزجرها كلما حاول فلم يستطع .

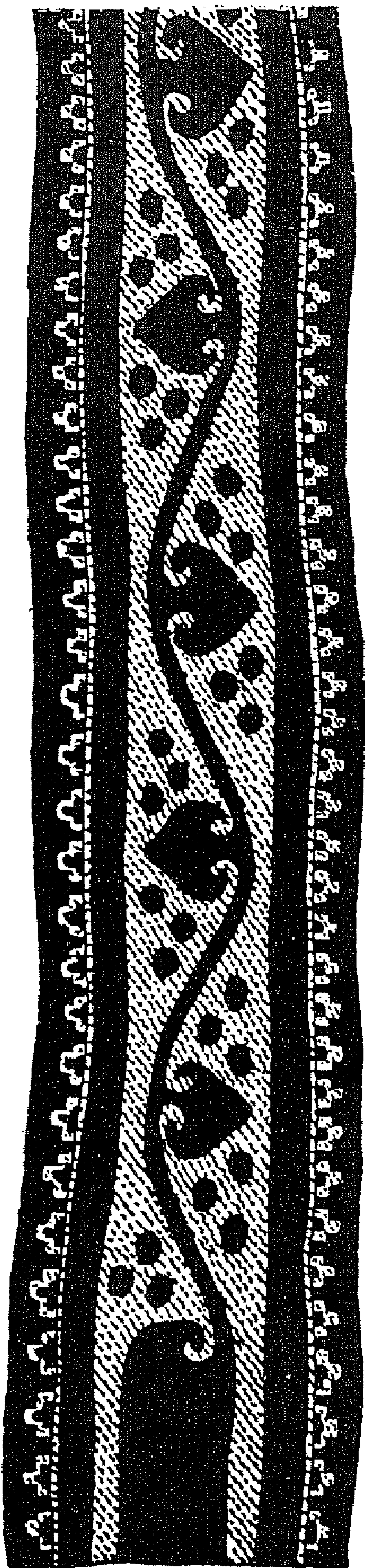
كذلك يجيد وليد الرجيب وصف الغانية « رومية » التى كان الرجال يرتمون على قدميها اذ هى ترقص لهم وتقدم الشراب والمتعة ، ثم تقدمت بها السن فأصبحت تتسول المساعدة يعطيها الناس . اول الأمر عن طيب خاطر — ثم يتهربون منها من بعد ، ويدفعون على مضض دون ان يروها ، وإنما يوكلون أمر الدفع لصبيانهم .

وفى مشهد من مشاهد الرواية يبقى فى الذاكرة ، يأتى بونشمى لزيارة هذا الحطام البشرى . كان مساعده عيسى قد أوحى له ان امرأة لها مثل تاريخها وقدراتها هى الوحيدة القادرة على رد القوة اليه . ويصف الكاتب ما يحدث من محاولة رومية استعادة مظهر الشباب ، وجهودها المؤسية المضحكة التى تريد بها ان تسترد بونشمى ، وترد عليه عافيته ، فينظر اليها هذا متعجباً ،

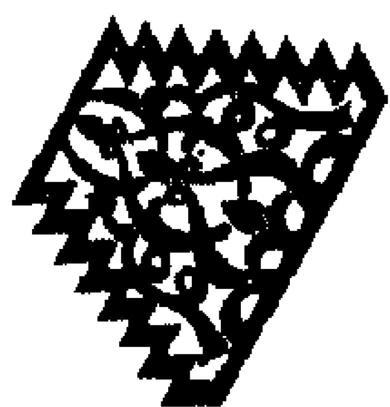
ثم يستغرقه الضحك ، ويقول لمساعده عيسى : « جايب لى قردة تعيد لى شبابى ؟ » .

توازن : « بدرية » بين اهدافها موازنة ملحوظة . تصور براءة الماضى ، دون أن تمجد فيه ، بل تبرز شقاء الناس وفقرهم وجوعهم . وفى الصفحات التى تتعرض لأثر السيول التى تعرضت لها المدينة فاذابت بيوتها الطينية ، وقتلت الماشية والدواجن وعرضت الناس لكرب كبير ، لا يستغرق الوصف الكاتب ولا يلهيه عن موقف بونشمى ، الذى سارع باستغلال الموقف فاستورد الطعام والكساء ومواد البناء ، فظن الناس انه يفعل هذا من فرط طيبته ، ثم تبينوا انه قد تقاضى ثمن هذا كله من الحكومة .

هى رواية حميمة ، تدخل القلب فى يسر ، وتحقق اهدافها الوطنية والسياسية ، والاجتماعية بكفاءة واضحة . البطل فيها – فهد – لا يبالغ فى مواقفه ، ولا يتصنع أو يتنطع فى نضاله ، بل يلزم جانب المعقول كما أوصاه فلاح . والبطلة — بدرية — تحافظ على نفسها ما استطاعت مقيدة من عجز بونشمى ، حتى اذا حضرت هذا الوفاة ، الحت عليه ان يطلقها ، معرضة بإباء عن الثروة التى كان يمكن ان تخلص لها لو مات الرجل وهى زوجته . ولكن حريتها ونقاءها واخلاصها للرجل الذى أحبته — فهد — يجعل المال غير ذى قيمة . المهم هو الانسان وروح الانسان .



العراق ودول الخليج



الرواية في
اليمن والبحرين



الرهينة

زيد مطيع دماج



الراوى رهينة من رهائن الامام . خطفه جنود الامام الخصوصيون من قريته وضُمَّ الى باقى الرهائن . اخذه الحراس من بين احضان امه ومن بين سواعد افراد اسرته المتبقين . لم يكتفوا بذلك ، بل اخذوا حصان والده تنفيذا لرغبة الامام . الرهائن هم ابناء المشايخ ورؤساء القبائل ، يعتقلهم الامام ضمانا لولا آبائهم .

كان ابو الراوى هاربا من جور الامام ، وكان يلهب الدنيا بلسانه الطويل على الامام فى صحف عدن . اما اعمامه وافراد اسرته الآخرون ففى السجون . وهو الآن رهينة ، ودويدار . والدويدار . اذ ذاك صبى حاضر البديهة ، يستخدمه الامراء والحكام فى قصورهم . حينما كان الراوى سجينا بقلعة « القاهرة » سأله استاذه الفقيه المسجون مع باقى الرهائن والمكلف بتعليمهم القرآن والفروض والطاعة ـــ سأله عن معنى كلمة دويدار . قال الأستاذ : من شروط الدويدار ان يكون صبيا لم يبلغ الحلم . والدويدار حاليا يعمل عمل الطواشى . والطواشى هم العبيد المخصيون . والخصى هو من تُضْرب خصيته كى لا يمارس عملا مشينا . جنسيا كأن يضاجع نساء القصور . بمعنى آخر : يجب ان يكون فاقدا لرجولته .

لاحظ الراوى ان معظم العائدين الى القلعة من الدوادير قد تغيرت ملامحهم . اصبحوا صفر الوجوه ، تشملهم نعومة فى الأجسام مع شيء من الترهل والذبول قبل الأوان . وكانوا يحظون باهتمام « خاص » من الحراس ، يلتفتون الى أصواتهم الرقيقة ، وتشوقهم ملابسهم النظيفة المرسلة حتى الأرض وتفوح من شعورهم المجعدة المختفية وراء « كواف » مزركشة حاكتها لهم نساء القصر ، رائحة الدهون المعطرة التى يستنشقها افراد الحرس بلذة . وحتى الفقيه المدرس كان يبلغ حد السماجة فى مراعاته لهم ، مما جعل الرهائن يتذمرون ويحتجون على هذه المبالغة فينهرهم الفقيه المدرس قائلا : اوباش . متوحشون . اعوذ بالله من اشكالكم .

نقل الراوى من قلعة « القاهرة » للعمل فى قصر نائب الامام ، فالتقى بزميل له ـــ أصبح صديقا فيما بعد ـــ كان هو الآخر دويداراً . عرّفه الدويدار « الحالى » ـــ وهو لقب اطلق عليه لحلاوته ـــ بما يدور فى حياة القصور من مويقات ومخاز ومؤامرات وتهتك وقصص غرام وجنس سوى وان كام محرما ، وشاذ يدعو الى الاشمئزاز .

وقف الدويدار « الحالى » امام دار قديمة مبنية بالآجُرّ . وقال : هذه الدار مخصصة لأخت النائب ، المدللة والمطلقة . وأضاف : وهى جميلة . كانت المرأة الشابة ـــ اسمها الشريفة حفصة ـــ ثرية ، قوية ، استطاعت بثباتها ان ترغم الرجل الذى تزوجته غير راضية على ان يطلقها . كان ابن عمها ، ولكنها لم ترض به قط . رفضته منذ الليلة الأولى . كان يسهر حتى الفجر مع « القات » وكان عاجزاً عن نيلها .

قال الدويدار الحالى ـــ اسمه عبادى ـــ وهو يقود صديقة الجديد الى بيت الشريفة حفصة : هنا يسكن أجمل من خلق الله . لها جاذبية تشد أى مخلوق ليقع فى حبها . ويهيم فى هواها ، ويموت أيضا . مات فى هواها كامل ، سائق النائب المُقَرَّب . مات فى حادث غامض ، والأرجح انه انتحر .

دخل الراوى على الشريفة حفصة فوجدها متكئة على حافة النافذة ، وقد برز شعرها الأجعد من ثنايا منديل برتقالى . وتراءى جسدها الأبيض من خلال ثوبها الشفاف الحريرى . استدارت كنمرة مسترخية ملساء ، وقد أصلحت ثوبها على ركبتيها وغطت ساقيها . شعر الراوى ان صديقه سيورطه فى موقف حرج هو فى غنى عنه . لمح نظرتها اليه بعينين واسعتين مكحولتين بجاذبية متوهجة . تعمدت ان تتجاهله بعض الوقت ، ثم اقتربت فجأة وقد امتشق قوامها كأنها شمعة ملونة تذيب كل نشوات اللذة الطاغية . لمست بيدها رأسه وسألت : ما اسمك ؟ فلم يجب كان قد وقع فى هواها من توه . لم ينم فى ليلته . ظل قدها الفارع يتماثل امام مخيلته وهى تتلوى كأفعى سلسة الملمس . وربما كغانية من الحور العين .

صدرت اوامر النائب بأن يباشر الراوى عمله عند الشريفة حفصة . لقيته الشريفة بتجاهل متعمد وابتسمت لصاحبه دون ان تبدى ادنى اهتمام به . مرت فترة وجيزه من الصمت ، قامت الشريفة بعدها بقوامها الصارخ وقالت له بتودد : تعال معى اعرفك على الدار . قال ان صاحبه عرفه عليها . ردت : ما ادرى ذلك الدويدار المسلول بما أريده منك . لم يجب الراوى فأخذت ذراعه وجذبته نحو درجات الدار وطافت به الدار من الطوابق السفلى حتى السطح والمطبخ . ظلت يده فى قبضتها ، والعرق ينزف بغزارة من وجهه ، حتى أصبحت يده مشلولة . لم يستطع الراوى من بعد ان يفك نفسه ابدا . من هذه القبضة الناعمة .

رغم العناية التى أسبغتها الشريفة حفصة على دويدارها الجديد ، فقد أخذ يشعر بالاكتئاب والضجر . كان يتوق الى الخروج من القصر ليشم الهواء الطلق ولو لساعة واحدة . تمنع صاحبه فى اجابة طلبه أولا ، ثم لان لرغبته بعد آيام . اتجها صوب وسط المدينة . كان الجو مفعما برائحة الوباء وادخنة مطابخ المنازل . الوجوه شاحبة ، يعلوها لون أصفر مقيت . البطون منفوخة مرضا ، لا شبعا . الاقدام عارية لزجة بالجروح والأوساخ .

ما كان أجملها مدينة عندما يطل عليها الراوى من اسوار قلعتها . كان وزملاؤه الرهائن يتدلون بأرجلهم من على أسوارها ويشاهدون المآذن والقباب البيضاء المرصوصة داخل السور المنيع ، والهضاب والسهول والجبال الممدودة على مدى البصر . لكنها الان من وسطها بؤرة للوباء المميت . مليئة بالمرض والمجانين وأصحاب العاهات . والمعوقين والحكام الظالمين . كل يوم تمر جنائز الموتى من أبواب سورها ، تشيعها اصوات الأطفال مع معلميهم من الفقهاء وطالبى الخير والمغفرة .

شغلت اوامر الشريفة حفصة الدويدار الجديد طول رمضان بنقل رسائلها الى شاعر من ندمان النائب ، تحبه ولا يحبها . قال الراوى لصديقه : تعبت من نقل الرسائل والهدايا . رد الصديق : وستتعب الشريفة حفصة أيضا . الشاعر هو شاعر الامام وولى العهد الخاص . وهو وسيم ومرتاح ، تنهال عليه الرسائل النسائية من قصر الامام وولى العهد والسيوف كلهم . وتنهال أيضا الهدايا الثمينة ، مما يجعله يعيش فى ترف اكبر من ترف الامام وولى عهده ونائبه أيضا . سأل الراوى صديقه : هل يحبها ؟ اجاب الصديق : لا يحب الا نفسه . اما هى فتحلم ولا تحب . تحلم بالشهرة وتحب التحدى .

اغدقت الشريفة حفصه على الراوى . لم تحرمه شيئا . اعطته الملابس والمنظر اللائق . ولكنه كان يطلب حبها ، ويشعر بالغيرة من الشاعر . اما هى فكانت تتعالى على الراوى . ذات يوم طفح الكيل فجاء الراوى الى حفصة يقول : أرجو أن تعفينى من حمل الرسائل . سألته : لماذا ؟ قال . لا فائدة ترتجى . انت تحلمين ولا تحبين . اما الشاعر فلديه ما يشغله عنك . ارتفعت اليد الناعمة الجميلة المخضبة بالحناء والمزينة بالأساور الذهبية وهبطت بلطمة على وجه الراوى تقبلها بثبات ثم هبط الدرجات مسرعا والشتائم العصبية تتوالى عليه . وضع فى رجليه القيد الحديدى باصرار من الشريفة حفصة . فقال الراوى لنفسه : السجين المقيد مرتاح اكثر من الطلقاء . لا مشاغل ولا هموم . عذره واضح لأنه سجين مقيد لا حول له ولا قوة .

يشغل غرام الراوى بالشريفة حفصة جزءا رئيسيا من الرواية . هو مفتون بها لا ينقضى فتونه . تعذبه الرغبة فيها ، والغيرة عليها ، وتؤرق أيامه نزواتها ، وترددها بين اقبال وادبار . قوة طاغية تحرك

هذه الثمرة الجميلة وتدفعها الى التعبير عن نفسها بمحاولة الاستيلاء على الشاعر ، وضم الراوى الى صفوف من يهوونها . يعذبها ما يعذب المدلالات الثريات ، اللاتى يحصلن على كل شيء فلا يبقى امامهن الا التعاسة والتمرد ، والتصدى للاعراف ، ومحاولة الهرب من السجن الذهبى الكبير الذى بنته لهن اموالهن .

تحكم الشريفة حفصة القبضة على الراوى . وحين تقبله لأول مرة يشعر أنها قد اعتصرت منه رحيق عسل ملكة نحل بكر . وتمضى مع ذلك فى مطاردة الشاعر الوسيم وتكلف الراوى بأن يوصل اليه احدى رسائلها . يشعر الراوى ان القبلة الحارة كانت مجرد رشوة تحفزه الى مواصلة القيام بمهمة يكرهها .

غير ان الأمور تتطور وتعطيه الثمرة جسدها كاملا . كان قد ذهب الى بيتها بحجة ملفقة فعرفت المرأة على الفور مايريد . حدثته ساخرة متعالية ، فلما غضب وحاول الخروج ، امسكت به ، وغلّقت عليه الأبواب وقال هيت لك ! اذ ذاك رشف من فمها أجمل القبل وتلمست يداه جسمها الرخو الذى طالما حلم به وهجع معها فى لذة صاحت لها ديوك الفجر .

من يومها أصبحت الشريفة حفصة صاحبة الأمر على الدويدار . لم تنفعه صلاة ولا تهجد ولا دعاء الى الله ان يشفيه من حب حفصة . لا يقطع سلاسل اسره الاّ الأحداث السياسية . فقد قال أحد المقربين للنائب ، ان الامام قد قتل فى صنعاء . قتله رجال حزب الأحرار الدستوريين .

ذهب الراوى بالخبر المثير الى صديقه الراوى المسلول ، الذى كان يرقد فى انتظار الموت . سأله الصديق : هل انت متأكد من مقتل الامام ؟ فأجاب : نعم . فسأله : ولى العهد ، أين هو ؟ قال الراوى : غادر المدينة . ارتمى الدويدار المسلول على فراشه ، وكان قد وثب من مرقده لدى سماع الخبر وقال : لقد فشلوا . كان عليهم بسيف الاسلام قبل الامام . شعر الراوى بالخجل لأن صاحبه اكثر ادراكا للأوضاع منه ، وهو المريض على فراش الموت . ولام نفسه ، لأنه صاحب قضية تهمه ، ومع ذلك فقد تشاغل عنها بحب الثمرة الجميلة . وها هوذا الامام العجوز قد قتل وفر ولى عهده من المدينة .

تذكر اسرته . بعضها مشرد والآخرون فى السجون أو المهجر . وهو رهينة دويدار . وخدام مؤخرا ، كل هذا لأن والده يعارض سياسة الامام وسيوفه . عزىّ نفسه مع ذلك بأن الامام قتل بالفعل ، وبأيد يمانية وهذا هو الأهم . وقال لنفسه : فى سجل تاريخ شعبنا اليمانى انه قادر على تنفيذ كل رغبة تجتاح مشاعره ، وهو ينفذها بالفعل ولو بطريقة عشوائية . ان باستطاعة هذا الشعب انهاء المظالم ، ولو بصبر الجمال وحقدها .

 قرب نهاية الرواية تتصدى الشريفة حفصة للراوى تتحداه وتحاول استفزازه . تجلسه فجأة الى

جوارها وتقول بصوت فيه ما لم يعهده من قبل من خذلان وانهزام : أريدك ان تنقذنى . يسألها : م انقذك ؟ تقول : من حياتى هذه !

وحين ينتصر الامام الجديد على الأحرار الدستوريين ، يرفض الراوى ان يعجن الرماد بالجاز ويشعله ، رمزا لانتصار الامام الجديد . عاد الى صاحبه المشرف على الموت وهو يقول لنفسه : عاد السيف ، الامام الجديد وقد انتصر . لابد أن والدى كان واحدا من ضحاياه ، الذين بترت اعناقهم فى مدينة « حجة » . عاد الامام منتصرا بعد أن أباح صنعاء للنهب والسلب والقتل والدمار .

رقد الى جوار صاحبه ورقد الدويدار الحالى رقدته الأخيرة، احتضنه الراوى، وغسله وحمل نعشه بنفسه الى المقابر . تطوعت الشريفة حفصة بعطورها الثمينة ليضمخ بها الكفن ، وجاءت تحضر مراسم الدفن . ولما ذهب المشاركون ولم يبق الا هو وهى : قالت له : ماذا تنوى ؟ قال : الهروب . قالت : لن ادعك تمضى . واضافت : خذنى معك الى الجحيم الذى ستذهب اليه . رفض ، رغم اعترافه بأنه يحبها ، وانها ربما كانت تحبه . قال لها : ستتركيننى كرها عنك ، فوثبت قائمة والتقطت حجرا من الأرض تقذفه به . لم يتوقف رغم شعوره بالعطف عليها .

علا صياحها بصوتها المبحوح الذى يحبه ، وتلقفته ظلمات الجبال المطلة على الوادى الموحش المنحدر الى المستقبل المجهول . ابتعد عنها مسافة كافية مخلفا وراءه صوتها المبحوح وذكرياته مع صديقه الدويدار الميت وباقى من عرفهم فى قصر النائب .

هل كانت الشريفة حفصة ثائرة سياسية بالامكانية ؟ ترى لو أن الراوى رضى بأن تهرب معه ، اكانت تنضم الى الساخطين على حكم الامام ، العاملين على مقاومته ؟ أكان المصير المحزن الذى انتهت اليه اسرة الراوى ، بين شهيد ، وسجين ورهين ومهاجر هو ما جذبها الى الراوى ، وجعلها تطارده وتتردد بين الإقبال عليه والإدبار عنه ، ثم تلقى بنفسها اخيرا بين احضانه وتنكسر امامه طالبة اليها ان ينقذها من حياتها الفارغة هذه ؟

مجرد احتمال يؤيده ان حفصه تتبرع بعطورها الغالية لتضمخ كفن الدويدار الحالى ، الذى توضح الرواية أخيرا انه هو الآخر كان ثائرا على حكم الامام راغبا فى سقوطه . هذا الجانب السياسى المتمرد فى شخصية حفصة يزيدها جمالا على جمال ، فتنتصب أمامنا قوية رائعة، مقنعة ، تجمع بين حدة الجمال وحدة الذكاء وتعلو كثيرا على باقى نساء القصر . ان لها ارادة قوية ورأيا فى الحياة ، وقدرة على الدفاع عن رأيها جعلها تتخلص من زوجها الذى غصبوها عليه وترفضه من أول ليلة .

الى جوارها يبدو الراوى ، عاجزا ، مترددا ، هشا ، قابلا للانكسار ، لايبت فى أمر الالتصاق

بها أو تركها الا بعد أن تقرر الأحداث السياسية له ذلك . وحتى وهو يغادرها الى الأبد ، لاينسى ابدا صوتها المبحوح المحبب الى قلبه ، فيتركها وهو راغم . يتخلى عنها وكل مناه ان يبقى الى جوارها .

تبرع الرواية فى تصوير حياة القصور بكل ما فيها من رذائل ، وما يغشاها احيانا من فكاهة ذات مغزى . يشترى النائب سيارة لابنه فيثور اهتمام عام بها ، ويتحلق الناس حولها ليشاهدوها . فيسرع الشاعر المنافق لينبه النائب الى ان السيارة وما اثارته من اهتمام لا يمكن ان يكون وقعه حسنا على قلب الامام وولى العهد . اذ ذاك يتراجع النائب من فوره ، وينكر انه اشترى السيارة لابنه، بل انه ابتاعها كى يقدمها هدية منه ومن ابنه لمولاه ولى العهد، ويعد بأن يوصلها اليه فى الصباح الباكر ويقودها بنفسه . وحاشا لله ان تكون السيارة له أو لولده فهما على العهد يأتيان وسيركبان البغال والحمير دائما فى سيرهما الى مقام مولاهما حفظه الله !

وتثور فضيحة تملأ رائحتها القصر . فقد استبدت الشهوة بأحد جنود المدفعية فذهب الى بغلة النائب الصغيرة القوية المسماه : « زعفرانه » . ركلته البغلة ركلة قوية كادت تهشم رأسه الأصلع . اذ ذاك أمر النائب سايسه الخاص بخياطة فرج البغلة والبهائم الأخرى فقال الدويدار الحلى : كان على النائب أن يأمر أيضا بخياطه فروج نساء القصر !

تجدل « الرهينة » حياة الناس الخاصة وهمومها بالحياة العامة والأخطار التى تمثلها ، وتصور المجتمع اللاهى الذى كان يتمتع بكل لذائذ الحياة بين مشروع وشاذ ، بينما الوباء يجتاح المدينة ، والمرض والفقر يحيلان سكانها الى اشباح . وتروى الأحداث امام خلفية سياسية تظل فى حالة قبوع حتى تنفجر وقائع مقتل الامام العجوز وانتصار الأحرار الدستوريين المؤقت ، ثم هزيمتهم على يد سيف الاسلام ولى العهد .

ورغم ما فى هذه الهزيمة من ألم ومرارة ، فان الرواية تهمس من بعيد بأن هذه النتيجة ليست نهاية الصراع . واذ يترك الراوى المدينة وراءه بكل ما فيها ومن فيها ويتجه الى مستقبل مجهول ، نحس — على نحو من الأنحاء — بأن هذا المستقبل لن يظل مجهولا أمدا بعيداً . ونتذكر قول الراوى لنفسه : « فى سجل تاريخ شعبنا اليمانى انه قادر على تنفيذ كل رغبة تجتاح مشاعره ، وهو ينفذها بالفعل ولو بطريقة عشوائية . ربما يقال انها ليست ميزة . ولكننى أؤكد أنها ميزة ، فباستطاعته انهاء الظالم ولم بصبر الجمال وحقدها »

وقد شهدت الأحداث التى تلت كم كانت هذه المقولة صادقة ! .

صنعاء مدينة مفتوحة

محمد أحمد عبد الوالي



يقول الراوى نعمان وهو يتفجع : « ما ألعن ان نعيش لنموت » . لم يكن يحتج على الموت الذى يأتى فى نهاية الحياة وحسب . كان يلعن الموت الآخر الأكثر فظاظة ووحشية : الموت على قيد الحياة .

تميل الشمس الى مغيب خلف مياه البحر فتنعكس انوارها الحمراء على رمال المقبرة البيضاء وعلى شواهد القبور ، وعلى القبة الكبيرة التى تتوسط المقبرة . هنا تغيب الشمس ، وهنا يدفن الانسان . وفى قلب المدينة يتألم كثيرون . فى داخل كل منهم حلم كبير بحياة سعيدة ، فى احضان اناس يحبونهم . ولكنهم ينسون ان المصير هنا على بعد خطوات .

يسربل الموت هذه الرواية الجميلة بأستاره السوداء . البشر فيها يموتون وتموت فيها الحياة . من فرط ان الموت حاضر فيها يمد نعمان بصره الى حيث تمتد المقابر ، فيخالها مدينة كبيرة عامرة ، يعيش موتاها . وما قبورهم سوى أماكن يأوون اليها حين يشعرون بالتعب . انها مدينة الأموات الصاخبين .

من قبل نظر البحار ، صديق نعمان والصنعانى الى مدينة « زبيد » ، التى كانت منارة للعلم منذ ان عرف اليمنيون العلم : اسوارها صدت عن زبيد غارات المتوحشين . اليوم تعد هذه الأسوار ذاتها شعاع العلم الحديث عن المدينة . خارج تلك الأسوار القديمة الصلدة تقع المقبرة : ميدان واسع لا نهاية له . كأن أموات العالم كله مجتمعون هناك . ومن فوق ربوة عالية خارج زبيد يرى المشاهد المكانين : زبيد داخل أسوارها . والمقابر بشواهدها . مدينتان للأحياء والأموات . ومن لايعرف زبيد لا يستطيع أن يفرق بين المدينتين لأنهما متشابهتان .

يتفجع محمد مقبل هو الآخر . يخاطب السماء قائلا : « الى متى هذا العذاب يارب ؟ » ولم يكن يعنى عذاب السيول ، التى فتكت بالقرية وشردت سكانها واكلت ماشيتها واغرقت بعضا

من اطفالها ، ولكنه كان يعنى العذاب الكبير الذى كان السبب الأول لشقاء اليمن : حكم الامام . كان محمد مقبل مغامرا ، لا يستقر على حال . اشترك فى حرب الحبشة الى جوار الايطاليين . وانتهى امره الى الحياة فى القرية فى منزل أسرة نعمان ، بعد ان ماتت زوجته وهو فى الحرب ، وهاجر ابنه الوحيد بحثاً عنه ، ولم يعد . واستولت الحكومة باسم الوقف على املاكه جميعا ، بينما تهدمت داره . ومع هذا فهو كتلة من النشاط والأمل . يقول ان اجدادنا هم الذين خلقوا هذه القرية ، ورغم السنين الطويلة مازالت شابة . فلماذا نعجز ونحن ابناء هذه التربة ؟

كانت السيارة تنقله هو ونعمان عبر الوادى والصحراء . قال لصديقه : اتمنى أن لا أموت حتى أرى بلادنا هذه مثل البلدان التى زرتها . اتمنى ان نكون مثل الحبشة . وليبيا وتركيا . اتمنى ان ارى الطرق مرصوفة وخطوط السكك الحديدية تخترق جبلنا ، وأرى السدود على وادينا هذا وغيره من وديان بلادنا . فلا تضيع مياه السيل فى الصحراء ولا يلتهم السيل اطفالنا وماشيتنا وأرضنا » .

يسمع نعمان هذا الكلام فيجد ان امنية محمد مقبل هى امنيته هو وامنية الجميع . غير ان نعمان لا يرى الا الواقع . فبلاده كما يراها ليست سوى زريبة للحمير ! كانت السيارة تحمله الى المهجر فى عدن . فما ان خرج من الوادى حتى سمع صوت محمد مقبل يتناهى اليه واضحا فى صمت الصحراء . كان يحذر اليمنيين من الهجرة . ارض اليمن سوف تظل تطاردهم . انا نفسى — يقول — كنت مهاجرا مثلك يا نعمان . أحاول أن أهرب من واقعى . حملت السلاح وقاتلت اناسا لا أعرفهم . قاتلت مع الايطاليين وضدهم . كنت أبيع نفسى لمن يريد شراء اداة لاطلاق الرصاص . وكنت مستعدا لأن أبيع نفسى للشيطان مادم سيدفع ثمنا غاليا . كل ذلك لأننى أردت أن انسى اننى يمنى . ولكن الحقيقة اننى كنت افعل هذا لأننى يمنى . لأننى أريد أن انتقم منهم . من الذين شردونى ومزقونى وسرقوا أرضى . غير أنى اخطأت الطريق . اما الآن فأنا أعرفه . عرفته متأخرا ، لكننى أحمل الأمل . وأراه فى جيل هذه الأيام الذين اتمنى ان يدركوا الحقيقة . عد سريعا يا نعمان ، ولا تهرب ، فسواء كنت فى عدن أو فى القرية فأنت فى قلب المأساة .

ثائر فرد آخر ، امتشق السلاح دفاعا عن عرضه وماله واسرته ، ثم ادرك فى نهاية المطاف ان ثائرا واحدا لا يصنع الثورة . ذلك هو الصنعانى . كان تاجرا صغيرا يعيش فى مدينة صنعاء مع زوجة وابنة يحبها كثيرا . يحب الابنة بنوع خاص لأنه يعلم ان زوجته لن تستطيع انجاب غيرها . كان يحلم بان يصبح أنسانا يعيش فى هدوء فى منزل فخم ، وان تقوم فى حيه مدرسة للبنات كى تلتحق بها ابنته . وكان يريد للبنت ان تتم تعليمها فى اليمن ثم يرسلها الى الخارج لتدرس الطب وتعود فتعمل وتعول نفسها . كان يحلم بأن تصبح صنعاء عاصمة اليمن السعيد حقا .

كان يعمل بجد وشرف واثقا من انه مادام على النهج الصحيح فستصبح قريته ومدينته وبلاده جنة . وقتل الامام فلم يتأثر . ظن انه يستطيع مواصلة السير على النهج القديم . ولكنه وجد الطرق امامه مغلقة . لا هو قادر على المضي ولو هو مستطيع ان يغير نظرته للأشياء والأحداث . فلم يكن يهتم بالسياسة قط . وتطورت الأحداث الى حرب أهلية فشعر لأول مرة بالخوف على نفسه واسرته واحلامه .

وذات يوم رأى المعركة على ابواب صنعاء ، فرُوِّع اشد الروع وان حاول أن يتماسك زاعما لزوجته ان المقاتلين لن يمسوهم بشيء . فليسوا هم الذين قتلوا الامام . وفجأة وجد صنعاء تشتعل ، وقوات الامام الجديد تعلنها مدينة مفتوحة ورأى الجيش الغازى يمعن فى النهب والسلب . احترق دكانه فجرى كمن مسه جنون يريد ان ينقذ منزله واسرته . وجد المنزل مهدما وأبصر زوجته وابنته صريعتين ، والأم وابنتها متمسكتين إحداهما بالأخرى . وكانت ملابس الأم ممزقة ، مما أوحى بأنها اغتصبت ، قبل مقتلها .

تحطم القيد الذى كان يغل حركات الصنعانى ، صارع أول من قابله من العسكر وانتزع بندقيته واخذ يطلق النار بلا تمييز . لم يهمه ان صنعاء كانت تتألم ، فقد احترقت احاسيسه مع أحلامه ، وأدرك عظم الخرافة التى بنى عليها حياته حتى تلك اللحظة : خرافة ان الفرد يمكن ان ينجو حتى ولو أنهوا كل ما حوله .

وارتكب الصنعانى خطأ آخر . ترك صنعاء مهاجراً ، زاعماً لنفسه انه من المنفى يستطيع ان يقاوم الغزاة . غير ان الزمن ما لبث ان اطفأ لهيبه واستكان الى حياة الفراغ والشراب . كل ما تخلص له من درس أن الفرد لا يستطيع أن يثأر بنفسه . ولكنه مع الجموع يستطيع أن ينتقم .

ويحكى البحار حكايته . فقيرا كان منذ طفولته الباكرة . ترك قريته وهو فى العاشرة ليعمل فى عدن . يعمل من الخامسة صباحا حتى الثانية عشرة ليلا . عاد الى القرية فلم يستطع البقاء بها بعد أن جرب نوعا من المدنية فى عدن . قرر ان يهاجر الى الشمال ، الى مدينة زبيد . قطع الطريق ثيها فى ثلاثة أشهر ، على الأقدام تارة أو متعلقا بسيارة تارة أخرى .

قصد البحار مسجد المدينة يبحث عمن يؤويه ويوفر له بعض الطعام . لم يجد من الطعام الا قطعة من اللحم كانت نصيبه من صدقة الحاكم . لقد ماتت زوجة الحاكم بالأمس وهو اليوم يوزع اللحم ترحما عليها . قال له شيخ عجوز لقيه فى المسجد ان حال زبيد بالأمس ليس حالها اليوم . كانت قديما تتلألأ بالنور ، وكان طلاب العلم يفدون اليها من انحاء اليمن جميعا . وكان الطالب يتعلم فى المسجد ما يريد . واليوم صادرت الحكومة اموال المساجد وزعمت انها ستتولى هى تعليم الطلاب . ولكنها لم تفعل . ضاعت أرض الأوقاف وضاع معها العلم

يعلم الشيخ ان الولد هو من أهالى « تعز » التى يحمل لها الشيخ اعذب الذكريات فقرر ان يستضيف الولد فى بيته يعلمه القرآن . وكان هو نفسه يعمل نديما فى قصر الحاكم وقصور غيره من الكبراء . يدفع عنهم الملل ويسليهم بأحاديثه عن الماضى والشعراء واشعارهم وقصص المحبين . وصحبه الشيخ الولد ذات يوم الى احد هذه المجالس ، وكان الولد ذا صوت رخيم فطلب منه الحضور ان يرتل القرآن . اعجب الجميع بصوت الولد ، ونال الشيخ بسببه مبلغا كبيرا من المال . ثم أصبح الولد محط اعجاب الناس ، خاصة نساء القصور . كن يستدعينه ويطلبن اليه أن يتلو القرآن . وكن يجزلن له فى العطاء شريطة ان يجزل لهن الوصال !

غير ان الولد ما يلبث ان يثور على العبودية الجديدة . لم يكن ثار على عبودية العمل كى يقع فى عبودية الغرام المأجور . ومن ثم يقرر الهرب . ويقف عند مفترق الطريق يسأل نفسه : أيتابع المسير ويعود الى القصة السخيفة المملة : قصة قسمة الناس الى اغنياء وفقراء ؟

كان قد شاهد قسما من المدينة يحترق . القسم الذى يسكن فيه الفقراء . هؤلاء دون غيرهم تنالهم المصائب بسهولة . تحترق املاكهم ولا يطال الحريق املاك الأغنياء . كأنما هذه الأخيرة محصنة بقوة غيبية . اذ ذاك يفر الولد الى البحر ويعمل بحارا .

هو الآخر يبحث عن خلاص نفسه . لا ينقصه الوعى ، ولا الشعور بالظلم ، غير انه يفتقد الاحساس بضرورة العمل الجماعى . يشاركه فى هذا بحار آخر اسمه : « على الزغير » . كان بحارا فوق سفينة انجليزية . غاب عشر سنوات وعاد ليقول انه زار خلال عمله معظم بلاد العالم . سأله الصنعانى : هل كان معكم يمنيون ؟ فأجاب : لا . وأنا لا أحب اليمنيين . اليمنى يجعل حياتك جحيما ويخلق المشاكل من لا شىء . اضاف : انه لا يعرف عن القضايا الوطنية اليمنية شيئا . يعلق الصنعانى : هؤلاء هم الذين يؤخرون قضيتنا الوطنية . لا يعرفون عن بلادهم شيئا . يهربون ثم يأتون ليقولوا ببساطة : انهم لا يحبون اليمنيين . ثم يثور الصنعانى قائلا : لماذا عدت اذن ؟ يسمع صاحب المقهى ، « الحاج على » هذا الكلام فيسأل : وانت ، ما هى الأعمال التى قمت بها لوطنك ؟ ويسرع نعمان ليقول مدافعا عن صديقه : انه على الأقل يشعر بأن عليه أن يعمل . يرد الحاج على فى صراحة قاسية : ليس بالشعور وحده نخلص بلادنا . منذ عشرين عاما امتلك هذا المقهى . ومرت علىّ وجوه كثيرة . كلهم يتحدثون كثيرا ، خاصة حين يلوكون القات . ولكن لم اجد واحدا منهم يحاول ان يفعل فعلا ايجابيا ، لتحطيم الجمود الذى يسيطر على بلاده .

اما نعمان نفسه فقد قرأ كثيرا من الكتب التى تركها له ذلك الصديق الذى يتواصل معه عبر الرسائل طوال الرواية . قرأ الكتب وأصبح يقضى معظم أوقاته معها . ولكنه يشعر ، مع

ذلك ـــ بفراغ لا يدرى كيف يملأه . يريد عملا يطمئن نفسه وروحه وكيانه كله . عملا يشعره بأنه انسان كبير . يفكر . يتضامن مع الجميع . يحب الناس . يعمل من أجل اعادة بناء ما انهار فى انفس الناس . انه يؤمن ان اليمن ، شماله وجنوبه بلاد واحدة ، والعمل ضد الاستعمار والاستبداد فيه قضاء على الشرّين معا . ولكنه يتلفت فلا يجد امامه عملا وطنيا صحيحا . مجرد لعب أطفال . الناس مستعدون للعمل ولكن ليس هناك قيادة تقودهم احيانا تستبد به فرديته فيوشك ان يدير ظهره للعمل الوطنى ، غير انه يعود فيتذكر قصص الملايين من ابناء الوطن المشردين تحت كل سماء . فيجد ان من الخيانة الا يعمل . يقول له الصنعانى : اننا نهرب ، وتلك هى الحقيقة . هم يهربون والزعماء يهربون من فراغ قاتل فى حياتهم .

رغم هذا الوعى الواضح لا يفعل نعمان شيئا . هو أساسا يفتقر الى الحب . حب الأفراد وحب الانسانية جمعاء . هذا ما تقوله له زينب ، المومس الجميلة الطيبة التى عرفها فى آخر الرواية ، فضمته اليها ، ملأت حياته ثم أخذت تسأله : « أتحبنى ؟ » فأجاب : لا أحب أحدا . قالت : سيأتى يوم تحبنى فيه . ويسألها : ولماذا ؟ تقول : لأنه لابد وأن تحب الناس . لا تستطيع ان تعيش بدون الحب . اذا أردت أن تعيش ، احب الناس . إنس اخطاءهم . وهبهم حبك . عندئذ فقط تستطيع ان تنسى وأن تعيش .

كان نعمان يريد ان ينسى زوجته التى خاض معركة فى سبيل التزوج بها ، فلما خلصت له ، نسيها وأهملها تماما ، وراح يغازل زوجة درهم بكر ، الذى غاب عن زوجته سنوات طويلة وتركها تدبر حالها بصعوبة بالغة . وماتت فتاة الجبل السمراء . انهار عليها منزلها بعد ان اصابه السيل بضربات قاصمة ، وبقيت هذه الزوجة التى أحبته ولم يحبها هو قط . يقول لصديق الرسائل : ان حبه لها مات عقب الزواج وأصبحت مجرد رغبة عابرة . شأنها فى هذا شأن الزوجات فى اليمن : خادمات للأرض والبيت والزوج . مجرد زهرات تتفتح قليلا ثم تموت . هكذا حال زوجته . كانت زهرة ناضرة فأصبحت عودا يابسا . كأنها عجوز على ابواب القبر .

قالت له الزوجة وهى تبكى على صدره : نعمان : ان فى داخلى شيئا يتحرك . ونظرت اليه فى عذوبه فلم يتمالك نفسه وغمرها بقبلاته . ثم عاد يكتب لصاحبه : الآن فقط ادرك اننى لا استطيع أن اكون مسئولا عن انسان انا السبب فى وجوده.. الا يكفى اننى اشقى فى وجودى ، فأروح انجب واكون السبب فى شقاء الآخرين ؟

سفسطة وتنصل من المسئولية وانكفاء على حب الذات تحول جميعا بين نعمان وبين أن يصبح بطلا ايجابيا . لا يظهر له شعاع من نور الا فى آخر الرواية . ماتت زوجته ، وافلست الشركة التى كان يعمل بها ، وطرد العمال جميعا وهو بينهم ، واسلموا الى الضياع الكامل . لا تقول

الرواية ماذا حدث بعد ذلك غير اننا فى صفحتيها الأخيرتين نجد كلا من الصنعانى ونعمان فى سيارة متجهة الى الشمال ، وفى قلب نعمان اغنية عذبة . وهو يؤكد انه سيعود الى عدن مرة أخرى . أما الآن فهو متجه الى صنعاء مع صديقه . ويتوقف عند جمرك « الراهدة » ، ويقول للجنود انه وزميله من العمال وكانا يحاربان الاستعمار فى عدن . فيقهقه « البغى » ويقول : مما تعملوا اضراب ضد مولانا عايوديكم حجة !

واما الصنعانى فكان متمددا على السيارة ينظر الى السماء ويصفر بأغنية صنعانية حزينة . وقال بعد قليل : هل نكتب للبحار ؟ فأجابه نعمان : ولمحمد مقبل أيضاً . قال نعمان : انجعلهما يرجعان لصنعاء ؟ فيقول نعمان : لا فرق . وينظر اليه الصنعانى فى حزن ويسأل : نعمان . هل تعود الى عدن ؟ لم يجبه نعمان وراح يصفر الأغنية الصنعانية الحزينة .

تهمس هذه الرواية ، وتتحدث حديثا غامضا ، واحيانا مواربا عن عمل قامت به الجماعة فى عدن ضد الانجليز ، وعن عمل آخر تزمع أن تعمله فى المستقبل ، فى عدن أو فى صنعاء ، لا فرق . اليمن أرض واحدة كلها تطلب من يحررها من الاستعمار والاستبداد .

تتسلل « صنعاء مدينة مفتوحة » فى رشاقة الى عالم الف ليلة . دون تعمد ودون إعلان . كما تنساب بالرشاقة ذاتها الى دنيا المقامات . يذكرنا بألف ليلة نساء القصور الشبقات اللاتى يصطدن البحار ويقضين معه ليالى الغرام ، ويهدينه لصديقات لسن أقل شبقاً فى قصور أخرى ، ولا تتورع اجداهن عن أن تطلب الى البحار ان يرتل سورة يوسف فى الجزء الذى يقص حكاية مراودة زليخة ليوسف عن نفسه ، وذلك فى الوقت الذى تدعو فيه الشبقة الحسناء الولد الى غرام مغتصب .

وتنتقل أيضا إلى أجواء الف ليلة فى الحلم ، الفانتازى الذى يراه نعمان آخر الرواية وهو تحت وطأة المرض . وفيه تقدم كل من فتاة الجبل السمراء وزينب ، المومس الطيبة ، وهند الزوجة المستكينة ، كل منهن تتشبث بنعمان وتدعى أحقيتها فيه . المشهد يدور فى جنة بلا أبواب ، الدخول فيها متاح دون اعتراض من حراس . تنهال الاتهامات بالخيانة على رأس نعمان من افواه الجميلات الثلاث ، ثم تختفى فتاة الجبل ، وزينب ، وتبقى هند وحدها على الصخرة تبكى .

اما عالم المقامة فتصوره احداث السيل ، التى يمسك بتلابيبها دجال صفيق يجمع الأموال من الفلاحين الفقراء ، واعدا إياهم بأن فى مقدوره ان يرد عنهم أذى السيل ، عن طريق رسمة معينة وضعها الجان ، أو ما اشبه ، فى بطن الأرض ، فاذا تم العثور على الرسمة انقطع السيل فى الحال .

ويصدق الفلاحون الأبرياء هذا الكذب وتنهال الأموال على الدجال . ولكن السيل لا تنقطع مياهه ، فيفر الرجل فى غفلة من ضحاياه ، ويتركهم يلعنون حظهم وغباءهم . وهذا هو جوهر ما

يحدث فى المقامة الموصلية لبديع الزمان ، حيث يقوم ابو الفتح بالاحتيال على قرية نكبها السيل فيقدم الوعود ويتلقى الهدايا ويفر تاركا المنكوبين يندبون حظهم .

تجمع « صنعاء مدينة مفتوحة » بين تصوير الحياة الاجتماعية والسياسية لليمن على عهد الامامة . وتبرز الشخصيات التقليدية المطحونة : الأم التى امتد بها شقاء العمر حتى كاد بصرها ينقضى ، والأب الذى يفجع فى ولديه . احدهما يهجر بيت أبيه ليعيش مع زوجته فى مكان آخر ، ويروح يطالب بنصيبه فى الأرض حتى ينفصل عن اسرته تماما . اذ ذاك يشكو الأب ويقول ان كل مايرجوه ان يكون ابناه فى مستوى المسئولية ويفيدا نفسيهما ، لأنه هو لم يعد قادرا على مزيد من البذل . وكل الدلائل تشير الى انه منته الى الموت فى القريب . فتقول الأم : والله ولا كأنهما يعرفاننا ! فترتسم امامنا على الفور شكوى جيل يسرع الى اختفاء من جيل اعقبه ، ولم يحمل من المسئولية ما حمل الجيل السابق . ثمة انفصال بين الجيلين يصفه نعمان بقوله : « اما والدى فقد أصبح المسكين لا يستطيع التحدث معى . اننى ارثى لحال هذا الانسان القوى . الجبار الذى مارس حياة عنيفة فى بلاد الغير ، حين كان فى الخارج . أصبح اليوم انسانا محطما لا يستطيع تقويم حياته بمفرده .

ثم يعلق نعمان على هذا ، موجها حديثه الى صديق الرسائل : لا أستطيع ان أجد لتصرفاتى تبريرا معقولا . إن الفارق بين جيل أنتمى إليه وجيل سكان القرية هو السبب . حياتنا معا لا تحتمل . ولا بد رحدنا أن يخلى السبيل . ولن نكون من يخلى السبيل ! .

المهاجرات

إبراهيم خليفة

رأى حمدان الفتاة مريم تودع أخاها محمد . كان محمد صبيا لايزال ، دفعته الحاجة الممضة الى أن يركب البحر . فلا عائل لأسرته سوى مريم ، تحمل قامتها الباسقة ووجهها الذى نزعت الشمس والبحر والدخان نضارته ، وتتأبط حربتها وتروح تصطاد السمك . وحمدان بحار فقير يعمل على سفينة الرجل العجوز السيد أحمد ، تاجر اللؤلؤ . وذات يوم عامر بالغناء والصياح والكلمات ودع حمدان أباه ، وغابت سفينته مع باقى السفن ، وغاب معها الأب ، وطالت رحلته — لم يعد ! وجد حمدان نفسه فى بيت السيد أحمد ، يكنس ويجمع روث البهائم ويحضر الحطب ويغسل القدور الكبيرة السوداء ، ويتحمل تقريع زوجة السيد ، ثم يكون نصيبه من هذا كله ان يسمع المتخمين يتجشأون حول المائدة الكبيرة ، بينما يأكل هو من بقايا القدر فى المطبخ . وعائشة ابنة التاجر الغنى تخايل بصر حمدان . يحبها . يشتهيها . يتطلع عن طريقها الى أن يصعد الى طبقة أرقى . وهى — طفلة ، ومراهقة تلاعبه وتبادله الحب ، وتضع بين يديه رأسها وتغيب واياه عن العالم فى نشوة سرعان ما يقطعها صراخ الأب : احضرتك من بيتكم القذر وأطعمتك ثم تعتدى على شرفى يا نذل ! لا تعد الى بيتى . سأقتلك إن فعلت .

ويغادر حمدان بيت السيد ليعمل على سفينته . ورغم الاهانة والطرد وانعدام فرص اللقاء يتشبث بحلم الوصول . كم طاف حول بيت السيد . كم سأل الأصداف والطيور والمد والجزر عن عائشة . شد ما رأى البيت الكبير شاهقا بين أقزام الأكواخ . ما أعلى ما صرخ فى الفضاء : سأصل اليك . سأجد مكانا . لست تافها ايها التاجر ، سأريك !

ولكن هذا الهذيان الرومانسى لا يثمر شيئا . فان حمدان ليس عاجزا وحسب ، وانما هو خانع وذليل أيضا . هو وصولى يعترف لنفسه ، اذ يؤكد لعائشة انه يهواها ، انه لم يهوها قط ، وانما

رغب فى الجسد ، فى البيت الكبير . فى الظل ، والسفن واللآلىء .

وعائشة كبرت الآن ، عاد أخوها عادل من مصر . جاء بمجموعة ضخمة من الكتب وطربوش مصرى ، وآراء متحررة كسبها من العيش فى الأرض الواسعة بين الكتل الهائلة من البشر ، فى المدن الكبيرة ، مع النساء السافرات . أصبح لعائشة دفاتر تقرأها ، وتباعد بينها وبين حمدان لهذا تهش عائشة حمدان هشا . تخرجه من بيتها الذى تسلل اليه وهى تقول : انتهى ذلك الزمن . انت لا ترى الفرق بيننا . انتهت أيام الطفولة .

ما بينهما الآن هو حاجز الطبقة الصلد . هى غنية وهو فقير . هى تتطلع الى حياة أرق تملك أسبابها ، وهو « يتعلم الآن » ــ يقول لها ــ ولكن عن غير رغبة قوية ودون فرصة معقولة للوصول .

الساخط العاجز الخانع سرعان ما يسقط فى شباك التاجر . الى جوار عجزه وخنوعه ، هو أيضا غبى . قال له عادل : اقرأ . تعلم السر العظيم . فك الحرف وانطلق . ثم لم يعطه حرفا واحدا . وقال حمدان لنفسه : بليد وحمار إن صدقت هؤلاء . ولكنه نسى التحذير عندما عرض عليه التاجر أن يرتكب الجريمة النكراء ــ يقتل حمد سلطان ، زوج المرأة التى يعشقها التاجر ، يقتله بلا تردد وبلا أسئلة ، فى مقابل : « ان تكون منا ! » عرف التاجر المغمز الخطير فى نفس حمدان حلم الوصول المجانى ــ الصعود بلا استحقاق ، فعرض عليه الانتماء الى الطبقة الأرقى بثمن بخس ــ طعنة واحدة ، يصبح حمدان بعدها « واحدا منا » .

وكالغر الأبله ، يضرب حمدان ضربته . ضربة خسيسة على أكثر من صعيد : سلطان هو والد مريم ، الفتاة الصلدة الأبية ، التى جعلت ترعى اسرتها بعد مقتل الأب . ترعى الأم والولد الصغير محمد . مريم هى المرأة الوحيدة التى أحبها حمدان . وهى المرأة الوحيدة التى احبته ، رغم انشغاله عنها بحب فتاة كالدمية ما لبثت ان زفت الى رجل لم تره من قبل .

فى سبيل الصعود الفاشل خنق حمدان حبه لمريم . وها هى ذى الجريمة النكراء لا تدفع به الى أعلى ، بل تكبله بحبال الخضوع لمشيئة التاجر ، وتؤكد نهائيا وضعه الذليل . حين خرج وراء مريم والشهوة تستبد به ، ثقبت الفتاة كتفه بحربتها ، ليس دفاعا عن شرفها وحسب ، ولكن حفاظا على نقاء حبها له . فلما جرحته الحربة ، عادته فى بيته ، تحمل له الطعام وتضمد الجرح ، وتبتسم له اذ يقبل يدها . هنالك ارتد وجهها الصخرى حديقة ، وجعل حمدان يحلم بأن يراها فى بيته ، يلعب أخوها محمد مع أطفاله منها ، ويغفو على صدرها ، ولا يعود يبكى من المرارة والفقر والفظاعة ، أو يواجه النظرات المتعالية الغبية . لقد امتلك شيئا ثمينا حقا اذ مد يده الى يد امرأة شرخها التعب ، فتعانقت الأصابع .

غير ان هذا الحلم لا يتحقق . وقفت الخيانة عقبة صماء دونه ، ولم يعد مفر من أن يواجه حمدان المحقق ، يسأله فى أمر الجريمة التى ارتكبها وانكر أنه ارتكبها . والى عار الخيانة تضاف مذلة أخرى . السيد أحمد يتدخل . لاطلاق سراح المجرم الذى خدمه باخلاص ، مستغلا نفوذه ، ونفوذ ابنه عادل ، الذى جرى له ما يجرى لكثير من المثقفين . يسخطون لدى عودتهم من الخارج ، ويلفظون الكلمات الرنانة ، ويقطعون الوعود والعهود ، ويزعمون انهم راغبون فى التغيير ، ويبشر بعضهم بهذا التغيير سرا وعلانية ، ثم يطاوعون الخط الأقرب والأسهل . تحتويهم المؤسسة ، وتعرض عليهم مغرياتها الكثيرة . وتلوح لهم بالأذى يصيبهم ان هم ترددوا فى القبول ، فسرعان ما يصبحون تروسا فى العجلة الكبرى يدورون معها ولصالحها ، ويلتقطون فتات ما يسقط من مائدتها الكبرى .

هكذا أصبح عادل ، صاحب الكتب والكلام والسخط العام . من شاب بائس ارتد موظفا كبيرا مسموع الكلمة ، يهب اباه أرضا يقيم عليها وكالة تجارية بها موظفون وتجارة رائجة ، قدر أنها تسمح له بأن يهجر تجارة اللؤلؤ ، ويعطى ظهره للبحر المخوف ، ولا يعود يخشى سخط البحارة ، وتمردهم ، وتطلعهم الى أن ينالهم من ثمرة عملهم قسط عادل .

غير ان سخط البحارة لا يلبث ان يعبر عن نفسه بأشكال شتى . حاصروا قلعته واطلقوا سراح زملائهم المعتقلين . جالوا بين السيد أحمد وبين شراء سفينة أخرى طمع فى أن يضمها الى ممتلكاته ، بعد أن تمرد بحارة السفينة المعروضة للشراء ورفضوا تماما ان ينتقلوا الى « ملكية » المالك الجديد .

بل ثار البحارة وحاصروا بيت السيد أحمد نفسه ، ورآهم عادل وهم يفعلون . وأخيرا انهار السيد أحمد فى مواجهة بحارته هو ، بعد أن رفضوا ان يجدفوا فى اتجاه مركب تحمل لؤلؤا ، وأصروا على أن يجدفوا فى اتجاه العودة الى الشاطىء ، لأن محمد الصغير يواجه الخطر ، بعد أن اشتد عليه المرض .

ويبحث السيد عن مسدسه يهدد به البحارة ولكنه لا يجده . فيقف كالشجرة العارية من أوراقها . ثم ينهار على مقعد كبناء تصدع ، بينما يقترب منه حمدان ليغير مسار الدفة .

ينهى عبد الله خليفة روايته وحمدان يحلم بأن تقبل مريم به زوجا . لديها وجد عشه أخيرا ، وتطلع الى أن ينام فى حضنها هادئا . سيعترف لها قبل ان يتقدم . رغم صدها كان ثمة شىء يطلقه نحوها . يريد ان ينتزع الأشواك التى تملأ صدره ويبوح ولكنها تشيح بوجهها عنه . هل يغسل المطر والحب بقع الدم والكراهية ؟ هل تختفى صرخات الأب ودماؤه ؟ هل يعفو الصغير محمد ، وقد عرف بالجريمة وهو فى عرض البحر ؟

يترك عبد الله خليفة هذا الجزء من روايته مفتوحا . ويوحى بأن حمدان سوف يفعل ما يفعله « النهام » فى الرواية ــ يعشق امرأة ، يكاد رضاها أن يكون مستحيلا . فيروح يترضاها ويتقرب اليها ــ يجمع مهرها عند الأسوار وفى الأزقة بالغناء . واحد من هؤلاء النهامين أحب ابنة « النواخذا » ، رئيس المركب وصورها بالغناء حتى استوت امرأة كاملة الملامح ، تصاحب البحارة اينما ساروا من مغاص لؤلؤ إلى مغاص آخر . امرأة كان شعرها يصل الى الأقدام . صوتها رقيق صادر من قلب حنون . دعته الى البر فسار ، وطاف القرى والمدن يجمع مهرها بالغناء . بكى تحت الأسوار . غنى للحصادين فى وهج الظهيرة . انشد رقصات الحرب والبارود يلعلع . وعندما عاد لم يجد الصوت الحنون ولا الشعر الطويل .

مثل هذه المرأة قد كانت عائشة . غنى لها حمدان ، ورفع صوته بالنداء ، فدعته ، وأغرته ، وبثت فى طريقه الأمانى ، ثم هجرته . اختفت من حياته ، حتى عرف ــ وفى وهمه انه موشك على الغرق ــ أنه انما عشق دمية .

هل يكسب قلب مريم ، لو هو غنى لها ؟ لو راح يجمع لها المهر بالجهد والسعى ، والعرق ؟ لو خرج الى البحر وواجه الموت وعاد اليها فقبلته ، وتزوجته ووقفت من بعد هى وأولاده يودعونه اذ يتوغل بقاربه فى البحر ؟

يرى عبد الله خليفة خلاصا لحمدان فى عودته الى اليد الخشنة والى البحر المخوف . بهذا وحده يستطيع ان يكفر عن ذنبه الأكبر : تطلعه الى الالتحاق بغير طبقته ، وما جره هذا الالتحاق عليه من جريمة وعذاب ، وتخريب نفسى . حمدان ليس البطل القديم الذى عرفته الرواية الاشتراكية : قد من صلب لا يلين . لا يأتيه الضعف من أى سبيل . وهو لهذا اكثر واقعية من بطل الواقعية الاشتراكية . لأن ضعفه حقيقة انسانية ، وتحوله ليس مجانيا ورؤيته لا يمليها الفكر الجاهز ، وانما الممارسة المرة الطويلة .

« والهيارات » اذن رواية تنتمى الى الواقعية الجديدة التى أخذت تظهر ملامحها فى المدة الأخيرة ، والتى لا تمجد الانسان بالنفخ فيه ، ولا تصور البطل الايجابى على أنه رمز التقدم والصمود والنقاء ، بينما تقدم خصومه بوصفهم أشرارا خلصا ، يلحقهم السواد الفكرى الروحى من كل جانب . بل ترى أن الانسان يكون ماجدا وقادرا ومستأهلا للتقدير لو هو دخل فى صراع ليس مع مظالم المجتمع وحسب ، بل ومع ما يصوره هو نفسه من نقاط ضعف كثيرة ، يكون التغلب النهائى عليها هو مبعث الفخر الحقيقى للانسان . اما البطل الخالى من العيب ، فأى عجب اذا هو انتصر ، وأى فضل كبير له ، مادام ضمن ان يكسب معركته الداخلية مسبقا ؟

والرواية تنتمى الى الواقعية الجديدة أيضا بما تقدم من مادة واقعية فى الأساس ، ولكنها تمتزج بالحلم والوهم والخيال والفولكلور . من الفولكلور ينتقي عبد الله خليفة مأثورة الساحرة والنهام - الساحرة دعت النهام الى القدوم الى أعماق البحر . سهر الرجل طويلا فأطلت عليه الساحرة وأكلت قلبه ، فانفجرت الأغانى من عروقه واندفعت المواويل الى الأمواج والقلوب تذوب فيها . وذات مرة زمجت الأمواج سفنا غاصت كلها فى اليم اثر هبة عاتية .

هكذا حكت أم حمدان لطفلها لدى كل لفحة قيظ . وعبد الله خليفة يستخدم هذه المأثورة الشعبية باقتدار ليصور حال البحارة التعس ، وجرى البعض منهم وراء الحلم المستحيل ، وضيقهم بالواقع المادى المؤلم ، وهربهم منه الى الخيال . كما أنه يستخدم المأثورة ذاتها ليكشف عن تطلع حمدان الطبقى متمثلا فى افتتانه بعائشة ، ويستعملها أيضا ليصور سعى حمدان الى العودة الى طبقته متمثلا فى محاولة استرضاء مريم وكسب قلبها كي تقبل به زوجا . والى جوار هذا كله فشخصية « النهام » ترتبط بالبحار المتمرد الذى زعم النواخذا ، رئيس المركب ، انه نهض فى الليل فجأة وأراد أن يحرق السفينة وهجم على الرئيس يريد قتله فأشبعه هذا ضربا حتى هدأ فلما كرر المحاولة قام الريس بتأديبه بشكل لن ينساه ، ثم ربطه بالحبال أعلى الصارى ، وقال : انه جن فأخذ يكلم الأشباح ، اذ ذاك تقول الرواية ان البحار « المتمرد » رحل اليها — الى الساحرة — غاص فى الأعماق المظلمة وبحث عنها فى تلك القصور المضيئة تحت اليم .

النهام يمثل المتمرد على الواقع ، العاجز عن تغييره ، الهارب منه الى جنة المواويل والباحث عن عالم آخر مسحور لا تكون الحياة فيه وقفا على مالكى السفن ورؤسائها ، وتجار اللؤلؤ ، ورجال الشرطة وممثلى الاستعمار ، والمثقفين المرتدين والبنات الدمى اللاتى يرضين بالزواج من أول طالب للشراء .

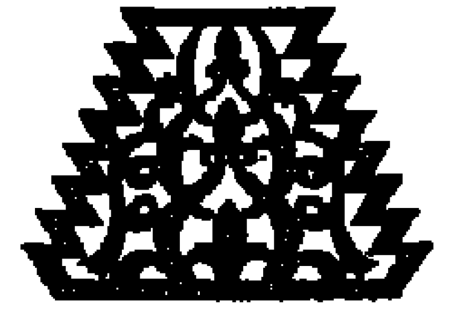
غير أن الأحلام والرؤى والخيال والوهم والمأثور الشعبى انما يقوى الأساس الواقعى للرواية ، ولا يضعفه . يعطيه ابعادا أخرى ، ويجعل الواقعية أكثر انسانية . وفى « الهيارات » كثير من المواضع الواقعية الصريحة : مفاوضات السيد أحمد مع صيادى اللؤلؤ ، والصفقات الناجحة التى يعقدها معهم . الصفقة التى تبدأ فى عرض البحر مع ولد مطر وتتم فيها الموافقة على أن يزوج السيد أحمد ابنته عائشة لصالح ، ابن ولد مطر ، القادم من الخارج والراغب فى تكوين أسرة . مطاردات السيد أحمد التى لاتنتهى للنساء ، وسعيه الدائب للحصول على أم محمد ، زوجة ، بعد أن رفضت كل صلة به ، الا فى الحلال ، فيقتل زوجها لكى يخلو له الجو . آلام البحارة الحقيقية ، وأبرزها قصة سرور الأفريقى الأصل ، الذى ينتابه المرض المفاجىء فى عرض البحر ويتعرض لموت وشيك لا شك فيه ، فيأبى السيد أحمد أن يعفيه من التجديف ، ويموت الرجل بالفعل ، فيلقى

بجثته الى البحر كما تلقى أية مادة تالفة .

ووراء هذه الأحداث الانسانية الكثيرة يقف البحر شامخا ، والشمس كتلة من اللهب وعواصف الغبار مهددة ، مضللة . وتصطدم المجموعة الانسانية كلها بهذه الثوابت الجامدة التي لا مفر من الصراع معها . ويظل الجزء الأكبر من هذا الصراع من نصيب بسطاء الناس : البحارة ، وزوجاتهم وأطفالهم ، أولئك الذين يشكلون الحركة الدائمة للمجتمع ، ويعملون على تغييره بالدأب تارة ، وبالتمرد تارة وبالغناء تارة ، فيتغير المجتمع بالفعل ، يسقط منه من يسقط ويعلو من يريد الارتفاع .

أغنية ألف . صاد . الأولى

أمين صالح



سجن بحجم وطن عربي يتحرك فيه الراوي ، وشخصيات أخرى تؤنس حياته تارةً ، وتصب الرعب والعذاب فيها تارة أخرى . كوابيس ، وأوهام وعبث وسخرية مُرة ، وألم يقطع لا نياط القلوب وحدها ، وانما لحم الجسم أيضا، ويوزعه اجزاء اجزاء على جمع من الفقراء والجوعى .

نحن فى بلد أبرز ما فيه المواخير ، ومخافر الشرطة ، وسلطات التحقيق والعمائر التى تنطح السحاب ، والفنادق واعلانات السجاير وحليب نيدو النقى .

قال الرأسمالى : أملك عمارة ذات عشرين طابقا . أملك زوجة مطيعة وسيارتين فخمتين . أملك بنتا تلعب التنس جيدا ، وابناً يعمل مديرا لفرع شركتى فى نيويورك ، وكلبا لا يحب أكل البطاطس . أملك خمسين ألفا من الأسهم ، واموالى استثمرها فى أربعة بنوك . اعقد صفقات بيع وشراء اسلحة . أملك بندقية صيد اوتوماتيكية ، اصطاد بها البط والسمك والأرانب وأحيانا العبيد الهاربين من الخدمة العسكرية واللصوص الذين يسرقون البصل والفلفل .

قالت امرأة بلا ثديين وجسدها مثل ساق النعامة ، كانت تقعى تحت جدار وتنظر فى وجوم ولوعة الى ضفائر شعر فوق راحتيها ، قالت للزوجة : ضفائر جميلة . أجمل من الشفق . ومن الياسمين . خذى الضفائر مقابل حفنة من العنب أو من زغب طائر حى . ضعيها فى قارورة زهور . انت أيضا لا تريدين شراء ضفائر ابنتى الصغيرة ؟ كانت بالأمس تركض مثل النهار . وحين ولى النهار توقف قلبها وماتت . وهذه ضفائرها . لم نكن نملك ضريبة الدفن ، فدفناها فى احشائنا ، أنا وهذا الطفل . اكلناها ليلة أمس .

افلتت الزوجة يد زوجها ، وانتضت سكينا كبيرة ، جزت نهدها وقدمته الى الطفل الذى تلقفه وراح يلتهمه بشراهة . والزوجة ترقبه فى فرح وحب . ثم جزت رأسها واعطته لزوجها ،

وأخذت تجرى تمزق جسدها وتعطيه للمارة الذين تراكضوا خلفها ، كلّ يريد ان يحصل على قطعة . وضع الزوج رأس زوجته فى حضنه ، وتأمله مفجوعا ، لأن حبيبته غادرته ولن تعود .

خطب المختار زاعقا : امقت العرائض . امقت الاحتجاجات . امقتكم جميعا . يا الهى ، صرت امقت نفسى لأنى اقف امامكم واصغى لهلوساتكم المتعثرة بين اللثة والسن . هل أقول لكم ماذا أفعله بكم الآن ؟ سأركب حصانا أبيض وامتشق سيفى الطويل ذا النصل الحاد ، ثم الهو بكم متخذا من رؤوسكم كرات العب بها البيسبول . ينفض جمع القرويين دون أن يفهموا شيئا .

يتمغض المختار فى نومه . ينهض ويطلب الفطور . يذهب الى الحظيرة يتفقد ماشيته . يركل الديك الغجرى لأنه لا يكف عن الصياح . يرنو باعجاب الى أعواد الذرة ويعود . ينادى خادماته لمعاونته فى اداء تمارين الصباح . فى مخزن القش يمتطى قروية . قروية أخرى تفك ازرار ثوبها منتظرة دورها . ينخس بقدمه بطن قروية ثالثة ، آمرا اياها ان تقلد الكلب عندما يلتقط العصا بفمه . يضحك حين يشاهد عشبا أو فطرا عالقا بين اسنانها . يذهب الى الحقل ويجلد الظهور العارية بانتشاء .

واحد من المعتقلين وقع على الأرض . اخذت عظامه تتشنج ، ونتوءات وجهه تتقلص ودمل اسود يتسرب من اذنيه على شكل قطرات . خفتت حشرجته فأيقن المعتقلون انه مات . جاءت سيارة الشرطة ومعها سيارة الاسعاف . نزل ركابها فى خطوات جنائزية مهيبة . وقفوا دقيقة حول الميت . قرأوا الفاتحة . سفحوا بعض الدموع فوق الجثمان . لفوا الميت بملاءة بيضاء نظيفة جدا . حملوه بعناية فائقة . وضعوه برفق فى سيارة الاسعاف . تمنى واحد من المعتقلين لو كان هو الميت ، كى يحظى بمثل هذه الرعاية والاهتمام . وربما يدعونه أيضا للعشاء معهم .

اصدر المحقق امرا بالتحقيق معهم جميعا . فالحادث ليس قضاء وقدرا بل جريمة بشعة ارتكبت فى حق انسان برىء . وقف المعتقلون طابورا طويلا كأنهم فى مبغى . اصغوا الى فرقعة السياط وتمزقات الأظافر . كان دور الف . صاد . الأخير . سحبه الشرطى وانهال عليه باللكم والركل . سلطوا الأضواء الساخنة فوق صدغه . لفوا جسده بأسلاك كهربائية . فقد الوعى عدة مرات . تحول الى كتلة هلامية . شد المحقق رأسه ففتح عينه بصعوبة شديدة . بصق الجند فى وجهه ، الواحد تلو الآخر . قال المحقق : هل تريد أن تقول شيئا ؟ قال : الف . صاد . اعترف بأننى القاتل . ردد قوله عدة مرات ، لأن صوته كان خافتا .

قال المحقق فى المخفر : اعترفتم جميعا بارتكاب الجريمة . وهذه بادرة طيبة تستحق التشجيع . غير ان هذا النوع من الجرائم لا يرتكبه الا فرد واحد . وعلى هذا قررت ان اختار من بينكم

شخصا واحدا فقط ، والله ولى التوفيق . فزع الف . صاد . وظن انهم يأخذونه هو . ولكنهم اختاروا آخر . اسندوه بقسوة الى الجدار وعصبوا عينيه . هتف القائد : « استعدوا . صوبوا الرشاشات . اطلقوا » .

بعد ان فقد ألف . صاد زوجته اقسم ان لايحب وأن ينزوى فى علبة أقل من حجمه وان يخترع لنفسه فاكهة من المطاط ، ومراهقة من رمل يضاجعها فى الساعات الأخيرة من الليل . وأن يهب حياته للمصادفة . ولكن الملكة جاءت وحطمت علبته . فى كل بقعة ، معتمة كانت أو مضيئة ، كانت الملكة تحاذيه كالظل . لذلك وثق بأنه ضيف ثقيل فى مملكتها ، تحاول التخلص منه بعد أن أعلن فى حضرتها أن كل شيء فى مملكتها مقنن حتى التغوط . وهو يحب التنوع ولا يطيق الحياة الراكدة . وكان يحلو له أن يناوش الملكة بأبجدياته الضارية .

الف صاد : المح الموكب يشق حوض البحر ويصرخ : ها أنذا آت . يعبر الموكب فوهة البركان ويعزف لحنا لأغنية لم تكتمل : « تعبنا من التعب والحصار وسمك القرش . نريد الآن ان نستريح . ان نبنى بستانا . ونرقب أم أولادنا تذرى الحنطة وتحصد الفاكهة » . خيمت العسكر على مقربة . طوقوا الموكب الذى لم يفهم كراهية العسكر للبستان والحنطة والفاكهة . يلمح الف . صاد . كهلا فقد بصره وهو يحاول استخراج لؤلؤة فى رمال متحركة . يقول الكهل : « آن لكم أن تقدموا القرابين . اعلموا ان ما تفعلونه هو ثورة موقوته . اصنعوا التاريخ أو اعلنوا موت النبوءة » .

يتساقطون مثل الفجيعة . مثل البراءة الهادرة فى محاور معبأة بالقذائف وطقوس الرعب . يعودون الى البحر . فى اعينهم تنبجس النبوءة ألقا وانفجارا . تنقل اعمدة التليفون خبر اجهاض الثورة التاسعة عشرة . وتغفل ذكر خبر اللحن المهرب فى رسالة عاجلة وسرية الى الثورة العشرين .

تترنم الثورة العشرون : « لا . النفط لنا . لا . الشطئان لنا . لا . البهجة لنا . لا . العناقيد لنا . لا . اللالئ لنا . لا . الحقول لنا . لا . الأمواج لنا . لا . النهار لنا . لا . الشرفات لنا . لا . الجزارات لنا . لا . الأغطية لنا . لا . التخيل لنا . لا . الألوان لنا » . تنشق الأرض بغتة فيتهاوى الموكب داخلها ، مانحاً صدره لطعنات العساكر . ولكن النبوءة طفل نسى ان يشيخ . النبوءة فتحت مآقى النوافذ . اباحت ذراعيها للقتل . النبوءة لاذت بمخبأ سرى .

المرأة أخذته الى كهوفها الوثنية كى تحتفل معه بعرسهما . مرّغ وجهه فى صدرها الذى استحال ترابا يلتصق فى لزوجة بأهدابه . زفر أنينا قاسيا وصاح : آه لو وجدت هذه المرأة ووجدتنى . عذبنى النأى . عذبتنى الأصفاد . عذبتنى المرأة . أراها فى اليوم الف مرة ولا أراها .

هل تراني ؟ البستني عباءة الرعب والمراثي انشدها في المناجم والمصانع . جزأتني ولم تسمع صوتي الأبكـم . غير اني ادركت ان الثورة لن تأتي مادام الصمت حيا . وتمنيت ان أصرخ في وجوه الذين لا يسمعون صوتي : « اطلبوا الرغيف بصوت مرتفع . وهللوا » .

خطف الف . صاد . مؤرخا هرما كان يعيش في القصر يسجل أكاذيب الملوك . اخذه الى الساحل ووضعه في علبة ولطمه على وجهه وقال له سجل : ولدت المرأة ولدا في السابعة صباحا . شجرة تلد شجرة . في الثانية ظهرا تنشق هواء ملوثا ودون حلما جديدا . في العاشرة ليلا حاور المصنع الذي كان يبتز لحمه قطعة فقطعة . في العاشرة والنصف وُجد الولد مطروحا تحت آلة ثقيلة سحقت بقايا عظامه قالوا في الأوراق الرسمية ان الحادث قضاء وقدر . ثم اغلقوا ملف القضية . ولكن الأم لم تغلق ملف القضية .

يوم الاثنين انجبت الأم طفلا آخر وعلمته خفية كيف يصنع وردة . عرف انها ليست للتسلية . عرف انها ممنوعة . كان يرتحل معها الى المناطق المحظورة ممتطيا صهوتها . يحدثها عن الخروج عن المألوف . عن لغة نادية تفتض تضاريس الأضرحة والعلاقات الواقفة . حدثته عن النوافذ المعبأة بوهج الرعد . حدثها عن انبهار الفقراء اذ يبزغ النهار من كوة في قبة الوطن . بغتة حمحمت فرقة مكافحة الشَغَب . ادركا انهما مطوقان من كل الجهات . لم يستغيثا بل نسجا من خيوط الحلم فتيلا اخذ يشتعل شرارة بعد شرارة حتى انفجر . انبطح الناس وحين رفعوا رؤوسهم وجدوا الولد جثة هامدة مبتسمة ولم يجدوا الوردة وان سمعوا نحيبها العاصف . فتحوا ملف القضية وتابعوا التحقيق . ولكن الأم اغلقت ملف القضية ومضت تنجب أطفالا .

يخرج ألف . صاد . الى الصحراء . يحاول ان ينتحر . كان قد فكر من قبل أن يفقأ عينيه ، لأن من لايرى لا لوم عليه ان لم يفعل . اليوم يسعى الى العدم كلية . يتأوه لدى ضغط الحبل على رقبته وينقذ نفسه من الموت . صبية في رداء أبيض تفرد يديها وتتقدم نحوه . تحتضن وجهه بين أصابعها الرقيقة الناعمة وتوشوش كحمامة : لماذا يا أخي ؟

فلاح يتكيء فأسه على منكبه ، يتجه نحوه . يحدق مليا في وجهه ثم يخرج لفافة من سرواله ويشعلها ويضعها بين شفتيه وهو يربت على صدره برفق . يجيء أشخاصا كثيرون . تجيء الفصول تقول : الثورة آتية ـــ الثورة ؟ ـــ عند تمر من هنا وتجدك مسمرا هكذا مثل سلحفاة خشبية ستلعنك ـــ الثورة ؟ ـــ تزهو مع من يراقصها ، تتلألأ مع من يتهجى اسمها . لملم الف . صاد . الحبل والمرآة التي كان يعتزم ان يرى فيها موته ، وعبر جسد الصحراء وحيدا . دخل المدينة الضاجة بالأحياء العمالية هاتفا : ياثورة ، لا أحد سوف يتهجى اسمك غيري . لم يسمعه أحد . وما هَمَّة أحد .

صرخ صوت فى اعصاب قبيلة مغمورة فى قنينة : « لو كان الجوع عبوة ناسفة لأكلتها . لو كان الخوف بطانية لمزقتها ، ونمت مغتبا فى العراء مع أرملة مهجورة . اذا كان الزمن فرسا خشبية يمتطيها امبراطور معتوه ، لوجب أن نقتاد الامبراطور ــ معصوب العينين ــ الى جُب يرشقه بالنزع الأول والثانى والأخير . ونلوى عنق الزمن المائل كالخرقة حتى يصير خفا طيعا فى أرجل الفقراء » .

قال الف . صاد : يا وطنى . صرت بدلة سهرة يرتديها الأغنياء والعانسات فى حفلات منتصف الليل وأعياد الميلاد . وصرت تصغى للاذاعة وهى تهز أردافها وتغنى للحبيب الذى هجرها وجعل دموعها تسيل على فستانها الأحمر الذى غسلته جيدا بصابون لوكس الناعم . وصرت وثيقة زواج ووثيقة طلاق لكل من يشتهى المضاجعة .

فتح الف . صاد . جفنيه فوجد نفسه ممددا على بساط خشن . الى جواره تجثو امرأة لا يعرفها . علم منها ان ثعبانا لدغه وقذفه بعيدا فانقذته المرأة البدوية وجلست بقربه ساعات طويلة ترقب صحوه . ولكنه ما صحا وانما جعل يغمس تعبه فى عروق البحر ويخاطب الأنوثة . يشتهى ثمر الأنوثة . ما ذكر اسم الوطن حتى حضرت الأنثى ولفته بالدمع والقمتة ثديها الموشى بالدفء والعذوبة ، وانتصب جذعها المكتظ بالثمار . قال : انها البهجة والتحول الزاخر فى آن . وحين احتضنته رأى أوساخه تتسلل وتغادر أصابعه ، وعاد نقيا يتلألأ فى صدر خيمة .

قال لها : يا امرأة برية ، انا مهموم وأحزانى أكثر فتكا من لدغة الثعبان . مشيت على النار والشوك ، لا ماء يحمينى ولا حضن يدفئنى ، أمطر نحيبا كلما تذكرت وطنى . فأنا ملعون بالفراق . يعدنى الشوق باللقاء ، ولا يتم اللقاء . سأبتكر بحراً وأضع رأسى فى مقدمة سفينتى قربانا . ربما أجد وطنى . ربما يجدنى وطنى .

ذات صباح مفعم بالطراوة ، اقتادته دورية الأمن الى المخفر دون ابداء سبب وجيه . بعد ربع ساعة احالوه للتحقيق . قدموا له شاياً وسيجارة ماربورو . احاطه المحقق بذراعيه وفح فى اذنه : هل تعرف على بن محمد ؟ سأل الف . صاد . قائد الزنج ؟ هز المحقق رأسه بالايجاب وهو يبتسم . قال الف . صاد : أعرفه .

تخيله الف . صاد . فى سرواله المنقوع بالزيت والأسمنت . يحب الأطفال ويحلم دائما بتبنى عدد كبير منهم . يصحبهم حينا فى زورقه الصغير ، ويحدثهم عن غزواته فى الزمن الغابر . يجلس معه الف . صاد . فى غرفته الضيقة . يحتويه على بنظراته ويخترقه . يقول : « فى الداخل يهجع النخيل وفى الخارج الكواكب مثقلة بخطى عمال يعملون ٢٤ ساعة فى اليوم » يقول له الف . صاد : افتح علبة سردين . يقول : « اخاف المعلبات . اتوقع دائما طفلا مطمورا فى احدى

هذه العلب » . يتخيله الف . صاد . يتجول وئيدا يعاشر عفوية الأطفال . يرتوى من انتشاء المد . فى وجهه موته الألف . الف حرية اضاءت جراحه ومازال ندياً . ومازال يحاور الموت المقبل . البعث المقبل ، فى أرض تتعاطى الفرح . يثب فوق الصخور النائتة حافى القدمين ويهتف : « آه ياشعب غيبه الأعداء فى لجة التوقعات » .

يقول الف . صاد . للمحقق : ماعدت آراه فى الآونة الأخيرة . انتظره أحيانا فى غرفته حتى الصباح دون أن يأتى . لا أعرف أين هو .

تهوى صفعة مدوية على صدغه تطرحه أرضا . ويتناوله زبانية التعذيب . يهتف الف . صاد . « انا منهك يا أمى . منهك . منهك » الزنزانة خالية لاسماء فيها . تتسع وتتسع . تصير خزانة كبيرة تسع اكثر من مليون عربى . يستدعيه المحقق فى العتمة ويكرر السؤال : اين على بن محمد ؟ » لا ينبس . يجرونه الى الزنزانة فاقد الحواس . يخطط للهرب . وفى الشارع ، يلقاه الشتاء ويقول له : أمك ترقد فى مستشفى الأمراض العصبية . يندفع الى المستشفى . فى أحد الأركان كانت امرأة مقيدة بحبال متينة على السرير والطبيب ينهال بمطرقة ضخمة على وجهها ورأسها . رجلان آليان يرتديان نفس الملابس المبقعة بالدم التى يرتديها الطبيب يرددان فى نبرة حادة : اعترفى . اعترفى .

يقول الطبيب غاضبا . لماذا جئت ؟ أردناها أن تعترف بموتك ولكنها ارتدت ثوبا أحمر . هذا يعنى أن كل ما فعلناه ذهب مع الريح . لن يصدقنا أحد بعد الآن . لن يصدقوا انك انتحرت فعلا . مت منتحرا . هذه الفاجرة ارتدت ثوبا أحمر رغم أن بياناتنا تذيع أن اللون الأسود رمز الحداد . هذه الفاجرة لم تعترف بموتك ، بل راحت تذيع اسرارنا وتنشر على الملأ انها رأتك فى سرداب تحتسى النبيذ مع متشرد آخر . يا فاجرة انت لا تستحقين الحياة . تقاريرنا لا تكذب . ابنك هو الذى يكذب . ثم انهمرت دموع الطبيب ، بعد ان استلقى بهدوء على السرير بجانب امى وطبع قبلة وديعة عليها . قال : ابنك تناول حامض الكبريت . ومات فى الحال وأمام دار ليلى العامرية . ليلى كانت مومسا بربرية أحبها الاسكندر المقدونى فجن ابنك وانتحر .

عندما وجدها الطبيب متشبثة بالصمت دفعها بقسوة فارتطم جسدها بالأرض . اغمض الطبيب عينيه وبدا شخيره يعلو . ايقنت الممرضة ان الطبيب مستغرق تماما فى النوم فدفعت ألف . صاد . بازدراء . فوقع بالقرب من أمه . غادر الممرضون الغرفة ، فحمل امه وخرج . وضعها فوق تلة . مسح الدم فبدا وجهها جميلا رائقا . هتفت : الف . صاد . رد عليها : أنا هنا . قالت : هل تذكر أغنية أمك ؟ غنى ألف . صاد . بصوت شجى ورخيم . اشعل عود ثقاب واشعل جسدها وذرى الرماد المتنفث فى البحر .

فى رواية « ألف . صاد » تقف المرأة الطيبة رمزا لأشياء كثيرة واعدة . هى رمز الثورة الدائمة التجدد . يموت ابن لها فتنجب ابنا آخر ، وثالثا ورابعا . الأم هنا هى الثورة ذاتها ، والأغنية التى تدعو الف . صاد الى سماعها فى لحظات كثيرة من الرواية هى أغنية الثورة ، الصابرة ، الصامدة .

والمرأة أيضا هى الحبيبة الجميلة . هى البدوية التى رعت ألف صاد وامتصت من جسده سم الأفعى ، واعطته السكن والطعام والدفء . هى الانثى الواعدة ، التى تُذْكر فيذكر معها الوطن فى نفس واحد . هى الوطن وهى السكن وجذعها غنى مكتظ بالثمار . انها رمز البهجة والتحول الزاخر والتطهر من الأدران هى المرأة التى ترتدى ثوب الحداد فينجذب اليها الف . صاد . يجد فيها فيئا يتمدد تحته وفوقه . هى المرأة التى تتزوجه من فورها . تجذبه الى مكان رائق كالزبد وتنزع ثوب الحداد . تستيقظ ذرات جسده فيشهق خصرها وينشق ثوبها . ينكمش داخل جسدها ويستسقى غضارة ثغرها المنتشرة فى رجفة جسدية تملأ مساحات الغبطة . فجأة يسطع فى ذاكرة الوهم أن يصير ألف . صاد . فراشة يأسرها الضوء الممتد الى نفق له فتحة تطل على بحر غريب اسماه « الحرية » .

يجد الف . صاد . انه لن يصل الى الفتحة طالما ان الرغيف مدبب ولا يمكن الحصول عليه . ولكى ينسى الرغيف ينبغى ان يموت . وان يموت معناه ان يموت أيضا عمال النفط والصيادون والفلاحون مع زوجاتهم وأطفالهم ، فتخلو الأرصفة والبرارى ولا يبقى غير أصحاب القصور وسيدات المجتمع الراقى يعيثون فسادا . قال . الف . صاد . لنفسه : لن انسى الرغيف مادمت حيا ، أى جائعا .

هى الزوجة التى تمضها مشاهد الفقر والجوع الشديد فتقطع جسمها اربا وتعطى اجزاءه للجوعى والمعوزين . هى رمز البذل والفناء فى سبيل المبدأ .

ونقيض هذه الأم ـــ الثورة ـــ هذه الحبيبة ـــ الثورة ـــ هذه الزوجة ـــ الثورة ـــ تقف الزوجة المومس ، التى يفرزها المجتمع ويضعها عقبة مدمرة فى طريق الواعين من الشباب . الشاب الذى انتخب مواطنا مثاليا ثم استدعاه الحرس الجمهورى مرة ليضىء قناديل الحرب ، فلم تهادنه الحرب بل اسدلت فوق جثمانه البائس وسام « البطولة » . هكذا زعموا . ذات مرة ارشدوا الشاب ـــ عنوة ـــ الى مومس معروضة فى سوق الزواج وأوهموه بأنها تنجب من يشاء من الأطفال . ولكن المومس قتلته فى هاوية فخذيها ، بعد ان دفع المقدم والمؤخر ونفقة الولائم والهدايا .

وتعتمد : « اغنية ألف صاد . الأولى » اسلوب الصور المتعارضة وسيلة للتعليق المر على الأحداث . يموت المعتقل فتذكر الرواية العناية الفائقة التى يلقاها جسده . الملاءة النظيفة جدا

التى يلف بها جسمه ، والقرآن الذى يتلى عليه ، والحرص الشديد على وضع جثمانه بكل رقة فى سيارة الاسعاف ، ثم تورد الرواية بعد هذا مباشرة صور التعذيب التى تكون من نصيب الأحياء من المعتقلين . بدل الملاءة النظيفة شديدة البيضاء يلف الزبانية جسد الف . صاد . بالأسلاك الكهربائية . ويناله الصفع والركل بدلا من العناية الفائقة التى كانت من نصيب الميت . يخلص لنا ان الوطن حريص على ان يموت الناس ، غير راغب أبدا فى أن يحيى الأحياء .

ويقف أمام المبغى العام طابور طويل من العملاء كل ينتظر دوره . فتتداعى الى مخيلة الف . صاد . العروض التى تقدمها ملكات جمال العالم النرجسيات ، كل تعرض جسدها امام لجنة التحكيم التى تختار واحدة منهن وتقول : هذه أجمل امرأة فى العالم . طابور العملاء يقف أمام مومس محترفة تتفحص اجساد افراده ، وكل منهم يتوهم ان جسده هو الأفضل . ويكون على المومس أن تدقق فى العضلات والنتوءات ثم تهتف : « هذا هو الرجل المناسب » ثم تطرأ على ذهن الف . صاد . احصائية رسمية جاءت من بلد عربية تقول : ٥٠,٠٠٠ محترفة للبغاء من مجموع مليون ونصف المليون نسمة . اكثر من ٦٠٪ من دور الدعاية السرية لا يمكن متابعة اصحابها قانونيا لأن الرجل والمرأة متزوجان . ١٦٠٠ عائلة يرتبط خبزها اليومى باحتراف البغاء . ٥٥٪ من التلاميذ مصابون بأمراض جنسية .

البغاء اذن مؤسسة كبرى ، واشكاله متعددة ، تعتمد كلها على الاتجار بجسد المرأة . المرأة زوجة ، والمرأة شريكة فى البغاء ، والمرأة بضاعة جسدية يروج لها فى المهرجانات ومسابقات الجمال وفى اعلانات التجارة .

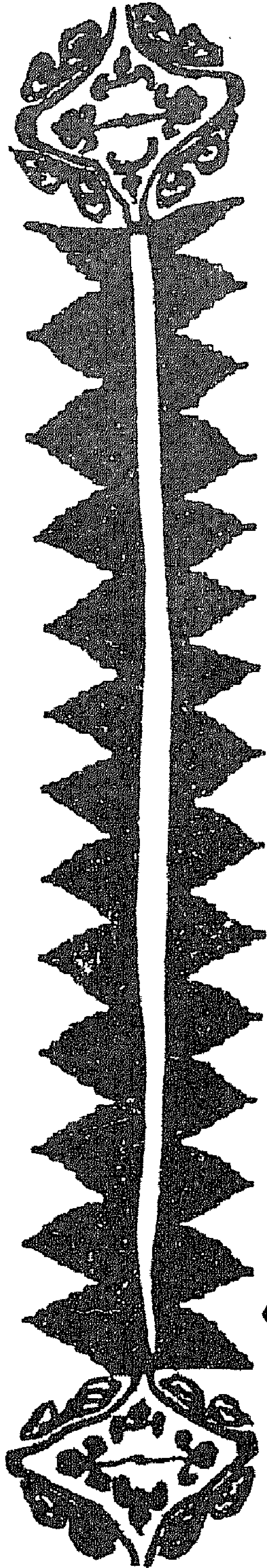
تعتمد « اغنية الف . صاد الأولى » أيضا ، وبتوفيق كبير اسلوب الأدب العبثى فى تصوير الأحداث والناس . وهو تصوير يسمح للكاتب بان يسخر سخرية مرة من عيوب الناس وعيوب المجتمع ، ويتيح له حرية كبرى فى استخدام الأشياء والأفكار وسائل تعبير بعد أن ينفث فيها حياة بشرية . وهكذا تتحدث الرواية عن الشتاء الذى يجلس الى مقهى ويحدث الف صاد ، والفصول التى تبشره بقرب ورود الثورة . والفضاء الحى الذى يقع فيه حصن الثورة .

وبدلا من ان يبعث اسلوب العبث فى نفوسنا اللامبالاة والمرارة ، يستخدمه امين صالح استخداما رشيقا ليحفز فينا الرغبة فى التغيير ويرفع من روحنا المعنوية التى تنتظر التحول .

بالشعر ، وبالأغنيات ، وبالأحاديث الصحفية ، وبالوثائق ، وبالاحصائيات يوصل لنا أمين صالح رسالة الرواية : أن لا تهنوا ، ولا تحزنوا ، فالثورة إن هزمت يوما فستنتصر غدا .

٣

السُّودان





الرواية في السودان

عرس الزين

الطيب صالح



فى عرس الزين ، يجلس الطيب مع شعبه ، على الأرض ، يتحدث معهم ، ولا يكتفى بالحديث عنهم . انه ــ بكل معنى الكلمة ــ واحد منهم ، عارف بعاداتهم . مطلع على خباياهم . عاطف على أحزانهم . فاهم لآمالهم .

ولكنه كذلك ينقدهم ، مثل طيب هو من أمثلة الفنان « المنشغل المحايد » كما نقول فى النقد . يسع صدره الطيب والخبيث من الشخصيات ، ويعطى كلا حقه . ولكنك تتبين من خلال نظرته ــ الفنية أساساً ــ خبث الخبيث وطيبة الطيب .

العمدة الذى يستغل الزين بوعد منه أن يزوجه ابنته ، فيجهده كدواب امحل فى أعمال الحقل .

وإمام المسجد الذى يحتقر الفلاحين ويعيش من كدّهم ، ويحب الحياة سراً ، ويدعو الى الموت جهراً .

هذان ــ من بين عشرات الشخصيات التى تحويها رواية عرس الزين ــ هما اللذان يجد الطيب صالح فيهما عيباً واضحاً يستحقان معه أن يسلكا فى عداد الأشرار .

وهما شريران وفق جدول أخلاقى غير تقليدى . الخير فيه والشر ليسا خير قواعد الأخلاق التقليدية التى طمسها استعمالنا اليومى حتى أصبحت ملساء .

بل هما شريران لأنهما يقفان فى وجه الحياة وحسب . يحولان دون النمو ، ويمنعان الخصب . العمدة يحكم على الرجال بما يملكون من مال وجاه فينكر على الزين أن يتزوج ابنته والإمام يحكم على الحياة ذاتها بالموت ، ويحيل الناس الى حياة غير هذه الحياة .

أما الذين يخرجون على مواصفات الأخلاق دوماً ، أو لفترة من الزمن ، ولكنهم يفعلون هذا مضطرين ، أو مندفعين ، فأولئك هم الذين أسرفوا على أنفسهم . باب الرحمة ، مفتوح أمامهم

فى دنيا الطيب صالح .

جوارى الواحة من أمثلة هؤلاء . نسوة كن ضمن مجموعة من الرقيقات اعتقن ، فتزوجت منهن من استطاعت وهاجرت من قدرت . وبقى فريق احترف بيع اللذة لطلابها فى واحة على حافة الأرض المزروعة .

وعبثا حاولت القرية أن تتخلص من هؤلاء . بهدم أوكارهن . بطردهن . بضربهن . فقد كن يعدن الى الحياة من جديد .

لهؤلاء ينظر الطيب صالح نظرة فنية ، ملؤها الرحمة وتجنب المحاكمة . بل هو « يدعوهن » للمشاركة فى عرس الزين فى نهاية الرواية . حيث يختلط كل شيء بكل شيء فى هذا الحفل الذى يمثل الحياة ذاتها . المداحون فى دار يذكرون الرسول ويطلقون عبرات المؤمنين ، والراقصات فى دار أخرى يرفعن عالياً لواء الصخب . وعلى وقع الموسيقى والغناء ودق الطبول يمزقن الهواء بحركات النهود والأرداف . بينما شهود الحفل يتنقلون بين هؤلاء وهؤلاء .

الحياة ليست نغماً رتيباً ولا ماء راكداً . الحياة نغمات متشابكة ونهر متدفق الجريان . والسعيد ، السعيد من لبى نداها كاملا ، فى اللهو والصحو . الفائز حقاً من شرب كأسها مترعة .. !

ولأن الخير هو الحياة ذاتها وبقاؤها وتواصلها ، يجعل الطيب صالح بطله هو الزين ، ولا أحد سواه .

شلال دافق من الحياة وحب الحياة .. نهم لا ينتهى ولا يشبع . يظل طول الرواية يزغرد للجنس وللحياة وللاخصاب ، كأنما قد وكلت اليه الحياة أمر الدعوة لها ، والحفاظ على اتصالها .

وهى دعوة يلقاها الزين فى استسلام ووجد صوفيين . ما أن تقع عينه على فتاة حلوة ، اكتملت أنوثتها ، أو تفتحت أكمامها حتى يصيح كمن أصابته طعنة حقيقية : « الزين مقتول فى حوش فلان قتلته ابنة فلانة » .

وهى صيحة تبدو لدى النظر الخارجى كوميدية فاجرة ، لكثرة ما تتكرر دون كبير تغيير . بل إن أمهات القرية سرعان ما يفطن الى قيمتها العملية كدعوة لا تهدأ الى محاسن بناتهن ، خاصة وأن كل فتاة شبب بها الزين وصرخ من وطأة جمالها ما لبثت أن تفتحت على حسنها الأعين ، فامتدت اليها الأيدى ، وفتحت لها أبواب السعادة .

ولكن الزين صادق مع ذلك فى غرامه وصياحه . لا يمكن أن تحاسبه على تنقله فى الهوى إلا إذا حاسبت النحلة والسنجاب وطيور الغاب على تنقلها الدائم — واللامبدئى ! — بين الألوان والزاد والظل والماء ، وكل ما تقدم للحياة من أطايب فى وليمتها الكبرى التى لا تفنى قط ، وهى

دائماً تتجدد ..

ولو اعتمدنا النظر الخارجي وحده ، لما استحق الزين أن يكون بطلا قط . فمن هو فى الناس ؟ .

كان وجه الزين مستطيلا ، ناتىء عظام الوجنتين والفكين وتحت العينين ، جبهته بارزة .. عيناه صغيرتان محمرتان دائماً .. لم تكن له حواجب ولا أجفان .. وليست له لحية أو شارب .

تحت الوجه رقبة طويلة .. تقف على كتفين قويتين تنهدلان على بقية الجسم فى شكل مثلث . الذراعان طويلتان كذراعى القرد .. الصدر مجوف والظهر محدودب قليلا ، والساقان رقيقتان طويلتان كساق الكركى » .

وذلك مظهر لا يسر .

إنما امتياز الزين كامن فى صفاته الداخلية .. فى فرحه الدائم بالحياة وفى قدرته على أن يعدى غيره بهذا الفرح .

ينجذب الزين انجذاباً غريزياً للأفراح فى كل مكان ..

« تلتقط أذنه بحساسية نادرة زغاريد النساء على بعد أميال ، فيضع ثوبه على كتفه ويهرول كأن شيئاً يجذبه الى مصدر الصوت .. وتقترب زغاريد النساء ، وتتضح معالمها ، ويستطيع الزين أن يميز النساء ، أية امرأة زغردت . ثم تبدو الأنوار .. وفجأة ينشق الليل عن نداء يعرفه كل أحد : « .. يا أهل العرس .. الزين جاكم » وإذا الزين قد قفز كالقضاء واستقر فى حلقة الرقص . ويفور المكان فجأة ، فقد نفث فيه الزين طاقة جديدة » ..

وكامن امتيازه كذلك فى قلبه الواسع الحنون ، الذى يسع كل من حوله مهما كانت نظرة المجتمع له :

« كانت للزين صداقات عديدة من هذا النوع ، مع أشخاص يعتبرهم أهل البلد من الشواذ ، مثل عشمانة الطرشاء وموسى الأعرج ، وبخيت الذى ولد مشوهاً ، ليست له شفة عليا ، وجنبه الأيسر مشلول . كان الزين يحنو على هؤلاء القوم ، إذا رأى عشمانة قادمة من الحقل وعلى رأسها حمل ثقيل .. حمله عنها . وهش لها وداعبها . كانت فتاة تخاف من كل أحد إذا صادفت امرأة أو رجلا فى طريقها ارتعبت .. كأنهم وحوش مفترسة ، ولكنها كانت تأنس للزين وتضحك له ضحكاتها البكماء المحزنة التى تشبه صنياح الدجاج .

« وموسى الذى لا يذكر الناس اسمه ولكنهم يسمونه الأعرج . رجل طاعن فى السن ، حين تراه مقبلا يتفطر قلبك من كثرة مايعانى فى مشيه .. كان عبداً رقيقاً لرجل موسر .. ولما منحت الحكومة الرقيق حريتهم آثر أن يبقى مع مولاه .. وأدركته الشيخوخة وهو معدم لا أهل له ..

فعاش على حافة الحياة فى البلد ، كما تعيش بعض الكلاب العجوز الضالة ، التى تأوى الى الخرابات فى الليل ، وتبحث عن القوت نهاراً فى فجوات الحر .. عطف الزين على هذا الرجل ، وبنى له بيتاً من جريد النخل وأعطاه معزة ملبنة . كان يأتيه فى الصباح فيسأله كيف بات ليله ، ويأتيه بعد غروب الشمس ، مالئاً جيوبه بالتمر وثوبه منتفخ بالطعام ، فيلقيه بين يديه . وأحياناً يجىء ومعه أوقية شاى أو رطل سكر أو شىء من البن » .

ويرى أهل البلدة هذه الأعمال من الزين فيزداد عجبهم . لعله نبى الله الخضر . لعله ملاك أنزله الله فى هيكل آدمى زرى ، ليذكر عباده ان القلب الكبير قد يخفق حتى فى الصدر المجوف والسمت المضحك .. » .

ولكن صورة ولى الله ، ورسول السماء وصوتها ، لا تلبث أن تهتز حين يسمع الناس صيحات الزين المشهورة ، إذ يتأوه من وقع نظرات الواحدة بعد الأخرى من النساء . وحين يرونه يدخل الأفراح يأكل بنهم لا يشبع ، وحين يسمعون أنه غشى عرساً فرأى العروس معطرة مجلوة ، فلم يتمالك نفسه من أن ينقض عليها ويعضها فى فمها .. !

إنسانان فقط لا ثالث لهما فى القرية هما اللذان يمسكان بزمام الزين ويعرفان كيف يسيرانه : ولى الله « الحنين » ، الذى يصادق الزين صداقة روحية وصوفية مؤثرة ، يرد عنه كيد الناس ويدفع عنه أذى نفسه .

ونعمة : صبية حلوة ، وفورة المحيا ، غاضبة العينين ، تراقب الزين فى عبثه ومزاحه وهذره . وجدته يوماً فى مجموعة من النساء يضاحكهن كعادته ، فانتهرته قائلة : « ما تخلى الطرطشة والكلام الفارغ وتمشى تشوف أشغالك ؟ » وحدجت النساء بعينيها الجميلتين .

فسكت الزين وطأطأ رأسه حياءً ، ثم انسل بين النساء ومضى فى سبيله .

وكل من ولى الله الحنين ، والصبية نعمة قد أولى الزين شرفاً ما بعده شرف .

أما الحنين فرجل صالح منقطع للعبادة . يقيم فى البلد ستة أشهر فى صلاة وصوم ، ثم يحمل ابريقه ومصلاته ويضرب مصعداً فى الصحراء ، ويغيب ستة أشهر أخرى ثم يعود ، ولا يدرى أحد أين ذهب .. يحلف أحدهم أنه رآه فى مروى . بينما يقسم آخر أنه شاهده فى كرمة فى الوقت نفسه ـــ وبين البلدين مسيرة ستة أيام .. ولا أحد يدرى ماذا يأكل وماذا يشرب ، فهو لا يحمل زاداً فى أسفاره الطويلة . وإذا سئل أين يذهب ستة أشهر كل عام . لا يجيب .

ولكنه يأنس الى الزين ويهش له ويتحدث معه . إذا قابله فى الطريق عانقه وقبله على رأسه . كان يناديه بالمبروك . وكان الزين أيضاً إذا رأى الحنين مقبلاً ، ترك عبثه .. وأسرع اليه وعانقه .

ولم يكن الحنين يأكل طعاماً فى بيت أحد ، إلا دار أهل الزين . يسوقه الزين معه الى أمه ويأمرها

بصنع الغداء أو الشاى أو القهوة . ويظل الزين والحنين ساعات فى ضحك وكلام . ولا يدرى أحد من أهل البلدة سر الصداقة بينهما ، كل ما يقوله الزين فى تفسيرها : الحنين رجل مبروك .

وأما نعمة فقد وهبت الزين قلبها ، من دون كثيرين مرموقين تقدموا لخطبتها ، قبلت الزواج منه ووجدته شيئاً طبيعاً جسد لها شعوراً غامضاً كانت تحسه بأن العناية قد ادخرتها لتضحية كبرى تطاوع بها الإرادة الآلهية . وتعبر بها عن ذاتها فى الوقت نفسه . « كانت حين يخطر الزين على بالها ، تحس إحساساً بالشفقة . يخطر الزين على بالها كطفل يتيم عديم الأهل ، فى حاجة الى رعاية . هو ابن عمها على كل حال . وما انعطافها اليه شيء غريب » .

وكان ان تزوج الزين من ابنة عمه نعمة ، وسط دهشة كبرى من أهل البلد ، منعها أن تكون أكبر مما كانت . أن الحنين كان قد تنبأ للزين بأن سيتزوج أفضل بنات البلد ، وأن عجائب كثيرة كانت قد تقدمت هذا الزواج العجيب ، فقد انهالت الخيرات على أهل البلد فى مدى عام واحد يسمى عام الحنين ، ظهرت فيه كرامات كثيرة لولى الله .

وهكذا تنتهى رواية عرس الزين فيما يخص المحور الرئيسى الذى تدور حوله أحداثها : محور العلاقة بين الزين والحنين وما جرته من تغيير جذرى فى حياة الزين وحياة ابنة عمه نعمة ..

ينظر الكاتب الى الأحياء والأشياء نظرة نفاذة تؤمن بأن وراء ما نراه أمامنا من أشياء .. أشياء أخرى وأشياء . وأن أساليب التعامل مع هذه الأشياء تتراوح بين التغيير بالوسائل المادية ، والتأثير بقوة الروح . ذلك العالم الخفى الذى يتداخل مع عالمنا المادى ، ويتغلب عليه أحياناً ، رغم عدم التفاتنا اليه الالتفات الواجب .

هنا يقول الطيب صالح مع شكسبير : « أكبر بكثير مما يظن الانسان قدرة الدعاء على الانجاز » استجابة لما كان برناردشو يسميه « قوة الحياة » ، ويفسره على أنه دفع لا قبل لأحد بمقاومته ، يقع على الناس على غير انتظار ، ويأتى من قوة غير منظورة ، رغباتها أمر ، وأوامرها خير . تبدو رغباتها غير معقولة على مستوى الظر الخارجى ، فإذا تعمقناها وجدناها عين العقل ، لأنها عين الحياة ! .

ويلعب اللعبة أيضاً مع الزين حشد كبير من الناس العاديين كلهم يقف بلا تردد ، بل بلا تفكير أصلا ، فى جانب الحياة .

بنت عبد الله ، التى استهلت الزغاريد فى عرس الزين : « صوتها عذب وصرختها قوية من كثرة ما زغردت فى أعراس الآخرين . ظلت عانساً عمرها فلم تتزوج ، لكنها تفرح لأفراح كل أحد فى الحى » .

وسلامة . كانت جميلة . مرهفة الحس . لم يسعدها جمالها فتزوجت وطلقت ، وطلقت

وتزوجت ولم تستقر مع رجل ولم تنجب أولاداً . حلوة الحديث ، مهزارة ، لها مع الزين قصص وحكايات . تزغرد لأنها تحب الحياة .

وعشانة الطرشاء ، قلبها الأصم عربد بالحب فى عرس الزين .

بل ان حب الحياة ، حب الخلق والانجاب والتوفيق والجمع ليسيطر على معظم شخصيات الرواية :

« أشعل محجوب سيجارة ، شد منها نفسين أو ثلاثة ، ثم رفع وجهه الى السماء وتمعن فيها دون إحساس ، كأنها قطعة أرض رملية لا تصلح للزراعة » .

كان « الإمام » رجلاً ملحاحاً متزمتاً كثير الكلام فى رأى أهل البلد . كانوا فى دخيلتهم يحتقرونه ، لأنه الوحيد بينهم الذى لا يعمل عملا واضحاً فى زعمهم . لم يكن له حقل يزرعه ولا تجارة يهتم بها » .

« قال عبد الحفيظ فى مرح ، ان زوجة سعيد اليوم جاءته فى الحقل وقالت له وهى تبكى أن سعيد كلمها كلاماً قاسياً فى الليلة الماضية وقال لها أنها امرأة « جيفة » .. لأنها لا تتعطر ولا تتزين كبقية النساء ولما قارعته الكلام صفعها على وجهها وقال لها : « امشى خدى دروس من بنات الناظر » .

« وقال عبد الحفيظ انه سيجيئهم ليكلم سعيد . وفعلا غدا اليها وقت الظهيرة . لكنه تريث عند باب الدار ، فقد وجده مغلقاً ، وسمع داخله ضحكات سعيد وزوجته .. ضحكات هنيئة منشرحة ، وسمع سعيد يقول لزوجته ، وكأنه يعض بعض أذنيها : « ابكى ياخيتى إبكى » .

بهذه النظرة الصوفية التقدمية ينظر الطيب صالح الى الناس والأرض والزرع وسائر الأحياء . وينتزع منها جميعاً قيمه الأخلاقية ، وعمله الفنى ، وموقفه الفكرى ..

الحياة حلال لمن يصنعون الحياة ، وحرام على من يدمرونها أو يناصبونها العداء .

الحب والجنس والفحولة والاخصاب أشياء جميلة نفخر بها بدلاً من أن نستحى . هى القيم الأساسية التى ينبغى أن نبنى عليها مواقفنا وأحكامنا . هى جميعاً بعض مما خلق الله للناس من أطايب . والشكر الواجب لله يكون بأن نقدر نعمه حق قدرها ، وذلك بالاقبال عليها . بين الأرض والناس تماثل وتكامل . يضمهما جميعاً شىء واحد ، هو وحدة الحياة وتداخل الشىء فى الشىء ، وتمثيل الجزء للكل . ما وصفه الشاعر وليم بليك ذات يوم بقوله : « أن ترى العالم كله فى حبة رمل » .

يفيض النيل ثم ينحسر ، وتنظر فاذا « رائحة الأرض .. تملأ أنفك ، فتذكرك برائحة النخل حين يتهيأ للقاح . الأرض ساكنة مبتلة ، ولكنك تحس ان بطنها ينطوى على سر عظيم . كأنها

امرأة عارمة الشهوة تستعد لملاقاة بعلها . الأرض ساكنة ولكن أحشاءها تضج بماء دافق ، هو ماء الحياة والخصب . الأرض ميتلة متوثبة ، تتهيأ للعطاء . ويطعن شيء حاد أحشاء الأرض . لحظة نشوة وألم وعطاء . وفى المكان الذى طعن فى أحشاء الأرض ، تتدفق البذور . وكما يضم رحم الأنثى الجنين فى حنان ودفء وحب ، كذلك ينطوى باطن الأرض على حب القمح والذرة .. وتتشقق الأرض عن نبات وثمر » .

ذلك هو معنى الجنس عند الطيب صالح : عطر الحياة وقوامها الحراق الخلاق . ضمان الحياة وبقاؤها . الرابطة الكبرى التى تجمع بين كل ما يولد تحت عين الله الساهرة من نبات وحيوان .

وموقف الانسان من هذه القوة الكبرى هو الذى يسلكه فى عداد الأخيار أو الأشرار . هو الذى يضفى على الواحد صفة البطولة أو يخلعها عنه .

أما الزين فانه يلعب لعبة الحياة هذه فى مهارة فائقة وحماس لا يهدأ ، حتى تمتد اليه يد الحياة أخيراً فتهديه خير هدية .

بهذا المعنى نستطيع أن نفهم سر الحافز الغامض الذى حفز نعمة للزواج من زين . والقيام بتضحية . انها ليست تضحية فى الواقع ، بل مطاوعة لأعمق نازع من نوازع النفس .

والحديث فى الرواية لا ينقطع عن الحب والزواج . هو الذى يحرك أحداثها ويجعل لها وقعاً . الفرقعة التى أحدثها نبأ خطبة الزين لنعمة كشفت عن أن الناظر الذى تخطى الخمسين كان يطمع فى الزواج من البنية .

كذلك شعرت آمنة بطعنة نجلاء وجهت الى قلبها ، فقد كانت تقدمت لخطبة نعمة نيابة عن ابنها ، فرفض طلبها فى غير مجاملة .

كذلك يضفى حب الحياة والأحياء على الرواية ما فيها من شعر جميل تلقاه فى مواضع كثيرة منها :

« كانت عزة ابنة العمدة فى الخامسة عشرة من عمرها ، وقد تفتح جمالها فجأة كما تنتشى النخلة الصبية حين يأتيها الماء بعد الظمأ . كانت ذهبية اللون مثل حقل الحنطة قبل الحصاد » .

وهو أيضا مصدر المرح الكثير الذى يجرى فى ثناياها :

« ولما انتصف النهار كان الخبر على فم كل واحد . وكان الزين على البئر وسط البلد يملأ أوعية النساء بالماء ويضاحكهن كعادته . فتجمهر حوله الأطفال ، وأخذوا ينشدون : « الزين عرسّ .. الزين عرس » . فكان يرميهم بالحجارة ، ويجر ثوب فتاة مرة ، ومرة يهمز امرأة فى

وسطها ، ومرة يقرص أخرى فى فخذها ، والأطفال يضحكون ، والنساء يتصارخن ، وتعلو فوق ضحكهم جميعاً الضحكة التى أصبحت جزءاً من البلد منذ أن ولد الزين .

ان رواية عرس الزين زغرودة طويلة للحياة . أنشودة حب يرتفع بها صوت فنان كبير القلب قدر ما هو كبير المعرفة . لعل أكبر قدراته وأهمها تتمثل فى انه أزال نهائياً ذلك الحاجز غير المنظور الذى يفصل بين الفنان وبين ناسه ، مهما اشتد حبه لهم .

ان الطيب صالح يعرف ناسه ، ويحبهم فى إخلاص طبيعى ويقعد معهم على الأرض . كواحد منهم .

وهذا — حقاً وصدقاً — شىء عظيم !

السيسبانة

مكي محمد على



لما خرجت السيسبانة من جوف الأرض ، وانتصبت بين أشجار الغابة ، امتصت الوجد والشوق من كل جنس . كانت جدائلها سبائك من لجين غزلها ضوء القمر . وكان عنقها أملس ناعما ، ينزلق عليه الضوء وتتعلق به الرؤية . وكانت مهجة الشعراء تسيل على قوامها الممشوق ، وتخضبه بخضرة نضيرة .

السيسبانة شجرة وامرأة . شجرة خرجت من قلب افريقيا ، ورسخت من الزمان القديم . ثم جاء الفارس ينحدر الى النيل راكضا بالجواد مسرعا مثل رعشة البرق . واندفع الناس خلف الفارس مهللين . شحذوا شفير السيف القديم فتوهج . ولبس كل رجل وشاحه . كان الوشاح راية الثورة ، وكفن الشهيد . انفتحت الأبواب المغلقة ، وانتظر الناس عرس المجد .

طرقت سنابك الخيل أرض مصر . ثم جنحت نحو الصعيد ، وتدلت على النيل . ولما وصل الفارس ، ترجل عن جواده ، وبحث عن انثاه فوجدها بين الحقول والمراعى ، سمراء مثل الأرض ، يشوب لونها خضرة ، وفرعاء ساطعة وطرية مثل العود الأخضر .

ذهب الناس الى الرجل الصالح . وجدوه يجلس على فروة وبرها غزير وكثيف وناعم . بجانبه ابريق من الفخار يملأه من ماء النيل ويشرب منه ماء باردا ، ويتوضأ منه . كان للشيخ حواريون . وكان يتكلم مع الناس ويذكر الله بفؤاده ، ولا يفتأ يردد : النيل نبع من الكوثر ، نزل مع آدم من الجنة . ينغمس الناس فى مائه فيتطهرون ، ويشربون فيرتوون . لا ماء اعذب من مائه . يقول الشيخ هذا القول فيحفظه الناس حبا للنهر والأرض . قال الحواريون للشيخ هذه غرة الصلاح على جبينك . قال لهم : ما أنا الا بشر أحمل فى بدنى ذرة الفناء . ولكن : اليكم ابنتى الوحيدة فاطمة ام النصر . اذا مت زوجوها لرجل تجتمع فيه فضائل العشيرة أو أهل البلد .

ومات الشيخ ، وعاشت وصيته فى صدور الناس . كم من رجل تمنى أم النصر ، ولكن كان

يراجع سيرته فيتلمس فيها النقص فيرجع عن التمنى والحلم . وكانت بطولة الفارس قد علقت اجراسا صغيرة على هامات البيوت ، اذا هبت الريح احدثت صوتا مثل كورال الأطفال يمجد الحرية . وأخذ الحواريون فاطمة ام النصر ، وجاءوا بها للفارس وقالوا : هذا تاج بطولتك . فتحوا الهودج ، فتألقت منه ذرة مثل جوهرة الحكمة وراحة البال . كانت الفتاة ملساء كأنها مهرة . شعلة تحوم حولها الفراشات فى الليل ، وزهرة حقل تزهر قبل كل الزهرات . وكان جمالها لا يثير الاشتهاء الرخيص ، فيه الفرح والوقار ، مثل التسبيح الهادىء فى المكان الآمن .

أحبت فاطمة ام النصر الفارس ، فأخذها على صهوة جواده وانطلق بها . يطوى البيداء طيا يصل اطراف البلاد ويهز أعطافها فرحا وحبا وتهليلا . ورسمته فاطمة بالحلم . غسلت سيفه بدمعة فرح وتعبه بعاطفة انهمرت من جوارحها . وولدت منه توأمين . كان على صهوة الجواد خصبهما وميلادهما . كانا ذكرا وانثى : فاطمة الوضاحة ، التى ضحك الكون لجمالها وسماها الناس السيسبانة ، وأحمد الذى جاء مثل فرحة المواسم بعد الجدب ، فلما شب عن الطوق أصبح يذرع الأرض فى مشيته ، تعصف الريح و لا يمحى اثر اقدامه ، وسماه الناس « القدّال » ، أى الذى يتبختر فى مشيته .

وركض الفارس شرقا ، فإذا بالريح تأتيه من قمم الجبال يتناغم فيها العشق ويهتز فيها الصدى صادحا ، صائحا : « تاجوج . تاجوج » ابتسم الفارس وقال : الريح ترحب بالسيسبانة والأرض تمنحها جمال تاجوج الخارق . وانطلق الفارس شمالا حتى أدرك حقول النخيل وجروف القمح فسمع فتاة تغنى على النيل وترش الحقول بالمنى . وتنشد طالبة الى « على أن يكبر ليحمل عنها حملها ، فعلّه أن يكون « على » الذى ادخره ابوها لها ، ولعل الخير يكون من نصيبها جزاء ما أعطى أبوها للجار ولليتيم ، وما كسى به الغنى والفقير معا . قال الفارس : ابشرى يا أم النصر ، ما على هذا الا أحمد القدال . ولدى هو كل الأسماء .

وانطلق الفارس جنوبا يطوى السهوب حتى وصل الى غابات الجنوب ، فانسكبت طراوة الغصن المياس فى بدن السيسبانة ، فأينعت مثل مواسم الخريف . ويمم الفارس شطر الغرب ، وعاش مع ناس طيبين ، يربون الأبقار والأغنام ، ولا يبخل حتى الفقير منهم بلحمها على الضيفان . ليلهم انس وحلقات الصراع وغناء الحسان . والفارس يُحمل فى المهج وتفخر به العشيرة . اذ ذاك اينعت السيسبانة وسمق أحمد القدال .

وسمع القدال فتاة تنشد مرثية تدعو فيها بنات بربر الى البكاء ، لما حاق بقومها من قتل وسبى حينما اغارت قبيلتها على عشيرة مجاورة فردت العشيرة العدوان بالعدوان . فأخذ أحمد سيف ابيه ، وهو ممتلىء حماسا ، واختال فى الحلقة . فغضب الأب وأخذ من أحمد السيف وكسره . ولما

سقطت الحسرة فى قلب ام النصر ، لأن ارث القدال أصبح نصف سيف ، قال لها الفارس : القدال سيكون فارس الأرض يزرعها ويحصدها . لا أريده ان يتحمس لظالم يسيء الى نساء العشائر الآمنة .

ولما وافت الفارس المنية ، قال وهو يموت : يا ام النصر ، انا فارس ، حاربت بشرف من أجل أولادى واحفادى . ولا أريد للقدال صهوة الجواد وطنا وسرجه بيتا . يكفى ان تتوهج نظرة القدال ، وأن تكون السيسبانة الحكيمة الى جواره . ومر الرجل فرع جواده وصهل ، وانطلق راكضا حتى لامس الأفق . أصبح نقطة ضوء كبيرة ثم انتشر سحابة بيضاء حجبت الشمس الحزينة على موت الفارس .

ومضت الأيام ، واذا بغرباء يأتون اسرابا كالجراد . جزوا شعر أم النصر ، فنهض اليهم القدال ، وقاتل بنصف سيفه حتى ثلم ، وأصبح كالعصا القصيرة ، ضربها لا يوجع . واستسلم أحمد ، فأخذت أمه السيف وغرسته فى قلبها . وفى الأفق البعيد لمح أحمد القدال جواده يرتد صغيراً مثل فراشة بيضاء ثم يتمدد حتى يصبح سحابة بيضاء تشكلت على وجه ابيه الفارس . ترجمت السيسبانة حركة شفاه الفارس فاذا به يعتذر لأنه كسر السيف ويقول : لا أحد يعطى الارث عملا كاملا ، والا خمد حس الرجال . وانتفى الابداع .

وبدأ الرحيل الطويل لأحمد القدال واخته السيسبانة . اتصل رحيلهما بالليل والنهار وتعودت السيسبانة على المطر والبرد والقيظ ، وتواءمت مع كل الفصول . ومرة أخرى تشكلت سحابة تحمل وجه ابيها الفارس وقال : كُتب عليك ياقدال ان تموت وتحيا . وأن ترتقى السيسبانة وتزدهر. ومن ثم يمضيان معا فى رحلة الزمان . تفقد البنت أخاها فتضيع ، ويأتيها فتبعث . ويتحدد اثناء الرحيل الدائم مصيرهما ومصائر الناس .

فى اطار « الحدوتة الشعبية » تدور احداث هذه الرواية الفاتنة . تستخدم مأثورات الشعب وتمنحها مضمونا تقدميا واضحا ، وتفيد من طرق الحكى الشعبى لكى تبعث فى ثنايا العمل حيوية ومضاء .

تبدأ الرواية والجدة العجوز قد تحلق حولها الأطفال ، يطالبونها بأن تحكى لهم حكاية جديدة . قال صبى منهم صاحى الفؤاد : يا جدتى ، احكى لنا حكاية السيسبانة المرأة . لقد سئمنا حكايات الطير والشجر . وضجرنا من بطولات الرجال التى تفح شهوة . كان صوته يرتفع فوق حدود الزمن والمكان . اذ ذاك حلق عصفور اخضر فى لحظة مثل الومضة ، لم يره الناس كلهم ، ولكنهم جميعا سمعوا صرخته الحادة . هتف عباس الميرى : أحمد القدال ! أحمد القدال ! وثرثرت النساء : السيسبانة ! السيسبانة ! اذ ذاك نجد انفسنا على الفور فى قلب الأسطورة التى تتخذها

الرواية مادة لها . احمد القدال والسيسبانة كلاهما رمز . أحمد هو الثورة . هو ضمير الشعب ، هو ارادته الدائمة المتجددة . تعدو عليها قوات الغدر والطغيان فتصيبها فى مقتل . فيموت أحمد القدال ، ليقوم بدلا منه أحمد قدال آخر . تفترس قوات الاستبداد أحمد القدال ، يتآمر من ثلاثى شرير افراده هم : شيخ العيدروس ، امام المسجد ، وصبير المتاجر بأقوات الشعب ، وزوج ابنته عباس الميرى . وقف هؤلاء ضد التحول الكبير الذى احدثه حضور القدال واخته السيسبانة . جرى المحراث ، وتفتحت الأرض . وقال الناس : السيسبانة لثمها انتشاء وضمها انتماء . وقالوا : القدال ، انفاسه ثورة ونظرته استقراء . فى مكان الكوخ الفقير سمقت كروم خضراء وبيت أبيض مثل فراشة بيضاء . ومن البيت انبعثت ضحكة الزوجة الجميلة ، تنفث الحذر والنعاس والأحلام ، تهدهد الرجل على وسائد مثل اللدائن . وسمع الناس القدال يقول : من يعزق الأرض ويبذرها يحصدها . وكانت السيسبانة حين تخرج للحقول ترنو الزهرات ، وتتحلق حولها الفراشات . وحين ترقص تتسرب النشوة الى أبدان الرجال . نشوة فيها راحة العبادة وحس الطرب وارتقاء ا لذوق . أما النساء فقلن : فى الماضى كنا نغار من حسناء دون السيسبانة . اليوم تتوسد السيسبانة مهجة الرجال ، فلا نغار أبدا . أى سحر هذا ؟ أى رمز هذا ؟ أى سر لا يدركه عقل الانسان ؟ ضحك القدال وقال : « من غيركم يا أصحاب الأرض يعرف سرها ؟ هى تحت اقدامكم وعلى امتداد أبصاركم » . عَنَى ان السيسبانة هى الأرض وهى الخصب وهى الثمار .

وقال القدال : العدل أن يشبع الرعاة بعد العجول ، ثم نقسم اللبن على الآخرين . وبنى القدال بيتا عريضا طويلا للضيوف سماه الديوان وجعله مضيفة ومزارا للناس . ثم أصبح القدال من بعد اماماً للناس فى غير صلاة الجمعة . اما فى يوم الجمعة فقد جعلت كلمات القدال قومه يقارنون بين ما يقول وبين ما يتلفظ به شيخ العيدروس . كان الشيخ يقرأ الخطبة من أوراق تهرأت على يديه . وكان يختم الخطبة بالدعوة الى أن ينصر الله السلطان عبد الحميد . فأخذ الناس يسألون لأول مرة : من يكون السلطان عبد الحميد وأين يقع ؟ كان العيدروس يحتكر بحر العلم طولا وعرضا وعمقا . هو الملاح وهم عشبة الهضبة الرانية على الضفة يدوسهم عندما يرتقيها . الوهم حائط يستره منهم . فلما جاء القدال تبينوا ان الحائط هش ورخو . فتغيروا . قالوا : لا مساومة فى البيع . لا جهر الا فى محله . لا سر الأ فى مكانه . الانسان هو الحب والغضب معا . الانسان ايضا هو اطلاق المحبة والسيطرة على الغضب .

لزم العيدروس صومعته . وانكب الميرى على خمره وليله وكأسه . اما صبير فقد تفتق فيه الجرح . وانحشر فى بيته كأنه من فصيلة العناكب أصبح شرسا يصفع نفسه ويعض لحمه ، ينهشه وينخله بأظفاره . وقالت زوجته : امشى فى مواكب القدال فهى لا ترجع خاسرة . خذ

نصيبك من الخير الذى يعم البلد . رد عليها : لا خير فى غنى يقتسمه الناس . المال يعنى العظمة والجلوس فوق رؤوس الرجال . كل الأكواخ أصبحت قصورا ، فكيف تسمق هامة بيتنا ؟ وقال العيدروس لرفيقيه : أحمد القدال افسد علينا الناس . اذا تركناه يجول ويصول قضى علينا وعلى ذريتنا . فاذا اجتمعنا عليه نحن الثلاثة قضينا عليه .

غير أن القدال كان هو الذى أعان خصومه على نفسه . لأن أمامهم ، فلم يدفعهم الدفع الذين يستحقونه . عندما اتاه الناس شاكين ، نظر اليهم نظرة فاترة ، فانسرب اليهم منه العجز . كانوا قد كشفوا شر المتآمرين ، وفاحت رائحتهم فلم يعد أحد يخطئهم . ولكن الخصوم سعوا الى التخفى . تضمخوا بالعطور كى تذهب عنهم الريح الكريهة . وعادوا ينتشرون فى المكان . اقنع العيدروس صبير بالعودة الى الحياة العامة ، وطلب الى عباس الميرى ان يعود الى المسجد ، قائلا ، ان الرائحة الكريهة ذاتها التى تفوح منك تفوح منى ، ومع ذلك يأتى الناس ويصلون خلفى . وقال القدال للسيسبانة : كل شر فيه جانب من الخير يا سيسبانة . محنة الرجال الثلاثة علمت الناس زراعة الزهور وصناعة العطور ، وكلما تكرست رائحة العفن ، زاد الناس فى التأنق . تنهدت السيسبانة وقالت: وا حرَّ قلباه من تحليقك المهيض . كان جناحك يصبح كسيحا ، وأصبحت لا تميز بين الثائر والمرتد . وسقط الحزن فى مهجتها وتكلس . فذوى الخصب وضمر الثمر وغاض النهر وتفشى الطاعون . وقال الناس : انتهى علم القدال من الخصب الى الموت . أصبح الحقل لا يفى بطعام الطفل الواحد . أصبح القدال درويشا نأتى مجلسه فيدعونا للأذكار بالتوبة والطار . وعبثا حاولت السيسبانة ان تحفز الناس الى الفعل . دعتهم الى أن يشحذوا سيوفهم . ان يطلوها بالزيت . فقالوا : لا زيت عندنا . قالت هذا زيت صبير عَصَرَه من حبوبكم وعرقكم ، خذوه منه واشحذوا السيوف . قالوا : زيت صبير شربه سوط الميرى . قالت : وماذا تفعلون ؟ قالوا ننتظر المواسم الخصيبة . قالت : لا مواسم تأتى . اسألونى . أنا العارفة .

اما القدال فقد انخرط فى الأذكار ، فبدأ الهوس ينتقل الى الناس . وحمى وطيس احد الأذكار فاندس عباس الميرى وسكينه تلمع . ثم انتهز فرصه مناسبة ، فأمسك بناصية القدال ، وشدها وأجرى السكين فى عنقه من الخلف من الأذن الى الأذن . وصرخت السيسبانة صرخة حادة وانتهى كل شىء الى ذبول . وانبطح الناس على رمال الساحة ، لولا انفاسهم لظنهم المرء أمواتا . وعلت صيحة العيدروس : هاتوا القدور والبهار . سيأكل الناس لحما سميناً وطريا . ووضع فى القدور لحم القدال ، وتحدى بالقول : السيسبانة تزعم ان القدال لا يموت . وها نحن نقسمه فرقا لبطون الناس حتى لايجتمع منه شىء يبعث من جديد . وكان الناس قد فقدوا الوعى من

الأذكار ، فلما افاقوا حرقهم الجوع فانكبوا يأكلون بنهم ، الا الأطفال . وقال الناس : القدال فيه الخير . ما جمعنا الا لنتذوق متعة الأكل . ولما انفض جمعهم ، نهضت السيسبانة وجمعت عظام أخيها وزرعتها تحت زيد عند سقيفة تعرش فوقها كرمة من غرس القدال . امتصت العظام الرطوبة ونبت منها غرس أخضر يانع الخضرة ثم تبرعم . ثم انفتح التاج وطار منه طائر أخضر جميل .

قالت الراوية العجوز للأطفال : ذلك هو طير الخضارى يا أطفال . ونظرت العجوز الى أطفالها المتحلقين . كانت آثار الطفولة قد زايلتهم . تفجروا بالفتوة . وقال طفل عنيد من بينهم : لن أبرح حتى أعرف أنا واخوانى ما حدث للسيسبانة . قالت العجوز لاتعاند يانمرود . قم وابحث عنها . ذلك كان القدال وقد بعث من جديد . قدال مختلف عن سلفه : الثائر الطاهر ، العاجز عن الفعل . القدال الجديد وعى درس الهزيمة قال للعجوز : الثائر الذى لا يحسب الوقت يتخلف . يجد نفسه صارخا فى قفر ، أو مصلوبا لأنه فوضوى . ادرك القدال الجديد ان المسافة بين القمع والحرية لا يقطعها الا الفعل الايجابى . اصبح يرى النصل المخضوب بالدم والمغموس فى الجرح شيئا لا يخشى معاناه النضال . وضمت رؤياه أيضا زهرة لوتس بيضاء وسنبلة حبلى لأيام الحرية والشبع . وقال للشيخ « ضراع الخير » — احد حوارييه — انا سائر فى طريقى وحدى حتى أجد السيسبانة وعليك انت تنوير الناس . الجندى المؤمن هو صاحب القصبة ، وسيد السلاح . قال له الشيخ : خذ معك شلة من الرجال العارفين للأثر حتى لاتضيع ، ولكنه كشف عن صدره فاذا عليه وشم مطبوع لآثار قدمى السيسبانة . قال : هذا هو الطريق مطبوع فى صدرى وفؤادى لا يضيع أبدا . قال الشيخ : كما تشاء واعلم انك اذا سرت فى الطريق الصحيح فسوف تجد فرحا ، فى ظاهره الحزن ربما ، فان لم تجده فارجع الينا .

وما وجد القدال الطريق الصحيح ، فعاد ادراجه الى الشيخ ، وقال انى أعانى مثلما يعانى البشر . لا خير فى الرؤية مؤقتا . غير أنه ما لبث أن وجد جانبا من الأمل . فى المدينة الظالمة التى دخلها يحكم الطغيان ويحظر على الزوج ان يواصل زوجته حتى لايزيد عدد الفقراء . ابدت زوجة شابة احتجاجها الشديد . قالت انها مازالت بكرا لأنها تزوجت فى الزمن العاقر . عرسها كان كالمأتم ، لأن السلطان يحظر حفلات الزواج . واستغاثت الزوجة الشابة بالقدال . وقال زوجها العامل عصرونى وشربوا الكأس حتى الثمالة . ثم ادمنوا عصرى . قال القانون اننى مشاغب وعقالى البؤس والجهل والعقم . وحذر المشرعون من نسلى ، خاصة وأن السلطان عاقر . قال القدال : اذن هم يعالجون العقم بالعقر . قال العامل : لأن الشيخوخة لا تستطيع ان تجادل الشباب . قال القدال : جئت كى اجعل الجدال مساجلة بين طرفين . وتشجع الزوجان فذهبا الى كوخ وتواصلا وقعت « الجريمة » فأخذ الزوجان والقدال الى السجن . ومن ثم انفتح امام

القدال الطريق الصحيح الوحيد : النضال المسلح. فلما قامت الثورة طحنتها قوات الاستبداد ، وسقط الناس قتلى . كان القدال من بينهم . فلما انتهت المعركة كان على الأرض قدال ثان وثالث ورابع . ولكن صورة القدال كانت قد انطبعت فى أرواح الناس . وحين عادت السيسبانة تدفن العظام من جديد فى الأرض الخصيبة ، امتدت الجذور ، ومع صحوة الفجر تعالت شجيرات خضراء ، وانفتحت زهرات الليلاك ، وفرت طيور خضراء ، وزفت وسبحت مثل السحابة : ستبدأ دورة أخرى من دورات كفاح لا ينقطع ، حتى يسود العدل ، والحب والسلام .

هذه رواية فولكلورية فى الأساس . ومن هنا حرصها على تسجيل كثير من الأغانى الشعبية ، تنساب فى صلب الرواية انسيابا لينا رشيقا وتعطى العمل مذاقه الشعبى السودانى الخاص . كما تصف الرواية الطقوس والعادات المصاحبة لحفلات العرس وصفا حافلا بالود ، وتدخل حفلات الذكر فى الرواية دخولا موضوعيا ، اذ يتم فى واحد من هذه الحفلات اغتيال القدال ، وتقطيعه اربا ، والقاؤه الى الشعب الجائع ليأكله ، فلا يصبح هناك مجال كى يعود البطل الدائم الانبعاث الى الحياة . بل ان هذا المحور الرئيسى فى الرواية ــ القدال الدائم الموت ، الدائم الانبعاث ــ هو نفسه اسطورة تتناقلها الحكايات الشعبية فى السودان وفى مصر وفى بلاد وثقافات أخرى غير عربية . كما انها تنتمى بوضوح الى اسطورة الآله الخيِّر ، الزارع ، الصانع ، المعلم ، الذى يهدى قومه سبل العيش القويم مادة وروحا معا ، ذلك الذى عرفه الأدب المصرى القديم فى شخص أوزوريس ، كما عرف جهود زوجته ايزيس فى تجميع أوصال زوجها ودفعه الى الحياة من جديد .

غير ان الرواية لا تغيب تماما عن الواقع وراء غلالات الأسطورة الفاتنة . ثمة انتباه الى واقع الناس يتمثل فى شخصيات الشر الثلاثة الذين تقدم ذكرهم . وهناك ذكر للشجار الزوجى الذى تعرفه الروايات الواقعية ــ شجار بين صبير وزوجته حول موقفهما من الخير الذى جلبه القدال للبلاد ، يكون من اثره ان تمتنع الزوجة عن وصال زوجها فى الفراش .

وهناك تصوير واقعى لجهود سارق اقوات الشعب : صبير ، وتخزينه للأقوات ، حتى يبيعها بالسعر الفاحش فى زمن القحط . وهناك ما يقوله العامل وصفا لتنكيل قوات القمع به ، ودفعه للانتقال من عمل شاق الى آخر حتى اعتصر تماما . وهناك ما يذكره العامل عن اشقائه العشرة ، الذين ولدتهم ام شديدة الخصوبة ، فأصبحوا مشردين فى الأرض ، يضربونها ويخصبونها بالعزق ولا تفرز لهم الا التعاسة . ولا تذكر الصحف شيئا عنهم حتى يموتوا . وهناك عثمان المحبوب الذى مات فى المنفى فكتبوا بعد وفاته انه كان دمث الأخلاق ، محبوبا من رؤسائه وزملائه . وهناك سعيد الياس ، الذى شنقوه وزعموا انه مات فى حادث سيارة . وهناك جابر الركابى الذى حقنوه بحقنة فارغة فى الوريد لأنه رئيس نقابة . فلما مات كتبوا ان البلاد فقدت بفقده ابنا بارا ،

وقلدوا زوجته وساما .

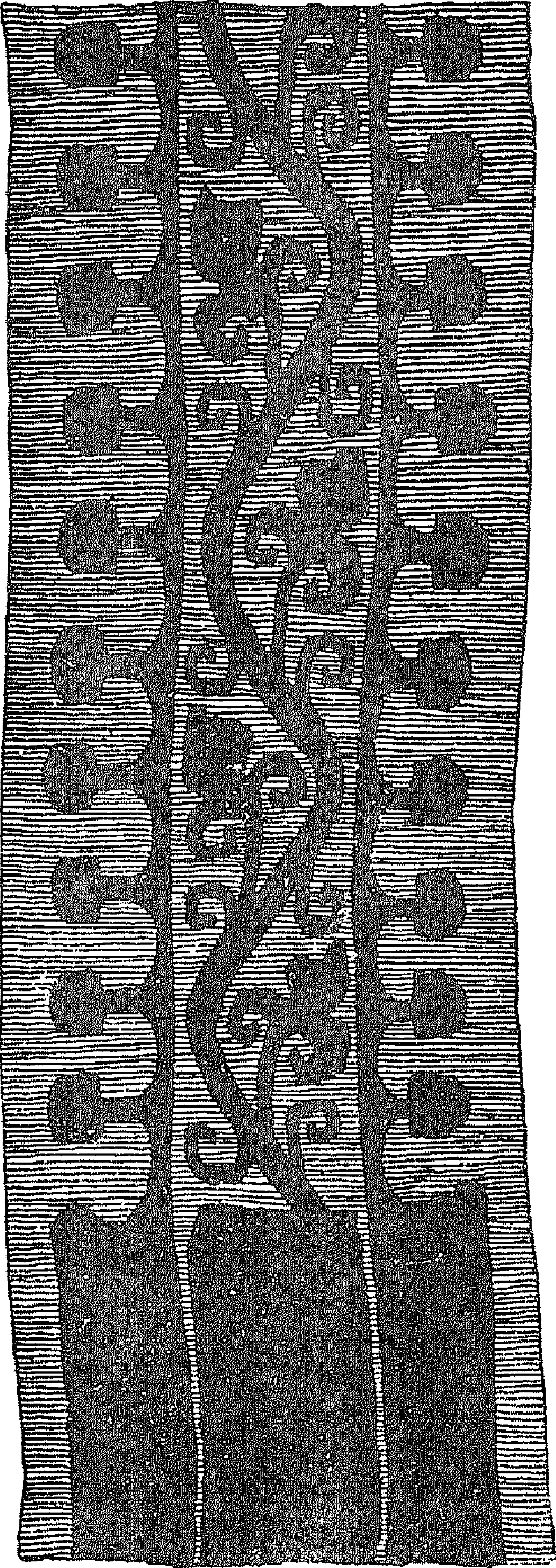
وتتحد الأسطورة والواقع اتحادا عضويا لابراز الرسالة التى تريد الرواية ان تبلغها للناس : الكفاح دوار . النضال ليس معركة واحدة . الحرية تستأهل ما يبذل فى سبيلها من دماء . الطغاة لن يسلموا بسهولة . مغالبة الطغاة لا يمكن ان يقوم بها فرد واحد ، ولا جمع من الناس لا يسندهم الوعى والتنظيم . الهدف من النضال هو ابراز الجانب الايجابى من الانسان . حبه للانسان وللطبيعة وللأحياء . والهدف أيضا أن يرقى الانسان بالعيش المادى الوفير ، وبالذوق الرفيع ، ولا يمكن لأى من هذين الشطرين ان يقوم دون الآخر .

لولا الالحاح على الوصف الشاعرى لبطلى الرواية ، القدال والسيسبانة ـــ هذه الأخيرة خاصة ، لكانت الرواية أوضح وأجدر أن تمتعنا دون أت تعطينا فرصة للتململ أو الملال . ولكنها ـــ مع هذا ـــ رواية تستحق التقدير الكبير .

٤

المغرب العربي الكبير





الرواية في ليبيا

ثلاثية سأهبك مدينة أخرى
هذه تخوم مملكتي
نفق تضيئه امرأة واحدة

أحمد إبراهيم الفقيه



خليل رجل مسكون . بداخله رجلان . رجل مخلوق من طين السنين العجاف ورماد ازمنة الجفاف والقحط ، وبقايا الجحيم المتفجر فى حقول الألغام ، وبكاء النائحات فى مآتم الموت المفاجىء ، وكل ماعرفه خليل فى طفولته فى الصحراء . رجل يستيقظ بغتة وسط ادغال الروح ، ويفتك بالرجل الآخر المصنوع من كتب الأدب واساطير الليل ، وقصائد الشعراء ، وأشجان المغنين ، وطباشير المدارس ، وتذاكر السفر الى المدن البعيدة . ودائما ضعيف هو ، هش ، هشاشة الورق والحبر اللذين خلق منهما .لا يقوى الرجل الورقى على الوقوف فى وجه الرجل البدائى ، الذى يتسلل ملتحفا بالظلام ليطعن بخناجره الصوانية البشر الذين أحبهم خليل ، ويشعل الحرائق فى البيوت التى منحته الأمان . يباغت الرجل البدائى الرجل الورق خليل دون انذار ، فلا ينتبه لأفعاله الا عندما تدهمه النتائج مثل حوادث السير القاتلة .

كان جد خليل قاتلا وقاطع طريق ، فأراد ابنه ان ينشأ خليل وأخوه نشأة دينية تمحو العار الذى خلفه الجد . اراد أن يتعلم ابنه البكر علوم الدين ليصبح فقيها ، ونصب له مشنقة فى البيت ليرغمه على الرضا بهذا الطريق الذى اختاره الوالد . ولكن الولد قاوم ، وافلت ، فالتفت الأب الى خليل يريد له ان يسلك الطريق ذاته . وفشل الأب مع خليل مثلما فشل مع أخيه . ورضى الأب كارها بأن يسلك الولد طريق الدرس العلمانى ، غير ان روح خليل كانت قد اصيبت بجرح غائر . داخلها استوت صورة المشنقة . سماها خليل مشنقة الأسلاف . ومن ثم انشطرت روح خليل شطرين : روح المتحضر الذى سافر الى الغرب ، وعاين حضارته ، ودرس فنونه وآدابه ، فأكسب هذا كله خليل قشرة من قشور الحضارة ظلت هشة دائما . بينما بقى تراث الأجداد فى الأغوار المظلمة لنفسه ، يطفو الى السطح حين لا يتوقع خليل له أن يظهر ،

فيدمر كل ما بنى الرجل الآخر وحقق .

تعرف خليل اثناء دراسته فى انجلترا الى ليندا ، المرأة العذبة ، الرقيقة ، العامرة الجسد ، الشهية كفاكهة طازجة ، المتفتحة كوردة حمراء من ورود الربيع ، التى تضخ فيما حولها عبقا ، وتنشر عَرْفاً ذكيا . احبته وأحبها . لم يمنع الحب من أن يقوم كون ليندا متزوجة . رضى الزوج بأن تقوم فى بيته علاقة ثلاثية . ان يتقاسم امرأته مع خليل الذى يسكن احدى غرف بيته . لم يكن الزوج رجل فراش ، فظن ان من المعقول ان يعوض خليل زوجته المحرومة عما عجز هو عن تقديمه .

وبينما العلاقة بين ليندا وخليل تسير رخية ، سعيدة ، واعدة . تظهر فى الأفق امرأة أخرى هى ساندرا . جاءت هذه الأنثى الصغيرة ، بهمجية شعرها الزعفرانى ، واخضرار عينيها ، وتوقد أفكارها ، توقظ فى نفس خليل شهية قديمة للنقاش ، وتعيد الى الحياة ذلك الجزء من عقله الذى نبذه منذ أن خبت جذوة الفكر الحارقة ، التى كانت تدفعه الى تقليب كل الأحجار ، ومناقشة البديهيات بدل التسليم بها . وطرح الأسئلة التى تفضى الى اسئلة أخرى ، ونصب المحاكمات للبشر والآلهة على السواء .

كانت ساندرا تختلف قليلا عن خليل : لا تحمل رسالة نحو أحد سوى نفسها . تعلمت من دراستها للأدب الفرنسى التأكيد على الذات ، والاحتفال بمعنى وجود الانسان فى الحياة . لا ترضى بخبرة الآخرين بديلا عن الانغماس فى التجربة والمغامرة ومعاينة الأشياء عن طريق الخبرة الشخصية . نظر خليل الى ليندا والى ساندرا . ساندرا كتاب انيق مبهج لا يمل المرء قراءته . امرأة مصنوعة من جمر مواقد الفكر . قادرة على اطلاق الشرارات التى تضىء الذاكرة والوجدان . وليندا ، بأنوثتها وثراء عواطفها ، وردة من ورود الحديقة ، تشرب الريح والمطر ، وتستمع بسقوط ندى الفجر ، اقرب الى الأشياء الجميلة فى الطبيعة ، واكثر تمثيلا لها . ساندرا ، تستفز العقل وتوقظ التوق الى التحرر ، واكتشاف المناطق المجهولة خلف مظاهر الأشياء . وليندا امرأة اللحظات الحميمة ، التى تجيد لغة القلب ، وتدخر فى جسمها فاكهة لكل موسم وشمسا لليل الشتاء .

ظن خليل انه يستطيع ان يوفق فى نفسه بين المرأتين . مع ساندرا يقوم بالتدريبات على دور عطيل أمام ذيدمونة ساندرا ، وحينما يأتى المساء يأوى القلب الى ليندا وجسدها العامر ولكن هذا الظن الساذج ما لبث ان اصطدم بوحشية الوقائع . ادى خليل دور عطيل امام ديدمونة ساندرا بنجاح فاق كل تقدير . كان فى مشهد خنق ديدمونة يغترف من زاد الوحش الذى يكمن داخله ، حتى أوشك أن يخنق الفتاة بالفعل . وحينما دوت القاعة بالتصفيق ، وذهب افراد الفرقة

يحتفلون بهذا النجاح المدوى ، فى سهرة غناء وشراب ، نظر خليل فى الصباح فاذا امرأة فى فراشه ، اكتشف انها ساندرا تنام عارية . فتش فى ذاكرته عما حدث بينه وبينها فى هذا الفراش فلم يذكر شيئا . اما ساندرا فقد استيقظت ، وأخذت منشفة احاطت بها جسمها العارى وخرجت الى الحمام ، وسمعها تتبادل الحديث مع ليندا وتسألها ان تعيرها مجفف الشعر .

عبثا حاول خليل ان يشرح لليندا ما حدث . جرحت المرأة وانتهى الأمر . تهشم ما كان يربطهما من علاقة ، فسعت الى هجره . وحين حاول أن يستبقيها اوشك ان يجعل منها ديدمونة أخرى ، فقد كان الذى يجرى فى عروقه ويبعث القوة فى ساعديه هو ذلك الوحش الذى يسكن مختبئا داخله . لم يكن خليل مصدوعا الى انسان متحضر وآخر وحشى فقط ، بل كان قلبه هو الآخر مشطورا بين نموذجين مختلفين من النساء . المرأة الجسد ، الوافرة العطاء ، الأم ، التى تتبع نداء الطبيعة وتلبيه ولا تخرج أبدا عن طاعته . والمرأة المحررة من كل رباط ، التى تطاوع النداء الأعمق الذى يأتيها من داخل نفسها ، ويحملها على رفض المواضعات . والثورة على الاعراف والقيود التى صنعها البشر ليسجنوا داخلها قلوبهم وعقولهم وأرواحهم .

يظهر النموذجان بشىء قليل من الاختلاف فى الرواية الثانية من هذه الثلاثية . كان عنوان الرواية الأولى : « سأهبك مدينة أخرى » . اما عنوان الرواية الثانية فهو : « هذه تخوم مملكتى » . وتخوم هذه المملكة تقوم فى حلم كبير أوحى اليه به الشيخ الصادق ابو الخيرات ، الذى ذهب خليل ليزور قبره ، فوجده لم يمت ابدا طيلة السنوات الثلاثين التى قيل انه مات قبلها . دعاه الشيخ الطيب الى أن يدقق النظر فيما حوله حتى يرى قباب مدينة تلوح فى الأفق . فبعد أن تظاهر بأنه يراها بالفعل ، انطلق خليل يعدو فى الصحراء القاحلة . وصل المدينة بعد رحلة أوشكت ان تقضى عليه . وصلها لاهثا ، منهكا ، وارتمى على الأرض . عبثا حاول أن يترك هذا الوجود الكاذب ويعود الى وجوده الحقيقى . عبثا استنجد بالشيخ الصالح ، فقد اختفى الشيخ ، مثلما اختفى وجود خليل الحقيقى وصار جزءا من عالم الوهم الذى يواجهه .

احاط سكان المدينة بالقادم الجديد . فتحوا له أبوابها ، واعلن له شيخ ذو لحية كبيرة ان قد تم تنصيبه منذ اللحظة اميرا على المدينة وحاكما على رقاب أهلها . قائلا ان اعراف المدينة تقضى بأنه اذا مات الأمير ، خرج الناس الى البوابة المفضية الى الصحراء ينتظرون أول رجل يأتى من هذا الطريق ليجعلوه اميرهم .

كان مصطفى يقرأ « ألف ليلة » فى انجلترا ليجعل منها موضوعا لأطروحة الدكتوراة . فها هو ذا يجد نفسه ينتقل من خارج حكاياتها الى داخلها . هتف الناس من حوله : « نصر الله

الأمير » ، وضمخوه بالعطور والبسوه فاخر الثياب ، والقوا بين يديه الكلمات البليغة مُثْنين على شجاعته فى اقتحام مفازة مليئة بالوحوش وجوارح الطير والثعابين التى تنفث نارا ، لا يقدر على اجتيازها الا رجل من اصحاب الحظوة والكرامات . ثم انهوا اليه ان الأعراف تقضى بأن يتزوج اميرها من احدى نساء المدينة ، واسمها : « عقد المرجان » . رنا خليل بعينيه الى امرأة دخلت القاعة فاضاء جمالها المكان . كانت تحف بها الوصيفات وتضع فى جيدها عقدا به سبعة اقمار من الزمرد والياقوت . وقف الجميع تحية لها ، وقال خليل لنفسه : ليس هذا الجمال غريبا عنى . رأيته قبل اليوم وعشت معه عيشا حميما . ما هذه المرأة الا شهر زاد ، كما رآها فى الحلم والمخيلة .

قالوا له ان هذه المرأة الفائقة الحسن هى الأميرة نرجس القلوب ، ابنة أمير البلاد الراحل ، وسوف تصبح دليله الى كل ما يحتاجه من معرفة بالقصر والبلاد . أحس خليل بالفرح رحيقا يسرى فى جسده كأنه الخمر . جلست الى جواره فذابت احاسيس الغربة ولم يعد هو ذلك المجهول ، المنقطع الصلة بأهله ، الخارج من المكان والزمان معا ، بل أصبح على الفور جزءا من اللعبة ، لا يعنيه ان يكون ما يحدث له حلما أو حقيقة .

طلب خليل ان يتزوج من نرجس القلوب . فلما ضمهما فراش واحد ، تجلى بهاء جسدها كبستان إلهى مثقل بفواكه الجنة ، يتجول بين جداوله وأشجاره ويقطف ثماره ويرشف بخمر رضاب تلك الحورية التى ترقد الى جواره ، وينتشى بموسيقى الفجر تعزفها طيور الفرح التى تسكن جسمها .

ها هوذا خليل يعثر فى الحلم على ليندا مرة أخرى . المرأة الأنثى الوافرة العطاء النافحة العطر . وها هى ذى نرجس القلوب تحمل منه وتوشك ان تضع مولودا كما حملت ليندا منه ، قبل ان تهجره ، لترعى مولودها بعيدا عن رجل خانها .

وكما ظهرت ساندرا فى « سأهبك مدينة أخرى » ، فقلبت الأوضاع وابعدت ما بين الحورية ليندا والمتعبد فى محرابها : خليل ، ظهرت بدور فى « هذه تخوم مملكتى » . لقيها اثناء احد الاحتفالات فمال اليها على الفور ومالت هى اليه . جذبه اليها هذا الألق القادم من العينين المتوهجتين ، وهذه البشرة التى تشف وتضىء كأنما هى اناء من البللور ، وهذه الابتسامة التى تصنع عيدا للقلب ، وتبرز عند ظهورها سحر الغمازتين المذابتين فى صحن الشفق نظر خليل اليها وأحس انه ما حلم قط الا بهذه المرأة ولا هفهفت اشرعة الفؤاد الا اليها .

كانت بدور بسيطة ، عفوية التصرف ، دعته الى زيارة بيتها وأهلها . فلما تأخر الوقت هيأت له ان ينام فى فراشها ، فقرر من تلك اللحظة ان يبقى مع الفتاة واسرتها بضعة أيام ، متناسيا قصره وأميرته . وذهب خليل وبدور فى رحلة استكشاف فى الجبل ، ووجدا نبع ماء ساخن فنزعت

الفتاة ثيابها وسارت عارية تتلألأ كموجة من الضوء ، واخذت تغتسل وتضحك وتعبث بالماء وتدلك اعضاء جسدها الحميمة . ثم دعته الى ان يشاركها الاغتسال ، فدخل الماء وهو يشعر انه يدخل طقسا يطهره ويعيد خلقه . وحين ضمتهما غرفة النوم ، اطلعته على كنوز جسدها جميعا ، فصارا من بعد عاشقين .

وجد خليل ان بدور هى المرأة الاستثناء ، جاءت مطابقة لامرأة ترقد صورتها فى قاع الذاكرة ، هى ساندرا . لها نفس التحرر والعفوية ، ونفس النظرة الى الحب والجنس . رأى فيها مايراه هو من أن الحب له وجود مادى مثل غلالة رقيقة تغطى الناس والبيوت . علاقة تربط بين الانسان والطبيعة وبين الانسان والانسان . وما العلاقة الجنسية الا استجابة لهذا القانون . ليس الجنس مجرد تنفيس عن طاقة مكبوتة ، وانما مصدر من مصادر السعادة ، يحرص الناس على اغترافها بحاسة سادسة مصنوعة من الشفافية والتربية الروحية وثراء العوالم الداخلية .

ومن جديد يسعى خليل الى أن يضم صورة المرأة الأم الى صورة المرأة الطلقة ، كان يرى نرجس القلوب لا تتخلى عن سمت الأميرة ومظهرها ، فيسألها احيانا ان تنسى انها الأميرة لكى تنطلق على سجيتها . كان بهذا يعبر عن رغبة سرية فى أن يرى بدور وقد حلت فى شخصية الأميرة ، واضافت اليها شيئا من روحها المنطلقة المتحررة من التقاليد . ولكن الأميرة كانت تدفع باستحالة هذا : هكذا خلقت ونشأت ولم يعد بامكانها ان تتغير .

يقوم صراع فى نفس خليل ، بين الشعور بالاثم لأنه يخون المرأة التى منحته مدينتها وقلبها وجسدها وهيأت له ان يبذر فى رحمها بذرة طفل ، لم يستطع فى بلاده أن يحصل عليه ، وبين المرأة التى اعطته كل شىء : جسدها وروحها الطلق ، ونظرتها العفوية للأمور ، ثم فتحت له أبواب الراحة من هذا العناء بقولها ان علاقته بها لا تتعارض مع علاقته بالأميرة . فتقاليد المدينة لا تغضب على علاقتها به . بل انها تريد ان تبعث تقليدا قديما للمدينة يجعل من حق من تشاء ان تنجب طفلا من صلب الأمير تذهب اليه وتطلب اليه ذلك . وهو اتصال لا يباح الا مع الأمير القادم من الصحراء ، لأن المرأة بهذا تحصل على طفل يرث اسرار ابيه وكرامته وعليه فإن بدور تطلب ان يمنحها خليل هذا الطفل . قالت له هذا ، وقالته من قبل امام امها وأبيها دون ان يشعر احد منهم بالحرج .

أكانت بدور شيئا آخر ، غير المرأة الطلقة المحررة من قيود الأعراف وغير الخاضعة لقوالب التزمت ؟ هل كانت أيضا المرأة المغرية التى تقود رجلها الى المخاطر عبر فضولها الذى لا ينتهى ؟ حين ارتها الأميرة نرجس القلوب — بعد الحاح — الغرفة المغلقة ، مضت تسأل خليل عن كنه هذه الغرفة : أهى سجن قديم يحوى الجماجم والهياكل العظمية لضحايا الظلم فى عهد سابق ؟

هل وراء ابوابها نبع ماء يعيد الشباب المفقود ؟ كانت بدور تضج بالرغبة فى فك اسرار النقوش والرموز التى تعلو أبوابها . وكإحدى السيرنات الاغريقيات القدامى ، سمع خليل غناءها قادما من وراء أبواب الغرفة . عجب كيف استطاعت بدور أن تلجها ، وعاوده الشوق الى رؤيتها ، فجاء بفأس وحطم الباب ، وولج الغرفة فلم يجد أحدا ، وجد كهفا على بابه كتابة واضحة تحوى تحذيرا للأحمق الذى ولج الغرفة الى أن يعود من حيث أتى . ولكن غناء بدور الجميل يتدفق مجلجلا ، استعمل خليل الفأس فى ازاحة دائرة من الجبس والحجارة تحيط بالباب ، ثم فتح الباب بكل ما تأتى له من قوة . وهنا بدأ هواء أصفر ، ساخن ، كريه الرائحة يلفح وجهه ويلهبه . عم الفزع الناس ، وصاحت الأميرة نرجس : لماذا ؟ لماذا ؟ كان خليل قد انبأها انه هو الذى ارتكب الفعلة الشنعاء .

تحققت الكارثة وضاعت مدينة عقد المرجان : المدينة الفاضلة الجميلة . اضاعها ذلك العطب الأصيل الذى ظل على مدى التاريخ يشعل الحرائق ويصنع الحروب ويبيد البشر . ما ان يرى انجازا بشريا حقق اكتماله وجماله ونضجه حتى يلطخه بالدم والصراخ . ادرك خليل انه لم يكن ضحية الغرفة السرية وحدها وانما ضحية غرفة سرية أخرى مدفونة فى كهوف الذات . لم يدمر هذا العطب المدينة وحسب ، بل دمر نفوس أهلها كذلك ، بما باح لهم به خليل من انباء الحرب والقتال فى البلاد التى سقط منها الى هذا الجيب المنسى من التاريخ من مدينة عقد المرجان ، وجعل اهلها يصنعون مدفعا ، ويطلقونه ويبتهجون بنجاحهم القتّال هذا .

عندما افاق خليل من حلم المدينة الفاضلة ، وجد نفسه فى الصحراء ، هاربا ، عائدا الى بيته . وجد زوجته فاطمة ترتدى ثوبا منزليا فضفاضا ، بدا له انه الثوب نفسه الذى كانت ترتديه قبل ان يترك البيت . وألفى الجزء من الأول من الف ليلة مفتوحا فوق طاولة صغيرة بمدخل غرفة الاستقبال كما تركه منذ عام مضى . عجب أشد العجب وتساءل : هل دخل العالم فى كبسولة « اللا زمن » ثم توقف ليسمح له بالعبور الى المدينة الأسطورية وانتظره عاما كاملا حتى يعود ، فيعود الزمن الى مساره من جديد ؟

قالت له فاطمة انه لم يغادر البيت الا ساعة واحدة فقط . فهل كل ما رأى وجرى له فى مدينة عقد المرجان مجرد حلم ؟ لتكن هذه الرحلة الباهرة ، المثيرة حلما أو رؤيا . لتكن سرا ، أو الهاما ، أو معجزة ، أو دقيقة احتوت فصول العام . فلن ينسى ابدا نرجس القلوب ، الزهرة الملكية التى اثملته بأريجها واضاءت بنورها سماء القلب . لن ينسى « بدور » ، عصفورة العشق وقيثارة اللحن القادم من سقف الكون ، ولن ينسى اغنياتها الموشاة بالوان الفجر التى غنتها بعد ان تحررت من اطار الجسد واتحدت بموجات الضوء والهواء . لقد عاد من رحلته مملوءا بالدهشة

والانبهار ، لأنه نفذ الى المطلق ، واترع قلبه من الينابيع التى تصنع الفرح الدائم ، الذى لا يعرف الانسان بعده جوعا ولا عطشا ولا مرضا ولا حزنا .

فى الرواية الثالثة : « نفق تضيئه امرأة واحدة » يظهر مرة ثالثة نموذجا المرأة اللذان صارا يعيشان فى قلب خليل وروحه . هذه المرة تدور الأحداث على أرض الواقع . ذلك أن الثلاثية هى قوسان واقعيان يضمان فيما بينهما فانتازيا مدينة عقد المرجان . يتعرف خليل هنا على سناء ، المعيدة بكلية الصيدلة بالجامعة . كان قد تخلص من عقده واكتئابه ، وارتدت اليه عافيته النفسية ، وصار يخالط الناس ويعايشهم وهو الذى ظل ردحا طويلا من الزمن ينفر منهم ويلزم حدود نفسه ، أصبح اكثر قدرة على الاتساق ، وافاد من تجربة « عقد المرجان » فى النظر المتوازن الى الأشياء . لا يقف عند المظهر الخارجى للطبيعة وسكانها من حيوان ونبات واشجار وأزهار ، بل هو قادر الآن على التحاور معها والتقاط اللغة الخفية التى تتكلم بها الكائنات .

كان قد خرج فى ساعات الفجر الأولى ليشهد مولد الشمس . غمره شعور خفى بأن ذلك اليوم سيكون بداية زمن جديد . شملته حالة اشراقية لم يجد لها تفسيرا الا عندما تنبه الى وقع اقدام خلفه ، والى صوت نسائى جميل ، يعرفه تمام المعرفة ، يقول له : صباح الخير دكتور خليل . استدار يرد التحية فرآها . رأى سناء ، وما ان وقعت عليها عيناه حتى تسمر مكانه ، مصابا بصعقة الذهول . اغمض عينيه ونفض رأسه كأنه ينفى عنه حلما غريبا من أحلام اليقظة . فتح عينيه وهو واثق ان الحلم قد اختفى . وأن المرأة التى قالت صباح الخير قد تبخرت . ولكنها كانت هناك ، تحتضن حزمة من الأغصان والأزهار ، تماما كما كان يراها وهما يتجولان فوق جبال عقد المرجان . وقفت الفتاة ببهاء قامتها وجمال عينيها المضيئتين ، تنظر فى وداعة اليه . ساءل نفسه . ساءل الجبل والأشجار والصخور والطيور : هل يمكن أن تكون « بدور » قد جاءت من عالمها الأسطورى وابنثقت فجأة بين الصخور والأعشاب ؟ .

تذكر الآن انه عرف الفتاة حين كان يقدم محاضرة عن الف ليلة ، وانها سألته عما اذا كان التعبير الحر عن العواطف كما تقدمه « الليالى » قيمة سلوكية فى الحياة العربية القديمة وتقليدا من تقاليد الثقافة الشعبية ؟ واذا كان الأمر كذلك فمن اين جاء هذا التطرف فى قهر العواطف وكبتها حتى أصبح التنكر لعواطفنا عرفا سائدا فى الفكر والسلوك ؟ عرف انه حمل وجه سناء معه فى رحلته الى مدينة عقد المرجان . لم ينقل الوجه فقط ، أو القامة ، أو الصوت ، وانما نقل ثورة الروح وتوهج المشاعر . كانت الأسئلة كثيرة فى المحاضرة . تكلم خليل بحرقة واحساس بالفجيعة والضياع . وتكلمت هى عن قوة الحياة التى يجب ان نواجه بها الموت . ولما فاجأته جرأتها ونبرات صوتها ، رفع رأسه يبحث عنها . وحين رآها أحس أنها المرأة التى ظل طول عمره ينتظرها . ها

« هى ذى تظهر بعد فوات الأوان . بعد أن مات الزرع وانتهت مواسمه ، فطوى أوراقه وغادر القاعة وقرر أن ينساها .

ولكنه لم ينسها . حين فارقته بعد نقاش طويل حول النبات وخواصه الطبية ، وحول حرية المرأة ، وعسف الرجل ، وحول تماثيل العصور القديمة وحكاياتها الموزعة بين الحزن والفرح والحب ، آوى الى فراشه فاذا به يحس بحزن ممض ، قابض يفترسه . حزن لقيط ، لا أب له ولا أم.. لم يستطع ان ينام وبكى بكاء طويلا ، صامتا ، احس بعده بالارتياح . فلما جاء وقت السمر ــ وكان خليل وسناء ضمن جماعة من الكلية قامت برحلة الى المناطق الأثرية ــ رآها ترقص فترقص معها ألسنة النار . استحضر فى ذهنه صورة لمعابد النار ، وجعل من سناء إلٓهة تضىء الكون بنارها المقدسة ، وأصبح هو راهبا مجوسيا يصلى خاشعا لها ، يرقب فى وله هذا النور الذى يدور راقصا فوق جبينها وخديها ، ويتابع ارتجاجات نهديها وهما يتقافزان كطائرين من طيور النار يحرقان قميصها . أحس ان ما مضى من العمر لم يكن الا رحلة حج الى مجد بهائها . شعر بالفرحة تبعث فيه ميلادا جديدا . راقصها ، وأراد لناره ومائه وهوائه وترابه ان تتبارك بهذه العناصر فيها ، وتصنع لهما وجودا واحدا لا يقدر الزمن على تفريقهما . راقصها واخذ يضبط ايقاع جسده على ايقاع نهديها ويلثم شعرها الذى كان يضرب وجهه .

التحمت صورة بدور بصورة سناء ، واصبحتا امرأة واحدة ، ورؤيا واحدة . وصل الانجاز مرتبة الكمال ، وأصبح ممكنا ان يخرج الوحش من مكمنه ، ويحطم الصورة ويلطخ الجمال ، ويضع مكانهما أبشع الفعال . كان خليل قد خطب سناء ، وأخذ كلاهما يستعد للزواج الوشيك . دعاها الى بيته الذى فر اليه بعد طلاقه لفاطمة ، وحين وافقت بعد تردد ، وخلص اليه جمالها العبقرى تحرك الوحش الذى يسكنه . رآه ينسل من جسده ويأخذ يمارس طقوسه الهمجية معها : يلوى عنقها ويثنى ذراعها ، ويجثم فوقها يمزق عن صدرها القميص وحاملات النهود ليبدأ وليمته الوحشية . اغتصب خليل خطيبته قبل ان يتزوجها . لم يكن يفصله عن التواصل المشروع معها الا أشهر قليلة . ولكن رغبة الوحش فى التدمير كانت أقوى من أن تجعله يستمع الى صوت العقل .

أكان الوحش وحده ما دفع خليل الى هذه الجريمة البشعة ؟ لا . ليس الوحش وحده . هناك شعور بالتدنى كان يلازمه اذا ما قارن نفسه بسناء . كان يشعر بالنقص امامها ، ويرى نفسه تدور وتذوب فى دائرة الضوء المحيط بها . كانت هى الجانب الأقوى ، الأكثر طغيانا ، وجمالا ، وقوة جاذبة مسيطرة . من أجل أن يؤكد ذاته وذكورته وأنه من سلالات الفحول اجداده ، ذهب ونام مع سعاد : فنانة وامرأة عامة تبذل جسدها لكل من تعجبه ويعجبها . امرأة اللهو واللعب

والبنطال الذى يخلع كرما وشهامة. امرأة نزعت من فوق جسمها قشرة الكذب، وأعلنت ولاءها لعناصر الطبيعة الأولى ، وجعلت من ارضاء الحس هدفا وحيدا فى الحياة . لماذا يدعى خليل أنه يعافها ؟ انها هى الأنثى الحقيقية ، وما سناء التى جعلته يركض بين تخوم الجنة والجحيم الا صورة مزيفة عنها . ها هنا يكمن السبب الأقوى لهذا العدوان القبيح على سناء . لقد رأى فيها صورة بدور المرأة المعطاءة ، المتحررة ، ولكن سناء كانت متحررة فقط ، ولم تكن معطاءه . ومن هنا اهتزت الوحدة التى حاول بها خليل ان يقترب من سناء ويجعلها المرأة الوحيدة التى يهفو اليها قلبه والتى حلم بها طيلة حياته .

وتهتز بدورها تلك الثنائية التى قبعت فى روح خليل وجعلته يلتفت تارة الى المرأة الأنثى الأم ، الوافرة الجسد ، والمرأة الطلقة ، التى تعطى دون ان تكون راغبة فى الأنوثة ولا فى دور الأم . ومن ثم يتطلع خليل الى امرأة معطاءة لا توفرها له سناء ، ولا يجد الا نموذجا مشوها وعطنا لها فى سعاد ، التى ان امتلكت تحرر الجسد ، والتمرد على المواضعات فانها لا تستطيع الا أن تكون امرأة مبذولة لكل من يهواها وتهواه .

سقط خليل اذن . سقط من حالق كما سقط ابوه الأول آدم . سقط لأن « الخطيئة الأولى » تلازمه منذ البداية . عبثا حاول أن ينسى تلك الخطيئة او يتفاداها فى الرواية الثانية . تلك التى هرب فيها من الواقع الى الفانتازيا ، وعاش أحداث « ألف ليلة » اخرى ، تشبه من قريب تلك التى سكنت روحه منذ البداية ودفعته الى الانشغال الدائم بهذا العمل الكبير . والواقع ان « هذه تخوم مملكتى » هى الف ليلة جديدة ابدعها الكاتب وجعل منها كهفا من كهوف الزمن داوى فيه خليل جراحه وانتصر عليها فى الخيال ، ثم مالبثت ان وجد النصر هزيمة والخيال وهما ، والحقيقة اقوى وابشع من أن ينجو منها .

اذ ذاك يعترف خليل بالهزيمة . يقرر ان يلعب اللعبة السائدة على أرض الواقع . سيفعل كل ما يفعله عبد القادر أمين ، الذى يخبىء فى جيوبه القصور والمزارع والنساء الجميلات والأكاذيب المدهشة ، وسيصبح عضوا فى شبكته . سيكتب الحلقات الاذاعية لرشيد غانم ، تمجيدا للتشويه الجميل واكداس القبح التى تملأ المدينة . سيشرب كثيرا ، ويحكى فى السهرات نكاتا جنسية عن الرجال الذين يضاجعون الجنيات ، يحكيها على نحو ما كانت تحكى شهرزاد ، معطيا نكاته غطاء اكاديميا . سيغادر الجامعة سعيدا ، بعدما وصله نبأ الغاء اللغة الانجليزية واقفال قسمها ، واعتباره زائدا عن الحاجة . سينضم الى المبدعين الحقيقيين الذين حققوا معجزة البقاء عاطلين مع تقاضى الرواتب من خزانة الدولة . سيلتقى بسعاد : امرأة لايخيفها الاغتصاب ، لأنها ادركت منذ البداية ان الاغتصاب هو شريعة الحياة . سيتصالح مع الرجل الآخر فى نفسه ،

الذى كان خصامه معه سبب ابتلائه بالعلل وانشطار الذات . سينبذ مدن الحلم والأسطورة ، ولا ينتمى الا لظله ، ولا يزهو الا بهذا العطب الجميل الذى أصبح وساما يتلألأ فى ضوء الليل . سيعيش بين زمن مضى وزمن آخر لا يأتى ، ولن يأتى . وبينهما حفرة لا تلمع فى سقفها النجوم الكاذبة ولا تنبت فى أرضها زهور الغواية . سيعرف الحفرة بفضل هداية الرجل الآخر الذى صار صاحبه ومرشده فى رحلة العمر . سيسقط فى الحفرة سقوطا جميلا ، يليق بإنسان يعتنق فلسفة اللهو واللعب . سيسقط وهو يضحك ويغنى ، ويرقص معانقا ظله . هذا هو زمنه الثالث : زمن السقوط والفخاخ والأقنعة والطحالب . زمن الرعب الجميل ، الجميل ، الجميل .

يظل عطيل هو الشخصية الأقرب تمثيلا لحال خليل . لم تكن اجادته تمثيل الدور مجرد صدفة . انه بعض من عطيل . مثل المغربى النبيل ، عُرض عليه مثال للجمال والطهر والبراءة فلم يفهم العرض ، ولا هو قَدرَّه حق قدره ، بل سعى بحمق كبير الى تدميره ثم انشأ يبكى على الحطام تحت قدميه . مثله استجاب الى غواية الشخص الآخر — البدوى داخله — اياجو التى سكن روحه ولم يكن مجرد شرير يعيش خارج هذه الروح . مثله ارتكب جريمة لا مبرر لها ، فأهان نفسه وقتلها قبل ان يقتل الغير .

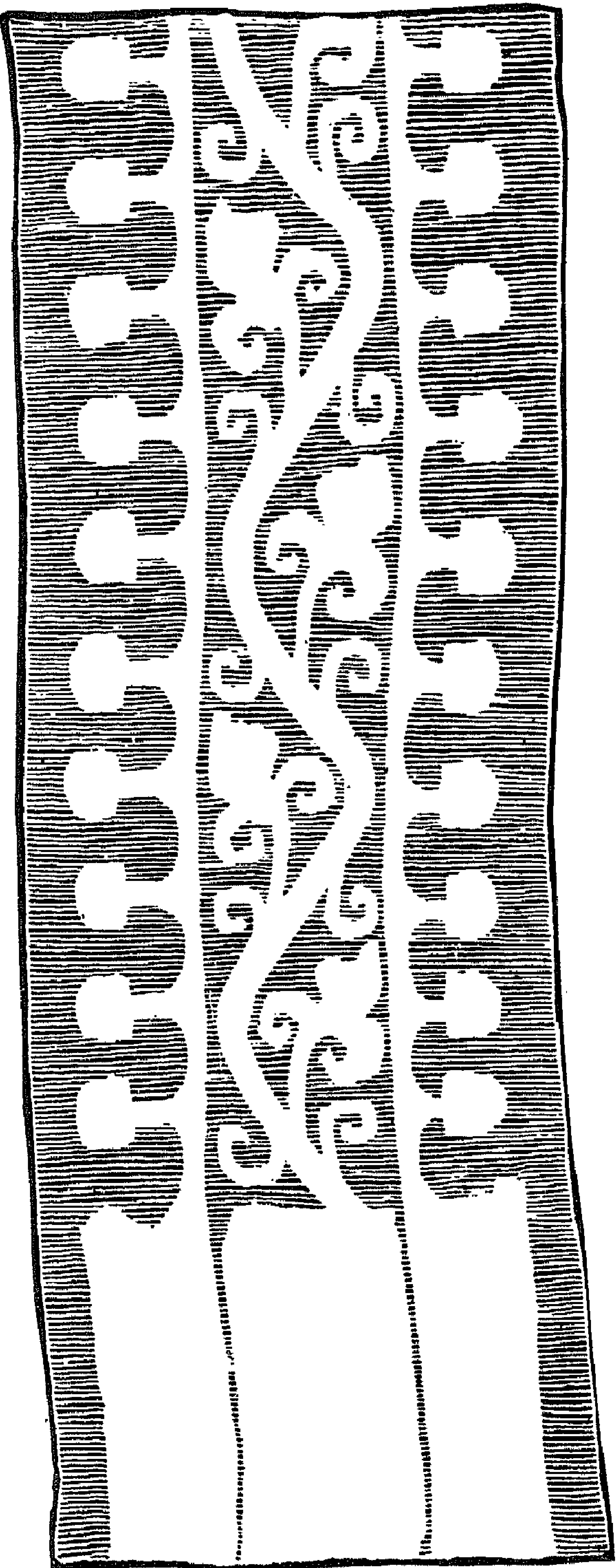
قتل خليل نفسه ثم اخذ يهذى بأنه سيفعل وسيفعل وسيفعل ، وسيرتضى السقوط سيرة ، ومهمة ، واسلوب حياة . غير اننا لا نصدقه . ما قاله كان الهاب الجسد بالسوط واحداث الجراح فى الصدر الذى يمارسه اهل الشيعة خلال طقوس التعزية ، تعبيرا عن ندم لا ينتهى . اما الخير فى نفسه فكامن ، والسقوط المدوى احتجاج فاجع على مدى سقوط المجتمع الذى يعيش فيه .

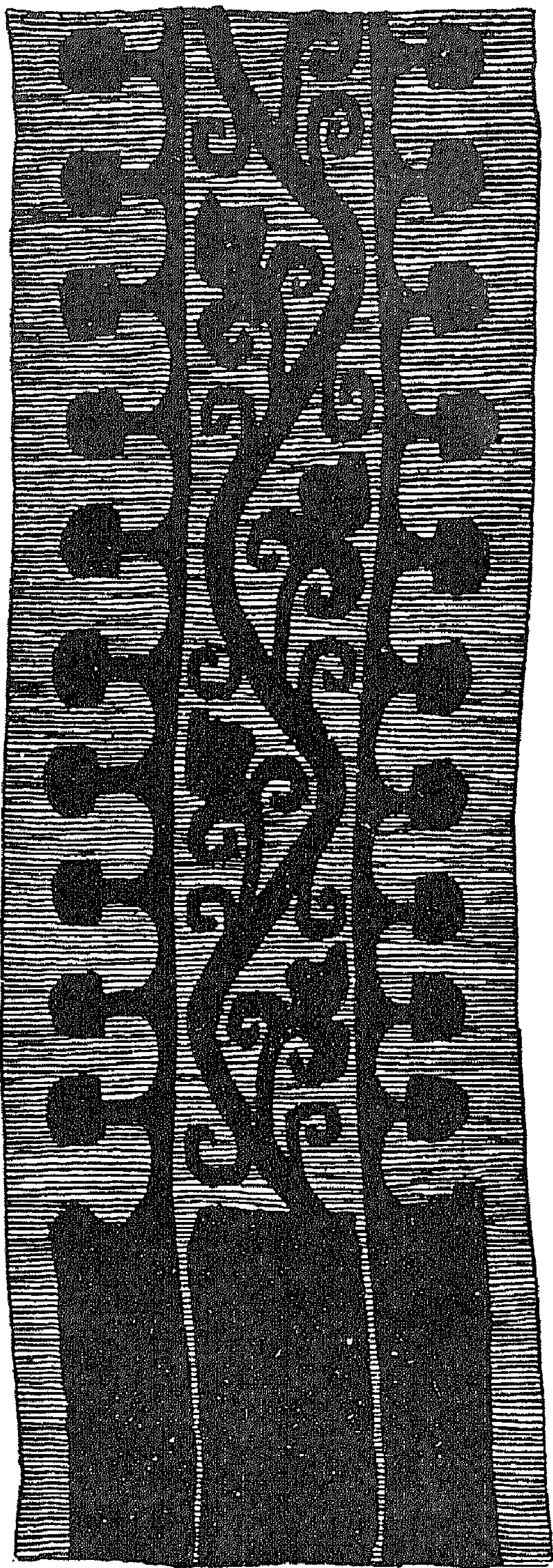
تعرض الثلاثية لموضوع مألوف فى أدبنا الحديث منذ كتب يحيى حقى : « قنديل أم هاشم » وانكفأ توفيق الحكيم يبكى على اطلال ماضٍ جميل خبره فى الغرب ، ومنذ ان كتب الطيب صالح « موسم الهجرة الى الشمال » . وسليمان فياض روايته القصيرة الدالة : « اصوات » التى تشارك الثلاثية تصوير المصير الذى انتهى اليه المجتمع البدائى لدى اصطدامه بالغرب . فى الثلاثية وفى « أصوات » انتصر المجتمع البدائى بطقوسه الهمجية ، وذهبت مثل الجمال والانسانية ، والشعور المرهف ضحية لهجوم القبيلة على الفرد الذى تجاسر على اقتحام تخومها . وفيها ندم وتفجع على أن هذا قد حدث . وفيهما أيضا تحذير قوى ومبطن من مغبة اللقاء غير المتكافىء بين حضارتين متباينتين .

غير ان الثلاثية تمتاز من هذه الأعمال جميعا بأنها تغترف اغترافا خلاقا من جمال وجلال الف ليلة وتفيد من هذا الاغتراف فى تصوير مدينة فاضلة ، لا ضرائب فيها ، ولا مكوس ، ولا كره ولا

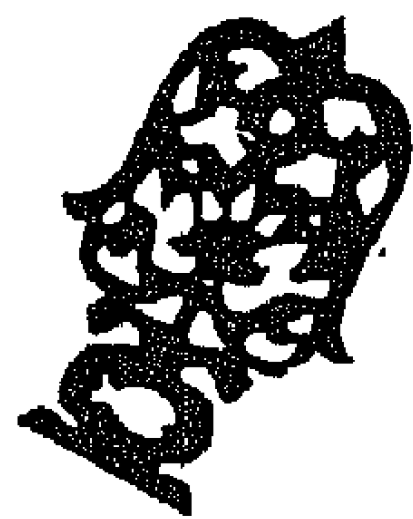
اكراه ، ولا نزاع على لقمة العيش ، ولا فرض لعبودية العمل على الناس . مجتمع موفور الصحة النفسية والعقلية ، يعيش فى عيد كبير متواصل ، لأنه نزع جذور الشر من أرضه ، وترك للانسان انسانيته . وظل يعيش فى هذا الفردوس الجميل ، حتى جاءه من خارجه من يحطم هذا كله ، وحتى انبثق من داخله من أصر أن يعرف السر المحرم .

هذا عمل كبير ، وفاتن ، وشاعرى . ان يكن التطويل قد شابه ، والالحاح على الجنس قد تمشى فى بعض اجزائه ، فان الكاتب بالمقابل قد أفلح فى خلق عمل فنى احتمل الأفكار الكثيرة التى احتواها ، ومشى بها حراً ، طلقا ، دون أن يفقد الفن من جراء الفكر طلاوته وجذبه وعذوبته .





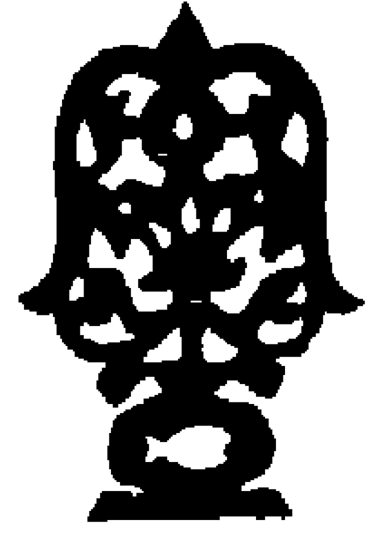
المغرب العربي الكبير



الرواية في تونس

عائشة

البشير بن سلامة



يقول كاتب « عائشة » فى مدخل روايته : انها ستكون مزدحمة بالشخصيات ، ولكنها سوف تستقطب أربعة منهم : عائشة وعلى وعادل والناصر . اما ان الرواية حافلة بالشخصيات فهذا حق ، وأما أنها تستقطب أربعة فقط تدور حولهم احداثها فأمر لا يسنده واقع الرواية . انها تحمل اسم عائشة لأمر لا يمكن تبريره ، فالواقع انها — فى اجزائها الأولى — رواية الطاهر وعادل ، لما يدور بينهما من صراع معلن وخفى ، وهى فيما تلا هذا رواية زبيدة والطاهر ، ثم زبيدة وسكيلة ، وأخيرا هى رواية عائشة التى تختم حياتُها الفاجعةُ الأحداث .

يظهر الطاهر من أول الرواية ولداً ، قلق الروح ، شديد الطموح ، يأنف من الحياة فى القرية التى ولد بها ونما حتى بلغ اليفاعة ، ويريد ان يرحل الى تونس حيث الحياة الراقية ، والخير الكثير . لهذا يضع خطة تفشل وأخرى تنجح للهرب الى العاصمة . فى المرة الأولى يقبض عليه عمه وقد اقتعد مكانا فى القطار المتجه الى العاصمة ، ويلقى بحاجاته من نافذة القطار ويبيع تذكرته وتذكرة صديق له قرر هو أيضا الهرب ، ثم يعيد الاثنين ذليلين الى القرية . وفى المرة الثانية يهرب الطاهر بليل ، ويقطع المسافة الطويلة من القرية الى العاصمة على ظهر عربة بضائع يجرها بغل ، ضمن قافلة من عربات مماثلة تقطع الطريق فى ثلاثة أيام لاق فيها طاهر الأمرين . وفى العاصمة اتصلت حياته ثلاث سنوات قضاها فى رحاب جامع الزيتونة ينتقل من حلقة الى حلقة ، يتعرف الى دقائق التعليم ونوادر المشايخ . غير أنها حياة لم تثمر شيئا ، لاق فيها من الذل والمهانة ما جعله يفكر مرات فى الرجوع الى قريته ، لولا خوفه من هزء الناس به . وبلغت به الذلة أن بال عليه كلب واحدة من الأوروبيات اخذت تضحك وهو يحتج على فعلة كلبها . فلما أبلغ ابن عمه الشيخ حسن ، الذى كان يسكن عنده ، بما حدث ، قال له هذا ، ابشر ، فانك مقبل على

خير كثير !

غير ان هذه الحياة التعسة لا تدوم طويلا . فان والد الطاهر يكبس غرفة ابنه ذات يوم ، ويلقى ابنه غاضبا مهددا . لكن الولد لا يساق الى القرية مرة أخرى وانما تنتظره حياة ناعمة لم يكن يحلم بها فى أكثر احلامه وردية وتفاؤلا . من أجل هذا سمى البشير بن سلامة هذا الفصل : « باب العرش » ، وهو أول فصول الرواية الأربعة . وقصد بباب العرش باب السماء الذى يفتح للمحظوظين على غير انتظار .

يأخذ والد طاهر — واسمه « أبا محمد » — ابنه الى صديقه الاقطاعى الكبير واسع الثراء « الفريك مصطفى » ، فيلقاه هذا الثرى احسن لقاء ويعلن انه سيكون صنوا وصديقا لولده عادل . فمنذ اللحظة قد أصبح للفريك مصطفى ولدان : طاهر وعادل . ويعرف الرجل الشابين أحدهما الى الآخر ، وتقوم على الفور صداقة بين الاثنين . ويرى الطاهر كل هذا النعيم فيرتج عليه . يريد ان ينجو بنفسه منه . لقد عاش الفساد والضنك فيما انصرم من عمره ولم يسمح لهما بأن يلوثا نفسه ، أما هذا العيش المترف فما أشد خوفه على نفسه منه . يخشى على نفسه الزلل . غير أنه لا يملك ان يرفض . وابوه على كل حال ، لا يدع له فرصة الرفض . لقد أصبح فى التو واللحظة من أهل البيت ، ومن ذوى الحظوة فيه . وفى هذا الباب ، وفى الباب الذى يليه ، « باب الخضرة » يزداد استيلاء طاهر وعادل على مجرى الأحداث ، التى تتمحور حولهما . يشترك كل منهما فى الاعجاب بفتاة رقيقة الحاشية عذبة الطلعة اسمها زبيدة . لا يلبث اعجاب الشابين بالفتاة ان يتحول الى حب . وكانت زبيدة فى السابق ابنة رجل ثرى من الاعيان . وكانت امها فائقة الحسن ، ارادها أحد البايات لنفسه ، ففشل فدبر لزوجها مكيدة أودت بحياته . وظن « الباى » ان الفرصة اصبحت سانحة لامتلاك الزوجة ، غير ان مكره افتضح ، ودبرت الزوجة الأرملة مكيدة للرجل راح ضحيتها كل منهما ، صودرت املاك العائلة والقى بأفرادها فى السجن ، فكفل الفريك مصطفى زبيدة وهى بعد رضيعة فشبت واستوت فى كنفه حتى أصبحت هذا الكائن الرقيق .

وذات يوم من أيام الشتاء باح عادل لصديقه الطاهر بسر مكنون : انه يحب زبيدة ، ويود لو توسط له الطاهر لديها كى تعرف تحبه وتبادله الود . اذ ذاك ينتفض الطاهر ملسوعا ويهدد صديقه بأن يقص امره على ابيه ، فعلاوة على انه هو نفسه كان يحبها ، كانت المخاوف تساوره بأن صديقه لا يحب البنت ابدا ، وانما مراده ان يعبث بها . وتجمع لطاهر كثير من المعلومات عن حياة عادل الجنسية ، ولياليه الحمراء خارج القصر ، وعبثه بثلاث من خادمات القصر هن الفتاة الغضة علجية ، والمرأة ربح ، التى كانت امرأة متزوجة تعمل فى خدمة أحد البايات فهفت نفسه

اليها ، وفطن زوجها الى هذا فقتل الباى وشُنق لقاء جريمته فذهبت ربح للعمل فى قصر الفريك مصطفى ، الذى أسلمها الى ابنه عادل لتخدمه ، فكانت تفعل هذا وترضيه بالسوى والشاذ من السلوك على حد سواء . اما الثالثة فزوجة البستانى ، شابة فى العشرينات فياضة الحيوية ، تطرق باب سيدها كل صباح وتطعمه من ثمار البستان وثمار جسدها معا .

يدافع عادل عن نفسه امام الطاهر فيقول موضحا سلوكه : انا يا طاهر ضحية المجتمع الذى اضاع قيمته الانسانية ، ولم يقدر على الايمان بقيم هؤلاء القوم الأجانب الذين يحكموننا اليوم . انا غير قادر على أن أحب كما كان يحب اجدادى ، ولا أن أؤمن ايمانهم ولا أن اجاهد سياسيا جهادهم ، ولا أن أكون اديبا مثلهم . انا الذبذبة بعينها والخذلان المجسم . واكثر من هذا ، يا طاهر . انا انتمى الى الحركة النضالية فى واجهاتها العديدة : فى التجمعات التى تنتمى اليها جماعة الصالونات . والأخرى الملتحمة بالطبقات الشعبية ، وأنا أتأرجح بينها ، ولا أجد فيها من يأخذ أقوالى بجدية . ولقد حاولت ان أسير بالقصر سيرا آخر فى أول أمرى ، ولكن أبى لا يريد ان يشركه أحد فى سلطانه الطاغى ، بل يجب ان نكون كلنا عبيدا له . ولم يكن فى مكنتى ان اثور عليه فهو أبى ، والمال ماله ، لهذا استسلمت لعيشة الدعة والخنوع التى يشجع عليها كل شىء فى المجتمع . تمنيت لو كنت طليقا من كل القيود التى تربطنى بهذه الطبقة من التونسيين ، ولكن ليست لى شجاعة ان اغامر بخسران كل شىء . انا جبان ، جبان يا طاهر .

اما طاهر فسرعان مازايله تردده القديم فى الاستمتاع بالثراء والجاه . سرعان ما بدا يظهر فى أوساط الأعيان ، ويستضيفه هؤلاء مع ولى نعمته الفريك مصطفى ، بل انه « تشرف » بالمثول أمام الباى وقبل يده . وكلما ازداد تغلغلا فى العائلة اكتشف مشارف أخرى من الحضارة ، وأصبح ذواقا للجمال والفن والأدب واللباس والكلام المنمق ، بل وصل به الأمر حد اظهار الاحتقار للخدم والعملا أسوة بأسياده .

وتفانى طاهر فى خدمة الفريك مصطفى وقامت علاقة وثيقة بينه وبين زبيدة ، التى ألمحت الى أنها ستتزوجه لو تقدم لها . ويتقدم بالفعل ويقبل الفريك مصطفى من فوره . بهذا انتهى ذلك العهد الذى كان يحلم فيه الطاهر بتغيير اوضاع الناس ، وبالسير فى الحياة سيرا مستقيما مهما تقلبت به الأمور . ضاع الأمل — كل الأمل — فى الثورة ، ولو فرديا — على الظلم والفقر بالوسائل الشريفة . وكان الطاهر قد انشأ علاقة غير شريفة مع « دوجه » المرأة المكلفة بخدمته والتى كانت المرأة الوحيدة التى تدخل جناحه . عن طريق هذه العلاقة عرف الطاهر اسرار الحياة السرية لعادل ، وعلم بمغامراته التى تقدمت الاشارة اليها ومن ثم استخدمها فى كسر شوكة عادل ، وتأمين علاقته بزبيدة وبصاحب القصر ، ومع ذلك ظلت علاقته بدوجة نقطة سوداء فى

حياته . اخذ يوبخ نفسه لانحدارها الى دركات النذالة والخنوع وقال : الله يرحمنى . لقد مات طاهر وولد طاهر آخر . دخلت من باب العرش نظيف النفس ولم البث ان ولجت باب الخضرة ثابت القدم فى حياة الدعارة والفساد والخذلان .

تحطم الصديقان الخصمان كل بطريقته الخاصة . ضبط عادل فى اجتماع للقمار واودع السجن ، فكان الطاهر يذهب الى السجن يوميا لمواساته . ولم يمنعه هذا الصنيع من أن يهجر خليلته دوجه ، ويرث عن عادل حليمة ، التى كان يواسيها هى الأخرى ويمسح لها دموعها ، ويعوضها عن جسد صديقها خير عوض ! ثم ولدت لطاهر ابنة جميلة اسماها عائشة ، اصبحت سلوى كل من فى القصر ومصدر البهجة فيه ، وقرة اعين كل من يكربه كرب . بل كانت الفرحة الكبرى بالنسبة لعادل الذى وجد فيها مخلوقا بريئا طاهرا لم تدنسه الحياة بأدرانها العديدة .

فى الباب الثالث من الرواية واسمه : « باب سطح » يصور الفريك مصطفى لطاهر حقيقة الوضع الذى تجد تونس فيه نفسها فى عهد الحماية الفرنسية وتحت حكم الباى الكبير واتباعه من صغار البايات . يقول مصطفى : ان الحكم فى هذه البلاد من ابشع ما رأى ، فهو لا يوفر الراحة والطمأنينة حتى لمن يخدمونه . هو — مثلا — رغم جاهه وثرائه ، ونياشينه التى تملأ قفة لا يقدر على رفعها من فرط ثقلها رغم هذا كله فهو من أحقر الناس عند الفرنسيين . والأمر كذلك فيما يخص البايات الذين ينتسب لهم الكبار من امثال مصطفى بالمصاهرة والخدمة هو معرض لغضبهم لأتفه الأسباب . والوشايات لا تنقطع ، حتى ان مصطفى عزل مرتين فى السر وأمر ان يلزم داره . اذ ذاك كان حتى الأصدقاء يمتنعون عن زيارته خشية اذى الباى . ان مصطفى من الحاشية وليس منها فى وقت واحد . هو حكم دون سلطة ، ومهرج بلا كرامة .

وحين يسأله الطاهر : ولم لا تترك الخدمة ؟ يقول : خشية المؤامرات . ان الخصوم قادرون على أن يصيبوه فى ماله. وفى ولده . فهى عبودية مُذَهّبة تلك التى يعيشها هو وأمثاله .

ويظل الطاهر فى هذا الباب يحاور نفسه ويلومها ، ويتبرم بحياته فى قصر الفريك مصطفى . صحيح أنه أصبح انسانا كاملا ، ولكنه انسان شقى . حياته مسطرة بالمسطرة . خط مستقيم لا ينتهى الا بنهايته . الحياة التى لايجد الفرد فيها مكانه هو فيها قطيع . قطيع يساق كما تساق الغنم ويحشر فى زمرة العبيد — هذا اذا كان فقيرا . اما ان كان ذا حظوة فهو عبد الطقوس والتقاليد والمراسم . عبد الطبقة الموسرة التى ينتمى اليها . ويتساءل الطاهر : متى يأتى الزمن الذى تكون فيه الحرية للفرد كإنسان كامل الانسانية ؟ لن تتحقق الثورة الحقيقية الاّ إذا قام نظام ليس فيه ظلم أو امتهان لأى فرد غنيا كان أم فقيرا ، شيخا أو شابا أو طفلا ، رجلا أو امرأة .

غير ان زبيدة كانت تكفكف من هذه الهموم والهواجس ، وتسير زوجها بكل لطف فى الطريق

الذى رأت أنه مفتوح له : ان يرث القصر وما فيه ، فعادل ينطفىء يوما بعد يوم وتتفاقم عيوبه وامه فقدت حتى صوتها ، والفريك مصطفى مأزوم وسلبى وعاجز ، وبالامكان ان يقضى الطاهر على عادل بسهولة واضحة .

الى هنا والشخصيات الرئيسية كلها واضحة المقاصد ، متماسكة ومقنعة بما تقول وما تفعل وان لم يعن هذا — بالضرورة — ان ما تقوله وتفعله ينبغى أن يحظى بالاحترام أو حتى بالتصديق ولكن — فجأة ودون مقدمات ، تسقط زبيدة بين احضان عادل ، وترتاد فراشه المرة بعد المرة . يحدث هذا ببساطة شديدة . تذهب زبيدة لتعود عادل فى غرفة نومه فقد سقط مريضا بعد ان صفعه الطاهر صفعة قوية ، وأهانه بقوله اننى لست خادم السيد الوالد ، وذلك حين طلب اليه عادل ان يشترى له سجائر وخمرا من تونس العاصمة . ذهبت زبيدة تواسى عادل وتمسح دموعه . ذهبت اليه وحدها ساعة القيلولة . جلست على ناحية من الفراش ، وجعلت تحادثه فاذا هو يجهش بالبكاء ويلومها على صدها الدائم له ، فتقترب منه وتهم بتقبيل جبينه ، فيمد اليها يده فى رفق ويحول القبلة الى فمه . فما يدرى الاثنان الا وهما ملتصقان اشد الالتصاق فى فراش واحد .

سقطة مؤقتة هذه ؟ لا . ان الزيارة تتكرر . وتحس زبيدة مع عادل بلذة قصوى لم يمتعها بها الطاهر قط ! تحس زبيدة بأن اتصالها بعادل أول مرة كان اكثر اثرا فى نفسها من يوم زفافها ! ترى اكانت تختزن له حبا لم يقدر له الظهور الا فى هذه المناسبة ؟ تقول الرواية عكس هذا تماما . تقول ان عادل اراد مرات استدراج زبيدة الى غرفته ولكنها تأبت عليه وذهبت تشكوه الى أمه ، فنبهت أمه عليه بأن يتركها وشأنها . وتقول الرواية أيضا ان زبيدة كانت تسوس زوجها وتقوده وتدفعه الى الطريق المؤدى الى ان يرث ملك الفريك مصطفى ، بعد ان تدهور عادل وأمه ، وفَقد الفريك مصطفى كثيرا من قدرته على الإشراف على أعماله .

فكيف يتسنى لزبيدة اذن ان تسقط فجأة فى أحضان عادل ؟ وكيف يتأتى لها أن تحمل منه وتلدا ولدا اسمه الناصر ، تنسبه فى جرأة الى الطاهر ؟ الواقع أن هذه الوقائع تسىء كثيرا الى مصداقية زبيدة ، وترش الوحل على الصورة الجميلة التى رسمها لها المؤلف فيما سبق هذه الأحداث .

ويتغير الطاهر كذلك تغيرا اساسيا . يفارقه كل ما كان يلوكه من رغبة فى الثورة وتغيير الأوضاع ، وتعاطف مع الكادحين والمعذبين ، ويصبح ، بعد موت الفريك مصطفى خاصة — وغدا متغطرسا . يعتبر زبيدة مجرد خادمة لا يكلمها الا فى القليل النادر . ويروح يتزوج من امرأة غزلة هى سكيلة ، ذات الأولاد الثلاثة : سالم وفاطمة والهادى . وكان الطاهر قد غادر قصر الفريك مصطفى قبيل وفاته ، وحشر زبيدة وعائشة فى مسكن ضيق اكتراه ، وحظر على زبيدة

وعائشة الخروج منه . وجعل كل همه ان يقتص من ابنه المدسوس عليه : الناصر . فلما وصلت نيران الحرب الى تونس . جمع اسرتيه وذهب يعيش فى القرية .

اما عادل فقد واصل تدهوره ، فدخل السجن بعد أن بدد ثروته فى القمار والفساد . ودخل السجن كذلك « الناصر » بعد ان ادين فى جريمة خلقية . فخلا الجو تماما للطاهر ، وامتد استبداده الى زوجته الجديدة سكيلة التى أصبحت ترهبه فلا يسمع منها الا : ايه يا سويدى . نعم يا سويدى !

فى الباب الرابع من الرواية : « باب الجنان » تتحدد معالم المأساة التى أصبحت تواجه عائشة . شارفت السادسة عشرة من عمرها ، وعلمتها الحياة ان تسكت ولا تنبس بكلمة مما يدور فى خلدها . لا تهتز لنبأ ولا لحادثة . تكتفى بالمشاهدة والأمل ، وتفرج عن نفسها بالبكاء . انتهز هذه الوحدة الخطرة « سالم » ، ابن سكيلة ، فجعل يتقرب الى عائشة ، بحكايات شبقة جمعها من الف ليلة ، وتلاقى الاثنان مرارا ، وعرفت عائشة لذة العشق الحسى ، ثم لم تلبث ان وجدت نفسها فاقدة عذريتها ، فأقسمت الا يمسها سالم من بعد الا اذا تزوجها . ويتقدم سالم بالفعل ، فترضى به زبيدة زوجا لابنتها عائشة ، بينما ترفض سكيلة هذه الزيجة ، فيهرب سالم ويتطوع فى الجيش الفرنسى المحارب فى الهند الصينية . وتبقى عائشة وحيدة تناوشها الاحزان ويهددها تواتر الخطاب . ثم يتقدم لطلب يدها شاب من اقرباء طاهر اسمه خالد ، يخدم فى الجيش الفرنسى برتبة وكيل ، وتقبل خطبته وتبدأ مراسم الاستعداد للزواج ، فتفتح الكارثة فاها واسعا لتلتهم عائشة وزوجها معا .. يهول الزوج أن زوجته ليست بكرا ، فيكظم الغيظ ، وينبىء اهلها ، ويقرر ان ينسحب فى صمت ثم يرسل اليها ورقة الطلاق بعد ان تهدأ النفوس .

ولما تهدأ العاصفة يتقدم للزواج من عائشة شيخ ارمل فى السبعين اسمه « المُكَنّز » فتقبله عائشة دون ان تفكر . وتعيش عائشة فى بيت زوجها عيشة المدلل ، العاطل عن العمل ، فيصرف هذا الخواء نشاطها الى أبناء أخى زوجها ، وتجد فى احدهم واسمه « الأزهر » خير رفيق لقطع الوقت ودفع الملل . ولا يلبث هذا الميل ان يتطور الى وصال جنسى عارم . ثم يشعر « الأزهر » بفداحة ما يرتكب فى حق عمه ، وزوجته وفى حق نفسه وفى حق المجتمع . فيعلن ندمه ويصارح عائشة بأنه شقى ، رغم انه ظفر بحبها وجسدها معا . انه فى الواقع قد هدم سعادته بيده مرتين . مرة يوم ظفر بجسدها ومرة أخرى حين لم يظفر بالزواج منها .

وترد عائشة قائلة : انا لم أعد الا جسدا فقط . لقد قتلوا فىَّ كل احساس بالكرامة . وأنا لا أكذب حين اقول لك اننى غير قادرة على حبك . وهل علمنى هذا المجتمع الحب ؟ انه لم يعلمنى الا السفالة واللؤم والجرى وراء الشهوات . لقد قضى والدى على كل العائلة بتصرفاته ،

وجعل المنزل جحيما ، وانساق هو أيضا الى لذاته .

وهذا الذى تقوله عائشة فى الدفاع نفسها يجعلنا نتوقف لنناقش موقف الرواية من النساء عامة ، ومن نساء بالذات من شخصيات الرواية . تقدمت الاشارة الى السقوط غير المبرر لزبيدة فى احضان عادل ، وما تلاه من انجاب لولد غير شرعى دسته على زوجها . واشرنا أيضا الى السهولة التى تنتقل بها النساء من احضان عشيق الى احضان آخر . الزوجة تنتقل من عادل الى الطاهر ، وحليمة تفعل كذلك . بل ان سكيلة التى سعت للزواج من الطاهر بكل الوسائل حتى نالت مطلبها ، تسقط فى احضان الناصر ، الذى اقتحم عليها مخبأها ، فتشرب معه كاسات اللذة ليلة بعد ليلة ، رغم ان الرواية تشير بوضوح الى أن زوجها الطاهر لم يقصر فى أداء واجباته الزوجية .

فما سبب هذا الضعف المخزى فى نساء الرواية ؟ ربما يرى الكاتب ان المرأة مخلوق ضعيف امام شهواته ، وانه دائم البحث عن اللذة وعما يطفىء نار الحنين . وربما يكون هذا التصوير للمرأة قد انتقل اليه من « ألف ليلة » التى « تسكن » الرواية فى كثير من مواضعها ، بما يقوم فيها من مؤامرات نسائية ورجالية بحثا عن العشيق ، ولو كان الوصال به يتم فى غرفة نوم الزوج وبمحضر منه ـــ وان كان غافلا فى نومه ـــ كما يحدث فى حالة سكيلة وناصر . وربما يكون الضعف نتيجة مباشرة للقهر الذى تعانى منه المرأة فى الرواية : تمرض سكيلة فيرتد الطاهر الى فراش زوجته الأولى : زبيدة ، دون استئذان ولا تفسير وتتقبل زبيدة منه هذا المسلك المشين فقد اعتادت من زمن طويل ان يعاملها الطاهر على انها شىء . متاع له يأخذه أو يدعه . ثم تَشفى سكيلة من مرضها ، فيعود الطاهر الى فراشها ، وينفض عن زبيدة ، مطلقا عليها لقب « امى » !

ان الرواية تحاول جاهدة فى حالة عائشة ان تجند عواطفنا دفاعا عن المرأة الشابة التى اخطأت فجلبت على نفسها المأساة والعار . تصور موقف عائشة ـــ الذى هو موقف كثير من الشابات البريئات الى جوار المذنبات ـــ حين يقرر الزوج ان يدخل بهن فى الليلة الأولى دون تمهيد ولا تلطف ولا اظهار للود ولا محاولة لكسب الزوجة الى صفة بوصفها انسانا وليس متاعا يساق طوعا أو كرها الى فراش من امتلك أمرها . والدفاع مشروع ـــ نظرياً ـــ ولكنه حين يطبق على عائشة يفقد كثيرا من قوته . فقد اخطأت عائشة وسعت الى ان تخفى خطأها عن زوجها ، وفى مرجوها ان يعمى عن الحقيقة ليلة الدخلة . فلما يطلقها خالد ، تتزوج بلا تفكير من كهل فى سن جدها ، وتروح تنشىء العلاقات مع شاب من ابناء أخيه ، تفعل هذا لمجرد قطع الوقت ، مع علمها التام بأنها لا تحبه ، ولا هى قادرة على ذلك ، وبصرف النظر عما اذا كان الشاب

يضار بهذه العلاقة . ومن هنا يصفعها اعترافه وندمه ، وتقول لنفسها : قد كنت أظن انه يبحث عن اللذة وحسب !

فهل يكفى فى مثل هذا التصرف ان تلقى التبعة على المجتمع والأسرة ، اللذين لم يعلما عائشة ماهو أفضل من هذا ؟ انها تزعم أن ما تلقته من دواء أثناء علاجها نفسيا فى احدى المستشفيات قد جعل ذهنها كليلا ، وعاطفتها مغلولة . ولم يبق امامها من مطلب سوى اللذة والألم ، اللذين اصبحا حقيقتها ، وماعداهما فخيال وهباء . وتقول صفحة الغلاف الأخيرة فى هذه الرواية ان عائشة تترجم فى مأساتها عن منزلة المرأة فى مجتمع متقلب مهزوم ، اضاع افراده فيه كل توازن ، وراحوا يعبرون الحياة تجرفهم عواطف لا قبل لهم بها .

فالمرأة اذن — فى هذه الرواية — تعيش فى حريم كبير ، يتركز — فى البداية فى قصر الفريك مصطفى ، حيث تجرى الأحداث الرئيسية ، ثم ينفرط عقد سكان هذا الحريم من الرجال ، ويتوجه كل وجهته ، حاملا معه عاهة « الحريم » فى نفسه . حيث المرأة متاع ، والرجل فحل يسعى بين المرأة والأخرى ، وحيث المرأة قادرة وراغبة أيضا فى ان ترضى نزوات الرجل ونزواتها ، وتتقلب — فى حرية غريبة — بين الحياة الجنسية المشروعة والآثمة ، لا تبالى بأن تدس ولدا غير شرعى على اسرة شرعية ، ولا تحفل اذا ما غزاها أحد ان تستسلم له المرة بعد المرة ، ثم تعود الى الفراش المشروع مرة أخرى دون كبير تردد أو عناء .

الواقع اننا لانستطيع ان نبرىء المؤلف من تهمة الغرض المزدوج . فهو يتعامل مع الجنس تعاملا اجتماعيا ويريد ان يرد الشذوذ فيه الى عوامل بيئية بعينها . وهو فى الوقت ذاته يعمل بوضوح على ان يمتع قارئه بوصف اللقاءات الجنسية وصفا مثيرا ، ولا يتردد لحظة فى ايراد تفاصيل دقيقة عن لقاءات شاذة مثل تلك التى تتم بين عادل وربح ، أو تلك الممارسات الشاذة التى يقوم بها عادل بمرأى من الفتاة الغضة علجية .

ان كان هذا العالم الذى يفح بالشهوة ويضج بها نارا فى عروق الرجال والنساء ، بعضا مما تحويه الف ليلة — التى تذكر بالاسم أكثر من مرة فى هذه الرواية — فانه ليس أفضل ما فيها ، بل الخيال المجنح هو بعض من خير الف ليلة . والمؤلف غير غافل عن هذا ، فتراه يتحدث عن الغولة التى يصاحبها « ابى محمد » وهى تسكن شجرة تين عظيمة ، وتظهر فى صورة عجوز تكشر عن انيابها وتنتقل بسرعة من مكان الى آخر ، ولا يشعر الانسان لحركتها الا بخفيف هين أو هفة عابرة أو خشخشة مريبة . وقد استخدم « ابى محمد » هذه الغولة لمنع الصغار من جنى الثمار الا باذنه ، وتوفير النوم المرتاح تحت الشجرة لذلك العجوز الماكر اذ تروح الغولة تزجى وقتها بغزل الصوف فوق رأس « ابى محمد » وهو يغط فى نومه أو يتأمل تنقل العصافير أو يرقب

جماعات النمل المنتشرة امامه .

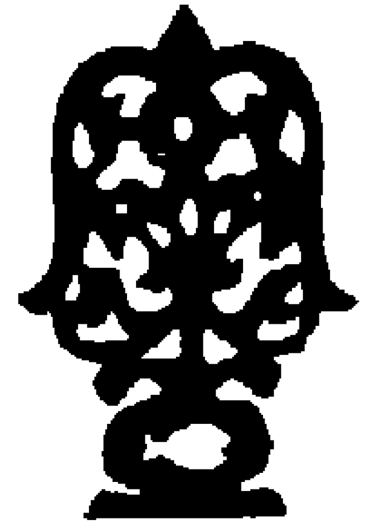
وبعيدا عن الف ليلة ، تسعى الرواية الى تسجيل حياة الشعب ومعتقداته ومأثوراته ، مثلما يحدث فى وصف الباعة الجائلين على اختلاف مهنهم ، مثل بائع الخروب ، وام الفلافل والطراح ، وهو حامل الخبز الى الفرن . ومثل ما تحاوله الرواية من تسجيل الطقوس المختلفة التى تصاحب خطبة فتاة وتهيئتها للحنه والجلوة والدخول ، وان كان التسجيل هنا يجيء تقريريا ، كما لو كان مقالة كتبت خارج السياق ، ثم ادمجت به ، فالهدف تسجيلى قبل أن يكون فنيا متفاعلا مع جسم الرواية .

ولا ينبغى ـــ مع هذا ـــ ان نغفل عن جوانب الايجاب الكثيرة فى هذه الرواية ، فان بناءها محكم متماسك طالما كانت الأحداث تدور فى قصر الفريك مصطفى ، ثم تنزع الأحداث بعد هذا الى التداعى على غير محور واحد ثابت .

اما رسالة « عائشة » فهى وطنية انسانية دافعة الى التفكير والتأمل بما يرد على لسان عادل والطاهر من آراء وأفكار ، وبما يقوله الفريك مصطفى فى وصف حاله التعس وحال تونس ابان الحماية الفرنسية . والرواية بهذا الوصف تعتبر علامة هامة فى طريق تطور الرواية التونسية ككل .

في بيت العنكبوت

محمد الهادي بن صالح



حين ذهب صالح القدرى الى تونس العاصمة يزور اخته ، قابلته الأخت اقبح مقابلة . نظرت اليه فى استعلاء وكأنها تقول : لست منى ولست منك ـــ انا المتمدينة وانت القروى . سألته مرغمة عن احواله . حال أهله ؟ زوجته ؟ ابنته ؟ حاولت أن تعرف سبب قدومه وهو يكتم هذا السبب . زوجها فى صوته برودة الاستقبال وفى نظراته اشمئزاز وفى احواله حفاوة زائفة .

كان صالح يحلم بأن يستقبله الجميع بحرارة . يبكى ويبكى معه الكل فرحا بمجيئه . بدلا من هذا سمع حماة اختة تسأل : هل تحولت الدار الى فندق ؟ وقالت له اخته : اوساخ القرية لاتذكرها هنا فى تونس . اعرض عنه الكل وأهملوه . حين قال : انه جوعان ، قالت الأخت : لم نعمل حسابا لعشائكم (كان معه ابنه الصغير) ثم قدمت له سمكات صغيرة من اسماك السردين فى طبق أبيض وشيء من الزيتون . أحس ان من حوله غرباء وانه بينهم غريب . لا هذه اخته سعيدة ولا ذاك ابن عمه سالم . قال لنفسه : قد طهرت روحك من رواسب الذل ، فلتقتلع جذوره مرة واحدة ، ولتترك هذه الدار حالا . حالا .

كانت وراءه اوساخ كثيرة فعلا : امرأة تزوجها رغم كل ما احاطها من ريب واقاويل . لاكت الألسن حياتها ـــ ألسن نساء القرية الحادة ، وتحدث عنها الرجال فى المجامع . سمع صالح قدورى هذا وقال : حسد . ورأى رجلا يخرج من دارها ليلا فقال : شبح من أشباح الليل أو سراب . تزوجها رغم هذا كله . وزعم لنفسه انه فاز بها من دون فلان وفلان وعلان . وثار على القرية واتهمها بتلويث عرضه النقى .

وحين ضمته وزوجته غرفة النوم ، اعرضت عنه وقالت : اتركنى . ابعد عنى . رائحة رأسك تقزز . هل انت اقرع ؟ ولما اكتشف ان المرأة ليست عذراء وسألها : من سبقه اليها قالت :

يهمك هذا كثيرا ؟ حاسب روحك رجلا ؟ ما يعجبك فى نفسك ؟ قرعتك ؟ . اضافت : يارني ، رضينا بالهم والهم ما رضى بنا . ثم ناولته خرقة ملوثة بالدم . قالت . امسكها . اعطها للناس . لوح بها للكلاب الساهرة . اقطع السنتهم . قل لهم زوجتى بنت أصول . وعاد يسأل : ممن ؟ أجابت : مِنّى أنا . من الهواء . يهمك هذا كثيرا ؟ ثم قامت غضبى ولطمته على وجهه . كان مجبرا على تصديقها ، فتناول الخرقة وفتح باب الغرفة ، وناولها لنائبه . سمع طلقات البارود . وزغاريد النساء ونقرات الدربوكة . ولم ينم . حاول أن يثور لشرفه ، فتلقى صفعة ثانية علمته الخضوع .

وكان وراءه أيضا ذل الطريقة التى ساقه بها الفرنسيون مع آخرين للاشتراك فى الحرب ضد الألمان . انتصب واقفا مع المجندين ، كأنما هم تماثيل . صفوف طويلة من الرجال بكامل عتادهم العسكرى ، لا يعرفون لأنفسهم هدفا . تساءل بعضهم : نذهب الى سوسة ؟ المانيا ؟ المغرب ؟ قال آخرون : تركت ورائى صغارا وأمهم . تركت ورائى عروسا جديدة . قال واحد : نحن احتياطيون ؟ سأل ثان : ما معنى الاحتياطيين ؟ جاءه الرد : يعنى اننا تحت الطلب . يأخذوننا للجندية مرة ثانية ثم يتخلون عنا . سأل واحد : يا أاخى ، هل نحن غنم ، لا نستشار فى شئوننا ؟ وقال ثان : ينقلوننا مثل الكلاب لنقتل اخواننا فى المغرب ؟ وعلا صوت فرنسى : هس . هس . يا حيوانات وركب صالح القدرى البحر ولم يكن ركبه من قبل ولا حتى شاهده . ونقلته الباخرة الى ميناء ضخم . أوروبا . الشام . ثم عودة الى افريقيا .

وحينما عاد سالما الى تونس ، كان قد نسى لباس الجبة والبرنس وتعود البنطلون الأخضر . تقطع البنطلون ولم يشأ أن يتركه . نسى مخاطبة الأهل ونطق الكلمات على طريقة اهل بلده ، وتكلم خليطا من الألفاظ فأجمع أهل القرية على أن كلامه هراء . ولم يلبث ان عاد الى فقره والى لبس الفدواره والبرنس وكلام القرية المألوف . وعمل فى الغابة . ثم اوقعه سوء حظه — ربما تطلعه الفارغ وايمانه بأنه رجل غازٍ ، مستبد بقلوب النساء — اوقعه فى براثن امرأة رآها مغرية ولعوبا . امرأة ولا كل النساء . هى تلك التى تقدم جزء من سيرتها .

فى طفولته قال له كبار العائلة انه عربى أصيل تمتد جذوره الى بيت الرسول . وقالوا أيضا انه من أحفاد قاضٍ خطير . فراح يزعم ان القاضى قد توفى قبل ابنه — أى والده — ولذلك لم يرث لا هو ولا أبوه شيئا من ثروة الجد . ولكنها كانت كلها مزاعم ، والحقيقة ان القاضى الخطير كان قد ضاجع خادمته القاصر فانتفخ بطنها . فاعترف القاضى لفظيا بجد صالح وان لم يلحقه بنسبه . فورث اعمامه الثروة ، وبقى هو ووالده فى عسر .

بالأوهام ، واحاديث الخرافة ، وبتزويق الواقع الكالح ، كان صالح يحاول ان يرد عن نفسه أذى

المهانة الذى ترسب فى روحه منذ البداية . برع فى هذا أحيانا حتى أوشك ان يكون واحدا من هؤلاء المهرجين الندماء الذين يقصون على الناس احداثا خيالية ينسبونها الى انفسهم ، بغية تمجيد ذواتهم ، وكسب اعجاب الناس واهتمامهم .

كان يدور بين الأصدقاء بحكاية علاقة مزعومة انشأها مع زوجة الجنرال الفرنسى الذى كان يخدمه ابان الحرب . وكان له فى روايتها طريقة تشبه طريقة رواة الحكايات المحترفين . زعم لأصدقائه انه عشق زوجة الجنرال وعشقته هى . يلح عليه أصحابه ان يعيد الحكاية على مسامعهم — كان قد رواها اكثر من مرة — فيقول : « كانت ايام . يا حسرة . آه . يقول احد مستمعيه : لم تقل لنا ماذا فعلت معها ؟ يرد : حكاية قديمة خلنا منها . تلح عليه الجماعة فيقول : كانت عاهرة لعوبا . وكنت شابا وسيما ببذلتى العسكرية الخضراء . وكنت جذابا . يقاطعه أحدهم بوقاحه : لكن رأسك كان اقرع . يرد : ما قرعت الا بعد الحرب . ويسأله الرجل : وماذا ذهب بشعرك ؟ يقول اصابتنى خرطوشة فى رأسى فى آخر معركة شاركت فيها . جاءت الاصابة جلدية ، والا كنت الآن رهين التراب . يقول ثان : لنعد الى حكاية زوجة الجنرال . ماذا فعلت معها ؟ ينطلق خيال صالح على الفور : كنت شابا وسيما ، وذات يوم ارسلنى الجنرال للعمل فى الحديقة ، فرأيتها مستلقية فى شمس الضحى . نصف عارية أو عارية تماما (اذا آنس من المجلس رغبة فى ان تكون عارية تماما) شاقته منه أرادف ثقيلة وساقان مكتنزتان . ولحم مترهل . طرى . وكتفان عاريتان وبشرة كخمرة بو عرقوب .

ثم يمضى صالح فى خلق صورة زوجة الجنرال المزعومة على هواه فلا يلبث ان يترك الحكاية ، ويشط خياله الى نساء اخريات مليحات ، عيونهن كبيرة كأعين البشر ، شديدة السواد ، الاخضرار ، شديدة الزرقة ، شديدة الاتساع ، طويلة الأهداب . كلها اغراء . رآها فى تجواله بالعاصمة . كانت نظراته تنفذ الى ما وراء البرقع ، الى ما وراء الخامة .

كان فى نفس صالح شوق شبق الى النساء . كان يحبهن ويلعنهن . يراهن عواهر ، خائنات مومسات . فى شبابه كان يتسقط اخبار المومسات من دار الهوى بالقرية . كان باب الدار مغلقا امامه . فعوض نفسه عن الممارسة بجمع اخبار ساكناتها . كان القواد يمده باخبارهن مقابل هدية من التمر . فيدون الأسماء فى سجل احتفظ به سنوات . وكان يتباهى مع اصدقائه بأنه قضى ليلة مع كل راحلة ، ويزعم انه عزف عن كل قادمة لأنه ولا واحدة منهن اعجبته . ويوم عمل صبى فحّام ، يبيعه تحت ارشاد معلمه ، حذره المعلم من ان تغريه النساء ، فيضعف امامهن ويهمل مصالح المتجر . غير انه ينسى تحذير المعلم ، حين تأتى الى المتجر امرأة سمينة ، نظيفة كقطعة بللور . تَفَحصها . حدَّق فى صدرها . فى بطنها المنتفخ الكبير . كانت ربعة ، أحس

باضطراب . ارتجفت ركبتاه . أحس بلذة تسرى فى أوصاله . سمعها تقول : بكم الكيلو ؟ فأجاب على الفور : ببلاش !

وسمع صوتا ناعما آخر يسأل عن ثمن كيلو الفحم . قال بعشرين . قالت اعطنى كيلو . ولما وزن لها قالت : آه ياربى . احدهم سرق فلوس . زن لى كيلو على الحساب . أترى دارى ؟ هذه التى بابها أزرق ؟ غدا تمر علىّ ، ويكون زوجى قد جاء ونعطيك فلوسك . وتأنس منه موافقة فتقول : اذن اعطنى خمسة كيلو مرة واحدة . ويعطيها صالح المتيم ، وفى الغد يطرق الباب فتخرج اليه امرأة نحيلة وتقول له : قد اخطأت العنوان !

لولا ان جانب المأساة فى حياة صالح يغلب جانب الكوميديا ، لأصبح واحدا من اطرف المهرجين فى ادبنا العربى . فهو يملك حب المهرج للحياة ، واقباله النهم عليها ، وهو مفتون حد الجنون بالمرأة ، لا يستطيع ان يكف نفسه عن حبها — حتى وهو يلعنها — وهو دائم التطلع الى لذائذ العيش ، لا يصده عن التمتع بها سوى فقره الموقع ، وهو يملك خيالا مشتعلا ، يدفعه دائما الى الخروج من كيانه القمىء ، سعيا وراء عظمة يتوق اليها ، ويحصل عليها — فعلا — ولكن فى الخيال ، ثم لا يلبث ان ينقلب على نفسه ، هازئا بها ، مبكتا لها . يروج لعظمة القاضى ، جده الأعلى ، ثم يعود فيفضح كذب هذه العظمة ويهزأ من الجد الذى ضاجع خادمة قاصرا وتخلى عنها ، فلم يعترف بنسله منها الا فى الشكل .

ويزيد من قدرته وموهبته كمهرج ان خياله سرعان ما ينصرف الى لون الهزل المعروف « بالفارس » . يزعم انه كان احد فرسان عهد الحماية الفرنسية . ففى يوم انطلقت قذيفة نحوه ، بعد ان كبد العدو خسائر فادحة فى العدة والأرواح . فتجنب القذيفة بخفته المعهودة ، فاصابت رأس حصانه فبترته . ولم يشعر الحصان بفقدان رأسه ، وتقدم خطوات بلا رأس ثم ثبت ولم يسقط . اما صالح فقد وجه لهب رشاشه الجهنمى فجندل رجالا ورجالا . ولما انقضت الموقعة حدق فيه الجنرال باعجاب وزينه بوسام جديد اضافه الى مجموعة نياشينه التى ضاعت منه — مع ذلك — اثناء عودته مع رزمة من صوره التى نشرت بالجرائد . وفجأة يصحو المهرج لنفسه وواقعه فيقول : انه ركب البحر حقا ، ولكنه لم يشارك الا فى معركة واحدة هرب اثناءها وخبأ نفسه فى دار خاوية من الأهل . ثم يقول : ان شجاعته هى شجاعة لسان ، وفقه هو فسق لسان مهذار .

ويصل هذره الهازل هذا الى قمته حين تعطيه اخته سردينات عجفاء ، يأكلها فيشعر بالغثيان ويتقيأ فتقول له أخته ساخرة : اهو غثيان الوحم ؟ فيمسك خياله المشتعل على الفور بتلابيب الفكرة ويزيد غثيانه ، ويسأل اخته : متى كان الرجال يلدون ؟ فتقول : الدنيا ليس بها أمان

يأأهل الفضائح . فيضع يده على بطنه يتحسسها فيشعر بنمو الجنين . ياللفضيحة ــ يقول لنفسه ــ رجل يحبل ؟ لم يحدث هذا من قبل ولا فى الأساطير . كيف تواجه اخته الناس بعد هذا ، وبأى وجه ؟ وكيف حمل هو ، ومن أى رجل ، أو من أى امرأة ؟ وبهذا القلب الهازىء للأوضاع ، يسخر المهرج ومن ورائه الكاتب ، من وقائع الحمل سفاحا وما يجره من اقوال وأفعال ويوفر مادة كوميدية شيقة .

تنتهى حياة صالح القدرى نهاية مأسوية ، يجرها عليه حمقه ، وفقره ، وخياله الوثاب . بعد طول التجوال فى العاصمة التونسية ، لا يجد لنفسه ــ ذات يوم ــ مكانا يبيت فيه الا تحت شاحنة جبارة كانت واقفة الى جانب الطريق . يدخل تحتها ، فتزكم انفه رائحة البنزين والشحم . ويرى عجلاتها الجبارة فيذكر ما زعمه ذات مرة من أن دبابة طاردته وكان وحيدا ، فرأى عجلاتها وجنزيرها الجبار . ويمضى فى خياله فيذكر واقعة القذيفة والجواد المقطوع الرأس وبلاءه الموهوم فى المعارك . يشغله كل هذا عن تأمل ما قد يحدث له لو تحركت الشاحنة وهو تحتها. وتتحرك الشاحنة فعلا فى اليوم التالى فتهرسه العجلات التى ذكرته بأمجاده الموهومة ، فشغلته عن الموت الجاثم فوقه . يموت صالح وكان قبل ان يدعوه النوم الى احضانه قد اصدر وثيقة حب شاملة لولده ، الذى قال انه يحبه لأنه يحبه . ولأخته الذى عاد الى حبها لأنه يذكر فيها طفولتهما البائسة ، ولزوجته رغم فضائحها المكشوفة والمستترة ، ورغم طباعها الشرسة ، لأنه وجد عندها لحظات من المتعة . وابنته المزعومة ، لأنه رباها ونادته ذات يوم : يا بابا . اعلن انه يحبهم جميعا ويريد ان يقبلهم جميعا قبل أن ينام .

كان صالح قد جاء الى تونس ومعه ابنه الصغير محمود . ويشغل القسم الثالث من هذه الرواية ما يجرى لمحمود من احداث . شق محمود طريقا مليئا بالصعاب حتى استطاع ان يتم تعليمه ويحصل على شهادة تؤهله للتدريس . ولكنه كان يرزح تحت وطأة هم ثقيل . ما فائدة الشهادة ، والواقع المخجل يطارده : امه تجوب الأزقة المتربة تبيع اللذة لمن يشتريها ، واخته بنت هوى قال فيها صاحبه : لو طلب منها القرد وصالا لما ردت له طلبا .

ومع ذلك ، فأى نساء هذا المجتمع المنافق يمكن ان تعد شريفة ؟ أهى المومس التى وقفت تترصد خطواته على باب الزقاق ، كأنما هى عنكبوت وهو ذبابة ؟ رغم ارادته انساق اليها ، مجردا من الارادة ليشترى ذرة من لذة وينام لحظة فى فراشها المضرج بحمرة مصباح الكهرباء المثيرة . أهى الفتاة الجامعية ، زميلته ، التى رسبت فى الباكالوريا ونجح هو فدعاها الى ان تصرف القيلولة فى داره ، فقبلت بعد تمنع وحين ترك لها فراشه تأوهت وقالت : نرقد وحدى ؟ هذا كرم الضيافة ؟ لا ياسيدى نخاف . ألا تريد من يؤنسك ؟ وانهمكت تتجرد من ثيابها .

أهى زوجة مدرب الرياضة بقرية بورقيبة للأحداث ، التى تلقى فيها المراحل الأولى من تعليمه ؟ ذهب الى دارها يسلمها لفافة من زوجها ، فاستلطفته وتردد عليها مرات ، فقالت له ذات مرة : الا تنفض عنك خجل البنات ؟ الا تستحى من طولك هذا ؟ وأخذ يتردد عليها من بعد الشعور بالذنب واثم الخيانة يَمُضّ حياته . امرأة حطمت بقية حياة ابيه وامرأة أخرى تحاول تحطيم حياته .

قال صديقه الشاعر وهو يقدمه لصحفية شابة تجاوزت الخامسة والعشرين ، تحس ان موهبتها فياضة ولكنها مطموسة : محمود القدرى . استاذ رياضيات ، ويهتم كثيرا بالفكر وشئون الفكر . مغرم بكافكا والغاز كافكا ، وطريقته فى الكتابة وعرضه للمشاكل . شديد الاعجاب بالشكل الروائى لدى فولكنر وجرأة ميلر . يحفظ الكثير من ابولينير ، ورانبو الطفل ، وفرلين الكهل وبريفير . البياتى يعيد اليه طفولته ، والسياب علمه الوطنية الصادقة . اما نجيب محفوظ فهو ينتظر ان يجد نفسه فى احدى شخصيات رواية جديدة له . يفضل دائما ان يكون قارئا . ففى رأيه أن المنتج لا يتمتع بكامل مداركه العقلية . لذلك يفضل هو أن يقرأ صفحة بدل أن يكتبها . ويفضل أيضا ان يحلق فى وجوه زبائن مقهى ، بدلا من ان يحلق فى وجوه التلاميذ — رغم انه استاذ ناجح . قال محمود لنفسه : الدرس ؟ صخرة سيزيف . لم يعد يتحملها لابد له من فضها . أصبح يمقت التلامذة ، والسنة الدراسية على الأبواب .

كان محمود قد تعرف الى سلوى ، فتاة جميلة . انثى يتشهاها كل فحل . قابلته هى وأمها ورجته الأم أن يعطى الفتاة دروسا خاصة فى الحساب، وألحت الأم وابنتها أن يزورهما اليوم أو فى القريب ، فقام فى وهم محمود ان الأم تريد أن تزوجه ابنتها . طرق عليهما الباب . فرحت به الأم . فرحت به البنت . وفرح الأب والأخ . وفى نشوة اللقاء افضى اليهم برغبته فى الزواج من سلوى ، فكأنما القى قنبلة . قالت الأم فى غير حياء : ظننته يريد ان يدرس لها ، واذا هو طامع فيها . ثم وجهت الخطاب الى محمود: «يا أخى قل لى بربك، هل أنت من مقام سلوى ؟ ألا يعرف المرء قدره ؟ ألا تعرف من كان أبوك ، ومن كانت أمك ؟ ام انك نسيت نفسك . اذهب ابحث عن واحدة على قدك .

ذهب يبحث عن امه فوجدها ضائعة بين المومسات .. المتقاعدات . بحث عن اخته فكانت بين المومسات المسجونات . بحث عنهما معا فافتقد ذاته . اما ابوه فقد مات تائها — منتحرا فى حقيقة الأمر . اذ ذاك تخلصت الى محمود عقيدة ثابتة هى انه ضحية ارث أورثه اياه ابوه وامه واخته والمجتمع من ورائهم جميعا . ادخله ابوه المدرسة كى يعوض به عما فاته هو . كان يريد للولد ان يتكلم الفرنسية ويصبح من الوجهاء الذين يعمل لهم حساب . امه ارادت ان يحصل

على شهادة ويعمل ساعيا للبريد ، ويقرأ المراسلات الواردة على البلدة بلغة أجنبية ، ويكلم الفرنسيين وغير الفرنسيين من اعيان البلدة فلا يحتقرونه . وها هوذا قد حصل على الشهادة ، فماذا حدث ؟ وقف الارث عقبة فى سبيله .

فى الفصل المعنون : حديث هامشى لشخصية مزدوجة يقول محمود للأنا التى يحاورها : مارأيك فى نبات مر المذاق اثمر فاكهة شديد الحلاوة ؟ يقول الأنا : ستكون هذه ثمرة لقيطة . يسأل محمود : ولم لا تكون شرعية ؟ يرد الأنا : لأننا لسنا فى عصر المعجزات . وينظر الاثنان فاذا فتاة حبلى ينمو جنينها بسرعة . يقول محمود : ستضع جنينها ونحن فى جلستنا هذه . لن تنتظر تسعة أشهر ، لأنها ليست لديها طاقة الانتظار والرجاء . يسأل الأنا : هل للجنين أب ؟ يقول محمود لايهم . كل الرجال آباؤه . فهو لقيط ، وستكون رائحته كريهة . ويسأل الأنا : ولماذا تكون رائحته كريهة وهو خلق جديد ؟ يرد محمود : لأنه كريه حتى وأنا لا أعرفه . يقول الأنا : فلماذا لا يأتى نقيا ؟ يرد محمود : اثبتت التجارب اننا لانأتى هذه الأرض اغصانا مقطوعة ، بل اشجارا صغيرة تجر وراءها اشياء من أمها الأرض . فان كانت الأرض طيبة والبذرة نقية خلقت الشجيرة على شيء من النظافة والطهر .

من أجل هذا الارث الدنس ، لا يستطيع محمود أن يقطع خيوط العنكبوت التى يحس بها تلتف حول جسده . بل لا يستطيع ان يمنع نفسه من دخول بيت العنكبوت كلما نازعته نفسه الى الدخول . لا يستطيع ان ينسى انه وهو طفل دخل على امه فى ضحى يوم من ايام الربيع . كانت امه تلبس خفيف الثياب . وكان معها رجل لا يعرفه ، ولا يذكره ، يلبس هو الآخر خفيف الثياب . بدا له انهما فى مشادة ، والرجل الغريب جاثم فوقها . ظن انه يضربها : هجم على الرجل وهو يلعن له اباه . ضحكت الأم والرجل معا ، وقالت له أمه ملاطفة : « بره . اخرج يابابا » صلب هامته وخرج . فى تلك اللحظة تسربت الهزيمة الى ابعد دقائق جسمه وروحه . حتى وهو ينجح فى المدرسة ويردد اسمه ثلاث مرات : مرة لحصوله على اكبر مجموع ، ومرة ثانية لتفوقه فى الحساب ومرة ثالثة لأنه مدعو لحفل تكريم يقام يوم عيد العلم .

عبثا ما حقق من انجاز فى التدريس الجامعى . ما وفر لنفسه من قراءات واسعة فى الأدب الأوروبى والعربى . ما ترسب فى نفسه من وعى سياسى ناضج دفعه لتأييد الاستقلال والتأكيد على مكاسبه فى وجه من كانوا يستخفون به ، ويتمنون عودة الحماية الفرنسية . لذلك رأى فى مواصلة القراءة والتدريس هما ثقيلا ، وعبئا عبثيا يوازى عبث محاولة سيزيف مع صخرته .

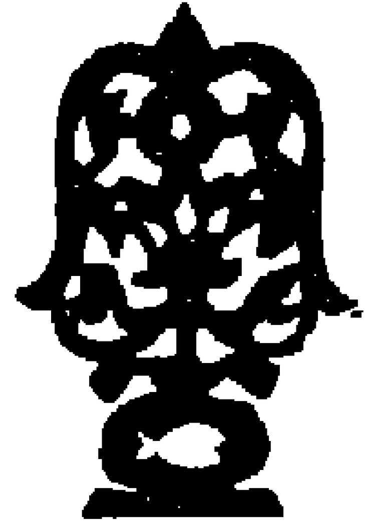
رغم انشغال الرواية بمصيرى صالح وابنه محمود ، فانها تتعرض للأحداث السياسية والاجتماعية تعرضا واضحا ، وفعالا ، وان كان يبدو عارضا . الأب صالح ينأى بنفسه عن المظاهرات

السياسية والاجتماعية ، ويرفض الاشتراك فى الاضراب الذى قام به العمال احتجاجا على عمل يشبه السخرة . محمود على العكس من ذلك ، يقدر ما انجزه العهد الوطنى للوطن ولأبنائه من مكاسب . الى جوار هذا تحدث الرواية مقارنة دائمة بين ما يجرى فى العاصمة والقرية . وتفضح كثيرا من مثالب الحياة فى العاصمة والقرية . الفساد الخلقى المستشرى فى المدينة . النساء فى الأحياء الراقية سافرات والسيارات تملأ الطريق . طريق معبد ، اسود ونظيف . سكانه كلهم أوروبيون . مستوطن بعد مستوطن عاش ومات بأرض تونس . وأحدهم : « كزبيانكا » ، فرض السخرة على فلاحى القرية لخدمة زرعه . والمحصول يفوق فى بعض السنوات محصول اكبر الملاك . وهو معفىً من الضرائب . فى المدينة نشالون اصابعهم شديدة البراعة وفيها نساء تجر خلفها الكلاب ، أو الكلاب تجر خلفها النساء والأطفال . كلاب صغيرة تمشى بخيلاء . كلاب اقزام وكلاب كبيرة الحجم . قيل ان بعضها يستخدم كخدم وبعضها يستعمل كعشاق .

وفى القرية دار للخنا ، ومومسات يأتين ويذهبن . وبعضهن ، مثل « الزينة » مثل أم محمود تمارس المهنة سرا ، وتدفع بينتها الى سلوك الطريق ذاته . لا تدفع مأساة الرجلين بطلى هذه الرواية الشائقة ، الى اهمال الخلفية الاجتماعية التى تدور امامها احداث المأساة . بل هى تستخدم الخلفية لتأكيد المعنى الذى تذهب اليه الرواية : الشر اجتماعى واقتصادى ، وهو من صنع المجتمع كما أنه من صنع الأفراد .

البحر ينشر الواحة

محمد صالح الجابري



أى صنف من الرجال بطل : « البحر ينشر الواحَةُ » ؟ تقول له صديقته فى شبه تقريع : كأنما انت وحدك الذى يحمل أوزار هذا العالم بأسره . كان البطل — اسمه دربال — قد حاول أن يستعيد علاقة سابقة بصديقته « حبيبة » ، دون كبير جدوى . دعاها الى مطعم فاخر وموسيقى وطعام طيب ، وجعل يجهد فى ان يخرجها من سجن أفكارها الخاصة . كانت موجتان تتقاذفانها : واحدة الى موانىء الصمت واخرى الى مرسى المشاعر الفياضة . وفى كل مرة كان يشعر بأن للصمت عليها السلطان الأقوى .

قال لها دربال : سنتان . سنتان طويلتان يا حبيبة . فنظرت اليه فى تأنيب لا يخفى وقال : « لَمْ تُولِ علاقتنا أهمية تذكر . دستها وتخليت عنى فى أحلك الظروف » . قال مدافعا : « لم أجد أمامى سوى الاختيار الصعب . ولكنك انت لم تصبرى » . اما الاختيار الصعب فكان السفر الى الخارج لاستكمال الدراسة ، وتجديد الهواء المتعفن الذى أمرض رئتيه . زعم لها انه سيعود بعد ذلك ليتزوج منها . ثم عاد فقال : بل انه سيتزوجها بعد أيام . وما وفىَّ بالوعد . أخذ يبين لها انها احبت رجلا ذا نزعة خيالية ، متبرما بالأوضاع جميعا ، اجتماعية وسياسية . واقتنعت بأنه لن يحقق شيئا سوى اهدار نفسه . وان ارتباطها به لا يعدو ان يكون ضربا من الانتحار . ووجدت مصداقا لهذا حين ارسل اليها من روما بطاقة خط عليها : « لا أجد من الكلمات غير ان اقول لك : احذرى المجانين . ولا تيأسى يأسى القاتل . فربما سعدت بالحياة اكثر مما شقيت بك واشقيتك » . وبعد أيام قليلة من رحيله تزوجت حبيبة من رئيس قسمها بديوان الصناعات التقليدية الذى انتدبت للعمل به . فتن بها رئيسها افتتانا مجنونا ، ووجدت هى فيه سلوى عن الفقد الذى احسته برحيل دربال .

وها هو ذا دربال يعود ويطالب بأن يتصل ما كان هو نفسه قد قطعه . غير أنه آب من

المحاولة بفجوة كبيرة فى اعماقه ، وصدع شق قلبه نصفين . عاد الحبيبان غريبين كأنما كانا يتعارفان من جديد . وجعل الفشل يأكل نفس دربال وقال فى سَوْرة حيرة غضبى : « انها ورطة محزنة لرجل مثله ظل يضع أمله فى الحب » . وحاول ان يقنع نفسه بأن المرأة جُبلت على الغدر والتلون . وأن لغة العواطف المشتركة التى صنعها وحبيبة من سنتين قد طحنتها عادة اخلاص الزوجة لزوجها ! .

ليس فى تصرفات دربال ، سابقا ولاحقا ، ما يبرر ظن حبيبة فيه : انه رجل يحمل هموم العالم جميعا فوق رأسه ، مشغول بها عن نفسه وحياته الخاصة . بل العكس هو الصحيح . ترك قريته « عمدون » دون كبير أسى وذهب يدرس فى بنزرت . فلما اتم دراسته عين مدرسا فى مدرستها . وحاول أهلوه ورجال قريته ان يحصلوا عليه مدرسا فى مسقط رأسه عمدون ، فلم يفلحوا . بل كأنما عاندتهم وزارة التربية ، فنقلته من بنزرت الى العاصمة تونس . وكانت هذه بداية القطيعة بينه وبين أهله . تضاءلت فى نظره قريته « عمدون » ، وأصبح ينظر اليها بعد أربع سنوات من البعد عنها على أنها نقطة سوداء شاءت الطبيعة أن تشوه بها خريطة البلاد !

اما رأيه فى احداث الشرق الأوسط ، فهو يجمله فى الكليشيه المعروف : ان ثمة اتفاقا بين امريكا والاتحاد السوفيتى يضمن ان لا ينتصر أو ينهزم أحد فى الحرب التى كانت موشكة على الاندلاع بين العرب واليهود . وهو يوافق على ان ماتنشره صحف الغرب مليء بالكذب يحركه الصهاينه والشركات الكبرى ولكنه يضيف : هذا جانب من الحق . لكن الجانب الآخر منه هو ان صحافتنا لا تنطق الا برأى ساستنا . ويقول من بعد : فى عدد الأمس من صحيفة الفيجارو ، أصدر عدد من المثقفين الغربيين بيانا استنكروا فيه اغلاق عبد الناصر لمضيق تيران . وعبروا عن التعاطف مع اسرائيل . وكان بينهم سارتر . ولما علق صديقه عثمان على هذا قائلا لعزيز ـــ صديق آخر ـــ قل له رأيى فى سارتر . قل له رأيى فى المثقفين الغربيين : سطحيون لا يتعمقون فهم الأمور . يستقون معلوماتهم من الصحف اليومية ، لا غير ـــ رد دربال محتجا : هذا ليس صحيحا ألبتة . هم مثقفون ممتازون ومطلعون . لكنهم يجعلون مصالح أوطانهم فوق مصالح البشرية . ويرد عثمان : نهبونا حتى العظم ، لا رحم الله لموتاهم عظما فيقول دربال : التاريخ يعى كلما صنعوا إنْ حسنا أو سيئا . لكننا الآن ، نحن وهم ، منهوبون على حد سواء . جميعنا طعم للشركات الاحتكارية الكبرى . لأخطبوط الامبريالية .

فى هذا الحوار الذى يدور بين دربال واصدقائه عثمان وعزيز وبشير فى فصل يبدو بوضوح انه مقحم على صلب الرواية ، من حيث انه لايسهم فى تحريك احداثها ـــ فى هذا الحوار ـــ تتاح لنا الفرصة الوحيدة للتعرف على « الهموم » التى يحملها دربال على رأسه ، والتى تقض

مضجعه ، وتملأ رئتيه بالعفن ، وتدفعه من بعد الى ترك البلاد . هموم عادية هذه ، تحركها نظرة سطحية للتاريخ تضع الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة فى جانب واحد يجمعهما اتفاق على تحقيق التوازن . وتجعل شعوب المستعمرات والدول النامية فى معسكر واحد مع شعوب العالم الأول هو معسكر المضطهدين من قبل الامبريالية العالمية ! ولا تجد هذه النظرة بأسا فى ان يضع مثقفو الغرب مصالح بلادهم فوق مصالح الشعوب . يقول دربال هذا الكلام وهو واثق ، مستريح ، لا يعتمل فى نفسه عراك مع النفس أو مع الغير . فكيف يتأتى ان يكون مثل هذا الرجل مهموما مكروبا ، يحمل اوجاع العالم فى قلبه وعلى كتفيه ؟

فى السياسة يتبع منطقا مغلوطا . وفى علاقته مع الأفراد لا يستشير الا صالحه . مع صديقته حبيبة ، لا يأبه بعلاقته معها ، بل يدوسها تحت قدميه ويتخلى عن الفتاة فى احلك الظروف ، ويتركها هاربا .. هاربا الى لا شيء . فالرواية لا تقول لنا ماذا ذهب يفعل فى فرنسا ، وهل وفق ، ولم عاد ؟ غير ان المرأة التى أحبته ايقنت — مسبقا — انه لن يحقق شيئا سوى اهدار نفسه فى الشراب ، ومن ثم القت بنفسها فى احضان أول من تقدم يطلب اليها الزواج . ومن عجب ان يعود دربال من منفاه الاختيارى ، فيسعى الى اعادة علاقته بحبيبة ، ويعجب لأنها لا تقابله بما كان يعهده فيها من حماس قديم ويفسر هذا بأنه نتيجة لعادة لعينة ، هى عادة اخلاص الزوجة لزوجها !

ولما يخون زوج حبيبة — اسمه رفيق — زوجته ويلقى بنفسه فى احضان امرأة أخرى ، يشعر دربال — أولا — بالعطف عليها ، ويعرض عليها ان يضع حياته الى جوار حياتها حتى لاتمد اليد بالسؤال ، بعد أن سجن زوجها . غير انه ما ان يتركها حتى يحدث له هذا الذى تصفه الرواية : « واصل دربال طريقه . رأى نفسه قميئا أمام هذه المأساة التى حاقت بصديقته دون أن يستطيع القيام بعمل ايجابى لمساعدتها . يراها تبكى وتلتهب حرقة وحسرة ، بينما تتجمد عواطفه . يلمس أصابعها . تشد بقوة على أصابعه كأنما تريد أن يلازمها فى هذه الكارثة ، فى حين يشعر هو أنْ ليس من حقه أن يفعل أكثر مما فعل . غاص قلبه وطارت النشوة وشمله حزن مباغت . ان جميع جراحه تتعفن . وضع السيارة فى سرعتها القصوى . لا مفر من ركض سريع يطوى به بقية المرحلة على الأرض ، مادام يحس بحياته تمضى بنسق بطىء متآكل كساعة جدران الكنائس . ومن ثم يوجه البطل — الذى يحمل هموم العالم فوق رأسه ! — سيارته وجهة قريته عمدون . ويخلف وراءه حبيبة تلقى مصيرها المؤلم وحدها .

كان دربال قد عاد من سفرته الى الخارج ، فنظر الى وطنه نظرة تفحص . صدمه ان كل شيء فى حياته قائم لا يريد التغيير . تفرق اصدقاؤه ، بعضهم اعتلى درجات السلم الوظيفى ونسى

علاقاته القديمة ، وبعضهم الآخر رفعته السياسة الى مراقيها فمرضت عواطفه وداخله الزهو ، والبعض الثالث تزوج وانزوى ، لا يكف عن الشكوى من الزوجة والأولاد . أما هو فكان يشق طريقة فى الزمن ، ولا يحس بنهاية للمتاهة التى أوجدته فيها ظروفه : قريته وحبيبة .

قابل ذات يوم احد معارفه القدامى من سكان القرية ، فأنبأه ان حوشهم قد تهدم والمرء يفقد صفة الانسانية فى نظر أهل القرية اذا ما تهدم حوشه . رفع الى الصديق عينين ملؤهما الندم والذنب ، وقرعت اذنيه فجأة كلماته أبيه يوم ودعه أول مرة قائلا : اعلم انك ستذهب الى هناك ولكنك لابد ان تعود الينا آخر الأمر . وسألته احدى تلميذاته ذات مرة عن الفرق بين المدينة والقرية فتفجر حنين عاصف فى قلبه كشريان الدم . قال للتلميذة ، مضطربا : اسألى استاذ الجغرافيا !

ولما لقى — من بعد — حبيبة ، وقد استغاثت به لدفع المصيبة التى حاقت بها ، ادار لها ظهره . تركها — للمرة الثانية وحيدة فى احلك المواقف ، واتجه بسيارته ، مندفعا الى القرية ، مقتنعا نفسه — لا ر يب — انه يستجيب لنداء الوالد والأهل والقرية جمعاء ويضحى بنفسه فى سبيل انتمائه الى الأرض .

موقف قمىء كما احس هو نفسه . لا يشفع له فيه شيء . فهو الذى ترك « حبيبة » أول مرة ، وهو الذى عاد يحتال لكى يظفر بقلبها من جديد ، حتى بعد أن تزوجت من غيره . الاضطراب ، والنزوع الى الوحدة والهموم الخاصة التى دفعته الى الشراب والهجرة ، والعودة البائسة التى املاها الفشل فى الخارج كلها لاتنهض اعذارا له . وتوقعه ان يتغير شيء فى حياته قبل وبعد السفر لا يبرره مجهود واحد بذله كى يحدث هذا التغيير . يخدع نفسه فى السياسة ولا يتحرك حركة واحدة كى يساعد شعبه على الخروج من دائرة النهب الامبريالى التى زعم انها تضم شعوب العالم الأول والثانى والثالث معا . وقريته التى سبق ان اعرض عنها فى تأفف ثم فى احتقار لن تسعد كثيرا بعودته وهذه آراؤه فى السياسة وفى الناس ، وهذا هو موقفه ممن يخلصون له . اغلب الظن انه سيكون عبئا على القرية لا عونا لها ، فما فى مقدوره ان يفيد أحدا ، وهو الذى لم يستطيع ان ينفع حتى نفسه .

اى صنف من الرجال هذا الرجل ؟ سألتُ فى أول هذا البحث . وأرد : هو البطل المتخاذل ، الخانع ، الأنانى ، الذى لايفعل شيئا ولا يقدر على شيء .

غير ان برواية : « البحر ينشر الواحة » اشياء اخرى غير هذا البطل العجيب . هناك تصوير الحياة فى ماخور « كارلى مبروكة ، بما فيه من شخصيات غريبة تقف الحاجة مبروكة على رأسها : « كانت كثيرة الهوى فى صغرها . احبت كثيرا ، وعرضت اجنحتها لنيران العشق

وعرضها جمالها لمغازلات مفرطة عرفتها فى شبابها ... وتدرجت من منازل العشق الى منازل الانتقام من جمالها ، الى منازل الحرص على اقناع نفسها بأن كل شيء يجب ان يكون له ثمن . ولم تشعر بحقيقة وضعها الا حين انفض من حولها الرجال . هنالك وجدت نفسها وحيدة منبوذة ، فجعلت تبنى العمارات مما تجمع لها من رصيد ، واشار عليها إلبعض ان تكون هذه البنايات ماخورا ، ففعلت ومن ثم قام « كارتى مبروكة » .

ويبرز من بين شخصيات الماخور « عبادو » وصيف الحاجة ، الذى اطلقوا عليه اسم « الأسود مرتين » لشدة سواد بشرته . كان الوحيد بين عصابات المواخير الذى يحمل على كتفيه اكثر من عشرين شريطا ، قلدها نفسه ابرازا لعدد المرات التى دخل فيها السجن . عن جدارة ، اثر ارتكاب جرائم هامة . كان يدخل المعارك مع الشرطة ويكون قريبا من الموت ولكنه كان يخرج من كل معركة حيا ، فأطلق عليه أصحابه لقب « بطل الموت المبدع » ولقب : « قاتل الموت » .

قام ماخور مبروكة عند سفح الجبل الذى تعلوه قبة الولى الصالح سيدى بلحسن الشاذلى ، حيث تنعقد حلقات الذكر ، وتنطلق كل ليلة آلاف الحناجر مبتهلة ، وتفيض الصدور بالدعاء ، وتشرق العيون بدموع الخشية والتوسل والوصال . عبثا قاوم أحباء الولى الصالح قيام الماخور بكل ما وسعهم من جهد ، فجاءهم الرد الرسمى : « انه كلما تعددت مواطن الرذيلة ، كلما كان طريق الفضائل أبين » .

غير ان الولى الصالح قد انتقم لنفسه اكبر انتقام . كان اعوان عبادو قد سرقوا من ضريحه البنادير التى يستعملها زوار الضريح فى انشادهم ، كى يستعينوا بها فى توفير الموسيقى لحفل تدشين الماخور . واقيم الحفل بالفعل ، وجرى الشراب انهارا ، وعلا صخب العزف والقصف ثم انتهى الحفل بأن تزعم عبادو جماعته وراحوا يواصلون السكر خارج المكان ، وأصروا على ان يزوروا السجن الجديد تحية لأصدقائهم المودعين فيه ، وهتفوا بأسمائهم واحدا واحدا ، واستثنوا من الهتاف المسجونين السياسيين لأن هؤلاء ينتظرون دورهم فى الكراسى ليقوموا بمحاكمة امثال عبادو وزملائه .

ثم افاق قاتل الموت من نومه فى التاسعة من صباح اليوم التالى ، فوجد بانتظاره مفاجأة لم تخطر له على بال . لقد زار الولى الصالح الحاجة مبروكة فى المنام ، فمحا لها ذنوبها جميعا وأوصاها أن تذبح كبشا أسود وأن تطلق بخور الدار . ونظر عبادو فاذا مبروكة جالسة فى صدر الغرفة فوق حشية من الصوف مستندة الى مخدة ، وقد لفت يديها برداء أبيض وحولها جلست الصبيات وقد فعلن فعلها . كيف تبدلت الأحوال بمثل هذه السرعة : ليلة البارحة والفستان العارى والصدر

البارز ، وفخذى زينة البيضاوين ؟

انهار حلم قاتل الموت بما لايدع مجالا للشك ، وتحولت ابنية الماخور الى بيوت لسكنى الناس . واصبح « كارتى مبروكة » رمزا للمعجزة تنمو باضطراد فى خيالات السكان . غير ان « الأسود مرتين » لم يفته ان يرد الصاع صاعين . عثر أحد المصلين الذاهبين لصلاة الفجر فى قبة سيدى بلحسن على جثة امرأة تتدفق منها الدماء من نوافير عشرة تفتحت فى جسدها . كانت القتيلة الحاجة مبروكة ، واثبت التحقيق ان ليس فى المدينة من له مخالب عشرة يستطيع ان يستخدمها فى ضربة واحدة سوى قاتل الموت .

بقدر ما يبدو الجزء الخاص بالعلاقة بين دربال وحبيبة ، وبين هذه وزوجها رفيق وبين هذا الأخير وصديقته لمياء غير عميق الجذور ، تبدى الرواية معرفة حميمة بشخصيات القاع ، وتبرع فى رسمهم وتجعلهم ينتفضون امامنا احياء كأقوى ما تكون الحياة . لا ينطبق هذا الكلام على سكان الماخور وحدهم ، بل يمتد أيضا الى سكان حى كارتى مبروكة ، بعد ان زال عنه كابوس الماخور . سكان الحى يعلمون ما يحدث فيه من احداث وما يستجد من أوضاع . حينما انتقل دربال الى الحى ليعمل مدرسا فى مدرسته فوجىء بكل النوافذ مشرعة ، ورؤوس النسوة تطل على موكبه والأطفال يسيرون جماعات وراء العربة التى حملت حاجاته . وعلم من بعد ان موضوع سكنه كان من الموضوعات التى جمعت بين العائلات فى البيوت والشارع على مسمع من النساء والباعة والأطفال ، كما كان موعد وصوله معروفا ، وكان الكل فى انتظاره فى تلك الليلة التى تعمد أن يصل فيها تحت ستار الظلام .

وفى الصباح حياه الجزار وسأله عن والده وعائلته دون سابق معرفة . وترك حلاق الحى رأس زبون ومسح يديه فى منديله وخرج اليه وناداه باسمه الكامل وعانقه عناق من غاب عنه حبيبة سنوات طويلة . أما العطار فقد كان اكثر تحفظا فى استقباله فمد اليه ثلاث اصابع من كفه ، وشغل الاصبعين الباقيين بالقبض على شىء من بضاعته ، ثم حياه بكلمات قليلة لا تنم عن ود أو مجاملة .

وتدخلنا الرواية من بعد فى صميم حياة سكان الحى : المعاملة الممتازة التى يعامل بها بائع الخضر زبائنه : لا يرجع قفة لمدين خالية ، ولا يشتكى من يماطل أو يلجأ الى حرق الحسابات تفاديا للدفع . وتجر هذه المعاملة الممتازة على بائع الخضر سخط الجزار والعطار والخباز والحلاق . والرواية ترسم شخصياتهم بدقة وحيوية وتمتعنا بوصف ما يقوم بينهم من شجار ومصالحة . ويبرز الجزار من بين هؤلاء بروزا خاصا . فهو عنيف ، لا يعترف لأحد بسلطة عليه . تخافه الشرطة ويهابه الناس ، خاصة منذ أن تدللت عليه احدى بنات الهوى فداهم مسكنها فى وضح النهار

وحملها الى دكانه كما تحمل الذبيحة وقضى منها وطره ، بينما كان من فى الخارج من السكان يطلقون صيحات الفزع لظنهم ان الجزار يسلخ جلدها سلخا ، لشدة ما كانت تطلق من صراخ . وفى الصباح فوجىء الكل بالمرأة ـــ اسمها خبرة ـــ تخرج من الدكان وهى تتمطى وابتسامتها على شفتيها كأنما هى خارجة لتوها من مشاهدة فيلم ممتع !

كذلك تطلعنا الرواية على الجانب الخفى فى حياة بعض نساء الحى . بعضهن يوسطن عجوزا كى تجمع بينهن وبين المدرس ليرجونه تسجيل اسماء ابنائهم أو رفع شكاواهم من الامتحانات وكان المدرس قد اشترط ان يقابل هاته النسوة فى صحبة ازواجهن أو أولادهن . فقالت له العجوز ذات يوم : ما الذى يحوجهن الى اصطحاب أزواجهن ، والمرأة دائما لها ما تخفيه عن الزوج ؟ قال المدرس : ألهذا كنت تقولين انهن غاضبات ؟ فردت العجوز : المرأة لا تغضب يابنى . المرأة كقلب الخس ريان على الدوام . ثم رجته ان يستقبل « صبيحة » ، التى سوف تتزوج بعد ثلاثة أيام وأن يخط لها سطرين أو ثلاثة سطور . سوف تجيئه متنكرة ، والعجوز ترجو الا يرد لها طلباً .

وتأتى صبيحة ، فاذا الأمر كله مكر فى مكر . لا البنت طلبت سطوراً ولا فكرت حتى فى الطلب . انما كان تطلب المدرس نفسه ، واذ تعطيه جسدها عطاء سخيا ، تسأله : هل سيحضر حفل عرسها يوم الجمعة القادم . ثم تمد يدها الى حافة الطاولة وتطوى دينارا ، وتغوص به فى ملابسها التنكرية وتنصرف .

بعد شهور تكتشف الشرطة جثتين لرجل وامرأة . اما الرجل فهو رئيس دربال وكان قد حذر مرءوسه من مغبة الاتصال بالنساء . وأما المرأة فكانت صبيحة ، هشم زوجها رأسها ورأس المدير عقابا لهما على الخيانة .

ان هذه الحادثة الأخيرة تثير لدى القارىء سؤالا محددا . لماذا يستشرى الشر فى نفوس كثير من شخصيات الرواية ، مثقفين ، ورسميين وشعبيين ، الى جوار محترف الشر بالطبع ، من سكان الماخور ؟ حبيبة تجمع بين دربال وزوجها ، ويقول دربال فى سذاجة : ان هذه المرأة قد تعلمت ان تخلص بروحها لرجل ، وبجسدها لرجل آخر (وهو غير صحيح بالطبع ، من حيث ان علاقة حبيبة بدربال قد كانت جسدية فى معظم الوقت) ورفيق ، زوج حبيبة ، الذى تزوجها رغم تفاوت وسطيهما الاجتماعيين ورغم معارضة كبرى من اسرته ، لا يلبث ان يخونها ويصادق لمياء ، وهى الأخرى متزوجة ؟ وهذه الفتاة الشعبية صبيحة تعطى جسدها لدربال بعد ان عقد قرانها ، وتهيأت لاتمام الزواج بعد أيام ، ولا تنسى ان تقبض على دينار من مال دربال لقاء اتعابها ؟ وكيف يأخذ المرء رد الرسميين على احتجاج الناس على السماح باقامة ماخور الى جوار قبة ولى الله ؟ :

« كلما تعددت مواطن الرذيلة ، كلما كان طريق الفضائل أين » . أهذا كلام جاد ، أم هو يطوى وراءه إغضاءً متعمدا من السلطات كى يتلهى الناس عما ينبغى ان يشغلهم من الأمور الجادة ؟

تبرع الرواية أيضا فى وصف الطبيعة واستحضارها وتكاد تحولها الى واحد من شخوص الرواية . مثلما يحدث فى المرقص الذى ذهب اليه رفيق ولمياء ، كل هاربا من قفص الزواج : « دنا البحر من جديد الى حد لامس فيه البللور ، وتسمر عند الواجهة بعين غضبى ، ولم يعد بامكان أحد أن يزجره . تطامى وغلا واسترخى مده من جديد .. وخفق لألاء العدس وضاء على لجته . وفى لحظة واحدة زلزلت القاعة فى دوى رعد مهول ، وغدا كل شيء عنيفا . ثمة ستة من الزنوج . ستة من الزنوج يجهدون انفسهم فى جعل طبولهم تسمع على حدود التشاد .

وكانت الراقصة قد ظهرت قبل ذلك ، اتسعت الأضواء فجأة على وجهها ، وشرعت تمد ساقها اليمنى الحافية الى الأمام وترعشها لبضع دقائق ، ثم تستدير فجأة بكامل قامتها وتجعل نصفها الأعلى فى شبه جنون .. وفى انتفاضة خاطفة كان الجسم كله قد تحول الى خلية نحل ، مقبوض عليها فى يد عفريت . الصقت راحتيها الى كفها . وجعلت تتلوى ، كمن اصيب بالصرع ، واتخذت شفتاها المزموتان وضعا شهوانيا مندعراً ، ولمع العدس على كل لون بأطراف الملاءة التى تغطى المقدمة والمؤخرة من جسمها وتكشف عن جانبى ردفيها وجماع صدرها الذى اكتفى بمشدات من الدانتيل المشبك لا تخفى من نهديها غير الحلمتين ...

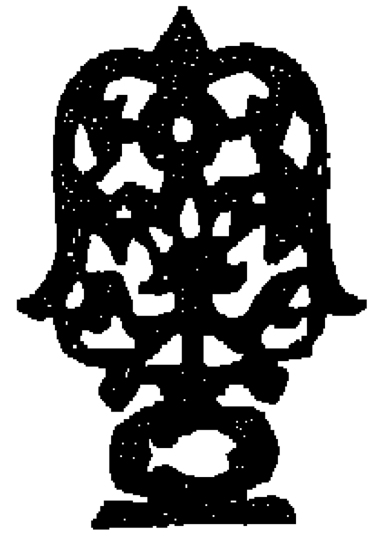
وفى لجة الموج كانت المناطيد تسبح ، واضواء البحارة تتقافز فى المدى البعيد والبحر يصطك وينشر الواحة ، وظلال النُدُل الذين كانوا يحملون بأيديهم الأطباق المليئة تغرق متعرجة فى الأمواج الزرقاء من خلال الواجهة . قالت لمياء : انها ليلة الجنون .

وفى لقاء آخر مع لمياء — سابق على هذا — رأى رفيق زوبعة عاتية تهب غربى البحر المتوسط وتقتحم احد مراسيه ، وتسحب فى فورة هياجها الصخَّاب يختا وديعا صنعه أحد الصيادين ليقدمه هدية فى حفل زفاف ابنته . طغت الأمواج فأغرقته . وعلى مشهد من جميع البحارة ، هوى اليخت الى القاع دون أن يستطيع أحد نجدته . هوى قلب رفيق الى اليم الذى التقمه . اصبح اليخت فى القاع يتوسد نباتات المرجان تخفره دوريات من السمك الملون . وعلى الشاطىء عدد من مجاديف القراصنة تضرب فى اتجاه الريح على غير هدى .

فى المثلين سالفى الذكر يرتبط البحر بمصائر الناس ، مؤثرا فيها ، مهيئا الطريق لأحداث تحدث ، ولعل هذا ما دفع المؤلف الى أن يطلق على روايته اسم : « البحر ينشر الواحة » .

بوُ دُودَةْ مَاتْ

محمد شاد الحمزاوى



فى حوار عذب يدور بين فطومة وحبيبها محمود ، تقول له البنت : « اذا حبيت كل شىء فى الدنيا يضيع منك كل شىء » تريد أن تقول : اذا شغلت نفسك بكل ما يدور حولك من أمور ، ضاعت منك الدنيا جميعا وضعت انت . وبهذا وضعت الفتاة الغريرة الأمية اصبعها على نقطة الضعف فى محمود .

فطومة ومحمود أفقر الفقراء فى قرية صغيرة من قرى تونس . مات أبو فطومة بالسل ، فجعلت تعين امها على الحياة بالعمل فى البيوت : غاسلة أو منظفة أو ما اشبه . ومحمود يوازيها فقرا . يشتغل بأى شىء يعرض عليه : حمالا ، أو كاسر أحجار . يأكل متأففا خبز الشعير الذى تقدمه له أمه ، ويحتج لأن خبزه دائما شعير ، وبيض الدجاجة التى تربيها أمه لا تعرفه مائدته أبدا . غير انه واسع القلب بالفعل ، راغب فى خدمة الناس ، مغرم بالعمل الجماعى ، يحاول أن يؤديه فيناله من ذلك أذى كثير ، بعضه يدفع الى الأسى ، والآخر يثير الضحك ، وثالث يبعث على الشجن .

يقول له صديقه الصدوق « البرسيس » ــ سالم اسمه الحقيقى ــ وقد سمعه يشكو التعب : « انت تعبان لأنك تتكلف بأمور اكثر من طاقتك .. انت تحب تساعد كل واحد : تكافح الجراد ، وتذهب فى حملة الاستسقاء مع الأولاد ، وتجعل احد همومك الكبيرة « بو دودة » ... الى متى كل هذا ؟ جننتنى ، كأنك تحب أن تصبح ضمير الدنيا . يا أخى اهتم بحاجة واحدة .

ولكن محمود لا يستطيع ان يقصر اهتمامه على شىء واحد ، أو شخص واحد ، أو مشكلة واحدة . ما أن يدعو الشيخ زيدون صديقه « مؤدب » الكتاب الى اخراج تلاميذه فى جولة استسقاء حتى يكون محمود على رأس فريق التلاميذ ، يحمل علم سيدى عبد القادر الجيلانى الأخضر الذى تدلت من اطرافه حروز وسمكة سمينة طرزت كلها بالعدس الملون ، ثم يأخذ

يساعد « المؤدب » على تنظيم صفوف التلاميذ ، فيخرج هؤلاء يمرون بشوارع القرية وهم يهتفون : « يالله ، ويالله : صب النور ان شاء الله » . وينظر محمود على علمه وحروزه والسماء الصافية تلمع فيها ، شمس حارة محرقة ، ثم ينظر الى الأطفال ويسمعهم يصيحون بكل قوة . فيبتسم فرحا بهم مشفقا عليهم ، وان لم ير علاقة بين كل هذا وبين الله والمطر والسماء الصافية . ويأخذ يتفكر ، وقد رأى مؤدب الكتاب يبكى وهو يردد : « يالله يا كريم ، صب النور يا رحيم » فيبكى الأطفال لبكائه ويتحول الاستسقاء الى مناحة . يدهش محمود لكل هذا ويبحث عن حل . لو تجمع أهل القرية جميعا وبكوا يوما كاملا لجمعوا مياها تكفيهم مؤنة الاستسقاء . وما عسى ان تكون النتيجة لو تجمع سكان الأرض وبكوا معنا ؟ هل ننجو من جفاف الأرض ويعود الخير الى البلدة ؟

ويصيح الناس : الجراد ! الجراد ! فمن فوره يتبع محمود الصائحين فيختطف سطلا من طفل صغير ويتناول حجراً ويتقدم صوب الجراد . ويضع محمود سطله ويجمع تبنا وروثا واعواد اكاليل يابسة جعل منها كدسا كبيرا ، ويقفز الى كوخ ويضرم النار ويأخذ يترقب مقدم الجراد ، ويضرب بشدة على سطله . ولكن الجراد يتقدم ويتكاثر ولا تزعجه شدة طرق محمود على سطله . كان الجراد يترامى عليه لاطما وجهه وصدره . ورغم المصيبة لا يفوت محمود أن يعجب بجمال الأسراب الزاحفة : تعلو وتهبط بنظام ، تتبع قائدها ثم تنقلب على نفسها بحركة لولبية ، وتتعالى وتهفو كالطائرات فتقع على الأشجار فتجردها من كل شيء . وزاد الجراد ففقد الناس حماسهم وهمدت النيران وقل الصياح ، ولم يبق الا قلة ظلوا يصلون آملين أن يرفع الله عنهم مصيبة الجراد . انهزم الناس أمام الجراد وقال أصحاب البساتين وهم يبكون : الجراد جردنا من كل شيء ، حتى من خشية الله . ما بقى فى هذه الدنيا خير . حتى امام الجامع دخل المبغى اليوم .

مرة أخرى ينهزم محمود فى عمل شارك فيه الجماعة . غير انه لاييأس ولا يكف عن بذل معونته للناس . كان قد لقى من قبل رجلا عارى الرأس حافى القدمين ، هبط من مؤخرة سيارة شحن ، واخذ يمر بساحة القرية الكبيرة حتى وصل الى وسط القرية ، والتعب بادٍ على مُحَيّاه . اسنده محمود الى حائط وقال له الرجل ان اسمه « بو دودة » ، ثم مضى فى طريقه نحو السوق واخذ يغذى نفسه ببخار الشواء ، ثم نظر الى الخبز الأبيض فاضطرب وانقض على رغيف وضعه تحت ابطه واطلق ساقيه للريح .

انتبه الخباز الى السرقة فانطلق وراء بودودة إلى أن ادركه فجثم فوقه وأخذ يوجه له اللكمات حتى ادماه ، وظل يدكه حتى فقد شعوره . اذ ذاك تقدم محمود الى الخباز وامسك به من كتفه والقاه جانبا بعد ان صرخ فى وجهه : ان كف فأنت تضرب فى رجل ميت . ويجيء رجل الشرطة

يسائل بودودة : لم سرق خبز غيره ؟ فلما لا يجيب يقبض عليه ويرميه فى الحبس ، حيث تجمع فى غرفة واحدة خمسة مساجين وتصاعدت الروائح الكريهة . ويحتج محمود على هذه المعاملة الخشنة فيزمجر فيه الشرطى : ارم علينا هذه المصيبة (يريد بودودة) واترك افكارك لك والا القيناك فورا مع المساجين . وخرج محمود وهو يفكر لنفسه : ماذا يفعل المسجون حين يضطر الى قضاء حاجته فى هذه الغرفة الضيقة ؟

ما ان يرى محمود بودودة حتى يهتم به من فوره ، اهتماما تلقائيا تحفره اليه رغبته الدائمة فى انقاذ المظلوم وتحدى الظلم اينما كان . حتى ولو جَرَّ هذا الاهتمام عليه المصائب ، مثلما يحدث فعلا فى حالة بودودة . يروح محمود يجند اصدقاءه كى يجمعوا من المال ما يسمح بدفع كفاله بودودة وتحريره من الحبس . وتمر به مغامرات مضحكة فى هذا المضمار : يجمع مالا ويخفيه تحت حجر ، ويفاجأ بأن المال سرق ، ويفاجأ أكثر بأنه متهم بسرقة المال . ويدخل فى عراك مع الأصدقاء ومع الخباز بسبب مناصرته لبودودة . يفاجأ محمود بالحجارة تنهال على بيته فتصيب اباه فى رأسه ، ويضطر هو ومعاونوه الى الرد بوابل من الحجر . وينهزم الخباز ويجرد محمود صديقه السابق عبد العزيز من ملابسه ويتركه عاريا . فلما ينبهه صديقه « صلح » الى أن هذه فضيحة يرد قائلا : وفضيحة تكسير رأس أبى وضرب بودودة أمس ؟ ويجادل صالح قائلا : لكن بودودة سرق رغيفا وتسبب فى نهب الخبز كله . فيرد محمود : سارق الخبز ما يتقتل . ما يكون مصير من يسرق فيللا مثلا ؟

وتتطور الأمور من بعد . يضطر محمود صديقه عبد العزيز الى السير عاريا فى الشارع ، فينتهز هذا أول فرصة ليقفز الى بيت فطومه ، حبيبة محمود ، فتراه فطومة وأمها وهو على هذه الحال الفاضحة يجن محمود ، ويقتحم البيت فيجد عبد العزيز والخباز متشبثين بملاءه فطومة يريدان سلبها ويصيح عبد العزيز : اعطنا ثيابنا والا أصبحت فطومة عارية مثلنا ! ويرضح محمود للتهديد ، بينما تصيح به فطومة : اخرج . هذه كلها اعمالك ، يا أمى اخرجيه . وتهتف الأم : جلبت لنا العار . اخرج يا ملعون ، اخرج ! ويدخل الأب ومعه عصا فيسلطها على بدنه وهو يقول : خربت الدنيا بشرك . هذا رأسى مكسور وهذه نساؤنا عاريات . جننت يا مجنون . ويهرب محمود مسرعا يلاحقه الأب والعصا لاتزال تدوى على رأسه وكتفيه وذراعه .

يذكرنا اندفاع محمود الى نصرة ما يعتقد انه الحق ، بناصر المظلوم الاحمق ، الباق على مدى الدهر : دون كيخوته . كلاهما يُضرب ، ويُطعن ، وتسيل دماؤه فى معارك مع الظالمين وكلاهما يتهم بالجنون ، ولا يصيبه من جهده الا اللوم والتقريع والاتهام . ومحمود وكيخوتة يوجهان للمجتمع هجوما شاملا ، لا يقف عند شيء أو عند حد . ولكن : من حيث ان دون كيخوتة

لا يصدق بان زمن الفروسة قد ولى ، وهو لهذا يحارب دفاعا عن الفروسة والشجاعة ، تجد محمود ينكر على صديقه سالم دعوته له بأن يكبر ويصبح بطلا . يقول محمود : البطولة ماتت مع أهلها وزمانها ، وخاصة مع فرسانها . البطولة للفرسان يابرسيس . الرجال كانوا فرساناً أبطالاً لأنهم ما عرفوا اهوالنا اليوم . يقول البرسيس : تقصد ان الناس اليوم يعرفون الأهوال اكثر مما عرفها رجال الزمان الماضى ؟ يرد محمود : لا ، لكنهم يخافون منها اكثر مما كان غيرهم يفعلون . ويتساءل البرسيس : أى انه اذا كان الموت وراء الدفاع عن الحق ، فضل الناس الباطل على الحق ؟ يرد محمود : فى الغالب . الرجل الشجاع يعتبرونه اليوم مجنونا . ويسأل البرسيس : تعنى انك انت شجاع ؟ فيقول محمود : لا . انا فقط متحمس لكل شيء .

محمود اذن هو دون كيخوتة هذا الزمان . زمان لم يعد ينفع فيه التطلع الى سيف على بن أبى طالب « ذى الفقار » واستلهامه الشجاعة والاستنجاد به فى حروب لا مفر منها مع الفرنسيس ، قاهرى البلاد ، ومع التونسيين المتجنسين ، المنحازين الى فرنسا . هذا التطلع الى الماضى والاستنجاد به هو ما يفعله « باهى » ، الحلاق الذى يرى ان لو كان على بن أبى طالب حيا لأعمل السيف فى الفرنسيس ، فجندلهم مائة على اليسار ومائة على اليمين كما فعل فى معركة وادى الصيصبان مع رأس الغول . أما اليوم وقد مات الامام فان الحزب الدستورى الجديد ، ممثل حركة التحرر الوطنى ، هو سيف سيدنا على الجديد .

ولكن «الطاهر» ، المثقف العصرى تلميذ المدرسة الصادقية لايرى داعيا لمقارنة الحركة الحزبية بسيف سيدنا على . ذاك زمان وهذا زمان . اليوم يلزمنا الطائرات والدبابات . ويرد صديقه ومحاوره عبد السلام ، من طلاب جامع الزيتونه : على كل حال الامام المهدى المنتظر يجيئنا ان شاء الله ! وعلى الجانب الآخر حوار يدور بين انصار فرنسا من التونسيين ذوى المصالح مع الاستعمار . يقول « المراقب » ان الحكومة قد نبهت بأن يوضع انصار الدستوريين فى الحبس اذا هرجوا . فيقول شخص يدعى المولوى : الجماعة يحبون ان يصبحوا أعيانا محترمين مثلنا ، ويحكموا فينا . لو تذهب فرنسا لأكلنا بعضنا ، وزحفت علينا قبائل الرطيبات والمحاميد وأولاد الشيخ ، تأكلنا وتأكل أرضنا .

ويملأ الجو حديث عن غارة ضد الفرنسيين وانصارهم ، وتحدث الغارة فعلا ، ولكنها تتخذ شكلا غوغائيا مدمرا ، تنهب فيه حوانيت التجار لا فرق بين مسلمين ويهود ، وسرعان ما تتصدى لها عساكر السنغال ، ويحاصر العسكر الحى والقرية ويسوقون الناس دون تمييز . وفى المعركة يموت البرسيس ، صديق محمود الصدوق ، يموت وهو يحاول ان يحمى بودودة من رصاص العسكر .

اما محمود فتلبسه تهمتان منكرتان . كانت « صوفية » ابنة المعلم علي قد راودته عن نفسه وعرضته لاغراء شديد . أعجبها فيه جسده الفارع المتين البناء ، وجرح كبرياءها اعراضه الدائم عنها وتمسكه بحبيبته ، فسعت حتى اختلت به واستجاب شبابه لشبابها الطرى الفواح . هى الابنة المدللة ، نتاج المدينة المترفة ، المتعلقة بفرنسا ، والمتصرفة تصرفات مثيلاتها من شباب الفرنسيات . تؤمن بالحب الحر ، وتقول لمحمود أنها تريد منه ولدا وحسب . ويعطيها محمود الولد ! و كان محمود قد قبل ان يحفظ لاحدى اليهوديات جواهرها ، بعد أن هاجمها غوغاء المغيرين ، وبعد ان قبلت يده امعانا فى الرجاء ، فدس الحلى فى جيبه . فلما انتهت الغارة وذهب محمود ليرى بعينيه ان كان البرسيس قد مات فعلا ، فوجىء بشرطي ومعه ضابط فرنسى يطلبانه للمحاكمة . لقد تعدى على شرف ابنة المعلم ، ثم زاد فسرق الجواهر ، ومن ثم اقتيد محمود الى السجن . لم تستطع اليهودية انقاذه . ولم ير أحدا من أهله والسيارة تمرق به متجهة الى السجن . لم يتبعه الا بودودة الذى مد يديه وجرى بكل سرعة ليبلغ السيارة . ثم غاب عن نظر محمود كل شيء . تكاثف الغبار واختفى عن محمود منزل المعلم وفطومة وأهله الذين ظلوا ينتظرون مروره أعلى القرية .

هكذا آب محمود من مغامراته بالفشل الظاهر . دخل السجن ، بعد أن كُبِّل بالتهم الباطلة . دخله ، وصوت عبد الرحمن بن مريم الخيرية ، عميل الجندمة الفرنسية يدوى فى اذنه : « اسمعوا يا ناس ! فرنسا يا ناس دولة قوية . شوفوا كيف سجنت السارقين جزاء سرقتهم . كل سارق تعاقبه فرنسا عقابا شديدا ، الله يسترنا منه » . دخل السجن وكلمات حبيبته فطومه تطوف بنفسه : « اذا حبيت كل شيء فى الدنيا يضيع منك كل شيء » . وكلمات صديقه الصدوق البرسيس : « كأنك تحب ان تكون ضمير الدنيا . يا اخى اهتم بحاجة واحدة » . وقد كان هذا كفيلا بأن يبعث اليأس فى نفسه ولكنه وجد فى السجن شابا واقفا ينظر الى السماء ، يبحث عن نجوم نهارها . فسأله : انت أيضا سرقت ؟ قال الشاب : أنا ما سرقت ، بل نهبت . فضلت النهب على الموت جوعا وعلى البطالة . قال محمود : لكن النهب جرنا للحبس وقضى على حريتنا . اجاب الشاب : انا حريتى فى بطنى وبطن بنتى وزوجتى العريانة . اذ ذاك أخذ محمود يتفكر . هذا شاب عرف حريته ولم تخفه نتائجها . اما هو ، فما هى حريته ؟ وَدَّ فى تلك اللحظة لو خرج يقنع والديه واخته ببراءته من السرقة . واشتهى لو كان قريبا من فطومة يداعب شعرها وينظر فى عينيها فيقنعها انه لها وانها له مادام حيا لم يمت .

سيخرج محمود من السجن يوما ما . وقد يحقق ما كان يقوله لصديقه البرسيس ، قبل ان تجرى هذه الأحداث الكبرى : « تعرف يجينى يوم أصبح فيه هادئا واتزوج وتنتفخ اوداجى وتطول لحيتى » فليس محمود ثائرا محترفا ، وانما هو ــ فقط ــ شديد الاهتمام والحماس لما يدور حوله .

وهذا هو الذى يدفعه الى الاهتمام بالأفراد والجماعات ، والقضية الكبرى وليس ايمانه بالمبادىء المحددة والشعارات . ان حلمه الباقى هو ان يكون رجلا ككل الرجال . يهدأ ، ويتزوج وينجب . ولعل هذا من حسن حظ فطومة ، التى تركها وراءه ، وقد ملأ بطنها فى ليلة هادئة ، خلت لهما فيها الدار فتبادلا الوصال دون نظر الى العواقب !

« بودودة مات » رواية من نوع خاص . يقرأها المرء فيجدها تخرج ، أمام عينيه ، من بطن الف ليلة . ليس فقط بسبب لغة السرد التى تشبه من قريب لغة الف ليلة ، بل لأن احداثها لا تتبع خطا واحدا متصلا ، بل هى مجموعة حكايات تصب فى الوعاء العام للعمل . ولنأخذ هذا المثل : « صاح محمود فى الخباز فتقدم حتى وصل قرب عبد العزيز . نظر حوله مرتجفا ثم رمى قميصه بسرعة ، واستند على صاحبه خافيا رأسه مثله بين ركبتيه . اشار محمود الى حميد بن عمار أن يفعل مثلهما ، لكنه استعصى ، فتأخر وهرب مفضلا تهشم الحجارة على ظهره . بقى شبان آخرون لا يعرفهم محمود . نظر اليهم مليا ثم تركهم . أمر العاريين بالقيام فارتدا فهددهما فقاما ومشيا امام محمود وأصحابه . رأتهم امرأة فصاحت واختفت وراء بابها . فكان عبد العزيز اكثرهما اضطرابا وما كادا يبلغان منزل فطومة حتى قفزا ودخلاه ثم اغلقا الباب . كاد محمود يجن لما رآهما يدخلان عاريين على فطومة وأمها . ركض وضرب الباب بكتفه فهزه فوجد عبد الغزيز والخباز ماسكين فطومة يريدان سلبها من ملايتها الجديدة فلما رأت محمود صرخت : اجرى يا محمود ! اجرى ! فتلوعت امها وندبت خديها . صاح عبد العزيز : اعطنا ثيابنا والا تصبح عارية مثلنا » .

هنا ليست لغة السرد وحدها هى التى تذكرنا بألف ليلة ، بل ان واقعة سرقة بودودة للرغيف ، والطراد الذى جرى والضرب ، والاعتداء على بيت محمود بالحجارة ، ولجوء هذا الى الرد ثم الانتهاء بتجريد عبد العزيز والخباز من ملابسهما وامرهما بالسير عاريين فى الشارع ، كل هذا تحضر فيه الف ليلة حضورا قويا ، واقعة وسردا وروحا . والواقع ان « بودودة مات » هى مثل هام من امثله تخلق الرواية العربية المعاصرة من بطن حكايات الف ليلة . فالذى يحدث هنا ان الرواية لا تستحضر الف ليلة وتتخذ من حكاياتها وسيلة الهام لعمل جديد ، بل ان الف ليلة تلد « بودودة مات » امامنا ، على نحو ما ولدت المقامة الرواية المعاصرة فى حديث عيسى بن هشام للمويلحى . فى الحالين جاء الوليد مشابها للأم فى مواضع كثيرة ومختلفا عنها فى مواضع أخرى . وساعد على شدة التصاق « بودودة مات » بألف ليلة ، ان حوادث الرواية تحدث فى قرية صغيرة من قرى تونس لاتزال تحتفظ بروح العصور الوسطى واحلامها ، ومناقشاتها وجدلها الدائم حول الدين والفتيا ، وأحوال البشر .

ومن جهة أخرى تنضح الرواية بحب العرب والمسلمين اينما وجدوا وتتمثل الحلم العربي بالوحدة الشاملة ، وتورد القصة المؤثرة التي يرويها الشيخ ابن زيدون الذى فقد وساما من اوسمته العسكرية الفرنسية لأنه كلف ان يحفظ الأمن امام جامع الأمويين بدمشق . فما كاد يصل الى الجامع حتى أهلت عليه مظاهرة شعبية ، هم بأن يطلق عليها النار امتثالا لأمر ضابط فرنسى فناداه الدمشقيون : لا ! لا ! يا مغاربة اخوان ! يا مغاربة عرب اخوان ! فارتعشت يده ودار حول نفسه آمرا جنوده بالانسحاب . فرفعته الجماهير على الأكتاف هاتفة : اخوان يا عرب اخوان ، ولو طال الزمان ، اخوان ! اخوان ! اخوان !

والرواية عامرة بذكر التراث الشعبى المتمثل فى « الحلاقى » ، أو حلقات السمر ، والسحر ، والرواية ، وبها طائفة من الشخصيات الفذة ، على رأسهم ابو قاسم النباح ، الذى استعاض عن الكلام بالنباح والذى دخل على الناس ذات يوم وهو ينبح ، شاهرا عصا باحدى يديه وماسكا باليد الأخرى قطعة صوف يجرها وراءه ويكنس بها الطريق . من يومها اعتبره الناس ولياً من أولياء الله ، هجر الدنيا ومساوئها وزهد فى كلام الناس ، ففضل عليه النباح ليخاطب الرب الأعلى . وكانت النساء اكثر أهل القرية احتفاء بابى القاسم ، أدخلنه بيوتهن وتجمعن عليه يعرضن مشاكلهن . وقصدته أم البرسيس ، كى يدعو لابنها بالنمو والفلاح فى الكتاب ، فقد كان البرسيس قصيرا لدرجة القماءة . ودخل ابو القاسم منزلها وجلس وفجأة نبح وزمجر وانقض على الأم وابنها بعصاه ، ففرا منه الى الباب ونزل النباح الى الشارع راكضا الى السوق .

وبين الشخصيات أيضا ابو القاسم العيَّارى ، الذى كان يرتدى لباس النساء ، مدعيا انه المرأة الوحيدة التى تبيع لحيتها للرجال . فقد كان للنساء لحى بعنها للرجال فى بر الهند . اما هو فلم يفعل ! وبينهم أيضا العامل خليفة ، الذى اشترى سيارة « رينو » قديمة هزيلة ، ادخلها الجاراج وكان يزورها كل صباح فيدور حولها ويمر بيده عليها ثم يغلق عليها الباب !

تحتفى الرواية بالحياة الجماعية فى القرية ، فتصف الحصاد ، والسوق ، واحوال افقر الناس من حمالين وسقاة ماء وتجار وأهل حرف ومغنين ورواة قصص ، ومشتغلين بالأسحار . وتعنى بذكر ما يجرى فى الكتاب من وقائع مؤسيه ومضحكة حين يُعمل المؤدب عصاه فى التلاميذ وهو يلقنهم الدروس ، ويسب الآباء والأمهات والحسب والنسب . وترسم صورة فاتنة لهذا اللون القديم من ألوان التعليم ، حيث « المؤدب » فيه يجمع بين المدرس والأب لتلاميذه ، ويخلط قساوته عليهم بالفكاهة أحيانا ، ويأسى كل الأسى لما يصيب القرية من عوادٍ ، مثل واقعة الجفاف ، التى يتصدى لملاقاتها بتنظيم جولة استسقاء .

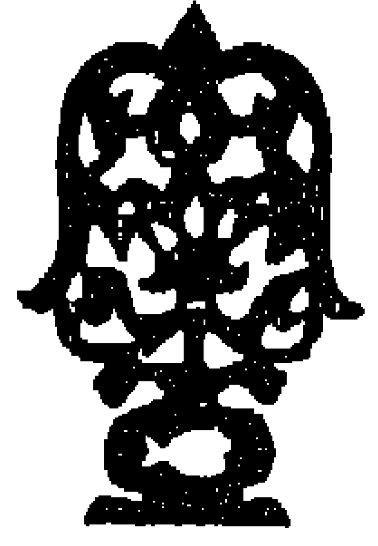
والرواية بهذا الوصف ليست رواية ابطال ، وانما هى رواية جماعة من الناس ، وطوائف

وطبقات تعيش جنبا الى جنب وتقوم بينها علاقات متوافقة حينا ومتنافرة احيانا. ولئن جنحت الى تمييز شخصية محمود عن باقى الشخصيات ، فما كان هذا الا لبيان الفكرة الرئيسية التى تعبر عنها الرواية ككل، وهى فكرة التضامن بين الناس، التى تبناها محمود بصفة خاصة، والتى عبر عنها الكاتب ، محمد رشاد الحمزاوى فى اهدائه ، اذ يقول : الى جميع اخوانى .. متضامنين .

ان « بودودة مات » رواية ذات أبعاد وأعماق ، وان اغرتك سلاستها الظاهرة على الاعتقاد بأنها أميل الى العمل الخفيف الذى يرسم الصور ، ويجمع الطرائف ، ويسعى الى التفكهة . انها ـــ فى الأساس ـــ عمل تونسى عربى جاد ، يعلى من شأن الانسان ، ويتخذ المواقف الواضحة ضد أعداء الشعب من استعماريين وعملاء ممالئين للاستعمار .

التوت المر

محمد العروسي المطوي



ينبغي ان نقرر منذ البداية ان « التوت المر » رواية تعليمية ، تعلى شأن الهدف الذى ترمي اليه . ولا تتركه قط يغيب عن الأذهان والأعين بأن تسربله فى اغطية أو تدفع به الى منطعفات ومنحنيات . والهدف الذى تحاول الرواية أن تبلغه هو اعلاء شأن الوطن ، بالوقوف بصلابة ضد اعدائه من المستعمرين الفرنسيين ومن يتعاونون معهم ، ثم ابراز العيوب التى تعترى المجتمع ، وكشف من يتورطون فيها بحسن أو سوء نية ، ثم العمل على تكتيل الجهود التى ترمى الى تخليص المجتمع من بعض آفاته ، وعلى رأسها تدخين الحشيش .

و« التوت المر » ـــ الى هذا ، تقف الى جانب بسطاء الناس ، وتأخذ بأيدى افقر الفقراء فيهم ، وتعلن صراحة عن حقهم فى متع الحياة ، وتدفع بالأحداث الى أن يتمتع بعض من هؤلاء ـــ فى النهاية ـــ بما يتمتع به غيرهم ممن هم اوفر حظا . وفى وقفتها هذه تقترب « التوت المر » من واقع حياة الناس ، وترسم صورا متتالية لهذا الواقع وتعنى بوصف عادات الشعب وتقاليده فى فرحه وحزنه وفى اعراسه وشعائره الدينية والاجتماعية ، مما يجعلها لا مجرد دفاع عريان عن شعب تونس ، بل وصف بالصور الفنية لهذا الشعب فى مناحى حياته المختلفة . لهذا يقرأها القارىء فى استمتاع ظاهر ، ولا يشق عليه ان يتابع احداثها السهلة الجريان . وأحسب أن هذا هو بعض السبب الذى من أجله توالت طبعاتها حتى بلغت العاشرة فى عام ١٩٨٤ .

طلب الى محمد العروسى المطوى ذات مرة : أن يصف كتابته فقال : انا لا أجنح الى الخيال بقدر مما اجنح الى تصوير الواقع التونسى فى الظروف الماضية بالنسبة لجيلنا . لقد عشنا الكثير من الأحداث سماعاً وعن طريق العمل الايجابى أيضا ، ونحن نسجل تلك الأطوار لمعرفة التحول الاجتماعى والاقتصادى . وذلك أن الرواية ـــ كفن ـــ تتيح لنا المقارنة بين تحولات الأجيال ، وهى

أيضا مفيدة لخدمة التحولات الاجتماعية . اننا فى عصر المسئولية ووسائل التعبير الفنية تتيح لنا تصوير احاسيسنا واحاسيس مجتمعنا ، بغية النهوض بالانسان .

وسنرى من استعراض ما يجرى فى « التوت المر » ان هذا ـــ بالضبط ـــ هو ما يفعله الكاتب .

تبدأ الرواية والشيخ مفتاح يتلمظ بقية كوب من الشاى انتهى من آخر رشفة فيه . والشيخ مفتاح هو افقر الفقراء فى الرواية ، واتعسهم حظا . هو ليبى شتت شمله وشمل اسرته برابرة الاستعمار الايطالى ودفعوه الى أن يهيم واياهم على وجوههم حتى لقد ولدت احدى بناته ـــ مبروكة ـــ والأسرة تمشى فى الطريق ، فأصبحت البنت لا تنتمى الى وطن . وكان الشيخ قد انضم الى صفوف المقاومة ، وعانى الأهوال فى قتال المستعمر الايطالى وانتهى الأمر بانهزام حركة المقاومة اثر خديعة من العدو ، فتشرد عشرات الألوف ومن بينهم الشيخ مفتاح وزوجته حتى وصل الزوجان أخيرا الى الحدود التونسية . فاختار مفتاح أن يعمل عاملا فلاحيا كسبا للقوت ، غير أنه ما لبث الى أن ألجىء الى الانتقال من « قصر مدنين » التى لجأ اليها أولا ، الى مطماطة .

وفى الطريق الى هذه البلدة الأخيرة ولدت مبروكة ـــ كما تقدم ـــ وطاف الثلاثة بأغلب الجنوب التونسى ، ثم انجبت الزوجة البنت الثانية : عائشة وازداد شقاء مفتاح وابنتيه من بعد . فقد فاجأت عاصفة رعد هائل الصغيرة عائشة ونزلت صاعقة قرب منزل الأسرة ، فارتاعت امها واسرعت تحتضن الابنة من فرط خوفها ، واذا بهذه الأخيرة تتشنج ويصيبها الصرع ، وتفقد الوعى . وعبثا حاولوا علاجها ، فانها لما استردت صحتها تبين للأسرة البائسة أن البنت قد أصبحت كسيحة مشلولة .

على ناحية مقابلة تقف أسرة الحاج على ، وهذا الأخير من وجهاء القرية وخيرة رجالها . يملك ضيعة فيها النخيل والشجر المثمر ووفرة من المال . والحاج يعمل فى أرضه بنفسه ، غير انه اعشى ، لا يستطيع أن يخدمها ليلا . فلما جاء الشيخ مفتاح ، اطمأن اليه الحاج واوكل اليه سقى البستان كلما كان دور الرى ليليا .

توثقت الصلات بين الأسرتين ، رغم التفاوت الاجتماعى البارز . تعرفت فاطمة بنت الحاج على الى عائشة الكسيحة المشلولة ، فمال اليها قلبها ، وذهبت تقص على أخيها عبد الله ما رأت . فتأثر الشاب لمصير البنت المسكينة وعلت وجهه سحابة من الوجوم ، ومن يومها أخذ يظهر الود لعائشة ، ويختلق الأعذار كى يراها . ويوم راح يزور مفتاح رأى عائشة جالسة على الأرض تمشط شعرها وتسرحه . كان شعرها فاحم السواد ، مسدولا يغطى كامل وجهها ويتدلى الى ما تحت منكبيها وصدرها . وكانت أشعة الشمس المتسربة من خلال أوراق الشجر تشكل

دوائر صغيرة على الأرض وتبذر شعر عائشة « بدنانير » ذهبية . نادى عبد الله اختها فاطمة ، فلما سمعت عائشة النداء ، فرقت شعرها ورمت به على كتفيها ، فبان وجهها الصبوح فى اطار من الشعر الفاحم . ونظرت اليه بطرف كاسر ، فأحس عبد الله بسهم يصيب السويداء ، ولم يتحمل نظرات هذه العيون الدعج فأطرق الى الأرض . ومن يومها وقع عبد الله فى غرام عائشة .

من أجل عائشة يخوض عبد الله صراعا حادا مع أبيه وأمه ـــ الأم خاصة . هدفه ان ينتزع منهما الموافقة على زواجه من عائشة . تشعر الأم بعار كبير . من يريد ابنها ان يتزوج ؟ معقدة ، كسيحة ، عنز جرباء ، حدبة بعير . ياخيبة الأم ، يا لعارها . ترى أيكون قد حدث بين الاثنين شيء ؟ ان الوالد صديق لشيخ التراب » ـــ عمدة القرية ـــ وفى وسع هذا أن يأمر بطرد مفتاح وأسرته بين يوم وليلة . يغضب عبد الله كل الغضب . لم يمس شرف البنت أبدا . كل ما هنالك أنه يريد انقاذ المسكينة واسعادها . سوف يضحى من أجلها بكل شيء . كل البنات سيجدن ازواجا . أما هي فلن تجد الا هو .

عبثا تصيح الأم . وهباء ما تردده من قرار الحرمان ، وما تلوكه من غضب الرب على من يعصى والديه . فان عبد الله يصمد صمودا عجيبا . وحين يقول له أبوه : ان كلامه جميل ، وقصده نبيل ، ولكنه لو تدبر الأمر بفكره فسيجد أنه ضحية عاطفة هوجاء . يرد الولد : بل ان عقله هو الذى قاده . ولو كانت العاطفة قادته لنفر من البنت . ويسأله الأب : مع كسيحة مقعدة ، من يدبر شئونها قبل شئونه هو ؟ اتراه يأتى لها بالخدم أو بالضرائر ؟ الشرع لا يسمح له بهذه الزيجة التى ستخرب بيت الوالد وتدوس شرفه . يقول الولد : هذا فى نظركم ، أما فى نظرى أنا ، فى نظر الرحمة والانسانية فلا .

ويتزوج عبد الله من عائشة بالفعل ، فينتهى الصراع الأسرى الذى خاضه الشاب اعلاء لشأن الفرد المهيض الجناح ، وسموا بالانسان نفسه . غير ان عبد الله يخوض صراعا اكبر واكثر أهمية ، هو التصدى للحشيش الذى يزرع ويتاجر فيه ويستهلك بموافقة تامة من حكومة الاستعمار الفرنسى، لأسباب واضحة: ابقاء الشعب فى حمأة الرذيلة وتغييب عقول الناس والقضاء على أسباب رخائهم ، ليصبحوا مطايا سهلة لقوى الاستعمار .

فرض هذا الصراع نفسه على عبد الله ، اذ وجد نفسه ذات ليلة سمر مع الأصدقاء يذوق الحشيش ويلتذ له ، ويقف فى مواجهة خطر ادمانه . وزاد من اهتمامه بمكافحة المخدر ، ان عائشة طلبت اليه فى براءة ان يوفر لها بعضا منه لما سمعت انه يخلق الأخيلة الجميلة ، ويبعد المرء عن واقعه المؤلم ويدفع به الى عوالم من اللذة غير مسبوقة .

ودخل عبد الله المقهى ذات مرة فوجد « سى حميدة » منهمكا فى تفتيت الحشيش وخلطه ،

واعداده للتدخين . كان « سى حميدة » هذا زينة القرية ، وحديث المجالس والدكاكين . جمع ثروة كبيرة ما لبث ان بددها فى تعاطى المخدر . فقد اسمه ، وعقله وماله وجاهه .

وهذا احمد الحناشى ضحية الحشيشة الملعونة يدخل الدكان الذى يعمل به عبد الله . انه يفضل كلبه مسعود على البشر ويطعمه السمك ويأكل هو الفول . وعلى مضض يقضى عبد الله له حاجته ، ويتهيأ الرجال للانصراف حين يدخل الدكان شيخ طاعن فى السن ويسمع بعضا من فلسفة الحناشي . يقول الشيخ : أهل العقول فى راحة . رحم الله من قال : تعيش الكلاب فى رؤوس المجانين . ولكن ما العمل والحشيش يباع فى الأسواق باذن من الحكومة ؟ يطعن قول الشيخ عبد الله فى قلبه ، وهو الذى كان قد تورط فى تعاطى الحشيش فيسأل العجوز : صدقت والله ، يا بابا ، لكن ماذا نفعل ؟ يرد الشيخ يمكننا ان نفعل الكثير . لم يجبرنا الحاكم على تعاطى الحشيشة الملعونة . لم يجعلها ضريبة . انها النفس الأمارة . انت طفل صغير ، أما أنا فأعرف . لم نعرف الحشيشة الا بعد أن عرفنا الجندرمى والمراقب . يقولون انهم جاءوا يعلموننا . يمدنوننا ثم يسمحون بهذه الموبقات .

هذا كله يحفز عبد الله الى العمل لمكافحة الحشيش . ورغم تخوف بعض رفاقه ، وتشكك بعضهم وهزء عضو بارز فيهم هو مختار من محاولات التكتل لمناهضة الحشيش ، يتفق الجماعة فيما بينهم على اقتلاع المزروع منه فى البيوت والمزارع فى ليلة واحدة وفى وقت واحد . ويتم للجماعة ما أرادت . وبالطبع يسوء قوى الاستعمار ما حدث فيذهبون الى بيت أحمد « العائب » ، عميل الحكم الفرنسى ، الذى فقد ساقه فى الجبهة الألمانية وهو يحارب فى صفوف الفرنسيين ، فعوضتها له فرنسا برجل خشبية ولطخت صدره بأوسمه القصدير ــ يذهبون لسؤال أحمد العائب هذا عن سر هذه الحركة الجماعية . ولا يدرى أحمد ماذا يقول ، فهو نفسه لا يعرف ، ولا يدرى ان ابنه ابراهيم قد اشترك فى هذه العملية . ويدخل ابراهيم البيت فيجد الجميع يتحدثون ، والفرنسيين يعدون احمد بوسام جديد لو هو واصل خدمته النشطة . ويكره ابراهيم ما سمع وينكر أمر والده كل الانكار ، ويهوله ان يكون عميلا لأعداء الوطن فيمضى من فوره الى متجر احمد العائب ويشعل فيه نارا تأتى عليه . وحين يتفجع الوالد العميل يقول له ابراهيم : اسمع يا والدى ، حتى لا يتهم أحد ظلما بما فعلت أنا ، أقول لك صراحة اننى اشعلت النار فى متجرك عامداً . لقد سمعتك تتحدث مع اسيادك ، مع جوزيف وفرنسوا وسمعت بأمر الوسام الجديد . وغص ابراهيم من شده الغيظ ، بينا سالت دموع الأب واحتبس الكلام فى حلقه وارتمى على الأرض منهد الأعصاب .

 اما أهل القرية فقد اعتبروا انتزاع الحشيشة بطولة من الاخوان . قالت عجائز القرية انه من

عمل الصالحين . ورأت احداهن فى منامها ان مجموعة من عصافير الجنة حومت فوق القرية ، حاملة فى مناقيرها اغصان الريحان والياسمين . وكانت إحدى الدرويشات ـــ ام العز ـــ قد الفت قصيدة فى ذم الحشيش ، فذاع امرها ، وتلقفها اعضاء الجمعية وتناقلوها وأذاعوها وهزجت بها صبايا القرية كلما طاب لهن السمر .

وحملت عائشة ، ثم انجبت لعبد الله ولدا . اذ ذاك حدث أمر قريب من المعجزة . فجأة امتدت رجلا عائشة واستقامتا وزال عنهما الشلل بعد الولادة .

ان وجدنا فى هذه النهاية الميلودرامية للرواية ما يعترض عليه ، فقد يخفف من هذا الاعتراض ان الكاتب يذكر ان عائشة قد اصيبت بصدمة عصبية عقب الرعد والصاعقة ولم يذكر انها اصيبت بالشلل من فورها ، اثر ضربة فى المخ أو فى الجهاز العصبى . وهذا أمر لو كان حدث لتعذر شفاء عائشة ان لم يصبح مستحيلا . أما والحال انها ريعت فقط ، فلربما كان الشلل والكساح انعكاسين نفسيين على الجسم ليس لهما صلة بصحة البدن . واذ ذاك يكون من غير المستحيل ان تعود البنت الى حالتها الطبيعية ، مؤيدة فى هذا بفرحة الانجاب ، وانجاب ولد ، لا بنت !

وعلى كل حال فان الرواية ـــ كما اسلفت ـــ مصبوبة فى القالب الشعبى ـــ رغم لغتها الرصينة ، المتقعرة أحيانا ، ورغم رغبة الكاتب ـــ فى غير موضع ـــ ان يكتب أدبا ينفصل شيئا ما عن احداث روايته . ومن تقاليد الأعمال الفنية الشعبية ان تحرص على مناصرة الخير ونجاحه ، وتعنى بأن تنتهى الأحداث نهاية سعيدة ، وهذا ما يجرى فى « التوت المر » بالفعل .

الى جوار هذا ، تحفل الرواية بشخصيات حية متمايزة : عبد الله النبيل ، الانسان الذى كله نقاء والذى لا يعترف بالحب الا اذا كان حبه لأمه . عبد الله هذا شخصية ميلودرامية بكل هذا النور ووضوح الهدف والرغبة فى التضحية مهما كانت فادحة .

والى جانب عبد الله حشد من الأصدقاء ، يبرز من بينهم مختار ، العابث الهازىء ، الذى لا تنقطع له حيلة ، والذى يرى فى مسلك ابراهيم تزمتا لاداعى لـه فيتحايل حتى يوقعه فى براثن الحشيش ، وان كان يندم على هذا فيمابعد ، ويكفر عن خطئه بالانضمام الى جماعة مقاومة المخدرات . وهناك أيضا ابراهيم ، الذى تتناوله شكوك الجماعة لأنه ابن عميل لفرنسا ، فيثبت فى ساعة الجد انه وطنى شديد الغيرة على صالح بلاده ، ولا يتردد فى احراق متجر والده ثم تحمل المسئولية كاملة عن هذا العمل ، ومواجهة الوالد العميل مواجهة فيها قسوة وصرامة واستعداد للتضحية ، كما ان فيها تحدياً واضحا ، اذ يقول لوالده : اذهب وبلغ السلطات ، فسأنتحر ولا أضع نفسى فى خدمة الاستعمار .

وبالرواية شخصية طريفة حقا ، هى شخصية دادا مسعودة ، وهى نشرة أخبار محلية متنقلة .

تطوعت منذ ان مات زوجها بالدخول فى كل منزل تكلم كل الناس . هى السافرة الوحيدة فى القرية . يقول الناس انها جاءت طفلة صغيرة من السودان مع قافلة تجارية من فزان وانتهى بها المطاف فى الجنوب التونسى . قيل انها اختطفت من احضان امها الزنجية . جاء بها الشيخ رمضان واضفى عليها عطفه ، واحسن تربيتها ثم زوجها الى بابا مسعود وزفها كأحسن ما تزف بنات القرية ، ولم يبال أن ينفق فى هذا السبيل مالا كان قد ادخره للحج ، معرضا عن اعتراض البعض بأن هذا حرام مستندا الى رأى امام القرية فى ان صنيع الشيخ رمضان لا يقل أجرا عن الحج .

وفى مجال ابراز الشخصيات والتمييز بينها تحدث الرواية مواجهة صاخبة مدوية بين عبد الله وأمه . جاءت الأم تعرض على ابنها عروساً انتقتها من بيت موفور المقام والمال ، فأعرض عنها ، وفجر فى وجه الأم قنبلة اعتزامه الزواج من الكسيحة عائشة . لا تصدق الأم ، وتظن ان ابنها مريض ، أو أصابه مس وتستدعى الوالد ليرى رأيه ، وترفض ان تغادر المكان حتى يقضى الأب فى شأن ابنه . وهنا نجد التمايز فى الشخصية بين الأم وزوجها . الأب يستخدم العقل ومحاولة الاقناع ، فلما يصمد الابن صمودا لا مهرب منه يقول الأب لنفسه : ان ابنه حيا خير منه ميتا . فقد كان المرض قد انشب مخالبه فى الابن بعد هذا الصراع الفادح ، وأصبح على الوالد ان يختار بين الابن أو قبره . فقال لنفسه : ان الولد لم يأت بفضيحة وانما جاء لى بمشكلة . ومن ثم يرضى الأب بالزواج ، وتمضى الأم فى عنادها فتقاطع ابنها وحفل زواجه ولا تدخل له بيتا ، وان كان المؤلف يومىء الى انها قد تغير رأيها بعد انجاب عائشة وبعد التحول السار فى بدنها .

وتحفل الرواية ايما احتفال بتصوير عادات اهلها فى الفرقة والوفاق معا . خذ مثلا واقعة ترك عبد الله لعمله فى مكان صالح الحمرونى ، احتجاجا على تدخل ابن الحمرونى فى طريقة عبد الله فى البيع وتعمده الاساءة الى الشاب . يترك عبد الله الدكان مقسما الا يعود ، ويبلغ الخبر الحمرونى فيأتى الى بيت الحاج على ومعه « جبهية » ، أى جمع من الأخيار يسعون الى الصلح بين الطرفين . هنا أيضا تتمايز شخصيتا كل من الأم والأب تقول الأم انها تخشى ان يطرد الحمرونى عبد الله من عمله ، فيقول الأب : يكون أحسن . الف باب مفتوح أمام عبد الله فلما تقول له ان كلامه هذا يغرى الولد بالمضى فى طريق تراه خاطئا يذكرها زوجها بأنها لم تسمع رأى عبد الله ، كما يلفت نظرها الى أن الحمرونى فى حال تعسة حقا ، بعد ان واجه منافسة شديدة من محل جديد افتتح الى جواره ، فلعله هو المخطىء لا عبد الله . ويستدعى عبد الله من المقهى ، بعد أن أصر والده على أن الرأى للولد أولا وأخيرا ، وان ابناء الجيل الجديد لا يؤمنون بمبدأ ـــ الابل تمشى على كبارها » . ويأتى عبد الله ، ويجد الجماعة فيتحرج ، ولكنه يصر على أنه

اقسم ، فلا يسعه ان يحنث بقسمه . ولما وجد الفتى اصرارا من « الجبهية » على المصالحة ، وضع لعودته شروطا : ان يسمح له بالراحة ثلاثة أيام وأن يكف محمد الحمرونى عن التدخل فى شئونه . ويقبل الحمرنى مبدأ الراحة ويعدله الى يوم واحد فقط ، وينصرف الجمع راضين ، ثم يكتشف الحاج ان امرأته كانت تتسمع الى ما يجرى من نقاش ، فيقول : ألم أقل لك ان لى ثقة فى ولدى ؟! فى هذا الموقف أيضا تعمل الشخصيات الثلاث بوحى من تركيبها النفسى . الولد اشم ، معتد بنفسه ، والوالد عاقل متزن ، والأم متخوفة ، معتدة برأيها حتى وان ثبت خطؤه .

ان رواية : « التوت المر » ، حديث حب الى الناس — الى افقر الناس خاصة ، وصيحة قوية ومطمئنة تقول ان الناس بخير مهما استشرى الشر فى بعضهم ، وان معادن الناس تبين حين يهدد الخطر الأرض والوطن ، وان الشباب قادرون على ان يخدموا اوطانهم ، ويخلصوا انفسهم مما تدفعه اليهم شرور المجتمع وشرور انفسهم من خطايا .

وهى الى هذا عمل فنى ، يظهر الجهد فيه بجلاء فى مشاهد مثل لقاء عبد الله بعائشة وخروج عبد الله من لدن اصدقائه وقد لعب المخدر بعقله ، فجعله يتخيل اشياء مضحكة يصفها المؤلف وصفا بارعا . كما يتمثل الفن الروائى فى استعانة الكاتب بالحلم ، يعوض به عبد الله عن أمله لأن عائشة كسيحة ، فيصورها له الحلم آية فى الجمال ، كما يعوضه الحلم أيضا عن خسائره الكبيرة فى لعبة الورق التى آلمته ودفعت زملاءه للهزء به .

قلت آنفا ان محمد العروسى المطوى يكتب فى روايته أدبا ينفصل شيئا ما عن احداث روايته . وسأثبت هنا بعضا من هذا الأدب ، وأعمل فيه الرأى لأتبين هل هو منفصل عن الرواية حقا ، ام انه يخدم الحاجة القصصية بطريقة أو بأخرى .

خرج عبد الله من مقابلته لعائشة والحيرة والخبال يتقاسمانه . لم يكن يتوقع أبدا ان تطلب اليه تلك الساذجة البريئة ان يعينها على تدخين الحشيش . لم يدر ماذا يفعل . خرج الى البرية .. انقطع عن القرية . تقول الرواية : « غابت الشمس وامحت آثار الشفق بالآفاق الغربية . غاب لهيب الجمرة العظمى ، وطفا الدخان فاسودت الدنيا واختفت عنه معالم المشاهدة . وكاد يرتطم بصخرة كبيرة فجلس فوقها واضعا رأسه بين كفيه الملتهبتين . وبقى ساهما لا يتحرك كأنه أصبح جزءا من الصخرة الكبيرة . تخدرت رجله واصابها « تنمل » فعاد به الى دنيا الاحساس . ونظر حواليه فلم ير الا الظلام الحالك والفراغ الشامل . الرؤى تمتد منبسطة لكن الى قرب . انه على مشارف الصحراء والبرارى الخالية » .

ونهض متثاقلا . « كم لعب مع اترابه من الأطفال فى هذه البرارى ؟ ليالى الصيف والقمر المزهر . براءة الطفولة وخلو البال . القرية لاتزال بعيدة . قطع مسافة طويلة قبل ان يجلس على

الصخرة . نظر الى السماء ! بنات نعش ، القطب الشمالى ، الثريا لم تظهر . كم الساعة الآن ؟ المجرة لم تقسم السماء نصفين . طريق التبانة . لماذا لا تحرق حرارة الشمس ذلك التبن القريب مثلها فى السماء ؟ لماذا لا تتجمع النجوم كتلة واحدة ؟ الا تكون فى قوة الشمس أو القمر على الأقل ؟ »

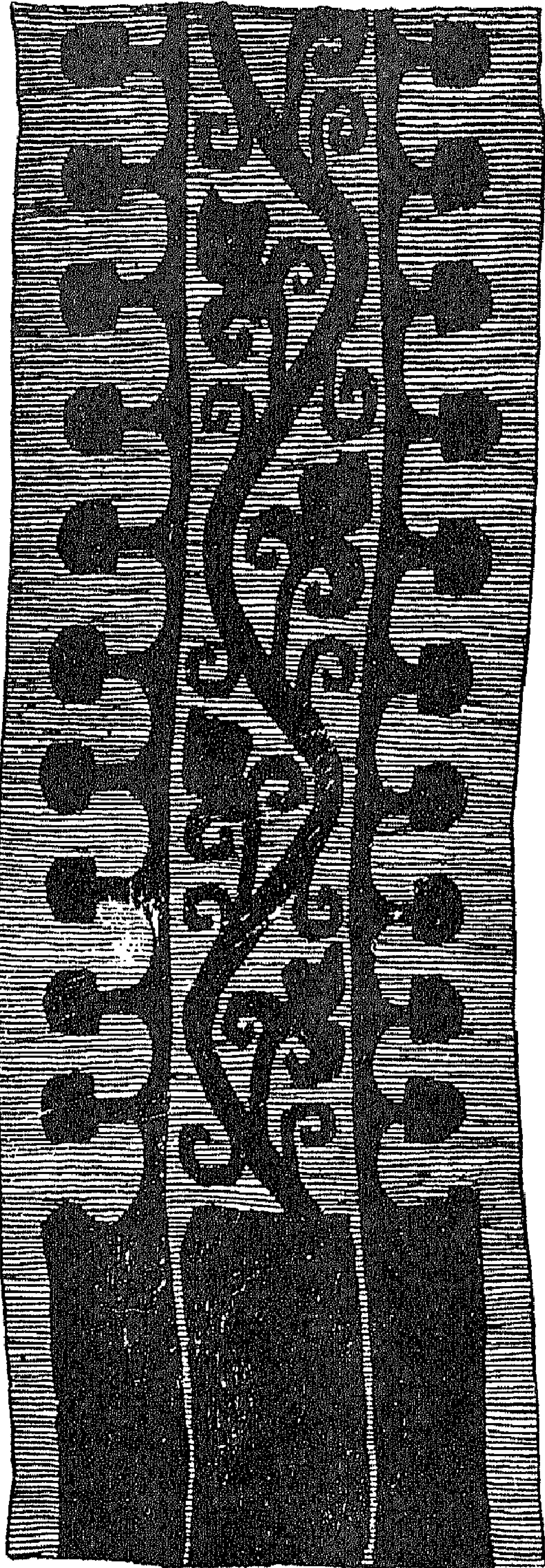
لو تفحصنا العبارة سالفة الذكر لوجدنا فيها من الوصف الأدبى ومن الخيال ومن الاشادة ببراءة الطفولة وسحر الطبيعة ما يضعها فى مصاف الأدب . غير ان قليلا من هذه العبارات ما يخدم اغراض الرواية خدمة لازمة . والعبارات كلها لا تؤدى الا غرضا واحدا هو التعبير عن حيرة عبد الله ودهشته ، وهو ما كان يمكن التعبير عنه بطريقة اكثر ايجازا بكثير . ولكن ريشة الكاتب لا تستطيع ان تمسك عن رسم الصورة ، ضرورية كانت أم كانت مجرد اضافة للسرد الروائى .

أما التوظيف الروائى الحق لوصف الطبيعة ، فانا نجده فى المشهد الذى يخرج فيه عبد الله من لدن اصدقائه وقد لعب المخدر برأسه فأراه من الرؤى والخيالات ما هو غير موجود فى الواقع : نهض عبد الله ليعود الى منزله بصحبة محمود . ولكن ما ان تخطى عتبة الباب حتى جلس على الأرض ودس رأسه بين ركبتيه . وصاح مذعورا : الثعبان ! الثعبان ! الثعبان ! وبذل محمود جهده ليزيل عنه الوهم والرعب فلم يفلح . وتمنى لو تمر سحابة فتغطى وجه القمر وتزيل هذا « الثعبان » من الطريق ثم ذهب الى ظل النخلة (الذى تمثله عبد الله ثعبانا) يرفسه برجليه ويطلب من عبد الله أن يفتح عينيه مليا ... ولم يجد مختار مفرا من الحيلة حتى يزيل عن عبد الله خوفه . جمع كثيرا من القش ووضعه بالشارع حيث يمتد ظل النخلة وأراق على الحشيش صفيحة من النفط واوعز الى خميس ان يشغل النار فى القش ثم يعود مسرعا ليخبر عبد الله ومختار ان الثعبان التهمته النار .

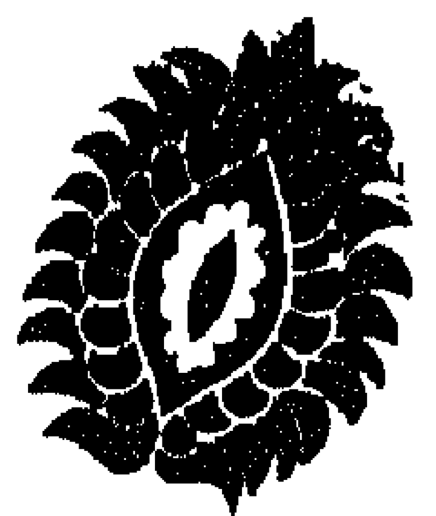
وانطلت الحيلة على عبد الله .. فخرج متسللا لا يكاد جسده يفارق الحائط ، ضاغطا بكل قواه على يد محمود ، يرفع رجلا ويحط أخرى فى حذر شديد ... ووقف عبد الله وشرع فى نزع ملابسه ليعبر عاريا هذا النهر الممتلىء ماء الى حافتيه ! انه ضوء القمر تسلل الى الزقاق من فجوة بين ساباطين . وخاض محمود هذا « النهر » بملابسه ! فرجع الى عبد الله قليل من رشده ، وسار ملتصقا بمحمود مطرقا حزينا .

واضح تماما ان وصف الطبيعة هنا يلعب دورا هاما فى نفس عبد الله ، وان هذا الوصف موظف لتصوير الحالة النفسية التى كان عليها عبد الله وهو يغادر الأصدقاء . وهو تصوير يؤدى غرضين على الأقل : اظهار هشاشة عبد الله فى مواجهة المخدر ، واظهاره فى وضع زرى يبعث على الضحك ، والغرضان يؤديان الى زيادة كراهيتنا للمخدر ، كما يعملان على تفاقم كراهية

عبد الله للمخدر حينما يصحو ويكتشف أية حماقة دفعه إليها الحشيش . هنا تخدم الصورة الأدبية الرواية وتدفع بأحداثها إلى الأمام ، ولا تفقد — مع هذا — قيمتها الذاتية .



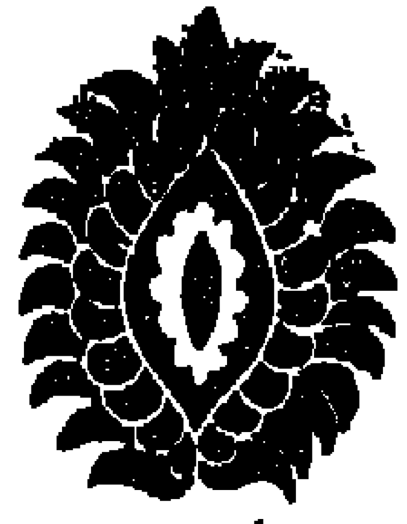
المغرب العربي الكبير



الرواية في الجزائر

عُرْسُ بَغْلٍ

الطاهر وطار



قال الفتى الشيخ وهو بين ذراعى بائعة الهوى الجميلة : ما الذى دفعك الى هذا الضلال ؟ قالت : ثقلت الجرة على رأسى ، فأسقطتها على صخرة ، لتتحطم دفعة واحدة . قال الفتى : مثلك تليق ان تكون أميرة بقصر أو ربة بيت بدار كبيرة ، أو اختا لخمسة اطباء ... قالت : ما أفعله الآن هو كل ما استطيع ان أوفره لنفسى . فهل تستطيع انت ان تحقق لى شيئا ؟ سألها الفتى : وماذا تفعلين اذن ؟ أجابت : اشتغل . ابيع واشترى ككل عباد الله . استبدل تحمل شخص على بدنى دقائق بتذكرة دخول ، احولها بدورها الى نقود . اسمع : عندما تكون واقفا فى موضع ، على حافة جرف مثلا ، ويهوى بك ذلك الجرف . من تلوم ؟ نفسك ، أو الجرف ، أو تلوم من جعله يهوى ؟

لم يجبها الفتى ، وانما راح يتأمل الصورة : جرف . اثنان . عشرة ملايين ، ملايين الأجرف . ملايين البشر يقفون على حافات الأجرف . الأجرف تهوى . هم أيضا يهوون . المواقع تختلف . بعضهم يغمره التراب . بعضهم فى اسفل سافلين . بعضهم مغمور النصف الأسفل . بعضهم مغمور النصف الأعلى . الجميع فى الهاوية . والجميع ضد الهاوية . الجميع يسعون الى فوق . الفوق كله أجرف .

ماذا اذن ؟ ليكن كل شىء بيد الامام . فما عساه يفعل ؟ ينشىء جيوشا من القضاة والعدول ، والوعاظ ؟ ينشىء جيشا من جباة الزكاة ؟ ينشىء جيشا من الجلادين ، ومن الحراس ؟ وماذا بعد ؟ ايها الامام : بم تقنع الضالات فى المواخير ؟ ماذا تقول لهن ؟ بأى مصير تتنبأ لهن ؟ انهن يقلن لك ان كل ذنبنا اننا كنا واقفات مع الواقفين على حافات الجرف . وأن الجرف هوى بنا .

كان الفتى قد جرب أن يعظ الخاطئات فى ماخور ، ليردهن الى الطريق القويم . قال لهن :

اتحدث اليكن . لا بوصفكن عاهرات . أخاطبكن أولا وقبل كل شيء ، كمسلمات . قالت واحدة : ولكن معنا يهوديات وقالت أخرى : ومسيحيات أيضا . وقالت ثالثة : لو تحدث الى مشايخه وزملائه الذين لا ينقطعون عنا لكان أفضل . وقالت رابعة : نعم نحن مسلمات . ولكن كل الذين يأتوننا مسلمون أيضا . قالت صاحبة الماخور : ايها المجنون ، هل جئت تخرب عشى ؟ من قال لك أننا غير مسلمات ؟ وأوشكن ان يفتكن به ، غير ان واحدة منهن احتجت قائلة : لا ، هاتوه لى . أنا أعرف ما افعل به . ادخلوه غرفتى . سيرى جنتى . سيعرف معنى فعلته . قولوا للزبائن اننى مشغولة بمريض .

وبين ذراعيها كانت الغرفة تتسع وتتسع . وكان صدره يزداد انشراحاً . وجعل يشعر ان من الواجب ان ينظر الى الدنيا نظرة شاملة — كما هى . قضية عميقة . تُرْفض من الأساس أو تُطْرح للنقاش . وراحت هى تتأمله . تذكرت حبيبا لها . وقالت لو أنه لايزال حياً لكان الآن مثله . دخل السنغال بيتها ، وحملوا أباها الى الخارج . ثم عادوا فوضعوا فى عنق الحبيب حبلا وربطوه الى غصن تينة . ظل الفتى يتدلى من التينة طيلة الفترة التى كان السنغال يعتدون فيها على البنت وأمها . كانت البنت فى الخامسة عشرة . اغمى عليها وافاقت ثم عاودها الاغماء ، فلما آفاقت أخيرا لم تجد أحدا . لبثت يوما وليلة ، لا تقوى على الحراك . كانت جائعة خائرة القوى ، وكانت الدماء حولها ولا أحد هناك .

خرج الفتى من غرفتها وقد نسى طربوشه وجبته وشيخ التجويد والامام حسن ليصبح عاشقا لغادة جميلة فى ماخور . من أجلها اسقط « زمردة » ، الذى تعرض له بمساءه قائلا ان المرأة — اسمها عنابية — زوجته . اسقطه زمردة بضربة عظمى فهوى الى الأرض ممدد الأطراف الأربعة ، كأنما هو جلد عنز مبسوط . خرج الشيخ الفتى وهو يهدر : سأعود اليها . سأقهر الجميع . زمردة والعين الزرقاء والامام حسن وأبا الحسن الأشعرى . وحين عُثر — بعد اسبوعين — على زمردة والعين الزرقاء وغلام مطعونين بخنجر واحد ، ولم يظهر القاتل ، اتجهت الأنظار الى الشيخ ، فحوكم ، واقتيد الى السنجن فى كيان ، وظن الكل انه لن يعود .

تلك كانت حكاية الشيخ — أصبح اسمه الآن الشيخ كيان — مع فاتنته عنابية . ظل يحلم خمسا وعشرين سنة بالعودة اليها . ولما عاد لم يجد الا اسمها . أصبحت صاحبة ماخور . وأصبح هو صاحب خلوة عميقة الغور فى باطن الأرض فى مقبرة مهجورة . يتدلى اليها كل سبت وأحد من الأسبوع ومعه علبة الحلوى وقارورة العسل وغليون الحشيش الطويل . اما العلبة فتحوى تحت طبقة الحلوى كتلةً متراصّة من الحشيش . فى هذه الخلوة كان الشيخ كيان يستدعى صور الماضى . احداث ثورة القرامطة . انهيار الخلافة على أيام العصر العباسى الثانى . كان يستند الى

نفسه ادوارا مختلفة يتلبسها على هواه : المتنبى حمدان قرمط . زكرويه الوتدانى . المعتصم . المنتصر . المعتز بالله . موسى بن بغا . لا يهم ايهم . ليس فى الجبة سوى الشيخ والدنيا كلها رحى فى حجم الأرض تطحن ، ومنها يقطر الألم . الموتى المساكين من حوله . لم يعد أحد يذكرهم . كانوا يسعون ويلهون ويأملون . تساقطوا كالذباب واحدا اثر الآخر . اتوا بهم قطع لحم باردة دفنوها وولوا هاربين . تاركين اياها للدود . حتى الفتاة التى تلتحف ثوبا ورديا خلف الضباب . رائعة الجمال . تبسمت له . تلاشى ثوبها وبانت كتمثال من المرمر . اغمض عينيه واستلقى فى سرير مفروش بالحرير . وثبت الفتاة الى جانبه وضعت فمها فى فمه ، واقتحمت رأسه وصدره وشرايينه ، واطلقت العنان لاتصال ارجوانى بينهما . جاءت الفتاة ، ثم عادت . شمعة اتقدت وانطفأت ودفنت ، اودعوها هنا وولوا . تطاير شعر الفتاة . برزت الديدان من كل فتحة فى بدنها . انهمرت الدموع فجأة من عينيه . استغرق فى بكاء صامت . الجسد المرمرى يتآكل . يتحول الى ديدان بيضاء وزرقاء وحمراء . هكذا صارت . هكذا صاروا . هكذا نصير . هذا كل ما هنالك . تحولت الفتاة الى هيكل عظمى ظل منتصبا . وتوالد الهيكل العظمي . بالمئات والألوف . العالم كله هياكل منتصبة . وبسرعة انضم الهيكل العظمى الى اخواته . اخذت الهياكل ترقص . اخذت تطير . السماء تمتلىء بالهياكل قادمة من كل مكان . ومنها يتكون الهيكل الجبار . ما أسعد أن يصبح الشيخ جزءا منه . الفضاء يتحول الى رحى . الجسم الصلب يتحول الى ذرات . الذرات تملأ الفضاء . فكا الرحا يدوران متعاكسين بسرعة . الذرات سعيدة . وهو أيضا سعيد . هو الآن هيكل بين الهياكل . ولمّا يعود اليه اللحم يحرره عزائيل بالضرب، يضرب اعضاءه عضوا عضوا، ويضرب جمجمته . ثم يعيد الأعضاء والجمجمة الى مواضعها. يشعر بالانعدام . يحس أنه جزء من الأرض . من التراب والوحل والمعادن . مثلما حرره الدود حرره عزائيل . كل شيء الان سحرى . كل شيء يحتمل الشك واليقين . لا كد ولا ارهاق . وانما الظلال والثمار . الحرائر والغيد الأماليد والولدان المخلدون . بيادر الحشيش ووديان العسل . السير بالنية والطيران بالنية ، والأكل بالنية . كل شيء بمجرد النية . يكون ولا يكون . لا يكون ويكون . يتحول كل شيء الى حضرة . الى الارادة العليا . واتاه الصوت : انت أيضا ارادة عليا ، فسأل فى سره : لمن الصوت ؟ فجاءه الجواب : لإرادة عليا . وقال الصوت : كن . كن . ووُضعت أمامه مرآة كبرى فراح يتأملها فى كسل وحذر . أكون المتبنى أو حمدان قرمط أو زكرويه الوتدانى أو المعتصم أو المنتصر أو المعتز بالله ؟ قال الصوت . كن انت . كن انت . فليس هناك سوى الرحى بفكيها المتعاكسى الدوران . تطحن القلوب وتفرز الألم . سأل : ومن أنا ؟ هل أنا شيء ؟ هل استطيع ان اكون مرة اخرى ؟ اجابه الصوت : انت الارادة العليا ..

العليا .. عليا .

ذلك هم الشيخ فى خلوته يومى السبت والأحد من كل اسبوع . وفيما بين السبت والأحد مشغول هو بأمور الماخور . منذ أن دخل الماخور الأول أصبح يرى أمورا كثيرة . الخلوة تعيده الى نفسه ، تمده بالحياة وتربطه اليها . لم يعد يرى تناقضا بين طقوس الخلوة وبين اشرافه على بناته فى الماخور أصبح غرامه القديم للعنابية رمادا خاليا من الحرارة . نظر حوله فرأى « حياة النفوس » ، رائعة الحسن ، ومعشوقة كل من يدخل الدار من رواد . كانت صورة مطابقة لما كانت العنابية من خمس وعشرين سنة . وكان الحاج يعطف عليها عطفا خاصا تحسه هى . ولكن الوهرانية هى التى كانت تحب الحاج . قالت لنفسها : لو فهمنى الحاج لما كنا فى الوضع الذى نحن عليه الآن . عرضت عليه أمرين ، فلم يأبه لأحدهما . قالت له : يا حاج كيان ، معى ما يمكننا من شقه وتجارة صغيرة . هيا نتزوج ، ونغادر الوسط . ننجب اطفالا . نرسلهم الى المدرسة . يتخرجون . يصيرون اطباء ومحامين وضباطا . نتحول الى فللا . نقتحم من جديد الحياة االتى خرجنا منها . نعود بالحسب والنسب . نعطى بناتنا لمن نشاء ، ونزوج أبناءنا بمن نشاء . ندخل فى نسق أولى الأمر . وندع الذل لأهل الذل . أو نبدأ من طريق أخرى . مادمنا هكذا ، نمسى فى الماخور ونصبح فى الماخور ، لم لا يكون الماخور ماخورنا ، ملكا لنا ، نصطنع مديرة له واشتغل انا الى جانب كل البنات الجميلات اللائى انتقيهن بنفسى ؟

رفض الحاج كيان وقال : يا بنت الناس ، اذا كان النبع واحدا ، فلم الجرى وراء طعم مغاير للماء ؟ انت تاجرة هنا أو هناك ، وانا هامشى هنا أو هناك . فلم الخوف والجرى والجشع ؟ ان صبر من يمر على كيان اطول من أن تهزه عوارض كهذه . فى الماخور هنا انت جزء من بضاعة كبيرة تباع بالتقسيط . وانت فى الدار وفى غمرة الحياة الزوجية ، مريض بالسرطان محكوم عليه بالسير نحو نهايته خطوة فخطوة ، وبدون أية مقاومة . حتى يفتقد الخطوات وينتهى سيره . ايها الجسد العسلى ، يا ابنتى الوهرانية الجميلة اللطيفة ، لا يحب الا الشيطان . فى زمن الخواء هذا ، يكفى المرأة ان تحب شبحا مثلى . ان المواخير لا حدود لها ولا حصر . والبيوت لا حدود لها ولا حصر فأنت هنا أو هناك ، انت بطيبتك وبجمالك .

وطارت الاشاعات بأن حياة النفوس قد وجدت عريسا اغنى من قارون وان الحاج نصحها أن تسرع بالزواج منه قبل ان يتراجع . وقال لها اسكنى الريف وانجبى طفلا أو طفلين ثم عودى ن شئت الى المدينة . غير ان حياة النفوس لم تصدق ان يقول الحاج كلاما كهذا . لو استشارته نقال لها : لازلت صغيرة . اجمعى مالا وفيرا واشترى عمارة واشترى الزوج الذى تحبينه . مادامت الدنيا تجارة ، وصاحب القوة يسحق الضعيف ، فكونى قوية قدر ما تستطعين ، كى تسحقى

باكثر سهولة .

حياة النفوس فى حياتها مأساة . ضربها الفتوة أو البلطجى خاتم ، الذى وقعت العنابية الآن فى غرامه واسلمته أمرها جميعه فشعرت البنت باهانة شديدة . تذكرت اباها الذى سافر الى فرنسا ولم يعد ، وأخاها المشلول الرجلين الذى يعول أمها وزوجها الثانى . تذكرت ليلة طلبتها أمها وأمرتها بالنوم فى فراشها مع الزوج . واحتجت البنت كل الاحتجاج فردت الأم فى ذلة ، لا ابنتى ، لا أطيق ان يهجرنى رجل ثان بعد أن هجرنى أبوك . وأعدت الأم بنتها فدخلت هذه الفراش وهى ترتجف . اقترب منها الرجل وامتدت يده اليها فشعرت بالرعب وصرخت من اعماقها ، وقفزت . جرى الرجل وراءها فدفعته وركلته حتى سقط ثم غادرت البيت الى الشارع ، وملاحقة الشرطة ، والسجن ، ثم خرجت فالتقطها بلطجى آخر اسمه باباى الملاكم ، وجاء بها الى الماخور .

قد يكفى هذا لتبيان ما تريد « عرس بغل » ان تقوله ، صراحة ، وفى صوت خفيض ، وهمسا ، وايماء : مادام البشر على ما هم عليه من حال ، فلا مفر من ان تتحول الدنيا الى ماخور كبير . الكل فيه مدان والكل برىء . واقع الأمر ان المجتمع لا يفرق بين الخير والشر تفريقا ملزما وحاسما . ما تقوله الوهرانية فى براءة تامة يظهر هذا بوضوح . لا ترى بأسا فى ان تترك الماخور الى حياة الشرف ، وتنجب البنين والبنات وتنخرط هى واسرتها فى سلك المجتمع الشريف دون ادنى مقاومة أو احتجاج . وهى أيضا لا تجد بأسا فى ان تمتلك ماخورا تكترى له مديرة وتنتقى أجمل البنات وتعمل هى أيضا فيه ، فى طل زوجها الحاج . هذه وتلك تجارة معترف بها علنا . يلاحظ الحاج هذا وهو يتأمل وضعه قبل ان يقتحم الماخور ويقول : لا افهم طبيعة هذا التناقض الصارخ . يغلق مجتمعنا على المرأة الاغلاق التام ، ويعتبر الاختلاط حراما ، ثم يسمح بأن تكون هناك مواخير . تخرج الواحدة من بيت أبيها أو أخيها أو تغادر زوجها وأطفالها ، وتأتى هنا لتبيع بالنقود ولكل صاحب نقود ، ما اباحه الله بشروط معينة . المرأة بضاعة فى كلتا الحالتين : حال امتلاكها وخزنها احتكارا لرجل واحد ، أو فى انتظار الزبون اللائق صاحب العرض الأوفر . وفى حال جمعها فى محال عمومية ، تقع وسط السكان وقرب المساجد ، وعرضها على كل من يشاء . هناك تباع بالجملة وهنا تباع بالتقسيط .

وازاء هذا تعرض الرواية مأساة السقوط . ليس سقوط بنات الماخور وحسب ، وهو سقوط فردى ، وانما السقوط العام الذى يمثله الفشل الذريع الذى منى به الشيخ كيان حين حاول هداية الخاطئات فوقع هو فى بئر الخطيئة وسقط الى القاع مرة واحدة وبلا أمل فى انقاذ ، ولا رغبة أيضا . اذ كيف يكون الانقاذ والجميع — فى الصورة البارعة التى ترسمها الرواية للبشر جميعا — يقفون على حواف اجراف لا يلبثون ان يسقطوا منها جميعا ، تتفاوت مصائرهم ولكنها تلتقى جميعا

فى واقعة السقوط .

الخير هش فى هذه الدنيا . زائر عابر . كيان ضعيف لا يلبث ان يتهاوى لأول ضربة . ليس هذا فقط ، فما قيمة هذه الحياة ، التى يغتالها الموت — لا مفر — وتتحول فيها الأبدان الجميلة الى ولائم للدود ، ثم لا تلبث أن تصبح هياكل عظمية تتجمع ، وتلتحم ، وترقص ، ثم يطحنها الطاحون الأكبر ، طاحون الكون ، فيحيلها ذرات ، وترتد الى الطين والتراب ومعادن الأرض . وأى أمل لهذه الأجساد ان تصبح الارادة العليا التى يطلب الصوت الى الشيخ كيان ان يلتفت اليها ويصبح ممثلا لها ؟

الشر يتناول كل شىء . شيخ التجويد يتحسس جسد الفتى ويستدفىء به فى ساعات الصباح الأولى ، لا يرده عن هذا قراءته للآيات البينات . فتيات الماخور كلهن مؤيدات من شخصيات كبيرة ذات نفوذ . الشر قائم لان لا أحد يريد ان يجتثه من اصوله . ما فعل احمد قرطم الا أن اطلق تيارا لتحرير الفقراء واطعامهم ، ثم سكت التيار وجف ماؤه ، وعاد الفقراء فقراء . المهمة امام الشيخ حسن ثقيلة بل مستحيلة . هل فى وسعه ان يجند قوة كبرى لحرب العالم ، وارغامه على السير فى الطريق الذى يرى فيه الهداية ؟

قال فيروفيوس وهو يرتد : « رب المسيحيين لم يأت بعد » . قال هذا فى مسرحية برنارد شو : « أندروكليس والأسد » . جرب فيروفيوس ان يحمل عبء الايمان على كتفيه العاتيتين ثم ما لبث ان كَلّ ويأس ، ووجد ان النور لن يشرق الا بعد وقت طويل ، فالتحق بالواقع .

على المستوى الكونى تقول الرواية ان الانسان لم يصبح نورانيا بعد . لن يصبح ارادة عليا قبل ان تتغير اشياء كثيرة فى هذا العالم . وعلى المستوى الأرضى تقول « عرس بغل » ما قالته مسز وارين فى مسرحية اخرى لبرنارد شو تعالج موضوع البغاء والمجتمع : « فى المجتمع بغاء لأن الرجال يريدونه . يريدون البغاء ويستفيدون منه ويحولونه الى تجارة واسعة تدار حسب الأصول الرأسمالية الصحيحة . كان لمسز وارين سلسلة من بيوت الخنا تنتشر فى دول أوروبا وعرضها وتدار ادارة علمية. كانت تعامل فتياتها معاملة كريمةوتجزل لهن العطاء وتلبسهن الطيب من الثياب وتتيح لهن الجيد من الطعام . لا غرو ان هجرت عاملة مهنتها الشاقة القليلة الأجر واندفعت الى بيوت « المعلمة » الانجليزية ، فتحولت من الشقاء الى اليسر . وقابلت من بعد زميلة لها لاتزال فى شقاء العمل الشريف فقالت لها « لقد فضلت عملى الجديد على أن يصيبنى السل ، أو انفق من شدة الجهد . لذلك قالت مسز وارين لمن حاكموها : انتم — لا أنا — المذنبون . ان كنا بغايا فأنتم أيضا بغايا . ولا مفر من ان يكون الأمر كذلك مادمتم تريدون لهذا الوضع أن يبقى .

فى هذا الاطار الفكرى والاجتماعى تقدم « عرس بغل » صورا وشخصيات باقية من قاع

المجتمع . تقدم شخصية العنابية التى تقدمت بها السن وحرمت الحب والولد والأمومة فتقدم اليها البلطجى : خاتم يرضى فيها النزعة لأن تحب وتُحب ، ويستغل هذا كى يخطط لسرقة ما جمعت من مال ويولى الأدبار . والعنابية قد استبد بها عشق « خاتم » اصبحت عمياء فى هواه . لا تريد ان تفتح عينيها ابدا بل تود أن تظل تسير حتى تقع فى الحفرة . فوق رأسها جرة مليئة بالقطران ، وهى تريد أن تمضى فى طريقها مع خاتم حتى تتحطم الجرة . تريد ان تركب الى جواره سيارة رياضية مكشوفة أو قارباً أبيض ، وشعرها مشدود بمنديل وردى ، ونظارات سوداء على عينيها . لا تتمنى غير أن يرتطما بصرخة فتضطرم فيهما النار ، أو تبتلعهما موجة عارمة ، فيهبا قطرات البحر جميعا شيئا منهما .

يرد الحاج كيان عليها قائلا : كلنا تلك الجرة الملأى بالقطران . ويمضى من فوره لينظم لها « عرس بغل » ، أو حفل ختان جماعى ، يختن فيه اولاد الفقراء ويعطون الصدقات ، وتأتى لها الهبات والتبرعات من كل بيوت الخنا فى سبع من ولايات الجزائر ، وتحضره فتيات المواخير فيها ويدور الرقص والغناء . ان هذا العرس كفيل بأن يحقق للعنابية الثروة التى تصبو اليها ، كى تعيش هانئة فى كنف الرجل الذى شغفها حبا .

وهناك الوهرانية ، التى أحبت الحاج كيان ووقفت تدافع عنه اشرس دفاع فى وجه تهجم وتحقير ابداه له البلطجى « خاتم » . الوهرانية مليئة بالقوة والرغبة فى الصدام تتحدى المعلمة عنابية ، وتذكرها بأن الفتيات فى المبغى كلهن يملكن امور انفسهن وهن لو شئن ان يهدمن المكان على رؤوس أصحابه لما اعوزتهن القوة ولا النفوذ . حياة النفوس تستطيع باشارة منها ان تحول المحل الى سجن والعلجية تعرف اكثر من واحد ممن بيدهم الضبط والربط فى ادارة الشرطة .

ثم تنعطف الوهرانية الى الحاج تعتب عليه ان ينكسر أمام خاتم . اذ ذاك يقول لها الحاج : ان الحكمة تقضى بأن لا يكون له أى وزن فى الوقت الحاضر . ليس هذا يأسا ، فاليأس ايمان بأن الزمن يتوقف وهذا غير صحيح . وراء كل قوى من هو أقوى منه . كل ضابط جديد يتولى مسئولية يتوهم ان ما يفعله من تصريف وضبط وربط هو آخر ما تمخضت عنه عبقرية الانسانية لحل ازمة سجن مثل كيان . غير اننا ان صبرنا عليه شهرا لتأثر وان صبرنا اكثر رأيناه يكتب العرائض تلو العرائض ، ويطلب بالحاح ومذلة ان نساعده بتوقيعها حتى يعجل بنقله . ينتهى به الأمر الى الايمان بأن حل المشكل ليس رهنا بشخص معين ، وانما هو خلاصة تطور عام لنسق الحياة فى مجتمع برمته .

ليس مجديا اذن ان يخطب شيخ فى ماخور كى تهتدى الخاطئات ، ولا أن يعلن الشيخ حسن عن رغبته فى هداية العالم كله. كل مايستطيعه الحاج كيان أن ينصر من هم أقل ظلما على من هم

موغلون فى الظلم ، كل ذلك فى اطار وضع عام لا يجتث الشر فى أصوله ، ولا ينصر الخير الا نصرا واهنا ومؤقتا . لهذا يخطط الحاج كيان كي يفشل خطة خاتم لنهب ثروة العنابية ، وتنجح خططه، ويسقط خاتم بضربة هراوة على قفاه، وتتصدى لمؤيده جماعة من حملة العصى والهراوات والخناجر والمسدسات ، فينتهى امره وأمرهم .

وتخاطب حياة النفوس نفسها وهى ترى حشود المعجبين . رقصت لهم وقدمت جسدها لأكثر من مائتين منهم : ماذا تريدون منى ؟ كل ما فيَّ ممزق وميت . بم امتاز عن باقى النساء ؟ لا كنت ولا كان الجمال . ولا كانت الرجال . غدا أقول للفتى القروى الذى عرض علىّ الزواج اننى موافقة . اشترط ان نقطع العالم فى قطار . نظل ونبيت ونصبح فى القطار ، دون حاجة لنزع الثياب أو ابدالها أو الاستقرار فى فراش واحد زمنا طويلا .

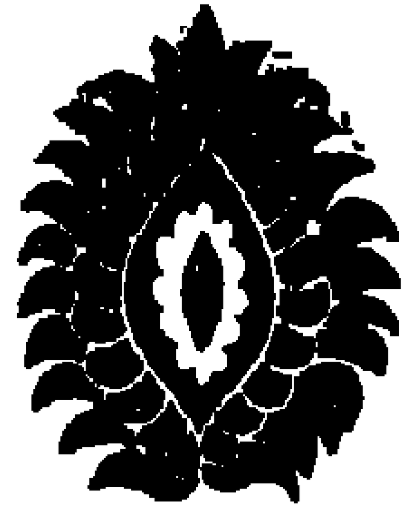
ماذا يبقى بعد ان تهدأ العاصفة؟ ماخور متداع سوف تهجره نجمته الأولى : حياة النفوس ، وجرة قطران تحطمت ونزلت على رأس المعلمة عنابية . وحياة تحطمت لشيخ وقارىء كبير فى جامع الزيتونه ، يعيش فى الحاضر الفاسد خمسة أيام ، ويهرب الى ماضٍ وتاريخ ليس أقل فساداً يومى السبت والأحد من كل أسبوع .

كل هذا لأن شيئا لم يتغير منذ قيام الدولة الاسلامية حتى الآن . المتنبى يقول : « الموت اغذَر ، والصبر أجمل والبر أوسع والدنيا لمن غلب » . ويعلق الحاج على ذلك بقوله : لقد جعل النذل الدنيا مفهوما للقوة والسيطرة وممارسة الحياة . لقد كان بلطجيا من نوع خاتم ، ينظر الى الجدران الأربعة فى آن واحد . وكانت عاهراته الملوك والامراء والسلاطين الواهين .

رواية جسور هذه الرواية . لا تطرف عين الكاتب فيها فى وجه الحقيقة ، ولا يجرى به اليأس أو التفاؤل حتى يورّده موارد التطرف المهلك . عمل فنى ممتاز يبدى لنا الواقعية المؤثرة ، كما فى مشاهد الحياة فى الماخور التى تصور تناحر البنات وتحاسدهم وتجرؤهم على المعلمة ، ومشاهد العراك البدنى بين خاتم وحمود من جهة ، وخاتم والريفى من جهة ثانية ، وخاتم وجماعة الحاج كيان من جهة ثالثة . وتقترن هذه الواقعية بمشاهد من التعبيرية [رقص الهياكل وطحن العظام والذرات وبزوغ واختفاء وموت الطيف الجميل] ، فيقدم لنا هذا القِران بين العنصرين عملا فنيا اخاذا ، مشحونا بالشجن ، فائضا بالعطف ، مبطنا بالدموع ، آسفا اشد الأسف لأن يكون هذا البؤس كله من نصيب الانسان ، بعد قرون و قرون من الجلاد و محاولة التخلص من الظلم .

التفكك [٧]

رشيد بو جدرة



طوال الرواية ، يسأل الطاهر الغمرى نفسه ، وتسأله سالمة أيضا : هل يستقيم الظل والعود أعوج ؟ وطوال الرواية يجهد الطاهر فى أن يقيم العود حتى يستقيم الظل .

يقول الطاهر الغمرى لنفسه : ظننا التاريخ قاطرة تقف فى محطات حددت لها مسبقا ، وعند الطلب . كان هذا خطأنا بالضبط ، ونعترف بذلك . وتقول له سالمة : لماذا لم يأخذ الحزب بزمام الأمور ويدمج الثورة التحريرية مع الثورة الاجتماعية ؟ قد فاتك القطار يا عم الطاهر . أعلم انك ركبته فيما بعد . والمشكل يكمن فى هذه النقطة بالذات . اعلم ان من ماتوا كثيرون وعددهم لا يحصى . لا يعرف بهذا أحد ، ولا شارع يحمل اسم واحد منهم ولا كلمة سطرت فى كتب التاريخ تبجيلا وتعظيما . لكن المهم هنا : زمام المبادرة أفلت من أيديكم ، وهو خطأ تاريخى سوف نعانى منه مدة طويلة .

وتقول أيضا : ألستم مسئولين الى حد ما عن اعوجاج العود ؟ ومن ثم ينشأ حوار طويل بين الطاهر الغمرى وبين سالمة . ليس حوارا سياسيا وحسب ، بل حوار انسانى وعاطفى أيضا ، تتخلق اثناءه صورة كل منهما قطعة قطعة وتتضح معالم هاتين الشخصيتين الفذتين : الثائر القديم الذى فاته القطار يجلس فى عرينه القصديرى يلعق جراحه ، ويعيد ترتيب الأشياء والأحداث ، ويحرر نفسه ورفاقه من اسار الزمن وتخشب المواقف وعدوان الرأى المعادى أو الرأى المتعجل . بينما تجرد سالمة شخصيتها من ثيابها قطعة قطعة . وتبين لنا آخر الأمر فتاة من طراز فريد ، متمردة الى آخر الحدود ، محبة ، عطوف يتسع قلبها الكبير للمنكسرين من أمثال الطاهر الغمرى ، وللذين ماتوا ضحايا التعذيب الهمجى من أمثال سيد أحمد ، الذى تحبه الآن كما لو كان حيا . تحبه وقد انقضى على وفاته عشرون عاما .

انخرط الطاهر الغمرى فى جمعية العلماء عام ١٩٤٥ ولم يبق فيها الا عامين . ثم انسحب ولم يعد يطيق قهقهة المشايخ عندما يقول ان الفلاحين الفقراء تعوزهم الأرض الخصبة . اصيب بالسل وتفاقم سله ، وتفاقم أيضا عسف الاستعمار . احتشد الفلاحون فنظمهم وابتعد عن المدن . دخل الحزب عام ١٩٤٧ . دخل المعركة بسلاح آخر ولم يعد أحد يقهقه يوم راح يطالب بأرض خصبة لكل فلاح . أخذ يشرح للفلاحين وقد تقرمط وتزنج وراح يقرأ كتب التاريخ وكتب النظريات الفلسفية . القى بكل طاقاته فى خضم الحرب ضد الاستعمار الفرنسى . حمل السلاح وقاتل مع رفاقه . نظموا شبكات المقاومة المسلحة فى المدن . كان بينهم المسلمون والمسيحيون واليهود والملحدون . اعدم بعضهم وقصفت المقصلة رؤوس البعض الآخر . دفعوا ضريبة الدم . خان من خان منهم وترك من ترك . وكانت لهم نواقص . الا أنهم دفعوا ضريبة الدم .

اما سالمة فكانت تمشى على حافة الأيام برشاقة تضرم النار فى المارة . وتتجاهل انها وصلت الى حدود المستنقعات الجنونية ، وهى كذلك بين تيه ، وتيه ، تعمل وتأكل وتشرب وتطالع وتعشق وتهرب وتحب وتكره وتندم كلما اعطت ثقتها لرجل يتسارع فى البرهنة على تخلفه وبلاهته وفطريته . وقد كانت منذ طفولتها الباكرة بنتا تخرج على المألوف . شاء حظها ان تكون الحادية عشرة فى سلسلة أولاد وبنات رزق بهم ابوها وبلغوا العشرين ، مات منهم من مات . وتصادف ان فقد الأب القدرة على الانجاب بعدها ، فتعقد ، وظل يشغب عليها ويسميها الأسماء المزرية : الطفشة والطائشة . وكانت هى واخوها الأكبر فى جانب والآخرون فى جانب . احبها الأخ وتحدى من اجلها أباها والزمه — مرة — ان يعيد لها اسمها الحقيقى . تعلقت سالمة بأخيها وأصبحت كل حياتها ، تنتظره — كل ليلة — حتى يعود وتتعمد أن تشاكسه بأن لاتفتح له الباب الا بعد وقت طويل . وقد كان من السهل عليه ان يدخل يده فيزيح المزلاج ، ولكنه يدخل لعبتها . وهى كانت محتالة ، تعرف كيف تظهر قبل ان يفرغ صبره . فتتقدم اليه ضاحكة مستضحكة . تفتح الباب . يختطفها ، ويرمى بها الى السماء . يأخذها الى الحمام يغسل وجهها الملائكى . يبحر واياها الى بلاد السحر بخرائطهما الخاصة ويتركان للآخرين حياتهم الفاترة الخالية . ومات الأخ . قتل ضابطا فقتلوه . وهجست سالمة بأن موته كان انتحارا فى شكل عملية فدائية . كان يحب الحياة ويكرهها فى آن واحد . وكان ذكيا مفرطا فى الذكاء ، تفوق فى الرياضيات على اساتذته حتى لقد سأله أحدهم : لماذا يأتى الى الدرس وهو فى غنى عن أى تعليم ؟ وكانت تسكن نفسه روح المهرج الحزين . كان يطمح الى أن ينشىء سيركا من البق يصبح الأول من نوعه فى العالم . وقد افلح فى تدبير غذاء للبق كان يعيش عليه ويربو . كان واحدا من جماعة الأزلام الرافضين والمغضوب عليهم . هو وزميله استاذ التاريخ .

ومن بعد احبت سالمة الشاب سيد أحمد ، من وفاق الطاهر الغمرى . كان استاذا فى ثانوية البنات يعلمهن اللغات ويدربهن على سباق المائة متر . وكان ينظم خلايا الحزب داخل المعهد الذى يدرس فيه . القى القبض عليه عام ١٩٥٧ . عذب عشرة أيام . ثم احرق حياً . تعذب ولكنه لم يلفظ كلمة واحدة . تلح سالمة فى ان يحدثها الغمرى عنه . ليس الحديث العام الذى يحول التاريخ الى مجرد ترجمة للأموات فى سجل الوفيات . ان التاريخ ليس آلة ووقائع ومعارك على مبادىء ومؤامرات وتصفيات . التاريخ يتموج ويتعرج ويخفق خفقات القلب والعاطفة . ماذا تقول عنه ؟ عن لون عينيه وبشرته ؟ كيف كان يسرح شعره ، ويعتنى بملابسه الرياضية ؟ ماذا كان يدخن من تبغ ويفضل من روايات وأفلام وأكلات ؟ تصارح الغمرى بأنها سقطت فى شراك سيد أحمد . أى نعم . فالموتى هم أيضا فى حاجة الى قليل من الحنان . مسكينة ، تسقط فى حبال الغزام والرجل مات من خمسة وعشرين عاما . توغل السوس فى تخاريب عظامه . وهى تعشقه . انها على قيد انملة من المرستان .

يوم تعرفت سالمة على الطاهر الغمرى ، تغيرت حياتها ، وخف تيهها ، وأخذت تنزلق على ثلوج الذاكرة والوعى السياسى ، وتدخل الحزب ، وتطرح الأسئلة وتناقش الأمور ، وتنظم النقابة وتخوض بحر السياسة وتريد فهم التاريخ . وتسأله فاذا به يفاجئها بأن التاريخ لا يصنعه أحد . كالعشب لا يزرعه أحد . وتدهش سالمة أول الأمر وتظنه يمزح ، لكن الغمرى يصر ويعيد الكرة ويغضب . تقاطعه وهى على يقين من أن التاريخ تصنعه البشرية من شعوب وأمم وافراد وهو تطاحن مستميت بين الغالب والمغلوب . بين المستغل والمستغل . لابد أن هناك سوء تفاهم بسيط . هل تنفى ان التاريخ ثورة وتقلب مستمر ؟ لنفترض أن التاريخ لا يصنعه احد . هل يعنى هذا ان التاريخ ملك للجميع ؟

يجلس الطاهر الغمرى يراجع نفسه وأحداث حياته جميعا ويعيد النظر فى آرائه القديمة عن الحزب منذ تأسيسه عام ١٩٣٦ . ينتهى الى اكتشاف مذهل : أنه لم يقاتل فى المعارك السياسية أو العسكرية عن مثالية وانما بدافع الانتقام للجريمة التى ارتكبها المستعمرون يوم بقروا بطن زوجته وبنتيه . ومن ثم توصل الى القول بأن التاريخ لا يصنعه الرجال ، وانما هو نتيجة ردود افعال واستثارات . والا فلماذا لا يثور الفقراء ، بل يقبلون أحط الأوضاع : تنام عائلة من عشرين شخصا فى حجرة واحدة ، يأكلون ويجلسون ويغسلون الثياب والأجسام فى حجرة اصغر من الزنزانة . فيكبر الأولاد ولم يتسن للرجل مضاجعة امرأته خوف ان يستيقظ الأولاد ؟ كيف يتسنى لمثل هؤلاء ان يصنعوا التاريخ ؟ كل ما يفعله الشعب هو أن يلجأ الى النكته السياسية . يهزأ بالمسئولين وخطاباتهم وتوجيهاتهم ولكنه يصفق لهم عند الحاجة ويهتف باسمائهم . الكادحون لا

يفهمون من السياسة شيئا الا على سبيل الحدس الغامض . يتكلم رشاش الثوار ، ثم ينظرون الى الوراء . يتراءى لهم شيء فى الأفق يسمونه التاريخ . ولكن كيف أتى ؟ كيف تكون ؟ ونما ؟ وتفجر ؟ انه شيء غير ملموس . وهمى . سرعان ما يُظلّى ويصبح اقاصيص . وهكذا خدع التاريخ الرفاق . كان الغمرى ورفاقه فى قاعة الانتظار يترقبون قطار الثورة الأممية . لم يأت القطار . وعوضا عنه جاء شيء آخر . ثورة أخرى عارمة ركب الرفاق الثورة وهى زاحفة ركبوها وفهموا ان قاطرة التاريخ الأممى انما هى مجرد فكرة ونظرية . اما التاريخ الحقيقى فينبت كالطحلب دون ان يزرعه أحد . ولا حاجة به الى مطر . التاريخ مزيج من الصدفة والارادة البشرية .

يموت الغمرى ، تاركا لسالمة ليلياته التى ظل يكتبها طوال السنين التى اعقبت هروبه ونجاته هو بمفرده بعد أن قتل الباقون ، مما ظل يعذبه طوال ما بقى من حياته ، وافضى الى أن يرفض العلاج من السل المتفاقم ، فكان هذا الرفض نوعا من الانتحار . على انه ظل — مع ذلك على اتصال بالحزب ، وما كانت نظريته عن كيفية تكون التاريخ الا تحذيرا للثوار جميعا ، ينبههم الى أن الحكم هو سبيل العطن والعفن وأن على الثورى أن يقلب الوضع ويحطم السائد والنظام القائم ، ثم يترك السلطة لغيره ممن هو أكثر منه تأهيلا .

يكتب العمرى فى صفحة من ليلياته ان المرأة العربية تمثل قوة ثورية جبارة . وان كانت خسرت كل شيء منذ بدأ التاريخ ، واستمرت خسارتها مع تعاقب القرون ، ولم يبق لها من الثروات الا الحقد الصامت والضغينة الدفينة . ولكم يشكل هذان ضغطا هائلا وطاقة جبارة لابد أن تنفجر يوما ما ، ليس لتحقيق مصلحة المرأة وحسب ، بل لما فيه صالح الرجل العربى أيضا ، الذى طالما أعمته عنجهيته لمجرد ذكورته وشارب غزير على شفته العليا . تقرأ سالمة وتقرأ وتتبين أن الطاهر الغمرى قد كان فى حياتها الأب والعشيق والرائد الثورى . اكسبها الجرأة والتحدى فبقيت تحت تأثير جاذبيته القاهرة الجبارة . فلما مات تيتمت للمرة الثانية . كانت المرة الأولى يوم مات أخوها الأكبر . مات الغمرى فى غدير من دماه ، كأنما كان يود ان يقلد الطريقة التى مات بها الرفاق . الواحد ذبح بسكين (الطبيب) وحرق الآخر بنيران معذبيه (سيد أحمد) وتمزق الثالث تحت شظايا قنبلة زمنية كان يصنعها .

كانت سالمة فى الخامسة والعشرين . تشرف على ادارة المكتبة الوطنية ، وتدخن علبتين من السجائر فى اليوم وتطالع العديد من الكتب والمجلات وتحمل فى حقيبتها اليدوية صفيحة من أقراص منع الحمل ، تعشق ثم تندم وتقطع العلاقة كلما شعرت بأن صاحبها بدأ يتعلق بها فتشمئز وتتركه دون انذار أو كلمة تبرير . فلما تعرفت الى الطاهر الغمرى ، قطعت كل علاقاتها ، وفقدت الصديقات القليلات اللائى تعتز بهن ، حرة طليقة صارت ، لا تعرف ماذا

تفعل بحريتها . ترجع الى البيت فى ساعة متأخرة ، لا تبالى بالصعاليك الذين يجوبون الطرق وقد لفتهم الشهوات . تفكر فى أن تمارس الجنس مع صديقها الوحيد ، وتأخذ تعد الأعوام التى تفصل بينهما . خمسة وعشرون على الأقل . تتلمس نهديها الرائعين . وتضغط بأصابعها على حلمتيها . تحاور نفسها : لن تقطر حليبا . اكره الأمومة ، وكل النساء أمهات . وضعن لهذا الدور منذ الطفولة وأنا الطفشة ، أنا الطائشة لن أكون أما . رجال العالم : موتوا ، فجسدى ملكى وليس ملك أحد .

تمثل سالمة المرأة العربية وقد تحررت من اغلال قرون ، فاستهوتها الحرية الجديدة ، وحارت ماذا تفعل بها . اما سالمة فقد قررت ان تعلن حربا مختلفة الأسلحة على الرجل ، رمز القهر والظلم على المرأة عبر القرون . وهى لهذا تلعب بالرجال ، تصلهم ثم تقطعهم . صممت منذ أن لقبها أبوها « الطفشة » ان تنتقم للنساء بأن تمتلك قدرة جبارة لأن تكون نارا ملتهبة ، تشعل سذاجة الرجال وسطحيتهم وافكارهم الطفولية والمسبقة . ورأت ان قدرها الذى لا مرد له ان تكافح ، ليس ضد الرجال وحسب وانما ضد النساء أيضا ، ضد رواسب كريهة ضربت جذورها فى الأرض وتوغلت فى المجتمع . وتمردت سالمة على الطاهر الغمرى وعلى حزبه المتقاعس ، واعلنت انها امرأة اتخذت التحدى محورا أساسيا لحياتها . قالت انها لا تكره الرجال ، وانما هى حاقدة على التاريخ وحسب . ومضت فى التحدى فأعلنت انها تخلصت من بكارتها ، لا تدرى أين ، ولا كيف ولا بأية وسيلة ، وانما فعلت هذا نكاية فى الرجال ، واحتجاجا على آلاف القرون من استغلال المرأة .

غير ان سالمة كانت تفعل هذا كله دفاعا عن طيبة جوهرية فى نفسها ، سيجتها بسياج من التمرد والغضب ، وحماها هذا السياج من أن تقع فى مصيدة الحقد ، ومكنّ لها ان تشق طريقها نحو الجرأة والصراحة بعيدا عن الشائعات والاغتيابات . وعن طريق هذه الطيبة الحلوة المختفية وراء اسوار التحدى تمكنت من اخراج الطاهر الغمرى من هذيانه وظلماته ، واستطاعت ان تشيع جوا من الثورة حولها ، وانقذت اخاها لطيف ، طبيب النساء المخنث من عقدة التخفى ومشاعر المعرة التى تلحق امثاله ممن يشذون عن المألوف .

وكثير من مظاهر التحرر عند سالمة يمكن الدفاع عنه : مقتها للنفاق ، حرصها على تناول الأمور تناولا واقعيا . اصرارها على ان لا تكون عبدة للرجل ، ووليمة جسدية يتحلب لها ريقه ويغوص فى ملذاتها . شجبها لاستبداد الأب ، وخنوع الأم . احتجاجها على نفاق أخيها حمود الذى كان يسرق أدوات الميكانيكا من المحلات ويستخدمها لقضاء مصالحه ، والذى حاول ذات مرة أن يغتصب صديقة لسالمة فكانت فضيحة ، ثم ارتد من بعد هذا وتزوج وانضم الى زمرة

المحترمين شكلا وليس موضوعا . احتجاجها على أخيها فؤاد الذى تربى وتعلم فى الجزائر ، ثم ترك أرض اجداده ، وتخلى عن جنسيته وذهب يعمل طيارا فى الخطوط الجوية التى تربط بين اقطار أوروبا ، ونسى تماما أمه وأباه وباقى الأسرة .

اما هى فقد بقيت فى الوطن ، تشغلها أموره . وتكافح من أجله ، وتدخل المعارك الكلامية مع الطاهر وغيره بحثا عن الحق ، ودفاعا عن ثورة الفقراء ضد الأغنياء والمستعمرين .

ولأن الحرية كانت جديدة على سالمة وعلى مواطنيها جميعا ، رجالا ونساء ، فقد شابتها مظاهر للإفراط والاحتجاج السطحى الذى لا يؤدى الى شيء ذى بال . اصرارها مثلا على ان تستخدم الكلمات الغليظة والداعرة ، التى يستخدمها الرجال ويعتبرونها حكرا عليهم . تصديها للرجال فى الشارع ، وسبهم باقبح الألفاظ حينما يعرضون عليها ما يظنون انها تذرع الشوارع من أجله. اعلانها عن تخلصها من البكارة تسخيفا لمنطق الرجال ، ومعاملة لهم بالمثل : اذ كم من الرجال من يستطيع القول بأنه يحتفظ ببكارته ؟ كل هذه شوائب تنتجها الحرية التى طرأت فجأة على النساء من امثال سالمة .

وهنا تحين الفرصة للحديث عن « التفكك » كرواية سياسية واقعية . الحق انها واقعية بالفعل ، بل هى تسرف فى الواقعية احيانا كثيرة الى حد الاقذاع . رشيد بوجدرة يبدو فيها وقد أقسم على الا يدع سرا الا اذاعه . والا يترك نقيصة الا سلط عليها الضوء وأن يعرض الجسد البشرى فى كل احواله ، بما فيها الأحوال التى تتناهى فى التدنى . جسم المرأة فى الرواية اصبح معروضا علنا كالذبيحة فى الأسواق . شهوتها . شبقها . سعيها الى ان ترتوى واحيانا يكون هذا الكشف انسانيا ومؤثرا ، مثلما يحدث فى حالة بنات الثانوية اللاتى يحملن فى حقائبهن قطنا ملوثا بدم أول حيض ، ويعرضنه على سالمة فى ابتهاج ، ويتندرن منها لأنها لم يأتها الدم بعد ، ويسألن ماذا تجدى شطارتها فى الدرس وهى ليست انثى ناضجة ؟

ولكنه فى حالات أخرى يبدو وكأن الرغبة فى التصريح والاعلان وكشف العورات هو المحرك الأول له ، مثلما يحدث فى حالة الزوجة الأرملة التى لم تتعد الخامسة عشرة من عمرها ، والتى مات عنها زوجها الكهل وتركها عذراء ، فذهبت ملهوفة ، محمومة تبحث عمن يرضيها ولو كان مراهقا يعمل فى دكان أبيه ، فتتناوله هو وجسده تناولا تفح منه الشهوة ، وتفوح منه رائحة الجسد المحترق . صحيح ان المغزى الاجتماعى واضح هنا (زواج فتاة مراهقة من كهل تصلح لأن تكون حفيدة له لا زوجة) ولكن الرغبة فى التصريح وعدم المبالاة بالاقناع تبرزان هنا بروزا يدفع الى التقزز . ومثل هذه الأشعار الداعرة لبشارد بن برد وابى نواس . واخطر منهما ان هذه الاشعار تورد فى الرواية كمثل لجرأة فى الكتابة لم يعد العصر الحديث قادرا على ما تمثله من ابداع وثورة .

وأهم من هذا كله — ربما — ان سالمة تعرض لنا كمثل من أمثلة التحرر ...

غير ان هذه انما هى النواحى السالبة للواقعية فى رواية « التفكك » . أما النواحى الايجابية فهى تجعل ، كفة الميزان تميل بوضوح الى جانب الابداع الحقيقى والمؤثر والخلاق . ومن امثلته وصف الحياة الأسرية الحميمة التى تحياها اسرة سالمة . حزن الأب على فقده القدرة على الانجاب ورغبته الكامنة فى ان يظل ينجب وينجب الى ما شاء الله . ودفاع زوجته عنه ، واعلانها انه سيد الرجال ، رغم فقدانه القدرة . الجدة العجوز التى تصادق سلحفاه وتتبرك بها ، وان طاردت بقية الاحياء من طيور وفراشات وافراد أهل البيت جميعا ، ما عدا الولد فؤاد الذى تنحاز اليه انحيازا غير مفهوم عجوز نيفت على التسعين ، لا تصوم ولا تصلى ولا ترغب فى الحج ولا ترهب شيئا فى الأرض والسماء . وهناك العلاقة الخاصة والمؤثرة التى تربط سالمة بأخيها البكر . انه هو الذى حمى شعلة الحب فى قلبها بما افاض عليها من حبه . وقد ربط بينهما حب الحياة الطلقة . والتمرد على القيود التى يضعها البشر وما يصنعونه من مجتمعات . تظل هذه العلاقة قائمة حتى بعد مقتل الأخ . يظل يعيش فى قلبها ويقف على رأس حياتها الى النهاية .

وهناك الصور الواقعية التى ترسمها الرواية فى سرعة واتقان للمعذبين والحيارى من الناس . النساء خاصة . العذارى والمطلقات يتحلقن حول ضريح سيدى عبد الرحمن ويسعين الى من يكتب لهن حرزا أو يصنع حجابا ، يزوج العانس ، أو يحنن قلب الزوج الغاضب أو يعيد المطلقة الى زوجها . وهناك الصورة الهجائية التى ترسمها الرواية لبعض المنافقين المتزمتين من المشايخ الذين يغشون المواخير سرا فتتلقاهم المعلمة مرحبة : « ياالله يا بنات ، الشيخ السبتى يشرفنا . اسرعوا . اسرعوا . تعرفونه . لا يطيق صبرا » . ومن ثم تغلق المعلمة الماخور أمام رعاع الناس ولا تفتحه الا للاعيان والمشايخ . وتدهن البنات اعضاءهن بالمسك والريحان ويملأن زجاجات الخمر بماء الزهر ، ويزغردن ويحرقن الجاوى والكافور تشريفاً للضيوف الكرام . وهؤلاء عيونهم تعبة ومكتظة بالتفاهه والشهوة . يقهقه احدهم لدى ذكر : « الأرض للفلاحين » ويقول هذا كفر . ويأكل هو ورفاقه لحم الخروف ويتخمون والشعب يأكل الحشيش والعشب . ويقضى المشايخ سنوات الفاقة وسنوات الطاعون وسنوات المذبحة وسنوات الرجفة وهم يرددون التغفيرات والتشكيرات ويتعوذون من الشيطان الجحيم ، ويقيمون الولائم فى المناسبات . اليوم لا جسر بين الشعب والطليعة ، بل هناك الهاوية . الاقطاع العربى الاسلامى كان خلاقا ، مبدعا ، مغامرا ، متاجرا ، أما الآن فأصبح حذرا ، لا يوظف أمواله الا فيما لا يغنى ويترك للدولة الأوزار .

وبالرواية صورتان تبلغان اكبر حدود الاتقان ، تصوران المطر المنهمر الذى استمر أربعة أشهر متصلة ، والزلزال المدمر الذى اجتاح المدينة : « استمر هطول الأمطار فى لب الصيف ، ولم

يفهم أحد سبب هذه المبالغة ، ... وكانت السماء تلقى ما فى وسعها من جلجلة هدامة وزوابع لا تحصى واعاصير آتية من وراء بلاد الثلج فتهتز لها السطوح وتنخسف الجدران وتشطح الأشجار وكأنها فقدت وعيها وجذورها وتقتلع السفن فى الميناء وتطير فى السماء باتجاه القمر . وهلع الناس من هذه المصيبة . قالوا ان الآخرة آن أوانها وان الله عِيل صبره فقرر أن يستعجل الأمر ويتخلص من العالم قبل حلول القرن الخامس عشر وهو الأجل الذى حدده الله حسب ما جاء فى اقوال العلماء وأصحاب الفلك والمشايخ والأئمة ليوم الطوفان . وحتى الأوانى أصبحت لا تعرف فى أى بحر تسبح ... قال الناس : أصبح صيفنا شتاء وشتاؤنا صيفا . مكث الرجال فى الشوارع . وسرعان ما تحول خوفهم الى حقد فسأم فقلق . اخذوا ينظرون الى السماء المغيمة نظرة غضب وشراسة ، يرجمونها بالحجارة ويتسفهون . قال واحد ان الساعة الأخيرة قد دقت ، وزعم آخر ان الطوفان آت لا محالة واننا سوف نشاهد عما قريب سفينة سيدنا نوح عليه السلام . وزعم ثالث ان هذه الأمطار الصيفية غير المنقطعة انما هى انذار من الله واشارة الى غضبه . وفى البيت راح الأب يعمل بدلا من الأم أو يساعدها على تقشير الخضر وقطعها ، ويجبر كل افراد العائلة على تغيير ثيابهم كل يومين وينهمك فى غسل اكوام الملابس بما فيها من أقمصة النساء الملوثة بدم الحيض . وجعلت الجدة تهدد السماء بقبضة يدها ولا ترحم الطيور التى كانت تحاول الالتجاء داخل المنزل . وتهدر : شفتم .. رأيتم . هذا سخط الله عليكم . أما حميد ثانى الذكور ، فشمر عن ساعده ووقف بالمرصاد يتفحص الجدران والسقف والسطوح والنوافذ . قضى اسابيع ينتقل من مكان الى مكان ، يصلح ما تخرب فى المنزل ، فشحم مفاصل الأبواب التى صدئت ، وسرح الأقفال وقد امتلأت بخارا لزجا كما انه رص قنوات المياه وقد فاضت بتدفق الماء السائل وغير مسامير المزالج بأخرى من الصلب والفولاذ ، وطلى باب الحديقة البالى . كل هذا وسالمة الطفلة رابضة فوق شجرة القوت ، لا تبالى المطر وترفض النزول ، فيهرع اليها اخوها البكر ويحميها بمعطفه أو مظلته حينا ويدعها لحالها حينا آخر .

اما الزلزال فقد اسفر عن منازل مهشمة ، وانقاض على انقاض وبيوت معوجة ، وأخرى مزهوقة مكثت هكذا بين الأرض والسماء ، ولم تعرف كيف تفعل وماذا تفعل ، فاختارت أن تبقى معلقة . وعجائز دفعهن الجنون بلباس التفاهة فرحن يعرين عوراتهن ويهددن السماء بقبضات عظيمة مخفية ويقهقهن بافواه درداء مفجعة ، يحركن الأرض بشوكات صدئة ، ويكشطنها ويكحتنها باظافرهن . والغبار يغطى الشمس فتدخل فى خسوف وكسوف ولا نعرف هل الأمر يتعلق بالشمس أو بالقمر . بالليل أو بالنهار من غبار الرياح والرمال التى تنفخ على المدينة المسحوقة والممخوضة وقد دارت على دواليبها ألف مرة ، وتصدعت اسوارها ، وتشققت أرضها ،

وتصلب جديدها وتحجرت اشجار الحديقة العامة وتخشبت حماماتها الزخرفية ، وتقلص حتى ظلها ، وماتت كل حركة فيها وتلوث صفائح المعدن بتعرجات عجيبة الشكل تحت تأثير الغليان الهائل الآتى من جوف الكون .. ثم زحفت مواكب الفئران تقضم تحت أعين الأحياء جثث الموتى وقد نخرها الدود وتكوم داخلها بغليان فوضوى لا حد له وتخللها الصديد الممزوج بالدم وجثث الجيفة كذلك من كلاب وحمير وقطط .. وقد تقشرت الأرض وسيطر عليها جذام المعادن الفائرة الرخوة ، وماء مشبوه فيه يجرى من تحت الأحجار والصخور والردم والأنقاض والحديد والفولاذ تعذبه آلاف العلاقات المتعرجة التائهة فى شتى المهبات والمجارى وقد غطتها زخمة وطحلب العفونة المتفجرة من انابيب المياه القذرة وامعاء الجثث المتوزعة فى ارجاء المدينة كلها . براكين مخفية ، وحمم غزيرة وخائرة ولزجة ، تحلق عليها اسراب الخفاش وتخفخف بأجنحتها من خلال الأغصان المتكلسة ، المعوجة ، المحروقة ، المتضرعة ، رافعة اذرعتها العظيمة نحو السماء ، داخل بوتقة من الهذيان التجريدى الخالى من كل اشكال يمكن تشخيصها وتصورها فتخرق السماء ببنيتها الرهيفة ، وكأن الأمر يتعلق برسم قامت بخربشته تلك الحرارة المندلجة من اعماق الأرض ، وليس بشجرة صفعتها هزة أرضية عنيفة لم يتخيلها مقياس للزلازل قط .

هاتان الصورتان الدافقتان بالحركة ، المزدحمتان بالتفاصيل ، الحافلتان بالصور والعبارات — تتكرر عمدا بين الحين والحين — توفران نموذجا للطريقة التى يكتب بها الطاهر الغمرى التاريخ ، ويكتب — من ورائه — رشيد بوجدرة روايته .

تأتى الكتابة وكأنها جملة واحدة متواصلة ، لا فصل يمزقها ولا فقرة تقطع الأمور بعضها عن بعض . وعلى هذه الوتيرة يكتب الطاهر الغمرى يومياته ولياليه : جملة واحدة متواصلة ، لا يعرف لكتابته حدا ولا طرفا ولا هدنة ولا هدوءا . كتابته أشبه ما تكون بالنهر المتدفق بتشعباتها وتعقيداتها وتفرعاتها وطميها ووحلها وطمثها واعشابها واسهالاتها وفيضاناتها فلا حاجة الى فصول ولا الى فقرات ، لاتقوم الحاجة اليها ، وانما هى فى رأى الكاتب دليل الهزال فى الأسلوب والرداءة فى الرؤيا والافتقار الى النفس الطويل وقوة التعبير وعنف الألفاظ وجرأة المواجهة واتساع الآفاق وعمق المعرفة وتشعب الثقافة .

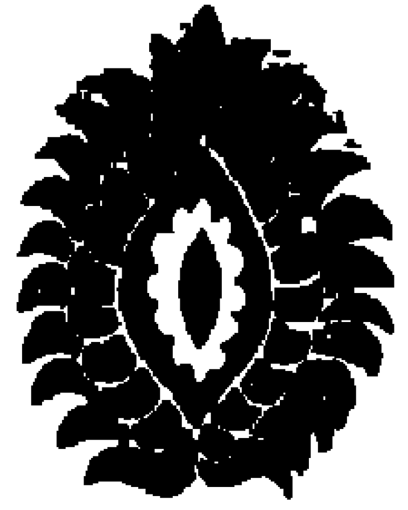
تقول سالمة : اسمع ، يمكن البدء بالحكاية انطلاقا من الوسط أو من النهاية ثم الانتهاء منها انطلاقا من أولها . وهكذا كل الطرق تؤدى الى عمق الواقع والكتابة . الكتابة عبارة عن آنية مستطرفة . كل جزء يصب فى الآخر حتى يملأ العالم بضجة لا مثيل لها . الكتابة تفتح كل الأبواب .

هذه رواية تمتع العقل وترضى النفس ، وتتحدى راحة البال ، وتحطم الأعصاب وتشيع زلزالا فى

المواضعات والقيم المقبولة ، وتوفر قراءة مجهدة حقا ، ولكن اللذة التى تحتويها دون ادنى شك ، انما هى وقف على من يصبرون على القراءة ، ويصممون على اقتحام المتاريس والأبواب المقفلة ، ويتحملون خوض الطرق المسدودة بالركام والهدد والشظايا . رواية مضنية ، ولكنها كبيرة ، وقيّمة .

الجازية والدراويش

عبد الحميد بن هدوقة



بالقرية الجبلية امرأة ولا كل النساء ، اسمها الجازية « جمالها مخيف » — قال أحد خطابها ، الطيب بن الأخضر بن الجبايلي . وقال الأخضر نفسه : .. الجازية ليست فتاة ، هي حياة ! من دخلت داره فاض خيره » .

هذه الجازية أصبحت أسطورة القرية وواقعها وأحلامها . الكل يتمناها ، سرا أو علانية . حين ذهب الطيب بن الأخضر بن الجبايلي ليخطبها بناء على الحاح من أبيه قالت الجازية : « أقبل زوجا ابن عمى الأخضر الجبايلي ، لكن اخشى عليه من دسائس الآخرين . كلهم يريدونني لغاية .. لكن مأساتى اننى لن اتزوج زواجا حلالا فى وقت منظور » .. ثم أردفت وهى تشرح المأساة : « جاءت الى البيت ، وأنا صغيرة امرأة غريبة الأطوار ، تقرأ اليد . أنبأتنى أننى آكل عشبة ، تنبت فى جبلنا ، لا يعرفها أحد ، تبقينى صغيرة حتى اليوم الذى أتزوج فيه زواجا حلالا . وأن ازواجى الأولين لن يكونوا شرعيين . سيكونون ازواجا حراما . وأن كل واحد منهم يلاقى حتفه عندما يظن أن الحياة استوت له . ثم يمر الزمان لا شمس فيه ، يشبه الليل وليس ليلا ، اعيش ازماته واحدة ، واحدة . ثم أتزوج بعدما يموت كل أبنائى المولودين من زيجاتى الحرام . اتزوج زواجا يشهده كل دراويش الدنيا » !

استمع لها الطيب وتخيل صوتها آتيا من وراء الكون . غريبا ، رهيبا ، محيرا ! قادما من كل جهة ، كانت مصادره متعددة . وجهها صار جليديا بللوريا ترى من خلاله الجزئيات . امتقع وجه الطيب وقالت له اخته وكانت تصحبته : مالك ؟ تشكو شيئا ؟ وحين ودع الفتى الجازية عاد الى وجهها اشراقه الأول ووداعته السماوية . خيل اليه أنه كان يشاهد ، من قبل — أشياء فوق بشرية . وتأكد له هذا الخيال حين التقى براعى الأولياء السبعة . كان الراعى بلا أغنام . قهقه الراعى قهقهات عالية ذات اصداء لا توصف . رآه الطيب وسمع ضحكاته ، ولكن اخته لم تر ،

ولم تسمع . نظرت اليه محملقة حين سألها :

وهبطت القرية مجموعة من الطلبة المتطوعين .. قال مندوب السلطة : ارسلتهم الحكومة . وقال الطلبة : جئنا لمساعدة السكان . مندوب السلطة ـــ يسمونه فى الجزائر « الشامبيط » زعم ان الطلبة جاءوا لاقناع السكان بالرحيل الى قرية جديدة بالسهل ، لتتمكن شركة تنتمى اليها مصالحه من بناء سد مائى . ورفض السكان ان يتزحزحوا . قريتهم هى حياتهم . هى صلتهم بالأرض والسماء معا . فيها جامع السبعة ، المدفون به سبعة أولياء دائمو التجدد كلما مات سبعة جاء من بعدهم سبعة . وبها الدراويش أصحاب الكرامات والخوارق . بهم تزهو القرية على باقى القرى .

ولكن « الشامبيط » لا ييأس . وهب قطعة أرض تقام عليها القرية المنتظرة ، وأقام ، مع شركته ، ينتظر أن يقتنع أهل القرية بالحسنى .. عبثا يقال لهم الحكومة . أو الثورة . هم يشعرون انهم أقوى من الحكومة . هم كانوا قبل الثورة . وهم الذين صنعوا الثورة .

على رأس الطلبة شاب دافق الحيوية اسمه الأحمر . يضيفون الى اسمه : « صاحب الحلم الأحمر » . اطواره غريبة . عيناه لا تستقران . ذكاؤه اخترق اعماق الحقيقة . عرف لتوه أن العقم سر مأساة القرية . دهور طويلة عاشتها فى صراع عقيم مع الطبيعة . تعيش على جبل عسير المنال ، تحتمى به من عوامل التغيير . نظر الأحمر وقرر أن يغرس حلمه الأحمر فى قمة الجبل الصخرى . أن يتخلص من الجامع والجبل والصفصاف . ويضع مكانها جميعا أحلاما حمراء بمستقبل يلمسه أشد الخيالات ضيقا .

هل جاء الأحمر كى ينتزع القرية من أحضان الماضى الحجرى ويدفع بها الا آفاق المستقبل بلا حدود ؟ يفعل هذا وحسب ؟ ثمة مجال لتأويل آخر . الأحمر يسأل فجأة عن الجازية ، ويردد ان أخبارها ذاعت فى كل جهة ، ووصلت صورتها مغلفة بالأحاجى والرموز الى كل مكان : لم ترفض فقط خطابها ، بل لم يستطع أحد رؤية وجهها . أقسمت ان تحجب وجهها عن الخطاب ، ولا تتزوج الا بمن لم تخطر له على بال .

أيكون الأحمر قد رغب هو الآخر فى أن يعرفها ؟ لم لا ، وهو الشغوف باختراق الحجب ؟ وضع هذا التأويل موضع الاختبار يوم نادى المنادى فى القرية أن أهلها سيقيمون حفلا دينيا اجتماعيا موسيقيا راقصا تصحبه وليمة ـــ يسمونها فى الجزائر « زردة » ، تكريما للطلبة الأضياف ، الذين « هم الرأس ونحن الاكتاف » .

يكون فى الحضرة « الشامبيط » والدراويش والرعاة ، وأهل القرية جميعا من رجال ونساء وبنات . وتهتم البنات خاصة بالحضور ، ففى الزردة تعرض القرية نفسها مجردة من ثيابها وتتعارف

الفتيات المحجبات عادة بالفتيان . وتقبل دعوات المقيمات والعوانس .

قال واحد من القرويين لطالب سأله عن الزردة : « هى أكباش تذبح ، ومناجل تضبح ، وزرنة وبنادير تصدح » . وقد شملت الحضرة هذا كله . بدأت برقص والحان فلكلورية ، وصيحات من الدراويش ، وشارك فى الرقص بعض القرويين والطلبة ، ثم شرع الدراويش فى تحمية المناجل حتى أصبحت بيضاء وأخذوا يلمسونها ويلعقونها ويمررونها على أذرعتهم العارية !

اذ ذاك تكهرب الجو ، وأخذت وجوه الدراويش تكفهر . وعاد الطلبة من الرقص الا الأحمر ، الذى واصل الرقص مع الدراويش ، وسط اعجاب النساء واشفاق بعضهن عليه من مكر الدراويش . سوف يلعبون له لعبة النار . لن يتملص من لعق المناجل .

وفجأة حدث حدث جلل . جاءت الجازية الى الحضرة . ملثمة . لكن لا يحجب نورها اللثام . فاض جمالها على الساحة كما يفيض الفجر . وانطلق الرعد . وأخذ واحد من الدراويش يبكى ويتحاور مع آخر عن الساعة التى بانت اشراطها . ظل الأحمر يرقص مع الدراويش وهو فى نشوة كاملة . قبل منجلا أبيض من وهج النار من أحد الدراويش بلا تردد وجعل يلعقه . وجىء بمنجل آخر للأحمر فقبله بلهفة . وتجمع نور البرق على الجازية . فاتجه نحوها الأحمر ومد يده اليها يدعوها للرقص . قامت معه . حاول نزع لثامها فمنعته . قدم لها منجلا فلعقته . راقصها وراقصته . الدراويش يرقصون . الجالسون قلوبهم ترقص . الجازية والأحمر يزدادان حماسا . يتخذ رقصهما حركات غريبة لم تر القرية مثلها قط .

المطر ينهمر والبرد ، والعاصفة تكاد تقتلع القرية اقتلاعا . السيل يوشك أن يجر كل شىء الى الهاوية . الأولياء شعروا بالاهانة ، فجاء غضبهم على من راقص الجازية بتحد ولعق المناجل بتحد فى عقر حرم السبعة ! وشمل الغضب كل من جاء الى الحضرة !

من بعد ، حكت الجازية لأخت الطيب عما ثار فى نفسها . قالت : « غمرتنى بهجة لا توصف .. أحسست الساحة والدراويش والشامبيط والصفصاف وأخاك والجبل والسبعة والطالب الراقص بمنجله مثل الدراويش الآخرين ، أحسست بهم كلهم يدورون فى رأسى ويرتفعون عاليا ، عاليا ، الى ملكوت من النشوة القدسية ! »

انفض الحفل وسكن غضب السماء . وبعد أيام وجد الأحمر قتيلا . وبعد أعوام ، قال راعى السبعة فى تفسير مقتل الطالب : أن الجازية ما أن رأته حتى التهمته بعينيها ، وبكل أجزاء جسمها ! قالت له : « فضنى مرة واحدة ، لا تتردد ! اللؤلؤة لا تتصيد باللمس والهمس ! فضنى وارتحل ان شئت . بذرتك سوف أخصبها مهما كانت الزوابع ، وأضمن لأحلامك أن تبقى حية . ثم احتضنته ورمته على الأرض فى ظلة كثيفة ، تكتنفها اشجار ، وارتمت عليه . ولما

فارقته كان فاقد الأنفاس والحواس ! عثر عليه أحد الرعاة هناك فظنه ميتا ، وما به موت ! الجازية سحبت منه روحه . ثم قام متعثرا ، فاقد العقل يبحث عن سيارة أجرة فى جبل لا تتسلقه الأقدام !

هذا التفسير الشعرى الأسطورى لمقتل الأحمر ان جانب الواقع فهو يصل الى قلب الحقيقة . الواقع قال أن الأحمر قتله راعى السبعة بايعاز من الأخضر الجبايلى ، الذى شعر بالمعرة لأن الجازية راقصت غريبا هبط القرية بآراء ثورية فأقض مضاجعها ، الى جوار أن الأخضر كان يعد ابنه « الطيب » للزواج من الجازية ، حفاظا عليها من مشاريع « الشامبيط » ، وكان هذا يزمع تزويجها من ابنه ، الطالب فى أمريكا ، كى يتحصن بقوتين : قوة « الشمبطة » وقوة أمريكا . وهكذا قتلت القرية المتحجرة ذلك الذى حاول أن يزيح عنها الحجر .

غير أن ما حدث على مستوى « الحقيقة » كان غير هذا تماما . حين راقصت الجازية الأحمر تزوجت بالحلم فى اليقظة . أثبتت للمتطوعين أن القرية ليست الأولياء والدراويش والماضى ولا شىء آخر . إنها بالدرجة الأولى الشباب الذى يسبغ على الحياة لونها المشرق . هى الحلم الدائم ، بدونه تصبح الحياة عجوزا .

وحين رقص الأحمر فى الحضرة ، أدخل البهجة على نفوس القرويات ، المراهقات منهن والعانسات . ودعن الحياة الرتيبة المتكررة ، وصار لهن أغان فى الصبح والعشية . غير منجل الطالب الأحمر عالمهن الوجدانى . عرفهن بما يزخر داخلهن من عواطف . لم تعد أشجار الصفصاف النموذج الأعلى للحلم . هذا هو الطالب الأحمر صفصاف من نوع جديد يحمل الحلم والحقيقة معا .

هكذا تكلم الطيب الأخضر بن الأخضر الجبايلى وهو فى أعماق سجنه .. فقد اتهموه بأنه هو الذى قتل الأحمر ، بدعوى أن الطالب راقص الجازية ، « خطيبة » الطيب .

وجهت القرية الاتهام الى الطيب ، ووافقت عليه ، وايد الأخضر ــ والد الطيب ــ الاتهام ، انقاذا لشرف القرية ، وايمانا بأن هذه قضية تجلب المجد على من يصيبه منها ضرر . الحبس هنا مفخرة ، وتضحية تورث الشرف .

وفى السجن جعل الطيب يفكر . قال إن الطالب المتطوع قتله حلم أحمر فى قرية أحلامها خضراء . قال إنه مغامر يتحدث عن الحلم ولا يصف الطريق الى تحقيقه . لذلك كان لا مفر أن يموت . ولكن المغامرة لن تنتهى بموته . سيأتى غيره يخطبون ود الجازية المتجددة . الأحمر نفسه كان يدرى حقيقة أمره . قال للطيب ، حين لامه هذا على استفزازه المتصل للقرية : القرية لا تستطيع أن تفعل شيئا ضدى . أنا فكرة . وقال لأخت الطيب ــ وكانت من دعاة التغيير

الثورى : « انت النموذج الأمثل للهدم . وأخوك النموذج الكامل للصيانة » . وسأله الطبيب : « وأنت ماذا ؟ » فأجاب : أنا العنصر المفجر . بيتكم هذا لابد من تفجيره . بيتكم وبيوت القرية .

كان الطبيب يسمع هذه الكلمات فلا تترك فى نفسه أثرا . لم يكن مؤمنا بشىء ، ولم يتبين الخيط الذى يربط بينه وبين الأحداث . فى السجن اكتشف حقيقة وضعه : خطاه فى التقدم كانت ثقيلة . تشدها الى الوراء قرون لا ترحم . تماما كما وصفه الأحمر : يفكر فى المستقبل ويمشى الى الوراء . مصيبته أنه لم يؤمن بشىء . لم يكن من أهل الماضى ولا من أهل المستقبل . كان الصفر الذى تلتقى فيه الأزمنة !

لكن الأشياء أخذت ، فى ظلام السجن ، تتضح له . القرويون بحدسهم الجبلى رفضوا الرحيل ورفضوا السد . رفضوا التغيير الذى يأتيهم من حفدة الشنابط والدوائر القدامى . رفضوا تغييرا لا يد لهم فيه . الأحمر لم تذهب حياته سدى . قال : أنا فكرة والفكرة لا تموت . سيبقى حيا لدى كل من عرفه أو سمع أفكاره .

ما هو المعنى النهائى اذن لهذه الرواية . الأمثولة الأسطورية ، الفولكلورية ، الواقعية ؟ يتحدد معناها حين نحلل معنى أقطابها الثلاثة : الجازية . الأحمر . الدراويش .

قال واحد من الدراويش للفتى عايد ، الذى جاء من المهجر ليعاين المرأة الأسطورة ، لطول ما سمع عنها : « الجازية ! أتدرى أى شىء هى الجازية بالنسبة للقرية ؟ هى الحلم الذى يبيت كل ليلة فى فراش كل راع وكل فلاح وكل درويش ! هى العروق الماضية ، وهى الثمار التى ستولد ! هى حمامة حائرة فوق رأس جبل . من يستطع قبضها ؟ — كان يتكلم بحرارة المحب ، الذى لا ينكر حبه .

أما الطالب فكان فى رأى الدراويش درويشا آخر كان بامكانه أن يصبح ممتازا . ولكنه كان متعجلا . خسر نفسه وخسره الدراويش . الناس تعذبوا وسجنوا ، حلموا السنين الطويلة ليحصلوا على نظرة واحدة من الجازية ولم يستطيعوا ، وهو فى لحظة أراد أن « يولدها » أمام كل الناس .

وقال الطيب الأخضر من اعماق سجنه : الأحمر قيمة ثابتة ! الموت ينهى التغير ! الجازية ليست قيمة . هى شىء آخر . هى مجموعة من القيم والرذائل . هى حياة برمتها .

وقول الطيب يفسر لماذا تعلق الجميع بالجازية .. الوصوليون من أمثال الشمبيط ، ودعاة السلفية من أمثال الدراويش . والنساء اللاتى كن يغرن منها ، والرجال الذين كانوا يطمعون فيها . إنها ليست حياة فحسب . انها الحياة ذاتها ، تحوى الماضى والحاضر والمستقبل . وقد اكتوى فى

نارها الطالب الأحمر لأنه أراد أن يقفز من الحاضر الى المستقبل دفعة واحدة . فاحترق وبقيت الجازية . ولم يخطب الطيب ودها جادا ، لأنه كان يعيش على المستوى الأدنى منها . كذلك لم يحصل عليها عايد ، المهاجر العائد ، لأنه كان يعيش على المستوى ذاته الذى يعيش عليه الطيب واخته حجيلة ، والطالبة المتحررة « صافية » التى كانت تعجب بالأحمر وآرائه ، ولكنها لا تسير معه الطريق كله ، وتنظر فى توجس الى الجازية ، ولا ترفض حياة القرية فى كل تفاصيلها .

بالرواية زمنان : الزمان الأول وهذا حدث فيه كل ماتقدم وصفه من أحداث : القرية ومؤامرات الشمبيط ، وهبوط الطلاب على القرية ورقص الأحمر ومقتله وسجن الطيب ورحيل الطلاب . والزمن الثانى وفيه يأتى المهاجر عايد سعيا للقاء الجازية ، ثم يتبين ما تبين الطيب من قبل : انه ما خلق ليعيش على مستواها . الحلم والنار والمأساة ليست طريقه . انما طريقه أن يزرع البذور فى أرض حقيقية ، ولا يذروها للريح .

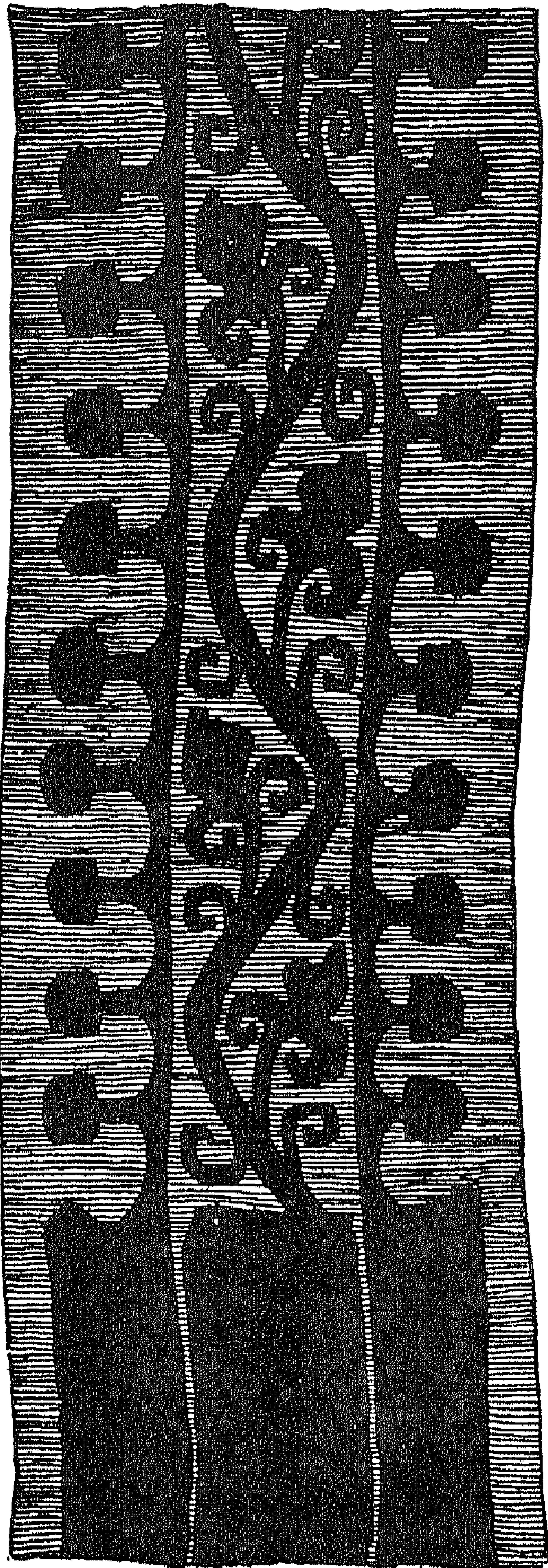
لهذا يدير عايد ظهره للحلم الذى تمثله الجازية ، موقنا انها لم تخلق له ، ويختار بكامل رغبته أن يتزوج حجيلة ، الأنثى الثائرة المتفتحة التى حلمت هى الأخرى بالأحمر ثم نسيت الحلم فى غمار الأحداث .

وتقطع صافية رحلتها التى بدأتها مع الطالب الأحمر ، وتعود الى دراستها فى الجامعة وتأتى لتزور الطيب فى سجنه ، مثبتة عزمه ، داعية إياه الى المقاومة . ونفهم أن التطور الذى حدث لكليهما قد قرب بينهما كثيرا .

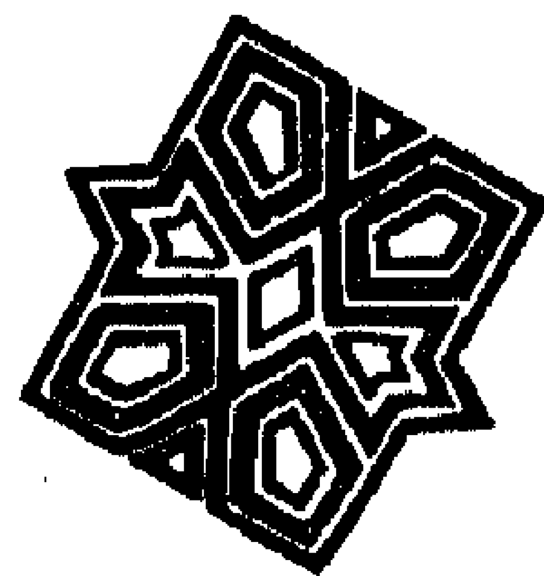
ما تقوله هذه الرواية الزاخرة هى أن الاحلام العظيمة لا تصنع وحدها الأحداث . لابد من خوض الصعاب الى تحقيقها . غير أن هذه الأحلام العظيمة ليست كل الحياة . الذين يمشون فى السفح يقلون شأنا عن الذين يمشون فى القمم ويقفون على شفا الحفر العميقة . الثورات لاتصنع ، بل تتخلق . التغيير لا يملى من فوق بل يتخمر فى القاعدة . الحقيقة ليس لها وجه واحد . بل هى عديدة الوجوه . والسعيد السعيد من أحاط بأكبر عدد من وجوهها الكثيرة .

تقول : « الجازية والدراويش » هذا كله فى اطار الواقعية الجديدة . وهو اطار زاخر كما قلت آنفا يحوى الوقائع والأحلام والرؤى والأساطير ، وسخائم النفس وأطايبها . الخط السياسى العريان فيه واحد من الخيوط ـــ يمثله هنا الشمبيط ومؤامراته وأحلامه بأن يحكم ابنه القادم من امريكا القرية يوم ما . اما باقى الخيوط فهى سياسية مغلفة بالفكر والشعر والحلم ، لأن هذا هو شأن السياسة والواقع فى حياة الناس الظاهرة والباطنة .

ان رواية « الجازية والدراويش » هى نصر آخر للواقعية العربية الجديدة ، فى الوقت الذى تدعم فيه أيضا النهضة التى تبدو لى ـــ على البعد ـــ واضحة كل الوضوح ، فى الرواية الجزائرية الصاعدة .



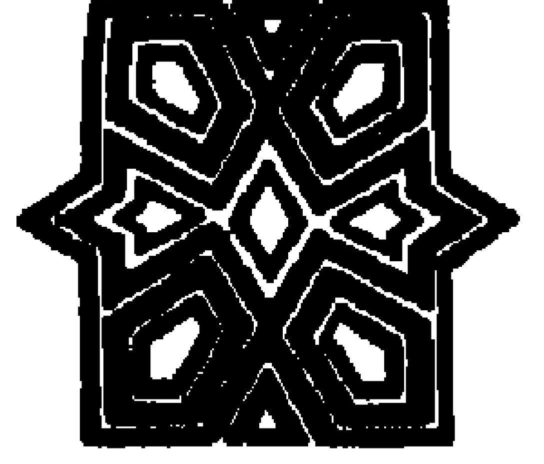
المغرب العربي الكبير



الرواية في المغرب

المعلم علي

عبد الكريم غلاب



أيقظت الأم ولدها على من نوم ثقيل. هددته بأنه ما لم ينهض من فوره فسيصل المعلم الى المطحنة قبله ، ولن يغفر له هذا التأخر مرة أخرى بعد ما اغض عن تخلفه مرات . رمى « على » الغطاء بعصبية ناقمة ، وهو يفكر فى المعلم لا فى أمه . فى اعماقه يعلم انها مظلومة ، مطحونة مثلما هو مظلوم ومطحون . تعمل امه غساله للثياب . قالت له وهى تشير الى المطر المنهمر بالخارج : السماء ستغسلنا نحن : نحن الذين سنظل تحت السماء راكعين ، نهرى ايدينا بين الصابون ورماد الغسيل والنشا والنيلة ، وتهرى السماء ظهورنا بمطرها المتواصل .

اقشعر بدن على وهو يتصور يدى أمه غارقتين فى الغسيل ، ورجليها غائصتين فى مياه صقيعية على زليج بارد ، وظهرها معرض للسماء ، امطرت أو اكفهرت أو اثلجت أو زمجرت . هو الآخر سيظل بين الوحل والماء ، يسوق حماراً حرونا أو يسوقه حمار حرون .. ليته يستطيع ان يبتعد عن رفيقه هذا فى يومه البارد الممطر وليت امه تستطيع ...

رنت كلمة ليت فى اذنه واطلق من اعماقه زفرة واخذ يردد :

ـــ ليتنى أصبحت مريضا فتخلفت عن العمل . ليت المعلم دهمته داهية ، فاختفى عن وجهى لعدة أيام . ليت الحمار مات فأراحنى من معاكساته . ليست جائحة أصابت هذا العالم فأراحتنا جميعا من بعضنا . وتقول له أمه وهى تستحثه : اسرع . يا أخى ، اسرع . توضأ وصل يجعل الله البركة فى يومك فيرد : صلى اجدادنا من قبلنا ، وسيغفر الله لنا بصلاتهم . ويسألها هل من شمعة او وقيدة يرى على نورها الأشياء فتقول : لا شمعة وقيد . الى أن يقدم المساء مرة أخرى يفتح الله باب الرزق . يرد على : ألم تكفك ابواب السماء المفتحة ؟! كل رزق الدنيا منها ولكن للآخرين الذين يحصدون القمح لنطحنه نحن فيأكلون . ويتجه على الى الخروج

فيصطدم برأس صلبة فيأخذ يفكر فى اخوته وينطلق يقول : « عيشة » و« كنزة » و« الجيلالى » يبقون نائمين . انا وحدى الذى اواجه غضب العاصفة فى هذا البرد القارس .

تحكى رواية : « المعلم على » بعطف خالص ، ومعرفة شاملة ، عن أحوال أفقر الفقراء فى مدينة فاس . اولئك العمال الصغار الذين يتقدمون للعمل فى المطاحن والمدابغ ودكاكين الحذائين الصغيرة . يعملون فيها تحت التمرين ، دون أجر يحصلون عليه ، قلّ أو كثر ، فإن المعلم الذى يملك الورشة أو المطحنة يرى ان تعليم هؤلاء العمال الصغار هو شيء ثمين لحاضرهم ومستقبلهم ، ومن ثم فهم لا يستحقون أجرا عن عمل يمتد من الصباح الباكر حتى المغرب ، بل ان الذى يستحق أجرا هو المعلم ذاته ، الذى ينفق وقته فى تعليم العمال الصغار أصول المهنة . يعلمهم إياها بالفظاظة ، وبالقرع على القفا ، والركل ، والبصاق فى الوجه . ولا يرى المعلم فى هذا شيئا خارجا عن المألوف فهو فى يفاعته شرب هذه الكأس المزدوجة : الحرفة والضرب . وصعد من وضعه المتدنى حتى أصبح صاحب عمل . وأولى بتلاميذه ان يسيروا على النهج ذاته ، لعلهم يصلون يوما الى ما هو فيه من عيش ميسر . أو هكذا كانت تؤمن الأمهات وبعض العمال الصغار والجميع يقبلون على عمل تحوطه الوساخة من كل جانب ، ويؤطره الضرب والسباب ، ولا يخرج منه العامل الصغير بأجر ما غير ما يمنحه المعلم احيانا ، اذا ما اتسع رزقه مرة أو مرات : هبة يتفضل بها المعلم وليس أجرا .

وتبرع رواية « المعلم على » براعة ملحوظة فى وصف الحياة القاسية التى تحوط العمل فى هذه الدكاكين الصغيرة ، وتحفظ لنا الى الأبد صوراً مختلفة لحياة الحرفيين ما بين معلم ، أو مساعد ، أو تلميذ فى الصنعة ، وتطل من هذه الصور وقائع تتراوح بين الأحداث المحزنة ، والأخرى التى تبعث على الضحك .

يقول « اللمطى » ، العجوز الأشرم الذى يرعى حمير المتعاملين مع المطحنة التى يعمل بها على ، يقول متهكما وهو يتطلع الى خد العامل الصغير : « خدك اليوم مُوَرَّد . لعلك أفطرت فطورا دسما ؟ يحاول على تجاهل التهكم ويرد : « والله آسيدى ما ذقناه ، ولكن ... يقاطعه اللمطى : « لا تغضب فالصنعة لاتلتقط الا بالعصا » ـــ فيثور ما هو كامن فى نفس على من ثورة عارمة على العمل فى المطحنة وعلى المعلم ، وعلى الزعم بأنه وغيره يتعلمون من عملهم اصول الصنعة : « اية صنعة ؟ : أَحْمِلْ القمح ، اكنسْ المطحنة ، غَربِلْ الدقيق ، احملْ الغذاء ، أَوْرِدْ الحمار . ذلك مبلغهم من العلم . ثم يسترون جهلهم بالعنف ، واللطم والتجويع والبخل . وعندما يطالبه اللمطى بوجوب الصبر يقول : انت تذكرنى بأمى .. كأن الصبر غذاء يملأ البطن أو يستر البدن . فيحاوره اللمطى : انت صغير السن . تَحمَّلْ وأنت صغير لتستريح وانت

كبير . نحن ايضا نتحمل . الا تزكم انفك هذه الرائحة « الطيبة » ؟ وهذه القذارة ، وصهيل الخيل ونهيق الحمار فى قلب الليل حينما يكون جنبى قد استراح الى فراش « وثير » ؟ . يرد على : كل ذلك أرحم من كف المعلم وهى تهوى على الخد . يستمر اللمطى : وحينما تبحث عن النتيجة يناقشك اصحاب الحمير الحساب فلا يدفعون . وينتهز البدو فرصة غياب أو غفلة فيسوقون بغالهم . أتبعهم بعد ذلك وقاضهم على العوض !

يتبين « على » ان اللمطى له هو الآخر معلم . يلطمه ، يجوعه ، يذله ، يدفع به الى العمل الشاق رغم سنه . لا يحترم شيبته . عليه الآن ان يكنس « الفندق » — اى زريبه الحمير — فيقول فى نفسه : كنس المطحنة أرحم . ثم يسأل على زميله اللمطى : اسعيد انت ؟ يرد العجوز : لا أدرى . انما الحمد لله . نحن عبيد الله نرضى بحكمه . يرد على : الله لم يحكم علينا بأن نظل عبيدا . ويستنكر اللمطى هذا القول « الجرىء » فيفسره على : ان الله لم يحكم علينا بأن نظل عبيدا للآخرين . ان اظل انا عبدا للتدلاوى وانت لهذا « الفندق » اللعين ، وأن يظل قدور عبداً لمعلمه ، حتى أصبحنا نمثل بلد العبيد .

انتبه على فجأة إلى أن الساعة قد تأخرت به وأن عليه أن يحضر للمعلم فطوره . احتار : أيعود الى المطحنة أم يذهب الى بيته مباشرة وكلاهما أمر سوف يعاقب عليه ، فانتهى الى أن يدع القرار للحمار . اتجه الحمار من فوره الى بيت المعلم ، وسلمته زوجة المعلم زلافة فول غارق فى زيته يتصاعد ليحمل الى انف على رائحة زكية يختلط فيها الفول بالفلفل وهمست السيدة من خلف الباب فى استحياء : اسرع . تأخرت كثيرا . المعلم لا شك جاع . اسرع حتى لايغضب . وهمس على لنفسه : ومتى كان غير غاضب ؟ لم يعد يهمنى ، غضب أم رضى . وعند منعرج فى الطريق يصطدم الحمار النشيط برجل يمشى مستعجلا . تقدم الرجل نحو على فدفعه دفعة قوية أوقعته عن الحمار ، فكانت زلافة الفول الضحية الأولى : تناثرت حباتها وتشربت الأرض العطشى زيتها ومرقها . حلت الكارثة بعلى وعلم انها نهاية عمله فى المطحنة ، فأودع حماره فى « الفندق » وهمس فى اذنه : وداعا ايها الحبيب ، والى الأبد .

يعود على الى البيت وسط دهشة واستنكار وتخوف أمه من أن يكون قد اصطدم بالمعلم مرة أخرى ، وفقد عمله . وبينما هى تضرب اخماسا لأسداس ، توالى طرق عنيف على الباب ودخل المعلم التدلاوى ، مقلوب السحنة ، جاحظ العينين تتناثر الكلمات من فمه حمما متقطعة : « الحمار » : « الفول » . « تأخر » . « الجوع » . « الدار » . قال المعلم لفاطمة — ام على — ان ابنها هرب بزلافة الفول والخبزة ، هرب ليأكلها .. سما زعافاً ان شاء الله فى بطنه وقدرت الأم ان المعلم رجل يصلى الصبح فى وقته ، فدعواه مستجابة . عز عليها ان يكون السم

مصير ولدها الحبيب وتصورته يتلوى من الألم ، فحاولت ان ترد على المعلم بما يهدىء من ثورته ، ولكن هذا استمر فى غضبه ودعا بأن لا يهدى الله على أبدا . اذ ذاك ثارت المرأة المطحونة وقالت فى تحد : انت لست الله . والحمد لله على ذلك . يهديه الله ، فهو ابن رجل اهتدى . كان يصلى خمسة اوقات . ثم عز عليها الموقف كله ، فنظرت اليه بعينين حاقدتين ثم صفقت الباب فى وجهه فى عنف وكلماته الأخيرة تتسرب الى سمعها : والله لن تطأ رجلاه أرض المطحنة عمره ..

لا يعود على الى المطحنة ، وانما يجد — بعد مشقة كبيرة — عملا آخر لا يقل صعوبة ومذلة . يشتغل بالدباغة ، ويعوم فى الصهريج مع الجلود حتى منتصف فخذيه ، وينزل المساق ليزيل ما بقى فى الجلود من قاذورات . هنا أيضا تلاحقه ثورته ، وشعوره بالغبن الفادح الذى يتعرض له صغار العمال خاصة . يقول وهو يتأمل حاله فى عمله الجديد : نحن كالجزار الذى يطعم غيره أفضل اللحم ، ويأكل هو سقط المتاع . نصنع الجلود الطيبة ليستغلها الأغنياء ، اما نحن فنسير حفاة نغوص فى الوحل والدبغ حتى الركب ونشوى اقدامنا على لفح الشمس المحرقة . تماما كما كان الحال فى المدبغة : ننخل القمح وننخل أجمل الدقيق ، وأمه تقدم له آخر النهار خبز الشعير . وأمه ذاتها تغسل أجمل الثياب وأروعها وتلبس هى بقايا ما يباع فى سوق الملابس القديمة .

فى المدبغة يحدث ان يتأخر على بعض الوقت عن الحضور ، فيتفجر الغضب فى يد المعلم وهى لاتزال تقطر ماء الدباغة وتنطلق اليد كالصاعقة بلطمة قوية على الخد الذى نسى اللطمات منذ ان ترك المطحنة ، ويرتفع أمام العامل الصغير التهديد الذى يواجهه هو وباقى العمال فى المدبغة : « غلطة أخرى وتعرف باب الدار قفاك » . اذهب يا كلب الى المجيار الثالث فقد كاد الجلد يحترق . وبعد يوم من هذه الحادثة ، يجلس جمع من زملاء على يناقشون حالهم . منهم : « البرنوصى » الذى يرى ان المعلم له كل الحق فى ان يفعل ما فعل فهو صاحب المال . و« الحيانى » الذى يتحدى : من أين للمعلمين هذا الحق ؟ و« الجامعى » الذى يدفع بان العمال هم الذين ينزلون إلى المجاير والمغاطس ويصعدون الى السطح ويحملون الدبغ والجير وبعر الحمار وباقى القاذورات . ويرد البرنوصى : اذا طردت انا فغيرى كثير . الا ترى كم سيدة تتردد على هذه الدار تطلب عملا لابنها أو ابنائها ؟ فيقول على : كلهم جميعا انسان من حقهم ان يعملوا ويأكلوا ، ويضيف الجامعى : ومن حقهم الا يطردوا . ويتواصل النقاش ويخرج منه المجتمعون بنتائج محددة : قد اصبحوا رجالا مسئولين . كلهم مهدد بالطرد . من الواجب ان يتحدوا. ان يهتموا بمشاكلهم جميعا : يساعدوا المريض منهم ، وينوب الواحد عن أخيه اذا ثقل عليه العمل ، ويعينوا من نفد ماله ، وبالاتحاد يضمنون الا يفصلوا . ثم انتهى الاجتماع وقد طرح

« الجامعي » هذه الفكرة الجريئة : مارأيكم لو اتحدنا أيضا مع « الصناع » ، فهم أيضا طيبون ؟ ويرسم السؤال علامة الاستفهام فى فكر على والحيانى .

يتعلم على من بعد اشياء كثيرة من « الحيانى » الذى يجتذبه بأفكاره ويجد عنده نفسه وأفكاره . يعرف منه ان القانون — يوما ما — سوف يحمى العمال من الطرد . وكان الحيانى قد عرف كلمة القانون حين كان يتحدث مع الصانع التباع عن اشياء خارج الدباغة ، اذ هبط المساء وخلت الدار من أهلها . هنالك أهل عليهما الفقيه عبد العزيز وقال لهما : انتم هنا تسيرون بلا قانون ينظمكم ويضبط سير اعمالكم . ثم جعل يحاورهما ليفهما كيف يحمى القانون العمال ، ولماذا ينبغى ان يتحد العمال فى نقابة . ذلك انهما وزملاءهما عمال وليسوا صبيان المعلم وحسب وعليهم جميعا ان ينتخبوا من صفوفهم نقيبا يرأس نقابة تضم كثيرا من العمال من صناع وصبيان تسمى نقابة عمال الدباغة ، تضع قانونها بنفسها وتدافع عن حقوق العمال وترعى مصالحهم وتفرض الأجور الضرورية لعملهم ، وترد الى عمله كل عامل طرد .

هذا الذى لقنه الفقيه عبد العزيز للحيانى والتباع ، نقله الحيانى الى على ، مشيرا الى أن ما يحكم المدبغة قانون غير مكتوب وضعه المعلمون تحقيقا لمصالحهم، وعلى العما أن يكون لهم تنظيمهم الخاص . لم يفهم على كثيرا مما قيل له ولكن الأفكار أخذت تعتمل فى نفسه . ثم حدث ما كان لابد ان يحدث . اخطأ على فخلط الجلود المدبوغة وسُرق منه أحدها وهو يوصل حملا ثقيلا منها الى أصحابها ، فعرف قفاه باب المدبغة . يعمل الفتى من بعد فى صناعة البلغ عند المعلم باعلو ، الذى كان رجلا جادا ومحترما للعمال اذ يحملون اليه الجلود المدبوغة ، ولكن حينما عمل على معه اخذت الصفعات المعهودة تعرف طريقها الى وجهه .

ما لقنه الفقيه عبد العزيز للعمال الصغار كان الأساس النظرى الذى يمكن ان يعملوا وفقه . وهو أساس أثار افكارهم واستحث ارواحهم ، غير ان ما طور العمال فعلا ، ما طور الحيانى — فى المحل الأول — وما بدل من نفس على بعد ذلك ، التحاق كل منهما بواحد من المصانع الفرنسية التى بدأت آلاتها تدور باطراف مدينة فاس . مصانع : الصابون وغزل الصوف والقطن والأحذية . وسكة حديد : طنجة فاس ، وشركات النقل بالسيارات ، ومعامل المشروبات ، ومصنع الورق . التحق الحيانى بالعمل فى مصنع للصابون كعامل غير فنى ، بوظيفة مؤقتة . ورغم رائحة الزيت والشحوم والصودا التى تثير الغثيان ، أخذ يألف العمل ويتقدم فيه . وعرف اشياء اخرى تصاحب العمل . عطلة الأحد الأسبوعية يوما كاملا . الأجر الأسبوعى المنتظم . الدراجة التى طالما تاقت نفسه الى اقتنائها ، اشتراها لينتقل بسرعة من والى مقر عمله . بذلة العمل الزرقاء الضيقة المحكمة على سراويل داخلية . الصندل الذى يساعد على الحركة ولا يعوقها

كما تفعل البلغة .

ولم يطل الوقت بعلى حتى التحق هو الآخر بمصنع للغزل وتعلم فيه اشياء كثيرة زادت من وعيه : مهما اظهر من مهارة وقدرة فى عمله الجديد ، ومهما تحمل من تبعات مساوية للعمال الفرنسيين فأجره لايزيد ولا يتساوى بأجور هؤلاء . الناس فى المصنع يؤجرون على جنسيتهم وليس على قدرتهم . ومن خارج المصنع تعلم على أن هناك شيئا اسمه الاضراب ، وأنه وسيلة مشروعة يبيحها القانون المعمول به فى المصانع ، وأن العمال الأجانب اعتادوا ان يقوموا بالاضراب كلما استعصى عليهم ان يحققوا مطالبهم بالمفاوضة . هكذا قال الحيانى لصديقه على . واضاف : العمال الأجانب يستطيعون ان يضربوا استنادا الى نقابتهم . أما نحن ماذا نفعل ؟ اتفق الاثنان على استطلاع رأى الفقيه عبد العزيز . قال لهما الفقيه : قلت لكم منذ مدة : كونوا النقابات ، وتردد الحيانى قائلا : ولكن .. فقال عبد العزيز : لا أحب أن اسمع كلمة « لكن » . أنتم شباب و« لكن » هذه انما تعنى : لا أريد .

عمت الدعوة الى الاضراب مختلف المصانع ، تبناها العمال الفرنسيون ، فما لبث ان تعلق بها العمال المغاربة . وجدوا أنفسهم يطالبون برفع اجورهم وحقوق الضمان الاجتماعى وتعويضات اصابات العمل وحق الاضراب وحق تكوين نقابة خاصة بهم . وتبنى على والحيانى مطلب تكوين النقابة المغربية وذهبا يستشيران عبد العزيز ، فقال لهما — موافقا — منذ الآن أنتم لستم وحدكم . والمعركة ليست معركتكم انتم وحسب ، بل هى معركة الشعب بأسره . واضاف : لا مجال لنقابات أجنبية فى بلادنا ، فهى مرتبطة بنقابات البلد المستعمر فرنسا . المستقبل لكم . لن يبقى على وجه هذا الوطن عامل اجنبى لأن الاستقلال سيتحقق وسنصبح سادة بلادنا . ويومئذ تحتاجون الى نقابات منظمة لتواجهوا بها واقعكم .

وجرت الأحداث سراعا من بعد . تحركت قوات النظام الاستعمارى بقوة كى تحتوى الاضراب . وافق أصحاب المصانع على مطالب العمال الفرنسيين بزيادة الأجور ، وزياد اسهام العامل فى الضمان الجماعى . وكان العمال المغاربة قد شاركوا فى الاضراب بناء على دعوة العمال الفرنسيين لهم ، فلما انتهى الاضراب ، لم تزد أجور المغاربة ، فعلى هذا كان قد تم الاتفاق بين الحاكم الفرنسى وبين طرفى الاضراب من أصحاب مصانع وعمال فرنسيين ، وعاد العمال جميعا الى العمل من فرنسيين ومغاربة ، الا على والحيانى . لقد حكم عليهما بالسجن عامين . واستبشر عبد العزيز خيرا بهذا الذى حدث للشابين ووجد فيه بداية النضال الحق !

مرّ العامان وخرج على والحيانى كأنشط ما يكون المناضل النقابى . لم يلبثا بتوجيه الفقيه عبد العزيز الدائم ان جمعا العمال على مطلب انشاء نقابة مغربية . ووجد الفرنسيون ان المقاومة بالقوة

غير مجدية فلجأوا الى الحيلة . قبلوا ان ينضم المساعدون المغاربة ـــ وهم طائفة فوق العمال بدرجة ـــ الى النقابة الفرنسية ، كى يذوى حماس الناس بدعوى ان بعضا من مطالبهم قد اجيب ، ثم يجمد نشاط هؤلاء المغاربة فيما بعد .

واكتشف الحيانى وعلى ـــ بمساعدة عبد العزيز ـــ ان اقتصار النشاط العمالى على تكوين النقابة يفضى الى طريق مسدود . لابد للعمال أن يناضلوا ـــ من خلال النقابة ـــ فى سبيل الاستقلال . واضاف عبد العزيز : بل يجب ان يتوازى النشاطان الاستقلالى والنقابى ويعين كل منهما الآخر .

واذ تكامل وعى الشابين اخذا ينظمان اضرابا عاما يشمل البلاد كلها . ونجح الاضراب وواجه المستعمرون الحقيقة المرة والغيظ يملأ قلوبهم ، ثم لجأوا الى قوة السلاح ، والقتل وإراقة الدماء كى ينهوا الاضراب . ولما انتهى صدرت الأوامر باعتقال كل من اشترك فيه ومن ناصره ، وقرر الجنرال الفرنسى تشكيل محكمة عسكرية لمحاكمة القتلة والمسئولين عن الفتنة . وازدحمت معسكرات الاعتقال والسجون وجرى التعذيب بالكهرباء ومزقت الأجسام من اثر الضرب بالسياط .

وسيق الى السجن عبد العزيز وانصاره من دعاة الاستقلال كما زج بكل من على والحيانى وانصارهم من النقابيين . ولبث هؤلاء فى سجونهم ثلاثين شهرا ثم اضطرت قوات الاستعمار الى اطلاق سراحهم . وحين التقى الثلاثة : عبد العزيز وعلى والحيانى خارج السجون قال على : كل العمال اصبحوا استقلاليين ، ولم يعد أحد يفكر فى النقابة . قال عبد العزيز : كنت اعرف ذلك. ولكنهم سيعودون استقلاليين نقابيين . انه سير التاريخ. وصفا وعى على والحيانى، وأخذا يريان الأشياء بوضوح تام . وقال عبد العزيز : آن الأوان . اضربا الحديد وهو ساخن . وسرعان ما صدر بيان باسم العمال المغاربة جميعا : كونًا نقابة مستقلة . لا مكان لأية نقابة أجنبية فى بلادنا . هنالك قال احد الفرنسيين : آن لنا الآن أن نرحل .

كما قلت آنفا ، تعرف رواية : « المعلم على » حياة افقر الفقراء فى فاس معرفة حميمة ، وتعرضها بكثير من العطف . ولنأخذ مثلا : تعاملها مع حياة على واسرته الصغيرة المكونة من امه الأرمل واخوته الثلاثة : « كنزة وعيشة والجيلالى » : اسرة مترابطة متماسكة ، تقوم فيها الأم المطحونة بجهد خارق كى توفر لأولادها ـــ أولا ـــ ولنفسها ـــ من بعد ـــ مجرد لقيمات تقيم الأود بالكاد . وهى تهرى بدنها فى غسل بيوت القادرين ، فاذا عادت بعد هذا العناء الكبير الى غرفتها الضيقة عبر ازقة وحوار يسودها الظلام وتملؤها الأوحال وتكتنفها المبانى المتكدسة التى يضيق بعضهما ببعض، نقرت الأم الباب نقرتين خفيفتين فتهللت عيشة وكنزه وأخوهما الجيلالى، وانطلقوا جميعا نحو الباب يتسابقون لاحتضان الأم ، فاطمة . تهتف الأم : اولادى ، نور عينى ،

حبيبتى ، غزالتى وتقطع القبلات الحرى كلمات الشوق وتهتف فاطمة من اعماقها : كيف قضيت يومك ؟ البرد كان شديدا. اعتنت بكم « لا لا خدوج » ؟ ولكن الصغار يتطلعون الى ما حملته لهم الأم . تقول عائشة : نحن جوعى يا أمي . هل حملت اكلا كثيرا ؟ ولكن الأم لم تأت بغير القليل من الطعام وخبزة واحدة . ويحتج الجيلالى : خبزة واحدة تكفينا يا أمى ؟ ترد الأم : تعشوا انتم . أما أنا فقد تغديت .

ويشكو الصغار لأمهم ما كان يفعله بهم اخوهم الكبير على . قبل مقدم الأم كانت الغرفة الضيقة تعيش فى فوضى . الصغار يتشاغلون عن الانتظار بأن يشغب بعضهم على الآخر . الجيلالى يعاكس كنزة وعائشة تدافع عنها فيضربها الجيلالى هى الأخرى وتقوم حرب المخدات والقباقيب ويجرى الرش بالماء ويعلو الصراخ ، الى أن تنقذ الموقف الجارة « لا لا خدوج » مهددة بأنها ستقص على الأم ما حدث . ويدخل على الحلبة يصفع هذه ويركل تلك ويمسك الجيلالى من شعر قرنه حتى يرتفع صياحه وشكواه .

وتسمع الأم بكل هذا فتقول فى سماحة نفس : عرفت هذا . لا تجتمعون فى مكان الا كان الشيطان خامسكم . وتذهب لرؤية ولدها الحبيب على . لا تستطيع أبدا أن تحمل نفسها على كراهته ، رغم ما يسببه لها من مضايقات واحراج . تعرف فيه حبه لها ولباق اسرته رغم افعاله التى تثير السخط المؤقت ، وتنتظر منه ان يكبر ويستقيم امره ، ويصبح رب العائلة عوضا عن ابيه المرحوم .

وترسم « المعلم على » صورا دقيقة نابضة بالحياه لأهل فاس وزوارها . كانت السنة تفيض بالخير على الزراع . محصول القمح والشعير وافر ، والمطاحن تعمل طيلة النهار فلا تكفيها ساعاته كى تلبى حاجة المنازل والأسواق والأفران . كان سكان فاس يتضاعفون بالنهار ، وتستقبل أفواجا من الريفيين يبيعون فى الصباح محصولهم واصوافهم وزبدهم وغنمهم وابقارهم ، ويجولون مساء فى الأسواق يتزودون بالملابس وطيبات الحياة لزوجاتهم : السكر والشاى والحناء والأدوات المنزلية ، ويذهبون لأسواق الأكل فيحشون الخبزة والخبزتين بالشواء ، ويحسون لذة الحياة بعد عام كامل من الدأب . وتنفتح شهية البعض على الزواج ، العازب يتزوج ، والمتزوج يضاعف أهل بيته ، شكرا منهما لنعمة الله ، فالزواج إكمال للدين ، ومضاعفة الزوجات عفة للنفس ، والأولاد تكثير لأمة محمد .

وتبلغ الرواية قمة عالية فى العناية بوصف احوال الشعب وطقوسه ومعتقداته حين تتعرض لتقديم ما يجرى فى مدينة فاس استعدادا للاحتفال بمولى البلاد ، مولاى ادريس الأزهر . المنادى يعلن ان الاحتفال سيكون يوم الخميس بعد القادم ، وهو احتفال ينهض به أهل الدباغة خاصة .

يجمعون له الأموال من بعضهم ، كل يدفع على قدر طاقته عن طيب خاطر ، حتى صغار العمال الذين لا يتناولون أجرا ، يدفع عنهم المعلم ، ويتلقى نظير ماله عملا اضافيا من العمال . ويفحص المعلمون أفضل ما فى سوق الخميس من ثيران ، ويختارون من بينها اثنين يمتازان بالضخامة والسمنة واللون . احدهما فاقع الحمرة والآخر فائق السواد .

وتحل الليلة الكبيرة التى تسبق الاحتفال العظيم فتصفها الرواية قائلة : كانت ليلة الخميس ساهرة فى دار الدبغ . تزينت وأصبحت عروسا تكتسى حلة جميلة . فرشت ارض سطحها بالزرابى ، ونصبت على جدرانها فرش زاهية الألوان واوقدت الأضواء من كل نوع ، بين غازية وكربونية واوقدت الشموع المزوقة بالورق الملون ، واستدعيت جوقات المطربين وفرقة الطبلة والطاسة ، ورصت صوانى الشاى ، وتحلق المعلمون والصناع وضيوفهم من المدعوين حول المطربين ، ووقف « المتعلمون » ـــ صغار العمال ـــ يخدمون الحفل . وانتصف الليل فحمل عمال المعلم « فضول » مثارد الكسكسى فى موكب حافل يتقدمه حاملو الشموع المسرجة ينشدون نشيد مولاى ادريس . وبعد قليل انتهى الى باب الدار موكب المعلم عبد الرحمن ، وحمل عماله الثريد . وكان كل من فضول وعبد الرحمن يتنافسان على منصب نقيب الدباغين .

ولما أشرق الصبح ازدحمت الشوارع بالأطفال والرجال والنساء حتى ضاق بهم الممر الذى ستمر منه المواكب الحافلة. وعند الظهر تصل طلائع المواكب، تزينها الأعلام الخضراء والحمراء المطرزة بالذهب ، يسير معها شيوخ الدار من المعلمين يتلون صلواتهم وادعياتهم ، وتتلوهم جوقة الطبل والغيطة ، يتقدمها عمى الجيلالى امين الغياطين ، ويليه قلب الموكب من الصناع والمتعلمين واصدقائهم والدباغون القدامى يتحلقون فى حلقة بيضاوية حول الثورين الضخمين . ويقترب الموكب من العطارين ، قلب المدينة وقد احاط بكل ثور ثلاثة أو أربعة من الجزارين كل منهم يدعى انه قادر على أن يذبح الثور بضربة خفيفة يفصل بالسكين الى العظم ، دون ان يستطيع الثور حراكا . فان المقصود ان يذبح الثور وهو واقف دون ان يتمكن من فرار أو مقاومة ، فيخر ساجدا على عتبة ولى البلاد ، تكريما له واجلالا .

يكوّن وصف الاحتفال بسيدى ادريس لوحة جدارية هائلة ، حافلة بالتفاصيل الجادة حينا ، العابثة حينا آخر : احد المحتفلين ينتهز فرصة اشتداد الزحام فيلتصق بجسد امرأة التصاقا غير عادى . يرتفع صوت المرأة بالشكوى ، فيرتفع صوت احد الوعاظ : انت الظالمة . تركت خباء منزلك وخرجت تحشرين جسمك بين الرجال ! وتنظر المرأة الى الواعظ شذرا من خلال لثامها ، فان عينيه تتحدثان بغير ما يتحدث به لسانه وينطلق صوت من بعيد : اسكتوا وصلوا على النبى .

ومن حين لآخر كان على يغتنم فرصة غفلة من الصناع المحيطين بالثورين ، فتمتد يده فى حذق الى ما بين فخذى الثور ليمسك به فى عنف يجعل الثور يحرن ، وربما رفس بكلتا رجليه فيضحك الجمهور ويسر « المتعلمون »

الجو هنا يوحى بلعبة صراع الثيران ، وجمهور المتفرجين يرون الشرف كل الشرف فى أن يتمكن الجزار من أن يجعل الثور يخر ساجدا فى حركة سريعة . اذ ذاك يرتفع التهليل فى دوى حافل بالتصفيق والهتاف . اما اذا فشل الجزار فى سرعة الاجهاز ، فان همهمة الجمهور واستنكاره يرتفعان الى السماء

وحين يتم الاجهاز ترتفع الأصوات منشدة :

اللهم صل عليك يا رسول الله

وجاه النبى العظيم

الجنه للصالحين

والنار للكافرين

ويجد المتفرجون سعادة ايما سعادة اذا ما رشهم دم الثور ، فكل قطرة منه بركة وشهادة وفاء لذكرى ولى البلاد . حتى اذا ما فاضت روح الضحية وامتدت قائمتاه وخلفيتاه مصلبة تعلن النهاية شرع المتعلمون وبعض الأطفال امواسهم يقطعون اطرافا من لسان الثور وذيله وربما بيضتيه ، ليتبركوا ويعلنوا لزملائهم انهم كانوا فى قلب المعركة وهذه هى شواهدهم .

وفى خضم التفاصيل الكثيرة التى تزحم الاحتفال تبرز شخصيتان بالذات : شخصية البراح ، أو المنادى الذى تعرفه المدينة مرة فى العام ، فهو من المرابطين داخل الضريح يعيش مجاورا فى رحابه ، ينظف — مع غيره — الضريح ويؤذن ، ويساعد من يحتاج لمساعدته من زوار قبر الولى الصالح ، وخاصة الغرباء عن المدينة . ويقف مع النساء اللاتى لا تمكنهن اوضاعهن من الدخول الى القبة الخضراء ، فيتناول منهن المنديل أو المحرمة ويضعها فوق القبة أو تحت الكسوة ويرشها بماء النافورة لتقبس البركة ، ثم يعيدها الى صاحبتها ، ليقضى الله حاجتها فتلد ، أو يحبها زوجها ، أو يعمى الله عينيه عن طريق الأخرى . ويتناول فى مقابل هذا النذر ، يوضع فى صندوى مولاى ادريس ، أو شمعة تشتعل فى رحابه .

كان البراح رجلا مهيب الطلعة، ذا لحية كثة وخطها الشيب، وعينين نافذتين جللهما الكحل بسواده . على رأسه عمامة مكورة خضراء ، شعار صاحب المقام ، وعلى عنقه مسبحة طويلة ضخمة الحبات ، يتكىء على عصا قوية يقف معها وهو يضرب الأرض بها ضربة قوية ، كلما توقف ليردد اعلانه وكان جلال موقفه يدفع سكان المدينة الى أن يقفوا منصتين ، ولا يجرؤ

أحد على أن يستعيد كلماته ، والا رمقه بنظرة حادة تجعله يقف محرجا وربما خائفا .

أما الشخصية الأخرى فهى شخصية عمى الجيلالى ، أمين الغياطين ، يمر فى الموكب وقد انتفخ شدقاه المرهفان حتى لتكاد تبين من خلالهما اضراسه المتهرئة . وهو وجوقته متطوعون ليشدو بغيطته فى عيد ولى البلاد . كان يلبس أجمل ثيابه : جلابة صوفية قهوية داكنة مطرزة بشرائط حريرية حمراء صفراء بيضاء ، يلبسها مائلة وقد اخرج ذراعه من فتحة فى آخر كمها القصير . أرسل قب الجلابة مزينا « بنوشة » حريرية فى ألوان الشرائط ، وتربعت فوق رأسه عمامه مضفورة لا تتربع عادة على غير رأس أمين الغياطين . وجه لاتقتحمه العين ، قد زينته لحية محدقة ، بدأ الشيب يطل من بين شعراتها السود ، وفى قدميه بلغة مخروزه جديدة يحتفظ بها ليوم الموسم . فما يصح ان يسعى الى ضريح مولى البلاد فى موسمه العظيم على غير بلغة جديدة ... كان صوت الغيطة يعلو ولا يعلى عليه وكان يقود جوقته ورأسه تتحرك بعمامته ذات اليمين وذات اليسار ، فاذا احتاج المغيطون ان يعرفوا أى نغمة سيعزف تطلعوا الى العمامة المضفورة فعرفوا من اشاراتها اتجاه النغم .

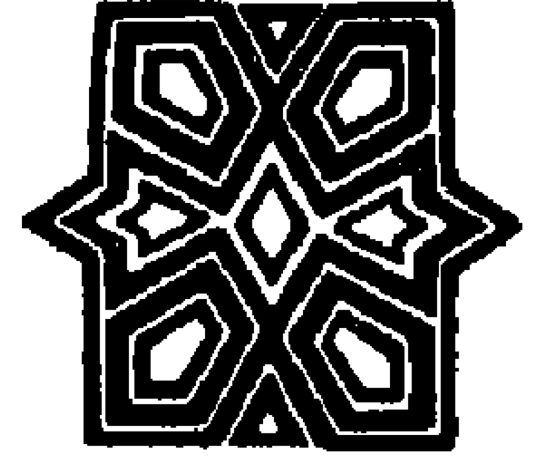
هذه المعرفة الحميمة بالناس وعادات الناس وعواطف الناس تبعث حياة دافقة دافئة فى رواية : « المعلم على » ويظل هذا هو الحال ، حتى تظهر فى الرواية شخصية الفقيه عبد العزيز ، المناضل الصلب ، العارف بكل شيء ، الذى يملك لكل سؤال جوابا ، والذى يحوى وحده كنز الحكمة كله . اذ ذاك تندفع الرواية من الطريق الواقعى الكثير الحرارة ، الى طريق الفكر البارد ، الخطط المنظم الذى يمثله عبد العزيز ورفاقه من المجاهدين فى سبيل استقلال المغرب .

هنالك تتحول الرواية من اللون الواقعى الى اللون التعليمى الواضح ، وتفقد الشخصيات حرارة العيش فى الواقع والجسد . يحدث هذا لكل من على والحيانى وتصبح المناقشات بينهما وبين الفقيه عبد العزيز تطبيقات واضحة لبرنامج مُعَدّ من قبل يرمى الى « تثوير » العمال . تتجه الرواية من الواقعية الحرة الى الواقعية الاشتراكية التى تقرر ان قائد الثورة قد من الصلب ، وأنه — أبدا — لا يمل ولا يتعب ، ولا يتخاذل ، وبالطبع لا يخون . بل ان عبد العزيز يمضى فى طريقه الى أبعد من هذا ، فهو يفرح لأن كلا من على والحيانى قد زج بهما فى السجن ، مقررا فى هدوء ، ودون ميل عاطفى ، ان هذا هو السبيل الوحيد لكى يتحرك التاريخ فى الاتجاه الصحيح . وحين ينجح الاضراب العام ويناقش انصار الاستقلال عبد العزيز فيما يكون من أمر بعد الاضراب ويسألون عن الثمن الذى سوف يطلب منهم ان يؤدوه يقول عبد العزيز : الثمن ؟ تعهدنا به مسبقا وسنؤديه على العمل التافه والكبير . ويدخل على والحيانى مؤكدين نبأ نجاح الاضراب ، ويقول الحيانى : كنا نتساءل ونحن فى طريقنا اليكم عن المصير الذى ينتظر العمال . يقول محمد ، أحد

انصار عبد العزيز : مصيرهم هو المصير الذى ينتظر الشعب المضرب قاطبه . ويردف عبد العزيز : ستحل الادارة المشكلة . ستعتقلكما ولجنة النقابة جميعها ، كما ستعتقلنا نحن . وستطرد مئات العمال ، وسيعود الآلاف الى عملهم تحت الضغط والاهانة . ثم استطرد عبد العزيز : يجب أن نتوقع ، فالمستقبل يجب أن يكون واضحا فى مرآة أفكارنا . وكما نتصور الاستقلال القريب يجب أن نتصور الطريق المحفوف بالمتاعب .

الغربة واليتيم

عبد الله العروي



مد شعيب يده الى كتب تقبع فى صندوق خشبى . قرأ عناوينها بصوت مسموع : « الشفاء » و « الاتقان » و« التشوق » ثم قال : آه لو كنت كامل الاحساس ! وناجى صديقه قائلا : هذه الكتب الصفر ، فى عنائها لذة ، وفى عمقها نعمة . منها انتهلت أول مرة ، واليها أعود عندما تعجزنى الحيلة . تقول ان الكتب البيضاء الملونة قد كيفت عقلى ونَجرَّت قلمى بدون وعى منى ؟ لعلك صادق . انما احسسها علنّى أجد فيها راحة الضمير . آه .. لو كنت كامل الاحساس !

وكان صديقه ادريس قد كتب له من باريس يقول : « اكتب اليك وكلى تساؤلات عن أمور ظننت انى لن اواجهها أبداً ، لأنى شخت قبل الأوان . صدقنى اذا قلت لك انى استعيد قطعة قطعة شباباً لم أذقه أبدا .. انا الخالق من لاشىء » .

قالت زوجة شعيب وهى ملقاة على السرير بدون غطاء : هل انت خارج الليلة ؟ قال شعيب : نعم . قالت الزوجة : هكذا ستكون الليالى على التوالى . خروج دائم وانتظار دائم . كان شعيب قد تزوجها ولم يستطع ان يعيش معها وهو يعمل فى مهنة حقيرة . كان سجين رأى ، اطلق سراحه فعمل كاتبا فى السجن . وعلق على مصيره هذا قائلا : قد انتهى عصر البطولة ، فعمتنا التوافه ولا نجد لها مخرجا .

بعد الحرب أجمعت الدنيا على تغيير الأوضاع ، وحاول الرفاق فيمن حاولوا ان يبدلوا احوالهم . غير ان الفرقة دبت فى صفوفهم ، انفصمت العقدة وتموهت نقطة الارتكاز وتجلى ان الوحدة كانت تفككا وأن الاخاء كان كبتا وقسرا .

وكانت مارية بين الرفاق . فى الاجتماعات فسروا لها كل شىء . قالت مارية لنفسها : ان يكن العالم قد تاه فلأجمع أنا اشتات حياتى ، وخَرَجتْ الى مسقط عواطفها تاركة وراءها آيات البطولة

والخراب ، وكأنها قد شاخت بغتة . فات من حياتها ما فات فأصبحت فى عداد اللاجئين . علمت ان حياتها قد مرت على الهامش ، فوعدت نفسها ان تغير الوطن والأمل والمهنة ، وترحل الى باريس . تاركة وراءها صديق روحها ادريس . قال لها ادريس وهو يواجهها بحقيقة التغيير الذى جرى فى نفسها : « دبَّ الى نفسك يا مارية هذا المطلب الحيوى وحطمها تحطيما من غير أن تشعرى به . اذهبى وغامرى وسأبقى وفيا لعهدك . ضمن امانيك تطلبين حبا جديدا فقالت الفتاة : وحياة جديدة . كل شيء فينا قد خَلقَ وتلاشى . فقال ادريس : عباراتى أيضا تلاشت وعجزت عن امساكك . انك فى قرارة قلبك تفرزين الرجال . تقربين هذا وتبعدين ذاك . تطلبين الجديد ولا تعرفين له صورة ولا شكلا .

وكانت مارية قد ذهبت لتعيش بعض الوقت مع صديقتها القديمة لاره : جاءت لاره من شرق أوروبا عام ١٩٣٢ شابة يانعة ، من أسرة تؤمن بالغرب وبحريته . وصلت باريس دون التواء ، ذات صباح مشرق ، وعم حبها الانسانية جمعاء باختلاف ألوانها وأنغامها ، والناس من حولها مطمئنون الى ان الزمان جبار يُقْهر بالحب والايثار . وأحبت لاره فتى اسبانياً منعها ان تغادر باريس الى فيينا أو ميونخ ومكثا متحابين الى أن تعكر ماء النهر بينهما . ثم دقت طبول الحرب فتركت لاره فتاها واندفعت الى الضجة والنار . قالت ان الطيور تموت فى أوكارها . أنا طير والعالم على وشك الانفجار . ركبت آخر قطار الى الشرق .

ولما وضعت الحرب اوزارها كانت لاره حية ميتة . لم تعد الى فتاها . قالت ليبق كل منا فى مكانه ، نُوحِّد القلوب ونطهر الأذهان . وجعلت تعلم الغناء الأطفال من ابناء العمال والفلاحين . ثم كان ما كان من تمزق وانفصال . بدا لمارية حين جلست الى لاره وكأنها حانقة على حظها الذى لم يسمح لها بتكوين عائلة ، رغم انها رفضت الحياة العائلية وهربت من العيش الرغد والاعجاب العام . سألت لاره ماريه : أين الخاتم ؟ خاتم العاطفة العميقة والسعادة الأبدية الذى من أجله تركت هذه المياه العكرة ؟ قالت مارية : رفضنى عمر بعد ما تبين له أن بضاعتى مزجاة . كان عمر قد دخل معها فى حوار . قال انه يحب شعبه فى ماضيه ومستقبله لكنه يظن ان العنف يبدد الميراث ويضيع بذور المستقبل . وما هو دور الرفاق اذا لم ينبهوا الى خداع الحاضر ؟ قالت مريم : « انسيت يوم كنا نُقْتل فى كل لحظة من حياتنا ، فى المدارس والدكاكين ، فى الشارع وفى المقهى ، يعترضنا الموت شخصيا ويفقدنا الأمل ثم يذهب لأكل شهى وفراش وثير ؟ ماذا كنت تفضل ، ان ننتحر وتزدحم المقابر بنا ثم تنقلب بعد أربعين سنة حقولا خصبة ؟ وهل قَتلنا ؟ أم جابهنا نوعا من الفتك بنوع آخر ؟ اذا قيل ان ابناء الحقد والبغضاء يكبرون نحافا .. اجبناك اننا لا نتعدى المطالبة بالحياة فقط واننا لا نطمع فى الكمال .

ثم قام بين الاثنين فتور دفعهما إلى التأجيل وانقلب التأجيل رفضا دون أن يدركا كيف تم التغيير » .

كان عمر هو هامليت الرفاق . المتردد الدائم . العازف عن العنف . المناهض للفتك ، يُعَرِّف الفتك بأنه كل عمل لا يستسيغه البشر تلقائيا . وكان استاذه يوليوس قد لقنه مبادىء بذاتها تقول ان جوهر المسألة تشبث بالعقيدة واعراض عن الحياة والمغريات المتواصلة . وان الحق فوق الهوى وأن الانسان عمود الكون . فلما لقى عمر استاذه من بعد قال له : لم أنس حرفا واحدا من نصائحك فهى صالحه لكل المواقف غير اننى فى كل يوم اواجه موقفا جديدا . ان الفرق بينى وبينك الآن هو انك تخاطب الأخشاب وانا احاول اقناع النابض الحى . ان الأمر يتعلق بالدماء وتهافت الناس على الخراب والتدمير . فهل أبقى أنا وحيدا على الهامش اتفرج ؟

لم يرض عمر ان يُقْتل بائع الليمون فى الشارع ، ثم لا يحرك أحد ساكنا لهذا غادر مارية وخرج يبحث عن القاتل . استهان ادريس ومريم وماريه بمقتل البائع ورأى ادريس فى الموقف كله : رجلا يمر وآخر يسقط . عجلات تنطلق والماء يغسل كل شيء . فقال عمر : واشعة الشمس تمتص الكائنات ولم يبق باق . فرد ادريس : لأن كل شيء فَانٍ . قال عمر : علينا اذن بالفناء . غير انى لا أخربِ مع المخربين !

تناول ادريس ومريم هذا المارق بالنقاش الحراق ، ومزقا جسمه تمزيقا ، فخرج مطرق الرأس . كسير الجناح . ظن ادريس ان هذا هو رجوع الفتى الضال الى أمه وأبيه ، وهمت مريم أن تتبعه ، فمنعها ادريس قائلا : دعيه يا مريم مع نفسه . فى فراغ قلبه سيجد صورتى وصورتك ... ان عمر منى والىّ . « غير ان يوليوس العجوز يعقب : لقد نظر عمر فى قلبه فلم يجدنى لا أنا ولا مريم . ولعل مريم هى السبب » .

كان عمر قد عرف مريم . ثم تركها تعود الى بلدها . قالت مارية انه قسى عليها بترداده الدائم لعبارة : « لست حرا » غير ان ادريس مال الى الاعتقاد بأن مريم — الأجنبية — هى عنصر خبال وتشتيت . قال ادريس لمارية وهو يبصرها بما انتهى اليه امرها : انها مريم — هى التى اقحمت الضيق فى فؤادك . لقنتك ان التجديد يجب ان يكون شاملا يعم كل شيء . هؤلاء الأجانب يعرفون كيف يبثون فنون الريبة فى النفوس . يسفهون العقول ، ويتحايلون حتى يهدوا البنيان المشيد الثابت . وقد ردت مارية اذ ذاك هذا المنطق بلطف ، ولكنها اعترفت فى حديث مع لازا بأن عمر انما ارتمى فى احضانها فراراً من مريم رفيقته فى السفر وهرباً من يوليوس استاذه العجوز . اما ادريس ، فانه يذكر عمر بمحاولات فاشلة بذلها ليتقرب منه ، التماسا للطمأنينة وجبر الحياة . لدى ادريس الايمان الذى يحمى من الحكم القاسى ومن عقاب الوحدة والانعزال يقول

عمر لمريم : علمونا واكدوا لنا اننا رأس الدنيا وقطب المدار . كل شيء ينبع منا وينحدر الينا . لكنهم لم يحسبوا حسابا للملل والقنوط ، يوم يتساءل المرء : اذا كان الوفاق المنشود يتحقق والخصوم فى القبور .. اى فائدة وأى عزاء ؟ وعلام نعتمد الى يوم يبعثون ؟ لقد طغى الارتياب على عمر ، واغرقه فى اليأس ودفع به ميله للفحص والتحليل الى خضم الوحدة والنسيان . ضاقت به الأرض وغدا المنبوذ اينما اتجه . تقول له مريم : السنا كلنا شبابا ملأ الأمل قلوبنا وطغى على عقولنا خيال المستقبل ؟ فيرد : والارتياب . الارتياب فى الحق . ان الحق لا يتقاسم ، فهو اما معكم واما معى .

بقى من الجماعة يوليوس وشعيب . أما يوليوس فقد جاء من فرنسا الى المغرب سأما من الكتب والنقاش الحاد والمبارزة فى الشوارع . قصد بلاد الشموس . بلاد الوفاء . مَلّ كل حركة تافهة ويئس من الغيوم والمداخن . لم يودع أمه ولا أصدقاءه ولا اساتذته الشيوخ . قصد المغرب كما قصد غيره من قبل شواطىء الهند وبلاد الزنوج . فماذا جرى له فى المغرب ؟ يقول لمريم : المصيبة هى وجود ناس مثلى أنا ومثلك . طالما وددت لو لم يتغير شىء فى هذه البقعة ... بلوت اشكالا وأشكالا من الانسانية يامريم ، ودربت نفسى قبل أن أقصد شواطىء الغير ، وظننت اننى لن اتعجب مهما تكن الفوارق . واذا بى أمام رجال اجتازوا فى فقرهم الحد المعهود . ماذا فعلت ؟ هل عطفت عليهم ؟ هل خجلت منهم ؟ هل غضبت على الأقدار ؟ لا ، بل محوتهم من عيونى بسرعة واتقان مدهش » .

وقُتل بائع الليمون فسأل شعيب من هو ؟ اجاب ادريس حانقا : هو حلم من احلام يوليوس ، استاذ عمر . سأل شعيب : لا وجود له ؟ رد ادريس : بل وجد فعلا ، ان كنت تعنى الجثة . لكنْ من الناس من يخلقون الصعوبات عمدا ، ويوليوس من هؤلاء . هذا الرجل الذى تقلب فى ربوع المدينة البيضاء وانغمس فى فقرها وتاريخها هو الذى أوجد حادثة القتل .

يقول يوليوس فى حديثه لمريم : اننا تسللنا [هنا] فى شتى الهيئات والصفات . اذ ذاك نذكر قول ادريس لماريه : انها مريم التى اقحمت الضيق على فؤادك . لقنتك ان التجديد يجب أن يكون شاملا . هؤلاء الأجانب يبثون فنون الريبة فى النفوس ... يتحايلون حتى يهدوا البنيان الثابت .

يقرأ يوليوس فى الصحف خبر مقتل بائع الليمون ، فتعود اليه من جديد مشاهد من حياته الجامعية والنقاش الحاد والخصومات المتجددة . ويهنىء نفسه على أنه نجا من خيبة شاملة . جاء الى المغرب وهو ينتظر ان تصبح الأرض غير الأرض لكن جوهر الوضع البغيض هو : بائع الليمون يقتل فى الأزقة . يقول يوليوس ان الحرية لا تحمى بالجور . ان الحق لا يدعم بالباطل ، ثم يناجى نفسه : لم أتغير بل تغير العالم . لم أخن الدنيا بل الزمن خان الزمن . لا أزال اتطلع الى وفاق

الناس وكرامة المرء لكن فى دروب غير هذه الدروب . لقد جرب يوليوس كل السبل دون جدوى ، ثم تحطم ما كان عنده من الجرأة والاقدام . هذا عهد الحقد والعاطفة ، وها هوذا يواجه من جديد مشكلة الاختيار : اما الخضوع والمجاراة واما السكوت والاهمال . كأن الزمن يتراجع الى الوراء. حين كانوا يوقعون الاحتجاجات وكان العالم كله بأساتذته وتلاميذه، بقاعاته ومقاهيه منقسما قسمين . الآن يقال : الوقت وقت العمل لا وقت التفسير . لكن أى عمل بلا تفسير ؟

غير ان يوليوس يفشل فى اقناع احد بما يرى من ضرورة الوفاق ، ونبذ العنف ـــ يفشل حتى فى اقناع تلميذه المقرب عمر . يتحطم منطق الوفاق وتسيل دماؤه على الأسفلت مع دماء بائع الليمون .

غاب ادريس خمس سنوات ، وها هو ذا يعود فى غده . ينتظره شعيب والرفاق . قال شعيب ان الأسئلة كثرت على ادريس ولابد له ان يعود . لقد هيأ ادريس اسئلة وهيأ له شعيب اسئلة اخرى يلقيها عليه . سيجد المدينة كما تركها ، نائمة ، تافهة . وممثلى الحركة متخاصمين فيما بينهم ، والباشا ينام ليل نهار بين نسائه وبين المشتكين . وشعيب يأمل ان يذهب ادريس الى « الزعيم » ويبسط له هذه الخصومات التى لا تنتهىٰ عرف شعيب الحبس فى قسم الشرطة ، وبات ليلة مع المذنبين ، ثم خرج فى اليوم التالى وهو يفكر فى الرفاق : ماذا فعلوا ؟ هل انتظروه ، أم أخرّوا العملية المقررة ؟ قال لرفيق إنه ذهب ليزوره فى داره : ماذا تعنى الأحداث الأخيرة : المدافع ، والليلة التى قضيتها مع الشرطة ، ايكون معنى هذا التأخير ؟ كان شعيب صاحب فكرة « العملية » اقنع بها غيره ثم انفلتت منه وتطاولت عليه ، لما بدا فيها من اوجه النقص . قال لنفسه مدافعا عن نفسه : يظنون ان الأمور كانت غير منتظمة وأن الاختيار كان حسب الأهواء . بل الأمور كانت منظمة فعلا . من يرجع الحق الى نصابه ؟ اليوم الكلام للدجالين الذين لا يعرفون . وفجأة تذكر امرأته . وفى الحين رآها ملقاة على السرير فاتحة الأجفان لا تنتظره هو ولا تنتظر النوم . قال : كيف تكون الحياة هكذا بدون عمل ؟ لم ترد أن تقرأ ولا أن تخرج ولا أن تسافر ولا أن تنظف الدار ولا أن تغسل الثياب ؟ وكان فى نفس شعيب سؤال مكتوم : لماذا ذهبت مارية الى ماوراء البحار ؟ لماذا تركت ادريس تائها ، أخرس ؟ » . وعلم ان الأسئلة التى ادخرها يوما بعد يوم ليطرحها على ادريس لدى عودته ستبقى بلا جواب مادامت مارية فى تلك الديار صامتة متوارية .

افاق شعيب ذات يوم عند الأذان ووجد نفسه فى المسجد وقد قضى الليلة بكاملها . اتجه نحو الصحن وتلألأ الماء من بعيد فى صفيحة الجو المعدنى . تذكر فى الحال زوجته، ورأى عينيها

السودلوين الخفيضتين تقول : هذا آخر ما بينى وبينك . لقد نصحتك يا شعيب ان تناديني فى كل لحظة ولا تتركني وحيدة فى صمت الليل . بلل شعيب وجهه بالماء البارد وقال : ماذا أفعل بها؟ هى دائمة الصمت. بالأمس كانت تلميذة لى، تنصت لما أقول، وظننت أنها ستنصت الىّ طول الحياة . وها هى الآن تنظر الىّ بعين اللوم . ماذا أفعل بسكوتها ؟

منذ خلق شعيب وهو مكلف بالدعاية . تعاقبت الأجيال وهو فى دوره لا يتغير . وفى السنة اللامعة المتأججة ، عندما عادت الجماعة مدة شهر كامل الى حلقات الوعظ خارج المساجد ، اتجهت البلدة قاطبة الى شعيب ، فقام بكل شيء . لعب كل دور ، ولبس كل لبوس ، نطق بكل لغة وهاجم كل متطاول عنيد . وعندما انطفأت المصابيح ، ودخل كل واحد الى داره ونسى هل كانت المسرحية مأساة أم ملهاة ، توارت أعمال شعيب وبقى فقيرا كبادىء أمره . قد عرف شعيب السُّرى فى الظلام وتدرب على المدية والمسدس، وقنط فى الكهف ثم رأى النور. ومن وراء البحر كتب اليه ادريس يقول : انما تكلمنا وانتم عملتم . فهنيئا لكم ما حققتم . قال شعيب : سوف يرى ماذا جنينا بعد شهور وشهور . كل منا وجد عملا ، ان كان عاملا ودارا وزوجا . كل منا انتظم فى السلك العادى . وهل من أجل هذا قمنا وسهرنا ؟

وعندما يصل ادريس يسأل شعيب عن احواله مع الزوجة . يقول شعيب : انى لا أذهب اليها . وكأنى أحس ان دخولى سيكون بداية الطلاق . وحين يتحاور معه ادريس فى الحب وشأنه وأصله وسببه وطبيعته التى تجعل المحبوب حاضرا غائبا وتصنع منه كائناً له بداية ونهاية يرد شعيب بلسان فصيح مبديا الرأى فى كل هذا ثم ينتهى الى أن يقول لنفسه : ان للحب صوراً عديدة . ماريه احدى هذه الصور وزوجى صورة أخرى . واذا لم تستجب ماريه لادريس ، فانى لا محالة عاجز عن استرجاع زوجى » .

لشعيب معنى آخر ، روحى وعلوى ، تشير اليه الرواية ولا تلقى عليه كثيرا من الضوء . ابدع شعيب « فاطمة » ، ايام الوعظ والإرشاد ، وكبرت فاطمة واستقلت عن صراع الخير والشر وان لم تنكر اباها الواعظ . ولما انطفأت الأنوار سأل ادريس شعيب : من تكون فاطمة هذه ؟ فرد شعيب : ان الفواطم كثيرات . قال ادريس : بل اريد الوحيدة . التى لا تُعْرف ولا تحسد . رد شعيب : عندما تتعلم العوم وتقطع النهر ثلاث مرات والثياب فوق رأسك ، أولا باستراحة بعد كل عبور ، ثم بلا استراحة ، عندئذ ستلمح فاطمة فى قصرها المنيف . وهكذا فعل شعيب . علم ادريس العوم واظهره على سر الله المكنون . قال ادريس : ان شعيب نفحة من نفحات الجنان . كيف لا أقول له اليوم ان مارية ليست الا فاطمة كبرت وغَزُر كلامها واحتد منطقها ، نفذت من الأسوار والظلال إلى اجنحة العواطف وأرديتها . مزقت الحجاب وفتحت قلبها لكل

عابر سبيل ؟ قد فهمتُ وعظك يا شعيب فهل فهمت انت وعظى ؟ هل نسيت فاطمة وانت اليوم أمام زوجك لا تدرى ماذا تفعل ؟

وكان يقال ان ابا شعيب جاء من مراكش على ظهر سبع طيِّع ، يتبع عائشة بولائه ومحبته . ولما لم تترك عائشة شغفها وانقطاعها عن هذا العالم الفانى ، تضرع ابو شعيب الى ربه الا يفرق بينهما الا خيط من الماء يكون خيرا وسلاما على المسلمين . ولما أخلصا لله الطاعة ، رُفِعَ ابو شعيب على الربوة يتطلع منها الى نور حبه وهداه . غير ان السبع حرن على الربوة ونزل العاشق التائه زائرا متعبدا يناجى من بعيد عائشة البحرية .

تصبح عائشة البحرية فى رؤية ادريس « عائشة العبوس » أى مارية ، ويتطلع ادريس الى شعيب ليعينه على استعادة « مارية العبوس » الى الصبر والراحة . يقول ادريس : كلنا ذاهبون الى مراكش وراجعون منها . ولكل منا عائشة يناجيها من بعيد . كونى عائشتى يا مريم . حُلْم ادريس فى مدينة شعيب المؤمن الطاهر يتبدد . قد تغير شعيب لأن المدينة لم تتغير . خانه التاريخ . تفتحت له آفاق ثم انسدت فى وجهه ، ولم يدر أن رجع الريح هو الذى منع زوجه ان تصغى الى صوته .

يقيم عبد الله العروى علاقات تقابل وتضاد بين ادريس وابيه وأمه من جهة وبين مارية وأمها من جهة أخرى . فى الغرفة المظلمة تتقدم الأم لابسة قميصا ابيض غير مألوف وتضع يدها على رأس مارية متلطفة . تحس البنت الحاجة الى صوت أمها الحنون . تسأل : ماذا تريدين يا أماه ؟ لماذا تأتين حين ضلت عنى الطريق وغمرتنى الوحدة ؟ اكره ان ترينى على هذه الحال . اماه ، انهم يدَّعون انى مسكونة لا أقول ولا أفعل ما أشاء . تقول الأم : ابكى يا ماريه . للمرأة بكاؤها . تنحنى للمظالم والأحزان وتجد لها التعاليل .. ايه الحال يا مارية ؟ أخصومة مع ادريس ؟ تنكر ماريه . تقول : لن تدركى ما بى وان وسع حبك الدنيا. لماذا يظهر اليوم بالضبط هذا الفراغ فى القلب ؟ لا تظنيها خصومة مع ادريس ، بل هى شىء آخر . اماه : هل احببت أبى ؟ تقول الأم : حبا جما . تسأل البنت : اى حب ؟ تعلق الكلب بمولاه ؟ ام حاجة الطفل الى أمه ، أم عطف المربية على ابنها ؟ أى حب ؟ تقول الأم : كان نعم الأزواج فى المسكن والملبس ، فى الزينة والأثاث . نعم الزوج والأب . تسأل البنت : هل كان يعابثك ؟ هل تدللت له ؟ تقول الأم : كان صاحب صدق وصرامه . ما سئمت الأم ابدا عفته ووقاره . كانت سعيدة راضية . لم تحسد أحدا بل كانت هى المحسودة . قال ماريه : مر بك يا أماه كالعاصفة وترك لك الأولاد ذكرا . اجابت الأم : وترك الأسف لغيابه . تقول البنت : هل كانت هناك اشياء غير الأكل والملبس والتفاخر مع الأتراب ؟ او لم تفكرى فيه وحده ، فى جسمه ولونه ؟ أما قلت لنفسك : انه

ملكى . انه عمود الدنيا به رفعت السماء وكُوِّرت الأرض . هو القطب والدائرة ؟ اجابت الأم : رغم هذا عرفنا السعادة . تتبرم مارية متشيكية : سعادة نؤدى اليوم ثمنها . علمتمونا الدعة والسكون فى عالم الانفجار . تقول الأم : مارية ابنتى : اراك ترجعين القهقرى الى نزوات الطفولة . هل فقدت الرشد فى تجوالك ؟ تقول البنت : فقدت غشاوة كانت على بصرى . ترد الأم : اتمنى ان تكون هذه حالة زائلة . اتمنى يارب أن اعيش وأراك محفوفة بالأطفال . تقول ماريه لنفسها : مسكينة أمى . هذا جواب الأمهات . جواب واجب لإذكاء الأمل فى النفوس .

نذكر نحن ان ادريس عرض على ماريه الحياة الثنائية . فتنكبت عرضه . قالت : كل واشرب . فانك كالاسطوانة البالية . التغيير، التغيير . انه من قوانين الحياة . وقالت أيضا : لماذا تفزع من كل طارئة كأنك فى الهواء لايربطك بالماضى رباط ؟ قال ادريس : هذه النوازل حولنا تتعدد . لماذا نبقى وحدنا بمعزل عن الخطر ؟ عاهدينى يامارية ان نصمد فى وجه الزمن . قالت مارية : أو لم يحن الوقت ليعيش كل منا بمفرده ؟ قال : سنة الله يا ماريه ان نبقى على ما نحن عليه من احترام ووئام واتفاق . نتزوج ونتعاشر كما عشنا الآن . تعلمين أطفالا واعلمهم بعدك تلاميذ ... سنة الله يا مارية ان تسيل حياتنا فى وادى الجميع ، الحاضر فى الحاضر والمستقبل داخل المستقبل ، وأى مستقبل أبهى من مهنتنا نحن الاثنين : احياء ما مات واظهار ما خفى ؟ ترد ماريه : هل انتهى هيامك ؟ فيقول ادريس : قد اطفأه خرير البحر . ويقول لنفسه وماريه نائمة بجانبه فى ظلمة الليل : هذه مارية بجانبى نائمة الآن ، غائبة عنى ، مشاكسة لى ، نافرة منى بعد أن كانت قريبة منى ، موافقة لى .

فى الصباح هتفت به : قم ياكسول وتعال . وقبل ان يجيب نزعت ثيابها جميعا واخذت تجرى الى البحر عارية . مجعدة الشعر ، نحيلة الذراعين مقوسة الظهر قصيرة الفخذين والساقين كأعواد الطبَّال . لم يكن رأها عارية ابدا من قبل . لما رآها تجرى الى البحر اندهش ولم يشعر أولا بما فى هذه الفعلة من نقض للعادة . وبغتة اتضح له ما يحتويه عملها هذا من تعال وطغيان . لأول مرة أحس بها تنفلت منه ، ربما من غير رجعة . لم يفكر ادريس ان يتبعها فى الماء وكأنه علم ان مارية صممت على هذا العمل طول الليل أو اوحى اليها فى رؤية صادقة : ان اخرجى فى الصباح الى الماء أمام عيون متفرجة لتكون الجرأة اكمل وأصفى . وأمام جنود رأوها واطلعوا على عورتها قال ادريس : مارية ، مادفعك الى هذا الفعل الشنيع ؟ وفهم فى الحين خطأ هذه الكلمة . وتخيلها على ظهر الباخرة وفى البيت المظلم وفى التاكسى مقطبة الملامح، غائبة عن الوعى. قالت مارية : لماذا هذا التعفف ؟ اكانت تريد رعشة الوقاحة أم حركات الرجل المتحرر من العفة ؟ هل ارادت ان تلمح فى عيون الناس شيئا آخر غير الوقار والحب الأخوى ؟ . وصلا الى

الدار ، وذهب ادريس ليأتيها بسكر تضعه فى الحليب ولما عاد لم يجدها فى أى غرفة . نادى أولا وثانيا وثالثا ولا جواب . ركبت البحر الى فرنسا .

تزوج عمر من مريم الأجنبية ، وازمع السفر معها الى الغرب ، بينما نصح ماريه ان تتجه هى الى الشرق . قالت لاره معلقة على الموقف : لم يتغير هو ولا تغيرتم انتم . لم تتم المعركة ولا انطمس ابطالها . لم تتحرر البلاد وانما تحررت قلوبكم . ولو تحررت البلاد فعلا لعرفتم عواطف اخرى تبدون الآن كالأموات وانتم فى الحقيقة تقتربون خطوة خطوة من عهد الرجولة . من همس الكلام وخافت الشعور والصبر الطويل . هذه وقفة الزمن ومهلة الأحداث وانتم عليها شاهدون » .

وتقول ماريه لادريس من وراء البحار : لنقف يا ادريس ونستعد . اذا صح ما قالته لاره نكون قد استبدلنا التاريخ بالحب أو ارادة حب فيما يخصنى . سيقولون لك هنالك وراء البحر : انفتحت الآن ابواب القصور المريحة والمعانى المزخرفة ومهدت لكم طريق الربوة العالية والفنادق الفخمة . لكن الجديد يكمن فى القلوب . تتسرب الى افئدتنا اليوم مشاعر فاتره ، لا هى الغيظ المتشيط ولا هى الاستسلام المبتسم . وقفة الزمن على شواطىء البحر وتطلع الى العطف والرحمة . لا تغرق فى ماضى بلدتك الخضراء . ربما نلتقى من جديد . هبط الظلام ، وبقى العياء فى قلب ادريس. قال: على مارية أن انفجر فى قلبه وقلبها حب الحياة والاقدام ولو بالسباب والصراخ. عليها ان تصرخ فى وجه كل مواس خادع وكل واعظ كاذب . لن اجيبها على رسالتها من وراء البحار . لن أنصت لنشيد الوفاق، لن أستلذ نغمات الاخاء إلا بعد أن يقطب وجهك يا مارية، ويعلو صوتك خشنا فى هذا الحقل الهادىء . كلنا ذاهبون الى مراكش وراجعون منها . ولكل منا عائشة يناجيها من بعيد . كونى عائشتى يا مارية . وانى لأراك متوهجة العينين ، تضرمين فى المدينة نار الثورة والغضب . لا تهدأ لأهلها ثائرة الى أن ينهض النائم ويستقيم المعوج .

مع كل هذه الثورة يستمع ادريس الى حكاية أمه التى كانت حاملا به فى الشهر الثالث فذهبت تستطلع رأى ضارب الرمل . قال لها أنها ستنجب ولدا ، يكون فقيها ويسمى باسم الولى الصالح . سمع ادريس هذه الحكاية مرات وأسف لموت أمه ، لأنها كانت عازمة على الا يخرج من الكُتّاب ويحيد عن طريق السلف . قال : آه لو عاشت ، لنعمت بشىء من الاطمئنان كالذى لاحظته مرارا عند صديقى شعيب .

« لا تغرق فى ماضى بلدتك الخضراء ربما نلتقى من جديد » ــ هكذا قالت ماريه لادريس من وراء البحار .

بعد خمسة عشر عاما يتم هذا اللقاء . تهبط مارية على ادريس قادمة من امريكا . لم تعد مارية الأمس . رأى امرأة متوسطة السن تخرج من البوابة رقم ٣ فى المطار وترفع اليه يدها فى شىء من

التردد . رفع يده فافتر وجهها بابتسامة وضاءة . قدر ان هذه هى مارية . ولكن لا علاقة بينها وبين الفتاة التى عرفها وناقشها وأحبها . كانت تلبس معطفا صوفيا أحمر ، وقبعة حمراء ، بشرتها ناصعة ، وجهها مكتنز كوجوه المترفين ، براقة كأنها خرجت من الحمام أو فارقت لتوها صالون التزيين . كلمته ، فجاء صوتها هادئا ، متزنا ، مخدرا كأصوات المضيفات فى المطارات العالمية . ابتسامتها لاصقة على شفتيها . كل قسمات وجهها هادئة . جاءت مارية لتقوم ببحث عن الحياة العادية فى اطار العائلة والحومة فى بيئه مدينة عتيقة تقع الى جوار مدينة عصرية. كانت قد تقلبت فى المهن حتى انتهى بها الأمر الى أن تطمح الى التدريس. ولابد لمن يسمح له بالتدريس ان يكون انجز بحثا . لم تأت الى المغرب قاصدة ، وانما هى الظروف ساقتها اليها . فى مدى شهر واحد تأمل ان تنجز البحث . تحمل معها اسئلة فرزتها ، ودققتها ، وقولبتها عقول الكترونية . مهمتها ان تقابل كل سؤال بجواب مقتضب . هناك من يقوم بالترجمة والتحليل والتركيب والتأويل . سألها : هل تريدين ان ترى أحدا من اقربائك ؟ اجابت فى حدة لا . قال ادريس : اعتبروك ميتة . لك الحق ان تعتبريهم امواتا . وحيدة . حرة ، يتيمة ، مغتربة ، سائحة . هذه أوصافك .

فى مقابل هذه الوحيدة الحرة اليتيمة ، المغتربة السائحة ، يضع عبد الله العروى : الشابة الجميلة « ليلى » ، التى قدمت الى المغرب فى الوقت ذاته : هندام غربى ، وبشرة شرقية . سلوك امريكى وحس عربى . تتكلم بهدوء ورصانة ضابطة حركات جسمها ورمشات عينيها . تتحمل العمل الشاق المتواصل ثم تقعد لتستمع الى الحان فيروز . شغلها بيع الدمى فى حانوت وسط شارع هوليود : « روتس ، روتس » ، كل من حولها يهتم بالأصول والجذور . يسألونها : وانت من أين اجدادك ؟ تسأل ليلى عمتها ثم تقول : نحن من لبنان . فى المهجر كانت تقابل شبانا مختلفى الأشكال يتكلمون جميعا الانجليزية ويقولون جميعا انهم حماة فلسطين . رفضت ان تمر على طريق باريس وروما فى رحلتها الى بيروت وفضلت ان تتوقف على عتبة أرض العروبة . تود ليلى أن ترى أرضا تريد أن تنتمى اليها . من سنوات وادريس يبحث عن شيء غامض يشعر انه سر من اسراره . شيء لا يدركه ولا يقدر على تسميته ، لكنه يأمل ان يراه قزيبا معزولا ومفروزا ، تبرأ بين الحصى فى فؤاد المهاجرة التى قطعت كل رباط مع أرض الأجداد ومازالت تستلذ الطحينة ، وتشرب العرق وتطرب لانغام فيروز .

يجادل إدريس نفسه جدالا عنيفا . يحذرها ان تهفو الى الارتباط بمارية من جديد . سيخسر جهاد خمس عشرة سنة ان هو ارتبط . لم يعد يضيق الآن بالوحدة . قالت له المرأة التى تزوجها : انت لا تعرف للحياة الزوجية معنى . عشت وحيدا وستموت وحيدا . قالت وقالت ثم

اختنقت من تدفق الكلمات وذهبت الى حال سبيلها . اراد ان يكون ابا مسئولا عن حياة وليد ضعيف محتاج ، فمات المولود قبل ان يعيش . بل دفن قبل ان يولد فى وقته . مات الأب قبل ان يتكامل اتصاله بادريس وقبل ان ينقل اليه خلاصة تجاربه . ماتت الأم قبل ان يستطيع ادريس ان يدعوها بذلك اللفظ العذب : « اماه » أصبح يسمع الكلمة ويقرأها ولا يستعملها أبدا . باغت الموت ادريس فى كل حالة ، فاعتقد فى قرارة قلبه ان الزمن خانه وأنه أصبح يتيما قبل الأوان .

الموضوع العام لهذه الرواية الفاتنة هو : الحب فى مقابل التاريخ ، والنتيجة الثمينة التى تنتهى اليها ان لاشيء اغلى من البشر ومن عواطف البشر . لا يجدى شيئا ان تكسب التاريخ وتخسر الحب ، لأن الحب هو القادر وحده على أن يكسب لك التاريخ . الشخصيات الرئيسية فى الرواية تواجه هذه الثنائية وتخسرها . شعيب وعمر ، وادريس وماريه . فضل شعيب العمل العام فأصبح عاجزا عن التواصل مع زوجته . اشتعل عمر بالتاريخ من مواقف مختلفة ، ثم هجره فسقط بين براثن حب مفتعل ، افترسه افتراسا : حب مريم : قال وحب مريم ينوء به عنقه : لا ضير . كل النساء سواء . زوجتى على الأقل تعرف كيف تنظم البيت وتستقبل الضيوف .

وتبيع ماريه التاريخ فى سبيل حريتها الفردية . حرية ان تتعرى وتصدم الأعراف والشعور العام ، وترفض ثنائية الزواج ، ثم لا يقوم فى قلبها بعد هذا حب ما ، وانما « ارادة حب » كما تقول هى نفسها . اما ادريس فهو الوحيد الذى لا يترك الحب والتاريخ ، وانما يقف بينهما حائرا ، ضائعا ، يتيما .

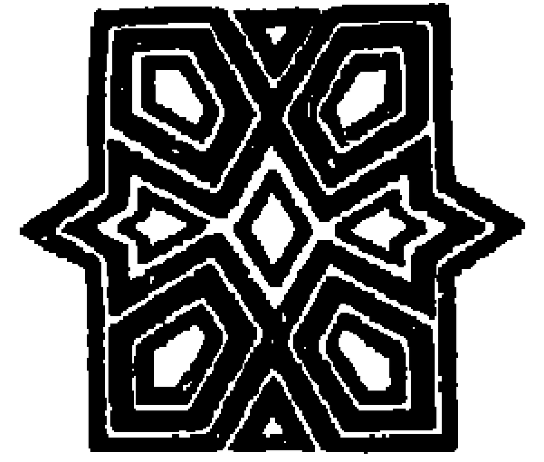
ان وَجَدْتَ ان الرواية وأشخاصها تنسدل عليهم غلاله بيضاء تخفى حدة الملامح ، وتخفف من وقع الأحداث ، وتحمى من طائلة الصراحة فتلك ضرورة املاها الواقع والتكنيك معا ، كما املتها طبيعة الصراع بين الأشخاص وبعضهم البعض ، وبينهم وبين انفسهم .

شعيب يناضل بين حبه لكتب اليقين والكتب البيضاء الملونة ، فلا يجد مهربا أو ملاذاً من أحدهما . من ثم شعوره بالفقر الكبير : راحة الضمير ، وكمال الاحساس ادريس يود لو كان له اليقين الذى يرى أن شعيب يتمتع به ، ولكنه حائر بين طريق السلف الذى ضاع منه والطريق الذى انفتح أمامه الى مستقبل استشرفه فلم يصل اليه .

وحدهما : عمر ومارية يقطعان فى أمرهما . يختاران ، ولكنه اختيار أشبه ما يكون بالانتحار .

المرأة والوردة

محمد زفزاف



البطل لا يستطيع ان يتكلم . بينه وبين نفسه حديقة من الحجر ، وعالم من العرب ، و والمجلات والخرائط ، فهو لا يستطيع أن يتكلم . يستعين بالمراسيم الملكية لفتح ثقب غرائزه . لصرف شيك بلا رصيد ، لبناء عمارة عالية فى أحلامه . يود لو سقط فى صحراء الحدائق . لهذا فهو لا يستطيع أن يتكلم .

« ذلك الرجل » عَلّم العسس كيف يخافون امام رؤسائهم ، ويتشجعون فى الأماكن الخالية ، بالاغتصاب المتكرر — مثلا — لسائحة يضبطونها فى وضع حرج . والبطل عاش طفولة بائسة . فى سنوات الجوع الشديد والفقر — سنوات مطبوعة بحد السكين فى ذاكرته وقلبه — أخرجه أبوه هو واخته ليبيتا فى العراء ، وهددهما بالقتل ، ومنعهما ان يعودا الى البيت أربعة أيام متوالية . كل ذلك لكى يفرغ الى زوجته فى الفراش . تعترض الزوجة فيقول لها الزوج : ليس هذا شأنك يا قحبة . نعرف من بعد ان البطل اتهم بقتل أبيه .

والبطل يشعر بأن ثمة عطبا فى داخله يمنعه أن يقبض على الفرص المتاحة . لا يرغب فى شيء ، ولا يبالى بشيء . يحدث الشيء أو لا يحدث . كل شيء ممكن ، وكل شيء غير ممكن .

فى أول الرواية يلقى البطل شخصا هو نقيضه فى كل شيء . قرر ذلك الرجل منذ البداية ان لا حياة لأحد فى الدار البيضاء ، التى تسيرها قلة من البيض ما بين مغامرين وقوادين وبائعى نسائهم . لا مكان لغير البيض فى الدار البيضاء . ولو عرضُ عليه الف درهم ما بقى فى ذلك المكان . ان انسانية الانسان مفقودة هنا . اما فى أوروبا فيستطيع المرء ان يصبح ملكا أو امبراطورا اذا أراد . هناك لك ان تشاء أو لا تشاء . لا أحد يشاء مكانك .

واذن فكيف يتعيش المغربى لو أراد ان يقيم فى أوروبا ؟ كان الحشيش يأتيه من بيوت عبر ايطالى يعيش فى النمسا . وكل ما كان عليه ان يفعل هو ان يتسلم حصة أو حصتين يبيعهما

بالنهار . وبالليل يعيش أفخر العيش فى علب الليل يراقص فتياتها ، وفى نهاية السهرة يأخذ معه آخر الفتيات . هل هذه اخلاق ؟ نعم ! انها أفضل من اخلاق المنافقين الذين يودون لو فعلوا ما يفعل ، ولكنهم لا يستطيعون . منافقون متورطون فى الأثم ، لا يتورعون عن أن يقتلوا أو يبيعوا انفسهم فى سبيل اجساد النساء . يشددون على زوجاتهم فتصرف هؤلاء همهن الى علاقات مع الحلاق أو معلم الفرن أو بائع الحليب ، أو مع أى كائن له عضو قائم !

والحياة فى أوروبا سهلة على كل من له عقل . لقد ألقى القبض على ذلك الناصح الحكيم فى امستردام وسجن ستة أشهر سحب بعدها جوازه وطرد الى المغرب ، وكانوا يظنون انهم بهذا قد تخلصوا منه الى الأبد . غير أنه عاد . اجتاز الحدود حيث يسهل اجتيازها ورشا موظفا أوروبيا صغيرا فأعطاه جواز سفر جديد . ان أوروبا بلد الحرية والسهولة تستطيع فيها ان تحصل على ورقة خبير فى السوق الأوروبية المشتركة تتجول بعدها كيفما واينما شئت ومعك الجواهر والمخدرات . اذا ما أراد البطل ان يفكر فى مستقبله فليكن شجاعا . فليس له مستقبل لا فى الدار البيضاء ولا فى طول المملكة السعيدة وعرضها . عليه ان يركب المغامرة .

يسمع البطل هذا الكلام فيحس روحا جديدة قد اخذت تسرى فى نفسه ، فأصبح راضيا عن تلك النفس .

منذ البداية تتحدث « المرأة والوردة » بهذين الصوتين . الحياة فى المغرب فاسدة ، وأوروبا أفضل منها بما لا يقاس . هذا هو الصوت الأول . اما الصوت الثانى فيتحدث عن سهولة العمل وكسب الرزق فى أوروبا . أى عمل وأى رزق ؟ تجارة المخدرات والانغمار فى الجنس ، وكسب المال بلا مجهود وتزييف الأوراق والجوازات . صورة لا تختلف كثيرا عن صورة الحياة فى المغرب ، حيث الجنس ذائع والمخدر منتشر . الناصح الأمين يقدم صورة أوروبا ويضاهيها بصورة الحياة فى المغرب ولا يخطر بباله انه يفضح بهذا تناقض وفساد التحرر الذى فتنه فى أوروبا فأصبح يدعو اليه . ومن وراء الصوتين يقف البطل حائرا حيرة حقيقية . يشعر بأنه لا يعرف أى شىء ، وفى الوقت ذاته يعرف أشياء كثيرة متنوعة . يبنى عالمه فى الحلم ، والحلم كما نعرف ينهار . يتخيل المرء أى شىء عن أى شىء . لكن ذلك لا يعطى لذة . فاللذة الحقيقية هى لذة الحواس . وعدن هى عدن الحواس لا عدن الخيال والحلم .

يتعرف البطل بفتاة دينمركية اسمها « سوز » جاءت من الشمال تلمسا لدفء الهواء ودفء الرجال . فتاة تعرف تماما ما تريد ، وتدرك أن اللحظة التى تعيشها لا تعوض ، وهى لهذا تحكم شد خصره بقوة ، فحين لا يفعل مثلها تمسك هى بذراعه وتضعه خلف خصرها . معها كان البطل يمارس الجنس الراق : « صمتنا بهدوء . اخذنا نتنفس باستراحة المحاربين . شعرنا بالأمن فى

العالم . كان العالم كبيرا لكنه صغير تحت ملكنا . على الأقل تحت ملكي الخاص . يمكنني ان اذهب اينما أشاء وأهل اينما اشاء . فلا أحد ولا شيء يمنعني . هذه احدى اللحظات التي أشعر فيها بالرهبة . وتتباطأ أنفاسي . تتوالى بحرية وهدوء وعافية .. اعترف لنفسي انها صارت حرة . تعيش حرية مطلقة عفوية ... وتنمو في الوقت الذي تسقط فيه كل العراقيل التي نماها الماضي ...

« ظللنا ممددين جنباً إلى جنب . الموسيقى مازالت تأتي . الصوت الدافىء يرتفع وينخفض . وأيضا ، كان هدير البحر يخترق زجاج النافذة والجدران والستر السوداء وطبلة الأذن . لكن كل شيء كان يتضاءل أمام جلال اللحظة وعظمتها . شعرت أن لمسة الجلد الانساني كافية لأن تغير كل شيء . يصير العالم بمقتضى هذه اللمسة عالما حقيقيا غير مزيف ... تتاح لي فرص كثيرة فاغتنمها واستفيد من روعة العالم وتناسقه . اتأمل دقائقه وجزئياته وأقف أمامها بخوف وتقدير ... شعرت ان سوز ، لا كأي امرأة أخرى ، تعرف كيف تساهم في اعطاء العالم الحنان والعذوبة والتناغم » .

اخذ البطل وسوز يرشفان البيرة الباردة . اغمض البطل عينيه وأخذ يحلم . وجد نفسه في سقيفة هرمية الشكل ، تآلفت بها مجموعة من الزهور — امامه كانت امرأة بدينة تحرس مجموعة الزهور أمام بيتها . تحدق المرأة في البطل . هي سوز وقد سمنت سمنة مفرطة . اشياء غامضة تجري أمامه. لايعرف هل هي أحلام نوم أم يقظة. سوز تلوي شفتيها، ولا يدري البطل معنى هذا ولا معنى الزهور . يفسر الحلم بأن سوز البدينة هي زوجته ، والزهور الجميلة المتفتحة هي أولاده . الحلم يشير الى رغبة دفينة لدى البطل في ان يعرف العيش السوي . الزواج والانجاب . تعرض عليه سوز البدينة أن يتحول الى زهرة ، أو ان يتزوجها . يرى البطل في زواجه من دينمريكة فرصة العمر . يتذكر كل ماضيه السيء الذي عاشه واحدا من الملايين في قرى قذرة منتشرة في جبال الأطلس وجبال الريف او سهول الشاوية أو صحراء طنطان المترامية — حياة قصمت ظهره . الآن وجد الحل . امرأة بدينة تحبه وتنقذه من التخبط بين الوهم والحلم . تقوم سوز البدينة بمراسم الزواج تقدم له زهرة فيشمها ثم تضربه على كتفه وتقول : انت منذ الآن زوجي .

وكان البطل قد تعرف على لص ومهرب يدعى جورج ومعه زميل له في المغامرات اسمه ألان . قال جورج انه دخل السجن عامين بسبب السرقة . وانه كان غنيا ، له سيارات فخمة ونساء كثيرات . ثم ضبط اثناء سطو ، هرب بعدها الى الدار البيضاء ليهرب المخدرات . جورج هذا لا يؤمن بالعمل سرقة الأغنياء عنده عمل كاف ومبرر. ضربة واحدة تصبح بعدها غنياً في طرفة عين . وهو في الدار البيضاء يخطط لعملية تهريب الى أوروبا عبر طنجة . ويدعو البطل الى أن

يشترك فى العملية وسيطا بين جورج والبائعين . مجرد وسيط لا شأن له بالتهريب ذاته . يقبل البطل ، ويأخذ يحلم بالثراء يرى جنة عدن ماثلة أمامه بكل ما فيها من صور جميلة ، يوتوبية وخرافية . هنالك تخايله صورة اخته التي نضجت بما يفوق الحد . تقول له البنت : يجب ان تبحث عن عمل . امك عجوز ولا تستطيع انْ تعولك . ابونا مات فيجب ان تفهم دورنا فى الحياة . كيف تعجز كل الكتب التى قرأتها عن اطعامك ؟ ولكن البطل لا يعرف جوابا . هل فى امكانه ان يعرف ؟ يتنهد بعمق ويقول : مستحيل أن أعرف .

رغم استغراقه فى الجنس وفى المغامرة المقبلة ، وفى حلم الثراء السريع الذى بشره به جورج ، يدرك البطل دائما الفارق بينه وبين الأوروبيين ، حتى ولو كانوا لصوصا أو قتلة . تجارب الطفولة والبؤس انضجته . وطفل صغير منبوذ فى حى فقير من احياء مملكة النمل السعيدة ، لا يشبه بحال طفلا يشتغل ابوه صحفيا (جورج أو ألان ؟) ابن صحفى ، لا يستطيع ان يعيش مثلما عاش ابن لا أحد . ابن لا شىء . ابن نفسه . ابن الصحفى ينهزم فيعود الى حضن العائلة مدللا . اما ابن لا شىء ، لا أحد ، المتهم بقتل ابيه فانه ينهزم ويسقط ولا يكون أمامه سوى المضى فى طريق الانهزام والسقوط .

ولأنه لا يستطيع ان يتخلص من الوازع الأخلاقى الذى يلح عليه دائما ويجعله يتبين الزيف فى تطلعاته لأوروبا وفى حلمه بالثراء السريع بالوسائل المشبوهه ، كما يوضح له زيف الحياة فى أوروبا ذاتها ، يلجأ البطل الى اسلوب محاكمة الذات ، فيتخيل نفسه امام محكمة انشأها بنفسه لتفحص عمله وتطلعاته وآماله . والمحكمة مكونة من الرئيس وضابط الشرطة والمتهم . أما التهمة الموجهة فهى ان هذا الشاب العربى (المتهم) ضبط متلبسا بتهمة فظيعة هى تهريب المخدر ، وعن هذه التهمة تجرى محاكمته تحت شعار : كلنا اصدقاء : المهرب ، والشرطى ، والقاضى . وانها محاكمة وهمية تمثل — مجرد تمثيل — ادوارها فى القسوة والعنف والحب ، وبعد انتهائها يعود الكل الى طبيعته الانسانية الأولى — يعودون اصدقاء : الرئيس والمهرب واللوطى والمحامى والوزير والقواد . كلهم سواء .

فى ظل هذا الاطار الهزلى يدافع البطل عن نفسه بقوله : انه مثقف ، قبل ان يكون مهربا . مثقف بائس . ويرد الضابط : بل انت طالب فاشل . ويطالب البطل بدراسة دوافع الجريمة فيقول له الرئيس : الحكاية بسيطة . سنطرح اسئلة وانت تجيب . ويمكن ان تطرح اسئلة على نفسك وتجيب عليها بنفسك ، ونحن نسمع ، ونحاول أن نساعدك فى الاجابة . وتتوالى الأسئلة وأهمها : ماذا كان المتهم ينوى ان يفعل بمكسبه من التهريب فيقول : اما شراء بار فى امريكا اللاتينية ، او ادخال السلاح الى محاربى الريف الذين حاربوا السلطة عام ١٩٥٨ ببنادق صدئة فارغة . والبطل

لا يجد تناقضا بين الطموح الرأسمالي والطموح الثورى ، ويقول ان المثقفين هكذا فى كل مكان : موزعون بين طموح ذاتى وطموح جماعى . واذن فماذا ينوى البطل ان يفعل ليكسب عيشه من بعد ؟ لا يدرى ، ربما بالتهريب . فتقول المحكمة هذه جريمة عقوبتها عشرون سنة سجن . يرد البطل : حاكموا أولا من اجرموا فى حقى . هل لديه دليل ضدهم ؟ تسأل المحكمة . لا ، يرد المتهم . اذن ، تقول المحكمة ، فعليه ان يتحمل العقاب وحده ، كما تحملته آلاف الأجيال من قبل . هناك قوة أعلى منه ومنهم ومن المحكمة هى التى تحكم وتنفذ . ومن ثم يصدر الحكم بأن ينام المتهم فى حجرته الضيقة فى فندق « الشاون » بطنجة حتى الحادية عشرة صباحا . وهذا حكم قاس فى رأى المحكمة !

رغم صورية المحكمة وهزليتها يتردد خلالها وصف صادق لجريمة تهريب الخمور . فهى جريمة تهدف الى تخريب الانسانية ــ كما يقول الضابط . ومفعولها أقوى من جميع الأسلحة النووية الموجودة فوق الأرض وفى باطنها فى الشمال والجنوب ، فوق البحار وتحت المحيطات .

ويذكرنا هذا الوصف الدامغ للمخدر ، بما يقوله المغامر الذى التقى به البطل اول الرواية ، والذى كان هو نفسه مهربا للكيف : « هل مازلت تتخدر ؟ .. آه يا صديقى الكيف رائع حقا ، لكنى اقول لك ... انه سيودى بهذه الأمة كلها . أصبح الشعب كله يتعاطاه لينسى همومه الكبرى ، والصغرى » .

كذلك ينشىء البطل محكمة أخرى صغيرة ، سماها جلسة محاسبة . تخيل حوارا يدور بينه وبين أخته ، تطلب فيه الأخت ان يبحث عن عمل . فالأب مات . والأخ مثقف . فيرد المثقف بأن العمل صعب العثور عليه. فلتنتظر الأخت حتى يصبح كاتبا مشهورا، أو غنيا وتقول الأخت : أمنا وحيدة وعجوز ، فيرد : انت ناضجة . وتقول الأخت : افكارك سوف تؤدى بك الى الجحيم . قم واعمل ودع مايسمى بالكتابة . يغضب الأخ ويسأل : وانت هل تعملين ؟ تقول : دلنى على عمل وأنا أعمل . يقول الأخ : الوسيلة سهلة . ان لك فر .. فر .. فر .. هل اقولها ؟ ترد الأخت : قبل ان تقولها اقول لك بدورى : قم وابحث عن عمل . الرجال هم الذين يعملون .

ويتذكر البطل قول جورج : الرجل الحقيقى هو الذى ينبذ العمل بمفهومه عند الناس . تختفى صورة الأخت . ويقرر البطل ان يشترى تذكرة العودة الى الدار البيضاء ، لعل ذلك يكون أحسن وانفع من أوهام مريضة تنتابه . كان انفق اياما ثلاثة فى البحث عن جورج وألان ، ولكنهما اختفيا دون ان يتركا خبرا . وكان جورج قد طلب تأجيل تنفيذ المشروع لصعوبات منها الحراسة المشددة . فذهب البطل الى الفندق الذى كانا يقيمان فيه . قالت له صاحبة الفندق

وهى تنصحه : لا تكن مغرورا يا وليدى . اولئك لا يصادقون أحدا . اعرفهم جيدا . هم ليسوا سوى جماعة من اللصوص . لطالما هربوا دون أن يدفعوا لى ثمن الليالى التى قضوها هنا . ويقول البطل : ليسوا جميعا كذلك . فترد المرأة : كلهم كذلك . كل واحد شعره طويل هو لص أو قاتل .

لا يبقى للبطل من حلم الثراء سوى انقاض . لا مفر له من العودة . ولكنه حالم لايتوب . قبل ان يعود الى الدار البيضاء ، يشترى بطاقة بريدية يرسلها الى سوز ويكتب على ظهرها : « سوز . احبك وأحب الدينمارك . انتظر دائما ان تنقذينى . أحبك . أحبك أحب .. اح .. أ .. الخ .. الخ » .

وكان البطل قد ذكر كيف تفتنه الأحلام . يبدأ فى الحلم ، ولا يكاد ينهيه . يبنى ولا ينظر حتى كيف يتهدم مايبنى. ومع ذلك يستمر فى البناء. تتكاثر القصور وتتضخم – يكثر فيها الحشم والخدم وتتنوع الحياة داخلها . لكن عندما ينهار كل شىء ، ينهار هو بدوره ، وبلا سابق اعتبار ، ويبدأ من جديد لينهار من جديد .

والآن وقد انهار حلم الثراء عن طريق التهريب ، يأخذ البطل فى التعلق بأهداب حلم جديد . « سوز » الدينماركية ، تحبه وسوف تنقذه . ألم تحبه فى الواقع ، وسلمته بدنها تسليما تاما ؟ ألم تعرض عليه ان يسكن غرفة فى الشقة التى يملكها ابوها ولمحت الى أنه قد أصبح واحدا من أفراد الأسرة ؟ ألم تتزوجه فى حلم اليقظة ؟

غير ان شيئا فى علاقة سوز بالبطل ينبىء بان هذا الحلم سوف ينهار بدوره . « سوز » تعرف ما تريد ، وقد جاءت لتحصل عليه . ما تلقى البطل حتى تجد فيه الجسد المنشود ، فتقبض عليه ، لا تفلته . وهى على كل حال تختفى من الرواية عقب حلم السقيفة الهرمية . تختفى تماما ، ولا نعلم انها سافرت الى الدينمارك الا من نبأ البطاقة التى يزمع البطل ان يرسلها اليها طالبا النجدة .

واغلب الظن ان ما قالته الحاجة صاحبة الفندق على جورج وآلان ، ينطبق بدوره على « سوز » : « لا تكن مغروراً يا وليدى . إولئك لا يصادقون أحدا » .

أى نوع من الرجال هذا البطل ؟ يقول وهو يصف نفسه : لقد خلق كل منا وحده . ليس ضروريا ان يعيش الانسان مع غيره ... تلك ليست سوى عادة قبيحة تعلمناها عبر العصور . أما أنا فأستطيع أن أعيش . واذا لم استطع ان احقق ذلك فليبق فى العمق ، العمق الذى لا يتسرب اليه ضوء . العمق المظلم الذى هو عمقى .

فى هذا العمق المظلم يعيش البطل الحقيقى فى هذه الرواية . انه الرجل الذى ينتمى انتماء

شديدا الى بلده ــ المغرب ، رغم فقره وفقرها ، رغم ألمه الشديد لأن المجتمع ينبذه ــ لأنه ليس أوروبيا ، ولا غنيا ، ولا ابن أحد . كل ما يفعله البطل على السطح يذكره بالعمق المظلم . يأكل التين مع « سوز » فيتذكر على الفور أباه وأمه واخته فى سنوات الضنك حين كان ابوه يعود بأى شىء يملأ البطن حتى لو كان براز بعض الحيوانات ، وكان من العسير العثور على الخبز . بل لم يكن يعرف شكله الحقيقى .

ويلوح له بارق الثراء المتوقع بعد عملية التهريب ، ويرى نفسه فى جنة عدن ، فيذكر على الفور اخته ، التى نضجت اكثر من اللازم . ويشعر بمسئوليته قبلها ، فينشىء جلسة المحاسبة التى تقدم ذكرها . ويستمع الى تحذير الحاجة صاحبة الفندق ، فيقاومه مقاومة واهنة ، ويتعلق بقشة الحلم المنهار ، ثم لا يلبث طويلا حتى يقرر العودة الى الدار البيضاء ، متشبثا فى الوقت نفسه بحلم واهن : ان تدعوه « سوز » الى الزواج والعيش معها فى الدينمارك .

تقول له « سوز » : انت رومانتيكى . ويصف هو نفسه أمام المحكمة بأنه مثقف بائس ويقرر ان المثقف يعيش تناقضا قائما بين همه العام وهمه الخاص . وتدعوه المحكمة الى العمل ، وتدعوه اخته أيضا ، غير أنه لا يعمل ، ولا يريد أن يعمل . يفضل ان يدور فى الشوارع جائعا ، لاهثا وراء أكلة ولو كانت خبزا وسردينا جافا . يؤثر ان يسير فى الشوارع ، وحلم الثراء يخايله هاتفا : « لتحيا اسبانيا . لتسقط علب السردين والخبز الجاف . سأمشى . العالم كله لى مع ذلك ... سأظل ماشيا وسأخفى رائحة السردين وسأحيى فتيات جميلات وسأغازلهن ، وسأدعوهن ــ رغم انى لا أملك قرشا ــ الى مرقص . ولكننى متأكد انى لا أملك شيئا سوى عضو متهدل انهكته حرب الاستنزاف من أجل لقمة العيش . وبلا حب ــ مثل عاهرة ــ سأمشى وسأوزع البسمات . اقول للعالم اضحك ، فأنت سعيد ــ أنا سعيد والناس سعداء . وحتى اذا لم أكن سعيدا سأتخيل ذلك أو أفتعله » .

هذا كله يؤيد وصف « سوز » له بأنه رومانتيكى . ولكنه انما يجرى على السطح فقط . تحت السطح شعور ممض بأنه لم ينتظم فى الدراسة . وأنه وجد صعوبة فى الحصول على عمل . ربما بسبب اتهامه ــ ظلما أو عدلا ــ بمحاولة قتل أبيه . وتحت السطح أيضا شعور بالحسد ضد من استطاعوا الانتظام فى دراساتهم ، وسخرية مرة منهم ، لأن دافعهم الأساسى فى الدراسة هو الحصول على الدكتوراه التى تتيح لهم التدريس بالجامعة ، وتمنحهم فرصة استدعاء الطالبات لبيوتهم أو الفنادق لاقامة جلسات غرام مقابل انجاح الطالبات آخر العام !

أما نصيحته لأخته أن تحترف البغاء فى سبيل لقمة العيش فمصدرها المرارة أولا . ومصدرها بعد هذا مفهوم غريب للمساواة ، بأن من حق اخته ان تفعل ما تريد ، مثلما هو يفعل مايريد .

يريد أن يمارس الجنس مع فتاة لقيها على الشاطىء ولا يرى داعيا لأن يضار اخوها بسبب هذه الرغبة . مثلما ان اخا « سوز » كان يعلم بأن اخته تمارس الجنس مع البطل فلا يمر بنفسه ولو شبح احتجاج .

وهنا تمثل امامنا حكاية الجنس فى هذه الرواية . فليس من المبالغة فى شىء ان نقول انها منقوعة فى الجنس ، وان هذا الجنس يستخدم استخدامات متفاوتة . هو فى حالة « سوز » والبطل يوظف من أجل الوصول الى لحظة ثمينة لدى البطل ، حين تصبح لمسة الجلد الانسانى كافية فيه لأن تغير كل شىء يصير العالم .. حقيقيا غير مزيف . يشعر البطل بروعة العالم ودفئه وتناسقه . يحس ان سوز ــ لا أى امرأة أخرى ــ تعرف كيف تساهم فى اعطاء العالم الحنان والعذوبة والتناغم .

غير ان هذا الجنس « السامى » مقصور فقط على علاقة الرجل بسوز . اما فى غير هذه الحالة ، فهو انفلات بهيمى عام . هم الرجل والمرأة فيه هو المواقعة وحسب . ثمة شعور عام بأن هذا هو كوكب القرود الذى تشير اليه الرواية على انه عنوان عمل ادبى للكاتب بيير بول . وهو أيضا كوكب الحشرات . كل الحشرات الحشرات الآدمية وغير الآدمية همها القفز واللهاث ثم الاسترخاء لمعاودة القفز من جديد .

وعلاقة البطل بسوز ــ على سموها المفترض ــ لا تمنعه ان ينظر فى اشتهاء الى اجساد غيرها من النساء . ثم ان هناك أيضا نوعا من الجنس المقزز الشاذ لدى الرجال والنساء . كيف نفسر هذا كله ؟ ان وراءه رغبة فى ادانة المجتمع الذى يجمع اخلاطا من الناس بين عاهرات وعاهرين وقوادين ولصوص وعجائز أوروبيات وامريكيات يسعين وراء اللذة .

غير ان رغبة أخرى تكمن وراء الانشغال بالجنس ترمى الى عرض كل دقيقة من دقائق جسم المرأة على الفور . كأنما الكاتب يقول تسقط كل الأقنعة . لتنزل كل السراويل والملابس الداخلية . لا شىء ينبغى ان يعتصم أو يتمنع لننظر الى جسم الانسان دون أن تطرف لنا عين .

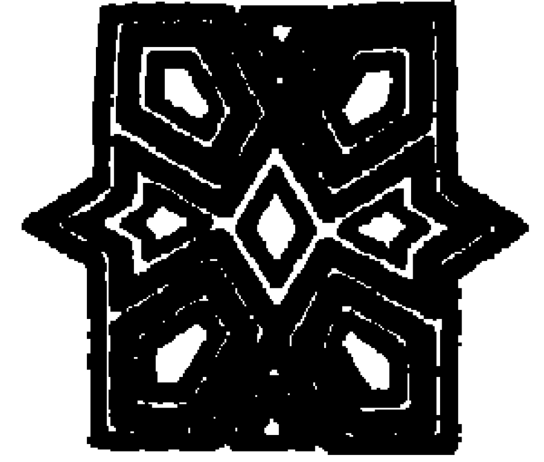
ويكاد القارىء للرواية أن يضع أصبعه على أثر واضح من آثار سيرة محمد شكرى الذاتية : « الخبز الحافى » ، فقد سبقت هذه السيرة رواية محمد زفزاف فى كشف المستور كله ووصلت ببطلها الى القاع تماما وجعلته يلتقى فى بعض النقاط مع بطل محمد زفزاف : الفقر المدقع المتوحش . الايغال فى الجنس والتلمظ له ، واستعذابه ، وان كان محمد شكرى لا يفرق فى الجنس ما بين سوى وغير سوى . الجوع البدنى والجنسى الدائم . التشرد . التعهر . بيع القدرة الجنسية لقاء لقمة عيش ، هذه سمات مشتركة بين العملين .

ويأتى بعد هذا « بيع » الجنس للقارىء كنوع من المشوقات أو التوابل ، ان القارىء مدعو

ـــ مع الكاتب ــ الى التمتع بوليمة الجنس فى طول الرواية وعرضها . والكاتب يعلى من شأن الجنس ، ويراه أصلا وجوهراً للعواطف . وهو يرفض الجنس الشاذ ، وسوء استخدام الجنس كمصدر للتسلط على الناس . ولكنه لا يقنعنا كثيرا عندما يتحدث عن علاقته الجنسية « بسوز » بوصفها سلما للوصول الى الأكمل والأسمى فى عواطف البشر . ان علاقة سوز بالبطل لا تسمو به الا سموا مؤقتا ، يعود بعدها الى الحمأة التى هو واقع فيها منذ البداية . فليست سوز بياتريس أخرى اتخذها دانتى مثالا للطهر والسمو، ولا هى سولفيج فى مسرحية « بيرجنت » لهنريك ابسن . بل هى تبدو امرأة عفية، صحيحة البدن، ترى فى الجنس متعة، وتتعاطاه صافيا خاليا من كل شك أو موقف اخلاقى . فاذا ما انتهت من متعتها ، عادت الى بلادها موفورة ، ولا شيء بعد هذا . إنما البطل هو الذى يصر على أنها المثال والمنقذ ، وباعثة السمو ، والعاملة على الوصول إلى دفء العالم وتناسقه وجماله وروعته ! .

وردة للوقت المغربي

أحمد المديني



الواقع شديد الوطأة على الراوى فى : « وردة للوقت المغربى » اكثر ما يبهظ اعصابه ويحمله على التمرد ويحرق بدنه بنار لا يخبو لها أوار ، هو ذلك الركود الذى يجثم على صدر الحياة فى البلاد . « معلبات السأم ، واللغط اليومى ، والحريات المقننة ، والشهيق والزفير المحسوبين . أجهزة الرصد والالتقاط وإيقاع الذاكرة وسهو الحلم ثابتة، مطمئنة. كل شيء على مايرام فهو الاستواء إذن، وهو الانبطاح. هو الركوع والسجود . هو المبايعة وتقبيل الأرض والاعتاب ، عسى ان تحل البركة بالراكعين الساجدين ، وتجوز فيهم الشفاعة ، ولا يسلط عليهم رهط اعتى من الرهط الرابض عند الشهيق . هو خواء الأنفس، والرعب الطقوسى . هو الحجر ، والعشب المتيبس وكسرة الخبز المنتزعة من بين شدق غول المغرب الجديد .

كل اعوام الجوع وتواريخ القحط التى مرت لم تشحذ فى الناس بشرية جديدة . انما ارتموا فى احضان الاذعان واستكانوا الى دورة الفصول وطقوس الانجاب والتشييع . لم تصلهم انتفاضات أرواح القتلى الذين اضاعوا العمر من أجل الحكام ، وكانوا يحسبون انهم قاتلوا من أجل الأوطان .

والراوى تهرول خلفه دوائر العبارات الراقصة ، والتراتيل المغازلة ، كى ينضم الى جوقة التكبير لشأن الكائن الأعظم ، الأمجد ، الأسرع ، الأبهى ، الأعلم الأ ... الأ ... الأ ... ! غير ان الراوى يعرض بجانبه عن قيم البكارة التى لم توجد قط أو وجدت لتخدم العهر والوهم المسروق ، والتهويم الملفق ، والقبائل الموصولة بحامى السياط وحماة حمى الجوع والبطالة والخرافة . يشعر ان لابد له من أن يتمازج بالغيم ويتداخل ، ويقنص النجوم قبل أن تأفل . يريد ان يصبح كوكبا غير مرئى ، أو حصاة تحت الماء ، أو طلقه . ان يصبح لغما ينفجر ويكون حقيقيا وليس صواريخ الزينة والانارة فى اعياد عاشوراء . يريد أن تصحو الدار البيضاء حين تقوم « القيامة » وتهوى

السماء على الأرض ويكاد يطبق الراوى وجماعته على ما حولهم وتحتهم ، وتتصاعد الأرواح السرية التى بثوها ، تطل من تحت الوسائد ، أو من تحت اللهاة ، أو كؤوس الشاى والقهوة ، ثم تتسلل من خشب الكراسى واعمدة العمارات الراضية . وللناس ان يتصوروا ما يحدث من بعد أو ما لايحدث ، فقد عدموا التصور والحكاية ذات شجون وروايات .

تقول واحدة من هذه الروايات انه فى واحدة من مدن هذا الوطن ، وبين دورة الليل والنهار ، كان الناس فى يوم عيد لا يعرفون له مناسبة ، وقد امتلأت الشوارع بالخلق اقتعدوا كراسى المقاهى ، فلما امتلأت هذه بنوا مئات المقاهى والكراسى ، وحين نفدت هذه بدورها حملوا ما فى بيوتهم من أسرة وأغطية وافترشوها ، وجلسوا تحت ستر العلى القدير ، وحماية الشرطة الوطنية ، واذا بضباب اسود كثيف يبدو فى الأفق ويقترب ، وكلما زاد اقترابا تصاعدت الأدعية والابتهالات ، وفرقعت حبات المسابح وفرقعت العظام فرقا بين الأجساد . ولكن السواد هو هو ، لا يتغير ، واذا هو طابور نمل طويل متكدس بعضه فوق بعض ، وفى مقدمته نملتان تحملان لافتة كبيرة كتب عليها خطاب طويل ، مَيَّز البعض منه العبارات التالية : نحن معشر النمل لن نستجيب بعد اليوم لصفارة الانذار . نحن معشر النمل نعلن خروجنا من المخابىء والكف عن الاقتيات من الفضلات . نحن معشر النمل نعلن احتلال الشوارع والمساجد والمسابح والحانات وأن قيامتنا قامت . هذه هى القيامة ان كنتم غافلين !

وأخذت اكداس النمل تسد مداخل الطرقات ، وانتصب فى كل مجموعة خطيب ، انطلق لسانه بكلام لم يسمع بأحرفه ولا بمعانيه من قبل سكان الشخير . ولما لم يلق النمل استجابة ، شكل من جديد صفوفا طويلة ، راحت تمخر الفراغ وتمخر الشخير ، وتنسل بين اقدام الشرطة واحذيتهم ، وسارت فى طريق لا هو بالمعلوم ولا هو بالمجهول . ومن ثم سمى من عاشوا احداث ذلك اليوم الذى عرفوا مبتدأه ولم يعرفوا منتهاه : « يوم النمل » .

ومرت مئات الأعوام على يوم النمل ، ومازال الناس بين نيام وبين ذوى صمم وبكم ، يحملقون فى شيء ممتد فى المدى البعيد ولا يجرؤون على الاشارة اليه . التاريخ لا واقف ولا متراجع . والراوى فى صدره وهم دفين وهم مترقرق كالينابيع فى صحراء من الأكاذيب والحقائق الخزفية . فى جاذبية ذلك الوهم كان الراوى وجماعته قد اشعلوا حرائق من بعض العيون التى توهج فيها الأبصار ، وقام الراوى يعلن ان الزمن هو العصيان ، وان العصيان هو الشريعة الوحيدة تحلق فوق الرؤوس وتشتعل كالحمم كلما تداعى القوم الى الغفلة ، واضطجعوا فى توابيت الشخير . ويخرج الراوى من صدره علاماته وهى العناصر الأربعة ، يتقدمه جحفل اعياه مسير الوهم ان يخلقه هو أو أن يخلق هو نفسه من بعد . يرى التلاميذ يصطفون أولا عشبا ثم سنابل خضراء وصفراء ومثل النجوم

يتألقون . هؤلاء التلاميذ يسمعهم الراوى يرفضون العنجهية والتسبيح ويمزقون صكوك علم العبودية ، ويغتسلون من ادرانه فى جهنم الراوى الخضراء . لعل الراوى نجح فى أول الدعوة ولعله سقط قبل أن يصنع الخطوة ، ولكنه واثق ان الجثث المحنطة التى تعلو المنابر وهى محنطة قد أخذت تتفسخ. ويسمع الراوى بين قدميه رجة، ويحس بالأرض تتململ ، ويحدس أن مافى رحم هذا الوطن هو تاريخ يتململ . يقول الراوى : رأيت ايها العالم الذى سيجن يوما بصراخى المقمط فى الغيم والشجر .. يذكر ، أو لعل التذكر يحتمى به ليسوق روايته على لسانه . نعم ، فان الكلمات تخاف ، وتكتب وتنطق خائفة فى زماننا . والممحاة تسكن الراوى ، وتقضقض ما بلى من عظامه البقية الباقية من الاستئناس بتباشير غد يلفقه تلفيقا . ويصرخ فى كل وقت ، وهو ذاته الصرخة : متى تأتى الرواية ؟

ثم جاء يوم اهتزت فيه الكراسى ، اهتاج الحلم ، انتفضت الأشجار وزفرت البراكين ما تبقى فيها من حمم . القت الكراسى والسرر والسيارات بمن فيها ، تململت الأبنية وتحشرج الأسفلت . وسمع البحر بحركة الشوارع فدفع بأمواجه الى حدود الأرصفة . الغابات البعيدة تشابكت اشجارها . احياء الصفيح وعلامات المرور تبادلت الأشارات والحواجز . تجمعت الأشياء كلها . اهتزت الكراسى، تدحرجت البنايات، تشققت الأصص، ثم صارت كلها موكبا واحدا، وأخذت تسرى فى الهواء ، أنفاس لأشباح اختلطت فيه ، وسط زحام حاشد ، امسكت الأعمدة الكهربائية والسلالم والعصى التى انفلتت من أحزمة الشرطة ، أمسكت بالأجهزة اللا سلكية لتبادله الأوامر والطاعة والنهى والتذرع والخضوع والانبطاح ، وطوحت بها تحت اسنان جزافات ضخمة انضمت الى الحفل ، واستبدلت بها أكفا وجماجم وقلوبا بشرية انتزعتها من المجارى والمخابىء السرية . وضج الفضاء بصوت هادر : نحن الأشياء نعلن انسلاخنا عن جلدة الخنوع ، وخروجنا عن طاعة الناس وشخير الناس ، نعلن الخروج فى انتظار قدوم الدخول الأكبر .

يخرج من تحت الجلد وصدأ القضبان . من صهيل الخيل وحبات البارود ... يدفع شمالا ، ينبش الحيطان ليستخرج الجثث الثاوية . صراخ واحد هائج ودائم ، تنبعث له كل الصرخات التى اختنقت بين الحبال أو ولاءات التطويق ... ليست لديه ثارات ولو أن كل ثلم وشظية فى الجسد الأرضى — جسده — هو جمجمة مدفونة قبل أوان الدفن — ذلكم هو الوقت المغربى . وهبه التجوال الدائم بالمداشر والأسواق وقمم الأطلس والريف رداء به يظهر فى وضح النهار فى شكل عتمه تنشر الرعب فى الأرض وفى الليل غيمة أشد سوادا من الليل نفسه . اسمه الدهشة ونعته الذهول .. تنتشر أحلامه مسافات ، كل مسافة هى دهشة ثم فرح مجنون مدمر .. لا يتراجع

خطوة . ولكن بعد الخطوة يقطعها تنبت شجرة ، تُسبل عينان ، يسرق ضوء ، يهوى وعيد ، تينع وردة . وردة الوقت المغربى . يقطع مائة خطوة ، مائة كيلومتر ، مائة قرن ، ثم يلتفت الى الناس بوجهه ، فلا يقدرون على النظر اليه . يحدق طويلا ويبصق : اتفو على تاريخ طويل وعقيم ، لا ينجب الا سلالة القحط .

هذه هي رواية فناء الأبجدية . ولن تنتهى الروايات الى أن يتوقف هذا الزمن الكسيح ، ولكن رواية فناء الأبدية هى اكثرها مصداقية . لو يخرج واحد ، واحد فقط ويجابه الراوى ولا ينطق باسم « الشعب » ، لا يُعَهرِّ هذا الاسم وله « الحرية » ان استطاع اليها سبيلا ، أو إن استطاع أن يجن بالاستشهاد .

ستظل الرواية منتظرة . أو لعل الراوى هو الرواية أيضا . ليست رواية الأحداث الملفقة ، وانما تلك التى تجعل التململ طبع الناس ، فيخرجون عن طاعة الغثيان ، ويركضون فوق الاستواء . وتمتد المدن . هنالك تنبثق اعلام ، ويكون « هو » بينها . ويكون الراوى وقتها قادرا ، ويقول : استرح ، كف عن التطواف . سيدوخ الراوى قبل ان يعرف بداية الخطو اليه . ولكن لا شيء يقطع سعى الشوق أو يبعد القلب عن هوى الشاوية . فهى بر وحرب وهى سر وسرب ثم هى سقيا وعطش ، عطش حارق . ولن يرتوى الراوى أبدا، فقد علمه « هو » أن بقاءه فى عطشه ، وان الارتواء نظير الاستواء ، وان السلالة لن تكف عن سف التراب وممارسة الجنون فى المواسم والاضرحة وفتل حبال الوهم مادامت مشدودة الى مولاهم .

يريد الراوى أن يحكى ولا يحكى . وحين تستبد به الحكاية ويحس بها تتمثل فى اعضائه يبدأ المونولوج الخارجى بصوت مهموس حينا والداخلى بصوت صاخب حينا آخر ، غير عابىء بتهم الحمق التى تتناسل فوق ثيابه . يكون هدفه أن يتخلص من هذا الشيء المدعو حكاية وخبراً وشوقا وعاطفة ومأساة وصراعا . فالقصة ليست للتصريف أو التوزيع أو استخلاص العبر . العبر الوحيدة التى تتخلص من هذا العالم هى انتحار شجاع لمن استطاع اليه سبيلا .

أما « هو » فليس يأبه لراوى الأسواق الذى يتحلق حوله الناس ويطلق لسانه برواية يعيشها الجميع ولا يفقهون منها شيئا . انه ينتحى مكانا يراقب الجمع ويبحث عن الفرد الذى لا يكون منحنيا أو مقوسا . ذلكم هو سيدى جلول ولْد خيره ، حامى الحمى فى برشيد وسطات وما جاورها من المدن والقرى المغتصبة ، وهو لا يملك للناس شيئا ، غير ان عاصمته هى مدشر « أولاد محمد » التى تتبع لها برشيد بأكملها . والتى يسير بها السيد الكبير ، صاحب طقس : الخروج والدخول . حين يخرج تنصب الخيام ويظهر الناس فرحة الأعياد ويتطيبون ويرتدون أثمن ما لديهم ويؤتى بالمغنيات الراقصات والخيالة ، ولا تتوقف طلقات البارود . وعند مروره لا يجرؤ احد

على النظر اليه . وانما الكل بين مسبح ومهلل وبين متقوس غرست عيناه أو انفه فى التراب ، فاذا كانت نفس السيد رائقة « تفضل » بقبول بعض الأراضى هدية من الواقفين الذى شرفهم باشراق طلعته البهية . ثم تقدم له أبكار الفتيات واشدهن حسنا ، فينتقى من كل جمع واحدة . فيا لسعد القبيلة التى تُنْتقى فتاتها ، فانها تعيش طول العمر فى أمان وتكون لها صولة ومقام .

اما الدخول الأكبر فلا أحد يعرفه سره ابدا . يكون السيد الكبير بالخارج ثم يصبح فى الداخل ، وتنغلق الأبواب وتقوم الأسوار والحيطان ويحجب الدارة الكبرى حجاب من ضباب أو أشعة باهرة . وينزل على الناس هلع عظيم فيدخلون بدورهم فى التسبيح والصلوات وبعد زمن لا يعد بالأيام والليالى يطلق النفير ، فينهمك الجميع فى الكنس والتشذيب وجز الصوف ويختلط الثغاء بالنباح بالصهيل بالركض ، وتحرث الأرض وتقلب ، كأنما هى القيامة . وليس لأحد علم بما يشغل السيد الكبير وراء الجدران ، حتى ولا سيدى جلول وِلْد خيره ذاته ، فذلك سر تنهدّ له الجبال غير ان الاعتكاف هو — ولا شك — تدبير من العلى القدير لصالح الدنيا والدين ، ورد المارقين ، آمين ، وسبحان ربك رب العزة ، وسلام على المرسلين ..

وسيدى جلول هو الوحيد الذى شاهد ما كان يجرى فى « أولاد امحمد » ، وقد دبغت الأرض جسده . تعرفه الطير والقطط ، ويغمز له النجم وتحتك به الأسوار ، ويطلق السيد الكبير وراءه من يتتبعون اخباره فيعودون كلهم اليه وليس معهم الا هذه العبارة : انه ينطق بكلمة يتيمة آسيدى وسيد أسيادى . يقول : « الوعد ، الوعد هو الوعد » .

كان سيدى جلول يعمل فى أرض السيد الكبير . يؤدى له فروض الطاعة والانحناء ولا يبدأ عملا أو ينهيه الا مسبحا باسمه ، راجيا بركاته ، داعيا له بدوام العز والسؤدد . فاذا رضى السيد جاءت عباراته من وراء الأسوار همهة تنخلع لها القلوب ، وتكون بمثابة البشرى ، اذ تخرج اكياس الحبوب من المطامير ، ويوزع الزيت والسكر ، ويعفى ذوو الحظ السعيد من الجلد فى ذلك اليوم . فالجَلْد طقس طبيعى لابد ان ينال منه كل من هم فى خدمة السيد الكبير .

كان الناس فى « اولاد أمحمد » يعملون الأيام والليالى فى الاقطاعات الواسعة ، وينامون ويتبرزون فى الأرض . ويأتى وقت الحصاد فلا يعود من الأرض الا عشرة وقد كانوا ألفا . ولا شفاعة فيمن مات ولا جزاء لمن فاز بالبقاء . اذ لابد من أن يجلد عن كل الأيام التى غابها فى عمله بالحقول . وحين يعود الناس الى رحاب الدارة الكبرى — دارة السيد — تستقبلهم النساء محملات بأطفال ليس لهم بهم علم ، فيفهمون ان هذه بركات السيد حلت عليهم فى غيابهم . وكان أمر « أولاد امحمد » عجيبا . كلما نُكّل بهم ومُزّقت اعراضُهم ونهبت ارزاقُهم ، ازدادوا مرحا وامتثالا . تغافل القائمون عنهم ذات مرة فلم يجلدوهم فتعالت الشكوى وذهبوا يطرقون باب

الدارة الكبرى شاكين للسيد الكبير هذا الاغفال للجلد الذى هو بركتهم الوحيدة . فخرج اليهم العسس واسبغوا عليهم نعمة الجلد ، ولم ينس أحد منهم من بعد ان يهب النعمة لمستحقيها .

جاء الراوى ومعه خديجة . جاءا من أقصى البلاد ، وأخذا يبحثان عن نفسيهما وعن أحوالهما وعما ملكت ايديهما وما لم تملك . فاشتم العسس رائحة قبلتهما ، وطوقوا الخيام أياما وليالى ، واقتطفوا بعض الابرياء ثم سيق اولادهم الى خدمة اقطاعات السيد واللهاث فى ركابه . وعشق الراوى وخديجة الأرض التى نزلا بها وسكناها ، وحاولا الهرب بنفسيهما آخذين الأرض معهما . انسلا تحت جنح الظلام فطوقتهما المدن والدواوير صائحة : لكل أرضه . ولكل أرض سيدها ، ولكل سيد عبيد ، وأنتم عبيده ، فعودوا اليه . غير ان العطش ظل باقيا وعشق الأرض ، وحلم ان يحيا الراوى وخديجة معا ، يضمها يوما فى العراء وتحت شمس تكون شمسهما ، ويأكلان خبزا بعيدا عن أعين الرقباء ، بعد ان تكون الديدان قد اكلت عيون اعدائهم . ويصبح الراوى هو الوله الرائع والزمن القادم والعرس ترقص فيه الأشجار والسنابل وتتفتح العيون بعد ان اغلقها السيد لزمن طويل .

قد راهن سيدى جلول ولد خيره على عُمْر اراد له أن يتشكل وأرض ان تتركب ، وكيمياء للزمن ان تتفاعل . وهو لا يعلم ان كان سيربح عمره أم سيضيعه ولكن شيئا ما قد شده الى « برشيد » فقرر ان يملأ الأرض بمخلوقات من عنده . وسيظل هكذا ذاهلا فى البلاد ، خرقة تكسو جلده ، يضرب فى الأرض ، ويوزع هموم الأرض على العالمين ، تصحبه جوقة من الشيخات صدىء عمرهن فى ترديد سير العشاق ورثائهم ، يجعلهن جيشه يغزو بهن البلاد . ولقد رأى الراوى سيدى جلول وهو يسير فى الموكب فرغب الراوى فى ان ينضم الى جمعة الخفى : فدفعه سيدى جلول عنه برفق ونصحه بالمكابدة ، وقال له : تمهل ، فدورك آت لا محالة .

حمدان ومصطفى وقاسم هم فورة الغضب فى قاعة الدرس والشارع وبيوت الأهل ، وحين يلتقون فى جلسات النقاش مع زملاء أو خصوم فان الغلبة لهم . قال مصطفى : هذه البلاد مزرعة للصوص والكذابين . وها نحن نطوى الليل والنهار وننتظر ! وقال قاسم : ماذا عسانا أن نفعل ؟ نحن نكتفى اليوم بالتحصيل ، وهذه الأفكار والنظريات ، ومصيرنا ان نأخذ الشهادة . واردف حمدان : طز ، طز ، وأخذ يبعثر كومة من الكتب والأوراق ويقذفها بقدميه . لأى شيء تصلح هذه الأوراق ؟ وصرخ : لابد أن نفعل شيئا ، أى شيء . ان يوضع حد للانهيار .

ولكنهم لم يفعلوا شيئا . لا شيء سوى شجب نظريات « الأساتذة الأقزام فى زمن الظلام » ، ونبش الكتب والأفكار ، وشرب النبيذ كأساً وراء كأس فى حان النصرانى ، ثم يتلو حمدان خاتمة السفر : لابد أن نفعل شيئا ، أى شيء . يا أى شيء اظهر !

وفجأة تقوم القيامة. لايقيمها هؤلاء المثقفون الثلاثة الغارقون فى النظريات والشراب ، بل التلاميذ والطلبة ، يتقدمون الهبَّة الكبرى . وقف الناس فى البداية يتفرجون ، غير مبالين ، ثم أخذ النور يبدو لهم . كيف لا يعنيهم الأمر ، وهذا مصير اولادهم يتعرض للخطر ؟ انضم الناس الى التلاميذ والطلاب ، وقال : حمدان لعل اللحظة الطويلة البعيدة التى طالما بحث عنها مع زميليه قد حانت .

انبثقت رؤوس مثل الورود مشتعلة ، وظهرت الأيدى محملة بأكداس الأوراق . وحين رأى « هو » (سيدى جلول ؟) حمدان سلمه حزمة كبيرة وانطلق . فهم حمدان على الفور واجبه وأخذ الأوراق الى الأحياء الخلفية ، يوزعها ويدعو اليها ، ويقرأها للعمال وماسحى الأحذية وأصحاب الدكاكين والورش ، وتحول حمدان الى طاقة مذهلة . أصبح ثلاثة وأربعة وعشرة من الرجال . وظل يركض جالبا أوراقا أخرى فأخرى . ويردد : « لتكن المدينة لنا . لتكن لنا » . وبدأ الزحف ، وعند الظهيرة صهرت سماء المدينة ، صهدت وجوهها وعروقها ، صهد شيبها وشبابها . انقسم الثوار مجموعات لكل منها مهمة محددة : نبش الأسفلت . هدم السقوف . حفر المتاريس . التظاهر والتظاهر والتظاهر . وسقطت الجثث ، وارتفعت الهراوات ونبحت سيارات الاسعاف ، ونشطت كعوب البنادق . وهتفت المجموعات كلها : تسقط المدينة . نحيا نحن . تحيا العصافير .

ثم بدأت المطاردة واعلن الحصار . واشتعل الجو برائحة الحريق . هذا هو المهرجان المؤجل . هذه هى القصيدة . هل نفخ فى الصور ؟ صاروا يلقون عليهم الأكياس ، وأخذ الفقهاء يصخبون بأصوات نائحة : « يا لطيف ، يا لطيف . نسألك اللطف فيما جرت به المقادير » . وابتلعت الأرض الناس ابتلاعا . جثث شرحت وثقبت والقى بها الى الذئاب . وأخرى لفت فى اكياس.واختنقت داخلها . طويت الأرض طيا ، وتفتت الأحياء الخلفية ، وانهال الضرب . الضرب . عرس كبير اقاموه اليوم قدمت فيه : شرائح من الأجساد المقددة . شطائر من أجساد التلاميذ الغضة . وصنعت خيام لمواسم القواد الفولكلورية من بذلات العمال الزرقاء . وصدر قرار بمنع البكاء ووجوب الضحك وشمول الفرح وارتفاع الغم وانقشاع الغيم .

اعتبر الثلاثة انفسهم غانمين حين خرجوا سالمين . لم يبق امامهم الا « الدروشة » ـــ أو الخمر . يختارون الشراب ، يصبون فيه يأسهم ويجرعونه مرة واحدة يجرعونه كل ليلة . يقول حمدان لنفسه : لحد الآن لم نتصاهر مع الطبقات التحتية ، ويستهوينا ان نخبط فوق التيار ، ونمعن غرقا فى سؤال الحيرة . كان التلاميذ مجموعة متضامنة ، وكان المثقفون فرقا مبعثرة فى حاجة الى تكتمل . ها هى ذى الدار البيضاء التى وضع لها فى ذهنه قاموسا من الرموز يبدأ من المنجل

والجرافة وينتهى الى النمل والبراغيث ، تكبر تحت عينيه وتنتفخ كتلة صماء من المطاط . وهو يريد ان يصطدم بهذه الكتلة . يريد الخروج من الدوامة للدخول فى الدوامة الجهنمية التى تغلى فى جوف هذه المدينة . « لابد أن نفعل شيئا . أى شيء » .

يقول الراوى : « أنا لا يهمنى بتاتا ان أسرد عليكم ما حدث ويحدث ، وليس فى نيتى أن اطوقكم بحبال التشويق والتسويق ، حتى تعترفوا لى بمهارة ما ، المهارات احترقت ، وابُتذلت ، ويمكنكم ان تجدوا بغيتكم عند بعض المتمرنين المحدثين الذين يكتبون بقلم كاميرائى ، ويجدون متعة خاصة فى سرد الوقائع وتلفيق الأحداث بطريقة ميكانيكية ليظهروا « واقعيين » جدا ، وليخفوا عجزهم عن عدم امتلاك كلمة حقيقية . عندى اختزال لذاكرة الزمن والتزامن . ولكل القهر الذى مضى ويمضى وسيأتى . وان لنا ان نعيش فى اشتعال خلف المواسم المقبلة .

غير أن أحمد المدينى يكتب هو الآخر بقلم كاميرائى ، الا أن الكاميرا هى فى يد فنان قادر ، لا تلتقط من الصورة الا الجوهر وتعطى الانطباع مشفوعا بوجهة النظر ، وتنسج التفاصيل فى كُل عضوى مترابط ، يصنع الصورة ويجعل منها عملا فنيا : لوحة ، تارة ، أو قصيدة تارة ، أو شعارات غاضبة تارة ، ترسم وتحرض فى آن .

خذ مثلا للصورة الكاميرائية الفنية : « المدينة اشكال هندسية ، علب متداخلة ، محطات لوقود / محطات القطار / مراكز البريد ــ نار ــ الشوارع / المتاريس / الأسوار ــ حفر ــ الخادمات / العاهرات القاصرات / عمال بلدية الأزبال / التلاميذ / الدرارى ــ صراخ حتى الأحشاء ــ عساكر / رجال الشرطة / آخرون كالجان / طلقات منتشرة ــ الاعصار ــ الساعة الخامسة ــ السادسة ــ الساعات الموالية لنشرة الأخبار ــ طق ، طق طق طق طق / وجوه شاحبة / ملامح مربدة / لا بأس فى السواعد / لا/ لا/ لا ثم آهٍ ــ حلق السادة من علٍ / هرب السادة الى عل / خرج العبيد من خوفهم / نبتت للمجزرة اعضاء فيلية وديناصورية وراحت تركض فى الشوارع وتترنح فى الساحات ــ ومن مكان وزمان ما جاءوا وسوف يجيئون تباعا حاملين رؤوسهم على اكفهم ، متداعين لحضرة الموت والشجر المحترق ــ تلك هى القصيدة » . التصوير هنا يأخذ شكل اللقطات السينمائية المتتابعة

ومثل الشعارات الغاضبة المحرضة :

مجموعة (١)

ــ ينبش اسفلت جميع الشوارع ، فهى ليست لنا .

ــ تهدم جميع السقوف والسياجات لنصبح جميعا فى العراء

ــ تفتح جميع البطون وتراقب جميع الأمعاء

ــ نحكم عليهم ان يشموا ، ولو مرة واحدة ، رائحة زبلنا وبرازنا .

مجموعة (٢)

ــ نحفر المتاريس حتى تظهر القسمة الحقيقية للمدينة .

ــ تبادل المراحيض بيننا وبينهم .

ــ نخضعهم لتمرينات فى مسح الأحذية والشحاذة ، والوقوف فى طوابير « التعاون الوطنى » لأخذ « المعاونة » .

مجموعة (٢٠)

ــ مظاهرة + مظاهرة + مظاهرة = جثث ــ دوى ــ غزير ــ هراوات ــ سيارات اسعاف ــ كعوب ــ بنادق = سقوط المدينة

المجموعات من ١ الى الآخر

ــ تسقط المدينة ــ الثيران ، البغال ، هم ، هم ، هم ، تسقط المدينة ، نحيا نحن ، تحيا العصافير

ويستخدم المدينى اسلوبا آخر للقص يعتمد على الصور المتتالية تنطلق سريعة قصيرة ، كأنما من مدفع رشاش . يصور التعذيب الذى تعرض له من حاولوا ايقاظ النيام : « اصطفاق ابواب ، صفع ، ركل ، بصاق ، رائحة جلد يشوى بأعقاب سجائر ، رفس فى ما تبقى من اللحوم ، ويعود الأنين المتقطع ، الليل والنهار بطولهما ، وكلما بدأ التدحرج تأكد ان هناك مدعوا آخر للتحقيق ... وكان من خطتهم التعذيب البطىء ، والتفنن فى الدعوة ثم التأجيل ، ولكن تأزف الساعة ، تبدأ الآلات عملها الجهنمى ، وتبسط الأجساد مثل موائد الشاوية ، ويتوالى النهش والالتهام : « من أين لك هذا الرأس ، والغابة التى تكسوها ؟ أين اخفيت الأحلام التى كنت ترويها صباح مساء بمقهى « الخضراء » بمرسى السلطان ؟ ومرة امتطيت غيمة وسافرت على متنها الى مكان نريد ان نعرفه . وتم تهمس للحروف المعتلة واسماء المدن والقرى المثبتة على الخارطة ؟ لماذا تكلم أعمدة الانارة ، تنام على جنبك الأيسر ، تتبول أربع مرات فى اليوم الواحد ، توقع بطريقة واضحة ، تحب بيتهوفن ، شيخات واد زم وجورج اورويل ؟ لماذا تكتب الجمل المعقوفة ، الغامضة ، المكورة ، تستعمل المجاز كثيرا وتتنابك الأحلام المزعجة دوما .. ثم انك .. وهو .. وهم .. كلكم تريدون ... ونحن ... »

ويبدأ المدينى تصويره فى مفتاح المعقول ، ثم لا يلبث خياله المجنح النابع من اللا وعى والمختزن على شكل عواطف أو صور فانتازية ان يغلب قلمه فيقول : « كنا نحس بهم يطلون من شاشات التليفزيون وازرار المذياع والكتب المدرسية ، ويذوبون مع قطع السكر فى فناجين القهوة ، ومع

المطر ينبتون فى حبات القمح . ويسترخون على هلال رمضان طيلة الشهر للامساك بالمفطرين ، وفى كل مناسبة دينية أو وطنية يتبعثرون فى الجمل الانشائية والخبرية المسجوعة والمسحولة ، وحينما يطل الجنين يتسللون الى حنجرته واحشائه من ثدى أمه . وقد حدث مرة أن هبت ريح باردة فى يوم حار ، وبلا توقع فشرع الناس يعطسون ، ومن أنوفهم يتقاذف سيل من الأشكال الهلامية فى حجم البشر والفئران والقرده والكسحالى والوطاويط والبلوط والبطيخ وصومعة حسّان وزاوية الشيخ، وكيت وكيت من الاسماء الحسنى التى يسبح بها العباد المتقون صباح مساء ابتغاء مرضاة الله .. خرجت هذه الأشكال كلها وبدأت تهرول فى غير قصد ، بدأت تلتف بالسيقان والأذرع والآذان ، وتصدر عنها أصوات غامضة ، توالى العطس ، وتكاثر القذف ، كانوا كلهم يسكنون الاحشاء ، وملفوفين بالأشرطة والميكروفونات وعدسات التصوير .

وتحول الواقعى القصير المدى الى فانتازى يحدث حتى على لسان من لايمتون للفتازيا بصلة ـــ العسس وزبانية التعذيب : « أين اخفيت الأحلام ؟ مرة امتطيت غيمة وسافرت على متنها ؟ تكلم أعمدة الانارة . تهمس للحروف المعتلة واسماء المدن والقرى » .

ويطل فن العبث فى اكثر من مناسبة فى هذه الرواية . النمل يتجمع ويتظاهر ويقود ثورة ثم ينسحب لقلة الاستجابة . فى يوم عيد لا يعرف السكان له مناسبة ، يجلب الناس الكراسى من المقاهى والبيوت ويزحمون بها الطرقات ويعيدون الينا مشهدا من مشاهد كراسى اينسكو . تتحرك الأشياء وتثور وتعلن انسلاخها عن جلدة الخنوع وطاعة ناس الشخير .

وحين يصور احمد المدينى احوال « أولاد امحمد » ، يستخدم الأسلوب الأوبرالى فى الخطاب يقول الراوى : اى اخديجة نحن جئنا من اقاصى البلاد .. فوجدنا انفسنا فى « اولاد امحمد » ويقول السيد الكبير : انا صاحب هذه الأرض ، حين وُجد العالم وجدت هنا .. الخ ويرد سكان الشاوية : « نحن سكان الشاوية .. نحتج صمتنا على الدعى والمدعو : « السيد الكبير » .. الخ . ويقول الراوى نيابة عن « هى » (خديجة) ستظل قائمة فى مكانها لا تريم ، تملأ ثغرة الرعب بين مهوى سحيق والدارة الكبرى ذات الأقفال المصورة بالغاز الغيلان » ويقول سيدى جلول وِلْد خيرة : « نعم انا هو فى مكانى حيث انتحيت من السوق ، سوق الاثنين الشهير ، فى هذه المنطقة مطلقا . واذ اكون هنا اوجد فى مكان وزمن آخر » .

وحين يكون الحديث عن جواب الآفاق ، عضو الحزب القادم من الجنوب ، وحين يمتد الحديث ليشمل الجهود التى بذلت لاقتلاع الراوى من جلساته المسائية فى بار النصرانى وادخاله خضم الكفاح المنظم ، تتفتح الصور ويذهب عنها كثير من الغموض . اذ ذاك يقول الراوى : « احسنى وكأنى أقرّب الجلد الى الجلد ليحتك ببعضه ، وادفع ظهرى قويا الى الجدار لأتأكد

اننى مستند اليه ، الآن ، فى هذه اللحظة ، واننا اذ نحلم فى هذه الغرفة بيوم آخر فالأمر حقيقة ، وهذه الوجوه حقيقية ، وكل الرؤوس المنخورة ، المدفوعة فى الفراغ وهم يكبر ليزول » .

بعد المواجهة الكبرى ، والهزيمة التى لم يكن منها مفر يقول الراوى : ولكننى اشم الرائحة ، ويستغرقنى طيف عمر . ولكننى اشم الرائحة ، وانطوى فى احضانه هو . ولكن سيدى جلول ولد خيرة لا يخلف وعده . لابد يجىء . ولكنها هى وردة الوقت المغربى ، السانحة ، المستعصية تضوع بالعطر وبالخبل .

وحين التقى سيدى جلول بالراوى فى آخر : « وردة للوقت المغربى » ، سأله الراوى : هل انهزمنا حقا ، أم أنه بدء المسير ؟ فقال جلول : كيف نهزم هكذا ؟ اذن فقد انتصروا علينا . قال الراوى : لابد أن أرحل . رد جلول : هل هزمك الأقزام ؟ قال الراوى : سأرحل وآخذ الأرض معى . ولم يجب عن سؤال ظل راقدا فى جوف جلول : « لمن ستتركنا نهزم فى هذه الغابة التى امتلأت بالوحوش والأقزام ، وقد بدأنا الطريق سوية ؟ ولكن الراوى لم يحدثه بالكثير الذى يعلم ، ويستطيع ، ويريد . كان النجم المؤتلق يناديه . وكان يريد ان يعود مع الطوفان الآتى . وسأل : كيف ؟ وكيف يعود لنا المغرب ، كيف ؟

ويبقى الحديث عن اللغة فى : « وردة للوقت المغربى » . لغة قيمة ، بعيدة الجذور فى لغة العرب ، تلتقط منها الأجزاء الحية ، وتصنع منها قذائف توجهها نحو الخصوم ، وتمسك بالأجزاء البالية النخرة ، فتهزأ بها وتعرى خواءها ، وتجلو لنا أى زيف تخبىء وراءها ، وأى قصد شرير يتوخاه اصحابها من طول الترديد .

لغة القص هنا عصرية وتراثية فى آن . فيها انفاس واضحة من خيال الف ليلة وغرائب الحكايات الشعبية ، وكليشيهات الخطب المنبرية . مثل لغة القص العصرى : « لا أفهم ان تتجمهورا فى الأرحام وتتظاهروا فى الأسرَّة ولا يصدر عنكم سوى فحيح رغبات جاهزة ، سلفا . لا توجد نبوءة واحدة قادرة على اختراق جلد السكون أو نار خبيئة تتآمر على أمن بلادتكم ، وتمس بالأمن الداخلى لأسِرَّتكم وللفحيح الذى يُصَدِّر استمناءات مجهضة فى شوارع وساحات تحمل اسماء اعظم عُهّار وجزارى عصرنا العربى » .

«.. لا تتحرك فى النفس أمام الحيطان والطرقات التى بانت متآكلة سوى رعشة حنين على الفة مفقودة ، ورجال غامضين ملفوفين فى جلاليب بيض وسود تعمر بهم البلدة وخاصة فى سوق الاثنين ، عشيتها يكون الجميع على موعد تاريخى مع قصعة الكسكسى والاخصاب المنوى الدافق لانجاب مزيد من التعساء وعديمى الهوية ، فيما يكون الدرارى يشقون الليل المدلج بسكاكين صراخهم ونزفهم . وقيل ، وقتها ، بأن الجنيات اللاتى يخرجن من الثقوب أو يصعدن

من المراحيض ، أو عند اهراق ماء ساخن ، يجئن من حائط كبريان حيث يعشش بخصر البلدة بشريقتات من نفسه ، ويتخذه « السيد الكبير » مادة احتياطية لاخصاب اقطاعاته » (لغة القص الشعبى وغرائبه) .

« قبل ان يرتد اليه طرفه صار ليلا وسار غيمة مثقلة بالكمد ، وللحظة انتبه نفر منا فتبعنا الغيمة ، نتوسل بركاتها ، والليل ان يستر عاهاتنا ، ثم اجتمعنا فى الأسواق والمناسبات الدينية والوطنية ، ورفعنا اكف الضراعة الى العلى القدير ان يديم علينا نعم القحط والعقم والليل الطويل وأن يحفظنا من كل غيمة مثقلة ، وبشر ذاهل عن الحمد والشكر والشكر للجراد والضفادع والصراصير » .

(الخطب المنبرية)

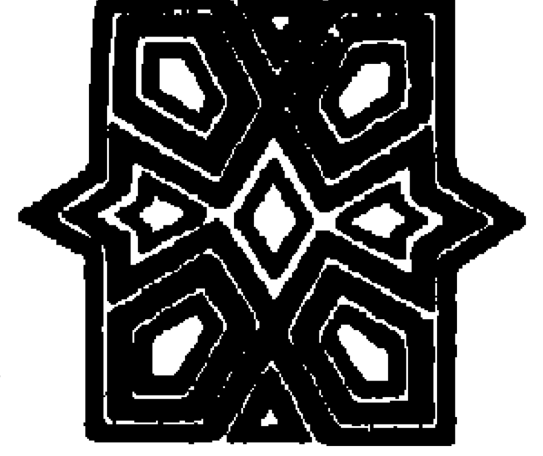
« الكتابة جسد » ــ يقول الراوى ــ « فككوه وفككوها .. وهل أفهم نفسى بعد كل الذى حدث فى اليوم الحاضر ــ من يستنطق الحكاية ؟! »

والتحليل الذى تقدم هو محاولة لاستنطاق الحكاية فى رواية احمد المدينى العذبة ، الحافلة بالشجن ، المتوقدة بنار الأمل فى أيام قادمة ، رغم وجع الهزيمة وقلة العون وشراسة الاعداء وفحشهم فى القول والعمل . وهى كما أراد لها المدينى بالضبط : تخترق تكنيك الرواية التقليدية ، وتفكك اجزاءها وتضع هذه الأجزاء على بساط فسيح ــ صغير لأنه مضغوط ومختزل . اذ ذاك تتجاور أو تتتابع الأشياء : الشعر . التهاويم ، الرؤى ، الواقع ، الخيال الممكن فى الاغراب ، نبش اغوار النفس واخراج ما فيها من اشياء ممسوخة ، أو مجروحة ، أو مكسورة ، أو مفتتة الى شظايا . ورغم هذا التفكك الظاهرى فثمة خط واحد يربط بينها ويمر عبر الخيال السيريالى والتعبيرى والانطباعى نحو ما هو قريب من الواقع . الثورات فى أول الرواية هلامية تهويمية ، وقادتها أفكار أو أمان أو أشياء أو بشر ولا بشر ، يوجدون فى مكان ومكان آخر فى آن واحد . ثم تبدأ الصورة تنجلى عن بشر يقومون بالكفاح : هم التلاميذ ومصطفى وزميلاه ، « والسى محمد » وغيرهم من اعضاء لجان الحزب .

وثورة المدينى على تقنية الرواية التقليدية ، تنجح وتؤتها ثمارها . ولولا الالحاح على مظاهر هذه الثورة ولولا التشدق ــ احيانا ــ بالعبارات وبالصور وبالشعر الذى يصل حد التزيد لأصبح هذا العمل مثالا طيبا من أمثلة الثورة فى عالم الرواية . ان قراءة الرواية عمل عسير حقا ، ولكنه يستأهل الجهد المبذول فيه ــ كتابة وقراءة .

الطيبون

مبارك ربيع



تقول « هنية » ، المدرسة ، صديقة قاسم ، بطل « الطيبون » — تقول وهى تصف التغير الذى طرأ على المعلمين والمعلمات فى مدرستها : « لا أدرى ما الذى حدث ؟ لقد بدا وكأن كل واحد منهم يطارد شيئا بمفرده ، وفى اتجاه مخالف لسواه » . ويذكرها قاسم بالحفلات الدورية الرائعة التى كانت تقام فى المدرسة على عهد اشتغاله بها ، وجو المرح .. وحفلات نهاية العام فتقول هنية : « كل ذلك تغير الآن .. أصبح كل واحد جزيرة منفصلة ، حتى ليصعب علىَّ فى كثير من الأحيان أن انظم اجتماعا يضم الكل » .

تلمس كلمات هنية الموضوع العام لرواية : « الطيبون » . الكل منفصل عن الآخر . الطرق متشعبة ، متباينة ، لا تلتقى أبدا . « كل فى زنزانته يبحث عن المفتاح » ، كما يقول اليوت فى بعض شعره . قاسم — بخاصة — شديد الحيرة . شاب جاد ، دءوب فى طلب العلم ، فقير ، يثقل عليه ماض فادح لم يحدد هو خطوطه وانما وقع عليه عبىء حمله . أبوه كان فقيها عارفا بالله ، ورجلا شريفا ، ووطنيا صادقا . رفض ان يخضع لحكم المستعمرين الفرنسيين الجائر بمصادرة أرضه ، فسجنه الزبانية وعذبوه ، ثم اطلقوا سراحه من بعد ، هيكلا متداعيا ما لبث ان ضمه الموت . وعمه الحاج على ، فلاح شرس شديد الطمع ، جار على اخيه من قبل ان يجور عليه الفرنسيون ، وقسم الأرض بينه وبين الأخ قسمة ظالمة . ولم يكتف الأخ بما ارتكب من جرم، بل هتك عرض زوجة أخيه بعد وفاة زوجها، وأورثها شعورا بالاثم. ملحاحاً، لاينقضى أمله ، كساها خبالا واضحاً ، جعلها تزعم ، وتلح فى الزعم ، ان ابنها ، ابراهيم ، الذى ولدته بعد وفاة زوجها بسنوات ، انما كان جنينا انجبته من الزوج وظل كامنا فى بطنها حتى ولد بعد وفاة والد قاسم .

وما كانت بقاسم رغبة فى تأثيم امه لما فعلت . بل كان يمضه ذلك العذاب المتصل التى تصبه على نفسها ، محاولة اثبات ان بهتانا واضحا هو الحق : ان قاسم واخاه ابراهيم اخوان تفصلهما فترة معقولة ، وليس عشر سنوات كما تقول التواريخ .

ولأن ام قاسم كانت تشعر بالذنب فى قرارة نفسها ، فقد انتقل هذا الشعور المرير الى ابنها ابراهيم . الذى نشأ منطويا ، متواريا عن الناس ، وعاش على هامش اسرته ، يضع همه فى الدرس ، يكتب الشعر ويخفيه عن الناس ، حتى عن اخيه ، كأنما ذاته وما يصدر عنها من حس وتعبير انما هى عورة من واجبه ان يداريها .

هذا عالم قاسم الخاص . مجرح ، مؤثم ، محكوم عليه بالخزى لغير ما ذنب اقترفه هو أو دائرته المقربة : أبوه وأمه وأخوه وهو نفسه . أما العالم خارج دائرة الأسرة ، وخارج ذات قاسم — فينبسط ويتعقد ويحمل فى طياته معميات كثيرة ، واسئلة بلا اجابات . وعدة قاسم فى مواجهة هذا العالم نفس معقدة وان بدت بسيطة لأول وهلة . هو — كما يصف نفسه — مريض بكبرياء فظيعة . يخيل اليه ان ما يصله عن طريق الغير يستعبده . وهو يريد أن يعطى ولا يأخذ . غير انه لا يملك شيئا يعطيه . وفى اعماقه — مع ذلك — انتهازى مختف . حين يعرض عليه « المنصورى » ، الاقطاعى الواسع الثراء ، الذى يكفّر عن سرقاته للمال العام — الأرض الطويلة العريضة التى كان ينبغى ان تكون ملكا لجموع الناس وليس لفرد واحد — حينما يكفر المنصورى عن جرمه هذا بالاحسان ، بمنح يهبها للمحتاجين من الطلبة وغيرهم ، ويدرج قاسم فى قائمة متلقى المنح ، ينكفىء هذا على يد « المحسن » الكبير محاولا تقبيلها بحركة عفوية ، ثم يصف شعوره من بعد لصديقته « هنية » بأن المنحة تجرحه وتورثه البؤس . وكان قبل ذلك بدقائق يقول لها انه يعجب لأنه لم يتخذ هذا الطريق من قبل ، الذى لم يكلفه الا خطوات قليلة ولحظات تعارف . وانه مدهوش لأن غيره يقعون على بعد خطوات من قصر المنصورى ولا يخطون هذه الخطوات ..

وفى عالم قاسم يقوم الصحفى غنام ، الانتهازى البارد الأعصاب ، الذى قنن وصوليته وعمل دائما وفق قوانيها : واتخذ لنفسه شعارا : مثلا انجليزيا يقول : « اجذب سنارتك فى الوقت المناسب » . يشعر قاسم بالتقزز لمرأى صديقه ، ويسوؤه منه اعتزاز بالنفس يصل حد الغرور . ومع ذلك فهو دائم الانشغال به . وهو يسائل نفسه فى امر هذا الانشغال ، فيصاب بالهلع حين يقوم امام عينيه احتمال ان يكون الاثنان مشتركين فى طبيعة واحدة ، غنام يبديها ، وقاسم يدفع بها الى الأعماق . ومع ذلك فهى كامنه هناك ، وقصارى ما يستطيع قاسم ان يواجهها به هو عزمه على أن يرفض دائما مظهر غنام ، انطبق على باطنه أم لم ينطبق ، وأن يعمل ضد طبيعته

الباطنية أيضا ان صح انها تماثل دخيله غنام . ولكن الانتهازى فى نفس قاسم يظل قائما بعد هذا الوعد . يعرض عليه غنام مشروعا مشبوها للاحسان ، يرعاه المنصورى وغيره من ركائز الظلم فى البلاد ، وتمتد له صلات خارج البلاد تربطه بجهات اجنبية تعادى الأمانى القومية للعرب ، فلا يرفض قاسم المشروع فى التو واللحظة ، وانما يقبع مترددا ترددا يدهش له هو نفسه ، وينتهى اجتماعه بغنام وقد وعد بأن يفكر فى المشروع ويتسلم أوراقا وصحفا أخرى قال له غنام انها تعينه على الفهم .

على ان عجز قاسم عن رفض الانتهاز جملة وتفصيلا مرده — أيضا — شعور عبر عنه اكثر من مرة بعدم قدرته على الحكم على الناس . وحيرته فى ان يتبين بوضوح اين يقع الخطأ ، وأين يقوم الصواب . فمن هو حتى يحكم على الناس فى هذا العالم المعقد المتشابك ؟ طالما كانت ترعبه قدرة القضاة على البت فى أمور الناس . كيف يتيسر لأحدهم ان يصل به اليقين والقوة على الجزم ؟ وبأية قوة لا يبدو كل حكم قابلا لنقيضه ؟

هذا العجز عن الجزم ينبع — بدوره — من عدم قدرة قاسم على الخروج من ذاته . تدعوه هنية الى الخروج من الذات وتشير الى أن هذا هو السبيل الوحيد كى يفهم العالم من حوله ، ويفهم نفسه أولا ، مادام يقول لها انه لم ينته بعد من مرحلة الكشف عن النفس .

ويشير الى العيب ذاته المناضل عزوز . يقول له : تبدو عالما مغلقا . انت متأمل يفكر فى ذاته وفيما حوله . غير ان هذا لا يكفى . لابد من الخروج الى دنيا العمل والممارسة . ويسمع قاسم هذا الرأى فيه فيوافق فى سريرته على انه انطوائى . فقد طالما حاسب نفسه وعجب لأنه لا يستطيع الخروج من أسر الذات . وعجب اكثر لأنه كان مقتنعاً بأن عمل عزوز وزملاءه فى المنظمة طريق ناجح لخدمة الغير وتجاوز الذات . ولكنه مع ذلك يقف متردداً ، عاجزاً عن الخروج .

وتعرض طرق شتى نفسها على قاسم . طريق معلمه السابق : « النورى » ، الذى كانت تلفه حيرة أشد وأقسى من حيرة تلميذه ، فحاول ان يصرف الحيرة بدراسة الحكمة واللغات والموسيقى والفن . واعتقد الجميع انه عبقرى سعيد ، لكن الخيبة كانت تهد كل ما يبنى . كلما أدرك شيئا بدت له تفاهته . ثار على العقل وما بناه العقل ، وتمرد على الكبار ، وود لو يحرق الكتب جميعا فما فيها الا كلام جميل يلهى المرء فترة ، فاذا ما عصفت به الدوامة لم تجده نفعا . لم يبق الا طريق التصوف ، يدعوه النورى اليه بعد أن يحضر احدى جلسات الشيخ .

ويحضر قاسم الجلسة ويرى ما يصدر من غرائب المجذوبين ، وشطحاتهم وسهرهم الى الساعات الأولى من الصباح شيبا ورجالا وأطفالا ، ثم تبعثرهم فى الشوارع وسيرهم مثنى وثلاث

فى سكر وعناق . ويسأل قاسم النورى . كيف يعود الأطفال فى غد الى مدارسهم بعد السهرات المستمرة ؟ فيرد النورى : تربية الروح أهم . انهم يسعدون فى صباهم بما لم نسعد به نحن ، ولا حتى الشيخ .

ولا يقنع قاسم بالجواب فيعود يسأل : هل توجه أولادك لمثل هذا ؟ كان يعلم ان النورى رجل تربية مطلع ، وانه يربى أولاده على أحسن وجه وأنه ادخلهم منذ الصغر مدارس أجنبية فهل يرد على السؤال بما يزيح عن قاسم حيرته ؟ يسود الصمت فترة ثم يقول النورى : التصديق يا قاسم ، لابد من التصديق — أى لابد من الغاء العقل . فتتفاقم حيرة قاسم .

وكان قاسم منذ البداية يرنو الى طريق آخر ، خيل اليه ان به خروجا من الحيرة ، ووعدا بالسعادة والاستقرار : طريق هنية . عرفها وأحبها ، وغابت عنه فترة ، فكتب يقول لها : « أى فراغ تركت ؟ هل تدرين ان الوجود بدونك هول مرعب ؟ والناس أخشاب على نوابض ، تنط بشكل مأسوى مضحك ؟ ليتنى اضحك ولو فى مرارة ... الليالى اشباح مفزعة ، والصمت مدفن عميق لخواطر الخير ... خطة الدراسة وطريق المستقبل كريه . الزمان صفحة كالحة يضيئها يومى الموعود معك كأمل كاذب فى خاطر محتضر ... ومحياك لو يطل فى هذا الخضم .. لو يرن وقع خطواتك على الأرض الموات .. » .

وجد قاسم فى غرامه بهنية أملا فى الخروج من المتاهة ، عن طريق الحل الفردى . لو تزوجا لانحلت مشكلتهما ولأصبح للوجود معنى . غير ان قاسم رومانسى بعيد الجذور .. يرى فى الحب حلا لكل المشاكل . وحين تكشف له الفتاة عن دخائلها ، وعن حياتها الخاصة ، يصاب بالذعر . لقد تزوجت هنية من صاحب مال وتاجر ثرى يدعى : المقدرى ، زعم انه انقذ ثروة ابيها من الضياع . وكان الأب قد اتهم بأنه — قبل الاستقلال — قد كان عميلا لقوى الاستعمار الفرنسى فأصبح ماله يواجه المصادرة ، فتقدم المقدرى وقال ان المال ماله ، ثم انقذ بنفوذه الأب من الاتهام . والآن تسنح للأب فرصة العودة الى الحياة من جديد ، فسيرتبط بالجانب « الاحسانى » من المشروع الكبير الذى يتولاه المنصورى والمقدرى وغنام وغيرهم . وهنية ترى فى هذا منعطفا جديدا . وفرصة لتذوب بعض مشاكلها .

ويثور قاسم ثورة عارمة . يسأل هنية : هل يستحق هؤلاء أن نضحى من اجلهم ؟ .. لم لا يضحون من أجلك ، ويقول الوالد ولو مرة فى الزمن : مالى وللثروة ان ضاعت سعادة ابنتى ، أو يقول الزوج ، قبل ان يقترن بك : مالى ولبريئة لن أسعدها ؟ .. لماذا تكون كبش الفداء ونتحمل اوزارهم ؟ عبثا نحاول بعث الحياة فى الرميم .. ووالدك ماذا يمكن ان يكون بعد الذى كان ؟ يد الحطاب لا تنبت . ومائدة الاحسان بعد ان تجمع الأموال من الف سبيل . وبعد أن

يصبح الاحسان تجارة ، والسلام وسيلة حرب ؟ الى متى نرتق الماضى ولا نتبين معالم المستقبل ؟ الى متى ؟ ؟ »

وظن قاسم بعد هذه الثورة العارمة ان هنية سوف تتريث قليلا ، مدافعة عن كبريائها ، ثم تخطو خطوة قوية نحو المستقبل ، بعد أن كشف لها زيف من حولها ، وعدم جدوى ما تقوم به تضحية فى سبيلهم . وأحس بأن القرب من هنية هو الراحة والترياق وهو الحل لكل المشاكل . غير ان الفتاة تدير محرك سيارتها بسرعة ، تاركة وراءها محفظة صغيرة تطل منها ورقة مطوية تحمل هذه الكلمات : ما جدوى أن اسميك عزيزى أو حبيبى ؟ ... معك اكتشفت عالما جديدا حلمت به فى يقظتى ومنامى ... عالم الصمت والحب والنغم . ولكنه ليس عالمى ... عالمى اعرفه بصقيعه ولا مبالاته ، ولا اعرفنى خارجة عنه . تلومنى ان ربطت مصيرى بمصير الهياكل النخرة ، برفات ورميم .. اننى انا رفات ورميم وهيكل نخر والشعلة التى فى اعماقك انطفأت عنى من زمن والى الأبد . تلومنى ، وأنا بدورى الومك ، لأنى فى اعماقى انتسب الى جيل مضى . الى زمن انقرض أو يجب ان ينقرض . لا تحاول مرة أخرى فلن تزيد الجروح الا نكأ . ولْتَدم شعلتك لهيبا يذكى اجيال المستقبل . وحسبى أنا ، انى بعد الضلال ، قد عثرت على حبى وعلى نفسى . وهاانذا اعود الى الضلال . كفانى ان برهة ما من الدهر عزفت لحن وجودى ، وتلك اعز ذكرى » .

تنكسر هنية وترجع على عقبيها ملتحقة بقوى الظلام . هذا الموقف الرومانسى — فهنية رومانسية هى الأخرى — مرده الى أن نظرتها الى نفسها والى من حولها نظرة فردية فى الأساس . تقول وهى تنصح قاسم بالخروج من ذاته ، انه لو خرج بالفعل لما تضايق من الغير ، بل لبدا له ان كلا منهم هو شبيهه ونظيره ، يستحق العطف ، والحب ، والمساعدة ، ولوجدهم فى حاجة الى من يكتشفهم ويتعاون معهم .

قاسم لا يستطيع ان يفصل الخير من الشر ، وهنية ترى الناس متشابهين كلهم ، خيّرين فى الأساس ، ينتظرون مجرد كلمة عطف حتى يظهر ما هو كامن فيهم من خير . لا جرم ان يؤدى هذا الموقف الساذج من الحياة والأحياء بالفتاة الى أن تفقد تمردها ، بعد ان كانت التمرد ذاته ، كما تصف نفسها لقاسم . تتعاون مع المجرمين من اهلها ومن التف حولهم ، زاعمة انها تنتسب فى واقع الأمر اليهم . ومع هذا ، فان هنية تحتج قبل هذا الانكسار أبلغ احتجاج على مصيرها الفاجع — اذ تُحمل حملاً على تقبل التضحية بنفسها من أجل انقاذ أسرتها ، وتتزوج من رجل تقتحمه العين ، عقيم لا ينجب ، وتتساءل فى الم : لماذا لم تكن أصغر البنات فى اسرتها حتى تفلت من هذا المصير ؟ لماذا يقدر عليها وحدها ان تتحمل الأثقال ؟ بل انها لتمضى فى الاحتجاج

حتى تعتبر كلمات مثل : « أسرة » و« تضحية » و« مجتمع » و« أخلاق » اغلالا يجب تحطيمها . ومع كل هذا الوعى وتلك الضراوة فى الاحتجاج فهى تنكسر ، وتصبح زهرة ذاوية ، ينتهى أمرها الى الرقاد فى مستشفى للطب النفسى بلا كبير أمل فى شفاء .

ما وقع فيه قاسم وهنية من خطأ هو موقف قتّال من الحياة والناس . فليس صحيحا ان الشر يمكن تجاوزه بالحل الفردى (قاسم) أو اقناعه بالكلمة الحلوة انه انما هو خير متنكر فى زى الشر (هنية) وعلى هذا الأساس تصنف رواية « الطيبون » على ان موضوعها الأساسى هو رومانسى فى طبيعته . غير ان الخلفية التى يتحرك أمامها البطلان هى واقعية صرف . ومبارك ربيع يخلق شخصيات واقعية قوية تنبض بالحياة ، على رأسها : العم على ، المومس ، المغتصب للأرض ولزوجة أخيه ، المتعاون مع الاستعمار الفرنسى على سرقة أرض الفلاحين ، يتوسل بكل وسيلة لتحقيق مآربه . كما يصور المنصورى ، الاقطاعى الواسع الثراء باحساناته المزيفة وحبات سبحته الأكثر زيفا ، الذى يشترك فى مشروع الاحسان التجارى مع المقدرى والصحفى غنام وغيرهما ، والذى يستهدف ربط البلاد بالنفوذ الأجنبى تحت شعارى : الاحسان والسلام .

كذلك يبرع مبارك ربيع فى رسم الشخوص الأقل أهمية فى الرواية — سليمان ، ابن على ، عم قاسم ، الذى جاء يزور ابن عمه ويدعوه ان يعاونه على ان تقسم الأرض فى القرية ، بين مالكيها الأصليين ، بعد أن قرر الحكم الوطنى ذلك . وسليمان يريد لقاسم ان يحادث المنصورى فى ذلك ، ويخفى وراء شعار الأرض بالتساوى ان لا أحد فى القرية يملك أرضا غير أسرته ، وان باقى الفلاحين اجراء معدمون .

يحدث مبارك ربيع مضاهاة فعالة بين قاسم المنقسم على ذاته ، المتردد ، الذى مازل لا يستطيع الحكم على الناس بالخير أو الشر ، وبين سليمان الذى يعرف طريقه تماما ، ويرى أن من طبائع الأشياء ان يملك وأسرته الأرض بكاملها ، وأن يصبح سائر الفلاحين خماسّين على اسرته .

قبيل نهاية الرواية تتضح الرؤية لقاسم . هناك أساس للفصل بين الناس هو المسئولية . فلنحدد أولاء ما ليس مسئولية ، وهو استغفال الغير والتحايل عليهم ومس كرامتهم . وحين يسأله الصحفى غنام : وفى حالة هنية ، من المسئول ؟ فيقول : انت ، وهى قبل أى شخص آخر . هنية لأنها قبلت أن تكون كبش فداء ، وغنام لأنه نسخة متكاملة من عدة نماذج من الناس : الزوج الغافل المتهافت على الثروة ، ورجل الأعمال ، والوالد المتهالك والوسط العفن الذى يمتص دماء جيل كامل بالدعوات الصالحات . وهو كذلك الذات المترددة المتقوقعة فى أعماق قاسم . والتى يحاول الانفلات منها .

يفقأ قاسم بالونة ذاته المتضخمة حينما يقرر أن يواجه أمه بالحقيقة . يقول بمحضر من

سليمان انها ولدت أخاه ابراهيم بعد ميلاده هو بعشر سنوات . وانها حملت بابراهيم بعد اغتصاب الحاج على ، شقيق زوجها لها . وأن ما تمضى فيه من محاولة تزييف التواريخ كى يقترب مولدا قاسم وابراهيم من الفاصل الزمنى الطبيعى أمر سخيف يورطها فى الاثم الذى لم تكن مسئولة عنه . ولما يقول سليمان : كلنا نعرف ، فلا تجرحها ، يرد قاسم : لا أجرحها ، بل افتح العيون وازيل العمش .

وبالطريقة الجراحية ذاتها يقتحم قاسم خصوصية اخيه ابراهيم ، الذى يكتب شعرا فى السر ، ويقرأ قاسم الشعر علنا ، ويعد بأن يعمل على نشره . وبهاتين العملتين الجراحيتين تفر الأشباح من بيت قاسم وأمه وأخيه وتجلس الأسرة سعيدة بعد هذا الكشف الصحى الجرىء .

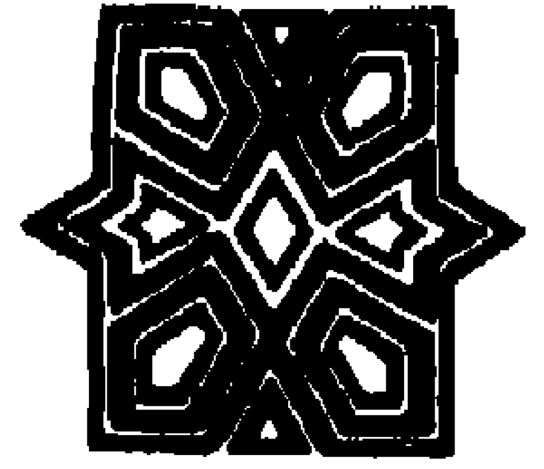
وتتراجع كافة الحلول المطروحة : حل الشراب حتى السكر البين الذى طرحه الوعدودى رفيقه فى الحان ، والذى يسكر لينسى انه هجر زوجته وبيته وتزوج من اخرى سرعان ما ادارت له ظهرها لما وجدت ان ليس فى حياته أضواء . وهنية التى تحولت الى ملف أصفر فى مصحة نفسية ، وغنام والعم وابنه سليمان ، وشبكة المنصورى ومحاضرات السلام ، وحلقات الوجد والتصديق التى يغشاها معلمه السابق النورى . كل هذا هباء لا يؤدى الى شىء .

لهذا يمزق قاسم الورقة التى تسجل حقه الشهرى فى منحة المنصورى ، ويسير فى الشوارع بين زحام الخلائق ، على الأرض المبتلة ، ويرى الرؤوس تتحرك على مدى البصر . الطريق طويل امامه ويحدق فيرى رأس عزوز وكتفيه فى الزحام الى جانب رأس الادريس . ويدافع قاسم فى الزحام ليتحقق من ذلك الى يرى . ويقترب من الاثنين ، غير انه يضيع فى الزحام من جديد ، تحاصره أصوات المتسولين ونداءات الباعة : الرخا لله ياعباد الله .. المليح ياللى بغا يربح .. !

لقد تحرر قاسم من أشباح الماضى جميعا، ولكن رؤى المستقبل تضيع منه فيتوه فى الزحام دون أن يقبل على الحل الوحيد الذى اعترف بجدواه ، وعجز عن تبنيه : العمل المنظم من أجل خير الناس .

دهاليز الحبس القديم

لحمداني حميد



فقد بطل « دهاليز الحبس القديم » كثيرا منذ حداثته . فقد أمه ، وأحس مرارة باقية حين فقدها . كانت الانسان الوحيد الذى أظهر له الحب ، ولكنها ماتت وتركته . ماتت بعد أن نهش السل صدرها والزمها فراشا لم تغادره الا الى القبر .

ولم يظهر له أبوه أى ود . كان الولد يتبع أباه كالخروف وهو يقرأ القرآن بصوت مسموع . وكان رجال الحى يلتقون بالأب فى الطريق فينتحون جانبا ويقولون : « اصلحه الله » . وأصر الأب على أن يحمل الولد « الطريقة » مثله ، وأن يظهر على وجهه نور الله . وأن يقوم الفجر ويصلى التراويح ، ولا يهمل الفرائض . وأن يعرف ما حلل الله وما حرم من النساء . لم يستطع الولد أن ينهج نهج أبيه فغضب الأب ، وابدى الولد رغبته فى ترك البيت فصفعه الأب ودفعه الى الخارج وقال : اذهب بلا عودة .

وكان الأب قد اقتنى زوجة جديدة . فى مثل سن الابن وحين جعل الابن يضحك معها غضب الأب وانتهر ابنه . وذات مرة رأى الابن أباه يغازل بنتا اخرى فسأل أباه : هل حلل الله ما تفعل الآن أمامى ؟ فانتفض الأب من مجلسه ساخطا ، وصاح : إخرج يا مغضوب عليه . انت مطرود من رحمتى الى الأبد .

كان وحش التساؤل قد أخذ يتحرك فى روح الولد . لم يعد يردد الألفاظ كالببغاء وانما راح يتفحص الناس والأشياء . أصبح عقله كالابرة الحادة يخترق الضباب وحجب الليل . سأل استاذه ذات يوم : لماذا يحج الناس الى بيت الله الحرام ؟ رد الأستاذ : ليجمعوا كلمة الاسلام . قال الولد : وهل كلمة الاسلام غير مجموعة ؟ فسبّه الأستاذ وبصق فى وجهه وقال : اخرج يا فاسق . فخرج الولد وهو لا يدرى السبب .

ومن بعد ، وقف الولد وقد أصبح شابا أمام المحقق ، متهما — زوراً — بأنه كان يتعاطى الخمر فى الطريق العام . سأله المحقق : من يكون ، وأين يكون ومتى كان ؟ رد الشاب : طردت من سبع سنوات . نعم وكان لى دفاتر ، وقلم حبر لا يطاوعنى . كان القلم يرفض ان يكتب كما يراد منه . يرفض بكل عناد واصرار . وانتهى التحقيق وادخل الشاب السجن محكوما عليه بشهر .

لم يكن وهو صبى يفهم شيئا فى السياسة ، أو يظهر اى اهتمام بها . غير أن صديقا له اسمه العمرى قال له ذات مرة : أبى فى حزب الأحرار . وكانت صورة الحزب غامضة فى ذهن الولد ومرتبطة بذكريات طفولية . كان ينحشر مع الأطفال ويجرى وراء سيارة الدعاية الحزبية ويلتقط الأوراق البيضاء . وكان بعض الرجال يخطبون ويدعون الأطفال لترديد النداءات والشعارات : « يحيا الداودى . انتخبوا الداودى ، ممثل حزب الأحرار . العدالة والاشتراكية مطلبنا » . أو : « يحيا الماحى . انتخبوا الماحى . ممثل حزب الانعتاق : المساواة والديموقراطية مطلبنا » . وسأله ابوه ذات يوم : مع أى الحزبين هو ؟ اجاب : مع حزب الأحرار . قال الأب : لماذا ؟ أجاب الولد : اركبونا سيارة وطافوا بنا الأحياء . فشد الأب ابنه من اذنه وقال : خسئت . ابتعد عن هؤلاء جميعا ، والا « طبخت » رجليك بالعصا . ومن يومها أصبح الولد يخاف حزب الأحرار .

ولكن العمرى ، صديقه ، ظل يناقشه . قال له ان الحزب يعمل لتوفير الخبز للجميع . وكان الولد يعجب لهذا القول ، فلم يكن رأى أحدا يموت جوعا . قال العمرى : المقصود هو تحقيق العدالة والحرية . وطال النقاش بين الولدين دون نهاية . قال له العمرى ذات يوم : انت خال من الروح الوطنية . انت أنانى . لم يفهم الولد معنى الاتهام وانما أدرك ان هذه كلمات عنيفة ، فجرحت نفسه كثيرا ، وغضب ، وشتم صاحبه وبصق فى وجهه وفر ، وحدثت بين الاثنين قطيعة .

وكبر الولد وصار شابا والتحق بالتعليم العالى . وتعرف الى زميلة له فى الدرس اسمها البتول . واشترك الاثنان فى مظاهرة سياسية عارمة : كان الهتاف يبح الحناجر ، والزغاريد تنطلق من النوافذ وأبواب المنازل ، والمشتركون بالمظاهرة يهتفون بالشعارات . وكانت البتول الى جوار الفتى . كانا يدرسان فى فصل واحد ، فتحابا ولما اشتد الحماس حمل الفتى زميلته على كتفه كى يعلو نداؤها . اختلط التلاميذ بالباعة بالعاطلين . حتى العاطلون كانوا ينادون : « لغتنا العربية لغة قومية » تحول شارع الغزالى الى موكب رهيب ، سار متوغلا عبر ازقة المدينة الضيقة . وكانت سيارة الأمن حاضرة ، وبعد لحظة ، وتحت وابل من الحجارة ، اختفى كل شيء . كانت البتول تهتف : « تقدموا ، تقدموا » ، صائحة بكل قواها . وسارت الجموع زاحفة حتى اصطدمت

بسور من الحديد ، فلم يعد فى وسع أحد أن يتقدم . أخذ الفتى فتاته من يدها ، وجرها رغما عنها ، وانتهرها فبكت . رأى فى عينها قوة عظيمة . ولكنهما كان مضطرين للانسحاب . الكل كان ينجو بنفسه .

وانفصل كل من الفتى والبتول، وتفرقت بهما السبل. الفتى أصبح يجوب الشوارع، عاطلا، جائعا . عمل حمالا للأثقال فى احدى محطات الناقلات وعرف الملابس الرثة ، وانحنى ليلتقط اعقاب السجائر ، يدخنها حتى تحرق جلده . وعندما خرج من السجن بعد شهر فى صحبة المجرمين والخارجين على القانون ، وجد عند باب الخروج الفتاة زهرة التى كان قد لقيها فى سيارة الشرطة المتجهة بحمولتها البشرية الى المخفر . كانت الفتاة قد ضمدت جراحه وواسته بعد أن ضربه احد المقبوض عليهم . واليوم جاءت زهرة تعرض عليه ان يترك حياة الفقر والتشرد ، وأن يتهيأ ليدخل معها الجنة . قالت له وهى تسحبه الى دهاليز الحبس القديم : سترى الأنوار وتنسى جوعك الى الأبد .

عندما تبين الفتى ان دهاليز الحبس القديم هى ماخور كبير ، تشرف عليه امرأة طاغية الشخصية واسعة النفوذ ، وانها تستقبل فيه الناس من كل صنف ، من بينهم شخصيات كبيرة ، واخرى متنفذة ، ركبه هم ثقيل . ايقن انه قد اقتيد الى مصيدة لا خروج له منها من بعد . قال وهو يناجى اباه عن بعد : الذنب ذنبك يا أبى العزيز . قد ساهمت فى ضياعى تحت سطح الواقع ، ووراء الأسوار ، حينما قذفت بى الخارج . وقال يناجى استاذه : لعنة الله عليك يا أستاذى ، سواء كنت السبب فى شقائى أو لم تكن ، فإنك كنت تمثل دورا حقيقيا حينما اعلنت انى فاسق ومجرم » . واتجهت أفكاره الى البتول . قال لها : وانت يا البتول ؟ اننى لاأزال أشعر بفخذيك الساخنتين تنحدران على عنقى فتحرقانه ، وانت تنادين بالشعارات . اية ريح حملتك بعيدا وذهبت بك حيث لا أعلم ؟

وكان يناجى نفسه أيضا . يحللها ويحدد موقفها منه ومن الناس . « فى ذاتى شخصان مسعوران . احدهما يريد ان يلتهم الآخر . وأنا ، اذن ، من أنا ؟ قد أكون مثل وريقة ربيعية بترتها ريح عاتية ، أو كقشة تائهة فى اللا شىء . كل ما هناك اننى اعيش ، وافكر دوما بغير ارادتى واحلم وأضاجع زهرة كأننى اضاجع الموت ، الأضواء والحركة والألوان تذكرنى دوما بأن علىّ ان أقوم بشىء : أن أزحزح اقدامى الثقيلة الى الأمام . شىء ما يدفعنى الى الخلف « السفالة والنذالة صفتان متأصلتان فى ذاتى منذ الأزل » .

غير أن تمرده وسخطه على المجتمع القديم يعتورهما شك واضح : « لست ادرى لماذا لم يخطر ببالى أن أرجع الى أبى ، استغفره ، واركع بين قدميه ، اقبل بلغته الصفراء ، وأبكى على

صدره ؟ » ووراء هذا الشك حنين واضح للمجتمع القديم المستقر : « كان الأجداد يعيشون فى عالمهم القديم الملىء بالعفاريت والأشباح ، ولكنه كان رغم المخاوف والمتاعب ، عالما هادئا لا يدمر فيه الانسان ذاته بهذا الشكل المخيف ؟

ما الذى حدث اذن ، وكيف تحول الفتى من ساخط وثائر الى قواد فى المملكة السفلى ؟ هل يكفى فى تفسير هذا أنه الفقر والجوع الشديدان ؟ هل يوضحه القول الذى تردده زهرة ويردده معها الفتى من بعد : « العالم قائم على صرح من الخطيئة ؟ يميل الفتى الى ادانة نفسه فى اكثر من موضع . يقول : « قلها بصوت عال . أخبر جميع أهل المدينة بأنك لم تنحدر الى نفق أرضى الا لأنك كنت نشازا فوق سطح الأرض » . فهل هذا صحيح . هل صحيح ان السفالة والنذالة صفتان متأصلتان فى نفسه ؟

ليس هذا صحيحا على الاطلاق ، فان الثورة التى قامت فى نفسه منذ أن كان طفلا ونمت ونضجت وهو شاب ظلت تلازمه فى الأعماق ، حتى وهو فى ماخور العجوز ذات العينين المقلوبتين . انما تردى الثائر فأصبح قوادا ، لأن الخير فى نفسه كان هشا . وهو كذلك هش فى الرواية كلها ، التى تعرض الشر قويا ، قادرا ، دائم الانتصار ، وتبدى الخير واهنا ، قابلا للسقوط ، بل ومجرحا أيضا حتى فى غير الفتى ممن يتصدون للثورة وتغيير الأوضاع ، مثل المعطى ، الذى تأتى الاشارة اليه لاحقا . والدليل على ان الفتى (واسمه محمد) ليس فريدا فى سقوطه ، ان غيره من الشخصيات تتردى بسهولة ، لدى أول ضربة . زميلته الثائرة « البتول » التى احبته يوما ، صاحبت من بعده السياسى المناضل « المعطى » . طلبت اليه ان يتزوجها ، فقال لها أريد أن أنام معك . رفضت البنت وقالت : ليكن ذلك بعد الزواج . وذات يوم جاء المعطى ليزور البتول فلم يجدها . كانت الأم وحدها بالمنزل ، فألحت عليه الأم فى الانتظار ، وعرضته لاغراء شديد ، ولم يفطن الاثنان الا والبتول تدخل عليهما فتجدهما فى فراش واحد . حاولت الفتاة الانتحار بالقاء نفسها من السطح فلم تنجح ، وجربت ان ترمى نفسها أمام السيارات فأدركوها ، ثم غابت عن الوعى بعد ضربة تلقتها ولما افاقت وجدت نفسها مربوطة الى سرير فى مستشفى . قالوا لها : ستزورك أمك . فقالت : ان زارتنى فسأقتل نفسى أو اقتلها . ومنذ ذلك اليوم دخلت البتول عالما آخر : وجدها الفتى محمد بين عاهرات دهاليز الحبس القديم !

« وغيته » ، الفتاة التى سحبها محمد الى الدهاليز ، كجزء من مهمته الكريهة ، لها أيضا قصتها . ابوها كان يعمل فى مصانع الأسمنت بالأجر اليومى ، عمل فيه حتى تعفنت رئتاه ومات ، فلم تحصل زوجته على مليم واحد تعويضا عن موته واضطرت الى العمل فى الأفراح .

وأحبت غيته شابا كان يدرس معها . قال لها اتزوجك ، فرأى الفرحة فى عينيها . ووهبته نفسها ولكنه هجرها بعد يومين . وحين وجدها تتبعه قال لها : املك تشطح فى الأعراس وأنا ابن الأشراف . بكت الأم طويلا حين عرفت الأمر ، ورفضت البنت أن تتكلم الا فى المركز . قالت للشرطة كل شىء ولما ذكرت اسم الجانى قالوا للأم : خذى ابنتك الى جوارك . وجرت الأم ابنتها من شعرها وصرخت فى وجهها : اما أن تأتى معى الى الأعراس أو تذهبى عنى الى الأبد . وبكت الفتاة طويلا عند قدميها ، فتركتها الأم تدرس .

يلقى محمد هذه المسكينة وهى تبحث عن قوتها فى صحبة الرجال . ضاقت امها ذرعا بها وبدراستها وصرخت : ابوك كان شقيا سىء الحظ فساء حظى معه . لم افرح فى حياتى ليلة واحدة . انت يا ملعونة ، لم يبق لك الا أن تكملى ما بدأ . كم ارجوك ان تلحقى به واستريح ... فليأكلكم دود الأرض . انت وابوك والمحروق ، ياسافلة . اتبعى الكلب الذى لعقك يا كلبة . اتبعيه واريحينى من وجهك ، وجه الشقاء .

وزهرة ، الفتاة التى قادت محمد الى الدهاليز . كان أبوها مقاوما ، ضعد الجبال وسرى بالليل ، وجندل الفرنسيين بالعشرات . وذات ليلة حُمل ابوها الى أمها جريحا ، كتفه اليمنى مثقوبة وعظامه مختلطة وهو بعد غارق فى الدم . بعد ألم ليال ثلاث مات وهو يوصى الأم بما تحمل منه فى بطنها . وخرجت زهرة الى الحياة ، فكانت أمها ترسلها الى المقدم ، ليقرأ لها رسائل أخيها القادمة من الغرب . كان المقدم يغمر كفها بالحلوى والنقود ، ويقبلها فى فمها ، ويحك سرتها ويقول : آه يا شيطانه . كم انت فاتنة ! لابد أن أمك تشبهك . بلغيها سلامى وقولى لها ان المقدم يحترق . فتنزوى الأم فى ركن من البيت وتبكى . وكبرت البنت ، وفهمت كل شىء . اخوها انقطعت أخباره وانقطع ما كان يرسل من مال . وأمها قابعة فى البيت ، السبحة فى يدها ، تكفر عن خطاياها . ومن ثم عرفت زهرة طريق الشوارع .

الشر مستطير فى البلاد كلها . لا ينال أهل المدن وحدهم ، بل يمتد حتى الى البادية ، حيث الفتاة « غنيمة » تطعم جسدها للزوار ، بمعرفة تامة من ابويها ، وتتحرق شوقا الى النزوح الى المدينة : الشر الصريح الواضح ، والشر المتلفع بمظهر الخير كلاهما مستشر فى البلاد . « من كل زاوية تطل الذئاب مرتدية لباساً من الأخلاق . الجلابيب البيض والصديريات ذات الأزرار المصففة ، من اعناقهم تتدلى سبحات غليظة ، تشتمنى وتبصق فى وجهى شراراً اتلظى بشواظه . بعض أصحاب الجلابيب يبدون فيها كالثعالب . يخرجون من الجوامع بعد صلاة العشاء ، وهم يدمدمون بصوت مرتفع ، ويتمايلون فى مشيتهم ، تحيطهم هالة من الهيبة والوقار . وبعضهم ينسل الى بيوت واطئة ، يشربون ويزنون » . العجوز ذات العيون المقلوبة ، صاحبة

الماخور ، الفاسقة السكيرة ، مدمنة المخدر تنوى أن تحج الى بيت الله الحرام .

حتى « المعطى » ، الذى تجعله الرواية بطل التحرر السياسى ، وتسند اليه دورا نشيطا فى مقاومة الطغيان ، تملؤه الخطيئة من كل ناحية . عرف البتول واساء اليها اساءة بالغة لم يكتف بالتغرير بها بل ضاجع أمها أيضا . وذهب الى ماخور العجوز وتشاجر لأنهم انكروا عليه البنت التى طلب أن يضاجعها . قال للفتى محمد فى تبرير مسلكه انه ليس متزوجا ، وكل واحد مجبر على ارضاء حاجته الملحة . هذا جزء من الضيق الذى تعيشه هذه المدينة المشتعلة . الزيف فيها افسد مشاعر الحب . يخاف المعطى ان يتزوج لأن بنات اليوم يعشن حالة من الجنون . يتعاطين المخدرات . يسكرن . يدخن . والحب الشريف لم يعد موجودا . وهذه حياة لا تحتمل . ان المضايقات تمتد حتى الى بيوت الزنا !

والنفاق فى هذا التبرير الذى يتقدم به المعطى لتفسير سلوكه أوضح من أن يحتاج الى بيان . قوله ان بنات اليوم فاسقات ، مردود عليه بأنه هو نفسه يسهم اسهاما كبيرا فى تشجيع وتمويل هذا الفسق . وغريب أن يصدر هذا القول السطحى من مشتغل بالسياسة يعرف ان الأفراد لا ينحرفون حبا فى الانحراف ، وانما هو الفقر والقهر وقلة الحيلة ، خاصة لدى النساء . وقد تقدم وصف ما دفع ببنات ثلاث الى امتهان الدعارة . وأشجع من هذا القول المنافق ما تقدم به ذو الوجه المخطط ، المجرم الذى لقيه محمد فى السجن ، وكان محكوما عليه بالسجن عشرين عاما لأنه سرق ، وقتل واغتصب . يقول محمد وهو يحاور المجرم : هذا غير معقول ! فيرد المجرم : اللا معقول هو أن لا أفعل ما فعلت . يريد أن المجتمع بأسره يحرض على الجريمة ويدفع اليها .

الواقع اننا انما نقبل — على مضض — شخصية المعطى فى دور المحرر السياسى . واختيار لحمدانى حميد له رمزا للقيادة التحررية ينال بدرجة ملحوظة من مصداقية الرواية فى هذه الناحية بالذات . خاصة وأن الكاتب قد اختار أيضا أن يجعل الثائرين الآخرين يتورطان فى الخطيئة بشكل يسىء اليهما . محمد ينحدر فيصبح قوادا ، والبتول تترك قيادة المظاهرات الى الدعارة . وقد تقدم ما التمست من عذر لسلوك هاتين الشخصتين من اعذار ، غير ان الكاتب كان بوسعه ان يختار لهما سقوطا آخر أقل مساءة . اما وهو لم يفعل . فإننا نجد معسكر « الثورة » متورطا فى الخطيئة بشكل محزن . لا ينقذ شرف هذا المعسكر الا الصبى العمرى ، الذى اتهموه فى الكتاب أنه رأس البلاء ، والذى صفعه المراقب صفعة قوية دفعته الى الارتطام بالحائط مرات متتابعة والدم يفور من رأسه . وواضح انه كان يحاول ان يقوم بلون من ألوان العمل السياسى فى الكتاب . كان منظره مفزعا أخرس الأولاد كلهم . وكان هؤلاء قد انتهزوا فرصة غياب استاذهم فعقدوا درسا خاصا تليت فيه آيات من القرآن ذات مغزى فى هذا السياق : « اذا زلزلت الأرض

زلزالها ، واخرجت الأرض اثقالها » . واعتقد الأولاد ان العمرى سوف يموت ، ولكنه لم يمت وعاد فى اليوم التالى معصوب الرأس . ومن ثم أخذ الفتى محمد يتعرف عن طريقه الى العمل السياسى والى حزب الاحرار .

مثل العمرى فى الصلابة الشاب الذى سلم محمد بطاقة عضوية الحزب ، وقاده الى الاشتراك فى عملية التهييج السياسى فى البادية . قال له الشاب ان الشمس تستطيع ان تدخل الأنفاق يوما ما . انها حتمية تاريخية . وعمل الشاب فى نشاط واصرار على تثوير العمال حتى قبض عليه هو ومحمد وصدر بحقهما الحكم بالسجن سبع سنوات . وفى السجن كان الشاب متماسكا وكان محمد منهارا ، يشعر بانسحاق داخلى عظيم ، يضرب كلتا يديه فى الحيطان ويهذى ، ويهلوس ، فيغتاظ الشاب ، ويأخذه من صدره ، ويهزه فى عنف اعصار عنيف ، فيبكى محمد على صدره كطفل صغير ، وتهدأ نار الغيظ فيه .

وتنتهى الرواية ومحمد مسترخ على سرير القش ينظر من خلال القضبان الى السماء الزرقاء . كان قد تزوج غنيمة ، فتاة البادية التى تقدم ذكرها ، وانجب منها ولدا ، وأصبحت الأم وابنها رمز المستقبل فى نظر محمد . نظر السجين فتمثلت له صورة الميناء ، وانسحبت الغيوم ، وانزاح الضباب . وبدأ قرص الشمس يبرز فى بطء شديد . ولكن بزوغه كان أكيدا . لم يتمالك محمد نفسه ، وتولدت الفرحة فى اعماقه تولدها فى طفل صغير ، وأخذت علائم بسمة تتفتح براعمها على شفتيه .

« دهاليز الحبس القديم » رواية عن الخير والشر — اساسا — ثم عن التحرر السياسى بعد ذلك . ومن بين ما تقوله عن الخير والشر ان الشر قد يبدو مغلفا بالخير ، وأن الخير قد يبدو شرا فى مظهره . ومن بين ما تقوله أيضا أن المجتمع يدمغ الشر — بسوء تنظيمه — الى أن يصبح ضرورة يتعامل معها البعض فيعاقب مرتين . نأخذ مثلا حالة بائعة الهوى عبلة التى كرهها أهل الحى كله فيما عدا الشباب واليافعين . كانت تقدم لهم المسرة ، وتنشر بينهم الضحك والهذر والبهجة . وكان الشيوخ يلعنونها ، وكان الحى يتقبلها مكرها . وذات صباح وجدت عبلة معلقة على شجرة بالقرب من كوخها . فرح الشيوخ لمقتلها وتحدثت عنها النساء بقسوة . ولم يحزن لموتها الا الشباب واليافعون . يجعل المجتمع الدعارة ضرورة ، فتقبل عليها من قلت حيلتها من النساء ، فتلحقها المعرة ويتلقاها الموت : العقاب المزدوج الذى سلفت الاشارة اليه .

وفى الوقت ذاته تفلت من العقاب العاهرات ذوات النفوذ والمال والصلات مثل العجوز صاحبة الدهاليز . هذه لا يلحقها أى اذى ، بل تتعاون معها فئات بذاتها من المجتمع ذات روابط وثيقة بالشر الاجتماعى والخلقى معا . وفى هذا المضمار تنجح الرواية فى ابراز الصلة بين

الدهليز والحاج صاحب المصانع ، الذى يستغل عمالة ويعتصرهم عملا ومالا ، ثم يأخذ بعض هذا المال لينفقه على ملذاته فى الماخور . يتحالف الحاج مع العجوز الداعرة ويتآمران على قتل المعطى فى جريمة بارعة التخطيط والتنفيذ : لقد اساء المعطى للبتول ، وها هى ذى تستغل اداة لتنفيذ جريمة القتل ، فيتخلص الحاج من مثير كبير « للشغب » ، وترد صاحبة الماخور على ما اعتبرته اهانة وتحديا لمقامها ، صدر من المعطى وهو يحتج على سوء معاملته ، وتشفى البتول غليلها بقتل من اساء اليها . جريمة سياسية واجتماعية تتخفى وراء مظهر الجريمة العاطفية الشخصية .

ان « دهاليز الحبس القديم » بفضل ما فيها من تعاطف بالانسان وقضاياه ورغم ما فيها من نواقص سلفت الاشارة اليها ، هى — آخر الأمر — مرثية مؤثرة للانسان فى حاضره ، وتوق شديد الى مستقبل له يكون أكثر موعده من حاضره ، وتمسك فاضل بأحسن ما فى الماضى من قيم خيرة باقية ، لعل الأم والجدة خير من يمثلها فى هذا المضمار .

المحتويات



.... ١ / الرواية في المشرق العربي ...

الرواية في مصر

الرواية في فلسطين و الآردن

(فلسطين)

(الأردن)

الرواية فى سوريا و لبنان

(سوريا)

(لبنان)



.... ٢ / الرواية في العراق و دول الخليج ....

الرواية في العراق

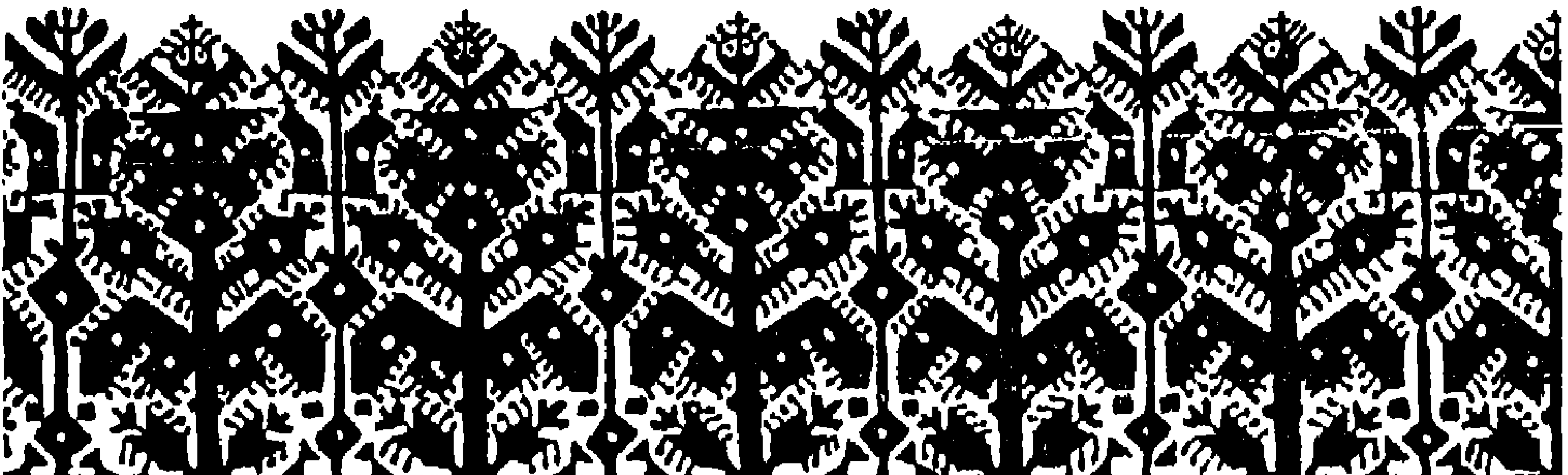
الرواية في السعودية

الرواية في الكويت

الرواية في الجزائر

الرواية في المغرب





كتب أخرى للمؤلف

- مسرح برنارد شو .... — وزارة الثقافة . القاهرة ١٩٦٣
- دراسات فى الرواية المصرية . — وزارة الثقافة. القاهرة ١٩٦٤
- الكوميديا المرتجلة فى المسرح المصرى . — كتاب الهلال. القاهرة ١٩٦٨
- توفيق الحكيم : فنان الفرجة وفنان الفكر . — كتاب الهلال . القاهرة ١٩٦٩
- فنون الكوميديا من خيال الظل الى نجيب الريحانى . — كتاب الهلال. القاهرة ١٩٧١
- مسرح الدم والدموع . مطبوعات الجديد . — وزارة الثقافة. القاهرة ١٩٧٣
- المسرح فى الوطن العربى . عالم المعرفة . — الكويت ١٩٨٠
- شخصية المحتال فى المقامة والرواية والمسرحية . — كتاب الهلال. القاهرة ١٩٨٥



دار المستقبل العربى



الصقر العربى للإبداع

يريد هذا الكتاب أن يُعَرِّف العرب بالعرب ! . يريد أن يسهم فى تحطيم الحاجز غير المنظور الذى يمنع أجزاء الوطن العربى من أن تعود الى الالتحام .

يسعى الكتاب الى أن يحس المواطن العربى - أينما وجد - بأن الآلام والآمال التى يقرأ عنها فى بلد عربى اخر ، هى الامه واماله هو أيضا ، لأنها كذلك بالفعل ! .

ويهدف الكتاب الى أن يقدم صورة بانورامية للإبداع الروائى ، فى أرض العرب جميعا ، من المحيط إلى الخليج . فرغم التمزق الحالى ، لايزال ممكنا لهذه الصورة ان تُرسم ، لان مئات من الروائيين العرب ، قد انكبوا مذ زمن - أكثر من نصف قرن على الأقل - على توفير أجزائها . واليوم هى جاهزة للتجميع والعرض فى كل عواصم العالم .

ويبتغى الكتاب كذلك أن تصبح الكتابة النقدية بهيجة وممتعة ، مثلما أن الكتابة الابداعية هى كذلك . ليس هذا هدفا مفروضا ، نائيا عن طبيعة النقد الأدبى ، فان هذا النقد - فى أحسن صوره - يَقْرب كثيراً من الإبداع . إنه حالة تواصل وانسجام ونبض مشترك يقوم بين الكاتب والناقد عِبْر العمل الفنى .

ومن ثم ترسم فصول الكتاب صورا فنية للعمل ، تتأتى بعد تحليل أجزائه وإعادة تركيبها وفق منظور الناقد الخاص بحيث يُعْرض العمل الفنى فى ثناياه الأحكام النقدية ، صريحة أو متضمنة .

ان الرواية العربية الآن هى أهم قنوات الابداع العربى ، وأكثرها حسًا بهموم الناس ، وأجدرها أن تجمع من حولها حشوداً من القراء يجدون فيها بحق : الديوان الجديد للعرب !

د . على الراعي